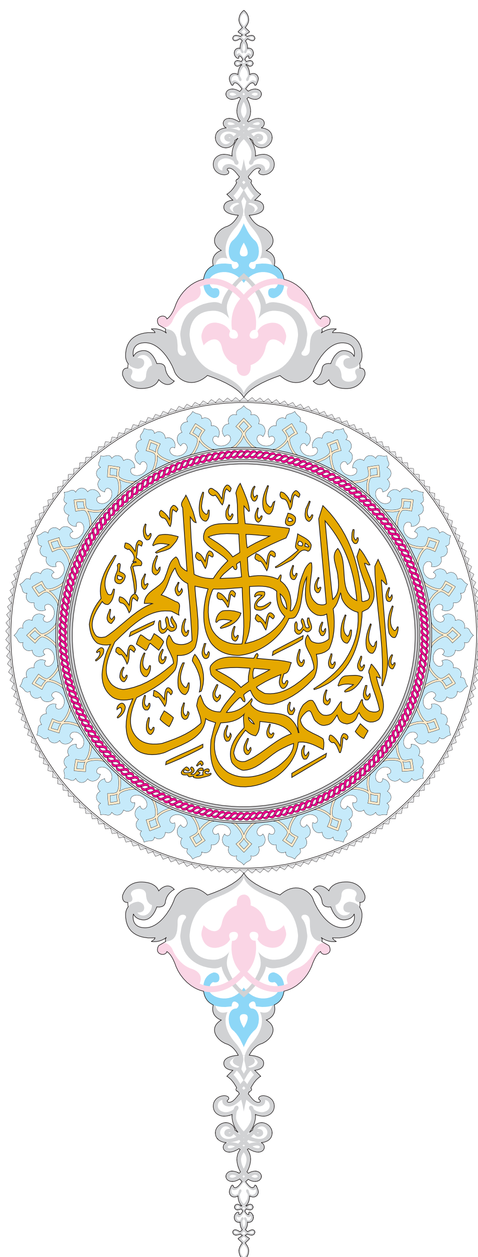
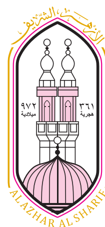




١٩


بسم الله الرحمن الرحيم





مجلة الأزهر

مجلة شهرية جامعة

تصدر عن مشيخة الأزهر في أول كل شهر عربي

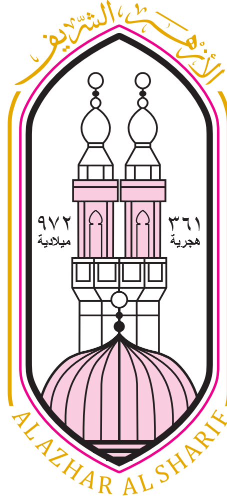
١٩

المجلد التاسع عشر

السنة ١٣٦٧هـ

سقيفة الصفا العلمية

الأزهر الشريف



مشيخة الأزهر الشريف
تليفون : 25899823 / 25907497
فاكس : 25903974 / المحمول : 01114242123
www. azhar. eg

١٤٤٥هـ ـ ٢٠٢٣م

سقيفة الصفا العلمية
SAQIFAT AL-SAFA TRUST
لبوان ـ ماليزيا
www.saqifat-alsafa.org
E-mail : info@saqifat-alsafa.org

بسم الله الرحمن الرحيم

فاتحة السنة التاسعة عشرة لمجلة الأزهر

الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ، وتنال الدرجات ، وتذلل العقبات . والصلاة والسلام على محمد رسول الحق الى العالمين ، وعلى آله وصحبه وتابعيه إلى يوم الدين ، صلاة وسلاما دائمين أبد الآبدين .

وبعد ، فإننا نقدم لقراء مجلة الأزهر العدد الأول من سنتها التاسعة عشرة ، شاكرين لله على ما أسدانا من معونته ، وسدد خطواتنا فى خدمة دينه ونشر حكمته ، راجين أن يوالينا هذا التوفيق فى عملنا ، لنبلغ به إلى أسمى ما قدر له من كمال ، وأشرف ما نتوجه إليه من مآل .

ولا معدى لنا فى هذا المقام من الإشادة بذكر ما يحوطنا به حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق الأول من ضروب التشجيع ، وما يتولانا به من الرعاية والتأييد ، أعز الله به هذا الدين ، كما أعزه بسميه العظيم ، مؤسس الامبراطورية الاسلامية عمر بن الخطاب ، ومد الله فى عمره المبارك حتى يرى ثمرات جهوده دانية القطوف ، ونتائج توجيهاته الاصلاحية مضرب الأمثال ، ومحققه للشرق جميع الآمال .

وقد وافق أول السنة الهجرية الجديدة (١٣٦٧) يوم جمعة ، فاتجهت الرغبة السنية لتأدية فريضة الجمعة بالجامع الازهر ، فاحتشد فيه حضرات العلماء الأعلام وكبار رجال القصر والوزراء والوجهاء ، وبعد أداء الصلاة نهض حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير الشيخ عبد الرحمن حسن وكيل الجامع الأزهر ، فألقى كلمة بليغة فى تاريخ الهجرة النبوية ، ألم بجميع ما جرياتها فى عبارة مختارة ، وبيان قيم ، وقعت من السامعين أرفع موقع ، وتعالت الهتافات بحياة حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق الأول ، فزادت الاحتفال جلالا .

وسننشر الخطابة الجليلة لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير وك
الأزهر فى العدد المقبل من هذه المجلة إفادة لقرا ... لاد ال



الرسالة الملكية السامية

فى عيد الهجرة النبوية

تفضل حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم فوجه الرسالة الملكية السامية الآتية الى الشعب المصرى وإلى الشعوب العربية والإسلامية بمناسبة عيد رأس السنة الهجرية . وقد أذيعت هذه الرسالة السامية فى الساعة التاسعة والنصف من صباح العام الجديد ثم أعيدت إذاعتها فى المساء مرتين وهذا نصها :

شعبى العزيز :

فى هذه الذكرى العزيزة ، ذكرى الهجرة النبوية الكريمة ، أبعث إلى شعبى المحبوب ، وإلى الشعوب العربية الإسلامية فى مشارق الأرض ومغاربها ، بأصدق التهنئة ، راجيا لهم جميعا عزا ونصرا ، وسؤددا ومجدا .

وأحيي فى هذا اليوم المبارك ، يوم إشراق العزة النبوية ، ونشر مبادئ السلام والانسانية ، فلسطين الباسلة ، التى أجمعت الشعوب العربية على استخلاص حقوقها ، وكفالة العزة والحرية لأفرادها .

شعبى العزيز :

إن فى الحوادث بعض التجارب القاسية التى تمر بالأمم ، وبلادنا تمر الآن ة ألمة ، فقد أصـ - مصر العزيزة بوباء لا يرحم .

وإنى أشارك شعبى فيما أصابه من بأساء ، وما نزل به من ضراء ، وأسأل الله أن يلطف به ، فيما جرى به قضاؤه .

لقد قضى هذا الوباء على كثيرين ، وإن قلبى ليفيض بالحزن على هؤلاء المنكوبين ، وأعزى أسرهم وأهليهم فيهم ، وأهيب بالموسرين منا أن يذكروا آلام الفقراء والمعوزين ، وحاجات الضعفاء والمحتاجين ، وينفقوا مما يحبون حتى ينالوا بر الله وثوابه ، وإحسانه ورضوانه .

وإنى لأتوجه بفيض من الشكر وعرفان الجميل ، إلى الدول العربية الشقيقة ، وإلى جميع الشعوب والحكومات التى آزرتنا فى محنتنا .

ومصر ، وهى ترقب فى أمل وطيد ، ورجاء أكيد ، قرب انتصارها على هذا العدو ، ستذكر بالحمد أثر هذه المساعدات فى نجاتها من هذه الكارثة .

شعبى العزيز :

تعود ذكرى الهجرة النبوية ، وفى عودها تنبيه وتذكير . ومن الحق علينا أن نعتبر بها ، ونقتدى بسيرة صاحبها ، التى تملأ النفوس إيماناً بعظمة الرسول ورسالته ، وتحفزها الى الاهتداء بهديه وسنته .

والشعوب العربية أحوج ما يكونون الى العبرة والموعظة الحسنة بهذه الذكرى ، فيما يجاهدون له ، ويناضلون فى سبيله من استقلال ، وعزة وحرية .

أعاده الله علينا وعلى العالم أجمع ، عام خير ، وبركة ، واطمئنان وسلام .

والسلام عليكم ورحمة الله ؟

العيد الأكبر والحج الأكبر

لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الجليل
الشيخ محمود أبو العيون
سكرتير عام الأزهر

إن لله عز وجل مواسم وأعيادا تُفَتَّح فيها أبواب الخير والبركة للمسلمين في الدين والدنيا ، وتنصرف فيها النفوس وقتا من غواشي الدنيا وأعراضها ، لخير الإنسانية ، والعمل الصالح للبشرية .

وإن من أكبر مواسم السنة كلها ، وأعلاها شأنا ، وأجلها مكانة ، وأسماها منزلة ، عيد الأضحى المبارك ؛ فهو عيد الأعياد ، وموسم المواسم ؛ فيه تتجه القلوب إلى الله سبحانه وتعالى ، ويتقرب إليه الخيّرون من عباده بأعمال الخير والبر ، وتسخو الأيدي الشحيحة بالعطاء والجود ؛ فيه تنحر الذبائح ، ويهشم الثريد ، ويطعم القريب والبعيد ؛ فهو يوم التضحية والفداء .

ويقترن بهذا الموسم موسم آخر ، هو يوم الحج الأكبر إلى البيت العتيق ، وهو أول بيت وضع للناس بمكة المكرمة ؛ فيه آيات بينات مقام إبراهيم ؛ ولم يعرف التاريخ ، ولم تهبط الأديان بعقيدة ، أو عبادة من العبادات ، فيها جماع الخير والسعادة للناس كعقيدة الحج إلى البيت الحرام .

وكانت لقريش سنن صالحة امتازوا بها عن العرب جميعا ؛ منها إقامة مناسك الحج ، يحجون إلى البيت ، ويطوفون حوله ، وينحرون الذبائح في مشاهده .

وقد أسلمت قريش لعبد مناف أحد أجداد النبي سيادتها وقيادتها ، ووفادتها (١) ورفادتها (٢) ، وقام بالأمر بعده ولده هاشم ، وكان اسمه «عمرا» فسمته قريش هاشما ، لأنه هشم الثريد ، وأطعم الشعب فى المجاعة حين اشتد القحط بمكة .

عمرو العلا هشم الثريد لقومه ورجال مكة مسنتون عجاف

وهو أول من آلف قريشا رحلة الشتاء إلى اليمن، ورحلة الصيف إلى الشام ؛ ومات بمدينة غزة من أرض فلسطين .

فالحج عبادة مقدسة فى الجاهلية والاسلام ، وشأنه فى الاسلام جسيم وعظيم ؛ فالحجيج فى الاسلام يتجردون من مظاهر الدنيا ، ومألوف عاداتهم ؛ فهم يكونون فى حالة الإحرام عاطلين من كل حلية ، مجردين من كل لباس إلا ما يستر أجسادهم من غير مخيط ؛ وءوسهم عارية ، خشيتهم من الله ظاهرة وبادية ، مهللين مكبرين ملبين : «لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك ، لا شريك لك » . هنالك وفى تلك المشاهد المقدسة يؤدون شعائر الله ؛ وهنالك تتصل أرواحهم الصافية بالملأ الأعلى ، فلا رفث ولا فسوق ولا جدال فى الحج ؛ وهنالك يجتمع المسلمون أبيضهم وأحمرهم ، ملكهم وسوقيهم ، فقيرهم وغنيهم ، فى صعيد واحد ، متجهين إلى قبلة واحدة ، ضارعين إلى إله واحد فى خشوع واطمئنان ؛ وهنالك يجتمع عشرات الآلاف من المسلمين حول البيت وفى عرفات مهبط التجليات والرحمات ، متعارفين متواصلين ، متوادين متراحمين ، يضمهم الاسلام ، وتجمعهم عقيدة التوحيد ، والتصديق بالرسول : لا إله إلا الله محمد رسول الله .

والسر الذى يهدف اليه الاسلام فى اجتماع المسلمين من أصقاع الأرض وأقطارها فى صعيد واحد ، إنما هو التعارف فيما بينهم ، وتوثيق الصلات والروابط بين عصبياتهم ، وتبادل الآراء فيما يختلف من شئونهم وأعمالهم .

---

(١) الوفادة : نزول الوفود بمكة ، ولا ينزلون إلا فى ضيافة عبد مناف .

(٢) الرفادة : إطعام الحجيج .

فالاسلام فى ذلك الاجتماع الذى هو أشبه بمؤتمر عام ، يشهد فيه المسلمون منافعهم ، ويذكرون اسم الله ، يقصد الى غرض نبيل شريف ، هو إيجاد عصبية إسلامية قوية ، متجانسة الآراء والأغراض ، متماثلة المقاصد والأفهام والآمال ، عاملة على تقوية الشعوبية القومية الاسلامية ؛ وكل شعب عضو فى تلك الجماعة إذا ضيم هب الكل لنصرته ، والأخذ بـترَّته ؛ وفى ذلك يكون المسلمون كما قال المعصوم — عليه الصلاة والسلام — كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر .

كذلك كان المسلمون من قبل فى حجهم واعتمارهم ، وكذلك كانوا فى غير حجهم وفى غير اعتمارهم ؛ كان ينزل القحط فى الحجاز ، فتسارع مصر الى نجدة إخوانهم فى الحجاز ؛ وكان يقع الضيم على المسلمين فى العراق ، فيهب المسلمون فى الشام الى نجدة إخوانهم فى العراق ؛ فهل تبدل الحال وتغير ؟ نعم قد صار المسلمون فى أقطار الأرض بددا ، وتفرقوا فيما بينهم أيدى سبا ، لا تجمعهم جامعة ، ولا تربطهم رابطة ، ولا تضمهم وحدة :

المسلمون — فدتك نفسى — أمة ملئوا بطاح الخافقين عديدا
لـكنهم جار الزمان عليهمو أوَ ما تراهم أعظما وجلودا !

كل ذلك قد وقع ، وبذلك تمزقت الرقعة الاسلامية ، ووهنت قوة المسلمين ، فانطفأت شعلة العرفان والنور فى الربوع الاسلامية ، وأخمدت جذوة الحرارة والغيرة الدينية فى الأقوام ، وانحرف ظل الحضارة الذى كان يظل ربع المسكونة يتمتع فيه المسلمون وغير المسلمين بجمال الدين والدنيا ، والحياة المطمئنة فى رواق الأمن والسلام . زال كل ذلك واندثر ، وعفت آثاره ، ودرست معالمه ، وأصبح تاريخا يقرؤه الناس للعظة والاعتبار .

ولـكن هل آن الأوان لأن يستشعر المسلمون هذا الخذلان والانحلال ؟ هل آن الأوان لأن يصحو الرجل المريض ، وأن يدرك الحرية ، ويبصر النور ، وأن يفهم وصايا الدين ويعمل بها ، وأن يعلم أن الاستنامة للانحلال والضعف والفرقة والجهل ، خسران فى الدنيا ، وعذاب مقيم فى الآخرة ؟ !

نعم قد آن الأوان لأن يفهم المسلمون ذلك ؛ فما انتهت الحرب العالمية حتى تنبه الوعي القومي فيهم ، وتيقظ الضمير الحي الاسلامي في نفوسهم ، كأنما هم قد أفاقوا من حلم مروّع ، وتنفّسوا الصُّعَداء من جرّاء ماقاسوا في غضونها من هياج الخواطر ، وارتقاب المخاطر ، وتوتر الأعصاب ، وارتباك الأحوال . ولقد نجم عن ذلك الشعور الوجداني الأليم الذي طاف برءوسهم فصدعها ، أن اجتمع ملوك العرب وأقيالهم في بلودان وإنشاص وقصر الزعفران ، ووضعوا الميثاق والعهد على أن يعملوا بجنان قوى ، وأنف حمى ، وعزمة ماضية ، وأيد عاملة ناصبة ، على استرداد هيبة العروبة ، وجلالة الشرق ، وعلى إقامة حضارة جديدة للشرق العربي تتناسق مع عناصر الحياة النابضة في العالم المتحضر ، وعلى أن يستمروا في تلمس الخير بين طيات الشرور القائمة بين الشرق والغرب .

إن الجامعة العربية التي أوجدتها ظروف قاسية مريرة سوف تعمل على إعادة المجد المضيَّع للشرق العربي ، من محاربة الجهل ، وأسباب الضعف ، ومن تنشيط العقل وتوجيهه إلى الابتكار ، وتثقيفه بكل نافع من العلم والأدب والسياسة والاجتماع ، والسير الحثيث في معارج التقدم والنجاح ، بوضع منهاج اقتصادي يشمل كل حاجات البلاد العربية وما جاورها من الأمم المناصرة لها ، وما شد من أزرها من الأمم الدانية والقاصية .

ونحن إذ ندرك مساس الحاجة إلى الاتحاد والتكتل في هذه الظروف المضطربة ، فإننا نتفاءل الخير كله من بَنِيَّة الجامعة العربية ، فستكون جبهة قوية كالبناء المرصوص ، وكتلة متحدة لا يعرف التفريق إليها سبيلا .

إن التكافل الملحوظ الآن بين ملوك العرب وأقيالهم أمر طبيعي ، وتطور محمود ، من ناحية التقدم الديموقراطي ، بل هو حاجز منيع دون الشيوعية الهدامة ؟

القصص فى القرآن

القرآن خاتمة الكتب الإلهية ، نزل به الروح الأمين ، على قلب محمد خاتم المرسلين ، هداية للعالمين .

ولما كانت هذه الهداية تشمل الناحيتين المادية والأدبية ، وتقتضى توفية الحاجتين الروحية والعلمية ، نزل القرآن مشتملا عليهما معا ، وجاءت فيه تلك الهداية على نوعيها متماشية مع تطور الافهام والعقول ، ومسايرة لترقى الآداب والعلوم ، لكيلا يجىء زمان يتناقض فيه العلم والوحى ، ويضطر الناس معه لترك هداية القرآن والتعويل على هداية العلم ، ويكون فى ذلك دليل ضمنى على قصور الكتاب ، ينتهى الى تكذيب علنى بسماويته ، احتاط لذلك الآمر القرآن ، وانفرد دون سائر الكتب بهذا الاحتياط ، على اعتبار أنه خاتمة الكتب الالهية ، ليبقى على الدهر نبراس هداية لأهله مهما بلغوا من درجات الالمعية ، والى أى حد وصلوا من الفتوحات العلمية ، والانتقالات المادية والأدبية .

ونحن قبل أن نصل الى موضوعنا نبين وجوه هذا الاحتياط التى جُعلت لتكون حوافظ للعلماء والمتعلمين أن يتدهوروا فى مزالق الفلسفة والعلم ، إبقاءً عليهم من التورط فى هذه الفتنة .

من تلك الحوافظ قوله تعالى : « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » ردا على سؤال بعضهم عن ماهية الروح . والمراد من هذه الآية أن يتحقق الانسان أن ما وصل اليه من العلم لا يوصله الى إدراك ماهية الروح ، وأنه يجب عليه أن لا يتعجل فى الحكم حتى لا يقع فى الخطأ .

ومنها قوله تعا[...] ريكم آياتى فلا تستعجلون » وقوله تعالى : « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ، أو لم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد » إيذانا منه عز وجل بأنه مذخور للانسان علم عال يتبين له به أن هذا القرآن حق .

ومنها قوله تعالى : « وفوق كل ذى علم عليم » ، وفيه ردع للمستبدين بآرائهم ، ليطأمنوا من كبريائهم ، ويحدوا من مزاعمهم ، ويعدوا أنفسهم لتلقى نقد الناقدين ، وتقويم العارفين .

ومنها قوله تعالى : « قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين » ، وهو إعلان صريح بأن كل قو[...]ب أن يكون لصاحبه على صوابه دليل ، وأن كل من

يُلقى اليه هذا القول يجب أن يطالب بهذا الدليل ، وإلا رُد عليه ما يقول .

ومنها قوله تعالى : « وما لهم بذلك من علم ، إن هم إلا يظنون » وفى آية أخرى « وإن الظن لايغنى من الحق شيئا » ، وفيه تصريح بأن كل مُدْلٍ برأى يجب أن يعتمد فيه على العلم ، وإلا عد قوله ظنا وإنَ الظن لايغنى من الحق شيئا .

وهذا كله مؤدى الدستور العلمى الذى وضعه العلامة (بيكون) الانجليزى بعد نزول القرآن بألف سنة ، وخلد به اسمه فى التاريخ .

ومنها قوله تعالى : « هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وآخر متشابهات ، فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، وما يعلم تأويله الا الله ، والراسخون فى العلم يقولون آمنا به ، كل من عند ربنا ، وما يذكر إلا أولو الألباب » ، وهذا نص صريح على أن فى الكتاب الكريم آيات متشابهة ، أى يدق إدراكها ، وتتخالف العقول فى فهمها ، وتضل فى تحقيقها ، وُشْنِع ذلك بنهى المؤمنين عن الاشتغال بتلك الآيات ، ونعَى على الذين يتتبعونها قصدهم إثارة الفتنة أو تأويلها ، وما يعلم تأويلها إلا الله ؛ ويكتفى المتمكنون من العلم بأن يقولوا : آمنا به ، محكمه ومتشابهه ، كليهما من عند ربنا ، وما يدرى ماينطوى عليه هذا الموقف من الحكمة إلا أصحاب العقول .

المتأمل فى هذه الحوافظ القرآنية يجد أنها جد معقولة ، فان فى الكتب السماوية ،غير ماتأمر الناس به أو تنهاهم عنه ،من الآداب الكريمة ، أو الصفات الذميمة ، أمورا أخرى تتعلق بماوراء الطبيعة يجب أن يؤمن بها الناس استكمالا لحاجات أرواحهم ، وفيها إشارات لذوى البصائر النيرة لا يدركها على حقيقتها سواهم ؛ولو اشتغل بالبحث فيها جمهور الناس ، وقعوا فيما وقعت فيه الأمم السالفة من التجسيد والتشبيه ، ودب اليهم الخلاف فيها فأصبحوا شيعا لا تجمعهم جامعة.

وفى القرآن الكريم أيضا ، على اعتبار أنه خاتم الكتب السماوية ، أخبار عن الأمم التى سلفت ، وعن الرسل الذين أرسلوا إليهم ، وعن الآيات التى عززوا بها مواقفهم لديهم ، وفى كثير من هذه الأخبار والآيات ما لا يدركه العقل فى قصوره ، ولا يعترف به العلم فى حالته الراهنة ، ولم يذكرها التاريخ أيضا ، اتخذها شبهات على الأديان من يريدون التخلص من سلطانها ، داعين الى الناس

أن يحذوا حذوهم . ولو نظروا الى أن العلم لا يزال فى مهده ، وأن ما حصله الناس منه على جلالة قدره ، لا يبلغ عشر معشار ما سيبلغونه منه بعد قرن واحد أو بضعه قرون ، لقللوا من غلوائهم ، وعدلوا من تطرفهم . ألا يرون أن العلم الأوربى الذى كان قبل قرن واحد يقرر أن زمان العقيدة بالروح والحياة الآخرة قد انتهى ، آل أمره اليوم الى بذل جهود الجبابرة فى تحقيق أمر الروح وبقائها بعد الموت ، حتى بلغ منه أبعد مدى ، وأعلن ذلك على رءوس الأشهاد ، وأدخل هذه البحوث الى جامعاته الكبرى ومنها كمبردج واكسفورد؟

وفى عهود المرسلين السابقين ، كان الناس ، وهم فى حاجة شديدة الى التخلص من الصفات الحيوانية ، بالخضوع للتعاليم السماوية ، لا يقنعهم بصدق المرسلين فى دعواهم إلا حدوث الخوارق على أيديهم ، فكان الخالق الحكيم يوالى الجماعات البشرية بالرسل مزودين بالقدرة على إحداث تلك الخوارق من ضروب شتى . فلما آن للناس فى هذه القرون الأخيرة أن ينظروا فى الديانات ، وكانت الفلسفة المادية قد طوحت بهم إلى نكران كل مالم يؤيده دليل محسوس ، أسرعوا الى التكذيب بالنبوات ، واتهموا الأنبياء بالخداع والتدليس . ولو كانوا عاشوا الى هذا العهد ، ورأوا رأى العين أكبر علماء أوروبا وأمريكا اليوم يشتغلون بالتوسع فى دراسة الخوارق ، لأدركوا أن ما يكذبونه من أخبار المعجزات التى أرسل بها المرسلون ، أصبح فى العلم مايبررها ، ويقربها من المعقول بمشاهدات محسوسة .

وكما كذبوا بالرسالات ، وخوارق العادات ، اضطروا أن يكذبوا بالنبوات ، واعتبروا جميع هذه الأخبار من الأقاصيص الخيالية ، ومحصوا حوادث التاريخ مقتصرين فيه على الحوادث الدنيوية ، تاركين أخبار الرسل وما أرسلوا به من المعجزات لأصحاب الأديان ، ودعوا ما دوّنه هؤلاء منها بالتاريخ المقدس . ولما كان أولئك القائمون بتمحيص التاريخ فى الثلاثة القرون الأخيرة من الملحدين الذين لا يؤمنون بخالق الكون ، ولا بالنبوات ، ولا بالوحى ، أطلقوا على التواريخ المقدسة للأمم اسم الميتولوجيا أى علم الأساطير ، وذهبوا فى تحقير هذه الميتولوجيا كل مذهب ، غير مفرقين بين مايصح أن تطلق عليه هذه الكلمة من العقائد الوثنية ، والتقاليد الخرافية ، وبين الحوادث النبوية القيمة التى كان لها الفضل كله فى تهذيب النفوس ، وكبح الرعونات ، وتوجيه القلوب الى المثل العليا من الحياة الانسانية .

وجاءت الاجيال الحديثة فرأت نفسها من أخبار الأمم حيال تاريخ وميتولوجيا ، ودربت على أن تعتبر الاول خلاصة ممحصة من حوادث الشعوب الماضية ، وأن تعد الثانية حكايات خيالية تنزلت من عقول ساذجة ، اخترعها لها رجال مدلسون ، فألفوا أنفسهم متحللين من كل ما حمّل الأقدمون أنفسهم من تكاليف عقيدية ، وتقاليد وهمية ، معتبرين كل ما يوجد فى تاريخ الأديان وكتبها المقدسة من أخبار وحوادث وانقلابات لا تتفق والتاريخ المبتور ، خرافات لا أصل لها فى الواقع !

فهل بعد هذا البيان يسوغ لانسان أن يقول إن حادثة بعينها أو حوادث من قبيلها تتصل بالدين ، خرافات لا أصل لها فى الماجريات البشرية ؟

وهل بعد أن أعلن أجلاء العلماء الماديين فى أوروبا من أمثال وليم كروكس مكتشف إشعاع المادة ، وروسل ولاس نديد دارون ، وسيزار لو مبروزو واضع علم الأسباب الفيزيولوجية للجرائم ، ووليم جيمس البسيكولوجى الامريكى الأكبر ، وشرنك نوتزنج مدرس علم النفس بجامعة برلين ، الى ما لا يحصى من أمثال هؤلاء ، قلنا هل بعد أن أعلن هؤلاء على رءوس الأشهاد وفى القرن العشرين ، أنهم قد اكتشفوا عالم ما فوق الطبيعة ، وأنهم يتحدثون مع كائناته ، وأن هذه الكائنات تتجسد أمامهم وتكلمهم ، وتحدث أمامهم من خوارق النواميس الطبيعية ما يدهش العقل ؛ قلنا هل بعد هذا يسوغ لعاقل أن ينكر المعجزات التى أيدت المرسلين فى دعواتهم الدينية ، باعتبار أنها تناقض العلم ، وتخالف نواميس الطبيعة ؛ وأن يعتبر كل قصص ورد عن مثل هذه الأمور فى الكتب الدينية من الخرافات التى لا أساس لها من التاريخ ؟ أى تاريخ بشرى يتخذ معيارا لما حدث وما لم يحدث من أخبار الانسانية ، وهو قائم على اعتبار أن وجود الخالق والروح الانسانية والحياة الأخروية ، والأرواح العلوية والسفلية من الامور الخيالية ، ويتبع ذلك أن كل ما يروى عنها ، ويناقض العلم الذى قصروه على معلوماتهم المحدودة ، يجب أن يحسب من الأقاصيص الخرافية ؟!

نعم إن الحوادث التى صاحبت رسالات الرسل دخل فيها كثير من المبالغات ، ولكن لهذه المبالغات سمات يهتدى بها اليها ، فكان الموافق للعقل والعلم لدى العائشين معنا فى القرن العشرين ، وشهدوا الفتوحات العلمية الحديثة من تفتيت الذرة واحالتها الى أصلها وهو القوة ، بعد أن عدها العلم مادة صلبة أكثر من

ثلاثة آلاف سنة ، ومن محاولة استخدام الأشعة الكونية لإحداث أعظم انقلاب في حياة الانسانية ، ومن إثبات العالم الروحاني عمليا . كما صرح بذلك أكابر ممثلي العلم . وهذا واحد منهم (كاميل فلاماريون) أشهر علماء الفلك في القرن العشرين يقول في كتابه (المجهول والمسائل النفسية) :

« لقد أثبتت المشاهدات الحسية وجود عالم روحاني محقق كتحقق العالم المادي المدرك بحواسنا الخمس »

هذه مقدمة نذكرها بين يدي كلمة نريد أن نقولها عن القصص في القرآن الكريم :

نوه الكتاب الكريم بأمم ماضية ومرسلين ، وقص من أخبارها وأخبارهم ما فيه موعظة للتالين والسامعين ، فلاحظ بعض المستشرقين ، وكلهم من غلاة الماديين ، أن من هذا القصص ما لم يرد في التاريخ ، وبعضه يعتبر من الخرافات .

وجوابنا على هذا كله ما ذكرناه من أن الذين دونوا التاريخ قد جروا في تمحيص الحوادث على مطابقتها لأصولهم في تقرير الحقائق ، وقد بينا لك أن من أصولهم نكران وجود خالق الكون ، واعتبار الانسانية والحياة بعد الموت من أعرق المعتقدات الخيالية ، وأشدها إضرارا برقي الانسانية ، وهذا ليس بمعيار صحيح لتقدير ما هو حق وما هو باطل من الماجريات العالمية كما قدمنا .

أما ما يعتبرونه في القصص من الخرافات ، فهو لأنهم بحثوا التاريخ على ضوء المبادىء المادية البحتة التي تعتبر ، كما قلنا ، وجود الخالق والروح ، والكائنات العلوية والسفلية ، وتأثيرها في خرق النواميس الطبيعية من الأوهام الطفلية .

فاذا كان هؤلاء المكذبون ينكرون الحركة العظيمة التي قامت في أوروبا بين العلماء مدة مائة سنة وراء اثبات عالم ما فوق الطبيعة على مقتضى الدستور العلمي ، ويهزأون بما أدت اليه من النتائج المحسوسة في إثبات الروح والحوادث الخارقة للنواميس الطبيعية ، والقائمون بها أئمة العلم العالمي ومدعمو أصوله ، وقد ألفوا فيها مئات من الكتب ، وأسسوا لها مثلها من الجمعيات والمجلات ، وجمعوا لها بحو سبعة مؤتمرات عالمية في أكبر عواصم الأرض ، ودخلت دراستها في الجامعات وجعلت لها مقاعد فيها ، ينكر هؤلاء المستشكلون هذا كله وهو قائم بين أيدينا ويهزأون به ، افيستغرب منهم بعد هذا أن ينكروا رسالات الانبياء وأخبار الامم السالفة وبيننا وبينها ألوف من السنين ؟ **محمد فريد وجدي**

الايمان الـكامل

فى نظر القرآن الـكريم

حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ عبد الرحيم العدوى

وجه القرآن الـكريم دعوته الى الناس ليؤمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله، وليصلو الى خصال البر ومكارم الأخلاق، فغزت دعوته القلوب، واستولت على الأفئدة، لما اتصل بها من حجج وما اكتنفها من براهين . على أنها فى الحق دعوة الفطرة السليمة، فلا تحتاج الى دليل عند ذوى الألباب .

والإيمان عقيدة تملأ جوانب النفس بالأمن، وتجوس خلال الجوانح، تمحو الاضطراب والشك، وتغمر الفؤاد باليقين، وتفيض على صاحبها معانى الخير، من عزة النفس ونزاهة الطبع، وتحبب إليه العدل والانصاف والاستقامة، والاعتراف بالجميل، والاعتداد بصنائع المعروف، وتوجهه وجهة الخير فى كل ما يأتى وما يدع .

فاذا تم سلطانها وقويت دعائمها فى نفس امرىء ؛ فاعلم أنه وفق للسعادة وهدى الى الصراط المستقيم .

والقرآن الـكريم لا يعول على العقيدة المجردة فى تسمية المؤمن مؤمنا حقا، بل يطلب آثاره وثمراته ؛ فهو يشترط فى المؤمنين شروطا اذا حصلوها استحقوا أن يخلع عليهم اسم الايمان، ويفرض عليهم صفات خاصة إذا حققوها صح فى نظره أن يكونوا مؤمنين .

والناظر الى هذه الصفات (صفات المؤمنين فى نظر القـرآن الـكريم) يجدها تتعدد وتتنوع بقدر ما بينها من فوارق وما فيها من مميزات، لـكنها رغم تباينها وتعددها لا تتجاوز ثلاث صفات :

صفة يقصد بها تربية الناس وتقوية نفوسهم، وغـرس الفضائل فيهم، حتى لا تهن بالتكاليف، أو تضعف عن حمـل ما حملت من أمانة، فيقدمون

حينئذ على كل تضحية ، ويتفانون فى أعمال البر ، ويقفون جهودهم على سبل الإصلاح والخير ، ويسلكون مسلك الاعتدال فى أحوالهم الخاصة والعامة .

يتحملون الشدائد ، ويتمسكون بالصبر الجميل ، فلا تزعجهم الخطوب ، ولا تلين من قناتهم النوائب .

وبالجملة هى صفات يقصد منها صياغة النفوس البشرية على سنن الفضيلة وطريق الرشاد .

والصفة الثانية من صفات المؤمنين ترجع الى سلوك الانسان الشخصى وابتغائه الخير فى خاصة نفسه ، وانتفاعه بالاستقامة فى السر والعلن ؛ فهى رقابة يقظة على المرء فى حركاته وسكناته ، وحراسة حازمة على الضمائر والنوايا ، لا يصدر صاحبها إلا عن فكر ، ولا يورد إلا عن روية ، ولا يبدو للناس إلا فى مظهر النقى والصلاح ، والطهارة وحسن القدوة ؛ فهو ملاك فى صورة إنسان ، وروح لم تخالطها ظلمة الأجسام .

أما الصفة الثالثة من صفات المؤمنين ، فقد اهتم القرآن بشأنها أيما اهتمام ، وعنى بها أجل عناية ، لأنها ترتبط بسيرة المؤمن فى الجماعة ، وتتصل بالرأى العام ، وتشتبك بالناس ومعاملاتهم ؛ وذلك كله له خطره ومكانته فى حياة الأمم والشعوب .

فلا غرابة إذا رأينا القرآن الكريم يفسح لها صدره ، ويتفنن فى الحث على تحصيلها ، ليسلم المجتمع من الشرور ، وتخلو الجماعة من عوامل الفساد ، فتسود الأمة ويسعد العباد .

والنوع الأول من الصفات ، وأعنى به الصفات التى يقصد بها تربية النفوس وإعدادها للخير ، تعددت أساليب القرآن فى تحصيله والحث عليه .

فتارة يضع بين أيدينا صورة مغرية للمؤمنين العاملين الصادقين ، فيقول : « كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون ، وبالأسحار هم يستغفرون ، وفى أموالهم حق للسائل والمحروم » .

وأى نفس تسمع حديث أولئك المؤمنين الكملة الذين يقضون الليل فى ركوع

وسجود وتضرع وعبادة لا ينامون من الليل إلا غرارا حتى إذا أظلهم السحر أخذوا فى الاستغفار كمن أقام على جرم أو بات على إثم ؟ من ذا الذى يسمع حديث هؤلاء ولا يحفزه ذلك الى الاقتداء بهم ، والسير فى طريقهم ؟

وطوراً يلج الى النفوس من طريق الوجدان والاحساس ، فيمثل لنا الكاملين فى الايمان فى صورة المرء الذى عراه ما عراه من خشية وخوف وماحل به من فزع ، ولكنها خشية لا تلبث أن تتحول الى طمأنينة ، وخوف لا يمكث إلا ريثما ينقلب الى راحة وأمان ، وفى ذلك يقول القرآن الكريم : « إنما المؤمنون الذين إذا ذُكر اللهُ وَجِلتْ قلوبُهم ، وإذا تُليت عليهم آياته زادتْهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون ، الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون. أولئك هم المؤمنون حقا ، لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم ». ويقول فى آية أخرى « ألا بذكر الله تطمئنّ القلوب » .

وآونة يطلب منا أن نقاوم ما فينا من غرائز ، وننتبه الى ما فينا من ملكات قد تنزع الى الشر ، وتحت ستار ذلك قد يخفى علينا طريق الخير خضوعا لطبائعنا وتمشيا مع غرائزنا ، فيرشدنا الى طريق الصواب فى ذلك ، ويهدينا الى سواء السبيل .

وفى ذلك يقول القرآن الكريم :

« يأيها الذين آمنوا لا تُلهكم أموالُكم ولا أولادُكم عن ذكر الله ، ومَن يفعلْ ذلك فأولئك هم الخاسرون . وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتىَ أحدَكم الموتُ فيقولَ ربِّ لولا أخرتنى الى أجل قريب ، فأصّدّقَ وأكنْ من الصالحين. ولن يؤخر الله نفسا إذا جاء أجلها ، والله خبير بما تعملون » .

ويقول أيضا « يأيها الذين آمنوا إنّ من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم » .

فحب المال والولد طبيعة متمكنة من النفوس ، قد يستغلها الشيطان فيضل الناس وهم لا يشعرون .

ومرة يحدثنا عن الشجاعة والثبات والصبرّ على الشدائد ، ليغرس فينا هذه الأخلاق الكريمة ، فيقول :

« ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا اللهُ ورسوله وصدقَ اللهُ ورسولُه ، وما زادهم إلا إيمانا وتسليما » .

وأخرى يصور لنا طاعة المؤمنين الكملة ، فيقول « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكونَ لهم الخِيرَةُ من أمرهم ، ومن يعصِ الله ورسولَه فقد ضل ضلالا مبينا » .

وحينا يدعونا الى الايمان وعمل الخير، فيصور لنا ذلك بأنه تجارة رابحة وصفقه تجلب السعادة وراحة البال، فيقول « يأيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم، تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ، ذلك خير لكم إن كنتم تعلمون » .

وكثيرا مايدعونا الى الشجاعة الأدبية وقول كلمة الحق بيضاء نقية لايشوبها رياء ولا يخالطها نفاق ولا تعكر صفوها مجاملة قرابة قريبة ، أو مداراة صديق ، فيقول : « يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين » .

كما أنه رسم لنا طريقا فى الوقوف عند حد الاستقامة وترك ما لا يعنى بقوله : « يأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لايضركم من ضل إذا اهتديتم » . وقوله : « يأيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبدلكم تسؤكم » وأقام لنا دستورا فى عدم موالاة أعداء الانسانية والدين بقوله : « يأيها الذين آمنوا لاتتخذوا عدوى وعدوكم أولياء » وقوله: «لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم ، أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه » .

أما الأوامر العامة التى يقصد بها الاستقامة فى السلوك ، وحفظ الجوارح من اقتراف الذنوب ، والحرص على كل حلال طيب ، فكثيرة لا يحصيها العد ، منها قوله « يأيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون » وقوله « يأيها الذين آمنوا انفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض ، ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون » .

هذه مجموعة من أساليب القرآن القيمة فى الحث على التمسك بالصفات التى

تهذب النفوس وتقوم الاخلاق ، وتعد المرء لـكل ما طلب منه من تكاليف ، وما حمل من تبعات ، وضمناها بين يدى القارىء الـكريم ، لتكون له دستورا يحتذيه وقانونا يتبعه .

أما النوع الثانى من صفات المؤمنين وهي التى تتصل بالانسان فى خاصة نفسه ويتصل نفعها به ، وهى ما قلنا عنها إنها صفات رقابة على الانسان وحراسة على سلوكه ، فمن أمثلتها قوله تعالى « قد أفلح المؤمنون ، الذين هم فى صلاتهم خاشعون ، والذين هم عن اللغو معرضون ، والذين هم للزكاة فاعلون ، والذين هم لفروجهم حافظون ، إلا على أزواجهم أو ما ملـكت أيمانهم فإنهم غير ملومين ، فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون ، والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون ، والذين هم على صلواتهم يحافظون ، أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون » .

وخليق بمن خشع فى صلاته وبلغ الغاية فى القيام بالأعمال البدنية والطاعات وتجنب المحرمات وحفظ أمانته ، ورعى عهده ، أن تكون الجنة مآله ، والفردوس عاقبة أمره ، فيفوز بكل خير ، وينجو من كل ضير ، ويكون مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا .

والصفة الثالثة من صفات المؤمنين الصادقين ، هى تلك التى قلنا عنها إنها تتصل بالجماعة الانسانية ، وقلنا إن القرآن الـكريم عنى بها لسمو مكانتها وعظيم آثارها .

هـذه الصفات تتنوع الى صفات عملية إيجابية ، وإلى صفات سلبية يطلب من المؤمن الـكامل أن يبتعد عنها حتى يتم له الايمان وتكمل له عقيدته . فمن الاول قول الـكتاب العزيز « إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلـكم ترحمون » .

فالمسلمون إذا حققوا هذه الأخوة الدينية وعلموا أنهم ينتسبون الى أصل واحـد هو الايمان الموجب للحياة الأبدية ، إذا هم فعلوا ذلك حسنت حالهم

وانتظم أمرهم، وتعاونوا فى السراء والضراء، وكانوا يدا واحدة على الأعداء، ولما رأينا بينهم بائسا ولا مسكينا، ولا وجدنا منهم ملهوفا أو محزونا .

ورحم الله المؤمنين الاولين يوم كانوا يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة، ويجودون بما لديهم وهم فى أشد الحاجة إليه .

أما المسلمون الآن فقد أهملوا هذه الأخوة الدينية، ففشا بينهم الحقد، ونمت البغضاء، وتفرقوا شيعاً وأحزابا، فذلوا بعد عز، وضعفوا بعد قوة، وذهبت ريحهم، فكانوا كغثاء السيل، أو كالريشة فى مهب الأعاصير .

ومن الصفات الإيجابية أيضا قوله عز وجل : « والذين آمنوا وهاجروا فى سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقا، لهم مغفرة ورزق كريم » .

فالهجرة الى الله والفرار بالعقيدة فى وقت الفتن من علامات الايمان الكامل، لأنه يصحبها البعد عن الأهل والأحباب والإخوان والأصحاب والآباء والأمهات، ويصحبها أيضا ترك المال الذى هو قوام الحياة وعون المرء فى كل شأن وحال، ويصحبها أيضا مفارقة الأوطان التى درج تحت سمائها وتنسم هواءها، فلا عجب إذا كانت الهجرة التى من هذا القبيل أمارة كمال الإيمان وعلامة تغلغل العقيدة فى أعماق النفس . والجهاد فى سبيل الله بالنفس والمال تضحية عظمى تدل على ما بين الجوانح من إخلاص فى النية وسلامة فى الطوية ومتانة فى العقيدة وقوة فى الايمان . وإيواء الضعفاء من المؤمنين وبذل المال لمعونتهم، والقيام على حوائجهم وتعهدهم بالرعاية، ومسح دموع اليتيم منهم، وكفالة العجزة والأرامل، كل ذلك دليل كمال الايمان . وسمو العقيدة ونصرة الدين وحياطته من كيد الكائدين، وبذل الجهود لإعلاء كلمته ورفع شأنه من علامات الايمان الكامل والعقيدة الصحيحة .

وأما الصفات السلبية، فمن أمثلتها قول القرآن الكريم « يأيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم، ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن، ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب، بئس الاسم

الفسوق بعد الايمان، ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون . يأيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم، ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا، أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه ، واتقوا الله إن الله تواب رحيم . » ومنها قوله تعالى « يأيها الذين آمنوا إذا تناجيتم فلا تتناجوا بالإثم والعدوان ومعصية الرسول ، وتناجوا بالبر والتقوى ، واتقوا الله الذى إليه تحشرون » .

ومن الآيات الجامعة لكلا النوعين الايجابى والسلبى ، قول الله عز وجل فى سورة الفرقان :

«وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا ، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما ، والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما ، والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراما ، إنها ساءت مستقرا ومقاما ، والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما ، والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ، ومن يفعل ذلك يلق أثاما يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا ، إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات ، وكان الله غفورا رحيما ، ومن تاب وعمل صالحا فانه يتوب الى الله متابا ، والذين لا يشهدون الزور وإذا مروا باللغو مروا كراما ، والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صما وعميانا ، والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين ، واجعلنا للمتقين إماما ، أولئك يجزون الغرفة بما صبروا ، يلقون فيها تحية وسلاما » .

فهى تحدثنا عن إيمان صادق جمع صاحبه بين السلوك الطيب ، ودفع السيئة بالحسنة ، وإتقان العبادة فى ظلام الليل والناس نيام ، والخوف من عقاب الله والخشية من عذاب النار ؛ وكم للخوف من آثار سامية !

ثم تحدثنا هذه الآيات الكريمة عن أولئك المؤمنين الصادقين ، بأنهم يعرفون قيمة الاقتصاد فى المال وأنه سبيل السعادة ، والاقتصاد فى القول وأنه طريق راحة البال ، وأنهم يعرفون قيمة النفس الانسانية فلا يهتكون لها ستراً

ولا يريقون لها دما ، ويحترمون حقوق الغير ، فلا يكونون سبباً فى ضياعها بشهادة الزور وتلبيس وجه القضاء على القاضى، وفى ذلك سلامة المجتمع ونظام شمل الجماعة .

هذه هى صفات المؤمنين الصادقين الذين قال الله فيهم : « وكان حقا علينا نصر المؤمنين » . وقال« إن الله يدافع عن الذين آمنوا إن الله لا يحب كل خوان كفور » .

وهم الذين قال فيهم أيضا « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً ، يعبدوننى لا يشركون بى شيئاً » .

وقال فيهم أيضا « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا ، خالدين فيها لا يبغون عنها حولا » .

وقال أيضا : « يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم ،بشرا كم اليوم جنات تجرى من تحتها الأنهار » .

وهم الذين أشاد بذكرهم فى أساليب متعددة إذ يقول « وعباد الرحمن » ويقول « يا عباد لا خوف عليكم اليوم » ويقول « فبشر عباد » ويقول « أولئك حزب الله » .

فهل نحن الآن على سنن هؤلاء نسير ؟ اللهم هب لنا توفيقا ، وهيء لنا من أمرنا رشدا م ؟

كبر السن

قال العتبي : لما أسن أبو براء عمرو بن مالك الملقب بملاعب الأسنة ، وكان فى الجاهلية من أشجع الناس قلبا ، وأقواهم جسما ، وأعلمهم بفنون القتال ، ضعفه بنو أخيه واتهموه بالخرف ، ولم يكن له ولد يدافع عنه ، فأنشأ يقول :

دفعتكم عنى وما دفع راحة ... بشىء إذا لم يستعن بالأنامل
يضعفنى حلمى وكثرة جهلكم ... علىّ وأنى لا أصول بجاهل

أبو الأنبياء

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد محمد المدنى
المدرس فى كلية الشريعة

للإسلام ونبيه الكريم عليه الصلاة والسلام ، صلة وثيقة بخليل الله إبراهيم ، هى أقوى الصلات ، وأرسخها فى التاريخ قدما ، وأكثرها بين الروابط وشائج وعُرى .

ذكرنى بهذا المعنى ، وفتح لى باب الكتابة فيه ، هذا العام الهجرى الجديد ، وأن إبراهيم عليه الصلاة والسلام قد هاجر بأم العرب « هاجر » وولده منها « إسماعيل » إلى بلاد العرب ، هجرة شبيهة بهجرة رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة ، التى كان لها أطيب الثمرات ، وأبعد الآثار فى نشر الدين ، وإبطال الشرك ، وظهور عقيدة التوحيد على كل عقيدة تنافيها .

وحسبى فى هذا المقال أن أعرض لناحيتين عظيمتين ، من وجوه هذا الاتصال والتقارب بين الرسولين الكريمين :



فإبراهيم هو الجد الأعلى لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما هو الجد الأعلى لكثير من الأنبياء والرسل غيره ، وفى هذا يقول الله عز وجل : « ووهبنا له إسحاقَ ويعقوبَ كُلاً هديْنا ونوحاً هدَينَا من قبلُ ، ومِن ذريته داودَ وسليمانَ وأيوبَ ويوسفَ وموسَى وهرونَ ، وكذلك نجزى المحسنين . وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس ، كُلٌّ من الصالحين . وإسماعيل واليَسَعَ ويونسَ ولوطا ، وكُلاً فضّلْنا على العالمين . ومن آبائهم وذرياتهم وإخوانهم واجتبيناهم وهديناهم إلى صراط مستقيم » .

الضمير فى قوله تعالى : « ومن ذريته » لإبراهيم عند أكثر العلماء لا لنوح . ولوطٌ وإن كان ابن أخى إبراهيم إلا أنه ذكر فى الذرية تغليبا ،

ولكن محمدا صلى الله عليه وسلم يمتاز فى هذه النسبة بأمر يلفت النظر ، هيأه الله له ، واختصه به من بين هؤلاء الأنبياء أجمعين : ذلك أن إبراهيم كان له ولدان : إسماعيل من هاجر، ثم إسحاق من سارة ؛ فأما إسحاق فقد كثرت ذريته من الأنبياء ؛ فكل من نسب الى إبراهيم فى هذه الآيات فهو من ذرية إسحق ؛ وأما إسماعيل فهو أبو العرب على اختلاف قبائلهم ، وليس له ذرية من الأنبياء إلا سيدهم وخاتمهم ، عليه أفضل الصلاة والسلام ؛ فكأن الشجرة الإبراهيمية قد أنبتت فرعين عظيمين وازن أحدهما الآخر جلالة وشرفا ، وكان « محمد » وحده يوازن هذه السلالة الطاهرة كلها من الأنبياء والمرسلين !

وابراهيم عليه السلام هو بانى البيت الحرام ، ورافع قواعده بأمر الله ، ومطهره للطائفين والقائمين والركع السجود ، وواضع المناسك والمشاعر ، وهو الذى دعا ربه لهذا البلد الحرام أن يجعله آمنا ، تهوى اليه أفئدة من الناس ، وتجبى اليه ثمرات كل شىء ، وأن يبعث فى العرب رسولا منهم يتلو عليهم آياته ، ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم .

فهذه صلة إبراهيم بمحمد عليه الصلاة والسلام ، نسبا ووطنا وقوما ، وهى ناحية بارزة ــ من غير شك ــ فى حياة هذين الرسولين الكريمين .

* * *

ولكن هناك ناحية أبرز منها ، وأقوى فى تحقيق الصلة بينهما ، هى ناحية الاتفاق فى الدعوة وأسلوبها .

وأول ما يلاحظ من ذلك أن ابراهيم عليه السلام كان منذ صغره مائلا عن الشرك ، متنزها عن أرجاسه ؛ فلم يشرك بالله قط على كثرة ما كان حوله من بواعث الشرك ؛ فأبوه مشرك ، وقومه مشركون ، وللأصنام عندهم منزلتها وحرمتها ومعابدها ، ومع ذلك لم يمل قبل بعثته طرفة عين الى جانب الشرك ، ولم يعبد إلا الله ، ولم يخشع إلا لله ؛ وقد حدثنا القرآن الكريم أنه لما جادل أباه وقومه فيما يعبدون من دون الله استصغروه وقالوا له « أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين » ، ولما حطم هذه الأصنام « قالوا : سمعنا فتى يذكرهم يقال له

إبراهيم » . كل هذا يدل على أنه عزف عن الشرك ، وأخلص التوحيد لله ، وهو بعد فى سن مبكرة لم يعد طور الفتوة والشباب ؛ ولهذا يقول الله عز وجل : « ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين » ويقول : « إن إبراهيم كان أمّة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين » .

وكذلك كان نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ؛ فقد تولاه ربه برعايته منذ طفولته ، وبرأه مما كان يسود قومه وعشيرته الأقربين من الشرك والفحش والشعر واللهو وسائر أنواع المجون ، وأدبه فأحسن تأديبه ، حتى كان يعرف فى قومه «بالصادق الأمين» ، ولم يسجد لصنم قط ، ولا استقسم بزَلَم قط ، ولا استطلع كاهنا ، ولا استعان بعراف ، وقد حببت اليه العزلة والبعد عن مظاهر الشرك والوثنية ، وهو العربى القرشى الذى نشأ فوجد أهله زعماء القوم وكبار المشركين .

وابراهيم كان له طريقة عقلية بارعة فى محاجة الخصوم ، ومقارعة المبطلين بالدليل تلو الدليل ، على نحو من الاستدراج المنطقى ، أو ما يسمونه فى البحث والمناظرة بإرخاء العنان للخصم حتى يفاجأ بما ليس فى حسابه فيرتبك ويتلعثم ويضطر الى التسليم .

وأمثلة هذا فيما حكاه الله فى القرآن الكريم عن ابراهيم كثيرة ، حسبنا أن نعرض لبعض منها بالتفصيل ، وأن نشير الى بعض آخر :

١ — « ألم تر إلى الذى حاجّ ابراهيمَ فى ربه أن آتاه الله الملك » .

محاجة دارت بين ابراهيم وجبار عنيد غره ملكه حتى نازع ربه الذى يملك ناصيته فادعى الربوبية ، وقد ناقشه خليل الله مناقشة أبطل فيها إفكه وسفسطته ، وبين كثرة جهله ، وضعف عقله ، وألزمه الحجة حتى انقطع وتحير « إذ قال ابراهيم ربى الذى يحيي ويميت » لم يقل له : ربى يحيي ويميت ، لأنه لا يُريد أن يصف الله بالإحياء والإماتة فحسب ، ولكنه يريد أن يستدل بإحيائه وإماتته وما يرى الناس من المشاهدات فى الكون على وجود صانع لها ، فقال : ربى هو الذى يفعل ذلك ، كأنه قال له : أنا لا أعبد ولا أدين بالربوبية إلا

لمن بيده الإحياء والإماتة والتصرف فى الخلق بما يشاء ، لأنه هو الذى يستحق عبادتى وخضوعى ، أما من كان مثلى فى خضوعه لهذا الرب وما يصنعه به ، فليس جديرا بأن يكون ربا لى . فماذا قال له الكافر ؟ قال : « أنا أحيي وأميت » . لم يستطع أن يقول « أنا الذى أحيي وأميت » وإلا لكان مكابرا صريح العناد ، ولكنه تحايل بهذا اللفظ ليخدع السامعين ، ولا ينكشف أمام الحاضرين ، فأسند لنفسه نوعا من الأعمال سماه إحياء وإماتة ، على نحو من الحيلة والسفسطة (١) ، فكان ابراهيم يستطيع أن يزيف له هذا الرد ، ويبين له أنه فى واد غير واديه ، ولكنه لم يفعل ، فأعرض عن هذه الحجة لأنه يعلم أن صرف الوقت فى ردها والنقاش فيها غير لازم ، وانتقل الى حجة أخرى « قال إبراهيم فإن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب ، فبهت الذى كفر » لأنه لم يستطع مع هذه الحجة الساطعة أن يتبجح ويتلاعب بالألفاظ والمعانى كما فعل من قبل . « والله لا يهدى القوم الظالمين »

٢ — وقد تجلت طريقته الحاسمة أيضا فيما قصه الله علينا من استدراجه للذين يعبدون غير الله ، إذ رأى الكوكب فقال : هذا ربى ، ومكث على ذلك مدة حتى إذا غاب الكوكب وأفل « قال لا أحب الآفلين » وهكذا فعل مع القمر ، ثم مع الشمس ، فكأنه يقول لقومه : هيا بنا نبحث عن الإله المستحق للألوهية وأن يفرد بالتوحيد ، هيا بنا نطلب الحقيقة ونبحث عنها حتى نجدها ؛ وتلك طريقة فى إيصال الحقائق الى القلوب ، يؤمن علماء النفس والتربية بعظيم جدواها ؛ وكأنى بقومه قد منَّوْا أنفسهم بأن يعبد ابراهيم ما يعبدون ، ثم تبين لهم أنه يستدرجهم من حيث لا يعلمون ؛ ولذلك انتهز الفرصة بعد هذا الاستدراج الذى تضمن إبطال زعمهم فى كل خطوة من خطواته ، فأعلنها كلمة صريحة قوية ذات أساس متين : « ياقوم إنى برىء مما تشركون . إنى وجهت وجهىَ للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين »

---

(١) قالوا : كان يؤتى بالرجلين قد تحتم قتلهما فاذا أمر بقتل أحدهما وعفا عن الآخر فكأنه قد أحيا هذا وأمات ذاك .

٣ — وقد تحدى قومه باهانته لأصنامهم ، واستهزائه بهم ، ثم أعلن فيهم أن هـذه الأصنام عدو له ، فاذا كان لها قوة فلتفعل به ما تشاء ، فهو لا يخافها ولا يعبأ بها ، وهو آمن كل الأمن من قِبلها ، لأنه لا يخاف إلا الله الذى فطره ، والذى يطعمه ويسقيه ، وإذا مرض فهو يشفيه ؛ ويصور لنا القرآن الـكريم هذا التحدى فى مواضع كثيرة ، منها قوله تعالى : « وحاجه قومه ، قال : أتحاجونّى فى الله وقـد هدان ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربى شيئا ، وسع ربى كل شىء علما ، أفـلا تتذكرون ! وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنـكم أشركتم بالله ما لم ينزّل به عليكم سلطانا ، فأى الفريقين أحق بالأمن ، إن كنتم تعلمون » .

وهذه حجة لا يمترى فيها ذو عقل ، ولا يصد عنها من كان عنـده ذرة من إنصاف ؛ ولذلك يمتن الله بهـا فيقول : « وتلك حجتُـنا آتيناها إبراهيم على قومه ، نرفع درجات من نشاء ، إن ربك حكيم عليم » .

ولو ذهبنا نستقصى الأمثلة التى توضح لنـا أسـلوب إبراهيم وقوته فى الحجاج وإلزام الخصم لطال بنا القول ، ولمـا اتسع له هذا المجـال ؛ فحسب القارىء أن ينظر مع هذا الذى ذكرناه فى أسلوبه مع أبيه ، حينما نهاه عن عبادة الشيطان ، ودعاه الى عبادة الرحمن ، وفى أسلوبه مع بنيه حينما وصاهم بالاحتفاظ بمـا اصطفاه الله لهم من الدين ، وفيما احتج به يوم اتهم بتحطيم الأصنام إذ جاءوا به على أعين الناس وهم يشهدون ، فقطعهم بالحجة حتى ألجأهم الى استعمال القوة بإلقائه فى النار : « قالوا حرِّقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين . قلنا يا نار كونى برْداً وسلاما على إبراهيم ، وأرادوا به كيدا فجعلناهم الأخسرين » . فاقرأوا أيها القراء هذا ، واقرأوا غيره من الأمثلة التى لم أذكرها ، فسترون أن إبراهيم ما كان ضعيفا فى حجته ، ولا مخطئا فى أسلوبه أو فكرته ، ولـكن الذين لا يتدبرون لا يفهمون !

وعلى مثل هذا السنن كانت دعوة محمد صلى الله عليه وسلم وحجته التى لقـّنها الله إياه كما لقنها أباه إبراهيم من قبله ؛ فما جاء القرآن الـكريم إلا بالمنطق الحق ،

والحجة البالغة ، وتتبع الخصوم فى كل ما تعللوا به من شبهات لتكذيب الدعوة وتوهينها .

جادلوه فى عقيدة البعث والنشور وقالوا « من يحيي العظام وهى رميم » ؟ فعلمه ربه أن يقول « يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم . الذى جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم منه توقدون . أوليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم ، بلى وهو الخلاق العليم »

وكانوا يقولون : « أئنا لتاركو آلهتنا لشاعر مجنون ؟ » فيرد الله عنه بقوله « بل جاء بالحق وصدّق المرسلين » « وما علمناه الشعر وما ينبغى له ، إن هو إلا ذكر وقرآن مبين » « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ، فسبحان الله رب العرش عما يصفون . لا يسأل عما يفعل وهم يسألون . أم اتخذوا من دونه آلهة ، قل هاتوا برهانكم ، هذا ذكر من معى وذكر من قبلى ، بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون » « قل إنى نُهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله لما جاءنى البينات من ربى ، وأمرت أن أسلم لرب العالمين . هو الذى خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم يخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ثم لتكونوا شيوخا ، ومنكم من يتوفى من قبل ولتبلغوا أجلا مسمى ولعلكم تعقلون . هو الذى يحيي ويميت فإذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون » .

وهكذا تقوم دعوة الاسلام على لسان محمد صلى الله عليه وسلم بما قامت به على لسان إبراهيم عليه السلام : حجة وبرهان ، ونظر وتدبر فى ملكوت السموات والأرض ، يدعى إليهما كل عاقل ، ومنطق سليم لا يجحده إلا مكابر قد أطغاه العناد ، وأفسده اللجاج .

وقد استجاب الله بذلك دعوة إبراهيم ، وجعلها باقية فى عقبه ، وإنما بقيت بمحمد وشريعة محمد .

ولذلك أمر الله نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم باعلان هذه الحقيقة ليعلم الناس أن دين الله واحد ، فقال له : « قل إننى هدانى ربى الى صراط مستقيم ، دينا قِيَماً ملةَ إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين » .

أوائل المتكلمين من المسلمين

واصل بن عطاء — شيخ المعتزلة

لفضيلة الأستاذ الشيخ على مصطفى الغرابى

انتهى بنا الكلام فى المقال السابق عن « واصل » الى ما كان له من المقام فى العلم ، مع بيان بعض ما نسب له من كتب . وفى هذا المقال نحب أن نواصل الكشف عن بعض نواحى ذلك العالم السلفى حتى نؤدى له بعض حقه علينا ، فإن للآباء حقوقا على أبنائهم ، وإن كثيرا من سلفنا قد ظلم من الزمن ومن أهله ؛ ولا نجد طريقا لدفع ذلك الظلم عنهم إلا نشر الحقائق التى لو عرفها الناس لتغير رأيهم فيهم ، وحلوا منهم المحل الذى يليق بهم . وإن من هؤلاء العلماء « واصل ابن عطاء » لأنه شيخ المعتزلة ورئيسهم الأول . وبعد ما سمعت أيها القارئ نبذة صورت لك حياته تصويرا إجماليا ، نحب أن تعرف أولاً موقف بعض علماء الفرق الكلامية الأخرى منه ، ورأيهم فيه ، فنقول تتمة لما سبق :

٤ — واصل فى نظر بعض علماء الفرق الكلامية :

إن ما تقدم — كما قلت — هو ما أمكننا استخلاصه عن واصل من جملة مراجع ، إلا أن بعض من ألفوا فى الفرق الكلامية يذهبون فى واصل الى غير ما ذهبت اليه ، فيجعلونه تارة خارجيا ، وتارة جهميا ؛ ولم يقف بهم الأمر الى ما ذكر من كونه خارجيا وجهميا ، بل ذهبوا الى أكثر من هذا وهو « أنه كافر » .

أما من سماه « خارجيا » فهو عبد القاهر بن طاهر البغدادى الأشعرى المتوفى سنة ٤٢٩ هـ سنة ١٠٣٧ م ، فى كتابه « الفرق بين الفرق » ص ٩٨ : « ثم إن واصلا وعمرا وافقا الخوارج فى تأييد عقاب صاحب الكبيرة فى النار مع قولهما بأنه موحد وليس بمشرك ولا كافر ، ولهذا قيل للمعتزلة « إنهم مخانيث الخوارج » .

ووافقه على هــذه التسمية أيضا أبو المظفر الاسفرايني تلميذه المتــوفى سنة ٤٧١ هـ فى كتابه (التبصير فى الدين) ص ٤١ فقال : ونسبهم إسحاق ابن سويد الى الخوارج فى شعره فقال :

برئت من الخوارج لست منهم   من الغزال منهم وابن باب

وأما من سماه وسمى كل المعتزلة كذلك « جهميا » فهو الامام أبو الحسن على بن إسماعيل الأشعرى المتوفى سنة ٣٢٤ هـ فى كتابه (الابانة) ص ٤١، فقد قال : « وزعمت الجهمية أن الله عز وجل لا علم له ولا قدرة ولا حياة ولا سمع ولا بصر . . . » الخ . فهذا الرأى فى صفات الله الذى ذكره الأشعرى هو رأى المعتزلة ، وقد عبر عنهم « بالجهمية » ، ويدل أيضا على أنه يريد بالجهمية المعتزلة قوله فى الكتاب المتقدم (ص ٤٢) : وقــد قال رئيس من رؤسائهم وهو أبو الهذيل « إن علم الله هو الله » . ولا شك أن من يسمى المعتزلة « بالجهمية » فهو يسمى من باب أولى رئيس المعتزلة (واصلا) بتلك التسمية ، وهو أنه جهمى .

وأما من وصمه بالكفر فهو كذلك أبو منصور عبد القاهر البغدادى فقد قال : « ثم إنهما « واصلا وعمرا » أظهرا بدعتهما فى « المنزلة بين المنزلتين » وضما إليها « دعوة الناس الى قول القدرية » على رأى معبد الجهنى ، فقال الناس يومئذ لواصل « إنه مع كفره قدرى » وجرى المثل فى كل كافر قدرى » اهـ من كتابه « الفرق بين الفرق » ص ٩٨ . وهكذا ترى أيها القارئ أن البغدادى قد وصم واصلا بوصمة الكفر وسماه « كافراً » .

ومن بين الذين كفروا « واصلا » أبو الفتح الأزدى ؛ فقــد حكى ذلك عنه الذهبى فى كتابه « ميزان الاعتــدال » جـ ٣ ، ص ٢٦٧ ، قال : « قال أبو الفتح الأزدى : « رجل سوء كافر » .

هذا ما حكم به العلماء المخالفون للمعتزلة فى آرائهم على واصل الذى عرفت طرفا من ورعه وزهده فى الدنيا وعلمه الغزير ، وغيرته على الدين الإسلامى ، وإرسال الدعاة لنشره فى الآفاق ، ومؤلفاته الكثيرة فى الدفاع عن التعاليم

الإسلامية ؛ هـذا الحـكم هو « أنه رجل سوء كافر » . وما أسهل الاتهام بالـكفر عند أرباب الفرق مع أنه لا يجوز الحـكم على مجتهد ـ ولو أخطأ ـ بالفسق ! وذلك على حسب القواعد المقررة عند علماء المسلمين ؛ قال الشيخ جمال الدين القاسمى فى كتابه « تاريخ الجهمية والمعتزلة » ص ٥٨ : « كما أن اسم الاجتهاد يتناول فى عرفهم فروع الفقه ، فكذلك مسائل الـكلام لعموم مفهومه « الاجتهاد » لغة واصطلاحا ووجودا ، فإن الفرق التى تنوع اجتهادها فى مسائل الـكلام ربما تربو على مجتهدى الفروع . وكيف لا تكون من المجتهدين ، وهى تستدل وتحكم وتبرهن وتقضى وتجادل خصومها بمآخذها ، وترى أن ما تستدل عليه هو الحق الذى لا يعقد على سواه ، ولابد أن الحق تعالى يعتبره » ؟ إلى آخر ما ذكره تحت عنوان « بيان أن الجهمية والمعتزلة لهم ما للمجتهدين » من كلام طويل ، فارجع إليه إن شئت .

وبعد هذا كيف يبيح مؤرخو الفرق الـكلامية لأنفسهم أن يحكموا على رجل أبلى بلاء حسنا فى الدفاع عن عقيدة المسلمين ، وعالم من علماء التابعين أو تابعيهم بأنه « كافر » ؟ !

اللهم إن هذا مرض قد أصاب المسلمين ، ولا زال سيفا مصلتا على رءوس المخلصين ، وهو أقرب سلاح لمن عجز عن إقناع خصمه بالحجة والدليل ، مع أن الدين الاسلامى قد قرر أن « لا إكراه فى الدين » لأنه « قد تبين الرشد من الغى » والحق من الباطل والهدى من الضلال ؛ فهذا الدين لأنه حق ومعقول قد ترك للانسان أن ينظر بعقله ويتدبر بفكره ويتبين الخير من الشر والنور من الظلام ، ما دام هذا التفـكير وذلك النظر لا يعاوض نصا صريحا أو رأيا مجمعا عليه ، وما دام صاحب النظر لا يريد إلا الحق .

٥ ـــ علاقته بأستاذه :

لقد أجمع المؤرخون على أن واصلا كان تلميذا للحسن البصرى ، وأن علاقته به بقيت طيبة إلى أن قام الخلاف بينهما على مرتكب الـكبيرة ، حين جاء رجل يسأل الحسن عن شأن مرتكبها ، وأن التلميذ أجاب قبل أن يجيب

أستاذه « وأنه فى منزلة بين المنزلتين ، وأنه فاسق » كما سنذكر ذلك - إن شاء الله - عند الكلام على آرائه . ولقد كان ذلك الرأى الذى ذهب إليه التلميذ يخالف رأى أستاذه ؛ إذ أن الحسن كان يرى « أن مرتكب الكبيرة ليس فى منزلة بين منزلتى الإيمان والكفر ، وإنما هو منافق فاسق » . قال أبو الحسين عبد الرحيم الخياط المعتزلى المتوفى آخر القرن الثالث الهجرى فى كتابه « الانتصار » ص ١٦٥ : وقال الحسن ومن تابعه : « مرتكب الكبيرة مع فسقه وفجوره منافق » . وقال ابن المرتضى فى كتابه « المنية والأمل » ص ٢٣ — حين تحدث عن الجدل الذى قام بين واصل وعمرو بن عبيد على مرتكب الكبيرة — : إن واصلا قال لعمرو : أوليس تجد الفرق على اختلافهم يسمون صاحب الكبيرة « فاسقا » ، ويختلفون فيما عداه من الأسماء ، فالخوارج تسميه « كافرا وفاسقا » ، والمرجئة تسميه « مؤمنا فاسقا » ، والشيعة تسميه « كافر نعمة فاسقا » ، والحسن يسميه « منافقا فاسقا » .

ولما أجاب التلميذ بما يخالف رأى أستاذه طرده من درسه - كما تقول بعض الروايات — فقام واصل الى جانب سارية من سوارى المسجد وأخذ يقرر رأيه على بعض زملائه الذين كانوا معه فى درس الحسن ، وقد أعجبهم رأيه فى مرتكب الكبيرة ، وكان من بينهم « عمرو بن عبيد » الذى انضم اليه بعد أن أقنعه واصل برأيه . إن تلك الرواية قد تدل على أن علاقة التلميذ بأستاذه قد ساءت ، وأن حبل المودة بينهما قد انقطع ، وأصبح التلميذ بهذا عاقا لأستاذه ؛ وقد يقوى ذلك الرأى أن المؤرخين قد وقفوا الى هذا الحد من كلامهم على واصل ، مما جعل أكثر من قرأ عنه ، بل كل من عرفه يعتقد أن الخصومة قد بقيت بين الحسن وواصل حتى توفى الحسن رضى الله عنه عليها ؛ وليس كذلك ، بل لما أن الخلاف بينهما كان لله وللحق ، ولم يكن للهوى والشيطان ، فإنه لم يؤثر على علاقتهما ، ولم يمنع التلميذ أن يحضر على أستاذه ويسمع لنصائحه وعظاته ويحفظ عنه وصاياه ؛ يدلنا على هذا ما كتب به واصل الى عمرو بن عبيد - حين بلغه عنه أنه قد حاد عن نهج أستاذه فى التفسير من تنقيص المعانى ، وتفريق المبانى - ولقد اشتد عليه واصل فى التقريع والتأنيب ، وأخذ يذكره

بكلام أستاذه فيه وأنه كان يخافه، وأنه كان يتوقع منه أن سيميل عن طريقته، وأنه شكاه لله مقدما. وقد ذكر ذلك الكتاب ابن عبد ربه فى كتابه «العقد الفريد» ح ٢ ص ٣٨٦ — ٣٨٧ فقال: كتب واصل الى عمرو يقول: «أما بعد، فإن استلاب نعمة العبد، وتعجيل المعاقبة، بيد الله؛ ومهما يكن ذلك فباستكمال الآثام، والمجادرة للجدال الذى يحول بين المرء وقلبه؛ وقد عرفت ما كان يطعن به عليك وينسب اليك، ونحن بين ظهرانى الحسن بن أبى الحسن رحمه الله، لاستبشاع قبح مذهبك، ممن قد عرفتهم من جميع أصحابنا، ولمة إخواننا الحاملين الواعين عن الحسن... ثم قال: عهدى والله بالحسن وعهدكم به أمس فى مسجد رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بشرقى الأجنحة، وآخر حديث حدثنا إذ ذكر الموت وهول المطلع، فأسف على نفسه، واعترف بذنبه، ثم التفت — والله — يمنة ويسرة معتبرا باكيا، فكأنى أنظر إليه يمسح مرفض العرق عن جبينه، ثم قال: اللهم قد شددت وضين راحلتى، وأخذت أهبة سفرى الى محل القبر، وفرش العفر، فلا تؤاخذنى بما ينسبون الى من بعدى...» الخ

إن ذلك الكتاب الذى أرسله واصل الى زميله «عمرو بن عبيد» يدلنا — كما قلت — على أن واصلا قد بقيت علاقته بأستاذه ولم يفرق بينهما الخلاف فى الرأى، كما يريد خصوم واصل، وكما يريدون أن يوسعوا شقة الخلاف بينهما، وغضب الأستاذ على تلميذه، مع أن واصلا لم يكتف بمجرد العلاقة بينه وبين أستاذه، بل كان يحرص على سماع دروسه، والانتقال معه فى الأسفار، والارتحال معه فى سبيل العلم؛ لأن هذا الدرس الذى أوصى فيه الأستاذ تلاميذه الذين كان من بينهم (واصل وعمرو) كان بالمدينة فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ ويظهر أنها كانت آخر رحلة من الحسن الى مسجد الرسول عليه السلام، حيث إنه رجع الى البصرة وتوفى بها، وقد صارت العلاقة بينهما على خير حال. وبهذا يظهر خطأ من ظن أن العلاقة بين الأستاذ وتلميذه انقطعت، وأن الأستاذ توفى غاضبا على تلميذه. وأحب أن أقف بالقارئ الى ذلك القدر من الكلام على واصل، وفى مقال آخر سنتحدث عن آرائه الكلامية، إن شاء الله ؟.

بين الخشاب والعطار

من أدباء القرن التاسع عشر

لفضيلة الأستاذ الشيخ عبد الجواد رمضان
المدرس بكلية اللغة العربية

الخشاب: هو السيد اسماعيل بن سعد ؛ اشتهر بالخشاب ، لأن أباه كان نجارا ، ثم فتح له مخزنا لبيع الخشب بالقرب من باب زويلة؛ حفظ القرآن ، ثم طلب العلم ، وتفقه على مذهب الشافعى ، وتثقف فى العلوم العقلية واللسانية ، وأولع بمطالعة الكتب الأدبية ، وكتب التصوف والتاريخ ، وحفظ كثيرا من الأشعار والرسائل والحكايات ، حتى عدّ من نوادر عصره فى المحاضرات والمحاورات والأسمار ؛ مما جعل الرؤساء والعظماء وأرباب الدولة ، يتنافسون فى تقريبه والاختصاص به ، إلى ما طبع عليه من رقة الشمائل ، وخفة الروح ، ودماثة الأخلاق . وكان يحترف الشهادة فى المحكمة ، ثم عينه الفرنسيون مؤرخا لديوان القضايا للمسلمين ، الذى أنشئوه ، ومسجلا لحوادثه وقضاياه ، الى حرفته الأصلية ؛ حتى ارتحل الفرنسيون عن مصر ، وبقى الخشاب معروف المحل ، ميسور الحال ، قريبا الى النفوس ، الى أن توفى فى ذى الحجة سنة ١٢٣٠ هـ .

أما العطار ، فهو أبو على الحسن بن محمد كتن الشهير بالعطار ؛ ولد فى القاهرة فى حدود سنة ١١٩٠ هـ ، ويقال إنه مغربى الأصل ، ورد بعض أسلافه مصر واستوطنها ، ونشأ فى حياطة أبيه الشيخ محمد كتن وكان عطارا فقيرا ، له إلمام بالعلم ، كما يدل عليه قول المترجم فى بعض كتبه : « ذاكرت بهذا الوالد رحمه الله » فكان يستصحبه الى الدكان ويستخدمه فى صغار شؤونه ، ويعلمه البيع والشراء ؛ ولكن غيرة المترجم من لداته المختلفين الى المكاتب ، جعلته فى خفية من أبيه يختلف الى الأزهر ، حتى حفظ القرآن فى مدة يسيرة ؛ فلما نمى ذلك الى أبيه سُرّ به سروراً بالغاً وأعانه على طلب العلم ، فجدّ فى تحصيله على كبار شيوخ وقته ، كالأمير والصبان وغيرهما ، حتى بلغ من العلوم مبلغاً أهّله للتصدى للتدريس ، ولكن ميله الى الاستكمال مال به الى الاشتغال بغرائب

الفنون . فلما هاجت الفتن بدخول الفرنسيين مصر ، داخله الخوف ، ففرّ الى الصعيد كجماعة من العلماء ؛ ثم عاد بعد أن حصل الامن ، واتصل ببعض علمائهم ، فكان يعلمهم العربية ، ويعلمونه من علومهم ؛ مما جعله يقول : « إن بلادنا لا بد أن تتغير أحوالها ، وتتجدد معارفها » ؛ ويطول عجبه مما وصل إليه الفرنسيون من العلوم والفنون .

ثم ارتحل الى الشام سنة ١٢١٥ هـ ، وأقام فى دمشق زمنا ؛ وارتحل الى بلاد الروم سنة ١١١٧ ، وأقام هناك مدة طويلة ، وسكن بلدة « اشكودرة » من بلاد الأرنؤود ؛ وتأهل بها وأعقب ، لكن لم يبق عقبه ثمة . ولم يفتر شغفه بالإفادة والاستفادة فى رحلاته ، حتى عاد الى مصر كما تروح الطير ، مزودا بعلوم وفلسفات انتزعت من مشيخة عصره الإقرار بتفرده ، والاعتراف بامتيازه . وكان أول ما بدأ به بعد عودته ، أن عقد مجلسا لقراءة تفسير البيضاوى ، وكانت قد مضت مدة طويلة ، لم يقدم أحد من مشيخة الأزهر على تدريس هذا التفسير فيها ؛ يحضره أكابر الشيوخ ، وكانوا ينفضّون حلقهم ويقومون الى درسه متى حضر لإلقائه . ومما نقل عنه أنه قال : « قدم علينا مصر عام سبعة وثلاثين ومائتين بعد الألف كبيرُ جبال الدروز ، لقيام أهل الجبال عليه ، ملتجئا بوزيرها محمد على باشا ، وقدم بصحبته بطرس النصرانى ، فاجتمع بالفقير مرارا ، ورأيت منه أدبا جما ومحاضرة ومعرفة بالتواريخ والأيام والأنساب والنحو وغير ذلك ؛ وكان يكتب الخط الحسن ، وامتدحنى بقصيدة منها :

أما الذكاء فانه أذكى وأبرع من إياسهْ
أضحى البديع رفيقه لما تفرد فى جناسه
فى أى فن شئته فكأنه بانى أساسه

ولقد أجناه فوقه فى سائر العلوم ـ لاسيما الحكمية وما يتبعها من الرياضيات والهندسة وكانت غير معروفة فى الأزهر ـ حسدَ معاصريه ، فافتنوا فى نصب الفخاخ له ولمن يتصل به ، وزاد فى حدة ذلك ما كان يلقاه من تقريب والى مصر محمد على باشا ، وعرفانه لفضله ، وإكباره لشأنه .

ومن أغرب ما يروى من مكايدهم : « أن المشايخ اجتمعوا مرة فى القلعة

لأمر من الأمور ، وكان المترجم بينهم وهو شيخ للأزهر ، فسرقوا نعله ، واحتالوا حتى صرفوا خادمه بلغته ؛ فعاد الى بيته فى حارة الحمام ماشيا فى جوربه ، جاعلا « فرجيته » على رأسه تنكرا . . .

وتولى مشيخة الأزهر بعد الشيخ الدمهوجى سنة ١٢٤٦ هـ فقام بها خير قيام . وتوفى سنة ١٢٥٠ هـ .

وشعر العطار ونثره من المتعالم المشهور :

***

وكان بين الخشاب والعطار ودٌّ متبادل ، وألفة وثيقة ، يصفها الجبرتى فيقول : « وبعد أن رجع صاحبنا العلامة الشيخ حسن العطار من سياحته ، مازج المذكور وخالطه ورافقه ووافقه ولازمه ، فكان كثيرا ما يبيتان معا ، ويقطعان الليل بأحاديث أرق من نسيم السحر ، وألطف من اتساق نظم الدرر ، وكثيراً ما كانا يتنادمان بدارى ، لما بينى وبينهما من الصحبة الأكيدة ، والمودة العتيدة ؛ فكان يرتاحان عندى ، ويطرحان التكلفات التى هى على النفس شديدة ، ويتمثلان بقول من قال :

فىَّ انقباض وحشمة فإذا رأيت أهل الوفاء والكرم
أرسلت نفسى على سجيتها وقلت ما قلت غير محتشم

ثم يتجاذبان أطراف الكلام ، فيجولان فى كل فن من الفنون الأدبية والتواريخ والمحاضرات ؛ فتارة يتشاكيان تغير الزمان ، وتكدر الإخوان ؛ وأخرى يترنمان بمحاسن الغزلان ، وما وقع لهما من صدّ وهجران ، ووصل وإحسان ؛ فكانت تجرى بينهما منادمات أرق من زهر الرياض ، وأفتك بالعقول من الحدق المراض ؛ وهما حينئذ فريدا وقتهما ، ووحيدا مصرهما ، لم يعززا فى ذلك الوقت بثالث ، إذ ليس ثم من يدانيهما فضلا عن مساواتهما فى تلك الشؤون التى أربت على المثانى والمثالث ؛ واستمرت صحبتهما ، وتزايدت على طول الأيام مودتهما ، حتى توفى المترجم ، وبقى بعده الشيخ حسن فريدا عمن يشاكله ويناشده ، ويتجارى معه ويحاوره ، فسكت بعد حسن البيان ، وترك نظم الشعر والنثر ، إلا بقدر الضرورة ونفاق أهل العصر ؛

وذلك لتفاقم الخطوب ، وتزايد الكروب ، وفقد الإخوان ، وعدم الخلان ؛ واشتغل بما هو خير من ذلك ، وأبقى ثوابا فيما هنا لك ؛ من تقرير العلوم وتحقيقها ، والتأليفات المتنوعة فى الفنون المختلفة وتنميقها ؛ وهو الآن على ما هو عليه من السعى فى خدمة العلم وإقراء الكتب الصعبة ، وله بذلك شهرة بين الطلاب . . . الخ » اه .

أما بعد ، فان من يقرأ ترجمة العطار ، التى دوّنها المرحوم العلامة أحمد بك الحسينى ، فى مقدمته لشرح كتاب الأم للشافعى ، المخطوطة فى دار الكتب الملكية ، والتى هى المرجع الوحيد ، والتى لخصها المرحوم على مبارك باشا فى الخطط التوفيقية ؛ ثم يدرس ديوان الخشاب المطبوع فى مطبعة الجوائب بالقسطنطينية سنة ١٣٠٠ ﻫ ؛ أقول : إن من يقرأ هذا وتلك ، يجزم — مع الجبرتى — أنهما كانا فريدى وقتهما ، ووحيدى عصرهما ؛ وأنهما أول من حمل راية التجديد فى فجر العصر الحديث ؛ العطار فى سائر العلوم لاسيما الحكمية وما يتبعها من الرياضيات والهندسة ؛ والخشاب فى فنون الشعر والنثر ، وأن من تلاهما من أعلام التجديد ، كالسيد جمال الدين والطويل والامام ، وكصفوت الساعاتى ، والبارودى ومن بعدهما ، اقتدوا قبل أن يؤموا ، ورأوا قبسا فمشوا فى ضوئه ، وتهدوا بسناه ، ووسعوا من دائرته . ويتقاضانا الإنصاف أن نضم الى المترجمين العظيمين ، صاحبهما الكريم العلامة الشيخ عبد الرحمن الجبرتى ، فإنه لم يكن دونهما رغبة فى التجديد ، وشغفا بالعلم ، وعلما بأن وراء علوم الأزهر ، علوما أخرى ، لا سبيل الى رقى الفرد ، ولا الى نهوض الأمة دون الجد فى فى تحصيلها ، والعمل على اكتسابها .

* * *

على أن المترجمين ، وإن افترقت جهتا فوقهما ، يلتقيان فى أن كلا منهما عالج قرض الشعر ، وله فى فنونه مضطرب ، يناسب عصرهما حينا ويسمو حينا ؛ ولهما فيه مساجلات ، لفت نظرى من بينها موشحتان ، بدأ العطار فنظم أولاهما ، وعارضه الخشاب فنظم الأخرى .

وقد رأيت أن أجعلهما موضوع « موازنة » بين المترجمين ؛ ثم بينهما وبين وشاحى العصر الحاضر ، فى حديث آخر ، فقد طال هذا الحديث .

من طرائف القرآن الكريم

لفضيلة الاستاذ الشيخ عبد الغنى عوض الراجحى
المدرس بمعهد القاهرة ومبعوث الأزهر الى لبنان

كنت أثناء اضطلاعى بعمل رسالتى « متشابه النظم فى قصص القرآن الكريم » كثيرا ما يفضى بى النظر تتابعه والاسترسال فيه إلى طرائف قرآنية لم يصرفنى أنها كانت على هامش الرسالة عن تقييدها ، تمهيداً لتخصيصها ببحث مستقل ، والحقائق ضالة الباحث أنى وجدها التقطها .

كان عملى فى جوهره قائما على دراسة القصة فى القرآن : كيف جاءت القصة الواحدة فى سورة على كيفية من الألفاظ والعبارات ، ثم جاءت هذه القصة نفسها فى سورة أخرى على كيفية أخرى من الألفاظ والعبارات، تختلف الحكاية فى موضع عنها فى آخر ، والمحكى فى أصله شىء واحد . (١)

كان بيان السر فى ذلك كثيرا ما يجرنى الى بيان السباق والسياق واللحاق لكل قصة فى كل سورة ، وكان ذلك بدوره يجرنى الى مراجعة السورة مراجعة إجمالية ، واستحضارها بصفة عمومية بحيث تكون من ألفها الى يائها أمام ناظرى كباقة الزهر لا تكاد تختفى فيها زهرة ، وعلى مسمعى كجوقة الموسيقى لا تكاد تند منها نغمة .

وعلى ضوء هذا العمل سرعان ما ظهر لى أنه كثيرا ما يكون للسورة من القرآن ظاهرة تشيع فيها ، وتنساب خلال آياتها ، وتبدو واضحة الكيان قوية المعالم فيما يتجاور أو يتقارب من الآيات .

هذه الظاهرة أعم من أن تكون معنى من المعانى ، أو لفظا من الألفاظ ، أو طريقة من طرق الأداء أو نحو ذلك ؛ كما أنها قد تكون سبباً فى العدول

---

(١) راجع مثالا لذلك فى قصة آدم حيث ذكرت فى السور : البقرة ، الاعراف ، الحجر ، الاسراء ، الكهف ، طه ، ص .

عن طريقة سوق القصة فى سورة الى طريقة سوقها فى سورة أخرى ، وفى العدول عن لفظ الى آخر ، وعن وجه الى آخر ، ونحو ذلك .

انظر مثلا سورة (طه) تصفحها وتتبع آياتها تجدها قد شاع فيها الذكر والنسيان وما يشتق منهما ويدور حولهما ، الأمر الذى كان سببا فى سوق قصة آدم فيها مفتتحة بقوله تعالى « ولقد عهدنا الى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزما » مقتصراً فيها على الإطناب فى ذكر دخول آدم الجنة ، وعهد الله إليه بعدم الأكل من الشجرة ، و نسيانه عهد ربه ، وهبوطه الى الأرض ، مع التنويه له بذكر الله الذى من أعرض عنه فإن له معيشة ضنكا ويحشره الله يوم القيامة أعمى « قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا ؟ قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها ، وكذلك اليوم تنسى » .

على أن سورة (ص) قد شاع فيها الشقاق والخصام ، فكان بدء القصة فيها بقوله تعالى : « ما كان لى من علم بالملأ الأعلى إذ يختصمون » ، وكان الاقتصار فيها على الإطناب فى حكاية ما كان بين إبليس وربه من مقاولات الخصومة والنزاع ، دون التعرض فيها لمسألة دخول آدم الجنة و نسيانه عهد ربه ؛ كما لم يتعرض فى سورة (طه) فى نفس القصة للخصومة والمقاولات بين إبليس وربه .

أما أن سورة (ص) قد شاع فيها الشقاق والخصام « فالذين كفروا فى عزة وشقاق » الآية ٢ ، وقصة داود فيها كثير من الخصومة باللفظ والمعنى من الآية ١٧ إلى الآية ٢٦ ، وأهل النار عند النهاية فى تخاصم ، الآية ٩٦ وما بعدها .

أما أن سورة (طه) قد شاع فيها الذكر والنسيان فذلك يغنيك عن الإطالة فى بيانه الرجوع إلى الآيات ٣ ، ١٤ ، ٣٤ ، ٤٢ ، ٤٤ ، ٥٢ ، ٨٨ ، ٩٩ ، ١١٣ ، ١١٥ ، ١٢٤ ، ١٢٦ (١) .

---

(١) ما ذكر من أرقام الآيات مع ما تشهد له من حقائق فى هذا المقال إنما هو بمثابة مفتاح فى يد الباحث يتسنى له به الولوج إلى مداخل هذا البحث معتمدا على مجهوده الشخصى فأننى لم أجد ـ فيما ترامى اليه بحثى ـ أحدا ذكر شيئا عن هذه الظاهرة فى سور القرآن . والسيوطى على طول باعه فى أمثال هذه المباحث قد حام حولها ولم ينفذ إليها وكانت منه على ضربة معول فلم يضربها . راجع كتابه الاتقان فى علوم القرآن ص ١٢٣ ح ٢ ط الحلبى .

وانظر مثلا آخر سورة يوسف ، ترها وقد شاعت فيها الرؤيا وتأويلها ؛ فالآيات ٤ ، ٥ ، ٦ ، رؤيا وتأويلها ، والآية ٣٦ مع الآية ٤١ رؤيا وتأويلها ، ومن الآية ٤٣ إلى الآية ٤٩ رؤيا وتأويلها ، والآيتان ١٠٠ ، ١٠١ حديث عن الرؤيا وتأويلها .

ثم انظر إليها أيضا وقد شاع فيها المكر والكيد والتدبير؛ فإخوة يوسف يستخلصونه من أبيه بحيلة « أرسله معنا غدا يرتع ويلعب وإنا لحافظون » ، وإنما أخذوه للإيقاع به ثم يبرئون أنفسهم أمام أبيهم بحيلة أن جاءوا على قميصه بدم كذب « وجاءوا أباهم عشاء يبكون قالوا يا أبانا إنا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب ، وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين » .

ثم تقيض له النجاة من الجب بتدبير بالغ اللطف من الله، حيث جاءت سيارة فأرسلوا واردهم فأدلى دلوه ، قال : يا بشرى هذا غلام . ثم تدبر له امرأة العزيز أحكم الحيل حيث غلقت الأبواب وقالت هيت لك، ولما سمعت بمكر نسوة فى المدينة لقولهن : امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حبا إنا لنراها فى ضلال مبين ، مكرت بهن فأعتدت لهن متكأ، وآتت كل واحدة منهن سكينا وقالت اخرج عليهن ، فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن وقلن حاش لله ما هذا بشرا إن هذا إلا ملك كريم ، قالت فذلكن الذى لمتننى فيه ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ، ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونن من الصاغرين . ثم يدبر الله ليوسف خروجه من السجن وظهور براءته، وجعله على خزائن الأرض، حيث رأى عزيز مصر أحلاما عسر تأويلها ، فأرشد الى يوسف رجل كان زميلا له فى سجنه وعلم من تأويله للأحلام ما لا يعلمون . وقد استرجع يوسف إخوته مرة ثانية الى مصر بحيلة « اجعلوا بضاعتهم فى رحالهم لعلهم يعرفونها إذا انقلبوا الى أهلهم لعلهم يرجعون » وإنما كان ذلك لأجل أن يأتوا له بأخ لهم من أبيهم كما قال « ائتونى بأخ لكم من أبيكم ألا ترون أنى أوفى الكيل وأنا خير المنزلين . فإن لم تأتونى به فلا كيل لكم عندى ولا تقربون » ثم استبقى لديه أخاه بحيلة أن جعل السقاية فى رحله ثم أذن مؤذن أيتها العير إنكم لسارقون . « فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ثم استخرجها من وعاء أخيه » وكانوا قد

قالوا «من وجد فى رحله فهو جزاؤه كذلك نجزى الظالمين» وفى الآية ٥ «فيكيدوا لك كيدا» وفى الآية ٢٨ «إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم» وفى الآية ٣١ «فلما سمعت بمكرهن» وفى الآية ٣٣ «وإلا تصرف عنى كيدهن» وفى الآية ٣٤ «فصرف عنه كيدهن» وفى الآية ٥٠ «إن ربى بكيدهن عليم» وفى الآية ٧٦ «كذلك كدنا ليوسف» وفى الآية ١٠٣ «إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون» وفى الآية ٥٢ «إن الله لا يهدى كيد الخائنين».

وانظر مثلا آخر سورة الأنبياء فقد شاعت فيها طريقة ختم الآية بالسكون الناقص يقع خبره فاصلة آخرها نون قبلها واو أو ياء، الآيات ٧، ٨، ١٤، ١٧، ٢٨، ٤١، ٤٦، ٥١، ٥٤، ٦٣، ٦٨، ٦٩، ٧٣، ٧٤، ٧٧، ٧٨، ٨١، ٨٣، ٨٧، ٩٠، ٩٧، ١٠٣، ١٩٤.

وانظر مثلا آخر سورة مريم فانها قد شاع فيها ذكر الرحمة والرحمن حتى فيما يتوهم أن ضد الرحمة فيه أقرب كما فى قول ابراهيم لأبيه «يا أبت إنى أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليا» وقد تردد ذكر هذين اللفظين فى الآيات ٢، ١٨، ٢١، ٢٦، ٤٤، ٤٥، ٥٠، ٥٣، ٥٨، ٦١، ٦٩، ٧٥، ٧٨، ٨٥، ٨٧، ٨٨، ٩١، ٩٢، ٩٣، ٩٦.

لقد بدئت السورة بذكر الرحمة فى قوله تعالى «ذكر رحمة ربك عبده زكريا» فذهبت مخايل هذا المطلع الرحيم تنتظم السورة كلها، كما أنه على أثر هذا الذكر المذكور فى هذه الآية وهى مطلع قصة زكريا توارد سائر قصص السورة مبدوءا بالذكر فى مطالعه على وتيرة واحدة «واذكر فى الكتاب مريم» الآية ١٦ «واذكر فى الكتاب ابراهيم» الآية ٤١ «واذكر فى الكتاب موسى» الآية ٥١ «واذكر فى الكتاب إسماعيل» الآية ٥٤ «واذكر فى الكتاب إدريس» الآية ٥٦

وانظر مثلا آخر سورة الشعراء، فقد شاع فيها ذكر تكذيب الأقوام لرسلهم، ودعوة الرسل لهم بطريقة موحدة. فالآية ١٠٥ وما بعدها «كذبت قوم نوح المرسلين إذ قال لهم أخوهم نوح ألا تتقون. إنى لكم رسول أمين. فاتقوا الله وأطيعون. وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين».

والآية ١٢٣ وما بعدها « كذبت عاد المرسلين . إذ قال لهم أخوهم هود ألا تتقون . إنى لكم رسول أمين . فاتقوا الله وأطيعون . وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين » والآية ١٤١ وما بعدها « كذبت ثمود المرسلين إذ قال لهم أخوهم صالح ألا تتقون . إنى لكم رسول أمين . فاتقوا الله وأطيعون . وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين »

والآية ١٦٠ وما بعدها « كذبت قوم لوط المرسلين . إذ قال لهم أخوهم لوط ألا تتقون . إنى لكم رسول أمين . فاتقوا الله وأطيعون . وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين » .

والآية ١٧٦ وما بعدها « كذب أصحاب الأيكة المرسلين . إذ قال لهم شعيب ألا تتقون . إنى لكم رسول أمين . فاتقوا الله وأطيعون . وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين » كم يأخذ هذا التكذيب كله بحجزة التكذيب المذكور عن أهل مكة فى مطلع السورة الكريمة حيث يقول تعالى فيهم الآية ٦ « فقد كذبوا فسيأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون » ثم انظر الى نفس السورة كيف شاع فيها ذكر هاتين الآيتين المتلازمتين تكتنفان كل قصة فى السورة « إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين . وإن ربك لهو العزيز الرحيم » الآيات ٧ ، ٨ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٣٩ ، ١٤٠ ، ١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٧٤ ، ١٧٥ ، ١٩٠ ، ١٩١ .

كم تأخذ هذه الآيات بحجزة الآية المذكورة مطلع السورة الكريمة فى الآية ٤ حيث يقول الله فى أهل مكة « إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين » .

وانظر مثلا آخر سورة القمر كيف شاع فيها ذكر التكذيب من الأقوام لرسلهم على وتيرة متشابهة قصة نوح « كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا » الآية ٨ وما بعدها .

قصة هود « كذبت عاد فكيف كان عذابى ونذر » الآية ١٨ وما بعدها .

قصة صالح « كذبت ثمود بالنذر » الآية ٢٣ وما بعدها .

قصة لوط « كذبت قوم لوط بالنذر » الآية ٣٣ وما بعدها .

قصة آل فرعون « كذبوا بآياتنا كلها » الآية ٤٢ ، ثم كان ذلك التكذيب كله آخذا بحجزة التكذيب المذكور فى مطلع السورة عن أهل مكة حيث يقول تعالى فيهم الآية ٣ « وكذبوا واتبعوا أهواءهم وكل أمر مستقر »

ثم شاع فى نفس السورة أيضا ذكر « النذر » الآيات ١٦ ، ١٨ ، ٢١ ، ٢٣ ، ٣٠ ، ٣٣ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٩ ، ٤١ ، وكان ذلك كله آخذا بحجزة المذكور مطلع السورة الآية ٥ حيث يقول تعالى « حكمة بالغة فما تغنى النذر »

ثم شاع فى نفس السورة أيضا قوله تعالى « فهل من مدكر » الآيات ١٥ ، ١٧ ، ٢٢ ، ٣٢ ، ٤٠ ، ٥١ ، وكان بمثابة قرع العصا لأهل مكة مرات ومرات ، وكان فى الوقت نفسه آخذا بحجزة المذكور مطلع السورة الآية ٤ حيث يقول تعالى فى أهل مكة « ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر »

وانظر مثلا آخر وأخيراً سورة الرحمن ، والمرسلات كيف شاع فى الأولى قوله تعالى « فبأى آلاء ربكما تكذبان » وفى الثانية قوله تعالى « ويل يومئذ للمكذبين » (١) .

إن سور القرآن روضات واضحة الحدود والمعالم ، لكل روضة رواء خاص وحسن متميز يترقرق فيها ، وهو على شىء كثير من التشابه فى مظهره ، والتناسب فى جوهره « كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير » .

جواد

نظر خالد بن عبد الله القسرى من مظلة له يوما فرأى أعرابيا مقبلا على بعير له فقال لحاجبه : إذا قدم فلا تحجبه ، فلما قدم سلم وقال :

أصلحك الله قل ما بيدى … فما أطيق العيال إذ كثروا
أناخ دهر ألقى بكلكله … أرسلونى اليك وانتظروا

فقال خالد : إذن لا تنزل لكى تسرع اليهم بما يسرهم . وأمر له بجائزة .

(١) راجع أيضا السور المائدة والصافات والكهف املك واجد فيها ما هو من هذا القبيل .

بحث فى مقارنة الشرائع الوضعية

بالشريعة الاســـــلامية

لحضرة الأستاذ صالح بكير
المدرس بكلية أصول الدين

المحرمات من النساء وإجازة الزواج

بينا فيما سبق أن الزواج يحرم بين الرجل والمرأة إذا كانت بينهما قرابة أو مصاهرة ، وتضيف الشريعة الإسلامية الى ذلك الرضاع .

والتحريم يرجع الى عوامـل فسيولوجية ، والى أنه يؤدى الى ضعف النسل وانتشار الأمراض ، كما يرجع الى عوامل أخلاقية ونفسية .

ومع ذلك ففى بعض الأحوال الخاصة لبعض التشريعات غير الإسلامية يصح التجاوز فيها عن هذا التحريم ، فيرخص بالزواج . وسنتعرض لذكر بعضها :

أولا — فى عهـد التشريع الـكنسى أمام كثرة الموانع التى ابتـدعتها الـكنيسة والتى ترتب عليها حصول اضطراب كبير ، اضطرت هذه لأن ترخص بالزواج وتتجاوز عن بعض الموانع ، وكان ذلك لالغاء كثير من الموانع . وفى العهد الأول للـكنيسة ما كانت توجـد تراخيص يطلق عليها ترخيص بمعنى الكلمة ، حيث لم يكن للـكنيسة سلطان على تابعيها فيما يختص بمادة الزواج ، إلا السلطة التأديبية ، فللقاضى الـكنسى إما الابقاء على الزواج أو أن يفصم فقط عراه .

وحينما أصبح القانون الـكنسى تشريعا حقيقيا بالنسبة لمادة الزواج ، ظهرت نظرية الاجازة والترخيص كامتيـاز خاص وقاصر على المشرع فقط .

وفى القرن الثانى عشر على الأقل كان البابا يحتفظ بالسلطة العامة لمنح تراخيص الزواج ووضع القواعد والشروط التى تحدد تطبيقاتها . وحينما حصل النزاع فى حق تشريع مادة الزواج بين الدولة والكنيسة ، لم تتوان الدولة فى أن تدعى لنفسها حق الترخيص بالنسبة للموانع التى قررتها هذه .

وقد تقرر أن الموانع التى منشؤها حق طبيعى أو حق إلهى لا تلحقها الاجازة ، أما الموانع التى منشؤها يرجع الى الحقوق الوضعية ، فانها هى التى تكون محل إجازة وترخيص ، سواء كان ذلك تشريع الكنيسة أو تشريع الدولة ، كالترخيص بزواج الأعمام أو الأخوال أو العمات أو الخالات مع أولاد الأخ أو أولاد الأخت ، وكالترخيص بالزواج بين أولاد الأعمام أو أولاد الأخوال أو أولاد العمات أو أولاد الخالات ، وكالترخيص بالزواج بين إخوة الزوجين ، وكالترخيص بالزواج بين بعض أقارب الزوجين الخ .

وقد قرر مجلس الترانت عدم منح تراخيص الزواج إلا فى أحوال نادرة ولأسباب هامة ، ومع ذلك فانه لم يراع هذا القرار حيث تضاعف عدد الموانع وزادت زيادة فاحشة ؛ فمن ذلك عدم كفاية الدوطة ، وسن الخمس والعشرين سنة للبنات ، وكالالحاد الخفى ، وكوسيلة لانهاء دعوى هامة قائمة ، وكالاحتفاظ بأموال أسرة محترمة ، وغير ذلك .

وإجراء طلب الترخيص يكون برفع عريضة للبابا الذى يرسل بدوره الترخيص على شكل رسالة للكاهن المنتدب الذى يقوم بتحقيق الوقائع الموجبة للترخيص الممنوح .

ثانياً — وأما القوانين الحديثة فقد ظهرت شديدة الحرص فى هذه المسألة حيث لم تبق من الموانع إلا ما كان ضروريا ؛ فمثلا القانون المدنى الفرنسى لا يجيز الترخيص بالزواج الممنوع إلا فى أحوال ضيقة ، فهو لا يجيز مطلقاً الزواج فى عمود النسب (بين الأصول والفروع) كما لا يجيز الزواج بين الولد المتبنى وبين زوج من تبناه أو بالعكس ، ولكنه يرخص الزواج بين بعض الأقارب والأصهار ، بشرط أن تكون هناك أسباب خطيرة ، وبشرط موافقة رئيس الدولة على ذلك ، فقد نصت المادة ١٩٤ على ما يأتى :

بطلان الزواج وإلغاؤه — عموميات :

البطلان المطلق والبطلان النسبي

الجزاء المترتب على مخالفة الشروط المقررة لعقد الزواج هو فصم وانحلال عرى الزوجية . وقد كان قديما بطلان الزواج ونظر دعـواه من اختصاص المحاكم الكنسية والبرلمانات . وقد نشأت عن ذلك حلول تهيأت لأن يأخذ بها القانون المدنى الفرنسى فيما بعد ، خصوصاً التمييز بين الموانع المحرمة تحريما بسيطا ، وبين الموانع المحرمة تحريما مطلقا قاطعا ، والمؤدية الى إبطال الزواج واعتباره كأن لم يكن ، كما هيأت هذه الحلول أيضا للقانون المذكور نظرية البطلان المطلق والبطلان النسبى . والفرق بينهما أن البطلان المطلق يبيح لكل ذى مصلحة فى رفع دعوى الإبطال كما يبيح ذلك أيضا للنيابة العمومية ، (وهذا يشبه دعوى الحسبة) بينما أن البطلان النسبى لا يبيح رفع دعوى الابطال إلا للزوجين أو لأحدهما أو لأقاربهما فقط . وقد زالت أهمية بطلان الزواج أمام ظهور تشريع الطلاق ؛ إذ أنه فى العهد القديم كان الطـلاق غير مباح وغير مشروع ، كما كان الالتجاء الى إبطال الزواج هو الشائع كواسطة لانهاء الزوجية ، وكانت أحواله كثيرة ؛ فقد كان يكفى الغلط أو الإكراه مثلا للحكم ببطلان الزواج ، وكان هذا يقـوم مقام الطلاق . والفرق بين البطلان والطلاق أن الطلاق يفصم عرى الزوجية مستقبلا بينما يعتبر الزواج كأن لم يـكن .

أحوال البطلان فى القانون المدنى الفرنسى

أحوال البطلان التى نص عليها هذا القانون ست : (١) عدم رضا الزوجين أو أحدهما (٢) عدم موافقة القريب الذى له حق الموافقة على الزواج بالنسبة للقاصر ، وهاتان الحالتان ترجعان الى حماية إرادة الزوجين . وأما الأربعة

الباقية فترجع الى النظام العام ، ولذا فالبطلان المترتب عليها بطلان مطلق ، وهي (٣) عدم البلوغ (٤) قيام زوجية لأحد الزوجين أو لكليهما (٥) التزوج بالمحارم (٦) عدم مراعاة شرط من الشروط الشكلية الجوهرية كالإشهار ، وكاختصاص مأمور الأحوال المدنية الخ . وسنتحدث عن أحكام نوعي البطلان.

البطلان النسبي

(١) من أسباب البطلان النسبي عيوب الرضا كالغلط والإكراه والغش ، وهي معروفة ؛ ومع ذلك فإن عيوب الرضا أساسا ليست سببا لبطلان الزواج اللهم إلا إذا كان الاكراه خطيرا ؛ وأما الخوف من الوالدين الناشيء عن الاحترام فلا يعتبر سببا لبطلان الزواج ، بينما الغلط لا يكون سببا للبطلان إلا إذا كان الغلط واقعا على ذات الشخص . وهذا لا يتأتى الآن عمليا لأنه طبقا للقانون المدني الفرنسي لا بد من حضور الزوجين أمام مأمور الأحوال المدنية ، وهذا يبعد كثيرا الوقوع في الغلط على ذات الشخص ، ولكن المحاكم الفرنسية ذهبت الى إمكان الحكم بإبطال الزواج في حالة الغلط في الصفات الجوهرية للشخص ، إذ تعتبر هذه الصفات كذات الشخص ، فالغلط فيها يعتبر كالغلط في ذات الشخص .

ثم ليس لأحد خلاف الزوجين طلب إبطال الزواج ، ولكن المعاشرة لمدة ستة أشهر بعد زوال الاكراه أو العلم بالغلط تعتبر إجازة ضمنية للزواج وقد تكون صريحة بالموافقة بالقول .

(٢) ومن أسباب بطلان الزواج عدم الموافقة عليه ممن له حق الموافقة، وذلك بالنسبة لزواج القاصر . وحق طلب إبطال الزواج قاصر فقط على من له حق الموافقة ، وقد حدد القانون مدة لرفع دعوى الابطال ، فالسكوت طول هذه المدة يعتبر إجازة ضمنية ، وقد تستخلص الاجازة الضمنية أيضا من بعض الوقائع والظروف ، وكما تكون الاجازة صريحة بالقول .

أسباب البطلان المطلق :

هي (١) عدم الرضا من الزوجين أو من أحدهما (٢) عدم البلوغ القانوني

(٣) وجود زوجية قائمة لأحد الزوجين أو كليهما خلاف هذه الزوجية (٤) الزواج بأحد المحارم (٥) عدم الاشهاد (٦) عدم اختصاص مأمور الأحوال المدنية . وهذه الأسباب تبيح لكل ذى مصلحة كما للنيابة العمومية طلب إبطال الزواج . وهذ البطلان لا تلحقه الاجازة . ومع ذلك ففى بعض الأحوال يصح إجازة هذا الزواج وينقلب صحيحا .

هل هناك أحوال يمكن أن يعتبر فيها الزواج غير موجود ؟

لم يشر القانون المدنى الفرنسى الى هذه الأحوال ، ولكن يستفاد ذلك من القواعد المقررة لإجراء عقد الزواج ، فلا يمكن مثلا أن يقال إن هناك زوجية عند اتحاد جنسى المتعاقدين ، وكعدم إشهار الزواج أو كعدم تدخل مأمور الأحوال المدنية ، أو كعدم تسجيل عقد الزواج فى السجل . ففى مثل هذه الأحوال لا يمكن أن يقال بوجود زوجية . والفرق بين البطلان المطلق وعدم وجود الزوجية أن البطلان المطلق قد تلحقه الإجازة فى بعض الصور ، بينما عدم الوجود لا تلحقه الاجازة ، لأنها فرع الوجود وتصحيح لخطأ .

آثار بطلان الزواج :

يترتب على بطلان الزواج انعدام آثاره فى الماضى والمستقبل ، بينما فى حالتى الطلاق والوفاة تنعدم الآثار فى المستقبل دون الماضى . والأصل أن الزواج الذى حكم ببطلانه يعتبر كأنه لم يكن ، ولم يخرج عن كونه معاشرة غير قانونية فتعتبر الأولاد أولاداً غير شرعيين ، ولا تسقط أهلية المرأة فى التصرفات ، كما أن العقد الخاص بالنظام المالى بين الزوجين يعتبر كأنه لم يكن الخ .

ويلاحظ أن المرأة التى حكم ببطلان زواجها لا يجوز لها أن تعقد زواجا جديداً من شخص آخر قبل خروجها من العدة ، وهى عشرة أشهر من وقت صدور الحكم بالبطلان .

الزواج الفاسد .

ولخطورة هذه النتائج وقسوتها بالنسبة للزوجين أو لأحدهما ، وبالنسبة

للأولاد ، ابتدعت الكنيسة ابتداء نظرية الزواج الفاسد . وملخصها أن الزواج الذى حكم ببطلانه يعتبر كأنه زواج صحيح بالنسبة للأولاد ، وكذلك بالنسبة للزوجين أو لأحدهما إذا ثبتت حسن نيتهما أو حسن نية أحدهما . وعلى هـذا فتعتبر الأولاد أولاداً شرعيين ، وعلى الزوجين أن يفترقا وينقطعا عن المعاشرة ويعيدا زواجهما طبقا للشروط والأوضاع القانونية . وقد أقر القضاء الفرنسى هذا المبدأ واتبعه .

الشريعة الاسلامية

إذا رجعنا لمذهب الأحناف نجد أنه عرف الباطل بأنه العقد الذى لم يشرع بأصله ولا بوصفه ، والفاسد ما شرع بأصله دون وصفه . فالزواج الباطل هو كما إذا حصـل خلل فى صيغة العقد أو خلل فى أصل أهلية المتعاقدين لفقد التمييز كالجنون أو الصغر . وهذا الزواج يعتبر كأنه لم يكن ، ويعتبر وجوده كعدمه ، ويعتبر الدخول بمنزلة الزنا ، فلا عدة على المدخول بها بعد المتاركة ، ولا يثبت به نسب ، ولا حرمة مصاهرة ، ولا توارث ، ولا مهر ، ولا نفقة ولا طاعة.

وأما الزواج الفاسد فهو كما إذا اختل شرط من شروط صحته كعقد الزواج بغير شهود . ومجرد هـذا العقد لا يترتب عليه أثر ما ، بمعنى أن المتزوجين زواجا فاسدا إذا افترقا قبل الدخول لا تثبت به عدة ولا مهر ولا حرمة مصاهرة ولا نسب ولا ميراث . أما إذا دخل الزوج دخولا حقيقيا فيترتب على ذلك : (١) وجوب المهر على الزوج ، إما مهر المثل أو الأقل من المسمى ومن مهر المثل إن سمى فى العقد مهر . (٢) وجوب العدة على الزوجة بعد التفريق . (٣) ثبوت النسب . (٤) حرمة المصاهرة ، وما عدا هذه الآثار الأربعة فلا يترتب على الزواج الفاسد أثر آخر كالتوارث والنفقة والطاعة وحل الاستمتاع .

ودعوى التفريق تثبت لـكل مسلم لأنها من دعاوى الحسبة إزالة للمنكر . وأما المالـكية والشافعية فلا يفرقون بين الباطل والفاسد . وعلى هذا فكل نـكاح لم تتوفر فيه الشروط المقررة فهو نـكاح باطل وفاسد ، وأما من حيث الأثر وخصوصا النسب فقد وضع المالـكية قاعدة عامة وهى :

« كل نكاح يندرىء به الحد فالولد لاحق بالواطىء ، وكل نكاح يجب فيه الحد لا يلحق الولد بالواطىء » .

ويستنتج مما سبق :

(١) أن الشريعة الاسلامية لم تقع فى ذلك الاضطراب الذى وقعت فيه الشرائع الأخرى .

(٢) عدم وجود ما يسمى بالترخيص أو إجازة الزواج فى الشريعة الاسلامية ، وهذا واضح لعدم وجود تعقيد فى عقد النكاح الاسلامى .

(٣) لا توجد فى الشريعة الاسلامية دعوى إبطال الزواج لأن البطلان أو الفساد ثابتان ، وإنما القاضى يحكم بالتفريق بعد ثبوت البطلان أو الفساد .

(٤) دعوى التفريق فى الشريعة الاسلامية حق لكل مسلم من باب إزالة المنكر . وبهذا يتضح تفوق الشريعة الاسلامية على غيرها من الشرائع الأخرى لتمشيها مع المنطق والأخلاق ، وأن قواعد النكاح التى وضعتها خلت من التعقيد والاضطراب ، فأصبحت صالحة لكل عصر . وهذه الميزة لا توجد فى الشرائع الأخرى التى تغير كل يوم فى قواعد زواجها . وهذا فخر عظيم للفقه الاسلامى والشريعة الاسلامية ؟

أجوبة محكمة

قال هرون الرشيد لعبد الملك بن صالح : أكفراً بالنعمة وغدراً بالامام؟ فقال الرجل: ماذلك ياأمير المؤمنين إلا بغى باغ نافسنى فيك بقديم الولاية وحق القرابة.

فقال الرشيد : هذا قمامة كاتبك يخبرنى بفعلك . فقال عبد الملك : أحقا يا قمامة ؟ قال نعم ، لقد أردت ختل أمير المؤمنين والغدر به . فقال عبد الملك : كيف لا يكذب علىّ من خلفى من بهتنى فى وجهى .

قال الرشيد : هذا ابنك شاهد عليك . قال عبد الملك : ياأمير المؤمنين هو بين مأمور أو عاق . فان كان مأمورا فمعذور ، وإن كان عاقا فما أخاف من عقوقه أكثر .

لغـــويات

القيثارة

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد على النجار
المدرس بكلية اللغة العربية

جرى هذا اللفظ هكذا فى عبارات المحدثين . وهو لضرب من آلات اللهوذى ستة أوتار تحرك بالأصابع فيأتى من ذلك غناء مطرب . وهذا اللفظ معرب عن جيتار فى الفرنسيـة guitare ، وهو مبدوء بالحرف الذى بين الجيم والـكاف ، و يعرف بالجيم الفارسية . فترى أنهم أبدلوه قافا ، لما لم يكن هذا الحرف من حروف العربية الفصيحة . و إنى أختار وأستحب أن يكون بدل هذا الحرف جيم عر بيـة ، فيقال : الجيثارة . وقد فعل العرب ذلك بكلمات كثيرة عر بوها على هذا النحو . فقد قالوا الجام وأصله لـكام بالـكاف الفارسية ، وقالوا آجرّ ، وأصله أيضا فى الفارسية آ كر ، وقالوا الجرداب لوسط البحر ، وأصله الجيم الفارسية ، إلى كثير من المعربات على هذا النسق. على أن العرب فى قليل من الألفاظ أبدلت من الجيم الفارسية قافا ، وكافا، فقالوا : قُرْبَق ، وكُرْبَق لدكان البقال ، وأصل الـكاف والقاف فيه الـكاف الفارسية . و إنى أسوق إليك نصا لإمام النحو سيبويه إذ يقـول : « يبدلون من الحـرف الذى بين الـكاف والجيم الجيم لقـربها منها . ولم يكن من إبدالها بدّ ، لأنها ليست من حروفهم . وذلك نحو الجر بز ، والآجر والجورب . وربما أبدلوا القاف ، لأنها قريبة أيضا ، قال بعضهم : قربز ، وقالوا : كوبق وقوبق(١) » والجُرْبُز: الخب الخبيث، وهومعرب عن الفارسية . ولقد وقفت على صورة للـكلمة (قيثارة) قديمة أتت بالـكاف . وذلك فى شعر أبى عامر ابن شُهَـيد الأديب الأندلسى . وذلك حيث يقول (٢) :

تغنيه أطيار القيان إذا انتشى   بصنج وكيثار وعود كِران

---

(١) من الـكتاب ج ٢ ص ٣٤٢   (٢) من الذخيرة ج ١ ، ص ٢٦٧

وخير لنا أن نتبع هذا التعريب القديم إذا لم نصر إلى الجيثارة . ومما يحسن ذكره فى هذا المقام أن اللفظة انتقلت إلى الفرنسية عن الاسبانية وهى فى لغتها الأسبانية جسترا guistarra فدخلت الفرنسية بحكم الجوار ، ودخلت العربية فيما يبدو عن الاسبانية بحكم المخالطة والمداخلة فى الأندلس فى عهده السعيد . وفى بعض المعاجم أن الكلمة فى الأغريقية ، ويحتمل أن تكون العربية أخذت عنها . وما ذكرناه هو الأرجح .

ويرى القارىء مما سبق أن ابن شهيد استُعمل الكيثار غير مختتمة بتاء التأنيث . ويستعملها المحدثون تارة مجردة من التاء كما فعل ابن شهيد . انظر الى قول الأستاذ محمد الصياد (١) :

ألقيت للنار فى غفلة منى
عودى وقيثارى وقلت لى : غَنّ

وتارة بالتاء ــ وهو الجارى فى الاستعمال ــ ومن ذلك قول الأستاذ (٢) أنور العطار فى البصرة :

مدينة الماء والرواء فتنتِ بالحسن كل راء
وهجت قيثارة الفضاء بأعذبَ الشعر والغناء

احتج العمال على سوء معاملتهم

ترى هذا وأمثاله كثيرا . يستعمل الاحتجاج فى موضع الإنكار والسخط لبعض الأشياء التى تنوب امرأ أو طائفة أو شعبا من الشعوب . فالدولة تحتج لدى الدولة الفلانية أن أهين سفيرها ، وأذيل نائبها ؛ والشعب يحتج على إنكار حقه وهضمه ، وهكذا مما لا تكاد صحيفة دورية تخلو منه . والاحتجاج فى وضعه اللغوى هو الإدلاء بالحجة والدليل لتأييد الدعوى ، وتمكينها ، ولا تراه فى وضعه يدل على الانكار الذى أطبق الناس على استعماله فيه . والبحث يهدى إلى أن مردّ هذا الاستعمال فى العربية الترجمة لأسلوب غربى يأتى فيه ما يقابل لفظ الاحتجاج لمعنى الانكار . ويلاحظ أن الأسلوب الغربى تقرن فيه مادة الاحتجاج بعبارة تدل على المخالفة والمخاصمة فيقال فى الفرنسية :

١ ــ من مجلة الكتاب جزء نوفبر سنة ١٩٤٧ .
٢ ــ المصدر السابق .

أحتج فى مـواجهة جَـور واقع . Je proteste contre une injustice

وهذه العبارة التى تقارن مادة الاحتجاج تشعر بها معنى الإنكار والاستياء ، وليس كذلك ما يقرن بمادة الاحتجاج فى العربية ؛ فإنها توقع السامع فى لبس وإيهام. فالمعنى الوضعى لقولك : أحتج على إهانتى : أنى أقيم الحجة على هذا الأمر وأعتقده وأدفع عنه . ويحلو لبعض الباحثين أن يخرج هذا الأسلوب على المجاز ، فيزعم أن الانـكار يدعو الى الاحتجاج والاستدلال وبيان ما يدعو اليه من الأسباب ، وقد دل بالمسبب وهو الاحتجاج على السبب وهو الانـكار . وقد علمت أن الداعى لاستعمال الاحتجاج فى الانـكار لم يكن هـذا الذى يذكره هذا الباحث ، وإنما هو الترجمة للأسلوب الغربى ، كما عرفت. والأسلوب الغربى قد لابسه ما يقربه من معنى الانـكار ، وقـد خلا عن ذلك الأسلوب العربى . فالأولى للأدباء هجر هـذا الاستعمال ، والعود الى أن يستبدلوا به مادة الانـكار أو السخط أو الاستياء ، وما جرى هذا المجرى .

أخطركم بكذا

تستعمل مادة الإخطار بالشىء فى الإعلام به . يقول الناس فى هذا العصر : أخطرت فلانا بكـذا ، وأخطر الرئيس العامل أنه فصل واستغنى عنه ، وأخطر صاحب البيت الساكن بالاخلاء ، يراد أنه أعلمه بذلك . ولا نرى هـذا المعنى للمادة فى اللغة ؛ غير أن عندى لها تخريجا : أن يكون هذا الأسلوب على القلب فى القصة ؛ والأصل أن يقال : أخطر بك هـذا الأمر أى أجعله يخطر بك ، يقال : أخطر الله بباله أمر كذا : وضعه فى خاطره وروعه وقلبه . وذلك فيه معنى الاعلام . فمعنى أخطر بك كذا : أشعرك به وأدريك ، فقلب هذا فقيل : أخطرك بكـذا . والقلب يجرى فى المخاطبات كثيرا ؛ من ذلك عرضت الحوض على الناقة ، وخلعت رأسى من القلنسوة ـ وقد سلف لنا بحث فى القلب يحسن الرجوع اليه فى هذه المجلة ـ وقد رأيت أن الإخطار كثيرا ما يستعمل فى الإعلام بالأمر المـكروه ، وهو يرادف فى هذه الحالة الإنذار . ومما يستعمل فى بعض الحين فى معنى الانذار : الايذان . فهو فى وضعه الأصلى للاعلام ، يقال : آذنته بكـذا : أعلمته . ومن استعماله فى الانذار قوله تعالى : « فان تولوا فقل

آذنتكم على سواء» . قال الزمخشرى : «وآذن منقول من أذِن إذا علم . ولكنه كثر استعماله فى الجرى مجرى الانذار، ومنه قوله تعالى: « فأذنوا بحرب من الله ورسوله » ، وقول ابن حلزة : آذنتنا ببينها أسماء » .

مرافق لهذا صورة لشهادة الميلاد

ترى هذا الأسلوب فى الكتابات الديوانية . وكثيرا ما يجد القارىء مثل هذه العبارة : مقتطع من راتب فلان خمسة قروش . والمتبادر فى هذا الأسلوب أن يكون الوصف الذى بدئت به الجملة خبرا مقدما وذو الوصف مبتدأ مؤخر ، فرافق خبر ، وصورة مبتدأ ، وهكذا على هذا النحو . ولكن يقوم فى وجه هذا التخريج أن الخبر يجب أن يكون مطابقا للمبتدأ ، فكان الواجب أن يقال : مرافقة لهذا صورة ... وعلى ذلك لا يستقيم هذا الوجه . والتخريج الصحيح أن يكون مرافق مبتدأ وصورة فاعلاله سد مسد الخبر ، ولا يجب تأنيث المبتدأ فى هذه الحالة . وترى أن الوصف استغنى بمرفوعه عن الخبر دون أن يعتمد على نفى أو استفهام ، وهذا رأى الأخفش والكوفيين . ولا بأس باتباعه لتصحيح هذا الأسلوب الجارى بين الناس .

دخل الطلبة المدرسة اثنين اثنين

يتردد هذا الأسلوب فى الدلالة على تكرار العدد ، فيكررون اسم العدد كما ترى . والمعروف عن العرب فى هذا أن يأتوا بلفظ واحد بدلا من العدد المكرر ؛ فيقال : دخل الطلبة المدرسة مثنى أو ثُناء ، يعدلون إلى إحدى هاتين الصيغتين عن اثنين اثنين . وهكذا يقولون : دخلوا أُحاد وموحد ، وثلاث ومثلث ، ورباع ومَرْبع . وفيما جاوز هذه الأعداد خلاف طويل الذيل بين علماء العربية لا يعنينا تفصيله وبسطه فى هذا المقام . وقد ذكرت هذا حين وقع نظرى فى صحيفة أخبار اليوم ٣/ ٥/ ١٩٤٧ على النبأ الآتى : « اتفق ستون من طلاب جامعة لوفان على أن يخرجوا من جامعتهم اثنين اثنين فى الساعة التاسعة صباحا » ، وقلت : إن هذا خطأ من الكاتب لم يوافق الاستعمال العربى الصحيح ، ولو توخّاه لقال : على أن يخرجوا من جامعتهم مثنى ، أو ثناء . وقد كنت مقتنعا بهذا الحكم منذ قراءتى لشرح الأشمونى ؛

فقد وقفت حين ذاك فى حواشى الألفية للشيخ يس على قوله : « لا يقال : جاءوا واحدا واحدا ، ولا اثنين اثنين ؛ لأن العرب قد عدلوا عن ذلك إلى أحاد ومثنى ، وكذا أخواتهن . فهذا من الأصول المهجورة نص عليه فى الدُرّة». ورجعت إلى الدرة ، وهى دُرَّة الغواص للحريرى ، فألفيت النقل صحيحا لم يخرم منه الشيخ يس حرفا . وأردت التثبت والتوسع فى هذه المسألة فرجعت إلى ما كتبه الشهاب الخفاجى على الدرة ؛ فقد كنت أعلم أنه كثيرا ما يتعقب الحريرى فى تخطئته للأساليب الجارية ، ويكر عليه كر الناقد البصير . ولقد ألفيت الشهاب الخفاجى يخطىء الحريرى فى هذا الحكم ، ويصوب تكرير العدد فيما أسلفت ، ويسوِّغ أن يقال : دخل الطلبه المدرسة اثنين اثنين . وإنى أسوق إليك كلامه ، ثم أناقشه فيه : قال الشهاب : « تخطئتهم فى استعمال واحَدا واحدا إلى آخر ما ذكره للدلالة على التكرير خطأ ؛ لأنه مقيس كثير فى كلام العرب ؛ كما قال الشاعر :

إذا شربنا أربعا أربعا فقد لبسنا الفرو من داخل

ولو لم يكن أصلا شائعا لما كان أحاد معدولا عنه ، وكان العدل فيه تقديريا ، ولا قائل به . وفى شرح الكافية للحديثى : أسماء العدد المستعملة للتكرير المعنوى بلفظها مطردة . وإنما عدل ليكون نصا فيما قصد به ؛ فإن ثلاثة ثلاثة مثلا يحتمل التأكيد بخلاف صيغ أحاد وموحد » . وترى أنه رد على الحريرى بأمرين : الأول أنه مقيس ؛ وهذا لا ينازع فيه ولا يجحد ، فلا فرق بين قولك : أعط المساكين درهمين درهمين ، وقولك : جاءوا اثنين اثنين فى مجرى القياس . والثانى أنه كثير فى الاستعمال . وهذا إذا صح كان هدما لكلام الحريرى ونقضا أى نقض له . فإن الحريرى بنى حكمه على أن هذا أمر اطوحه العرب وأهملوه وهجروه ، وما اطوحه العرب فهو مُطرح ، وإن سوّغه القياس على النظائر والأمثال . وترى أن الشهاب لم يجىء فى سبيل دعواه كثرة الاستعمال لما أنكره الحريرى بشىء يذكر ، ولا سلطان مبين . فكل ما أورده قول الشاعر : إذا شربنا أربعا أربعا ، والظاهر أن الشاعر يريد : إذا شربنا أربعا من الأكؤس ثم أربعا منها ، وعلى ذلك لا يكون المقام لرباع ؛

فإنه لو قال: إذا شربنا رباع كان المعنى: أننا طوائف، كل طائفة أربعة في حال الشرب كما لو قيل: خرجنا رباع أي خرجنا طوائف كل طائفة أربعة، ولو أراد هذا لكان المقام لتأنيث العدد فيقول: إذا شربنا أربعة أربعة. وهذا يحصل لو شرب كل واحد من الطوائف كأسا واحدة، ولا يؤدي هذا الى ما رتب عليه وقدر من قوله: فقد لبسنا الفرو من داخل، أي عمنا الدفء أو غمرنا الحر؛ فإن ذلك لا يكون بالكأس الواحدة. فترى أن الشهاب ركب الشطط في هذا الاستدلال. على أنه لم يحلّ الشاعر صاحب هذا البيت بما يرفع الجهالة عنه حتى نعلم حاله في الاحتجاج به. فلعله أن يكون من المولدين الذين لا يحتج بكلامهم. ويغلب على الظن هذا، فإن المعنى الذي ذكره، وهو لبس الفرو من داخل للكناية عن الدفء، معنى غريب يأتي من التأمل والنظر، ولا يكون للعربي الساذج. ودعواه أن هذا الأصل لو لم يكن شائعا لم يكن أحاد معدولا عنه كلام لا يغني عنه من الحق شيئا. فكثير من الأشياء عدل عنها واقتصر على الفرع وأهمل الأصل إهمالا كليا. ألا ترى أن الأصل في قولك: عسى زيد أن يقوم، عسى زيد قائما، ولو قيل هذا الأصل لوقع القائل في الخطأ الفاحش، وقد حكموا بالشذوذ على قول الشاعر:

أكثرت في العذل ملحاً دائما لا تكثرن إني عسيت صائما

وبعد، فما زلت على رأيي الاول في استهجان الاسلوب المدون في صدر البحث، ولا أزال كذلك حتى يثنيني عنه وجه صحيح. وفقنا الله لاتباع الحق حيث كان.

شرجه

تستعمل هذه العبارة في معنى مساوي الشيء ونظيره في أمر من الامور. وجاء في مجلة الاثنين ١٩٤٧/٩/١٦ ما يأتي « وأنا أيضا شرحه » ويبدو لي أن الأصل شرجه. فصحف الجيم الى الحاء. ومثل هذا كثير. والشرْج في اللغة من معانيه: المثل، والنظير. والله أعلم.

إيمان أبي بكر

لفضيلة الأستاذ الشيخ إبراهيم على أبو الخشب

الايمان ضرورى للبشر لا يقل مسيس الحاجة إليه عن مسيسها الى الطعام والشراب ؛ وذلك لأنه إذا كان الطعام والشراب غذاء الأجسام وقوامها ، فإن الإيمان غذاء الأرواح تسمو به الى ملكوت علوى من العقيدة ربما كان من الصعب تحويلها عنه ، خصوصا إذا كانت من تلك النفوس الكبيرة التى لا ترى اللذة والسعادة إلا فى محيطه الواسع العميق . . . وهذا هو السر — على ما أرى — فى أن المؤمنين يستهينون بالموت ، ويستعذبون الاستشهاد ، ويستسيغون التضحية ، ويستصغرون الشدائد مهما كان لونها وطعمها ؛ بل يطلبون ذلك ، ويعملون له ، لتنمو تلك الشجرة وتتمكن ، فاذا « أصلها ثابت وفرعها فى السماء تؤتى أكلها كل حين باذن ربها » . وكأنما يبتغون هذا العراك رياضة وتهذيبا ، وثقافة وتأديبا .

وفضيلة الدينار يظهر سرها فى حكه لا فى ملاحة رقشه

ومن هنا كان الجهاد — فى الاسلام — بابا من أبواب الجنة . ومن هنا أيضا كان نزوع محمد قبل الرسالة وقلقه وحيرته واضطرابه وخلوته بغار حراء الليالى ذوات العدد ، يتطلع الى هدف يركز فيه إيمانه ، ويقصر عليه قلبه ولسانه ، وسره وإعلانه .

ومسارعة أبى بكر رضى الله عنه الى الرسول صلى الله عليه وسلم واضعاً يده فى يده مذعنا لما جاء به الى قريش خاصة ، والى الناس عامة ، قد يؤولها المؤولون بالصحبة القديمة ، والمودة السالفة ، التى ربطت بينهما طفلين غريرين ، وشابين فتيين ، ورجلين كبيرين ؛ والحب إذا تحكم بين شخصين ، وتأكدت فى نفوسهما أواصره ، غطى على كل اعتبار ؛ مع أن الأمر ليس كذلك ؛ فان الرجل كان من الظامئين المتعطشين ، لم يلبث حين توجهت إليه الدعوة أن أصابت منه «مواقع الماء من ذى الغلة الصادى» . ولو أنه عبد الأوثان

أو آمن بغير الله ، لـكانت له كبوة ، وقال كما قال المعاندون : « إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون » .

وإذا كان الإيمان خوفا مشوبا بشك يساور العابد فى رضاء معبوده ، فانه كذلك صلابة فى الحق ، وثبات على المبدأ — على حد بعض التعابير — . وهكذا كان ابن أبى قحافة ، فما قرأ القرآن وجلـّت له وعيدَه « نار الله الموقـدة ، التى تطلع على الأفئـدة » إلا بـكى واخضلت لحيته بالدمـوع ؛ وما ذكر يوم القيامة إلا ارتعدت فرائصه وقال : « لو كانت إحدى قدمي داخل الجنة والأخـرى خارجها ما أمنت مكر الله . » مع أنه من المبشرين بها . وحـديث صلابته فى الحق يتمثل فى محاربته لأهل الردة ، أولئك الذين انتهزوا فرصة موته صلى الله عليه وسلم فمنعوا الزكاة . وكأنى به :

فى كل منبت شعرة من جسمه أسد يمـد الى الفريسة مخلبا

يقول له عمر بن الخطاب : كيف تقاتل قوما يؤمنون بالله ورسوله واليوم الآخـر ؟ فيقول له « والله لو منعونى عقال بعير كانوا يؤدونه لرسول الله لقاتلتهم عليه » . وقـد تصل تلك الصـلابة فى الحـق الى درجة أن تهىء لصاحبها أنه وحده دولة ، لها من البأس صولة . وكثيرا ما توالت المحن الشداد على صناديد المهاجرين والأنصار « وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله » فاذا به كأنه صاحب المتنبي الذى يقول فيه :

وقفت وما فى الموت شك لواقف كأنك فى جفن الردى وهو نائم
تمر بك الأبطال كلمى هزيمة ووجهك وضاح وثغرك باسم

يجيره ابن الدغنة حينما أراد الهجرة الى الحبشة ويقول له « مثلك لا يخرج ولا يخرج ، إنك تكسب المعدوم ، وتصل الرحم ، وتحمل الـكل ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق » ثم يطوف به على منتديات قريش ومجتمعاتها يعلمهم بما بينه وبينه ، وينذرهم إن تصدوا له بسوء أن يرده إليهم أضعافا مضاعفة ، ويـكون الرجاء حارا فى أن يتخفى « المستجير » بدينه وقرآنه لئلا يفتن به نساؤهم وأبناؤهم . ولـكن ذلك لم يحرك من الرجل ساكنا ، أو يهز منه عاطفة ، فيحاول إعلان عبادته ، ويقرأ القرآن أمام بيته ، ويتهافت

عليه الشيوخ والشباب ، تهافت الذباب على الشراب ، ويتهامس المتهامسون ماذا يكون فى تلك « المعاهدة » وسرعان ما يتجلى إيمان « الرجل » فى قولته لمجيره : إن كان يحرجك ما بيننا من جوار فانى « فى جوار الله » العزيز الحكيم ! ولم يقر قراره دون أن يكافح ويكابد ، وينافح ويجالد ، ويؤذن فيمن حوله من لداته وأقرانه « بكلمة الحق » يعلنها مدوية صاخبة . وما هى إلا عشية وضحاها حتى كان فى صفوف المسلمين عثمان بن عفان ، وطلحة بن الزبير ، وسعد بن أبى وقاص ، وأبو عبيدة بن الجراح ، وغيرهم ممن اعتز بهم الاسلام وانتصر .

والحق والايمان إن صُبا على ... برد ففيه كتيبة خرساء
نسفوا بناء الشرك فهو خرائب ... واستأصلوا الأصنام فهى هباء
يمشون تغضى الأرض منهم هيبة ... وبهم حيال نعيمها إغضاء
حتى إذا دانت لهم أطرافها ... لم يطغهم ترف ولا نعماء !!

والنفوس التى تترفع عن أوضار المادة هى التى تزهد فى المال ، وتعزف عن مباهج الحياة ، وتذعن بالمعجزات وخوارق العادات . وكذلك رأيناه رضى الله عنه ، تبرع بماله للنبى لينفقه فى حاجته وحاجة المعوز البائس من صحابته ، فأخلف الله عليه غيره ، فتبرع به من جديد ، فأخلف الله عليه غيره فتبرع به ، وكلما تبرع أخلف الله عليه ، وكلما أخلف الله عليه تبرع . وقد قال له صلى الله عليه وسلم فى إحدى هذه المرات : وماذا أبقيت لعيالك يا أبا بكر ؟ فقال : أبقيت لهم الله ورسوله . « الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » .

ويخيل الى أنه المثل الأعلى للذين يؤمنون بالغيب . تلقاه صبيحة الإسراء نفر من الكفار فقالوا له ماذا ترى فى رجل يزعم أنه قطع ما بين المسجد الحرام الى المسجد الأقصى فى قطع من الليل ؟ والعرب تعلم أنها مسيرة شهر ، فقال لهم « صدقناه فيما يوحي اليه ، أفلا نصدقه فيما هو دون ذلك » ؟

وتمضى السنون ويختار الله إلى جواره نبيه الكريم ، فيذهل الذاهلون

عند نعبه ، ويقف عمر بالمسجد عارضا سيفه قائلا : من أخبر بهذا الخبر قصمته . وهنالك لا يغيب عن الصديق رباطة جأشه ، وقوة إيمانه ، وشدة شكيمته ، فيأخذ طريقه إلى المنبر ليقرأ على الناس : « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا » فلا يلبث أن تزول هذه الغاشية ؛ وكأن أحدا من المسلمين لم يستمع إلى هذه الآية من قبل ، أو يدر أنها أنزلت .

ومنذ هذه اللحظة تتلفت الأنظار إليه ليكون « خليفة رسول الله » ، وينتهى إليه هذا الأمر فلا يزدهيه أو ينقص من تواضعه « إنى وليت عليكم ولست بخيركم ، إن رأيتمونى على حق فأعينونى ، وإن رأيتمونى على باطل فقوّمونى ، أطيعونى ما أطعت الله فيكم ، فإن عصيت فلا طاعة لى عليكم » .

وبعد ، فهذه وجازة عن « عقيدة رجل » أخبر الصادق المصدوق أنه لو وزن إيمانه بإيمان هذه الأمة لرجح ؛ رجوت بعرضها أن تكون تذكرة وعبرة « والله يدعو إلى دار السلام ويهدى من يشاء إلى صراط مستقيم » .

من حكم لقمان

قال لقمان لابنه : لا تركن إلى الدنيا ، فانك لم تخلق لها ، وما خلق الله خلقا أهون عليه منها ، فانه لم يجعل نعيمها ثوابا للمطيعين ، ولا بلاءها عقوبة للعاصين . يا بنى لا تضحك من غير عجب ، ولا تمش فى غير أرب ، ولا تسأل عما لا يعنيك . يا بنى لا يضيع مالك ، وتصلح مال غيرك ، فان مالك ما قدمت ومال غيرك ما تركت . يا بنى من يرحم يرحم ، ومن يصمت يسلم ، ومن يقل الخير يغنم ، ومن يقل الباطل يأثم ، ومن لا يملك لسانه يندم . يا بنى زاحم العلماء بركبتيك ، وأنصت إليهم بأذنيك ؛ فان القلب يحيا بنور العلماء ، كما تحيا الأرض الميتة بمطر السماء .

خالـد

لفضيلة الأستاذ الشيخ عبد العزيز السيد موسى

تحدثت عن حياة أبى عبيدة بن الجراح ، وأثارت ذكراه الكلام عن خالد ابن الوليد ، لأنهما فى المجد توأمان ، وفى السؤدد والعظمة صنوان .

خالد بن الوليد المخزومى كان من سادة بنى مخزوم ، وريحانة العرب ، لما له من حياة سامية وهمة عالية . فلو رجعت الى حياته الحافلة بجلائل الأعمال لرأيتها شعلة وقادة من المهد الى اللحد . ظهر خالد فى أيام الرمح والسيف والبادية والجمل ، ونبت فى أصل أصيل ، ومجد أثيل ، وكان له خبرة فنية فى قيادة الجيوش فاقت كل خبرة ؛ فهو قائد الفرسان ، وصاحب القبة فى الجاهلية ؛ كانوا يضربون له القبة فى أثناء حروبهم ، وينصبون خيامهم حولها ، ويرجعون اليه فى شئونهم ؛ وكان لخالد فى غزوة أحد الأثر البعيد فى نصر دولة الشرك ؛ فانه تحين شغل المسلمين بما وضعوا أيديهم عليه من الغنائم ، حيث كان النصر لهم ، وجاءهم من خلفهم وفرق جمعهم ، وإن كان لم يجن من وراء انتصاره هذا شيئا .

وفى السنة السابعة للهجرة أسلم خالد ، وفرح الرسول صلى الله عليه وسلم باسلامه ، وقال له : الحمد لله الذى هداك ! قد كنت أرى لك عقلا رجوت ألا يسلمك إلا الى خير . فقال : يا رسول الله ادع الله لى أن يغفر تلك المواطن التى كنت أشهدها عليك . فقال له عليه الصلاة والسلام : الاسلام يقطع ما قبله . وكان له فى إسلامه الأثر المحمود ، وفى جهاده الخطر البالغ ، فان الرسول صلى الله عليه وسلم أخذ يوجه الجيوش الى خارج الجزيرة بعد ما قويت سواعد المسلمين . ولما وجه النبى صلى الله عليه وسلم جيشا نحو الشام ، جعل لهذا الجيش قوادا ثلاثة يتعاقبون عليه واحدا بعد الآخر إذا أصاب القائد الموت ،

وهم : مولاه زيد ، وابن عمه جعفر ، وشاعره ابن رواحة . وكان المسلمون فى ثلثمائة ، وكان العدو فى ألوف مؤلفة ؛ فأصاب الثلاثة الموت ، فحمل الراية من بعدهم خالد بن الوليد ، وبقيادته نجا جيش المسلمين من جيش العدو ، بما له من كياسة حربية وسياسة عسكرية . واطلع رسول الله صلى الله عليه وسلم بعين الغيب على ماجرى ، وخطب أصحابه بالمدينة ، ونعى اليهم القواد الثلاثة ، ثم قال : وأخذ الراية سيف من سيوف الله . ومن هذا اليوم سمى خالد سيف الله المسلول .

وفى عهد أبى بكر وجهه الخليفة الأول الى أهل الردة ، فكان له ما كان من مواقف مشهودة ، ومن قتله مسيلمة الكذاب . وقد نقم عليه بعض الشىء فى هذه الحروب عمر بن الخطاب ، وأخذ يتحدث فى شانه ، فقال له أبو بكر : ارفع لسانك عن خالد فانى لا أشيم (أى لا أغمد) سيفا سله الله ، وقد قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم : نعم الرجل خالد بن الوليد !

وكان بجوار جزيرة العرب دولتان عظيمتان لهما ما لهما من عز وسؤدد ، وما كان يدور بخلد العرب أن يتوجهوا إلى حربهما فى وقت ما ؛ ولكن خالدا قائد الفرسان كان هو السهم النافذ إلى نحورهما ؛ وهما الفرس والرومان ؛ دولتان عظيمتان ، فقص أطرافهما خالد ، وأخذت كل دولة تنكمش الى مركز دائرتها ، وتتقلص إلى عاصمة بلادها ، وهو يسوقهما أمامه بسيفه ، حتى حطم الأسوار ، وجعل الاسلام يرفرف تيها وإعجابا فوق تلك الديار .

استدعاه أبو بكر من العراق لحرب الشام ، وأسند إليه القيادة العامة بعد عزل أبى عبيدة منها ، لأنه كان يرى فيه الحنكة السياسية والدربة العسكرية ، وأن الجنود كانوا معجبين به أيما إعجاب ، لذلك كانوا طوع عبارته ورهن إشارته ؛ فحالفه النصر فى كل معركة .

وفى خلافة عمر بن الخطاب عزله عمر من هذه القيادة ، وقال له : ما عزلتك لريبة فيك ، ولكن افتتن بك الناس فخفت أن تفتتن بالناس ! فتقبل العزل بنفس هادئة ، وألقى مقاليد القيادة الى أبى عبيدة وقلبه راض .

كان خالد يود من صميم فؤاده ومن أعماق قلبه أن تدركه منيته وهو غاز .

فقال وهو محتضر : لقـد شهدت مائة زحـف أوزهاءها وما بقى فى بدنى شبر إلا وفيه ضربة سيف ، أو طعنة رمح ، ثم أموت على فراشى هكذا كما يموت البعير ، لا نامت أعين الجبناء !

ذلك قول خالد وهو على فراش الموت . وإن صفحات المجـد التى سجلها التاريخ لخالد بن الوليد باقية أبد الآبدين ، وخالدة دهر الداهرين .

وقد حقق المؤرخون أنه مدفون بمسجده القائم بحمص ، وهو مسجد يشهد على عظمة المدفون فيه . وقيل إن صورته كانت تعطى صورة واضحة لعمر بن الخطاب فـكأنه هو ، حتى كان الـكثير من الناس يشتبه فيهما ، فإذا رأى الانسان أحدهما ظنه الآخـر . بنى له ذلك المسجد العظيم السلطان عبد الحميد أحد خلفاء الدولة العثمانية . وكيف تتصور أنه نال كل ذلك الفخار وسجل له التاريخ تلك العظيمة ، فى حياة قصيرة ، فانه لحق بربه وهو فى الثالثة والأربعين من عمره .

تلك صورة موجزة تقرب إلى ذهنك خالد بن الوليد وجهاده وبطولته .

وهكذا تكون رجالات الاسلام الذين تربوا فى أحضان النبوة على ضوء القرآن فى عهده الأول ، فـكم فيهم من أمثال خالد .

تلك اللمحات السريعة جالت بخاطرى عندما وقفت أمام قـبر خالد الذى ثوى فيه عند زيارتى لحمص فى سنة ١٩٤٦ . فعليك رحمة الله يا خالد !

صنعت فلم يصنع كصنعك صانع وما يصنع الأقوام فالله صانع

من حكم أبى حازم

طلب عبد الملك بن مروان أبا حازم ، فلما دخل عليه قال : تكلم يا أبا حازم . قال : فيم أتكلم يا أمير المؤمنين ؟ قال : فى المخرج من هذا الأمر . قال : يسير إن أنت فعلته . قال : وما ذاك ؟ قال : لا تأخذ الأشياء من غير حلها ، ولا تضعها إلا فى أهلها . قال : ومن يقوى على ذلك ؟ قال : من قلده الله من أمر الرعية ما قلدك . قال : عظنى يا أبا حازم . قال : اعلم أن هذا الأمر لم يصر إليك إلا بموت من كان قبلك ، وهو خارج من يديك بمثل ما صار إليك . قال : يا أبا حازم أشر على . قال : إنما أنت سوق فما نفق عندك حمل إليك من خير أو شر فاختر أيهما .

من أقباس النبـوة :

يا هلال المحرم ... !

لفضيلة الأستاذ كامل محمد عجلان
مدرس بمعهد القاهرة

« رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق واجعل لي من لدنك سلطانا نصيراً » قرآن كريم

يا هلال المحرم ! أرني أنظر الى جبينك ، حتى أستوحي من بسماته لمحات الظفر التي طبعت على مرآياك ، طالما تقلب بك الفلك ، وأطاعك على رمال الصحراء ، وعنت لغرتك لفتات الناظرين .

* * *

يا هلال المحرم ! أعندك فوق ما يغمرني من الذكريات الحسان ؟ . . .

* * *

إنها إعجاز البشرية ، يوم صدع الرسول بالدعوة الخالدة ، مادامت السموات والأرض ، وتكالبت عليه ضغائن الوثنية تصده عن الجهر بالحق ، وإرسال نوره ينصب في قلوب العرب .

* * *

وفي زحمة الجهد ، رحبت (الحبشة) (النصرانية) بالمهاجرين الذي آواهم دين السلام ، فكرّه اليهم الكفر ، وبغض الاثم ، ورد عنهم غاشية الوثنية الجامدة البغيضة .

* * *

يا هلال المحرم ! ما أنت في معالم الزمن ؟ وما وراء يومك من عبر ترهب القلب خشيتها ، فيهتز من روعة المواقف المسلمة ، والصبر المؤمن ، والدعوة

المكافحة ، التى لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها ، تعزيز من قوى متين .

* * *

يا هلال المحرم ! أرأيت يوم (الطائف) وقد راح الرسول عامر القلب واسع الصدر ، يعرض دين الله على غلواء المشركين ، فتأخذهم العزة بالامتناع ، ولكنه ، وهو النبى الذى وعد بنصر الله ، يعود مناجيا ربه ، يشكو اليه قلة حيلته فى الصم الذين غلفوا قلوبهم ، وأصروا واستكبروا استكبارا !

* * *

يا هلال المحرم ! ما الذى ارتسم على جبينك يوم كانت قريش تطارد الذين آمنوا وأسلموا لله ، وأمام ركبهم رسول الله ، وهو يعدهم بالنصر ، ويرسم لهم بصبره معارج الخلود ، ويضع فى أيديهم مفاتح الجنة ، حتى لتهب على وجوههم المرهقة رياحين ظلالها ، فتمسح عنهم لغوب الأذى ، فى حر الهجير ووقدة الرمضاء ؟

يا هلال المحرم ! نبئنى عن طواف الرسول بين القبائل وهتافه بهم ، كلما نزلوا بسوق ، أو اجتمعوا فى واد ، أو طافوا بالبيت العتيق ... وهو الصبور الذى لا ينطق عن الهوى ، يؤيده الوحى ، ويرشده فالق الإصباح ، وهادى العمى عن ضلالاتهم ، تعالى الله عما يصف المشركون !

يا هلال المحرم ! أى غلالة كنت ترتديها فى كبد السماء ، ليلة أن غرهم بالرسول الغرور ، ونام المشركون على بابه يترصدون ... ؟

وناموا وعين الله يقظى ، لا تأخذها سنة ولا نوم .

* * *

يا هلال المحرم ! إنها نجوات تدوّى فى همساتنا ، كلما طاقت بنا نفحات النبى ، وهزتنا أناشيد إعزاز الله لدينه ، ونصره لنبيه ، الذى وقف فى مهاب الأعاصير يحمل الأذى ، ومن ورائه صحابة دفعوا أنفسهم وأموالهم وأهليهم فى سبيل الله ، وأرخصوا راحتهم حتى ارتفعت راية الاسلام ، وعلت فى آفاق

القبائل ، وأودية العشائر (الله أكبر) ! . هنالك ترددت أصداؤها فى القرى والمدائن ، إننا نتلقفها حتى اليوم ، وإلى قيام الساعة .

* * *

يا هلال المحرم ! هـل أرسلت شعاعك فطوق باب (الغار) الذى آوى النبي وصديقه ، وخدع أقدام الطالبين ، يريدون إطفاء نور الله ويأبى إلا أن يظهر آياته ، ويشيع بيناته ، هدى ورحمة للعالمين . «ذلك تقدير العزيز العليم». وما خاب من كان الله معه . يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور .

يا هلال المحرم ! هـلا أشفقت على المهاجرين فوليت الأدبار ، وحجبت نورك ونور أمك (الشمس) ، حتى يجعل الله الليل سرمدا على المشركين ، وكفى نور المؤمنين الذى يسعى بين أيديهم سراجا منيرا وبدرا وهاجا .

يا هلال المحرم ! أشهد لقد كنت ساخرا ممن يلجّون وراء الرسول ، ولو استطعت لفعلت . ولـكن سبقت كلمة ربك لينصرن الله من ينصره ، وتمت إرادته ؛ ولا تنفع الطالبين لهفتهم على رد الرسول وصاحبه الى مكة ؛ إلا إذا جاء الفتح وحق نصر الله ، ونادى فيمن أخرجوه من داره : إذهبوا فأنتم الطلقاء ! لا تثريب ... يا هلال المحرم ! يغفر الله ، ومن عفا وأصلح فأجره عند غافر الذنب وقابل التوب .

* * *

يا هلال المحرم ! ما فاتك أن تشهد طلعة البدر على أهـل المدينة ، وهم يهتفون ويغنون ويطربون :

طلع البدر علينا . . .

طلع البدر علينا . . . !

يا هلال المحرم ! ليتنى وليت مزاحمى كانت هناك ! ولـكنى هنا فى زحمة الذكرى أخب وأضع ، وكأنى أنظر فى الجموع وهي تحيي الرسول المهاجر بدينه يدعو الناس للدخول فى ساحة التوحيد أفواجاً .

وتمت على يديه كلمة الله العليا ، وتبدت الأنامل السفلى ؛ والعاقبة للتقوى . . .

يا هلال المحرم ! أين كنت فى الألحان الخالدة ، والتطريبات الباقية ، والأناشيد المزاجة ... ؟

أين كنت ، وأين أفقك الجميل منها ؟

* * *

يا هلال المحرم ! أين أنت من (هلالنا) الذى أضاء بنوره الدنيا والآخرة ، وأشرقت بتعاليمه نفوس المؤمنين . . . !

إنه عنك مشغول ، والشفاعة عند الرسول مأمولة ، يوم لا ينفع المرء إلا ما قدمت يداه . . .

* * *

يا رسول الله ! أنت لنا . . . فاليك سلام الله كلما درجت على جبين المعالم الخالدة ذكرياتك العظيمة . . .

اسأل الله وحده

قال الحسنى : قال أبو غسان : أخبرنى أبو زيد قال: سأل سائل بمسجد الكوفة وقت الظهر فلم يعط شيئا ، فقال : اللهم إنك بحاجتى عالم لا تُعَلَّم ، أنت الذى لا يعوزك نائل ، ولا يحفيك سائل ، ولا يبلغ مدحك قائل . أسألك صبرا جميلا ، وفرجا قريبا ، وبصرا بالهدى ، وقوة فيما تحب وترضى . فتبادر سامعوه اليه يعطونه . فقال لهم : والله لا رزأتكم الليلة شيئا ! ثم خرج وهو يقول :

ما اعتاض باذل وجهه بسؤاله عوضا ولو نال الغنى بسؤال
وإذا النوال مع السؤال وزنته رجح السؤال وشال كل نوال

وقال عبيد بن الأبرص :

من سأل الناس يحرموه وسائل الله لا يخيب

مدرسة النقد الادبى(١)

لفضيلة الأستاذ الشيخ عبد السلام أبو النجا سرحان
المدرس بالأزهر

---

١ — النقـد الأدبى ونشأته :

يحدثنا التاريخ أن النقد صحب الإنسان منذ نشأته ، وتناول كل ما صدر عنه من أيام طفولته ، بل تناول الطبيعة ومظاهرها ، والحياة وألوانها ، وحاول أن يخضعها للأذواق المتباينة ، ويوائم بينها وبين الطباع المختلفة فى كل زمان ومـكان .

ولقـد كان ذا أثر واضح فى وضع القواعد الاجتماعية والخلقية وتقدم العـلوم والفنون ، وبفضله ارتقت الإنسانية وارتفعت أعـلام الحضارة ، وأثمرت شجرة المعرفة ؛ فهو شريعة الحياة فى شـتى مظاهرها ، وطـريق الصعود بالأمم والأفراد الى درجات الـكمال .

ويُعَـدّ النقد من الأسس الهامة والدعائم القوية التى قامت عليها الحضارة الحديثة ، خصوصا من الناحية السياسية ونظم حكومات الشورى ؛ وكان من أقوى العوامل التى ارتقت بآداب الامم وفنونها وصناعاتها ، وسارت بالعلم والمعرفة أشواطا بعيدة فى سبيل الحياة .

ومن المتفق عليه فى العصـور الحديثة أن النقـد ليس مما يعيب الأدباء والمفـكرين والمؤلفين ، بل إنه ليعد من أسباب الرواج للـكتب العلمية

---

(١) فى سنتى ١٣٦٢ ، ١٣٦٣ هـ نشرت بحثا فى مجلة الازهر الغـراء تحت عنوان « قدامة بن جعفر ومدرسة النقد الأدبى » قدمت له بكلمة موجزة عن مدرسة النقد الأدبى فى مختلف العصـور حتى عصر قدامة ، ثم ترجمت قـدامة ترجمة مفصلة ودرست كتابه دراسة تحليلية ووعدت فى نهاية البحث بالعودة إلى الـكتابة تفصيلا عن مدرسة النقد الأدبى ، وهأنذا أفى بوعدى ، والله المستعان .

والأدبية عند الغربيين ، حتى إنه توجد طبقة خاصة صناعتها النقد ، لها مكانتها عند الجماهير ، وحكمها كحكم القضاء بين المتخاصمين ؛ وقبل أن يخرج المؤلف كتابه يقدمه الى بعض النقاد ، فما تحمل حرارة المراجل وثبت أمام الطعن والتجريح خرج الى الوجود متين البنيان موطد الدعائم قوى الأساس ، وإلا أضحى هشيما تذروه الرياح .

ويعنينا فى هذا البحث ، أن نتكلم عن مدرسة النقد الأدبى العربية ، ومدى ما وصلت اليه فى العصور المختلفة ، موجزين ما استطعنا الى ذلك سبيلا .

ويجب أن يلاحظ أن ذوق المؤلف أو الشاعر لا يتفق وذوق كل إنسان ، للاختلاف العام فى المشارب والاتجاهات ، وتفاوت العقول فى وسائل الوعى والفهم والإدراك ، التى هى مرجع الحكم فى أصول الفنون وأنواع الجمال .

كما يجب أن يراعى الفرق الكبير بين إلهام الأديب حين ينشىء وتكون نفسه جمرة ذهنية متقدة فيبدو إنتاجه خلاصة لذوب فكره وعصارة للهيب عاطفته ، وبين نظر الناقد الهادىء المتئد الذى يضع الكلام مواضعه ، ويقيسه بمقاييس فسيحة وعاطفة طبعية .

والمقدرة على خلق الأثر الأدبى أقل — قطعا — من المقدرة على تحليله ونقده . روى المبرد (ص ٢٣٣ ح ٢ عمدة) « أن أبا نواس ومسلم بن الوليد اجتمعا متلاحيين ، فقال مسلم : ما أعلم بيتا لك يخلو من سقط ! فقال أبو نواس : اذكر شيئا من ذلك ، فقال مسلم : بل أنشد أنت أى بيت شئت ، فأنشد أبو نواس :

ذكر الصبوح بسُحْرة فارتاحا وأملّه ديك الصباح صياحا

فقال مسلم : قف عند هذا ، لم أمله ديك الصباح وهو يبشره بالصبوح وهو الذى يرتاح اليه ؟ فقال أبو نواس : فأنشدنى أنت . فأنشده :

عاصى الشباب فراح غير مفنّد وأقام بين عزيمة وتجلد

فقال أبو نواس : ناقضت ؛ ذكرت أنه راح والرواح لا يكون إلا بالانتقال من مكان الى مكان ، ثم قلت : وأقام ، فجعلته منتقلا مقيما فى حال ، وهذا متناقض » .

قال أبو العباس المبرد : « وكلا البيتين صحيح ، ولكن من طلب عيبا وجده ، ومن طلب له مخرجا لم يفته »

فالناقد قد تنكشف أمامه الحجب الخافية على المنشئ ، وتظهر له العيوب التى لا يفطن اليها الأديب ؛ وقد فطن المتنبى لهذا فقال :

أنام ملء جفونى عن شواردها
ويسهر الخلق جراها ويختصم

فمن القسوة أن نأخذ المنشئ أو الشاعر بالشدة ، بل يجب أن نتلمس له العذر ما استطعنا ، ما دام لم يخرج عن القواعد العامة ، والبدهيات المعروفة ، والخصائص الشائعة .

٢ — ما النقد الأدبى ؟

أما النقد الأدبى فهو تقدير النصوص الأدبية ، ووزنها بمعيار الذوق الأدبى وبيان درجتها الفنية ، وتمييز الأدب الراقى من التافه الذى لا قيمة له ؛ وذلك يستدعى فهم الأدب أولا ، وتفهم مختلف الطبائع التى تنتجه ، ومعرفة أقدار تلك الطبائع على ضوء الاتجاه الذى يريده الفن الأدبى الكامل .

ومن الخطل أن ننظر الى أبيات القصيدة أو عبارات القطعة الأدبية جزءاً جزءاً ، فان كلا منهما كطاقة من الأزهار المنسقة ، أو حبات العقود المنمقة ، فاذا نثرت أزهارها أو انفرطت حباتها ، ذوى جمالها ، وتضاءل سحرها ، وذهب بهاؤها ، وضاع رونقها .

والدر ليس بنافع أربابه   ما لم يؤلف فى النظام ويثقب

والبيت الواحد من القصيدة أو العبارة المفردة من القطعة النثرية كالزهرة العذراء تنظر إليها العين لتستشعر جمالها ، وتنتهب لونها ، وتستشف عذوبتها ، فى صمتها المعبر ، وحيائها العفيف ؛ ثم ينقل الحس هذه الصورة الجميلة الى القوة المفكرة ؛ فتنخرط فى سلك التأمل والإمعان ، وتستلذ منها النفس ، وتطرب لها الروح ؛ فاذا عبث عابث بتلك الزهرة ومزقها أجزاء ، ذلت كبرياؤها ، وأصبح البحث فيها نظرا علميا محضا ، لا خيالا سحريا جميلا .

فمن الإنصاف إذن أن ننظر الى القصيدة باعتبارها وحدة مرتبطة ، ووحدة فنية متماسكة ، وتمثالا للجمال الشعرى مركبا من قطع صغيرة ، وإلا زال كثير من روعتها وجمالها ؛ وذلك كما ترى صورة فنية لمشهد من مشاهد الطبيعة ؛ فان اتساق الألوان واجتماعها فى أوضاع متناسبة وأبعاد متناسقة ومقادير فنية يعطيها جاذبية سحرية تنتزع منك الإعجاب وتثير فيك المشاعر ؛ فاذا تفرقت هذه الألوان زال الجمال ، وضاع السحر ، ومات الشعور .

وسنرى أن نقاد العربية يسيرون على غير هذا المبدأ ، وينتقدون الأبيات الفردية والألفاظ المنبثة فى التراكيب المختلفة ؛ ويرجع هذا مبدئيا الى أن اللغة العربية واسعة النطاق فسيحة الأرجاء ، لا تجد حرجا من النقد ما كان نزيها ، ولا تتزمت من تقويم مادام رائده الخير ؛ ويرجع ثانيا الى كثرة كلماتها المترادفة واتساع مادتها بحيث يستطاع الاستعاضة عن كلمة بكلمات ، وعن لفظ بألفاظ ؛ وبهذا وسعت كتاب الله بعباراته الفريدة ، وتراكيبه المعجزة ، ونظمه البديع ، وفتحت قلبها لعلوم الأمم المختلفة وآدابها وفلسفتها وحكمتها ، وهضمت الفنون المختلفة من قديم الزمن ، فازدادت بها جمالا ، وأفادت منها صقالا ؟

الاذن عند العرب

قال زياد لحاجبه عجلان : كيف تأذن للناس ؟ قال : على البيوتات ، ثم على الاسنان ، ثم على الآداب .

فقال له الأمير : فمن تؤخر ؟ قال الحاجب : من لا يعبأ الله بهم .

قال الأمير : ومن هم ؟ قال الحاجب : الذين يلبسون كسوة الشتاء فى الصيف وكسوة الصيف فى الشتاء .

وكان سعيد بن عتبة إذا حضر باب أحد من السلاطين جلس جانبا ، فقيل له : إنك لتباعد من الآذن جهدك . قال : لأن أدعى من بعيد ، خير من أن أقصى من قريب . ثم قال :

فان مسيرى فى البلاد ومنزلى ... هو المنزل الأقصى إذا لم أقرب
ولست وإن أدنيت يوما ببائع ... خلاقى ولا دينى ابتغاء التحبب
وقد عده قوم تجارة رابح ... ويمنعنى من ذاك دينى ومنصبى

الخطابة فى الأندلس

المنذر بن سعيد البلوطى

لفضيلة الأستاذ الشيخ أحمد الشرباصى
المدرس بالأزهر

على أن البلوطى — رحمه الله — كان يتخفف أحيانا من أوزار منصبه ، ويخلع عنه رداء تزمته وتوقره ، فيقول أبياتا فيها شيء من القوة والخفة ؛ مثل قوله حينما عذله إخوانه لتكنيته لرجل كان قد سبّه :

لا تعجبوا من أننى كنيته　　من بعد ما قد سبنا وهجانا
فالله قد كنى أبا لهب ، وما　　كناه إلا خزية وهوانا !

يشير البلوطى بهذا الى قول الحق تبارك وتعالى : « تبت يدا أبى لهب وتب . . . » وهى لفتة بارعة من البلوطى ، وحسن تعليل مقبول وجميل ، بل خلوص لطيف من مأزق تعرض له ، وكان يعاب به .

كذلك نرى البلوطى الواعظ الزاهد ، يبيح لنفسه فى ساعات دعابته وفترات مراحه ، أن يتحدث عن الجمال ، وعن مفاتن النساء ، فيذكر قوامهن وأصداغهن ، وما اتصل بذلك من حديث الهوى والفتون ، جاعلا ذلك لونا من الترفيه اللفظى المقبول ، الذى يزين الأسلوب ، ولا يخدش الكرامة . فانظر اليه مثلا إذ يكتب الى فقيه العربية وقيد أوابدها أبى على القالى ، يستعير منه كتابا فى غريب اللغة ، فلا يجد ما يقسم به فى مجال الظرف والدعابة إلا الظبي الرقيق صاحب الخد الأسيل ، فيقول :

بحق ريم مهفهف　　وصدغه المتعطف
ابعث إلى بجزء　　من الغريب المصنف !

فيجاريه أبو على فى أسلوبه بعض المجاراة ، وينقل التعبير من مجال الى مجال ، فيرسل اليه ما طلب ، ويجيبه بقوله :

وحق در مؤلف بفيك أيَّ تألف
لأبعثن بما قد حوى الغريب المصنف
ولو بعثت بنفسى إليك ما كنت أسرف !

ونحن حينما نقرأ ما ذكره المؤرخون عن خفة روح البلوطى وصفاء ظلته ولطيف دعابته وبديع مزاحه وهزله ، ونذكر بجوار ذلك ما كان له من فصاحة وبلاغة ، نرجح أن هذا اللسان المقوال وذلك الطبع الأصيل الفياض لابد من أن يكونا قد أنتجا أشعارا عاطفية لها جمالها وعذوبتها ، وإن كنا لم نقف عليها ؛ ومن يدرى ! . . . لعل متشددا من متزمتى النقلة تعمّد أن يحذف هذه الأشعار ظنا منه أن روايتها مما ينال من سمعة البلوطى وجلال مرتبته ! .

وكيف نقول إن أمثال هذه الأبيات المتكلفة هي كل تراث البلوطى بين الشعراء ، ونحن نرى من أخباره أنه كان ، الى ما سبق من صفاته الشعرية ، نقادة سريع البديهة يقظا الاحساس ، عليما بأشعار النابغين من المتقدمين ، خبيرا بأسرار تلك الأشعار ، دقيق التمييز بين الغث والسمين ، والطيب والخبيث ، كما ترشد الى ذلك القصة التالية :

حضر البلوطى وهو فى رحلته بمصر مجلس أبى جعفر النحاس وهو يملى أخبار الشعراء ، فأملى شعرا لقيس مجنون بنى عامر ، وهو قوله :

خليلى ! هل بالشام عين حزينة تبكّى على نجد ، لعلى أعينها ؟
قد أسلمها الباكون ، إلا حمامة مطوقة ، باتت وبات قرينها
تجاوبها أخرى على خيزرانة يكاد يدنيها من الأرض لينها !

فقال له منذر بن سعيد البلوطى : يا أبا جعفر ، ماذا ـ أعزك الله تعالى ـ باتا يصنعان ؟ فقال له النحاس : وكيف تقول أنت يا أندلسى ؟ فقال : بانت وبان قرينها . فسكت أبو جعفر ولم يحر جوابا . قال منذر : وما زال ـ يعنى جعفرا ـ يستثقلنى بعد ذلك حتى منعنى كتاب (العين) وكنت ذهبت للاستنساخ من نسخته ؛ فلما يئست منه قيل لى : أين أنت من أبى العباس ابن ولاّد ؟ فقصدته فلقيت رجلا كامل العلم حسن المروءة ، فسألته الكتاب

فأخرجه الى ؛ ثم ندم أبو جعفر حين بلغه إباحة أبى العباس الكتاب لى . وعاد إلى ما كنت أعرفه منه ! .

فهذه القصة وأشباهها فى حياة البلوطى تدلنا على أنه كان ينطوى فوق ملكته الوعظية على فيض من معين الشعر ! .

***

ومع أن البلوطى كان قاضى القضاة بقرطبة ، والامامَ الخطيب بالمسجد الجامع ، فقد كان كثير الدعابة طويل المزاح . يقول عنه الفتح بن خاقان : « وإذا هزل نزل (١) » . ويقول ياقوت : « وكان منذر على متانته وصلابته حسن الخلق كثير الدعابة ، فربما ساء ظن من لا يعرفه به لدعابته ، فاذا رأى ما يخل بالدين قيد شعرة ثار ثورة الأسد الضارى، وتبدلت بشاشته عبوسا (٢) . وقد ذكر له صاحب كتاب (مطمح الأنفس) طائفة من دعاباته الصريحة المكشوفة التى يذكر فيها أسماء العورات والحرمات (٣) . فلنكتف بإيراد طرفة من طرفه الرزينة :

جلس منذر فى ليلة من ليالى شهر رمضان للإفطار مع أولاده ، فاذا بسائل يسأل فيقول : ياأهل هذه الدار الصالحين ، أطعمونا من عشائكم أطعمكم الله من ثمار الجنة هذه الليلة ! . فقال البلوطى وهو يضحك : إن استجيب لهذا السائل فيكم ، فليس يصبح منا واحد ... !

***

أفيكون معنى هذا أننا سنتغنى بامداح البلوطى ولا نقف منه موقف الناقد ؟ كلا فان الإنصاف يقتضينا أن نقول ماله وما عليه . ولعل الموقف المشين الذى رأيته للبلوطى ، هو فخره ومباهاته بموقفه بين يدى الناصر يوم زاره رسول قسطنطين ، وتعريضه بأبى على القالى وهو ضيف الخليفة ونزيل الأندلس ، وبحر اللغة ، وراوية الآداب . . . انظر الى البلوطى إذ يفتخر بذلك الموقف ، ويعرض بالامام القالى فيقول :

---

[١] مطمح الانفس ص ٤١ . [٢] المعجم ج ١٩ ص ١٨٣ [٣] ص ٥٠ و ٥١

مقالى كحد السيف وسط المحافل فرقت به ما بين حق وباطل
بقلب ذكى ، ترتمى جمراته كبارق رعد عند رعش الأنامل
فما دحضت رجلى، ولازل مقولى ولا طاش عقلى يوم تلك الزلازل
وقد حدقت حولى عيون إخالها كمثل سهام أثبتت فى المقاتل
لخير إمام كان ، أو هو كائن لمقتبل ، أو فى العصور الأوائل
وفود ملوك الروم وسط فنائه مخافة بأس ، أو رجاء لنائل.. الخ

وينال من مكانة أبى على القالى ، ويعرض بتقديمهم إياه عليه فى الخطابة فيقول :

هذا المقام الذى ما عابه فند لكن قائله أزرى به البلد
لو كنت فيهم غريبا كنت مطرفا لكننى منهم، فاغتالنى النكد (١)

الحق أنه ليس من شيمة الكريم القوى أن يهزأ بالضعيف أو بمن خانه الحظ ، ولا أن يفخر هذا الفخر الزائد حينما يمنحه الله توفيقا لا يمنحه لسواه . زد على ذلك أن أبا على القالى لم يرتكب جرما ، ولم يظهر ضعفا يستوجب تحقيره والتعريض به ، فما هو إلا رجل خانه التوفيق وعانده الحظ وأرهبه الموقف ، فلم يستطع أن يقول ما يجب عليه ، ولم يرض أن ينزل الى كلام من هو دونه فأرتج عليه (٢) . ومن قبل القالى أرتج على كثير من الرجال والأبطال الذين لهم أقدار معروفة فى بلاغة القول وحسن الأدب ؛ منهم عثمان بن عفان ، ويزيد بن أبى سفيان ، ويزيد بن المهلب ، وعبد الله بن عامر ، وخالد بن عبد الله القسرى ، وزفر بن الحارث ، ومعن بن زائدة ، وعدى بن أرطاة ، وروح بن حاتم ، وغيرهم . . .

ولقد كان عبد ربه اليشكرى عاملا لعيسى بن موسى على (المدائن) ، فصعد المنبر يوم الجمعة ليخطب القوم ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم أرتج عليه

---

(١) ويروى هذا الشطر هكذا : ولا دهانى لهم بغى ولا حسد .
(٢) رتج كفرح : استغلق عليه الكلام كأرتج عليه وارتتج واسترتج ـ القاموس .

فسكت ثم قال : « والله إنى لأكون فى بيتى فتجىء على لسانى ألف كلمة ، فاذا قمت على أعوادكم هذه جاء الشيطان فمحاها من صدرى ! ولقد كنت وما فى الأيام يوم أحب الى من يوم الجمعة ، فصرت وما فى الأيام يوم أبغض إلى من يوم الجمعة ، وما ذلك إلا لخطبتكم هذه ! (١) »

وصعد خالد بن عبد الله القسرى المنبر فأرتج عليه ، فمكث مليا لا يتكلم ، ثم تهيأ له الكلام ، فقال : « أما بعد ، فان هذا الكلام يجىء أحيانا ويعزب أحيانا ، فيسيح عند مجيئه سيبه ، ويعز عند عزوبه طلبه ، ولربما كوبر فأبى ، وعولج فنأى ، فالتأنى لمجيئه خير من التعاطى لأبيّه ، وتركه عند تنكره أفضل من طلبه عند تعذره ، وقد يرتج على البليغ لسانه ، ويختلج من الجرىء جنانه ، وسأعود فأقول ، إن شاء الله (٢) » .

فلم يكن مقبولا إذن من البلوطى أن يهتك حرمة ذلك العالم الكبير ، خصوصا وأنه ضيف ، وله من الأيادى السابقات ، والكلمات النابغات ، ما يغفر له مثل هذا الحصر ! .

ولعله يكون من المناسب هنا أن نذكر البلوطى - رحمه الله - بفصل له من خطبة ذكّر فيها نفسه بواجبها نحو إصلاح ذاتها وتقويم معوجها ، وهو الذى طالما وعظ وخطب ، ونهى وأمر ، فقال : « حتى متى ، والى متى أعظ ولا أتعظ ، وأزجر ولا أنزجر ! أدل الطريق الى المستدلين ، وأبقى مقيما مع الحائرين ! كلا ، إن هذا لهو البلاء المبين ، إن هى إلا فتنتك تضل بها من تشاء ، وتهدى من تشاء ؛ أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا ، وأنت خير الغافرين . اللهم فرغنى لما خلقتنى له ، ولا تشغلنى بما تكفلت لى به ، ولا تحرمنى وأنا أسألك ، ولا تعذبنى وأنا أستغفرك ، يا أرحم الراحمين » ! .

اللهم آمين ، لنا وله وللناس أجمعين ! . . .

---

[١] جمهرة خطب العرب ج ٣ ص ٣٧ [٢] العقد الفريد ج ٢ ص ٢٦٩ ط الازهرية

العدالة فى الاسلام

من عدالة أمير المؤمنين عثمان بن عفان

لفضيلة الأستاذ الشيخ أحمد على منصور
من علماء الأزهر

قام العدل على قدم وساق فى عهد أبى بكر وعمر ، وانتشر ميزان القسط بين النـاس بالحـق ، وأرخى الانصاف سـدوله بين العرب ، واتسعت رقعة الاسـلام ، وأمست الأمـة العربية من القوة بحيث يحسب لهـا ألف حساب وحساب ، ونمت فيها أفنان العزة ، واستحكمت فيها أصول القدرة ، وانتبهت إلى ما يعـلى شأنها ويرفع قدرهـا ، واتجهت لـكل شىء يحفظ وجودهـا ويمكن لها فى الأرض ، وبلغت مرادها بهـذا الدين الإسـلامى الصالح لـكل زمان ومـكان ، والذى أعدته الحـكمة الإلهية ليـكون خاتمـة الأديان لنوع الإنسانية ، ينتهى بها إلى أسمى غايات الحضارة والمدنية ، ويأخذ بيدهـا إلى أقصى مراقى الآداب .

ذلك الدين العظيم الذى كفل لمعتنقيه السعادة والحرية والعدالة والإنصاف والمساواة فى الحقوق والواجبات ؛ فسادوا العالم أجمـع ، وسـاسـوا دوله ، وحكموا شعوبه ، وتواصوا بالحق ، وتوصوا بالصبر .

ولقد شاء الله ، ولا راد لمشيئته ، أن يصاب المسلمون فى خليفتهم عمر بن الخطاب ، فنزعت نفس الشقى أبو لؤلؤة المجوسى نزعة كانت من أشأم النزعات على العالم الانسانى ، اهتزت لها أعواد المنابر ، ونفذ رنينها إلى أعماق القلوب ، فطعن بخنجره أمير المؤمنين فى المسجد بعد أن كبر للصلاة ؛ فسارع كبار الصحابة إلى خليفتهم وهـو يجود بنفسه ؛ ولما علموا أنه فى آخر عهده بالدنيا وأول عهده بالآخرة ، طلبوا منه أن يعـين الخليفة بعده ؛ فأبى وقال : لا أتحملها حيا وميتا ؛ فإن استخلفت فقد استخلف من هو خير منى — يعنى

أبا بكر - وإن تركتكم فقد ترككم من هو خير منى - يعنى رسول الله صلى الله عليه وسلم . ثم عين ستة من أفاضل الصحابة ، وأوصاهم أن يختاروا من بينهم واحداً ، فى مدى ثلاثة أيام بعد دفنه . فنفذوا أمره ، وانتخبوا عثمان بن عفان ، وبايعوه بالخلافة بعد دفن عمر بثلاث ليال .

شبّ عثمان رضى الله عنه على الأخلاق الفاضلة ، والصفات الحميدة ، والسيرة الكريمة ، والحياء الذى أخذ منه بأوفر حظ وأعظم نصيب .

وكان رضوان الله تعالى عليه كريما ، رءوفا بالناس ، محبا لقراءة القرآن ، محبوبا من قومه ، متواضعا يجلس مع أفراد الرعية كأنه واحد منهم ، وينام فى المسجد ورداؤه تحت رأسه .

مما أثر عنه أنه اشترى من رجل قطعة أرض بعد أن اتفق معه على ثمنها ؛ ومضت الايام تلو الايام ولم يحضر البائع ليتسلم ثمن الارض ، فأرسل إليه عثمان وسأله عن السبب فى إبطائه عن تسلم الثمن ، فقال الرجل : إنك غبنتنى ، واشتريت الأرض رخيصة منى ، وكلما قابلنى رجل لامنى على هذا البيع . فقال له عثمان : أنت حر فى الرجوع ؛ فان شئت أمضيت البيع وقبضت الثمن ، وإن شئت رجعت فى البيع وأخذت أرضك ؛ فاختر ما تشاء : الارض أم الثمن .

فهل بعد هذا عدل وإنصاف ؟ وهل وراء هذا خوف من الله ورأفة بالناس ؟ وهل هناك تسامح فوق هذا التسامح ؟ انظر ما قاله عثمان للبائع مع أن البيع قد انعقد وأصبحت الارض ملكا له . وأيم الحق إن هذا هو منتهى العدالة والتسامح ، والرأفة بالناس ، والخوف من رب العالمين !

كان ليهودى بئر بالمدينة ، يبيع ماءها للمسلمين ، ويتحكم فيهم ؛ فطلب عثمان من اليهودى أن يبيعه هذه البئر ، فأبى ؛ فراوده عثمان على أن يبيعه نصفها ، فقبل اليهودى على أن يكون ثمن النصف اثنى عشر ألف درهم ، فأعطاها له عثمان وأخذ نصف البئر ، واتفق معه على أن كلا منهما يستسقى منها يوما . وأباح عثمان للمسلمين أن يستسقوا من البئر فى اليوم المحدد له ، وأن يأخذوا كفايتهم لليوم التالى . فلما رأى اليهودى ذلك ، وأنه لم يعد أحد يشترى منه ماء بعد ، باع النصف الباقى لعثمان بثمانية آلاف درهم .

فلم يأخذ عثمان البئر من اليهودى بالقوة ، ولم يجبره على بيعها ، ولم يتملكها منه بثمن أقل من ثمن مثلها . وإنك لتلمس من هذا شدة شفقته بالمسلمين ، واهتمامه بأمرهم ، وبذله المال عن طيب خاطر لمساعدتهم . كما تلمح من خلاله الحزم والفطانة وسعة الحيلة ؛ فقد اشترى النصف الأول بثمن مرتفع ، وكان ذلك سبباً فى أن يبيع الرجل النصف الثانى بثمن معتدل .

حدثت فى بلاد العرب مجاعة فى خلافة أبى بكر ؛ وعلم التجار أن ألف جمل لعثمان جاءت من الشام ذات يوم ، تحمل قمحاً وزبيباً وزيتاً ؛ فأرادوا أن يشتروا منه هذه البضاعة ليبيعوها للمسلمين ؛ وعرضوا عليه قدر ثمنها خمس مرات ؛ فامتنع وقال لهم : إن الحسنة بعشر أمثالها ؛ وإن الله تعالى قد أعطانى قدر ثمنها عشر مرات ، ثم أمر بتوزيعها على الفقراء والمساكين .

وفضلا عن ذلك فقد جهز جيش العسرة إلى تبوك ، وأنفق فى ذلك عشر آلاف دينار ، وجهز ألف مجاهد وأعدلهم تسعمائة بعير ، ومائة فرس . ولم تمر به جمعة منذ أسلم إلا ويعتق فيها رقبة .

فهل رأينا كرما وعدلا وزهدا وسماحة وراء هذا ؟ يعرض عليه فى هذا الوقت العصيب مقـدار قيمة التجارة خمس مرات فتأبى نفسه العالية إلا أن يوزعها على المحتاجين ابتغاء وجه الله ، وطلبا لرضوانه . ويجود وقت الازمة الشـديدة بماله فى منفعة المسلمين ونصر الدين ، بدون أن يطلب منه أحـد أو يلجئه ملجىء ، سوى ضميره النقى ، وحبه لهذا الدين الاسلامي العظيم .

كان يقوم للصلاة مرارا بالليل وقبيل الفجر ، ويعد وضوءه بنفسه ، ولا يوقظ أحدا من أهله أو خدمه . فقيل له : إذا شئت أيقظت بعض الخدم فيقومون بما تحتاج إليه ، وليس عليهم فى ذلك حرج . فقال : لا أفعل ذلك أبدا ؛ الليل لهم يستريحون فيه .

هذا عدل واسع ، ورحمة كبيرة ، وشفقة عظيمة ، ورأفة نادرة ، وتواضع لا نظير له .

وصفوة القول فى عثمان : أنه خليفة جواد سمح كريم ، ولين هين عادل مهل حليم ، جمع أشتات الفضائل وحميد الخصال ، وضربت بحيائه الوافر الامثال . رضى الله تعالى عنه وأرضاه !

منزلة السنة من الدين

وضرورة العمل بها والإنكار على من ردها

لحضرة الأستاذ محمد فؤاد افندي عبد الباقي

الفصل الأول — المقياس الصحيح للحديث :

يقول بعض المؤلفين :

إن خير مقياس يقاس به الحديث وتقاس به سائر الأنباء التي ذكرت عن النبي ، ما روى عنه عليه السلام أنه قال : « إنكم ستختلفون من بعدي ، فما جاءكم عني فاعرضوه على كتاب الله ، فما وافقه فمني ، وماخالفه فليس عني » .

وهذا مقياس دقيق أخذ به أئمة المسلمين منذ العصور الأولى ، وما زال المفكرون منهم يأخذون به الى يومنا الحاضر .

الفصل الثانى :

فلننظر فى مقدار ما فى هذا الحكم من صحة .

قال الامام الشوكانى فى كتابه « إرشاد الفحول الى تحقيق الحق فى علم الأصول » ص ٣١ :

. . . وأما مايروى من طريق ثوبان فى الأمر بعرض الأحاديث على القرآن ، فقال يحيي بن معين : إنه موضوع وضعته الزنادقة .

وقال الشافعى : ما رواه أحد ممن يثبت حديثه فى شيء صغير ولا كبير (صوابه : صغر أو كبر) .

وقال ابن عبدالبر فى كتاب جامع العلم : قال عبد الرحمن بن مهدى : الزنادقة والخوارج وضعوا حديث « ما أتاكم عنى فاعرضوه على كتاب الله ، فان وافق كتاب الله فأنا قلته ، وإن خالف فلم أقله » اه .

وجاء فى كتاب جامع بيان العلم لابن عبد البر ج ٢ ص ١٩٠ :

قال عبد الرحمن بن مهدى : الزنادقة والخوارج وضعوا ذلك الحديث ، يعنى ما روى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال « ما أتاكم عنى فاعرضوه على كتاب الله فإن وافق كتاب الله فأنا قلته ، وإن خالف كتاب الله فلم أقله ، وإنما أنا موافق كتاب الله ، وبه هدانى الله » .

وهذه الألفاظ لا تصح عنه صلى الله عليه وسلم عند أهل العلم بصحيح النقل من سقيمه . اهـ .

وجاء فى الرسالة للامام الشافعى ص ٢٢٤ .

قال قائل : أفتجد حجة على من روى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « ماجاءكم عنى فاعرضوه على كتاب الله فما وافقه فأنا قلته ، وما خالفه فلم أقله » ؟

فقلت له : ما روى هذا أحد يثبت حديثه فى شىء صغر ولا كبر .

وهذه أيضا رواية منقطعة عن رجل مجهول ، ونحن لا نقبل مثل هذه الرواية فى شىء . اهـ .

وجاء فى الحاشية بقلم الأستاذ أحمد محمد شاكر :

هذا المعنى لم يرد فيه حديث صحيح ولا حسن ، بل وردت فيه ألفاظ كثيرة كلها موضوع ، أو بالغ الغاية فى الضعف حتى لا يصلح شىء منها للاحتجاج أو الاستشهاد .

قال فى عون المعبود (٤ : ٣٢٩) : فأما ما رواه بعضهم أنه قال : إذا جاءكم الحديث فاعرضوه على كتاب الله فإن وافقه فخذوه ... فانه حديث باطل لا أصل له ، وقد حكى زكريا الساجى عن يحى بن معين أنه قال : هذا حديث وضعته الزنادقة .

ونقل العلامة الفتنى فى تذكرة الموضوعات (ص ٢٨) عن الخطابى أنه قال أيضا : « وضعته الزنادقة » .

ونقل هو والعجلونى فى كشف الخفا (١ : ٨٦) عن الصغانى أنه قال : هو موضوع .

وقد كتب الامام الحافظ أبو محمد بن حزم ، في هذا المعنى فصلا نفيسا جداً، في كتاب الأحكام (٢ : ٧٦ — ٨٢) وروى بعض ألفاظ هذا الحديث المكذوب ، وأبان عن عللها فشفى ومما قال فيه :

« ولو أن امرءاً قال : لا نأخذ إلا ما وجدنا فى القرآن لكان كافرا بإجماع الأمة ، ولكان لا يلزمه إلا ركعة ما بين دلوك الشمس إلى غسق الليل ، وأخرى عند الفجر ؛ لأن ذلك أقل ما يقع عليه اسم الصلاة ، ولا حد للأكثر فى ذلك ؛ وقائل هذا كافر ، مشرك ، حلال الدم والمال » .

ثم قال « ولو أن امرءاً لا يأخذ إلا بما اجتمعت عليه الأمة فقط ، أو يترك كل ما اختلفوا فيه ، مما قد جاءت فيه النصوص، لكان فاسقا بإجماع الأمة. فهاتان المقدمتان توجبان بالضرورة الأخذ بالنقل » اهـ .

الفصل الثالث — نقض هذا المقياس — قال الامام الشوكانى فى « إرشاد الفحول » ص ٣١ :

وقد عارض حديث العرض قوم فقالوا : « وعرضنا هذا الحديث الموضوع على كتاب الله فخالف ، لأنا وجدنا فى كتاب الله : « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » (٥٩ / الحشر / ٧) ووجدنا فيه أيضا : « قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله » (٣/ آل عمران / ٣١) . ووجدنا فيه : « من يطع الرسول فقد أطاع الله » (٤ / النساء / ٨٠) اهـ .

الفصل الرابع — فرض الله طاعة رسوله فيما سنه صلى الله عليه وسلم

قال الامام الشافعى فى الرسالة ص ٧٣ :

بيان فرض الله فى كتابه اتباع نبيه :

قال الشافعى : وضع اللهُ رسولَه من دينه وفرضه وكتابه الموضع الذى أبان جل ثناؤه أنه جعله علما لدينه بما افترض من طاعته وحرم من معصيته ، وأبان من فضيلته ، بما قرن من الايمان برسوله مع الايمان به . فقال تبارك وتعالى : « فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذى يؤمن بالله وكلماته ، واتبعوه

لعلكم تهتدون » (٧/ الأعراف/ ١٥٨) وقال : « إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ، وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه » (٢٤/ النور/ ٦٢) فجعل كمال ابتداء الايمان ، الذى ما سواه تبع له ، الإيمانَ بالله ثم برسوله ، فلو آمن عبدٌ به ، ولم يؤمن برسوله ، لم يقع عليه اسم كمال الايمان أبداً ، حتى يؤمنَ برسوله معه ؛ وهكذا سن رسول الله فى كل من امتحنه للايمان .

أخبرنا مالك عن هلال بن أسامة عن عطاء بن يسار عن عمر بن الحكم قال : أتيت رسول الله بجارية ، فقلت يا رسول الله علىّ رقبة أفأعتقها ؟ فقال لها رسول الله : أين الله ؟ فقالت : فى السماء ، فقال : ومن أنا ؟ قالت : أنت رسول الله . قال : فأعتقها اه .

الفصل الخامس — منزلة السنة من الدين :

قال ابن عبد البر فى كتابه « جامع بيان العلم وفضله » جزء ثان ص ٣٣ و ٣٤ :

« وأما أصول العلم » فالكتاب والسنة ، وتنقسم السنة قسمين : أحدهما إجماع تنقله الكافة عن الكافة ، فهذا من الحجج القاطعة للأعذار إذا لم يوجد هناك خلاف ، ومن رد إجماعهم فقد رد نصا من نصوص الله يجب استتابته عليه ، وإراقة دمه إن لم يتب ، لخروجه عما أجمع عليه المسلمون ، وسلوكه غير سبيل جميعهم .

والضرب الثانى من السنة ، خبر الآحاد الثقات الأثبات المتصل الإسناد ، فهذا يوجب العمل عند جماعة علماء الأمة الذين هم الحجة والقدوة ، ومنهم من يقول : إنه يوجب العلم والعمل جميعا اه

جاء فى « إرشاد الفحول » للامام الشوكانى ص ٣١ :

قال فى معنى كلمة السنة : وأما معناها شرعا ، أى فى اصطلاح أهل الشرع ، فهى قول النبى صلى الله عليه وسلم وفعله وتقريره . وتطلق بالمعنى العام على الواجب وغيره ، فى عرف أهل اللغة والحديث اه .

وقال فى « استقلال السنة النبوية بالتشريع » :

« البحث الثانى » : اعلم أنه قد اتفق من يعتد به من أهل العلم على أن السنة المطهرة مستقلة بتشريع الأحكام ، وأنها كالقرآن ، فى تحليل الحلال وتحريم الحرام . وقد ثبت عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال « ألا وإنى أوتيت القرآن ومثله معه » ، أى أوتيت القرآن وأوتيت مثله من السنة التى لم ينطق بها القرآن، وذلك كتحريم لحوم الحمر الأهلية ، وتحريم كل ذى ناب من السباع ، ومخلب من الطير ، وغير ذلك مما لم يأت عليه الحصر . ا هـ .

وجاء فى سنن أبى داود ٣٩ كتاب السنة ٥ باب لزوم السنة جزء رابع ص ٢٠٠

حدثنا عبد الوهاب بن نجدة ، حدثنا أبو عمرو بن كثير بن دينار ، عن حريز بن عثمان ، عن عبد الرحمن بن أبى عوف ، عن المقدام بن معديكرب ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « ألا إنى أوتيت الكتاب ومثله معه ، لا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول : عليكم بهذا القرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه ، وما وجدتم فيه من حرام فحرموه . ألا يحل لكم لحم الحمار الأهلى ، ولا كل ذى ناب من السبع ، ولا لقطة معاهد ، إلا أن يستغنى عنها صاحبها . ومن نزل بقوم فعليهم أن يقروه ، فان لم يقروه فله أن يعقبهم بمثل قراه .

حدثنا أحمد بن محمد بن حنبل وعبد الله بن محمد النفيلى ، قالا : حدثنا سفيان ، عن أبى النضر ، عن عبيد الله بن أبى رافع ، عن أبيه ، عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « لا ألفين أحدكم متكئا على أريكته يأتيه الأمر من أمرى مما أمرت به أو نهيت عنه فيقول : لا ندرى ما وجدنا فى كتاب الله اتبعناه » ا هـ .

وجاء فى جامع الترمذى ٩٣ ـ كتاب العلم ١٠ باب ما نهى عنه أن يقال

عند حديث النبى صلى الله عليه وسلم . جزء ثان ص ١١٠

حدثنا قتيبة حدثنا سفيان بن عيينة عن محمد بن المنكدر وسالم أبى النضر عن عبيد الله بن أبى رافع عن أبى رافع وغيره رفعه قال « لا ألفين أحدكم متكئا على أريكته يأتيه أمرى مما أمرت به أو نهيت عنه فيقول : لا أدرى ما وجدنا فى كتاب الله اتبعناه . (قال أبو عيسى) : هذا حديث حسن صحيح .

حدثنا محمد بن بشار ، حدثنا عبد الرحمن بن مهدى ، حدثنا معاوية بن صالح عن الحسن بن جابر اللخمي عن المقدام بن معد يكرب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ألا هل عسى رجل يبلغه الحديث عنى وهو متكىء على أريكته فيقول : بيننا وبينكم كتاب الله فما وجدنا فيه حلالا استحللناه وما وجدنا فيه حراما حرمناه ، وإن ما حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم كما حرم الله » اهـ .

وجاء فى سنن ابن ماجه . المقدمة ٢ — باب تعظيم حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم والتغليظ على من عارضه . الجزء الأول ص ٥ .

« حدثنا أبو بكر بن أبى شيبة حدثنا زيد بن الحباب عن معاوية بن صالح ، حدثنى الحسن بن جابر عن المقدام بن معد يكرب الكندى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « يوشك الرجل متكئا على أريكته يحدث بحديث من حديثى فيقول : بيننا وبينكم كتاب الله عز وجل فما وجدنا فيه من حلال استحللناه وما وجدنا فيه من حرام حرمناه ، ألا وإن ماحرم رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل ما حرم الله » .

حدثنا نصر بن على الجهضمى ، حدثنا سفيان بن عيينة فى بيته أنا سألته عنه عن سالم أبى النضر ، ثم مر فى الحديث قال ، أو زيد بن أسلم ، عن عبيد الله بن أبى رافع عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « لا ألفين أحدكم متكئا على أريكته يأتيه الأمر مما أمرت به أو نهيت عنه ، فيقول لا أدرى ما وجدنا فى كتاب الله اتبعناه » . اهـ .

بين معاوية ووالديه

لما قدم معاوية من الشام ، وكان عمر قد ولاه عليها ، دخل على أمه هند ، فقالت له : يابنى إنه قلما ولدت حرة مثلك ، وقد ولاك هذا الرجل فاعمل بما وافقه أحببت ذلك أم كرهته . ثم دخل معاوية على أبيه أبى سفيان فقال له : يا بنى إن هؤلاء الرهط من المهاجرين سبقونا وتأخرنا عنهم ، فرفعهم سبقهم وقصر بنا تأخرنا ، فصرنا أتباعا وصاروا قادة ، وقد قلدوك جسيما من أمرهم ، فلا تخالفن أمرهم فانك تجرى إلى أمد لم تبلغه ، ولو قد بلغته لتنفست فيه .
قال معاوية : فعجبت من اتفاقهما .

الفن القصصي في القرآن

أرسل حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمود أبو العيون السكرتير العام للجامع الأزهر والمعاهد الدينية الكتاب التالى إلى حضرة صاحب العزة عميد كلية الآداب عبد الوهاب عزام بك .

الجامع الأزهر

مكتب السكرتير العام

حضرة صاحب العزة الصديق الكريم ، والمجاهد المفضال ، الدكتور عبد الوهاب عزام بك عميد كلية الآداب بجامعة فؤاد الاول .

السلام عليكم ورحمة الله . وقد ترامى إلى سمعى عن طريق الصحف والمجلات ، وأحاديث الأفراد والجماعات ، أن رسالة قدمت إلى الكلية من حضرة محمد أحمد خلف الله أفندى المدرس بالكلية لنيل درجة « الدكتوراه » وموضوعها « الفن القصصى فى القرآن » .

وقد أحيطت هذه الرسالة بإشاعات وشبهات تمس قداسة القرآن وصميم الاسلام ، وهي — لو صحت — تستوجب التأديب والعقاب . وقد رأيت أن أكتب اليك — وأنت الرجل الغيور على دينه ، المعروف بماضيه المشرف فى خدمة الاسلام وعقائد المسلمين — لكى تبادر بدراسة هذا الموضوع دراسة وافية . فاذا رأيت فيه مايستوجب مجازاة أو عقابا قمت به وأبنت للناس عنه ، حتى يكون ذلك عظة وعبرة ؛ وإن لم تر فى الموضوع ما يستحق هذه الضجة أصدرت للناس بذلك بيانا تقطع به قول كل قائل .

وإنه ليهمنى أن أقف على حقيقة هذا الموضوع ، فمن أخطر الأمور أن تتعرض قداسة القرآن وكرامة العقائد لمثل هذه التخرصات .

وفى انتظار تصرفك الحكيم أهدى إلى عزة الصديق المفضال أخلص التحيات .

السكرتير العام

للجامع الأزهر والمعاهد الدينية

محمود أبو العيون

فورد لحضرة صاحب الفضيلة السكرتير العام للازهر هذا الجواب من حضرة صاحب العزة عبد الوهاب عزام بك .

سيدى صاحب الفضيلة العلامة الشيخ محمود أبو العيون ،

السلام عليكم ورحمة الله .

وبعد ، فقد جاءت رسالتكم الكريمة ، فتلقيتها شاكرا لكم تفضلكم بالكتابة إلى فى أمر الرسالة التى سمعتم عنها .

وحقيقة الامر أن طالبا قدم رسالة عن القصص فى القرآن لينال بها درجة دكتور ، فردتها لجنة الفحص . فهى رسالة بين طالب وأساتذته عرض عليهم رأيه فعرّفوه خطأه ، كما يسأل التلميذ أستاذه ، أو يعرض عليه ما بدا له من مسألة مسترشدا . فلم تنشر الرسالة ، ولم تخرج من دائرة البحث والاستفهام ، حتى تصلح أن تكون موضع مناقشة أو مؤاخذة .

وكاتب الرسالة فيما أعرف عنه وكما يبدو من كتابته ، شاب مسلم قصد أن يدفع عن القرآن الكريم بعض شبه الملاحدة أو رجال الاديان الأخرى ، وحاد به اجتهاده عن سواء السبيل .

وأنتم تعلمون غيرتى وغيرة زملائى من أساتذة قسم اللغة العربية على الدين وعلى الكتاب المبين ، الذى تطمئن اليه قلوبنا ، وتحفظه صدورنا ، وتتلوه ألسنتنا ، وهو حجة تاريخنا ومفخرة لغتنا ، بل حجة الله البالغة ، وكتابه المجيد .

وأرى أن الامر لا يعدو أن يكون غلط تلميذ اجتهد وأحسن النية . فرُد عليه رأيه ولم يؤذن له أن ينشر هذا الرأى ، أو يتقدم بهذا الكتاب للامتحان .

ولو كان فى الامر غير هذا لكنا عند ظنكم فى المؤاخذة والمجازاة ، وعند واجبنا فى المحافظة على كرامة القرآن ، وحرمة الاسلام .

وأنا أسأل الله أن يهيىء لنا من أمرنا رشدا ، ويرزقنا السداد فى الفكر والقول والفعل .

والسلام عليكم من المحب المخلص .

عبد الوهاب عزام

٦ ذى الحجة ١٣٦٦

٢٠ / ١٠ / ١٩٤٧

مذكرة

مرفوعة من جبهة علماء الأزهر

الى حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم ، ثم الى جهات الاختصاص في الدولة المصرية وإلى الرأى الاسلامى العام .

بسم الله الرحمن الرحيم

حضرة صاحب . . . .

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

وبعد، فان جبهة علماء الأزهر ترفع الى مقامكم الكريم تحياتها بالغة سابغة ، وتستأذنكم فى الحديث مرة ثانية عن الرسالة التى تقدم بها محمد أحمد خلف الله افندى المعيد بكلية الآداب ليحصل على درجة دكتوراه ، طاعنا فى القرآن الكريم بأن فيه قصصا غير صادق ، وبأن فيه تناقضا ، وبأنه مستمد من التوراة والانجيل والاسرائيليات وأدب الفرس واليونان ، وبأنه كلام فنان تأثر بالعواطف وسبح مع الخيال واقتبس من الأساطير . ومعنى هذا أن القرآن كلام محمد القصصى الفنان ، لا كلام الله المنزه عن المشابهة والحدثان . ولقد ظاهره على هذا الزور والبهتان ، أستاذه المشرف على رسالته الأستاذ أمين الخولى .

ولقد التمسنا إجراء تحقيق عاجل عادل ، وتوقيع عقوبة رادعة بالرجلين إن صح الخبر . لكن مضت أيام طويلة لم نظفر فيها بطائل ، ولم يجر فيها تحقيق على ما نعلم ، حتى بتنا وبات الرأى الاسلامى العام نتململ من الإغضاء على هذا القذى ، كأن دين الله لا خطر له ، وكأن كتابه أسطورة لا بأس أن يخوض فيها من شاء بما شاء لا يسأل عما يفعل ! ! .

أمر عجب

ومن عجب أن جريدة الاخـوان المسلمين طلعت علينا صبيحة يوم عيد الأضحى من هذا العام ، وفيها كلمـة لعميد كلية الآداب سعادة الدكتور عبد الوهاب عزام بك ، يعترف فيها بخطأ صاحب الرسالة ، ثم يعترف بأن لجنة الفحص قد حكمت بخطئه ؛ لـكن سعادته حاول بعد ذلك أن يهون الأمر ، وأن يجعل هـذا الجبل الشامخ من الـكفر والجهل أصغر من الذر ، فقال : « وحقيقة الأمر أن طالبا قدم رسالة عن القصص فى القـرآن لينال بها لقب دكتور ، فردتها لجنة الفحص ، فهى رسالة بين طالب وأساتذته ، عرض عليهم رأيه فعرفوه خطأه ، كما يسأل التلميذ أستاذه أو يعرض عليه ما بدا له فى مسألة مسترشدا ؛ فـلم تنشر الرسالة ولم تخرج من دائرة البحث والاستفهام حتى تصلح أن تكون موضع مناقشة أو مؤاخذة » . ثم زاد سعادة العميد فزكى صاحب الرسالة وقال : « إنه شاب مسلم قصد أن يدفع عن القرآن الـكريم بعض شبه الملاحدة وأحسن النية » . ثم قال « وأرى أن الأمر لا يعدو أن يكون غلط تلميذ اجتهد وأحسن النية » .

ولا ريب أن كلام هذا العميد يفيد أن صاحب الرسالة تلميذ لا معيد ، وأن مثله مثل سائل مستفهم مسترشد ، لا واضع رسالة قاصد متعمد ، يدافع عنها بكل ما أوتى من قوة مع سبق الاصرار والترصد ! ! . ويوهم كلام العميد فوق ذلك أن شأن هذا الذى سماه تلميذا شأن المجتهد إذا أخطأ وهو حسن النية ، فله أجر وليس عليه وزر ! ! . أجل ، بمثل هذا الاستخفاف قضى أو حاول أن يقضى عميد الآداب ، فى أكبر جريمة من جرائم الإلحاد والجهل والخروج على الآداب .

ولقد كان الأجدر بل كان الواجب على سعادة العميد وهو يجنح الى المجاملة ، أن يجامل الحق والاسلام والشعب المسـلم وصالح الطلاب والـكلية التى هو مسؤول عنها بين يدى الله والتاريخ ، لا سيما أنه عالم مسلم نسل من بيت إسلام وعلم .

معالم الجريمة

ولقد كنا نتمنى أن نطوى نحن المسألة كما أراد أن يطويها العميد، لكن على أساس شريف حازم من التوبة والإنابة وإعلان الرجوع الى الحق من صاحب الرسالة وقائده، أما بعد هذا الاصرار والعناد والمراوغة والافتراء على مرأى ومسمع من الجمهور المسلم وغير المسلم، فاننا نرى الأمر جد خطير على نحو ما شرحنا فى مذكرتنا السابقة، خصوصا أن معالم الجريمة قد بدت للعيان ماثلة، ودم القتيل قد جرت به أنهار الصحف والمجلات، على رغم المراوغة وبذل الجهد فى إخفاء المعالم وطمس الحقائق!

١ — فها هو الأستاذ أحمد أمين بك أحد أعضاء لجنة فحص الرسالة، قد نشر تقريره محرراً مبرهناً بنصوص وفقرات من نفس الرسالة، وإذا هو يسجل كفر صاحبها وجهله عدة مرات لا مرة واحدة، على وجه لا يختلف فيه منصفان.

٢ — وها هو الأستاذ أحمد الشايب وهو أحد أعضاء لجنة فحص الرسالة أيضا، قد أخرج تقريره وفيه ما فى تقرير الأستاذ أحمد أمين بك، بل زاد عليه وأسهب، وكان أعنف فى حكمه وأشد!.

٣ — وها هو صاحب الرسالة نفسه، قد حاول جاهداً أن ينزل الميدان ويدافع عن نفسه فخانته قواه، ولاذ بالفرار، وتهرب من أن يمس موضوع الاتهام، ولم يستطع أن ينفى شيئا مما سجله عليه أستاذاه اللذان فحصا رسالته، بل أخذ يتخبط فى الظلمات، فكتب مرة فى معنى الأسطورة كتابة مبتورة، وسب مرة أخرى أستاذه الشايب سباً قذراً لا يليق بأقل طالب فضلا عن معيد فى كلية الآداب. ثم تعلق بأذيال حرية الرأى غير فارق بين الحرية والكفر، وتمسح بأعتاب الأستاذين الكبيرين الشيخ عبد المجيد سليم والشيخ محمود شلتوت، فافترى عليهما أنهما أفتيا بما يفيد أنه مجتهد مأجور، لكن هذا الافتراء لم يغن عنه شيئا، فقد فضحه الشيخان، وتبرآ من هذا الذى نسبه إليهما.

والى هنا ثبت بوضوح أن صاحب الرسالة قد جمع بين الكفر والجهل والوقاحة والافتراء والعناد ، وهى جرائم تكفى الواحدة منها لعقوبته وإقصائه عن مكانه فى كلية الآداب !! .

فرية الاجتهاد

أما القول بأنه مجتهد أخطأ فهو قول هزل ، لأن المسألة ليست مسألة اجتهادية ، كيف وموضوعها عقيدة من العقائد الأولية فى الاسلام ، وقد تضافرت عليها قواطع الأدلة واستفاضت بين الخواص والعوام . ألا ترى أن كون القرآن كلام الله لا كلام محمد ، وكونه حقا لا باطل فيه وصدقا لا كذب فى قصة من قصصه ولا فى خبر من أخباره ، وكونه وحيا يوحى أنزله الذى يعلم السر وأخفى من سماء الغيب ، لا استمداداً من الاسرائيليات والأساطير وأدب الفرس واليونان . نقول : ألا ترى أن كل أولئك أمور تناولتها نصوص الكتاب والسنة وانعقد عليها الاجماع ، واستفاضت بين المسلمين جيلا بعد جيل من عهد نزول القرآن الى اليوم ، لا يمارى فى ذلك إلا جهول أو جحود ، حتى أصبحت هذه العقيدة من المعلوم من الدين بالضرورة . وذلك لا محالة يخرج موضوع الإجرام هنا عن أن يكون محل اجتهاد ، ويخرج بصاحب الرسالة عن أن يكون مجتهدا مأجورا ، الى أن يكون مجرما مرتداً مأزوراً !! ومن القواعد المشهورة بين الأصوليين ، أنه لا اجتهاد فى مقابلة النص ، وأنه لا يجوز الاجتهاد فيما قام عليه الاجماع ، أو علم من الدين بالضرورة .

الأستاذ أمين الخولى

يبقى الكلام على الأستاذ أمين الخولى ، وما أدراك ما الأستاذ أمين الخولى ؟ إنه الركن الأول فى هذه الجريمة . هو الذى تولى كبرها ، وقد اعترف ضمنا فى جريدة أخبار اليوم (١ - ١١ - ١٩٤٧) بأنه هو الذى غرر بتلميذه خلف الله وأغراه على ما أجرم ، وأشرف عليه وهو يرتكب الجريمة ، ثم حاول حمايته وتأييده والدفاع عنه بعد ارتكابها ، هازئا بمقدسات الاسلام ومقرراته العلمية ، ساخراً من موقف جبهة علماء الأزهر وفضيلة المفتى السابق ، وأسمى

الرأى الاسلامى العام فى هـذا الموضوع بأنه ضجيج عامى أهوج ، متقولا على المرحوم الأستاذ الشيخ محمد عبده مالم يقل ، متهاونا بمقامه فى كلية الآداب كأستاذ ، وبمقـام زميليه اللذين فحصا الرسـالة كأستاذين جليلين ، وبمقام العميد الذى أعلن خطأ صاحب الرسالة كرئيس عظيم . بل لقد أسرف الأستاذ الخولى واشتط فأعلن إصراره على هذا الإلحاد بصورة التحدى لمصر والشرق كله إذ قال : « لو لم يبق فى مصر والشرق كلـه أحـد يقول إنه حـق ، لقلت وحدى وأنا أقذف فى النار : إنه حق حق » ! ! .

أما بعد

فأننا نرجو فى دينـكم وغـيرتكم أن تتفضلوا فتعملوا على تحقيق ما يأتى فى سرعة ، غسلا للاهانة التى لحقت الدين والعلم والأزهر والجـامعة والأمة الاسلامية كلها :

١ — تحويل الرسالة إلى فضيلة مفتى مصر الأكبر ، ليقضى فيها من ناحية الدين ، باعتباره جهة الاختصاص .

٢ — عقد جماعة كبار العلماء لمناقشة الأستاذ أمين الخولى (باعتباره عالما) فيما نسب إليه من تأييد مافى الرسالة ، وفيما نشره بجريدة أخبار اليوم .

٣ — إيقاف الأستاذ أمين الخولى ومحمد أحمد خلف الله أفندى عن عملهما ، حتى يفصل فى أمرهما .

٤ — عدم تجديد عضوية الأستاذ أمين الخولى بمجلس إدارة كلية أصول الدين .

٥ — تطهير الجامعة والمدارس فى مصر من كل ضليل ملحد .

٦ — تصحيح الأوضاع وإسناد تدريس المواد الدينية والعربية إلى أساتذة أمناء على دينهم وعلمهم وتلامذتهم ووطنهم .

وذلك أضعف الايمان

ذلك أقل ما يجب فى مثل هـذا الحـادث الجلل ، وإلا فحـكم الإسـلام على المرتدين معروف . وإن مصر الاسلامية بل زعيمة الأمم الإسـلامية ،

لا يصح أن تكون بعد اليوم مباءة للالحاد والملاحدة ، وفيها الوعى الدينى قد تنبه وتيقظ ، وفيها الأزهر المعمور قد ثار للعدوان على الاسلام وتغيظ ، وعلى رأسها ملك صالح مسلم يعرف كيف يقود السفين ويحمى العرين .

« والله يقول الحق ، وهو يهدى السبيل » .

وتفضلوا بقبول موفور التحية والاجلال .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ؟

فى ١٩ / ١٢ / ١٣٦٦ هـ — ٢ / ١١ / ١٩٤٧م

الأمين العام للجبهة
محمد عبد العظيم الزرقانى
الأستاذ بكلية أصول الدين

رئيس الجبهة
محمد الشربينى
عضو جماعة كبار العلماء

عمر ومعاوية

قال يزيد بن معاوية : حدثنى أبى أن عمر بن الخطاب لما قدم الشام ، قدم على حمار ، ومعه عبد الرحمن بن عوف على حمار ، فتلقاهما معاوية فى موكب ثقيل ، فجاوز عمر حتى أخبر ، فرجع إليه ، فلما قرب منه نزل إليه ، فأعرض عنه عمر ، فجعل يمشى الى جنبه راجلا ، فقال عبد الرحمن بن عوف : أتعبت الرجل ! فأقبل عليه الفاورق وقال له : يامعاوية أنت صاحب الموكب آنفا مع ما بلغنى من وقوف ذوى الحاجات ببابك ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين . قال ولم ذاك ؟ قال : لأنا فى بلد لا نمتنع فيها من جواسيس العدو ، ولا بد لهم مما يرهبهم من هيبة السلطان ، فان أمرتنى بذلك أقمت عليه ، وإن نهيتنى عنه انتهيت . فقال عمر : لئن كان الذى تقول حقا فانه رأى أريب ، وإن كان باطلا فإنها خدعة أديب . وما آمرك به ولا أنهاك عنه .

فقال عبد الرحمن بن عوف : لحسن ما صدر هذا الفتى عما أوردته فيه . فقال عمر : مصادره جشمناه ما جشمناه .

الاسلام والمسلمون فى شرق أفريقيا

لحضرة الأستاذ الدكتور محمود حب الله
مبعوث الأزهر الى شرق إفريقية

دراسات عامة

الحالة الاجتماعية

تتكون بلاد إفريقيا الشرقية من أربع مقاطعات : كينيا ، وتنجا نيقا ، ويوغندة ، وبلاد الزنجبار ، وهي إما مستعمرات انكليزية أو تحت الانتداب الانكليزى ، ويسكنها ما يقرب من ستة عشر مليونا من الأنفس ، ومن هؤلاء من يعتبر من السكان الأصليين ، ومنهم النازحون الذين انحدروا اليها من أقطار متعددة وأمم متباينة .

ا — السكان :

(١) فهناك الأوربيون أو البيض ، وهم الطبقة الحاكمة والمتمتعة بكثير من الامتيازات ؛ فلكل أوروبى مركز ممتاز ، وعليه واجبات وقيود يقصد بها الاحتفاظ بكرامته وبمركزه الممتاز . فلهم أحياء خاصة ، وفنادق خاصة ، ومرافق خاصة ، لا يسمح لغيرهم أن يطرقها ، ولا يصح لواحد منهم أن يسافر فى الدرجة الثالثة ، لأنه لا يصح أن يكون شعبيا . والحد الفاصل الذى يضع الشخص فى هذه الناحية أو فى تلك الناحية هو اللون ، حتى يتبين خلافه . ويسكن هؤلاء المدن عادة إلا المبشرين منهم فانهم متغلغلون فى طول البلاد وعرضها .

(٢) وهناك الهنود النازحون من الهند وسيلان ، وهم جماعات شتى وطوائف متعددة ، وأديان مختلفة ؛ شأنهم فى ذلك شأن الهند نفسها . وهم

متغلغلون فى البلاد أيضا ، غير أنهم لا يتزاوجون مع الوطنيين . وهذا هو السر فى احتفاظهم بلغاتهم الأصلية ، على الرغم من طول مكثهم هناك .

(٣) وهناك العرب الذين نزحوا ولا يزالون ينزحون من جزيرة العرب ، وخاصة من عمان وحضرموت وعدن ومسقط . وهم متغلغلون فى البلاد كلها أيضا ، فتجدهم على قلتهم ، فى المدن وفى القرى وفى الغابات . وهم يندمجون مع الوطنيين ويتزوجون منهم . وهذا هو السر فى أن كثيرا منهم نسى لغته الأصلية واستبدل بها اللغة الوطنية ؛ ولكنه نال نظير ذلك إسلام الوطنيين .

(٤) وهناك الوطنيون الأصليون ، وهم أكثرية البلاد .

وأما المسلمون من السكان فيقربون من أربعة ملايين من الأنفس ، وهم منتشرون فى البلاد كلها ؛ فتجدهم فى العواصم وفى القرى ، وعلى السواحل وفى داخل البلاد ، وهم طبعا أقلية فى كل مكان إلا فى بلاد الزنجبار ، فهم هناك يكادون يكونون كل السكان ، ولا يوجد بينهم إلا نفر قليل من غير المسلمين . وتعتبر بلاد الزنجبار المركز الرئيسى للاسلام هناك ، لا لأن سكانها مسلمون فحسب ، بل لأن سلطانها عربى مسلم أيضا ، ويدين له كل عرب إفريقيا الشرقية بالطاعة والولاء .

ب — الإدارة :

تحكم هذه المقاطعات كلها مباشرة أو عن طريق غير مباشر بالحكومة الانجليزية . وليس لغيرهم من السكان إلا سلطان محدود حين يوجد .

فعلى الرغم من أن الهنود يحتلون مراكز اقتصادية ممتازة ، لا نجد لهم أثرا حقيقيا فى توجيه سياسة البلاد ، وكأنهم يخشون أن تضع الحكومة العراقيل فى وجوههم وتسد عليهم أبواب الرزق أو تخرجهم من البلاد إذا ما أظهروا شيئا من التذمر ؛ ولهذا فهم يظهرون أنهم راضون بما يسود هناك من أوضاع . ولكن هل هذا هو الحقيقة ؟ .

وليس العرب بأحسن حظا من الهنود فى تلك الناحية ؛ فليس لهم رأى حقيقى فى توجيه سياسة البلاد أيضا . وعلى الرغم من ذلك فهناك ولاة من العرب فى بعض البلاد ؛ وهناك مديرون منهم فى بلاد الزنجبار يساعدون السلطان فى إدارة البلاد .

وشأن الوطنيين فى ذلك شأن غيرهم ، مع أن منهم مديرين بيوغنده ، ومن بين هؤلاء مدير مسلم ، وهو الوحيد هناك منهم.

وهناك من المسلمين من يعين عضوا فى المجالس المحلية أو ينتخب فيها . ولكن الكلمة العليا هي فى النهاية لدى السلطان .

ج — القضاء :

والقضاء المدنى بجميع درجاته فى أيدى قضاة من الانجليز .

وأما القضاء الشرعى للمسلمين فهو ، حيث يوجد ، فى أيدى المسلمين . وسلطان القضاء منحصر فى المسائل الشرعية من زواج وطلاق وميراث. وأحيانا يتعدد القضاة الشرعيون فى البلد الواحد بتعدد الفرق . ولقد رأيت (١) فى بلاد الزنجبار قاضيا للاباضيين وآخر لأهل السنة ، وفى ممباسا قاضيين لأهل السنة . على أننى لم أر قضاة شرعيين فى غير هذين البلدين . ولقد عجبت ماذا يصنع المسلمون فى البلاد الأخرى حينما تعرض لهم مشاكل ، وبينهم وبين هذين البلدين مئات من الأميال . ولقد سألت هذا السؤال فوجدت إجابات استظهرت منها أن الناس يحلون مشاكلهم بأنفسهم ، أو بواسطة مجالس يختارونها هم ، أو بواسطة عرفاء المكاتب ما دام ذلك ممكنا ، وإلا فانهم يتجشمون مشاق الرحلة إلى أحد هذين البلدين .

الحالة الاقتصادية

تتمتع هذه البلاد ، على وجه عام ، بالرخاء ورغد العيش . وذلك لتوفر المحصولات بسبب كثرة الأمطار وقلة عدد السكان بالنسبة لاتساع الأرض

(١) وممن تشرفت بمعرفتهم السيد عمر بن سليط قاضى أهل السنة فى بلاد الزنجبار . وهو عالم ورع وزعيم مدرسة ومحبب إلى النفوس جميعا . ولقد شرفنى بأن لازمنى أثناء اقامتى ببلاد الزنجبار . وعرفت السيد محمد الأمين قاضى قضاة ممباسا ، وهو شافعى المذهب كالسيد عمر ، جليل القدر ، وله عدة مؤلفات باللغة الوطنية فى الرد على القاديانية . ولم أتشرف بمقابلته إلا مرتين زرته فى بيته الريفى الذى كان يمرض فيه .

المكسوة بالخضر والفواكه ، ولجودتها وخصوبتها . فتجد فى بلاد الزنجبار الكثير من القرنفل وجوز الهند ، وهما من المحاصيل الرئيسية ، غير أنهما يباعان بأبخس الأثمان ، وفيها معاصر لاستخراج زيت القرنفل . وهناك المانجة والأناناس والبرتقال والموز والبطيخ والذرة الشامية . وأثمانها بخسة جدا إذا ما قورنت بالأسعار فى مصر . ولكن ذلك لا يؤثر كثيرا على السكان ، لأن مجهودهم فى استخراج هذه المحصولات ضئيل . ويكاد أحيانا ينحصر فى جمع هذه المحصولات بعد أن يكون قد آن حصادها . وتجد فى كينيا ، عدا الكثير من هذا كله ، الشاى والأرز والقمح والشعير ، وتجد فى تنجانيقا الشاى والبن كذلك . وفى يوغندة كثير من البن والقطن وقصب السكر . وهناك محالج له ومصانع للسكر .

وعندهم ، عدا هذا ، كثير من المواد الخام الضرورية للصناعات . وتمدهم الغابات المترامية الأطراف بكثير من أجود أنواع الخشب . وأما الثروة الحيوانية فيوجد منها الكثير . فهناك الحيوانات الوحشية التى ينتفعون بجلودها وعظامها وأوبارها . والحيوانات الأليفة التى ينتفعون بلحومها كذلك . ولقد ساعدتهم كثرة المراعى على الإكثار من هذه الثروة ، وهى فى نمو مطرد .

وللبحيرات دخل كبير فى كثرة الأمطار التى جعلت هذه البلاد جميعها تبدو كأنها حقل واحد مكسو وجهه بالخضر . وتمدهم البحيرات أيضا بثروات أخرى مثل السمك والتماسيح . وهذه هي البحيرات التى تمد النيل بمائه ، ومنها بحيرة فيكتوريا الواقعة فى يوغنده ، وهي من أكبر البحيرات التى تمد النيل . ولقد سمعت بهذه المناسبة ، أن حكومة يوغنده تفكر جديا فى التحكم فى ماء تلك البحيرة . وذلك ببناء خزان عند جنجا ليستغل فى توليد الكهرباء من مساقط الماء هناك . وإذا تم هذا المشروع وضبطت مياه البحيرة فماذا يكون الشأن بالنسبة لمصر ؟ هل ستدفع النواحى الانسانية حكومة يوغنده إلى أن تترك المياه تجرى فى مجاريها الطبيعية ، أو أنها ستعمد إلى تهديد مصر وإلى مساومتها ؟ ذلك ما يجب أن نتنبه له وأن نفكر فيه .

« يتبع »

الجانب الالهى من التفكير الاسلامى

هذا كتاب جليل قدره ، عظيمة فائدته ، طريف موضوعه . قام بتأليفه حضرة الأستاذ الألمعى الدكتور محمد البهى مدرس الفلسفة بكلية أصول الدين . واسمه يدل على المجهود المضنى الذى يقتضيه إبراز مثل هذا العمل الفذ فى اللغة العربية . ومجرد استكمال المراجع العربية التى اعتمد ، ونقل ملاحظات قيمة منها ، يدل وحده على مبلغ ما عاناه الاستاذ المؤلف من الجهد الجاهد ، فى سبيل إقامة هذا الصرح الفلسفى فى أدق المواضيع وأحوجها للعناية والتدقيق .

الكتاب الذى نذكره الآن هو القسم الثانى من كتاب « الجانب الالهى من التفكير الاسلامى » وهو كما قال المؤلف : «يعرض موقف فلاسفة المسلمين فى الشرق من التراث العقلى الاغريقى فيما وراء الطبيعة ...

ولأجل الوصول الى هذه الغاية « يذكر آراء المدارس الفلسفية فى الوجود وأصله وما ينتهى إليه ، ورأى هؤلاء الفلاسفة فيه ، ويوضح أن رأيهم فى تصورهم الوجود ، وتصويرهم له ، يتمثل فى التوفيق بين الدين والفلسفة ، أكثر من أن يعبر عن بناء جديد فى التفكير الفلسفى فيما وراء الطبيعة» .

ثم شرع حضرة المؤلف الجليل فى خوض غمار هذه البحوث فذكر أولا موقف العقلية الاسلامية من الفلسفة الاغريقية . ثم سرد أسباب قبول المسلمين لهذه الفلسفة ، وبحوثهم فى التوفيق بين الدين والفلسفة . ثم ألم بمشكلة الوجود ، وذكر سبب اختلاف نظر الفلاسفة فيه ، وأتى على آراء البراهمة فيه ، وآراء الاغارقة ومنهم الايليون وأفلاطون وأرسطو والرواقيون ، وأضاف اليهم فلاسفة الافلاطونية الحديثة كأفلوطين وبرقلس الخ . ثم انتقل الى رأى القرآن فى الوجود ، وتوسع فى إيراد رأى الكندى ، والفارابى وابن سينا . وبعد هذا كله انتقل الى مسألة الاستدلال على واجب الوجود ، وجاء برأى توماس الاكفينى فى دليل الوجود ، ونقد (كانت) للادلة التقليدية على وجود الله ، ووحدانيته ، وعلى علم واجب الوجود .

فهذا خضم متلاطم الأمواج من البحوث ، استطاع ممثل النبوغ الأزهرى فى الفلسفة الحديثة أن يحصره فى ٢٩٢ صفحة حافلة بالنظرات القيمة ، والتعليقات الثمينة . فنثنى على مؤلفه النابغة أطيب الثناء ، أكثر الله من أمثاله فى النبغاء .

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة حضرة صاحب الفضيلة

الأستاذ الكبير الشيخ عبد الرحمن حسن

التى ألقاها بين يدى حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم فى احتفال الأزهر بعيد رأس السنة الهجرية

« كنا وعدنا بنشر هذه الكلمة القيمة فى هذا العدد من »
« مجلة الأزهر ، فنفى بما وعدنا ، وها هى فى ثوبها الرائع »

بسم الله الرحمن الرحيم

« وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِى ارْتَضَى لَهُمْ ، وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً » .

أقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة ثلاث عشرة سنة ، يدعو فيها الناس إلى دين الله الحق ، وما فيه من هدى ونور .

وقد كانت هذه السنون الطوال حرباً شعواء على الوثنية وما فيها من شرور وفساد ، وصراعا شديداً بين الحق والباطل ، بذلت فيه قريش كل جهدها ، وما تملك من قوة وحيلة ، لإبطال الدعوة إلى دين الله ، والقضاء عليها ؛ ولاقى رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أصحابه أشد أنواع الإيذاء ، وأنكى أصناف العذاب ، فلم يزده ذلك إلا اعتصاما بحبل الله المتين ، وقوة وثباتاً على الحق .

ائتمرت به قريش ، وحاولوا قتله ، وأنذروا عمه أبا طالب بالحرب ، إن لم يكُفَّه عن الدعوة إلى هذا الدين ، وشردوا أنصاره ، ولاحقوهم خارج الجزيرة ، ليكيدوا لهم عند ملك الحبشة ، حتى لا يؤووهم ، وضيقوا عليه وعلى عشيرته ،

وقاطعوهم ثلاث سنين ، لا يبيعونهم ، ولا يبتاعون منهم ، ولا يزوجونهم ، ولا يتزوجون منهم ؛ وبذلوا له من المال والسيادة والملك عليهم : ورسول الله صلى الله عليه وسلم فى كل ذلك وغيره من الأحداث ، لم يبال بتهديداتهم ، وإنذاراتهم ، وإغرائهم له بزخرف الدنيا ، بل سار فى طريقه ، يدعو إلى الله ؛ وقد قال لعمه أبى طالب ـ وقد أنس منه الخذلان ، خوفا من حرب بينه وبين قومه ، تأكل الأخضر واليابس ـ : « والله ياعم لو وضعوا الشمس فى يمينى ، والقمر فى يسارى ، على أن أترك هذا الأمر ، حتى يظهر ، أو أهلك فيه ، ما تركته » !

وجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرض نفسه على الناس فى مواسم العرب ، ويذهب إلى القبائل فى منازلها ، يدعوهم إلى عبادة الله وحده ، وأن يمنعوه حتى يبلغ رسالة ربه ، ويناديهم : « أيها الناس ! قولوا لا إله إلا الله تفلحوا ، وتملكوا بها العرب ، وتدِنْ لكم بها العجم ، فاذا فعلتم كنتم ملوكا ، لكم الجنة » . كان يفعل هذا ، ومن ورائه من القرشيين من يصد الناس عن الاستجابة إلى دعوته ، والاستماع إلى ما يقول .

ولكن الله سبحانه وتعالى ، الذى أراد إظهار دينه ، وإعزاز نبيه ، هيأ لهذا الدين منفذاً يسود فيه ، وتعلو فيه كلمة الله ؛ فقد اتصل صلى الله عليه وسلم ، فى موسم الحج بنفر من أهل المدينة ، فتلا عليهم القرآن ، ودعاهم إلى الإسلام ، فأسلموا ؛ وقد عرفوا فيه أنه النبى الذى كان يذكره لهم اليهود ، وقالوا له : « إنا قد تركنا قومنا ، ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم ، وعسى أن يجمعهم الله بك ؛ فسنقدم عليهم ، فندعوهم لأمرك ، ونعرض عليهم الذى أجبناك إليه من هذا الدين ، فإن يجمعهم الله عليك ، فلا رجل أعزمنك » . ثم انصرفوا ، وذكروا لقومهم أمر رسول الله ، ودعوهم إلى الإسلام ، حتى فشا فيهم ، فلم يبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكره صلى الله عليه وسلم .

وفى الموسم الثانى ، وافى الموسمَ من المدينة اثنا عشر رجلا من الأوس والخزرج ، واجتمعوا بالنبى صلى الله عليه وسلم ، وبايعوه على الإسلام ، وألا يرتكبوا إثماً ولا فجوراً ؛ وأرسل مصعب بن عمير يقرئهم القرآن ، ويفقههم فى الدين ؛ فأسلم

بإسلامهم خلق كثير، وفيهم الأشراف والسادة؛ وكان القرآن هو المؤثر الأعظم الذى ينفذ الى القلوب المغلقة فيفتحها فلا من يسمعه حتى يسلم. «اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الحديثِ كتاباً مُتَشابهاً مَثانِىَ تَقْشَعِرُّ منه جُلودُ الذين يَخْشَوْن ربَّهم ثُم تَلينُ جلودُهُمْ وقلوبُهم إلى ذكرِ الله؛ ذلك هدى اللهِ يَهدى به مَن يشاء».

أسلم سعد بن معاذ سيد بنى عبد الأشهل بعد أن سمع القرآن وتأثر به، فذهب الى قومه فى ناديهم فقال: يا بنى عبد الأشهل كيف تعلمون أمرى فيكم؟ قالوا: سيدنا وأفضلنا رأيا وأيمننا نقيبة. قال: فإن كلام نسائكم ورجالكم علىّ حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله. قالوا: فوالله ما أمسى فى دار بنى عبد الأشهل رجل ولا امرأة إلا مسلما أو مسلمة.

وفى موسم الحج الذى كان قبل الهجرة، اجتمع بالنبى صلى الله عليه وسلم ثلاثة وسبعون رجلا وامرأتان ممن أسلموا، وتشاوروا معه سرًّا، فرأى من استعدادهم أن يعقد معهم حِلفاً يكون قوة للاسلام ومنعة للمسلمين، فبايعوه على أن يمنعوه مما يمنعون منه أنفسهم وأموالهم، ولو كان فى هذا مصيبة الأموال وقتل الأشراف ولهم الجنة.

وفى هذه المبايعة يقول الله تعالى: «إنّ اللهَ اشْتَرى من المؤمنين أنفسَهم وأموالَهم بأنّ لهم الجنةَ، يقاتِلون فى سبيل الله فَيَقْتُلُونَ ويُقتَلون، وعْداً عليه حقًّا فى التوراةِ والإنجيلِ والقرآنِ، وَمن أوفَى بعهده من الله؟ فاستَبشروا بِبَيْعِكُم الذى بايعتُمْ به، وذلك هو الفوزُ العظيمُ».

أزعجت هذه البيعة قريشا بعد أن علمت بها، وكانوا يؤمّلون أن يعيدوا من أسلموا إلى دينهم، بعد أن أصابوهم بالأذى وضيقوا عليهم السبل؛ ولكنهم وجدوا الزمام قد أفلت من أيديهم، لأن الأنصار سبقوا إلى المدينة، وأن محمدا وأصحابه وجدوا لهم طريقا إلى الخلاص، وأصبحت فجاج المدينة مفتوحة أمامهم، وصارت لهم قوة خارج مكة قد تنمو وتنصر محمدا عليهم، وقد تقف فى طريق تجارتهم وتمنع قوافلهم إلى الشام، وقد يداهمونهم فى دارهم ويملكون عليهم أمرهم؛ ولهذا أخذت قريش تفكر جديا فى هذا الأمر، وخصوصا بعد أن عرفوا من أمر المسلمين أنهم قد هاجروا ولحقوا بحلفائهم فى المدينة، وأصبحوا فى قوة ومَنعة،

وخافوا أن يلحق محمد بهم فيكيد لهم بمالا يقدرون على دفعه ، وهو فى منعة من أصحابه ، فاجتمعوا له فى دار الندوة ، وهى دار قصى بن كلاب التى كانت قريش لا تقضى أمرا إلا فيها ، يتشاورون فيما يصنعون فى أمره ، وقلبوا الأمر على الوجوه المختلفة ، وانتهوا إلى رأى أبى جهل بن هشام ، وهو أن يختاروا من كل قبيلة شابا فتىً جَلْداً نسيباً وَسِيطاً فيعطوه سيفا صارما ، ثم يعمدوا إليه فيضربوه ضربة رجل واحد ، فيتفرق دمه فى القبائل ، فلا يستطيع بنو عبد مناف أن يحاربوا قومهم جميعا .

وانتهوا الى هذا الرأى ، واختاروا الفتيان والليلة التى يقتلونه فيها ؛ وقد علم رسول الله صلوات الله عليه ما دبروا وما بيّتوا ، فلم يفزع ، وبيّت من الأمر ما يرد به كيدهم ، والله تعالى يقول : « وإذْ يَمكُرُ بك الذين كفروا لِيُثْبِتُوك أو يَقْتلوك أو يُخرجوك ويمكرون ويمكر اللهُ ، والله خيرُ الماكرين » .

ذهب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بيت أبى بكر وأخبره بما كان ، وأن الله تعالى قد أذن له فى الهجرة ، ففرح أبو بكر رضى الله عنه ، لأنه كان يرجو أن يكون صاحبَ رسول الله فى هجرته . وسأل رسول الله أن يكون صاحبه فأجابه ، ففرح أبو بكر بذلك حتى بكى . وقالت عائشة رضي الله عنها : « فوالله ما شَعَرتُ قطُّ قبل ذلك اليوم أنّ أحداً يبكى من الفرح حتى رأيت أبا بكر يبكى يومئذ » !

أمَر رسولُ الله صلى الله عليه وسلم علىّ بن أبى طالب أن ينام مكانه فى الليلة التى اتُّفق على قتله فيها ، وأن يتسجى ببرده الذى اعتاد أن ينام فيه ، حتى لا يرتاب أحد فى وجوده ؛ فكان على رضى الله عنه أول من باع نفسه فى سبيل الله ، ووقى بها رسول الله صلى الله عليه وسلم . ثم خرج هو وأبو بكر إلى غار بجبل ثور فدخلاه ، ورُتب الأمرُ على أن يتسمّع عبد الله بن أبى بكر أخبار قريش نهاره ، ثم يأتيهما فى المساء بما كان فى ذلك اليوم ، وأن يرعى عامر ابن فهيرة مولى أبى بكر غنمه فى النهار ، ويريحها عليهما فى المساء ، حتى إذا عاد عبد الله تبعه بالغنم فعفّى أثره ، وأن تأتيهما أسماء بنت أبى بكر بما يصلحهما من الطعام . أما فتيان قريش الذين اجتمعوا على قتله فقد باتوا ليلتهم على باب داره ينتظرونه حتى يخرج فيقتلوه ؛ وكانوا يتطلعون من فُرْجة فيرون رجلا نائماً

يرون أنهم طلبتهم . هو نائم فى برده الأخضر الذى اعتاد أن ينام فيه ؛ إذاً لاشك أنه محمد . ولكن فى الصباح أدرك هؤلاء الفتيان أنهم باتوا يحرسون على ابن أبى طالب ، لا محمد بن عبد الله .

اهتمت قريش لهذا الأمر ، وسألوا عن أبى بكر فلم يجدوه ، فزاد اهتمامهم وخرجوا بسيوفهم ورماحهم يبحثون عن محمد وأبى بكر فى كل مكان ، وجعلوا لمن يأتى بهما قتيلين أو مأسورين دية كل واحد منهما مائة ناقة ، وأتوا بالأدلاء والقافة يبحثون ، حتى وصلوا إلى الغار ، وصاروا كما قال أبو بكر : « لو نظر أحدهم إلى قدمه لرآهما » ففزع أبو بكر وظهر عليه الحزن خوفاً على النبى صلى الله عليه وسلم ، وقال : يا رسول الله لست أخاف الموت فأنا رجلٌ واحد ، ولكنى أخشى عليك ، فإنك إن قتلت هلكت الأمة . فأجابه رسول الله بقلب يملؤه الإيمان واليقين بأن الله سينصره ويؤيده « لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا » .

أما فتيان قريش فقد عادوا بالخيبة والفشل ، وصرف الله نظرهم عن رؤية النبى وصاحبه ، فلم يهتدوا إليهما .

وفى هذه الحادثة ، وهى إحدى المعجزات التى أكرم الله بها رسوله ، يقول القرآن : « إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِىَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا ، فَأَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ ، وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا ، وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى ؛ وَكَلِمَةُ اللهِ هِىَ الْعُلْيَا ، وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ » .

مكثا فى الغار ثلاثة أيام حتى سكن الطلب ، ثم خرجا إلى المدينة على راحلتين كان قد أعدّهما أبو بكر ، يقودهما دليل ماهر . وهنا يسجل التاريخ معجزة أخرى للنبى صلى الله عليه وسلم أكرمه الله بها .

وقد علم سراقة بن مالك بالجهة التى يسيران فيها ، فتقلد سلاحه وركب فرسه ، وقد أغواه الجعل الذى بذلته قريش ، فسار خلفهما جادًّا حتى يلحقهما ، وقد أفزع هذا المفاجىء الجديد أبا بكر عند ما رآه يقترب منهما . أما رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان دائم الدعاء ، ولا يفتُرُ عن قراءة القرآن ؛ ولكن بينما سراقة يجدّ السير إذ كَبَتْ به فرسه وألقته على الأرض ، ولكنه قام يحاول اللحاق بهما وقد

أوشك على النجاح ، غير أنه لم يلبث حتى كَبَتْ به الفرس مرة أخرى وساخت قوائمها حتى الركبتين وألقته بعيدا يتدحرج فى سلاحه . وهنا تطيّر سراقة وأدرك أنه فاشل فى محاولته ، وقال عن نفسه : إنه ألقِيَ فى روعه أن محمدا سيظهر أمره وينتصر ، فألقى إليهما بالأمان ، وانتهى به الأمر إلى أن أصبح حارسا لهما يمنع من يريد اللحاق بهما ، بعد أن خرج يريد قتلهما أو أسرهما .

الحياة فى المدينة

وصل الرسول صلى الله عليه وسلم الى المدينة ، فاستقبله أهلها بأعظم مظاهر الترحيب ، وكان يوماً مشهوداً . وفى المدينة يبدأ أهم دور فى تاريخ الدعوة الإسلامية ، وهو دور التنظيم ، ودور الهداية ، ودور النصر .

كان فى المدينة طوائف مختلفة من السكان ، وهم المسلمون من سكان المدينة الذين أجابوا الدعوة وآمنوا وسماهم الإسلام الأنصار ؛ والمهاجرون الذين فروا من مكة إلى المدينة ؛ واليهود ، والوثنيون الذين لم يسلموا من سكان المدينة الأصليين . ومع هذا التعدد كانت توجد بين أهل المدينة الأصليين إحن وأحقاد متأصلة فى النفوس وصلت إلى الحرب التى كادت تفنيهم . وقد قال النفر الذين التقوا بالنبىّ صلى الله عليه وسلم فى الموسم : « إنا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم ، وعسى أن يجمعهم الله بك » .

كان لابد إذن من تدبير أساسى يوحّد بين هذه النزعات المختلفة فى هذا المجتمع ؛ ولهذا وجّه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم عنايته بحسن سياسته وتدبيره الى توحيد الكلمة ، وجمع الشمل ، والقضاء على هذه الأحقاد الممتزجة بالنفوس ، ليجعل من المدينة وحدة سياسة منظمة يشعر فيها جميع السكان بالطمأنينة والاستقرار .

عمد إلى تنظيم حقوق المسلمين وتوثيق وحدتهم ، فآخى بين المهاجرين والأنصار مؤاخاة دونها لحمة النسب ، وقد كانت مؤاخاة فى الدين ، بها يتناصرون ويتوارثون كما يتوارث الإخوة من النسب ، وأظهر الأنصار فى هذه المؤاخاة من كرم النفس وحسن مواساة المهاجرين وإيثارهم على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، ما كان له أعظم الأثر فى النفوس وامتزاجها . ولقد بلغ من بعضهم أن عرض على أخيه أن يقاسمه فى ماله وهو حى حتى لا يشعر بشىء من المفارقة ، وقد جعل الله لهؤلاء

الفصل الأول ، وسماهم المؤمنين : ففي الكتاب الكريم « والذين آمَنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله ، والذين آووا ونصروا ، أولئك هم المؤمنون حقاً ، لهم مغفرة ورزق كريم » .

وعمد إلى الاتفاق مع اليهود ، فكتب بينهم وبين المهاجرين والأنصار معاهدة مفصلة ، تقررت فيها وحدة المسلمين ، وأنهم أمة واحدة ، تكوّن وحدة ذات شخصية سياسية ودينية ، مهما اختلفت شعوبهم وقبائلهم ؛ وتقررت فيها حرمة الأنفس وحرمة الأموال وحرمة المدينة . وقد عاهد اليهود على أن لليهود دينهم وللمسلمين دينهم ، وعلى أن ما كان بين أهل هذه المعاهدة من حدث أو اشتجار يخاف فساده ، فإن مرده الى الله عز وجل ، وإلى محمد رسول الله .

وبهذه المعاهدة العظيمة والمؤاخاة بين المسلمين ، هدأت حالة المدينة ، وسكن المسلمون الى دينهم ، يقيمون فرائضه جماعات ووحدانا ، لا يخافون فتنة ولا أذى ، وزال ما كان بينهم من العداوة وصدق فيهم قول الله تعالى : « هُو الذى أيَّدكَ بنصره وبالمؤمنين ، وألف بين قلوبهم ، لو أنفقتَ ما فى الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ، ولكنّ الله ألّف بينهم ، إنه عزيزٌ حكيمٌ » .

هذا فى المدينة ؛ أما فى خارجها ، فقد دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين الى عدم مناصرة المشركين وموالاتهم ، ورغّب من يسلم فى الهجرة الى المدينة ، ليكونوا قوة لإخوانهم فى الدين ، ولينالوا من خير الدنيا والآخرة ؛ وإلا فلا تناصر بينهم وبين إخوانهم فى المدينة إلا إذا اعتدى عليهم فى دينهم فإنهم ينصرونه . وفى هذا يقول الله تعالى : « إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله ، والذين آووا ونصروا ، أولئك بعضهم أولياء بعض؛ والذين آمنوا ولم يهاجروا مالكم من وَلايَتهم من شىء حتى يهاجروا ، وإن استنصروكم فى الدين فعليكم النصرُ إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق ، والله بما تعملون بصير . والذين كفروا بعضهم أولياء بعض ، إلاّ تفعلوه تكنْ فتنةٌ فى الأرض وفسادٌ كبيرٌ » .

وبعد أن وضع رسول الله صلى الله عليه وسلم أسسَ الوحدة والهدوء والاستقرار للدولة الإسلامية ، أخذت أعماله فى السياسة والتشريع تتوالى ، مما كان له أكبر النتائج ، وأعظم الأثر فى التاريخ .

وفى الحق إن الهجرة النبوية ، وما سبقها ، وما كان فيها من أحداث ، تعلمنا أن الحق مهما تجمعت عليه القوى ، فانه لن يغلب ، وأنه لابد أن ينتصر ويسود . ولكن لابد لهذا من الصبر والعمل ، مع السياسة وحسن التدبير ؛ والله المستعان .

مولاى صاحب الجلالة :

إن حادث الهجرة مَثَلٌ أعلى فى التضحية وبذل النفس فى سبيل إعلاء كلمة الله ، وأن ترفرف على هذا الوجود راية الأمن والطمأنينة والسلام . والتاريخ يامولاى يسجل لك القدوة الحسنة برسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فأنت تعمل على إعلاء كلمة الدين ، ورفعة شأن الإسلام والمسلمين ، مع الأناة وحسن السياسة والتدبير . والتاريخ يامولاى يسجل لك ماعملته وتعمله فى جمع شمل العروبة وتوحيد كلمتها ، كى تعود إلى سابق مجدها وعزها وسلطانها . وها هى يامولاى بقوة عزمك وحسن تدبيرك قد اجتمعت كلمتها ، وصارت قوة يحسب حسابها إذا جدّ الجد بين الدول العظمى ، وهى تناضل عن حقوقها معتزة بنفسها وقوة سلطانها . والتاريخ يسجل لك يامولاى رعايتك هذا المعهد العظيم ، مهد العلم والعلماء ، ودوام العطف والحنو على أهله ، وشدة اهتمامك بمن يفدون إليه من أقطار الأرض ليتفقهوا فى الدين وينشروه بين قومهم إذا رجعوا إليهم . وأنت فى هذا يامولاى إنما تعمل بوصية رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث يقول : « إن الناس لكم تبع ، وإن رجالا يأتونكم من أقطار الأرض يتفقهون فى الدين ، فإذا جاءوكم فاستوصوا بهم خيراً » .

وإن الأزهر يامولاى ، علماءه وطلابه ، ليضرعون إلى المولى القدير أن يحفظ جلالتكم ذخراً للإسلام والمسلمين ، وقوة للعلم والعلماء ، ومناراً تستضىء به العروبة فى جهادها ونضالها ؛ وأن يوفق حكومة جلالتكم إلى مافيه خير الأمة وفلاحها .

وإنا لهذه الذكرى يامولاى نترحم على رجلين عظيمين كانا يعملان تحت لوائك لإعلاء شأن الدين ، ورفعة هذا المعهد العظيم ، هما المغفور لهما : الشيخ محمد مصطفى المراغىّ ، والشيخ مصطفى عبد الرازق ، رحمهما الله وجعلهما فى أعلى عليين مع الصديقين والشهداء والصالحين . والسلام عليك يامولاى ورحمة الله ؟

افتتاح الاذاعة الدينية
فى عهدها الجديد

ألقاها حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد عبد اللطيف دراز
مدير الأزهر فى مساء يوم ٢٢ نوفمبر سنة ١٩٤٧

بسم الله الرحمن الرحيم .

نفتتح هذا الدور الإصلاحى الجديد لدار الإذاعة اللاسلكية المصرية .

حضرات السادة :

لا شك أن الاذاعة اللاسلكية من أعظم آيات العصر الحديث منفعة للناس ، وهى من بينها أقرب وسيلة على الإطلاق لنشر الآراء والأخبار ، وبث العلوم والمعارف ، وإذاعة الآداب والفنون ، وجمع الأمة كلها على الإحاطة بالأحوال العامة والشئون الاجتماعية والاقتصادية والسياسية . وهى مع هذا لون جميل من ألوان المتاع المباح .

لذلك عرف لها الناس قدرها ، وتنافسوا فى الإقبال عليها ، والاستماع لما تذيعه وتتحدث به ، واتخذتها الأمم والدول على اختلافها مصدرا من أهم مصادر أخبارها والتحدث عن آرائها وسياستها . فلا عجب بعد ذلك أن يلتفت اليها المسئولون عندنا لفتة عناية وإصلاح .

ياحضرات السادة :

إن مصر هى مثابة الإسلام وزعيمة العالم العربى ، اليها تتجه الأنظار وتهوى الأفئدة ، وتتسمع الآذان . ولقدكان من رزايا الماضى الأليم أن بقيت الأمية غالبة على الشعوب العربية والاسلامية ؛ والأمى يسمع ولا يقرأ ؛ لذلك لا تبرأ مصر من تبعاتها فى هذه الحالة إلا إذا أسمعت صوتها لجميع العالم العربى والاسلامى ، وكانت لها دار إذاعة تجمعها مع إخوانها العرب والمسلمين من أقصى الغرب الى أقصى الشرق على مائدة واحدة من وحى القرآن ، وهدى الاسلام ، وثقافة العصر ، وما امتازت به من علوم وفنون وآداب .

وعندى أن دار الاذاعة بهذا الوصف بعد تطورها الجديد، سيكون لها من الأثر فى جمع الشعوب الإسلامية والعربية على كلمة واحدة ، ما لا يمكن أن يتأتى لأية وسيلة أخرى ، وستكون فائدة ذلك للإسلام عامة وللعرب خاصة ، ولمصر بوجه أخص ، مما لا تتسع له عبارة ، ولا يبلغ كنه وصفه بيان .

لهذا جئت اليوم لأهنىء دار الإذاعة اللاسلكية المصرية ، باتجاهها الجديد ، ونهضتها الإصلاحية المباركة ، راجيا أن تفضى بها سبيلُها الرشيدة التى تنتهجها الآن الى الغاية المرجوة إن شاء الله ، ولنا فى ثقافة رجالها وغيرتهم وكفايتهم لما يطلعون به ما هو جدير أن يُذكى هذا الأمل فى نفوسنا ، ويقرب هذه الغاية منا ، فى عهد حضرة صاحب الجلالة مولانا الملك المعظم ، ملك وادى النيل ، حفظه الله .

حضرات السادة :

كان المخلصون من هذه الأمة ينادون بأن يكون للتربية الوطنية ، والنواحى الخلقية والقومية ، والروحى الاسلامى ، حظها الأوفى مما يذاع ويسمعه الناس . وقد سرَّنا أن يكون من أثر الاتجاه الجديد رعاية هذا رعاية حسنة ، فنظمت أحاديث ومحاضرات فى هَدْى القرآن ، تجلى للناس حكمته البالغة ، وسنته الوضاءة ، وأدبه القويم فى الإصلاح والتهذيب .

وسيتناول ذلك قصص القرآن الرائع ، وهو القصص الحق المنزل من الله العليم الحكيم ، على خاتم النبيين والمرسلين ، بأحكم الحكم ، وأروع العبر ، وأصدق مُثل التاريخ . كما تناول المنهج الجديد فيما تناول ، عرضَ الأعلام الإسلامية الخالدة ، وما كان لها من أثر بالغ فى تكوين التاريخ الإسلامى من شتى نواحيه .

ولما كان علم هذه الأعلام ، وأحقها جميعاً بالتقديم ، هو ولا شك إمامها الأول ، وقائدها الأكبر ، سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم — فقد رئى أن يكون هذا الأسبوع الذى يبتدىء اليوم هو أسبوع محمد صلى الله عليه وسلم . وسيتناول المتحدثون من أفاضل العلماء النواحىَ المختلفة لعظمته . ونحب أن لا تخلو هذه المناسبة من كلمة موجزة فى ذكرى المصلح الأعظم ، ورسول الإنسانية العام ، سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام .

حضرات السادة :

لن أطيل القول ، بل سيكون ما بقي عليكم أن تسمعوه غايةً فى الإيجاز ، وما حاجتنا الى التطويل ، وليس أمامنا غامض نجليه ، ولا مردود ندافع عنه ؛ بل ما حاجتنا إلى التطويل فى مقام هو أظهر من كل حجة ، وأوضح من كل برهان ، وأصدق على نفسه من كل شاهد : مقام محمد صلى الله عليه وسلم ، والقرآن الكريم الذى أوحى به إليه .

هل هناك أصدق شهادةً لمحمد من سيرة محمد ، وهدى محمد ، وشريعة محمد ؟ هل هناك أصدق شهادةً لمحمد من محمد نفسه ؟ لا ، بل كلمة الله أفصح وأبلغ . هل هناك أكبر شهادة لمحمد من الله ربه : « قل أىُّ شىء أكبرُ شهادةً ، قل اللهُ شهيدٌ بينى وبينَكم ، وأوحِىَ إلىّ هذا القرآنُ لأُنذركم به ومَن بَلغَ » .

نعم أيها السادة ، هى الشهادة الكبرى ، شهادة الله جلّ شأنه لرسوله بأنه صادق ، وللقرآن بأنه الحق من عند الله ؛ وهى الشهادة التى تدحض كل باطل ، وتخرس كل لسان . وهذه الشهادة ، هى شهادة الكون نفسه ، شهادة السنة الإلهية القاهرة . فإن لله كتابين : كتابا مقروءا ، هو هذا القرآن الذى نتلوه ، وكتاباً صامتاً ، هو هذا الكون ، ولكنه فى صمته أنطق من كل ناطق ، وأفصح بحاله من كل لسان .

فإذا كان ما يدعو إليه محمد والقرآن ، يتفق وهذه السنة الإلهية ، ويسير معها فى سبيل واحدة إلى غاية واحدة ، ويهدى إلى ما تهدى إليه ، من عمارة الأرض والإصلاح فيها ، وتزكية النفوس وتهذيبها ، وتوحيد الخالق وعبادته ، وترقية الإنسانية والنهوض بها ؛ إذا كان ما يدعو إليه محمد ، وما جاهد فى سبيله حتى الموت ، هو هذه السبيل إلى تلك الغاية السعيدة ، فليس بعد ذلك دلالة أعظم ، ولا شهادة أكبر على أن باعث الرسول ، ومنزل القرآن ، هو خالق هذا الكون ؛ وإلا لاختلفا فى السبيل ، أو اختلفا فى الغاية ، أو تعارضاً ولو فى القليل ؛ بل لتعارضاً فى الكثير الذى يعلمه الله ويجهله محمد ، ويتنزه عنه الخالق ، ولا يتنزه عنه المخلوق . أما ولا اختلاف قط بين آيات الكون ، وآيات القرآن ، فتلك إذاً هى الشهادة الكبرى لمحمد والقرآن ، وأىّ شىء أكبر شهادةً من الله ؟!

حضرات السادة :

لو أردنا أن نضرب الأمثال على هذا الذى ذكرناه لكم من اتفاق آيات الكون وآيات القرآن ، لطال بنا القول ؛ ولكننا سنجتزئ من ذلك كله بمثال واحد هو « التوحيد » الذى دعا إليه الاسلام ، والوحدة التى كوّنها محمد بالفعل من أمم مختلفة العناصر والأجناس .

أرأيتم كيف تعمل الأمم فى القرن العشرين لتحقيق هذه الوحدة وتلجّ فى الوصول إليها ، فلا تنال من سعيها إلا حربا بعد حرب ، وفناء بعد فناء ! ذلك أنها تدعو الى وحدتها على أساس الأطماع والشهوات والأغراض . تأملوا هذا فى عصرنا الحاضر ، وتأملوا كيف فشلت فى هذه السبيل هيئة الأمم أو كادت ، كما فشلت زميلتها عصبة الأمم من قبل ؛ ثم ارجعوا الى ما قبل هذا التاريخ بست وستين وثلاثمائة وألف من السنين ، تجدوا الوحدة التى أقامها محمد صلى الله عليه وسلم ، وأقامها على أساس من الحق ، وتقوى من الله ورضوان .

بهذه المقارنة الواضحه تدركون الفرق بين ما هو من عند الناس ، وما هو من عند الله ، وتتبين لكم واضحةً سبيلُ الرحمن من سبيل الشيطان . لقد أقام القرآن الوحدة بين الناس ، من أعلى عليائها الى نهاية مداها ، على الحق الواضح والنور المبين . فالله رب الناس واحد لا شريك له « قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ . اللهُ الصَّمَدُ . لم يَلِدْ ولم يُولَدْ . ولم يكنْ له كُفُواً أحدٌ » . والرسل والأنبياء الذين بعثوا الى الناس ، والكتب التى أنزلت عليهم من الله ، كل هذا أمر واحد وشأن واحد ، سبيله الهداية الى الحق ، والدعوة الى الله ، وغايته النجاح والفلاح والفوز بسعادتى الدنيا والآخرة : « آمنَ الرسولُ بما أُنزِلَ إليه من ربه والمؤمنون ، كُلٌّ آمنَ بالله وملائكته وكتبه ورسله ، لا نُفرِّق بين أحد من رسله ، وقالوا سمعنا وأطعنا ، غفرانَك ربَّنا وإليك المصير » . والناس جميعا عنصر واحد ، وأصل واحد ، لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى « يأيها الناسُ إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شُعوباً وقبائلَ لِتَعارَفوا ، إنّ أكرمَكم عند الله أتقاكم ، إن الله عليم خبير » .

ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ذلك : « أيها الناس ! إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحـد ، كلكم لآدمَ وآدمُ من تراب ، لا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى ، ألاَ هل بلّغْت ؟ اللهم فاشهد » . ويمضى الإسلام على هذه السنة من الأخوة والمساواة التى جعلت المسلم أخا للمسلم مهما تباعـدت الديار ، وتناءت الأقطار ، والتى لم تستطع أيدى الظلم والطغيان على شدة بطشها وجبروتها ، ولم تستطع عوامل التفريق ، وهى كثيرة لا تعد ، أن تقضى عليها ، أو تضعف من شأنها .

فلا زال صوت الهند أرفعَ صـوت فى الدفاع عن فلسطين ؛ ولا زال المسلم على ساحل الإطلانطى يستجيب لنداء المسلم عند جـدران الصين . فأين هـذا من العنصرية الممقوتة ، والشعوبية البغيضة ، التى لم تزل تفرق بين الناس فى أرقى البلاد مدنية ونورا ؟ !

هذه الوحدة التى وضعها الاسلام بين الناس ، وهذه المساواة العامة بين بنى البشر التى أقامها القرآن على أساسه الإلهى ، فحققها فى أوجز مدة وأسرع زمان ؛ وهذا التخبط بين دول العالم وأممه ، فى السعى الى الوحدة من طريق غير الطريق السوى ، وفشلهم فى ذلك مرة بعـد أخرى — هو دليلنا اليوم ؛ وحسبنا هو من دليل على صدق الدعوة الاسلامية ، وأثرها الخالد فى الإصلاح ، وهديها الواضح وحقها المبين .

بل هى آية الدهر ، ومعجزة الزمان ، على أن لا تصلح الانسانية ولا يستقيم شأنها إلا على الأساس الذى وضعها عليه القرآن ، وصدق الله العظيم « قل يا أيها الناسُ إنى رسولُ الله إليكم جميعا ، الذى له ملكُ السموات والأرضِ ، لا إله إلا هو ، يحيي ويميت ، فآمِنُوا باللهِ ورسولِه النبىِّ الأمىّ الذى يؤمن بالله وكلماته ، واتّبعوه لعلكم تهتدون » .

الوعى القومى والوعى العالمي والاسلام

يراد بالوعى القومى شعور الأمة بوجودها كوحدة اجتماعية ، لها حقوق طبيعية ، وعليها واجبات إنسانية . فأما حقوقها الطبيعية فهى أن تعيش فى بلادها حرة مستقلة ، تستغل ما تحت يدها من الأرض دون أن يحد من نشاطها فيها متحكم ؛ وأن تنشىء بينها وبين الأمم المختلفة علاقات أدبية ومادية دون أن يعترض هذا الانشاء متسيطر . فهذا الوعى الجماعى الذى يشبه الوعى الفردى من جميع الوجوه ، يوجه الأمم إلى طرق الحصول على مقوماتها ، ووسائل درء المهددات لوجودها ، ويجعلها تحتاط للحوادث قبل وقوعها ، وتتخذ لها ما يدفعها عند طروئها . هذا الوعى ضرورى للجماعات ضرورته للأفراد ، وحرية التصرف فى توجيهه لا بد منها للحصول على كل ما يثمره للجميع من نظام ووئام واتجاه حر مشترك ، يتأدى بهم إلى الغايات التى كتب للانسانية أن تبلغها .

ولكن الحالة البدائية للجماعات اقتضت ، لأسباب شتى من القصور العقلى والعلمى ، أن يقتصر وعيها القومى على وجودها الذاتى ، وعلى قواها ووسائلها دون أن يكون لها الخيرة فى أمرها ، لوقوعها فى أسر حكومات استبدادية منها ، هى التى أقامتها ، أو لأن حالتها من القصور هى التى اقتضتها وأخضعتها لها . وكان هذا هو النظام العام فى جميع الشعوب إلى ما قبل خمسة قرون ، أى حوالى عهد انتهاء القرون الوسطى ، حيث تيقظ فى النفوس عامل جديد للحياة الاجتماعية ، وهو إصلاح أداة الحكم بحيث تتجلى فيها إرادة الأمة ، فتعطى نفسها الوجهة التى تريدها ، وتهيىء لها الوسائل التى تؤديها إليها .

انتقال بعيد المدى فى طراز حكومات الأمم ، انتهت إليه أرقى الجماعات ثقافة ، وأرفعها أدبا ، وأكثرها ميلا إلى الترقى ، وأسرعها اجتيازا لمراحل الحياة فى خطى ثابتة يؤمن معها الزلل ، وتبلغ بها الغاية ، مع شعور عام من جميع الأفراد بها ، وهم لذلك يتوزعون التبعات فى المحافظة عليها ، والمنافحة عنها .

ومنذ نحو قرن من الزمان، بدرت بوادر شعور عال لبعض كبار المفكرين رموا به إلى ضرورة اعتبار الإنسانية كلها أمة واحدة، يجب أن تبطل بينها الحروب، وأن تقوم على مبدأ التعارف والتفاهم، ليتحقق بذلك مؤدى الناموس الأدبى الذى يأبى بطبيعته العلوية أن يفرق بين بنى آدم بسبب اختلاف أجناسهم وألوانهم ولغاتهم، ويتفق والمنطق الاجتماعى من أن إبطال التناحر، والقيامة على سنة التعاون، أجدى فى هذه المرحلة التى بلغتها الإنسانية على المجموعة البشرية، وأقوى أداة لإيصالها إلى كمالها المنشود.

ولكن هذا البصيص من النور العلوى الذى شعر به بعض كبار القلوب، لم يصل حتى خبره إلى الدهماء، فما يزال الناس على ما كانوا عليه من التفرقة بين الشعوب، وسيبقون على هذه الحالة حتى تصل العلاقات الدولية إلى مأزق لا تستقيم معه إلا بتآخى جميع الأمم وقيامها على سنة التعاون والتكافل التى كانت تحلم بها بعض العقول الراقية ولا تستطيع أن تجاهر بها.

ومن المعجزات العلمية الإسلامية، أنه جاء بنوعى الوعى الاجتماعى، القومى والعالمى، على وجه يمكن أن يتصوره العقل، ويقره العدل المطلق، والشعور العالى بالحق.

بدأ الإسلام فى تكوين مجتمعه على السنة الديمقراطية الصحيحة: بنشر دعوته بين الأمم أجمع، غير مراع إلا وجهة الإصلاح على مقتضى أصولها الطبيعية القويمة، باشعار جميع طبقات الأمم بحقوقهم وواجباتهم؛ فصاح بالناس كافة وهم فى غفلة من أمرهم ليوقظهم من سباتهم قائلا: «يأيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم، وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً، فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم فى رحمة منه وفضل ويهديهم إليه صراطا مستقيما».

ثم راعى فى جمعهم أن تكون الصلات كلها بينهم قائمة على الديموقراطية الصحيحة، بدعوة الخاص والعام إلى كلمة واحدة لا تمايز فيها. فكلف كل فرد من المجتمع بما كلف به سواه، لا فرق بين قوى وضعيف، ولا بين شريف ووضيع.

فالوعى القومى فى مثل هذه الأمة يكون على القليل أشد ما يمكن أن يكون عليه، لأنه أساس اجتماع الأفراد وترابطهم، على خلاف سائر المجتمعات فانها لم تؤلف تلبية لدعوة، ولا تخيراً لمذهب، ولكن من طريق التطور التدريجى الذى لا يحس بأدواره المتعاقبة، ولا بعللها المؤثرة.

وقد صارح الكتاب الشريف الناس بمالهم وبما عليهم، وكرر ذلك مراراً على ألوان شتى من البيان، وفى حالات عدة من الحوادث، حتى صار كل إنسان على علم تام بما له على الجماعة التى هو منها وما عليه لها، وليس بعد هذا مزيد من الوعى الاجتماعى البالغ منتهى الكمال، وهو الذى حمل المسلمين فى حادث الفتنة أن يتجمعوا فى نحو اثنى عشر ألفاً ويحاسبوا أمير المؤمنين عثمان على ما حدث من بعض عماله فى الأقطار. وقد أعقب ذلك ثورة قتل فيها الخليفة الثالث؛ ولولا أن الوعى الاجتماعى كان لدى المسلمين الأولين مستوفياً شروطه، لتأدت هذه الحركة إلى تفكك جماعة المؤمنين، وتفرق كلمتهم، ولكان ساغ للرومانيين والفرس المحيطين بهم أن يزحفوا عليهم، ويستخلصوا ما اقتطعوه منهم من أقطار.

وقد وصف النبى صلى الله عليه وسلم حالة المسلمين من هذه الناحية بقوله: « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا » وقوله: « مثل المؤمنين فى توادهم وتعاطفهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى ».

وإلى جانب هذا الوعى الخاص بث الإسلام فى روع المسلمين وعياً عالمياً، ووطد قواعده فى عقولهم ونفوسهم، وطالبهم بالعمل به وهو ما لم يسبق اليه فى تاريخ أية أمة من الأمم، حتى الأمم المعاصرة لنا ممن ضربت فى الرقى العلمى والفلسفى بسهم وافر. يظهر ذلك بأجلى عبارة وأقوم دليل فى قوله تعالى: « يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا، إن أكرمكم عند الله أتقاكم، إن الله عليم خبير ».

هذا إيذان للعالم كافة فى جميع بقاع الأرض، متحضريهم ومتبديهم، بأن الله لم يخلق العالم ليتخالفوا ويتناحروا، ولكن ليتعارفوا ويتعاونوا على قطع مفاوز هذه الحياة، وعلى التأدى إلى وجود كريم يليق بمكانة الانسانية. وهذا التعارف

وما يستدعيه من التعاون والتكافل ، يقتضى كل الصفات الجليلة التى دعا إليها القرآن من المساواة فى الحقوق ، والعدل فى الأحكام ، والرحمة بالضعفاء ، والأمانة فى المعاملات . وهى أصول قد تعذر تعميمها فى العالم فى العهد الأول للسلمين ، فقد كان التعصب الأعمى للأديان والقوميات يمنع الناس من الدخول فى مثل هذا العهد من السلام العام ، ولولا ذلك وأثر الوراثات فى العقول ، لقبل الاسلامَ كل من بلغته دعوته ، ولكان للناس شأن غير شأنهم اليوم .

فللسلمين والحالة هذه فوق شعورهم القومى ، شعور عالمى يشمل الانسانية جمعاء ، وليس الأثر الأدبى لهذا الأمر بالشىء القليل ؛ وهو يعين على تعليل الانتقال البعيد المدى الذى بلغه المسلمون فى أقل من ربع قرن من الزمان فى آدابهم وأخلاقهم وعوائدهم وعلاقاتهم وسيرتهم فى فتوحاتهم . فقد أثر عنهم من التسامح للأجانب عن الدين ما لم يؤثر مثله ، أو قريب منه ، عن أى أمة من الأمم ؛ فقد ساووا بينهم وبين أنفسهم فى المعاملات والمحاكمات والحقوق ، وهذا كله ما كان لينفذ لولا أنه مرتكز على وعى عالمى عام ، اكتسب قوة من معاملة النبى صلى الله عليه وسلم لأهل الكتاب وغيرهم من الأجانب عن الإسلام ، ومن عدم التفرقة بينهم وبين المسلمين فى المبرات والصدقات ، بل فى بذل العلم اليهم وعدم البخل عليهم ببيان معاضله ، وكشف غوامضه . وقد قابل أولئك الأجانب عن الإسلام هذه المعاملة الحسنة بالاخلاص للسلمين ، والتفانى فى خدمتهم ؛ فقد ترجموا لهم من الكتب القديمة ، وبالغوا لهم فى حل رموزها اللغوية ، ومعمياتها اللفظية ، ما لم يحصل مثله إلا بين الإخوان المخلصين ، بل القرابة الاقربين .

فالوعى العالمى الذى ظهر أول تنويه به فى القرآن الكريم ، وفى أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كان من الأسباب القوية فى نهضة المسلمين التوسعية ، وانسياحهم فى الشرق والغرب ، وفى تسابق الناس جماعات وشعوبا للدخول فى هذا الدين ، مسوقين الى ذلك بما تجلى على المسلمين من سعة أفقهم الاجتماعى ، ورحابة صدورهم للأجانب والأغراب واللاجئين إليهم . فكانوا

يساوونهم بأنفسهم أمام القانون، وفى حقوق الجوار، ويهادونهم، ويقبلون دعواتهم الى محافلهم وولائمهم، ويعودون مرضاهم، ويشيّعون موتاهم، ويكشفون لهم أسرار العلوم والفنون والصنائع، ويعطونهم حقهم من الإجلال والاحترام، حتى إنه لتمهر كثير منهم فى علوم الطب كان الخلفاء يتخذون أطباءهم منهم، ويغدقون عليهم الأعطيات والهبات. وقد ذكر التاريخ أن دورهم كانت تضارع قصور الخلفاء فى سعتها وأبهتها، وجمال مظهرها.

لا جرم أن الوعى العالمى الذى كان من أثره على المسلمين ما ترى، يعتبر من المعجزات العلمية الخالدة للقرآن، ويزيده إعجازا أن المسلمين الأولين عملوا به، مع أنهم فى أول أدوارهم لم يكونوا على شىء من الثقافة الاجتماعية.

أين هذا لدى المسلمين مما كانت عليه الحال عند سواهم من الأمم التى كانت عريقة فى المدنية كالأمة اليونانية والرومانية؟ فقد أثر عن أفلاطون قوله: « إنى أشكر ربى على ثلاث: على أنه خلقنى إنسانا ولم يخلقنى حيوانا، وعلى أنه أوجدنى فى عهد سقراط، وعلى أنه قدر لى أن أكون يونانيا، ولم يقدر لى أن أكون من جنس آخر». أين هذا من قول النبى صلى الله عليه وسلم: « لا فضل لعربى على أعجمى ولا لأبيض على أسود إلا بتقوى أو عمل صالح، كلكم لآدم وآدم من تراب»؟

وكان أرسطو الملقب بأمير الفلسفة تلميذ أفلاطون، يعتبر الأرقاء من البهائم المجردة عن الحقوق الانسانية؛ فأين هذا من قول عمر أمير المؤمنين: « كان أبو بكر سيدنا وأعتق سيدنا» يعنى بلالا الذى كان رقيقا حبشيا؟

هذه كلها آيات بينات « لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد».

محمد فريد وجدى

إنما الاعمال بالنيات

لفضيلة الأستاذ الشيخ طه محمد الساكت

المدرس بالأزهر

عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرىء ما نوى ؛ فمن كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يُصيبها أو امرأة يَنكحها فهجرته الى ما هاجر اليه » رواه الشيخان (١) .

* * *

أجمع الأئمة على جلالة هــذا الحديث ، وعظيم خطره ، حتى قال الشافعى وأحمد وغيرهما : إنه ثلث الاسلام ؛ يعنون أن الاسلام ينتظم أركاناً ثلاثة : عمل الجنان ، وقول اللسان ، وفعل الجوارح ؛ أو يريدون أنه أحد الأحاديث الثلاثة التى اليها ترد جميع الأحكام ؛ والثانى : « من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو ردّ » ، رواه مسلم عن عائشة ؛ والثالث : « الحلال بيّن والحرام بيّن » الحديث ، رواه الشيخان عن النعمان بن بشير رضى الله عنهما .

والحديث بعد هــذا يرفع شأن النيــة ، ويعلى مكانها ، ويبين أنها من العمل بمنزلة الأس من البنــاء ، والروح من الجسد ، والعماد من البيت . وإذا قدرت القوانين النية قــدرها ، وربطت بها آثارها ، وأدخلت فى الثواب أو العقــاب حسابها ، فإن شريعة من الشرائع لم تبلغ مبلغ الاسلام فى تقدير النية والاعتــداد بها . وحسبك أنه يهدر العمل إذا خلا من النية ، ويجعله ، أو يكاد ، ضربا من ضروب اللغو أو الخطأ ، وهو لا يجزى على واحــد منهما وإن أدى بطريق المصادفة إلى غاية حسنة ، فإن عاقب المخطىء إذا أفضى خطؤه إلى ضرر ، فلتربية

---

(١) كتب هذا الحديث فى دار الهجرة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام . وإنما فاته العدد السابق ، وهو به ألصق ، لاضطراب البريد حينا وتعطيله حينا آخر ، والحمد لله إذ أنجى الكنانة من سبب اضطرابه !

اليقظة فى النفوس وتحـذيرها أن تتهاون أوتتغافل حتى تنحرف عن الجادة . ومن هنا رفع القلم عن الصبى حتى يبلغ ، وعن المجنون حتى يُفيق ، وعن النائم حتى يستيقظ ، كما رفع عن المخطىء والناسى والمكرَه (١) ؛ لأن هؤلاء جميعاً لانية لهم ؛ اللهم إلا الصبى إذا ميز فإنه يؤدب إذا أساء . ويكافأ إذا أحسن ، وإن تكن نيته دون من بلغ الحُـلُم ، على أن الإسلام لم يترك هـذا الباب مفتوحاً على مصراعيه ، يلجه كل من تحدثه نفسه بالتخلى عن التبعة ؛ بل وضع شروطاً للخطأ والنسيان والإكراه تأخذ بتلابيب كل مفتر أو متصنع (٢). وإذا أردت أن تبلغ الغاية فى تقدير الإسلام للنية والاعتداد بها ، فانظر إليه إذ يفضل النية المجردة من العمل على العمل المجرد من النية ، وهـذا تأويل الأثر المشهور « نية المؤمن خير من عمله » (٣) ، وذلك لأن العمل الذى خلا من النية كالصورة لا حياة فيها ، والبنيان لا أساس له ، فلا خير منه يرتجى ولا ثمرة له ترتقب ؛ أما النية الصالحة فهى تذكى صاحبها وتوجهه إلى صالح العمل وشيكا ؛ بل هى تلحقه بالعاملين المخلصين إن صلحت ، وبالمفسدين إن فسدت ، وإن لم يصنع صاحبها شيئاً . وشاهد هذا ما رواه الترمذى من حديث أبى كبشة الأنمارى رضى الله عنه ، عن النبى صلى الله عليه وسلم : « إنما الدنيا لأربعة نفر : عبد رزقه الله مالا وعلما فهو يتقى فيه ربه ، ويصل فيه رحمه ، ويعلم لله فيه حقا ، فهذا بأفضل المنازل ؛ وعبد رزقه الله علما ولم يرزقه مالا ، فهو صادق النية ، يقول : لو أن لى مالا لعملت بعمل فلان ، فهو بنيته ، فأجرهما سواء ؛ وعبد رزقه مالا ولم يرزقه علما ، فهو يخبط فى ماله بغير علم ، لا يتقى فيه ربه ، ولا يصل فيه رحمه ، ولا يعلم لله فيه حقا ، فهذا بأخبث المنازل ؛ وعبد لم يرزقه الله مالا ولا علما ، فهو يقول : لو أن لى مالا لعملت فيه بعمل فلان ، فهو بنيته ، فوزرهما سواء » . وقد دلت صحاح الآثار على أن من اعتاد عمل خير أو همّ به فحبسه حابس من مرض أو عذر ، كتب الله له ثواب ما نوى ؛ فمن ذلك ما رواه البخارى عن أبى موسى رضى الله عنه قال : قال

---

(١) فى ذلك كله أحاديث ينظر تحقيقها فى كشف الخفاء

(٢) فلا يقبل من دعاوى الخطأ والنسيان والاكراه إلا ما دلت القرائن على صدقه .

(٣) حديث ضعيف ولكن له طرق تجعل فيه قوة . وله تأويلات أخرى ذكر بعضها كشف الخفاء وإحياء العلوم .

رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا مرض العبد أو سافر ، كتب له مثل ما كان يعمل مقيما صحيحا » وما رواه البخارى أيضا عن أنس رضى الله عنه قال : رجعنا من غزوة تبوك مع النبى صلى الله عليه وسلم فقال « إن أقواما خلفنا بالمدينة ، ما سلكنا شعبا ولا واديا إلا وهم معنا ، حبسهم العذر » .

وكما يُجزَى العبدُ على الحسنة يهُمّ بها فلم يستطعها ، يجزى كذلك على السيئة يريدها ثم يكف عنها خشية الله عز وجل ، وربما انتظم بخوفه من الله فى سلك الطوائف السبعة التى يظلها الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله .

ولما كانت النية تختلف قوة وضعفا ، على حسب منزلة العبد فى الإخلاص قربا وبعدا — اختلف الجزاء على الأعمال قلة وكثرة ، حتى جوزى المحسن على حسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة لا يعلمها إلا الله عز وجل؛ روى الشيخان عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من تصدق بعَدل تمرة (١) من كسب طيب ، ولا يقبل الله إلا الطيب ، فإن الله يتقبلها بيمينه ثم يربيها لصاحبها كما يربى أحدكم فلوه (٢) حتى تكون مثل الجبل » . وروى النسائى وغيره عن أبى هريرة أيضا رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « سبَقَ درهم مائة ألف درهم ، فقال رجل : وكيف ذلك يا رسول الله ؟ قال : رجل له مال كثير أخذ من عُرضه مائة ألف درهم تصدق بها ، ورجل ليس له إلا درهمان فأخذ أحدهما فتصدق به » .

ولعل فى هذا الذى أسلفناه بيانا لفضل النية الصالحة ، وأنها جوهر العمل وروحه ، وتلك خلاصة الجملة الأولى « إنما الأعمال بالنيات » ؛ وتصويرا صادقا لجزاء العاملين ، وأنه على حسب نياتهم ، ومرتبة كل من الإخلاص ، وهم فى ذلك درجات ، وتلك خلاصة الجملة الثانية « وإنما لكل امرىء ما نوى » .

---

(١) أى بقيمتها لأن العدل بالفتح : المثل ، وبالكسر: الحمل .

(٢) مهره وفيه لغتان : الفتح فالضم فالتشديد ، والكسر فالسكون بوزن جرو . والتقبل باليمين كناية عن الرضا .

ولما بيّن صلوات الله وسلامه عليه أن الأعمال بحسب النيات ، وأن حظ العامل من عمله نيته ، خيرا كان العمل أو شرا - أوضح جزاء المخلصين والمرائين فى مثال من الأعمال التى تتحد صورتها ويختلف حكمها والجزاء عليها باختلاف النية فيها إخلاصا ورياء وصلاحا وفسادا ، وكأنه يقول : إن سائر الأعمال على قياس هذا المثال . واختار التمثيل بالهجرة لما لها من عظيم الشأن فى ذلك العهد ، ولعله تحدث الحديث فى إبان الهجرة من مكة الى المدينة والدعوة إليها . ويؤيد ذلك ما يروى أن رجلا هاجر من مكة إلى المدينة لا يريد فضيلة الهجرة وإنما يريد أن يتزوج امرأة تدعى أم قيس ، وكان خطبها فأبت أن تتزوجه حتى يهاجر إليها ، ففعل ، فكان يقال له مهاجر أم قيس ؛ فإن صح أن تكون القصة سبب هذا الحديث كما قيل ، كان التمثيل بالمرأة مقصودا له صلى الله عليه وسلم جريا على كريم عادته من التعليم والارشاد من غير أن يجابه أحدا بما يكره حياء وكرما ؛ وإلا فالقصة من قبيل المصادفة ليس غير .

وقد وقعت الهجرة فى الإسلام على وجهين : أولهما الانتقال من دار الخوف إلى دار الأمن كما فى هجرتى الحبشة ، وابتداء الهجرة من مكة إلى المدينة ؛ والثانى الهجرة من دار الكفر إلى دار الإيمان ، وذلك بعد أن استقر النبى صلى الله عليه وسلم بالمدينة وهاجر إليه من أمكنه ذلك من المسلمين ، وكانت الهجرة إذ ذاك تختص بالانتقال إلى المدينة إلى أن فتحت مكة فانقطع الاختصاص وبقى عموم الانتقال من دار الكفر لمن قدر عليه واجباً .

واتحاد الجزاء والشرط مما يدل على المبالغة فى التعظيم أو التحقير ، فكأنه صلوات الله وسلامه عليه يقول : من هاجر لا يبتغى إلا وجه الله عز وجل لا أجد له جزاء إلا أن أكله إليه سبحانه ، فهو وليه وحسبه « والله ذو الفضل العظيم » ؛ ومن هاجر لا يبتغى إلا دنيا يصيبها أو شهوة يقضيها فحسبه ضياعا وخزياً أن وكله الله إلى غيره فخسر الدنيا والآخرة « ذلك هو الخسران المبين » .

وبعد ، فإن مدار الفوز والسعادة على العمل ، ومدار العمل على الإخلاص ؛ فمن عجز عن العمل الصالح فلن يعجز عن النية الصالحة ، والرغبة الصادقة ؛ ورب نية فاقت عملا ، ورب رغبة مهدت للخير سُبلا ؟

ادب الجدل فى القرآن الكريم

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبد الرحيم العدوى
شيخ معهد فؤاد الأول بأسيوط

ما دمنا فى هذه الحياة فالمنازعات بين الناس باقية لا تزول ، وما دام الملوان يتعاقبان فقانون تنازع البقاء سرمدى خالد يخضع الناس له ، ويذودون عنه باليد واللسان والفكر والجنان . فالجدال شأن اجتماعى لا يمكن أن تخلو منه أمة أو يتخلى عنه شعب ؛ ذلك لأن الناس مختلفون فى المعتقدات والآراء ، متباينون فى الأغراض والميول ؛ وما الحروب الطاحنة بين الأمم فى هذا العصر إلا وليدة اختلاف الآراء ، ونتيجة تشعب الأفكار .

وقد أشار القرآن الكريم الى هذه الظاهرة الطبيعية فى سورة هود بقوله : « ولو شاء ربك لجعلَ الناس أمةً واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم » .

وليس كل خلاف فى هذه الحياة شرا محضا ، فكثير من أفراده وسيلة للخير ومرقاة للنفع العام ، إذا كان الغرض به الوصول الى الحق وتمحيص وجه الصواب . انظر الى الشورى والمجالس النيابية ، فان الخلاف فى الفكر فيها دعامة الاصلاح الاجتماعي ، وأس العمران فى هذه الحياة .

والجدل والمناظرة كغيرهما من الشئون الاجتماعية ، إذا لم تحط بقيود انفرط عقدها ، وإذا لم تصحبها التحفظات ضاعت ثمرتها .

وكما أن للقرآن الكريم طريقته الخاصة فى إقامة الحجة والبرهان ، وله أسلوبه الخاص فى طريقة الاستدلال ، فله أيضا مسلكه الخاص فى أدب الجدل ومراعاة شعور الخصوم ؛ أدب يتفق مع مكانته السامية ، ومراعاة تتناسب مع الرسول الكريم الذى بلغه الى الناس .

وقد علم الله خطر الجدل إذا لم يقصد به الوصول إلى الحق ، فذكر لنا فى كتابه الكريم الأصلَ العام الذى يجب أن يكون عليه الحجاج ، والأساسَ الذى يبنى عليه المؤمن جدله ومناظرته ، من حسن الأسلوب ولين الجانب ، وعف القول ، والإغضاء عن الهفوات ، والصفح عن الزلات ؛ اقرأ إن شئت قوله تعالى فى سورة النحل :

« ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظةِ الحسنةِ ، وجادِلْهم بالتى هى أحسن ، إن ربك هو أعلم بمن ضلَّ عن سبيله ، وهو أعلم بالمهتدين . وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ، ولئن صبرتم لهو خير للصابرين » .

تجده قد رسم فيه العلى القدير لرسوله الكريم الدستور الذى يجب أن يترسم خطاه فى دعوته ، فأمره بأن يقيم الدعوة على الحكمة والمواعظ الآخاذة بالقلوب لحسنها ، ويخاصم ويجادل ولكن بالطريقة المثلى التى تضم الخصم الى ساحته وتقربه من مبادئه . ثم حبب إليه طريقة العفو والصفح ، وبصره بمكانة الصبر بقوله « وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ، ولئن صبرتم لهو خير للصابرين » .

ثم استمع الى قول الله عز وجل فى سورة العنكبوت « ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن » وقوله تعالى فى سورة فصلت « ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ، ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم » وقوله تعالى لموسى وهارون « اذهبا الى فرعون إنه طغى ، فقولا له قولا ليناً لعله يتذكر أو يخشى » .

استمع إلى كل ذلك تعرف كيف دعا القرآن المؤمنين الى سلوك طريق الحسنى فى حجاجهم ، وبين لهم ثمراته الدانية من أنه يقلب العدو صديقاً ، والخصم الألد أخاً حميا وولياً ونصيرا .

وقد حذر القرآن المؤمنين من السب والشتم والخوض فى الباطل والتلفظ بساقط القول ، ولو كان ذلك فى أصنام المشركين التى لا تسمع ولا تبصر ولا تضر ولا تنفع ، سداً للذرائع ، ووقاية من سوء أدب المشركين ، فقال « ولا تسبُّوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عَدْواً بغير علم » . ونص القرآن على من يجادل

بالباطل ليدحض به الحق ، ليلفت الناس الى أن الغاية التى يجب أن تقصد من الجدل هى ظهور الحق الذى ينتفع الناس به ، والذى يعود خيره على الجماعة الإنسانية كافة ، كما حط من شأن الذين يتكبرون فى جدالهم ويسخرون من خصومهم ، ويعتقدون بما لهم من مكانة مزيفة وسلطان مؤقت أنهم أصحاب القول الذى لا يرفض ، والرأى الذى لا يمانع : وفى ذلك يقول القرآن الكريم : « وجادَلوا بالباطل ليدحضوا به الحق » . ويقول : « ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ويتّبع كل شيطان مريد . كتب عليه أنه من تولاه فإنه يضله ويهديه الى عذاب السعير » .

المثل العليا للجدل :

وقد قص الله علينا من باب الذكرى والاعتبار المثل العليا للخصوم الشرفاء ، ووضع بين أيدينا صورة واضحة للمجادلين بالحق المعتدلين فى خصومتهم المؤدبين فى جدالهم .

فقص علينا جدال ابراهيم عليه السلام مع أبيه فقال « واذكر فى الكتاب ابراهيم إنه كان صِدّيقا نبيا ، إذ قال لأبيه يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئا . يا أبت إنى قد جاءنى من العلم ما لم يأتك فاتّبعنِى أهدك صراطا سويا . يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصيا . يا أبت إنى أخاف أن يمسَّك عذاب من الرحمن فتكونَ للشيطان وليا » .

هذا الأسلوب المؤدب هو أسلوب النبوة المخلصة ، أو بالأحرى أسلوب النبوة الكاملة ، يفيض عطفا ، ويسيل رقة وحنانا ، يحذر فى لطف ، وينذر فى لين ، ويعرف مكانة الأبوة فيعطيها ما لها من حقوق ، ويهب لها ما تستحقه من رفعة واحترام .

فليت شعرى ماذا كان جواب الأبوة ، وهى فى العادة موطنُ الرحمة والشفقة ، ومحلُ العطف والحدب ؟ إنها انقلبت شواظاً من نار وتحولت لظى من جحيم ، وانفرط منها عقد الرحمة فعادتِ قسوة فى فظاظه ، وغلظة فى جفاء !

وإن أردت البرهان فاستمع إلى قول تلك الأبوة الظالمة : « قال أراغب أنت عن آلهتى يا ابراهيم ؟ لئن لم تنته لأرجمنك واهجرنى مليا » فيقابل ابراهيم عليه السلام هذه الشدة باللين والإحسان ، فيقول : «سلام عليك ،سأستغفر لك ربى إنه كان بى حفيا » . فأى نفس تلك التى صدر عنها هذا التواضع ، وأى فم ذلك الذى نطق بالآيات البينات فى مقابلة الاساءة بالاحسان ؟ إنها نفس إبراهيم عليه السلام ، وإنه فم خليل الرحمن وكفى .

وقص القرآن علينا أيضا جدال نوح عليه السلام مع قومه ، فقال : « ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه إنى لكم نذير مبين ، أن لا تعبدوا إلا الله إنى أخاف عليكم عذاب يوم أليم ، فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراك إلا بشرا مثلنا وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادى الرأى ، وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين » .

هذا أحسن تخاطب من قوم نوح لنوح . وهو كما نرى ينم عن الكبرياء والغطرسة ، ويفيض بالسخرية والاستهزاء ، ويرمى البرآء بأخس الأوصاف وأرذل الألقاب ، ويسم نوحا ومن اتبعه بالكذب والزور .

فانظر كيف كان رد نوح على هذه البذاءة وذلك الكبرياء : قال «يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى وآتانى رحمة من عنده فعُمِّيت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون ، وياقوم لا أسألكم عليه مالا إن أجرى إلا على الله ، وماأنا بطارد الذين آمنوا إنهم ملاقو ربهم ولكنى أراكم قوما تجهلون . وياقوم من ينصرنى من الله إن طردتهم أفلا تذكرون . ولا أقول لكم عندى خزائن الله ، ولا أعلم الغيب ، ولا أقول إنى ملك ، ولا أقول للذين تزدرى أعينكم لن يؤتيهم الله خيرا ، الله أعلم بما فى أنفسهم ، إنى إذا لمن الظالمين » .

ألم تر إلى نوح عليه السلام كيف رد على فظاظتهم وغلظتهم بأبلغ ما فى الكلام من ألفاظ اللين ، وصار يضع بين أيديهم القوانين الاجتماعية والمبادىء الدينية فى أخصر لفظ وأرق معنى ، ويصور كل ذلك أبلغ تصوير ، ويكشف عنه الغطاء ويجليه لكل ذى بصيرة ، فبين لهم أن رحمة الله بعباده قد تخفى على من لم يستعد لفهمها والاستفادة منها ، وأن عقائد الدين لاتلقن تلقينا ولاتملى على الناس

إملاء ولو مع كره ؛ بل هى سهلة جذابة تصل إلى القلوب السليمة لا حجاب يمنعها ، ولا حاجز يعوق سيرها إليها : وأن الأنبياء سفراء عن ربهم يبلغون عباده أوامره ، وهو وحده الذى يعطيهم الأجر ويقدر لهم الجزاء ، فليس على العباد ضرائب مالية ولا تبعات مادية ؛ وأن من لجأ إلى حظيرة الإيمان كيف يطرد ، وكيف ينتقص قدره ، وقد يكون له عند الله الزلفى وحسن المآب .

فهو كما ترى أسلوب تواضع ولين ، وأسلوب وعظ حسن وتذكير ؛ وما كان هود عليه السلام بأسعد حظاً من إخوانه الرسل السابقين ؛ فقد قال له قومه « يا هود ما جئتنا ببينة وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين . إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء » .

أما صالح فى قومه ثمود ، فكان غريباً بين أمة ، ووحيدا فى شعب .

وكم لقى شعيب عليه السلام وهو خطيب الأنبياء من أهل مدين من الشدة ، وكم قوبل بسوء ! نهاهم عن نقص المكاييل والموازين وكانوا على ذلك مكبين ، وذكرهم بما لقى قوم نوح وقوم هود وقوم صالح من العذاب المهين . فاستمع لردهم عليه « قالوا ياشعيب ما نفقه كثيرا مما تقول ، وإنا لنراك فينا ضعيفا ، ولولا رهطك لرجمناك ، وما أنت علينا بعزيز » فيقول شعيب « أرهطى أعز عليكم من الله واتخذتموه وراءكم ظهريا ؟ إن ربى بما تعملون محيط » .

أما موسى مع فرعون فنى جدالهما العجب العجاب : لين ورقة من موسى ، وكبرياء وصلف من فرعون : إذ يقول لموسى « لئن اتخذت إلهاً غيرى لأجعلنك من المسجونين » فيقول موسى متلطفا « أو لو جئتك بشىء مبين » ؟

هذه هى المثل العليا فى أدب الجدل ، فجدير بكل من يتصدى للجدل العلمى أن يترسم خطاها فى الذود عن الحق ، ويتخذها إماما له فى حماية المبادىء ، فلا ينبغى أن يشتط الإنسان مع أخيه الإنسان ، ولا أن يواجهه بسقط القول وبذاءة اللسان ؛ ولا ينبغى للمرء أن يعتد بمكانته فى المجتمع فيغضى عن رأى خصمه لأنه أقل منه مكانة وأضعف جندا ، فإن الرأى بقيمته لا بقيمة صاحبه ؛ ولا ينبغى لإنسان كائنا من كان أن يفرض على الناس رأيه ، فإن الحق مشاع والحقيقة مطلب الجميع .

وقد قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه « لا تتعلم العلم لثلاث ، ولا تتركه لثلاث : لا تتعلمه لتمارى به وتجادل ، ولا لترائى به ، ولا لتباهى به ؛ ولا تتركه حياء من طلبه ، ولا زهادة فيه ، ولا رضا بالجهل . وقال علماء الأخلاق : إن الباعث على الجدال هو الترفع بإظهار العلم والفضل ، والتهجم على الغير بإظهار نقصه ، وهما شهوتان باطنتان للنفس ، فإظهار الفضل من قبيل تزكية النفس ، وتنقيص الغير من مقتضيات طبع السبعية الكامن فى نفس الإنسان ، وكل ذلك من الصفات المذمومة التى يقويها الجدال ، وينميها غمط الحقوق .

وأكثر ما يكون الجدال بالباطل فى العقائد والمذاهب ؛ وقد ذكر الإمام الغزالى فى كتابه الإحياء أن من أدب المجادل الذى يقصد بجداله وجه الله وإحقاق الحق ، أن يكون جداله مع خصمه فى خلوة لا فى حفل جامع ، فإن الخلوة أجمع للفهم ، وأحرى بصفاء الذهن ودرك الحق ، وفى حضور الجمع الكثير ما يحرك دواعى الرياء ، ويوجب الحرص على نصرة كل واحد نفسه محقا كان أم مبطلا ، لحرصهم إذاً على المحافل والمجامع ليس لله ولا لوجه الحق .

فقد يخلو الواحد منهم بصاحبه مدة طويلة فلا يكلمه ، وربما اقترح عليه صاحبه بعض الأمور فلا يجيب . فاذا انتظم مجمع أو تكامل عقد محفل ، لم يغادر فى قوس الاحتيال منزعا حتى يكون هو المختص بالكلام وفارس الميدان .

ومن أدب المجادل أيضا أن يكون فى طلب الحق كناشد الضالة ؛ سواء لديه أن تظهر الضالة على يديه أو على يد من يعاونه ، فيرى رفيقه معينا لا خصما ، ويشكره إذا عرفه الخطأ وأظهر له طريق المحجة .

فقد اعترضت امرأة من قريش عمر بن الخطاب وهو على المنبر ينهى الناس عن التغالى فى مهور النساء ، فقالت له : أيعطينا الله ويمنعنا عمر ! يقول الله تعالى « وآتيتم إحداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا » فقال عمر : اللهم غفراً ! كل الناس أفقه من عمر ؟

في مطلع العام الجديد :

الأَشْهُرُ الْحُـــــرُمُ

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد محمد المدنى
المدرس بكلية الشريعة

كان فيما ورثه العرب من ملة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ، احترام أشهر أربعة من شهور السنة القمرية ، وتقديسها تقديساً عظيما ؛ فإذا كانوا فى شهر منها تركوا القتال إن كانوا فى قتال ، وأجّلوا التِّرَات إن كانت لهم ترات ، ونشروا الأمن والسلام فى ربوع الجزيرة وأرجائها ، حتى كان الواحد منهم يلقى فى الحرم وغيره قاتل أبيه أو أخيه ، على خلوة وتمكن ، فلا يمد يده إليه بسوء ، وهم القوم الذين عرفوا بالضراوة فى سفك الدماء ، والتمسك الشديد بالأخذ بالثأر .

ورثوا ذلك عن ملة إبراهيم وإسماعيل ، وعاشوا عليه زمانا لا يعبثون به ، ولا يغيرون فيه ؛ فلما طال عليهم الأمد ، وبعُد العهد بينهم وبين هذه الملة الأولى ، وهانت عليهم — فى سبيل أهوائهم ومنافعهم — مناسكهم ومشاعرهم ، كان فيما عبثوا به ، وبدلوا فيه ، هذه الأشهر الحرم ، فأفسدوها بالنسىء ، وأحلوا منها ما حرَّم الله ، يلغونها تارة ، ويؤجلونها أو بعضها تارات أخرى .

وليس من غرضنا الآن بيان النسىء ، وما كان من شأنهم فيه ، وإنما نريد أن نقول : إن الشريعة الإسلامية قد أقرت هذا التشريع المتوارث عن إبراهيم وإسماعيل ، الثابت بطريق التواتر القولى والعملى إلى عهد النبى صلى الله عليه وسلم ، جريا على سنتها فى الإبقاء على كل صلاح ، وعدم التعرض بالإلغاء أو التعديل إلا إلى ما كان من فساد ، أو اقترن به فساد .

يقول الله عز وجل : « إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً فى كتاب الله يوم خلق السموات والأرض ، منها أربعة حُرُمٌ . ذلك الدين القيّم ، فلا تظلموا فيهن أنفسكم »(١) . وقد بيّن النبي صلى الله عليه وسلم هذه الأشهر الأربعة فى خطبته التى خطبها فى حجة الوداع فقال بعد أن تلا هذه الآية : « ثلاثة متواليات ، وواحد فرد : ذو القعدة ، وذو الحجة ، والمحرم ، ورجب الذى بين جمادى وشعبان »(٢) . وبذلك أصبحت السّنة القمرية الإسلامية التى انبنى على حسابها كثير من أحكام التشريع مبدوءة بشهر حرام ، هو المحرم ، ومختومة بشهر حرام ، هو ذو الحجة ، ويتخللها فيما بين ذلك شهران آخران .



قضى الله ـ جلت حكمته ـ أن يفضل بعض ماخلق على بعض ، لأسرار يعلمها هو ، ولا سبيل لنا إلى إدراكها على صورة من الجزم والتحديد ، تلك سنته فى الأشخاص والأماكن والأزمان ، يفضل بعضاً على بعض ، ويميز بالتشريع والتعبد شيئاً على شىء ؛ ومصداق ذلك قوله تعالى : « وربُّك يخلق ما يشاء ويختار »(٣) ؛ فكما أنه فى أصل الخلق والتكوين مختار ، يخلق القوىّ والضعيف ، والذكىّ والغبىّ ، والجميل والدميم ، وذا الجراءة والشجاعة ، والجبانَ الفَروقة(٤) ، ويميز بلاداً عن بلاد بما فيها من جبال عالية ، أو أنهار جارية ، أو عيون صافية ، ويجعل بعض الأرض خصباً ، وبعضها أجاديب ، ويطوى بعضاً على ماشاء من معادن وثروات وكنوز ، ويجعل بعضاً خلاء عفاء ، إلى غير ذلك مما نرى بأعيننا فى جميع نواحى الحياة ؛ كذلك هو مختار فيما وراء الخلق والإبداع من التمييز والتفضيل ، يجعل لبعض الأماكن حرمة وقداسة ، ولبعض الأزمان حرمة وقداسة ، فيكون ذلك اصطفاء لها واختياراً ، بمثابة اختياره واصطفائه تعالى لبعض من خلق من الأشخاص .

---

(١) الآية ٣٦ من سورة التوبة .

(٢) رواه الشيخان وغيرهما من حديث أبى بكرة عن النبى صلى الله عليه وسلم ، قاله فى منى عام حجة الوداع .

(٣) ٦٨ / القصص

(٤) الفروقة : الشديد الفزع . يستوى فيه المذكر والمؤنث .

وقد أرشد القرآن الكريم إل هذه المعنى الذى من شأنه أن يطمئن قلوب المؤمنين فى كثير من المواضع التى تكلم فيها عما خلق الله وعما شرع : « لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون »[١] « والله يعلم وأنتم لا تعلمون »[٢] « آباؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعاً[٣] » « لله ملك السموات والأرض يخلق ما يشاء يهب لمن يشاء إناثا ويهب لمن يشاء الذكور ، أو يزوّجهم ذُكرانا وإناثاً ويجعل من يشاء عقيما ، إنه عليم قدير[٤] » « الله أعلم حيث يجعل رسالته »[٥] .

وقد أرشد إلى هذا المعنى أيضاً فى شأن الشهور وما اصطفاه الله منها ، فذكر لنا أن عدة الشهور عند الله ، أى فى حقيقة الأمر وواقعه ، اثنا عشر شهراً ، وأن ذلك هو شأنها فى كتاب الله ، أى فى نظام خلقه وما قدره للدنيا من سنن تكوينية يوم خلق السموات والأرض ، وإنما سُمى هذا النظام كتابا لأنه ثابت متقرر ثبات ما يكتب ويسجل : وذكر بعد هذا أن الله قد اختار من بينها هذه الأشهر وميزها ، وساق اللفظ الدال على ذلك مساقا يشعر بأن هذه الإرادة وهذا التفضيل كانا منذ الأزل ، فخلقت الشهور عامة ، ومُيز « منها أربعة حرم » بميزة خاصة .

هذا هو الأصل الذى يجب أن يكون عليه المعول فى تعليل امتياز هذه الأشهر بما ميزها الله به ، وأن يصار إليه فى تعليل كل امتياز فى الخلق أو تفضيل جرت به حكمة العليم القدير ؛ ولكن هذا لا يحول بيننا وبين النظر فيما يصاحب هذه التدبيرات الإلهية العليا من فوائد للبشر نراها ونحس بها ، وتدركها عقولنا فنزداد بها إيمانا على إيمان ، ويقيننا إلى يقين .



فإذا أردنا أن نطبق هذا على « الأشهر الحرم » ، وأن نعلم الفوائد التى ترتبت على هذا التشريع فى شأنها ؛ برزت لنا فائدتان جليلتان ، كلتاهما تعود على بنى

---

(١) ٢٣ الأنبياء .
(٢) ٦٦ آل عمران .
(٣) ١١ النساء .
(٤) ٤٩ ـ ٥٠ الشورى .
(٥) ١٢٤ الانعام

الإنسان بالتهذيب والسمو ، وتقلم فى المجتمع أظافر الشر والفساد إلى حد بعيد :

فأما الفائدة الأولى : فهى التهيئة لأعظم العبادات التى شرعها الله لعباده وهى حج البيت واعتماره .

لقد ذكر الحج بين أركان الإسلام الخمسة فى حديث « بنى الإسلام على خمس» وجاء ذكره فى آخرها ، وليس ذلك لأنه آخر هذه الأركان منزلة ، وأقلها شأناً ، ولكن لأنه أعلاها فى مراتب الترقى والوصول الى الكمال ؛ فإن أركان الإسلام الأربعة التى تقدمته كلها تمهيد له وإعداد بالتطهير والتزكية ، حتى اذا أقبل المرء إليه كان صافى النفس ، مطمئن القلب ، راسخ الإيمان . ولذلك كان الحج المقبول عند الله بمثابة خلق الله لصاحبه من جديد : « من حج البيت فلم يرفث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيومَ ولدته أمه » [1] فشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله هى الخطوة الأولى التى يتقدم بها المؤمن فيعترف بأصل العلاقة بينه وبين ربه ورسول ربه ، ومع ما لهذا الاعتراف من قيمة فى ذاته فهو لا يكلف صاحبه بذلا ولا تضحية ، ولا يستغرق منه جهداً ولا وقتاً ، بل إن فيه لذوى البصائر وأولى الألباب لذة هى لذة العرفان ، وجمالا هو جمال الادراك للحق . فإذا آمن بذلك قلبه كانت الخطوة التالية لهذا الإيمان أن يتوجه الى هذا الإله الذى آمن به ، واعترف بواحدانيته ، خاشعاً مناجياً فى صلاة رسمها له ، وحدد له أركانها ووسيلتها ، وشرع له قبلتها ، وهذه عبادة مع سموها ، وجلالة شأنها ، لا تكلف صاحبها جهداً كبيراً ، ولا تأخذ منه وقتاً طويلا ، فإن أدنى ما تصح به صلاة الفريضة لا يتجاوز بضع دقائق ، وما زاد على ذلك فهو كمال . ثم تأتى بعد ذلك الخطوة الثالثة ، وفيها شىء من التضحية والبذل ؛ ذلك أن يؤدى زكاة ماله فيقتطع منه جزأ معيناً طيبة به نفسه ليعطيه الفقراء والمساكين ؛ وبهذا الركن الثالث تكون أول تربية ايجابية ، وتزكية نفسية من الشح والاستئثار يطهر الله بها القلوب ، ولكنها على ذلك ليست إلا تضحية مالية بنسبة ضئيلة تقل عن أصغر ضريبة من أهل الأموال على أدائها فى أى بلد من بلاد الله وهم

---

(١) أخرجه الشيخان من حديث أبى هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

لايشعرون . ثم تأتى بعد ذلك الخطوة الرابعة ، وهى صوم شهر كامل متتابعة أيامه ، يتخلى فيه المؤمن عن طعامه وشرابه وشهوته إيمانا بالله ، واحتسابا لثوابه ، ويصبر فيه على كثير مما يقاسى : وتلك منزلة من التضحية أعلى من التضحية فى الزكاة ؛ لأن التضحية بشىء من النفس أعز وأغلى من التضحية بشىء من المال !

أما الفريضة الخامسة وهى الحج ، ففيها ذلك كله على أبلغ وجه ، وأكمل صورة : فيها الاعتراف بالله والإيمان به وبرسوله الى حد الترك لكل ما سواهما من المال والأهل والولد والمتاع ؛ فيها التوجه الى الله ، لا بواسطة قبلة بينه وبينها آلاف الأميال ، ولكن بالرحيل الى هذه القبلة نفسها ؛ فيها بذل الكثير من المال عن رضى وسخاء ؛ فيها التضحية بالنفس ، واحتمال مشاق السفر والاغتراب ، والتحلل من سلطان العادة فى متع العيش ولذاته ؛ فيها خلع ثياب الدأب والعمل والكدح ، وارتداء ثياب التطهر والاحرام والتسليم ؛ وفيها الى ذلك كله زيارة الله فى بيته ، والمثول بين يديه فى المكان الذى قدسه ، والزمان الذى قدسه .

هكذا شأن فريضة الحج ؛ كل ما قبلها بمثابة التمهيد لها ؛ مثل العبد فيها كمثل امرىء أحب ملكا عظيما ، ودان له وهو فى طرف من أطراف ملكه بالخضوع والولاء ، ينفذ أوامره ، ويخلص فى خدمته ، ويقوم بكل ما عليه من واجبات فى سبيله ، ثم يستدعيه هذا الملك العظيم ، فيهرول إليه مسرعا ، ويخلع نفسه من كل ما هو فيه ، ويأخذ لهذه الزيارة التى ستتم فى بيت الملك أهبتها ، فيتزين ويتطيب ، ويقطع المراحل الطوال حتى يصل الى غايته ، ويحظى بأمنيته ! ولله المثل الأعلى ، وهو العزيز الحكيم .

فإذا كان للحج هذه المنزلة الكبرى من بين أركان الاسلام ، وكان الوافدون الى المسجد الحرام من كل فج عميق هم ضيوفَ الله وزواره ، فما أجدر الأشهر التى تقع فيها هذه الزيارة بأن تحرم وتقدس ، ويبلغ الأمن فيها مداه ، كما جعل البيت مثابة للناس وأمنا !

ومن هنا تلاقت « الأشهر الحرم » بمواقيت الحج والعمرة ؛ فذو القعدة شهر الإعداد والتأهب ، وذو الحجة شهر الوصول والأداء ، والمحرم فيه تتم العودة والإياب ؛ أما رجب الفرد فذلك شهر فى وسط العام يطيب فيه لكثير من الزائرين الاعتمار .

هذه هى الفائدة الأولى التى قارنت هذا التشريع الإلهى الحكيم .

أما الفائدة الثانية : ففيها تربية وتهذيب للنفوس من جانب آخر غير جانب الحج والعمرة وزيارة الله فى بيته ؛ ذلك أن ما فطر عليه الناس من الانسياق الى عوامل التنازع والخلاف ، يفضى بهم فى كثير من الأحيان الى الحرب والقتال ، ومحاولة كل فريق أن ينتصر على خصمه بكل وسيلة يستطيعها ؛ فإذا كان للناس أشهر معدودة فى كل عام ، يقفون فيها خصوماتهم ، ويكفون عن نزاعهم وحروبهم ، ويعيدون فيها السيوف الى أغمادها ؛ فإن ذلك سيعود على بنى الإنسان بتخفيف كثير من ويل الحرب وسفك الدماء ، وربما سكنت فى هذه الفترة نفوس ، وهدأت قلوب ، ووجدت أسباب النزاع جوا هادئا خاليا من قعقعة السلاح ، فاستراحوا من الحرب ، وحفظوا بذلك المهج والأموال والجهود !

تصوروا أن الحربين العالميتين اللتين شهدهما هذا الجيل فى أقل من ثلاثين عاماً قد بقيت كل منهما مضطرمة النار بضعة أعوام ، تتصارع فيها القوى البشرية وتتناحر ، وتفتنّ فى ابتداع أسباب الهلاك والاستئصال ، حتى اندكت بلاد ، وتزلزلت أمم ، وزهقت ملايين من الأرواح ، وبددت ملايين من الأموال ، وضيعت قوى وجهود كان البشر فى حاجة إليها ؛ فلو أن للإنسانية فترة كهذه الفترة التى يقررها الإسلام « بالأشهر الحرم » تغمد فيها السيوف ، وتسكت فيها المدافع ، وتسكن فيها الطائرات والقاذفات وما إليها ، أفما كان هذا بلسما يشفى الجراح ، ورَوْحاً يسرى إلى القلوب والنفوس ، ولعله يفتح إلى السلام أبواباً ، ويهدى إلى التفاهم وحسم الخلاف بالتى هى أحسن !

إن الناس إذا كفّوا عن الخصومات والحروب فى هذه الأشهر الحرم خضوعاً لأمر الله ، ونزولا على حكمه ، سيذكرون أن الذى أمرهم بذلك ،

ودعاهم إليه ، وحكم بتقديس هذه الأشهر ، قد أمرهم بأشياء أخرى فيها مصلحتهم وفيها سعادتهم ؛ ذلك أن يعتنقوا مبادىء الحق والعدل والإنصاف ، وأن يكونوا متعاونين فى هذه الحياة على إسعاد أنفسهم ، لا على خلق أسباب الشقاء والنزاع ، وإذكائها بالحروب والغارات وسفك الدماء ؛ فإذا ذكروا ذلك تقاربت مسافات الخلف ، وتعاطفت القلوب إلى السلام والخير ، وأنصتت الآذان إلى دعوة الله التى يناشد بها البشر فى كتابه الكريم حيث يقول : « يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا »[١] وعلى لسان رسوله الأمين حيث يقول : « أيها الناس ! إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد ؛ كلكم لآدم ، وآدم من تراب »[٢] .

أما والله لو وُفق الناس الى أن يفقهوا دعوة الإسلام على حقيقتها ، لكان لهم فى الحياة شأن غير هذا الشأن ، ولوصلوا ما انقطع من أسباب السعادة والأمن والسلام ؟

حكمة عمر

توفى رجل بجوار أبى ذر الغفارى ، وكان مسرفا على نفسه ، فتحامى الناس جنازته ، وبلغ ذلك عمر ، فأمر أهله أن يُعلموه متى فرغوا من تجهيزه ، ففعلوا ، فشهد جنازته والناس معه ، فلما دفن وقف على قبره وقال : رحمك الله أبا فلان ، فلقد صحبت عمرك بالتوحيد ، وعفرت لله وجهك بالسجود ، فان قالوا مذنب وذو خطايا ، فمَن منا غير مذنب وذى خطايا ؟

وأحسن ما قيل فى الرجاء هذا البيت :

وإنى لأرجو الله حتى كأننى أرى بجميل الظن ما الله صانع

---

(١) ١٣ / الحجرات .

(٢) من خطبته صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع .

نظر الاسلام الى النفاق والمنافقين

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ أبو الوفا المراغى

النفاق داء قديم ابتلى به الناس ، وأغلب الظن أنه نشأ مع الانسان ؛ فقد فطر الله الناس مختلفى الطبائع قوة وضعفا ، وشجاعة وجبنا ؛ والنفاق فى أكثر الأحيان يلازم ذوى النفوس الضعيفة التى يسهل تلوينها بوسائل الإغراء . وقد عرّف العلماء النفاق بعبارات كثيرة . فعن الحسن : النفاق اختلاف السر والعلانية ، والقول والعمل ، والمدخل والمخرج . وعن عبد الله بن جراد : المنافق يملك عينه يبكى كما يشاء . قال المناوى لأنه ذو لونين باطن وظاهر ، ويقين وشك ، وإخلاص ورياء ، وصدق وكذب ، وصبر وجذع . وإن أشهر هذه العبارات وأجمعها ما عرفه به بعضهم ، وهو : أن يظهر الإنسان خلاف ما يبطن . فإذا أظهر الإنسان خلاف ما أبطن من عقيدة التوحيد بالله وبأنبيائه وباليوم الآخر ، فهو منافق كافر ؛ وإذا أظهر خلاف ما أبطن من غير ذلك ، فهو منافق مخادع .

وعلى هذا فالرياء ، والخداع ، والتدليس ، والمصانعة ، والمداهنة : كلها أفراد لهذا الجنس البغيض ؛ أعنى النفاق .

وقد تحدث الاسلام كثيرا عن نوع خاص من النفاق ، وهو النفاق فى العقائد ؛ وهو أن يظهر الانسان الإسلام ويبطن الكفر ؛ لأنه أشد أنواعه خطرا على الأمة . والمنافقون على هذا الوجه من شر ما تبتلى بهم الأمم والجماعات ؛ لأنهم يظاهرون أعداءها ، ويدلونهم على مواطن الضعف فيها ، وهم على بينة منها .

وقد قسا القرآن وقست السنة فى عقاب هؤلاء ، وسلكاهم فى نظام الكافرين ؛ قال الله تعالى : « إن الله جامع المنافقين والكافرين فى جهنم جميعا » . بل جعلهم القرآن شرا من الكافرين ؛ قال تعالى : « إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ، ولن تجد لهم نصيراً » . وعن النبي صلى الله عليه وسلم : « تجد من شرار

الناس يوم القيامة ذا الوجهين : الذى يأتى هولاء بوجه ، وهؤلاء بوجه » . وعن أبى فضالة قال : كان بعض المهاجرين يقول : والله ما أخاف المسلم ولا أخاف الكافر ؛ أما المسلم فيحجزه إسلامه ، وأما الكافر فقد أذله الله عز وجل ، ولكن كيف لى بالمنافق ؟

وقد يصح تسمية هؤلاء « الطابور الخامس » بلغة العصر الحديث . وقد أدركت الأمم شر هذا الطابور وفرضت عليه أقسى العقوبات .

وقد استنكر الاسلام النفاق فى الأقوال والأعمال فى أى صورة من صوره وعلى أى وجه من وجوهه ، لسوء أثره فى حياة الأمم والأفراد . فالنفاق رذيلة اجتماعية خطيرة ، ترفع الثقة بين الناس فى شئونهم ، وبالتالى تذهب بالتعاون بينهم ، وإذا انعدمت الثقة بين الناس وفقد بينهم التعاون ، وقفت عجلة الحياة فيهم ، وركدت ريحهم ، وحل بهم الجمود والبوار . فعلى هذين الركنين ، أعنى الثقة والتعاون ، تقوم صروح التجارة والصناعة والعلم ، ومظاهر الحضارة عامة .

وبهذين الجناحين طارت أمم فى سبيل المجد وعزت وسادت ، وبدونهما تخلف عن ركب الحضارة من الأمم من تخلف .

والنفاق فى ذاته خلق ذميم ، وهو مدعاة لطائفة أخرى من الأخلاق الذميمة : كالغدر ، والكذب ، والخيانة ، والرشوة ، والتجسس ، والنميمة ، والفجور ، والجبن : وهذه كلها أدواء تفتك بجسم الأمة فتحيلها هيكلا متخاذلا ، لا تنهض برسالتها ، ولا تصلح لمنافسة الأمم ومزاحمتها .

لهذا كله أنكر الإسلام النفاق ، وكره المنافقين ، وصورهم فى أشنع الصور وأقبحها ، وأنذرهم شديد العذاب وسوء المآب ، ولم يعتدّ بأعمالهم لمجانبتها الإخلاص والقصد الحسن الى ثواب الله وجزائه .

قال تعالى : « بشر المنافقين بأن لهم عذابا أليما » . وقال تعالى : « وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم خالدين فيها ، هى حسبهم ، ولعنهم الله ولهم عذاب مقيم » . وقال تعالى : يأيها النبى جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير» . وقال تعالى : « والله يشهد إن المنافقين لكاذبون» .

وعن النبى صلى الله عليه وسلم : « إن المنافق ليصلى فيكذبه الله عز وجل ، ويصوم فيكذبه الله عز وجل ، ويتصدق فيكذبه الله ، ويقاتل فيقتل فيجعل فى

النار ». وعنه عليه السلام : « المنافق يعبد هواه ، لا يهوى شيئاً إلا ركبه » . وعن عمر رضى الله عنه : « ما أخاف عليكم أحد رجلين : رجل مؤمن قد تبين إيمانه ، ورجل كافر قد تبين كفره ، ولكن أخاف عليكم منافقاً يتعوذ بالإيمان ويعمل بغيره » . وعن عبد الله بن عمر : أنه رأى الناس يدخلون المسجد فقال مستفهما : إن رأوا منكراً أنكروه وإن رأوا معروفا أمروا به ؟ قالوا : لا ، قال فما يصنعون ؟ قالوا : يمدحونه ثم يسبونه اذا خرجوا من عنده . فقال ابن عمر : إن كنا لنعد النفاق على عهد رسول الله فيما دون هذا . وعن بلال بن سعد : المنافق يقول بما يعرف ، ويعمل بما ينكر .

هذا نظر الاسلام الى النفاق والمنافقين ، وهذا موقفه منهم ؛ وإنه لموقف حازم وصارم هم جديرون به ؛ لأنهم جراثيم فى أجسام الأمم يفتكون بها ويسلبونها أمنها واستقرارها .

وقد راجت سوق النفاق فى هذا العصر ، وساعد على رواجها روح التسلط فى الأمم ، وشهوة الأفراد القوية فى الربح المادى من أى وجه وبكل حيلة ، فأصبحت الأمم القوية تخادع الأمم الضعيفة عن حرياتها ، وتساومها فى مصائرها ، وأصبح الأفراد يخادع بعضهم بعضا ، وشاع النفاق فى كل شأن من شئون الناس ، وصار غير مستغرب ولا مستنكر أن يعد الرجل ولا يفى ، ويستقرض ولا يؤدى ، ويقول ولا يعمل ، ويهنئ وكان من أمانيه أن يعزّى ، ويتظاهر بالصداقة وقلبه مملوء بالحقد والضغينة .

وقد ضاقت الأمم والأفراد ذرعا بهذه الحال ؛ إذ تجلت لهم أخطارها ، وتكشفت مآسيها ، فساءت علاقات الأمم وساورتها الشكوك والريب ، وقلت ثقتها بالعهود والمواثيق ، ونظر بعضها الى بعض نظرة الحذر والوجل ، وكذلك نظر الأفراد بعضهم الى بعض .

وحاولت المدنية الحديثة أن تبرر النفاق وتضفى عليه ألوانا براقة تخفى شينه وتغطى عيبه ، فسمّته مرة « دبلوماسية » ، ومرة « لباقة » ، وثالثة « مرونة » ، ورابعة « مجاملة » الى غير ذلك من الأسماء ؛ ولكنها محاولة فاشلة ، هيهات أن تقلب حقيقته ، وتقى الناس شره وأخطاره ؛ وهيهات أن تغير من نظر الاسلام اليه نظراً يكافى هذه الشرور والأخطار !.

معجزة مجهولة

من معجزات النبي صلى الله عليه وسلم

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبد المتعال الصعيدى
المدرس بكلية اللغة العربية

كم للنبي صلى الله عليه وسلم من معجزات تظهر لكل من يتدبر ويتأمل، وهذه ميزة معجزاته على معجزات غيره من الأنبياء؛ فقد كانت معجزاتهم حسية يدركها الحس بسهولة؛ وأما معجزاته فهى أرقى من أن يتناولها الحس، لأنها من أفق أعلى من أفقه، فلا يدركها إلا العقل المتدبر، وما أسمى ما يختص العقل بإدراكه، ولا يتطلع الحس الى تناوله.

وهذه معجزة مضى عليها أجيال من الدهر تحققُ من أمرها، وتُقوى من شأنها، فلا يزيدها مر الأجيال إلا ثباتا، ولا يزيدها توالى الحقب إلا قوة، حتى آن لنا الآن أن نتحدث عنها، وأن نظهرها للناس جلية واضحة، لايعتريها أدنى شك، ولا يخفيها أدنى لبس؛ وكيف يعتريها شيء من الشك واللبس وقد مر عليها ست وستون ومائة سنة بعد الألف، وهى قائمة تتحدى الزمن، وتتحدى أهله فى الشرق والغرب، وفى الشمال والجنوب، وفيما كان ظاهرا من المعمور وما كان مستورا منه، فعجز الزمن وأهله عن تحديها، وسيظل عاجزا عن هذا الى ما شاء الله تعالى؟

قد وردت هذه المعجزة فى آية من آيات القرآن لا يُشك فى أمرها؛ لأن آيات القرآن قد حفظت منذ نزولها فى الصدور وغيرها مما حفظت فيه، ثم حفظت فى المصاحف عقيب وفاة النبي صلى الله عليه وسلم؛ وهذا فى قوله تعالى: «ما كان محمد أبا أحدٍ من رجالكم ولكن رسولَ الله وخاتمَ النبيين، وكان الله بكل شيء عليما» الآية ـ ٤٠ ـ من سورة الأحزاب.

فقد قطعت هذه الآية فى أمر لا سبيل للبشر أن يقطعوا فيه ، ولا يمكن عاقلا منهم أن يورط نفسه فى شأنه ، بل يرى من مصلحته أن يتركه للزمن ، وأن يمتنع عن الحكم فيه بإثبات أو نفى ، لأنه لا يدخل فى علمه ، ولا يمكنه الجزم بشيء فيه ، فكيف إذا كان يدعى النبوة ، وهى أسمى مرتبة فى البشر ، فلا يمكن صاحبها أن يعرضها للتهمة بما لا يرضاه عاقل من عامة الناس لنفسه ؟

لقد ختمت هذه الآية عهد النبوة ، وحكمت بأنه لا نبى بعد محمد صلى الله عليه وسلم ، مع أنه كان قد مضى على الخليقة آلاف لا تحصى من السنين ، والأنبياء يتعاقبون فيها نبيا بعد نبى ، من آدم ، إلى شيث ، إلى إدريس ، إلى نوح ، إلى إبراهيم ، الى إسماعيل وإسحاق ، الى يعقوب ، الى يوسف ، الى موسى وهارون ، الى داود ، الى سليمان ، الى عيسى بن مريم ، وبين هؤلاء الأنبياء أنبياء لا يحصون عدا ، لأن هناك من الأنبياء من لم يرد إلينا حديث عنهم ، كما قال تعالى فى الآية -١٦٤- من سورة النساء « ورسلا قد قصصناهم عليك من قبلُ ورسلا لم نقصصهم عليك وكلّم اللهُ موسى تكليما » .

وكان كل نبى من هؤلاء الأنبياء يبشر بمن يأتى بعده منهم ، ويأمر أتباعه بانتظاره ، ويحثهم على الايمان به إذا ظهر بعده ؛ وقد وردت بذلك بشارات كثيرة فى كتب الأنبياء ، فوردت فى صحف ابراهيم عليه السلام ، ووردت فى توراة موسى عليه السلام ، ووردت فى زبور داود عليه السلام ، ووردت فى انجيل عيسى عليه السلام ، وفى غير هذا من كتب الأنبياء .

وكل هذا كان يدعو محمدا صلى الله عليه وسلم أن يحجم عن قطع عهد النبوة لو كان أمره من نفسه ، لأنه يخالف ماتوالت عليه الأجيال ، ويخرج عما تعاقبت عليه السنون من بدء الخليقة إلى عهده ، والبشر فى أحكامهم لا يخرجون عن مثل هذا الحكم ، ولا يخالفون نظاما جرت عليه السماء من قديم الزمن ، بل كان هذا يدعوه أن يجرى على هذه السنة ، فيأتى ببشارة من البشارات ، ويستن فى ذلك سنة أولئك الأنبياء ، ترويجا لأمره بين الناس ، ولاسيما أن للناس شغفا بالبشارات والتنبؤات ، وميلا إلى تصديق من يذهب هذا المذهب من الكهان ونحوهم .

فالأمر فى قطع عهد النبوة بعد محمد صلى الله عليه وسلم ليس منه، وإنما هو من الله الذى أنزل عليه القرآن الكريم، وأنزل عليه هذه الآية التى تقطع عهد النبوة بعده، وتحكم بأنه خاتم النبيين، وبأن شرعه آخر الشرائع، وتتحدى الزمن فى ذلك، فلا يجرؤ على التحدى، وتتحدى أهله من الموافقين والمخالفين، فلا يجرءون على معارضة حكمها، وها هى ذى باقية بعد ست وستين ومائة بعد الألف من السنين، تجدد ذلك التحدى، وقد زادتها تلك المدة الطويلة قوة فى تحديها؛ لأن هذه المدة تكفى لظهور كثير من الأنبياء؛ وقد كان الأنبياء قبلها يتوالى ظهورهم، ويتعاصر الكثير منهم، فما بالهم قد انقطعوا فى هذه المدة الطويلة؟ وما بال الزمن قد صار لا يتطلع إلى نبوة كما كان يتطلع؟ وما بال أهله قد صاروا الآن لا يتطلعون إلى نبوة كما كانوا يتطلعون؟.

لقد فتح النبى صلى الله عليه وسلم للناس باب الاجتهاد بعده، وجعل العلم هو الوسيلة لذلك الاجتهاد، فحث الناس على طلب العلم والحكمة، ولم يفعل مثل هذا نبى قبله، فصار العلم هو الوسيلة للإصلاح بعد الدين؛ لأن الدين هو الأساس، والعلم يقيم بناءه على أساسه: فانقطع أمل الناس فى نبوة تظهر لهم، واعتمدوا على العلم فى إصلاح أحوالهم، وهم فى هذا يعملون بما جاء به الإسلام من حيث لا يشعرون، ويصدقون ماجاء به محمد صلى الله عليه وسلم من انقطاع عهد النبوة وهم لا يعلمون؛ ولا فرق فى هذا بين المسلمين منهم وغيرهم. وإذا كانت هناك طوائف لا تعترف بأن محمداً صلى الله عليه وسلم هو النبى الذى بشر به الأنبياء السابقون، ولا تزال تنتظر نبيا يأتى بعده، فإن فيما مضى بعده من هذه المدة الطويلة ما يكفى لقطع أملها فى ذلك؛ وإن فى أحوال عصرنا ما يجب أن يصرفها عن خطئها، لأن الأمر استقر فيه على الاكتفاء بالنبوات السابقة، فعكف فيه أهل كل ديانة على ديانتهم، وقاموا فى حدودها يتولون إصلاحهم بأنفسهم، ولا ينتظرون فى هذا وحياً من السماء، ولا يترقبون نبيا يبعث إليهم.

لقد حاول الأسود النخعى فى حياة النبى صلى الله عليه وسلم أن يتحدى ماجاء به من أنه خاتم النبيين، فادعى النبوة فى اليمن، وكان يشعبذ ويُرى الجهال

الأعاجيب ، ويسبي بمنطقه قلب من يسمعه ، ولكن أمره لم يلبث أن بطل بيد أقرب الناس إليه ، فقتلته امرأته فى أبيها الذى كان قد قتله .

ثم حاول مسيلمة الكذاب ذلك أيضاً فى حياة النبى صلى الله عليه وسلم ، وأخذ يأتى بأسجاع تافهة يقلد بها القرآن ، فلم يلبث أن بطل أمره أيضاً ، وقتل فى أوائل خلافة أبى بكر رضى الله عنه .

وبعد ، فإنه كان لنا أن نسكت عن التحدى بهذه المعجزة عشر سنين بعد موت النبى صلى الله عليه وسلم ، أو مائة سنة ، أو خمسمائة سنة ؛ ولكنه لا يصح لنا الآن أن نسكت عن التحدى بهذه المعجزة بعد أن مضى عليها ست وستون ومائة سنة بعد الألف . إنها معجزة قائمة تتحدى الزمن ؛ إنها معجزة لها أكبر شأن فى تاريخ البشر ؛ لأنها فصلت فيه بين عهدين : عهد توالى فيه أنبياء منذ الخليقة على القيام بإصلاح حال الأرض ، وتولى فيه الإصلاح وحى السماء ؛ وعهد انقطع فيه ذلك الوحى من الأرض ، وترك فيه أمر أهل الأرض لأنفسهم ، بعد أن أدى الوحى رسالته بينهم .

ولا شك أن مثل هذا لا يمكن أن يحكم به بشر ، وإنما هو حكم الله تعالى ، ومعجزة خطيرة من معجزات النبى صلى الله عليه وسلم .

الاتعاظ

قال العتبى : دخل رجل من عبد القيس على أبى فوعظه ، فلما فرغ قال أبى له : لو اتعظنا بما علمنا ، لا نتفعنا بما عملنا ؛ ولكنا علمنا علما لزمتنا فيه الحجة ، وغفلنا غفلة من وجبت عليه النقمة ؛ فوعظنا فى أنفسنا بالانتقال من حال الى حال ، ومن صغر الى كبر ، ومن صحة الى سقم ، فأبينا إلا المقام على الغفلة ، وإيثاراً لعاجل لا بقاء لأهله ، وإعراضاً عن آجل إليه المصير .

وقال رجل للرشيد : يا أمير المؤمنين إنى أريد أن أعظك بكلام فيه بعض الغلظة فاحتملها . فقال : كلا ! إن الله أمر من هو خير منك بإلانة القول لمن هو شر منى !

بين العطار والخشاب

من أدباء القرن التاسع عشر

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبد الجواد رمضان
المدرس بكلية اللغة العربية

قلنا فى حديث مضى تحت هـذا العنوان : إنه كان بين العطار والخشـاب مساجلات شعرية ، استرعى نظر َنا منها موشحتان ، نظم أولاهما العطار ، وعارضه الخشاب بالأخرى ؛ وإننى رأيت أن أجعل منهما موضوع « موازنة » بين الأديبين ؛ ثم بينهما وبين وشاحى العصر الحاضر ، فى حديث آخر . فهـذا حين الوفاء بهذا الوعد .

قال العطار ؛ وأغلب الظن أنه إنمـا كان يقول الشعر ارتياضاً ، وإظهاراً للبراعة والقدرة على قـوله ، لا خضوعاً لعواطف تجيش به فى صدره ؛ وربمـا أ ّيد هـذا الظن ، أن ترجمته تقول : « إنه كان يقول الشعر أحيانا » مع اعترافها بأن له ديوانا ؛ و « فلان يقول الشعر » غـير « فلان شاعر » . هـذا من جهة ، ومن جهة أخرى ، ما قدمنا من تفرد العطار فى العلوم لا سيما الحكمية وما يتبعها من الرياضيات والهندسة ، فإن هذا التعمق العلمى ِحجَـازٌ عن التفوق فى الشعر ؛ كما هو معروف . فأما صديقه الخشاب ، فـكان شاعراً ، تدفعه العواطف ، وتحدو به نزغات شياطينه ، وعوامل دواعيه .

بدأ العطار فقال :

أما فـؤادى فعَـنْك ما انتقلا
فلِمْ تخيرتَ فى الهوى بدلا ؟ ـ فاعجبْ ـ
يا ُمعرضاً عن محبِّـه الدَّنِـفِ
ومغرما بالجمال (كذا) والصَّلَـفِ
ومَن به زاد فى الهـوى شغفى

أما كفى يا ظلومُ ما حصلا

حتى جعلت الصدودَ والملَلا — مذهبْ —

فتشْ فؤادى فليس فيه سوى

شخصك يأيها المليح ثوَى

قد ضل قلبى لسُكْنه وغوَى

وهكذا من يحب معتدلا

لم يلقَ إلا تأسفا وقِلا — مشرب —

وهى طويلة ، قال مترجموه : إنها فى ديوانه ، الذى لم أعثر عليه بعد طول البحث ، بيد أن ما نقلناه منها كاف فيما نريد .

* * *

قال العلامة الجبرتى ، فى ترجمة الخشاب : « ولما وردت الفرنساوية لمصر ، اتفق أن عَلِق شابا من رؤساء كتابهم كان جميل الصورة ، لطيف الطبع ، عالما ببعض العلوم العربية ، مائلا الى اكتساب النكات الأدبية ، فصيح اللسان بالعربى ، يحفظ كثيراً من الشعر ؛ فلتلك المجانسة ، مال كل منهما للآخر ، ووقع بينهما توادد وتصاف ، حتى كان لا يقدر أحدهما على مفارقة الآخر ؛ فكان المترجم تارة يذهب لداره ، وتارة يزوره هو ، ويقع بينهما من لطف المحاورة ما يتعجب منه . وعند ذلك قال المترجم الشعر الرائق ، ونظم الغزل الفائق . ولما نظم الشيخ حسن العطار موشحته التى يقول فيها : « أما فؤادى فعنك ما انتقلا الخ » عارضه المترجم المذكور بقوله فى معشوقه الذى ذكرناه :

يهتز كالغصن مال معتدلا

أطلعَ بدرا عليه قد سدلا — غيهبْ —

رِيمٌ يَصيدُ القلوبَ بالدَّعَجِ

يسطو بسيف اللحاظ فى المُهَج

يزهو لعينى بمنظر بَهِج

فكيف أبغى بحبه بدلا
وليس لى عنه ـ جار أو عدلا ـ مهرب ـ

وضّاحُ نورِ الجبين أبْلَجُه
ورْدىّ خدٍ زها تَوهجُّه
إليه شوقٌ يزيد لاعِجُه

فلست أصغى لعاذل عَذَلا
وعنه ـ والله ـ لا أتوب ولا ـ أرغب ـ

ومنها :

مولاى رفقا بصبك الدنف
قد كدت أقضى عليك من أسف
تلافَ رُوحى ، فقد دنا تلفى

من ريقك العذب أرْونى نَهَلا
وهات كأسى ، وطُف به ثَمِلا ـ واشرب ـ

راحاً ، سَناها يُضىء كاللهبِ
تبسِم عن رطب لؤلؤ الحبَب
(وعن عقيق من ثغرك الشنب)

بين رياض ومُسمعٍ غزَلا
على المثانى إذا شدا رَملا ـ أطرب ـ

والوُرق من حسن صوتها الغَرِد
تُميل قُضُبَ الرياض بالميَد
وتوّجَ الدوحَ لؤلؤُ البَرَد

تاجاً من الدر نظمُه كملا
فكن من اللهو سالكا سبلا ـ واداب ـ

* * *

وقد بدئت كلتا الموشحتين بقُفل ، فهما من الموشحات التامة ، وهى عند الوشاحين ما بدئت بقفل ؛ ويقابلها « العرجاء » أو « القَرْعاء » وهى ما بدئت ببيت ؛ والأقفال : ما اتحدت أجزاء ، ووزنا ، وقافية . والأبيات : ما اتحدت أجزاء ، ووزنا فقط . ومن الأقفال والأبيات يتألف الموشح ؛ على أن تامه وأعرجه ، لا بد أن يختم كلاهما بقفل يسمى « خَرْجة » هى موضع البراعة والإبداع فى كل موشحة ؛ وللخرجة شروط : منها أن تسبق بلفظ يدل على الاقتباس ، كقال أو قلت ، أو أنشد ، مثلا ؛ وأن تكون على لسان إنسان أو حيوان أو طير ، مثلا . وهذه فذلكة لا بد منها ، قبل نقد الموشحات ، حتى يستقل القارىء الجمهورى بفهم الكلمات الاصطلاحية بمجرد قراءتها فى مجلة دينية سائرة .

* * *

قال مولانا الأستاذ الأكبر العطار شيخ الجامع الأزهر :

أما فؤادى ، فعنك ما انتقلا
فلمْ تخيرت فى الهوى بدلا - فاعجب -

وقال الخشاب الشاعر :

يهتز كالغصن مال معتدلا
أطلع بدراً عليه قد سدلا - غيهب -

ويبدو لأول النظر ، أن أسلوب العطار فى قفله أسلوب علمى تأليفى ، وأن أسلوب الخشاب أسلوب شاعر مطبوع ؛ وأنه لو جرد كل من القفلين من نسبته إلى قائله ؛ ثم عرضا على ناقد أديب ، لحكم لأول نظرة ، بأن هذا « لعالم » ، وهذا « لشاعر » .

فأما المعنى : فان شيخنا العطار سلك فيه مسلكا تجاريا ، أساسه « التبادل » الذى يمت الى « البيوع وملحقاتها » بمَتات قريب ، ولم يذهب فيه مذهباً غرامياً مألوفا ، أساسه « التضحية ، ونكران الذات » . وما أدرى من المخاطب بالأمر فى قوله : « فاعجب » : أهو يعنى نفسه ، أم يعنى الحبيب ، أم يعنى القارىء . ؟

وأيا ما كان ، فلا موضع للعجب ما دام انتقال المحبوب إلى البدل عن تخير ، فإن انتقال « البائع » الى الثمن المربح ، والبدل الأرجح ، فى طبيعة الحياة العامة .

وانبرى الشاعر الخشاب ـ فى ذلة العاشق المدله ـ يتلذذ بوصف محاسن المحبوب ، التى أوقعته فى شراكه ، ليقوم بذلك عذره عند عاذليه ، ثم ليرتب عليه مذهبه التقليدى فى الحب ، أو بالحرى لينزل على شرع الغرام ، الذى قضى به دين الهوى ، على كل من اعتنقه من فؤاد جريح ! . بيد أنى لا أطرب لهذه الصورة المستحيلة ، فى قوله : « أطلع بدراً عليه قد سدلا ـ غيهب ـ » وإن كان لها مجاز من التخييل ؛ لأن من شأن البدر أن يهتك أستار الظلام ، فكيف يسدل الغيهب ـ وهو الظلام ـ على بدر طالع ؟ ! ولعل أحسن منه فى هذا المعنى ، قول حمدة الأندلسية :

إذا سدلت ذوائبها عليها رأيت البدر فى أفق السواد
كأن الصبح مات له شقيق فمن حزن تسربل بالحداد

وقول ابن شُهَيد الأندلسى :

شربت أعضاؤه خمر الصبا وسقاه الحسن حتى عربدا
رشأ ، بل غادة ممكورة عممت صبحاً بليل أسودا



عاد مولانا الأستاذ الأكبر ، فقال فى بيته الأول وقفله الثانى :

يا معرضاً عن محبه الدنف
ومغرماً بالجمال (كذا) والصلف
ومن به زاد فى الهوى شغفى
أما كفى ياظلوم ماحصلا حتى جعلت الصدود والمللا ـ مذهب ـ ؟

وعاد الخشاب كذلك فقال فى بيته الأول وقفله الثانى :

ريم يصيد القلوب بالدعج
يسطو بسيف اللحاظ فى المهج
يزهو لعينى بمنظر بهج

فكيف أبغى بحبه بدلا
وليس لى عنه جار أو عدلا مهرب

* * *

« الدنف » بفتح النون مصدر وصف به ، وبكسره صفة ؛ و « بالجمال » فى الجزء الثانى ، لا معنى لها ، وإن كانت الرواية ؛ ولعلها « الدلال » وما زال أسلوب العطار فى قفله الأول أسلوبه هنا ؛ ولعل ما يشيع من عامية فى الجزء الأول من قفله : « أما كنى يا ظلوم ما حصلا » أبرز الشواهد على ضعف أسلوبه ، وضاعف من عاميته استعماله « ظلوم » وصفا ، والشعراء يذكرونه فى الأعم الأغلب علما ؛ وحسب الشاعر فى شكاته ما يشعر به هذا العلم . فأما المعنى ، فهو شرح وتوضيح لما أجمله الشيخ فى قفله الأول ، على أنه شرح أضعف المعنى وأدنفه ؛ فإن انتقال المحبوب عنه إلى « بدل متخير » لم يجعل لعد ذنوبه إليه من الإعراض والصد والملل موضعا ، ولا لامتنانه عليه بزيادة شغفه فى هواه قيمة . وكل ما يفهمه القارىء للبيت والقفل جميعا ، أنه موشح « تشليق بلدى » شفى به مولانا الأستاذ نفسه من هذا الحبيب الغادر ، الذى لم يعرف مقدار تنزله من عليائه السماوى الدينى ، إلى حب هذا المخلوق الأرضى الصلف الظالم ، الذى تمرد على سلطان الأزهر ، وألحد فى جلال الشيوخ . ويا حبذا لو شرح الشيخ : « ما حصل » فإن فى النفس منها أشياء !

وكذلك أسلوب الخشاب : هو أسلوبه فى قفله الأول ، أسلوب وشاح مصقول ، وشاعر يمده طبع . وأما معانيه ، فهى امتداد وترفيع للأساس الذى أرساه بقفله الأول ، من تعداد شمائل الحبيب ، وأنه ريم دعجه ينتظم القلوب جميعا ، وأن سيف لحاظه يفتك بالأرواح جميعا ، فهو فتنة عامة ، لا حبيب اختصم فيه الشيخ وآخر ، فتخير الآخر ! ثم أنكر على نفسه وعلى عاذله أن يبغى بحبه بدلا ؛ وانتهى ــ بعد هذه المقدمات ــ إلى مقطع الرأى فى مذهبه الغرامى ، وهو أنه : « ليس لى عنه جار أو عدلا مهرب . ومن محاسن ذوق الخشاب ، أنه نسب خاطر التبدل إلى نفسه لا إلى الحبيب ، كما فعل شيخنا ؛ ولا غرو ، فإنه ذوق شاعر .

(يتبع)

علماء الأزهر

يقررون دعوة المسلمين الى

الجهاد بالنفس والمال لإنقاذ فلسطين

سارع رجال الأزهر المسئولون ، وأعضاء جماعة كبار العلماء ، الى الاجتماع والتشاور فى توحيد جهودهم لمناصرة فلسطين ، وشد أزرها ، ومساعدتها على اجتياز تلك المكيدة الكبرى التى دبرت لها .

وقد بدأوا أول اجتماعاتهم فى ١٩ من المحرم سنة ١٣٦٧ ﻫ (٢ من ديسمبر سنة ١٩٤٧ م) بالرواق العباسى بالجامع الأزهر الشريف ، مفضلين الاجتماع فى الأزهر عما سواه من أماكن أخرى ؛ لأنه كان دائما مقر الاجتماعات لبحث خطير الأمور وجليلها فى تاريخ مصر والإسلام ؛ فكم من فتوى خطيرة صدرت من هذا المكان اهتزت لها أرجاء العالم ! وكم من أمر دبر لمختلف الشئون العامة والهامة فى هذا المكان ! ومنه انبعث أول صوت ينادى بالحرية ، ومنه اليوم ينبعث أول صوت ينادى بوجوب الجهاد على المسلمين لإنقاذ فلسطين .

وعند الساعة الحادية عشرة كان قد وصل الى الرواق العباسى حضرات أصحاب الفضيلة الشيخ عبد الرحمن حسن وكيل الجامع الأزهر ، والشيخ محمد عبد اللطيف دراز مدير الأزهر ، والشيخ محمود أبو العيون السكرتير العام للجامع الأزهر ، والشيخ عبد المجيد سليم مفتى الديار المصرية السابق ورئيس لجنة الفتوى ، والشيخ محمد مأمون الشناوى وكيل الأزهر السابق ، والشيخ محمد حسنين مخلوف مفتى الديار المصرية ، والشيخ ابراهيم حمروش ، والشيخ عيسى منون شيخ كلية الشريعة ، والشيخ الحسينى سلطان شيخ كلية أصول الدين ، والشيخ عبد الجليل عيسى شيخ كلية اللغة العربية ، والشيخ محمد الجهنى شيخ معهد القاهرة ، وباقى أعضاء جماعة كبار العلماء ، وعدد كبير من أساتذة الكليات الأزهرية .

وقد بدأ المجتمعون بدراسة ما يجب عمله على رجال الدين إزاء هذا الحادث الخطير (قرار هيئة الأمم بتقسيم فلسطين) وواجبهم بالنسبة لتوجيه الأمة الإسلامية الى واجبها فى تلك المحنة التى نزلت بأحد أقطارها .

وقد استقر رأى المجتمعين الى إصدار نداء الى الأمة الاسلامية والعربية ، وقد نشرناه فى آخر هذا البيان .

قيادة الجماهير .

وتناولوا بالبحث عدة اقتراحات أخرى ، منها اقتراح من صاحب الفضيلة المدير العام للأزهر باجتماع العلماء يوم السبت ٢٣ من المحرم سنة ١٣٦٧ هـ (٦ ديسمبر سنة ١٩٤٧ م) بالأزهر والدعوة الى الجهاد لجميع طبقات الأمة ، والخروج معهم فى مظاهرة كبرى يتقدمونها الى سراى عابدين العامرة ، ورفع كلمة باسم علماء الأزهر الى مقام جلالة الملك فى تأييد فلسطين .

وقد أرجىء بحث هذا الاقتراح الى جلسة يوم السبت التى تقرر أن تبدأ فى الساعة العاشرة صباحا .

تنظيم الكتائب الأزهرية :

وألفت لجنة برياسة فضيلة الشيخ محمد عبد اللطيف دراز المدير العام للجامع الأزهر ، وعضوية حضرات الأساتذة : القائمقام محمد بهجت بك رئيس التدريب العسكرى ، وسعد الله هاشم بك ، وشيخ كلية اللغة العربية ، وشيخ معهد القاهرة ؛ وذلك لتنظيم تطوع طلبة الأزهر فى كتائب ، وتدريبهم على الأعمال العسكرية .

جمع التبرعات :

وألفت لجنة من أصحاب الفضيلة الشيخ عبد الرحمن حسن ، والشيخ حسنين مخلوف ، والشيخ محمود أبو العيون ، والشيخ محمود شلتوت ، لجمع التبرعات وفق القواعد التى تقرر ، وقد رئى أن يكون أدنى حد للتبرع ٢ ٪ من مجموع المرتب شهرياً للمدرسين فى الأزهر .

فتح الاكتتابات :

وقد اكتتب الحاضرون بالمبالغ الآتية كافتتاح للتبرع :

٥٠ جنيها من كل من حضرات الشيخ عبدالرحمن حسن والشيخ عبدالمجيدسليم والشيخ مأمون الشناوى مع التبرع بمبلغ ١٠ ./. شهريا من مرتب الأول ومن معاش ومرتب جماعة كبار العلماء للأخيرين ، و٥٠ جنيها من كل من الشيخ حسنين مخلوف مفتى الديار المصرية والشيخ عيسى منون شيخ كلية الشريعة والشيخ عبد الرحمن عيد المحلاوى ، و ٣٠ جنيها من كل من الشيخ محمد عبد اللطيف دراز مدير الأزهر والشيخ محمود أبو العيون السكرتير العام للأزهر ، و ٢٠ جنيها من كل من الشيخ عبد الجليل عيسى والشيخ ابراهيم الجبالى والشيخ الحسينى سلطان والشيخ محمد الجهنى شيخ معهد القاهرة ، وعشرة جنيهات من كل من حضرات الشيخ ابراهيم حمروش مع خصم ٣ ./. من معاشه ومرتبه فى جماعة كبار العلماء والشيخ محمود شلتوت والشيخ محمد غرابة والشيخ محمد عرفة والشيخ محمد العنانى والشيخ حامد محيسن والشيخ محمد العتريس والشيخ فرغلى الريدى والشيخ أحمد حميدة والشيخ محمد أبو شوشة والشيخ عفيفى عثمان والشيخ حامد جاد والشيخ محمد الشايب والشيخ عبد الرحمن تاج والشيخ محمود الغمراوى والشيخ على المعداوى والشيخ عبد الرحمن عليش ، وتبرع بمبلغ خمسة جنيهات كل من الشيخ محمد سامون والشيخ اسماعيل الدوى والشيخ منصور رجب والشيخ حسن مرزوق والشيخ عثمان صبرة والشيخ محمد البسيونى زغلول والشيخ موسى اللباد والشيخ عبد العزيز خطاب . وبلغ مجموع التبرعات فى هذه الجلسة ٦٧٠ جنيها مصريا .

وانتهى الاجتماع فى نحو الساعة الثانية بعد الظهر . وفيما يلى نص النداء :

نـــــداء

إلى أبناء العروبة والاسلام

من علماء الجامع الأزهر الشريف

« هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ »

بسم الله الرحمن الرحيم .

يا معشر العرب والمسلمين ! قضى الأمر ! وتألبت عوامل البغي والطغيان على فلسطين ، وفيها المسجد الأقصى أول القبلتين ، وثالث الحرمين ، ومنتهى إسراء خاتم النبيين ، صلوات الله وسلامه عليه .

قضى الأمر ! وتبين لكم أن الباطل ما زال فى غلوائه سادرا ، وأن الهوى مافتىء على العقول مسيطرا ، وأن الميثاق الذى زعموه سبيلا للعدل والإنصاف ، ما هو إلا تنظيم للظلم والإجحاف .

قضى الأمر ! ولم يبق بعد اليوم صبر على تلكم الهضيمة ، التى يريدون أن يرهقونا بها فى بلادنا ، وأن يجثموا بها على صدورنا ، وأن يمزقوا بها أوصال شعوب وحّد الله بينها ، فى الدين ، واللغة ، والشعور .

إن قرار هيئة الأمم المتحدة ، قرار هيئة لا تملكه ، وهو بعدُ قرار باطل جائر ليس له نصيب من الحق والعدالة . ففلسطين ملك العرب والمسلمين ، بذلوا فيها النفوس الغالية ، والدماء الزكية ، وستبقى إن شاء الله ــ رغم تحالف المبطلين ــ ملك العرب والمسلمين ، وليس لأحد كائنا من كان أن ينازعهم فيها أو يشطرها أو يمزقها .

وإذا كان البغاة العتاة قد قصدوا بالسوء من قبلُ هذه الأماكنَ المقدسة ، فوجدوا من أبناء العروبة والاسلام قساورة ضراغم ذادوا عن الحمى وردوا البغى على أعقابه مقلم الأظفار محطم الأسنة ، فإن فى السويداء اليوم رجالا ، وفى الشرى آسادا ، وإن التاريخ لعائد بهم سيرته الأولى .

يا أبناء العروبة والاسلام !

لقد أعذرتم من قبل ، وناضلتم عن حقكم بالحجة والبرهان ما شاء الله أن تناضلوا ، حتى تبين للناس وجه الحق سافراً . ولكن دسائس الصهيونية وفتنتها وأموالها قد استطاعت أن تجلب على هذا الحق المقدس بخيلها ورجلها فعميت عنه العيون ، وصمت الآذان ، والتوت الأعناق ، فاذا بكم تقفون فى هيئة الأمم وحدكم ، ومدعو نصرة العدالة يتسللون عنكم لواذا ، بين مستهين بكم ، وممالئ لأعدائكم ، ومتستر بالصمت متصنع للحياد .

فإذا كنتم قد استنفدتم بذلك جهاد الحجة والبيان ، فان وراء هذا الجهاد لإنقاذ الحق وحمايته جهاداً سبيله مشروعة ، وكلمته مسموعة ، تدفعون به عن كيانكم ، ومستقبل أبنائكم وأحفادكم ؛ فذودوا عن الحمى ، وادفعوا الذئاب عن العرين ، وجاهدوا فى الله حق جهاده !

« فَلْيُقَاتِلْ فى سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ ، وَمَنْ يُقَاتِلْ فِى سَبِيلِ اللهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً » .

« الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِ اللهِ ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِ الطَّاغُوتِ ، فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً » .

يا أبناء العرب والاسلام !.

خُذُوا حِذْرَكُمْ ، فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انْفِرُوا جَمِيعاً ؛ وإياكم أن يكتب التاريخ أن العرب الأباة الأماجد قد خروا أمام الظلم ساجدين ، أو قبلوا الذل صاغرين .

إن الخطب جلل ، وإن هذا ليوم الفصل ، وما هو بالهزل . فليبذل كل عربى وكل مسلم فى أقصى الأرض وأدناها من ذات نفسه وماله ، ما يرد عن الحمى كيد الكائدين ، وعدوان المعتدين . سدوا عليهم السبل ، واقعدوا لهم كل مرصد ، وقاطعوهم فى تجاراتهم ومعاملاتهم ، وأعدوا فيما بينكم كتائب الجهاد ، وقوموا بفرض الله عليكم ، واعلموا أن الجهاد الآن قد أصبح فرض عين

على كل قادر بنفسه أو ماله ، وأن من يتخلف عن هذا الواجب فقد باء بغضب من الله وإثم عظيم .

« إن اللهَ اشْتَرى من المؤمنينَ أنفسَهم وأموالَهمْ بأنّ لهمُ الجنةَ يقاتِلونَ في سبيل الله فيَقْتلون ويُقتلون وعْداً عليه حقًّا فى التوراةِ والانجيل والقرآنِ ، وَمَنْ أوْفَى بعهدِهِ مِن الله ؟ فاستبْشِروا بِبَيْعِكُم الّذِى بايَعْتُم بِه ، وذلك هو الفوزُ العظيم » .

فاذا كنتم بايمانكم قد بعتم الله أنفسكم وأموالكم ، فها هو ذا وقت البذل والتسليم ، فاوفوا بعهد الله يوف بعهدكم .

وليشهد العالم غضبتكم للكرامة ، وذودكم عن الحق .

ولتكن غضبتكم على أعداء الحق وأعدائكم ، لا على المحتمين بكم ، ممن لهم حق المواطن عليكم والاحتماء بكم ، واحذروا أن تعتدوا على أحد منهم ، إن الله لا يحب المعتدين .

ولتتجاوب بعدُ الأصداء فى كل مشرق ومغرب بالكلمة المحببة إلى المؤمنين : الجهاد ! الجهاد ! الجهاد !

والله معكم ولن يتِرَكم أعمالكم .

وقد اجتمعت اللجنة الفرعية للتبرعات يوم ٢٣ المحرم سنة ١٣٦٧ هـ . (٦ ديسمبر سنة ١٩٤٧م) ، ورأت أن تطوف على الكليات والمعاهد لجمع التبرعات الناجزة من المدرسين والموظفين ، وإيفاد مندوب عنها الى معاهد الأقاليم لجمع تلك التبرعات . كما حددت بجلستها فى يوم ٢٥ المحرم سنة ١٣٦٧ (٨ ديسمبر سنة ١٩٤٧) ألا يقل ما يتبرع به عضو جماعة كبار العلماء عن ١٥ جنيها ، ومن فى الدرجة الثالثة عن ١٠ جنيهات ، ومن فى الدرجة الرابعة عن ٥ جنيهات ، ومن فى الدرجة الخامسة عن ٣ جنيهات ، ومن هو فى درجة دون ذلك عن ٢ جنيه . وقد جمع من تلك التبرعات لغاية يوم ٧ صفر سنة ١٣٦٧ (١٩٤٧/١٢/١٧) ٥٣١ مليم ١٥٥٠ جنيها .

أسباب تأخر المسلمين فى العصور الاخيرة
وعلاج هذا الموقف

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبد الحميد عنتر
المدرس بكلية اللغة العربية

تصدير

هـذا الموضوع كان يتلجلج فى نفسى من زمن بعيد ، وكان يضيق به صدرى ولا ينطلق لسانى ، وكنت فى شبه يأس من فائدة الكتابة فى هذا الشأن وأمثاله مما يتعلق بتشخيص الداء ووصف الدواء ، لا ستئصال الأمراض النفسية ، التى كادت تفتك بالمجتمع الإسلامى من جميع نواحيه !

أما الآن فقد ظهرت لى بارقة أمل فى ثمرة بث الإصلاح الإسلامى ونشره بالصحف والمجتمعات ؛ ويرجع الفضل فى ظهور هذه البارقة من الأمل الى صاحب النفس الزكية ، والشيمة المرضية ، والهمة العالية : مولانا صاحب الجلالة « فاروق الأول » ملك وادى النيل المحبوب !

فهو الذى قوّى النهضة الدينية ، وأحيا مواتها ، وجدّد شبابها ، وحاطها من عنايته بأوفر حظ وأ كبر نصيب . ذلك لأنه — حفظه الله — علم بثاقب فكره ونافذ بصيرته أن فى تقويتها سعادة الدنيا والآخرة . ثم سار الشباب الاسلامى فى ركبه الميمون ، يؤم نوادى الفضيلة ، ويقوم فى وجه الرذيلة ، مترسما طريق مليكه فى الهَدْى والإصلاح . وقديما قيل : « الناس على دين ملوكهم » . فهذه جماعات الشبان المسلمين ، والإخوان المسلمين ، وشباب سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، ويتغلغل فى صفوف تلك الجماعات رجالات الأزهر من طلاب وعلماء ، ويؤازر هؤلاء وهؤلاء علماء الوعظ والإرشاد ، الذين نصبوا أنفسهم لإرشاد الأمة الى الطريق المستقيم بالقول النافع والموعظة الحسنة . هذا الذى أثار اهتمامى بهذا الموضوع الخطير ، وقوّى عزيمتى على طرْق بابه ، فأقول وبالله التوفيق :

ليس عند المنصفين من شك فى أن المسلمين أصبحوا مستضعفين مغلوبين على أمرهم فى مشارق الأرض ومغاربها !

وأنهم تفرقوا شيعا وأحزابا « كل حزب بما لديهم فرحون » .

وأن خاصتهم وبعض عامتهم تحللوا من تعاليم الإسلام ، وجعلوها قيودا رجعية ، رجعت بهم القهقرى ؛ بينما تقدم غيرهم ممن لم يأخذوا بهذه التعاليم ، كشعوب أوروبا وأمريكا وبعض شعوب الشرق الأقصى (اليابان) . ولا ريب فى أن هذا التحلل يعد تأخرا فى الدين !

وأن الغالبية العظمى من المسلمين تأخرت فى ميدان السباق العلمى الى كشف وسائل الراحة ، ووسائل الدفاع عن النفس ، على حين تم السبق لغيرهم فى هذا الميدان !

لا شك فى أن هذا كله قد حدث ، بل حدث ما هو أعظم من هذا كله ؛ وهو زعزعة عقائد الدين فى نفوس بعض المسلمين الذين فتنوا بعلوم « أوروبا » ومخترعاتها ، ولا سيما بعض من تخصص منهم فى أوروبا علميا ، أو نزح إليها للتروض أو للاستشفاء !

أقول هذا ، والأسى يملأ فؤادى ، والحزن يقطّع نياط قلبى ، والحسرة تملك علىّ كل جوانحى ؛ أسفاً على ما وصلت إليه حال المسلمين ، سواء فى هذا أمور الدنيا أو أمور الدين ! !

وإنى أتساءل : هل يرجع ذلك إلى طبيعة الإسلام ، أو إلى طبيعة المسلمين أنفسهم ، أو إلى شىء آخر غير ما ذكرنا ؟ ذلك ما أريد أن أبينه تحت هذا العنوان ، ثم أصف بعد ذلك العلاج الناجع والدواء الشافى ، عسى أن نتخلص من هذه الأوصاب الصعاب ، وما ذلك على الله بعزيز !

التأخر لا يصح أن يعزى إلى طبيعة الإسلام :

ذلك أن الإسلام دين الحضارة والمدنية الصحيحة « وابْتغِ فيما آتاك اللهُ الدارَ الآخرة ، ولا تنس نصيبَك من الدنيا ، وأحسنْ كما أحسنَ الله إليك ، ولا تَبْغِ الفسادَ فى الأرض ؛ إن الله لا يحب المفسدين » (١)

(١) الآية ٧٧ من سورة القصص .

دين العزة والكرامة ، والعمل لسعادتى الحياة الدنيا والآخرة « ولله العزةُ ولرسوله وللمؤمنين ، ولكنّ المنافقين لا يعلمون » (١) . « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسولُه والمؤمنون ، وستردُّون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون » (٢) .

دين العقيدة السليمة والإيمان القوى الموحِّد « قل إنما أنا بشر مثلكم يوحَى إلىّ أنما إلهكم إله واحد ، فمن كان يرجو لقاء ربه فليعملْ عملا صالحا ولا يشركْ بعبادة ربه أحدا » (٣) . « قل يأهل الكتاب تعالَوْا إلى كلمة سواءٍ بيننا وبينكم ألاّ نعبد إلا الله ، ولا نشركَ به شيئا ، ولا يتخذَ بعضُنا بعضاً أربابا من دون الله ، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنّا مسلمون » (٤) .

دين المثل الأعلى للاجتماع البشرى ، والأخوّة الإنسانية « يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، إن الله عليم خبير » (٥)

ولقد عاش الرسول صلى الله عليه وسلم منفقا عمره النفيس فى تبليغ هذا الدين الحق ، بين كرّ وفرّ ، وغزوات وسرايا ، ورسل وكتب إلى الملوك والقياصرة ، حتى حقق الله جل شأنه قوله فى كتابه العزيز « هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون » (٦) . « يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم ، والله متمّ نوره ولو كره الكافرون » (٧) .

ثم جاء بعده الخليفة الأول « أبو بكر الصديق » فتمّم البناء الذى شيده الرسول الأعظم ، وانصرفت كل همته إلى تأسيس هذا البناء وتدعيم أركانه ، وكانت شئون الحضارة وقتئذ ثانوية بالنسبة إلى تبليغ الدعوة الإسلامية .

ولما استتبّ الأمر فى عهد الخليفة الثانى « عمر بن الخطاب » شرع رضى الله عنه يسلك سبيل الحضارة الدنيوية ، فنظم ديوان الجند ، ووضع أساس البريد ،

---

(١) الآية ٨ من سورة المنافقون (٢) ١٠٥ من التوبة (٣) ١١١ من الكهف
(٤) ٦٤ من آل عمران (٥) ١٣ من الحجرات (٦) ٣٣ من التوبة
(٧) ٨ من الصف

واستجلب المنجنيق من بلاد الفرس واستعمله فى الحرب ، إلى غير هذه الاصلاحات التى حالت منيته العاجلة دون تحقيقها ، والتى هى من الإسلام فى اللباب والصميم !

ثم تتابع الخلفاء من الأمويين والعباسيين يقتفون أثر عمر ، ويتغلغلون فى حضارة الفرس والروم ، فترجموا الكتب ، وضربوا بسهم فى علوم الكون ، كالكيمياء والطبيعة والفلك ، حتى كان عصر الأندلس الأموى الإسلامى ، فازدهرت المعارف الإسلامية ، وترعرعت العلوم فى حضانة الإسلام ، بين دينية ، وأدبية ، ولغوية ، وصناعية ، وزراعية ، وهندسية ، وكيماوية ؛ وهى حضارة العرب فى الأندلس .

تلك الحضارة التى تسربت الى فرنسا ، ثم الى ألمانيا ، ثم الى انجلترا ، ثم الى سائر ممالك أوروبا .

تلك الحضارة التى كان من آثارها أن جعلت أوروبا بلاد الشرق كلها أسواقا تباع فيها منتجاتها المنوعة ، التى يتوقف عليها رقى العمران وتقدم الشعوب ، والتى جابت معها سموم الأخلاق والعقائد الدينية والوطنية ، فتسممت بها البيئات الشرقية ، وسرت تلك السموم فى النفوس ، وبخاصة المتعطشة منها الى الرقى ، وساعد على سرعة سريانها نفثات المستشرقين من دعاة الاستعمار وأبواق المدنية الكاذبة ؛ فزعموا ـ والزعم مطية الكذب ـ أن الإسلام دين التوحش ، لأنه يقطع يد السارق ؛ ودين الهمجية ، لأنه يبيح بيع الرقيق ؛ ودين التأخر والجمود ، لأنه لا يدعو الى الكشف والاختراع ؛ ودين يضاد الاجتماع ، لأنه يبيح تعدد الزوجات ، الى غير ذلك من الترهات التى زعموها مبادىء للإسلام . والله يشهد أن الإسلام من مزاعمهم براء ؛ لأن تلك الأحكام شرعت لحِكَم وأسرار إلهية ، لا تدرك إلا بالتأمل الدقيق والتفكر العميق .

وزادوا على ما ذكر أن نفثوا فى روع الناس ممن لم يتمكنوا من تعاليم دينهم أن السبب الوحيد فى تأخرهم فى الحضارة هو تمسكهم بالإسلام ، مستدلين على ذلك بتقدم أوروبا المسيحية ، وتأخر الشرق العربى الإسلامى ! !

يقولون هذا وأكثر من هذا بملء أفواههم ، وينعِقون به فى مجتمعاتهم ونواديهم ومدارسهم ، وينسَون أو يتناسون أن الاسلام هو الذى فتح عيون

أوروبا لمبادىء هذه الحضارة ، وأن علماء القوانين الوضعية والاجتماعية الحديثة فى أوروبا أخذوا من الاسلام لبابه ، واستخلصوا منه مقومات الحضارة وانتحلوها لأنفسهم ، وأخذوا يمنّون على الشرق بها ؛ وما دروا أنها بضاعتنا ردت إلينا ، ولكنها ردت إلينا ناقصة مشوهة ، لا تناسب الحياة الشرقية فى شىء ، كما شهد بذلك علماء القانون من الشرقيين !

الخلاصة ـ أن تأخر المسلمين فى مضمار الحضارة لا يرجع إلى طبيعة الدين الإسلامى لما ذكرناه .

فهل يرجع هذا الى طبيعة المسلمين أنفسهم ؟

الجواب بالسلب المؤكد : لأن طبيعة المسلمين فى العصور الأخيرة هى طبيعتهم بذاتها أيام بسطوا ظلهم على رقعة كبيرة من أديم الكرة الأرضية ، تمتد من أواسط آسيا شرقاً إلى ساحل المحيط الأطلنطى غربا ، ومن ساحل المحيط الهندى جنوبا إلى تخوم الروسيا والنمسا وإيطاليا وفرنسا شمالا (أنظر مصوّر الممالك الإسلامية) .

وقد نشروا فى هذه الأصقاع راية العدل ، وأزالوا عن أهلها كابوس الظلم ، وفتحوا لهم باب السعادة والحرية على مصراعيه ، وعاملوهم بما شرعه الإسلام من المساواة بين بنى الانسان : « لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى » ! .

وقد نعم الناس إذ ذاك بحياة سعيدة وعيش رغيد لم يعرفوهما من قبل ، ولذا دخلوا فى الاسلام أفواجاً ، واعتنقه الملايين فى الشرق والغرب ، رغبة فى مبادئه السامية ، وتعاليمه الراقية ، وعقائده الحقة . ثم سار جمعهم الضخم الفخم فى طريق المدنية الصحيحة على قدر طاقتهم البشرية من العلم والمعرفة ، ورائدُهم المصلحة العامة ، والعلم النافع ، والعدل الشامل ، حتى عزّ بهم الإسلام ، فكانت له الهيبة فى نفوس الجميع ! .

إذن ليس تأخر المسلمين الآن فى ميدان الحضارة من طبيعة أنفسهم وكيان ذاتهم ، ولا من طبيعة الإسلام كما سبق بيانه . بل هو ناشىء من عوامل خارجية وأسباب طارئة ، أحاطت بهم منذ منتصف عصر الخلفاء العباسيين إلى وقتنا هذا . وسأبين هذه الأسباب فى مقال تال ، إن شاء الله تعالى ؟ .

علوم القرآن

علم المنطوق والمفهوم

لفضيلة الأستاذ الشيخ حسن حسين
المدرس بالأزهر

أبحاث ودراسات فى « مفهوم المخالفة »

ذكرنا فيما تقدم أن الأئمة الثلاثة : مالكا ، والشافعى ، وأحمد ، يرون أن مفهوم المخالفة معتبر شرعا فى إثبات الأحكام ، على معنى أن يثبت به نقيض حكم المنطوق ؛ وذكرنا أدلتهم من القرآن الكريم ، ومناقشة الأحناف لهذه الأدلة : وبيّنا أن مفهوم المخالفة على رأى الأئمة يكون من علوم القرآن ما دام صالحاً لأن يكون أداة من أدوات الاجتهاد وإثبات الأحكام ، شأنه فى ذلك شأن مفهوم الموافقة ، والمنطوق بقسميه : صريح وغير صريح . أما السادة الأحناف الذين لا يرون أن مفهوم المخالفة تثبت به الأحكام ، فالظاهر عندهم أنه لا يعتبر من علوم القرآن ، لأن الأبحاث التى تدور حوله عندهم سلبية ، منصبة كلها على نفى أن يكون من أدوات الاجتهاد والتشريع ، ومعلوم أن العلوم ـ سواء كانت ملكات أو إدراكات أو قواعد ـ أمور إيجابية ، اللهم إلا إذا لحظنا أن إدراك السلب فرع إدراك الثبوت ، وأن معرفة الشىء منفيا فرع معرفته ثابتاً ، وعلى كل حال فهى علاقة بسيطة ، كما ترى ، لا تصلح أساساً لبيانه ، كعلم من العلوم .

وقد كان ينبغى لنا ألا نتعرض لمذهب الأحناف وأدلتهم ، حيث إن مذهبهم لا يساعدنا على بيان مفهوم المخالفة من ناحية أنه علم من العلوم (وهو بحثنا) ، غير أنهم لما تعرضوا لأدلة الإثبات بالمناقشة ، وتناولوها بالبحث والدرس ،

رأينا أن نعرض أدلتهم ، لنرى مبلغ قوتها ، ومبلغ ما جادلهم به الأئمة من ناحية ، ولأنهم أحد طرفى النزاع من ناحية أخرى . وقبل أن أذكر ذلك ، أرى لزاما أن أتعرض هنا لمسألة من أهم المسائل خطورة فى هذا المقام ، لأنها تمس مذهب الأئمة فى الصميم ، ولأنها كانت مزلقاً من المزالق التى انحدر فيها كثير من الناس ، بل ومن أولى العلم الذين ينتسبون للعلم ظاهراً ، واتبعوا فيها أهواءهم بغير علم ، فضلوا وأضلوا ؛ تلك المسألة الخطيرة هى مسألة « القيود » التى تنصب عليها الأحكام الواردة فى كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ؛ مثل قوله تعالى : « وربائبكم اللاتى فى حجوركم من نسائكم اللاتى دخلتم بهن » ، وقوله تعالى : « وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها » ؛ ومثل قوله صلى الله عليه وسلم : « أيما امرأة نكحت نفسها بغير إذن وليها فنكاحها باطل » ، وغير ذلك من القيود التى وردت فى آيات وأحاديث الأحكام ، وأهمها وأخطرها القيود الواردة فى آيات تحريم الربا « يأيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافا مضاعفة » ؛ فقد ذهبوا فيها مذاهب ، وفسروا هذه القيود الكريمة تفسيرات ، واتجهوا فى مفهومها المخالف اتجاهات ، يعلم الله والراسخون فى العلم مقدار ما فيها من بطلان وزيغ .

يأيها الناس ويا أشباه العلماء ! أتتصورون أن الأئمة رضوان الله عليهم الذين يرون العمل بمفهوم المخالفة لم يخطر ببالهم ما خطر ببالكم ، ولم يصل علمهم وإدراكهم إلى مثل ما وصل إليه علمكم وإدراككم ؟ كيف وهم الأئمة المجتهدون ، أصحاب المقامات العالية فى الأصول والفروع ، وأصحاب هذا الشأن وفرسان الميدان ؟! هل تظنون أن الأئمة حينما قرروا أن بعض القيود (خُرّج مخرج الغالب) رموا بهذا القرار جزافا ، ومن غير روية وتفكير ، ومن غير قاعدة أصولية مطردة ، مستندة إلى أوثق المصادر ، متمشية مع روح القرآن والسنة ؟ .

الله الذى جعلهم أئمة الهدى يعلم أنهم على حق ، وإنهم لصادقون ، والله يشهد إنكم فيما ذهبتم إليه من تحليل ما حرم الله ، وتحريم ما أحل ، لكاذبون !

ولعلك أيها القارىء الكريم تتصور أن فى هذه المسألة شيئاً من الغموض والإبهام ، فسأوضحها لك بكل جلاء .

إن هؤلاء الناس يقولون : إن الأئمة الثلاثة قرروا أن مفهوم المخالفة تثبت به الأحكام ، والمراد بالأحكام الأحكام المناقضة لأحكام المنطوق ؛ والمراد بثبوتها العمل بها فى محال السكوت ؛ وعلى ذلك فقوله تعالى «وربائبكم اللاتى فى حجوركم» أثبتت بمنطوقها الصريح تحريم نكاح الربيبة بقيد أن تكون فى حجر الزوج وكنفه وتحت رعايته ، لأن قوله « وربائبكم » معطوف على قوله «أمهاتكم» الواقع نائب فاعل لقوله « حرمت » فيكون النظم حرمت عليكم أمهاتكم وربائبكم اللاتى فى حجوركم ؛ وأثبتت بمفهوم المخالفة — طبقا للقول بالعمل به — نقيض هذا الحكم فى محل السكوت ؛ فتكون الربيبة غير محرمة إذا لم تكن فى حجر الزوج .

وقالوا فى قوله تعالى « وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها » إنها تدل بمنطوقها الصريح على أن الخلع جائز مع الشقاق ، وبمفهومها المخالف على عدم جوازه عند عدم الشقاق .

وقالوا فى قوله تعالى « ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق » إنها تدل بمنطوقها الصريح على تحريم قتل الأولاد عند خشية الفقر ، وبمفهومها المخالف على جواز ذلك عند عدم خشية الفقر . وهكذا قالو فى آية الربا وغيرها ، واستمروا فى تطبيق قاعدة العمل بمفهوم المخالفة بدون استناد ولا علم بالقواعد التى قررها أصحاب القول بمفهوم المخالفة . مع أن الأئمة رضوان الله عليهم احتاطوا لهذا الأمر أشد الحيطة ، وحذروا من الأخذ بمفهوم المخالفة على إطلاقه أشد التحذير ، خشية أن يندفع بعض الناس وراء أهوائهم بغير علم . وما كان لهم إلا أن يحتاطوا وأن يحذروا فالأمر جد خطير . أرأيت معى مقدار ما لهذه المسألة من الخطورة ؟ لذلك سنفرد لها مقالا خاصا نشرح فيه قاعدة « الحيطة والتحذير » ونعرض لتفسير الآيات المتقدمة ، فأن هذا مما يمس بحثنا أشد المساس ، فضلا عن خطورته الدينية والاجتماعية .

ومما يتصل بهذا الموضوع اتصالا وثيقا ، وينهض كشبهة من شبه هذا الفريق ، أن الأساليب العربية وأقوال علماء اللغة متضافرة على أن الحكم إذا ورد على مقيد بقيد كان القيد هو المقصود بالحكم ؛ فإذا قلت : قدم الفارس مسرعا ، فأنت لا تريد أن تفيد المخاطب أن الفارس قدم ، وإنما تريد أن تخبره

بأنه قدم مسرعا ، وإلا لكان القيد عبثا ولغوا ، ولما كان هناك فرق بين أن تقول : قدم الفارس ، وقدم الفارس مسرعا . وكذلك إذا قلت : رأيت الأمير يصلى فى الأزهر ، فأنت لم ترد أن تخبر بأنك رأيت الأمير ؛ وإلا لكفاك أن تقول : رأيت الأمير ، وإنما أردت أن تخبر بأنك رأيته حال كونه يصلى فى الأزهر ، وإلا لا نعدم الفرق بين التعبيرين . وإذا تركنا هذا الأسلوب المعتاد جانبا واتجهنا نحو الأدب الرفيع والأساليب الراقية لوجدنا فيها الشىء الكثير .

انظر الى قول عنترة :

ولقد خشيت بأن أموت ولم تدر ... للحرب دائرة على ابنى ضمضم
الشاتمى عرضى ولم أشتمهما ... والناذرين إذا لم ألقهما دمى

فهو لا يريد أن يخبر بأنه يخشى الموت ، وإنما أراد أن يخبر بأنه يخشى الموت قبل أن يقتل ابنى ضمضم ، وانظر إلى قول النابغة الجعدى فى قصيدته المشهورة التى مدح فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم :

أتيت رسول الله إذ جاء بالهدى ... ويتلو كتابا كالمجرّة نيّرا
أقيم على التقوى وأرضى بفعلها ... وكنت من النار المخوفة أحذرا

فهو لا يريد أن يخبر بأنه أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وتشرف بصحبته فحسب ، وإنما أراد أن يخبر بأنه جاء وقت أن جاء بالهدى والكتاب المنير ليقيم على التقوى الخ . وانظر إلى قوله فى نفس القصيدة :

ألم تريا أن الملامة نفعها ... قليل إذا ما الشىء ولى وأدبرا

فهو لا يريد أن يحمل المخاطبين على الاعتراف بأن نفع الملامة قليل — مطلقا — وإنما فى وقت أن يكون الشىء الذى أوجبها قد ولى وأدبر .

وانظر إلى قوله فيها :

ولا خير فى حلم إذا لم تكن له ... بوادر تحمى صفوه أن يكدرا

فهو لا يريد بالبداهة نفى الخير عن الحلم على إطلاقه ، ولكن إذا لم تكن له بوادر الخ . قالوا والقرآن الكريم جاء على أوضح منهج وأبلغ أسلوب ، وأنه تحدى بأسلوبه وإعجازه العرب أصحاب هذه الأساليب الرفيعة .

فلماذا لا يكون أسلوب القرآن فى آيات الأحكام على نمط أساليب العرب فى كلامهم وأحكامهم ؟ قلت :

أما أنه يكونُ أو لا يكون كذلك ، وأما أنكم فهمتم كلام الأئمة فى أصول فقههم أم لم تفهموه ، فموعدنا فى المسألتين المقال الآتى إن شاء الله ، **والله الموفق** ؟

الدنيـــــا

قال النبى صلى الله عليه وسلم : « من كانت الدنيا همه ، طال فى الآخرة غمه ؛ ومن خاف الوعيد ، لها عما يريد ؛ ومن خاف ما بين يديه ، ضاق ذرعا بما فى يده » .

نقول : المراد من تجرد للدنيا دون عمل للآخرة .

وقال أبو الحسين الوراق .

يا غافلا ترنو بعينى راقد ... ومشاهدا للأمر غير مشاهد
تصل الذنوب إلى الذنوب وترتجى ... درك الجنان بها وفوز العابد
ونسيت أن الله أخرج آدما ... منها إلى الدنيا بذنب واحد !

وقال نابغة بنى شيبان :

إن من يركب الفواحشَ سرا ... حين يخلو بسره غير خال
كيف يخلو وعنده كاتباه ... شاهداه وربه ذو الجلال !

فتوى شرعيـة :

فى حكم تعاطى الدخان والاتجار فيه

من دار إفتاء الديار المصرية

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ حسنين محمد مخلوف
مفتى الديار المصرية

تفضل حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ حسنين محمد مخلوف مفتى الديار المصرية فبعث إلينا بهذه الفتوى ، ونحن نبادر بنشرها لأن موضوعها يهم طائفة كبيرة من المسلمين ، فنرجو لفضيلته دوام الإفادة والتوفيق .

سأل موسى احمد المنسى قال :

نرجو الإفادة عن حكم الله فى تجارة الدخان ، وعما يتبع ذلك من الكسب الناتج عن هذه التجارة ، حيث إن الحاجة ماسة جداً الى معرفة ذلك .

الجواب :

الحمد لله وحده ، والصلاة والسلام على من لا نبى بعده .

اطلعنا على هذا السؤال المؤرخ فى الثانى من شهر ديسمبر سنة ١٩٤٧ والمتضمن الاستفتاء عن حكم الشريعة الغراء فى تجارة الدخان والكسب الناتج منها ؛ ونقـول :

اعلم أن حكم تعاطى الدخان حكم اجتهادى . وقد اختلفت فيه آراء الفقهاء . والحق عندنا كما فى رد المحتار : أنه الإباحة ، وقد أفتى بحله من يعتمد عليه من أئمة المذاهب الأربعة ، كما نقله العلامة الأجهورى المالكى فى رسالته . وقال

العلامة عبد الغنى النابلسى فى رسالته التى ألفها فى حله : إنه لم يقم دليل شرعى على حرمته أو كراهته ، ولم يثبت إسكاره أو تفتيره أو إضراره بعامة الشاربين حتى يكون حراما أو مكروها تحريما : فيدخل فى قاعدة : الأصل فى الأشياء الإباحة . بل قد ثبت خلاف ذلك . وفى الأشباه عند الكلام على قاعدة : الأصل فى الأشياء الإباحة أو التوقف : أن أثر ذلك يظهر فيما أشكل أمره ومنه الدخان . وفى رد المحتار أن فى إدخاله تحت هذه القاعدة إشارة الى عدم تسليم إسكاره وتفتيره وإضراره كما قيل ، والى أن حكمه دائر بين الإباحة والتوقف ؛ والمختار الأول ، لأن الراجح عند جمهور الحنفية والشافعية كما فى التحرير ، أن الأصل الاباحة ؛ إلا أنه كما قال العلامة الطحاوى يكره تعاطيه كراهة التحريم لعارض ، ككونه فى المسجد للنهى الوارد فى الثوم والبصل وهو ملحق بهما ، وكونه حال القراءة لما فيه من الاخلال بتعظيم كتاب الله تعالى اه موضحا . وأشار بالنهى المذكور الى ما فى صحيح البخارى عن ابن عمر رضى الله عنهما أن النبى صلى الله عليه وسلم قال فى غزوة خيبر: « من أكل من هذه الشجرة ـ يعنى الثوم ـ فلا يقربن مسجدنا » . وعن جابر بن عبد الله أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « من أكل ثوما أو بصلا فليعتزل مسجدنا وليقعد فى بيته » اه . والعلة فى النهى كراهة الرائحة وإيذاء المسلمين بها فى المساجد . ولا شك أن للدخان أيضا رائحة مستكرهة عند من لا يستعمله ، فيكره تعاطيه فى المسجد للعلة المذكورة ، كما يكره لأجلها غشيان المساجد لمن أكل الثوم والبصل ونحوهما من المأكولات ذات الرائحة الكريهة التى تبدو بالتنفس والجشاء ما دامت فى المعدة . ويكره تعاطيه أثناء القراءة لكل من التالى والسامع لتحقيق العلة المذكورة فيهما . والكراهة لعارض لا تنافى حكم الاباحة فى عامة الأحوال . وقول العمادى بكراهة استعمال الدخان محمول كما ذكره أبو السعود على الكراهة التنزيهية . وقول الغزى الشافعى بحرمته قد ضعفه الشافعية أنفسهم ، ومذهبهم أنه مكروه كراهة تنزيه إلا لعارض ؛ والكراهة التنزيهية تجامع الإباحة . ومن ذلك يعلم أن الاتجار فيه اتجار فى مباح على الراجح ، وأن الربح الناتج عنه حلال طيب . والله أعلم ؟

تيارات الالحاد

لفضيلة الأستاذ الشيخ إبراهيم على أبو الخشب
المدرس بمعهد القاهرة

لم يعرف فى تاريخ البشرية دين سماوى كتب له البقاء والتغلب على عوامل الهدم التى حاولت تقويض دعائمه، والإتيان على بنائه من القواعد، كما عرف عن الإسلام. فإن محمدا صلى الله عليه وسلم حين أعلن كلمته، وحمل رسالته، ودوّى صوته بها فى أنحاء الجزيرة، كان ذلك منه بمثابة الصاعقة على قريش، وبدا منها ما بدا من كل دعوى لا تدل فى الحقيقة إلا على الحسد والبغضاء على أن يكون هذا الأمر ليتيم فقير، وكان أجدر به أن ينزل وحيه « على رجل من القريتين عظيم » . والمتتبع لمعارضتهم له، وخروجهم عليه، وتكتلهم لمناوءته، يستطيع أن يرجع هذه الحرب التى أثاروا غبارها، وأطاروا شررها، إلى هذا المعنى وكفى. أما التكذيب ودعوى أن القرآن أساطير الأولين، أو له شبه بالشعر والسحر وما شاكل ذلك من مهاترات المغلوب على أمره، فأحاديث إذا خلوا إلى أنفسهم لا يعترفون بها، ولا يذعنون لها. ولم يكن من المعقول أن يتلقى كفار مكة هذا الحدث الجديد بالقبول والارتياح، لأنه يقضى على المطامع والشهوات، ويتعفّى على الفوارق بين الأفراد، ويندد باستبداد الرؤساء وظلم الحكام، ويجعل بنى آدم كأسنان المشط لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى. ولا شك أن أحبار اليهود، ورهبان النصارى، ومن إلى هؤلاء وهؤلاء ممن يتكسبون بالأديان، ويرزقون باسم الكتب المنزلة لا تطيب نفوسهم بتلك القلاقل التى تضفى على كبريائهم الحجب، وتسدل على عنجهيتهم « ذيل مرط مرحل » . وقد أسلم من هذه الحشرات من أسلم، وتزيوا بأزياء المؤمنين المخلصين لا للدين ولكن للكيد والهدم، وتفريق الصفوف وإضعاف القوى، وتشتيت الكلمة، وإشعال نار الفتنة، والأحاديث الموضوعة

والإسرائيليات المدسوسة فى كتب التفسير ، والجدل الصاخب فى عصور مختلفة للتافه اليسير من الأشياء ، كخلق القرآن ، وحقيقة الجن والملائكة ، والجلوس على العرش ، وأفعال العباد ، وغير هذا .

وهذا بعض آثار هذا « الطابور الخامس » فى الإسلام . وإذا كان الشر يأتى بالخير ـ فى بعض الأحايين ـ فان هذا كله كان شحذا للأذهان ، وإذكاء للقرائح ، وإنارة للبصائر « ليهلِك من هلَك عن بيّنة ويحيا من حيّ عن بينة » . وهو بالتالى يعلن لمن فى الأرض جميعا أن هذا الدين لا يؤخذ بالتقليد ، ولا ينتقل بالوراثة ، أو يرضى بالحيرة والاضطراب ، وأن دستور أهله الدرس والفهم أولاً ، ثم يكون بعد ذلك الإيمان والعمل الصالح . وفى يقينى أن تدين سواد غير قليل من شبابنا « تدينٌ جغرافى » يعتمد على التقليد والوراثة أكثر مما يعتمد على الفهم والنظر ؛ لذلك نجد عدوى الإلحاد أسرع تفشيا فيهم ، وانحدارا إليهم . وربما تقبلوها بدعوى التجديد والمدنية .

والتجديد والمدنية ــ فى مصر ــ من السموم الفتاكة التى يجب مطاردتها والقضاء عليها ؛ لأنها كالسلاح الذى يوضع فى يد الصبى رجاء أن يتلهى به ، فإذا هو يصيب مقاتله ، ويمزق مفاصله ، ويتركه بعد ذلك أشلاء متناثرة . ومن الأسف أن الجيل الحاضر ليس عنده من الحصانة أو المناعة ما يحول بينه وبين التردى فى هذه المهاوى ، والانزلاق فى تلك المنحدرات . وكلمة « حرية الفكر » من الكلمات التى روج لها فريق من المتأدبين بالحق والباطل ، دون أن يعدوا لها البيئة التى تناسبها من الثقافة والعلم ، وحملها من حملها من أنصاف الجهلاء أو أنصاف العلماء ، وملؤا بها الأندية والمحافل ، ثم ملؤا بها الكتب والمجلات والعقول والألباب . والمخجل المؤلم أن بيئاتنا العلمية قد صارت مرعى خصيباً لهذه الجراثيم ؛ إما لقلة المحصول الكافى من التعليم الدينى الذى يدرءون به عن أنفسهم هذه الشبهات ، أو لانعدامه كل الانعدام . وهو ما يندى له الجبين ، ويذوب من أجله القلب حسرات . وزاد ذلك وساعد عليه أن الأحداث والثورات التى أصبحت تتمثل فصولها بين جدران هذه البيئات صرفت التلميذ والأستاذ عن إكمال النقص ،

ورأب الصدع ، وأصبح انتقال الطالب من مرحلة إلى مرحلة ، بمضى المدة لا أكثر ولا أقل . يضاف إلى هذا فتح الباب على مصراعيه للمبشرين الواغلين علينا باسم المدارس والمستشفيات ، فى حين أن لهم من ماضيهم بيننا ، وطول إقامتهم معنا ، ما يجعلنا نحكى فيهم قول الله تعالى : « قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر » .

والخصومة فى المبادئ ، والخلاف فى الآراء ، أحقر أساليب الإقناع فيها أن تقول « هذا حلال وهذا حرام » أو تحيل المعاند المنكر على آية محكمة ولا أحسب أن ذلك يغض من شأن كتاب « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه » ، إنما هو الجرى على السنن الذى يجرى عليه الخصم ، واللجوء الى خطة لا ينكرها ، وسبيل يقول فيها « قل هذه سبيلى » . على أن من الحصافة أن تكون الحرب بمثل عدة العدو وسلاحه .

وكتب الغزوات والفتوح تحدثنا أن العرب لم يتعلموا المنطق فى الصيال والنزال إلا حين رأوا الفرس يتخذون منه هيلهم وهيلمانهم .

ونحن نرى دعوى العلم ، ودراسة الفلسفات الحديثة ، والنظريات الجديدة التى تعرض على بساط البحث فى أوربا ، تجرى على ألسنة أولئك الهدامين الملحدين . أفما كان من الحزم أن تنقطع منا « جماعة » للاشتغال بذلك حتى لا نقف مكتوفين إذا قيل لنا « كيف وكيف » لعالم معاصر ، أو فيلسوف قديم ؟ ! وما أظن الآية « فلولا نفرَ من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون » كانت ترمى الى الفقه الأكبر والأصغر فقط . على أن الوسيلة — كما يقولون — تشرف بشرف الغاية « قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ؟ إنما يتذكر أولو الألباب » ! .

التعريف بالعالم الإسلامى :

إمارة الكويت الإسلامية

لفضيلة الأستاذ أحمد الشرباصى المدرس بالأزهر

تمهيد :

لقد أجمعت الأمم العربية والإسلامية على الجهاد الصادق والكفاح الدائب ، حتى يتحقق لها غرضان جليلان ، فيهما تمام النصر وعز الدهر ؛ وهما الحرية والاتحاد ؛ وإنما تتحقق الحرية بالقوة ، وإنما تتحقق القوة بالاتحاد ؛ لأن الاجتماع عصمة وسداد ، والتفرق ذلة وضعف . ولن يكمل الاتحاد إلا إذا تعارفنا نحن الأمم العربية الإسلامية ، حكومات وشعوباً وأفراداً ، ولن نتعارف كما ينبغى إلا إذا درس كل عربى أجزاء وطنه الأكبر ، فلا يقتصر العربى منا على شئون وطنه الصغير الذى ولد فيه ؛ وهذا ما حدا بى إلى محاولة التعريف بما أستطيع من أقطار العروبة والإسلام ، وهأنذا أبدأ اليوم بإمارة الكويت .

ما هى الكويت ؟ :

الكويت إمارة عربية إسلامية ، تقع على ساحل الخليج الفارسى بين البصرة ونجد ، وتمتد على ساحل الخليج شرقاً وغرباً ، وهى واقعة على آكام قليلة الارتفاع ، وفى بطون أودية لها منظر بديع ، ولا سيما منظرها من جهة البحر ، وهى طيبة الهواء معتدلة المناخ ، ونسيمها لطيف فى الشتاء والصيف ، وقلما تخلو ليالى صيفها من نسيم عليل يكسب الجسم نشاطاً ، ويسمى « الغربى » . وعاصمة الإمارة هى مدينة « الكويت » ، وتقع على خليج صغير يتفرع من الخليج الفارسى ، ويبلغ طولها نحو ثلاثة أميال ونصف ، ويبلغ عرضها نحو ميلين ، وهى ميناء طبيعى ، وينتشر حولها جملة من القرى ، ويبلغ تعدادها نحو مائة وخمسين ألفاً من السكان ، وكان بها قديماً نفر قليل من اليهود الدخلاء ،

ولكنهم لم يسنطيعوا مزاحمة الوطنيين فى أعمالهم ، فنزحوا عن الكويت حتى لم يبق فيها يهودى واحد ؛ والله المسئول أن يتدارك فلسطين الشهيدة ، كبد الإسلام الطعين ، وجرح العروبة الدامى ، كما تدارك الكويت من قبل ، فيقضى على ذلك السرطان العالمى الخبيث الذى يسمى « اليهود » بالفرقة والشتات بعيداً عن أولى القبلتين ، وثالث الحرمين ، ومسرى الرسول ، وملتقى الأنبياء ، حتى يَسلم الوطن العربى لأهله وذويه !.

وقد أنشئت إمارة الكويت منذ مائتى سنة تقريباً ، أنشأتها أسرة آل الصباح وهم ينتسبون إلى قبيلة « عنزة » من كبريات القبائل العربية ، وكانوا قديماً يقيمون بين أهليهم فى نجد ، ثم حدث بينهم وبين بنى عم لهم من بطن « جُميِّلة » من عنزة قتال ونزاع أدى إلى خروج آل الصباح من وطنهم إلى موضع الكويت الحالى بعد عدة تنقلات ، فشيدوا تلك البلدة التى حسدهم عليها القريب والبعيد ، وكان ذلك فى سنة ١٠٨٣ هـ أو ١٠٢٥ أو ١٠٢٢ أو ١١٠٠ ، فهناك خلاف كثير فى تحديد ذلك ، والتوفيق بين هذه التواريخ يسير ، فقد يكون البدء فى البناء حدث فى أسبقها ، ثم تتابع إتمام أجزائها فى التواريخ الأخرى المتتالية !.

معنى كلمة « كويت » :

شيدوها وسموها « الكويت » فما معنى كلمة « كويت » هذه ؟ . إن أصل الكلمة ليس بعربى ، لأنها تصغير « كوت » . قالوا : وكوت هذه كلمة مشهورة معروفة فى العراق ونجد ، وما جاورهما من البلاد العربية ، وقد شاع استعمالها على الألسنة ، حتى إنهم صرفوها تصريف الكلمة العربية الأصلية ، فصغروها وجمعوها ، فقالوا : كويت وأكوات ؛ وبالمصغر سميت مدينة « الكويت » الواقعة على ضفاف البحر الفارسى أو خليج البصرة ، وهذه الكلمة قد توارثها العراقيون عن آبائهم البابليين والكلدانيين ، ووردت فى « سفر الملوك من التوراة » . وهى تطلق عندهم على البيت المربع المبنى كالحصن والقلعة وغيرهما مما يبنى لحاجة ، ويبنى حوله بيوت صغيرة حقيرة بالنسبة إليه ، ويكون ذلك البيت فرضة للسفن والبواخر ، ترسو عنده لتكمل منه ما ينقصها من الفحم والزاد وما أشبه ذلك من حاجات السفر ، ولا تطلق هذه الكلمة إلا على ما يبنى قريبا من الماء ، سواء

أكان من ماء البحر أم من ماء النهر . وقد يطلق لفظ « الكويت » على النهر الصغير أيضا . وتسمى به الآن جملة من القرى فى العراق توسعا . ولعلها كانت فى أول أمرها أكواتا صغيرة ، ثم تقاطر الناس إليها وعمروها فاتسعت ، وبقيت على اسمها الأول[1] .

ثم يذكرون فى سبب تسمية الإمارة الكويتية بذلك الاسم أنها سميت باسم حصن صغير كان موجودا فيها ، بناه ابن عريعر زعيم بنى خالد ، وأقام فيه أحد عبيده ، واتخذه مستودعا للميرة والذخيرة ، فإذا أراد الغزو شمالا ، أو المرعى قريبا من ذلك الحصن ، تزود بما يريد منه ؛ فلما هبط آل الصباح فى هذه البقعة وهبه لهم ، فكانوا أول من شاد فيها البيوت الحجرية ، وتولوا حكمها منذ تأسيسها إلى اليوم ! . .

مدينة الكويت :

وفى مدينة الكويت أحياء كثيرة ، منها حى « الوسط » ، وهو حى يقع فى وسط المدينة ، وفيه بيت الإمارة ، وقصور آل الصباح ، وفيه السوق والصفاة وهى أرض واسعة اتخذت مناخا للأعراب الذين ينزلون الكويت من أجل التجارة ، إذ يعرضون سلعهم وبضائعهم فى سوقها ، من إبل وغنم ، وصوف ودهن وجلود ، وفيها يكثر الزحام ويشتد ، حتى ليعسر التخلص للبصير بَلْهَ الأعمى . وإلى هذا يشير شاعر الكويت الشيخ صقر بن سالم فيقول :

ما فى الصفاة لذى عمى مثلى أمور تحمد
كم مرة قد ضمنى فيها زحام أنكد
كادت به عن جثتى نفسى العزيزة تفقد !

وفى مدينة « الكويت » مساجد كثيرة ، تزيد على الخمسين مسجدا ، والظاهرة الجميلة فى أمر هذه المساجد أن أكثرها قد بناه الأفراد بأنفسهم ، دون معونة الحاكمين أو الرؤساء الرسميين ، ولذلك يسمى المسجد فى الغالب باسم بانيه ، ومن بين هذه المساجد مسجد يعقوب ، أسسه زعيم عائلة يعقوب ، ثم نالته أيدى الزمان بالهدم والتخريب ، فأصلحه الحاج حمد الخالد سنة

(١) انظر مادة « كوت » فى دائرة معارف القرن العشرين للعلامة وجدى بك .

١٣٤٢ هـ إصلاحا واسعا نقله عن حالته الأولى ، ولهذه المناسبة يقول الشيخ يوسف بن عيسى القناعى فى مدح آل خالد :

لو قيل من هم فى الكويت أولو المكارم ، والمحامد
الطيبون ، المحسنون على المدارس ، والمساجد
الراحمون الثابتون على المبادئ ، والمقاصد
لأجبتهم : هذى الخلال تجمعت فى آل خالد !

ويحيط بمدينة الكويت سور كبير مما يجعلها شبيهة بمدن القرون الوسطى ، وقد بنى ذلك السورَ أولا الشيخ عبد الله بن صباح الأول (المتوفى سنة ١٢٢٩ هـ) ثم جدد هذا السور فى رمضان سنة ١٣٣٨ فى عهد الأمير الشيخ سالم بن مبارك ، وهو من أسباب انتظام الأمن فى المدينة ، وإخضاعها لأوضاع السكينة والهدوء ! .

وفى الكويت بضعة جزر جميلة ، منها « الجزيرة الصغيرة » التى يتخذها بعض الكويتيين منتجعا لهم فى ليالى الصيف ، يتمتعون بهوائها الطلق وجوها البديع ، ويزورها كثير من الشعراء والأدباء ، ولهم حولها مساجلات أدبية لطيفة ، بعضهم يتعصب لها ، ويتغنى بها ، والبعض الآخر يعارض ويعاند ، فينسب إليها سيئات وهنات ، ورحم الله الشعراء وغفر لهم ، « ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون » ؟ . ومن تلك المساجلات أن الأستاذ الشيخ عبد العزيز الرشيد مؤلف « تاريخ الكويت » كان قد أقام بها أياما مع فريق من زملائه وإخوانه فبعث الى أستاذه الفاضل المرحوم الشيخ عبد الله خلف ، بهذه الأبيات يمدح فيها تلك الجزيرة :

رحلنا الى أرض الجزيرة ، علنا ... نزيل هموماً بالفؤاد استقلت
فنلنا بحمد الله ما فيه أنسنا ... ولو نالنا فى ذاك بعض المشقة
فأعظم ما يدنى الى القلب أنسه ... مناظر يعزى حسنها للطبيعة
كمنظرنا للبحر ، والبحر هادئ ... ومنظره والموج يبدو كهضبة
وما فيه من سفن تمر كأنها ... طيور ببحر الجو تجرى بسرعة
ومنظرنا تلك الحضور وأهلها ... وقد حملوا الأسماك منها بجلة

فأجاب الأستاذ على ذلك بقوله :

على هاجرى الأوطان يبغون دونها ... وجـل مناهم فى سباخ الجزيرة
مناظرها تعزى إلى ضد وصفها ... فـلا حسن فيها لرب البصيرة
أعشاق سبخاها ، وحلال ربعها ... بسوء منـاخ فى أراض صغيرة
لئن طاب منها الليل ، فالويل فى الضحى ... إذا اتقدت رمضاؤها فى الظهيرة
أيدفع بالأخصاص حر شموسها ... ومن قصب بالٍ بناء الحظيرة ؟ !

وترى بعضهم يفضِّل هذه الجزيرة على مصيف لبنان ؛ فاستمع إلى الشيخ عبد المحسن أبى بطين إذ يقول فيها من قصيدة له :

ياليتنى أحظى بها لو ساعة ... فأنال فيها الأنس والأفراحا
فلها عدا حسن الهواء فضيلة ... مرأى عجيب يذهب الأتراحا
ولها على لبنان فضل واضح ... فسلوا ملوك الأرض والسياحا

ويلوح لى أنها العصبية الجميلة المحبوبة للأوطان ؛ ومن ذا الذى لا يعتقد أن وطنه خير البلاد وأجمل الأوطان ؟ . ورحم الله شوقى إذ يقول :

وطنى لو شغلت بالخلد عنه ... نازعتنى إليه فى الخلد نفسى !

ومن مشكلات الكويت أن الماء العذب فيها قليل نادر ، ومع ذلك تغلب أهلوها على تلك المشكلة ، فهم يجلبون الماء من شط العرب بوساطة السفن ، وبعضهم يستفيد من الأمطار ، ويخزنون ماءها لاستعمالها بعضا من الوقت ، وبذلك استطاعوا أن ينشئوا من إمارتهم روضة غناء خلال صحراء جرداء ، والكويت تجمع بين الحسنيين ؛ فهى بوقوعها على الخليج الفارسى تمتاز بميزة الثغور والموانىء ، التى يتمتع فيها الناس بمناظر المياه وصيد الأسماك ، وركوب السفن والزوارق ، وغير ذلك من المتع التى تهيئها مجاورة البحار والأنهار ؛ وهى فوق ذلك قطعة كريمة أصيلة من الجزيرة العربية التى عرفت فى تاريخها القديم والحديث بما يقدمها ويفضلها على غيرها ، فهناك مناظر الطبيعة ، وجلال الصحراء ، وروعة الفضاء ، وجلوة السماء ؛ ولذلك كانت الجزيرة منذ القدم مبعثا ومستراداً لأكرم الدعوات ، وأفضل الشرائع ، وأسمى الأخلاق ! !

نور الله على الجبال

Cameos: God's Light on the Mountains by: Mary Corelli.

مترجمة بقلم الأستاذ عمر طلعت زهران
بإدارة المعاهد الدينية

وقال الله : « ليكن النور ، فكان »

« نورٌ على نورٍ . يَهدِى اللهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشاء » .

ارتفعت السحب الواحدة إثر الأخرى ، وانقشعت حجب الضباب الكثيفة ببطء ، ومن ثَم بدت للعيان الجبال الشامخة ، ومن ورائها السماء الأثيرية الباهتة الزرقة . وكان الثلج الدائم جاثما فى بياضه فوق قلل الجبال التى تراءت من الأفق البعيد . وظهر خيط من النور الذهبى ، بدا فأنار سفوحها تجاه الشرق ، وتحت هذا الخيط المترفق الدافىء أخذ الثلج يذوب ، بينما تفتحت زهور البنفسج عن أكمامها .

وبدا شبح رجلين يتقدمان تجاه النور المشرق فوق الجبل ، وكانا مجهدين من ارتقائهما الشاق لهذا الجبل الأشم ، وقد ظهر النور لأعينهما من بعيد ، فلما بلغاه وقفا فى دائرته سويا . كانا أخوين فى العمل والعقيدة ، ولكنهما إذ خطوا الى هذا المجد الذهبى ، تقطبت جبهتاهما غضبا وحسدا .

وقال أحدهما يحدث زميله : « ماذا وقوفك هنا ياهذا ؟ إن هذا النور لى » .

فرد عليه الآخر : « صه أيها الأحمق ! إنك كذاب أشر ! إن النور نورى » .

ثم زاد تقطيبهما واشتد غضبهما ، ونسيا إذ ذاك أخوتهما ، واشتبكا يتقاتلان ؛ يتقاتلان فى غضب أعمى جموح : يتقاتلان على هذا النور العجيب الذى لم يكن نور

أحدهما ؛ وتقاتلا حتى وجفت زهيرات البنفسج على بساط الخضرة ، وانثنت كأنما قد ماتت ، وقد غمرها سيل الدماء الذى أريق .

وفجأة سقط بينهما ظل ؛ وكان اسم هذا الظل هو الموت . فانفلت كل منهما من قبضة الآخر وهو يرتجف ، ورفع يديه يغطى عينيه ، ثم ذهبا مسرعين ، وذهب الظل معهما . وشربت الأرض الرطبة الداكنة دماءهما ، وتفتحت زهور البنفسج من جديد ؛ وظل نور الله يشرق فوق الجبال .

وتلاهما امرأتان دخلتا دائرة النور . كانتا ملكتين عظيمتين ، تتوج رأسيهما تيجان الماس والزبرجد ، ويثقلهما حمل الذهب والجواهر ، وكانتا تجرجران مخلوقاً ضعيفاً متداعياً يبدو كالطفل وإن كان له جناحان . كان شيئاً يكاد يموت ، دائم البكاء ، عالى الصراخ ، يتعثر فى مشيته . وحين وصلت المرأتان الى النور وقفتا بغتة ثم تواجهتا :

وقالت إحداهما للأخرى : « دعى قبضتك عن الحب ، لأنا وقد وصلنا إلى النهاية : لأقسم بعبقرى جمالى فى هذا النور ، إن النور والحب لى ! »

فأجابتها الأخرى : « أيتها الخائنة التعسة ! أوَ تتحدثين عن الجمال أمامى ! ألستُ سيدة العالم ، الحب خادمى والنور ميراثى ؟ لا ، لا ، لا تجادلى ، فالنور والحب إنما هما لى ! » .

ثم سقط بينهما الظل ، فاصفرّت الملكتان المتنافستان وشفّتا ، ثم ذابتا كالأشباح الواهنة فى الظلمة الداكنة . وبقى الطفل المجنح وحيداً يبكى ؛ وظل نور الله يشع برفق فوق الجبال .

وتقدم نحو الضوء عابر سبيل ، وحيداً ، عارى الرأس ، ورفع عينيه نحو السماء ثم سكن فنظر وابتسم . كانت ساقاه متعبتين ، وبدت يداه خشنتين من عمل قاس لا يؤتى ثمرة تعبه ، وعلى الرغم من صفرة وجهه ونحافته فقد كان جميلا .

ثم انفرجت شفتاه عن آهة عميقة .

وقال : « هذا هو النور ، لك الحمد يارب ! »

واقترب منه الحب المجنح الذى كان يبكى وحيدا وقبّل قدميه ، وسأله وهو يكفكف دمعه : « من أنت ؟ حدثنى بالله من أنت الذى أجهدت نفسك لتجد النور ثم لم تنبس شفتاك كلمة سوء ، بل سلام وثناء ؟ » .

فابتسم الغريب وأجاب :

« أنا أعرف بالوحيد المحقر ، لا أملك فى العالم كله شيئا ، حتى ولا إقبال الناس على ودعاءهم لى . بحثت عن النور حتى وجدته ، ومن ثم فإنى أحمد معطى النور الذى أجاب سؤلى . إنى أحمل اسماً يكرهه الناس غالباً ، واسمى هو الصدق » .

ثم حل الظل مرة ثالثة ، ولكنه لم يكن حينئذ ظلا ، بل بهاء يسطع فى النور نفسه ، وارتوى الصدق المتعب من المجد الذهبى ، فاشتد ساعداه ، وكفكف الحب دمعه ، وجاء من بعيد صوت حلو ، كأنما هو تغريد الملائكة .

وانتشر نور الله فوق الجبال . . . .

ميرى كوريلى

Cameos. God's Light on the Mountains. Mary Corelli.

العقـــل

قال المغيرة بن شعبة لعمر بن الخطاب إذ عزله عن كتابة أبى موسى الأشعرى : أعن عجز عزلتنى أم عن خيانة ؟ فقال عمر : لا عن واحد منهما ، ولكنى كرهت أن أحمل على العامة فضل عقلك .

يقول : إن من عبقرية الحكم أن تكون لعمر بن الخطاب هذه الكياسة فى حكم أمته . فإن الأمور الاجتماعية إذا عولجت بشدة ، وسُرى عليها المنطق الدقيق ، فسدت وخرجت عن حدودها ككل الأشياء الإنسانية . ومن أحكم ما قرأناه فى هذا الموطن قول معاوية : « العقل مكيال ثلثه فطنة ، وثلثاه تغافل » . ومثله قول الشاعر :

ليس الغبى بسيد فى قومه   لكن سيد قومه المتغابى

الشعر فى العهد الأيوبى

لفضيلة الأستاذ رياض هلال

المدرس بمعهد القاهرة

هذه حقبة من تاريخ أدبنا العربى، ماتزال مطوية الصفحات، لم تدرس بعد، ولم يرسل عليها الكتّاب والدارسون ضياء من عنايتهم فيكشفوا ما أحاط بها من غموض وإبهام. وكأنى بهم لمّا يأنسوا بها ولم يشيموا بها خيرا، فأشاحوا عنها بوجوههم واطرحوها وراءهم ظهريا. ولو أنهم أخذوا أنفسهم بالبحث، وصبروا على عنت الدرس والفحص، لجنَوْا من ذلك أطيب الثمرات، وعثروا فى زوايا التاريخ المجفو على خير كثير كانوا عنه فى شغل. وسنحاول فى هذه الكلمات أن نرسم خطوطا واضحة المعالم بينة السمات عن الشعر فى العهد الأيوبى، ومدى عناية الأيوبيين به، وعرفانهم بحقوق أهله واحتفائهم به، فنقول:

وجد الشعر فى هذا العهد من سلاطين الأيوبيين وأمرائهم ووزرائهم وعيون دولتهم عاضدا ومشجعا، عرف له فضله، وقدره حق قدره، فقربوا الشعراء منهم، وأدنوهم من مجالسهم، وكان من ملوكهم من له أكثر من شاعر يسجلون محاسنه ويشيدون بآلائه، كصلاح الدين الأيوبى؛ فقد كان العماد الأصبهانى، والقاضى الفاضل، وفتيان الشاغورى، وابن الذروى، وعرقلة الشامى، وسعادة الأعمى الحمصى، والبهاء السنجارى وغيرهم، يحيطون به، ويلهجون بمدحه. وعرف عن خلفاء صلاح الدين أنهم كان لهم شعراء لازموهم وعرفوا بهم؛ فاشتهر الأشرف موسى بكمال الدين بين النبيه وابن عنين، وعرف الكامل بالراجح الحلى، والملك الصالح أيوب بالشاعرين جمال الدين بن مطروح والبهاء زهير. وهكذا كثر الشعراء فى عهد الأيوبيين فافتنوا فى ضروب الشعر وأتوا فيه بالأعاجيب حتى نفقت سوقه وعلا شأنه، وما زال الشعر أثيرا عند الملوك وسلم المجد ورائدا الناس إلى محاسن الأعمال:

ولولا سبيل سَنَّها الشعر ما درى بناة العلا من أين تؤتَى المكارم

وإذا كان بنو أيوب قد بسطوا أيديهم للشعراء بالعطاء الجزل والنائل الغمر، فقلدهم هؤلاء من شعرهم مِدَحا تبلى الأيام ولا تزيدها إلا جدة ونصوعا؛ فقد وجد الشعراء ما يدفعهم إلى القول ويحثهم إلى القصيد، ولو لم يؤملوا عطاء أو يشيموا نائلا فى تلك المواقف المحمودة لملوك الأيوبيين من جهاد (١) الشرك والنضح عن الاسلام .

وتلك مفخرة جديرة أن تجد من الشاعر أريحية تهتز لها نفسه، فتأتى إليه المعانى أرسالا، وتنثال عليه الألفاظ انثيالا - كما كانت المناظر الطبيعية فى مصر والشام حافزاً من حوافز الشعر عند الشاعر، يسحل فيه إعجابه بمكان كانت له فيه صبابات مع لداته وأقرانه بين حفيف أشجار، وضواحك أزهار، وما أكثر المشاهد والمناظر فى مصر والشام .

قال العماد : لما قتل الصالح طلائع بن رزيك وانكشفت شمس الفضائل ورخص سوق الشعر، وانخفض علم العلم وضاق فضاء الفضل، لم تزل مصر بعده مبخوسة الحظ منحوسة الجد، إلى أن ملكها يوسفها الثانى، وجعلها معان المعانى، وأنشر رميمها وعطر نسيمها (٢) .

ولقد تناقل الرواة والمؤرخون أخباراً وروايات متوافرة تدل على مبلغ عناية الأيوبيين بالشعر وحفلهم بالشعراء، وإن كانوا من أصل كردى ليس له فى صناعة البيان العربى سابقة معروفة، ولا ماض يصلون به حاضرهم؛ ولعل السر فى ذلك أنهم رأوا فى الفاطميين قبلهم أمثالا من ذلك التكريم فتقيلوهم، ورأوا خلفاء العباسيين فى بغداد يعطفون على العلم والعلماء ويشجعون الشعراء ويقربونهم منهم، فأرادوا محاكاتهم فى ذلك، حتى تكون القاهرة مرتحلا ينتجعه الناس ويقصده طلاب الحاجات، وما يزال العلم والأدب فى كل مكان مناراً يهتدى به السائرون، وشارة مجد تخفق فى ربوع الدول فتقرأ فيها آية العظمة وجلال الشأن؛ فلا بدع إذا رأينا من ملوك الأيوبيين ووزرائهم وأمرائهم مساميح يغدقون على العلماء والشعراء من عطاياهم ويغمرونهم بنوالهم حتى ينطق

---

(١) سنختص هذا الموضوع ببحث منفرد .

(٢) الروضتين جـ ١ ص ١٢٤ .

الشاعر بالمديح الذى لا يبلى على مر الأيام وكر الدهور والأعوام ؛ والأمثلة لذلك مستفيضة متكاثرة . يحدثنا عز الدين عبد السلام أنه صحب عمر بن محمد المعروف بابن الشحنة من الموصل إلى السلطان صلاح الدين ، فمدح السلطان بقصيدة أولها :

على الحى من وادى الغضا إذ تفرقوا سلام مشوق قد براه التشوق

فلما بلغ إلى قوله :

وقالت لى الآمال إن كنت لاحقا بأبناء أيوب فأنت الموفق

قال له السلطان : لقد وفقت ! وأجازه بجائزة سنية [١] .

وكان عرقلة الشامى ممن لازموا صلاح الدين واختصوا به ، وكان قد وعده أنه إذا أخذ مصر يعطيه ألف دينار ، فلما أخذها كتب إليه عرقلة :

قل للصلاح معينى بعد إعسارى يا ألف مولاى أين الألف دينار
أخشى من الأسر إن حاولت أرضكو وما تنى جنة الفردوس بالنار
فجد بها عاضديات موقرة من بعض ماخلف الطاغى أخو العار
حمرا كأسيافكم ، غرا كخيلكم ، عتقا ثقالا كأعدائى وأطمارى

فجهز له صلاح الدين ألفاً وأخذ له من إخوته مثلها ، فجاءه الموت فجأة فلم ينتفع بفجأة الغناء [٢] ولعل من حرص الأيوبيين على أن يعرفوا بتشجيعهم للأدب وإثابتهم على الشعر ما رواه العماد قال :

لما وصل صلاح الدين إلى حمص ، خرج إلينا ابن الدهان عبد الله بن أسعد الشاعر ، فقدمته إليه وقلت : هذا الذى يقول فى قصيدته يمدح بها ابن رزّيك :

أأمدح الترك أبغى الفضل عندهم والشعر مازال عند الترك متروكا ؟

فأعطاه السلطان مائة دينار وقال : حتى لا تقول إنه متروك عند الترك . فامتدحه الشاعر بقصيدته العينية التى جاء فيها :

أعلمت بعدك وقفتى بالأجرع ورضا طلولك عن دموعى الهمّع
لا قلب لى فأعى الكلام فأننى أودعته بالأمس عند مودعى

(١) الروضتين حـ ٢ ص ٦١ (٢) شذرات الذهب حـ ٤ ص ٢٢٠ .

قل للبخيلة بالسلام تورعا كيف استبحت دمى ولم تتورع
هل تسمحين ببذل أيسر نائل أن أشتكى وجدى إليك وتسمعى
أو سائلى جسدى ترى أين العنا أو فاسألى إن شئت شاهد أدمعى

ذلك عرض موجز لموقف ملك واحد من ملوك الأيوبيين من الشعر والشعراء، يبين لنا مدى عطفه وتشجيعه للأدب والأدباء. ولو ذهبنا نعرض لمواقف من خلفوه من السلاطين لطال بنا الحديث وتشعب بنا القول، فلكل منهم مواقف مشهورة تناقلها الناس وتحدثوا بها. وحسبك أن تقرأ فى كتب التاريخ والطبقات والسير لترى مددا زاخراً من هذه الأمثال يدلك على مدى ما ذهبنا إليه فى حكمنا على ملوك هذا العهد. ذلك ولم تكن هذه العناية مقصورة على السلاطين كما قدمنا، بل كان الوزراء ينافسون فى ذلك أيضاً؛ فهذا صفى الدين عبد الله بن على بن شكر وزير الملك العادل وأصله من دميرة [1] كان عالماً فاضلا له عناية بالعلم والعلماء والأدب والأدباء، وله فى القاهرة مدرسة باسمه [2]. ولقد كان مثل هذا الصنيع خليقاً أن يأخذ بالشعر إلى معارج الرقى وسبيل التجويد، كما أنه حرى أن يخلق فى نفس الشاعر إقبالا على الشعر ورغبة ملحة فى معالجته واصطناعه، لأنه سوف لا يجزَى على شعره الشعيرَ كما يقول عرقلة:

يقولون لم أرخصت شعرك فى الورى فقلت لهم إذ مات أهل المكارم
أجازَى على شعرى الشعيرَ وإنه كثير إذا حصّلته من بهائم [3]

ذلك ضرب من ضروب تشجيع الأيوبيين للشعر والشعراء، وهو الإثابة عليه بالعطاء والنوال. وهناك ضرب آخر أشد أثراً وأبعد غاية فى تشجيع الشعر والاحتفال له، وهو مشاركتهم لأربابه ومحترفيه فى مدارسته والعكوف عليه وتذوقه وقرضه ونقده، وموعدنا فى الحديث عن ذلك عدد تال ؟.

---

(١) إحدى قرى الوجه البحرى.
(٢) النجوم الزاهرة حـ ٦ ص ٢٨٠.
(٣) شذرات الذهب.

السيدة نفيسة رضى الله عنها

لحضرة الأستاذ أحمد عز الدين خلف الله
مدرس بمعهد فؤاد الأول بأسيوط

اطلعت على مقال تحت هذا العنوان فى مجلة (الاثنين) ١٠ نوفمبر سنة ١٩٤٧ زعم كاتبه أن زوجة مراد بك المتوفاة عام ١٨١٦ هى السيدة نفيسة صاحبة الضريح المشهور فى القاهرة. فرأيت أن أنشر ترجمة مختصرة للسيدة نفيسة رضى الله عنها، حتى لا يلتبس الأمر على أحد، وقد استقيت ما كتبته من أوثق المصادر التاريخية المعروفة لدى الباحثين، فأقول:

سيرتها: هى السيدة نفيسة بنت الأمير الحسن الأنور ابن الأمير زيد ابن الحسن بن على بن أبى طالب رضى الله عنهم أجمعين. ولدت بمكة سنة ١٤٥ هـ، ونشأت بالمدينة حتى تزوجها إسحاق المؤتمن بن جعفر الصادق بن محمد الباقر ابن زين العابدين بن الحسين رضى الله عنهم؛ وكان ذلك سنة ١٦١ هـ. ثم نزح بها زوجها إلى مصر لاضطهاد العباسيين لأهل البيت، فاستقبلها المصريون استقبالا حافلا من العريش إلى القاهرة، حيث نزلت بدار جمال الدين عبد الله من أكبر التجار فى ذاك الوقت، فأقامت عنده شهوراً كانت خلالها كعبة للزوار من كل حدب وصوب. ولم تك هذه بالحياة التى تريدها، فعزمت على العودة إلى الحجاز، وبلغ ذلك الأمير السرى بن الحكم، فزارها وسألها العدول عن عزمها، فقالت: «إنى امرأة ضعيفة وقد شغلونى عن جمع زادى لمعادى، ومكانى قد ضاق بهذا الجمع الكثيف». فدبر لها حاكم مصر مخرجاً من أمرها حتى تعدل عن السفر، فأجابها قائلا «إن لى داراً واسعة بدرب السباع، فأشهد الله أنى قد وهبتها لك، وأسألك أن تقبليها منى، وأما الجموع فقررى معهم أن يكون

ذلك يومين فى الجمعة وباقى أيامك فى خدمة مولاك » . فانتقلت الى هذه الدار ولبثت بها حتى وفاتها ، وخصصت للوفود يومى السبت والأربعاء .

علمها وعبادتها : كانت رضى الله عنها تحب العبادة من صغرها ، وكانت لاتفارق حرم النبى صلى الله عليه وسلم خلال إقامتها فى المدينة ، وحجت ثلاثين حجة أكثرها ماشية ، وكانت عندما تطوف بالبيت الحرام تتعلق بأستار الكعبة ، وتتضرع إلى الله قائلة « إلهى وسيدى ومولاى ! متعنى وفرحنى برضاك عنى ، فلا تسبب لى سبباً به عنك تحجبنى » . قالت زينب بنت يحي المتوج (وهى بنت أخيها) « خدمت عمتى[1] أربعين سنة فما رأيتها نامت الليل ولا أفطرت بنهار » . وكانت لها درجة عالية فى العلم ، فكانت تحفظ الحديث الشريف وترويه ، وتحفظ القرآن الكريم وتفسيره ، وكانت بحراً زاخراً فى الكرم . قال ابن كثير : « وكانت ذات مال فأحسنت إلى الناس والجذامى والزمنى والمرضى وعموم الناس ، وكانت عابدة زاهدة كثيرة الخير ، ولما ورد الشافعى مصر[2] أحسنت إليه » . وكفى دليلا على غزارة علمها ورسوخ قدمها فيه أن الامام الشافعى رضى الله عنه سمع عليها علم الحديث ، وكان أحيانا يصلى بها فى شهر رمضان ، وحين مات أمرت بجنازته فأدخلت إليها فصلت عليه فى دارها ، وهو موضع مشهدها اليوم . قال ابن الأهدل : « إن سلسلتها فى النسب وسماع الشافعى منها وعليها ، وحمله ميتا الى بيتها ، أعظم منقبة : فلم يكن ذلك إلا عن قبول ، وإقبال ، وصيت وإجلال ، نفع[3] الله بها » .

وفاتها : قال القضاعى[4] « حفرت السيدة نفيسة قبرها فى بيتها ، وكانت تنزل فيه وتصلى كثيرا ، وقرأت فيه مائة وتسعين ختمة » .

وابتدأ بها المرض فى شهر رجب سنة ٢٠٨ هـ واشتد بها ، حتى عجزت عن القيام لضعفها ، فكانت تصلى قاعدة ، ولا تفتر عن القراءة والتسبيح ، ولما دخل

---

(١) الكواكب السيارة ص٣١ (٢) البداية والنهاية جـ ١٠ ص٢٦٢ (٣) شذرات الذهب لابن العماد جـ ٢ ص ٢١ (٤) الكواكب السيارة ص ٣٣

شهر رمضان كانوا ينصحونها بالإفطار ، فكانت ترفض ، إذ كانت أمنيتها أن تلقى الله صائمة فكيف تفطر عند لقائه ! وفى أول جمعة من رمضان وفى هدأة الليل كانت تتلو سورة الأنعام وبجوارها بنت أخيها زينب ، فلما وصلت إلى قوله تعالى : « لهم دار السلام عند ربهم وهو وليهم بما كانوا يعملون » غشى عليها فضمتها بنت أخيها إليها ، ولكن الأجل كان انتهى ، فشهدت شهادة الحق وفاضت روحها رضى الله عنها ، ودفنت فى المنزل الذى كانت تسكنه ، وهو بمكان يعرف قديما بدرب السباع بين مصر والقاهرة ، وكان يوم وفاتها يوما مشهودا ، وقد توافد الناس إليها من البلاد فصلوا عليها بعد دفنها . قال ابن خلكان « نخرب الدرب ، ولم يبق هناك سوى المشهد ، وقبرها معروف بإجابة الدعاء عنده ، وهو مجرب [1] رضى الله عنها » .

شهرتها : يقول ابن شاكر الكتبي : « وكان للمصريين فيها اعتقاد عظيم ، وهو إلى الآن[2] باق كما كان » . ويقول الأمير أبو المحاسن ابن تغرى بردى : « وهى صاحبة الكرامات والبرهان ، وقد شاع ذكرها [3] شرقا وغربا » وكان يتردد لزيارة ضريحها بعد وفاتها جمع من كبار الأئمة المعاصرين ؛ مثل الإمام عبد الرحمن البويطى ، والإمام الربيع بن سليمان المرادى ، والإمام الربيع الجيزى ، والإمام حرملة بن يحيى ، وهؤلاء من أصحاب الامام الشافعى ، رضى الله عنهم أجمعين .

ومنهم الشيخ الكبير يونس بن عبد الأعلى الصدفى ، والإمام سحنون المالكى ، وذو النون المصرى المتوفى سنة ٢٤٥ ، وغيرهم ممن لا يدخل تحت حصر ، سواء من العلماء أو المؤرخين والأمراء والملوك ، أكف عن ذكرهم خشية الإطالة .

المؤرخون : ترجم لها كثير من عيون المؤرخين . وأثبتُ هنا بعضهم مبينا سنة وفاته ، واسم مؤلفه ، ورقم الجزء والصفحة التى ذكرت فيها الترجمة :

---

(١) وفيات الأعيان ج ٣ ص ٨٦ ـ ٨٧

(٢) فوات الوفيات ج ٢ ص ٣٨٦

(٣) النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ج ٢ ص ١٨٥

قاضى القضاة شمس الدين أحمد بن خلكان المتوفى سنة ٦٨١ هـ (وفيات الأعيان) حـ ٣ — ص ٨٦

محمد بن شاكر الكتبي المتوفى سنة ٧٦٤ هـ (فوات الوفيات) حـ ٢ - ص ٣٨٦

الإمام أبو الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقى المتوفى سنة ٧٧٤ هـ (البداية والنهاية) حـ ١٠ — ص ٢٦٢

شمس الدين محمد بن الزيات (القرن التاسع) الهجرى (الكواكب السيارة) ص ٣١ ، ص ٢٣ وغيرها .

أبو المحاسن يوسف بن تغرى بردى المتوفى سنة ٨٧٤ هـ (النجوم الزاهرة) حـ ٢ ص ١٨٥

الإمام السيوطى المتوفى سنة ٩١١ هـ (حسن المحاضرة) ص ٢٩٢ - ٢٩٣

الإمام عبد الوهاب الشعرانى المتوفى ٩٧٣ هـ (الطبقات الكبرى) حـ ١ ص ٥٨

ابن العماد المتوفى سنة ١٠٨٩ هـ (شذرات الذهب) حـ ٢ ص ٢١

هؤلاء اطلعت على ما كتبوه عنها، وكتب فى هذا الموضوع جم غفير غيرهم أكتفى بالإشارة إليهم لمن يريد البحث؛ مثل الكندى (فضائل مصر) ، موفق الدين بن عثمان ، أبو إسحق إبراهيم بن بللوه النسابة ، السيد الشريف محمد أسعد بن على الحسينى ، القضاعى ، ابن عبد الحكم (فتوح مصر) ، ابن زولاق ، ابن الأهدل ، الحافظ الذهبى ، مجد الدين بن عين الفضلاء الناسخ (مصباح الدياجى) ، الحافظ ابن حجر ، السخاوى (تحفة الأحباب) وأفردها بالترجمة ابن النحوى فى كتابه (الدرة النفسية) .

تاريخ عمارة مسجدها رضى الله عنها :

أول من بنى مشهدها الطاهر عبيد الله[1] بن السرى بن عبد الحكم أمير مصر ؛

---

(١) كان أميرا على مصر من سنة ٢٠٦ هـ الى سنة ٢١٢ هـ .

وجدد القبة التى على الضريح المبارك الخليفة الفاطمى الحافظ لدين الله عام ٥٣٢ هـ وتحتفظ دار الآثار العربية بأثر من المشهد النفيس يرجع إلى العصر الفاطمى [١] ؛ وبنى المسجد السلطان الناصر [٢] محمد بن قلاوون سنة ٧١٤ هـ ; وجدد المشهد الأمير عبد الرحمن كتخدا [٣] سنه ١١٧٣ هـ وكذا المسجد ، وبنى الضريح على هذه الهيئة الموجودة ، وجعل لزيارة النساء طريقاً بخلاف طريق الرجال . كل هذا حدث ، أى العمارة الأخيرة للمشهد النفيس من أحد معاصرى مراد بك .

أما زوجة مراد بك (نفيسة) فقد توفيت بعد ذلك بثمان وخمسين سنة .

وختاما أقول : إن إجماع المعاصرين على تحديد مكان وفاتها رضى الله عنها واتفاق كبار المؤرخين القدماء على ذلك ، واعتقاد الأمة منذ القدم فيها وزيارتها فى مكانها الحالى ، وتاريخ عمارة مشهدها ومسجدها ، كل ذلك يجعل إنكار وجودها من قبيل إنكار الحقائق البديهية ، اللهم إلا إذا كانت زوجة مراد بك عاشت فى القرن الثانى الهجرى وأوائل الثالث ! وهذا ما لم يدعه أحد ! .

وليطمئن الأستاذ ولا يرم الشعب المصرى بالغباء ؛ فمصر مملوءة بأضرحة كبار الحكام ، أمثال أحمد بن طولون ، والمعز لدين الله ، والظاهر بيبرس ، ومحمد على باشا الكبير ، ومع ذلك لم يكونوا مزاراً للمستشفعين ، وإن كان يحمل لهم أطيب الذكريات ويثنى عليهم أجمل الثناء ؟

---

(١) دار الآثار العربية رقم ٤٤٦ . وهو محراب إطاره من خشب نبق محشو بزخرفة دقيقة الصنع كانت شائعة فى القرنين الخامس والسادس الهجرى . راجع كتاب الدكتور حسن ابراهيم (الفاطميون فى مصر) ص ٣٦٤ .

(٢) الخطط التوفيقية حـ ٢ ص ٦٢ ، والخطط والآثار للمقريزى المتوفى سنة ٨٤٥ هـ حـ ٢ ص ٣٠٦ .

(٣) الجبرتى ـ عجائب الآثار حـ ٢ ص ٦ .

حول مؤلفات الجاحظ

« الدلائل والاعتبار ، العبر والاعتبار ، التفكر والاعتبار »

« أسماء ثلاثة لمسمى واحد »

لحضرة الأستاذ الشيخ سليمان سليمان خميس
بتخصص التوحيد والفلسفة

لا يزال التراث الاسلامى بحاجة إلى جهود كبيرة لتكشف عن مخبآته . ولقد لمست هذا بنفسى حينما كنت أعد العدة لتأليف كتابى « حقيقة الجاحظ المفكر » . فبينما يذكر لنا ابن العميد أن كتب الجاحظ « تعلم العقل أولاً والأدب ثانيا » إذا بنا فى هذا العصر نجد الجاحظ لا يكاد يعرف إلا بأدبه ، حتى لقد وصلت الحال إلى أنك إذا ذهبت إلى أى دار من دور الكتب وجدت كتب الجاحظ قد فهرس لها فى الفهارس الأدبية[١] ، ونرجو أن نكون قد وفقنا إلى إظهار « حقيقة الجاحظ المفكر » وكشفنا عن ناحية تكاد تكون مجهولة عن الجاحظ فى هذه الأيام ، ولعل ما ننشره اليوم قد يكون من هذا القبيل المجهول .

ذكر لنا سبط ابن الجوزى فى مرآة الزمان أنه رأى بنفسه ثلثمائة وخمسين كتابا من مؤلفات الجاحظ . وذكر ياقوت فى كتابه « معجم الأدباء » بعض مؤلفات الجاحظ وذكر لنا فيما ذكر من مؤلفاته كتابا يسمى «التفكر والاعتبار . وإذا كنا لم نعثر على ذلك الكتاب ، فقد وجدنا كتابين آخرين ينسبان إلى الجاحظ أحدهما مطبوع والآخر مخطوط ؛ أما الكتاب المطبوع فيسمى «الدلائل والاعتبار على الخلق والتدبير » ؛ وأما المخطوط فيسمى العبر والاعتبار ، وهو محفوظ بدار الكتب المصرية ، ويستطيع القارىء أن يرجع إليه[٢] .

---

(١) إذا استثنينا كتاب الدلائل والاعتبار ، أو العبر والاعتبار ، وجدنا كل أثر للجاحظ قد وضع فى الفهارس الادبية . (٢) فى فهارس علم الكلام تحت رقم ١٩٧٨ .

وقد استلفت نظرى تقارب اسمى هذين الكتابين ، فدفعنى ذلك إلى الموازنة بينهما ، وقد ظهر لى من هذه الموازنة أن العبر والاعتبار ، هو نفس الدلائل والاعتبار ، وكل ما هنالك من فارق بينهما هو أن المقدمة المذكورة فى العبر والاعتبار قد حذفت من الدلائل والاعتبار ، وغُير اسم العبر والاعتبار بالدلائل والاعتبار .

ولست أدرى أصنع الناشر للدلائل والاعتبار هذا الصنيع ، أم قد سبقه بهذا أحد فتابعه . وإذا كان الدلائل والاعتبار هو نفس العبر والاعتبار ولا يمتاز عنه إلا بالمقدمة وتغيير الاسم ، فإن أكبر الظن أن التفكر والاعتبار ما هو إلا اسم ثالث لهذا المسمى الذى أطلق عليه مرة اسم العبر والاعتبار وأخرى اسم الدلائل والاعتبار .

سلك الجاحظ فى هذا الكتاب سبيل النظر فى الكون مستدلا بما فيه من عجائب ونظام على وجود إله مدبر حكيم ، واستعرض الكثير من الكائنات ليصل بقارئه الى هذا الهدف ؛ وقد تأثر بهذا الكتاب وانتهج منهجه بعض المفكرين الاسلاميين ؛ وها نحن نجد الغزالى فى كتابه حكمة الله فى المخلوقات يسير هذه السيرة . وكذلك نجد ابن قيم الجوزية فى كتابه مفتاح دار السعادة ، ومنشور ألوية العلم ، ينتهج نهج الجاحظ فيستعرض الكثير من الكائنات مستدلا بها على أن لها صانعاً مدبرا .

والقارىء لكتاب ابن القيم المذكور يرى تأثره بكتاب الجاحظ واضحا جليا ، حتى يكاد يلمس تأثره به فى عباراته فضلا عن منهجه [1] .

ولما كانت مقدمة العبر والاعتبار التى حذفت من النسخة المطبوعة « الدلائل والاعتبار » تشير الى أن الجاحظ قد سبقه من سلك هذا المنهج ، وأنه قد استفاد من هؤلاء ، رأينا أن نثبت هنا تلك المقدمة حتى يتمكن من يقتنى هذه النسخة المطبوعة من الاحتفاظ بها ، فضلا عما فى نشرها من فائدة لعامة القراء وها هى :

---

(١) راجع فى هذا ص ١١٩ ، ١٢٠ من « حقيقة الجاحظ المفكر » لكاتب هذا المقال تجد النصوص المنقولة عن الجاحظ وابن القيم تكاد تتفق فى العبارة .

«بسم الله الرحمن الرحيم . الحمد لله الذى سمك السماء بقدرته ، وجعل الأرض مهادا بحكمته ، ونظم ما بينهما ببراهين أدلته ؛ خالق الأمور المتعادمة ، والآلات المتباينة ، والجواهر والأعراض المختلفات والمتفقات ، من نور وظلمة ، وذى سكون وذى حركة ، وأنس ووحشة ، وجفاء ورقة ، وضعف وقوة ، ونوم ويقظة ، وضحك وغضب ورضى ؛ الذى أخفى النفوس فى الأبدان وألطفها فما تُرى ، ثم دبرها فما تحس وتشاهد ، وأيدها بالفطن وقواها بالعلم والمعرفة ، وأعانها بالأسماع والأبصار والذوق واللمس والشم ، وأيدها بالأيدى والأرجل الحوامل العوامل ، ومكنها من الحجة والمعرفة بالأدلة ، وجعل ما وهب لها من ذلك حجة لها إن شكرت ، وحجة عليها إن كفرت ، وشاهدا بتقصيرها إن قصرتَ . والحمد لله الأحد الواحد الماجد ، الذى لاتشتمل عليه المشاعر ، ولا تحجبه السواتر ، ولاتدركه الخواطر ؛ الأول لا بترتيب عدد ، الآخر لا بمعنى غاية تنفد ، الشاهد من غير مماسة ، البائن لا عن مسافة ، الظاهر لا للأبصار ، الباطن من غير حلول ، الذى دل على نفسه بآيات قدرته الموجودة فى بريته ، واستشهد على لطفه بفعله ، وجعل الحجاب بينه وبين خلقه ضعفهم عن إدرك قوته ، فذاته مجهولة الكنه ، وآياته معلومة بين خلقه ، معروفة بما وهب لهم من بصر هدايته ، ليس سواه بإله ، ولا غيره رب معبود ؛ الذى حجب الأبصار عن رؤيته ، ويسر للعقول سبب معرفته ، وأخرس الألسن عن تحديد كنه صفته . والحمد لله الذى خلق فأحسن الخلقة ، وفطر فأتقن الفطرة ، وفتق الأفهام للمعرفة ، وذلل الجوارح للطاعة ، وهدى الى طريق النجاة والسلامة ، وزجر عن سبيل الضلالة والجهالة ، ثم مد لخلقه حبل الإمهال ، . ووعدهم المغفرة والإقالة حتى ارعوى مرعو ، واهتدى مهتد ، بعد التحير والتهور تتميا للنعمة ، وزيادة فى الإعذار ، لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ، وكان الله عزيزا حكيما . فنعوذ بالله من غلبة الشقوة ، ونسأل الله العظيم الزيادة من البصيرة ، والمنفعة بالعلم ، وأن لايجعل شيئا منه وبالاً فى الآخرة ، إنه على كل شىء قدير .

« أما بعد فإنه ليس بأهل البر والتقوى ، ولا بذى الغباوة والردى ، غنى عن المواعظ ، والدلالة على أمكنة الحق ، والتواصى والتناهى عن الشر ، لما فى ذلك من التبصرة والتذكرة ، والتأديب والتهذيب ، والبركة والمنفعة ؛ ولو كان [خرم] عدو الله إبليس الضامن بإحناك الذرية إلا قليلا ، وبين [خرم] رب

العباد أعلاق سوى الذكر لله، لوجب طلب مفاتيحها علينا بتحمل المشاق وركوب الأخطار والتغلغل الى خفى أماكنها، لنأمن كيد عدونا الذى يجرى مجرى الدم، ويرانا من حيث لا نراه، وله تسليط على سويداء القلوب، وحرص على استزلالنا لنعطب، فأوجب الأعداء عباد الله بأن يحذر من ليس يجزى من كيده حارس سوى التعوذ بذي الجلال والإكرام، والفزع الى تلاوة كتبه وترديد أسمائه الحسنى، والتعلق بذكره.

« فليكن بالك أيها الإنسان المخلوق من ضعف وطين وماء مهين، معتنيا بذكر الله، منوطا بالفزع إليه، ومسألة النجاة من كيد عدوك وغدوه، والسلامة من خيله ورجله، ومكر جنوده؛ فإن لهم أفواها وألسنة تلتقم القلوب والأسماع، وصورا مختلفة لا ترى بالأبصار، ومداخل لطيفة تصل الى النفوس بمراده من الإضلال والاستزلال.

« واعجب وعجب أيها الانسان ممن جهل معرفة الواحد الخالق الرحيم الرحمن، وقد أراه الآيات البينات فى الآفاق وفى نفسه، من النماء والنقص فى أحواله وأهله وجسمه، وأوجد له الأمور التى بها تتم منافعه، والمآرب التى إليها يتناهى مصالحه، وكيف تهيأ له قبل [خرم] مفروغا منها قبل خروجه الى الدنيا متممة محكمة وهو فى ظلمة الرحم، مصنوعة منظومة على أتم صنعة قبل تكوينه، وأنه لم يمهدها لنفسه ولا ادعى أبوه تمهيدها ولا أمه ولا أحد من أبناء جنسه، ثم ليس منها على كثرتها شىء إلا وهو مركب تركيبا لم يكن المصلحة لتتناهى الى دونه ولا يتجاوز ما فوقه، ولا ترغب عن شىء منه، وإن الطبائع جميعها لتشهد أنها لم تصنع ذلك وتعترف بالعجز، ولو ادعت ذلك لانقطعت أسباب الحقيقة عن دعواها وشهد بالإمحال عليها عجزها. ونحن ذاكرون أشياء من شواهد آثار الصانع فى صنعته، ومنبهون على أسرار قد أودعها، تخبر عن جلال عظمته وكمال قدرته، وواصفون أعلاما وآيات وبراهين واضحة تشهد بها التجارب، وتهيب بذكرها الغرائز، وتعرفها الطبائع، ولا تنكرها التراكيب، ولا تدفعها العقول، بمقدار وسع الطاقة ومبلغ الجهد، وما وهب الله لنا من العلم؛ وما توفيقنا إلا بالله عليه توكلنا، وهو العلى العظيم، لتزول

الشكوك عن قلوب المرتابين ، ويتجدد نور اليقين فى صدور المؤمنين ، وحسبنا الله ونعم الوكيل .

« وقد ألف مثل كتابنا هذا جماعة من العلماء الحكماء المتقدمين فما أوضحوا معانيه ، ولا بينوا المشكل فيه ؛ فمنهم جبريل بن نوح الأنبارى ، لأنه صدر كتابه بغير خطبة ولا مقدمة ، ورتبه بترتيب الفلاسفة ، وصدره بكلام منغلق ، ونظم غير متسق ، فكان كما لم يؤلف .

« وقبله ألف فى معناه « بوردبوس » أسقف طرسوس ، كتابا وضعه فى زمان « فلبالوس » عظيم الروم الذى كان ينسب الى القول بالدهر ، والعصبية لدين الكفر ، فكان هذا الملك من أهل التلبيس والتدليس ، وسمى « بوردبوس » كتابه : كتاب التدبير ، ونقله من أخذه عنه من السريانية الى العربية ، فلم ينفع لفساد النقل ، حيث ينبغى أن يقع من الإيضاح والشرح ، وأفسده تداول الألسنة وسوء العبارة .

« ومنها كتاب نظمه « باورلطوس » أسقف « قورس » كتبه باليونانية ونقله إلى السريانية ثم إلى العربية ، فجرى مجرى الأول المفسود بتداول النقل والعبارات . ومنها كتاب [خرم[1]] أيام بنى أمية نظمه « نسو عجيب » مطران « فارس » وكتبه بالفارسية فأكسبه استغلاقا .

« وقد جمعنا فى كتابنا هذا محاسن ما وجدناه فى هذا الكتب ، وزدنا مقدار الطاقة ، والتوفيق من الله جل ذكره ، وشرحنا ما نقلنا من غيرنا ، وبينا القول فيما زدنا ورتبناه ترتيبا يونق السمع ، ويسر القلب ، وينشط السامع ، ويوجب الحجة على المخالف ، وما توفيقنا إلا بالله » .

إلى هنا تنتهى زيادة العبر والاعتبار ، وما بعد هذا من فقرات نجدها فى مفتتح الدلائل والاعتبار ؛ ويسير الكتابان بأسلوب واحد لا يكاد يختلف ـ إلا ما ندر ـ إلى نهايتهما . وكان ينبغى أن يوجد بدار الكتب المصرية بعض الباحثين الذين يكشفون عن أمثال هذا وينشرونه على الناس . ونرجو أن تتاح لنا الفرصة قريبا ليطلع القراء على بعض النواحى الطريفة فى الجاحظ ؟

---

(١) ويبدو لى أن هذه الكلمة هى « ألف » ويوجد بعض حروف باقية ترجح هذا

الاسلام والمسلمون
فى شرق أفريقيا

لحضرة الأستاذ الدكتور محمود حب الله

— ٣ —

حالة المسلمين الاقتصادية

قد يتبادر الى الذهن من تحدثى عن مركز المسلمين الاجتماعى والاقتصادى أنهم يكوّنون هناك وحدة اجتماعية أو اقتصادية، وأن لهم شخصية متميزة تعامل على أنها وحدة من تلك النواحى ؛ ولكنه لا وجود فى الواقع لمثل هذه الوحدة. وكلّ ما هنالك بين المسلمين من روابط هو على الأكثر ذلك الشعور الروحى الذى يوجد بين المسلم وأخيه المسلم فحسب.

لذلك كان من الدقة التحدث عن طوائفهم لا عن جماعتهم ؛ فذلك أقرب الى الصواب ؛ إذ أن ارتباط كل فرد منهم بطائفته وفرقته لا يزال أقوى وأكبر أثرا فى حياته الاجتماعية والاقتصادية من ارتباطه بجماعة المسلمين . ويمكن أن ترتب طوائفهم من الناحية الاقتصادية ترتيبا تنازليا هكذا :

الشيعة ، فالأباضية ، فأهل السنة .

فالشيعة أغنى الطوائف هناك بلا مراء ؛ ولكن يظهر أنهم ليسوا فى مستوى واحد من الثراء . فالاسماعيليون ـ أتباع أغا خان ـ يأتون أولا . ولقد ساعدهم جدهم واجتهادهم من ناحية ، ونظامهم التعاونى الدقيق وارتباط بعضهم ببعض برباط متين من ناحية أخرى ، على أن ينهضوا نهضة عظمى فى جميع نواحى الحياة .

والبهريون والاثنا عشريون من الشيعة ذوو مركز اقتصادى طيب أيضا . وأما الأباضيون فهم على ما يبدو ، أقل ثراء من الأولين . وأما أهل السنة وهم

جمهور المسلمين ، فيأتون أخيرا ، وهم أكثرهم فقرا ، على الرغم من أنه يوجد من بينهم أفراد قلائل يملكون ثروات طائلة .

وإذا علمنا أن جمهور العرب والوطنيين من أهل السنة ، علمنا أين يحل الفقر . وإذا حل الفقر فى مكان اصطحب معه صديقيه المرض والجهل . وهذا هو شأن كثير من العرب والوطنيين .

ولقد أخبرت أن العرب كانوا يوما ما أرباب الثراء والنعمة ، ولكنهم أخلدوا الى الترف وغرتهم النعمة ، وكأنهم آمنوا بخلودها فيهم ، فلم يفكروا فى تنميتها أو الاحتفاظ بها ، فلم يمض إلا قليل من الزمن حتى كانت مرهونة فى أيدى إخوانهم المسلمين من الهنود ، وهم أكثر منهم نشاطا ؛ ولم تمض فترة أخرى حتى انتقلت اليهم لعجز العرب عن الوفاء . ولقد أوجدت تلك الظاهرة الاقتصادية فيهم شعورا من العداء نحو إخوانهم الهنود ، ولكنه قد زال الآن أو كاد يزول لأنهم أدركوا أنهم هم المسئولون حقا ، وأن ثروتهم لو لم تنتقل الى هؤلاء لانتقلت الى غيرهم من غير المسلمين ، وكانت العاقبة أدهى وأمر .

ولكن على الرغم من أنه لا يوجد بين المسلمين هناك ما يمكن أن يعتبر وحدة اقتصادية ، فلامراء فى أنه يوجد بينهم كثير من المساعدات المالية المشكورة التى يقدمها أرباب الثراء منهم للمعسرين على اختلاف فرقهم وطوائفهم. وتتمثل تلك المساعدات فى نواح شتى ، والمساجد ناحية منها . فتجد أغنياء الشيعة ، مثلا ، يساهمون بنصيب كبير فى بناء مساجد أهل السنة أو فى إصلاحها ، وقد رأيت عدة أمثلة من ذلك . وليست الجمعيات الخيرية التى تألفت هناك إلا مظهرا آخر من مظاهر العون المالى الذى يقدمه الموسرون للمعسرين ، وعلى الرغم من أن المساهمة فى هذه الجمعيات عامة ولا تخص فريقا دون فريق ، فان المبالغ التى دفعت فعلا والتى يرجى أن تدفع من العرب ومن الوطنيين مبالغ ضئيلة بجانب ما دفعه أو سيدفعه الآخرون . وأما ثمرة هذه الجمعيات فستكون أولا وبالذات للعرب وللوطنيين ، لأنهم هم وحدهم الذين لا يجدون مدارس يربون فيها أبناءهم ، وليس لديهم من المقدرة المالية ما يمكنهم من تربية أبنائهم خارج بلادهم .

٣ - الحالة الثقافية :

إن نظرة واحدة الى هـذه البلاد تكفى لمعرفة مقدار تأخرها من الناحية الثقافية . وعلى الرغم من أن هنا مجالا فسيحا للتحدث فسأكتفى بشرح موجز لحالة المدارس واللغات السائدة هناك .

(١) المدارس : هنالك نوعان من المدارس ومعاهد التعليم : مدارس حكومية ، وأخرى أهلية . فالحكومية قليلة العدد ، ولا يمكن أن تفى بحال من الأحوال بحاجة السكان ، وهى مع ذلك طائفية . ويظهر أن تقسيم الناس إلى طوائف شتى يعجب السلطة هناك وتوحى به ؛ إذ أنه ظاهر فى كل مكان وفى كل مرافق الحياة حتى فى التشريع نفسه .

فإذا قطعنا النظر عن المدارس التى يتعلم فيها أبناء الاوربيين ، وجدنا مدارس حكومية للهنود فى كثير من البلاد ، وهى مدارس مدنية وتقبل المسلمين وغير المسلمين من أبناء الهنود ، وتعلم من اللغات ، بجانب اللغة الانكليزية ، اللغات الهندية من أوردوية وهندوستانية ، ولكنها لا تعلم اللغة العربية . وفى بعضها أقسام ثانوية .

وأما العرب والوطنيون فليس لهم مدارس حكومية على الإطلاق ، اللهم إلا شيئا يشبه الكتاب بممباسا ، ويتكون من عدة غرف بعيد بعضها عن بعض . وهى مع ذلك لم تبدأ إلا قريبا بعد جهاد عنيف قام به بعض المسلمين هناك ، ولا تعلم إلا مقداراً ضئيلا من اللغة العربية .

وليس هناك معاهد حكومية عليا إلا كلية مكريرى [١] فى يوغندة . وهى

---

(١) عميدها الحالى الدكتور لا مونت الذى كان من قبل أستاذا للفلسفة بجامعة فؤاد الأول . ولقد كان الدكتور كريما ومجاملا ، وأثنى على مصر ثناء مستطابا حين كان يعلق على إحدى محاضراتى . ولقد دعانى بعد ذلك ودعا معى آخرين إلى العشاء فى بيته ، ودار الحديث حول موضوعات شتى تتعلق بالمسلمين ومنها=

تعنى أكثر مما تعنى بالثقافات الإنكليزية وبالأدب الانكليزى ، وتقبل طلابها من جميع الأجناس والأديان من أهل أفريقيا الشرقية ، ولكنها تقبل السودانيين أيضاً . وقد علمت أن بها الآن عشرة طلاب من مسلمى الزنجبار .

وأما المدارس الأهلية فكثيرة ومنتشرة فى جميع أنحاء البلاد ، ومنها مدارس المبشرين ؛ وسأتحدث عنها عند التحدث عن المبشرين وجهودهم . ومنها مدارس أخرى ترتبط بالطوائف والفرق وبالجماعات المتعددة .

فهناك مدارس الاسماعيليين . وهذه تكاد تكون موجودة فى كل بلاد إفريقيا الشرقية والشطر الأكبر من قراها ؛ إذ أنهم ينشئون مدارس ، أينما حلوا ، تتناسب مع حاجتهم . فأحيانا تكون ابتدائية ، وأحيانا تكون ثانوية أيضا . وقد زرت بعض هذه المدارس فوجدتها تسير بدقة ونظام يفوقان كثيراً من المدارس الحكومية . وهى تنفق بسعة على المدرسين ، وتقبل الطلاب بلا أجور ، وهى مدنية ، ولا تقبل غير أبناء طائفتهم . ولبعض الطوائف الأخرى مدارس خاصة يعلمون فيها أبناءهم شيئا من الدين بعد عودتهم من مدارس الحكومة ، وهذه توجد غالبا فى المساجد أو فى رحابها .

وأما العرب والمسلمون من الوطنيين ، وهم يزيدون على ٧٠ ٪ من مجموع المسلمين ، فليس لهم مدارس منظمة أو ذات مورد ثابت . وكل ما هنالك هو آلاف من الكتاتيب المنتشرة فى طول البلاد وعرضها ، والتى لا يجمع بينها جامع ولا تخضع لنظام واحد أو منهج واحد . فعريف الكتاب ـ وأحيانا لا يكون له من المؤهلات أكثر من أنه يعرف شيئا من القراءة والكتابة ـ هو السلطة العليا

= موضوع كان يحز فى نفوس المسلمين : ذلك أن المسلمين جمعوا من عشر سنوات مضت عشرة آلاف من الجنيهات ليبنى بها مسجد داخل أسوار الكلية ، كما أن هناك كنائس للمسيحيين ؛ ولكن المسجد لم يبن حتى اليوم . فوعد الدكتور لا مونت بالبدء فى البناء هذا العام ، وفهمت أنه غير ملوم عن هذا التأخير الطويل لأنه لم يعين فى الكلية إلا قريبا .

التى تضع المناهج وتطبقها . وهذه الكتاتيب فى جملتها لا تعلم إلا مقدارا ضئيلا من القرآن يحفظه الناشىء بغير فهم غالبا ، وشيئا من العبادات والعقائد ، ولكن بأسلوب بدائى . ولقد زرت كتّابا فى قرية من قرى نيرونى فوجدت المعلم يعلم المبتدئين الذين لا يعرفون شيئا من اللغة العربية قواعد النحو والصرف . كأنه يرى أنهم يجبُ أن يعرفوا قواعد اللغة أولا ثم اللغة بعد ذلك . قد يكون هذا المعلم محقاً فى منطقه ولكنها طريقة عسرة ومملة .

ولكن هناك من الكتاتيب ما هو أرقى من ذلك بكثير ؛ فهناك مثلا مدرسة الرياضة العربية بممباسا ، وأستاذها الشيخ سالمين بن عوض العامرى . وهى تعلم الألعاب الرياضية بجانب اللغة العربية والثقافات الإسلامية ، ويحسن أبناؤها النطق باللغة العربية ، وهى نهضة طيبة . غير أن المدرسة فى حاجة ماسة الى المساعدة المادية . وهناك فى يوغنده وتنجانيقا كثير من المدارس التى يشرف على إدارتها الشريف عبد القادر الجفرى ، وقد زرت بعضها فسرنى منهجها وما فيها من حيوية . وسألت بعض الطلاب فى مسائل لغوية ودينية فأجابوا إجابات موفقة ، واستمعت الى خطب كثير منهم — وهم من أبناء الوطنيين — فوجدت أن لهجتهم لهجة عربية صحيحة .

ولكن تلك المدارس كلها قائمة من ناحية مالية على أكتاف الوطنيين وقليل من العرب ، وهؤلاء جميعاً فقراء ، فلا يفى ما يتبرعون به بحاجة المدارس . وليس لديهم كتب مدرسية ، ولا يجدون العدد الكافى من المدرسين ، ولا يجد المدرسون موردا يعيشون منه مما يضطر الكثير منهم الى العمل بجانب التدريس . وأخيرا لا تفى المدارس الموجودة بحاجة السكان المتزايدة .

وإننى أعتقد أنه لو نظمت هذه المدارس والكتاتيب وزيد عددها ورصد لها من المال ما يكفيها لكانت فتحا مبينا ، لأنها تجذب قلوب الوطنيين جميعا . « وشبه الشىء منجذب اليه » . ولقد تسلمتُ هناك عددا وفيرا من الالتماسات ، ولا تزال الخطابات ترد الى تلتمس كلها من الأزهر ومن مصر أن يمدا يد العون لهذه المدارس حتى تتمكن من تأدية مهمتها .

بسم الله الرحمن الرحيم

هل يؤدى العلم الى الالحاد

العلماء وأنصاف العلماء

لم يؤد العلمُ صاحبَه إلى الإلحاد فى أى عهد من عهوده ، فإن العالِم المنقِّب عن الحقائق يجد نفسه من الوجود فى عالم لا حدّ له ، حافل بالموجودات المختلفة ، والقوى الزاخرة ، والحركات الدائمة ، والتحولات المستمرة ، فلا يكاد يسبر غورا حتى تلوح له من ورائه أغوار ، ولا يقف على علة لظاهرة ، حتى تتراءى له من خلفها علل ، ولا ينتهى من تحليلاته الى سبب ، حتى تبدو له من بعده أسباب ؛ فهو فى خِضَمّ عَطَمطم من الكائنات والقوى الظاهرة والخفية ، بحيث يكاد يفقد رشده حيرة ودهشا ، يسود مجموعها نظام محكم لا تشوبه شائبة من اضطراب . وفى أثناء ذلك يرى العالم الذى نصب نفسه للاهتداء الى أسرار الكون ، أنه يصادف من آثار الحكمة العالية ، وعلامات الإرادة الراشدة ، مالا يدرك مداه بعقله المحدود ، ويرى أن كل ماحصّله من علم بالموجودات ، وما كسبه من فقه بالأسباب ، لا يتعدى مدى العلاقات الظاهرة بين تلك الموجودات ، أما كنهها ، ومصدر انفعالاتها ، وترابط القوى العاملة فيها ، فتعلو عن متناول عقله ، بحيث يدرك لأول وهلة من تفكير ، أنها مما لم يخلق هذا العقل لإدراكه .

فهذا الباحث عن أسرار الخليقة ، يضطر أن يخر ساجدا للقدرة العالية التى أوجدت هذا الكون الباهر ، معترفا بأنها فوق متناول الادراك ، وأن جهد الفيلسوف أن يُخبت لها ، وأن يستمد منها نورا يهتدى به فى ظلمات وجوده المادى.

ولكن الى جانب هذا الصنف من المنقبين عن أسرار الوجود ، أصنافا أخرى ذوى عقول محدودة ، وهمم قاصرة ، وقابليات ضيقة ، تكتفى من التعليلات بما يؤثر على مخيلتها ، ومن التحليلات بما يقف عند حد إدراكها ، فيخيل اليها بعد ردح من الزمن أنها وقفت على أسرار الوجود ، وأن ليس وراء ما وصلت اليه غاية

ترتجى ؛ فترى أنها وقفت من كل معلول على علته ، ومن كل كائن على غايته ، فما الذى يحول بينها وبين أن تزعم أنها بلغت من العلم نهايته التى ليس وراءها مرمى ، وماذا عليها بعد ذلك أن تعلن أن العالم قائم بنفسه ، وأنه ليس بحاجة إلى قيُّوم فوق مادته ؟ فهذا وأمثاله أطلق عليهم الفلكى الكبير (كاميل فلامريون) فى كتابه (الله فى الطبيعة) اسم أنصاف العلماء ، وسجل عليهم أنهم قصار النظر ، محدودو التعقل ، ضعاف التصور ، يكتفون بالكلمات الفارغة ، والعبارات المجوفة . هؤلاء هم الملحدون باسم العلم ، وقد ظلموا العلم ، وقصروه على فهمهم القاصر ، وإدراكهم الهزيل .

نشر الدكتور دنيرت dennert الألمانى بحثا حلل فيه الآراء الفلسفية لأكابر العلماء الذين أناروا العقول فى الأربعة القرون الأخيرة ، وتوخى أن يدقق فى تعرف عقائدهم ؛ فتبين له من دراسة آراء ٢٩٠ منهم أن :

٢٨ منهم لم يصلوا إلى عقيدة ما .

و ٢٤٢ أعلنوا على رءوس الأشهاد إيمانهم بالله .

و ٢٠ فقط تبين أنهم غير مبالين بالوجهة الدينية أو ملاحدة .

فإذا اعتبرنا غير المبالين كلهم من الملاحدة ، وجدنا أن ٩٢ فى المائة من كبار العلماء يعتقدون بوجود الله تعالى . فهذه النسبة الكبيرة تدل دلالة صريحة على أن التناقض بين الايمان والعلم الذى يزعم الماديون أنه وصف مميز للعلماء ، ليس له أصل ، وتشير إلى أن الايمان والعلم يتكاملان ولا يتنافيان .

قال الدكتور (ليون ووتى) الذى أخذنا عنه هذا الاحصاء :

« إن العلامة الكبير (باستور) وهو أكبر عقل ظهر فى القرن الماضى كتب يقول :

« الايمان لا يمنع أى ارتقاء كان ، لأن كل ترق يبين ويسجل الاتساق البادى فى مخلوقات الله . وإذا كنتُ علمتُ أكثر مما أعلم اليوم ، لكان إيمانى بالله أشد وأعمق مما هو عليه الآن . »

وعقب على هذا بقوله :

« إن العلم الصحيح لا يمكن أن يكون ماديا ، ولكنه على خلاف ذلك يؤدى إلى زيادة العلم بالله ، لأنه يدل بواسطة تحليل الكون على مهارة وتبصر ، وكمال عقل الحكمة التى خلقت النواميس المدبرة للوجود ، كمالا لا حد له .

وقد ثبت أن الايمان إنما نشأ لدى أصحاب القرائح العالية من ممارستهم للعلم .

إن باستور العظيم ، حتى فى عهد ازدهار المذهب المادى فى أوربا ، أوتى من الشجاعة ما جعله يؤكد ما سبق للطبيعى الإنجليزى المشهور (فاراديه) تأكيده قبله . فصرح أمام جميع أعضاء الاقاذيميا الفرنسية فى حفلة انتخابه لعضويتها بعقيدته قائلا :

« إن الاعتقاد فى وجود الله ووجوب احترامه قد توارد الى عقلى من طرق ثابتة كثبوت الطريق التى تقودنا إلى حقائق النظام المادى » .

أما الدكتور (وتز) Wutz الكيمائى وعضو أقاذيميا العلوم وأستاذ وعميد كلية الطب الباريزية فقد كتب يقول :

« إذا أحسست فى حين من الأحيان أن عقيدتى بالله قد ، تزعزت وجهت وجهى إلى أقاذيميا العلوم لتثبيتها .

وهذا الفيلسوف (ديكارت) المشهور عندما كان بسبيل بيان العلاقات بين الدين والعلم ، عرفهما بقوله :

« إن حقائق ما فوق الطبيعة هى الجذور الحقيقية لشجرة العلم ، وهى بدونها تجف وتذبل ، وتتصوح أوراقها وتسقط »

وإليك ما قاله الطبيعى (ريومور) مؤكداً :

« إن التاريخ الطبيعى هو تاريخ أعمال الخالق ، ولا يوجد دليل فى متناول عقل جميع الناس على صحة ذلك غير ما يسمح به هذا العلم »

وقال الفلكى الكبير (فاى) Faye العضو بأقاذيميا العلوم فى مؤلفه (أصل العوالم) :

« من الخطأ القول بأن العلم يفضى بصاحبه الى نكران وجود الله » .

وقال الجيولوجى الذائع الصيت (ادموند هربرت) المدرس بجامعة السوربون:

« العلم لا يمكن أن يؤدى الى الكفر ، ولا الى المادية ، ولا يفضى الى التشكيك » .

وهذا العلامة (ميلن ادواردس) العضو بأقاذيميا العلوم ، ومدرس علم الحيوانات بمتحف التاريخ الطبيعى ، قال فى محاضرة له بجامعة السوربون فى عرض على نظريات الفلسفة المادية :

« هذه الفروض الباطلة ، وأولى بك أن تقول هذه الضلالات العقلية التى يسمونها أحيانا باسم العلم الحسى ، يدحضها العلم الحق نفسه ؛ وعلماء التاريخ الطبيعى لا يستطيعون تصديقها اليوم ، كما كانوا لا يصدقونها على عهد ريومور ، ودولينيه ، ودوكوفييه ، وعدد كبير آخر من أهل الألمعية ؛ ولا يستطيع هؤلاء الأعلام أن يفهموا الظواهر الطبيعية ، إلا بعزو حدوثها الى خالق الكون نفسه » .

هذه آراء بعض اقطاب العلم الطبيعى ، ولدينا منها الشىء الكثير ، وجميعهم يقررون ، كما ترى ، أن سبب إيمانهم بالخالق جل شأنه هو العلم الطبيعى نفسه ، فإذا كان أنصاف العلماء وطلاب العلوم يتأدون منه إلى عكس هذه النهاية ، فليس العاب فى ذلك على العلم ، ولكن على انخداعهم بنظرياته ، واعتبارها أمورا مقررة ثابتة ثبوت المحسوسات ، وهذا خطأ جسيم لم يقل به عالم يعتد برأيه الى اليوم .

إن طالب العلوم الطبيعية ، كثيرا ما يفتتن بتعليلاتها للمشاهدات تعليلا يمكن تحقيقه بالعمل ، ولكن هذا التعليل العلمى لا يتعدى العلل القريبة من تفاعلاتها ، أما العلل البعيدة التى تتعلق بوجودها ، وبتطوراتها ، وبحركاتها الباطنة ، فتخفى على أسمى العقول ، وتدع المجال واسعا أمام الفروض والظنون المتعاكسة .

طالب العلم ينخدع من إمكانه تعليل بعض ظواهر الطبيعة ، ويبنى على ذلك قصورا من الأوهام ؛ فاذا سألته عن سر عدم سقوط القمر على الأرض ، علله بأنه يجب أن يكون مجذوبا بكواكب أخرى تمسكه فى مدار لا يتعداه ، ويغفل عن أن الجاذبة العامة إن عللت تجاذب الكواكب فلا تعلل حركاتها . فقد سئل نيوتن مكتشف هذا الناموس نفسه عن دليل لا يمكن دحضه يثبت به وجود الخالق ، فقال : إذا قررنا أن الكواكب لا يتساقط بعضها على بعض لأنها متجاذبة من جميع جهاتها ، فما الذى يدفعها لتسبح فى الفضاء فى أفلاك بعضها حول بعض ؟ أليس يدل هذا دلالة قاطعة على أن يد الله هى التى تديرها ؟ » .

محمد فريد وجدى

المساجد الثلاثة

المسجد الحرام ـ المسجد النبوى ـ المسجد الأقصى

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ طه محمد الساكت
المدرس بالأزهر

عن أبى هريرة رضى الله عنه ، عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « لا تُشَدُّ الرحال [١] إلا إلى ثلاثة مساجد : مسجدى هذا ، والمسجد الحرام ، والمسجد الأقصى » [٢] . رواه الشيخان .

أفضل بقاع الأرض المساجد ، ما فى ذلك ريب : وكفى أنها بيوت الله التى أذِن أن ترفع ويُذكر فيها اسمُه . وهى — وإن شرُفت كلها بانتسابها إلى الله عز وجل — تختلف شرفا وفضلا باختلاف قدمها وسعتها ، واقترابها من السنة وابتعادها .

وقد رفع الله ثلاثة منها درجات ، فقدّمها على ما عداها ، وكرّمها ، وفضّلها تفضيلا ؛ وتلك هى التى نوّه بأسمائها [٣] رسول الله صلى الله عليه وسلم فى هذا الحديث .

أما المسجد الحرام فهو أعظمها فضلا ، وأجلها شأنا ، وأرفعها مكانا ؛ جعله الله مثابة للناس وأمنا ، فى مكة البلد الأمين ، مهبطِ الوحى ، ومبعث الرسالة ، ومولِد خاتم النبيين ، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين . اختاره الله تعالى قبلة لعباده ، وجعل زيارته ركنا من أركان دينه ، وأمر أبا الأنبياء خليله إبراهيم

---

(١) الرحل للبعير كالسرج للفرس ، وشد الرحال كناية عن السفر مطلقا .

(٢) سمى بذلك لبعده عن مسجد مكة أو المدينة ، أو لأنه لم يكن وراءه مسجد ، أو لبعده عن القذر والرجس .

(٣) نوه باسمه : إذا رفع ذكره .

عليـه السلام أن يبنيه ويرفع قواعـده ، ويؤذِّن فى الناس بالحج إليه ؛ ليأتوه رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق. وليس على وجه الأرض موضع يجب على كل قادر أن يسعى إليه ، ويطوف به ، ويقبّل بعضه إلا هـذا البيت. وحسبك ما روى أن الصلاة فيه بمائة ألف صـلاة فيما سواه ، وما صح أن من حجه مخلصا لله فلم يرفث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه. وهل تنتظر شهادة على فضله أبلغ من قول أصدق القائلين فيه « إن أول بيت وُضع للنـاس لَلَّذى ببكة مباركا وهدى للعالمين. فيه آيات بينات مقامُ ابراهيم، ومن دخله كان آمنا ، ولله على الناس حِج البيت من استطاع إليه سبيلا ، ومن كفر فإن الله غنى عن العالمين » ؟

ويلى المسجدَ الحرام فى الفضل مسجدُ النبى صلى الله عليه وسلم ، على ما ذهب اليه العلماء. قال النووى فى شرح قوله صلى الله عليه وسلم : « صلاة فى مسجدى هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام »[1] : اختلف العلمـاء فى المراد بهذا الاستثناء على حسب اختلافهم فى مكة والمدينة : أيتهما أفضل ؟ ومذهب الشافعى وجماهير العلماء أن مكة أفضل من المدينة ، وأن مسجد مكة أفضل من مسجد المدينة. وعكسه مالك وطائفة ؛ فعند الشافعى والجمهور : معناه إلا المسجد الحرام ، فإن الصلاة فيه أفضل من الصلاة فى مسجدى. وعند مالك وموافقيه : إلا المسجد الحرام ، فإن الصلاة فى مسجدى تفضله بدون الألْف[2]. ويؤيد مذهب الجماهير ما رواه الترمذى والنسائى عن عبد الله بن عدى رضى الله عنه أنه سمع النبى صـلى الله عليه وسلم ، وهو واقف على راحلته بمكة يقول : « والله إنكِ لخير أرض الله ، وأحب أرض الله إلى الله ، ولولا أنى أُخرجت منكِ ما خرجت » ؛ وما رواه الإمام أحمد عن عبد الله بن الزبير رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « صلاة فى مسجدى هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه من المساجد إلا المسجد الحرام ، وصلاة فى المسجد الحرام أفضل من مائة صلاة فى مسجدى ».

(١) رواه الشيخان عن أبى هريرة .

(٢) انظر النووى على مسلم ، والفتح على البخارى ، ووفاء الوفا بأخبار دار المصطفى ـ فى الكلام على المساجد الثلاثة .

وقد بناه النبي صلى الله عليه وسلم ، وأسسه على التقوى من أول يوم (١) بعد مَقدَمه من مكة إلى المدينة ، دار السلام ، وموئل الإسلام ؛ من بعد أن أسس مسجدَ قُباء (٢) فى بنى عمرو بن عوف ، وكان قد أقام فيهم أربع عشرة ليلة .

أمر صلوات الله وسلامه عليه باتخاذ اللَّبِن فاتخذ ، وبنى المسجد فى مَبرَك ناقته ، وهو يومئذ مِرْبد تمر (٣) ليتيمين فى المدينة ، وكانا راغبين أن يجعلا ثمنه هبة لله ورسوله ، فأبى صلى الله عليه وسلم إلا الثمن ، وابتاعه منهما بعشرة دنانير ، أداها من مال أبى بكر رضى الله عنه ، ثم سُقف بالجريد ، وجعلت عُمُده من خشب النخل ، وعمل فيه المهاجرون والأنصار ، وكان صلى الله عليه وسلم ينقل معهم اللَّبِن فى بنائه ، وهو يتمثل بقول عبد الله بن رَواحة رضى الله عنه :

هَذَا الحِمَالُ ، لا حِمَالُ خَيْبَرْ ... هَذَا أَبَرُّ - رَبَّنا - وَأَطهرْ (٤)

وقوله :

اللهم إنَّ الأجرَ أجرُ الآخرهْ ● فارحمِ الأنصارَ والمُهاجرهْ

وجعلت قبلته الى بيت المقدس ؛ وكان صلى الله عليه وسلم يصلى نحو بيت المقدس بعد مقدمه الى المدينة حتى ولاه الله القبلة التى يرضاها وهى الكعبة البيت الحرام ، على رأس سبعة عشر شهرا ؛ ومما جاء فى فضل هذا المسجد ماروواه الامام أحمد باسناد صحيح من حديث أنس رفعه « من صلى فى مسجدى أربعين صلاة لا تفوته صلاة كتب له براءة من النار ، وبراءة من العذاب ، وبراءة من النفاق ».

وأما المسجد الثالث فهو بيت المقدس ، مسجد الأنبياء السابقين ، وقبلة الأمم السالفين ، وقبلة هذه الأمة كذلك سَبعة عشر شهرا كما قدمنا آنفا ؛ وورد أن الصلاة فيه بخمسمائة صلاة فيما سواه (٥) إلا المسجد الحرام والمسجد النبوى .

---

(١) إشارة إلى الآية الكريمة « لمسجد أسس على التقوى من أول يوم ... » وسيسفر لك وجه الحق فى سبب نزولها .

(٢) قباء من عوالى المدينة على نحو ثلاثة أميال منها ، وهى فى الأصل اسم بئر فى هذا الموضع . (٣) المربد بوزن منبر : الجرين أو مربط الابل .

(٤) أى المحمول من اللبن والحجارة فى بنيان هذا المسجد ، أبر وأزكى عندك ياربنا من أحمال خيبر تمرها وزبيبها . (٥) رواه البزار باسناد حسن .

وروى النسائى عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : إن سليمان بن داود عليهما السلام لما بنى بيت المقدس سأل الله عز وجل خلالا ثلاثا : حكما يصادف حكمه [١] فأوتيه ؛ وملكا لا ينبغى لأحد من بعده فأوتيه ؛ وسأل الله تعالى حين فرغ من بنائه ألا يأتيه أحد لا ينهزه [٢] إلا الصلاة فيه أن يخرجه من خطيئته كيوم ولدته أمه . وروى أبو داود عن ميمونة مولاة النبى صلى الله عليه وسلم [٣] أنها قالت : يارسول الله ، أفتنا فى بيت المقدس ، فقال « إيتوه فصلوا فيه ، فان لم تأتوه وتصلوا فيه فابعثوا بزيت يسرج فى قناديله » .

هذه هى المساجد الثلاثة المقدسة ، التى تشد الرحال اليها ، وتحتمل المشاق فى سبيلها ، وتنفق النفقات فى زيارتها والصلاة فيها ؛ وأما غيرها فلا يدركها فى هذه المنزلة ، ولا يلحقها فى تلك المزية . فالذين يتحملون النفقات فى السفر الى مسجد سواها ، أو يرهقون أنفسهم فى الذهاب الى غيرها ، جاهلون بسنة نبيهم ، أو متبعون لأهوائهم [٤] ؛ وحق على أهل العلم أن يهدوهم صراطا سويا .

نعم ؛ إن الرحلة للقاء الصالحين ، أو الأخذ عن العلماء العاملين ، أو النظر فى ملكوت السموات والأرض ؛ كل ذلك مما رغب فيه الكتاب والسنة وشهدت به سيرة السلف ؛ قال الامام الغزالى : كان سعيد بن المسيب يسافر الأيام فى طلب الحديث الواحد . وقال الشعبى : لو سافر رجل من الشام الى أقصى اليمن فى كلمة تدله على هدى أو ترده عن ردى ما كان سفره ضائعا . ورحل جابر بن عبد الله الى مصر مع عشرة من الصحابة ، فساروا شهرا فى حديث بلغهم عن عبد الله ابن أنيس الأنصارى يحدث به عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى سمعوه [٥] . والأخبار والآثار فى الارتحال الى طلب العلم ، وزيارة الاخوان ، والتدبر فى آيات الكون ، وآثار السابقين ، أكثر من أن يلم بها كتاب فضلا عن مقال .

(١) أي أن يكون حكمه موافقا لحكم الله عز وجل وشريعته .
(٢) لا يخرجه ولا يدفعه .
(٣) خادمه .
(٤) ومن هؤلاء أقوام أولعوا بالموالد ، ورأوا فرضا عليهم أن يؤذوا مساجد الله وعباده ، بشدة زحامهم ، وكثرة ضجيجهم ، وبالغ أقذارهم .
(٥) انظر إحياء العلوم فى آداب السفر .

وألحق بعض العلماء مسجد قباء بهذه الثلاثة فأجاز شد الرحال اليه لأنه أول مسجد بنى فى الإسلام ، وأول مسجد أعلن فيه النبى عليه والصلاة والسلام الجماعة بأصحابه ، وأول مسجد بنى لجماعة المسلمين عامة ، وكانت المساجد قبلة خاصة للأفراد أو القبائل ، وكان النبى صلى الله عليه وسلم يزوره كل سبت راكبا أو ماشيا ، وكان ابن عمر رضى الله عنهما يحرص على ذلك اقتداء به صلى الله عليه وسلم .

واختلف العلماء فى أى المسجدين نزل قوله تعالى « لمَسجدٌ أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه » ؟ فذهب جماعة — منهم مالك — الى أنه مسجد قباء محتجين بما أخرجه مسلم عن أبى سعيد قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المسجد الذى أسس على التقوى ، فقال : هو مسجدكم هذا ، يعنى مسجد المدينة . قال النووى : وهذا نص بأنه المسجد الذى أسس على التقوى المذكور فى القرآن ، ورد لما يقول بعض المفسرين أنه مسجد قباء .

والحق كما قال الحافظ ابن حجر أن كلا منهما أسس على التقوى من أول يوم بنى فيه ، وأن قوله تعالى فى بقية الآية « فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطَّهِّرين » يؤيد أن المراد مسجد قباء كما روى فى سبب نزولها بسند صحيح . والسر فى إجابته صلى الله عليه وسلم بأنه مسجد المدينة رفع ما يخطر بالبال من أن التأسيس على التقوى خاص بمسجد قباء ، وبيان أن مسجد المدينة يشاركه فى هذه المزية ، ويمتاز عنه بفضائل أخرى . (١)

* * *

وبعد ، فإن الحنيفية السمحة تدعو الى الأسفار النافعة ، والرحلات المباركة ، التى تثمر ثمرها وتؤتى أكلها ، وتدل على الخير والهدى ، وتدفع الشر والردى ؛ كما تحذر من الأسفار العابثة والضائعة ، التى لا تكسب صاحبها فى الدين أجرا ، ولا فى الدنيا خيرا ؟

(١) وأما زيارته صلوات الله وسلامه عليه فكان المقصود الأول منها مواصلة أهل قباء وتفقد أحوالهم وأحوال من غاب منهم عن شهود الجمعة معه وهذا هو سر تخصيص الزيارة بالسبت .

فطـــــرة الله

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد محمد المدنى
المدرس فى كلية الشريعة

قال الله تعالى : « فأقِمْ وجهَك للدِّينِ حَنيفاً ، فِطْرةَ الله التى فَطَرَ الناسَ عليها ، لا تبديلَ لخَلْقِ الله ، ذلك الدينُ القيِّم ، ولكنَّ أكثر الناسِ لايعلمون » .

يذكر الله عز وجل فى هذه الآية ، أن الاعتراف به ، وإفراده بالألوهية ، فطرةٌ فَطرَ الناسَ عليها ، فاذا خُلِىَ المرءُ ونفسه ، حَكم بأنه مربوب لإله قادر حكيم ، خلقه وأنعم عليه ، وأن هذا الإله واحد لا شريك له ، ولا سلطان لأحد مع سلطانه ؛ يرشده إلى ذلك عقله الذى ركب فيه ، ومنح قدرة يستطيع بها إدراك الحقائق ، والتمييز بينها وبين الأباطيل ، فهو يقول لنفسه : أنا قد وجدت بعد أن لم أكن ، فمحال أن يكون وجودى بدون مُوجد ، ثم هذا المُوجِد الذى أوجدنى لابد أن يكون قادراً حكيما منعما ، لأنه قد أوجد كثيراً من أمثالى ، وأنعم علينا بنعم لا تعد ولا تحصى ، تحيط بنا من كل جانب ، ولم يتركنا فى هذه الحياة دون أن يمنحنا وسائل العيش فيها ، وأدوات السكون والقرار إليها ، وقد جعل ذلك كله على نظام محكم متقن ، لا يعتريه الخلل ، ولا يتطرق إليه الفساد ؛ ولا بد أن يكون الموجد لهذا كله ، والمنعم بهذا كله ، والمتقن لهذا كله ، إلهاً واحداً ليس كمثله شىء ، لأنه لو كان متعدداً له نظير أو نظائر ، لاضطرب النظام ، وفسد الكون ، وذهب كل إله بما خلق ، وعلا بعضهم على بعض ...

هذه القوة الفطرية المركوزة فى الإنسان ، والتى ترشده إلى إدراك الحق والواقع فى شأن الألوهية إذا خلا من المؤثرات المصنوعة ، والعوامل الطارئة — هى التى يذكرها الله عز وجل فى هذه الآية ، ويذكرها فى آيات أخرى ، على صورة أخرى ، إذ يقول : « وإذ أخذ ربُّك من بنى آدم من ظهورهم ذريَّتهم ، وأشهدهم على أنفسهم : ألستُ بربكم ؟ قالوا : بلى شهدنا ، أن تقولوا يوم القيامة

إنا كنا عن هذا غافلين ، أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبلُ ، وكنا ذريةً من بعدهم ، أفتُهلكنا بما فعل المبطلون . وكذلك نفصّل الآيات ، ولعلهم يَرجعون » (١٧٢ — ١٧٤ / الأعراف) .

فسواء أكان هذا من قبيل الحقائق التى وقعت وأخبرنا الله بها ، أم من قبيل التمثيل والتصوير ، فقد اعترف أبناء آدم بأن لهم ربا ، وأن هذا الرب هو المستحق وحده لعبادتهم ؛ اعترفوا بذلك قولا ونطقاً ، أو تكويناً وخَلقاً ، فلم يعد لأحد عذر فى أن يخرج على هذه الحقيقة التى آمن بها وقررها ، وهو خال من كل مؤثر ، بعيد عن كل إضلال وتحكم ؛ ولم يعد لأحد حق فى أن يزعم أنه إنما أشرك بالله لأن آباءه قد أشركوا فهو قد ورث عنهم الباطل من حيث لا يدرى ، ولم يدعه ويخترعه من ذات نفسه حتى يؤاخذ به ويعاقب عليه ؛ لم يعد لأحد أوتى العقل أن يعتذر بهذا العذر ، أو يحتج بهذه الحجة ، وفى الكون آيات ، وفى الخلق شواهد بينات ! .

وشبيه بهذا فى القرآن الكريم أيضاً قوله تعالى : « واذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه الذى واثقكم به ، إذ قلتم سمعنا وأطعنا » (٧ / المائدة) .

والقرآن الكريم يسوق هذه الفطرة التى من شأنها أن تؤمن بالله وتفرده بالربوبية ، مساقا آخر حين يتحاكم إلى العقول وما فى الكون من آيات وشواهد تدل على الله ، فيقول : « وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم . إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون » (١٦٣ — ١٦٤ / البقرة) .

ويقول : « ولله ملك السموات والأرض ، والله على كل شىء قدير . إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب ؛ الذين يذكرون الله قياما وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ، ربنا ماخلقت هذا باطلا ، سبحانك » . (١٨٩ — ١٩١ / آل عمران) .

ويقول : « أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج . والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج ؛ تبصرةً وذكرى لكل عبد منيب ، ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحبَّ الحصيد ، والنخلَ باسقات لها طلع نضيد ، رزقا للعباد ، وأحيينا به بلدة ميتاً ، كذلك الخروج » (٦ — ١١ / ق) .

ويقول : « أم اتخذوا آلهة من الأرض هم يُنشِرون . لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ، فسبحان الله رب العرش عما يصفون . لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون . أم اتخذوا من دونه آلهة ، قل هاتوا برهانكم ، هذا ذكرُ من معى وذكر مَن قبلى ، بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون » . (٢١ — ٢٤ / الأنبياء) .

بل يصل فى تعظيم شأن البرهان والعقل إلى أن يقول : « ومن يدْع مع الله إلهاً آخر لا برهانَ له به ، فإنما حسابُه عند ربه » (١١٧ / المؤمنون) .

ومن المعلوم أنه لا برهان لمن يدعو مع الله إلهاً آخر ، ولكنه مع ذلك ساقه مساق الممكن ، اعتداداً بالعقل وثقة بحكمه .

إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة المنبثة فى الكتاب الكريم التى تخاطب العقول ، وتستشهد بما فى الكون من آيات ؛ ونفهم منها أن الله جلت حكمته قد طبع الخلق وفطرهم على الإيمان به وتوحيده ، وأن مظهر ذلك هو العقل الذى لا يسعه حين يتدبر الدلائل ويرى هذا الكون البديع إلا أن يعترف ويؤمن بصانعه القدير .

وقد جمع الله عز وجل فى بعض الآيات بين العهد الذى أخذه ، والعقل الذى أودعه ، ومن ذلك قوله : « إنما يتذكر أولو الألباب ، الذين يُوفُون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق » (١٩ — ٢٠ / الرعد) . وقوله : « ألم أعهد إليكم يا بنى آدم ألا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين ، وأن اعبدونى ، هذا صراط مستقيم ، ولقد أضل منكم جِبِلاً كثيرا أفلم تكونوا تعقلون » (٦٠ — ٦٢ / يس) .

ولقد حدثنا القرآن الكريم أن المشركين أنفسهم لم يكونوا منكرين لهذه الفطرة إنكاراً صريحاً ، ولكنهم كانوا يبررون ماهم عليه من شرك بمبررات يزعمونها ، كأن يقولوا : « هؤلاء شفعاؤنا عند الله » (١٨ / يونس) أويقولوا : «ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى » (٣ الزمر) . وأنهم حين يسألون عن مصدر هذا الوجود ، ومفيض هذا الإنعام ، يعترفون بأنه الله وحده دون هؤلاء الشركاء الذين اتخذوهم ؛ ولذلك انتفع الرسل بهذه الفطرة ، وخاطبوا فى أممهم هذه الغريزة ، واتخذوا منها حجة قائمة دامغة على تناقض المشركين مع أنفسهم ، وخروجهم على مقتضى العقل : « ولئن سألتهم من خلقهم ليقولُن الله فأنى يؤفكون » (٨٧ / الزخرف) « قل من يرزقكم من السماء والأرض أم من يملك السمع والأبصار ، ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ، ومن يدبر الأمر ، فسيقولون الله ، فقل أفلا تتقون» (٣١ / يونس) « أم من خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذاتَ بهجة ما كان لكم أن تُنبتوا شجرها ؟ أإله مع الله ؟ بل هم قوم يَعدِلون . أم من جعل الأرض قَراراً وجعل خلالها أنهاراً وجعل لها رواسى وجعل بين البحرين حاجزاً ؟ أإله مع الله ؟ بل أكثرهم لا يعلمون . أم من يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض ؟ أإله مع الله ؟ قليلا ما تذكرون . أم من يهديكم فى ظلمات البر والبحر ومن يرسل الرياح بُشْراً بين يدى رحمته ؟ أإله مع الله ؟ تعالى الله عما يشركون » (٦٠ — ٦٣ / النمل) .

وهكذا يقف أمامهم رافعاً لواء الحق فى قضية تعرفها عقولهم وتؤمن بها فطرهم ، فيبنى عليها ، ويجادلهم على أساس التسليم بها ، والإذعان لها ، ويفتن فى تعجيبهم والتعجيب منهم ، فى هجوم عنيف ، وسخرية موجعة ، وكأنه يمسك بتلابيبهم ، أويقبض على نواصيهم أن يفلتوا من الحجة ، أويتهربوا من لوازمها البينة ، فهم منها فى قيد أىّ قيد ، يحاولون الخلاص ، ولات حين مناص !

ولم يكن ذلك شأن المشركين على عهد محمد صلى الله عليه وسلم فحسب ، وإنما هو شأنهم على عهد كل رسول : كانوا يلتوون عن مقتضى الفطرة فيجابههم بها رسلهم ، ويتخذون منها الحجة القاطعة عليهم ؛ وفى ذلك يقول الله عز وجل :

« ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود ، والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله ؛ جاءتهم رسلهم بالبينات فردُّوا أيديَهم فى أفواههم وقالوا : إنا كفرنا بما أرسلتم به ، وإنا لفى شك مما تدعوننا إليه مريب . قالت رسلهم أفى الله شك فاطرِ السموات والأرض » (٨ - ٩ / ابراهيم) .

وكما جاء القرآن الكريم باثبات هذه الفطرة ، والمحاجّة على أساسها ، جاءت السنة الصحيحة بذلك :

أخرج البخارى ومسلم فى صحيحيهما عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كل مولود يولد على الفطرة — وفى رواية على هذه الملة — فأبواه يهوّدانه أوْ ينصّرانه أَو يمجّسانه » .

وفى صحيح مسلم عن عياض ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يقول الله : إنى خلقت عبادى حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم » أى حوّلتهم .

وأخرج النسائى فى سننه عن الحسن بن أبى الحسن البصرى ، قال : حدثنى الأسود بن سريع ، قال : غزوت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم أربع غزوات قال : فتناول القوم الذرية بعد ما قَتلوا المقاتِلة ، فبلغ ذلك رسولَ الله صلى الله عليه وسَلم فاشتد عليه ، ثم قال : « ما بال أقوام يتناولون الذرية ؟ ! » فقال رجل : يا رسول الله أليسوا أبناء المشركين ؟ فقال : « إن خياركم أبناء المشركين ! ألا إنه ليست نسَمة تولد إلا ولدت على الفطرة فما تزال عليها حتى يبين عنها لسانها ، فأبواها يهودانها وينصرانها » .

فكل هذه الأحاديث تدل على ما يدل عليه القرآن الكريم من أمر الفطرة ، وأن الذى يصرف عنها إما تقليد للآباء ، وإما صارف من الهوى والشيطان .

وفى الحديث الثالث ما يدل على أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يأبى أن يعامل أبناء المشركين بما يعامل به آباؤهم من القتل ، أملا فى أن يثوبوا - إذا بلغوا الرشَد - إلى فطرة الله التى فطر الناس عليها ، ويقاوموا بالعقل أسباب التعصب وبواعث الهوى ؟

بمناسبة المولد النبوى

سيد الانبياء فى شعر أمير الشعراء

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبد الحميد عنتر
المدرس بكلية اللغة العربية

أعتقد أنه لم يحفل شاعر من شعراء النهضة الحديثة ، فى مصر أو فى الشرق العربى ، بمدح رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم ، مثلما حفل بذلك أمير الشعراء أحمد شوقى بك . هنأ الله روحه ، وأمطر جدثه شآبيب رحمته ، وأفاض عليه من سجال رضوانه !

كما أعتقد أن هذه الحفاوة البالغة بالرسول عليه السلام ، من شاعر مُلهَم مجيد ، أثر من آثار محبة هذا الشاعر للمدوح ، ولما جاء به من شريعة مُحكمة ، جمعت إلى التوحيد محاسن الخصال ، ومكارم الأخلاق ، ونظاما كاملا للحياة الإنسانية الهنيئة السعيدة !

وقد ظهرت هذه المعانى واضحة جلية فى شعره الذى سنعرض لذكر أبيات منه عند المناسبة .

ولئن تأثر شاعرنا فى هذا الغرض الشعرى بشعر مادح رسول الله فى عصر المماليك ، الإمام المحب للحضرة النبوية ، الشاعر الذائع الصيت ، سيدى محمد البوصيرى ، إن لشعر أمير الشعراء ديباجة شعرية خاصة ، ومعانى خيالية مُلهَمة ، وأساليب من السهل الممتنع ، تكاد تضارع أساليب الشعر فى العصر العباسى الأول ! وحسبى أن أورد على دعواى هذه دليلين من أدلة كثيرة أضرب عنها صفحا لطول الكلام :

ا — قال البوصيرى فى مطلع همزيته :

كيف ترقى رُقيَّك الأنبياءُ   يا سماءً ما طاولتها سماءُ ؟ !

وقال شوقى فى افتتاح همزّيته النبوية :

وُلد الهُدى فالكائنات ضياءُ   وفمُ الزمان تبسُّمٌ وثناءُ !

فالقارىء الأديب يحسّ الفارق الكبير بين المعنيين ، ويدرك بوضوحٍ تجلى الروح الشاعرية الفنيّة فى بيت شاعرنا ، وظهور الحقيقة الواقعية المتسمة ببعض الخيال فى بيت الإمام .

ب — قال البوصيرى فى مطلع البرءة ، أو البردة :

أمِن تذكّر جيرانٍ بذى سَلَمِ   مزجتَ دمعاً جرى من مُقلة بدمِ؟!

وقال شوقى فى مطلع نهج البردة :

رِيمٌ على القاع بين البان والعَلَمِ   أحلّ سفكَ دمى فى الأشهر الحُرُمِ [1]

المعنى فى بيت البردة مطروق بين الشعراء القدامى والمحدثين ، وهو فى بيت النهج مبتكر جديد ، أودع فى ثوب من جوهر اللفظ قشيب . ومع هذا فإليك ما يقوله أمير الشعراء تواضعاً منه وتأدباً مع الإمام البوصيرى :

يا أحمدَ الخير لى جاهٌ بتسميتى   وكيف لا يتسامَى بالرسول سَمِى [2]؟!

المادحون وأربابُ الهوى تَبَعٌ   لصاحب البردة الفيحاء ذى القَدَمِ [3]

مديحه فيك حب خالص وهَوًى   وصادقُ الحب يملى صادقَ الكلم

الله يشهد أنى لا أعارضه   من ذا يعارض صَوْبَ العارض العَرِمِ [4]

وإنما أنا بعض الغابطين ومنْ   يغبط وليَّك لا يُذمِمْ ولا يُلَمِ .

---

(١) الريم بالياء : أصله الرئم بالهمز ، وهو ولد الظبى . والقاع : الأرض المستوية . والبان : شجر . والعلم : الجبل .

(٢) من أسماء الرسول عليه السلام أحمد ، واسم شوقى أحمد ، فهو سمى الرسول ، ويتسامى : يتعالى .

(٣) أى التقدم والمنزلة .

(٤) العارض : السحاب . والعرم : المطر الشديد .

وبعد ، فليس هـذا المقام مقام موازنة أدبية بين البوصيرى وشوقى، وإنما هو مقام تجلية المدائح النبوية فى شعر من شهد له شعراء المشرقين بالزعامة والإمارة على جميع شعراء هذا العصر . فلنسر فى هذا الطريق فنقول :

تجلّى مدح شوقى لرسول الله فى أربع قصائد من قصائده الغُرّ ، جاءت كل قطعة منها صورةً فنّية رائعة ، تمثّل المعانى التى تضمنتها أبدع تمثيل ، وتسمو بقارئها وسامعها من التخييل إلى التحقيق ، حتى كأنه يلبس المعنى من اللفظ بدون كدّ أو عناء !

١ ــ اختير أمير الشعراء ممثّلا للحكومة المصرية فى المؤتمر الشرقى الدّولى ، الذى عقد فى مدينة جنيف بسويسرة عام ١٨٩٤ م فأنشد قصيدته الهمزية العصماء ، التى عنوانها « كبار الحوادث فى وادى النيل » .

وهى تُربى على ثلاثمائة بيت من حُرّ الشعر وخالص القريض : طرق فيها موضوعات شتى ، ثم أفاض فى مولد المسيح عيسى عليه السلام ، وفى هَرَم دولة القياصرة ، وانتشار الظلم والضلال والفساد فى أنحاء العالم شرقاً وغرباً ، وانغماس أكثر الناس فى عبادة الأوثان ، واستيلاء الجهل على النفوس ، حتى أظلم الشرق والغرب ، وعمّت الفوضى ، وتطلعت القلوب إلى السماء متضرعة أن تنقذها من تلك الفوضى العاتية ، وأن تبدد عنها ذلك الظلام الحالك ، ثم قال عفا الله عنه :

أشرقَ النُّور فى العوالم لمّا ... بشّرتها بأحمدَ الأنباءُ
باليتيم الأمّى والبشَر المُو ... حَى إليه العلومُ والأسماءُ
قوة الله إن تولّت ضعيفاً ... تعبت فى مِراسه الأقوياء (١)
أشرفُ المرسلين آيته النطـ ... ـقُ مُبيناً وقومُه الفُصَحاء
جاء للناس والسرائر فَوضَى ... لم يؤلّف شتاتهن لواءُ
وحِمَى الله مستباحٌ وشرع الـ ... ـلّهِ والحقُّ والصواب وراءُ

(١) المراس : الممارسة والمعالجة .

فلجبريلَ جيئةٌ ورواحٌ وهبوط إلى الثرى وارتقاءُ
يحسب الأفقُ فى جناحيه نوراً سلبته النجومُ والجوزاءُ
تلك آى الفرقان أرسلها اللـــهُ ضياءً يهدى بها من يشاء
نسخت سنةَ النبيين والرسـلِ كما ينسخُ الضياءَ الضياءُ

وهاك ما قاله فى إنصاف عمرو بن العاص الذى تولى فتح مصر، فجلب لأهلها العدل والنصَفة، وجلب للاسلام بها الخير والبركة؛ وقد أشاد الشاعر بالنيل العظيم، وأبان بأن من يستولى عليه فقد استولى على قارة أفريقية، وأن أفريقية يعلو شأنها، ويستقيم أمرها إذا حرر وادى النيل من منبعه الى مصبه، بجلاء الأعداء عن أراضيه، وأن فى استرقاق النيل رق هذا القسم من اليابسة؛ وذلك إزراء شائن، وعيب فاضح! قال:

فابك عمراً إن كنت منصف عمرو إن عمـراً لنيّر وضّـاء
جـاد للمسلمين بالنيـل والنيـل لمن يقتنيـه أفـريقاء
فهى تعلو شـأنا إذا حرر النيـل وفى رقـه لهـا إزراء

رحم الله أمير الشعراء! لقد كان وطنيا مخلصا لوطنه، قبل أن يكون شاعرا خياليا مجيداً لشعره!

٢ — تنقل معى أيها القارىء إلى روضة أخرى من رياض شوقى فى مدح فخر الكائنات، لترى كيف يكون التفنن فى القول، ولتعرف مقدرة هذا الشاعر على إبراز شاعريته وإبداع تفننه فى مقام واحد، بأساليب شتى، وأفانين مختلفة. قال من قصيدته فى ذكرى المولد النبوى:

تجـلى مولد الهـادى وعمّت بشائره البـوادى والقصابا (١)
وأسـدت للـبرية بنتُ وهب يداً بيضـاء طـوّقت الرقابا
لقد وضعته وهّـاجا منـيراً كما تـلد السمواتُ الشهـابا
فقام عـلى سمـاء البيت نوراً يضىء جبال مكة والنقابا (٢)

(١) المدن الكبيرة، ومفردها قصبة.
(٢) جمع نقب وهو الطريق فى الجبل.

وضاعت يثرب الفيحاء مسْكاً وفاح القاع أرجـــاء وطابا [١]

ثم قال مخاطبا الرسول عليه السلام ، يذكر تفرق المسلمين ، وينعَى عليهم تضييع سنة الرسول وطريقته المثلى ، وهجرهم أخلاقه وأخلاق أصحابه التي سادوا بها الأمم :

وما للمسلمين ســواك حصن إذا ما الضُّر مسّهم ونابا !
ولو حفظوا سبيلك كان نوراً وكان من النحوس لهم حجابا !
بنيت لهم من الأخلاق ركناً فخانوا الركن فانهدم اضطرابا !
وكان جنابهــم فيها مهيباً وَللأخلاق أجدر أن تهابا !
فلولاهـــا لساوى الليث ذئبـاً وساوى الصارمُ الماضى قرابا [٢]

أظنك أيها القارىء ترى معى أن هذا الشعر غنى بوضوحه عن الشرح والبيان ، وأنه جمع إلى جمال الأسلوب الشعرى فى المديح نصاعة الحكم والنصائح الغالية ، وتدرك منه تجلى روح الشاعر لإبراز محبة الرسول عليه السلام ، ومحبة شرعه المحكم وما اشتمل عليه منَ أخلاق فاضلة !

٣ ــ وهذا نوع آخر من الافتنان السحرى ، والفيض الشعرى الذى يبهرك نوره ، ويفوح من بين ثناياه عبيره ! يحي به النبي عليـه السلام ، ويمتدح شريعته وأصحابه . قال من همزيته النبوية :

ياخــير من جاء الوجودَ تحيةً من مرسلين إلى الهدى بك جاءوا
بيتُ النبيين الذى لا يلتــقى إلا الحنـائفُ فيه والحنفـاء [٣]
خــير الأبوة حازهم لك آدم دون الأنام وأحرزتْ حواء
هم أدركوا عــز النبوة وانتهت فيها إليــك العزة القعساء [٤]
خُلقت لبيتك وهـو مخلوق لهـا إن العظائم كفؤهـــا العظماء

(١) ضاعت رائحة المسك : تحركت ، ويثرب مدينة الرسـول عليه السلام ، والأرجاء النواحي مفردها رجا بوزن سبب .

(٢) الصارم : السيف ، الماضى القاطع ، وقراب السيف : غمده .

(٣) الحنائف : الطاهرات ، والحنفاء : الذين هم على ملة ابراهيم عليه السلام .

(٤) الحصينة الثابتة .

يـــك بشّر الله السماء فزُينت ... وتضوعت مسكا بك الغبراء[١]
وبدا محيّـــاك الذى قسَماته ... حق وغرته هـــدى وحياء[٢]
وعليه من نور النبـوة رونق ... ومن الخليل وهـديه سيماء
أثنى المسيح عليه خلف سمائه ... وتهللت واهــتزت العذراء[٣]
يوم يتيه على الزمان صباحه، ... ومساؤه بمحمد وضــاء!
ذعرت عروش الظالمين فزلزلت ... وعلت على تيجانهم أصـداء
والنار خاوية الجــوانب بينهم ... خمـدت ذوائبها وغاض الماء
والآى تترى والخوارق جمـة ... جبريل روّاح بهــا غـدّاء
نعم اليتيم بدت مخايل فضله ... واليتم رزق بعضه وذكاء
فى المهد يستسقى الحيا برجائه ... وبقصده تستدفع البؤساء

لعلك أيها القارىء، وقد وصلت إلى هنا، تحس باستنشاق نسمات معطرة بريّا مدح محمد صلى الله عليه وسلم فى صغره، وأن الله اختاره من أشرف الرجال وأطهر الأمهات، وأن أمارات النبوة قد بدت عليه وهو طفل يتيم، إلى غير هذا مما تبينته فى نفحات أمير الشعراء العطرة!

وهذا روض آخر من الشعر يتعطر الكون كله بشذاه، وتتسمع الدنيا كلها نغماته الساحرة، التى تهتزّ لها أوتار القلوب، وتحنّ إلى سماعها النفوس. قال يصف أخلاقه عليه الصلاة والسلام:

بسوى الأمانة فى الصّبا والصدقِ لم ... يعرفه أهل الصـدق والأمناء
يامن له الأخلاقُ ما تهوى العُلا ... منها وما يتعشّـق الكبراء
زانتك فى الخلُق العظيم شمائلٌ ... يُغرَى بهنّ ويُولَعُ الكُرماء
أما الجمال فأنت شمس سمائه ... وملاحة الصّديق منك أياء[٤]

(١) الارض.
(٢) ما بين الوجنتين والانف.
(٣) مريم أم المسيح عليه السلام.
(٤) الأياء: نور الشمس وبهجتها.

والحسن من كرم الوجوه ، وخيرُه ... ما أوتىَ القُــوّادُ والزعماء
وإذا سَخوْت بلغت بالجود المدَى ... وفعلت مالا تفعل الأنواء [1]
وإذا عفـوت فقادراً ومقدَّراً ... لا يستهين بعفوك الجهلاء
وإذا غضبت فإنما هى غضبةٌ ... فى الحق لا ضِغْنٌ ولا بغضاء
وإذا رضِيتَ فذاك فى مرضاته ... ورِضى الكثير تحلّمٌ ورياء
وإذا خطبت فللمنابر هِزّةٌ ... تعْرو النّدِىَ وللقلوب بكاء ! [2]
وتَمدّ حِلمك للسفيه مُدَارِياً ... حتى يضيقَ بعرضك السفهاء

ثم انتقل ـ عفا الله عنه ـ يصف منزلته عليه السلام فى العلم ، ويذكر معجزته الخالدة ، وشريعته الجامعة لخيرى الدنيا والآخرة ، فقال :

يأيّها الأمىُّ حَسْبُكَ رتبةً ... فى العلم أن دانت بك العلماء
الذكر آية ربك الكبرى التى ... فيها لباغى المعجزات غَناءُ
نُسخت به التوراة وهى وضيئةٌ ... وتخلّف الإنجيل وهو ذُكاء
بك يا ابنَ عبد الله قامت سمحةٌ ... بالحق من ملل الهُدى غرّاءُ
بُنيت على التوحيد وهى حقيقة ... نادى بها سُقراط والقُدماءُ
ومشى على وجه الزمان بنورها ... كُهّان وادى النيل والعُرفاء !
لما دعوت الناس لبّى عاقلٌ ... وأصمَّ منك الجاهلين نداءُ
أبَوُا الخروج إليك من أوهامهم ... والناس فى أوهامهم سُجَناء !
ومن العقول جداولٌ وجلامدٌ ... ومن النفوس حرائرٌ وإماء !

ثم وجه شاعرنا الخطاب إلى رسول الله ، متخلصا إلى وصف حال المسلمين ، فقال :

---

(١) الأنواء جمع نوء ، وهو النجم الساقط أو الطالع . وكانت العرب تزعم أن الأمطار والرياح والحر والبرد من فعلها ! .

(٢) الندى لغة فى النادى .

أدعوك عن قومى الضعاف لأزمة ... فى مثلها يُلقَى عليك رجاءُ
أدَرى رسولُ الله أن نفوسهم ... ركبت هواها والقلوبُ هواءُ ؟!
متفككون فما تضمُّ نفوسَهم ... ثقة ولا جمع القلوبَ صفاءُ !
رَقدوا وغرّهمُ نعيمٌ باطلٌ ... ونعيم قومٍ فى القيود بلاء !
ظلموا شريعتك التى نلنا بها ... مالم تنل فى رومةَ الفقهاءُ
مشت الحضارة فى سناها واهتدى ... فى الدين والدنيا بها السّعَداءُ
صلى عليك الله ما صحب الدُّجى ... حادٍ وحنّت بالفلا وجناءُ (١)

هذه قطع من همزية أمير الشعراء فى مدح الرسول ، وهى ترينا ما يكنّه صدر هذا الشاعر من حب سيد الأنبياء . والإشادة بالدين الذى جاء به . والقطعة الأخيرة تنعَى على الأمة الإسلامية موقفها من الشريعة ، وتُهيب بها أن تتنبه بعد الخمول ، وأن تستيقظ بعد طول الرقاد .

فهل آن للمسلمين والعرب أن يستجيبوا لداعى الوطنية ، فيتحللوا من قيود الاستعباد ، ومن قيود الأهواء ؟ ! لعل هذا يكون قريباً : ولا سيما أنهم قد رأوا بأعينهم ، وسمعوا بآذانهم ما حل بفلسطين « المجاهدة » ولا أقول « الشهيدة » لأنها تجاهد الآن وتستبسل فى سبيل حريتها ، وستنتصر على جميع أعدائها بإذن الله ؛ والله مع الصابرين !

أيها القارىء الكريم ! أرى أن أقتصر فى هذه المناسبة على ماسقته إليك من شعر شوقى فى مديح المصطفى ؛ وهو قطرة من بحر مما جادت به قريحته الوقّادة فى هذا المقام . وسأعود إلى إتمام الحديث فى فرصة أخرى ، إن شاء الله ؟

---

(١) الوجناء : الناقة القتية .

نظرية الارتكاب بالترك
فى الشريعة الاسلامية وفى القانون المقارن

لحضرة الأستاذ المحترم الدكتور أحمد محمد إبراهيم
من وكلاء النيابة العمومية

اعتاد عامة الناس سماع القول بأن أحكام الشريعة الإسلامية لا تتفق مع ما وصل إليه العقل الإنسانى فى تطوره ، وما ابتدعه من نظريات قانونية ليس لها وجود فى فقه الشريعة . ومن المؤلم أن تكرار هذا القول أثر فى تفكير كثير من المسلمين ، فتراهم يرددونه فى بساطة ، وكأنه قاعدة لا تحتمل جدلا أو نقاشاً ، لكثرة ما ألفوه .

ولست أقصد الآن أن أناقش هذه الفكرة ؛ ولكنى أريد أن أضع أمام المسلمين وغيرهم بعض ما جاء فى كتب الشريعة الغراء عن نظرية « الارتكاب بالترك » التى ينسب فضل القول بها إلى علماء ألمانيا ، والتى اعتبرت مجداً قانونيا لهم . وسيرى المطلع على هذا البحث أن فقهاء الشريعة الغراء ـ رحمهم الله ـ قد عرفوا هذه النظرية قبل أن يعرف عنها العلماء الألمان شيئاً بقرون .

وقبل أن نبين معنى هذه النظرية يجب أن نذكر أولا أن علماء القانون يقسمون الجرائم إلى جرائم إيجابية وأخرى سلبية . ويقصد بالجريمة الإيجابية الجريمة التى تتكون من القيام بعمل مادى . أما الجريمة السلبية فهى التى تتكون من مجرد الامتناع عن القيام بواجب يفرضه القانون ؛ وبمعنى آخر الجريمة الإيجابية هى ارتكاب ما نهى عنه القانون ؛ والجريمة السلبية هى الامتناع عن القيام بما أمر به القانون .

والجرائم الإيجابيـة هى الغالبة فى القانون : ومن أمثلتها القتل والحريق والسرقة ؛ فالقتل لا يحدث إلا إذا أطلق الجانى عياراً ناريا على المجنى عليه فأرداه قتيلا ؛ والحريق لايتم إلا بعد وضع النار فى المكان المراد حرقه ؛ والسرقة لا تحصل إلا باختلاس مال الغير . ومن أمثلة الجرائم السلبية امتناع القاضى عن الحكم فى الدعوى ، وامتناع الشاهد عن أداء الشهادة .

ولا يوجد أى خلاف فى أى دولة من الدول على معاقبة من يرتـكب جريمة من الجرائم السـلبية أو الجرائم الإيجابية مادام القانون يعاقب عليها . ولـكن الخلاف على أشده حول العقاب على ارتكاب جريمة إيجابية بطريق سلبى .

هل يعد قاتلا من يجد آخر على وشك الغرق فيمتنع عن أن يمد له يد المساعدة قاصدا قتله ؟ وهل تعد قاتلة الأم التى تمتنع عن إرضاع طفلها ، أو عن ربط الحبل السُّرى له حتى يقضى نحبه ؟ هل يعد حارقا من رأى النار مشتعلة فى منزل وكان فى إمكانه أن يطفئها ، فتركها تلتهم المنزل ؟

هذا الموضوع الذى اختلف على حكمه العلماء هو ما أسموه : « الارتكاب بالترك أو العمل بالامتناع Commission Por Ommission وهذا البحث لا يدور عادة إلا عند الكلام على جريمة القتل لمعرفة هل من الممكن أن يعد قاتلا من يرتكبها بطريق سلبى أم لا ؟ والسبب الجوهرى للخلاف هو عدم وجود نصوص صريحة فى قوانين العقوبات تبين حكم هذه الحالة . ونذكر الآن حكمها فى بعض القوانين الوضعية ، ثم نذكر بعد ذلك ما قال به فقهاء الشريعة الغراء فى هذا الصدد .

إذا رجعنا الى القانون الرومانى ، وجدنا أنه يعتبر قاتلا من يترك طفلا حديث العهـد بالولادة بدون طعام حتى يموت . وكان القانون الـكنسى يعاقب بعقـوبة جريمة القتل من يرى شخصا معرضا لخطر داهم ويبقى ساكتا مع قدرته على خلاصه. وقد لخص « لوازل » القاعدة القانونية فى هذا الموضوع بقوله «من يقدر ويمتنع يخطىء » . ورغم هذا فـكان الرأى السائد فى فرنسا فى ذلك الوقت يخالف هذه القاعدة.

ويرى العلماء الألمان - وبرأيهم تقضى المحاكم - أن الممتنع يعاقب كقاتل إذا كان عليه واجب قانونى أو تعاقدى نحو المجنى عليه ولم يقم بهذا الواجب قاصدا قتله . فالأم التى تمتنع عن إرضاع ابنها حتى يموت تعد قاتلة : والشخص المكلف برعاية أعمى ويراه سائرا نحو بئر فيتركه يهوى فيه دون أن ينبهه الى الخطر ، يعد قاتلا متى كان قد ابتغى من وراء عدم قيامه بواجبه قتل المجنى عليه . وحجتهم فى قولهم بالعقاب هى أن الامتناع مظهر من مظاهر الارادة ، والقانون يعاقب على النية الجنائية ؛ فمتى انتوى شخص قتل آخر فانه يعد قاتلا ، ولا قيمة للطريقة التى توصل بها لقتل المجنى عليه .

وهم يقررون فى نفس الوقت أنه إذا لم يكن على الممتنع واجب قانونى أو تعاقدى فلا عقاب عليه ؛ فمن يمتنع عن أن يمد آخر بالمساعدة أو الإحسان إليه لا يمكن أن يسأل عن النتيجة التى تترتب على امتناعه ؛ لأن القانون لا يتطلب من الناس أن يكونوا محسنين ذوى مروءة ؛ وعلى هذا فلا يعد قاتلا من يرى جاره على سطح منزله والنار مشتعلة فيه ، فيمتنع عن أن يعطيه سلماً ينزل به إلى الأرض ، وهو يقصد من وراء ذلك موته حرقا .

وقد نص القانون الإيطالى على العقاب على ارتكاب جريمة بطريق الترك ، فهو يقضى بأن من لا يمنع حادثة يوجب القانون عليه منعها ، يتساوى بمرتكبها . وهو فى هذا يتفق والنظرية الألمانية ، ولكنه قد توسع فى العقاب ، فنص أيضاً على عقاب من يمتنع عن القيام بواجب تمليه الإنسانية ؛ ولكنه جعل هذا الامتناع جريمة خاصة ، إذ لا يعد الممتنع مرتكباً للجريمة الأصلية ، فهو يعاقب بالحبس ثلاثة أشهر وبغرامة قدرها ٣٠٠٠ ليرة من يترك بدون مساعدة طفلا أو مجنونا أو شخصاً فى خطر ؛ وأجاز مضاعفة العقوبة فى حالة الوفاة .

والقانون الإنجليزى لا يفرق بين القتل بالارتكاب والقتل بالترك . فالذى يكون متكفلا بطفل ويمنع عنه الطعام إلى أن يموت جوعا ، مع أن فى استطاعته إطعامه ، يعاقب بعقوبة القتل العمد .

وعلى العكس مما تقدم ذهب الفقه والقضاء فى فرنسا إلى عدم جواز العقاب

على ارتكاب جريمة إيجابية بطريق سلبى ؛ لأن العدم لا ينشىء إلا العدم ، والممتنع لم يقم بعمل ما ، فكيف نرتب على امتناعه نتيجة إيجابية ؟ وهذه الحجة ليست إلا سفسطة ، فليس هناك عدم أنتج عدما ؛ وإنما يوجد إعمال للإرادة على وجه معين . والشخص كما تتجه إرادته إلى العمل تتجه إلى الامتناع ، وكل من العمل والامتناع لا يعد عدما .

وقالوا إنه يشترط لوجود جريمة القتل أن تكون هناك صلة سببية بين فعل الجانى والنتيجة التى حدثت . وهذه الرابطة لاوجود لها فى حالة الارتكاب بالترك . فمن يرى آخر مشرفا على الغرق ولا يساعده على النجاة بإلقاء حلقة النجاة إليه ، لا يعد قاتلا له ، لأنه مات بسبب الغرق ، وليس سبب موته عدم إلقاء الحلقة إليه . وهذه الحجة بدورها لا تقوم على أساس . فعلاقة السببية قائمة وموجودة ، إذ لولا الامتناع عن إلقاء حلقة النجاة إليه لنجا من الغرق . فسبب موته مرتبط أشد الارتباط بعدم استطاعته النجاة ؛ وثَمّ صلة قوية بين عدم المساعدة وعدم النجاة ، يمكن القول معها بوجود علاقة السببية بين الامتناع وبين النتيجة التى حدثت . وسنتعرض مرة أخرى لهذه الحجة فى نهاية البحث .

ويستندون ـ فضلا عما تقدم ـ إلى حجة أخرى مستمدة من حالة التشريع الفرنسى . فقد صدر فى سنة ١٨٩٨ قانون يعاقب بعقوبة القتل من يمتنع عمداً عن تغذية صبى لم يبلغ الخامسة عشرة من عمره بقصد قتله فيموت . ففى صدور هذا التشريع ما يدل على أن النصوص العامة لا تجيز القول بالعقاب فى مثل هذه الحالة ، وإلا لما كان هناك ما يدعو إلى إصدار هذا القانون . وقد قضت المحاكم الفرنسية بأنه لا يجوز التوسع فى تفسير هذا القانون ، فلم تطبقه على من يمتنع عن تغذية مجنون أو مريض أو عاجز .

وقد اختلف شراح القانون المصرى فى هذا الصدد ؛ فمنهم من قال بوجوب العقاب فى حالة وجود واجب قانونى على الممتنع ، ولم يقم به ، كحالة الأم التى تمتنع عن إرضاع طفلها حتى يموت ، أو لا تربط له الحبل السرى قاصدة قتله ،

والممرضة التى تمتنع عمداً عن إعطاء الدواء للمريض ، والشخص الذى يحبس آخر ويتركه حتى يموت جوعا .

ومنهم من رأى عدم العقاب ؛ وحجتهم فى ذلك أن نصوص التشريع القائم لا تساعد على القول بالعقاب .

وهذا الخلاف بين الفقهاء تبعه خلاف مماثل بين المحاكم المصرية ، فقضى بالبراءة فى قضية أمّ اتهمت بقتل طفلها ، بتركه عقب الوضع حتى مات ، لعدم صدور عمل إيجابى يؤخذ منه تعمد القتل . كما قرر قاضى الإحالة فى محكمة المنيا فى قضية أم اتهمت بقتل ابنها الحديث الولادة عمداً ، بالامتناع عن ربط الحبل السُّرى ، بأنها لا تسأل عن جريمة القتل العمد ، واعتبرها مرتكبة لجريمة القتل الخطأ ؛ وأخذ بما ذهب إليه العلماء الفرنسيون من أن مثل هذا الفعل لا يمكن العقاب عليه باعتباره قتلا عمداً إلا بتشريع خاص ، لأنه لا يمكن أن يندرج تحت حكم النص العام للقتل عمداً . وعلى خلاف ماتقدم قضت إحدى المحاكم بالعقاب فى قضية شخص اتهم بتبديد زراعة قطن محجوز عليها ، بأن لم يطلب ضم محصولها وتركه على الأشجار حتى ذرته الرياح . وظاهر أن المحكمة اعتبرت الجانى مسئولا عن ارتكاب الجريمة بالترك ، كمسئوليته عن ارتكابها بالفعل .

ولا يفوتنا أن نذكر أن أغلب الفقهاء الذين لا يقولون بالعقاب فى حالة ارتكاب جريمة بالترك ، يعللون رأيهم بأنهم يفسرون نصوص القانون المعمول بها وهى لا تساعد على القول بالعقاب ، ويقررون بأنه لا يوجد ما يمنع المشرع من أن يصدر قانونا خاصا يعاقب على الارتكاب بالترك فى الحالات الخطيرة .

للكلام بقية

بين العطار والخشاب

من أدباء القرن التاسع عشر

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبد الجواد رمضان
المدرس بكلية اللغة العربية

ومضى شيخ الإسلام العطار ، فى بيته الثانى وقفله الثالث ، فى مداره الذى تخيّره ، وعلى سَننه الذى انتهج ؛ فقال :

فتش فؤادى فليس فيه سوى
شخصك يأيها المليح ثوى
قد ضلّ قلبى لسُكْنِهِ وغوى

وهكذا من يحبّ معتدلا
لم يلق إلا تأسُّفا وقِلا — مشرب —

ومضى الشاعر الخشاب كذلك فى بيته الثانى ، وقفله الثالث ، يفيض فى تعداد شمائل الحبيب ، وينعم فى ذكر أوصافه ، لينتهى من ذلك إلى الإصرار الذى لا يخامره تحول ولا انتقال ، على هوى ذلك الحبيب ؛ فقال :

وَضّاح نور الجبين أَبْلَجهُ
وَرْدِى خدٍّ زَهَا (كذا) تَوَهُّجُه
إليه شوقى يزيد لا عِجُه

فلست أصغى لعاذل عذلا
وعنه — والله — لا أتوب ولا — أرغب —

ثم عرض بعد ذلك لتباريح الهوى ، ولواعج الصبابة ، التى تعضف به ، فقال :

قطّع قلبى بحبه إرَبا (كذا)
وصدّ عنىّ فلم أنل أَربا
أوّاهُ أوّاهُ منه ، واحربا !

أَصْلَى فؤادى بحُبه ؛ وقَلا
وذبت وجدا به ؛ ولى قتلا ؛ — فاعجب —

* * *

ولئن مضى الأسلوبان كلاهما على ما رسمنا فى حديثنا الماضى ، من أن الأول أسلوبُ « فقيه » ، والثانى أسلوبُ « شاعر » ، لقد كانت « زها » فى قول الخشاب : « وَرْدِيُّ خد زها توهجه » ؛ وكلمة « إربا » فى قوله : « قطّع قلبى بحبه إربا » غير واقعتين موقعهما فى الاستعمال الصحيح ؛ ذلك بأن الأنسب بالتوهج ، وهو حرارة الشمس والنار ، هو : « ذكا » لا « زها » ؛ فان «الذكاء» بالمد والقصر ، شدّة وهج النار . ولأنّ « إربا » هنا بمعنى « عضوا » يقال : « قطّعته إربا إربا » أى عضوا عضوا ؛ وهى بهذا المعنى إنما تكون بكسر الهمزة وسكون الراء ؛ وبتسكينها يذهب الجناس الذى حمله على هذا الاستعمال العامى . على أن العذر أمام الشاعر ممهد ، من التطبيع ، ومن تحريف النساخ ، ومن الضرورة التى لاتخدش قوة الأسلوب .

* * *

فأما المعانى ، وعمل الخيال فى تصويرها وجلوتها ؛ فإن شيخنا العطار ، قد يتناول : « تفرد الحبيب بسكنى قلب المحب » ، وهو معنى من معانى العامة المشتركة التى لا يتميز فيها شاعر عن شاعر ، إلا بروعة التصوير وجمال العرض ؛ فوضعه فى صورة شوهاء مشوشة ، فيها حشو ، وفيها إحالة ، وفيها عامية ؛ وأكبر الظن عندى أنه أراد أن يجارى ابرهيم بن سهل الاسرائيلى ، فى مطلع موشحته :

هـل دری ظبی الحمـا أن قد حمی قلب صب حلّه عن مَكْنَس ؟

ولـكن ، وأين الثريا من يد المتناول ؟ ! . ومهما يكن من شيء ، فإننا نستطيع أن نقول فى كثير من الشجاعة : إن مولانا الشيخ لم يقصد إلى معنى ، وإنما قصد إلى هيـكل من النظم ، فاستقاد له ذلك على ما اتفق ، لا على ما أريد . وإن أبيت هذا الاجمال على عمومه ، فإنى أشير لك إلى قوله : « يأيها المليح » فهل تراهـا « مليحة » ؟ . وقوله : « قد ضل قلبى لسكنه وغوى » . وإذا عرفت أن « السكن » بضم السين مشددة وسكون الكاف ، هو أن تُسـكن إنسانا منزلا بلا كراء ، فهل ترى ضلاله وغيه لأنه أسكنه ؛ : أو لأنه أسكنه بلا أجرة ؟ ! ثم متى كان الاعتدال سببا فى التأسف والقلا ، إلا إذا كان المحب أعوج ملتويا ؟ !

وإذا شئت أن ترى المعنى المراد الذى سخرله اللفظ تسخيرا ، وذلل له تذليلا ، فاقرأ معى قول شاعرنا الخشاب : « قطع قلبى بحبه اربا ، وصدّ عنى فلم أنل أربا ، أواه أواه منه واحربا ! » : حب طاغ ذهب بالقلب شعاعا ، يقابل الصدد والإعراض القاطع ، أليس صاحبه حريا بأنه يدعو بالويل والحرب ، وأن يبسط قضيته للناس ، فى هذا التقابل البليغ الأخاذ :

أصلى فؤادى بحبه ، وقـلا

وذبت وجدا به ؛ ولى قتلا : — فاعجب —

علهم يواسونه ، أو يسلونه ، أو يتوجعون لبلواه ! ثم أليس من أعجب العجب ، أن يقلاك من يحترق فؤادك بحبه ، وأن يقتلك من تذوب وجدا فيه ؟ ! وانظر موضع « فاعجب » هنا ، مع موضعها فى القفل الأول لمولانا الشيخ الأكبر ، تر الفرق بين الطبع والتطبع ، أو بعبارة فنية : بين التكلف والطبع . قال الشيخ رحمه الله :

أما فـؤادى فعنك ما انتقلا فلم تخيرت فى الهوى بدلا — فاعجب —

* * *

ثم إذا هفت بك النشوة بما سمعت ، فملت إلى أن تشرب وأن تميل من طرب معى ، فاقرأ قول الخشاب بعد ذلك :

مولاى رفقا بصبك الدنف

قد كدت أقضى عليك من أسف

تلافى روحى فقد دنا تلفى
من ريقك العذب ، أرونى نهلا
وهات كأسى ، وطف به ثملا ـ واشرب ـ !
راحا ، سناها يضىء كاللهب
تبسم عن رطب لؤلؤ الحبب

* * *

بين رياض ومسمع غزلا على المثانى إذا شدا رملا ـ أطرب ـ !

فان فيه نفحة من نفحات الشاعرية ، فى عصورها الذهبية ، تضع الخشاب موضع الطليعة من شعراء النهضة ، وتبوئه من زعامتها المقام المحمود .

على أننا ـ إذا انحدرنا بطبقة شيخنا العطار ، عن مستوى طبقة شاعرنا الخشاب ـ لا تجد محيصا عن عده فى الرعيل الأول من شعراء النهضة ، بما له من أشعار فيها قوة ، وفيها جمال .

* * *

ثم أما بعد ، فان الظاهرة التى نلحظها فى طلائع النهضة الحديثة من الشعراء ، تقليدهم المطلق للمتقدمين فى أوزان الشعر وقوافيه ، قديمها ومحدثها ، فلا ترى شاعرا اخترع وزنا ، أو قافية ، أو فنا من فنون الشعر ، لم يعرفه المتقدمون ؛ ومضى الأمر على ذلك حتى عصر ازدهار النهضة ، وبلوغها أوج رفعتها ، أيام البارودى وصبرى وشوقى وحافظ ، إذا استثنينا : « مال واحتجب » التى خرق بها « الأمير » خرقا فى الاسلام ، و : « ذات القوافى » للسيد توفيق البكرى ؛ فاذا أخذنا ننحدر عن القمة ، طرق أذنك هنا وهناك دعوة حيية الى القافية المطلقة ، تتعالى حينا ، ثم تخفت ، ثم تخفى ؛ حتى إذا شاخت « النهضة » ، وهرم الشعر ، دهمك سيل أتى من الأوزان ، ومن القوافى ، ومما تعرف ، ومما لا تعرف ، مما هو على صورة الشعر ، فاشتبهت الأعلام ، واضطربت السبل ، وحار الدليل .
ومرد هذه الفوضى الغامرة الداجية ، التى ليس لخابطها فجر ، أن محدثى المجددين فهموا أن التجديد يتبع الهوى الخاص ، وأن لكل شاعر أن يجدد على حسب

هواه ، وأن يضرب فى الأوزان والقوافى على غير هدى أو على هدى مادام دليله مزاجه ، وميزانه ذوقه ومشاعره ؛ والأذواق والمشاعر غير محدودة ولا مضبوطة ، فليكن الشعر غير مضبوط ولا محدود .

إن العرب لما دعت حاجتهم الى التجديد فى أوزان الشعر ، اخترعوا ـ فى ظروف وأحوال مختلفة ـ فنونا ، حصرها النقاد فى « سبعة » وهى : الدوبيت ، والسلسلة ، والموشح ، وثلاثتها معربة ؛ وإنما يسوغ اللحن فى « الخرجة » فى الأخير منها ، بشروط شديدة . والزجل ، والكان وكان ، والقوما ؛ وثلاثتها ملحونة . والموالى ، ويكون ملحونا ومعربا .

ولما دعت حاجتهم الى التجديد فى القافية ، اخترعوا : المزدوج ، والمشطر ، والمسمط . ولكل واحد من هذه المبتكرات جميعا ، ضابط يحدده ويرشد اليه ، ويميزه عن كل ماعداه ؛ وهذه الضوابط وشواهدها وأوزانها وما يعرض لها من التغيرات ، والمثل الموضحة لكل أولئك ، منصوصة باستيفاء بالغ ، فى كتب العروض وفى كتب الأدب ، مما يجعل تعرضنا لها هنا من لغو الحديث .

فهل درج مجددو العصر الحاضر على هذا السنن فى فنون تجديدهم ؟ . كلا !

الأستاذ على محمود طه ، شاعر فى الرعيل الأول من شعراء مصر فى هذا العصر ؛ ومقطوعته « الجندول » قطعة فنية رائعة فى ذاتها ، ثم بما أضفاه عليها اسحق مغنى العصر « عبد الوهاب » من مزاميره الداودية ؛ هذه المقطوعة ، قد التزم فيها شاعرها بيتا واحدا ، يكرر بعد كل مجموعة من أبياتها ، فيذكرنا بما عرفناه فى حداثتنا من طريقة إنشاد « البردة » . إذ يردد بعد كل بيت فيها « مولاى صل وسلم دائما أبدا » الخ . فهل أغنية الجندول « موشحة » ؟ إنها لا تنطبق على ضابط الموشح كما حدده مخترعوه . هل هى « محل زجل » ؟ لا ، إنها معربة والزجل ملحون !

وهذا الأستاذ الشاعر الجليل : أنور العطار من كبار شعراء الشقيقة « سوريا » يقول فى : « أغنية . . . » نشرتها له الرسالة الغراء فى العدد : ٧٥١ » .

إن تراءيت لى خيالا وظنا رقص القلب فرحة وتثنى

واحتوانى حلم رقيق حبيب   لهو منى الهوى الذى أتمنى
والنشيد العذب الذى أتغنى

ثم يعود فيقول :

وإذا رفرفت عليك شجونى   وهفا خاطرى ، وهاج حنينى
فاسألى الليل أن يرق لحالى   فهو مثلى هيمان جم الفتون
شاعر خيّر الرؤى والفنون الخ الخ

أعود فأقول : إن هذا ليس نسجا قديما ، وليس موشحا ، وليس زجلا الخ . فهل لهذا من ضابط محدد أتهدى به عند النسج على منواله ؟ .

وهذا صديق الكريم الأستاذ محمود الخفيف ، وأوزانه وقوافيه وأعاريضه وأضربه ، شيء لا يناله الحصر ، ولا يحصيه العد ؛ وهذا الثالوث المقدس ، ممثل الكثرة الغامرة من شعراء العصر المجددين ؛ فلا داعى للأطالة بذكر غيرهم .

إننى — على الرغم من رجعيتى — لا أبغض التجديد ، ولا أنعى على المجددين ، ولا أثبط من هممهم ؛ وإنما أريد أن يكون للتجديد حدود تعيّنه ، ورسوم تضبطه ، وعلامات ترشد اليه ، حتى يعم ، وينفع ، ويعيش . فأما التجديد المرادف للفوضى فلا يُبعد اللهُ غيره ؟

كلمات بليغة

كتب عمر بن العزيز : إلى رجاء بن حيوة : أما بعد فإنه من أكثر من ذكر الموت اكتفى باليسير ، ومن علم أن الكلام عمل قل كلامه إلا فيما ينفعه .

وكتب عمر بن الخطاب الى عتبة بن غزوان عامله على البصرة : أما بعد ، فقد أصبحت أميرا ، تقول فيسمع لك ، وتأمر فينفذ أمرك ، فيالها نعمة إن لم ترفعك فوق قدرك وتطغك على من دونك ، فاحترس من النعمة أشد من المصيبة ، وإياك أن تسقط سقطة لا شوى لها ، وتعثر عثرة لا لعالها . (أى لا إقالة) .

بمناسبة شهر الذكريات المجيدة :

تحقيقات علمية

فى وقت المولد والهجرة

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ فكرى ياسين
المدرس بكلية الشريعة

من أحفل الشهور العربية بالذكريات المجيدة، شهر ربيع الأول : فهو الشهر الذى اتفقت كلمة من يؤخذ بصحة آرائهم، ويركن الى أقوالهم، على أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد ولد فيه ؛ وهو الشهر الذى تدل الروايات التاريخية الصادقة، والأحاديث النبوية الصحاح، على أنه فى العاشر منه — من العام الخامس والعشرين من ميلاده عليه السلام — قد تزوج بالسيدة خديجة بنت خويلد، وعلى أن خروجه من الغار فى طريقه الى المدينة كان فيه، وأن دخوله قباء والمدينة كان فيه، وأن إقامة أول مسجد أسس على التقوى من أول يوم، كانت فيه أيضاً.

وهذه كلها كما ترى ذكريات عزيزة، وحادثات مجيدة، وقد أحببنا - بمناسبة حلول شهرها العظيم — أن نكتب ما تيسر لنا الوصول اليه من تحقيقات علمية وتاريخية عن تحديد أوقات مولده صلى الله عليه وسلم وهجرته، تصحيحاً للأخطاء الشائعة عنها، والموجودة فى أذهان بعض الناس، والمعمول بها فى بعض المناسبات، وتقريراً للحقائق فى ذاتها، وإيثاراً للبحوث الموضوعية المليئة، على المقالات الإنشائية السطحية التى تكتب عادة فى مثل هذا الصدد

* * *

١ — وقت المولد :

المشهور عند الجمهور من العلماء أن ولادته عليه الصلاة والسلام، كانت ليلا حين طلوع الفجر فى يوم الاثنين من شهر ربيع الأول ؛ والخلاف بعد ذلك فى تعيين هذه الليلة ، فقيل : إنه ولد لليلتين خلتا من ربيع الأول ؛ وقيل : لثمان خلون منه ؛ وقيل : لعشر خلون منه ؛ وقيل : لثنتى عشرة خلت منه ؛ نص عليه ابن اسحاق ، ورواه ابن أبى شيبة فى مصنفه عن جابر وابن عباس رضى الله عنهم .

وهناك روايات أخرى تقول : إنه صلى الله عليه وسلم ولد فى رمضان ، ولكن هذه الروايات قد وصفها المحققون بأنها غريبة جداً ، وبأنها محل نظر .

وإننا إذا استبعدنا هذه الروايات ، لضعفها ، ولعدم التعويل عليها ، فإنه لا يبقى معنا بعد ذلك إلا قول الجمهور بولادته صلى الله عليه وسلم فى شهر ربيع الأول ، إلا أننا مع هذا لا نرى بين ماذهب اليه الجمهور من الأقوال رواية قاطعة عن تعيين يوم ولادته من هذا الشهر .

ولذلك نجد أنفسنا مضطرين الى سوق شىء من النقول المعتمدة التى نأخذها عن بعض المصادر العربية والافرنجية الوثيقة ، للمقارنة بينها ، وللوصول منها الى ذكر الرأى القاطع فى تعيين يوم ولادته عليه الصلاة والسلام .

نقل أصحاب الحديث عن قتادة رضى الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن يوم الاثنين ، فقال : « ذلك يوم ولدت فيه » .

وذكر ابن بكار والحافظ ابن عساكر : أن ذلك كان حين طلوع الفجر . ويدل له قول جده عبد المطلب : ولد لى الليلة مع الصبح مولود .

وعن سعيد بن المسيّب : أنه صلى الله عليه وسلم ولد عند ابهيرار النهار ـ أى وسطه ـ وكان ذلك اليوم لمضىّ ثنتى عشرة ليلة من شهر ربيع الأول ؛ وحُكى الإجماع عليه ، وعليه العمل الآن فى الأمصار .

وقال الإمام شمس الدين المعروف بالخلال : « قد صح ن النبى عليه الصلاة والسلام ولد فى شهر ربيع الأول فى العشرين من نيسان عام الفيل فى عهد كسرى أنوشروان ، فلما أتت عليه أربعون سنة أو يوم ، بعثه الله ، فلما أتت له ثلاث

وخمسون سنة ، هاجر الى المدينة » . ويقول المحققون من أصحاب التقاويم : إن شهر نيسان هذا يوافق دائما شهر إبريل ، فتكون ولادته صلى الله عليه وسلم فى فصل الربيع .

وقال المسعودى فى مروج الذهب : « والذى صح من مولده عليه الصلاة والسلام أنه كان بعد قدوم أصحاب الفيل مكة بخمسين يوما ، وكان قدومهم مكة يوم الاثنين لثلاث عشرة ليلة بقيت من المحرم سنة ثمانمائة واثنتين وثمانين من عهد ذى القرنين ؛ وكان قدوم أبرهة مكة لسبع عشرة خلت من المحرم ، ولست عشرة ومائتين من تاريخ العرب الذى أوله حجة الغدر ، ولسنة أربعين من ملك كسرى أنوشروان ، وكان مولده عليه الصلاة والسلام لثمان خلون من ربيع الأول من هذه السنة بمكة » .

وذكر ابن الأثير : أن كسرى حكم مدة سبع وأربعين سنة وثمانية أشهر ، وأنه عاش سبع سنين وثمانية أشهر بعد ولادته عليه الصلاة والسلام ، فيكون كسرى على هذا قد حكم أربعين سنة كاملة لعهد ولادته صلى الله عليه وسلم . وإذا علمنا أن كسرى جلس على العرش فى سنة ٥٣١ ميلادية ، فتكون ولادته عليه الصلاة والسلام فى سنة ٥٧١ ميلادية .

وذكر العلامة « إيدلر » فى رسالة له فى الكرونولوجيا الرياضية : أنه (صلى الله عليه وسلم) ولد فى ٢٢ نيسان سنة ٨٨٢ من تاريخ الاسكندر ، كما نص عليه ابن العميد بقوله : ولد (صلى الله عليه وسلم) ببطحاء مكة فى الليلة المسفرة عن صباح يوم الاثنين ، لثمان خلون من ربيع الأول ، يوافقه من شهور الروم الثانى والعشرون من نيسان سنة اثنتين وثمانين وثمانمائة للاسكندر ذى القرنين » .

وقد عرفنا أن شهر نيسان السريانى ، يقابله شهر ابريل الافرنجى ، فيكون مولده صلى الله عليه وسلم حينئذ فى ٢٢ ابريل سنة ٥٧١ ميلادية .

وذكر المسيو « سيلفستر دوماسى » نقلا عن « مقالات جمعية الطرائف والآداب » أن ولادة النبى (صلى الله عليه وسلم) كانت الساعة السادسة من ليلة الاثنين لعشرين من نيسان سنة ٨٨٢ للاسكندر ، وهو يوافق ٢٠ ابريل سنة ٥٧١ ميلادية .

وإننا نختتم هذه النقول المتفقة على أن الولادة كانت فى شهر ربيع الأول ، والمختلفة فى تعيين وقت الولادة منه ، بما ذكره العلامة المرحوم محمود باشا الفلكى ـ طيب الله ثراه ـ فى كتابه : « تقويم العرب قبل الاسلام » الذى ألفه باللغة الفرنسية ، وترجمه الى اللغة العربية أحمد زكى أفندى ، طبعة بولاق سنة ١٣٠٥ هجرية ، فانه قد أتى فيه بعد استعراض أقوال الرواة والمؤرخين ، وتمحيص آراء علماء الهيئة ، بما أقام الحجة ، وقطع المحجة ، وعيّن وقت الولادة بالضبط والتحديد ، قال :

« ولا يسعنى إلا الجزم بأن ولادته عليه الصلاة والسلام كانت فى فصل الربيع من سنة ٥٧١ مسيحية ، وحيث إن بعض هذه الأقوال تصرح بأن شهر ابريل هو شهر المولد النبوى الشريف ، والبعض الآخر يدل عليه ، فانى أعتبره شهر الولادة ، وبقى علينا أن نبين فى أى يوم من شهر ابريل كانت الولادة ؟ فنقول : إن الاجتماع الحقيقى للقمر ، حصل فى شهر إبريل سنة ٥٧١ فى يوم ١١ الساعة ٩ والدقيقة ٤١ بعد نصف الليل على حساب الزمن الوسطى لمكة المشرفة ، ولم يمكن رؤية الهلال بالعين المجردة إلا فى مساء هذا اليوم ، وحينئذ يلزم أن الشهر القمرى العربى كان مبدؤه يوم الأحد ١٢ ابريل ، وقد قال الثقات : إن النبى صلى الله عليه وسلم ولد فى ٨ أو ١٠ أو ١٢ من شهر ربيع الأول . وقد اتفقوا جميعا على أن الولادة كانت فى يوم اثنين ، وحيث إنه لا يوجد بين الثامن والثانى عشر من هذا الشهر يوم اثنين سوى اليوم التاسع منه ، فلا يمكن قط أن نعتبر يوم الولادة خلاف هذا اليوم .

« ويتلخص من هذا أن سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم ولد فى يوم الاثنين ٩ ربيع الأول ، الموافق ٢٠ ابريل سنة ٥٧١ مسيحية ، فاحرص على هذا التحقيق ، ولا تكن أسير التقليد » اهـ .

* * *

٢ — وقت الهجرة :

يشتبه على كثير من الناس مبدأ التاريخ الهجرى ووقت الهجرة ، فيحسبون ، بل ويجزمون أن هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة ، كانت فى شهر المحرم ، بل وكانت فى العاشر منه . والواقع أن الحقيقة تخالف هذا ، وأن

الوقت الذى جعلوه مبدأ للتاريخ الهجرى غير الوقت الذى حصلت فيه الهجرة فعلا ؛ وستعرف ذلك على التحقيق فيما سنبينه لك بعد ، وسنسرد لك المراحل التاريخية مرتبة محررة مضبوطة . بعيدة عن زحمة الأقوال الكثيرة ، والروايات المختلفة .

ففى شهر المحرم قبيل نهاية السنة الثالثة والخمسين من عمره صلى الله عليه وسلم حصل العزم على الهجرة ، وأخذ النبى يدبّر أمرها ، ويستعد لتنفيذها ؛ وفى اليوم السابع والعشرين من شهر صفر الخير ، خرج النبى وأبو بكر من مكة ، ولجأ الى الغار ، وبقيا فيه ثلاث ليال ؛ وفى فجر اليوم الأول من شهر ربيع الأول ، خرج النبى وصاحبه من الغار متوجهَين تلقاء المدينة ؛ وبعد ثمانية أيام قضياها فى الطريق ، وصلا الى «قُباء» ضحى يوم الاثنين ثامن ربيع الأول الموافق ٢٠ سبتمبر سنة ٦٢٢ للميلاد ، و ١٠ تشرى عند اليهود ، سنة ٤٣٨٣ للخليقة ، وهو يوم عاشوراء عندهم . واذا اعتبرنا أن يوم الوصول الى «قباء» هو يوم الوصول الى المدينة ـ كما يراه معظم المحققين ـ فإن الثامن من شهر ربيع الأول ، يكون حينئذ موافقا للعشرين من شهر سبتمبر سنة ٦٢٢ ميلادية . أما اذا اعتبرناه منفصلا عنه ـ كما يراه بعض الباحثين ـ فإنه يكون قد دخل المدينة عصر يوم الجمعة ليلة السبت فى اليوم الثالث عشر من شهر ربيع الأول ؛ وذلك أنه لما وصل الى «قباء» نزل ضيفا عند بنى عمرو بن عوف ثلاثة أيام ولياليها ؛ وفى ضحى يوم الخميس الثانى عشر من ربيع أقام مسجد « قباء » ؛ وفى صبيحة يوم الجمعة الثالث عشر من ربيع ، توجّه الى المدينة ، وفى طريقها نزل عند بنى سالم ، وصلى الجمعة هناك ، ثم دخلها فى عصر اليوم نفسه .

فنحن نرى من كل هذه المراحل المتتابعة أن الهجرة الفعلية إنما وقعت فى غير شهر المحرم ، وأنها بدايةً ونهايةً ـ اذ اعتبرنا مبدأها الخروج من الغار ـ قد تمت فى شهر ربيع الأول ، فلا محلّ إذن لما فهم بعض العلماء من أن الهجرة كانت فى شهر المحرم .

وإليك شيئاً من الأسانيد الصحيحة التى تؤيد ما ذكرناه ، وتميط لك اللثام عن جعل المحرم مبدأ للسنة الهجرية :

ذكر الإمام السيوطى فى كتابه « الشماريخ » أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أمر بالتاريخ يوم قدم المدينة فى شهر ربيع الأول . قال ابن عساكر : هذا أصوب .

وأخرج البخارى فى صحيحه : «ما عدّوا من مبعث النبى صلى الله عليه وسلم ، ولا من متوفاه ، وإنما عدّوا من مَقْدمه المدينة ».

وفى سنن سعيد بن منصور عن ابن عباس ، قال فى قوله تعالى : « والفجر » قال : الفجر شهر المحرم ، هو فجر السنة . أخرجه البيهقى فى الشعب ، وإسناده حسن ، قال شيخ الاسلام أبو الفضل ابن حجر فى أماليه : بهذا يحصل الجواب عن الحكمة فى تأخير التاريخ من ربيع الأول الى المحرم ، بعد أن اتفقوا على جعل التاريخ من الهجرة ، وإنما كانت فى ربيع الأول .

وقد يعقّب على بعض هذه الأسانيد بأن فيما ذكره السيوطى وابن عساكر من أمر النبى بالتاريخ ما يخالف المحفوظ المشهور من أن الآمر بالتاريخ هو عمر رضى الله عنه ؛ فقد قال مصعب : ولما تشاور عمر مع الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين ، وقال : بأى شهر نبدأ ، فنصيّره أول السنة ؟ قالوا : رجب ، فإن أهل الجاهلية كانوا يعظمونه؛ وقال آخرون : الشهر الذى خرج فيه من مكة ؛وقال آخرون : الشهر الذى قدم فيه ؛ فقال عثمان : أرّخوا من المحرم ، أول السنة وهو شهر حرام أول الشهور فى العدة ، وهو منصرف الناس عن الحج ، فصيَّروا أول السنة المحرم ، وكان ذلك سنة سبع عشرة ، أو قال : ست عشرة فى نصف ربيع الأول .

وقد أجاب على هذا التعقيب المرحوم الشيخ حمزة فتح الله فى كتابه « التحفة السنية فى التواريخ العربية » ـ طبعة بولاق سنة ١٣١٥ هجرية فقال :

« وقفت على ما يعضد الأول (ما ذكره السيوطى وابن عساكر) إذ رأيت بخط ابن القماح فى مجموع له : قال ابن الصلاح : وقفت على كتاب فى الشروط للأستاذ الزيادى ، ذكر فيه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أرخ بالهجرة حين كتب الكتاب لنصارى نجران ، وأمر عليا أن يكتب فيه أنه كتب لخمس من الهجرة ، فالمؤرخ بالهجرة إذن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعمر تبعه فى ذلك ».

٭ ٭ ٭

يبقى بعد ذلك كله ما أخرجه البخارى ومسلم فى صحيحيهما عن ابن عباس « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قدم المدينة يوم عاشوراء ، فإذا اليهود صيام ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما هذا ؟ ، قالوا : هذا يوم أغرق الله تعالى فيه فرعون ، ونجّى فيه موسى ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنا أولى بموسى ، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بصومه » .

وفى الحق أن ظاهر هذا الحديث يناقض ما نطقت به الروايات الصحيحة من أن الهجرة كانت فى شهر ربيع الأول ، على ماذكرناه آنفا ، إذ لا يتفق أن الرسول حينما قدم المدينة وجدهم صائمين يوم عاشوراء ، وهو اليوم العاشر من شهر الله المحرم ، أو هو اليوم التاسع منه ، كما يقول ابن عباس ، وأنه ما قدم المدينة إلا فى شهر ربيع الأول . ولقد حمل هذا التناقض كثيرا من العلماء على استشكال هذا الموضوع ، وعلى رواج كثير من الأوهام ، التى وقعت فيها الأفهام .

وقبل أن نشرع فى إيراد ما يدفع هذا التناقض ، يحسن بنا أن نعرف أن اليهود من العرب كانوا يسمون أيضا بعاشوراء اليوم العاشر من شهر تشرى ، وهو أول شهور سنتهم المدنية ، وسابع شهور سنتهم الدينية ، وتشرى عند اليهود شهر الاحتفالات العظيمة ، والمحافل المقدسة ؛ وأن نعرف أيضا أن السنة عند اليهود شمسية ، بخلافها عند العرب ، فانها قمرية ؛ وأن يوم عاشوراء الذى كان عاشر المحرم ، واتفق فيه غرق فرعون ، لا يتقيد بكونه عاشر المحرم ، بل اتفق أنه فى زمن مقدمه صلى الله عليه وسلم المدينة ، كان وجود ذلك اليوم . قال البيرونى فى كتاب الآثار : وقد قيل : إن عاشوراء عبرانى معرب ـ يعنى عاشور ـ وهو العاشر من تشرى اليهود الذى صومه صوم الكبور ، وأنه اعتبر فى شهور العرب ، فجعل فى اليوم العاشر من أول شهورهم ، كما هو اليوم العاشر من أول شهور اليهود .

وإذا عرفت هذا فاسمع ما يردّ به على هذا الإشكال العلامة الحافظ ابن القيم فى كتابه « زاد المعاد » قال : « أما الإشكال الأول ، وهو أنه لما قدم المدينة وجدهم يصومون يوم عاشوراء ، فليس فيه أنه يوم قدومه وجدهم يصومونه فإنه إنما قدم يوم الاثنين فى ربيع الأول ، ولكن أول علمه بذلك بوقوع القصة

ابن مضاء القرطبي

ورده على النحاة

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد على النجار

المدرس بكلية اللغة العربية

ابن مَضَاء القرطبي من علماء العربيَّة الأندلسيين . عاش فى القرن السادس الهجرىّ ، واستظل بظلّ دولة الموحّدين فى الغرب ، وكان قاضى القضاة فى دولتهم . وقد كان مما أهمّه أن يردّ على النحاة ، ويخالفهم ، وينقض من أُسسهم وأصولهم التى بنوا عليها نحوهم ، فألّف فى ذلك كتابا ؛ وانبرى له بعض علماء الأندلس يردّ عليه وينضح عن النحويين .

ومما يُحمد للأستاذ الدكتور شوقى ضيف – من أساتذة الجامعة المصرية –

فى اليوم الثانى الذى كان بعد قدومه المدينة ، ولم يكن وهو بمكة . هذا إن كان حساب أهل الكتاب فى صومه بالأشهر الهلالية ، وإن كان بالشمسية زال الإشكال بالكلية ، ويكون اليوم الذى نجى الله فيه موسى هو يوم عاشوراء من أول المحرم ، فضبطه أهل الكتاب بالشهور الشمسية ، فوافق ذلك مقدم النبى المدينة فى ربيع الأول ، وصوم أهل الكتاب إنما هو بحساب سير الشمس ، وصوم المسلمين إنما هو بالشهر الهلالى ، إلى أن يقول : « فظهر حكم هذه الأولوية فى تعظيم هذا اليوم ، وفى تعيينه ، وهم أخطأوا تعيينه لدورانه فى السنة الشمسية . . . الخ » .

هذا ما تيسر لنا الوقوف عليه من التحقيق الدقيق فى هذا الصدد ، وقد أوردناه فيما تقدم بكل مافى طاقتنا من أمانة ودقة ، ونرجو أن نكون قد وفقنا فيما قصدنا ، والله المستعان ؟

أن عثر على كتاب ابن مضاء، وذلّله للناس بطبعه فى مظهر حسن: فكان له بذلك يد على المشتغلين بالنحو وعلوم العربيَّة.

والكتاب لطيف، عمد صاحبه إلى الإيجاز، وتجنُّب الإسهاب، والاقتصار على معاقد المقاصد. وللناشر مقدّمة له بسط فيها الكلام على مقاصد الكتاب، وزاد عليها آراء له على نحو ما فعل ابن مضاء فى الانتقاض على النحاة، وهدم قواعدهم، وتأصيل قواعد جديدة فى النحو. والمقدمة طويلة تقع فى مثل حجم الكتاب.

وقد أحببت أن أنظر فى هذا الكتاب، وأدوّن نظراتى فيه. وسأتناول بالبحث الكتابَ من جهتين: نصوصه ومتنه، وما فيه من فِكَر وآراء. وبعد هذا سأتناول مقدّمة الناشر البحَّاثة.

نظرة فى متن كتاب (الرد على النحاة) ونصوصه

وقع فى الكتاب هَنات، قد يرجع معظمها إلى سقم النسخة التى كانت أصلا فى الطبع، وقد أحببت أن أنبّه عليها: لأن بعضها قد يحيل المعنى، ويوهن الأسلوب. وإنى أجمل ملاحظاتى فيما يأتى:

١ — فى ص ٨٢ وردت العبارة الآتية: «ومن أعرض عنه وأنف منه هلك هلاك العجماء فى الفيفاء عند عدم الرَّعْى والماء» وقد ضبط الرعى بفتح الراء، وهو هكذا مصدر، ولا ينتظم مع الماء. والذى يبدو أنه الرِّعْى بكسر الراء، وهو الكلأ والمرعى، وبذلك يتناسب مع الماء.

٢ — وفى ص ٨٢ وردت العبارة الآتية: «ولعل قائلا يقول: أيّها الأندلسىّ المسرور بالأجراء فى الخلاء، المضاهى بنفسه الحِفِىَّ ذكاءً وأى ذكاء». وقال الناشر فى التعليق: «يريد بالحفىّ - فيما يظهر - سيبويه». وهو يعتمد فى هذا على أن الحفِىّ معناه العالِم، وفى اللغة أنه العالم يتعلّم باستقصاء، وقد

لا يصدق هذا على سيبويه الذى بلغ الغاية فى فنه ونحوه . ثم بعد هذا يبدو قوله « ذكاءً وأى ذكاء » قلِقاً نابيا فى الكلام . ويذكر الناشر فى التعليق على قوله « بنفسه » أنّ فى الأصل « بفنّه » ، ويبدو لى أن هذا قد لا يكون بعيداً عن الصواب . كما يبدو لى أن الأصل هكذا : «المضاهى بفنّه الخفِيّ ذُكاءَ وابن ذكاء» يريد أن فنّه وعلمه خفىّ لم يبلغ مبلغ الاشتهار والوضوح ، وهو مع ذلك يبارى ذُكاء – وهى الشمس – ، وابن ذُكاء – وهو الصبح .

٣ – وفى ص ٨٤ ورد النصّ هكذا : « أتزرى بنحوىّ العراق ، وفضل العراق على الآفاق ، كفضل الشمس فى الأشراق » . وفيه كما ترى « نحوى العراق» مفردا ، وكأن الناشر يرى أن المؤلف يريد سيبويه ؛ والعراق لا يكون له الفضل على الآفاق بنبوغ فرد فيه ، قد يكون نبوغه وبراعته فلتة من الدهر ، وإنما يكون خليقا بالفخر إذا كان موطنا للنبوغ ، منبتا للبراعة والتبريز ، ومثابة لأولى الفضل ، ويبدو لهذا أن الأصل : « أتزرى بنحوييّ العراق » ؛ ليكون جمعا .

٤ – وفى ص ٨٥ ما يأتى : « فمن ذلك ادعاؤهم أن النصب والخفض والجزم لا يكون إلاّ بعامل لفظىّ » . وأرى أن الأصل : لا تكون – بالتاء – ؛ إذ كان هذا خبرا عن ثلاثة الوجوه من الإعراب ؛ ولا تصح الصيغة بالتذكير إلا على تأويل أن المراد : لا يكون كل منها ؛ وهذا تخريج بعيد .

٥ – وفى ص ٩٣ ورد النص الآتى عن الخصائص : « اعلم أن إجماع أهل البلدين إنما يكون حجة إذا أعطاك خصمك يده أن لا تخالف – كذا ، والمألوف فى الرسم ألاّ تخالف – المنصوص والمقيس على المنصوص » . وظاهر أن السياق يقضى بأن يكون الأصل ألاّ يخالف ، أى إذا تكفّل لك الخصم أن يوافق المنصوص ، والمقيس على المنصوص ، ولا يخالفه ، ولو بقى النص كما هو لكان المعنى أن الخصم يضمن ألاّ تخالف أنت ماذكر ، وهو إنما يضمن ويلتزم عن نفسه لا عن نفسك . وعذر الناشر فى عدم التنبيه على هذا أنه رآه هكذا بهذا التحريف فى نسخة الخصائص المطبوعة ، وهى محشوة بالتصحيف والتحريف .

٦ — وفى ص ٩٤ فى بقية النص السالف عن الخصائص : « وأراهم الحكمة فى الترحيب له والتعظيم » ، والترحيب بالحاء المهملة لا نعرفه يتعدى باللام ، وإنما يتعدى بالباء ؛ وإنى أرى أن الأصل : الترجيب — بالجيم — ، والترجيب : التعظيم ، وقد رجبته : عظمته . وتراه هكذا بهذا التحريف فى نسخة الخصائص .

٧ — فى ص ١١٨ ما يأتى : « ومن الأبواب التى يُظَنّ أنها تعسر على من أراد تفهيمها وتفهّمها ، لأنها موضع عامل ومعمول ، ولا داعية لى إلى إنكار العامل والمعمول » . ويلاحظ على الجملة الأخيرة أنها تناقض مذهب المؤلف ، فهو مبنى على إنكار العامل ، كما سيجىء لك ، فله داعية أيّة داعية الى إنكار العامل والمعمول . ومن ثَمّ فيبدو أن الأصل : ولى داعية إلى إنكار العامل والمعمول .

٨ — فى ص ١٢١ أورد البيت الآتى :

أثعلبة الفوارس أم رياحا عدلت بهم طُهَيَّة والخشابا

وضبط الفوارس بالجر بإضافة ثعلبة اليه ؛ وظاهر أن الفوارس وصف لثعلبة ، وصفهم بذلك لأنهم من بنى يربوع ، وبنو يربوع منهم فرسان بنى تميم ، فكان ذلك وصفاً وثناء لثعلبة ؛ ومما تقرر فى النحو ألاّ يضاف الموصوف إلى الصفة .

٩ — فى ص ١٤٤ فى سياق الاستشهاد على النصب فى جواب التمنى : « وقرىء : ودّوا لو تُدهن فيدهنون » . ويلاحظ على هذا أن الاستشهاد إنما يتم لو قرىء « فيدهنوا » بالنصب ، ـ وقد قرىء كذلك ـ فيبدو أن الأصل ما ذكرت ، ومما يشُدّ من هذا أنه إنما يقال : قرىء كذا فى غير قراءة العامّة ، وفى القراءات النادرة ، وهذا لا يصدق على قراءة الرفع . ومما يذكر هنا أن قراءة النصب شاذة .

١١ — فى ص ١٦٢ ، ذكر المؤلف من أمثلة ما أبدلت فيه الواو ياء ، الأمر مما فاؤه واو ، نحو « إيجَل وإيسق » وإيسَقْ أمر من وَسَق ، وَوَسَقَ مضارعها يَسِق ، كوعد يعد ، وأمرها سِقْ بحذف الفاء لا بإبدالها ياء . ويبدو أن الأصل : إيسَنْ – بالنون – ، وهو أمر من وَسِنَ يَوْسَن : أصابته السِّنَة ، وهى أول النوم .

١٢ — فى فاتحة الكتاب : « أدام الله بركته ، ونوّر بنوره الإيمانَ خَلَده » . وظاهر أن الأصل : بنور الإيمان .

١٣ — فى ص ٨٩ : « قالوا إنه مفعول بفعل مضمر تقديره أضربت زيداً » . وظاهر أن الأصل : تقديره ضربت زيداً .

نقد المؤلف للنحاة

يقوم نقد المؤلف للنحاة على أنهم بنوا النحو على أن كل أثر إعرابى لا بد له من عامل فى الكلام ، وقد جشّمهم هذا من التكلف والإبعاد فى التأويل ما كانوا فى غنى عنه . وهو يعيب عليهم هذا ويزرى عليهم أية مزراة ، ويدعو الى نبذ العامل وطرحه فى النحو ولفظه كما تلفظ النواة .

وقد قام جدال عنيف حول قضية العامل فى النحو لبضع سنين خلت ، أثاره أستاذ من أساتيذ الجامعة المصرية — هو الأستاذ إبراهيم مصطفى — وتصدى للرد عليه أستاذ من أساتيذ الأزهر — هو الأستاذ الشيخ محمد عرفة — ، وقد علمنا بظهور كتاب « الرد على النحاة » لصاحبنا القرطبى ، أن القرطبى كان سلفا وإماما للأستاذ الجليل ابرهيم مصطفى .

وينقد المؤلف النحاة فى قولهم بالعامل بأمور :

١ — فالقول بأن ضرب فى قولك « ضرب زيد عمرا » عمل الرفع فى زيد

والنصب فى عمرو ، يوهم أن هذا اللفظ «ضرب» أحدث الرفع والنصب . بل قد صرح بهذا سيبويه ولم يورب إذ يقول : « لا فرق بين ما يدخله ضرب من هذه الأربعة لما يحدثه العامل » فانظر كيف نسب الإحداث الى العامل . ويرى القرطبي أن هذا فساد كبير لا يقول به عاقل . والنحويون — وهم بحمد الله عقلاء — لا يقولون بهذا الذى يذكره القرطبي ؛ وهم إنما نسبوا العمل الى اللفظ لما كان داعيا المتكلم الى أن يراعى فى الكلام نحوا خاصا ، ويأتى فى الكلمة بأثر معين . فضَربَ فى المثال السابق يحمل المتكلم على أن يرفع زيدا وينصب عمرا إذا أراد ألا يخطىء سنة العرب فى كلامهم ؛ فقد كان العربى إذا رأى فى الكلام مثل ضرب رفَع ونَصب ، وقد كانت هذه النسبة فى مبدأ الأمر بسبيل من التجوز والتوسع ، ثم صار ذلك حقيقة عرفية يراد منها المعنى الصحيح ، وانسلخ اللفظ عن هذا المعنى الفاسد الذى يوهمه الوضع اللغوى لكلمة العامل ؛ واصطلاحات العلوم كثيرة تعتمد المناسبات الضعيفة للمعنى اللغوى ، وما رأينا من ينكر هذا . ومن العجيب أن المؤلف ساق عن ابن جنى وغيره البيان الصحيح للعامل ، ونفوا هذا الذى يوهمه لفظه ، وكان يحسب المؤلف هذا فى الكف عن النحويين ؛ فقد بان غرضهم واستبان قصدهم . وكان خيرا له ألا يثير هذا النقد ، ولا يجعله مما يحاسب عليه النحاة ، وأن يعفى نفسه مما أخذ يذهب مذهب أهل الكلام فى فساد عمل اللفظ ، ويحتفل له ويعقب على قول ابن جنى أن العامل هو المتكلم نفسه بأن هذا مذهب المعتزلة ، ومذهب أهل الحق أن العامل هو الله سبحانه وتعالى ، فكل هذا لا حاجة اليه .

٢ — والقول بالعامل ساق النحويين الى أن يتكلفوا تقدير محذوف لا يدعو الكلام اليه ، وإن أظهر كان عيبا . ومن أمثلة ذلك ما قالوا فى « أزيداً ضربته » فهم يقدرون العامل فى « زيدا » محذوفا وهو ضربت . وهو يذكر أن هذا القول لا يحتاج الى تقدير عامل . ووجهة نظر النحويين فى هذا التقدير أن ضرب فعل متعد الى واحد ، وقد استوفى مفعوله وهو الضمير ، فزيدا لا بد أن يعمل فيه عامل آخر ، ولما لم يكن موجودا فى اللفظ قدروه . ويذكر القرطبي أن هذا زعم

زعمه النحاة ، وكأنه لا يقول بالفعل المتعدى . ونراه فى ص ١٠٣ يقول وهو يمثل لدلالة اللزوم : « ودلالة الفعل المتعدى على المفعول به والمكان » فتراه يعترف بالفعل المتعدى ولا ينكره . وترى أن الذى دعا الى التقدير داع صحيح . والنحويون يقررون أن هذا المحذوف لا يصح إظهاره ؛ إذ كان فى الكلام ما يغنى عنه ويقوم مقامه ، ومن ثم كان إظهاره عيبا ، ولا شىء فى هذا يزرى بتقدير العامل . وليت شعرى ما الفرق بين الحذف فى هذا الضرب ، والحذف فى الضرب الذى استساغه المؤلف ؛ كالحذف فى قوله تعالى « ناقة الله وسقياها » ، وكلاهما دل عليه دليل ، وما هنا وجد فى الكلام ما يغنى عن المحذوف ويسد مسده . ويرد القرطبى أيضا بأن القائل لهذا الأسلوب قد لا يخطر بروعه محذوف ؟! والواقع أن الناطق بالأسلوب أولاً يراعى الحذف ، فإذا استقر الأسلوب وجرى على الألسن غفل عنه القائل . وهذا لا ينفى أن فى الكلام تقديرا .

وتراه فى هذا المقام يورد إشكالا على النحويين يظنه معجزا لهم هادما لأصلهم إذ ما ذا يضمرون فى هذا المثال « أزيدا مررت به » . والقارىء لهذا يجزم بأن النحويين لم يعرضوا لمثل هذا المأزق الذى أدخله عليهم القرطبى . والنحويون عرضوا له ووجدوا لهم منه مخرجا ، فهم يقدرون فى مثله : لا بست ، والأصل : لا بست زيدا : مررت به . ومعنى لا بست زيدا كان لى معه شأن وأمر ، وفسر هذا بعد بأنى مررت به . وانظر سيبويه يقول : « وإذا نصبت زيدا لقيت أخاه ، فكأنه قال : لابست زيدا لقيت أخاه ، وهذا تمثيل ولا يتكلم به » .

ومما يذكر فى هذا الموطن أن النحاة ليسوا مجمعين على تقدير العامل فى الأسلوب الذى ذكره المؤلف ، فمن الكوفيين من يرى أن الفعل عامل فى الاسم وضميره معا ؛ إذ كانا شيئا واحدا : ومنهم من يرى أن الفعل عمل فى الاسم ، والضمير توكيد للاسم .

وبعد ، فقد رأيت أن هذا النقد هيّنٌ ليّنٌ لا يقوم بما أراده القرطبى من الهدم والنقض .

آثار الزوجية

وسمو التشريع الاسلامى

على جميع التشريعات الاجنبية

لحضرة الأستاذ صالح بكير

المدرس بكلية أصول الدين

للزواج آثار قانونية هامة، وسنتحدث عن ذكر أهمها مع استعراض تاريخى لتطورها .

ففى العهد القديم لأوروبا تتلخص هذه الآثار فى أن الزواج يكسب الزوج الولاية والسلطة على زوجته، سواء من حيث النفس أو المال، كاكتساب الولاية أو السلطة الأبوية للأب على أولاده . فكانت آثار الزواج تنحصر فى أن للزوج حقوقا على زوجته وعليها واجبات نحوه . ولكن الكنيسة خففت وطأة هذا المبدأ استنادا لقول القديس پول بالاعتراف للزوجة بأن لها واجبات زوجها . ويلاحظ أن ولاية الزوج قد تطورت نحو التخفيف منها فى نفس الاتجاه الذى تطورت فيه ولاية الأب على أولاده

ومن أهم هذه الآثار قديما (وحديثا أيضا) أن تكون الزوجة عفيفة أمينة لا تفرط فى عرضها ، فقد كان هذا التفريط يعتبر من أكبر الخيانات لواجب الزوجية .

وقد ترك عقاب الزوجة على هذه الجريمة للزوج نفسه ، فكان له حق مطاردتها بالسوط فى الطرقات العامة للمدينة أو القرية . ولا شك أن هذا كان يودى بحياتها ، كما كان رمزا الى أن للزوج حق طرد زوجته الزانية من منزله بل من المدينة نفسها أو القرية التى هو بها ، وهذا قضاء عليها بالموت إذ لا تجد من يحميها قانونا .

ويبدو أنه يمكن أن تستخلص قاعدة عامة من التشريع البربرى (الجرمانى) وهى أن للزوج حق قتل امرأته الزانية ، وكذلك شريكها فى الجريمة حال التلبس المفاجأ، كما أنه فى حالة عدم التلبس كانت المحاكم تقضى بإعدام الزوجة الزانية .

وأما التشريع الكنسى الذى تبع هذه المبادىء فقد كان يقضى على الزوجة الزانية بالرجم ، وتشير كلمة المسيح فتقول « الذى لا ذنب له هو الذى يبدأ بالقاء الحجر ولكن الكنيسة رأت أنه لعوامل إنسانية (فى رأيها) ضد ما كان قائما من عادت قديمة قاسية أن تخفف من هذا العقاب مكتفية بعقوبات بسيطة على الزوجة الزانية ، وكذلك تأنيب الزوج الزانى . هذا وإن كانت الزوجة الزانية كان يحكم عليها بعقوبة الحرمان فإنه كان يحكم أيضا على الزوج بالحرمان لمدة خمس سنين أو الى الأبد ، كما يحرم الزوج من الاحتجاج بخطأ زوجته الزانية . وأمام تعسف رجال الكنيسة فى معاملتهم القاسية ضد الزناة تدخلت البلديات وصارت تنظر جرائم الزنا ، ثم حلت محاكم الملك محل المحاكم الأخرى فى نظر هذه الجرائم .

وقد بقيت آثار العقوبة المسيحية فى أخلاق وعادات القرون الوسطى التى تحولت إلى نوع من التشنيع والإخجال الذين كانا أشد خزيا من ارتكاب الجريمة نفسها . وقد كانت تصحب العقوبة غرامة مالية ، كما كان يكتفى بالغرامة فى بعض الأحيان ، وكان يعاقب الشريك عقابا تحكميا لا ضابط له متروك أمره للحاكم فقد تذهب العقوبة الى النفى .

وتنفيذ هذه العقبات كان نادرا لصعوبة الإثبات .

وحينما اختصت محاكم الدولة بنظر جريمة الزنا أحل القضاء الملوكى محل عقوبات الكنيسة وعقوبات العرف والعادة عقوبات مقتبسة من مجموعة جوستنيان الجديدة وغيرها من التشريع الرومانى . وتلخص عقوبة الزوجة الزانية فى حبسها فى دير وحرمانها من فوائد الزواج . كما كان يستعاض فى بعض الأحيان عن الأجراءات القضائية بخطابات مختومة ، وذلك لتجنب المناقشات التى تثير الفضائح حيث قد يكون الأثبات عسيرا وغير قاطع ولا يترك إلا أثرا للأشاعات التى تشين الأسرة (كالمحاضر والاثبات بالكتابة والشهود) وانتهى التشريع أخيرا الى أن حق اتهام الزوجة بالزنا هو من حق الزوج إلا فى أحوال خاصة (كارتكاب الزوج جريمة الزنا أيضا وخشية الفضيحة) فلا يكون له هذا الحق كما أن الزوج فقد حقه فى إعدام زوجته حال التلبس (وذلك من الوجهة النظرية) والذى كان

أثرا من الآثار القديمة . ولكن فى الواقع اذا استعمل الزوج هذا الحق فانه ليس من الصعب عليه أن يحصل على العفو .

ويلاحظ كما سيأتى بيانه ، أن التشريع الحديث يفرّق فى المعاملة بين الزوجين الزانيين ، فلا عقوبة على الزوج الزانى ، كما لا يحكم عليه بالتفريق الجسمانى كما لا يفقد حق الاحتجاج بزنا زوجته الزانية وإنما يحرم فقط من الفوائد المالية للزواج . وهذه التفرقة ليس منشؤها الدين ، وإنما كانت تطابق التقاليد والعادات التى تستند على مصلحة اجتماعية فى أن زنا الزوجة يجر إلى خروج أموال الأسرة إلى أجنبى ، كما يعرض الأولاد الشرعيين لهذا الخطر .

التشريع الوضعى : أما التشريع الفرنسى الحديث فانه يرتب آثار هامة على عقد الزواج :

١ ــ جرى العرف والاستعمال على أن الزوجة تحمل اسم زوجها ، كما تشير إلى ذلك المادة ٢٩٩ فرنسى مدنى ، وذلك بطريق المفهوم .

٢ ــ يكون محل إقامة الزوجة هو محل إقامة زوجها (١٠٨ فرنسى مدنى) .

٣ ــ ونصت المادة ٢١٢ مدنى فرنسى على وجوب الأمانة والمساعدة والتعاون بين الزوجين . ويستفاد من هذا أنه يجب على الزوجين عدم ارتكاب جريمة الزنا ، كما يجب على الزوجة السكنى مع زوجها ، وكما أن النفقة تجب للمحتاج منهما على الآخر بما يقوم ويساعد على الحياة الزوجية .

٤ ــ ونصت المادة ٢١٣ مدنى فرنسى على أن الزوج هو رئيس الأسرة ، ويزاول وظيفة الرياسة فى الصالح المشترك للمنزل والأولاد ، وتشترك معه فى إدارة المنزل ماديا وأدبيا من حيث صيانة وتربية الأطفال ورعايتهم وتكوينهم ، وتقوم الزوجة مقام الزوج فى الرياسة عند وجود مانع للزوج .

٥ ــ ونصت المادة ٢١٤ مدنى فرنسى على أن كلا من الزوجين يشترك فى تكاليف شؤون المنزل (النفقة) وذلك بقدر طاقة كل واحد منهما إذا لم ينص فى عقد التنظيم المالى للزواج على شىء آخر يتعلق بذلك .

والأصل أن هذه التكاليف (النفقة) تقع على الزوج ، إذ أنه واجب عليه أن يقدم لزوجته كل ما هو ضرورى لمقومات المعيشة والحياة على حسب طاقته

وحالته، وتشترك الزوجة فى ذلك بما تخصصه من أموال عند زواجها أو من ريع أملاكها التى تديرها . وفى حالة امتناع أحد الزوجين عن القيام بهذا الواجب فللآخر حق إجباره على تنفيذ هذا الواجب . ويلاحظ أن النفقة بقدر الحاجة وأنه إذا حكم بها ولم يطالب بسدادها فى مواعيدها سقطت إلا فى حالة الاستدانة عليها .

٦ — ونصت المادة ٢١٥ مدنى فرنسى على أن اختيار محل سكنى الأسرة هو للزوج ، وعلى الزوجة الإقامة معه ، ويجب على الزوج قبول إقامة زوجته معه وعدم منعها من ذلك . وإذا كان محل الإقامة الذى اختاره الزوج يحدث ضررا ماديا أو أدبيا للأسرة فللزوجة الحق فى أن تطلب محل إقامة آخر ، ويتضح من هذا وجوب الطاعة على الزوجة . وقد نص قانون العقوبات الفرنسى على جريمة هجران الأسرة بعقوبة الزوج الذى يهجر الأسرة بلا مبرر .

٧ — ومن أهم آثار الزوجية إلى عهد حديث عدم أهلية المرأة المتزوجة لأجراء التصرفات القانونية ، فقد كانت القاعدة العامة أنه بمجرد زواج المرأة تفقد أهليتها لأجراء التصرفات القانونية (فتكون كالقاصر) وتقع تحت سلطة زوجها سيد المنزل . وهذا المبدأ نشأ عن مبدأ الوصاية المستمرة على المرأة الذى كان شائعا لدى الأغريق والرومان والشعوب الجرمانية . ولكن فى أوائل عصر الأمبراطورية الرومانية اندثر استعمال هذه الوصاية فى روما ونالت المرأة استقلالها وأهليتها المدنية ، ومع ذلك فإنها بقيت عديمة الأهلية فى بعض الأحوال الخاصة كالتزامها لأجل شخص آخر ، وكالتزامها على أموالها لصالح دائنى زوجها . وكما قلنا فيما سبق إن الزواج بالسلطة اندثر فى روما فى العصر العلمى ، والذى كان بمقتضاه تعتبر المرأة كأحد أولاد الأسرة فتقع تحت سلطة زوجها أو تحت سلطة رب الأسرة ، وبقى الزواج بلا سلطة وهو الذى لا يجعل للزوج سلطة على زوجته قانونا لا عملا حيث يعتبر الزوجان متساويين ، فتحتفظ الزوجة بأهليتها كما كانت قبل زواجها ؛ ولذا لا يكون البحث عن منشأ نظرية عدم أهلية المرأة المتزوجة فى القانون الرومانى . كما يلاحظ أيضا أنه فى مقاطعات الجنوب بفرنسا التى كانت تتبع القانون الرومانى والتى كانت تسمى ببلاد القانون المدون ، لا يعرف مبدأ

عدم أهلية المرأة المتزوجة . ولكن هذا المبدأ وجد فى مقاطعات الشمال بفرنسا التى كانت متأثرة بالطابع الجرمانى ، وكانت تتبع العرف والعادة ، وكانت تسمى ببلاد القانون الغير المدون ، إذ كان من مبادىء الشعوب الجرمانية وقوع المرأة تحت الوصاية المستمرة ، ولو أن هذا المبدأ قداندثر إلا أنه بقى له أثر وهووقوع المرأة المتزوجة تحت سلطة زوجها حيث كان وصيها الطبيعى ، ولذا كانت توجد تفرقة بين النساء المتزوجات وغير المتزوجات من حيث أهليتهن المدنية . وغريب جدا أن المرأة قبل أن تتزوج تكون أهلا لجميع التصرفات وبمجرد زواجها تفقد هذه الأهلية.

وواضعو القانون المدنى الفرنسى أبقوا هذا المبدأ أخذا من بلاد العرف والعادة ، وأدخل بذلك فى بلاد القانون المدون . ويلاحظ أن هذا المبدأ أصبح أثراً تاريخياً وسائرا إلى الزوال ، وقد قضى على أكثر آثاره فى فرنسا سنة ١٩٤٢ تحت تأثير النظريات الحديثة من تساوى الجنسين ، بتأثير الحركة النسوية .

وكانوا قد عللوا مبدأ عدم أهلية المرأة المتزوجة بأن الزواج شركة ويجب لكل شركة رئيس ، ولكن هذا التعليل غير سديد ؛ لأن كل اشتراك يقتضى التساوى بين الشركاء ، ولا يستلزم أن رئيس الشركة تكون له السلطة المطلقة على شركائه ، ووظيفة الرئيس هى الإدارة تحت رقابة الشركاء ، وقيل بأن تقرير هذا المبدأ هو لأن المرأة فى حاجة إلى الحماية . ولكن هذا التعليل غير سديد أيضاً إذ أنه يمكن أن يقال ذلك أيضا عن المرأة قبل زواجها . وقيل بأن سبب هذا هو نقص عقل المرأة ؛ ويُرد على هذا بأنه يمكن أن يقال هذا قبل زواجها أيضاً . فالواقع لا يوجد تعليل منطقى سليم إلا أنه أثر تاريخى كما قلنا . وقد نالت المرأة أخيراً فى سنة ١٩٤٢ أهلية التصرف فلا تحتاج إلى إذن الزوج أو القضاء .

ومبدأ عدم أهلية المرأة المتزوجة ينحصر فى أنها لا تستطيع أن تزاول التصرفات حتى ولو كان على مالها الخاص إلا باذن الزوج أو القضاء . ولما كانت ضرورة إدارة شؤون المنزل تستدعى أعمالا متعددة سريعة ، اضطر القضاء إلى اعتبار أن هناك وكالة ضمنية من الزوج لزوجته من يوم عقد الزواج لإدارة شؤون المنزل ، فلا ترجع إلى زوجها لتستأذن منه لشراء ملح أو خبز مثلا .

قلنا فيما سبق إنه طبقا للمادة ٢١٣ مدنى فرنسى بأن من واجبات الزوجين الأمانة ، فلا يجوز لأحد هما ارتكاب الزنا . وقانون العقوبات الفرنسى (كالمصرى) يعاقب الزوجة الزانية بالحبس أو الغرامة . ولكن القضاء الفرنسى أصبح يكتفى بغرامة بسيطة قدرها ٢٥ فرنكا ، وهو مبلغ زهيد يشجع على ارتكاب الفحشاء لأنها عقوبة غير رادعة .

وأخيراً الزواج يثبت نسب الأولاد الذين يرزقون للزوجين على فراش الزوجية ،كما يترتب على الزواج حرمة المصاهرة (كما بين سابقا) ، ولكن يلاحظ أنه لا توارث بين الزوجين .

الشريعة الإسلامية : لا يفقد الزواج فى الشريعة الإسلامية أهلية المرأة ، وليس للزوج على امرأته سلطة بالنسبة لأموالها ، إذ أنهما متساويان فى هذه الحقوق ؛ وبذلك كانت الشريعة الإسلامية أسبق التشريعات فى تقرير مبدأ أهلية المرأة المتزوجة ، وليس للرجل على زوجته إلا الطاعة فى حدود معينة . كما أن النفقة تجب على الزوج فقط ، وعلى قدر طاقته وحالته (قانون سنة ١٩٢٥) ، ولا يسقط متجمد النفقة إلا بالأداء أو التنازل . كما لا تجب النفقة فى حال نشوز المرأة . فالرجل فى الواقع له القوامة فى الحدود التى بينتها الشريعة الإسلامية . وبالزواج يثبت نسب الأولاد ، كما هو سبب للتوارث بين الزوجين المسلمين .

ولذا خلت الشريعة الإسلامية من الاضطراب والتعقيد اللذين وقعت فيهما التشريعات الأخرى ،وأقرت ماأقرته الشريعةالإسلامية منذ أمد بعيد (سنة١٩٤٢ بالنسبة لأهلية المرأة) . وهذا من فضل الله على المسلمين .

أوائل المتكلمين من المسلمين

واصل بن عطاء — شيخ المعتزلة

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ على مصطفى الغرابى
المدرس بكلية أصول الدين

لقد انتهينا فى المقالين السابقين من الكلام على واصل بطريق إجمالى، والآن نريد أن نتحدث عن آرائه .

آراء واصل الكلامية :

لقد كان الناس فى عهد الرسول والخلفاء من بعده ثلاثة أصناف : **مؤمن** ، وكافر ، ومنافق .

فالمؤمن : هو ما اتفق ظاهره وباطنه ، ووافقت أعماله الجسمية اعتقاداته القلبية ، ينعكس نور إيمانه المستقر فى قلبه على جوارحه فيدفعها نحو العمل ، وتكون أعماله ترجمانا عما يكنه قلبه من الإيمان الصادق ، واليقين الكامل .

والكافر : هو الذى جاهر بالمخالفة ، ووافقت أعماله الفاسدة ، عقيدته الباطلة . فأعماله صورة لما فى قلبه من الزيغ والضلال ، والفجور والكفران ، والشرور والآثام ، والسوء والبهتان .

وأما المنافق : فهو الذى يظهر خلاف ما يضمر ؛ يبطن الكفر ويظهر الاسلام، ليعامل فى الدنيا معاملة المؤمنين عن إخلاص وطيب خاطر ، وإن كان فى الآخرة فى الدرك الأسفل من النار : « يخادعون الله والذين آمنوا ، وما يخدعون

إلا أنفسهم وما يشعرون . فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ، ولهم عذاب أليم بما يكذبون »[١] .

أما من وقع منه مخالفة من المؤمنين فيظهر أنه لم يكن له اسم يعرف به ، إما لأنه لم يوجد من المؤمنين من وقعت منه مخالفة لما جاء به الدين الاسلامى وما آمن به من أحكام الشريعة الاسلامية ، أو وجد من وقعت منه مخالفة على ندرة ؛ والأخير أصح بدليل آية القذف ، « والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ، ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا ، وأولئك هم الفاسقون » . ففى هذه نرى أن القرآن الكريم قد سمى من يرمى المحصنة بالزنا ، ولم يقدر على إثباته بأربعة شهداء – « فاسقا » ، وأنه يجلد ثمانين جلدة ، ولكن لم يبين لنا القرآن هل هذه التسمية – وهو أنه فاسق – تخرجه من الإيمان الى الكفر ، أو أنه مع إيمانه فاسق ، أو أنه خرج من رتبة الإيمان الكامل ، ولم ينزل الى حضيض الكفر ، أى أنه فى منزلة بين المنزلتين ؟ لهذا رأينا المسلمين قد اختلفوا بعد عصر الرسول عليه السلام ، وبعد أن انقضى معظم عصر الخلفاء الراشدين ، فيمن ارتكب كبيرة من المؤمنين بأى شيء يسمونه ؟ أيسمونه « مؤمنا فاسقا » كما هو رأى المرجئة ؟ أم يسمونه « منافقا فاسقا » كما قال الحسن البصرى ؟ أم يسمونه « كافر نعمة فاسقا » كما ذهبت الى هذا الشيعة ؟ أم يسمونه « كافرا فاسقا » كما زعمت الخوارج[٢] .

اختلف المسلمون فى الصدر الأول (القرن الأول الهجرى) فى ذلك ، وذهب كل فريق إلى أحد تلك التسميات التى ذكرناها وقد أدلى واصل بن عطاء دلوه فى هذا الميدان ، وكان له رأى خاص يخالف فيه غيره من المعاصرين له ، وهذا ما يعرف عند مؤرخى الآراء الكلامية « بمسألة مرتكب الكبيرة » .

---

(١) لقد يدل لما ذهبت اليه من التقسيم المذكور قول الحسن البصرى المتوفى سنة ١١٠ هـ « الناس ثلاثة : مؤمن ، وكافر ، ومنافق . فأما المؤمن فقد ألجمه الخوف ، وقومه ذكر العرض . وأما الكافر فقدقمه السيف ، وشرده الخوف ، فأذعن بالجزية وسمح بالضريبة . وأما المنافق ففى الحجرات والطرقات يسرون غير ما يعلنون ، ويضمرون غير ما يظهرون » .

(٢) المنية والأمل لابن المرتضى ص ٢٣ والملل والنحل للشهرستانى ص ٣٣ ، طبع كيورتن .

كان واصل — كما ذكرت عند الكلام على تاريخه — أحد تلامذة الحسن البصرى، وفى أثناء أحد الدروس التى كان يلقيها الحسن على طلبته، وقف سائل وسأله عن مرتكب الكبيرة فقال: يا إمام الدين، لقد ظهرت فى زماننا جماعة يكفرون أصحاب الكبائر، والكبيرة عندهم كفر يخرج به عن الملة، وهم وعيدية الخوارج؛ وجماعة يرجون أصحاب الكبائر، والكبيرة عندهم لاتضر مع الايمان، بل العمل على مذهبهم ليس ركنا من الايمان، ولا يضر مع الايمان معصية، كما لا ينفع مع الكفر طاعة، وهم مرجئة فكيف تحكم لنا فى ذلك اعتقادا؟ [1]

بعد أن ألقى السائل سؤاله هذا على الحسن البصرى ليسمع منه القول الفصل فى أمر مرتكب الكبيرة، وبينما هو ينتظر الجواب من شيخ المعلمين فى ذلك العصر، وإذا بواصل يتطوع بالجواب قبل أن يعلن أستاذه رأيه قائلا: «هو فى منزلة بين المنزلتين، لا مؤمن ولا كافر» [2]

وجه تقرير واصل لهذا الرأى:

لم يذكر مؤرخو الفرق الكلامية أن واصلا واجه أستاذه بالتدليل على رأيه، وإنما وقفوا عند حد ذكر الرأى مجردا عن كل استدلال أو تعليل، إلا أن بعض الكتب [3] قد حكت لنا المحاجة التى وقعت بين واصل وعمرو بن عبيد الذى كان قد بقى على رأى أستاذه الحسن فى هذه المسألة - مسألة مرتكب الكبيرة - ولما اقتنع عمرو بن عبيد برأى زميله واصل اعتنقه وقال: «ما بينى وبين الحق من عداوة، والقول قولك، وأشهد من حضر أنى تارك ما كنت عليه من المذاهب، قائل بقول أبى حذيفة» [4]:

أما التقرير الذى أقنع به واصل عمرا فهو أنه قال: يا أبا عثمان، لم استحق مرتكب الكبائر اسم النفاق؟ قال عمر: لقوله تعالى «والذين يرمون المحصنات

(١) الملل والنحل للشهرستانى ص ٣٣ طبع كيورتن.

(٢) الفرق بين الفرق للبغدادى ص ٩٨ والملل والنحل ص ٣٣. طبع كيورتن. والتبصير فى الدين لأبى المظفر الاسفرايينى، ص ٤٠ ومختصر الفرق بين الفرق لعبد الرزاق ابن رزق الله الرسعنى ص ٩٨.

(٣) المنية والأمل لابن المرتضى ص ٢٢ - ٢٣.

(٤) المنية والأمل ص ٢٣.

ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ، ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا ، وأولئك هم الفاسقون » . ثم قال : « إن المنافقين هم الفاسقون » . فكان كل فاسق منافقا ، إذ كان الألف واللام موجودين فى باب الفسق . فقال واصل : أليس الله تعالى قال « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون » . وقد قال فى آية أخرى : « والكافرون هم الظالمون » . فعرف بالألف كما فى القاذف ؛ فسكت عمر . ثم قال واصل : ألست تزعم أن الفاسق يعرف الله ، وإنما خرجت المعرفة من قلبه عند قذفه ؟ فإن قلت : لم يزل يعرف الله فما حجتك وأنت لم تسمه منافقا قبل القذف ؟ وإن زعمت أن المعرفة خرجت من قلبه عند قذفه قلنا لك فلم لا أدخلها فى القلب بتركه القذف كما أخرجها بالقذف ؟

ثم قال واصل لعمرو : أليس الناس يعرفون الله بالأدلة ويجهلونه بدخول الشبهة ، فأى شبهة دخلت على القاذف ؟

ثم قال له واصل أيضا : يا أبا عثمان ، أيما أولى أن يستعمل من أسماء المحدثين: ما اتفقت عليه الفرق من أهل القبلة . أو ما اختلفت فيه ؟ فقال عمرو : ما اتفقت عليه ، فالخوارج تسميه « كافرا فاسقا » ، والمرجئة تسميه « مؤمنا فاسقا » ، والشيعة تسميه « كافرا نعمة فاسقا » ، والحسن يسميه « منافقا فاسقا » . فأجمعوا على تسمية « مرتكب الكبيرة بالفسق » فنأخذ بالمتفق عليه ولا نسميه بالمختلف فيه ، فهو أشبه بأهل الدين .

وهنا يجب أن نلاحظ أن واصلا قد استعمل فى استدلاله على رأيه وتقريره وإبطال رأى عمرو بن عبيد ، أو بالأحرى رأى الحسن البصرى ، ثلاثة أنواع من الأدلة :

أولا : الدليل النصى من القرآن الكريم الذى أشار إليه بالآيات التى ساقها .

ثانيا : الدليل العقلى الذى بدأه بقوله :ألست تزعم ... وانتهى به فى قوله : أليس الناس يعرفون الله ... الخ .

ثالثا : الإجماع ، فقد قال — بعد أن ذكر آراء المخالفين وبين ما اتفقوا عليه وما اختلفوا فيه — : « فأجمعوا على تسميته « بالفسق » ، فنأخذ بالمتفق عليه ولا نسميه بالمختلف فيه ، فهو أشبه بأهل الدين » .

واصل الأخير وهو قوله : « فهو أشبه بأهل الدين » يدل على أن واصلا ما كان يريد برأيه هذا إلا الرجوع إلى رأى مجمع عليه ، ولا يعمل هذا إلا من كان مخلصا للحق يقرر فى الدين لله ، لا للهوى والشيطان ؛ ومخالفته لرأى أستاذه « الحسن » لا تجعله متهما فى دينه ولا كافرا ، كما يقول بعض علماء الأشاعرة الذين أرخوا لفرق المتكلمين ؛ ومن هؤلاء أبو منصور [1] عبد القاهر بن طاهر البغدادى ؛ قال عن واصل هذا فى كتابه « الفرق بين الفرق ص٩٨ » : ثم إنهما « أى واصلا وعمرا » أظهرا بدعتهما « فى المنزلة بين المنزلتين » وضما إليها « دعوة الناس إلى قول القدرية على رأى معبد الجهنى » فقال الناس يومئذ لواصل: « إنه مع كفره قدرى » ، وجرى المثل فى كل كافر قدرى . ا ه

ومنهم كذلك أبو المظفر [2] الاسفراينى الذى قال فى كتابه « التبصير فى الدين ص ٤١ » : فلما عرف الناس من واصل قوله بالقدر — وكانوا يكفرونه بالقول الاول « وهو المنزلة بين المنزلتين » الذى ابتدعه فى فساق أهل الملة — وكانوا يضربون به المثل ويقولون : إنه مع كفره قدرى . ا ه

ومن هنا ترى كيف أن أصحاب الفرق يتهم بعضهم بعضا ، وأيسر شىء يحكمون به هو حكمهم على كل من يخالفهم فى رأى من الآراء مخلصا فيه ومجتهدا لا لشىء إلا الوصول إلى الحق ، والتميز بين الصحيح والفاسد ، والصادق والكاذب - أيسر شىء وأقربه خطورا على بالهم هو الحكم على من خالفهم « بالكفر » مع أننا قلنا : إن لعلماء الكلام أن يجتهدوا فيما لم يرد فيه نص قاطع بشرط أن يتفق ذلك مع القواعد العامة والقوانين الكلية التى قررها الدين الاسلامى ، كما أن للفقهاء ذلك الحق ، ومن اجتهد منهم وأصاب فله أجران ، ومن أخطأ — بشرط أن يكون طالبا الحق مخلصا فى طلبه - أجر ، وهو كذلك مؤمن لا كافر . وفى مقال تال إن شاء الله نتحدث عما بقى من آراء واصل الكلامية حتى نكشف عن عالم جليل من علماء المسلمين المتقدمين . والله هو الهادى إلى سواء السبيل ؟

---

(١) متوفى سنة ٤٢٩ ﻫ . (٢) متوفى عام ٤٧١ ﻫ .

حقوق الانسان

بقلم فضيلة الأستاذ الشيخ ابراهيم على أبو الخشب

المدرس بمعهد القاهرة

بالأمس رأيتنى أخط عنوان هذه الكلمة دون ما وعى ولا إدراك ، ورأيت كأن وازعا يحفزنى أن أمشى فى منعرجاته ، وأن أطوف بجنباته ، وأن أسترسل فيه فربما كان من المقالات التى تجدر بعناية الكاتبين خصوصا فى وقت لا يفرغ أديب الى نفسه ، أو يسبح فيلسوف فى مهامه خلوته ، وملكوت فكره إلا عاوده الأسف على ما صار اليه الحال من انحدار وانهيار . وهنالك دوى فى رأسى صوت يغمغم « ويل للانسان من الانسان ...! » وأدركت بعدها على طريقة الربط والترابط ، المسماة فى رأى علماء النفس « تداعى المعانى » بانهيال أفكار وهواجس أخرى كان أبرزها ما كان فى الجاهلية من ظلم صارخ . وجور شنيع ، واعتداء لا يسيغه الذوق . وسوى هذا وهذا مما كان يتمثل فى حروب تثور عجاجتها ، وتدور رحاها ، ويعلو فى أجواز الفضاء غبارها فلا تضع أوزارها إلا إذا شارف الحيان على الفناء ، ودنا الفريقان من الموت ، وأناخ الهلاك بكلكله عليهم جميعا ... فان أدرك الرشد عقلاءهم ، وأسعف رؤساءهم ، عادوا الى الصحو ، وعلم كلاهما أىّ منقلب ينقلبون ، ولكن ذلك الى أمد ، ثم تعود الكرة دواليك وهكذا ...

وقد طاف الى جوار هذا الخاطر وأد البنات « وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم . يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هُون أم يدسه فى التراب » وغير هذا مما يدل على العقوق ، وغمط الحقوق ، ونبذ التآلف ، وانعدام الرغبة فى التعارف ، حتى لكأن الناس وحوش نافرة ، أو معان متناكرة . وحينئذ التمست العذر للعربى الجلف فيما كان يأتى من ظلم ، أو يقارف من خطل ، لأنه لم تربطه آصرة ، أو تلم شمله عقيدة ، والأمة من شأنها أن يجمع

القانون شتاتها ، ويخضع أهواءها المختلفة لحكم السلطان أو رأى الخليفة . وهو وإن كان يسكن الجزيرة ، تقله أرضها ، وتظله سماؤها ، إلا أنه مع أخيه المواطن ، وزميله القاطن، كما يقول التصوير القرآنى « تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى » ولذلك كانت المنة واضحة بالتئام الأرواح ، وتساوق الأشباح ، وانسجام العواطف ، وتلاقى الأغراض ، يوم أن أذن صوت الوحى فيما بينهم « واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم » .

وانتقل الخاطر بعد ذلك انتقالا خاطفا الى دعاة المدنية الحديثة ، والحضارة التى سخر العقل فى خدمتها جنونه وفنونه ، فقلت حتى متى يضللون الناس بتلك الكلمات الجوفاء ، والجمل المعسولة ، والأساليب المفضوحة ، من دعوى « حقوق الأنسان» وضمان السلم ، ونزع السلاح ، ورد المظالم ، وانعاش الدول التى طحنتها رحى الهيجاء ، وأتت عليها ويلات المعارك ، ودكت معالمها قنابل القتال ؟! وما هذه المؤتمرات التى تجتمع وتنفض ، وتظعن وتقيم ، وهيئة الأمم ، ومجلس الأمن ؟! وما بالها بعد هذا كله لم تضمن السلام ، او تكفل الطمأنينة ، وتقف المعتدى عند حد معقول من الاعتداء ؟! ألا إنهم « يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون » . والحرب لا تزال تطارد العالم ، وتكمن له فى كل مرصد .

وليس وراء دين محمد صلى الله عليه وسلم ما يضمن الهدوء والاستقرار ، ويُرَغّب فى السلم ، ويُنَفّر من الخصومة ، ويقضى على نزوات الهوى ، ونزغات الطيش ، إذ يدعو إلى الألفة ، ويُحَبِّبُ فى الإيثار ، ويحث المسلم أن يكون أخا المسلم ، لا يؤذيه : ولا يخونه فى عرضه ، أو ينتهك حرماته . . . وقد رسم « حقوق الإنسان » باعتباره فردا ، وباعتباره لبنةً فى بناءِ المجتمع ، وحذّره مواطن الهلكة ، ونهاه عن موارد التلف ، ومزالق السوء ، وضمن له بمشروعية البيع والشراء ، والرهن والإجارة ، ونهيه عن الخلابة والخداع ، ملكية صحيحة لا يصادفها جور ولا اعتداء . . . وأمره بالزكاة وبَذل يد المعونة للبائس الفقير ، والتفانى فى سبيل الخير العام ، ليكون المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا .

وفى هذا من الدعوة إلى الإنسانية مالا تجىء به شريعة ، أو تعترف به

تقاليد أخرى . . . ولا نقول هـذا عصبية هوجاء لدين يُقضينا أن ننافح عنه ، وندعو إلى مائدته . . . فإنه يأبى فيما يأباه الوراثة الممقوتة ، والتقليد الأعمى ، ويحب دائماً أبداً النظر والفقه ، والمماحصة والدرس ، حتى يكون الإيمان به يقيناً وإذعاناً بجريان من الرجل مجرى الدم الذى يذكى حرارة الحياة والحركة « ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حيَّ عن بينة » .

ولـكنا نرجو هؤلاء الداعين الى الوفاق ، الراغبين رغبة أكيدة فى الإصلاح، أن يجعلوا لهذا الكتاب الذى أنزله ربه مباركا ليكون بين يدى هذا الكون «هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان » نصيبا من النظر والاعتبار ، عسى أن تنتهى هذه الإحن ، وتنقضى تلك المحن ، وتعيش الخليقة فى بلهنية الحياة وغضارتها . . .

قلت لنفسى هذا الكلام حينما أمسكت بالقلم لأكتب تحت عنوان « حقوق الإنسان » ، ولم ألبث أن سمعت هاتفا فى وادى الضمير يقول تيقَّظ من نومك واصح من غفلتك ، فإننا فى عصر « المادة » ، والمسلمون ليست لهم شوكة المسلط ، ولا بأس المظفر الغالب ، وكل مايملك أحدهم اذا دعا الى الله أن يتلو آية ، أويقرأ حديثاً ، دون أن يعزز ذلك بما يحميه من عدوان الجاهل ، وسخرية الضال ، مع أن رسولهم الذى يزعمون أن لهم فيه أسوة حسنة لم يغز غزواته ليفتح البلاد ، ولا ليجبى الخراج ، ويضع فى رءوس المعاندين الجزية ؛ إنما حارب ليفتح القلوب ، وينير البصائر ، ويوجه الأفهام الى الخير ؛ فمن اهتدى بهدايته عصم بها ماله ودمه وكانت سبيله سبيل المؤمنين .

وعدت فقلت : وماذا يفعل المسلمون والبأس لغيرهم ، والغلبة لعدوهم ، وأيديهم خلو من السلاح والذخيرة . غير أن هذا الهاتف انبعث الى جانبه هاتف آخر بأبيات كنت أحفظها من شعر شوقى ، فظللت أعيد فيها وأردد :

هل كان حول محمد من قومه ... إلا صبى واحد ونساء
فدعا فلبى فى القبائل عصبة ... مستضعفون قلائل أنضاء
نسفوا بناء الشرك فهو خرائب ... واستأصلوا الأصنام فهى هباء
والحق والإيمان إن صُبَّا على ... برد ففيه كتيبة خرساء

المظاهرة المصرية
لتأييد حق العرب فى فلسطين

كان يوم الأحد غرة شهر صفر سنة ١٣٦٧ (١٤ ديسمبر ١٩٤٨سنة) يوما من الأيام المجيدة فى تاريخ مصر ؛ فقد تألفت فيه مظاهرة هى أول ما حدث من نوعها فى الشرق ، من ناحية عدد أفرادها ، فقد بلغوا مائة ألف ؛ ومن ناحية مكانة المشتركين فيها ، فقد سار فيها كبار شيوخ الأزهر ، وكبار قساوسة الإكايروس القبطى ، وأكثر طلبة العلم الأزهريين والجامعيين ، وسائر معاهد التعليم فى القاهرة ، بنين وبنات ؛ فكانت مظهراً رائعاً لالتهاب شعور الشرقيين بقسمة فلسطين بين الإسرائيليين وأهلها المسلمين .

ففى الساعة الحادية عشر أمّ الأزهرَ كبار علماء الدين وطلاب العلم ، واشترك معهم بعض كبار رجال الإكايروس القبطى ، منهم حضرات القمامصة : متياس سكرتير صاحب الغبطة بطريارك الأقباط ، ومديوس البرموسى ، وصمويل السويريانى أرسانيوس وكيل مطرانية بنى سويف ، والأرسمندريث فلامتيوس الصويتى ؛ ساروا إلى جانب حضرات أصحاب الفضيلة : الشيخ محمد عبد اللطيف دراز مدير الأزهر ، والشيخ محمود أبو العيون سكرتير عام الأزهر ، والشيخ عيسى منون شيخ كاية الشريعة ، والشيخ عبد الجليل عيسى شيخ كاية اللغة العربية .

وسار خلف هؤلاء العلماء والقمامصة بعضُ العلماء ، وسعادة صالح حرب باشا وفضيلة الشيخ حسن البنا ، وغيرهما ممن لا يحصون كثرة .

مشى هذا الموكب يحف به الجلال ، حتى وصل إلى ميدان إبراهيم باشا ، وكان قد أعدت فى فندق الكونتيننتال منصة للخطابة ، وجعل فيها كراسى لحضرات

رؤساء وفود الدول العربية، ووضعت فى الميدان مكبرات للصوت، وكانت أعلام الدول العربية السبع تخفق فوق الفندق .

عند ذلك طلب المتظاهرون أن يسمعوا كلمات لرؤساء الوفود العربية ، وكانوا قد صعدوا إلى سطح الفندق لعدم إمكان وصولهم إلى مكان الخطابة من شدة الزحام ، فأعد لهم هناك مكبر للصوت . وصعد إلى السطح أصحاب الفضيلة الشيخ محمد عبد اللطيف دراز ، والشيخ محمود أبو العيون ، والشيخ حسن البنا ، وصالح حرب باشا ، والأستاذ إسماعيل الأزهرى ، وبعض ممثلى الصحف ، وشركات التلغرافات . فألقى دولة رياض بك الصلح كلمة باسم الأمير فيصل ، ولكن الجماهير ألحت فى أن يسمعهم صوته ، فألقى سموه كلمة قوبلت بالتصفيق والهتاف لفلسطين .

وتقدم حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمود أبو العيون السكرتير العام للجامع الأزهر ، فألقى كلمة بليغة ، قوبلت بأبلغ ما تقابل به الخطب من الهتاف والتقدير ، فكان مما قاله :

« الله أكبر القادر على كل شىء ، لا إله إلا الله وحده ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده !

« شاهت الوجوه ! هذا يوم الفصل ! إلى الأمام ياجند الله ! إلى الأمام ياصناديد العرب ! إن هذا اليوم له ما بعده :

فإما إلى صدّاحة تطرب الورى وإما إلى نوّاحة فى المآتم

« نعم أرض العرب للعرب . إن ورائى هنا ، وفى هذا المكان العالى ، غضافرة لا يرهبون الموت ، ولا يخافون الردى : هم أمراء العروبة ، ورؤساء حكوماتها ووزراؤها وممثلوها فى جامعة الأمم العربية » ... الخ .

ثم تلا فضيلته جميل مردم بك فألقى خطبة قيمة قوبلت بتصفيق حاد متكرر . ونهض بعده سعادة صالح حرب باشا فألقى كلمة حماسية استقبلت باستحسان عميق .

وتكلم بعده غبطة القمص متياس الأنطونى سكرتير نيافة بطريرك الأقباط خطابة باسم الآباء الروحانيين، جاء منها قوله :

« إننا مستعدون للتضحية بكل معانيها فى سبيل إنقاذ فلسطين ، ونحن المسيحيين قبل أن نكون مسيحيين نعلن أننا على استعداد لتقديم كل تضحية فى سبيل إنقاذ فلسطين وجعلها عربية » .

ثم أعقبه الأستاذ الأزهرى رئيس الوفد السودانى ، وألقى كلمة قال فيها :

« إن شباب الوادى فى الجنوب يَهبون أرواحهم وأموالهم لفلسطين وللعروبة » .

وتلاه فضيلة الأستاذ الشيخ حسن البنا فألقى كلمة حماسية بليغة ، بدأها بقوله : « لبيك فلسطين ! » فوقعت من المتظاهرين موقعاً جميلا .

ثم استأنفت المظاهرة سيرها إلى ميدان عابدين ، فبلغته فى منتصف الساعة الثالثة ، وأخذت تهتف باسم فلسطين ؛ وهنا انتهت مهمتها ، وتفرق أفرادها .

من نصح الآباء للأبناء

مما قاله لقمان الحكيم لابنه : يا بنى لا تضحك من غير عجب ، ولا تمشى فى غير أرب ، ولا تسأل عما لا يعنيك .

يا بنى لا تضيع مالك وتصلح مال غيرك ؛ فان مالك ما قدمت ، ومال غيرك ما تركت .

يا بنى إنه من يرحم يرحم ، ومن يصمت يسلم ، ومن يقل الخير يغنم ، ومن يقل الباطل يأثم ، ومن لا يملك لسانه يندم .

يا بنى زاحم العلماء بركبتيك ، وانصت إليهم بأذنيك ، فان القلب يحيا بنور العلماء ، كما تحيا الأرض الميتة بماء السماء .

وقال أعرابى لابنه : يابنى إنه قد أسمعك الداعى ، وأعذر اليك الطالب ، وانتهى الأمر فيك الى حده ، ولا أعرف أعظم رزية ممن ضيع اليقين وأخطأ الأمل .

وقال على بن الحسين لابنه : يا بنى اصبر على النوائب ، ولا تتعرض للحتوف ، ولا تجب اخاك من الأمر الى ما مضرته عليك أكثر من منفعته لك .

مطالعات فى الجبرتى :

العلماء سفراء وقادة

لحضرة الأستاذ محمود الشرقاوى

يؤرخ عبد الرحمن الجبرتى مصر فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر وشطرا من القرن الثالث عشر الهجرى ، فهو يبدأ تاريخه بسنة ١٠٩٩ ، ويدون حوادث هذه السنة بعد إجمال لما سبقها من تاريخ مصر ؛ وينتهى تاريخه بنهاية سنة ١٢٣٦ هـ .

وقد كتب الجبرتى تاريخه هذا فى سنة ١٢٢٠ [١] ، وتوفى على الأرجح فى سنة ١٢٣٦ كما يفهم من السطور الأخيرة من الكتاب ؛ فهو إذن قد شاهد كثيراً مما دونه فى تاريخه الذى سماه (عجائب الآثار فى التراجم والأخبار) ، وما لم يشاهده الجبرتى بنفسه من الحوادث التى سبقت عصره رواه عن ثقات شاهدوا هذه الحوادث وعاصروها ، ولعله روى كثيرا منها عن أبيه الشيخ حسن الجبرتى الذى كان عالما ثريًّا ذا مكانة وحظوة .

ويكاد الجبرتى أن يكون وحده ، أو هو عن يقين ، ينفرد بتأريخ هذه الفترة من تاريخ مصر باللغة العربية ؛ وهو بمعاصرته لطائفة كثيرة من حوادث هذه الفترة ، وبما كان له ولأبيه قبله من المكانة ، قد دون هذه الحقبة من التاريخ فى كثير من الدقة والإحاطة والتفصيل ؛ ويستطيع من يؤرخ مصر من بعده أن يعتمد على صدقه فى تأريخ هذه الحقبة ، وأن يوثقه .

* * *

كان الأزهر وكان علماؤه فى هذه الفترة التى يؤرخها الجبرتى ، يشغلون مكانا

---

(١) ص ٢٧٢ جزء أول من تاريخ الجبرتى طبع المطبعة الشرفية .

رفيعاً فى المجتمع المصرى، ويؤثرون تأثيرا قوياً فى حوادث ذلك العصر ، وهم يشغلون بأخبارهم وحوادثهم جزءاً غير هـيّن فيما كتبه الجبرتى من تاريخه ؛ جزءاً غير هين فى كمه ولا فى كيفه ؛ فهم فى صفحات كثيرة من هذا التاريخ يُذكرون ، وهم فى كل أمر جسيم من أمور مصر لذلك العهد يذكرون ، بل لعلهم كانوا فى كثير من الأمور محورها ومؤثرها الأول والأكبر .

ومع أن مصر فى هذه الفترة من تاريخها كانت تعيش فى محنة موصولة ، واقعة تحت حكم طائفة من المماليك يظلمون أهلها ، ويستبدون بمقاديرها ، ويتركون جميع من فى مصر فى ظلمات من الجهالة ، ومن الرعب الدائم والخوف القاتم ، حتى فسدت قلوبهم وعقولهم ، وضمائرهم وأخلاقهم - مع أن مصر فى هذه الفترة كانت فى هذه الحال ، فأن ما نجده من أخبار علماء الأزهر فى هـذه الفترة هو كالنور يضىء فى الظلام ؛ بل لعله أن يكون وحده هو الحديث الطيب مما كتبه الجبرتى فى تأريخ هذه الفترة من حياة مصر .

علماء الأزهر فى هذه الفترة هم — كما قلت فى رأس هذا المقال — كانوا «سفراء وقادة» ؛ سفراء الشعب المظلوم الى حكامه الظلمة ، وقادة الشعب الساخط ضد كل عدوان وجور وجبروت .

سفراء عند قـوم يشك كل إنسان منهم فى كل إنسان ، ويتهم كل جار جاره ، ويوقع أهل كل بيت منهم بين بعضهم وبعض ، ويتوجس كل أخ من أخيه .

وقادة بين قوم يقتل منهم الواحد والعشرة فى أقل سبب وبلاسبب ، وتنهب أموالهم وتسبى نساؤهم وأولادهم ، ويجد الناهب والقاتل والسالب كثيرين يقولون له : أحسنت أنت سيدنا ونحن ملك يمينك .

هكذا كان الناس ، وكان علماء الأزهر فى ذلك الزمان .



يقول الجبرتى فى حوادث شهر جمادى الأولى من سنة ١١٩١ : إن بعض الأوقاف المحبوسة على طلبة العلم آل إلى الطلبة المغاربة ، ولكن واضع اليد على ذلك

الوقف جحد هذه الأيلولة وأبى أن يسلم فيه إلى مستحقيه ، والتجأ فى ذلك إلى يوسف بك الكبير أمير الحاج فأعانه ، فأقام المغاربة دعوى أمام القاضى ، فأثبت لهم الحق فى هذا الوقف . ولكن الأمر كبر على يوسف بك فأبى أن يسلم بحكم القاضى بل أمر بالشيخ عباس « زعيم المطالبين بوقف المغاربة » أن يذهب به إلى السجن ، فلما ذهب رسل الأمير يوسف بك إلى الأزهر ليأتوا إليه بالشيخ عباس هذا ، طردهم المجاورون وسبوهم ولم يمكنوهم من أخذه ، ثم قصدوا إلى الشيخ أحمد الدردير فأخبروه الخبر ، فكتب الشيخ الدردير كتابا إلى يوسف بك ألا يتعرض لأهل العلم وألا يعاند فى حكم أصدره القاضى ، وأرسل الشيخ الدردير كتابه هذا إلى يوسف بك مع شيخين اختارهما لذلك ، أحدهما يسمى الشيخ الفرنوى ، فلما وصل الشيخان إلى يوسف بك برسالة الشيخ الدردير ، أمر بالقبض عليهما ، وزجرهما زجراً شديداً ، ثم حبسهما .

ونترك للجبرتى أن يقص ما جرى بعد ذلك بأسلوبه الطريف حيث يقول :

« ... ووصل الخبر إلى الشيخ الدردير وأهل الجامع ، فاجتمعوا فى صبحها وأبطلوا الدروس والأذان والصلوات ، وقفلوا أبواب الجامع ، وجلس المشايخ بالقبلة القديمة ، وطلع الصغار على المنارات يكثرون الصياح والدعاء على الأمراء ، وأغلق أهل الأسواق القريبة الحوانيت ، وبلغ الأمراء ذلك ، فأرسلوا إلى يوسف بك فأطلق المسجونين ، وأرسل إبراهيم بك من طرفه إبراهيم أغا بيت المال فلم يأخذ جوابا ، وحضر الأغا إلى الغورية ونزل هناك ونادى بالأمان ، وأمر بفتح الحوانيت ، فبلغ مجاورى المغاربة ذلك فذهب إليه طائفة منهم وتبعهم بعض العوام وبأيديهم العصى والمساوق ، وضربوا أتباع الأغا ورجموه بالأحجار ، فركب عليهم وأشهر فيهم السلاح هو ومماليكه ، فقتل من مجاورى المغاربة ثلاثة أنفار ، وانجرح منهم كذلك ومن العامة ، وذهب الأغا ورجع الفريق الآخر ، وبقى الهرج إلى ثانى يوم ، فحضر إسماعيل بك والشيخ السادات وعلى أغا كتخدا الجاويشية وحسن أغا أغات المتفرقة والترجمان وحسن أفندى كاتب حواله وغيرهم فنزلوا الأشرفية وأرسلوا إلى أهل الجامع تذكرة بانفضاض الجمع وتمام المطلوب . وكان ذلك عند الغروب ، فلم يرضوا بمجرد الوعد ، وطلبوا الجامكية والجراية فركبوا ورجعوا ،

وأصبح يوم الأربعاء والحال على ماهو عليه ، وإسماعيل بك مظهر الاهتمام لنصرة أهل الأزهر ، فحضر مع الشيخ السادات وجلسوا بالجامع المؤيدى ، وأرسلوا للمشايخ تذكرة صحبة الشيخ ابراهيم السندوبى ملخصها أن اسماعيل بك تكفل بقضاء أشغال المشايخ ، وقضاء حوائجهم ، وقبول فتواهم ، وصرف جماكيهم وجراياتهم ، وذلك بضمان الشيخ السادات له ؛ فلما حضر الشيخ ابراهيم بالتذكرة وقرأها الشيخ عبد الرحمن العريشى جهارا وهو قائم على أقدامه ، فلما سمعوها أكثروا من الهرج واللغط ، وقالوا هذا كلام لا أصل له !. وترددت الارساليات والذهاب والمجىء بطول النهار ، ثم اصطلحوا وفتحوا الجامع فى آخر النهار ، وأرسلوا لهم فى يوم الخميس جانبا من دراهم الجامكية . ومن جملة ما اشترطوه فى الصلح عدم مرور الأغا والوالى والمحتسب من حارة الأزهر ، وغير ذلك شروط[1] » .

ثم يقول الجبرتى بعد ذلك إن إبراهيم بك عُيّن بعد هذه الحركة ناظرا على الجامع الأزهر بدلا من الأغا ، وأنه أرسل من طرفه جنديا للمطبخ ، وسكن الاضطراب .

* * *

لم يكن فى هذه الفترة من تاريخ مصر من يستطيع أن يقف مثل هذا الموقف مع أحد من المماليك ، ولا مع تابع من أتباع المماليك ؛ لم يكن أحد من العامة ولا من الخاصة مستطيعا فى هذه الفترة من تاريخ مصر أن يرد مبعوثا بعث به يوسف بك ، أو أن يصيح من فوق منبر بالدعاء على المماليك ، أو أن يكتب الى أحد منهم كتابا ينبهه فيه الى أمر كما فعل الشيخ الدردير حين بعث الى الأمير يوسف ينبهه الى « عدم التعرض لأهل العلم ومعاندة الحكم الشرعى » على حد قول الجبرتى .

ولم يكن المماليك وأتباعهم وخدمهم يتحركون لأحد أو لطائفة من الناس ولا لأمر مهما يكن خطره ما دام غير صادر عنهم أو عن أمير منهم ، ولكنهم عند مايغضب أهل العلم فى الأزهر ، يبعثون اليهم بالرسل يسترضونهم ويستشفعون

---

(١) ص ٩ من الجزء الثانى من تاريخ الجبرتى طبع المطبعة الشرفية .

بشيخ منهم يتخذونه ضمينا لهم كما فعل إسماعيل بك بالشيخ السادات حيث جعله عندهم شفيعا وضمينا ، ولم يكن المماليك يقبلون من أحد من الناس رأيا ولا يمضون له أمرا إذا واجههم به ، ولكنهم يسرعون إلى طلبة العلم فيقضون حوائجهم ، ويترضونهم ويقصدون اليهم فى مساجدهم مجيبين مسلمين قد أجابوهم لكل مايطلبون.

ولا يظن ظان أن أهل الأزهر كانوا فى غضبتهم هذه نفعيين تحركهم الرغائب والمصلحة الخاصة حين يغضبون فى أمر أوقافهم وأموالهم وجراياتهم ، فان فيما يذكره الجبرتى فى صفحات كثيرة من تاريخه ، وما قد نلخص طرفا منه فى هذه الفصول ، مايظهرنا على أن أهل الأزهر كانوا يغضبون أشد الغضب أيضا فى أمور لا تنفعهم خاصة ، وإنما أثار غضبهم فيها الدفاع عن كلمة الحق ، وعن دين الله ، وعن الضعاف والمظلومين من عباد الله .

الأدب مع الملوك

كان الحسن اللؤلؤى ليلة عند المأمون وهو يسامره إذ نعس المأمون والحسن يحدثه . فقال له : نعست ياأمير المؤمنين ؟ فانتبه . فقال المأمون : سوقى ورب الكعبة ! (أى لا يقول مثل هذا الكلام فى حق أمير المؤمنين إلا سوقى لا يصلح لمجالسة الملوك) يا غلام خذ بيده ! فأخرجه الغلام .

ودخل أبو النجم على هشام بن عبد الملك ينشده أرجوزته التى أولها : « الحمد لله الوهوب المجزل » وهى من أجود شعره . فلما أتى على قوله : « والشمس فى الجو كعين الأحول » ، غضب هشام وكان أحول ، وأمر بصفع قفاه وإخراجه ! .

ودخل كثير عزة على يزيد بن عبد الملك ، فبينما هو يحدثه إذ قال : يا أمير المؤمنين ما معنى قول الشماخ ؟ وأنشده بيتا له . فقال يزيد : وماذا على أمير المؤمنين أن لا يعرف ما قال هذا الأعرابى ! وأمر بإخراجه .

منزلة السنة من الدين

وضرورة العمل بها والانكار على من ردها

لحضرة الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي

وجاء فى سنن الدارمى — المقدمة ٤٩ - باب السنة قاضية على كتاب الله ص ٥٥

أخبرنا أسد بن موسى ، حدثنا معاوية ، حدثنا الحسن بن جابر ، عن المقدام ابن معد يكرب الكندى ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حرّم أشياء يوم خيبر : الحمار وغيره ، ثم قال : « ليوشك الرجل متكئا على أريكته يحدّث بحديثى فيقول : بيننا وبينكم كتاب الله ، ما وجدنا فيه من حلال استحللناه ، وما وجدنا فيه من حرام حرّمناه . ألا وإن ماحرّم رسول الله فهو مثل ما حرّم الله ». اهـ

وجاء فى مسند الامام احمد — الجز الثانى ص ٣٦٧

حدثنا عبد الله ، حدثنى أبى ، حدثنا خلف قال : حدثنا أبو معشر عن سعيد عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لأعرفن أحدا منكم أتاه عنى حديث وهو متكىء فى أريكته ، فيقول : اتلوا على به قرآنا ؛ ما جاءكم عنى من خير قلته أو لم أقله فأنا أقوله ، وما أتاكم عنى من شر فأنا لا أقول الشر ». ا هـ

وجاء فى الجزء الرابع ص ١٣٠ و ١٣١

حدثنا عبد الله ، حدثنى أبى ، حدثنا يزيد بن هرون قال أنبأنا حريز بن عبد الرحمن ابن أبى عوف الجرشى عن المقدام بن معد يكرب الكندى ، قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ألا إنى أوتيت الكتاب ومثله معه ، ألا إنى أوتيت القرآن ومثله معه ، ألا يوشك رجل ينثنى شبعانا على أريكته يقول : عليكم بالقرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه ، وما وجدتم فيه من حرام فحرموه .

ألا لا يحل لكم لحم الحمار الأهلي ، ولا كل ذى ناب من السباع ؛ ألا ولا لُقَطة من مال معاهد إلا أن يستغنى عنها صاحبها ؛ ومن نزل بقوم فعليهم أن يَقروهم ، فإن لم يقروهم فلهم أن يُعقبوهم بمثل قِراهم » اهـ.

وجاء فى ص ١٢٢

حدثنا عبدالله ، حدثنى أبى ، حدثنا عبدالرحمن وزيد بن حباب ، قالا : حدثنا معاوية ابن صالح عن الحسن بن جابر ؛ قال زيد فى حديثه : حدثنى الحسن بن جابر ، قال سمعت المقدام بن معد يكرب يقول : حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم خيبر أشياء ثم قال : «يوشك أحدكم أن يكذبنى وهو متكئ على أريكته يحدث بحديثى فيقول : بيننا وبينكم كتاب الله فما وجدنا فيه من حلال استحللناه وما وجدنا فيه من حرام حرمناه. ألا وإن ما حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل ما حرم الله » اهـ

وجاء فى الجزء السادس ص ٨

حدثنا عبدالله ، حدثنى أبى ، حدثنا على بن إسحق ، أنبأنا عبدالله ، أنبأنا ابن لهيعة ، حدثنى أبو النضر أن عبيد الله بن أبى رافع حدثه عن أبيه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « لأعرفن ما يبلغ أحدكم من حديثى شئ وهو متكئ على أريكته فيقول : ما أجد هذا فى كتاب الله » اهـ.

وقال ابن عبد البر أيضا فى كتابه جامع بيان العلم الجزء الثانى ص ١٨٨

(باب موضع السنة من الكتاب وبيانها له) .

قال الله تعالى ذكره « وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم » ١٦ / النحل / ٤٤ وقال « فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم » ٢٤ / النور / ٦٣ وقال « وإنك لتهدى الى صراط مستقيم . صراط الله » ٤٢ / الشورى / ٥٢ و ٥٣

وفرض طاعته فى غير آية من كتاب الله وقرنها بطاعته جل وعز ، فقال « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » ٥٩ / الحشر / ٧

وروى عن عبد الرزاق قال : أخبرنى الثورى عن منصور عن ابراهيم عن علقمة قال : قال عبد الله بن مسعود : لعن الله الواشمات والمستوشمات والمتنمصات والمتفلجات للحسن المغيّرات خلق الله . قال : فبلغ ذلك امرأة من بنى أسد يقال لها أم يعقوب ، فقالت : يا عبد الرحمن بلغنى أنك لعنت كيت وكيت ، فقال : ومالى لا ألعن من لعنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن هو فى كتاب الله ! قالت : إنى لأقرأ ما بين اللوحين فما أجده . قال : إن كنت قارئة لقد وجدتيه ؛ أما قرأت « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا »؟ قالت بلى ، قال : فإنه قد نهى عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم .

« قلت : قد أخرج هذا الحديثَ الإمامُ البخارى فى صحيحه فى كتاب اللباس (٧٧) باب المتنمصات (٨٤) بهذا النص :

« حدثنا إسحق بن ابراهيم أخبرنا جرير عن منصور عن ابراهيم عن علقمة قال : لعن عبد الله الواشمات والمتنمصات والمتفلجات للحسن المغيرات خلق الله ، فقالت أم يعقوب ماهذا ! قال عبد الله : ومالى لا ألعن من لعنه رسول الله ، وفى كتاب الله ! قالت : والله لقد قرأت ما بين اللوحين فما وجدته ؛ قال : والله لئن قرأتيه لقد وجدتيه « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » اهـ

وجاء فى إرشاد الفحول للامام الشوكانى ص ٣١

قال الأوزاعى : الكتاب أحوج الى السنة من السنة الى الكتاب .

قال ابن عبد البر : إنها تقضى عليه وتبين المراد منه .

وقال يحيى بن أبى كثير : السنة قاضية على الكتاب .

والحاصل أن ثبوت حجية السنة المطهرة واستقلالها بتشريع الأحكام ضرورة دينية ، ولا يخالف فى ذلك إلا من لا حظ له فى دين الاسلام . اهـ .

وجاء فى كتاب جامع بيان العلم لابن عبد البر الجزء الثانى ص ١٨٩

حدثنا خلف بن القاسم ، حدثنا ابن المفسر قال : حدثنا احمد بن على بن سعيد القاضى ، قال : حدثنا داود بن رشيد قال: حدثنا بقية بن الوليد عن محفوظ بن المسور الفهرى عن محمد بن المنكدر عن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم

« يوشك بأحدكم يقول هـذا كتاب الله ما كان فيه من حلال أحللناه وما كان فيه من حرام حرمناه . ألا من بلغه عنى حديث فكذّب به فقد كذّب الله ورسوله والذى حدثه » ا هـ .

وقال الإمام للشافعي فى رسالته ص٨٨ :

قال الشافعى : وما سنّ رسول الله فيما ليس لله فيه حكم ، فبحكم الله سنّه . وكذلك أخبرنا الله فى قوله تعالى : « وإنك لتهدى الى صراط مستقيم . صراط الله » ٤٢/ الشورى/٥٢ و ٥٣ .

وقد سن رسول الله مع كتاب الله ، وسن فيما ليس فيه بعينه نص كتاب .

وكل ما سَنَّ فقد ألزمنا الله اتباعه ، وجعل فى اتباعه طاعته ، وفى العُنُود عن اتباعها معصيته التى لم يعذر بها خلقا ، ولم يجعل له من أتباع سنن رسول الله مخرجا ، لِما وَصَفْتُ ، وما قال رسول الله :

أخبرنا سفيان عن سالم أبو النضر مولى عمر بن عبيد الله سمع عبيد الله بن أبى رافع يحدث عن أبيه أن رسول الله قال : « لا أُلفينّ أحدكم متكئا على أريكته يأتيه الأمر من أمرى ، مما أمرت به أو نهيت عنه ، فيقول : لا أدرى ما وجدنا فى كتاب الله اتبعناه » ا هـ .

قال ابن عبد البر فى كتابه جامع بيان العلم الجزء الثانى ص ١٩٠ :

والبيان منه صلى الله عليه وسلم على ضربين : بيان المجمل فى الكتاب العزيز كالصلوات الخمس فى مواقيتها وسجودها وركوعها وسائر أحكامها ، وكبيانه للزكاة وحدّها ووقتها ، وما الذى تؤخذ منه الأموال ، وبيانه لمناسك الحج .

قال صلى الله عليه وسلم إذ حج بالناس : «خذوا عنى مناسككم » لأن القرآن إنما ورد بجملة فرض الصلاة والزكاة والحج دون تفصيل ، والحديث مفصِّل ، وهو زيادة على حكم الكتاب كتحريم نكاح المرأة على عمتها وخالتها وكتحريم الحمر الأهلية ، وكل ذى ناب من السباع ، إلى أشباه يطول ذكرها .

وقد أمر الله جل وعز بطاعته واتباعه أمراً مطلقاً مجملا ، لم يقيد بشىء ، كما أمرنا باتباع كتاب الله ، ولم يقل : وافق كتاب الله كما قال بعض أهل الزيغ ؟

العصر العظيم فى تاريخ العالم

— ١ —

« كُنْفشيوس ـ جوتامو بوذا ـ زَرْدَشت ـ فيثاغوراس » من وجهة نظرٍ تأليفية

تأليف : ف . ستانكا. تعريب : عمر طلعت زهران

« محاضرة خارج المنهج الدراسى ألقيت فى جامعة هامبورج فى التاسع عشر من سبتمبر سنة ١٩٤٦ ، ويجب أن ينظر الى ربط أصل نظريات هؤلاء الاربعة باستخدام الحديد والإستقلال السياسى كفرض يحتاج الى فحص وتمحيص » .

— ١ —

لنأخذ لنا مسرحا هو العالم كله ، ولكنه العالم القديم . وليكن العصر هو النصف الأول من تاريخ العالم ، التاريخ القديم بأجمعه ؛ وبتعبير أدق : عصر ما قبل المسيح . ثم لنسأل بعد ذلك أى رجال هذا الزمن كان أعظم شأنا ؟ ولسنا نريد بالطبع أعظمهم قوة ، أو أكثرهم إراقة للدماء وانتصارا فى الحروب ، ولا فى التدمير والتخريب ؛ وإنما نريد أعظمهم فى تحقيق السلام ، فى الشعور العميق ، فى التفكير السامى ، والأعمال الصالحة . فإذا ما ابتدأنا ببلاد شروق الشمس فى الشرق الأقصى ، فإننا سنذكر أولا الحكيم الصينى الأعظم كنفشيوس منشئ فلسفة الدولة لأكثر بلاد العالم سكانا . وإذا ما اصطحبنا الشمس فى سيرها متجهة نحو الغرب ، فسنجد أمامنا اسم معلم الإنسانية العظيم جوتامو بوذا مؤسس أول دين عالمى .

أما فى إيران فسيظهر أمامنا المعلم العظيم زردشت الذى دعا الناس والقوى السماوية معا للنضال ضد الشر فى العالم . وأخيرا نجد فى بلاد الإغريق بعض

الصعوبات : من يكون من بين مفكرى هذه البلاد الأفذاذ أعظمهم شأنا ؟ سقراط ، أم أفلاطون ، أم أرسطو ، أم أبيقور ، أم زينون ؟ وهنا لن تتركز العظمة الروحية على شخص بعينه ، فلن نستطيع أن نتحدث إلا عن ممثل لقوة الإغريق الروحية . ولكننا بعد أبحاث قليلة ، وتردد قليل ، وبعد المقارنة بينهم وبين الثلاثة الأوائل ، سنختار ولا ريب فيثاغوراس ، وهو الوحيد الذى يمكن أن نضعه فى مرتبة هؤلاء الثلاثة الأوائل [1] .

لقد كانوا عظماء ، وعظمتهم هى العامل المشترك بينهم ، ولكن هل ثمة عوامل مشتركة أخرى بينهم ؟ وماذا نعرف عنهم ؟

إنا نعرف ، ونعرف بالتحديد ، المكان الذى نبعوا منه ؛ ويبدو من النظرة الأولى أن ليس هناك شىء شائع بينهم ، بل إنه يحتمل وجود اختلافات وفوارق كثيرة بينهم ، نظرا لأن الأماكن التى نشأوا فيها تتباعد تباعدا شاسعا . وأماكن ولاداتهم — وليس فى ذلك ريب — كانت بعيدا بعضها عن بعض بعداً كبيرا . ولكنه يوجد نظام لافت للنظر فى هذا البعد وفى توزيع هذه الأماكن ، فكل مكان يبعد عن الآخر بمسافة قدرها ٣٠٠٠ ك . م . تماما . وقد يظهر هذا التحديد كأنما هو عارض لا معنى له ، ولكن من الصعب أن نعتقد أن من الصدفة أن يقوم فى كل مركز من مراكز الثقافة القديمة : فى الصين وفى الهند وفى جنوب غرب آسيا وفى اليونان حكيم عظيم ومعلم كبير ، كان له نفوذ قوى منذ آلاف السنين . وإنا لنجد فى هذا النظام ظاهرة حكمية ، وعلامة لقانون هام فى تقدم البشر الروحى .

ويأتى بعد ذلك الزمن : عصر نشاطهم ؛ ومعلوماتنا هنا ليست دقيقة كل الدقة . ولسنا نستطيع تحديد تاريخ ولادة وموت واحد منهم غير كنفشيوس ؛ فقد ولد فى عام ٥٥٠ أو ٥٥١ ومات فى عام ٤٧٨ ق . م . وليست الأخبار عن فيثاغوراس بهذه الدقة ، وإن وجد تاريخ واحد عن حياته له بعض التأكيد ؛ ذلك أنه ترك بلدته

---

(١) كنفشيوس ، جوتاما بوذا ، زردشت .

ساموس حوالى عام ٥٣٠ ق . م . وذهب الى إيطاليا والى كروتونا حيث أنشأ نحلته المعروفة ، وحيث أمضى أخصب سنى حياته . ومن هنا يفترض الباحثون أن فيثاغوراس قد ولد عام ٥٧٠ ومات فى عام ٥٠٠ ق . م . بالتقريب . وعلى ذلك يمكن اعتباره معاصراً لكنفشيوس بأدق معانى هذه الكلمة . أما تاريخ جوتامو ففيه من الشك أكثر مما فى سابقيه حيث لا يوجد تاريخ يمكن أن يؤخذ نقطة بدء .

كما أنه يوجد اختلاف كبير فى تحديد زمن نشاطه وإنتاجه [١] . ولكن العلماء أجمعوا بعد بحث وتدقيق على احتمال ولادته فى عام ٥٦٠ ق . م . وموته فى عام ٤٨٠ ق . م . وقد يزيد كلا التاريخين أو ينقص عشر سنوات . وعلى ذلك يكون جوتامو قد عاش فى نفس الزمن الذى عاش فيه كنفشيوس وفيثاغوراس ؛ ولا يمكننا أن نتجاهل أن هذا التعاصر الزمنى لافت للنظر خاصة فيما يتعلق بكنفشيوس وجوتامو ، وعلينا أن نأخذه على أنه أهم تصادف فى تاريخ العالم كله .

ولكن يمكن أن يكون هذا التعاصر أكبر من ذلك ، فعلى الرغم من أن عصر زردشت غير محدد بالكلية ، وعلى الرغم من أن آراء الباحثين تختلف فيه اختلافا كبيرا ، فليس لنا أن نصدق الكتاب الاغريق الذين اعتقدوا أنه كان يسبقهم بآلاف السنين ، وحتى الرأى القائل إن زردشت كان يعيش قبل عصرنا هذا بألف عام ، يجب اعتباره رأيا باطلا . ويميل جل المؤرخين الى اعتبار عام ٧٠٠ ق.م. أكثر السنين احتمالا ، وحتى فى هذه الحالة ، أى منذ ٢٥ قرنا ، يمكننا أن ننظر اليه على أنه معاصر - بأوسع معانى هذه الكلمة - للثلاثة السابقين ، فهو إن لم ينتم الى عصرهم بالذات ، فانه ينتمى الى زمنهم التاريخى .

ولكن هذا التاريخ ٧٠٠ ق . م . قد لا يمكن أخذه على أنه الكلمة الأخيرة للعلم ، فمثلا يرى « أوتران » ، وهو أستاذ معاصر ، أن التاريخ الأكثر احتمالا لحياة زردشت هو الفترة التى بين ٦٦٠ و ٥٨٥ ق . م . [٢] .

---

(١) انظر كتاب حياة بوذا : ا ج . توماس ، لندن ١٩٢٧ .

(٢) شارل أوتران : ميترا وزردشت وما قبل التاريخ الآرى للمسيحية .

Charles Autran : Mythra, Zoroastre, et la préhistoire aryenne de Christianisme, 1935.

وفوق ذلك فقد ساد قديما أن زردشت كان معاصرا لوالد الملك الفارسي دارا . وذكر ذلك المؤرخ الروماني اميانوس مارسيللينوس . (١) أما البارسيون وهم الزردشتيون الذين يعيشون فى الهند ، فيقصون نفس الخبر . ويميل المؤلفون المحدثون الى قبول هذه النظرية . ووالد دارا كان يسميه المؤرخون الإغريق هستاسب Hystaspes ؛ وجاء فى تاريخ زردشت أن أول المؤمنين به والحامين له هو الملك فستاشب Vistaspa وهو اسم قريب من الأول . وتوجد كتابة على صخور المشهور « بهستون » Behistun (٢) تدل على أن اسم والد دارا هو فستاسبا وهو نفس اسم حامى زردشت ، وهذا اتفاق عميق المعنى تؤكده حقيقة : هى أنه فى نفس هذه الكتابة الحفرية عن دارا توجد أول معلومات مباشرة ، إن لم تكن عن زردشت ، فعن عقيدته : فان الكتابة تذكر اسم أهورا مازدا باعتباره موجودا أعلى . وقد دفعت هذه الحقائق بعض الدارسين الى أن يوحدوا بين شخصيتى فستاسبا الواردة فى الزند أفستا ، وبين هستاسب فستاسب والد دارا ويوجد بحث قيم عن هذا الموضوع فى مقال لارنست هارزفلد انتهى منه الى « إن التماثل بين فستاسبا المذكور فى الكتابات الحفرية وبين فستاسبا المذكور فى الزند أفستا هو تماثل كامل . فان الاسم واللقب والزمن والحاشية ، كل هؤلاء ذكروا بالضبط ، وإن تطابقهم فوق كل شك (٣) » .

ولو قاسمنا هارزفلد رأيه ، لرأينا أن دارا قد تولى الحكم عام ٥٢١ ق . م وكان زمن نشاط زردشت هو الوقت الذى كان أبو دارا لا يزال فيه على قيد الحياة ، أى منتصف القرن السادس قبل الميلاد ؛ فيمكننا أن ننظر اليه كمعاصر للحكماء الثلاثة الأول بالمعنى الضيق لهذه الكلمة ، ومن هنا تزداد المعاصرة الثلاثية إلى معاصرة رباعية تضم أربعاً من أعظم الأحداث الروحية فى تاريخ

---

(١) هاك نصه Marcillinus : “ addidit Zoroastres diende ; Hystaspes rex prudentissimus, Darei pater ”.

(٢) قرية فى فارس على حفورها كتابات حفرية ثمان من كشفها هذى رونسود ١٨٤٦ (المعرب) .

(٣) ارنست هارزفلد « دراسة فى الآثار الايرانية » ١٩٢٩ ص ١٨٥ .

البشرية . ومن المؤكد أن المؤرخين حتى وقتنا هذا لم يلاحظوا هذه المجموعة السديمية لهذه الكواكب الروحية ، ذات القيمة الأولى فى روحانية البشر : أوهم على الأقل لم يهتموا بها الاهتمام الكافى .

وإن تعاصر هؤلاء الأعلام الأربعة ليجعل من القرن السادس ق. م . عصراً عظيما ، ولكن عظمته يمكن أن تقدر التقدير اللائق بها إذا نظرنا إلى تأثير نظرياتهم فى العصور اللاحقة ؛ وأبسط هذه التأثيرات كان تأثير تعاليم فيثاغوراس على أية حال ، إذا نظرنا اليها من الجانب الخارجى . فهو قد جمع دائرة من أتباعه المخلصين فى أقروطونا ، وفى غيرها من مدن إيطاليا ، كونوا فرقة دينية أو أخوة روحية أخلصت لشخص أستاذها ؛ وبعد انحلال الفرقة وطردها من أقروطونا ، وبعد موت فيثاغوراس ، بقيت جماعته حوالى مائة وخمسين عاما ، ولم تختف إلا فى أواخر القرن الرابع ق . م . ؛ ومع ذلك فقد ظل سحر هذه النحلة ومؤسسها باقيا ، إذ نرى الفيثاغورية تبعث من جديد فى القرن الأول ق . م . ، والقرن الأول الميلادى فى هيئة الفيثاغورية الجديدة ، التى أثرت تأثيرا كبيرا على الأفلوطينية وظلت باقية باسمها حتى القرن السادس الميلادى ، أى بعد ألف عام من موت صاحبها . بل إنا لنجد آثارها باقية بعد اندثارها فى المسيحية ، وعلينا ألا ننسى أن فيثاغوراس كان أول من علم خلود الروح فى أوربا .

أما تأثير زردشت فكان أعظم وأكبر ، فقد أنتجت تعاليمه دينا جديدا ظل يسيطر على إيران حتى دخلها الإسلام فى القرن السابع الميلادى ، بل إن اضطهاد الحكام الجدد لم يستطع أن يقتلع نهائياً العقيدة الإيرانية الوطنية أو أن يجتذ ذكرى منشئها . وما زالت توجد حتى اليوم جماعات صغيرة فى إيران والهند تحيى ذكرى زردشت بعد أن احتفظت بها خمسا وعشرين قرنا ، وحدث نفس الأمر على صورة أكثر اتساعا لنظرية كنفشيوس التى صارت بعد عدة قرون يعمها الاضطراب ، فلسفة تسود الدولة ، أو دين الدولة الصينية بمعنى آخر ؛ وتبجيل اسم كنفشيوس يحافظ عليه من كل الشعب الصينى . وكان تأثير جوتامو أعظم من ذلك كله ؛ فان البوذية لم تغز قلوب وأرواح شعب واحد فحسب ، وإنما هى قد غزت شعوبا مختلفة موزعة فى أرجاء آسيا المتباعدة ، فصارت

البوذية أول الأديان العالمية المنتشرة . وإن انتشار البوذية السلمى وغزوها الموفق للدول المختلفة كبيرها وصغيرها ، لحادث يبعث على الدهشة ، ويظهر لنا مقدار النفوذ الروحى لكلام بوذا . وإذا حذفنا السؤال عن تأثير البوذية المحتمل على أصل المسيحية (١) ، فان خمسمائة مليون من أتباع هذا الدين — فى أيامنا — بعلامات نهضتهم ونفوذهم المتزايد حتى على البلاد غير البوذية ، لخير دليل على حيوية تعاليم جوتامو الدائمة .

وإنا إذ ننتهى من هذا البحث القصير عن مدى تأثيرهم ، نرى أنفسنا مضطرين إلى الاعتراف بأنه ليس من بين رجال العصور القديمة إلا أربعة أو ثلاثة على الأقل لم يُنسوا من الإنسانية ، بل إن العالم ليزداد لهم تقديراً واحتراماً عصرا إثر عصر ؛ وتظهر لنا هذه الحقيقة عظمتهم الحقيقية ، وعظمة عصرهم الذى كانوا يعيشون فيه . ومن ناحية أخرى فإن هذا التأثير يفصح عن السمات الحقيقية للروح الإنسانى الذى تأثر تأثرا عميقا بهذه التعاليم ، حتى إن صداها ليتردد طيلة ألفين ونصف من الأعوام . ويجب أن نعترف بوجود اتفاق عميق بينهم ؛ فان كان كذلك فان فهم هذه النظريات يعنى إلى حد ما فهماً لجوهر الروح الإنسانى .

(يتبع)

الحلم والجهل

لئن كنت محتاجا الى الحلم إننى ... الى الجهل فى بعض الأحايين أحوج
وما كنت أرضى الجهل خدنا وصاحبا ... ولكننى أرضى به حين أحرج
فان قال قوم إن فيه سماجة ... فقد صدقوا والذل بالحر أسمج
ولى فرس للحلم بالحلم ملجم ... ولى فرس للجهل بالجهل مسرج
فمن شاء تقويمى فانى مقوم ... ومن شاء تعويجى فإنى معوج

---

(١) بحثت هذه المسألة بحثا كافيا ، ونرى أن السؤال الآن أصبح : الى أى حد أثرت البوذية على المسيحية ؟ ، وكيف حدث هذا ؟ ، بدلا من السؤال القديم : هل أثرت البوذيه على المسيحية أملا ؟ وهو سؤال أصبح مبتذلا باطلا .

في أدب المرأة :

الجمال والصدق

لفضيلة الأستاذ كامل محمد عجلان
المدرس بمعهد القاهرة

إذا وعت المرأة بعض الجوانب المشرقة من ماضى أدبها ، كان لها منه ما يقوى معنوياتها ، ويدفعها فى طريق الأمل النافع ، والمثل الصالح ، والوجهة المجدية لها ولأبنائها ، والنافعة لوطنها .

* * *

وأغلب ما روى فى كتبنا الأدبية المتناثرة على جبين الأزمان ومختلف العصور ، يشهد كله بوضوح أدب المرأة ، ويكشف فيما نسب إليها عن عاطفة إنسانية تشرق وتزهو بالجمال ، والإخلاص ، والوفاء ، والرقة البالغة .

* * *

وألوان الأدب النسوى تغاير بحسب البيئة ودواعى الحياة وطبائع الأحداث السياسية والاجتماعية ، منها القوى ومنها الضعيف ، وفيها الفرح وفيها الحزين ، وعندها المؤمل وعندها اليائس . وقد توزع بين المنظوم والمنثور ، وجاءنا فى ثوب الحكمة والمثل ، والأقصوصة والأحدوثة .

وحفظت لنا كتب الأدب وأسفار النوادر وصحائف الملح ومختارات الأخبار ، بعض ظلال من حوار النساء وجدلهن ، ومواقفهن فى الحروب ، وفى سياسة الرأى ، والتفاخر ، والتقاضى ، والدفاع عن الحقوق لدى الخلفاء والقادة ...

* * *

كما خلدت الكتب لكثير من السيدات المسلمات ، ومن قبلهن للأعرابيات ، خطباً احتفل بها الرواة ، واعتزت الكتب ، وازدانت ببلاغتها وصراحتها وصرامتها وصدقها وقوتها . . وآنسنا فيما بقى لنا من آثار المرأة ، روح الزوج المخلصة ، والأم العطوف ، والأخت المفاخرة ، والابنة المعتزة بقوة قبيلتها ، وجهد عشيرتها ، ودفاع قومها وانتصار جانب أهلها وحماتها .

وإذا كان أدبنا يمتد فنه ، وتتأصل منابته ، وترجع إلى أعماق سحيقة ، فإننا لا ننسى ، كلما ذكرت مجامع الأدب وأسواقه ، مثل (سوق عكاظ) .

لا ننسى حظ المرأة ونصيبها فى هذه المدارج ، كما لم ينسها التاريخ إذ خلد لها ما خلفت من كلم ، وما جودت من شعر ، وما حسّنت من قول .

نعم : كانت النساء ترحل فى مواسم الأدب مع الأهل وذوى القربى إلى الأسواق ؛ وبعد انطواء صفحات التجارة والتشاور فى أمر الثارات والتفاخر بالأنساب ، نجد المرأة تشترك فى المعارك الأدبية ، وتشترك فى الجدل البيانى والإفصاح البلاغى ، بما يعد فى المكانة العالية ، والمنزلة المرموقة ، والقدر المحبب الجميل النافع فى موائد الرأى الأدبى ، وخاصة الشعر الذى كان عدة للعربى والعربية ، يشرح قضية السياسة ، ويعبر عن أهداف الجميع وأمل العشائر ، ويكافح فى كل مأزق يقع ، أو مأزمة تجد ، أو خلاف ينشَب .

ومن النساء اللاتى شهدن السوق الأدبية ، وكان لهن القدح المعلى : (الخنساء) سيدة شاعرات العرب غير مدافعة ؛ ولقد حكم لها النابغة الذبيانى حين أنشدته قصيدتها فى أخيها ، وفضل شعرها وأشار الى الأعشى ، وقال لها : لولا أن أبا بصير أنشدنى قبلك ، لقلت إنك أشعر من بالسوق هذا العام .

* * *

حتى إذا أشرقت شمس الإسلام ، ورفعت مكانة المرأة ، وتميز كيانها العائلى والمنزلى ، وقفت المرأة عند الحد الذى رسمه الإسلام لها ، ورضيت بنصيبها ورسالتها القويمة .

* * *

وكان أن راج الأدب على أيدى (الجوارى) من سبايا الحرب ، وممن أردن على اصطناع الأدب ليروج سوقهن ، وتغلى أثمانهن فى أيدى البائع والمشترى .

وتلك الحياة دعت إليها طبيعة التحضر فى بغداد ، ودمشق ، والمدينة ، والقاهرة ، وقرطبة .

* * *

وفى أدب المرأة ظواهر كثيرة مختلفة المشارب والظلال ، متعددة الملامح والأغراض .

ويهمنى هنا أن أقف عاجلا عند بعض مظاهر شعر المرأة .

والشعر صورة العاطفة المجملة ، وماروى منه نجد فيه كثيرا ما يحمل أنفاس المرأة ، وَيَتَّسِمُ بطابعها المعهود فى حياتها ، ومواقفها الملائمة لاستعدادها ، ومواهبها وآمالها .

فهى إذا فخرت حدّثت بجهود قومها ، ومدحت مواقف زوجها ، وجلاد ولدها ، ولا تلتفت الى الفخر بنفسها ، وهذا ما أريده من سمات الصدق فى نتاج المرأة الخالص لها ، والخالى من ضروب المداجاة والمواربة .

وكم وقف شاعر ونسب الى نفسه محامد لم تكن له ، ومفاخر جرت على يدى غيره ، أما المرأة فقد تخلصت من هذا الداء ، أو تخلص كل ماروى عنها من نزعات الرجال فى شعرهم ؛ ولهذا يجمل شعر المرأة ، ويصدق إذا عصف بها الألم ، لفقد عزيز أو موت عميد ، وإذا وصفت حياتها وتعلقها بوطنها ، وإذا نفذت بصيرتها الحساسة ونظرت فى جمال الطبيعة المحيطة بها ، وقلبت وجهها فى رونق ما تعيش فيه من نعمة ، وما يجرى عليها من رفاهية القصور ، كما كان فى الأندلس والشام وبعض عهود مصر .

وهنا يروّى شعرُها عاطفة من يشوقه الشعر الصادق الخالى من بهرج وزيف .

ويصدّق ما ذهبت اليه مثلُ هذين البيتين لإحدى النساء ، فى زوج تخلف عنها وتركها هى وأولادها :

* * *

غدرت بنا بعد التصافى وخنتنا وشر خلال فى الرجال خؤونها
وضيعت سرا كنت أنت أمينه ولا يحفظ الأسرار إلا أمينها

* * *

وينسب لأعرابية فى التعلق بالوطن ، وقد هتفت بأبيات وكانت تسوق أعنزاً ترعاها فسألها أحد الرجال عن مدرجها وملعب صباها ، فقالت متمدحة ذاكرة وطنها :

بلاد بها حل الشباب تمائمى وأول أرض مس جلدى ترابها

* * *

وإنى لأروى أبياتا لعربية تسمى (ميسون بنت بحدل) وهى أم يزيد بن معاوية ، تتشوق الى وطنها ومرتعها الأول ، ومعهد ملاعبها ومألف لداتها فى البادية . تقول :

لَبيت تخفق الأرواح فيه أحبُّ الى من قصر منيف
ولبس عباءة وتقرَّ عينى أحب الى من لبس الشفوف
وأكل كُسَيْرة فى عقر بيتى أحب الى من أكل الرغيف
وأصوات الرياح بكل فج أحب الى من نقر الدفوف
خشونة عيشتى فى البدو أشهى الى نفسى من العيش الطريف
فما أبغى سوى وطنى بديلا وما أبهاه من وطن شريف

ومن الأبيات المأثورة عن فتاة (جديس) فى تحميس قومها :

فللبين خير من مقام على الأذى وللموت خير من مقام على الذل

* * *

والذى لا شك فيه أن المرأة ـ وخاصة الأم العربية ـ هى التى كانت تلقن

ابنها أصول الأدب وتمده بقوى البيان ؛ وكما ترضعه بلبنها كانت تسقيه من معين الشمم ونبيل الأخلاق وكريم الطباع ، وتسلمه الى والده فتى شب على جليل الخصال ؛ وما على الأب إلا أن يعلمه الرماية وَيَفْتِلَ ساعديه ، ويزج به فى ساحة الرجولة وقوة البأس ، والحفاظ على العيش كريما .

وليس معنى ذلك أنها كانت تترك ولدها بعد أن يشب عن الطوق ، ويقف إلى جنب والده وفى وسط عشيرته ... لا ، بل كانت تقف منه موقف الناصح والموجه والمشجع .. ومن ذلك حديث (أسماء بنت أبى بكر الصديق) المسماة ذات النطاقين ، حين حوصر ابنها عبد الله فى مكة المكرمة ، وأحاط به جند الحجاج من كل جانب وتولى عنه أنصاره وجنده ، فرّ منهم من فر ، وقتل من قتل. وبقى فريدا وحيدا ... فدخل على أمه (أسماء) وقال لها : إنه لم يبق إلا القتل ! وكانت حينذاك كبيرة مكفوفة البصر ... فقالت له : أجزعا من لقاء الله ؟ فقال كلا ، ولكنى أخاف إذا قتلت أن يمثّلوا بى . فقالت : إن الشاة إذا ذبحت لاتبالى بسلخها ، ثم انقلبت إلى مصلاها .

وقالت سيدة : وقد دفعت بابنها إلى مطلب يهمها ويهم أسرته وقبيله .

يابنى « كان الله صاحبك فى أمرك، وولىَّ نجح طَلِبتك . امض لا أشمت الله بك عدوا ، ولا أرى محبيك فيك سوءاً » . وقالت امرأة أخرى تنصح ابنها :

« يابنى إن سؤالك الناس ما فى أيديهم من أشد الافتقار إليهم ؛ ومن افتقرت إليه هنت عليه ، ولا تزال تحفظ وتكرم حتى تسأل الناس وترغب » .

ولدينا مأثورات عن المرأة تشهد بأنها كانت ، ولا تزال ، حريصة على تنمية كرائم الطباع ، وتدفع بأبنائها الى الموارد الكريمة السامية ، ولا تقبل من شبلها أن يعطى الدنية فى نفسه أو فى مواقعه ، أو يضرع إلى الرجال ، أو يخنع أمام مطالب الحياة. فيقدم يده صاغرة يستجدى العون ، أو يستمد من غيره مع امتنان أو إذلال .

والمثل الكريمة والتوجيهات الصالحة فى سيرة النساء أكثر من أن تحصى ؟

مدرسة النقد الادبى

بقلم فضيلة الأستاذ الشيخ عبد السلام أبو النجا سرحان
المدرس بكلية اللغة العربية

مدرسة النقد الأدبى :

لقد عنيت الأمة العربية — أكثر من سواها — بنقد آثارها الأدبية ، وميز جيدها من رديئها ؛ ذلك أنها أمة كلام وفصاحة ، ترنو عواطفها للبلاغة ، وتهفو قلوبها لسحر البيان .

ولذلك اهتمت بالنقد ، وفصل الطيب عن الخبيث ، ليبقى الأول على الأزمان ، ويرمى الثانى فى زوايا النسيان ، كما أنشد دعبل الخزاعى :

يموت ردىء الشعر من قبل أهله — وجيده يبقى وإن مات قائله

وقد نشأ عن هذا الاهتمام حركة مباركة غايتها الارتفاع بالأدب الى أسمى مكان ، وعدتها البحث والتنقيب ، ثم الحكم والتعقيب ؛ ويطلق أدباء العصر الحديث على هذه الحركة « مدرسة النقد الأدبى » .

وقد كان لهذه المدرسة فصول وتلامذة وعمداء اختلف عددهم قلة وكثرة باختلاف العصور السياسية والنهضات العلمية والأدبية . والذى نرجحه أنها نشأت منذ نشأ الأدب ، لأن النقد فطرى فى الانسان يحاول أن يصل به الى غاية الاحسان . وسنقدم تاريخا موجزا لتلك المدرسة لنقف على الأطوار التى قطعتها فى العصور المختلفة حتى نضجت ثمرتها واتسعت رقعتها هذا الاتساع الهائل أيام العباسيين .

فى العصر الجاهلى :

ففى العصر الجاهلى كان الشعر أهم فنون الأدب ، فتناولته يد التشريح بمبضع النقد الحاد ، وساعدت مساعدة جدية فى إخراجه بهذا الثوب القشيب .

والمعقول أن يكون للنقد أثر هام فى نضج الشعر العربى ، إذ كانت فصول مدرسته منتشرة فى بقاع الجزيرة العربية ، متمثلة فى أسواق العرب ورحلاتهم الطويلة ، ومجتمعات الحج ، والمعارك الحامية بين القبائل .

ولقد كانوا يحتفلون بنبوغ الشاعر ، ولا يمكن أن يأتى هذا النبوغ فجاءة ، بل لا بد أن يكون بعد درس ونقد وتمحيص ، وبعد أن يظهر الشاعر فى مجالات النقد حتى يعترف له الشعراء بالتبريز والتجلية ؛ ولا نستطيع أن نغمط قريشا حقها فى نقد اللغة الأدبية وتهذيبها ، ففضلها فى هذا واضح مشهور ؛ قال أبو نصر الفارابى فى كتابه « الألفاظ والحروف » : كانت قريش أجود العرب انتقادا لأفصح الألفاظ وأسهلها على اللسان عند النطق وأحسنها مسجوعا وأبينها إبانة عما فى النفس (ص ١٤٧ الشهاب الراصد) .

ولو صح مارواه ابن عبد ربه (ص ١١٩ ج ٦ العقد الفريد) ومن تبعه فى شأن تعليق بعض القصائد بأستار الكعبة لأن العرب تخيرتها من الشعر القديم ، لكان ذلك أكبر دليل على انتشار النقد الأدبى وشهرته فى الجاهلية ؛ ولقد كان بعض الشعراء يبقى القصيدة عنده حولا لتهذيبها وتنقيحها (ص ٧ ج ٢ البيان والتبيين و ص ١٠ طبقات الشعراء) وهذا العمل من صميم النقد الأدبى .

ومن ميزات النقد فى هذا العصر أنه كان يعتمد على الفطرة ووحى الخاطر ، وتقدير اللفظ والمعنى ، وقوة التأثير ، وملاحظة كل عيب يمكن أن يمس القصيدة من حيث المعنى والاستعمال والأوزان والقوافى ، وكان ذلك عاما منتشرا بين الشعراء وسواهم ؛ ولكن عصر التدوين لم ينقل لنا من مظاهر النقد فى الجاهلية إلا نتفا مبثوثة فى بطون الكتب ، ومقتضبات مذكورة فى سجلات الأدب .

ويرى الباحث أن النقد الجاهلى كان فى الغالب سديدا لأنه نتيجة العرض على الذوق الأدبى الخالص ، ولم تكن قواعده وقضاياه العلمية قد عرفت بعد .

على أن مواطن النقد فى الشعر والأدب كانت قليلة جدا بالنسبة للعصور اللاحقة ، ولهذا لم تكن المدرسة كثيرة الفصول والتلاميذ آنئذ ، لأن الأسلوب الفطرى كان يحكم الأدب العربى فى جميع الأصقاع .

وكان النابغة الذبيانى أكبر عمداء المدرسة فى الجاهلية . فكانت تضرب له قبة حمراء فى سوق عكاظ ويأتيه الشعراء فينشده كل منهم شعره ليصدر حكمه فيه . أتاه الأعشى مرة فأنشده ، ثم حسان فأنشده : فقال : لولا أن أبا بصير أنشدنى آنفا لقلت : إنك أشعر الجن والأنس ! . قال حسان : والله لأنا أشعر منك ومن أبيك ومن جدك ! فقبض النابغة على يده ثم قال : يا بن أخى ، إنك لا تحسن أن تقول :

فانك كالليل الذى هو مدركى وإن خلت أن المنتأى عنك واسع

ثم اتجه إلى الخنساء فأنشدته ، فقال : ما رأيت ذا متانة أشعر منك ، قالت : ولا ذا خصيتين ! (ص ٣٣ الشعر والشعراء) . وقد ذكر قدامة نقده لحسان فى قوله :

لنا الجفنات الغر يلمعن بالضحى وأسيافنا يقطرن من نجدة دما

بقوله : أكثرت جفانك وأقللت أسيافك ! ثم رد على هذا النقد (ص ١٨ نقد الشعر) .

ومن أساطينها الذين طواهم البين قبل الأوان طرفة بن العبد ؛ روى المرزبانى أن المسيب بن علس مر بمجلس بنى قيس بن ثعلبة فاستنشدوه فأنشدهم بعض شعره فلما بلغ قوله :

وقد أتناسى الهم عند احتضاره بناج عليه الصَّيْعَرِيَّةُ مُكدَمِ

قال طرفة — وكان صبيا صغيرا — : استنوق الجمل ! (ص ٧٦ موشح) .

وهذا يدل على أن النقد الجاهلى كان فطريا يلحظه الصغار والكبار ، لأن البلاغة طبيعة لهم والبيان سليقة فيهم .

ومنهم ربيعة بن حذار الأسدى ، وقد ذكر المرزبانى نقداته لشعر الزبرقان بن بدر وعمرو بن الأهتم وعبده بن الطبيب والمخيل السعدى ، فليراجعها من شاء (ص ٧٥ موشح) .

فى صدر الاسلام :

وقد نزل القرآن باللسان العربى المعروف ، ولكن بأسلوب غير مألوف ،

ورأى الناس منه نهجا جديدا، وتعبيرا فريدا، بهر البلغاء وأعجز الفصحاء، وسمعوا به نظما طريفا، جمع الى السلاسة دقة التعبير، وإحكام النسج، وجمال السبك، فأخذوا بقوته، وسجدوا لبلاغته، وحنوا رءوسهم أمام شدة أسره وعظمة أسلوبه، ثم حاولوا أن يحاكوه فشرعوا يغترفون من بحره، وينهلون من فيضه، ويقبسون من نوره، حتى نشأ لهم أسلوب جديد هذّبه القرآن وغيّر به نهج البيان. وفى هذه الأثناء كان الاسلام يطوى بين جناحيه كثيرا من حواضر العجم وممالكها، فدخل فى حوزته أكثر سكانها، واندفعوا يتعلمون القرآن ويدرسون شرائعه وأحكامه لأنه الدستور الخالد لدينهم الجديد.

وإذ كان القرآن عربيا، كان لابد من تعلم العربية لغة الدين ولسان الفاتحين، والمغلوب مولع أبدا بالاقتداء بالغالب فى شعاره وزيه ونحلته وسائر أحواله وعوائده كما قال ابن خلدون (ص ١٤٧ مقدمة)، والناس أبدا على دين ملوكهم وحكامهم.

لهذا بدأت الحاجة تظهر إلى تلك المدرسة، فأخذت القضايا الأدبية تنهال على محكمة النقد، وارتفعت بعض الشكاوى من المخالفين لقانون البيان العربى، فبدأ العمل فى وضع قوانين الصياغة وقواعد اللغة العربية.

وقد تأثر الأسلوب الأدبى فى هذا العصر تأثراً واضحاً، فجدّت تعابير حديثة، وماتت عبارات وألفاظ قديمة لم يرتضها الإسلام أو لم تتسق مع الأسلوب المهذب الذى أوجده القرآن الكريم والبلاغة النبوية السامية، وترتب على ذلك أن جاء كلام الإسلاميين عموما أعلى طبقة فى البلاغة وأذواقها من كلام الجاهليين منظومهم ومنثورهم (ص ٥٧٩ مقدمة).

والسبب فى ذلك - كما قرر ابن خلدون - أن الذين أدركوا الإسلام سمعوا الطبقة العالية من الكلام فى القرآن والحديث اللذين عجز البشر عن الإتيان بمثلهما، فكان كلامهم فى نظمهم ونثرهم أحسن ديباجة وأصفى رونقا وأرصف مبنى وأعدل تثقيفا بما استفادوه من الكلام العالى الطبقة، قال: وتأمل ذلك يشهد لك به ذوقك إن كنت من أهل الذوق والبصر بالبلاغة (ص ٥٨٠ مقدمة).

ويتفق الثعالبى فى هذا الرأى مع ابن خلدون (ص ٣ ج ١ يتيمة الدهر).

ومن عمداء هذه المدرسة حينذاك رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فقد منحه

الله بصيرة نفاذة الى الأعماق ، وفكرة نقادة فى أوسع الآفاق ، وكان صلوات الله وسلامه عليه سيد البلغاء وإمام الفصحاء . سئل مرة عن زهير فقال : إنا قد سمعنا كلام الخطباء والبلغاء ، وسمعنا كلام ابن أبى سلمى ، فما سمعنا مثل كلامه من أحد (ص ٥٥ ج ١ زهر الآداب) ، وقال صلى الله عليه وسلم فى امرئ القيس : إنه أشعر الشعراء وقائدهم الى النار (ص ٧٦ ج ١ عمدة) .

ومنهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب . والذى يقرأ حكومته بين النجاشى وبنى العجلان (ص ٢٠٢ ج ١ بيان) أو بين الحطيئة والزبرقان (ص ٣٩ ج ١ ديوان المعانى) يأخذه العجب من قوة إدراكه وحسن توسله فى معانى الشعر ، لإخراجها عن الهجاء . ولقد حكى الجاحظ فى رواية هذه الأخبار : أن عمر كان أعلم الناس بالشعر . وقال الجمحى : كان عمر لا يكاد يعرض له أمر إلا استشهد فيه ببيت شعرى (ص ٢٠٤ ج ١ بيان) ولكنه مع ذلك كان يبغض التعرض للشعراء ويكل الأمر الى حسان بن ثابت وأمثاله ممن تهون عليهم سبالهم ؛ فإذا سمع كلامهم حكم بما يعلم ، ويكون قد خلص بعرضه سليما . قال مرة لابن عباس : هل تروى لشاعر الشعراء ؟ قال : ومن هو ؟ قال : الذى يقول :

ولو أن حمدا يخلد الناس أخلدوا ولكن حمد الناس ليس بمخلد

قال : ذاك زهير . قال : فذاك أشعر الشعراء . كان لا يعاظل فى كلامه ، ولا يتبع حوشيه ولا يمدح الرجل إلا بما هو فيه . (ج ١٠ ص ٢٨٩ أغانى دار الكتب) .

ومنهم حسان بن ثابت ، وكان عمر يحكمه فى الخصومات الأدبية (ج ١ ص ٣٨ عمدة) . سئل مرة : من أشعر الناس ؟ فقال : رجلا أم حيا ؟ قيل : بل حيا . فقال : هذيل (ج ١ ص ٧١ عمدة) .

ومنهم أمير المؤمنين على بن أبى طالب . سئل مرة عن امرىء القيس ، فقال : رأيته أحسنهم نادرة ، وأسبقهم بادرة ، وإنه لم يقل لرغبة أو لرهبة (ج ١ ص ٧٧ عمدة) . وهذا يدل على إدراك صادق لمعنى الشاعرية ، وبفضله — كرم الله وجهه — وضع أبو الأسود الدؤلى قواعد النحو (ص ٦٠ الفهرست) حين بدأ اللحن يطل برأسه من خلال الحياة الجديدة . وبهذا خطت مدرسة النقد الأدبى خطوة جديدة إلى الأمام ؟

التعريف بالعالم الاسلامى

امارة الكويت الاسلامية

لفضيلة الأستاذ الشيخ أحمد الشرباصى
المدرس بمعهد القاهرة

الحالة الاقتصادية :

تعتبر التجارة الركن الأعظم لتقدم البلاد : لأن الكويت قاحلة ، لازرع فيها يغنيها عما سواها ، وأهم بلد يتجرون معه هو « البصرة » إذ يستصدرون منها القمح والشعير والتمر والخضر والفواكه . وكذلك اتخذوا بغداد سوقا لتجارة اللؤلؤ ؛ وقد حدثت بين الكويت ونجد منازعات طويلة حول التجارة ، إذ رأى جلالة الملك عبد العزيز آل سعود عاهل المملكة العربية السعودية لبعض الأسباب أن يمنع رعيته من الاتجار مع الكويتيين . ثم تم الاتفاق أخيرا بين حكومة الكويت وعاهل الجزيرة على تنظيم التجارة بين البلدين ، وتموين نجد من الكويت ، بمعاهدة تكفل حقوق الطرفين : وكان ذلك فى سنة ١٩٣٩ م .

وفى الكويت من الصناعات : الحياكة والنجارة والحدادة والصياغة ، وصنع السفن الشراعية ، حتى إنهم كثيراً يبنون سفناً تسع الواحدة منها ستة آلاف من قواصر التمر ، أى ما يقرب من خمسمائة طن ! .

وليس للكويت من الحاصلات أو الصادرات ما لغيرها من الأقطار الكبرى ، فهى ليست زراعية ولا صناعية ، ولذلك تقتصر على تصدير الدهن والصوف ، وفراء الثعالب والبهائم ، وفرائد اللؤلؤ . وقد كانت تجارة اللؤلؤ فى الكويت إلى عهد قريب هى أهم مصدر للربح ، وكانت الكويت تعرف به ، ولكن أسعار اللؤلؤ اليوم قد اضمحلت ، وسوقه قد كسدت ؛ وذلك بسبب مزاحمة اللؤلؤ الصناعى الذى ابتكره اليابانيون . وقد حدثنى صديقى الأستاذ عبد العزيز حسين الكويتى أن فى الكويت عائلات كبيرة ، كانت معروفة بالثراء والنعمة ، ولكنها نكبت نكبات قاسية من جراء هبوط أسعار اللؤلؤ بسبب هذه

المزاحمة التجارية ، وأن والده كان من تجار اللؤلؤ فى الكويت ، وقد خسر فى هذه التجارة مبالغ طائلة من أثر ذلك الانقلاب ! .

وقد استبدل كثير من الغواصين وتجار اللؤلؤ بسفن الغوص سفنا كبيرة يستخدمونها فى التجارة بين الكويت وسواحل الهند ، وهى تدر مبالغ ضخمة على الرغم من الأخطار التى تصادفها . وعلى ذلك يصح أن نقول إن التجارة قد احتلت الموضع الذى كان يحتله اللؤلؤ قبل عشر سنوات ! . ومع هذا فلا تزال للؤلؤ مكانته ، ولا يزالون يغوصون عليه باحثين منقبين .

وليس استخراج اللؤلؤ عملا سهلا يطيقه كل من أراده أو حاوله ، بل له نظم خاصة وأوقات معينة معروفة ؛ وللغوص على اللؤلؤ رجال مدربون ، وسفن مدربة ، ولكل واحد فى السفينة وظيفة وعمل ، وهم يتجهزون بالطعام والشراب والثياب ، ويخرجون للبحث عنه ، فيقضون فى ذلك أياما عدة ؛ وللغواصين على اللؤلؤ هناك زعيم لا يرجعون إلى وطنهم إلا عندما يصدر أمره إليهم ، فإذا انتهت المدة المعينة لهم من قبل حاكم البلد ، أخذوا ينتظرون الإشارة من زعيمهم ، وهى إطلاق مدفع يثور من سفينته ، فإذا سمعوا دوى المدفع تركوا عملهم، وعادوا إلى أهليهم ، فإذا ما شاهدوا الكويت ولاحت لهم قصورها ، أطلقوا المدافع شكراً لله على رجوعهم إلى وطنهم سالمين غانمين ! .

ومن لطيف ما يذكر هنا أن الغواصين يقصون أمورا غريبة يشاهدونها فى البحر ، فيقولون إنهم يرون فى القاع كهوفا عظيمة ، وغابات مظلمة ، وكثبانا مرتفعة ، وجبالا عالية ، وبعضهم يغلو فى الإغراب فيزعم أنه شاهد فى القاع رجالا ونساء من الجان بين صخور البحر وكهوفه ، ويتبين لكم ما فى بعض هذه القصص من بعد عن الحقيقة حينما تعرفون القصة الظريفة التالية .

حدّث أحدُ المهرة من الغواصين عن نفسه ، قال : كنت مع أصحابى يوما فى مغاص اللؤلؤ ، فنزل أحدهم إلى البحر ، ولم تكد تطأ رجله الأرض حتى صعد إلينا خائفا مرعبا ، وأخبرنا بأنه شاهد امرأة من الجان جالسة فى القاع وعليها عباءة سوداء ، وذكر لزيادة التأكيد أشياء من أوصاف العباءة ، فرأى أحدُ

إخوانه أن ينزل ليتحقق الخبر ، فجرى له مثل ما جرى لصاحبه ، ثم نزل الثالث والرابع وهكذا ، حتى فعل ذلك جميع من كان فى السفينة ، وكلهم اتفقوا على صدق ما قاله الأول ، فلما رأيتُ الكل قد أضربوا عن العمل بسبب تلك الحادثة رأيت أن أكشف الحقيقة بنفسى ، ولكننى عند ما نزلت وجدت الأمر كما قالوا ! . . . فدهشت وأصابنى من الرعب ما كاد يضطرنى إلى الخروج ، غير أن نفسى أبت على أن يتحدث الناس عنى بأننى جبان ، فصممت على استجلاء الحقيقة مهما كانت النتيجة ، فأقدمت على الجنية ، ولويت يدى على عنقها بكل قوتى ، وقد أغمضت عينى ، فما أشعر إلا والدم يجرى من يدى ، ففتحت عينى ، والصخر يصدمنى صدمة عنيفة ، فرأيت أننى قد صدمت بصخرة قد تلبست بعباءة ! . . . ولا تسل عن فرحى عند ما عرفت الحقيقة . . . ولكننى أردت مداعبة أصحابى ، فلبست العباءة وخرجت عليهم متخفيا بها ، فلما رأونى رموا أنفسهم فى البحر ، وتركوا السفينة بما فيها ، إذ اعتقدوا أن الجنية قد قضت على ، وخرجت إليهم لتقضى عليهم أيضا . ولم يرجعوا من البحر إلا بعد أن سمعوا صوتى وأنا أضحك عليهم ساخراً منهم !!.

الحالة السياسية :

أما عن حالة الكويت السياسية فحسبكم علما بها أنها قد دخلت تحت الحماية الإنكليزية من سنة ١٩١٣ م ؛ ولم تكن هناك حكومة بالمعنى الصحيح فى أول نشأة الكويت ، إذ كان آل الصباح المنشئون لها أسرة واحدة لا تحتاج إلى حاكم ، ولكن لما هبط عليهم الناس من هنا وهناك ، وخالطهم بعض الأجانب رأوا أن يولوا عليهم حاكما منهم ، فأجمعوا أمرهم على « صباح الأول » فقبل ، وظل الحكم من أيامه إلى أيام « مبارك الصباح » شورى ؛ يستشير الحاكم وجهاء القوم فيما ينتابه من المهمات ، وما يعرض عليه من القضايا ، وليس له الرفض أو القبول بعد أن يقر رأيهم على أمر ؛ لأن السلطة الحقيقية لهم ، وإنما يعطى اسم الرياسة عليهم تفضلا ، بل قد يذهب الأمر إلى أبعد من ذلك ، إذ يعجز الحاكم أحيانا عن أخذ الحق من بعضهم ، كما يتبين فى القصة التالية :

أخذ بعض هؤلاء الوجهاء سلعة إلى أمد من أحد الكويتيين . فلما دنا

الأجل ذهب الدائن إلى المدين يطالبه بحقه ، ولكن الوجيه ماطل : وامتنع عن الوفاء ، فرفع الرجل شكواه إلى الحاكم ، فصارحه الحاكم بأنه لا يستطيع إكراه ذلك الوجيه على الدفع ، ثم أرشده الحاكم إلى حل يدل على النباهة والذكاء . قال له : الرأى أن تذهب إلى زوجة هذا المدين المماطل فتخبرها بأن زوجها قد قال يوم أخذ السلعة : « امرأتى طالق ثلاثا إن لم أوف إليك حقك عند أجله » فإنك ستحصل بتلك الحيلة على ما تريد ؛ لأن ذلك الوجيه لا يرد لزوجته طلبا ، إذ هو عبد لها ، فقبل الدائن ذلك الرأى وقصد الزوجة فشرح لها الأمر ، فوعدته بأن تحقق له رجاءه ، ولما عاد زوجها إلى البيت احتجبت منه وامتنعت عليه ، فدهش لذلك وسألها عن السبب ، فأخبرته بالقصة ، وحتمت عليه أن يسارع بأداء الدين قبل اتصاله بها ، فأكد لها الزوج أن ذلك كذب وافتراء ، ولكنها امرأة فلم تصدقه ، فاضطر الرجل أن ينزل على أمرها ، وأدى إلى الدائن حقه ! .

أمير الكويت :

أما حاكم الكويت اليوم فهو الأمير الشيخ أحمد بن جابر آل الصباح ، وهو الحاكم العاشر من حكام الكويت ، وكثيرا ما يخاطبونه فى الكويت قائلين فى خطاباتهم : « مولانا الأمير الجليل ، صاحب العز والسيادة الشيخ أحمد بن جابر الصباح حاكم الكويت المفخم أدام الله عزه وتوفيقه » .

وهو نجل الشيخ جابر بن مبارك آل الصباح ، ولد فى الكويت سنة ١٨٨٠م على الأرجح ، ونشأ فيها وتعلم القراءة والكتابة فى قصر والده ، وهو ربع القامة حنطى اللون ، ممتلىء الجسم كث الشعر بهى المنظر ، لطيف الحديث جذاب الملامح رزين متواضع ، يميل إلى معالجة الأمور باللين والحكمة ، بعيد عن العنف وسفك الدماء ، بعيد عن المحرمات وتعاطيها ، معروف بالميل إلى الاقتصاد ، ولديه ثروة كبيرة تقدر بالملايين ، وهو يلبس الملابس العربية ، وأبناء الكويت جميعا فى ذلك مثله ، ويضع الكوفية (الصمادة) والعقال على رأسه ، ويلبس العباءة دائما .

وينهض سموه مبكرا من النوم فيتوضأ ويصلى ويقرأ ما تيسر من القرآن الكريم ، ثم يشرب القهوة ويفطر ، ثم ينتقل بالسيارة إلى قصر الحكم فى داخل

مدينة الكويت (وقصره الذى يعيش فيه يسمى الدسمان) وهو واقع فى الطرف الشرقى من مدينة الكويت ، ويطل على خليج فارس ، فيستقبل الزائرين والموظفين وينظر فى الرسائل والكتب والشئون الأخرى حتى الظهر فيتغدى مع من يكون هنالك من الزوار والحاشية ، ثم يصلى الظهر جماعة فى مسجد القصر مع الموجودين ، ثم يستريح إلى العصر ، وقديما كان يغادر القصر الى قهوة السوق ، وهى قهوة كائنة فى وسط سوق الكويت التجارية ، وحوله رجال الشرطة والحجاب ، فيجلس فيها فيلتف الناس حوله . فينظر فى مصالحهم وقضاياهم ويفصل فيها ، أى أنه كان يأتى الى المتقاضين بدلا من أن يأتوا هم إليه ، وتلك عادة جميلة قديمة من عادات شيوخ الكويت ؛ وبعد أن ينتهى من نظر القضايا يعود بالسيارة الى قصره قرب المغرب ، فيصلى جماعة فى مسجد القصر مع من يكون هناك من الزوار والحجاب والخدم وراء إمام القصر الخاص ، ثم يتعشى مع الزوار والحاشية فى غرفة المائدة ، ثم ينتقل مع ضيوفه الى المشرب فيتناولون القهوة ويسمرون حتى يأتى موعد النوم ، وهو يبكر إليه فى أكثر لياليه . . . أما اليوم فقد أنشئت بالكويت محاكم تقوم بالقضاء والفصل فى الخصومات نيابة عن الأمير .

وقد سن الأمير سنة طيبة حميدة ، وهى الاستماع الى الدروس الدينية من بعض العلماء فى وقت معين من النهار أو الليل ، يقول الأستاذ عبد العزيز الرشيد : « لا نعلم أن أحداً من حكام آل الصباح اتخذ له واعظا خاصا فى مجلسه العام كل صباح ، يفسر بين يديه الكريمتين الآيات القرآنية ، ويشرح الأحاديث النبوية ، ويبين شيئا من الأحكام والأخلاق ، غير أميرنا المحبوب ، فقد شرفنى للقيام بتلك الوظيفة العالية ، ودعانى إليها فلبيت نداءه ، وامتثلت أمره ، وقد كان يصغى لما يسمع من الآيات والمواعظ إصغاء المتدبر ، وبقيت مدة طويلة قائما بهذه الوظيفة الشريفة قبل ولايته » .

معانى الفلسفة

هـذا كتاب يقع فى نحو مائة وأربعين صفحة ، ولـكنه خلاصـة بحوث ومطالعات تقع فى مجلدات ضخام ، قصد منه مؤلفه الفاضل الدكتور أحمد فؤاد الأهوانى ، مدرس الفلسفة بجامعة فؤاد الأول ، بيان ماهية المدرسـة فى جميع أدوارها ، عند اليونانيين الأقدمين ثم عند المسلمين ، ثم لدى الأوربيين الذين بدأوا ينتقلون منها الى الدور النهائى لاكتساب المعرفة ، وهو الدور العلمى . وقد أبدع كل الإبداع فى توفية حق كل ما تصدى له من البيان . فافتتح الـكلام عن الفلسفة بتعيين مدلولها ، ثم إنتقل منه الى بيان تطورها ، ومنه ألم بالفلسفة اليونانية فلخص مذاهبها ومقاصدها إلماما يعتبر نموذجا فى اتقان التلخيص ، يلم المطالع منه بماهية الفلسفة اليونانية وأشهر ممثليها فى نحو خمس وعشرين صفحة تقرأ فى سويعة واحدة .

ثم خرج من هـذا البحث إلى دراسة الفلسفة الإسلامية وتاريخها وبيـان مراميها كما استخلصها من أقـوال أئمتها الذين سرد كثيرا من أسمائهم : وانتهى من ذلك إلى بيان الفلسفة الحديثة مبتدئا بعصر النهضة .

وقد جعل لنظرية المعرفة بابا خاصا ، وأتى على مذاهب الفلاسفة فيها من أول القدامى إلى اليوم . كل هذا مع بيان أشهر الآراء فى مشكلات الفلسفة الخ .

موجز القول فى هـذا الـكتاب أنه استخرج زبدة الفلسفة وجعلها فى حيز يمـكن كل إنسان أن يتناولها ويستفيد منها ، وهـذه مقدرة فى التلخيص والبيان والإحاطة تسجل لحضرة المؤلف بالإكبار والإعجاب .

نفحات من سيرة السيدة زينب

هذه رسالة تقع فى ثمانى وأربعين صفحة ، أوجز فيها فضيلة الأستاذ الفاضل الشيخ أحمد الشرباصى المدرس بالأزهر ، سيرة السيدة زينب رضى الله عنها .

فهى زينب بنت على بن أبى طـالب ، وأمها فاطمة الزهراء ، ولدت فى شعبان من السنة الخامسة للهجرة بعد ميلاد أخيها الحسين بسنتين .

تزوجت بابن عمها عبد الله بن جعفر بن أبى طالب . وصحبت شقيقها الحسين فى نزوحه إلى العراق ، وحدثت هنالك المعركة بينه وبين عامل يزيد ، وقتل الحسين فى المعركة فشق عليها ذلك ، واقتيدت الى يزيد بن معاوية فـكلمته كلاما موجعا وعادت إلى المدينة وأخذت تؤلب الناس عليه ، فاضطرها أشياع يزيد إلى الهجرة إلى مصر ، فأقامت بها مكرمة معظمة ، حتى توفيت فى رجب من سنة (٦٢) هـ .

وفاة أنطون الجميل باشا

لبى دعوة ربه إلى العالم الباقى كبير الصحفيين المصريين ، أنطون الجميل باشا ، فكان لنعيه أثر عميق فى القلوب ، لما عرف به من حسن الاضطلاع بمهمته العظيمة ، وجميل الأثر فى خدمته للصحافة ، والتنزه عن الهوى فى تغذية الرأى العام ، فكان فى قيادته لسياسة أكبر جريدة فى الشرق ، مثالا حيا للاتزان وبعد النظر ، فإذا كان أصحاب الأهرام لم يدخروا وسعا فى تقويم عملهم بما يحتاج إليه من المال الوفير ، فإن أنطون الجميل باشا استطاع بما أوتيه من استقامة الرأى ، وتوخى الأحسن ، وتحرى الحقائق ، والترفع عن السفاسف ، ما رفع الأهرام إلى مستوى من السمو يعتبر المثل الأعلى فى الصحافة .

أدرك أنطون الجميل باشا ، كما أدرك ذلك من سبقه فى الأهرام ، أن مصر فى عهدها الراهن من الانتقال السياسى ، وما يحتوش هذا الدور من تفرق الكلمة ، واختلاف الأنظار ، فى حاجة ماسة إلى منبر عام ، يستطيع كل صاحب مبدأ ان يدلى منه برأيه الى الجماهير فى حرية تامة ، وجو بعيد عن المماراة والملاحاة ؛ فوقف بقلمه موقفا وسطا فى مزدحم المتنازعين ، ولكن فى غير تضحية بمذهبه الشخصى الذى كان يفضى به بين حين وحين ، غير متعرض لحزب ، ولا متحامل على طائفة ، حتى جعل الأهرام يشبه من وجوه شتى جريدة التيمس اللندنية فى ابتعادها عن الخلافات ، وإشادتها بكل اصلاح تقوم به أية جماعة من الجماعات السياسية فى تلك البلاد .

وكان فقيدنا بما أوتى من الميل الى العلم والأدب ، وهما الموضوعان اللذان بدأ بهما حياته العملية ، يشجع المشتغلين بهما ، ويرحب بثمرات جهودهم فينشرها فى أحسن مكان من الأهرام ، مع أنها كانت كثيرا ما تضيق عن نشر الإعلانات المستعجلة فى أيام الحرب العالمية الأخيرة .

وبعد فاننا لا نجد من نخصه بالتعزية فى وفاته ، فكل الناس سواء فى التأثر بها فنعزيهم جميعا .

بسم الله الرحمن الرحيم

احتفال الأزهر

بعيد المولد النبوى الكريم

فى الساعة الخامسة من مساء يوم الخميس ١١ ربيع الأول ١٣٦٧ الموافق ٢٢ يناير سنة ١٩٤٨، قصد فضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر الشيخ محمد مأمون الشناوى، السرادق الضخم الذى أقامته مشيخة الأزهر الشريف فى ساحة المولد النبوى الكريم بالعباسية لتحتفل فيه بعيد مولد محمد رسول الله صلوات الله وسلامه عليه. فقوبل فضيلته بحفاوة رائعة، وهتافات مدوية، اشترك فيها الشعب والطلبة.

وابتدأت الحفلة، فألقى حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير الشيخ محمد عرفة مدير الوعظ كلمة قيمة فى ذكرى المولد، ختمها بالدعاء لجلالة الملك، وبالتعبير عن شعور الأزهر العظيم، وسروره البالغ، بتعيين الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مأمون الشناوى شيخا للأزهر؛ ودعا لفضيلته بالتوفيق فى عهد الأزهر الجديد. ثم ألقى فضيلة الأستاذ الشيخ عبد المعبود سلام مفتش الوعظ المساعد، والأستاذ الشيخ محمد مصطفى أبو العلا الواعظ، كلمتين مناسبتين للمقام.

وإلى القراء الكلمة القيمة التى نشرها حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر فى هذه المناسبة الكريمة:

* * *

« حق على الناس أن تتّجه أفكارُهم عند ذكر مولد النبى صلى الله عليه وسلم إلى سامى حكمة المولى عز وجل، وسنته البديع الذى أجراه فى خلقه « وخَلق كل شىء فقدّرهُ تقديراً ».

فقد اقتضت حكمته السامية ، ورحمته الواسعة ، أنْ فطرهم على دين الحق ، وأودع فيهم مبادىء الخير ، وما زالوا على ما فطرهم عليه من الإيمان بالله ، والثقة بالنفس ، والتواصى بالحق ، والتواصى بالصبر ، هانئين بحياة سعيدة ، حتى يوسوس لهم الشيطان ، فتنحرف قلوبهم عن الإيمان ، ويفسد ما بينهم ، وتسوء حالتهم ، وعندئذ يتجلى الله برحمته على عباده ، فيبعث فيهم رسولا ، يذكّرهم بما أنساهم الشيطان ، ويردّهم إلى حظيرة الإيمان « وإنْ مِن أُمةٍ إلا خلا فيها نذيرٌ » ، « سُنةَ اللهِ في الذين خلوْا مِنْ قبلُ ، ولن تجِدَ لِسنّةِ اللهِ تبديلاً » .

ولقد كان العالم قبيل مبعث الرسول صلوات الله وسلامه عليه يتخبط فى ظلمات الجهالة ، وسفين أمره فى بحرٍ لُجِيّ من الأهواء والشهوات ، لايعصمه فيه كتاب ؛ وأصبح الأمر فى الناس فوضى ، يرسفون فى أغلال من المنكرات التى تمُجُّها الفِطَرُ السليمة ؛ فقويّهم يملك أمر الدنيا من مال وسلطان ، ويبسط على مَنْ سواه كل عنت وإرهاق ؛ وتقطعت أسباب المودة بين الناس ، فشنّوا الغارات ، وأقاموا الحروب لأتفه الأسباب ، وتمادوا فى طغيانهم ، فوأدوا ، البنات ، وقتلوهن خشية الإملاق .

وعندئذ تجلت رحمة الله بعباده ، فبعث فى العالم رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم هدى ورحمة ، فأخرج الناس من الظلمات إلى النور ، ووضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم ، وجاء بأسمى المبادىء ، لتحقيق العدالة والمساواة بين الناس ، لافضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى « يأيها الناسُ إنا خلقنا كُمْ من ذكر وأنثى ، وجعلنا كم شُعوبا وقبائلَ لِتعارَفوا ، إنّ أكرَمكم عند الله أتقاكم » . وحث الرسول صلى الله عليه وسلم على البر ، والتواصى بالفقراء ، والعطف على اليتامى ورعايتهم ، وعُنِىَ بعلاقات الناس بعضهم ببعض ، فأقامها على أساس قويم من المحبة ، والوفاء ، والإخلاص لله .

ولقد جاهد الرسول صلى الله عليه وسلم فى نشر الدعوة ، ولاقى من صنوف الإيذاء والاضطهاد ما لاقى ، حتى كتب الله النصر لدعوته ، وأتم على عباده نعمته .

نسأل الله الكريم أن يعيد هذه الذكرى المباركة ، وقد تحقق عز العروبة ، ومجد الإسلام ، مبتهلين اليه سبحانه أن يحفظ مولانا صاحب الجلالة الملك

فاروق الأول، وأن يمده بعون منه، ويوفقه إلى ما فيه مصلحة العباد، وسعادة البلاد. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

وهذه كلمة فضيلة الأستاذ الكبير الشيخ محمد عرفه مدير الوعظ والإرشاد

بسم الله الرحمن الرحيم

« لقد منّ الله على المؤمنين، إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة، وإنْ كانوا من قبلُ لفى ضلال مبين ».

وإنها لمنّة عظمى، ونعمة كبرى. ولقد علم المسلمون فضل هذه النعمة؛ فهم يحتفلون فى كل عام بمولده صلى الله عليه وسلم، ويجعلونه يوما معدوداً، وعيداً مشهوداً؛ وخير ما يصنع فى الاحتفال به أن تنشر أخلاقه وصفاته صلى الله عليه وسلم، ليقتدى بها المسلمون: « لقد كان لكم فى رسول الله أسوةٌ حسنة ».

ونحن سنذكر صفة واحدة من صفاته لتكون عظة العام، نتعظ بها ونتدبرها، ونغرسها فى نفوسنا؛ هذه الصفة هى « الأمل ».

كان محمد صلى الله عليه وسلم عظيم الأمل فلا يقنط، وكان كبير الرجاء فلا ييأس، وكان وهو فى أحلك الأزمات يمنّى أصحابه بملك كسرى وقيصر.

هذا الأمل غرَسه وتعهّده فى رسول الله أمور أربعة: إيمانه بالله، وإيمانه بالفضيلة، فكان يعتقد أن الله ينصر الفضيلة والفضلاء، ويخذل الرذيلة والأرذلين.

وإيمانه أنه كان هو وأصحابه على الحق والهدى، وأن خصومه على الباطل والضلال، وأنه فى هذا العراك المحتدم بينهم لابد أن يدال من المبطلين للمحقين؛ والقرآن الكريم مشحون بهذه العقائد، يرددها ويثبتها فى نفوس المسلمين: « ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين، إنهم لهم المنصورون، وإن جندنا لهم الغالبون ».

وتربية صالحة؛ فقد رباه الله أحسن تربية، فحبّب إليه الأمل، وبغّض إليه اليأس والقنوط، وجعلهما من صفات الضالين والكافرين « ولا تيأسوا من

رَوْح الله إنه لا ييأس من رَوْح الله إلا القوم الكافرون » ، « ومن يقنَطُ من رحمة ربه إلا الضالون » .

وقد بغّض إليه الأمل الكاذب ، وهو الأمل الذى لا يصحبه عمل ، أو يصحبه عمل لا يؤدى إليه ، بل يؤدى إلى النقيض : « ذَرْهم يأكلوا ويتمتّعوا ويُلْهِهم الأمل فسوف يعلمون » . وقد نعى القرآن على الذين إذا أصابتهم كارثة أو ألمّتْ بهم مصيبة انحلت عقدهم ، وانطفأ أملهم ، وجزعوا أعظم الجزع ، ودخلوا فى ظلام اليأس : « إن الإنسان خُلق هَلوعاً ، إذا مسّه الشر جَزوُعا ، وإذا مسه الخير مَنُوعا ، إلا المصلين » .

أيها المسلمون ! ليس بعار على المرء أن يخيب فى مسعاه ، إنما العار أن تنحل عزيمته إذا أخفق ، وينطفىء أمله إذا فشل . أيها المسلمون ! الأمل قبس من نور الله يضىء لكم السبيل ، وروح من روح الله يحيي به النفوس الميتة ، وهو الذى يزرع الدنيا أمامكم بالورود والرياحين ، ويجعل صحراء الحياة المجدبة ظلا ظليلا وماء نميراً ، وجنات وعيونا ، وزروعا وكروما ، وهو الذى يطالع فى ليالى الخطوب المُدْلهمّة ، وظلماتها الحالكة ، قمراً منيراً .

وهو بعد ذلك كله إكسير الحياة ، فلا سعادة للمرء بدونه ؛ فالحياة به نعيم سائغ ، وبدونه جحيم لا يطاق ؛ وهو الذى ينقذ البشر من النكبات والمحن ، ويعينهم على التغلب على الصعاب .

فاجعلوا لأنفسكم آمالا واسعة ، واسعوا بكل ما فيكم من قوة لتحقيق هذه الآمال ، واحذروا الأمل الكاذب ، والسراب الخداع ، والبرق الخُلّب ، فليست الحياة إلا أن تعرفوا وتؤملوا ، وتحبوا وتؤمنوا بكل ما هو حسن وجميل .

وإنى بهذه المناسبة أرفع إلى صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر ، الشيخ محمد مأمون الشناوى شيخ الجامع الأزهر ، تهنئتى وتهنئة علماء الدعوة والإرشاد بتقلده هذا المنصب السامى ؛ ونسأل الله أن يعينه ويسدد خطاه .

وإننا نهنىء الأمم الإسلامية بذكرى مولد الرسول ، ونسأل الله أن يرزقهم السعادة فى ظل حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق ، أبقاه الله ذخراً للإسلام والمسلمين .

احتفال الازهر

باستقبال شيخه الجديد صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر

الشيخ محمد مأمون الشناوى

تفضل حضرة صاحب الجلالة الملك المحبوب حفظه الله ، فأسند مشيخة الأزهر الشريف إلى حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مأمون الشناوى .

وصدر الأمر الملكى الكريم مساء يوم الأحد ٧ ربيع الأول عام ١٣٦٧ (١٨ يناير ١٩٤٨) .

وكان لنبأ هذا التعيين الميمون ، والثقة الملكية الكريمة ، أعظم صدى فى محيط الأزهر ، وفى القطر المصرى ، والشرق الإسلامى كله ؛ لما عرف به الأستاذ الأكبر من سمو فى الخلق ، وعظمة فى الروح ، وقوة فى النزعة الدينية الإسلامية .

وفى صباح يوم الثلاثاء ٩ ربيع الأول ١٣٦٧ شرف فضيلته الإدارة العامة للأزهر فى وسط مظاهرات رائعة ، وحفاوات منقطعة النظير ، اشترك فيها الطلبة والأساتذة والموظفون والشعب ، وكان الجميع يهتفون بحياة جلالة الملك منقذ الأزهر ، وحياة الأستاذ الأكبر .

وقصد فضيلته مكتبه وسط الزحام الشديد ، فألقى فضيلة الأستاذ محمد المدنى المدرس بكلية الشريعة ، ثم فضيلة الأستاذ محمد عبد المنعم خفاجى المدرس بالأزهر ، ثم حضرات الأساتذة : حسن جاد ، ومحمد جلال ، وعبد الرازق سلمان ، ومحمد خليفة ، ومحمد العزازى ، وغيرهم ـ كلمات وقصائد فى تهنئة الأزهر بشيخه الأستاذ الأكبر ، معلنين شعورهم الطيب نحو فضيلته ، وابتهاج الأزهر كله بتوليه مشيخته ، وأملهم فى مستقبل عظيم للعلم والعلماء فى عهد فضيلته .

كذلك ألقى الأستاذ عبد الحميد الهاشمى رئيس البعثات السورية بالأزهر وكلية أصول الدين كلمة ترحيب وتهنئة قوبلت بالتقدير والتصفيق .

وفى موجة من الفرح والبشر والابتهاج ، ألقى الأستاذ الأكبر كلمته فى شيوخ الأزهر وطلابه ، فكانت تقابل بالهتاف المتواصل بحياة الملك منقذ الأزهر وحياة الأستاذ الأكبر المصلح ، الشيخ محمد مأمون الشناوى .

وهذه قصيدة فضيلة الأستاذ حسن جاد المدرس بكلية اللغة العربية :

سَرتْ باسمك البشرى فعاوَدنا البشرُ وعادت لدين الله آماله الغُرّ
ودانت لك الأيام بعد اعتسافها وأقبل فى دنياه يعتذر الدهر
وأشرق نور الحق فانقشع الدجى وطالعنا صبح عن الخير يفتر
وراحت أساطير الظلام شتيتة يطاردها فى جيش أنواره الفجر
تداركت المعمورَ أقدارُ رحمة ولله فيما قد ألمّ به سر
وأنقذه الرحمن بعد احتضاره ويا رب شر منه ينتظر الخير
فقل للذى قد ضاق بالصبر صدرُه رُويدك إنّ العسر يعقبه اليسر
وقل لسكارى التيه : موسى أتاكمو أفلوا من الأوهام قد بطل السحر
وقل لبنى المعمور أَوْساً وخزرجاً تداركم مأمونه الصادق البَر
وقل لبنى الوجهين إن أباكمو هو الأزهر الحانى وأمكمو مصر
وأنتم جناحاها إذا هيض منهما جناح فلا يرجى رقى ولا طير
ففيم أثرتم فُرقة جاهلية يشَبّ لها فى ساحة الأزهر الجمر؟
تداركه الفاروق فالتام أمره ولولا يد الفاروق ما التأم الأمر
وآسى بمأمون نوازى جرحه فنامت نوازى الخطب وانحسم الشر
صبرنا الى أن بارك الله صبرنا وأجمل شىء فى الحياة هو الصبر

* * *

فعد يا إمام المسلمين لمنصب أضرّ به الشوق المبرّح والهجر
تهلل لما عدت حرا مكرما يحالفك السعد المؤازر والنصر
خلعت عليه من وقارك هيبة فأضحى عزيزا لا يُلمّ به ضير
عُرفت أبىّ النفس لا تعرف الهوى ومن آفة الأخلاق أن يعرف النكر

فأدركْ حمى المعمور من محنة الهوى فأنت له فى حادثات الهوى ذُخر
هو الفُلك ضلت فى متاهات بحرها وعجت أواذيه وماج بها البحر
وما أنت يامأمون إلا منارها ومرفؤها الهادى إذا ما نأى البر
فوحّد على الحب الجميل صفوفه وضم بنيه لا يلم بهم وتر
وكن والداً للكل يأسو جراحهم ويستل ما يضنى النفوس وما يعرو

* * *

أهنيك يا مولاى والناسُ كلهم يهنئنى حتى سما بك لى قدر
وما أنا إلا للمعالى مهنىء فقد هز أعطاف المعالى بكم فخر
ومثلك لا يزهى بغر قصائدى ولكن به تزهى قصائدى الغر
رجوناك يامأمون للخير والهدى ومثلك من يرجى على يده الخير



وها هى قصيدة فضيلة الأستاذ النابه الشيخ محمد عبد المنعم خفاجى :

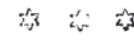
يوم تشيد بذكره الأيام قد عز فيه الدين والإسلام
المسلمون استبشروا وتيامنوا والأزهر ابتسمت له الأيام
لبست مآذنه الضياء وكبرت أركانه ودنت له الأحلام
وعلت محياه ابتسامة شاكر واختال فيه شيوخه الأعلام
وازدان منبره بكل مفوه ينبيك عنه جبينه البسام
وتسامع الطلاب بالبشرى ويا لجلالها فإذا الحياة سلام
وتضج من فرح معاهده العلى وترف فى أجوائها الأعلام
يوم تلألأ فى الكنانة نوره وتسير تحمد فضله الأعوام
من ذا سوى الفاروق يكسوه السنا آلاء فاروق عليه كرام

يا يوم أزهرنا المجيد تحية ... أتت المنى وشدابك الإلهام
أتت الحياة تدب فى أركانه ... والخير والإخلاص والإقدام
مأمون قلده المليك أموره ... مأمون أروع حازم مقدام
هو فى القلوب نشيدها ورجاؤها ... هو فى الهدى والسابقين إمام
حفلت صحائفه بكل جليلة ... لشبابه بكريمها الإكرام
هو فى كواكبه المنيرة شمسها ... وينِد من لألائه الإظلام
علم التقى والخير والداعى إلى ... شرف الحياة وفى الخطوب همام
بيت المعز وجوهر وفؤاد والفـــــاروق بالمأمون ليس يضام
خُلق كما شاء الإله مطهر ... ومحبة وتعاون وسلام
وخلاله الإيثار والحسنى وما ... وجد السبيل لعزمه الإحجام
متبتل لله يمشى خاشعا ... وله بقدسى السماء هيام
مضت السنون ونحن نهدم ما بنى ... أسلافنا وجميعنا أخصام
وتمو دنا الأهواء ضلت قائدا ... هى فُرقة وتباغض وخصام
أعمالنا الأقوال والجو الذى ... يحيا به النشء الجديد ظلام
مأمون تلميذ الامام أعد لنا ... عهد الامام لحسبنا الأوهام
حُملت أعباء الإمامة فارعها ... تنهض بها الأخلاق والأحلام
وأعد لقدس الدرس ماضى مجده ... ترجع اليه سكينة ونظام
وامح الشقاق بمعهد هو أسوة ... للمسلمين وموئل وعصام
يتفاءل الوادى بوجهك والحمى ... والأزهر المعمور والإسلام

وهذه قصيدة فضيلة الأستاذ السباعى الشناوى

قم حىّ مأمونا وحىّ الأزهرا ... واهتف به أستاذ مصر الأكبرا
شمس تضىء المشرقين كأنها ... شمس الرسول سماؤها أم القرى

فيض من الاخـلاص يغمر قلبه ... يا نعم إخـلاصا يقـود إلى الذرا
أخلصت للمعمور فى أزماته ... وأتيتـه بالمعجزات فأزهرا
فى ساحة الانصاف قـدت جهاده ... فرجعت مرفـوع اللواء مظفرا
قِيَمٌ من التقـدير لم يظفر بها ... فى أى عهـد فانتشلت الأزهرا
ورفعت رأس بنيه بين لداتهم ... وجعلتهم فوق الطوائف مظهرا
فبنى لك التـاريخ مجـدا خالدا ... وبأحرف التقـدير خط وسطرا
واليوم فى التنسيق نرجو غيثـكم ... إنا بساحتـكم تعـوّدنا القِـرى
قـدت السفينة مفردا فأدرتهـا ... بمهارة أخـذت بألباب الورى



هى نعرة خلقت لغرس ضغائن ... ياويله من ذا الذى قـد دبرا
إنا لنطلب وحـدة الوادى فـلا ... نبغى لدى الوجهـين فصما للعرا
أبناء مصر إخـوة وجميعهم ... متآزرون ووحـدة لن تبترا
هى جـذوة أرسلْ عليها نفحة ... من فيض قطرك تستحيل إلى ثرى
وأثر نسيم الود فى جنباته ... من بعد ماعصف الزمان وغـيرا
من كان كالمـأمون فى نفحاته ... حل العويص من الأمور وأكثرا
أو كان كالمـأمون فى عزماته ... ساس الجميـع بعزمة لن تقهرا
هو نفحة الرحمن أرسله هـدى ... للعالمـين ورحمـة وتبصرا
ولـكم دعـونا فاستجيب دعاؤنا ... وأتى لنـا المـأمون شيخا أكبرا
اليمن فى يمنـاه ينثر دره ... واليسر فى يسراه أبهىَ منظرا

وفـــود الأزهريين من الأقاليم

وفدت إلى القاهرة جماهير من أساتذة وطلاب المعاهد الاقليمية ، وانضم إليهم طلبة الكليات ومعهد القاهرة ، واصطفوا فى ساحة الجامع الأزهر ، واعتلى خطباؤهم شرفة الإدارة العامة للمعاهد الدينية يعبرون عن سرور طلاب العلم واستبشارهم بتعيين حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الإمام الشيخ « محمد مأمون الشناوى » شيخاً للأزهر ، وبعد ما فرغوا من مهمتهم ، تفضل فضيلته بتوجيه كلمة إليهم ، جمعت من ضروب النصائح الأبوية ، والإرشادات الأدبية ما يكفل للأزهر والأزهريين عهداً من النهوض والاستقرار يحقق ما يرجى منه لإنشاء جيل يؤدى رسالة الإسلام العالمية على أكمل وجه ، وأشرف مآل .

أبنائى :

بسم الله الرحمن الرحيم أفتتح عهدى معكم ، وأتوجه إلى الله بالشكر على عميم فضله ، راجياً لى ولكم التوفيق والسداد ؛ وأدعو الله الكريم أن يحفظ ملاذ الأزهر وراعيه ، مولانا الفاروق العظيم ؛ فإن أياديه على الأزهر غراء ناصعة ، وأمانيه للأزهر والأزهريين جليلة سامية ؛ وخير ما يرجوه جلالة مولانا الملك أن يظل الأزهر كما كان منذ ألف سنة ، مناراً للعلم والدين ، ومهبطاً للخلق الكريم ، ومنبعاً للأخوة والمحبة الصافية ؛ فإن الألفة بين أبناء ذلك المعهد لمما ترفع شأنه ، وتعلى ذكره ، وتحله مكان الصدارة فى الفكر ، والخلق ، والدين .

وإنى لأشكر لكم جميل شعوركم ، وكريم تهانيكم ، التى عبر عنها خطباؤكم وشعراؤكم ، وظهرت واضحة فى صيحات الاستبشار التى استقبلتمونى بها منذ تفضل مولانا جلالة الملك فأسند إلىّ هذا المنصب .

كل هـذا يجعلنى واثقاً كل الثقة بأن ستكونون عند حسن الظن بكم ، وأنكم أساتذةً وطلابا وموظفين ستعملون متكاتفين متساندين ، لمعونتى على السير بكم وبالأزهر قُدُما نحو الأهداف السامية التى يتمناها لنا جلالة الملك المعظم ، ويرجوها للأزهر كل محب له ، حريص على مجده . وإنى لواثق أننا جميعاً نحب الأزهر ونرجو له كل ازدهار ونماء ؛ وكلكم يعلم أن رسالة الأزهر إنما تتحقق على أكمل وجه إذا قامت على أيادٍ مُوحّدة ، ونفوس مُصفّاة . فلتنسوا كل ماكان ، ولنجعل عهدنا من اليوم صفاء فى القلوب ، وإيمانا برسالتنا ؛ ولنَسِرْ على بركة الله ؛ ولكم منى ـ إذا أنتم حققتم أملى ـ كما حقق الله آمالكم ، فعكف الطلاب على دروسهم ، والأساتذة على بحوثهم ، أن أبذل غاية جهدى فى سبيل مصلحتكم ومصلحة الأزهر ؛ فاعملوا معى ، وانشدوا الوحدة ، واتركوا ما ليس لكم من شئون ، والله يوفقنى إلى ما فيه الخير واليمن لكم فى حاضركم ومستقبلكم .

أما تهنئتكم لى فقد تمّ التعبير عنها ، ولمستها فى فيض عواطفكم ، فاجعلوا شكرى عليها نصيحة خالصة : أن تتحدوا وتتآلفوا ، وتقبلوا على دروسكم ، ودعوا لى الفرصة لأعمل فى جو هادئ ، كى أحقق لكم الأمل ، فإن الأمل بابه العمل ، وهو أجدى علينا وعليكم من أوقات نضيعها فى القول والتهانى ، « وَقُلِ اعْمَلوا فَسَيَرَى اللهُ عملَكُمْ وَرَسولُهُ والمؤمنونَ » .

وبعد ، فإن عهدى إلى العالم الإسلامى أن أعمل لخدمة العلم والدين ، وأن أفسح المجال فى الأزهر لكل طالب وباحث هدفه العلم والدين ، مهما تباعدت أوطانه ؛ فالأزهر كعبة لكل مسلم فى مشارق الأرض ومغاربها ، ولكل وافد عندى العون والمساعدة ، لِيبلغَ من العلم ما يريد ، حتى يعود إلى أهله داعياً للأزهر ، وناشراً لدين الله . وعهدى إلى العالم الإسلامى أن أعمل على نصرة

قضية العروبة والإسلام ، والتمكين لكلمة الله « حتى لا تكونَ فتنةٌ ويكونَ الدِّينُ كلُّهُ لله » .

وأخيراً أقول لكم جميعاً : إن بابى مفتوح لكل ذى حاجة ، وإنه لا فرق عندى بين أستاذ وأستاذ ، ولا بين موظف وموظف ، ولا بين طالب وطالب ، إلا بالتوفر على العمل ، والإخلاص فيه « مَنْ عَمِلَ صالحاً فلِنفسِهِ ، ومَنْ أَساءَ فعليها ، وما ربُّكَ بظلاَّمٍ للعَبِيدِ » .

« وأكرر لكم جميعاً شكرى على عظيم استقبالكم ، وكريم حفاوتكم ، وحسن ظنكم ، وأدعوكم إلى العمل من الساعة . فاعملوا ، والله معكم ، ولن يَتِرَكُمْ أعمالَكُمْ .

وإنى أبتهل إلى الله جلت قدرته أن يحفظ مولانا جلالة الملك ، وأن يديم على الأزهر عطفه وبره . كما أضرع إليه أن يعيد على العالم الإسلامى ذكرى مولد النبى صلى الله عليه وسلم ، وقد تحققت آمال المسلمين ، فى مجد العروبة وعز الإسلام . والسلام عليكم ورحمة الله .



كلمة الاستاذ الاكبر فى الوفود

يوم الأحد ٢٥ يناير سنة ١٩٤٨

بسم الله الرحمن الرحيم . الحمد لله على فضله العميم . سبحانه ما أعظمه من منعم ! فقد مهّد لنا أقوم السبل الى خير ما أحب وتحبون : وأرفع آيات الشكر والولاء الى حضرة صاحب الجلالة مولانا الملك المعظم على سامى عطفه علينا ، وكريم بره بالأزهر والعلم والدين ، وعظيم رعايته لأمور المسلمين : وأشكر لكم جميعا ما أبديتموه من حفاوة ، وأقدر ما تحملتموه من مشاق . وإنه ليزيدنى اغتباطا أن أجدكم دائما عند حسن الظن بكم رجالا تعرفون واجبكم فى الحياة العلمية والاجتماعية ، فتكرسوا وقتكم لتحصيل العلوم والمعارف ، وتبذلوا قصارى جهودكم فى حماية الدين ونشر مكارم الأخلاق ، وبهذا تكونون قد أديتم رسالة الأزهر الى العالم كأزهريين عاملين . وكونوا إخوانا كما أمركم الله .

وبعد ، فقد مضى من العام الدراسى وقت غير يسير ، فأرجو ألاّ تدعوا فرصة العمل فيما بقى منه ، فما ذلك أجدى عليكم وأجدر بكم ، وانشدوا الاتقان فيما تعملون فإن الله لا يضيع أجر من أحسن عملا . وسارعوا الى ما وجب عليكم مترسمين الاخلاص لله وللعلم حتى نجنى الثمار جميعا ، وإنها بفضل الله ومشيئته عزة للأزهر ، ومجد للعروبة ، وقوة للمسلمين ، وسلام على العالمين .

وأخيراً اعلموا أن أبناء الأزهر لدىّ سواء ، ولكن كل بعمله ، وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان ؟

نسأل الله سبحانه وتعالى أن يكتب لنا التوفيق ، وأن يمدنا بروح من عنده ، وأن يحفظ مليكنا المعظم فاروق الأول ، أعزه الله . والسلام عليكم ورحمة الله .

كلمة الاستاذ الاكبر

فى طلبة معاهد الاقاليم

يوم الأربعاء ٢٨ يناير سنة ١٩٤٨

بسم الله الرحمن الرحيم

أبنائى الأعزاء :

السلام عليكم ورحمة الله . أقدر لكم هذا الشعور الفياض ، وأحيي فيكم هذا الروح الكريم الذى ينم على عظيم إخلاصكم وصادق محبتكم وشدة تفانيكم فى تقديركم للمثل العليا ، وتعلقكم بها . وأشكر لكم هذه الثقة الغالية التى لا تفتأون كل يوم تظهرون منها ما يثبت أركانها ويوطد دعائمها ، ويقوى من عزيمة الذين تتوجهون اليهم بها ، وأبادلكم تحية بتحية ، وإخلاصا بإخلاص .

أبنائى :

تعلمون أن الأزهر أقدم جامعة إسلامية ، وأعظم مؤسسة فى التاريخ قامت بحفظ الشريعة الغراء ، وحراسة اللغة العربية ، وحملت وحدها عبء الثقافة والتعليم فى الوقت الذى لم يكن فى الشرق جامعة ولا مدرسة غيرها تقوم بمثل هذا الواجب .

وأؤكد لكم أنه لولا وجود الأزهر فى تلك الحقبة التاريخية الطويلة لعمت الجهالة ، وانتشرت ظلماتها بين الناس ، وانتاب التأخر والانحطاط كثيرا من نواحى الحياة ، وغلبت على الشرق كثرة من الظواهر الاجتماعية الخطيرة التى كان يصعب تلافيها .

فالأزهر من هذه الناحية قد قام بأعظم الخدمات وأجل الفوائد للإسلام والعرب والشرق ، بل وللانسانية جمعاء . فواجبنا نحن أبناء الجيل الحاضر إزاء

هذه الجامعة المجيدة أن نحافظ على هـذا التراث العظيم ، وأن نرعاه ، وأن نتابع جهودنا ونبذل كل قوانا فى سبيل الإبقاء عليه وإنماء ثروته وازدهارها ، والنهوض بها قـُدما ، حتى نكون خير خلف لخير سلف ، وحتى نستحق أن نوصف بأننا أبناء بررة لأولئك الآباء الأمجاد . وغنى عن البيان أن هـذا كله لا يتم ولا يتحقق إلا بحسن قيامنا بواجبنا ، وعنايتنا بما وكل الينا ، والتفات كل فرد منا الى واجبه المنوط به ، ليؤديه على الوجه الأكمل ، ويضعه فى وضعه الصحيح .

وإنه ليطيب لى فى هذا المقام أن أنهى اليكم أن جلالة مـولاى الملك المعظم يعطف على الأزهر وأبنائه كل العطف ، ويرعاهم أعظم الرعاية ، ويسره أن يبلغ جلالته عنهم قيامهم بواجبهم وتأديتهم رسالتهم ، وتفرغهم للاشتغال بالعلم وحده ، وابتعادهم عن كل ما يحول بينهم وبين أى شىء من ذلك .

أمد الله فى حياة جلالته ، وأيده بروح من عنده ، وأعز به الدين ، وجعل عهده كله خيرا وبركة على الاسلام والمسلمين ، والأزهر والأزهريين .

والسـلام عليكم ورحمة الله .

بين المؤمنين والملحدين

نشرنا فى الجزء السابق كلاماً عن الإلحاد والعلماء ، وأتينا على آراء بعضهم ، فكان لهذا العمل وقع عظيم فى نفوس القارئين ، وخصوصاً الشبان المتخرجين من الجامعات منهم : فقد كانوا يظنون أن أكثر الناس علماً هم أصعب الملحدين شكيمة ، فإذا بهم يرون أنهم كانوا أكثر الناس شعوراً بوجود الخالق ، وأحرصهم على إعلان ذلك عنهم ، وهذا مصداق لقوله تعالى : « إنما يخشى اللهَ من عباده العلماء » . حصر سبحانه وتعالى الخشية على وجهها الأكمل فى العلماء ، لأنهم بما أوتوا من صفات النظر العميق ، والتحليل الدقيق ، يقفون من أسرار الابداع الإلهى فى الوجود ، ونواحى الاعجاز فيه ، على مالا يقف عليه سواهم ، فيكون إيمانهم أعلق بالنفس ، وأبعد غوراً فيها من إيمان غيرهم من الواقفين عند حدود القشور الظاهرة للموجودات .

وقال تعالى : « شهد الله أنه لا إله إلا هو ، والملائكة وأولو العلم ، قائماً بالقسط ، لا إله إلا هو العزيز الحكيم » ، فجعل شهادة العلماء بوحدانيته ، فى درجة شهادة الملائكة ، وهم من لا يتطرق اليهم الشك ؛ وفى هذا من الاعتداد بآراء أهل العلم ما لا مزيد عليه ؛ وما ذاك إلا لأن العلم نور معنوى يُظهر من خفايا الأشياء ما لا يراه الذين لا يستعينون به .

قال العلامة الأقاذيمى (شفرول) Chevreul وهو عَلم من أعلام عِلم الكيمياء الفرنسيين ، وقد أراد أن يصِم جرأة بعض غلاة الماديين فى زمانه بوصمة عار لا تمحى :

« لقد سألت نفسى ، وأنا فى زمان يتكرر الزعم فيه بأن العلم يؤدى الى المادية : ألا يكون من الواجب على الرجل الذى أمضى حياته فى وسط كتبه ، وفى داخل معمل كيمائى ، باحثا عن الحقيقة ، أن يهبّ محتجا على قول مناقض للعلم كل المناقضة ؟

وأنه لهـذا السبب صرح بأنه لم يكن قط لا أدرياً ولا مادياً ، وهو على استعداد لأن يبين أسباب ذلك .

« نعم لم أكن قط لا أدرياً . فانى معتقد بوجود ذات إلهية أبدعت تناسقين عظيمين : تناسق عالم الجمادات الذى يكشف عنه أولاً علم الميكانيكا السماوية ، وعلم الظواهر الذرية ؛ وتناسق العالم العضوى الحى . فلم أكن قط فى أى عهد من عهود حياتى ماديا ، لأن عقلى لم يستطع أن يدرك بأن هـذين التناسقين ، وهذا الفكر الانسانى كانوا من نتائج الاتفاق والخبط » .

وهذا الأستاذ (دولاّباران) De Lapparent العلامة الجيولوجى الكبير قد قال :

« فضلا عن أنى لم أضق ذرعا بعقائدى ، فأنا على عكس ذلك أجد منها باعثا قويا لمتابعة أعمالى العلمية » .

وقال الأستاذ الرياضى المشهور (كوشى) Cauchy :

« ليست عقائدى ثمرة أوهامى الوراثية ، ولكنها نتيجة تحقيقاتى العميقة » .

وقال الفيلسوف الجليل (جول سيمون) :

« إن فكرة الألوهية هى المركز الذى تلتقى فيه جميع طرق التفكير الانسانى » .

وقال الشاعر العالمى الكبير (فيكتور هوجو) وهو يخطب المجلس التشريعى فى ١٥ يناير سنة (١٨٥٠) .

« أما عن نفسى فليسمح لى بأن أعلن على رءوس الأشهاد بأنى أعتقد بوجود الله ، وهو فى نظرى أثبت وجوداً من هذا الوهم الضئيل الذى نسميه بالحياة . فهو ماثل أمام عينى لا يبرحهما . وأنا معتقد بوجوده بجميع مافى الاقتناع من قوى ؛ وبعد دراسات كثيرة أصبح الحقيقة العليا لعقلى ، والتعزية المثلى لروحى » .

وقال العلامة المؤرخ الطبيعى فابر Fabre :

« إنى أعتقد وجود الله ... وبدون ذلك لا أفهم شيئا ، أى يصير كل شىء أمام نظرى ظلاماً بهيماً » .

وقال العلامة الكبير كلود برنار Claude Bernard وهو أشهر فيزلوجى أنجبته البشرية :

« إن الفلسفة الحسية والمذهب المادى كلاهما فى نظرى غير معقولين ولا يمكن الدفاع عنهما » .

وكتب الفيلسوف المشهور (مونتيني) Montaigne :

« إن الكفر بالله رأى مناقض للفطرة السليمة وسخيف ، ويصعب إقناع العقل بصحته مهما كان هذا العقل ضعيفاً ومضطربا » .

وصرح (دنيس كوشان) العضو بالأكاديميا :

« المذهب المادى قد رُفض رفضا باتا ، فان المذهب الذى يفضى الى قتل الضمير ويسلب الانسان شعوره بالمسئولية ، لا يعقل أن يكون له سلطان علمى على العقول » .

أما المؤرخ الطبيعى الكبير (فابر) Fabre المتقدم ذكره فقد صرح بما يأتى :

« كل عهد له أهواء جنونية . فإنى أعتبر الكفر بالله من الأهواء الجنونية . وهو مرض العهد الحالى . وأيسر عندى أن ينزعوا جلدى من أن ينزعوا منى العقيدة بالله » .

* * *

بعد أن نقلنا هنا ما نقلناه من أئمة العلوم الطبيعية الخالدين من أهل العصر الحاضر ، نرى من العدل أن نأتى على آراء أئمة الملحدين فى إيثارهم ما هم عليه من الإنكار ، على ما عند خصومهم من الإثبات . ولعل أكثر القراء يود أن يعرف ذلك حتى يكون فى تقديره للعلماء المؤمنين على بينة .

يعجب القراء إذا قلنا لهم إن إلحاد الملحدين لا يستند على شىء غير مرض نفسانى ، وهو تصريح منا جرىء نرجو أن نقنعهم به بنقل بعض أقوالهم .

أشهر الكفار المعاصرين البيولوجى المشهور (لودانتك) Le Dantec مدرس البيولوجيا (علم الحياة) بجامعة السوربون . له كتاب أسماه : (إنكار الله) قال فى صفحة ٣٨ منه :

« إن سألتنى عن علل إنكارى لوجود الله، فإنى سأفضى بها إليك فى إيجاز . ولكنى لا أخفى عنك بطلانها ، وإنى لأعتبر نفسى عاقلا حين أقول لنفسى على نحو مافعل المسيو (دولابالليس) : إذا كنت أعتقد وجود الله ، فذلك لأنى كافر به . وهذا دليل جيد لا يمكننى أن أقيمه على عدم إيمانى . فانى منكر لله على نحو ما أنا بروتونى (بروتون قطر فى فرنسا) ، كما يكون الانسان أسمر أو أشقر دون أن يكون قد أراد ذلك .

« وليس لدىّ حامل شخصى يحملنى على أن أدلل على أن نكران الله أحسن من أى شىء آخر ، لأنى لم أستطع أن أتذوق شيئا آخر » .

وقد نقل العلامة الدكتور (ليون ووتى) عن الأستاذ لودانتك هذا القول وعقب عليه بقوله :

« من المحال أن يكون الانسان أوقح مما ترى ، وفى الوقت نفسه أبعد عن المنطق » .

وإليك إماما آخر من أئمة الماديين وهو الأستاذ (بوخنر) الألمانى فانه قال فى كتابه القوة والمادة :

« إن الفرض الذى مؤداه وجود قوة خالقة لا يمكن قبوله »

قال هذا ولم يعط دليلا واحدا لإثباته . والقاعدة المقررة عند العلماء ولا يشذ عنهم الماديون : أن العلم لا يمكن أن يبنى على الفروض ، فكل قول لا بد أن تقوم على صحته أدلة محسوسة . فهل لديه دليل أو شبه دليل على أن الكون يمكن أن يوجد وتنظم كائناته بدون قدرة خالقة ؟ حقا إن هؤلاء الملحدين لا يستندون فى إلحادهم على شىء غير المزاعم الباطلة .

ولا ننسى أن نأتيك بمثال آخر من تحكماتهم نقتبسه من كتاب الفيلسوف هيجيل الألمانى Hegel ، الموسوم بالمنطق الكبير ، وكأنه كما يقول الدكتور (ليون ووتى) وصفه بالكبير تهكما . فقد أتى فيه على نفى الخالق بدليل نعته بأنه غير قابل للدحض وهو هراء محض . وإليك هذا الدليل :

المادة شيء غير الروح .

والروح شيء غير المادة .

فهما إذن متغايران .

وإذن فهما شيء واحد .

قال الدكتور (ليون ووتى) عقب هذا الدليل : « على اعتبار أن هذا دليل لا ينقض وخاصة بوصف أنه من المنطق الكبير ، فهذا نجاح عظيم ! أما نحن فلا نرى فيه إلا شيئا واحدا لا يمكن نقضه ، وهو أنه ضرب من الخبل فى عقل هذا العالم المادى المزعوم » .

وزاد الدكتور المذكور على هذا قوله :

« إليك مثالا آخر من الهذيانات التى تعترى هؤلاء الماديين ، وهو صادر من الأستاذ (تين) Taine . ونحن إنما اخترناه لأنه صادر من فيلسوف مشهور من الملحدين . فقد قال :

« ليست المادة بشيء غير صورة وهمية . وكل جسم ليس فى حقيقته غير خيال ملون ومركز ومعين ومتحيز . فهو فى الحقيقة مجموعة قوى ، وكل مجموعة قوى ليست بشيء ، فينتج من ذلك أن الجسم الذى ليس هو فى الواقع غير مجموعة قوى ليس بشيء » .

وقد عقب الدكتور (ووتى) على هذا بقوله : ويكون قياساً على ذلك أننا لسنا بموجودين أيضا ! إن من العبث دحض أمثال هذه الغباوات .

محمد فريد وجدى

عيد ميلاد جلالة الملك المعظم

حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر
يذيع كلمة قيمة عن هذا العيد بالراديو

يوافق اليوم الحادى عشر من شهر فبراير تاريخ ميلاد حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق المعظم ، وقد جرت العادة أن يحتفل به الشعب المصرى وحكومته احتفالا عظيما ؛ بإقامة الزينات ، ورفع الأعلام ، وتسيير المواكب ؛ فرأى جلالته مراعاة للتأثر العام بما أصاب فلسطين ، أن يقتصر الاحتفال به على الرسميات ؛ فضرب جلالته بهذا العمل مثلا من أروع الأمثلة على الشعور العالى ، والنظر الرفيع .

ونزولا على الإرادة الملكية السامية رأى حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مأمون الشناوى شيخ الجامع الأزهر أن يكتفى بإذاعة كلمة بالراديو فى هذا اليوم الأغر ، تجمع من مناقب جلالة الملك ، ومآثره الخالدة ، ما لا بد من الإشادة بذكره ، والتيمن بنشره ؛ فجاءت على إيجازها بليغة جامعة ، كان لها وقع عظيم فى نفوس المستمعين من سائر الأقطار العربية .

ونحن تيمناً بهذا العيد الكريم ننشر كلمة فضيلته ، ونضم صوتنا إلى صوته فى الدعاء لحضرة صاحب الجلالة ، بأن يطيل الله فى حياته ذخراً لأمته ، وملاذاً لرعيته ، حتى يتم ما بدأه من إبلاغ بلاده سائر أمانيها ، وجمع كلمة الأمم العربية ، وتوحيد جهودها ، حتى تبلغ شأو أوائلها علماً وعملا ومدنية .

بسم الله وعلى بركة الله نفتتح هـذا البرنامج الحافل الذى أعدته دار الإذاعة المصرية ابتهاجا بعيد الميلاد الملكى لحضرة صاحب الجـلالة مولانا الملك المعظم فاروق الأول ، ونساهم معها بكل قلوبنا فى الاحتفال بهـذه المناسبة السعيدة التى تقدرها البلاد حق قدرها ، وتفرح بها من حبات قلوبها ، والتى تجد فيها مذكـّرا لها بتلك النعمة الـكبيرة التى أنعمها الله على البلاد ، وهى ميلاد الفاروق العظيم .

أجل : فقد كان ميلاد جلالته طالع يمن وإقبال على الأمة ، وبشير خير وإسعاد على شعب وادى النيل ، الذى وجد فيه أميرا محبوبا ، وولى عهد مبارك النقيبة ، ميمون الطلعة ؛ كما اقترن ميلاد جلالته بفيض من تحقيق الآمال الوطنية ، وبلوغ الأمانى القومية ، واسترداد سلطة الأمة ، واسترجاع حقوقها الدسـتورية ، واستكمال أهدافها السياسية .

وما كاد جلالته يعتلى أريكة الملك ، ويباشر حقوقه الدستورية ، حتى نهض بالبلاد نهضة قوية فتية ، وتقدم بها تقدما ملحوظا ، وخطا بها خطوات واسعة فى جميع نواحى الثقافة وأساليب الحكم ؛ فقد استقر فيها النظام الجامعى ، وارتقى فيها التعليم بكل أنواعه ، وساد فيها الحكم النيابى القائم على احترام سلطة الأمة وتمثيل رأيها ، والأخذ بنظام الشورى بينها ؛ وهكذا بعث جلالته فى كل جانب من جوانب الحياة العامة قبسا منيرا من روحه الوضاء ، فأنار السبيل ، وعبّـد الطريق ، وسما بالأمة إلى الجوزاء ، وقاد السفينة فى وسط الشدائد والأزمات كأحسن ما يقودها ربان ماهر ، ومدرب حكيم بصير بالعواقب .

ولقد كان فى مقدمة الإصلاحات جميعها ، وفى طليعة هذه المآثر كلها ، عناية جلالته بالتعليم الدينى ، واهتمامه بجامعته الـكبيرة ، وبمعاهده الثانوية والابتدائية ؛ فقد أولاها جميعا مزيد رعايته ، وحباها سابغ عطفه ، وكلأها بإرشاداته السامية ، وتوجيهاته العالية ، وحاطها بعينه الساهرة على مصلحة شعبه ، ومكـّن لها من أن تؤدى رسالتها على الوجـه الأكمل ، وأن تقوم بواجبها آمنة مطمئنة فى جـلال رعايته وحمايته .

ولقد أوحى اليه دينهالقوى ، وإيمانه الصادق ، وحبه للحق ، وتقديرهللسلام ، وإخلاصه فى العمل ، وانتصاره للعدالة ، أن يعنى بشؤون العروبة والإسلام ، وأن يجعلها فى المكان الأول من اهتمامه ؛ فوطد أواصر المودة والصداقة والمحبة بين جلالته وبين ملوك ورؤساء الدول العربية ، وقوّى وشائج الوفاق والوئام بين أقطابها ، وربط بين قلوب شعوبها وأممها برباط وثيق من الشعور والإحساس ، وعطف على زعمائها وأبطالها اللاجئين إلى حماه عطفا بارزا ملموسا ، وانتصر للشعوب المظلومة منها انتصارا نشاهد له كل يوم آية من آيات المجد ، ومنقبة من مناقب الشرف والفخار ، حتى لقد أصبحت كل تلك الشعوب بفضل هذهالسياسة الرشيدة ، والتصرفات الحكيمة ، وهذا العقل الراجح ، والتفكير الناضج ، كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا ، وحتى صارت كأعضاء الجسم الواحد إذا تأثر منها عضو بشيء شاركته سائر الأعضاء الأخرى .

هذهإشارة عابرة الى بعض مآثرجلالته العلمية ،وأعماله الإصلاحيةوالعمرانية، ومواقفه العربية والاسلامية ؛ فإذا ما انتقلنا من كل ذلك ويمّمنا نحو ما عرف عن جلالته من حرص على العدالة ، وحب للإنصاف ، واحترام للحقوق ، وتقدير للعاملين ؛ ومن بر بالفقراء ، وأخذ بيد الضعفاء ، وعطف على المحتاجين ، وتشجيع للناهضين ، وتكريم للنابغين ؛ فإننا سنجد مجال القول فسيحاً ، وميدان الكلام متسعاً .

خطب أحد فصحاء العرب بين يدى ملك عظيم ، فقال :

« إن أفضل الأشياء أعاليها ، وأعلى الرجال ملوكهم ، وأفضل الملوك أعمهم نفعا » .

وإننا إذا أخذنا هذا القول ونظرنا من ثناياه إلى أعمال مليكنا المحبوب فاننا لا نشك فى عظمة جلالته ، ولا نتردد فى أفضليته ؛ لأن نفعه عام ، وبره شامل ، وخيره وافر ؛ ولأن أريحيته يعرفها الصغير والكبير ، والغنى والفقير ، ويتحدث عنها

العمّال فى أعمالهم ، والطلاّب فى جامعاتهم ومعاهدهم ؛ فانهم يلمسونها كل يوم فيما تجود به مكارمه العالية ، وتسخو به أياديه المشكورة .

وإذا كان النفع — كما يقول ذلك العربى البليغ — هو مقياس العظمة وعنوانها ، وعماد الأفضلية وقوامها ، فمن غير الفاروق المحبوب يكون أهلا لها ، وهو أعظم الناس نفعا لبلاده ، وبراً بشعبه ، وحدبا على رعيته ، وإخلاصا لمصلحتها.

لقد أحسنت دار الإذاعة المصرية كل الإحسان فى إعدادها هذا الاحتفال بعيد الميلاد الملكى السعيد ؛ فانها إذ تفعل ذلك إنما تحتفل بميلاد ملك عادل صالح مصلح ، مسلم غيور مخلص ، وفىّ دمقراطى ، ساهر على مصلحة شعبه، عامل على رقى أمته ، جدير بكل حب ووفاء ، وحقيق بكل إخلاص وولاء .

إننا إذ نشاركها هذا الحفل الباهر ، ونشكرها على القيام بهذا الواجب ، نضرع إلى الله جلت قدرته أن يحفظ جلالة مولانا الملك المعظم ، وأن يبارك فى عمره السعيد المديد ، وأن يكلأه بالنصر والتأييد ، وأن يحوطه برعايته وتوفيقه ، وأن يحييه حياة طيبة مباركا فيها ، تعم بنفعها العباد والبلاد .

كما أننا ننتهز هذه الفرصة السعيدة لنرفع إلى جلالته فروض التهنئة والتبريك ، مع خالص الدعاء وصادق الولاء . والسلام عليكم ورحمة الله .

فى السنن الكونية :

التوافق بين آيات الكون وآيات القرآن

قانون الأسباب والمسببات

لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير الشيخ
محمد عبد اللطيف دراز مدير الأزهر (*)

بسم الله الرحمن الرحيم

حضرات السادة : السلام عليكم ورحمة الله .

وبعد ، فمنذ قريب تحدثت من هذا المنبر العام عن « التوافق بين آيات الكون ، وآيات القرآن » ، مستدلاً بهذا على أن منزل القرآن هو خالق الكون جل جلاله ; وأشرت يومئذ إلى أن هذا الدليل لم يبتدعه أحد من الناس ، وإنما الله سبحانه وتعالى هو الذى لفت أنظارنا إليه ، حيث يقول ، منوّها بهذا التوافق ، وأنه برهان دامغ على أن القرآن من عند الله : « ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيراً » . وضربنا مثلا لذلك « الوحدة » التى تتجلّى فى مظاهر الكون من أعلاه إلى أسفله ، ويقوم عليها نظام آياته البينات فى الآفاق وفى الأنفس ، وهى نفسها سُنّة القرآن ؛ بل إن الوحدانية هى أساس دعوته ، حتى لو أردت أن تجمع الإسلام فى كلمة واحدة ، لما وجدت أجمع له من كلمة التوحيد ؛ فهو ينادى بوحدانية الله ، ووحدانية الدعوة التى نزلت بها الكتب ، وجاءت بها الرسل ؛ وينادى بوحدة الإنسانية فى الأصل والعنصر ، وبوحدتها فى الحقوق التى يقتضيها نظام الحياة ؛ من الحرية ، والعدالة ، والإخاء ، والمساواة .

والمثل الذى نضربه اليوم على هذا التوافق بين آيات الكون وآيات القرآن هو « قانون الأسباب والمسببات » .

(*) من أحاديث فضيلته فى الاذاعة

وإنما اخترت هذا المثل ، لأنه — فوق فائدته العلمية النظرية — سيفيدنا فائدة أخرى عملية واقعية . ذلك أن كثيراً من المتدينين يعتقدون أن الدين إنما يقوم على المعجزات وخوارق الآيات ، وأنه ليس من الأصل فيه أن يطرد مع السنن الكونية ، حتى لقد غالى أتباعه فى بعض العصور فحظروا النظر فى أصوله ، وقصروا فهمها على طائفة قليلة منهم سمّوها « رجال الدين » فأساءوا بذلك إلى الدين إساءة بالغة ، بما حالوا بينه وبين الناس ، بل بينه وبين مدلوله الذى يريده الله منه . فإن الدين للإنسانية عامة ، لا لطائفة خاصة منها ؛ إذ هو عقيدة الناس ، وهو شريعتهم ، ولا يتأتى أن يعتقد الناس ما لا يفهمون ، ولا أن يشترعوا شريعة تنأى بهم عن واقع الحياة . فكان ذلك أعظم سبب فى عزلة الدين وإبعاده وإبعاد رجاله عن معترك الشئون الدولية ، مع أن هداية الناس إلى الحق وإلى الاستقرار فى الأرض لن تكون إلا على أساس الدين . وحيرة الإنسانية وضلالها وتناحرها الآن ، وهى فى أوج المدنية والمعرفة ، خير شهيد بصدق ما نقول . والذى أريد أن أقوله : هو أن الإسلام لم يأت الناس بما لا يفهمون ، ولم يحمّلهم ما لا يطيقون ، ولم يخرج بهم عن واقع الحياة فيما يحسّون وفيما يفعلون ؛ فهو يسير مع الكون خطوة خطوة ، وخطرة خطرة ، يتساوقان ويتجاوبان ، كأنهما الشخص وظله ، أو الصدى وصوته ، بل الجسد وروحه ، والمادة وحياتها . وكما كانت الوحدة التى دعا إليها وحدة شاملة من أعلى عليائها إلى نهاية مداها ، فكذلك قانون الأسباب والمسببات ، هو عنده عام شامل لا يخرج على كلمته شيء ، فلا يتعاظمه كبير ، ولا يفلت من حكمه صغير .

يقول الإسلام للناس : آمنوا لتهتدوا ، وتحابوا لتسعدوا ، وافعلوا الخير لتفلحوا ، واعدلوا لتأمنوا ، وازرعوا لتحصدوا ، وتعلّموا لتعرفوا ، واسعوا لتنالوا « فمن يعمل مثقال ذرّة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرّة شراً يره » ؛ وينهاهم عن القعود وتمنّى الأمانىّ الباطلة ؛ فإن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة ؛ وإن العزة والسعادة والمجد لا تنال بالتواكل والتوانى ، والاعتماد على كرم الأنساب وشرف الأحساب ، والتشدق بالأديان ، والتفاخر بالقوميات « ليس بأمانيّكم ولا أمانىّ أهل الكتاب ؛ من يعمل سوءاً يُجْزَ به ، ولا يجدْ له من دون الله وليّاً ولا نصيراً » .

وهذه هى سنة الكون نفسه؛ لا بد لكل غاية من وسيلة، ولكل نتيجة من سَعْى، ولكل أمل من عمل، ولكل مقصد من الخير سبيله التى تهدف له وتوصل إليه. فهو إذاً قانون واحد تقرؤه فى القرآن كما تشهده فى الأكوان، ومنطق واحد يعبّر عنه الكون بلسان حاله كما يعبّر عنه القرآن بمقاله «وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون، وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون».

هذا هو «قانون الأسباب والمسببات» الذى أخذ الله به العالم أخذاً، كما هو الشأن فى سائر مظاهر السنّة الإلهية: هى محكمات من الأمر لا تنقض، وعزائم لا رخصة فيها لأحد، وإن كان أقرب الناس وأحبّهم إلى الله «فلن تجد لسنة الله تبديلا، ولن تجد لسنة الله تحويلا».

وأقرب مثل يحضرنا لهذا، ما حصل للمسلمين فى موقعتى أُحد، وبدر قبلها، حيث اختلفت الأسباب. فاختلفت النتائج تبعاً لها.

فلقد كان لهم من أسباب النصر فى «بدر» على قلّة عددهم وعددهم، وحدة لا تنفصم عروتها، وعزيمة لا يفل حدّها، وإيمان تنزّلت عليه الملائكة من السماء، وصبر يزن به المسلم عشرة من الأعداء، وانقياد وطاعة بلغ من شأنهما أن قال المسلمون للنبى: أما إنا لا نقول لك ما قال قوم موسى لموسى «اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون» بل نقول: إنا معكما مقاتلون؛ سِر بنا يارسول الله كما أمرك الله، والله لو استعرضت بنا هذا البحر لخضناه وراءك ما تخلف منا أحد. ثم لاقوا أعداءهم على هذه الأسباب القوية، التى أمدّوا بها أنفسهم، فأمدّهم الله بمعونته وتأييده، وكان ذلك نصراً عزيزاً ائتلفت على تحقيقه لهم أسباب الأرض وأسباب السماء.

أما فى أُحُد: فلم يكن شىء من هذا، بل كانت ظاهرة الخلاف أبرز ما كان من أمرهم؛ خالفوا الرسول فى عدم الخروج إلى الأعداء — وكان عدم الخروج رأيه عليه الصلاة والسلام — ثم خالفوا أثناء السير إلى القتال؛ فانخذل «عبد الله ابن أبى» بثلث الجيش من أتباعه المنافقين. ثم خالفوا عن أمره أثناء القتال، فلم تنفذ فرقة الرماة أمره كما أراد، وكان إهمال هذه الفرقة هو السبب المباشر فيما أصاب المسلمين يوم أُحد. وبعض ذلك فضلا عن اجتماعه كاف فى الهزيمة.

ولقد وقعت الهزيمة فعلا ، ونفذت سنة الله كما تنفذ دائما ، وإن أصابت فى إمضائها وقهرها أقرب الناس إلى الله ، وأعظم أهل الأرض إيمانا بالله ، محمداً صلى الله عليه وسلم وجيشه من المؤمنين ؛ فقتل نحو سبعين من أبطالهم ، وكانوا هم قد أصابوا أعداءهم بمثلى هـذا العدد يوم بدر ، حيث قتلوا منهم سبعين وأسروا سبعين : فلما ارتاع بعض المسلمين للهزيمة وإن لم تخف عليهم أسبابها ، وجعلوا يتعجبون قائلين : أنى هـذا ؟! وكيف نهزم وفينا رسول الله ؟ رد الله عليهم بقوله « أوَلمّـا أصابتكم مصيبة قد أصَبتم مثليها قلتم أنى هذا ؟! قل هو من عند أنفسكم » فأنتم الذين تسببتم فى هذه الهزيمة بخلافكم على قائدكم ، وفشلكم فى أمركم ، وعدم إخلاصكم فى عزيمتكم « ولقد صدقكم الله وعده إذ تَحُسُّونهم بإذنه ، حتى إذا فشلتم وتنازعتم فى الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون ، منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ، ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ، ولقد عفا عنكم ، والله ذو فضل على المؤمنين » .

وفى هذه الموقعة نزل ذلك السياق الرائع الذى يبدأ من قول الله جل شأنه : « وإذ غدوت من أهلك تبوّىء المؤمنين مقاعد للقتال ، والله سميع عليم » إلى نحو ستين آية بعدها من سورة « آل عمران » .

وفى هذا النسق الطويل من تأديب القرآن ، وبالغ حكمته ، وبيان سنة الله فى الكون ووجوب رعايتها ، ما لا يتسع هذا المجال للإفاضة فيه . ولكن حسبك منه الآن هذا البيان الجامع ، حيث يقول الله تعالى « قد خلت من قبلكم سنن ، فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين . هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين » .

حضرات السادة :

هل نجد بعد هـذا من يخالف عن سنة الله عاجزاً أو جاهلا ، ثم يسمى عجزه أو جهله توكلا على الله وتسليما لأمر الله ؟! وهل نجد بعد ذلك من يجهل روح القرآن وهدى الاسـلام فيفسره على غير وجهه ويحمله على غير محمله !

كلمتنا لأمثال هؤلاء المتواكلين الجاهلين ، أن يتدبروا القرآن ليفقهوا معناه ؛ فإن عجزوا عن ذلك فليتركوا ما لا يفقهون . وكلمتنا إلى المسلمين عامّة هى هذه الكلمة التى ساقها الله إلى الناس كافة : « هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين » .

والسلام عليكم ورحمة الله .

دعوى الجاهليـة

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ طه محمد الساكت
المدرس بالأزهر

عن جابر رضى الله عنه يقول : « غزونا مع النبى صلى الله عليه وسلم ، وقد ثاب معه ناس من المهاجرين حتى كثروا ، وكان من المهاجرين رجل لعّـابٌ ، فكَسَع أنصاريا ، فغضب الأنصارىُّ غضباً شديداً حتى تداعَوْا ، وقال الأنصارى : ياللأنصار ! وقال المهاجرىُّ : ياللمهاجرين ! فخرج النبى صلى الله عليه وسلم فقال : ما بالُ دعوى أهل الجاهلية ؟ ! ثم قال : ما شأنُهم ؟ فأُخبر بكَسْعة المهاجرىِّ الأنصارىَّ ، قال : فقال النبى صلى الله عليه وسلم : دعوها فإنها خبيثة . وقال عبد الله بن أُبىّ ابن سلولَ(١) أقد تداعوا علينا ؟ لئن رجعنا إلى المدينة ليُخرِجن الأعزُّ منها الأذلَّ . فقال عمر : ألا نقتل(٢) يارسول الله هذا الخبيث ؟ ـ لعبد الله ـ فقال النبى صلى الله عليه وسلم : لا ، يتحدث الناس أنه كان يقتل أصحابه » . رواه الشيخان .

ثاب : رجع ، وقيل اجتمع . لعّـاب : مزّاح ، بصيغة المبالغة من اللعب ، وقيل كان يلعب بالحراب كما تصنع الحبشة . وكسعه كمنعه : ضرب دبره بيده أو بصدر قدمه . وتداعوا : استغاثوا ودعا بعضهم بعضا بدعوى الجاهلية ، وهى أن يقولوا عند الحرب : يا آل فلان ، أو يا لفلان ، فيجتمعوا لنصرة المستغيث ولو كان ظالما .

* * *

لم يحرص الإسلام على شىء حرصه على سلامة الأمة ووحدتها ، وشدّ بنيانها واجتماع كلمتها ؛ وهو لذلك يحذرها كل الحذر ، ويشفق عليها كل الإشفاق ، مما يوهن أمرها ، أو يضعف شأنها ، أو يثلم هيبتها ، أو يجرح كرامتها وعزتها . ومن تأمل قليلا فى قواعد الإسلام ودعائمه ، وأصوله وفروعه ، وأوامره

---

(١) أم عبدالله بن أبى ولذا تثبت ألف ابن الثانية وينون أبى ، لانها صفة أخرى لعبد الله لا لأبى . (٢) روى بالنون ، وبالتاء .

ونواهيه ، وحكمه وأحكامه ـ وجد أسمى غاياته ، وأجل مقاصده ، أن تكون أمته أجمع الأمم كلمة ، وأعظمها قوة ، وأرفعها مكانا .

وحسبك أن تنظر إليه وقد دعا بمختلف الأساليب وأقواها ، إلى الائتلاف والتعاون والتحابّ حتى نفى الإيمان عمن لا يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، ووعد المتحابين بأن لهم منابر من نور يوم القيامة ، وأن الله يظلهم فى ظله يوم لا ظل إلا ظله ؛ وأمر بالتواضع حتى لا يبغى أحد على أحد ؛ وأذهب عن المؤمنين بعد إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم ـ عبِّيَّة [1] الجاهلية وفخرها بالآباء والأحساب ، فكلهم بنو آدم وآدم من تراب ، لا فضل لعربى على عجمى ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى ؛ ورغَّب فى إصلاح ذات البين ، وقال إن فساد ذات البين هى الحالقة لا أقول تحلق الشَّعر ، ولكن تحلق الدِّين ! وشدد النكير على الفتن ما ظهر منها وما بطن ، حتى لقد بلغ من نكيره على من أيقظ فتنة أو دعا إليها أن تبرأ منه حيا وميتا ، فقال « ليس منا من دعا إلى عصبية ، وليس منا من قاتل على عصبية ، وليس منا من مات على عصبية » [2] وقال : « من حمل علينا السلاح فليس منا » [3] .

وهذه قصة تبين منهجه صلى الله عليه وسلم فى سياسة أمته ، وحرصه البالغ على اتحادها وائتلافها ، والحيلولة بينها وبين نزعات الشيطان ، ونزوات الشهوة ، ومُضلات الهوى .

روى أصحاب السير والمغازى أن بنى المصطلق اجتمعوا لحرب النبى صلى الله عليه وسلم ، فخرج إليهم حتى لقيهم على ماء من أمواههم يقال له المريسيع ، فهزم الله تعالى بنى المصطلق وأمكن منهم . ولما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من أمرهم وردت واردة من الناس تستقى الماء وتذود الخيل والإبل ، فاشتد الزحام حتى اقتتل أجير لعمر بن الخطاب يدعى جَهجاه بن مسعود الغفارى ، وحليفٌ لبنى

---

(١) بضم العين وكسرها وتشديد الباء والياء : الكبر . وهذا وما بعده اقتباس من صحاح كتب السنة .

(٢) هى المدافعة عن العشيرة ظلما وعدوانا . والحديث رواه أبو داود عن جبير بن مطعم

(٣) رواه الشيخان عن أبى موسى وابن عمر .

عوف يسمى سنان بن مسعود الجهني ، فصرخ الجهني : يا للأنصار ؛ وصرخ الغفاري : يا للمهاجرين ! فثارت حمية ابن أبي رأس المنافقين وعنده رهط من قومه ، وقال أوَ قد فعلوها ؟ نافرونا في ديارنا وكاثرونا في بلادنا ؛ والله ما مثلنا ومثلهم إلا كما قال الأول : سمّن كلبك يأكلك ! أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ! ثم أقبل على رهطه فقال : هذا ما فعلتم بأنفسكم ، أحللتموهم بلادكم وقاسمتموهم أموالكم ؛ أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير بلادكم !

تنبهت الفتنة ، وهاج هائج الشر ، وبُلّغ النبي صلى الله عليه وسلم الخبر (١) ، وكانت له معذرة دونها كل معذرة في قتل رأس النفاق والشقاق وسوء الأخلاق ، ولا سيما بعد أن استأذنه الفاروق في قتله ، ثم ابنه عبد الله رضي الله عنه لما قيل له خطأ : إن النبي صلى الله عليه وسلم يريد قتل أبيك !

لكنه صلوات الله وسلامه عليه ، وقد آتاه الله الحكمة ، وبعثه ليتمم مكارم الأخلاق ، سلك ما هو حقيق به وبخير أمة أخرجت للناس . فنهى عن العصبية ، وأخبر أنها خبيثة منتنة لا تجلب إلا الوبال والنكال وخبث الفعال ، وأخبر عمر أن قتل هذا الخبيث ليس من الخير للمسلمين ، ولا للدعوة الإسلامية ، فإن دعاة السوء سيشيعون أن محمدا — وحاشاه — يقتل أصحابه ، لأن عبد الله بن أبي كان يظهر الإسلام والصحبة ويبطن النفاق والكفر ! ثم ما أجمل أن يأمر صلى الله عليه وسلم ابنه عبد الله وهو من خيرة صحابته أن يرفق بأبيه ويحسن اليه وقد هم بأن يحمل رأسه الى النبي صلى الله عليه وسلم ، حسما للفتنة ، وسبقا إلى الطاعة ، وإيثارا لمرضاة الله ورسوله على أقرب الناس اليه وأمسهم به ! . ثم أمر صلى الله عليه وسلم بالرحيل في وقت لم يكن يرتحل فيه ، ليشتغل كل بنفسه ، ويلهو عما يضرم نار الحقد والخصام .

* * *

(١) بلغه زيد بن الارقم . وانظر قصته وتصديق الله إياه في تفسير سورة « المنافقون »

وقصة أخرى لا تقل عن هذه شأنا إن لم تزد عليها، يرويها المفسرون وأصحاب السير أيضا. قالوا: مر قيس بن شاس اليهودى بنفر من الأوس والخزرج وهم فى مجلس يتحدثون فيه فغاظه ما رأى من ألفتهم وصلاح ذات بينهم فى الاسلام بعد الذى كان بينهم من العداوة فى الجاهلية؛ وكان شيخا عظيم الكفر شديد الضغينة على المسلمين، فقال: قد اجتمع ملأ بنى قَيْلة [1] بهذه البلاد والله ما لنا معهم إذاً من قرار! وأمر شابا يهوديا كان معه أن يذكّرهم يوم بُعاث [2] وينشدهم بعض ما كانوا يتقاولون فيه من أشعار، وكان يوما اقتتلت فيه الأوس والخزرج، وكان الظفر فيه للأوس على بنى عمهم؛ ففعل عدو الله فعلته، فتكلم القوم عند ذلك وتنازعوا حتى تواثبوا وقالوا: السلاح السلاح! فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، فخرج إليهم فيمن معه من المهاجرين وقال: يامعشر المسلمين أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد إذ أكرمكم الله بالإسلام وقطع عنكم أمر الجاهلية وألف بينكم؟ فألقوا السلاح وبكوا وعانق بعضهم بعضا، وانصرفوا مع النبى صلى الله عليه وسلم سامعين مطيعين؛ فأنزل الله عز وجل «يأيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين. وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله، ومن يعتصم بالله فقد هُدى إلى صراط مستقيم». قال جابر: فما رأيت يوما أقبح أولا وأحسن آخراً من ذلك اليوم.

هذا قليل من كثير من دعوته صلوات الله وسلامه عليه إلى الألفة والوحدة، وجهاده فى نبذ الشقاق والفرقة، وحسن بلائه فى لم الشعث وجمع الكلمة. فهل آن لأمته، ولا سيما حملة شريعته، أن يستنوا بسنته ويهتدوا بهديه؟ «لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا».

تنبيه: وقع سهو أس ٨ ص ٢٠١ من العدد السابق «قباء» والصواب «المدينة».

حاشية: سأل بعض الأفاضل عما ألحق بالحرمين. والخلاصة أن العلماء اتفقوا على مضاعفة الثواب لما زيد فى المسجد الحرام، واختلفوا فيما زيد فى الحرم النبوى، فذهب النووى وغيره إلى أن التضعيف لايشمله، ولكن رغبته صلى الله عليه وسلم فى زيادته وتحقيق أصحابه لهذه الرغبة دليل على أن المضاعفة شاملة لما زيد فيه. ولعل الاشارة فى «مسجدى هذا» لإخراج المساجد المنسوبة إليه بالمدينة. وانظر: وفاء الوفاء.

---

(١) أم الاوس والخزرج وهما فى الاصل أبناء عم.

(٢) بالعين وبالغين كغراب، ويثلث؟ موضع بقرب المدينة. قاموس.

العقل السليم
فى نظر القرآن الكريم

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبد الرحيم العدوى
شيخ معهد فؤاد الأول بأسيوط

القرآن الكريم كتاب الحياة ودستور الخلود ، أنزله الله خاتما للكتب السماوية ، وغاية للوحى الإلهى . وهو وإن كان كتاب الإسلام الذى هو دين الفطرة ، والذى توفرت فيه أنواع اليسر على الناس والتسهيل عليهم فيما يطلب منهم من واجبات ، فانه لم يعول على التقليد ، بل جعل العقل عدته فيما يدعو اليه ، والتفكير الصحيح موئله فيما يشرع للناس ، وفيما يفرض عليهم من حقوق . فأساليب القرآن الكريم رغم تنوعها فى هداية الناس إلى الحق ، ومسالكه فى جذب النفوس الى الصراط المستقيم رغم تشعب أطرافها وتعدد نواحيها ، كلها تستمد سلطانها من المنطق ، وتعتمد على صحيح النظر .

فهو إذ يضع الدليل القاطع بين أيدى الناس ليقفوا على ما فيه من مقدمات ونتائج ، يهيب بعقولهم لتفكر ، ويثير فيهم عاطفة التدبر والنظر . فإذا تناول الرد على منكرى البعث الذين يقولون « أإذا كنا عظاما ورفاتا أإنا لمبعوثون خلقاً جديدا » قال لهم « كونوا حجارةً أو حديداً أو خلقا مما يكبُر فى صدوركم ، فسيقولون من يعيدنا ؟ قل الذى فطركم أول مرة » ؛ ليعلموا أن من قدر على المبدأ يقدر على المعاد ، لأنه أقرب منه منالا ، وأقل مجالا .

وهو إذ يحول وجهه إلى مسلك آخر من مسالكه فى هداية الناس فيأمرهم بإطالة النظر فى الآيات الكونية ، والتفكير فى أطوار خلق الإنسان فى هذه الحياة ، يعتد بالعقل كوسيلة فعّالة للوصول الى الغايات ، وسبب قوى فى الحصول على سكون النفوس القلقة وطمأنينة الفؤاد المشتت . ومن هذا النوع قوله تعالى :

« فلينظر الإنسان ممّ خلق ، خلق من ماء دافق ، يخرج من بين الصلب والترائب » وقوله تعالى : « أأنتم أشد خلقا أم السماء ، بناها ، رفع سمكها فسواها ، وأغطش ليلها وأخرج ضحاها ، والأرض بعد ذلك دحاها ؛ أخرج منها ماءها ومرعاها ، والجبالَ أرساها » وقوله تعالى « إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم ، فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين » . ثم يتدرج معهم الى أن يصدمهم بالحقيقة الواقعة وهي أن الأصنام في مستوى دون مستواهم ، وفي أفق غير أفقهم ، فيقول : « ألهم أرجل يمشون بها ، أم لهم أيد يبطشون بها ، أم لهم أعين يبصرون بها ، أم لهم آذان يسمعون بها ! قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون » . وهو في كل هذه الطرق والأساليب يعول على العقل ويحكمه في كل ما يقولون وما يعملون .

والقرآن أيضا إذ يعبد للناس طريق الهداية ، ويمهد لهم سبل الرشاد ، فيضرب لهم الأمثال ليوازنوا بين الأمور ، ويفرقوا بين الحق والباطل ، ويقضوا على مدى الخلف بين الهدى والضلال ، فيقول « وما يستوى البحران ؛ هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج » يعول على العقل ، ويعتمد على تفكيره ، رغم كون الأمثال وضربها ألطف ذريعة إلى تفهيم القلوب ، وأقوى وسيلة الى تسخير النفوس الأبية ، لأنها تصوير للمعقول بصورة المحسوس ، وإبراز للمعاني في صورة الملموس ، وإلباس المطالب الصعبة المنال ثوب المشاهد الذى لا ينكر ، والمعلوم الذى لا يجادل فيه ؛ ولذا يقول القرآن الكريم : «وتلك الأمثال نضربها للناس ، وما يعقلها إلا العالمون » .

بل إن القصص التي يسوقها القرآن الكريم للعبرة والاتعاظ لا يصل الناس الى الغرض منها إلا إذا حاطها العقل ، ولا تؤدى رسالتها إلا إذا كان الفكر رقيبا عليها : « وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير » .

ومن قبيل ما يسميه الناس على الهامش ، نقول : إننا لو تتبعنا آيات القرآن الكريم ، لوجدناه ينسب التفكير إلى القلوب في أكثر الأحوال وأغلبها ، فيقول : « لهم قلوب لا يفقهون بها » ، « إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد » ، « وطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون » ، « فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور » .

وتارة يشير إلى أن مركز العقل هو تجاويف الدماغ هنالك فى المخ والمخيخ والنخاع الشوكى . ولعل استنباط ذلك من قوله تعالى « يأيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون » سهل على الناظر البصير .

وهو فى الطريق الأول ينظر إلى القلب كعضو ممتاز فى جسم الإنسان يوزع الحياة على أطرافه ونواحيه ، ويمده بأسباب البقاء ؛ والرأس بما فيه مدين للقلب بنموه وبقائه ، كما يشهد بذلك الطب والتشريح .

ونظرة عجلى فيما سردنا عليك من آيات ، وقصصنا عليك من حجج ، تكفيك للوقوف على مبلغ اعتداد القرآن الكريم فى دعوة الناس إلى الحق ، بالعقل وتفكيره والنظر وتدبيره ، والمنطق وبراهينه . فهو لا يعول على سلطان العواطف ، ولا يعتد بالشهوات والرغبات . وإليك برهان ذلك من الكتاب العزيز :

يقول الله عز وجل لنبيه الكريم : « إنك لاتهدى من أحببت » . ويقول سبحانه وتعالى : « عبس وتولى أن جاءه الأعمى ، ومايدريك لعله يزكى » ويقول : « وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه » ، ويقول : « ما كان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى من بعد ماتبين لهم أنهم أصحاب الجحيم » ويقول « يأيها النبى لم تحرم ماأحل الله لك تبتغى مرضاة أزواجك » . ويقص القرآن الكريم علينا قولة إبراهيم لأبيه « إنى أراك وقومك فى ضلال مبين » . ويقول الله عز وجل « يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين» .

ولذلك كله استباح عمر أن يخاطب عليا رضى الله عنهما حين تأخر فى بيعة أبى بكر رضى الله عنه بقوله « وما منا إلا له مقام معلوم ، ونبأ ظاهر أو مكتوم ، ولئن زعمت أنك قريب رسول الله صلى الله عليه وسلم قرابة ، فأبو بكر قريب منه قربة ، والقرابة لحم ودم ، والقربة نفس وروح » .

فالقرآن كما ترى لايأبه للرغبات والعواطف ، ما دام العقل لايؤيدها ، والمنطق لا يؤازرها . فهى رغم كونها غرائز نشأت مع الإنسان وشبت معه ، لم يعرها القرآن نظره ، بل أقام العقل عليها حارسا أمينا ، يخفف من شماسها ، ويكسر من حدتها ، ويكبح جماحها ؛ لتكون أداة خير وصلاح .

إسلام قريش فى فتح مكة
لم يكن بالسيف

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبد المتعال الصعيدى
المدرس بكلية اللغة العربية

إن مما يثير أوربا وأمريكا على الإسلام فى عصرنا الحاضر، جهلهم بكثير من أصوله الحقة العادلة؛ ومن أهم ما يجهلونه من هذه الأصول أن الإسلام لا يبيح استعمال السيف فى الدعوة إليه، وإنما يدعو الناس بالحكمة والموعظة الحسنة؛ ومن أثر جهلهم بهذا الأصل ما عمدت إليه بعض المجلات الأمريكية منذ أيام، من نشر صورة نبينا الكريم فى صورة زنجى راكب على فرس وفى يده سيف يهدد العالم به؛ مع أنه لم يدْعُ أحد إلى السلام كما دعا الإسلام إليه، إذ قال تعالى فى الآية – ٢٠٨ – من سورة البقرة « يأيها الذينَ آمَنُوا ادخلوُا فى السِّلْمِ كافَّةً ولا تَتَّبِعُوا خطوات الشيطانِ إنه لكمْ عدوٌّ مبينٌ ». وقد بلغ من حب الإسلام فى السلام أن اتخذ اسمه تحية اللقاء، فلا يلقى مسلم شخصاً إلا بادره قائلا « السلام عليكم »، ليكون السلام شعار المسلمين، ويكون اسمه أكثر الأسماء ذكرا بينهم.

وقد تُعذَر أمم أوربا وأمريكا فى جهلها بهذا الأصل الكريم من أصول الإسلام؛ لأنها لا تجد من المسلمين من يبلغه إليها على حقيقته، ولا تجد منهم من يفهمها حقيقة الحروب التى قامت فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم، ويبين لها أنها لم تكن لإكراه الناس على الإسلام، وإنما كانت موجهة لمن أراد فتنة أهله فى دينهم، وصرفهم عنه بالقوة؛ فكانت للدفاع عن العقيدة، ولم تكن لإكراه الناس على الإيمان بها، لأنه لا إكراه فى الدين، كما قال تعالى فى الآية – ٢٦٥ –

من سورة البقرة : « لا إكراهَ فى الدِّين ، قد تبيَّن الرشدُ من الغيِّ ، فمن يكفرْ بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسكَ بالعُروة الوثقى لا انفصامَ لها ، والله سميعٌ عليمٌ » .

بل قد تجد أمم أوربا وأمريكا من بعض المسلمين من يزعم لها أن الإسلام انتشر بالسيف ، وأن هذه هى غايته التى يعمل لها ، فتزداد ضغنا وحقداً عليه ، وتخشى أمره إذا عادت إليه سطوته ، فتتفق كلمتها على حرب المسلمين ، وتقف حائلا دون رجوع سطوتهم إليهم ، وهى فى عصرنا ذات قوة وبأس شديد . ولو أن الإسلام انتشر بالسيف حقا لما أهمنا أن يكون هذا سببا فى تألبها علينا ، ولكن الحقيقة أن الإسلام لم ينتشر بالسيف ، وأن ضرر هذا لا يقتصر على جمع كلمة هذه الأمم على حربنا ، بل يُتخذ عندها حجة على الإسلام ، لأنها تقدس حرية الرأى والعقيدة ، ولا تبيح استعمال القوة فى الإيمان بعقيدة من العقائد ؛ وهذا هو الذى جاء به الإسلام قبلها ، لأن الإيمان عنده إذعان بالقلب ، فلا يكفى فيه الإقرار باللسان من غير هذا الإذعان .

وقد كانت قريش أول من دعى من العرب إلى الإسلام ، وكان النبى صلى الله عليه وسلم يهتم بإسلامها أكثر من غيرها ، لأنها كانت صاحبة الزعامة الدينية فى بلاد العرب ، فإذا صارت إلى الإسلام صار غيرها إليه تبعا لها ، وقد أصرت على عنادها عشرين سنة ، حاربت فيها الإسلام أشد حرب ، وتولت زعامة القائمين بحربه من العرب ، حتى انتصر عليها فى السنة الثامنة من الهجرة ، ففتح مكة فى هذه السنة ، وكان قد سار إليها بجيش عظيم لم تقدر أن تقف أمامه ، فما إن دخل هذا الجيش مكة حتى بادر أهلها إلى الإسلام ، وتركوا ما كانوا فيه من عبادة الأصنام .

وهنا يدخل فى ظن كثير من الناس أن أهل مكة لم يسلموا إلا بقوة هذا الجيش ، وأنهم لو تركوا وأنفسهم لاستمروا على شركهم ، ولم يدخلوا فى الإسلام دفعة واحدة كما دخلوا بعد ذلك الفتح . فإذا أردنا أن نفند هذا الظن وجب أن نرجع إلى الآيات التى أذن فيها للمسلمين بقتال قريش ، لأنها هى التى تبين لنا إن كان قتالهم لها من أجل إدخالها فى الإسلام ، أو من أجل غاية أخرى غير هذه الغاية .

لقد أذن الله تعالى للمسلمين بقتال قريش فى الآيتين — ٣٩، ٤٠ — من سورة الحج « أُذِنَ للذين يُقاتَلونَ بأنهم ظُلموا، وإنّ الله على نصرهم لقدير، الذينَ أُخرِجوا من ديارهمْ بغير حقٍّ إلا أنْ يقولوا ربُّنا الله، ولولا دفع الله الناسَ بعضَهم ببعض لهُدِّمتْ صوامعُ وبِيَعٌ وصلوات ومساجدُ يذكَر فيها اسم الله كثيراً، ولينصرَنّ اللهُ من ينصرُه، إن الله لقوى عزيز ». وهاتان الآيتان صريحتان فى أن الإذن بقتال قريش لم يكن لإدخالها فى الإسلام، وإنما كان لدفع ظلمها عن المسلمين، لأنها فتنتهم فى دينهم، وأخرجتهم من ديارهم بغير حق، وآذت من قعد به الضعف منهم فأقام بينها، ولم يهاجر الى المدينة.

فتوالت الحروب بين قريش والمسلمين بعد الإذن فى القتال لهذا الغرض من الفريقين، فقريش تريد أن ترجعهم بالقوة الى دينها، وأن تقضى على هذا الدين الذى آمنوا به عن طواعية واختيار، وهم يريدون أن يدفعوا ظلمها عنهم، ليعيشوا أحرارا آمنين فى دينهم، ولم يدخل فى غرضهم أن يكرهوها على الدخول فى الإسلام، كما دخل فى غرضها أن تكرههم على الرجوع عنه.

وقد استمرت هذه الحروب إلى أن كانت السنة الثامنة من الهجرة، وكان بين قريش والمسلمين عقد صلح، فنقضته وحاربت حلفاء المسلمين من خزاعة، فسار النبى صلى الله عليه وسلم إليها بعد نقض هذا العهد لا ليكرهها على الدخول فى الإسلام، بل ليطهر قبلة المسلمين من عبادة الأصنام، ويجعلها بيتا خالصا لعبادة الله تعالى، كما كانت فى عهد إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام.

وإن من أظهر الأدلة على أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يقصد إكراه قريش على الإسلام أنه لم يجعله شرطا فيما أعطاه من الأمان لها، بل دخل مكة من أعلاها وجيشه ينادى: من دخل داره وأغلق بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن، ومن دخل دار أبى سفيان فهو آمن. ولم يذكر فى ندائه « من أسلم فهو آمن » لأنه يريده إيمانا خالصا عن طواعية واختيار، وليس فيه شائبة قهر وإكراه.

ثم كان منه بعد هذا أن جمعهم وقال لهم : يا معشر قريش ، ما تظنون أنى فاعل بكم ؟ قالوا : خيرا ، أخ كريم ، وابن أخ كريم . فقال لهم : اذهبوا فأنتم الطلقاء . فعفا عنهم عفوا مطلقا من غير قيد ولا شرط ، ولو كان قتاله لهم من أجل الإسلام لاشترطه فى العفو عنهم ، لأن من يقاتل لغاية ، يحرص على تحقيقها عند النصر ، ولا يعفو عمن انتصر عليه مثل هذا العفو .

ثم كان من قريش أن أُخذت بذلك النصر ، فآمنت أنه من الله ، وأُخذت بذلك العفو الكريم ، فآمنت أنه لا يكون إلا من نبى ، فدخلت فى الإسلام طائعة مختارة ، وبقى منها بضع وثمانون رجلا على شركهم ، كدليل أيضا على أنها لم تؤمن بقهر أو قسر . وقد أسلم من بقى منها بعد هذا فى غزوة حنين ، وكان إيمانهم بما رأوا من كرم النبى صلى الله عليه وسلم وبره بهم ، كما آمنت قريش قبلهم .

من الكلمات الطريفة

دخل ابن السماك على محمد بن سليمان بن على ، فرآه معرضا عنه . فقال له : مالى أرى الأمير كالعاتب على ؟ قال الأمير : ذلك لشىء بلغنى عنك كرهته .

قال ابن السماك : إذن لا أبالى . قال الأمير : ولم ؟ فقال ابن السماك : لأنه إذا كان ذنبا غفرته ، وإن كان باطلا لم تقبله .

وأذنب رجل من بنى هاشم ذنبا الى المأمون فعاتبه فيه ، فقال : يا أمير المؤمنين من حمل مثل حالتى ، ولبس ثوب حرمتى ، ومت بمثل قرابتى ، اغتفر له فوق زلتى . فقال له المأمون : صدقت يا ابن عمى وصفح عنه .

وكان سليمان بن عبد الملك الخليفة الأموى قد نذر إن آلت اليه الخلافة ليقطعن لسان يزيد بن راشد ، لأنه كان يطالب بخلع سليمان بن عبد الملك من ولاية العهد وإحلال عبد العزيز بن الوليد مكانه . فلما آلت اليه الخلافة دخل عليه يزيد بن راشد فجلس على طرف البساط مفكرا ، ثم قال : يا أمير المؤمنين كن كنبى الله صلى الله عليه وسلم : ابتلى فصبر ، وأعطى فشكر ، وقدر فغفر .

فقال له أمير المؤمنين : من أنت ؟ فأجابه : أنا يزيد بن راشد ! فعفا عنه .

أمهات المشاكل الفلسفية
عند ابن رشد

لحضرة الأستاذ الدكتور محمد غلاب

تمهيد :

لا ريب أن بسط الحركة الفكرية فى عصر من العصور يتطلب من الباحث عرض آرائه الشخصية فى تاريخ الفلسفة عامة ، وفى الأنهاج التى سلكها أهل ذلك العصر خاصة . وكلما كان للبيئة المراد درسها اتصال وثيق بنفسه ، كان ذلك أدعى إلى حذره من سلطان العاطفة ، واحتياطه من فتنة الهوى ، لتصح مقاييسه ، وتعتدل موازناته ، وتبرأ أحكامه من الخطأ بقدر المستطاع .

ولما كانت دراسة أهمية العصر ومزاياه ومظاهره الاجتماعية والسياسية ضرورة لا نزاع فيها لكشف خفايا المعضلات الفلسفية التى شغلت المفكرين فى ذلك العصر من جانب ، ولما كان تاريخ الفلسفة من بعض وجوهه هو دراسة المحاولات التى قام بها الأفذاذ من رجال الفكر فى حل أهم المعضلات الكونية والجهود التى بذلوها فى تلك السبيل والمشقات التى احتملوها من جراء إيمانهم بمبادئهم من جانب آخر ، فقد حق على كل من يتصدى لتاريخ الفكر أن يلم بهذه العوامل المؤثرة تأثيرا فعليا مباشرا أو غير مباشر فى تكوين هذا الفكر وفى تطورات ما مر به من مشكلات وحلول . ونحن على يقين من أن إلقاء الضوء على تعيين المشكلات الأساسية التى تعنى بها الفلسفة ، والطرائق التى تعرض بها تلك المشاكل على بسط البحث فى العصور المختلفة ، والأسباب التى تحدد تلك الطرائق ، والمحاولات الفردية التى قام بها كل فيلسوف على حدة ، وما إلى ذلك من بواهر النتائج العقلية — لم يكن إلا ثمرة من ثمار الموازنة بين تلك العوامل .

على أن هذه العناية بالبيئة ومؤثراتها لا ينبغى أن تفوّت علينا الاهتمام بالمواهب الشخصية للمفكرين ، وبكل الأحداث التى يمكن أن تشرح منتجاتهم ، وتوضح آراءهم ، وتبلو أسباب اتجاهاتهم من الناحية النفسية البحتة ؛ وكذلك لا ينبغى

أن نغفل المظاهر المتباينة التى اتخذتها المشكلات وما تعاقب عليها من تطورات منذ أقدم العصور التى عرضت فيها ، لأن مجموعة هذه المظاهر وتلك التطورات هى التى تؤلف من المشكلات كيانها المتين الذى هو منشأ مغالبتها أحداث الدهر ، ومأتى بقائها على الزمن .

كانت الفلسفة الإسلامية إبان النهضة العربية تكوّن مع الفلسفة الإغريقية كُلا منسجما بلغ اتساقه حد الائتلاف الذى صار من العسير معه فصل أحد الإنتاجين عن الآخر ، فحمل ذلك عددا غير يسير من الباحثين القدماء والمحدثين على تقرير أن مفكرى الإسلام لا يزيدون على أنهم نقلة أو مقلدون . ولا جرم أن هذا يقتضى من المعنيين بدراسة الحركات الفكرية مضاعفة جهودهم لإماطة اللثام عن هذه الحقيقة ، وذلك لا يتيسر إلا بالوقوف على منتجات أولئك الأعلام دراسة وتحليلا ، وموازنة واستنباطا ، حتى يتهيأ لهم تحديد المنزلة الحقيقية التى تشغلها كل طائفة من المنتجات بإزاء غيرها ؛ وهذا هو الذى سنحاوله آملين أن نهتدى إلى كشف المكانة الدقيقة التى تستحقها الفلسفة الإسلامية بين صفوف الفلسفة العامة ؛ فإذا فرغنا من هذه المهمة عنينا بالموازنة بين منتجات المشرق والمغرب من هذه الفلسفة ، ثم حددنا موضع كل منهما تجاه الأخرى .

بيد أنه لما كانت الفلسفة المغربية قد انتهلت من الينابيع الإغريقية الأصلية بطريقة مباشرة ـ إذا صح هذا التعبير ـ من جهة ، وسلكت فى فهمها ذلك التراث وتوجيهها إياه وسائل أخرى غير التى سلكتها الفلسفة المشرقية من جهة ثانية ، وكانت فى عمومها أو رتودوكسية أى أكثر ولاء لأرسطو الحقيق ، وأشد استمساكا بآرائه الصحيحة من جهة ثالثة ، وكانت تتظاهر بأنها تتعقب ذلك الإنتاج العربى لتنقده أكثر مما تستفيد منه من جهة رابعة ، فقد دفعنا كل ذلك إلى أن نستجيب لما لدينا من العوامل الخاصة التى حملتنا على أن نعنى اليوم بدراسة أمهات المشاكل الفلسفية عند عين أعلام الفلسفة المغربية ، وهو ابن رشد . وإليك البيان :

(١) واجب الوجود ومعرفته بالنظر

لما كان الفلاسفة الذين تقدموا ابن رشد قد أجمعوا على أن الأداة الضرورية لمعرفة البارى ولفهم أسرار الكون ـــ فضلا عن الحكم عليها ـــ هى المنطق

أو القانون العقلى الذى تعصم مراعاته الذهن عن الخطأ فى الفكر ، فقد كان من الطبيعى أن يتابع هذا النهج فيقرر أن معرفة مبدع الكون عن طريق التقليد من خصائص العامة ، وأنها لا قيمة لها لدى الصفوة الممتازة التى انتقتها السماء لتكون موطن الحكمة ، أو لتؤدى رسالة كشف الحجب الكونية عما وراءها من أنوار باهرة ، وأسرار ساحرة . ولا جرم أن هـذا يقتضى طلب تلك المعرفة عن طريق النظر المحض ، وأن هذا النظر لا يتيسر إلا لمن درس أداته الضرورية وهى المنطق دراسة عميقة تؤهله لاستخدامه على خير وجه حتى تكون النتائج مستنبطة من أقيسة يقينية لا يتطرق إليها الارتياب . وليس هذا فحسب ، بل إنه أراد أن يخلع على النظر الفلسفى أحد نعوت القداسة ، فجنح إلى محاولة إثبات أن الشرع قد أوجبه ، واستدل على دعواه هذه بذكر آيات من القرآن تحث الإنسان العاقل على التأمل فى ملكوت السموات والأرض ليستنبط وجود مبدعه من النظر ، سموا بعقله عن الإيمان التقليدى الذى هو من شأن الجماهير . وهو فى هذا يقول :

« وإذ تقرر أن الشرع قد أوجب النظر بالعقل فى الموجودات واعتبارها ، وكان الاعتبار ليس شيئاً أكثر من استنباط المجهول من المعلوم واستخراجه منه ، وهذا هو القياس أو بالقياس ، فواجب أن نجعل نظرنا فى الموجودات بالقياس العقلى ؛ وبين أن هذا النحو من النظر الذى دعا إليه الشرع وحث عليه هو أتم أنواع النظر بأنواع القياس ، وهو المسمى برهانا . وإذا كان الشرع قد حث على معرفة الله تعالى وموجوداته بالبرهان ، كان من الأفضل أو الأمر الضرورى لمن أراد أن يعلم الله تبارك وتعالى وسائر الموجودات بالبرهان أن يتقدم أولا فيعلم أنواع البراهين وشروطها ، وبماذا يخالف القياس البرهان القياسى الجدلى والقياس الخطابى ، والقياس المغالطى ، وكان لا يمكن ذلك دون أن يتقدم فيعرف قبل ذلك ما هو القياس المطلق ، وكم أنواعه ، وما منها قياس وما منها ليس بقياس ، وذلك لا يمكن أيضاً ، أو يتقدم فيعرف قبل ذلك أجزاء القياس التى منها تمدمت ؛ أعنى المقدمات وأنواعها [1] » .

---

(١) انظر صفحة ٣ « من فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال » لابن رشد

ومما يسترعى الانتباه ، بل مما هو جدير بالتقدير فى هذا الموقف هو صعود فيلسوفنا بالباحث على درجات سلم المعرفة فى أناة وتؤدة ، ومروره بوسائلها الضرورية مروراً طبيعيا ليس فيه قفز ولا وثوب ، فيبدأ بإرشاد الباحث بديا إلى التساؤل عن علم القياس هل سبق إليه الأولون أو لم يسبقوا ، فإن كانت الثانية وجب عليه أن يحاول ابتكاره لينصبه معيارا لبحوثنا . وإن كانت الأولى فقد لزمه التنقيب فى كتب الأقدمين عن مبادىء ذلك العلم الهادى إلى الحق ، فإذا عثر عليها تأمل فيها حتى يصبح قادرا على الانتفاع بها فى إماطة اللثام عن معميات الوجود ، دون أن تقف مخالفة أربابها له فى العقيدة حجر عثرة فى سبيل الاستفادة منها ، والاسترشاد بها . ولكن ليس معنى هذا التتلمذ على الأقدمين أنه يكون عبدا لهم ، بل إن لديه أتم أنواع الحرية فى قبول ما يتبين أنه الحق ، وفى رفض ما ينم عن زيف أو بطلان ؛ وتلك هى أحدث وسائل البحث ، وبها يكون ابن رشد قد سبق الباحثين العصريين الى المناهج الحديثة بأكثر من سبعة قرون ، وهذا الامتياز البديع هو الذى يحملنا على ذكر عبارته فى هذا مع ما قد يبدو فى ذلك من إطالة ؛ واليك تلك العبارة :

« وإذ تقرر أنه يجب بالشرع النظر فى القياس العقلى وأنواعه كما يجب النظر فى القياس الفقهى ، فبيّنٌ أنه إن كان لم يتقدم أحد ممن قبلنا بفحص عن القياس العقلى وأنواعه أنه يجب علينا أن نبتدىء بالفحص عنه ، وأن يستعين فى ذلك المتأخر بالمتقدم حتى تكمل المعرفة به ، فإنه عسير أو غير ممكن أن يقف واحد من الناس من تلقائه وابتداء على جميع ما يحتاج إليه من ذلك ، كما أنه عسير أن يستنبط واحد جميع ما يحتاج إليه من معرفة أنواع القياس الفقهى ؛ بل معرفة القياس العقلى أحرى بذلك وإن كان غيرنا قد فحص عن ذلك . فبيّن أنه يجب علينا أن نستعين على ما نحن بسبيله بما قاله من تقدمنا فى ذلك ، وسواء كان ذلك الغير مشاركا لنا أو غير مشارك فى الملة ، فإن الآلة التى تصح بها التزكية ليس يعتبر فى صحة التزكية بها كونها آلة لمشارك لنا فى الملة أو غير مشارك إذا كانت فيها شروط الصحة ، وأعنى بغير المشارك من نظر فى هذه الأشياء من القدماء قبل ملة الإسلام ؛ وإذا كان الأمر هكذا ، وكان كل ما يحتاج إليه من النظر فى أمر المقاييس العقلية قد فحص عنه القدماء أتم فحص ، فقد ينبغى

أن نضرب بأيدينا الى كتبهم فننظر فيما قالوه من ذلك ، فإن كان كله صوابا قبلناه منهم ، وإن كان فيه ما ليس بصواب نبهنا عليه (١) » .

الآن وبعد أن فرغ ابن رشد من تقرير أن النظر هو الوسيلة المثلى لمعرفة البارى ، فقد أراد الترقى بالباحث الى مرتبة أسمى من التى انتهى منها ، ومجملها أن الشرع وسيلة الى الغاية العليا وهى الحكمة التى هى الحق والخير ، وأن الإيمان بغير هذه العقيدة ضرب من الجهل أو من الضلال ، وهو يشير الى هذا فيقول :

« وينبغى أن تعلم أن مقصود الشرع إنما هو تعلم العلم الحق والعمل الحق ؛ والعلم الحق هو معرفة الله تعالى وسائر الموجودات على ما هى عليه ، وبخاصة الشريعة منها ، ومعرفة السعادة الأخروية والشقاء الأخروى . والعمل الحق هو امتثال الأفعال التى تفيد السعادة ، وتجنب الأفعال التى تفيد الشقاء . والمعرفة بهذه الأفعال هى التى تسمى العلم العملى (٢) » .

وإذاً ، فقد بان من كل هذا أن الغاية التى ترمى إليها جميع الشرائع ، ويرنو إليها العقل البشرى فى شوق وشغف ، ويهدف إليها الفلاسفة من بحوثهم المستفيضة ، ومجهوداتهم المتواصلة — هى غاية واحدة ، وهى معرفة السر الأسمى لهذا الوجود وما انبثق عنه من أسرار ثانوية . ولما كانت الأدلة التى أسلفها الحكماء من الإغريق وفلاسفة الإسلام الشرقيين قد اشتملت على القدر الكافى لإثبات وجوب وجود البارى ووحدانيته وكماله وسموه عن الند والشبيه والقسيم والتألف والحيثيات والزمان والمكان ، والكيف والانحصار ، والتشخص والتحدد ، وما الى ذلك مما يتنافى مع مقام الألوهية الحقة التى تقتضى أرفع مراتب التنزيه ؛ ولما كانت أدلة ابن رشد على هذا كله لا تكاد تعدو ما أتى به أولئك الأعلام فى هذا الصدد ، فقد اعتبرناها غير مبتكرة . ولهذا رأينا الإغضاء عنها هنا اكتفاء بما سبقها من منتجات أسلافه ، وركزنا اهتمامنا فيما بدا فيه تجديد ابن رشد ناصعاً جلياً ، وموعدنا المقال الآتى .

---

(١) راجع صفحتى ٤ و ٥ من كتاب « فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال » لابن رشد .

(٢) ارجع الى صفحتى ١٨ و ١٩ من المرجع السابق .

هل بعث الرسول الى الجن

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ حسن حسين
المدرس فى الأزهر

المستفيض على ألسنة العلماء فى كتب الشريعة الإسلامية أن الله تعالى بعث رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم إلى الجن كما بعثه الى الإنس . وهناك روايتان مشهورتان فى هذا الموضوع : رواية « ابن مسعود » ، ورواية « ابن عباس » سنذكرهما ، ونذكر أقوال العلماء فيهما ، بعد أن نبين أن بعض الفرق أنكر وجود الجن إطلاقا ، وأن العلماء حكموا عليهم بالكفر ، ونبين آراء الذين أثبتوا وجود الجن من ناحية أنهم أجسام ، أو حالوُّن فى الأجسام ، أو أنهم قوى خفية ، إلى غير ذلك مما يتصل بهذا الموضوع اتصالا وثيقا ، فنقول :

أنكر بعض الفلاسفة ، والمعتزلة ، والقَدَرية ، وبعض أهل الكتاب ، وجودَ الجن إطلاقا . وهؤلاء لا يشملهم بحثنا ، لأن بعثة النبى صلى الله عليه وسلم إلى الجن إنما تكون حيث يوجد الجن ولا وجود لهم فى نظر هؤلاء . وقد حكم العلماء على هذه الطوائف التى أنكرت وجود الجن بالكفر ، لمصادمة آرائهم صريح القرآن الكريم : « قل أُوحِىَ إلىّ أنه استَمعَ نَفَرٌ من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا . يَهدِى الى الرُّشد فآمنّا به ولن نُشرِكَ بربنا أحدا » ، إلى آخر سورة الجن . وقوله تعالى فى سورة الأحقاف : « وإذ صَرَفْنا إليك نفَرا من الجن يستمعون القرآن ، فلما حضروه قالوا أنصِتوا فلما قُضى ولوا إلى قومهم مُنذِرين . قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتابا أُنزل منَ بعد موسى مصدِّقا لما بين يديه يَهدِى إلى الحق وإلى طريق مستقيم . يا قومنا أجيبوا داعى الله » الى آخر الآيات الواردة فى الجن فى هذه السورة الكريمة ، وقوله تعالى فى سورة الحجر : « ولقد خلقنا الإنسان من صَلصَال من حَمَأ مَسْنون . والجانَّ خلقناه من قبلُ من نار السَّمُوم » إلى غير ذلك من الآيات القرآنية التى تثبت وجود الجن صراحة .

ولمصادمة آرائهم أيضا ما وقع عليه إجماع طوائف المسلمين ، وعلى رأسهم الصحابة والتابعون ، مما يكاد يكون معلوما من الدين بالضرورة .

ولما عرّف الشيخ الرئيس ابن سينا « الجن » فى رسالته التى ألّفها فى حدود الأشياء بأنه : حيوان هوائى متشكل بأشكال مختلفة ، وقال « هذا شرح للاسم » ، فهم العلماء أن ابن سينا ينكر حقيقة الجن ، وأنها ليس لها وجود فى الخارج ، إذ لو كان لما عدل عن تعريفها إلى شرح اللفظ . وعندى أنه استنتاج من العلماء ، فإن الرئيس لم يصرح بنفى الحقيقة والماهية ، وإنما اكتفى بشرح الاسم ، وهذا لايعنى حتما اعتقاده نفى الوجود الخارجى . ولم لايجوز أن يكون سلك هذا السبيل لعدم معرفته ذاتيات الجن ؟ ومعلوم أن تعريف الشىء بحقيقته وماهيته فرع العلم بذاتيات الماهية .

ولا شك عندى أن الصيرورة إلى هذا أفضل من أن نحشر ابن سينا فى زمرة المنكرين المحكوم عليهم بالكفر .

هذا وقد أثبت وجودَ الجن طوائفُ المسلمين على اختلاف طبقاتهم ، وتواتر ذلك عن الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين ، وعن التابعين وعلماء أهل الكتاب وأتباع الرسل السابقين ، ومشركى العرب وغيرهم ، مما صار مشهوراً مستفيضاً متواتراً .

وافترق المثبتون إلى فرقتين : فرقة ترى أنها ليست أجساما ولا حالّة فى الأجسام ، وإنما هى جواهر قائمة بأنفسها كالأرواح ، إلا أن أنواعها مختلفة بالماهية ؛ فبعضها خيِّرة ، وبعضها شريرة ، وبعضها كريمة محبة للخير ، وبعضها دنيئة محبة للشرور والآفات . وأصحاب هذا الرأى لا يجدون مانعاً من أنها تتعلق وتتصل ببعض أجسام هذا العالم — البشر — ما دامت كالأرواح .

وفرقة ترى أنها أجسام خفية عاقلة تغلب عليها النارية ، كما يشهد له قوله تعالى : « وخَلقَ الجانّ من مَارِجٍ من نار » وهى قابلة للتشكل بأشكال مختلفة تُرَى بصور غير صورها الأصلية ، ولا يراها بصورها الأصلية إلا الأنبياء عليهم السلام . وخواص الخواص من المؤمنين .

وأصحاب هذا الرأى انقسموا إلى فرقتين : إحداهما تقول : إن هذه الأجسام مشتركة فى كونها حاصلة فى الحيّز والمكان والجهة ، وموصوفة بالطول

والعرض والعمق ، ومختلفة في ماهيتها ؛ لأن الاشتراك في الصفات لا يقتضى الاشتراك في تمام الماهية . وثانيتهما تقول : إنها مشتركة في الصفات ، ومتساوية في تمام الماهية .

وقد وُجِّه إلى أصحاب هذا المذهب (مذهب المجسمة) ، وإلى أصحاب المذهب الأول (مذهب القوى الخفية) ، اعتراضات كثيرة وجدل عنيف ، ومناقشات حادة قاموا بدفعها والردود عليها ، ولو نقلناها هنا لطال بنا المقام .

والذى يعنينا في هذا البحث هو أن الجن موجود ، سواء كان « قوى » أو « أجساما » : فإن بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم إليهم تتوقف على وجودهم كما أسلفنا .

وهناك في هذا الموضوع مذهبان مشهوران : مذهب ابن عباس ، ومذهب ابن مسعود .

مذهب ابن عباس :

يتلخص في أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يبعث إلى الجن ، ولم يأمره الله بتبليغهم ، وإنما استمع الجن للقرآن الكريم صدفة واتفاقاً فآمنوا به ، وكان استماعهم له أثناء مرورهم بناحية عكاظ للبحث عن السبب الذى منعهم من استراق السمع من السماء ؛ وذلك أن الجن والشياطين كانوا — في المدة الواقعة بين عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام — يسترقون السمع ويخطفون الخطفة من ملائكة السماء ويبلغونها للكهنة ، فتضيف الكهنة على الكلمة الصادقة مائة كذبة ، كما ورد في صحيح البخارى ؛ فلما بعث محمد صلى الله عليه وسلم ، رُميت بالشهب ، ومُنعت من استراق السمع ؛ وذلك ما حكاه الله عنهم في سورة الجن « وأنا لَمَسْنا السماء فوَجَدْناها مُلِئتْ حَرَساً شَديداً وشُهباً . وأنّا كنّا نَقْعُد منْها مقاعدَ للسَّمْع ، فمَنْ يَستمع الآن يَجِدْ لهُ شِهاباً رَصَداً . وأنا لا ندْرِى أشَرٌّ أُريدَ بِمَنْ فى الأرْض أمْ أرَادَ بِهِمْ رَبُّهمْ رَشَداً » . فالتفّوا حول إبليس وشكوا له منعهم من أمر السماء ، ففرقهم طوائف وأمرهم أن يطوفوا حول الأرض كلها للبحث عن هذا الحدث العظيم ؛ فاتفق أن مرّت طائفة منهم جهة عكاظ ، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يصلى الصبح بأصحابه ويجهر

بالقراة ، فاستمع له الجن وقالوا : هذا والله هو الذى منعنا من أمر السماء ! ثم ولوا إلى قومهم منذرين ، دون أن يعلم الرسول من أمرهم شيئاً حتى أخبره الله بقوله « قل أوحى » الخ .

وإليك نص رواية البخارى عن ابن عباس : قال البخارى فى باب تفسير سورة قل أوحى : حدثنا موسى بن اسماعيل ، حدثنا أبو عوانة عن أبى بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ، قال : انطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم فى طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء ، وأرسلت عليهم الشهب ، فرجعت الشياطين فقالوا : مالكم ؟ قالوا : حيل بيننا وبين خبر السماء وأرسلت علينا الشهب . قال : ما حال بينكم وبين خبر السماء إلا ما حدث ؛ فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها ، فانظروا ماهذا الأمر الذى حدث ؟ فانطلقوا فضربوا مشارق الأرض ومغاربها ينظرون ما هذا الأمر الذى حال بينهم وبين خبر السماء ؟ قال : فانطلق الذين توجهوا نحو تهامة الى رسول الله صلى الله عليه وسلم بنخلة وهو عامد الى سوق عكاظ وهو يصلى بأصحابه صلاة الفجر ، فلما سمعوا القرآن تسمّعوا له ، فقالوا : هذا الذى حال بينكم وبين خبر السماء . فهنالك رجعوا الى قومهم ، فقالوا : يا قومنا إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدى الى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحداً . وأنزل الله عز وجل على نبيه صلى الله عليه وسلم « قل أوحى إلى أنه استمع نفر من الجن » وإنما أوحى إليه قول الجن اه .

هذه رواية البخارى بنصها عن ابن عباس . وقد رواها غيره بزيادات ، وسنذكر أقوال العلماء فى مذهب ابن عباس بعد أن نبين مذهب ابن مسعود .

مذهب ابن مسعود :

هو صريح فى أن الله تعالى أمر محمدا صلى الله عليه وسلم بأن يبلغ الجن ، وأنه صلى الله عليه وسلم رسول الى الجن كما هو رسول الى الانس ، وأن الجن مكلفون بأصول الشريعة وفروعها كالإنس سواء . فقد جاء فى رواية عن ابن مسعود أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « أمرت أن أتلو القرآن على الجن » . وفى رواية أخرى عنه « أرسلت الى الجن » . وهذا صريح فى أنه صلى الله عليه وسلم بعث الى الجن .

واسمع رواية ابن مسعود بنصها : قال ابن مسعود : قال عليه الصلاة والسلام : « أمرت أن أتلو القرآن على الجن . فمن يذهب معى » ؟ فسكتوا ، ثم قال الثانية فسكتوا ، ثم قال الثالثة ، فقال عبد الله : قلت : أنا أذهب معك يا رسول الله . قال : فانطلق حتى إذا جاء الحجُون عند شِعب أبى دب ، خط علىّ خطاً فقال : لا تجاوزه . ثم مضى الى الحجون ، فانحدروا عليه أمثال الحجل كأنهم رجال الزُّط يقرعون فى دفوفهم كما تقرع النسوة فى دفوفها حتى غشوه ، فغاب عن بصرى ، فقمت ، فأومأ الى بيده أن اجلس ؛ ثم تلا القرآن ، فلم يزل صوته يرتفع ، ولصقوا بالأرض حتى صرت أسمع صوتهم ولا أراهم ، فلما عاد الىّ قال : أردتَ أن تأتينى ؟ فقلت : نعم يا رسول الله . قال : ما كان ذلك لك ؛ هؤلاء الجن أتوا يستمعون القرآن ، ثم ولوا إلى قومهم منذرين اه .

وروى أبو داود عن علقمة عن ابن مسعود عن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : أتانى داعى الجن فذهبت معه وقرأت عليهم القرآن ؛ قال : وانطلق بنا وأرانا آثارهم وآثار نيرانهم . وفى شرح البيهقى من طرق شتى عن ابن مسعود أن النبى صلى الله عليه وسلم صلى العشاء ثم انصرف فأخذ بيدى حتى أتينا مكان كذا . وفى آخر هذه الرواية ما نصه : فقلت : أين كنت يا رسول الله ؟ فقال : « أرسلت الى الجن » فقلت : ماهذه الأصوات التى سمعت ؟ قال : هى أصواتهم حين ودّعونى وسلموا علىَّ اه .

من هذه الروايات يتبين لك منها أيها القارىء الكريم ، أن الله تعالى أرسل محمدا صلى الله عليه وسلم الى الجن كما أرسله الى الإنس ، وأنه أمره بأن يتلو عليهم القرآن ، وأن بعض الجن مؤمن وبعضهم كافر ، مَثلهم فى ذلك مثل الإنس . انظر الى قول الله تعالى حكاية عنهم فى سورة الجن : « وأنا لما سمعنا الهدى آمنا به فمن يؤمنْ بربه فلا يخاف بخساً ولا رَهَقا . وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون ، فمن أسلم فأولئك تحرَّوا رشدا . وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا » . وتثبت آيات الأحقاف بأن من الجن دعاة الى هداية قومهم . انظر الى قوله تعالى : « قالوا ياقومنا إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى مصدقاً لما بين يديه يهدى الى الحق وإلى طريق مستقيم . ياقومنا أجيبوا داعىَ الله وآمنوا به يغفرْ لكم من ذنوبكم

ويُجرْكم من عذاب أليم . ومن لا يُجبْ داعىَ الله فليس بمُعجز فى الأرض وليس له من دونه أولياء ، أولئك فى ضلال مبين » .

وبعد ، فاعلم أيها القارى الكريم أن الذى عليه المعول لدى العلماء إنما هو مذهب ابن مسعود الموافق لصريح القرآن الكريم ، وأن مذهب ابن عباس لا يتنافى مع مذهب ابن مسعود ، فإن ماذكره ابن عباس وقع أولا ، فأوحى الله تعالى الى الرسول « قل أوحى إلىَّ » . ثم أمر بعد ذلك بالخروج إليهم . وقد قال العلماء : إن واقعة الجن تكررت ست مرات ، وإن الواقعة التى رواها ابن عباس كانت أول الواقعات ، فإنها كانت قبل الهجرة بثلاث سنين .

ونفْى ابن عباس بعث الرسول إلى الجن ليس على إطلاقه ، وإنما هو خاص بهذه الواقعة الأولى فقط . وحاشا ابن عباس أن يخالف صريح القرآن . ومتى أمكن الجمع بين الروايات وجب الجمع ، كما أسلفنا .

ويقول العلامة ابن تيمية : إن ابن عباس علم ما حكاه القرآن ولم يعلم ما علمه ابن مسعود ، فإن الواقعة الأولى التى رواها ابن عباس وقعت فى وقت كان ابن عباس فيه شابًّا حدثاً ، لأنه لم يناهز الحلم إلا فى حجة الوداع . ومهما يكن من شىء فالواقعة تكررت . وهذا هو سبيل الجمع بين الروايات .

وقبل أن أختم هذا المقال أود أن ألفت النظر إلى ما فى قول الله تعالى : « قل أوحى إلىَّ » الآية من أسرار ـ ففيها :

(١) أن الصحابة عرفوا أنه عليه الصلاة والسلام بعث إلى الجن كما بعث إلى الإنس .

(٢) توبيخ قريش بأن الجن مع تمردهم لما سمعوا القرآن عرفوا إعجازه فآمنوا به ولم يعاندوا كما عاندت قريش .

(٣) أن يعلم القوم أن الجن مكلفون كالإنس .

(٤) أن الجن يسمعون كلامنا ويفهمون لغاتنا .

(٥) أن فيهم مرشدين يدعون أقوامهم إلى التوحيد . وفى آيات الأحقاف ما يدل على أن الرسول صلى الله عليه وسلم رأى الجن وكلمهم ودعاهم إلى الإسلام وجعل منهم رسلا إلى أقوامهم .

وفقنا الله جميعا إلى ما فيه الرشاد .

نظرية الارتكاب بالترك

فى الشريعة الاسلامية وفى القانون المقارن

لحضرة الأستاذ المحترم الدكتور أحمد محمد ابراهيم
من وكلاء النيابة العمومية

بيّنا فيما تقدم معنى نظرية الارتكاب بالترك والآراء المختلفة فى حكمها ، ويجدر بنا قبل أن نبين حكم هذه النظرية فى الشريعة الغراء ، أن نذكر أن الحكم التكليفى الذى قد يوجب العقاب إما أمر وإما نهى . فعدم طاعة الأمر هو الجريمة السلبية ، وارتكاب ما نهى عنه هو الجريمة الإيجابية ؛ وقد عبر عن ذلك مؤلف كتاب معين الحكام بقوله : « والعقوبة تكون على فعل محرم ، أو ترك واجب أو سنة أو فعل مكروه [1] » . ومثال الجريمة الإيجابية فى الشريعة : القتل والسرقة والزنا وقطع الطريق . ومثال الجريمة السلبية : امتناع المدين الموسر عن سداد دينه ، وعدم إقامة المسلم الصلاة ، وامتناعه عن إيتاء الزكاة .

ولما كانت الأمثلة التى ذكرها فقهاء الشريعة ، فيما يسمى بنظرية الارتكاب بالترك ، قد وردت عند كلامهم على جريمة القتل ، فيحسن أن نوضح ماهية الوسيلة القاتلة فى المذاهب المختلفة ، لأنها محل خلاف بينهم : وليس الارتكاب بالترك إلا وسيلة من وسائل القتل .

يرى الامام أبو حنيفة أن الآلة المستعملة فى القتل يجب أن تكون محددة ، أى مفرقة للأجزاء ؛ فإن لم تكن كذلك فلا يعتبر القتل عمدا . واعتبر الصاحبان الآلة قاتلة إذا كانت لا تلبث ، أى لا تحتملها النفس .

ويرى الشافعى وأحمد أن أى وسيلة قاتلة تجعل القتل عمدا ، ولو لم تكن محددة .

ومذهب مالك أن القتل يعتبر عمدا متى كانت الآلة قاتلة ، سواء كان الاعتداء على سبيل القتل أو اللعب . أما إذا كانت الآلة غير قاتلة فيعتبر القتل خطأ إن كان الاعتداء على وجه اللعب أو التأديب ؛ فإن كان عداوة فالقتل عمد .

---

(١) معين الحكام ص ١٨٩ .

وعند أهل الظاهر يعتبر القتل عمدا إذا كان نتيجة اعتداء يمات من مثله ، أو لا يمات من مثله . أما ما لا يموت من مثله أحد أصلا فليس عمدا ولا خطأ ، ولا شيء فيه إلا الأدب [١] .

وفيما يلي بعض أمثلة الارتكاب بالترك التي ذكرها الفقهاء وبيان حكمها :

إذا حبس المجني عليه في مكان ومنع عنه الطعام والشراب مدة لا يبقى فيها حتى يموت ، فعلى الحابس القود عند أحمد والشافعي ومالك ، لأن الحبس مع منع الطعام والشراب يقتل غالبا ؛ وترتّبُ القتل على ذلك يختلف باختلاف الأشخاص والظروف ؛ فإذا كان الشخص عطشا في شدة الحر مثلا ، مات في الزمن القليل [٢] والحكم كذلك إذا منعه الدفء وكان البرد يقتل غالبا [٣] .

وفي مذهب مالك ذكر ابن يونس عن بعض القرويين ، أن من منع فضل مائه مسافرا عالما بأنه لا يحل له منعه ، وأنه يموت إن لم يسقه ، قتل به ، وإن لم يل قتله بيده . وظاهر ذلك أنه يقتل به سواء قصد بمنعه قتله أو تعذيبه [٤] وعنده أيضا ـ حيث يقتل الأصل بفرعه خلافا لجمهور الفقهاء ـ نص على أنه إذا منعت الأم ولدها الرضاع حتى مات ، تقتل إن قصدت قتله [٥] . وفي مذهبه أيضا أنه إذا أمر شخص آخر بقتل ثالث ، فيقتص من المباشر دون الآمر إلا إذا كان حاضرا فيقتل أيضا لقدرته على خلاصه [٦] .

وجاء في الفتاوى الكبرى (في مذهب الشافعي) أنه إذا حضر نساء ولادة ذكر ، فقطعت إحداهن سرته من غير ربط ، ونهاها الباقيات ، فمات بعد القطع بقليل ؛ فإن كان يقتل غالبا فيجب القود عليها . ولو قيل بوجوب القود على الجميع إذا لم يرين الربط ، لم يبعد ؛ لأن المهلك ترك الربط ، ولأن البرء موثوق به

(١) راجع مؤلفنا « القصاص » ص ٤١ وما بعدها والمراجع المشار اليها .

(٢) الشرح الكبير جـ ٩ ص ٣٢٨ . المهذب جـ ٢ ص ١٨٨ .

(٣) كشاف القناع جـ ٣ ص ٣٣٦ . شرح المنتهى جـ ٣ ص ٣٦٧ .

(٤) حاشية الدسوقي جـ ٤ ص ٢٨٥ . حاشية الصاوي جـ ٢ ص ٣٤٦ .

(٥) شرح الدردير الكبير جـ ٤ ص ٢٨٥ .

(٦) شرح الخرشي جـ ٨ ص ١٢ .

لو ربط فى العادة المطردة ، فالهلاك ينسب إليهن كلهن فيلزمهن القود ، وإلا فدية العمد [١] .

وعند الأحناف : لا قود أصلا فى الارتكاب بالترك [٢] .

ولعل أكبر أنصار الارتكاب بالترك ، ودافعيه الى أبعد حدوده ، هو أبو محمد ابن حزم . وننقل هنا كلامه بحروفه :

« ٢٠٩٧ — مسألة : من استسقى قوما فلم يسقوه حتى مات » .

« قال على : روينا من طريق أبى بكر بن أبى شيبة أخبرنا حفص بن غياث عن الأشعث عن الحسن ، أن رجلا استسقى على باب قوم فأبوا أن يسقوه ، فأدركه العطش ؛ فضمّنهم عمر بن الخطاب ديته .

« قال أبو محمد : القول فى هذا عندنا ، وبالله تعالى التوفيق ، هو أن الذين لم يسقوه إن كانوا يعلمون أنه لا ماء له البتة إلا عندهم ولا يمكنه إدراكه أصلا حتى يموت ، فهم قتلوه عمداً وعليهم القود بأن يُمنَعوا الماء حتى يموتوا ، كثروا أم قلوا .

« ولا يدخل فى ذلك من لم يعلم بأمره منهم ، ولا من لم يمكنه أن يسقيه . فإن كانوا لا يعلمون ذلك ويقدرون أنه سيدرك الماء ، فهم قتلة خطأ ، وعليهم الكفارة ، وعلى عواقلهم الدية ولابد . برهان ذلك قول الله تعالى « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم » ، وقال تعالى « والحرمات قصاص » . وبيقين يدرى كل مسلم فى العالم أن من استسقاه مسلم وهو قادر على أن يسقيه فتعمد ألا يسقيه الى أن مات عطشا ، فإنه قد اعتدى عليه بلا خلاف من أحد من الأمة . وإذا اعتدى فواجب بنص القرآن أن يعتدى على المعتدى بمثل ما اعتدى به ، فصح قولنا بيقين لا إشكال فيه . وأما إذا لم يعلم بذلك فقد قتله ، إذ منعه ما لا حياة له إلا به ، فهو قاتل خطأ ، فعليه ما على قاتل الخطأ .

« قال أبو محمد : وهكذا القول فى الجائع والعارى ولا فرق ، وكل ذلك عدوان . وليس هذا كمن اتبعه سبع فلم يؤووه حتى أكله السبع ؛ لأن السبع هو القاتل له ، ولم يمت من جنايتهم ولا مما تولد من جنايتهم . ولكن لو تركوه

---

(١) الفتاوى الكبرى حـ ٤ ص ٢٢٠ - ٢٢١ .

(٢) ابن عابدين حـ ٥ ص ٥٣٦ .

فأخـذه السبع وهم قادرون على إنقاذه فهم قتلة عمد ، إذ لم يمت إلا من فعلهم ؛ وهذا كمن أدخلوه فى بيت ومنعوه حتى مات ، ولا فرق (١) .

وهكذا نرى فقهاء الشريعة الغراء قد سبقوا العالم فى الـكلام عن الارتكاب بالترك ، وإن لم يعرفوا هذا الاسم . وظاهر أنهم قالوا بالنظريات الحديثة المختلفة ؛ فلا يعتبر القتل بهـذه الوسيلة موجبا للقصاص فى مذهب أبى حنيفة . وأجاز البعض القصاص متى كان على الانسان واجب قانونى كحالة الأم التى تمتنع عن إرضاع ابنها ، أو كان عليه واجب أوجبه بفعل نفسه كحالة من يحبس آخر ويمنع عنه الطعام والشراب . بل وقال البعض بالقصاص ولو كان على المرء واجب تمليه الانسانية ، كامتناع شخص عن إعطـاء من هو على وشك المـوت جوعا فضل طعامه . وعلة هـذا التوسع الأخير ترجع الى أن الشريعة الغـراء توجب على الناس أن يتعاونوا ، وأن يساعد كل واحد منهم أخاه قـدر طاقته ، وإلا كان آثمـا . وإن مجتمعا يقوم على هذه الأسس لهو خير مجتمع يمـكن أن تراه البشرية .

ونحن نرى ضرورة العقاب فى حالة الارتكاب بالـترك ، ولو لم يـكن على الممتنع إلا واجب تمليه الإنسانية وتقتضيه المروءة ، إذا كان قيامه بهذا الواجب لا يعود عليه منه ضرر يذكر ، فلم لا يعـد قاتلا ذلك الذى يرى شخصا على وشك الغـرق ويمتنع عن إلقاء حلقة النجاة التى فى يده للغريق قاصدا غـرقه ؛ أو ذلك الذى يمتنع عن إعطاء شخص على وشك المـوت من الظمأ جـرعة من المـاء ؟ فمثـل هـذه النفوس التى تضن بتقديم مساعدة لا يعـود عليها منها ضرر يذكر ، ويترتب عليها قتل نفس حية ، يجب أن يعـدها القـانون خطرة ، وأن يعاقب صاحبها .

فالشريعة الغراء توجب التكافل والتعاون بين الناس . ولا أدل على ذلك

---

(١) المحلى حـ ١٠ ص ٥٢٢ ـ ٥٢٣ ـ ونص فى مذهب أحمد فى باب الدية على أنه لاضمان على من رأى إنسانا فى مهلـكة فلم ينجه منها مع قدرته على ذلك ، وقد أساء ، لأنه لم يهلـكه ولم يكن سببا فى هلاكه (المغنى حـ ٩ ص ٥٨١) وظاهر من هذا التعليل أنه يوافق ما تقول به النظرية الفرنسية من عدم توافر رابطة السببية بين الامتناع والنتيجة .

مما نص عليه الفقهاء من أنه إذا نزلت بشخص مخمصة ووجد مع رجل طعاما ، فامتنع عن إطعامه ومن مساومته ، فإن له أن يقتله ، ولا شيء عليه إن قتله (١) .

وقد حكى أبو يوسف رحمه الله تعالى ، فى كتاب الخراج ، أن قوما وردوا ماء فسألوا أهله أن يدلوهم على البئر فلم يدلوهم عليها ؛ فقالوا : إن أعناقنا وأعناق مطايانا قد كادت تتقطع من العطش ، فدُلونا على البئر وأعطونا دلوا نستقى بها ؛ فلم يفعلوا . فذكروا ذلك لعمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فقال : فهلا وضعتم فيه السلاح (٢) ! .

أما إذا كان على الممتنع واجب يلزمه به القانون كحالة رجل الشرطة المكلف بحفظ الأمن ، أو يلزمه به الاتفاق كحالة من يتعاقد على قيادة كفيف ، أو أوجبه على نفسه بفعله كحالة من يحبس شخصا ويمنع عنه الطعام ؛ فنرى عقاب الممتنع ، ولو كان قيامه بالمساعدة يترتب عليه ضرر جسيم ، لأنه بحكم وجوده فى هذا المركز القانونى أو التعاقدى أو الواقعى يعد قابلا لتحمل كل النتائج التى تترتب على عدم قيامه بواجبه .

وعلى هذا فاذا أدى الامتناع الى القتل ، وكان الممتنع قاصدا القتل ، فانه يعاقب بعقوبة القاتل عمدا ؛ أما إذا لم يقصد قتلا فيعد قاتلا خطأ .

وفضلا عما تقدم فيجب أن تكون هناك بين الامتناع والجريمة رابطة السببية ، وقد سبق أن ذكرنا أن العلماء فى فرنسا يستندون الى القول بانتفاء رابطة السببية تأييداً لرأيهم فى القول بعدم العقاب على الارتكاب بالترك . والواقع أن المسألة دقيقة ، وتزداد دقة إذا تدخلت إرادة أخرى فى إحداث النتيجة التى حدثت ، بأن ارتكبت الفعل المادى للجريمة ؛ كحالة من يرى شخصاً يهم بقتل آخر فيتركه يتم جريمته رغبة منه فى موت المجنى عليه .

واضح من هذا المثال أن القتل تم نتيجة لإطلاق العيار النارى مثلا ، والسببية بين هذا الفعل وبين النتيجة سببية مباشرة ، فى حين أن الصلة بين الامتناع عن المساعدة والقتل غير ظاهرة تماما ؛ ولكن المعيار الذى نرى الأخذ به لتحديد

---

(١) معين الحكام ص ٤٢ ـ تفسير القرطبى ج ٢ ص ٢٢٥ (٢) راجع كتاب المعاملات الشرعية لاستاذنا المرحوم احمد بك ابراهيم ص ٢١ وما بعدها .

الحالات التى يعاقب فيها الممتنع والتى لا يعاقب فيها ، يجعلنا نقرر وجود علاقة سببية بين الامتناع وبين النتيجة التى حدثت ، وهذا المعيار هو أن الممتنع لا يعاقب إلا إذا كان قادرا على منع الجريمة ، ولو حاول منعها ما حدثت . أما إذا لم يكن فى قدرته أن يمنعها فلا يعاقب على امتناعه . فمن يرى شخصا على وشك الغرق ويسر لموته ، لا يمكن أن يعتبر قاتلا عمدا إذا تبين أنه لا يحسن السباحة ، وأنه لم يكن فى وسعه أن ينقذه بطريقة أخرى . مثل هذا الشخص لا يمكن اعتباره قاتلا بالامتناع لأنه لم يمتنع فى الحقيقة عن شىء ، وبذا لا تكون هناك علاقة بين امتناعه وبين الغرق . وكذلك من رأى شخصا يريد قتل آخر فلم يمنعه ، ولو تدخل لما كان لتدخله أثر على تمام الجريمة ، مثل هذا أيضا لا يعتبر قاتلا ؛ لأن تدخله وعدم تدخله يستويان فى النتيجة ؛ أما إذا كان تدخله كفيلا بمنع ارتكاب الجريمة ، وامتنع عن التدخل قاصدا حصول هذه النتيجة ، فصلة السببية موجودة ، على ماسبق أن أوضحنا عند مناقشة النظرية الفرنسية .

ونرى أن هذه القاعدة لا تسرى إلا على الجرائم التى يمكن أن يتعدد مرتكبوها . ذلك أن هناك جرائم لا تقبل بطبيعتها أن يتعدد مرتكبوها ، فإذا ارتكبت جريمة من هذا النوع ، فلا يمكن أن تنسب إلا إلى من ارتكبها وإليه وحده . ومن الأمثلة على ذلك جريمة الزنا وشرب الخمر : فالزنا هو الوطء فى غير حلال ، ولا توجد الجريمة التامة إلا بالوطء ، والوطء لا يمكن حصوله فى محل واحد وفى وقت واحد إلا من شخص واحد ، فمن غير المتصور أن يزنى شخصان بامرأه واحدة فى وقت واحد . وكذلك لا يعد شاربا للخمر إلا من يشربها فعلا ؛ لأن الجريمة لا توجد إلا بدخول الخمر الفم ، ومن المستحيل أن يشرب شخصان جرعة واحدة من الخمر فى وقت واحد . وعلى عكس ذلك نجد أن تعدد الجناة أمر عادى فى جريمة القتل ؛ فقد يطعن أكثر من شخص المجنى عليه فى وقت واحد فيقتلونه .

وعلى ذلك فإذا امتنع شخص عن منع ارتكاب جريمة لا تقبل بطبيعتها تعدد الجناة ، فإنه لا يعد مرتكبا لها ؛ وذلك لاستحالة ارتكاب شخصين لها فى وقت واحد . ويجب أن يوضع نص قانونى خاص يحدد العقاب فى هذه الحالة .

لغـــــويات

التقــاوى

تطلق كلمة « التقاوى » فى لسان عامّة المصريين على البذور تبذر للزرع . ولا تراهم ينطقون لها بواحد ، فما سمعنا لها منهم مفردا . وقد حرَصتُ منذ دهر على أن أقف على حقيقة هـذه الكلمة ومأتاها اللغوىّ ، فلم يبرد لى فيما وقفت عليه من المعاجم شئ يشفى الغلة ويَنقع الصدى . ففى المعـاجم أن التقاوى مصدر تقاوى الشريكان إذا تزايدا فى الشِرك بينهما . وذلك أن يكون بين الرجلين دار مثلا فيقوّماها ، ليشترى أحدهما نصيب الآخر . ومناسبة هـذا لما عرف فى هذه الأيّام لا تكاد تبين . وقد وُفقت إلى أن أهتدى إلى أصلها إن شاء الله . فقد جرى عرضاً فى بعض حـديث أستاذنا الحجّة الثقة الشيخ إبراهيم حمروش ذكر التقاوِى ، فذكر ـــ حفظه الله ـــ أن هذا الاستعمال يرجع إلى عهد رأس الأسرة العلوية الحاكمة فى مصر : محمد على الكبير . ذلك أنه كان يعطى الفلاحون من أهراء السلطان ومخازن الولاية ما يعينهم على الزرع من البذور . وكان ذلك يخرج من الديوان ، ويكتب فى كتب الأعطية : يعطى فـلان كذا كيلجة أو إردباً . تقويةً له . فلما كثر قرنُ عطاء البذر بالتقوية وكان بينهما هذا التحالف ، غلبت التقوية على البذر وعرفت فيه . فكان إذا قيل : أخذت التقوية فإنما يعنى أخذ البذر ؛ وجمع التقوية على التقاوى ، وغلب هذا اللفظ « التقاوى » على البذور ما قل منها وما كثر .

دأب المصريين الدفاع عن الوطن ، ضد كل اعتداء

يكثر استعمال « ضدّ » هكذا . وكأن المستعمليه يخالونه ظرفاً ؛ فهم يلزمونه النصب ، ولا يدعونه يتغير عن هـذه الصيغة ، كما يفعل بالظروف والأدوات .

وترى فى الرسالة (العدد ٦٣٣) : « هذه التمردات الجارحات، التى أرسلها لورنس من طريق قصصه ، أثارت ثائرة النقاد عليه ، وأحفظتهم ضده » . والمعروف فى اللغة أن الضد من الأوصاف ؛ تقول : هو ضد فلان ، وهما ضدان ، وهم أضداد . وفى مزدوجة أبى العتاهية :

لكل إنسان طبيعتان : خير ، وشر ؛ وهما ضدان

وتقول : أتيت بضد ما تفعل ؛ ولهم فى هذا فعل : يقولون : أضد الرجل ؛ وفى أفعال ابن القوطية : أضددت : أتيت بالضد ، وهو خلاف الشئ » . ويبدو لى أن المحدثين أتوا فى استعمالهم الضد على غير وجه من قبل الترجمة للأساليب الفرنجية . فقد جعلوا كلمة ضد ترجمة لكلمة كنتر contre الفرنسية . وهذه الكلمة فى الفرنسية ليست من الأوصاف ، بل هى من أدوات الوصل والربط ؛ ولذا فهى عندهم من الكلمات التى لا يدخلها التصريف والتغيير ؛ وهم يقولون : Ceaespensées its par lent contre يتكلمون خلاف ما يفكرون فتبعهم كتابنا فقالوا : يتكلمون ضد ما يفكرون . وقد علمت أن هذه الترجمة ليست دقيقة وفق الصواب ، فليس من الدقة أن تضع الوصف موضع الأداة ، وتعطى أحدهما حكم الآخر ، فذلك جمع بين الضب والنون . وقد يخطر للباحث فى هذا الأسلوب أن يخرجه على أن « ضد » حال ؛ فإذا قلت : تشن الدولة الحرب ضد الأعداء الثلاثة : الجهل والمرض والفقر ، فالمعنى تشن الدولة الحرب فى حال أنها ضد هذه الأعداء . ولكن مثل هذا لا يقصده مستعملو هذا الأسلوب ، وإنما يريدون أن الدولة تشن الحرب على هذه الأعداء ، فضد فى منزلة حرف الجر أو حرف الوصل والربط . وقد تقول : تحارب دولة ضد دولة ، وهنا لا تستقيم الحالية ؛ إذ أن دولة من النكرات ، ولا يأتى منها الحال فى مطرد أمرها ، وقياس مثلها . ولعل الكتاب بعد هذا يعدلون عن هذا الأسلوب السقيم .

بقى معى حوالَىْ مائة درهم

ترى هـذا الأسـلوب كثيراً فى كتابات المحدَثين . وفى صحيفة « المصرىّ » فى يوم ١ / ١١ / ١٩٤٧ : « فما بالك إذا أقحم عليهم حوالى مليون صهيونى ! » . والـكلمة « حَوَالىْ » لا مكان لها فى هذا المقام . ويجب أن يستبدل بها زُهاء أو نحو، أو غير ذلك مما يجرى فى هذا المعنى . تقول : عندى زُهاء مائة من الدراهم ، ونحو مائتين من الرجال . وذلك أن حوالى إنما يقع ظرفا مكانيا . تقول : قعدوا حوالى محمد وحواله ، وحوليه ، وحوله ، وأحواله ، ولا يراد فى هذا حقيقة التثنية والجمع . وإنى أسوق إليك بعض النصوص فى هذا : لتقتنع بما أقول ، وتعطى يدك بما أذكر . جاء فى المصباح : « وقعدنا حوله ، بنصب اللام على الظرف ، أى فى الجهات المحيطة به ، وحواليه بمعناه » . وفى اللسان : « قال الأزهرى : رأيت الناس حواله ، وحواليه ، وحـوله ، وحوليه » . وقال الصبّان فى حاشيته على الأشمونى : « ومن غير المتصرّف حوال ، وحوالَىْ ، وحوَلَىْ ، وأحوال » وهو يريد بغير المتصرّف ما لا يخرج من النصب على الظرفية إلا إلى الجرّ بمن ، وفيه معنى الظرف فى جميع أحواله . ومن شواهد استعمال حوالى فى وجهها الصحيح ما جاء فى دعاء الاستسقاء : اللهم حوالينا ولا علينا . أى أنزل الغيث حوالينا : فى مواضع النبات ، لا فى مواضع الأبنية ؛ وذلك من قولهم : رأيت الناس حواليه ، أى مطيفين به ، محدقين . ومن شواهد ذلك قول الفرزدق :

لعلكِ يوما أن ترَينى ، كأنما ... بنىّ حوالىّ الأسود الحوارد[1]

مَلْط

ترى هـذه الـكلمة فى لسان العامّة . وهم يستعملونها فى الوصف بالعُرْى والتجردّ . يقولون : فلان عارى مَلْط . ويوردونها فى موارد المجاز ، فيقولون :

---

(١) الحوارد : الغضاب ، واحدها حارد .

فلان فلّس وأصبح ملط . وقد كان من هم الأستاذ حسن توفيق العدل ـ عليه رحمة الله ـ أن يخرّج هذه الكلمة ويردّها إلى أصل عربىّ . فكان أن اهتدى إلى أن أصلها مَرْط ، وذلك من قولهم : سهم أمرط ، ومرِيط ومُرُط : لاريش عليه . وعلى هذا فقد كان من العامة أن أبدلوا من الراء لاما ، وهذا ليس غريبا فى اللغة ، فهذان الحرفان يتعاقبان ، كقولهم : فلق الصبح ، وفَرَق الصبح . على أن خيرا من هذا التخريج عندى أن يكون هذا اللفظ من قولهم للذى لا نسب له : مِلْط ، ويقال : أملط ريش الطائر : سقط ، والمِلاطان : الجنبان ، سمّيا بذلك لأنه قد مُاِط عنهما اللحم أى نُزِع . والأملط : الذى لا شعر على جسده كله ، إلا الرأس واللحية ؛ وكان الأحنف بن قيس أملط : لا شعر على بدنه ، إلا فى رأسه . وإنما اخترت هذا لأنه لا يحوجنا إلى القول بالبدل ، مع ظهور الاشتقاق ، ووضوح المعنى فيه .

ابن جِنّىْ ، ابن ماجَهْ

وقع السؤال عن هذه الأعلام وإعرابها . ذلك أنها تلزم السكون فى الوصل والوقف ، ولا يفعل بها ما فُعِل بنحو سَقَر وخوارزم ومِصر وطبرستان وخراسان مما دخل فى العربية من الأعلام ؛ فإن هذه الكلمات تجرى عليها حركات الإعراب ، وإن كانت تمنع التنوين . وقد عهدنا التزام السكون وتجنّب ظهور الحركات فيما كان مختوما من هذا الضرب بالياء الخفيفة أو الهاء . فمما ختم بالياء ابن جِنّى ـ ويراعى سكون الياء وألا تشدّد كياء النسب ـ وابن جنى أشهر من أن يعرّف ، فهو العالم الذى يعدّ بحق فيلسوف اللغة وحبرها ؛ ومن ذلك على بن أحمد بن جِنّى ، وأحمد بن محمد بن جنى ، من المحدثين ـ ذكرهما صاحب القاموس ـ . ومما ورد مختوما بالهاء ابن سِيده اللغوىّ الأندلسىّ الضليع ، صاحب المحكم والمخصّص ، وابن مَنْده وهو أبو زكريا يحيى من الحفاظ المشهورين وأحد أصحاب الحديث المبرزين . ومن ذلك ابن راهُوَيْه ، من جلة المحدثين . وقد حركوا الهاء إذا كان قبلها ساكن ؛ نحو بُوَيه جد البويهيين أصحاب الدولة فى بعض عهود الخلفاء العباسيين ؛ وزاه لقرية قرب نيسابور ؛ على أنا نراهم يقولون : أُشْنَه لقرية قرب أصبهان ، ويحركون الهاء ــ وهذه القرية ينسب إليها الأشنانى اللغوى ــ .

ويبحث المرء عن الداعى لتسكين أواخر هذه الـكلمات . ويبدو فيما كان مختوما بالياء كجنَى أنه لو أجريت مجرى غيرها من المنقوص لقيل فى المجرور : نظرت الى جن بحذف الياء ، وهنا يلتبس بالجن ، فكان مما ينبغى دفعا للبس إبقاء الياء فى حالة الجر ، وحمل سائر الحالات عليها : وهكذا القول فى جنى : ويضاف الى هذا أن الـكلمة الأعجمية يراعى الإبقاء على كل حروفها ، فهذا ما بعث على بقاء الياء ساكنة . وأما المختوم بالهاء فكأن الداعى الى تسكينها أنها لو حركت لتوهم أنها تاء تأنيث فأبقيت على السكون .

وبعد هذا أقول : إن هذه الـكلمات معربة : إذ لا موجب لبنائها ، وإعرابها بحركات مقدرة على أواخرها منع من ظهورها سكون الحـكاية ، أى حوكى أصلها الأعجمى . ويراعى فى حالة الجرّ أن إعرابها بفتحة نيابة عن الـكسرة : لأنها من الأسماء التى منعت الصرف للعلمية والعجمة . والله أعلم .

فى الاخوان

قال شاعر :

خير إخوانك المشارك فى المُـرّ ... وأين الشريك فى المر أينا
الذى إن شهدت فى الحضر أنسـ ... ـر وإن غبت كان أذنا وعينا

وقال آخر :

إذا رأيتُ انحرافا من أخى ثقة ... ضاقت علىّ برحب الأرض أوطانى
فإن صددت بوجهى كى أكافئه ... فالعين غضبى وقلبى غير غضبان

حول كتاب الرد على النحاة
لابن مضاء القرطبي

لحضرة الأستاذ الدكتور شوقى ضيف

تفضل الأستاذ الجليل الشيخ محمد على النجار ، فعقد فى هذه المجلة الغراء بعدد ربيع الأول مقالا عن كتاب الرد على النحاة الذى نشرته ، وهو كتاب أراد به صاحبه ابن مضاء القرطبي أن يهدم نظرية العامل التى صعّبت كتب النحو العربى وعقّدتها وجعلتها عسيرة الفهم .

ومقال الأستاذ الجليل مقسم إلى قسمين : قسم خاص بمتن الكتاب ونصوصه أشار فيه إلى هنات وقعت فى هذه النصوص ، وقسم خاص بآراء الكتاب أشار فيه إلى ما فى هذه الآراء من خطأ وفساد ، وسأعرض لمناقشة كل قسم على حدة .

هنات المتن والنصوص

أما الهنات التى أشار إليها الأستاذ الجليل فأكثرها ظنون واقتراحات فى قراءة بعض عبارات النصوص ، وهى فى أغلبها مجرد افتراضات ؛ فمن ذلك ماجاء فى الكتاب ص ٨٣ من قول ابن مضاء : « ولعل قائلا يقول : « أيها الأندلسى المسرور بالإجراء بالخلاء ، المضاهى بنفسه الخفىّ ذكاء وأى ذكاء » ؛ وسياق الكلام هنا يدل على أن ابن مضاء يحكى على لسان شخص قد يلومه فيقول : أيها الأندلسى الذى خلا له الميدان فى الأندلس فهو يُجرى فيه ولا يُجرى فيه أحد معه ، ولو كان فى المشرق بين علماء النحو وعلى رأسهم سيبويه ما أجرى الى هذه الغاية من الطعن على النحاة وعلى سيبويه خاصة . ومن هنا قلت فى هامش الكتاب : إن ابن مضاء يريد بالخفى ذكاء — فيما يظهر — سيبويه ، وقد ذكره بعد ذلك صراحة ، والكتاب كله مؤلف لرد نظرية العامل التى جاء بها ؛ ومعروف أن

كتاب سيبويه ، أصل النحو العربي ، وأصل نظرية العامل التي تشبث بها النحاة جميعاً . وهذا الفهم وما يطوى فيه من توجيه للعبارة لم يُرْض الأستاذ الجليل ، ولذلك اقترح أن نقرأها هكذا : « أيها الأندلسي المسرور بالإجراء بالخلاء ، المضاهي بفنه الخفي ذُكاء وابن ذُكاء » . وذكاء بالضم الشمس وابنها الصبح . ولا ريب أن في هذا تكلفاً شديداً في التعبير لسنا بحاجة الى بيانه ووصفه ، ولو اقترح الأستاذ الجليل أن نقرأ كلمة الحفي وحدها بالخاء المعجمة أي أن نقرأها الخفي ما أنكرنا عليه ، وقلنا هذا احتمال ممكن ، وقد عرض لنا أثناء النشر وفضلنا عليه الاحتمال الأول .

وهذا السياق في الكلام والحديث عن سيبويه جعلني أقرأ عبارة تالية رواها ابن مضاء على لسان هذا الشخص الذي يلومه على هذا النحو « أتزرى بنحوى العراق » . ونشرتها هكذا بالإفراد في كلمة نحوى ولم أجمعها كما يرى الأستاذ الفاضل لأن الأولى أكثر اتساقا مع السياق . وربما كان خيراً من اقتراحه أن نقرأ العبارة هكذا : « أتزرى بنحو العراق » بدون ياء ، وهذه قراءة جيدة ولكني فضلت الأولى لأني وجدت في الأصل الياء .

وقد رجح الأستاذ الجليل أن نقرأ الفعل « يكون » في العبارة الآتية بصيغة المؤنث لا بصيغة المذكر كما نشرتها في ص ٨٥ وهي : « فمن ذلك ادعاؤهم ـ النحاة أصحاب نظرية العامل ـ أن النصب والخفض والجزم لا يكون إلا بعامل لفظي » . ولا أزال عند رأيي وذوقي في أن صيغة الفعل هنا بالمذكر خير من صيغته بالمؤنث ، والطريف أن الأستاذ الجليل يجيزها ، ومع ذلك ينقدها ويعتبرها هناة !

ونقل ابن مضاء عن الخصائص في ص ٩٣ هذا النص : « اعلم أن إجماع أهل البلدين إنما يكون حجة إذا أعطاك خصمك يده أن لا تخالف المنصوص والمقيس على المنصوص » وقرأت أنا الصيغة هكذا : تخالف ، ورأى الأستاذ الجليل أنها ليست كذلك ، إنما هي يخالف ، وأنا لا أرد رأيه ، فهو ممكن ، ولكن أقول إن رأيه يقبل ، وكذلك رأيي ؛ لأن الكلام دائر بين شخصين وموقف كل منهما من صاحبه ، ولذلك يصح أن يكون الفعل تخالف أو يخالف . أما كلمة الترحيب التي جاءت في نص الخصائص هذا فلعلها بالجيم .

وجاء فى كتاب ابن مضاء ص ١١٨ : « ومن الأبواب التى يظن أنها تعسر على من أراد تفهيمها وتفهمها ، لأنها موضع عامل ومعمول ، ولا داعية لى إلى إنكار العامل والمعمول » . ورأى ذلك الأستاذ الجليل فتبادر إلى ظنه أن العبارة مضطربة وأن كلمة « ولا داعية لى إلى إنكار العامل والمعمول » لا تتمشى مع السياق ، ولذلك أصلحها على هذا النحو : « ولى داعية إلى إنكار العامل والمعمول » . والعبارة ليست فى حاجة إلى هذا التصحيح ، فابن مضاء يقول : ومن الأبواب التى يصعب أن تفهمها أنت أو تُفهِمها لغيرك بدون أن تؤمن بنظرية العامل ، لأنه يتحتم أن تكون موضع عامل ومعمول ، والحال أنه لا داعية لى إلى إنكار العامل والمعمول الخ . وهذا كلام واضح لا يحتاج تغييرا ولا تصحيحا ! . وقد عرض الأستاذ الجليل عقب ذلك لبيت جرير » :

أثعلبة الفوارسِ أم رياحا عدلت بهم طهية والخشابا

واستظهر أن تكون الفوارس بالنصب لا بالجر ، لأنها صفة لثعلبة ، وجرها يكون من باب إضافة الموصوف إلى الصفة ، ومع أن هذا غير ممتنع وله أمثلة معروفة تذكرها كتب النحو ، فإنى لا أتمسّك به وأرى أن الإضافة هنا على حقيقتها فى بابها الخاص . ومن هنا كنت لا أوافق الأستاذ الجليل على نصب كلمة الفوارس .

وذكر ابن مضاء أثناء استشهاده على النصب بعد الفاء فى التمنى قوله تعالى : « ودوا لو تدهن فيدهنون » . وحتّم الأستاذ الجليل أن تكون القراءة هنا : « ودوا لو تدهن فيدهنوا » لان ابن مضاء بصدد الاستشهاد على النصب فى التمنى لا الرفع . وإنما جئت بالقراءة الأولى لأنها هى التى ذكرها ابن مضاء نفسه ، وكأنه يريد أن يلفت قارئه إلى أن الفعل المضارع قد يرفع مع التمنى إما على العطف أو على القطع . وقد رجعت إلى كتاب سيبويه فوجدته يشير إلى ذلك فى باب نصب المضارع بالفاء ويذكر نفس الآية الكريمة . وهذا ما دفعنى إلى أن أبقى على الأصل بدون تغيير ، وخاصة أنه يلفتنا إلى أن المضارع قد يرفع بعد الفاء فى التمنى . وأظن من حق ابن مضاء أن يلفتنا إلى ذلك . ولا أزال أرى أن الفعل المقدر فى مثل : أزيدا ضربته ينبغى أن تقدر معه الهمزة وإن لم تشر إلى

ذلك جمهرة النحاة ، لأننا إن لم نصنع خرج الكلام من باب الإنشاء إلى باب الخبر !

أما قول ابن مضاء فى ص ٨٢ عند عدم الرعى والماء فلا أمنع أن تكون الكلمة الرِّعى بالكسر وإن كنت لا أجد مانعاً من أن تكون بالفتح . وأكبر الظن أن الأستاذ الجليل يتفق معنا الآن بعد استعراض هناته التى آخذنا بها أنها مجرد افتراضات . حقا بقى من هناته هنتان مطبعيتان هما : كلمة إيسَنْ وهى الأمر من وسن فى لغة شاذة ، فقد جاءت فى الكتاب إيسَقْ ؛ ثم كلمة : « ونور بنور الإيمان خلده » . فقد جاءت : « ونور بنوره الإيمان خلده » وهذا خطأ مطبعى واضح . وأنا على كل حال أشكر للأستاذ عنايته بالكتاب وقراءة نصوصه قراءة فاحصة . ولعل من الواجب أن أذكر أنى نشرت هذا الكتاب من نسخة حديثة حرفت فيها الكلم عن مواضعها ، وشوهت تشويها شديدا ، ولولا أنى استعنت بكل ما أمكننى الرجوع إليه من مؤلفات فى النحو مخطوطة ومطبوعة ما استطعت أن أخرجه إلى الباحثين .

نقد الأستاذ الجليل لابن مضاء

وذهب الأستاذ الجليل بعد حديثه فى الهنات والافتراضات السابقة ينقد ابن مضاء ، وبدأ هذا النقد ببيان محدود جدا لنظرية ابن مضاء فى هدم العامل فى النحو العربى وكل ما يرتبط به من تقديرات وتأويلات وعلل وأقيسة . وإنى أستأذن الأستاذ الجليل فى أن ألخص نظرية ابن مضاء فى كتابه حتى نكون أكثر وضوحا ودقة فيما نعرض له من ذلك .

لقد استهل ابن مضاء كتابه بقوله : « قصدى فى هذا الكتاب أن أحذف من النحو ما يستغنى النحوى عنه ، وأنبه على ما أجمعوا على الخطأ فيه ؛ فمن ذلك ادعاؤهم أن النصب والخفض والجزم لا يكون إلا بعامل لفظى ، وأن الرفع منها يكون بعامل لفظى وبعامل معنوى ، وعبروا عن ذلك بعبارات توهم فى قولنا ضرب زيد عمرا أن الرفع الذى فى زيد والنصب الذى فى عمرا إنما أحدثه ضرب ، وذلك بين الفساد .

وقد صرح بخلاف ذلك أبو الفتح بن جنى وغيره : قال أبو الفتح فى خصائصه بعد كلام فى العوامل اللفظية والعوامل المعنوية : وأما فى الحقيقة ومحصول الحديث فالعمل من الرفع والنصب والجر والجزم إنما هو للمتكلم نفسه لا لشىء غيره » .

ابن مضاء إذن ينادى فى مفتتح كتابه بأن فكرة العامل فى النحو ليست صحيحة لأن الذى يعمل الحركة فى الكلام كما يقول ابن جنى ليس هو مثل ضرب وإنما هو المتكلم نفسه . وهذا كلام منطق . ومن هنا يقول ابن مضاء : إن الإيمان بأن لفظا يحدث حركة فى اللفظ التالى له لا يقول به عاقل .

وقد ناقش الأستاذ الجليل الشيخ محمد على النجار هذه الفكرة وقال : إن النحويين بحمد الله عقلاء ، وإنهم إنما يقولون بالعامل النحوى على سبيل المجاز . وكأنى بالأستاذ نسى ما قاله ابن مضاء فى ص ٨٨ إذ لا يكتفى فى هدم نظرية العامل بأنها تخالف منطق العقل فيقول : ربما زعم بعضهم أن هذا العامل النحوى إنما مثل عاملا على وجه التشبيه والتقريب لتيسير تعلم العربية . وأظن أن هذا نفسه ما يقول به أخيراً الأستاذ الجليل ؛ لأن وجه التشبيه والتقريب هو نفسه وجه التجوز الذى قال به .

وقد رد ابن مضاء نفسه على ذلك بأننا لسنا فى حاجة الى فكرة العامل ولو كانت على وجه التشبيه والتقريب أو على وجه التجوز لأنها تحط كلام العرب عن رتبة البلاغة ، إذ نرى النحاة يحيلون الكلام عن وجهه من الفصاحة بما يقدرون فيه من عوامل محذوفة . ولقد أفضى بهم ذلك الى أن يرفضوا أساليب عربية فصيحة ويضعوا مكانها أساليب نحوية ركيكة إرضاء لنظرية العامل .

ليست المسألة مسألة استعمال اصطلاح نحوى بضرب من التجوز ، إنما هى مسألة خطيرة ؛ فقد جاء النحاة وعلى رأسهم سيبويه باصطلاح أفسد نحوهم وملأه بتقديرات وتأويلات لا دليل عليها فى اللغة ، ومع ذلك فقد جعلوا هذا الاصطلاح القطب الذى دارت عليه رحى النحو كله .

وابن مضاء يستطرد من ذلك الى بيان ما جرته نظرية العامل فى النحو العربى من تصعيب وتعقيد، وما جرته أيضا من رفض لأساليب العربية وأخذ بأساليب نحوية مضطربة؛ ونراه يعقد من أجل ذلك فصلا للعوامل المحذوفة فى الكلام من مثل تقدير «أدعو» فى نحو «يا عبد الله»، وتقدير «مستقر أو استقر» فى مثل «زيد فى الدار»، وينتهى من استعراضه لكل ذلك الى نفى فكرة العامل المحذوف، وأن الكلام ينبغى أن يعرب كما هو بدون تقدير ولا تأويل.

ولم يكتف ابن مضاء بإلغاء فكرة العامل المحذوف، فقد دعا أيضا الى إلغاء فكرة المعمول المحذوف وكذلك المعمول المستتر فى مثل «زيد ضارب عمرا»، فضارب ليس فيها ضمير مستتر تقديره هو بل هى تدل على هذا الضمير الذى يسمى فاعلا بمادتها، ومثلها فى ذلك ضرب فى نحو «زيد ضرب». وقد استدل ابن مضاء على ذلك بالفعل المضارع فى نحو أعلم ويعلم وتعلم؛ فإن الفعل يدل بمادته على الفاعل وأنه متكلم أو غائب أو مخاطب. وكذلك الشأن فى ضرب فهى تدل على الفاعل وأنه غائب مذكر بمادتها؛ وبذلك ينتهى ابن مضاء الى أن الفعل يدل على الحدث والزمان كما يقول النحاة، ويدل على الفاعل أيضا كما يقول هو، وكما نرى فى الأمثلة السابقة.

ويناقش ابن مضاء بعد ذلك بابين مشهورين فى النحو بكثرة التأويل والتقدير فى عباراتهما، وهما باب التنازع وباب الاشتغال. أما التنازع فإن النحاة يبحثون فيه صورة من التعبير دارت على ألسنة العرب وفيها نجد فعلين وراءهما فاعل أو مفعول مثل «آمن وصدق المسلمون». يقول علقمة:

تعفّق بالأرطى لها وأرادها رجال فبذّت نبلهم وكليب

وقد رد النحاة هذه الصورة من التعبير لأنه لا يصح فى رأيهم أن يتسلط عاملان على معمول واحد أو بعبارة أدق لا يصح أن يجتمع مؤثران على أثر واحد. وإذن فإما أن تعمل الأول وتضمر فى الثانى أو تعمل الثانى وتضمر فى الأول، فتقول: آمن وصدقوا المسلمون على رأى الكوفيين، أو تقول آمنوا وصدق المسلمون على رأى البصريين! ويستمر النحاة فيضمرون المفعولات كما أضمروا

الفاعل ، وإنهم ليستخرجون أثناء ذلك كثيراً من الصور المعقدة وخاصة فى أبواب الأفعال التى يعدونها الى مفعولين أو أكثر نحو قولهم : « ظننت وظنانى شاخصا الزيدين شاخصين » وقولهم « أعلمت وأعلمانيهما إياهما الزيدين العمرين منطلقين » .

ويحمل ابن مضاء حملة شعواء على مثل هذه الصور المرتبكة التى ليس لها نظير فى كلام العرب ، وإنه ليرفضها ويرفض معها نظرية العامل التى جعلت النحاة يردون صورة أصيلة من التعبير العربى ويضعون مكانها صورا نحوية مرتبكة .

ويخرج ابن مضاء من بحث باب التنازع الى بحث باب الاشتغال وما جاء فيه النحاة أيضا من صور مضطربة لم ترد عن العرب من مثل « أزيدا لم يضربه إلا هو ، وأخواك ظناهما منطلقين ، وأأنت زيداً ضربته » الى غير ذلك من أساليب لم تأت فى العربية ولكن جاءت فى كتب النحو لترضى نظرية العامل وما يتصور لها النحاة من سلطان وكبرياء . ونرى ابن مضاء يحمل هنا على مثل هذه الأساليب غير المستعملة ، كما نراه يحمل على طريقة درس النحاة للباب عامة وتقسيمهم لأساليبه بين ما يجب رفعه وما يجب نصبه وما يرجح فيه الرفع وما يرجح فيه النصب وما يجوز فيه الأمران ، مقدرين — فى أغلب العبارات — عوامل مضمرة لا دليل عليها فى قول المتكلم . وكل ذلك يرفضه ابن مضاء ويضع مكانه قاعدة بسيطة ، وهى أن الاسم السابق للفعل فى هذه العبارات إن عاد عليه ضمير رفع رفعناه ، وإن عاد عليه ضمير نصب نصبناه ، وبهذا حل مشكلة باب الاشتغال ، وربما كان أكثر الأبواب النحوية تصعيبا وتعقيدا .

وقد وقف الأستاذ الجليل الشيخ محمد على النجار على هذا كله فلم يعجب به ، بل لقد ذهب يبين ما فى إنكار ابن مضاء لتقدير النحاة فعلا محذوفا فى مثل زيدا ضربته من فساد مداره أنه ينكر بذلك فكرة التعدى واللزوم المشهورة فى النحو . وليس من ريب فى أن ابن مضاء ينكرها ، وهل يمكن أن يؤمن بها وهى جزء من نظرية العامل وأن منه متعديا ولازماً ؟ لقد ألغى ابن مضاء نظرية العامل وكل ما يتصل بها من تعدٍّ ولزوم وتأويل وتقدير ، وأيضا فقد دعا الى أن نلغى معها كل

ما فى كتب النحو من جدل وأقيسة وعلل . وليس ذلك كل ما دعا الى إلغائه ، فقد دعا أيضا الى إلغاء التمارين غير العملية من مثل قول النحاة « ابن من البيع على وزن فُعْل » مادام ذلك لم يأت فى اللغة .

وأنا لا أرتاب فى أن آراء ابن مضاء لا تزال فى حاجة إلى مناقشة واسعة ، وهى مناقشة قد تنتهى بنا إلى هدم الإطار الذى رسم فيه النحو القديم كله . ولن يضيرنا ولن يضير النحاة السابقين ذلك ، فقد أدّوا لنحوهم — كما تصوروه مؤسساً على نظرية العامل — رسالة كاملة . ولست أبالغ إذا قلت إن العقل العربى المشتعل ذكاء لم يخدم علماً لغوياً كما خدم النحو العربى . ونحن نكبر هذا العقل ونكبر النحاة معه . ولكن هذا لا يمنعنا أن نحاول التجديد فى النحو ما دامت هناك حاجة حقيقية إلى هذا التجديد .

ولقد نشرت هذا الكتاب « الرد على النحاة لابن مضاء » ووضعته بين يدى الباحثين المحدثين حين رأيت الجهود تتحفز من كل جانب لإصلاح النحو العربى وتذليل كتبه وتيسير قواعده . وهذا ما جعلنى أقدم له بمدخل واسع بينت فيه حاجتنا إلى تصنيف النحو تصنيفاً جديداً حتى نرفع عن الناس ما يفدحهم ويثقل كاهلهم فى تعلمه . وقد حاولت بعد ذلك أن أضع للنحو تصنيفاً جديداً مهتديا فيه بما دعا إليه ابن مضاء من تصفية النحو العربى لا من نظرية العامل فقط بل من كل ما يتصل بتصعيبه وتعقيده . ولست أزعم أن هذه التصنيف نهائى ولا شبيه بالنهائى إنما هى صورة مثلت بعد درسى للنحو على هدى آراء ابن مضاء فى ذهنى ومثلتها لحضرات الباحثين . وقد وعد الأستاذ الجليل الشيخ محمد على النجار بمناقشتها . وإنى لأنتهز هذه الفرصة فأحييه تحية طيبة ، سائلا الله أن يرزقنا السداد والإخلاص فى الفكر والقول والعمل ؟

شيء من الذوق !

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ أبو الوفا المراغى
مدير دار الكتب الأزهرية

نشرت إحدى الصحف الأسبوعية تحت عنوان : رأس السنة ، ما يلى :

بلغت الأسعار فى ليلة رأس السنة رقما قياسيا ؛ فقد كان رسم الدخول وثمن العشاء فى «الأوبرج» للشخص الواحد أربعة جنيهات ونصف جنيه ، وفى «شبرد» أربعة جنيهات ، ومع ذلك لم يكن فيهما موضع قدم .

قرأنا ذلك الخبر ، فأخذ منا العجب ، وفاضت نفوسنا بشتى الأحاسيس ، وحاولنا توجيه ذلك الهوس والإسراف فلم نفلح . وأى هوس وأىّ متاع ذلك الذى يدفع ببعض الناس الى هذا الإسراف والى التزاحم على الظفر به ، والتسابق فى المشاركة فيه ! .

وما بال هؤلاء الناس ، وفى أى أمة يعيشون ، وبأى إحساس يحسّون ! ألهم قلوب يفقهون بها ، أم لهم أعين يبصرون بها ، أم لهم آذان يسمعون بها ! لو كان هؤلاء من صميم الشعب يألمون لألمه ، ويهتمون لهمه ، ويفكرون فيما يفكر فيه ، ويعانون ما يعانيه ، لشغلهم ما يشغله ، أو لدعتهم المجاملة والذوق على الأقل إلى أن يشاركوه فى محنه وكوارثه ولو بالمظاهر ، إن لم يشاركوه بالقلوب والضمائر.

إن الشعب المصرى - ككل شعوب العالم - تجتاحه المحن ، وتتظاهر عليه الشدائد ، ويجاهد ساسته وقادته علّهم أن يجدوا منها مخرجا ، أو يستطيعوا لها فرجا .

يعجّ الشعب المصرى بمختلف المشاكل ، وتدور فى خلد بعض أفراده شتى الأفكار والمذاهب، وتشغله مجتمعا قضيته السياسية التى تظاهرت ضدها قُوى الشر والاستعمار، وتشغله وطأة الغلاء التى أخذت بمنافسه ، وعقدت عليه اسباب الحياة ، وتشغله نازلة الكوليرا ، وتهدده فى الأرواح والأرزاق ، وتشغله مشاكل أخوته وجيرانه من الشعوب العربية ، وبخاصة فلسطين ؛ وتشغل كل طائفة من طوائفه أحوالها المالية والأدبية ، وتكاد تخرج ببعض هذه الطوائف من جادة العقل ومنهج الرشاد .

تشغل الشعب وتشغل طوائفه هـذه الأحداث ؛ ولـكن عصبة من هؤلاء الأغنياء لا يجدون فيها مشغلا ، ويجدون من فضل أوقاتهم وسعة أموالهم مجالا للهو والمتاع البغيض ، ويسترخصون في سبيله البذل ، ويستقلون العطاء .

ولو أن هؤلاء الذين يدفعون في الليلة الواحدة أربعة جنيهات ونصف جنيه للعشاء ورسم الدخول ، عدا ما يستلزمه العشاء ويستلزمه الهناء من نفقات إضافية ، قيل لهم في جد الأمور وعظائم الأحداث هاتوا شيئا من أموالكم نكسوا بها عراة ، أو نطعم بها جياعا ، أو نرفه بها عن المرضى والمنكوبين من إخوانكم في الوطن أو الدين ، لـكفّوا أيديهم ، وهزوا رءوسهم ، وولّوا مدبرين .

إننا لا نتجنى على هؤلاء فيما نقول ، ولا نفرق فيما ندعى ؛ فها هي ذى قوائم التبرعات لمنكوبي فلسطين ومنكوبي الكوليرا ، فهل شرفت هذه القوائم بأسماء كثير منهم !

إنه ليحز في نفوسنا أن تخلو أمكنة هؤلاء في هذه القوائم ، وتعمر بأسماء صغار الموظفين ، وطوائف العمال والصناع ، ممن عمرت قلوبهم بالإيمان ، وغمر نفوسهم حب الوطن .

نحن لا نحسد هؤلاء على ما آتاهم الله من فضله ، ونؤمن عن يقين بقسمة الله تعالى في الأرزاق ، وأنه يمنع من يشاء ويرزق من يشاء بغير حساب ؛ ولا نطمع ولا نرضى لغيرنا أن يطمع في أموالهم بغـير طواعية من أهلها ، وبالوسائل التي يتوسل بها غيرنا في بلاد أخـرى ، ولـكننا نذكرهم بحق الله في أموالهم ، وبحق الفقير والبائس والمحروم في غناهم ، ولا نطالبهم باسم الدين ، فالدين أبعد ما يكون عن خواطرهم ، ولـكنا نطالبهم باسم الوطن الذي وهب لهم هذه الأموال وهذه الخيرات ؛ وباسم الفـلاحين والعمال الذين يعملون لهم في مزارعهم ومصانعهم ومتاجرهم ، تلفح وجوههم حرارة الصـيف ، ويقاصي أطرافهم زمهرير الشتاء ، يواصلون الليل بالنهار فلا يصلون الى الـكفاف .

سنطالبهم باسم المدنيـة والمروءة والذوق والانسانية أن يكونوا أعوانا لإخوانهم في الشدائد ، ولأوطانهم ذخرا في الملمات .

نطالبهم أن يكونوا لأوطانهم كبعض الأجانب الذين قدروا للوطن قدره وعرفوا له حقه ، فلبوا نداء الوطن وداعي الذوق والمجاملة ، وبذلوا في مواطن البر منه بعض ما وهب لهم من خير ، وسجلت لهم في صحائف المجد والذكر آيات الحمد والتقدير .

في ذكرى مولد الفاروق :

تولية محمد على الكبير

العلماء يختارونه لمصلحة الشعب

لحضرة الأستاذ محمود الشرقاوى

عند ما يجىء اليوم الحادى عشرى من شهر فبراير من كل عام ، يستقبله الشرقيون عامة والمصريون خاصة والأزهريون على الأخص بقلوب مستبشرة ووجوه فرحة ، ونفوس مطمئنة عامرة بالإيمان .

عند ما يجىء هذا اليوم السعيد من شهر فبراير فى كل عام يستقبله الشرقيون والمصريون والأزهريون خاصة بهذه القلوب المستبشرة ، وهذه الوجوه الفرحة المتهللة ، والنفوس المطمئنة ، لأنه يقع فى ذكرى مولد صاحب الجلالة الملك العظيم فاروق ؛ وكل يوم يقترن ذكره بذكر صاحب الجلالة الفاروق فهو يوم البشارة والفرح والتهلل واطمئنان القلوب العامرة بالإيمان .

الإيمان بمجد مصر ، ومجد العرب ، ومجد الاسلام . والفاروق ، حفظه الله ورعاه ، هو رمز هذه الأمجاد جميعا ، هو رمز المجد لمصر ، فهو العامل الساهر على مجدها وسؤددها ورفعة شأنها ، وأن تنال مكانها اللائق بها بين أمم الأرض .

هو رمز المجد للعرب ، فهو العامل الساهر على مجدهم وسؤددهم ورفعة شأنهم وتوحيد جهودهم وصمودهم لما يقع عليهم من عنت وضغط وإرهاب .

هو رمز المجد للإسلام ، فهو العامل الساهر على مجده وسؤدده ، وإحياء ما كان له من قوة وشمول ورفعة شأن . والأزهر هو القائم على تراث الاسلام والحفيظ على ما له من قوة كامنة موفورة لم يور زندها ولم تشعل نارها ، ولم يتوهج بعد نورها ؛ وهو مخرج هذا الكامن الموفور من قوته ، وموري زنده ، وشعل ناره ، وموهج النور الساطع الفياض منه إن شاء الله .

فمن حق الأزهر ومن حق أهله خاصة أن يبتهجوا ، وأن تستبشر قلوبهم ، وأن تتهلل وجوههم ، وأن تطمئن نفوسهم عامرة بالإيمان عند اليوم الحادى عشر من شهر فبراير . يوم الذكرى السعيدة ، لمولد الملك العظيم فاروق .

* * *

وللأزهر واتصاله بالأسرة العلوية حديث قديم ، بدأ حيث بدأ مؤسس هذه الأسرة الكريمة أن يلىَ شؤون هذا الوطن العزيز الذى أحبه محمد على وقضى حياته كلها عاملا مجدًّا دؤوبا على رفع شأنه والتمكين له ، أن تتجدد فيه الحياة ، وأن تنمو وتطرد حتى تصبح شباباً وفتوة ، وحتى أصبح اسم محمد على قريناً للنهضة المصرية الحديثة ورمزاً لها .

وكذلك أحب هذا الوطن العزيز محمداً علياً ، وحفظ له أعز ذكرى وأعز مكان من الإجلال والتمجيد والاكبار .

وسنجد فيما نلخصه فى الصفحات القادمة عن الجبرتى ، أن علماء الأزهر هم الذين اختاروا محمداً علياً ليكون والياً على مصر ، وأنهم اختاروه لما وجدوا عنده من الرأفة بالشعب والمحبة له والعدل فيه .

وجد شيوخ الأزهر فى ذلك العهد هذه الصفات الكريمة ، من المحبة للشعب والعطف والعدل والشجاعة أيضاً ، موفورة عند محمد على ، فاختاروه والياً على مصر ؛ ووجدوا كذلك أن الشعب المصرى الذى أهاض جناحه وأفسد حياته ظلم المماليك يحب محمدا عليا ويريده واليا عليه ، فحقق علماء الأزهر لهذا الشعب المهيض المظلوم أن يولى عليه ذلك الرجل العطوف العادل الشجاع : محمد على الكبير .

* * *

يذكر الجبرتى فى حوادث شهر المحرم من سنة ١٢٢٠ الهجرية : أن محمدا عليا قدم القاهرة من الصعيد حيث كان يحارب المماليك ؛ ويقول فى حوادث يوم الخميس الحادى عشر من شهر المحرم هذا : إن أحمد باشا خورشيد والى مصر فى ذلك الوقت طلب المشايخ والسيد عمر مكرم والوجاقلية وأرباب الديوان ، فلما اجتمعوا قال لهم : إن محمد على وحسن باشا راجعان من قبلى من غير إذن

وطالبان شرا ، فإما أن يرجعا من حيث أتيا ويقاتلا المماليك ، وإما أن يذهبا إلى بلادهما وأعطيهما ولايات ومناصب فى غير أرض مصر ، ومعى أمر من السلطان وكيل مفوض ودستور مكرم أعزل من أشياء وأولى من أشاء وأعطى من أشاء وأمنع من أشاء [1] .

بهذه اللهجة التى تنم عن الغضب والتوجس كان أحمد باشا خورشيد والى مصر يتحدث عن دخول محمد على القاهرة ، ولكن محمدا عليا دخل القاهرة كما يقول الجبرتى بعد عصر يوم الجمعة التاسع عشر من شهر المحرم هذا ، وذهب إلى بيته بالأزبكية ، فمنع أحمد باشا المشايخ والوجاقلية من الذهاب إلى محمد على والسلام عليه .

وفى يوم الجمعة ١٠ صفر من السنة نفسها ورد تقليد لمحمد على بولاية جُدة ، فامتنع من طلوع القلعة ليلبس الخلعة بهذه الولاية ، ثم اتفقوا على أن ينزل الوالى إلى بيت سعيد فيلبس محمدا عليا الخلعة فيه .

وبعد إلباس محمد على خلعة الولاية على جدة بيومين اثنين « ركب المشايخ إلى بيت القاضى واجتمع به الكثير من المتعممين والعامة والأطفال حتى امتلأ الحوش والمقعد بالناس وصرخوا بقولهم : شرْع الله بيننا وبين هذا الباشا الظالم ! . وطلبوا من القاضى أن يرسل باحضار المتكلمين فى الدولة لمجلس الشرع . . . فحضر الجميع واتفقوا على كتابة عرضحال بالمطلوبات ، ففعلوا ذلك . . . وفى تلك الليلة أرسل الباشا مراسلة إلى القاضى يرقق فيها الجواب ويظهر الامتثال ويطلب حضوره إليه من الغد مع العلماء ليعمل معهم مشورة [2] .

ولكن القاضى والعلماء لم يذهبوا الى الوالى كما طلب ، لأنهم خشوا خديعته ، وحضر لهم من أخبرهم أنه أعد لهم كمينا يغتالهم وهم فى طريقهم اليه .

ثم يقول الجبرتى : « فلما أصبحوا يوم الاثنين [3] اجتمعوا ببيت القاضى وكذلك اجتمع الكثير من العامة فمنعوهم من الدخول الى بيت القاضى وقفلوا

---

(١) ص - ٣٤٧ جزء ٣ من الجبرتى طبع المطبعة الشرفية .

(٢) ص - ٣٥٠ جزء ٣ من الجبرتى .

(٣) يوم الاثنين ١٣ صفر سنة ١٢٢٠ وهو يوافق ١٣ مايو سنة ١٨٠٥ ميلادية .

بابيه ، وحضر إليهم أيضا سعيد أغا والجماعة ، وركب الجميع وذهبوا الى محمد على وقالوا له : إنا لا نريد هذا الباشا حاكما علينا ولا بد من عزله من الولاية . فقال : ومن تريدونه يكون واليا ؟ قالوا له : لا نرضى إلا بك وتكون واليا علينا بشروطنا لما نتوسمه فيك من العدالة والخير . فامتنع أولا ثم رضى . وأحضروا له كركا وعليه قفطان وقام اليه السيد عمر والشيخ الشرقاوى فألبساه له ، وذلك وقت العصر ونادوا بذلك فى تلك الليلة فى المدينة ، وأرسلوا الى أحمد باشا الخبر[1] .

ولم يرض أحمد باشا بطبيعة الحال هذا التنصيب وهذه التولية من العلماء وأهل الرأى واختيارهم محمدا عليا ، بل قال إنى مولى « من طرف السلطان فلا أعزل بأمر « الفلاحين » ولا أنزل من القلعة إلا بأمر من السلطنة »[2] .

وفى هذه الفترة من النزاع بين محمد على وبين أحمد باشا الوالى المخلوع ، نستطيع أن نستبين فيما دوّنه الجبرتى ظاهرتين لازمتا هذه الفترة كلها من النزاع حتى استقر الأمر لمحمد على :

الظاهرة الأولى : تشدد العلماء عامة ، والسيد عمر مكرم نقيب الأشراف خاصة ، فى أمر تمكين محمد على من الاستيلاء الفعلى على السلطة ، وهذه الفقرة مما كتبه الجبرتى تصور لنا الى حد بعيد هذا التشدد : « ركب السيد عمر أفندى فى قلة من الناس وذهب الى بيت حسن بك أخى طاهر باشا ، وكان هناك عمر بك الذى نزل من القلعة ، فوقع بينه وبين السيد عمر مناقشة فى الكلام طويلة ، ومن جملة ما قال : كيف تعزلون من ولاه السلطان عليكم وقد قال الله تعالى « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » ؟ فقال له : أولو الأمر العلماء وحملة الشريعة والسلطان العادل ، وهذا رجل ظالم وجرت العادة من قديم الزمان أن أهل البلد يعزلون الولاة ، وهذا شىء من زمان حتى الخليفة والسلطان إذا سار فيهم بالجور فانهم يعزلونه ويخلعونه[3] » .

أما الظاهرة الثانية : فهى هياج الشعب وثورته على الوالى المعزول حتى ينزل من القلعة ، وحتى يستطيع محمد على أن يوطد لنفسه الحكم ؛ فقد كان الشعب

---

(١) ص - ٣٥٠ جزء ٣ من الجبرتى .
(٢) ص - المصدر نفسه .
(٣) ص - ٣٥٢ ج ٣ من الجبرتى .

أو « الفلاحين » كما قال أحمد باشا المعزول ، يرى أنه قد اختار لنفسه واليا يجد عنده المحكومون « العدالة والخير » فهم لا يستقر لهم قرار حتى يستطيع هذا الحاكم العادل الخيّر أن يحكم فيهم ، وهم حريصون على ذلك حتى « إن الفقير من العامة كان يبيع ملبوسه أو يستدين ويشترى به سلاحا ، وحضرت عربان كثيرة من نواحى الشرق وغيره »[1] كما يقول الجبرتى .

وقد بلغ من تأييد المصريين لمحمد على فى موقفه هذا ضد الوالى المخلوع أن أرسل هذا الوالى فرمانا إلى بعض أنصاره فى قليوب يقول فيه : إنه « يجب عليهم معاونته صيانة لعرض السلطنة وإقامة لناموسها وناموس الدين ، وإن « الفلاحين . . ! » محاصرونه ومانعون عنه الأكل والشرب . فلما وصل ذلك الفرمان إليهم بقليوب أرسلوه إلى محمد على وأرسله محمد على إلى السيد عمر أفندى النقيب[2] » .

ويقول الجبرتى فى حوادث الشهر نفسه : إن المعلم جرجس الجوهرى وهو من وجوه القبط فى ذلك التاريخ كان من المترددين على بيت السيد عمر مكرم المشاركين له فى تأييد محمد على ، وإنه كان يجتمع بالشيخ الشرقاوى والشيخ الأمير والقاضى فى بيت السيد عمر لتدبير الأمر فى نصرة محمد على والعمل على هزيمة أحمد باشا خورشيد[3] .

وهكذا بقى الحال زمنا بين العلماء والشعب ومحمد على من جانب ، وبين خورشيد باشا الذى تحصّن بالقلعة لا يريد أن يبرحها إلا بأمر من السلطنة كما يقول .

ولكن الجبرتى بعد ذلك يقول : إن أمرا ورد من السلطنة بتولية محمد على وخلع أحمد باشا خورشيد ، ولكنه لم يمتثل ؛ ففى يوم الاثنين ١١ من شهر ربيع الثانى سنة ١٢٢٠[4] وصل الخبر بوصول القابجى إلى قليوب ، وأنه طلع إلى برّفوه

---

(١) ص ـ ٣٥٢ جزء ٣ من الجبرتى .
(٢) ص ـ ٣٥٣ » » »
(٣) ص ـ » » » »
(٤) يوافق ١٠ يوليو سنة ١٨٠٥ ميلادية .

وسار من هناك . فلما أشيع ذلك اجتمع الناس وطوائف العامة ، وخرجوا من آخر الليل وهم بالأسلحة والعدد والطبول إلى خارج باب النصر ووقفوا بالشوارع والسقائف ... الخ [١]

ثم يصف الجبرتى بعد ذلك استقبال القاهريين لمن يحمل إليهم أمر تنصيب محمد على وعزل خورشيد وصفاً شائقاً إلى أن وصل القادمون « الى الأزبكية فنزلوا ببيت محمد على باشا وحضر المشايخ والأعيان وقرءوا المرسوم الذى معه ومضمونه الخطاب لمحمد على باشا والى جُدة سابقاً ووالى مصر حالا النداء من عشرين ربيع أول [٢] حيث رضى بذلك العلماء والرعية ، وأن أحمد باشا معزول عن مصر ، وأن يتوجه إلى الأسكندرية حتى يأتيه الأمر بالتوجه إلى بعض الولايات [٣] » .

فمن هذا التاريخ الذى أورده الجبرتى تبدأ ولاية محمد على الرسمية بأقرار الباب العالى لما اختاره العلماء والشعب .

ولكن خورشيد باشا لم يمتثل أمر السلطنة لعزله وتولية محمد على وقال : « أنا متولّ بخطوط شريفة وأوامر منيفة ولا أنعزل بورقة مثل هذه [٤] » وبقى خورشيد حتى بعد هذا الأمر من السلطنة ممتنعاً تأخذه العزة بالإثم يأبى أن ينزل على رغبة الشعب أو على أمر السلطان ، .

وفى يوم الثلاثاء السادس والعشرين من شهر ربيع الثانى من العام نفسه [٥] « وصل السلحدار الى بولاق وركب من هناك الى المكان الذى أعد له وصحبته مكاتبة الى أحمد باشا المخلوع ومضمونها الأمر بالنزول من القلعة ساعة وصول الجواب اليه من غير تأخير وحضوره الى الأسكندرية ، وجواب آخر الى محمد على

---

(١) ص ٣٥٦ ــ ٣٥٧ ج ٣ من الجبرتى .

(٢) ١٩ يونيو سنة ١٨٠٥ ميلادية .

(٣) ص ٣٥٧ ج ٣ من الجبرتى .

(٤) ص ٣٥٨ « « «

(٥) ٢٥ يوليو سنة ١٨٠٥ ميلادية .

بإبقائه فى القائمقامية حيث ارتضاه الكافة والعلماء ، والوصية بالسلوك والرفق بالرعية (١) . ولم يمتثل خورشيد باشا مرة أخرى لهذا الأمر من السلطنة .

ولكن قوة الشعب والعلماء وإصرارهم على خلع خورشيد باشا وتنصيب محمد على والحصار الذى ضربوه جميعا على خورشيد فى القلعة جعله يسلم ويخرج من هذا العناء فينزل حريمه من القلعة وكثيرين من رجاله فى يوم الاثنين التاسع من شهر جمادى الأولى سنة ١٢٢٠ « ثم نزل الباشا المخلوع من باب الجبل فى رابع ساعة من النهار » فى اليوم الثانى ٢٠ جمادى الأولى سنة ١٢٢٠ (٢)

وهكذا مكن لمحمد على الكبير فى مصر ، وانتصر العلماء « والفلاحون » على خورشيد باشا الأرنؤدى ومن كان معه ، واختار الشعب والياً عليه من رأى عنده « العدالة » فيهم « والخير » لهم . وأقرت السلطنة هذا الشعب على اختياره حيث « ارتضاه الكافة والعامة » حتى سعى فى تنصيبه قبط مصر ، كما رأينا من قبل .

* * *

ونحن نجد بعد هذه السنين الطويلة وبعد هذه النهضة الجبارة التى حققها محمد على لمصر ، وذلك الأمن والأمان والاستقرار الذى شمل البلاد المصرية وملحقاتها جميعا ؛ نجد من هذا كله أكبر دليل على فراسة علماء الأزهر وإخلاصهم وصادق حسهم وحسن تقديرهم حين وقع اختيارهم على محمد على الكبير ليكون والياً على مصر ، وعلى صدق تلك الحاسة الشعبية الموفقة التى أجمعت على تأييد محمد على عندما اختاره العلماء كما أجمعت على إكباره وحبه .

وأعتقد أن خير ما يروى على الناس فى عيد الملك العظيم فاروق شبل إسماعيل ومحمد على الكبير ، هو هذه الصفحات الناصعة المشرقة من تولية محمد على واختيار علماء الأزهر « والفلاحين » له ، لمصلحة الشعب .

أعتقد أن هذه الصفحات الناصعة المشرقة هى خير ما يروى للناس باسم الأزهر فى عيد هذا الملك العظيم فاروق .

---

(١) ص ٣٥٩ - ٣٦٠ جـ ٣ من الجبرتى .

(٢) ص ٣٦١ » » »

الغــزل

فى كامل المــبرد

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبد الغنى اسماعيل
المدرس بكلية اللغة العربية

الغــزل ضربان : ضرب ترى عليه مسحة اللهو ، وسيما المجون ، ولم يقصره صاحبه على غانية ، إنمـا جعل فيه لـكل غانية تراءت له نصيبا ، وكل فتاة لها حظ من الجمال قسما موفورا .

وضرب آخـر تتعرف العفة فى أبياته ، وتـكاد تلمس الـكرم والطهر بين أجزائه ، ينم كل مقطع منه عن عاطفة مشبوبة ، وصبابة صادقة ، وحب عفيف غير مشوب بمـا ينكر معالمه ويفسد جوانبه .

هذان الضربان وّفاهما المبرد حقهما من الاختيار ، وذكر كثيرا من رجالهما .

فقد أفرد الباب الخامس والعشرين والخامس والأربعين للغزل ، ولن ترى فيهما لغيره إلا أن يكون شاهدا على وضع لغـوى ، أو مذهب نحـوى . وفى الباب الذى عقده للغناء ، والذى عقده للترويح عن القارئ ، والذى عقده للتشبيه ، شعر كثير يتعلق بالمـرأة وأوصافها ؛ وبين هـذه الأبواب فصول جـرت فيها محاورات بين شعراء الغـزل تزيد مادة النسيب ، ويزداد بها النقد الأدبى . ومن قبل هـذا وذاك مقطعات لهـا الصدارة فى هذا الباب ، وكان وصف المبرد لهـا صادقا . يقول فى باب الأساليب العربية :

« وممـا يستحسن لتخلصه من التـكلف ، وسـلامته من التزيد ، وبعده من الاستعانة ، قول أبى حية :

رمتنى وسـتر الله بينى وبينها عشية آرام الـكناس رميم

فلو أنها لما رمتني رميتها ولكن عهدي بالنضال قديم
يرى الناس أني قد سلوت وإنني لمرمى أحناء الضلوع سقيم

يقول: رمتني بطرفها وأصابتني بمحاسنها، ولو كنت شابا لرَميت كما رُميت، وفتنت كما فتنت، ولكن قد تطاول عهدي بالشباب.

ثم يقول: « ومما يستحسن لفظه، ويستغرب معناه، ويحمد اختصاره، قول أعرابي:

فمن يك لم يغرَض فإني وناقتي بحجر الى أهل الحمى غرِضان
هوى ناقتي خلفي وقدامي الهوى وإني وإياها لمختلفان
تحن فتبدي ما بها من صبابة وأخفي الذى لولا الأسى لقضاني

وبعد هذا بقليل أبيات تصف الأماني العذبة الروية، وأخرى لجميل تصف الألحاظ وأثر العيون المراض في النفوس، وثالثة لأبي حية يعارض بها جميلا، وموازنة بينهما لأبي العباس، وفي هـذه الفصول يمس المبرد مسا رقيقا أناسا لامسوا المحبين واتصلوا بهم، فمنهم من سفر بينهم، وكان مثلا لظرف الحجاز ونسكه، كابن أبي عتيق، ومنهم من اكتسب بالعشق ورآه تمرا يساط بسويق، كأبي العتاهية الذى يصور لك مذهبه في الحب هذان البيتان:

رمتني بسهم الحب أما قذاذه فتمر وأما نصله فسويق
ألا رب خود عينها من خزيرة وأنيابها الغر الحسان سويق

هذا عرض وجيز للغزل في كامل المبرد، وأنا أحسبه جاوز مختار أبي تمام عددا، وإن كان مختار أبي تمام يفضله لإحاطته بجل المعاني العربية في هذا الباب على كثرتها وتعدد موضوعاتها. ومهما يكن فقد ذكر شعراء كثيرين واختار لكل منهم من رائع شعره في الغزل؛ فابن أبي ربيعة والعرجي والأحوص ونصيب وابن الرقيات وابن حسان والراعي والثقفي وبشار وأبو نواس من الإباحيين.

وجميل وكثير والمجنون وابن ذريح وذو الرمة وابن ثور وأضرابهم من العذريين. وقد خص المبرد شاعرين من هؤلاء فأكثر من الاختيار لهما، وهما ابن أبي ربيعة، وقيس بن معاذ.

وقد أحسن المبرد كل الإحسان فى الاكثار لهذين ؛ فعمر زعيم الإباحيين بلا منازع ، عنه أخذوا ، وبه اقتدوا ، وطفقوا يعارضونه فى أشعارهم ومجالس لهوهم ؛ والمجنون إمام لمن أتى بعده ممن أرداه الهوى ، وتبله الغرام ، فله عذره بل توفيقه وإصابته .

هذا وقد بدا لى وأنا أجيل فكرى فى مختاره أمور أعرضها فى هوادة ويسر مع اعترافى بفضله وأستاذيته .

منها أنه لم يختر إلا لشاعر إسلامى أموى ، أو عباسى على قلة ، فكأن أبا العباس كان يرى أن الغزل لم يكن غرضاً مستقلا إلا فى عهد بنى أمية ، فإن لم يكن يراه فقد مهد باختياره الطريق للقائلين به . وفى الحق الذى لا يسع منصفاً أن يبدى صفحته له ، أن هذه الكثرة لم يعهدها الأدب العربى قبل الأمويين ، بل لم تعهد فى مكة والمدينة من قبل شعراء وهبوا أنفسهم للغزل ، وقضوا دهرهم فى قصف ومجون ، وعمروه بعيشة مفعمة باللهو والانقياد للشهوات .

ومنها أن المبرد كان يسف فى الاختيار أحيانا ليرضى مذهبه النحوى ، وإن نفر منها الذوق ، وأنكرها الأدب ؛ تراها فى غير موضع من كتابه يطنب فى بيانها ويستطرد من أجلها . بل قد تكون القطعة طريفة فى معناها ، سلسة فى أسلوبها ، فيعمد المبرد الى إثقالها بهذه الترهات فتنوء بها وتشوه من جمالها . اقرأ قصيدة عمر :

مَن رسولى الى الثريا بأنى ضقت ذرعاً بهجرها والكتاب

لتعلم ما صنع فيها وحشد حولها من غثاء النحويين . وفى الحق أن المبرد كان وفياً بوعده إذ يقول « والنية أن نشرح ما وقع فيه من الإعراب شرحاً شافياً » ، وفى الحق أن الباحث لا يكون وفياً للبحث العلمى إذا لم يقل إن مختار المبرد فى هذا الباب كثير منه من النوع المتوسط ، ونادر فيه الردىء ندرة الجيد ، وأن أبا العباس أهمل كثيراً من الشعراء المجيدين الذين توجوا الأدب بأكاليل

من روائع شعرهم فى هـذا الباب ، مؤثراً لشعراء خاملين ؛ وقد يذكر شواهد من قصائد فى الذروة العليا من النسب ويتغافل عنها ، فى حين أنه قد يذكر قصائد لا تعد رأسا ولا ذنباً فيه ، من أجل تفسير كلمة غريبة نابية .

هـذا وإنى أدلك على مقطعة من مختاره الجيد تماما للبحث ، ووفاء بحق الأدب ، وأرسل على هامشها كلمة قصيرة تقوم مقام النثر لجليل معناها . قال قيس ابن معاذ :

ولم أر ليلَى بعد موقف ساعة   بيطن مِنى ترمى جمار المحصب
ويبدى الحصا منها إذا قذفت به   من البُرد أطراف البنان المخضب
فأصبحت من ليلى الغـداه كناظر   مع الصبح فى أعقاب نجم مغرب
ألا إنما غادرت يا أم مالك   صدى أينما تذهب به الريح يذهب

أسعده الزمان فلف شمله بليلى فى منى حين كانت ترمى الجمار فتتلاعب بعقله حركاتها اللذيذة وأناملها المخضوبة ، فتراه مذهوب العقل مشترك اللب ، وما هى إلا ساعة من نهار حتى فرق بينهم النفْر ، فراعه ركائبهم مزمومة ، فحدد إليهم الطرف ولا يستطيع الدنو منهم لأن حولهم أحراساً شدادا ؛ فهو كالناظر إلى النجم دانيا لمغيب ، وكان متاع قليل من حبيب راحل ، أورث حزناً طويلا ، ووكل به شقاء لازما ، وأعقب حسرة لا تدفع ، ولوعة لا ترد ، وأبقى شيئا يبيح الأسماع ما يمنع العيون .

إلا إنما غادرت يا أم مالك   صدى أينما تذهب به الريح يذهب

هل ترى فى هذا الكلام غريباً أوساقطاً سوقياً يمجه سمعك وينبو عنه ذوقك؟ ألست ترى له نَوْطة بالقلب وعلقاً بالنفس ودَركا للحاجة ، مع القصد فى المعنى واللفظ ؟ وهو إن أسرف فى البيت الأخير فإن الهوى يخرجه من حد الإسراف إلى حد الاستطراف ، ويجعله فى باب النادر المفرد والبارع المستجاد . وما أجمل هذه المبالغات يتولاها مبدع فيجيد حوكها فيكون لها موقع من القبول باهر ، ومدخل إلى النفوس ساحر .

وسأختم كلمتى بهذه الأبيات التى قالها المجنون حين نمى إليه أن ليلى يغدى بها أو يراح :

كأن القلب ليلة قبل يغدى ... بليلى العامرية أو يراح
قطاة عزها شرك فباتت ... تجاذبه وقد علق الجناح
لها فرخان قد تركا بوكر ... فعشهما تصفقه الرياح
فلا فى الليل نالت ما ترجّى ... ولا بالصبح كان لها براح

تلك التى أطلقت لسان المبرد بأنها أبلغ ما قيل فى خفقان القلب ، وأنها غاية الوصف بالاضطراب . وكيف لا تكون ؟ أليس قلبه كقطاة أنزلها الدهر على حكمه من طلاقة وأمن ، إلى شرك غلبها وأمكنه منها قدر متاح فباتت تكابد وتسعى جهدها فى الخلاص ، وقد عز الخلاص حين حم القضاء فعلق الجناح ؟ ومما زاد فى حزنها وأهاب بهمومها تركها فرخين بمهب الرياح قد افتقدا الكاسب وعجزا عن النهوض .

أسأل الله أن يؤلف بين قلوب المسلمين ، ويشعرها جلال الألفة وجمال المحبة ؛ محبة الفضائل ورياضة النفوس عليها وإيثار الباقيات الصالحات ؛ محبة تنام فيها الأهواء ، وتنحسم بها الأدواء ، وتنقطع العلل والمعاذير ، ولا تبقى إلا النفوس بريئة من أضغانها ، سالكة سبل ربها ، فى إيمان وأمن ورضى ، حتى تلقاه راضية مرضية .

استعطاف بليغ

قال العتبى : أمر عبد الملك بن مروان بقطع مرتبات آل أبى سفيان وجوائزهم ، لموجدة وجدها على خالد بن يزيد بن معاوية بن أبى سفيان .

فدخل عليه عمرو بن عتبة فقال : يا أمير المؤمنين إن أدنى حقك متعب ، وبعضه قادح لنا ، ولنا مع حقك علينا حق عليك باكرام سلفنا لسلفك . فانظر إلينا بالعين التى نظروا بها إليهم ، وضعنا بحيث وضعتنا الرحم منك .

انحلال الزواج

لحضرة الأستاذ صالح بكير
المدرس بكلية أصول الدين

الأصل أن الزواج ينحل بوفاة أحد الزوجين ، وقد ينحل أيضا بالطلاق . وسنتعرض لهذا الأخير فى أهم القوانين القديمة والحديثة . وأما الغيبة فلا تحل الزواج مهما طالت مدتها .

القانون الرومانى : ينحل الزواج فى القانون الرومانى بموت أحد الزوجين أو بفقد الحرية أو الحقوق المدنية ؛ إذ الزواج القانونى كان معتبراً من الحقوق المدنية التى لا يتمتع بها إلا المواطن الرومانى ، كما أن الزواج كان ينحل أيضا بالطلاق . ويلاحظ أن الزواج بلا سلطة كان ينحل كانحلال الزواج بالسلطة . وطريقة ذلك كانت على عكس الشروط المكونة للزواج ؛ فبما أن الزواج عقد يتم بالتراضى فكذلك الطلاق أى يحصل بالرضا المتبادل . وبجانب هذه الطريقة كانت توجد طريقة أخرى خاصة بالزواج بلا سلطة ، وهى أن يهجر أحد الزوجين زوجه Répudiation ويتخلى عنه . وعلة ذلك أن الزواج كان من الحقوق الخاصة .

والثابت تاريخياً أن الدولة كانت لا تتدخل فى مسألة انحلال الزواج ؛ وبناء على ذلك كانت لا توجد حدود للطلاق ، فكان ذلك سببا لشيوعه وانتشاره فى أواخر عصر الجمهورية وأوائل الإمبراطورية ، حتى لقد وصل الحال بالنساء أن يحسبن سنيهن بعدد طلاقهن . وقد ترتب على انتشار الطلاق مساوىء اجتماعية وساعد على قلة النسل . وكان الطلاق يحصل بإقرار شفوى أمام سبعة شهود .

وفى القرن الثانى وجد نظام الهجران أو التخلى بطريق إعلان من الزوج لزوجته ، ولم يوجد تشريع للطلاق إلا فى عصر الأمبراطورية المسيحية التى حاولت

القضاء على الطلاق ولكن بدون أن تقرر مبدأ لذلك ، ويعتبر أول تدخل للدولة فى شؤون الطلاق هو ما قام به ديكايانوس (ولم يكن مسيحياً) حيث قرر بأنه فى حالة عدم كفاءة الزوجين أو فى حالة وجود نزاع بينهما فإن القاضى يقرر لمن تكون له حضانة الأولاد .

وظهر بوضوح فى عهد قسطنطين المسيحى الاتجاه نحو الحد من الطلاق ، كما لا يجوز الهجران إلا فى أحوال معينة . وأكثر ما كان يقع ذلك كان من جانب الزوج ، ولكن المرأة يجوز لها أن تهجر زوجها إذا ارتكب جريمة قتل أو تسميم أو انتهك حرمة القبور . وكانت توجد عقوبات فى غير هذه الأحوال .

أنواع الطلاق فى عصر جوستنيان :

يمتاز هذا العصر بتشريع غريب لمادة الطلاق ، وقد حصره فى أربعة أحوال :

(١) طلاق بالتراضى ، وكان قد قرره ثم ألغاه ثم قرره جوستان الثانى .
(٢) طلاق لأسباب شرعية كعجز الزوج عن إتيان زوجته عجزاً نهائياً ، أو لعقم الزوجة ، ويعتبر هذا الطلاق هجرانا . (٣) طلاق فى معنى الهجران ويعتبر عقاباً لأحد الزوجين الذى ارتكب خطأ نحو زوجه الآخر . (٤) طلاق بلا سبب شرعى وهو هجران لا يستند على سبب شرعى ، ومع ذلك فإنه يقع صحيحاً ويترتب عليه عقاب الذى وقع منه الهجران .

عقوبات الطلاق :

كانت هذه العقوبات فى عصر جوستان وهى : (ا) عقوبة توقع على المخطىء من أحد الزوجين الذى حصل بسببه الطلاق (ب) عقوبة ضد الزوج الذى طلق بلا سبب .

والعقوبات على نوعين : مالية وجسمانية ، تختلف على حسب الظروف والأحوال ، كالاعتقال مؤبدا فى أحد الأديرة .

القانون الجرمانى :

بدأ القانون الجرمانى من حالة قديمة جدا حيث كان الزوج وحده هو الذى له حق هجران زوجته ، ويظهر أن استعمال هذا الحق ما كان يستند على سبب بل على مجرد رغبة الزوج . ولكن فيما بعد خففت حدة هذا الحق ، وذلك بسبب الخوف من التعرض للانتقام من أقارب الزوجة إذا هجرها الزوج بلا سبب

كالزنا مثلا . ثم أخذ الطلاق بالتراضى يحتل مكانه فى القوانين الجرمانية التى وقعت تحت تأثير النفوذ الرومانى ، وذلك بجانب طلاق الهجران الذى يحصل من الزوج إذا كان هذا يستند على سبب صحيح . ولكن الواقع أن الزوجة كان لها أيضا هذا الحق أى لها حق هجران زوجها . ويبدو أن عدم المساواة بين الزوجين فى هذا الحق لم يندثر بعد حيث إن الزوجة التى كانت تهجر زوجها بلا سبب كانت تعرض للعقوبات الجسمانية . بينا أن الزوج لا يتعرض لمثل هذه العقوبات وإنما توقع عليه عقوبات مالية . ويتضح أنه وإن كان الجارى عليه العمل فى إثبات الطلاق هو الكتابة إلا أنه يظهر آن هذا الشكل ليس ضروريا حيث كانت توجد أشكال أخرى غير الكتابة .

القانون الكنسى :

فى وقت ظهور المسيح كان غير منتظر أن تنتشر المسيحية فى أنحاء العالم القديم (اليهود والاغريق والرومان) .

ويلاحظ أن الطلاق كان يتعارض مع هذا الدين الجديد ، وقد كان من المنتظر أن يقضى هذا الدين على الطلاق حيث أن الانجيل وحواريى المسيح يرون الطلاق أمرا غير مقبول وغير مرغوب فيه . وكانوا ينادون بمبدأ عدم قابلية الزواج للانحلال ، فيجب على الزوجين أن يتصالحا ويتسامحا عن الجرم المرتكب لأن مبدأ الاحسان يجبرهما على عدم الانفصال بلا عودة . وأحد الأسس الذى يستند عليه هذا المبدأ هو ما ورد فى عبارة القديس ماتيو (٥ / ٥١ / ٣٢) وكانت موضوع نقاش وجدل بقطع النظر عن مسألة الهجران بسبب الزنا . والرأى الغالب بين رجال الكنيسة هو أن الطلاق (حتى فى حالة الزنا) محرم ، فيجب على الزوج إعادة زوجته الخاطئة متى ندمت وتابت عن ذنبها . ولكن للزوج الحق بل واجب عليه أن يبتعد عن التى تصرّ على خطئها ، كما أنه ليس له الحق فى التزوج . وقد فاز وانتصر هذا المبدأ بواسطة القديس أوُجستان الذى ربطه بالفكرة القائلة بأن الزواج رباط دينى وصورة لاتحاد المسيح بالكنيسة ، فلا يقبل الانحلال لعدم قابلية اتحاد المسيح بالكنيسة للانحلال ، وكان هذا عقيدة سائدة .

وقبل نهاية القرن التاسع لم يكن تشريع الكنيسة ضيقا للغاية (إذ لا عقوبة

على الزوج الذى يتزوج ثانيا) حيث الطلاق كان جاريا استعماله فى عهد الفرنك عن طريق الدولة بدون أن تعترض الكنيسة على ذلك حيث فى نهاية القرن الثامن كانت المراسيم الملكية قررت حالة استثنائية لمبدأ عدم قابلية الزواج للانحلال ؛ لأن هذا المبدأ على شكله المطلق لم يكن قد حاز قبولا بصفة عامة (سنة ٧٨٩ و سنة ٨٧٩) ، وذلك لأجل ملافاة الصعوبات الخطيرة التى أحدثها طلاق لوتير وتونتبرج سنة ٨٥٧ . ولذا كان لزاما أن يتدخل البابا نيقولا الأول حتى يحترم مبدأ عدم قابلية الزواج للانحلال .

وإنه وإن كان الطلاق كان جارى الاستعمال كمخلف عن الآثار القديمة إلا أن الرأى كان للكنيسة ، وبقى المبدأ فى صيغته التى صاغها جراسيان وصاغتها المراسيم .

الانفصال الجسمانى :

إن كلمة الطلاق لم تندثر فى لغة القانون ، ولكنها استعملت فى الدلالة على : (١) انفصال الزوجين فى حالة إلغاء الزواج . (٢) حالة الانفصال الجسمانى الذى كان يصدر بحكم بواسطة القضاء الكنسى وذلك فى أحوال معينة كزنا الزوجة وكسوء المعاشرة من جانب الزوج أو كزندقة أحد الزوجين .

قضاء المحاكم البرلمانية :

نظمت فى عصر الملوكية مسألة الانفصال الجسمانى وتركت أسباب تقديره للقاضى (كسوء المعاملة أو رفض إعطاء ما هو لازم لضروريات الحياة) ومع ذلك فزنا الزوجة كان يؤدى الى الانفصال الجسمانى إذا ادعاه الزوج ، وليس الأمر كذلك بالنسبة لزنا الزوج . وكان تدخل قاضى الدولة أمراً ضروريا فى تحقيق أسباب الانفصال الجسمانى . وقد حل هذا القاضى محل القاضى الكنسى كما فى كثير من الأحوال الأخرى . ويلاحظ أن اعتراف الزوج بالزنا لا يصح أن يكون دليلا وسببا كافيا للحكم بالانفصال الجسمانى إذ قد يكون هذا الاعتراف حيلة للوصول الى الانفصال الاختيارى .

والانفصال الجسمانى لا يفصم عرى الزوجية وإنما يؤدى فقط الى إعفاء الزوجين من واجبات الزوجية التى أهمها المساكنة ، كما يؤدى الى الانفصال فى الأموال ، ومع ذلك فقوامة الزوج تبقى ولا تزول .

السابقات إلى الاسلام :

رسول النساء الى الرسول

لفضيلة الأستاذ كامل محمد عجلان
مدرس بمعهد القاهرة

طابت نفوس أهل (المدينة) بهجرة الرسول اليهم ، وبات الإيمان يعمر قلوب الأنصار والمهاجرين . وجعل الرجال والنساء يتدارسون القرآن ويتفهمون ما نزل منه ، ويتبعون ما يأمر به النبي ، ويوحى بعضهم الى بعض ، ما تلقاه بين يدى رسول الله ، وما سمعه من صحابته ، وما عرفه من الدين وقواعده وأوامره ونواهيه .

وكانت نساء الأنصار يتشوقن فى لهفة الى استماع القرآن ، وتبصّر واجبهن ، وما شرع لهن ، وما يقربهن الى الله زلفى .

وكان كل رجل يعود الى بيته بعد أن يحضر مجلس الرسول ، وقد وعى ماينصح به أهله ، وما يزكى روح بيته وعشيرته من أخت أو أم أو زوج .

وكانت فى (المدينة) مثابةِ الإسلام بعد الهجرة (فتاة) فى ريعان شبابها ومقتبل عمرها ، يزينها جمالها ، ويعلو بها عقلها ، لها بين لداتها منزلة بفضل فصاحتها وسعة إدراكها ، وشدة تلهفها على المعرفة والوقوف جاهدة على ما ينادى به الرسول وما يدعو اليه الإسلام ، من كل ما يهم المسلم والمسلمة ، والأنصارية والمهاجرة .

وكانت كلما تلقت من أدب الدين شيئاً ، زادها إيمانا ورغبة فى أن تقتفى آثار ما يوحى ، وما يتنزل من السماء . . .

وتريد أن تشارك الرجال فى السبق الى المعرفة ، ولكن حياء المرأة وطبيعتها وبعدها عن مجالس الصحابة إذا تحلقوا حول الرسول ، كل ذلك كان يقلقها ، فتهم بزميلاتها وتطلب عندهن حاجتها من العلم والمعرفة فلا تجد إلا بمقدار . وإنها

لتخشى أن تكون درجة النساء فى الجهاد منقصة تنتهى بالمرأة الى منزلة عند الله أقل من الرجل المجاهد فى سبيل الله .

لقد بايعت الرسول مع من بايعن من النساء حين هاجر الى المدينة ، وأسلمت لله وأخلصت لدينه القوى المتين . ولكنها ترى الرجال يجاهدون فى سبيل الله ويمتازون بصلاة الجماعة والجمع والأعياد .

طال بها التفكير ، وهداها عقلها إلى أن ترجع إلى رسول الله .

ولكن كيف السبيل ؟ أتذهب إلى نساء النبى وتسأل إحداهن ؟ . . . لا شفاء لنفسها إلا إذا قابلت رسول الله ، وإنه ليجلس بين أصحابه كلما دعا أمر ، أو نزل وحى ، أو استراح بهم الجهاد ، أو قُضيت الصلاة .

طال بها التفكير ، وأخيرا غلب على حيائها شدة إيمانها وشوقها إلى معرفة مكان المرأة وحظها من الجهاد وأجرها على ما تقدم فى حياتها من كفاح مع السابقين إلى الإسلام .

كاد يَنْقَلِبُ شوقها غيرةً من حرمان المرأة حمل السلاح وحضور الجنائز والحج بعد الحج . وخافت أن يكون فى تلك الميزات ما يحرم المرأة من الفضل ، وما يخلف قدرها فى أجر الآخرة ، إذا فتِّحت أبوابُ الجنة للسابقين الداخلين فى دين الله أفواجا .

وأخيرا لم تجد بدا من الذهاب إلى رسول الله . وما أن علمت أنه أخذ مجلسه بين صحابته يزكيهم ويعلمهم الكتاب ويرشدهم ، حتى انطلقت تدفعها الرغبة ويحفها الحياء ويحوطها الأدب .

راحت (أسماء بنت يزيد الأنصارية) تنصبّ فى سيرها العاجل وخطواتها المؤملة ، وأنفاسها المتلهفة ، وتفكيرها الدائر حول ما تسأل فيه الرسول ، وماذا تعود به إلى نساء المدينة من قول تزفه بشرى إلى النساء المسلمات ، ليكون حديثاً يروى ، وأثرا يذكر ، وأدبا يحتذى ، ودستورا يقتدى به ، وتقف المرأة عند حدوده طيبة النفس ، مستريحة الخاطر ، آمنة على أملها فى الجنة ، وحظها فيما أعد الله للمتقين من جنات عرضها السموات والأرض .

نعم : مضت (أسماء الأنصارية) إلى مجلس تحف به الهيبة . وهنالك قالت :

« يا رسول الله بأبى أنت وأمى ! أنا وافدة النساء إليك . إن الله عز وجل بعثك إلى الرجال والنساء كافة فآمنا بك وبإلهك .

« إنا معشر النساء محصورات مَقْصُورات ، قواعد فى بيوتكم ، وحاملاتُ أولادكم ؛ وإنكم معاشر الرجال فضلتم علينا بالجُمع والجماعة وعيادة المرضى وشهود الجنائز والحج بعد الحج ، وأفضل من ذلك الجهادُ فى سبيل الله .

« وإن أحدكم إذا خرج حاجا أو معتمرا أو مجاهدا ، حفظنا لكم أموالكم ، وغزلنا أثوابكم ، وربينا لكم أولادكم ، أفَنُشَارِكُكُم فى الأجر والخير ؟ » .



كأنى بها قد صمتت فى أدب وانتظار لما يوجه الرسول . وكأنى بالصحابة يعجبون من ذَلاقة لسانها . وكأنى بها تَنَفَّست عن راحة بالها حين سألت عن كل ما يشْغَلُها ويُثْقِل صدرها . .

وهنا التفت النبى الى أصحابه بوجهه كله ، ثم قال :

« هل سمعتم مسألة امرأة قط أحسن من مسألتها فى أمر دينها من هذه ؟ »

فقالوا : يا رسول الله ما ظننا أن امرأة تهتدى إلى مثل هذا .

والتفت النبى إليها وقال : « افهمى أيتها المرأة وأعلمى من خلفك من النساء أن حُسْنَ تبعّل المرأة لزوجها وطلبها مرضاته واتباعها موافقته يَعْدِلُ ذلك كله » .

وتبعل المرأة لزوجها : إطاعتها له ، وحسن أدبها معه ، وقيامها بحقه .

عادت أسماء من عند رسول الله إلى نساء المدينة ، والفرح يملأ جوانحها ، وإنها لتتوسط حلقات زميلاتها وتفصح عن لقائها للنبى . . . وإنها لتروى ما سمعت منه وقت وفادتها ، وحسن استماعه لها ، ورقة جوابه ، ورأفته بها وبمعشر النساء جميعا .

لقد سفرت عند الرسول تبغى بيان أجرهن على جهادهن ، فعلمت أن جهاد المرأة « هو رعاية زوجها » ولها أجر المجاهدين فى سبيل الله . ومن يوم هذه السفارة عرفت بخطيبة العرب ، ورسول النساء إلى الرسول .

وأصبحت (أسماء) مرجع نساء قومها ، يتدبرن رأيها ، ويتبعن ما تنصح به ، وأضحت مرجع كثير من التابعين يَرِدْنَ من أفصاحها وفضل أدبها ما شاء الله وشاءت لها غَيْرتها على حقوق المسلمات وتثقيف المسلمين .

إنها أسماء ، وكم فى الصحابيات من مُثل تستطيع المرأة أن تقتدى بهداها ، وتعرف الهدف الذى حدد لها من أول مطلع التشريع والتوجيه .

إن جهاد المرأة فى منزلها هو الجهاد الأكبر ؛ لأنها تحمل نفسها على الصبر ، وتدفعها إلى العمل فى سبيل الأسرة ، وتردها عن الميل إلى الخروج على طبيعة ما أعدت له وأعد لها الأجر من ورائه .

ومما يدل على قيمة جهاد المرأة فى بيتها ، ويؤكد ما وعد به رسول الله ، قوله الى أحد الرجال ، وقد جاء يوما الى مجلس النبى ، فقال :

« يا رسول الله : إن لى امرأة إذا أتيت مهموماً قامت الى فأخذت بطرف ردائى ومسحت على وجهى وقالت : إن كان همك للدنيا فصرفه الله عنك ، وإن كان همك للآخرة فزادك الله هما » .

فقال الرسول : « إن لها أجر الشهداء ورزقهم » .

* * *

تلك هى بعض مواقف المرأة ، وبعض ما أعد لها من أجر الله ، وما أثارته وافدة النساء .

وليس معنى ذلك أنها لا تشترك فى الجهاد والمحارب إن دعت الظروف وقضت المواقف ، بل إن رسالتها الكبرى فى المنزل قد تسمح لها بأن تشترك فى مد الجيوش المحاربة بما تستطيع من مال وجهد وعمل فى حد طاقتها .

ولا أصدق على ذلك من موقف أسماء الصحابية هذه . فلقد عاشت طويلا بعد الرسول وأدركت موقعة (اليرموك) بين المسلمين والروم ، ولما التحم الجيشان كانت تقوم على إسعاف الجرحى وإمداد المحاربين بالماء ، ولما حمى وطيس الحرب تناولت عمود خيمتها وتقدمت الى صفوف المحاربين وجعلت تضرب حتى قتلت تسعة من المحاربين من جنود الروم أعداء المسلمين .

وتلك القوة من فضل الإيمان فى نفوس السابقات الى الاسلام .

أساليب العيش

بين الأدب والدين

لفضيلة الأستاذ الشيخ إبراهيم أبو الخشب
المدرس بالأزهر

كان فيما تناقل الناس جيلا بعد جيل ، وقبيلا بعد قبيل ، أن الضرورة تبيح المحظورة ، وأن طالب القوت ما تعدَّى. لذلك فهم يرون فى سبيل سدّ العَوَز، ودفع الفاقة ، والابقاء على الحوباء ، أن يحتال الانسان صنوف الحيل ، ويسلك أعنف الطرق ، ليمنع ما عساه أن يودى بنفسه جوعا ، أو يخرّ بِها صرعى فى ميدان تنازع البقاء .

غير أن الفتى يلاقى المنايا　　كالحات ولا يلاقى الهوانا !

وقد عيب على الحريرى هذا اللون من الأدب الذى كان أشبه الأشياء بالكدية والاستجداء ؛ لأن الناشىء لا يأخذ عنه إلا ضعفا وخضوعا ، وذلة وخنوعا ، إذ ينتهى منه إلى مثل قوله :

لبست الخميصة أبغى الخبيصه　　وأنشبت شصى فى كل شيصه
وصيرت وعظى أحبولة　　أريغ القنيص به والقنيصه
وألجأنى الدهر حتى ولجت　　بلطف احتيالى على الليث عيصه

وربما كان أشد اعتدالا ، وأكثر إنصافا ، من يرى أن يتخير الرجل مرامى رحله ، ومواطن سفره ، ومواضع تسآله ، فلا يرجو ماهب ودب ، ولا يقصد كل حاف ومنتعل ، وإنما يعتام مواقع الغيث ، ومنابت الكلأ .

وإذا ابتليت ببذل وجهك سائلا فابذله للمتكرم المفضال
ما اعتاض باذل وجهه بسؤاله عوضا ولو نال الغنى بسؤال

ولم تكن هذه سيئة عصر خاص ، ولا جريرة بيئة خاصة ، ولكنها تركة الضعف الخلقى الذى يتوارثه بناة السوء عن الآباء اللئام ... ثم هى إلى جانب هذا جناية الأدب الرخيص فى شعر « المديح » الذى بوبناه فى أبواب ، ونسقناه فى صحائف ، تأديبا لأحفادنا ، وفلذات أكبادنا . وكننا نود أن يجاروا الممدوح فى عطائه ، والكريم فى سخائه ، فإن اليد العليا خير من اليد السفلى ، إلا أنهم جاروا السائل فى صياغة المدائح ، وصفاقة الصفائح ، وبالغوا فى المقصود ، كأنه المعبود .

وما رأيت - فيما رأيت - من هذا الطراز من الشعر ما يحتفظ فيه القائل بماء وجهه ، أو يترفع بكرامته ، اللهم إلا فى أبيات لبشار بن برد يوجهها الى أحد البرامكة ، زاعما له أنه لا يسأله عن ذلة ، ولا يقصده عن صغار ، بل هى ضرورة تبادل المنافع ، قضت أن يكون بذل فى مقابل بذل ، وعطاء ثمنا لعطاء :

أخالد لم أخبط اليك بذمة سوى أننى عاف وأنت جواد
فإن تعطنى أفرغ عليك مدائحى وإن تأب لم يضرب على سداد
ركابى على حرف وقلبى مشيع ومالى بأرض الباخلين بلاد
إذا أنكرتنى بلدة أو نكرتها خرجت مع البازى علىّ سواد

وللدين الاسلامى أدب أفضل من هذا الأدب وأسمى منه لأنه قام على مبدأ « ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » ، وهذا التكريم فى نظره يقوم على أساس ألا يكون الإنسان عبداً لغير الله ، وألا تصل به الحاجة والفقر إلى درجة أن يجعل وجهه فى مواطىء الأقدام « والناس كلهم لآدم وآدم من تراب لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى » .

وإذا كان سبحانه قد فضل قوما على قوم فى الرزق ، ففى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم ، ولو أن هذا الحق بذل عن طواعية واختيار ، لما كان هنالك سائل ولا محروم ، وقاتل الله الشح :

ولو سئل الناس التراب لأوشكوا   إذا قيل هاتوا أن يملوا ويمنعوا

ومع هذا فإنه لم يكل الفقير الى حقوق غنى الأغنياء، ولكنه حث على السعى، ورغب فى الزهادة، وكره أن يعيش المرء عالة على أخيه، وعلمنا أن طرق أبواب الرزق من أفضل العبادات، وأحسن القرب. على أنه مما استقر فى الطبائع أن الحاجة ما دخلت فى مودة إلا أفسدتها، ولا معاشرة إلا نغصتها، ولا جماعة إلا فرقتها:

إن من أحوجك الدهر اليه   وتعلقت به هُنت عليه
ليس يصفو ود من آخيته   إن تطلعت لشىء فى يديه

وقد جاء فى الحديث « لأن يأخذ أحدكم حبله فيحتطب فيبيع خير له من أن يسأل الناس أعطوه أم منعوه ». وهو لا يقصد — بالطبع — التنصيص على الاحتطاب خاصة، وإنما هو أسلوب من أساليب العيش الشريف، والحياة المحترمة. وهيهات أن يولى المسلم وجهه إلى عمل من الأعمال قاصداً الكفاف، ودفع المسغبة معتمداً على المولى جل جلاله، ثم يخيب مسعاه، أو لا يتحقق رجاؤه، وقوله صلى الله عليه وسلم « لو أنكم توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطانا » يرسم صورة واضحة للأعمال المقرونة بنجاح المسعى، وبلوغ الغاية، « فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور ».

ولم تضق الحياة بنا ولكن   زحام السوء ضيّقها مجالا
ولم تقتل براحتها بنيها   ولكن سابقوا الموت اقتتالا
ولو زاد الحياة الناس سعياً   وإخلاصاً لزادتهم جمالا

نعم هو زحام السوء ضيق رقعتها مع اتساعها، وصيرها كأحبولة الصياد فى نظر طلاب الأقوات، ورواد الرزق، وهكذا:

لو أنصف الناس استراح القاضى   وبات كل عن أخيه راضى

وقد تذبذب بنا الزمن إلى درجة أن أصبح فينا من يقول: « لو أنصف القاضى...! » والواقع أنها عيوب اجتماعية يحمل أوزارها الكبار والصغار.

عيد الانسانية

لفضيلة الأستاذ الألمعى الشيخ محمد عبد المنعم خفاجى
المدرس بالأزهر

يوم الميلاد النبوى الكريم ، عيدُ الإسلام والسلام ، عيد الإنسانية والحضارة ، عيد الحق والحرية ، والإخاء والمساواة .

يوم خالد فى تاريخ البشرية الرهيب : كان فاصلا بين النور والظلام ، والفوضى والنظام ، والحرب والسلام ، والشقاق والوئام ؛ كان فارقا بين حياتين : حياة الاستعباد ، والحرية ؛ وحداً بين عهدين : عهدى الوحشية ، والمدنية .

وُلد محمد صلوات الله عليه ، فوُلد معه النور والهدى ، والحق والخير ، والرحمة والإيثار ، والفضيلة والشرف ، والعزة والكرامة .

وما أظن الدين يعترف بما نسميه نحن مصانعة أو مداراة ، ويسميه قانون الأخلاق تضاؤلا ونزولا . على أنك تعذر من تلجئه الضرورة ، وتسوقه الحاجة . أما هؤلاء الذين ليسوا بحاجة إلى هذا كله فما عذرهم أمام الله والتاريخ ؟ أعذرهم أن فى ذلك الرقى والجاه ، والتقدم والعلو ، والغنى واليسار ، والتمكين لدى الرؤساء أو المسئولين ؟ وهو على حد قول القائل :

ما يحرز المرء من أطرافه طرفا إلا تخوَّنه النقصان من طرف !

والكمال بالأخلاق لا بالأرزاق ، وبالأدب لا بالحسب والنسب . وخير ما يكون المؤمن أن يكون كما قال القرآن « لا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم » والبطولة لم تكن إلا فى الرجولة :

والرجل الضرب من تساوى فى نفسه الصعب والزلول
فهو إذا انحط أو تعالى لا التيه منه ولا الخمول
كالسيف لا زينه التحلى يوما ، ولا عيبه الفلول !

وشبّ محمد صلى الله عليه وسلم مفطوراً على أسمى الفضائل والمواهب والأخلاق، التى تعتبر تراثا خالداً تعتز به الإنسانية وينشده الناس .

وبعث محمد إلى الناس كافة، لحمل الرسالة، وأدّى الأمانة، ونشر السلام، وجعل كلمة الله هى العليا، وكلمة الذين كفروا هى السفلى، وقضى على من كانوا يعملون جاهدين ليطفئوا نور الله ودين الله .

ومات صلى الله عليه وسلم بعد أن ترك وراءه ديناً عاما آمن به العالم، وكتابا سماويا رددته الأجيال والقرون، ودولة خضع لها الشرق والغرب، تأتمر بأمر الله، وتسير على حدود الله، وتؤمن بدين الله، وكتابه الحكيم، ورسوله العظيم .

محمد صلوات الله عليه نشيد الإنسانية الخالد، وأمل الحضارة الباسم، وأوّل داع إلى أعظم دين، وأنبل مُثُل، وأكرم غايات، وأسمى أهداف .

محمد صلوات الله عليه هو نبى الإسلام، ورسول السلام، وأعظم إنسان تعتز به الحياة والناس، فى شتى العصور .

محمد صلوات الله عليه هو أملنا فى الماضى والحاضر والمستقبل، وقدوتنا فى الحق والإصلاح والخير، ومثلنا الأعلى فى كل ميدان، وكل فكرة أو عمل .

يا رسول الله ! بارك خطوات أمتك الإسلامية فى الدفاع عن حرياتها وعزتها وكرامتها؛ وبارك ملاذ الشرق والعروبة والإسلام؛ فاروق المعظم، حفظه الله . وبارك هذا المعهد الإسلامى العظيم : الأزهر، الذى يعمل لنشر دينك، وإحياء سنتك؛ وبارك هذا العهد الجديد السعيد، فى تاريخ الأزهر والإسلام، عهد حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر الإمام الشيخ محمد مأمون الشناوى؛ أيده الله، فى ظل الفاروق المحبوب .

بسم الله الرحمن الرحيم

الايمان بما فوق الطبيعة

أساس لبقاء النوع الإنسانى وترقيه

اشتدت الفلسفة المادية فى القرن الماضى فى نشر أصولها ، معتمدة على ما كشفته العلوم الطبيعية من مساتير القوى الكونية ، ذهابا من قادتها إلى أن تجرد العقول من كل علاقة بما فوق الطبيعة يفضى إلى نضج القوى العقلية الإنسانية ، ويكون أثر ذلك على الأخلاق والمعاملات والعلاقات الاجتماعية رقيا لا تشوبه شائبة ، وكمالا علميا وعمليا يؤدى الإنسانية إلى عهدها الذهبى المنتظر ، دون أن ترتطم بمعطلات اعتقادية تحول بينها وبين الحقائق الكونية .

وقد بذل أشياع هذه الفلسفة جهد الجبابرة فى نشر مبادئهم ، فأكثروا من المحاضرات الفلسفية المؤيدة لمذهبهم ، وعمدوا إلى طبع المؤلفات التى تؤيد مزاعمهم طبعات رخيصة الثمن لتنتشر بين الطبقات الدنيا من الشعوب ، حتى تم لهم ما أرادوا من زعزعة عقائد العامة فى شئون ما فوق الطبيعة ، وأصبح الاستخفاف بالمقررات الدينية ، واعتبار قادتها وممثليها من العاملين على صد النفوس عن الاشتراك فى بناء العالم الجديد الخالص من شوائب الرجعية ؛ فكانت ثمرات هذه الجهود التى بُذلت ، انتشار روح التمرد فى الطبقات العاملة ، واستهتار أصحاب الأموال فى جمع الثراوت ، وإنفاقها فى اللهو والقصف ، والتفنن فى ضروب اللذات ؛ ونشأت من هذا الوضع مذاهب متطرفة بين العمال وما فى حكمهم ، تذرعت بكل صنوف الوسائل المدمرة للوصول إلى نظم اجتماعية لو تحققت لكانت وبالا وبيلا على المجتمعات المتمدنة ؛ بل تألفت أصول اجتماعية اعتبرت مُثلا عُليا ، على حين أنها حالات استثنائية تولدها الضرورة ثم تزول بزوالها .

كل هذا لا يُظهر بوضوح تأثير المذهب المادى فى إنتاجه ، ولكن هذا

التأثير يظهر فى تدهور الآداب العامة ، وفى ارتخاء الرُّبُط الاجتماعية إلى حد أن اعتبرت تلك الرُّبُط فى بعض الجماعات من بقايا العصور الهمجية التى يجب العمل على حلها .

أما تدهور الآداب فى القرنين الأخيرين فلست فى حاجة إلى بيان أطواره ؛ فقد أصبح كل ما كان يعتقده الناس إفراطا أو تفريطا ، أو تجاوزا لحدود الأخلاق العالية ، يعتبر من بقايا الوساوس العتيقة . فى البيت أصبح الأولاد يشبون على عصيان آبائهم وأمهاتهم ، مستلهمين هذه الحالة عنهم ، فقد نشأ التدافع أول الأمر بينهم ، فالأولون ببقية من الغيرة أرادوا أن يحدوا من حرية زوجاتهم تحقيقا لمبدأ القوامة الفطرية عليهن ، فنشأت مشادات بين الفريقين ، انتهت بخذلان الرجال ، وكان خذلانهم بعاملين : أحدهما تسممهم بالمبادىء المادية ، وثانيهما بسيادة الروح الإباحية فى الخارج ، فأقروا بخطة خسف ، وانتهى أمرهم بالتسليم بدون قيد ولا شرط ؛ فكيف فى بيئة مثل هذه أن تُحمل النابتة على اتباع طريقة أدبية ، وما فائدتها فى بيئة هى مثال الانحلال والتدهور ؟

على هذا النحو عمت الفوضى البيوتات ، وتعدتها إلى دور الدراسات ، حتى أصبحت مهمة التعليم عبئا ثقيلا على القائمين بها .

أما من ناحية الربط الاجتماعية فقد أصابها من الارتخاء ما وصل إلى أشد درجات الخطورة . ومظاهر هذه الخطورة قيام الاعتصابات لأوهى الأسباب ؛ فبينا يكون دولاب الأعمال على أكمل ما يكون من النظام إذا ببادرة اعتصاب فى بعض فئام العمال ، لا يلبث أن يعم جميع الذين يعملون مثل عملهم فى جميع أرجاء المملكة ، فيصبح الناس إما لا يجدون خبزا يأكلونه ، أو نورا يستضيئون به ، أو وسائل نقل تقرب بين مسافاتهم ، وتحمل تجاراتهم ، أو وقودا يدير آلاتهم ، ويدفع عادية الزمهرير عنهم . وكلما استرضيت طائفة خلفتها أخرى ، بغير مبالاة ، بما يستتبع هذه الاضرابات من وقف الأعمال ، وإرباك الأحوال ، وسقوط الوزارات ؛ وأكثر ذلك لا عن ضرورة ماسة ، ولكن تطلعا لولاية الحكم ، وتربصا للفرص لنيل بعض المآرب المادية ، وقد أصبح هذا الداء مستشريا إلى حد أنها لا تكاد تفرغ الجرائد من حوادث اعتصاب ، حتى تشتغل بغيره ، وهلم جرا .

وأشد خطرا على الانسانية من هـذا كله موت عاطفة التراحم بين الجماعات المختلفـة ، والذهاب فى الخصومات الى أبعد حدود القسوة والغشمرية ؛ فالأمم المتجاورة المتوحدة فى ديانتها وثقافتها ومدنيتها ، قد تتخالف فى سياساتها ومطامعها ، فبدلا من أن تعملا على تقريب وجهتى نظرهما ، وتجهدا فى وجدان تسوية عادلة بين مصالحهما ، تعمل كل منهما على حرمان جارتها من حاجتها ، والاستئثار بكل الفوائد دونها ، فلا تجد الموتورة منهما إلا اللجوء الى القوة فى الحصول على رغيبتها ، فتقع بينهما حرب ، والحرب وسيلة وحشـية ، فهى تناحرٌ لا يصح وقوعه بين الأمم التى تعقل اليوم نتائجها من الخراب والدمار . وقد تجر هذه الحرب الدول التى تمت الى كل من المتخاصمين بسبب ، فتنقلب الى مجزرة عامة بين أمم تملك كل منها من آلات التدمير ما لا يصح استخدامه لاهلاك بعضها بعضا .

حدث كل هذا فى كل أدوار الانتقالات الاجتماعية ، حيث لم تـكن وسائل الاقناع مغنية ، وبقى إلى اليوم وفى العالم محـكمة دولية للعدل ! وفى هـذا دليـل محسوس على أن الأمم بعـد أن بلغت هـذه الغايات البعيدة من فهم الحقـوق الطبيعية ، وذاقت ثمرات السلام فى النواحى العلمية والمدنية ، لا تزال تتغلب عليها النزعة الوحشية ، بل تفاقم شر هذه النزعة فيها إلى حد أنها تندفع إلى الخضوع لها ، وهى تعلم أن نتيجة ذلك إهلاك النوع الانسانى ، وتجريده من كل ما كسبه من ثمرات المدنية والاكتشافات العلمية .

كل هذا أثر الفلسفة المـادية ، لأنه يتماشى ومبادئها من تنازع الحياة ، وبقاء الأصلح ، وقيام الأقوياء على أنقاض الضعفاء ، وما افتتنت به العقول من أمثال هذه الـكلمات الفارغة التى لو بقيت ، لأدت النوع البشرى إلى عهد من الوحشية لا يمتاز عما كان عليه النوع الانسانى فى أول عهده بالوجود .

هنا يشعر القارىء بأن النوع الانسانى ينقصه لأجل أن يحيا حياة طيبة ، ويزداد علما ورقيا إلى ما لا حد له يقف عنده ، إلى عامل أدبى يحد من نزعته الوحشية ، ويصده عن الانقياد لطبيعته الحيوانية . عامل يلائم ما متع به من روح علـوى ينزع به إلى السمو الخلقى ، والرقى الأدبى ، والترفع عن التوحش الحيوانى . هذا العامل الأدبى هو ما حمله الدين إليـه من الاعتقاد بعالم ما فـوق الطبيعة . والذى يسهل على الدين مهمته العظيمة ، ويسوغ له الإدمان على الدعوة إليه ، أن الانسان

قد أدرك وجود هـذا العالم العلوى من يوم ظهوره على الأرض ، ولا يزال على ما كان عليه إلى اليوم ، بل زاد شعورا به وشوقا إلى الاستزادة من معرفته .

نعم إن الانسان أطلق العنان لخيالاته فى إدراكه لذلك العالم ، فما ترك شيئا مما يتصوره من كائنات روحانيـة ، وشؤون علوية ، إلا ألحقـه به تحت أسماء واختصاصات شتى ، تخالفت الشعوب فيها تخالفا كبيرا ؛ ولـكنها اتفقت جميعها على أن ذلك العالم العالى هو مصدر القوى العامة ، منه تشع على جميع الكائنات ، وإليه يرجع تدبيرها وتقويمها ، وأن العالم الظاهر للحواس منفعل له انفعال الجسم للروح ، والمـادة للقوى التى تدبرها .

ولمـا اتسعت للإنسان آفاق المعارف الطبيعية ، زاد تعلقه بذلك العالم واعتقد أن فيه مُثلها العليا وغاياتها البعيدة .

وجاءت الأديان فأيدت الشعـور الفطرى به لدى الانسان ، وأزالت عنـه ما ألحقته به طفولة الأمم من الأباطيل والخرافات ، وجعلته مصدر أمر الله ونهيه ، ومتنزل قدرته التى تمد الكائنات بمـا يربّها ويكملها ، ومثوى الأرواح والملائكة ، وفيه ما لا عين رأت ولا أذن سمعت من المشاهد العلوية ، والأنوار القدسية .

فالنفوس البشرية الممتعة بالعقل والإدراك ، والشعور الحاد بالجمال والقبح ، إذا نالها البشَـم من معاناة الحياة الأرضية ، وأصابها الرَهق من مغالبـة حوادثهـا ، وشعرت بالهلع والوحشة من تعاقب الـكوارث عليها ، لجأت إلى ذلك العـالم المحجوب عنها ، فاستمدت منه القوة والصبر على تـكاليف الحياة ، واستلهمت الروح الذى يشع منه المبادىء العليا لمعالجة العوادى التى تحيط بها من كل جانب ، فتشعر بنفحة مشجعة ، وطمأنينة مثبتة ، قد لا تبالى بعدها إذا لقيت حتفها ، لأنها تعتقد أنها ستنتقل بعد هذا الجهاد الموبق الى ذلك العالم العالى ، لتعيش فيه مع الأرواح العالية ، والنفوس الطاهرة .

لا جرم أن الشعور بوجود ذلك العالم يجعل للحياة الانسانية ، وللعنت الذى يصيب الانسان فيها معنى ساميا ، وعاقبـة معقولة ، ويحمله على ملازمة الخـلال النبيلة ، والمبادىء القويمة ، خلافا لمن لا يعتقد بوجوده ؛ فانه إذا تجهمت له الحياة فـكر فى ارتـكاب الجرائم ، واقتراف المآثم ، ولم يبال بشىء غير نفسه ؛ فإذا عمت

هذه العماية حتى صارت عقيدة لأمة ، فانها تتجه إلى طريق الشر ، فلا تحترم عهداً ، ولا تلتزم ميثاقا ، فاذا قاتلت وانتصرت ، نشرت الرعب فى النفوس ، وأشاعت الظلم فى الأحكام ، وما تزال ترتكب منكرات تليها منكرات ، حتى تصادفها قوة أكبر من قوتها فتلحقها بالأذلّين .

فإذا استشرى هذا الداء الإلحادى ، واعتنقته الأمم ، وأثمر العلم من الأسلحة المدمرة ما يكون استعماله وبالا على الحضارة الانسانية ، فإن تلك الأمم لا تتأخر عن استخدامه فتهلك الحرث والنسل ، وينتهى العالم بعد هذا الدور من التناحر إلى حالة من البؤس لا يرضاها أشد الناس عداوة لبنى نوعه .

ولقد كانت المبادىء الالحادية قد قويت شوكتها فى القرنين الثامن والتاسع عشر فكان ثمرة ذلك حدوث حربين عالميتين ، لم تراع فيهما المرحمة الإنسانية ، ولا العدالة العرفية ، فضرب المتحاربون المدن بالقنابل الضخمة غير مبالين إن كانوا يقتلون بها جنوداً فى خطوط النار ، أم الأسر الوادعة المكتظة بالنساء والولدان ، والهرمى والزمنى منهم ، فأبادوا ملايين من النفوس البريئة رغما من التمدن المادى الذى أفاده العلم للناس ، ولم يغن بعض ما كانت تغنيه العقيدة الدينية فى مثل هذه الأدوار الحرجة .

ولو اتفق اختراع قنابل أشد فتكا كالقنابل الذرية ، وحدثت حرب جديدة ، لتراشق بها الخصوم ، وإذ ذاك تتصوح زهرة المدنية ، ويخبو نورها ، وترتكس الجماعات البشرية الى أسوأ مما كانت عليه أيام جاهليتها الأولى .

وليس بعد هذه التجارب المحسوسة دليل على أن العلم الطبيعى لا أثر له فى تهذيب النفسية الإنسانية ، ورفع كابوس الوحشية عنها ، اللهم إلا ظاهراً من التقاليد الأدبية يستخدمها الناس فى مقابلاتهم ومعاملاتهم ، وقلوبهم من الإنسانية الفاضلة ، والكمالات الخلقية هواء .

هنا يعترض علينا معترض فيقول : إن ما ذكرته عن الوحشية المستكنة فى نفوس المتمدنين ، رغما عن بلوغهم الغايات البعيدة فى العلوم الطبيعية ، صحيح لا يمكن التمارى فيه ، ولكن تاريخ الجماعات فى أشد أدوار حماستها الدينية لم تخل

من قساوات أسوأ مظهراً ، وأفظع مخبراً مما ذكرت . ألم يذبحوا مخالفيهم فى الدين ذبح الأغنام ، ألم يلقوهم جماعات فى النيران ، ألم يرموا بهم من شواهق الجبال ، لا لشىء غير أنهم لا يدينون بدينهم ، ولا يتعبدون بكتابهم ؟ .

نقول : نعم ، حدث كل ذلك من الجانبين ، ونحن لم نقل إن العقائد وحدها تبلّغ الجماعات الى المُثل العليا من الكمال الصحيح ، دون أن تستضىء عقولها بأنوار المعارف الكونية ، وتتشبع نفوسها بحكمة الدين الحق ؛ لذلك جاء الإسلام داعياً إليهما معاً ، فقال تعالى : « وقل رب زدنى علما » ، حتى أنه حصر كمال العلم بالله والوقوف عند حدوده فى العلماء ، فقال : « إنما يخشى الله من عباده العلماء » . ودعا النبى صلى الله عليه وسلم الى طلب العلم ، وحث عليه فى أقوال أثرت عنه تعتبر مُثلا عليا فى التحضيض عليه ؛ من ذلك قوله : « يوزن مداد العلماء بدماء الشهداء فيرجح عليها » وقوله : « لموت عالم أشد على الله من موت قبيلة » ، وقوله : « اطلب العلم ولو بالصين » .

فالجاهل إذا تدين ولم يجد من تربيته البيتية ، ولا من ثقافته الحكمية ، رادعاً يردعه عن الشطط ، تخيل أن فى التنكيل بأعداء دينه ، والعدوان عليهم ، وسائل تحظيه من الله بأجزل المثوبات .

ومن الأمثلة التى نسوقها لبيان سمو الإسلام ، أن رجالا دخلوا فيه وآباؤهم كانوا لا يزالون على كفرهم ، فسألوا النبى صلى الله عليه وسلم : هل يقتلونهم إذا صادفوهم فى كتائب الأعداء ؟ فنهاهم عن ذلك احتراما لحرمة الأبوة ، بل نهاهم أن يقتلوا من أعدائهم الطاعنين فى السن ، والمصابين بمختلف العاهات ، والنساء والولدان وخدم المقاتلين ، ورجال الدين ، وحظر عليهم حرق دورهم ، وتقطيع أشجارهم ، وطلب إليهم أن لا يقتلوا أسراهم ، وأن يحسنوا إليهم ، وأن لا يقتلوا المستسلمين ، فاتفق أن أحد أصحاب النبى قتل مستسلماً ، فغضب النبى صلى الله عليه وسلم من ذلك وقال له : « إنى أبرأ الى الله من عملك » فقال إنه استسلم والسيف يهوى على رأسه تفاديا من القتل . فأجابه النبى : وهل كشفت عن قلبه ؟ إننا أمرنا أن نأخذ بالظاهر .

كل هذا يدل على أن الإنسان لا يمكنه أن يبلغ درجة الكمال النفسى إلا بالدين مقترنا بالعلم ، وليس بأحدهما دون الآخر . بهذا التحديد العظيم فى آخر أدوار الانسانية جاء الاسلام ، فجعل الدين والعلم توأمين متلازمين ، وعاملين متكافلين ، وضرب أهله فى الأرض متشبعين بهذه الحقيقة ، فلم يجدوا علما إلا تدارسوه ، ولا فلسفة إلا اطلعوا عليها ، عاملين بقول نبيهم صلى الله عليه وسلم : « خذوا الحكمة ولا تبال من أى وعاء خرجت » و« خذ الحكمة ولو من مشرك » ، فاستقدموا العلماء والحكماء من كل قطر ، وتركوهم على دينهم ، وأجروا عليهم الأرزاق بسخاء لم يسمع بمثله فى أمة قبلهم ، وكلفوهم ترجمة كتب العلم والحكمة ، وأكبوا عليها درسا ونقدا ، وتحريراً وتقريراً ، ، حتى بلغوا الغاية منها ، وزادوا عليها زيادات لا تزال محل إعجاب أئمة التاريخ الى اليوم .

ولو كان دينهم لم يحضهم على طلب العلم هذا التحضيض الذى لم يؤثر عن أية أمة سواهم ، لبقوا على جهالتهم ، فانقلبت فتوحاتهم شرا عليهم وعلى البشرية ، ولبادوا كما بادت الأمم المتعسفة قبلهم ، ولما بقى لهم ولدينهم الأثر الذى بقى الى اليوم وسيبقى على الدهر .

فعلى المسلمين أن يدرسوا هذه الناحية من تاريخهم ، فهى التى ستجعل من دينهم مفزعا للعالم كله فى مستقبل ليس بعيدا عنا ، وقد بدت بوادره فى الأفق ؛ فهلم لتحقيق هذا العهد الكريم ، عهد الاسلام الحق ، دين الإنسانية أجمع .

أما وقد بلغنا الى هذا المدى ، فالذى بقى أن نقوله إن المدنية القائمة أصبحت مهددة بالزوال من ناحية العلم ، إذا لم تسعف بالعقائد الصحيحة . وقد أكرم الله هذا النوع الكريم فكشف له فى هذا الزمان الأخير من البينات المحسوسة ، على شرطه فى دراسة العلوم الكونية ، ما يوجد له إيماناً راسخا بما فوق الطبيعة ، وببقاء الأرواح بعد تركها للأجساد ، بما لم يدع شكا لمرتاب ، ولا حجة لمتردد : « وفى الأرض آيات للموقنين ، وفى أنفسكم ، أفلا تبصرون ؟ » .

محمد فريد وجدى

رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه

لفضيلة الأستاذ الشيخ طه محمد الساكت
المدرس بالأزهر

عن أنس رضى الله عنه قال: غاب عمى أنسُ بنُ النضْر عن قتال بدر، فقال: يا رسول الله، غبتُ عن أول قتال قاتلتَ المشركين، لئنِ اللهُ أشهدَنى قتال المشركين ليَرينَّ الله ما أصنع. فلما كان يومُ أُحد وانكشف المسلمون، قال: اللهم إنى أعتذر إليك مما صنع هؤلاء — يعنى أصحابه — وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء — يعنى المشركين — ثم تقدم، فاستقبله سعد بن معاذ فقال: ياسعدُ بن معاذ: الجنة، ورب النضر! إنى أجد ريحها من دون أُحد!. قال سعد: فما استطعت يارسول الله ما صنع. قال أنس: فوجدنا به بضعا وثمانين ضربة بالسيف، أو طعنة برمح، أو رمية بسهم؛ ووجدناه قد قُتل، وقد مَثّل به المشركون، فما عرفه أحد إلا أخته ببنانه. قال أنس: كنا نُرى — أو نظن — أن هذه الآية نزلت فيه وفى أشباهه من المؤمنين «رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه» إلى آخر الآية؛ وقال: إن أخته — وهى تسمى الربيِّع — كسرت ثنية امرأة، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقصاص؛ فقال أنس: يا رسول الله، والذى بعثك بالحق لا تكسر ثنيتها، فرضوا بالأرش وتركوا القصاص. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره» رواه الشيخان.

البنان: الأصابع، وقيل أطرافها، وهى الأنامل، واحدتها بنانة. والثنية: واحدة ثنايا الفم، وهن أربع فى مقدمه: ثنتان من فوق، وثنتان من أسفل. وأرش الجراحات: ديتها، وجمعه أروش. وإبرار القسم: تصديقه وعدم تحنيثه.

* * *

إذا صح للأمم الحديثة أن تفخر بما تسميه فى نظام جنديتها بالكتائب الفدائية ، أو فرق الموت ، فإن الإسلام أولى بذلك منهم وأحق . ونبادر بأنا لا نذكر هذه النظم الحديثة بجانب النظم الإسلامية ، إلا كما نذكر الشقاء بجانب السعادة ، والضلالة بجانب الهداية ، والموت بجانب الحياة ؛ والضد كما يقول علماء النفس أقرب خطورا بالبال إلى ضده . وإلا فأين من يلقى بيــده إلى التهلكة فى سبيل الاستعمار والغلب والجشع ، واستلاب الأموال والأعراض ، والبطش بالضعفاء والمساكين — ممن يرحب بالموت فى سبيل الله وإعلاء كلمته ، وإحقاق الحق ونصرته ؟ وأين من يقذف بجسمه طعمة للحرب على غرة ، انتصارا لعقيدة آثمة ، أو إجابة لثورة جامحة — ممن يبذل نفسه مطمئنة راضية ، ابتغاء مرضاة ربه ، وشوقا إلى نعيمه وقربه ؟ « للذين استجابوا لربهم الحسنى ، والذين لم يستجيبوا له لو أن لهم ما فى الأرض جميعا ومثله معه لافتدوا به » .

كان الإسلام غنياً بهؤلاء الفدائيين ، بل كان كل أتباعه مثلا فى تفديته بالنفس والنفيس ـ على درجات بينهم ـ إذا مُست دعوة الحق ، أو أهينت كلمة الصدق ، أو انتهكت حرمة العهد والذمام ، أو فصمت عروة الحلف والوئام .

وهذا أنس بن النضر رضى الله عنه ، أحد السابقين الأولين ، والأبطال الفدائيين ، يكبر عليه أن يغيب قهرا عن غزوة بدر ، أول غزوة أسس عليها مجد الإسلام ، وشهدها النبى عليه الصلاة والسلام ، فيتمنى على الله أن يعوضه خيراً مما ضاع منه ، وأن يشهده موقعة يبلى فيها بلاء حسناً ، ويُرى ربه فيها — وهو أعلم به — أنه وفىّ العهد ، صادق الوعد ، قد باع نفسه وما له لله ، لا يبتغى شيئاً غير فضله ورضاه ! ثم يجلس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيذكر له أمنيته ، ويوثّق لديه عهده ؛ حتى إذا جاءت غزوة أحد ، وما أدراك ما غزوة أحد؟ أصيب فيها الغزاة ببعض ما كسبوا ، وأثابهم الله غما بغم بما انحرفوا ، وكادت الدائرة تدور عليهم بما تعجلوا ، ولولا فضل الله عليهم ورحمته لذهبت ريحهم ، وامّحت آثارهم .

جاءت هـذه الغزوة ، فصدق المسلمون حملتهم فى معمعان الحرب ، وأثخنوا أهـــل الشرك تقتيلا وتنكيلا ، حتى ولوا مدبرين خاسرين ؛ هنالك برقت لهم غنائم المشركين عن كثب ، فامتـدت إليها عيونهم ، وتطلعت لهـا نفوسهم ، فنسوا أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بألا يبرحوا مكانهم ، ولو كانت العاقبة لهم ؛ وهنا لك أحاط المشركون بهم وقـد رأوهم اشتغلوا بدنياهم عن آخرتهم ، فأعملوا فيهم سيوفهم حتى كادوا يظفرون بهم ! .

وبينا الجيش منكشف مضطرب ، قـد تمزقت صفوفه ، وانفرط عقـده — جاء الفدائى الوفى أنس بن النضر رضى الله عنه ، يفى بنذره ، ويبر بقسمه ، ويستقبل الموت استقبالا رهيبا لم يعرف التـاريخ مثله ، حتى إذا لقى سعد بن معاذ منهزما وهو مَن هو شجاعة وثبات جأش ، صاح به : واهاً لريح الجنة إنى لأجد ريحهـا ورب النضر عنـد هـذا الجبل ! [١] وما هى إلا أنفاس معدودة حتى دخـل الجنة فرحا مستبشرا « ولا تحسبنّ الذين قُتلوا فى سبيل الله أمواتا ، بل أحياء عند ربهم يرزقون . فرحـين بمـا آتاهم الله من فضله ، ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم أن لا خوف عليهم ولا هم يحزنون » .

قال سعد وهو يصف للرسول صلى الله عليه وسلم إقدام أنس وحسن بلائه : والله ما استطعت يا رسول الله على عظيم بلائى أن أصنع صنيعه أو أن أبلى بلاءه ! وقال ابن أخيه أنس بن مالك : ولقد وجـدنا به أكثر من ثمانين ثُلمة ، ما بين ضربة بسيف ، وطعنة بسن ، ورمية بنبل . ولقد شوهه المشركون تمثيلا وتقطيعا فـلم يعرفه أحـد إلا أخته الربيع بنت النضر ، عرفته ببنانه ، وكان حسن البنان جميلها . قال أنس : فـكنا أصحابَ رسول الله صـلى الله عليه وسلم ، نرى أن هـذه الآية الـكريمة قد نزلت فيه وفى أمثاله من المجاهدين الصادقين « رجال صـدقوا

(١) واها كلمة تدل على الاعجاب أو التلهف ، كأنه يعجب بريح الجنة وقد تمثلها أو أكرمه الله بشذاها . والنضر يجوز أن يكون ابنه الصغير الذى تركه فى رعاية الله مؤثرا عليه الجهاد فى سبيله ، وأن يكون أباه الذى كان يبره ويكرمه .

ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه[١] ومنهم من ينتظر[٢] وما بدلوا تبديلا » .
وليت شعرى فيمن تنزل هذه الآية إن لم تنزل فى مثل هذه الصفوة التى اصطفاها الله لإعزاز دينه وإعلاء كلمته ؟ !

ولم تنسِ أنسا رضى الله عنه دهشة الموقف ورهبته ، أن يعتذر لربه وهو ماض فى سبيله ، عن المسلمين وقد تفرقوا ، ويبرأ من المشركين وقد تجمعوا[٣] ، وأن يكون مثلا عاليا فى صدق اللقاء ، والصبر على البلاء ، واستعجال اللحاق بالشهداء .

ومنقبة أخرى يرويها أنس بن مالك عن عمه رضى الله عنه . تدل على ما له عند الله من فضل ومنزلة : تلك أن أخته الربيع خاصمت جارية من نساء الأنصار أغضبتها فى شىء ، فلطمتها فكسرت ثنيتها ، فدُعى أهلها إلى الصلح فأبوا إلا القصاص ، وتحاكموا إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال : كتاب الله القصاص ، وهو صلوات الله عليه لا تأخذه فى الحق لومة لائم ولو كان أقرب الناس إليه ؛ فقال أنس وهو يرجو العفو : أتكسر ثنية الربيع يا رسول الله ؟ لا ، والذى بعثك بالحق لاتكسر ثنيتها . فبينما هو يراجع رسول الله راجيا من فضل الله ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يراجعه — عفا أهل الجارية عن القصاص ورضوا بالدية ، وصدق الله من صدقه ، ووفى لمن وفى له ، « ومن أوفى بعهده من الله » ؟

---

(١) أمثال أنس وحمزة ومصعب رضى الله عنهم . والنحب : الموت ، وأصله النذر ، ولما لم يكن للحى بد من الموت ، وكأنه نذر لازم فى رقبته — قيل لمن مات قضى نحبه كأنه وفى بنذره المحتوم عليه .

(٢) من بقية المؤمنين المجاهدين الذين لم يستشهدوا .

(٣) وما أجمل تعبيره فى جانب الاولياء « بالاعتذار » وفى جانب الأعداء « بالتبرؤ » وإن كان غير راض عن صنيع الفريقين جميعا .

وأرسلها رسول الله صلى الله عليه وسلم مثلا رائعا وحكمة بالغة : « إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره » .

* * *

لقد كانت الأمة الإسلامية مرفوعة الرأس ، مسموعة الكلمة ، عزيزة الجانب ، أيام أن كان فيها أمثال أنس بن النضر رضى الله عنهم ممن يستجيبون لله وللرسول إذا دعاهم لما يحييهم ، لا يتخاذلون ولا يتواكلون ، ولا يهنون ولا يضعفون ، فإذا ما زلوا زلة فسرعان ما يرجعون وينيبون ، ويتخذون من الشدائد عبرا رائعات ، وعظات بالغات ، ومنارا فى الشبهات والظلمات . ثم ضعفت التربية الإسلامية رويدا رويدا لما استنام المسلمون إلى الدعة ، واطمأنوا إلى الراحة ، واستراحوا إلى الترف ، والترف آفة الأمم ، وقاتل الهمم !

وكانت مصيبة المصائب أن تركوا الجهاد لما خدعهم الأعداء بالمدنية ، ورموهم بالعصبية ، وأعدوا لهم ما استطاعوا من قوة ، وهم فى غمرة ساهون ، حتى إذا تمكنوا منهم انقضوا عليهم من حيث لا يشعرون !

ألا فليتنبه المسلمون وليستيقظوا ، وليعودوا إلى تاريخهم الأول ومجدهم المؤثل ، ولا سبيل إلى ذلك — إن شاءوا — إلا إذا جاهدوا فى سبيل الله ، وأعلوا كلمة الله « واتبعوا رضوان الله ، والله ذو فضل عظيم » .

تواضـــــع

قال عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز : قال لى رجاء بن حيوة : ما رأيت أكرم أدبا ولا أكرم عشيرة من أبيك . سمرت عنده ليلة ، فبينما نحن كذلك إذ غشى المصباح ونام الغلام ، فقلت : يا أمير المؤمنين قد غشى المصباح ونام الغلام فلو أذنت لى أصلحته ، فقال : إنه ليس من مروءة الرجل أن يستخدم ضيفه ، ثم حط رداءه عن منكبيه وقام إلى الدبة فصب من الزيت فى المصباح وأشخص الفتيلة ، ثم رجع فقال جرير بن عبد الله : يا أمير المؤمنين أعزم علينا كلنا أن نقوم فنتوضأ ، قال : صدقت ولا علمتك إلا سيداً فى الجاهلية ، فقيهاً فى الإسلام . قوموا فتوضأوا .

محمد صلى الله عليه وسلم

الـكلمة التى تفضل بإلقائها من المذياع فى أسبوع « محمد » صلى الله عليه وسلم
حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الـكبير الشيخ محمد عبد اللطيف دراز
مـدير الأزهر والمعاهد الدينية

بسم الله الرحمن الرحيم :

حضرات السادة :

السلام عليكم ورحمة الله . فى هذا الشهر الـكريم يحتفل المسلمون فى أنحاء العالم بذكرى نبى الرحمة ، ورسول الهدى : محمد صلى الله عليه وسلم ؛ فقد ولد فى صبيحة يوم الاثنين التاسع من شهر ربيع الأول عام الفيل ، ولأربعين سنة خلت من ملك كسرى أنو شروان . ويوافق ذلك العشرين من أبريل سنة إحدى وسبعين وخمسمائة من ميلاد المسيح عليه السلام .

ذكرى ميلاد النبى صلى الله عليه وسلم هى ذكرى التاريخ والإنسانية عامة . ولولا ما ابتلى به الناس من التعصب الشديد للأديان ، أو القوميات ، أو موروث التقاليد عن الآباء والأجداد ، لما كانت هناك ذكرى فى التاريخ على طوله وامتداده أحق أن يكون الاحتفال بها عاما شاملا من هذه الذكرى الـكريمة ؛ فإنها ذكرى رسالة جامعة ، أنقذت الإنسانية مما كانت ترتع فيه من الجهالة ، وتضرب فى بيدائه من الضلال ، وتسام به فى حياتها من الذل والاستعباد وسوء العذاب .

كان يسود العالم فى ذلك الوقت مملكتان تقتسمان السلطان فى الأرض : الفرس والروم . والنظام السائد فيهما هو النظام الاقطاعى ؛ فالأرض موزعة بين الأشراف والسادة ، يقوم فى كل ناحية منها رئيس مسيطر ، وسيد متكبر ، يملكها ومن حملت وما حملت من ناس وأنعام ومنافع وأموال . والـكل عبيد له عاملون ، وأتباع مسخَّرون ، لا ترد له فيهم كلمة ، ولا يشاركه فى شأنهم أحد ،

ولا يسَّأل عما يفعل وهم يسألون ! . والفرس مجوس يعبدون النار . والدين فى الروم حرفت كلمته ، ومالت عن استقامتها ، وعادت الطبيعة المتأصلة فى نفوس الرومان إلى وثنيتها الأولى ، وإن تسمَّت بالمسيحية وظهرت فى مسوح الأحبار والرهبان . وكانت اليهودية فى اليمن ، وفى يثرب من جزيرة العرب ، وفى أنحاء شتى من الأرض - قد فقدت هى الأخرى مددها الإلهى ، وأظلمت على أهلها السبيل ، منذ أغلقوا قلوبهم وأبصارهم عما أنزل الله على موسى من هدى وحق ونور . وجزيرة العرب شر من ذلك كله تهيم فى جهالة جهلاء ، وضلالة عمياء ، لا تخضع لقانون من وضع الناس ، ولا لشريعة من وحى السماء ؛ وحياة القبيلة هو نظامها الأساسى ، لا يحسب العربى أن أحداً من غير أهل قبيلته تربطه به رابطة ، أوله عليه حق . فكل دم غير دم القبيلة هدر ، وكل عرض غير عرضها مباح ، وكل مال غير مالها غنيمة ؛ هذا إلى فقر مدقع ، بلغ بهم أن يقتلوا الأولاد خشية الفقر ، وإلى عنجهية طاغية ، بلغت بهم أن يئدوا البنات خشية العار ، يحيط بذلك كله وثنية مستحكمة ، أَلَّهت كل ما استطاعت تأليهه من مظاهر الطبيعة فى الأرض والسماء ؛ إلا أن هذا الجانب القاتم المظلم من الحياة العربية لم يؤثر على جانبها الآخر الوضىء الذى هيأ لها أن تكون من بين بلاد الله أهلا لأن تحمل أعظم رسالة وصلت من الله إلى خلقه ، وأن تجاهد فى سبيلها جبابرة الأرض من الملوك ، وأساطين العقل من الفلاسفة ، حتى قهرت الأولين بعدلها وقوتها ، وأقنعت الآخرين بحقها وهديها .

نقول : إن ذلك الجانب القاتم المظلم من حياة العروبة فى جاهليتها لم يؤثر ، ولم يكن من شأنه أن يؤثر ، فى هذا الجانب المشرق الوضىء ، بل لعل الجانبين جميعا هما النتيجة لحياة العرب فى جزيرتهم القاحلة الجرداء ، فهما جانبان من الخير والشر ، هيأ لها الأول منهما أن تحتمل فى نفسها من الفقر والضر وعيش البداوة ما أصابها فى جاهليتها من ذلك كله ، وهيأ لها الثانى أن تحتفظ فى نفسها من أصول الفضائل لخيرها وخير الناس جميعا ما لا يمكن أن تغرس أصوله ، أو تزكو زروعه ، إلا فى تلك النفوس العزيزة الكريمة التى تربت على الشجاعة والسماحة والسخاء وإباء الضيم ، وعاشت دهورها الطويلة بهذه الصفات ، على أنفة لا يجذبها حطام الجبارين ، وفى منعة من إذلال الحاكمين وبطش الغالبين .

هـذه هي البذور الإنسانية السليمة التي زرعت فى تلك الأرض الخصبة الطيبة ، يحوطها سياج من الفقر والأمية ، وما يتبعهما من عيش البداوة ، ليحول بينها وبين ما يفسدها من الخبائث والأوضار ؛ أو هـو الجانب الروحى السامى الذى استقبلت به الجزيرة شمسها بعد أن دار الزمان دورته ، فودّعت ليلها المظلم ، لتستقبل نهارها المضىء ، فكانت البعثة المحمدية هى هـذا النهار ، الذى أشرقت شمسه على العالم أجمع ، فطهرته من أرجاسه ، وهدته من ضلالته ، وأرشدته من غيه ، وأخرجت الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهـم إلى صراط العزيز الحميد ، الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض .

جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والعالم على ما عرفنا : ضعيف ضائع ، وفقير جائع ، وغنى كنود ، وقوى جحود ، وجهل مستحكم ، وظلم متحكم ، والناس طبقات بعضها فوق بعض ، لا يميزها علم نافع ، ولا عمل صالح ، وإنما هو البطش والقهر بحكم العصبية والغلب ، وبسطة الجاه ووفرة المال والولد ، حتى تنتهى تلك الطبقات إلى طاغوت من الطواغيت يسمى كسرى أو يسمى قيصر ، يؤلهونه تأليها ، ويتخذونه من دون الله ربا ، فهو لا يحكمهم بل يستعبدهم ، وليسوا له برعية ، بل هم لذاته عبيد ، ورحم الله أمير الشعراء حيث يقول :

أتيتَ والناس فوضى لا تمر بهـم ‏ ‏ ‏ إلا على صنم ، قـد هام فى صنم !

جاء الإسلام فحرر هؤلاء العبيد ، وكسر هـذه الأصنام ، وطرد سَدَنتها ، وهدم أوكار عبوديتها ، وأعلن أن الناس جميعا إخوة متساوون فى الإنسانية ، ربهم واحد وأصلهم واحد ، كلهم لآدم ، وآدم من تراب ، لا فضل لعربى على عجمى ، إلا بالتقوى : « يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، إن الله عليم خبير » .

واشتد فى ذلك حتى كانت هذه العقيدة أولَ ما عمل على تأصيله فى النفوس ، ولعل بعض مثقفى اليوم الذين يعرفون عن مدنية الغرب أكثر مما يعرفون عن الإسـلام ؛ لعل هؤلاء يجهلون أن الإسـلام هو أول مقرر لتسوية الفقير بالغنى فى حق التعـلم ، وأنه لا ينبغى أن يحول حائل بين الفقير وبين مشاركته الغنىّ ، لا فى نوع التعليم ولا فى مكانه ، فلا يجوز أن يكون لهذا مـدرسة ولذلك أخرى ،

كما أنه لا ينبغي فى العبادة أن يكون لهذا مسجد ، ولذاك آخر ، وكان ذلك لما رغبت قريش إلى النبي صلى الله عليه وسلم أن ينحى عن مجلسه الضعفاء والعبيد ، حتى يمكن أن يحضُرَه الأشراف والعظماء لسماع القرآن ، عسى أن يهتدوا بهديه ؛ فشنع القرآن على هؤلاء القوم ، وبالغ فى التنكير على هذه الرغبة ، ونزل قوله تعالى : « ولا تطرُد الذين يَدْعون ربَّهم بالغداة والعشىّ يُريدون وجْهه ، ماعليك من حسابهم من شىء ، وما مِن حسابك عليهم من شىء ، فتطردَهم فتكونَ من الظالمين » .

حرم الإسلام الربا ، وكان كما هو الآن وفى كل زمان مباءة ضر وإضرار ، وسبباً من أشد الأسباب فى الفقر وضياع الأموال ، وأحل البيع وسائر المعاملات النافعة المشروعة ، وشرع الزكاة ، فجعل للفقير حقاً مفروضا فى مال الغنى باعد بينه وبين طرفين يتحكمان الآن فى العالم باسم الرأسمالية والشيوعية ، فقرر من هذا الحق ما يكفى الفقير ، ولا يرهق الغنى ؛ وبهذه الزكاة المفروضة أُنقِذَ الفقير من الحاجة والعوز ، وصان نفسه من الضعة والذل . ذلك أنه حينما يأخذ الزكاة إنما يأخذ حقه المفروض الذى وضعه الله فى مال الغنى ، وألزمه بأدائه عبادة كالصلاة والصيام ، ووفاء كالدين والعارية ؛ وبهذا أزال ضغن الفقير واحتقان قلبه بالبغضاء على الغنى ، ووقى الأمة شر هذه الثورات الفتاكة ، التى يبعثها الفقر باسم الشيوعية أو الاشتراكية المتطرفة . ولم يقف الإسلام عند حد الزكاة المفروضة فى هذه المساواة ، بل ترك الباب مفتوحاً لمن شاء أن يزداد من الخير ، ودعا إلى البذل والإحسان ، بل إلى التفضل بالإيثار فى كثير من آى القرآن الكريم ؛ بل لقد قدمه على الزكاة المفروضة فى بعض هذه المواطن ؛ ولا غرو ، فإن ما يدفع نافلة أدل على السماحة وعلى الايمان مما يدفع فريضة ؛ ومن هذا قوله تعالى : « ليس البر أن تولوا وجوهكم قِبَل المشرق والمغرب ، ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين ، وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكينَ وابنَ السبيل والسائلين وفى الرقاب » .

فإيتاء المال هنا هو هذا الإحسان غير المفروض ، أما الزكاة المفروضة فذلك حيث يقول بعد هذا فى الآية نفسها : « وأقام الصلاة وآتى الزكاة » .

ويلاحظ أيضاً أن الإحسان وإيتاء المال على حبه صدقة لوجه الله ، لم يتقدم على الزكاة المفروضة وحدها ، بل قدم عليها وعلى الصلاة أيضاً ، بل لتمد قرن بعقيدة الإيمان نفسها فذكر بعدها مباشرة .

حضرات السادة :

هذه مثل هى غاية فى الإيجاز لما تبعثه ذكرى المولد النبوى من آثار الصلاح والإصلاح ، وقد كنا نود لو استطعنا أن نفيض القول فى نواح أخرى من تلك الآثار الكثيرة التى لا يحصيها العد ، ولكن حسبنا هذا اليوم ، وحسبكم أنتم أن تقرؤا هذا القرآن الكريم أو تستمعوا إليه ، وأن تنظروا هذه الشريعة الهادية والأمة المهدية وهذا النور الثجاج المتألق الذى لا يزال — ولن يزال — إلى يوم القيامة إن شاء الله يهدى الناس إلى الاستقامة والرشاد ، وإلى الأخوة والمحبة والسلام ، ويقوم على مدى العصور مثابة للحق ، وقسطاسا للعدالة ، وراية أمن وإيمان يأوى الناس إلى وارف ظلالها وإن أنكر المنكرون وجحد الجاحدون .

حسبكم أن تتأملوا هذا كله ، ثم عدوا بعد ذلك — إن استطعتم — آثار بعثة خاتم الرسل والأنبياء عليه الصلاة والسلام . فان آثار هذه البعثة الجامعة ، لا يمكن أن تعد إلا إذا عدت آثار الرحمة الإلهية ، وذلك مالا يعد ؛ قال تعالى : « ورحمتى وسعت كل شىء ، فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون ، الذين يتّبعون الرسول النبى الأمى ، الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، ويُحل لهم الطيبات ويُحرّم عليهم الخبائث ، ويضع عنهم إصْرَهم والأغلال التى كانت عليهم ، فالذين آمنوا به وعزّروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون » .

والسلام عليكم ورحمة الله .

حسن الظن بالاخوان

قال محمد بن بشار :

غلط الفتى فى قوله ... من لم يردك فلا ترده
من نافس الإخوان لم ... يبد العتاب ولم يعده
عاتب أخاك إذا هفا ... واعطف بودك واستعده
وإذا أتاك بغيبة ... واش فقل لم تعتمده

أمهات المشاكل الفلسفية
عند ابن رشد

معضـــلة علم البارى

لحضرة الأستاذ الدكتور محمد غلاب
المدرس بكلية أصـول الدين

من المعلوم أن أرسطو قد نفى عن المحرك الأول علم ما فى هذا العالم الأرضى من أحداث حائلة، وظواهر متغيرة، وجزئيات ناقصة، وأشخاص كائنة فاسدة؛ وعلل ذلك بأن المحرك الأول عقل محض، بل هو فـوق قمة العقول المجردة، وهذا يقتضى أن يكون موضوع علمه أسمى المعلومات، ليلتئم العالم مع المعلوم، ولمـا لم يوجد معلوم يوازى ذاته فى السمو، فقد لزم أن تكون هذه الذات — وهى أسمى الموجودات — موضوعا لأسمى العقول، فلم يكن بد من أن يقتصر علمه على ذاته. هذا من جهة، ومن جهة أخرى أنه لمـا كان المعلوم علة للعـلم، فقد اقتضى — لو علم المحرك الأول بالأحـداث الأرضـية — أن تكون تلك الأحداث علة لعلمه، وبالتالى لافتقر إلى عالم الكون والفساد فى شؤونه، وهذا نقص شائن يتعارض مع استغناء مقام الألوهية. وفى هذا يقول أرسطو:

« لأنه لا يناسب مقام المبـدأ الأول أن يدخل عقله ما هو أدنى رتبة منه فى الوجـود. كيف يعـلم من هو منزه عن كدر المـادة ما فى العالم من الأكدار والأدناس، والفواحش والجزئيات الجنسية من غير أن ينقص من صفاته شىء؟ ثم لو قلنا إن له علما بالأشياء الخارجة عن ذاته لوجب أن يكون علمه مستفادا منها، وأنه لا يكون عالمـا إلا بوجود تلك الأشياء، فصار المبدأ الأول محتاجا إلى غيره لـكى يكون عالمـا، وهذا لا يناسب جلال ذاته، مع ما فيه من إدخال

المادة فى ذات الإله . إن المادة هى الإمكان ، فلو احتاج المبدأ الأول إلى الأشياء الخارجة لحصول العلم لكان قابلا للتغير والاستحالة ، وذلك عبارة عن الامكان ، فالأولى أن يقال : إنه ليس للإله علم بغيره ، فالواحد البسيط لا يعلم إلا الواحد البسيط وهو ذاته ، فهو إذاً ، علم وعالم ومعلوم من ذاته . فالحاصل أن المبدأ الأول هو حياة أبدية كاملة من سائر الوجوه ، مبتهجة بما لها من العلم بكمال ذاتها الجليلة ، إذ ليس السرور إلا العلم بالكمال (١) » .

فلما جاء ابن سينا وأيقن أن الذى حمل أرسطو على القول بهذا الرأى هو إفراطه فى تنزيه المحرك الأول عن الاتصال بنقائص عالم الحس ، أقر هذا المبدأ وزاده إيضاحا وتأييدا ، وتوسع فى تعليلاته وأدلته ، فأبان كيف أن طبيعة المدركات الحسية تقتضى مدركات تلائمها فى طبيعتها وتشترك معها فى المحدودية والجهة والانحصار مما تنزه عنه البارى ، وأوضح كذلك عملية انطباع المعلومات فى عقل العالم ، واقتضاءها قابلية الذات الأقدس لهذا الانطباع ، ثم شرح نظرية تغير المعارف الجزئية واستلزام ذلك ضرورةً ، تغير العلم ثم تغير العالم ، إلى غير ذلك مما أفاض الشيخ الرئيس فى بسطه ورددنا عليه فى موضعه مفندين (٢) ما ذهب إليه من آراء .

جاء بعد ذلك أبو حامد الغزالى فرمى فلاسفة الاسلام بالكفر من أجل هذه النظرية ونظريتين أخريين ، هما أزلية العالم ، وحشر الأرواح دون الأجساد ؛ فلما اطلع ابن رشد على هذه المعركة الحامية الوطيس انتفع بما دار فيها من أخذ ورد ، وتمحيص وتحليل ، وتوجيه وتعليل ، وتخطىء وتصويب ؛ وأخيرا أعلن أن من رمى الحكماء بجحود علم الله للجزئيات فانه لم يفهم مراميهم ، ولم يدرك مغازيهم ، لأنهم لم يجحدوا فى نظره علمه بها على الاطلاق ، وإنما جحدوا العلم الشبيه بعلم الحوادث ، أى العلم المعلول للموجودات ، لا ما كان علة لها .

---

(١) انظر صفحتى ٥٢ ، ٥٣ من كتاب « تاريخ المذاهب الفلسفية » للأستاذ سانتلانا (مخطوطة بدار الكتب المصرية) .

(٢) راجع صفحة ٦٢ وما بعدها من كتابنا « مشكلة الألوهية » .

وبعد أن يبسط هذه المشكلة بسطا وافيا يعرض فيه لما فهمه المتكلمون من آراء الحكماء فيها، ويصارح الغزالى بأنه أخطأ القصد، وجانب الحق، يشرع فى بسط الفكرة التى ارتأى أنها تحمل فى ثناياها حل هذه المعضلة العويصة، فيقول بعد كلام طويل ما يلى :

« والذى ينحل به هذا الشك عندنا هو أن يعرف أن الحال فى العلم القديم مع الموجود خلاف الحال فى العلم المحدث مع الموجود؛ وذلك أن وجود الموجود هو علة وسبب لعلمنا، والعلم القديم هو علة وسبب للموجود، فلو كان إذا وجد الموجود بعد أن لم يوجد حدث فى العلم القديم علم زائد كما يحدث ذلك فى العلم المحدث، للزم أن يكون العلم القديم معلولا للموجود لا علة له؛ فإذاً واجبٌ ألا يحدث هنالك تغير كما يحدث فى العلم المحدث؛ وإنما أتى هذا الغلط من قياس العلم القديم على العلم المحدث، وهو قياس الغائب على الشاهد، وقد عرف فساد هذا القياس. وكما أنه لا يحدث فى الفاعل تغير عند وجود مفعوله، أعنى تغيراً لم يكن قبل ذلك، كذلك لا يحدث فى علم القديم سبحانه تغير عند حدوث معلومه عنه؛ فإذاً قد انحل الشك ولم يلزمنا أنه إذا لم يحدث هنالك تغير، أعنى فى العلم القديم، فليس يعلم الموجود فى حين حدوثه على ما هو عليه، وإنما لزم ألا يعلمه بعلم محدث، لكن بعلم قديم، لأن حدوث التغير فى العلم عند تغير الموجود إنما هو شرط فى العلم المعلول عن الموجود، وهو العلم المحدث. فإذاً العلم القديم إنما يتعلق بالموجود على صفة غير الصفة التى يتعلق بها العلم المحدث، لا أنه غير متعلق أصلا كما حكى عن الفلاسفة أنهم يقولون لموضع هذا الشك: إنه سبحانه لا يعلم الجزئيات، وليس الأمر كما توهم عليهم، بل يرون أنه لا يعلم الجزئيات بالعلم المحدث الذى من شرطه الحدوث بحدوثها، إذ كان علة لها لا معلولا عنها كالحال فى العلم المحدث. وهذا هو غاية التنزيه الذى يجب أن يعترف به، فإنه قد اضطر البرهان الى أنه عالم بالأشياء، لأن صدورها عنه إنما هو من جهة أنه عالم، لا من جهة أنه موجود فقط، أو موجود بصفة كذا، بل من جهة أنه عالم » (١).

(١) انظر صفحتى ٢٨ و ٢٩ من « فصل المقال » لابن رشد .

أما نحن فإننا لا نرتاب ألبتة فى أن أرسطو كان صريحا فى نفى العلم بعالم الكون والفساد عن المحرك الأول ، ومن آيات هذه الصراحة التى لا تحتمل أدنى ريب أن تلاميذه — وهم ألصق الناس به وأعلمهم بآرائه — قد أخذوا عليه ذلك وهاجموه من أجل تلك الفكرة قائلين له بعد كلام طويل : « ثم جعلت هذا المحرك لا يعقل إلا ذاته بدعوى أنه لا يليق بجلاله علم ما فى الأمور الدنيوية من الجزئيات الدنيئة ، ثم مثلته بقائد الجيش ، فكيف يقود الأمير الجيش إذا لم يبصره ولم يخطر له ببال ؟ وكيف يصح تدبير العالم من متحيز فى نفسه ، مقصور على علم ذاته لا يجاوزها ؛ وإذا جحدت تدبيره إياه ، فمن أين وجود العالم فى بدء نشأته ؟ ومن أين بقاؤه إذا لم يكن للمبدأ الأول حظ فى تدبير أموره ولا أدنى إلمام به ؟ فكأنك قد جعلت الإله والعالم قطعتين منفصلتين لا اتصال لإحداهما بالأخرى ، وقد انتقدت أفلاطون حيث جعل عالمين : علم الحس وعالم المعانى واليقين ثم عجز عن بيان الاتصال بينهما . وأنت قد وضعت العالم ثم وضعت الإله مقابلا له ، فعجزت عن بيان ماهية العالم وما هية الإله بما يزيل الشك ويدرأ الشبهة حتى بقيا متقابلين لا اتصال بينهما ولا تأثير ، فإذا تحققنا قولك وسبرنا معناك وجدنا أنه لا حاجة للإله بالعالم ، ولا حاجة للعالم بالإله [1] » .

وكما أننا نجزم بثبوت هذا الرأى لارسطو فإننا كذلك لا نتشكك فى أن ابن سينا كان واضحا غاية الوضوح فيما ذهب إليه سواء منه ما تأثر فيه بأرسطو أو ما ابتكره فى تأييد هذه النظرية ، ولا نتردد فى الجزم بأن توجيه ابن رشد هذا هو غير ما أراده أولئك الفلاسفة ، ولكننا أيضا لانجارى الذين رموا هذا الفيلسوف الأخير بالتعصب للفلاسفة إلى حد أنه كان أشد منهم حرصا على أنفسهم كما يقولون ، أو الذين زعموا أن كلفه بمخاصمة الغزالى وتخطيئه هو الذى دفعه إلى الانزلاق فى هذا المأزق الحرج ، وإنما نحن نرى أن أحد تعليلات أرسطو لنفيه العلم عن المحرك الأول — وهو تحرجه من أن تكون الموجودات الحائلة علة للعلم الأزلى — هو الذى قد سطع بريقه على عجل فى عقل ابن رشد فألهمه فكرة هذا

---

(١) راجع صفحتى ٤٨ و ٤٩ من كتابنا « مشكلة الألوهية » .

التوجيه الشخصى حيث ساءل نفسه عن تلك العلية فألفاها واردة فتأمل فيها وحاول التنقيب عن وسيلة للتخلص منها ، فاهتدى إلى فكرة العلم القديم الذى لا يشبه العلم المعلول للموجودات الكائنة الفاسدة ، وهو العلم الذى اصطدم به أرسطو ، فوقف منه بين نارين ولم يكن له بد من اختيار أحد أمرين ، أحلاهما مر ، وهما : القول بمعلولية العلم الأزلى للشخصيات الحادثة ، أو القول بنفى العلم عن المحرك الأول بتاتا . ولما كان الأمر الأول لا يؤيده المنطق من ناحية ، وكانت فكرة موضوعية الذات الأسمى للعقل الأسمى تحتل فى رأسه موضعا بارزا من ناحية أخرى ، فقد رجح اختيار الأمر الثانى . أما ابن رشد فلم يقو على احتمال نفى العلم عن البارى ، ولم يستسغ فكرة معلولية هذا العلم للموجودات الحادثة ، فأجهد نفسه فى البحث عن حل لهذه المعضلة يرأب ما انصدع بين هذين الطرفين المتعارضين ، وكانت تلك المعارك الجدلية العنيفة قد هيأت له أسباب هذا الحل ، فلم يلبث أن ظفر به وأعلنه ، ولكن الذى نأخذه عليه هو رميه كل من تقدموه بعدم استكناه مرمى الحكماء من آرائهم مع ما كانت عليه تلك الآراء من جلاء . ومن الممكن أن يكون قد تصور أنه ما دام هو قد استطاع كشف هذا التوجيه ، فلا بد أن يكون أرسطو — وقد عرفت رأيه فيه من قبل — قد كشفه بالأولى .

وكما أننا نأخذ على ابن رشد مغالاته فى تقدير أرسطو ، نأخذ على أبى حامد رميه أولئك الأعلام بالكفر مع ثبوت حسن نياتهم والتحقق من أنهم لم يقصدوا من وراء هذا النفى إلا تنزيه البارى عما تصوروا أنه شائن بمقام الألوهية وإن كانوا قد أخطئوا فيما ذهبوا إليه غير باغين ولا عادين .

الجاهل

قال النبى صلى الله عليه وسلم : « الجاهل يظلم من خالطه ، ويعتدى على من هو دونه ، ويتطاول على من هو فوقه ، ويتكلم بغير تمييز ، وإن رأى كريمة أعرض عنها ، وإن عرضت فتنة أردته وتهور فيها » .

نقول : الجهل هنا بمعنى السفاهة كما قال الشاعر الجاهلى :

ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

الحُبّ
بين العباد والرب

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد محمد المدنى
المفتش بإدارة الأزهر

لفظ « الحب » وما تصرف منه ، من الألفاظ الكثيرة الدوران فى الكتاب العزيز ؛ فقد جاء فى أكثر من ثمانين موضعاً منه على أساليب شتى ، إثباتاً ونفياً ؛ وهو أيضاً من الألفاظ التى وردت فى السنة المطهرة على نحو ما وردت فى القرآن الكريم .

و « الحب » فيما جاء من هذا وذاك نوعان :

(١) حب العبد لله .

(٢) وحب الله للعبد .

ولكل واحد من هذين النوعين ظاهرة جديرة بالنظر والدرس :

فأما حب العبد لله فهو منزلة ترتفع بصاحبها إلى أعلى درجات السمو والكمال والتنزه ؛ وهذه المنزلة تستدعى من صاحبها أن يؤثر محبوبه — كما هو الشأن فى كل محب — بكل شعب من شعاب قلبه وفكره ، وأن يضحى فى سبيله بكل رغبة من رغباته ، وأن يتحمل فى رضاه كل عناء ، ويصبر على كل بلاء ؛ ذلك أن الحب — كما يعهده الناس بين بعضهم وبعض — هو علاقة فوق المعرفة ، وميل وانعطاف فوق الإرادة والرغبة ؛ فكل واحد منا يعلم من نفسه أنه يعرف فلانا من الناس ، أو يعرف كذا من الأشياء معرفة رضا وقبول دون نبوّ عنه أو نفور منه ؛ ولكننا لا نسمى هذا حباً ، لأن الحب أعمق فى نفس المحب أثراً ، وأكثر

لفراغ القلب شغلا ، بل الحب الحقيقي هو الذى لا يترك فى القلب فراغا ، ولا يدع للنفس سبيلا للتوجه إلى ما سوى الحبيب .

وإذا كان الأمر بهذه المثابة ، فحب العبد لله هو الإيمان الحق ، وليس الإيمان الحق مجرد المعرفة وإذعان النفس ، وبعبارة أخرى : الإيمان الحق هو إيمان المحب لله المنفعل به الذى يؤثره على نفسه ، وتبدو آثار حبه إياه فى جميع أقواله وأفعاله وتصرفاته ؛ أما الإيمان الجاف الصامت السلبي الذى لا يعدو الإذعان النفسى ، والإقرار القلبي ، ولا تظهر آثاره فى مظهر من المظاهر العملية الإيجابية ، فليس هو الإيمان الذى يريده الله من عباده .

إن المؤمن الحق هو الذى أدرك جمال الله وجلاله ، وأدرك لطفه وإحسانه ، وعلم علم اليقين أنه هو المنعم المفيض الذى لا إنعام إلا به ، ولا فيض إلا منه ، ثم انفعل بهذا الإدراك فأحبه ، فأصبح قلبه مشغولا به ، وعمله موجها اليه ، ولذته وارتياحه فى طاعته وعدم المخالفة عن أمره ، يتحمل فى ذلك ما يتحمل راضيا مغتبطا قرير العين مطمئن القلب ثابت القدم ؛ فإذا أحسن اليه حبيبه تلقى هذا الإحسان شاكرا بلسانه وقلبه وفعله ؛ وإذا ناله شىء فى سبيل مرضاته تلقاه صابرا عليه ، غير متبرم به ، ولا ضائق به صدرا .

ذلك هو المحب ، وذلك هو المؤمن ؛ وآية ذلك أن الله ذكر الكافرين والمؤمنين فجعل حبه هو العلامةَ المميزة بين هؤلاء وهؤلاء إذ يقول : « ومِن الناس مَن يتخذ من دون الله أندادا يُحبونهم كحب الله ، والذين آمنوا أشدُّ حبا لله » . وذكر الذين يتبدلون بدين الحق ما سواه فقال : « يأيها الذين آمنوا من يرتدَّ منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه » . فقد وضع الحب فى موضع الإيمان . وقد نعى الله على الذين يؤثرون الحياة الدنيا على الآخرة فوصفهم بأنهم « يحبون العاجلة ، ويذَرون وراءهم يوما ثقيلا » أى أنهم أحبوها فآثروها ، ولو أحبوا الله لآثروه « كلا بل تحبون العاجلة وتذرون الآخرة » . وقد نفى الإيمان عمن يوادون أعداء الله فقال : « لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادُّون من حادَّ اللهَ ورسولَه ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم

أو عشيرتهم ، وذلك لأن عدو المحبوب عدو للمحب ، كما أوجب على المؤمنين حب رسوله وحب أوليائه « لأن محبوب المحبوب محبوب ، ورسول المحبوب محبوب » وفى ذلك يقول الرسول الكريم : « لايؤمن العبد حتى أكون أحب اليه من أهله وماله والناس أجمعين » . « وما تحاب اثنان فى الله إلا كان أفضلهما أشدهما حبا لصاحبه » ويقول الله عز وجل : « والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض » . وهكذا نرى حب الله وإيثاره على كل ما سواه هو الإيمان الحق فى كل ما جاء على لسان الشرع . والدستور الجامع فى ذلك هو قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان ، ومن يتولّهم منكم فأولئك هم الظالمون . قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارةٌ تخشون كسادها ومساكنُ ترضونها احبَّ إليكم من الله ورسوله وجهادٍ فى سبيله فتربصوا حتى يأتىَ الله بأمره ، والله لا يهدى القوم الفاسقين »

وأما حب الله للعبد فلم يثبته القرآن الكريم إلا لذوى الأعمال العظيمة التى تفوق فى قيمتها ومنزلة العاملين بها ما سواها من جنسها ، ولم ينفه إلا عن ذوى الصفات السيئة الموغلة فى السوء التى من شأنها أن تشيع الضرر والفساد .

بيان ذلك أن الآيات التى أثبتت حب الله للعباد تصف هؤلاء العباد المحبوبين بأوصاف هى أمهات الأخلاق ومنابع الفضائل النفسية ، ولها من السمو عما يشاركها فى أصل معناها مايجعلها جديرة بالحب الذى هو فوق مجرد القبول والرضا .

ومن ذلك قوله تعالى : « إن الله يحب المحسنين » والإحسان صالح لأن يراد به الإنعام على الغير ، وأن يراد به الاتقان والتبريز فى كل شىء ، فاذا أريد به الإنعام فهو منزلة فوق الإعطاء لأن الإعطاء قد يشاب بشائبة من المن أو الأذى أو اختيار الأدنى تخلصاً منه ، ولا يكون العطاء إحسانا حتى ينزه عن ذلك كله كله ، ويسمو صاحبه فيه إلى الدرجة التى يصفها الله ورسوله فى مثل : « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون » و « لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى » « ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لاتعلم شماله ماأنفقت يمينه » و « إن الله طيب لا يقبل

إلا طيبا » من كل ما يدل على تحرى الحالة الفضلى ، والصورة المثلى فى كل جانب من الجوانب .

وإذا أريد بالإحسان إتقان العمل عامة والاحتفال له والتبريز فيه ، فليس كل من أدى عملا يكون محسنا بمجرد أدائه ، فالأداء قد يكون مجرد تخفف وإبراء ذمة ، أما إحسان العمل وأداؤه كاملا متقنا فهذا شيء آخر ؛ وإنهم ليقولون : إن الاحسان فوق العدل إذ العدل هو التسوية ، والاحسان معنى زائد عليها ، فمن أدى الحق وأخذ الحق فهو عادل ، ومن تجاوز عن بعض حقه مسامحة منه وكرما ، وأعطى أكثر مما عليه تلطفا منه وتفضلا ، فهو محسن ؛ ولذلك يقول الله عز وجل « فمن عُفى له من أخيه شيئًا فاتّباع بالمعروف وأداء اليه باحسان » فيطلب المعروف فى الاتباع والمطالبة ، والاحسان فى الأداء ، ويقول : « إن الله يأمر بالعدل والاحسان » فلا يكتفى بالعدل الذى هو المساواة ولكن يأمر بما فوقه وهو الاحسان « ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون » .

بهذا يتبين أن الله جلت حكمته لم يمنح حبه لمجرد الإنفاق أو الأداء على ما جرت به العادة ، وإن كان يرضى عن ذلك ويقبله ، ولكنه منح هذا الحب الذى هو فوق الرضا والقبول لما يناسبه .

ولما كان المحب يعامل حبيبه بمنتهى الكرم ، ويتلطف معه أعظم التلطف ، فإن الله جل علاه يعامل المحسنين الذين يحبهم هذه المعاملة ، فيقول : « وبشر المحسنين » « إن رحمة الله قريب من المحسنين » « إن الله لا يضيع أجر المحسنين » « وسنزيد المحسنين » « وإن الله لمع المحسنين » .

وكما يقال هذا فى الإحسان يقال أيضا فى الصبر ، إذ الصبر منزلة فوق الاحتمال ، لأنه مجاهدة وحبس للنفس عن كل ضجر أو تبرم ، وهو أساس كثير من الفضائل ، وإن اختلفت أسماؤها : فالشجاعة هى الصبر على مكاره الجهاد ؛ والجود هو الصبر على بذل المال والمعروف ؛ والكتمان هو الصبر على شهوة الإفاضة والكلام ؛ والعفاف هو الصبر على نوازع النفوس والشهوات ؛ ورحابة الصدر هى الصبر على المثيرات والمحفظات ، وهكذا ؛ ولذلك يعلن الله أنه « يحب

الصابرين » ويذكر الصبر فى خصال البر « والصابرين فى البأساء والضراء » ويجعل الصابرين هم أصحاب الحظ العظيم « وما يُلقّاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم » ويعلن أنه سيغمر الصابرين بمزيد من الفضل الذى يعادل هذا الحب فيقول : « وبشر الصابرين » « ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » « إنما يوفّى الصابرون أجرهم بغير حساب » « إن الله مع الصابرين » « يجزون الغرفة بما صبروا » « وجزاهم بما صبروا جنة » « سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار » .

وقل مثل هذا فى بقية المواضع التى أثبت الله فيها حبه لعباده ، مثل قوله تعالى « إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين » و « يحب المتقين » و « يحب المتوكلين » و « يحب المقسطين » . . الخ .

وقد جاء الحديث الشريف مؤيدا لهذا المعنى القرآنى إذ يقول عليه الصلاة والسلام فيما رواه عن ربه « قال الله تعالى : لا يزال عبدى يتقرب إلىّ بالنوافل حتى أحبَّه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به » .

وليست النوافل فى الحديث هى صلاة ركعتين أو ركعات بين يدى الفريضة أو بعدها فحسب ، ولكنها كل زيادة وفضيلة فوق ما هو مطلوب فى العادة ، وذلك يشمل كل ناحية من نواحى الحياة ، كالإحسان والصبر والتقوى والتطهر . . . الخ .

ومعنى قوله « كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به » هو التوفيق والهداية والرعاية فى كل حال ، نتيجة للحب الذى منحه إياه ؛ ولا شك أن الذى يسمع بالله ، ويبصر بالله لا يضل ولا يشقى ؛ وذلك أيضا هو معنى قوله تعالى « إن الله مع المحسنين » و « مع الصابرين » إذ يلزم هذه المصاحبة كل توفيق وسداد .

يبقى بعد ذلك الآيات التى نفى فيها الله حبه عن عباده ، مثل قوله تعالى : « والله لا يحب الفساد » و « لا يحب المفسدين » ؛ ولا شك أن الفساد إجرام فوق العادة ، وأن المفسدين أعداء المجتمع والعاملون على تقويض بنيانه ، وزعزعة أمنه واطمئنانه ، فإن الشخص الذى يذنب ذنباً عاديا يكون جرمه على نفسه ،

أما الذى يعيث فى الأرض الفساد فجرمه على المجتمع كله ؛ ولذلك قد يتوب الله على الأول أى يوفقه للتوبة والرجوع ويغفر له ، أما الثانى فقلما يوفق للتوبة لأن قلبه مظلم ، ونفسه فى ضراوة الوحوش الكاسرة .

وحسبنا أن الله جل علاه يذكر الفساد والمفسدين فى أخطر المناسبات ، إذ يقول : « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا » « ولولا دَفْعُ اللهِ الناسَ بعضهم ببعض لفسدت الأرض » « ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن » .

ونتيجة هذا المقت للفساد والمفسدين هى ما ذكره الله عز وجل فى مثل قوله « إن الله لا يصلح عمل المفسدين » « زدناهم عذابا فوق العذاب بما كانوا يفسدون » « فانظر كيف كان عاقبة المفسدين » .

وكذلك يقال فى قوله تعالى : « إن الله لا يحب الظالمين » ، وفى القرآن الكريم بيان عاقبة هذا المقت وعدم الحب ؛ مثل قوله « إنه لا يفلح الظالمون » « فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم » « فأخذهم العذاب وهم ظالمون » « وقد خاب من حمل ظلما » .

وأحسب أنه لا يصعب بعد هذا البيان على من شاء من القراء ، أن يتتبع الفكرة على هذا النحو فى مثل قوله تعالى : « إن الله لا يحب الكافرين » و « لا يحب الفرحين » و « لا يحب من كان مختالا فخورا » و « لا يحب من كان خوانا أثيما » .

وخير ما أختم به هذا الحديث دعاء الرسول صلى الله عليه وسلم الذى كان يدعو به ربه « اللهم ارزقنى حبك ، وحب من أحبك ، وحب ما يقربنى إلى حبك » .؟

الود للأكرمين

قال العطوى الشاعر :

صن الود إلا عن الأكرمين ... ومن بمؤاخاته تشرف
فكم من أخ ظاهر وده ... ضمير مودته أجيف
ولا تغترر من ذوى خلة ... بما هوى لك أو زخرف
إذا أنت عاتبته فى الإخاء ... تنكر منه الذى تعرف

شعراء الأزهر

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبد الجواد رمضان
المدرس بكلية اللغة العربية

ليس الشعر مما يعدّه الأزهر من مفاخره ؛ فالعلماء ورثة الأنبياء ؛ والنبوة والشعر لا يلتقيان ؛ وقد قيل لحسّان رضى الله عنه : لان شعرك فى الإسلام ؛ قال : لأن الإسلام ينهى عن الشر ! وقال الخبيث بشار : أزرى بشعرى الأذان . ذلك إلى أن من طبيعة البحث العميق الذى يمتاز به الأزهرى أن يعوق عن البراعة فى الشعر .

غير أن هذا كله لم يحلْ دون أن يقول الشعر كثير من الأزهريين فى القديم والحديث ؛ ودون أن يجيده ويبرز فيه أفراد ينزلون فى الصفوف الأولى من صفوف الشعراء المعدودين فى جميع العصور ؛ ولا يضيرهم أن كانوا قليلين ، فإن الشعر موهوب ، لا مكسوب ؛ تربّيه الثقافة وتنميه ، ولكنها لا تعطيه ؛ وقد يضحى الأزهرى بهذه الموهبة إيثارا لما هو بسبيله مما هو الأشرف الأهم ، والمقصد الأعظم .

ولست أريد أن أؤرخ للشعر فى الأزهر ، منذ كان الأزهر ؛ ولا أن أترجم لكل من يقول الشعر فيه ؛ فإن شرح ذلك يطول ؛ ويفتح أبوابا ليس من الخير أن تفتح . وإنما أقتصر على هذه الفترة التى ابتدأت بعصر إسماعيل الى اليوم ؛ على أن أتناول أمثال من يقول (١) :

أزْمَعَ الركبُ رحيلا فاتُعَدْ فالتياعا ، قبّح اللهُ الجَلَدْ !
زعموا أن غدا فرقتنا ذكروا الموت فسمّوه بغَدْ
ما لجفنى يولع البين به إنه لو كان بحرا لنفد

---

(١) للقاياتى

لا أمثال من يقول [١] :

علوم الفقه والتوحيد والتفسير ، أشباهُ
علوم حشوُها جهل وتخليط عرفناهُ
وبعض رجالها ضلوا وفى أوهامهم تاهوا
ولولا حسن نيتهم لقلنا : حسبنا الله !

وقد نغفل بعض من لا يروقهم أن نعرض لهم ممن لهم فى الشعر مقام معروف توخياً لرضاهم ، وبُعدا عما عساهم يعدونه تحكما غير مرغوب فيه ؛ وإن كان هدفنا الأصلى فى هذا الموضوع ، هو الإشادة بذكر الأزهر من ناحية غير مطروقة ، لا التوسع فى النقد ، ولا الإفاضة فى التراجم والتفاصيل . وربما أغفلنا الترتيب الزمنى ، لاعتبارات وضرورات تقتضينا ذلك الاغفال المؤقت حتى نتغلب على بواعثه .

* * *

(١) السيد حسين والى

هو السيد حسين والى بن العلامة السيد حسين والى بن السيد ابراهيم والى ؛ ينتهى نسبه إلى الامام أبى عبد الله الحسين بن على ، رضى الله عنهما .

ولد فى منية أبوعلى من أعمال مركز الزقازيق فىمديرية الشرقية ؛ فى رجب الفرد سنة ١٢٨٥ « نوفمبر سنة ١٨٦٨ » وطلب العلم فىالأزهر ، منتسباً إلى رواق معمر ، إلى أن نال شهادة العالمية سنة ١٣١٧ هـ - ١٨٩٩ م . وأذن بالتدريس فى الأزهر سنة ١٩٠٠ ، ثم ندب للتدريس فى مدرسة القضاء الشرعى سنة ١٩٠٧ ، ثم عين مفتشاً فىالأزهر والمعاهد الدينية سنة ١٩١١ ، ثم وكيلا لطنطا سنة ١٩١٤ ،

---

(١) للزميل المحترم الشيخ عبد المتعال الصعيدى

ثم سكرتيراً عاماً للمجلس الأعلى بالأزهر سنة ١٩٢٠ ، وبقى فى هذا المنصب إلى أن ألغى فى ديسمبر سنة ١٩٢٦ ، وفى ٧ من شهر ربيع الأول سنة ١٣٤٣ (٦ من اكتوبر سنة ١٩٢٤) عين فى هيئة كبار العلماء بمرسوم ملكى كريم نصه :

« عيّن فى هيئة كبار العلماء كل من حضرات : الشيخ محمد مصطفى المراغى الحنفى المذهب رئيس المحكمة العليا الشرعية ؛ والشيخ حسين والى السكرتير العام لمجلس الأزهر الأعلى والمعاهد الدينية ، والشيخ محمد الحلبى ، والشيخ سيد على المرصفى ، الشافعيّ المذهب » .

وتوفى ـ طيب الله ثراه ـ فى ٢٨ من فبراير سنة ١٩٣٦ ، وهو عضو فى مجلس الشيوخ ، وفى المجمع اللغوى . وما تزال أصداء جولاته تدوّى فى قبابهما ، فيتجاوبها آفاق العروبة فى مشارق الأرض ومغاربها إلى اليوم .

* * *

والسيد حسين والى ، أحد الأقطاب الذين سما حظهم من التبحر فى علوم اللغة العربية وآدابها ؛ وأخذوا بآفاقها وشعابها ، على جميع الباحثين والمتأدبين ؛ فى عصر النهضة ، فلا يسبقهم سابق ، وإن ناصاهم شواذّ فى أقطار الشرق العربى معدودون معروفون . هم الأئمة ، وسائر الناس على آثارهم مقتدون .

لا جرم أن مواهب السيد حسين والى ، جديرة بأن تبوّئه هذه المنزلة الرفيعة التى لا ترام ؛ فلقد كان — الى تبحره فى علوم الأزهر — كاتبا قديرا ، وشاعراً فحلا . يكتب كما يكتب حمزة فتح الله ، والسيد توفيق البكرى ، والشدياق الخ ؛ ويشعر كما يشعر حمزة فتح الله ، والسيد توفيق البكرى ، وآل اليازجى ، وغيرهم وغيرهم من كبار الكتاب وفحول الشعراء ؛ فى مصر والشام والعراق ؛ ويصاول المؤلفين والباحثين فى وزارة المعارف وغيرها ، وينقدهم وينال منهم ويوجههم فيتجهون . ويفتى فى اللغة والأدب ، فينقطع كل قول ، ويخفت كل صوت . ذلك بأنه كان مطلعاً ، فقيهاً لغويا ، ذواقة ، هاضما لما علم ، واثقاً مما يقول ؛ والإيمان بالرأى أقوى أسلحة الشجاع . وكان الطبيعى أن ينال السيد حسين والى

من الشهرة عند الخاصة والعامة كفاء هذه المواهب المتوافرة؛ بيد أنه غض من شهرته شمائل: هى فى شرفها وعنصرها أنفس جوهرا، وأعز قيمة، وأرفع جمالا من كل شهرة.

كان السيد حسين والى غاليا فى التعصب القديم، يعتز به، ويحافظ عليه، ويرعاه فى دينه، وفى سمته، وفى لغته، وفى كل ما يحيط به، حتى لقد سمى أولاده: أسامة، ولؤى، ونزار، والفرات. يحدوه إلى ذلك نسبه الشريف، ونشأته الأزهرية، ووقار ألبسه الله منه رداء فضفاضا؛ ثم نزعة صوفية عميقة ستعلم نبأها بعد حين.

هذه الشمائل المركبة فى طبيعة السيد حسين والى؛ أبت عليه:

أن يدعو إلى التجديد؛ أبهر أسلحة الشهرة فى هـذا العصر

وأن يتبذل، فينكت، ويشتم ويشتم، ويهدم السابقين، ويخطىء اللاحقين؛ وأن ينافق، فيلقى كل قائم بوجه، وهو يؤمن بأن ذا الوجهين لا يكون عند الله وجيها؛

وأن يكثر، فيملأ الصحف والمجلات ثرثرة، وحديثا مردداً مكروراً.

والحمد لله الذى ركب فى طبيعة السيد حسين والى ما ينافر وسائل الشهرة فى هذا العصر، فلولا ذلك لما وجد الخبز كثير من المشهورين!

* * *

وبعد، فليس من همى أن أترجم للسيد حسين والى، فأن ذلك — إلى أنه يتقاضانى مجهوداً ضخما — ليس من صميم موضوعى؛ وحسبى هذا التعريف الموجز بهذا العَلم المطوى، علّ فيه غـَراةً بنشره، مفخرة للأحياء، ووفاء للأموات. بيد أن لدى من نواحى الإعجاب بهذا الرجل العظيم، ما يشجعنى على معالجته فى فرصة أخرى، وفى موضع آخر. نسأل الله التوفيق.

* * *

قلنا: إن المترجم شاعر فحل، وهو حكم لا يخامرنا شك فى صحته وبُعده عن كل مجاملة وإسراف؛ ولا نظن ناقداً يخالفنا فيه: إلا بمثل ما قيل فى السيد

توفيق البكرى ، من أن شعره لا يوافق روح العصر . وهذا ليس نقداً للشاعر ولكنه نقد لمذهبه ؛ وهو كلام لا وزن له ؛ أما الموهبة الشعرية التى هى مناط النفى والإثبات ، فأنها كاملة ضخمة عند السيدين كليهما ؛ على أن السيد البكرى وإن لاقى السيد والى فى أن كليهما شاعر مقل ، أوسع مضطربا ومجالا منه ؛ فلقد سمعنا وقرأنا للبكرى كثيراً ؛ ولم نسمع ولم نقرأ لوالى إلا القليل .

فمن هذا القليل تقريظه لكتاب « شذا العرف » للمغفور له الشيخ الحملاوى ؛ ولهذا التقريظ أبلغ الدلالة على قوة الشاعرية عند المترجم ، فقد التزم فيه — على طريقة شعراء عصره — أن يكون الشطر الأول فى البيت تاريخاً لسنة ١٨٩٤ الفرنجية ، والشطر الثانى تاريخاً لسنة ١٣١٢ الهجرية ؛ وعدة التقريظ عشرة أبيات غاية فى الجزالة والفخامة ، على رغم القيود والأصفاد التى كبّل بها شاعريته ، مما لا يقدره قدره إلا من عاناه . وهو فى هذا الصنيع لا يقل عن الشيخ ناصيف اليازجى وولديه خليل وإبراهيم . اقرأ من هذا التقريظ :

شذا العرف بالطبع مبناه رق ... وبرق اصطفا الصرف لطفا برق
كتاب كريم أغار الحسود ... وأخمل كل كتاب سبق
صنيع أخى الفضل دانى الأيادى ... وأرقى جليل شريف الأرق
أغرّ البرايا النبيل الفريد ... مَنِ البدرُ دون ذكاه انمحق
غياث العلا الحملاوى العزيز ... مناط النهى من به الفخر حق
لعمرك هذا الذى عزّ جاها ... ببث ثناه المديح نطق

هذا شعر لو قيل على الطبيعة ، لدلّ على قوة الموهبة الشعرية عند قائله ؛ فكيف وقد كبّل كما قلنا بالأغلال والأصفاد ؟ .

ومما وقفنا عليه من شعره : « القصيدة النومية » التى ندع له رحمه الله تعالى تقديمها . قال :

« قال منشئها ، الفقير إلى الله ، حسين والى الأزهرى الشافعى ، ابن العلامة المرحوم السيد حسين والى ، الحسينى : سبب إنشاء هذه القصيدة ، أنى اجتمعت

مرة بالقطب الربانى ، والهيكل الصمدانى ، صاحب البركات والنفحات ، سيدى ومولاى الشيخ ابراهيم أبى العيون ، أستاذ السادة الصوفية ، وملاذ القادة الخلوتية ؛ وكَلَّمْتُهُ فى حالِهِ مع الغوث ، فقال : مِنِّى للمصطفى ؛ وبعد جدال مع الأستاذ فى شأن ذلك ، ومطالبته بالدليل ، قال لى : ما تراه فى النوم ، أخبرنى به . فما زلت أفكر فى أمره ، حتى رأيت فى الرؤيا بمصر ليلة الجمعة ٢٦ شعبان سنة ١٣١٤ ، النبى صلى الله عليه وسلم ، ويد الشيخ فى يده مثل المتصافحين ؛ وأنا والغوث على بعد يسير من الشيخ ، وقوفا فى تجاهه ، مغموسين فى أنواره صلى الله عليه وسلم ، تعمّنا هيبته ووقاره ؛ وأشار علىّ صلى الله عليه وسلم ، أن أمدح الشيخ ، وأصف حالى وحاله : فمدحته بهذه القصيدة واقفا ، حيث لم يتغير أمر واحد منا عمّا هو عليه ؛ وكأنّ هذا بالمدينة المنورة ، فى فضاء ، ليلا ؛ ثم استيقظت فكتبتها إلا قليلا شط عن فكرى ، فاجتهدت فيه إلى أن وفقت له بارشاد منه صلى الله عليه وسلم فى رؤية أخرى ؛ ثم لما تلوتها على الشيخ بحضرة الأجلاء من الإخوان ، أمرنى أن أصلى وأسلم على النبى صلى الله عليه وسلم فى بيت ، ففعلت ؛ فكانت واحدا وسبعين بيتا ، من مخلع البسيط ؛ ثم قال لى : انتظر الإذن منه بالتسمية ، فانتظرت ، حتى أذنت بهذا الاسم « الاشارة النبوية » وعلى الله القبول » اهـ .

ومطلع هذه القصيدة :

أَمْسَيْتُ بالله فى شُئُونِ والجِنُّ والإِنْسُ فى شؤونِ
لم أنسه، وهو خير معطٍ لا فى حَراك ولا سكون

ومنها :

والأمر عندى أمر ربى والأمر عندَى أمر دينى
أرنو ، ولكن لصنع ربى وذاته الأقدس المتين
فلو حلفت بأن عينى لم تغفُ ، ما زغت فى يمينى

أنسى هو الله فى جموع ... وفى عُدُون ، وفى ظعون[1]
فى الحب أُغرقت فى بحور ... وما لجأت إلى سفين
وإن شربت ، شربتُ نورا ... والناس تشرب من معين
سلوا قرينى إذا تسنّى ... عن كنه عشق يُجبُّ قرينى[2]
لا لوم ، إن لم أطع خدينا ... غَنِيت بالله عن خدين !
وهل أخاف سوى قوىّ ... عدل ، بقبضته وَتِينى
سقانى الله كأس شوق ... على ضروب من اللُّحون !

ومنها ، وهو فى الصميم :

أتاح قرب المزار عنى ... شكواى ، والقرب ذو نون
حقا أرانى أبو العيون ... طه — وربى — بالعيون
قطب يدور الرضا عليه ... ومنتهاه هُدَى البطون[3]
قطب جدير بأن يزجّى ... لبابه أجمع المتون
نفسى تطاوعه وكانت ... من قبل ، كالصافن الحرون
تبعتُه قدَراً ، وإنى ... دخلت فى كهفه الحصين
أزال إبليسَ عن نزالى ... حتى نجوت من الخؤون
بفضله السابق الفؤادى ... خلصت من زمن الفتون
به تحققت ما برانى ... لما تلقيت باليمين
فإن تكن للورى عيون ... فلى وحيدا أبو العيون !

ومنها ، وهو عوذتها :

يا مصطفى أنا منك فارأف ... بحادث وامق مَهين
مَثَلتُ بين يديك أرجو ... أن أستمر على اليقين
يا سيد الأنبياء إنى ... أهل لإحسانك الهتون
أنقذ فؤادىَ من أمور ... فإنما هو كالجنين

---

(١) عدون : إقامة . (٢) قرينى : الملك الموكل بى ، وتسنى : أمكن .
(٣) البطون . الاجيال .

لو لم أر الآن منك حلما لغُرْتُ فى نازل بَطِين[1]
على التقى والهدى أعنّى وسدَّ إن كثرت ديونى
وإن عصيت فكن شفيعاً فليس غيرك بالقمين
فإن نار السعير ليست تذاد عنَّ بالحصون
مَنْ ذا يُسلم فى وليد له إلى مُحْرِق مهين
وهل أرى فى القيام غيا وأنت - دون الورى - ضمينى ؟!

وختمها بقوله :

صلى وسلم مصطفيه عليه فوق مدى السنين

* * *

والقصيدة بالمقدمة المنقولة هنا ، مطبوعة بالمطبعة الشرفية سنة ١٣١٤ هجرية ، وبهامشها تعليقات وجيزة ، وهى فى أسلوبها ومعانيها ، تعرب عن نفسها .

* * *

رحم الله الإمامين الجليلين ، ونفعنا بآثار هذا السلف الصالح . آمين ؟

الفخر بالموت

كان العرب يتمادحون بالموت فى الحروب ، ويتهاجون بالموت على الفراش .

قال السموءل مفتخرا :

وما مات منا سيد حتف أنفه ولا طل منا حيث كان قتيل
تسيل على حد الظباة نفوسنا وليس على غير السيوف تسيل

يقول مامات سيد منا على فراشه قط ، ولا ذهب دم قتيل لنا هدرا ، ولم نر فى تاريخ جاهلية أمة أنهم كانوا على هذا النحو من استساغة الموت والتباهى به ، ولعل ذلك كان منهم مبالغة فى التمدح بالشجاعة .

---

(١) النازل البطين : المنفحت البعيد فى الأرض .

موقف المسلمين
من القرآن الكريم

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبد الحميد عنتر
الأستاذ بكلية اللغة للعربية

أُنزل القرآن على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، منذ ١٣٨٠ عاما [١] . ولم يزل بعناية الله محفوظاً من التحريف والتبديل إلى عصرنا هذا ، ثابتاً كالطود الشامخ ، يرد بغى الباغين ، وكيد الكائدين .

وكلما مرت عليه الأحقاب والسنون ، ازدادت على طول الزمن جِدَّته ، وتمثلت لقارئيه قوته ، وتجلت للناس عظمته ؛ ولن يزال كذلك بإذن الله حتى تقوم الساعة : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » .

ولقد كان للمسلمين معه فى تلك الحقب الطويلة موقفان : موقف السَّلَف ، وموقف الخلَف ؛ وهأنذا أشرح الموقفين . أما الأول فلذكراه الطيبة ، وأما الثانى فللعظة والاعتبار :

موقف السلف من القرآن :

لما نزل القرآن الكريم تلقّاه المسلمون الأولون بصدور منشرحة ، ونفوس مطمئنة ، وقلوب مؤمنة ؛ وجعلوه إماما يقتدون به ، ودستورا يعملون بأحكامه ، ويسيرون فى الحياة على ضوء تعاليمه .

كانوا يتلونه بألسنتهم فترتسم صور معانيه الجميلة على صفحات قلوبهم ، منقوشة بيد التوفيق والهداية والإخلاص لله ولرسوله وللمؤمنين .

---

(١) ذلك أنه ابتدأ نزوله قبل الهجرة بثلاثة عشر عاما .

كانوا يقرءونه فيجاوز حناجرهم إلى قلوب عمرت بالإيمان ، وملئت باليقين ، وأفعمت بالشجاعة !

كانوا يرتلونه ترتيلا ليتفهموا معانيه السامية ، ومراميه الواعظة ، وإشاراته الدقيقة ، واستلزم هـذا أنهم كانوا يؤدونه بطريقة الأداء العربى الفصيح ، الخالية من التلحين الموسيقى ، والنغم الغنائى ، الفاشيين الآن فى قراءة قرائنا . وطريقة العرب الأولين هـذه هى التى أشار اليها القرآن الكريم ، حاثا عليها الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله : « ورتل القرآن ترتيلا » [1] .

وقد فطنوا رضى الله عنهم لما فى القرآن من هداية وإرشاد ، فأحلوا حلاله ، وحرموا حرامـه ، ووقفوا عند الحدود التى رسمها لهم ؛ لذلك أثنى عليهم المولى جل وعز ، فقال : « فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتّبعون أحسنه ؛ أولئك الذين هداهم الله ، وأولئك هم أولو الألباب » .

فهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يقول حينما استشفع عنده حِبُّه أسامة ابن زيد فى إقامة حدّ السرقة على إحدى العظيمات من نساء قريش « ... أتشفع فى حد من حدود الله ؟ ! . وايمُ الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها ! »

وهذا عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول لعمرو بن العاص ، أحد دهاة العرب ، ووالى مصر الأول ، وفاتحها فى عهده ، لمناسبة حادثة شهيرة [2] ، يقول له : « متى تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا ؟ ! »

وهذا على كرم الله وجهه يقول لما نزلت آية تحريم الخمر : « لو وقعت قطرة فى بئر فبنيت مكانها منارة لم أؤذن عليها ، ولو وقعت فى بحر ثم جف ونبت فيه الكلأ لم أرعه ! »

أما الجهاد فى سبيل الله فقد طبّقوا فى شأنه توجيه القرآن المستفاد من قوله تعالى « وأعدُّوا لهم ما استطعتم من قوة ، ومن رِباط الخيل تُرهِبون به عدوَّ الله

---

(١) الترتيل فى القراءة : التمهل فيها والتبيين بغير بغى ، والبغى هنا معناه مجاوزة الحد فى الغنات والمدود ، وخروج التلاوة إلى الالحان والاغانى .

(٢) حكم فيها عمر رضى الله عنه أن يقتص المصرى من محمد بن عمرو بن العاص ، بالرغم من أنه ابن حاكم مصر !

وعدوكم » وجعلوه نُصب أعينهم ومطمح أنظارهم ، لكن لا للاستعمار والاستعباد والاستيلاء على حطام الدنيا الزائل ، بل جاهدوا فى الله حق جهاده ، وصبروا وصابروا ابتغاء مرضاة الله ، ولتكون كلمة الله هى العليا وكلمة الذين كفروا السفلى ، حتى قال سعد بن معاذ الأنصارى قبيل غزوة بدر مخاطبا رسول الله صلى الله عليه وسلم : « فوالذى بعثك بالحق لو استعرضتَ بنا هذا البحر فخضتَه لخضْناه معك ما تخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً . إنا لصُبرُ فى الحرب ، صُدْقٌ فى اللقاء [1] » وقال عقبة بن نافع لما حارب الروم والبربر وانتصر عليهم حتى وصل إلى بحر الظلمات (المحيط الاطلنطى) « يا رب لولا هذا البحر لمضيت فى البلاد مجاهداً فى سبيلك [2] » .

والمتتبع لتاريخ حياة أولئك المسلمين الأولين يرى أنها كانت حياة مودة وإخاء ، وعمل وكفاح ، وجد وجهاد وانتصار ، مع عزوف عن التكاثر فى الأموال للأفراد ، بل للأمة والدولة لمساعدة الفقراء والمعوزين ، ومع بعد عن الدنايا التى تفتك بالعقول والأجسام ، وضمان الحرية الكاملة لمن كان يخالفهم فى الدين من أهل الذمة ، اليهود والنصارى .

هكذا كانت حياة المسلمين الأولين التى أساسها تعاليم القرآن . وهى تلخص فى كلمات :

توحيد لا إشراك معه ، وجهاد لا بغى فيه ولا عدوان إلا على الظالمين ، وعمل لسعادتى الدنيا والآخرة ، وتكافؤ فى الحقوق الإنسانية ، وتمتع بالكفاف من الرزق الحلال !

وهذه الحياة الطيبة قد اقتبسوها من تعاليم القرآن ، وطرقه المثلى فى الهدى والإرشاد ؛ لذلك تم لهم ما أرادوا ، ففتحوا الأقطار ، ومصّروا البلدان ، وضربوا للإنسانية المثل العليا فى العدل والإخاء ، والحرية والمساواة ؛ ودامت دولتهم على هذا زمانا ليس بالقصير ، كانوا فيه مضرب الأمثال ، ومفخرة الأجيال ، ومعجزة التاريخ . وهذا مصداق قوله تعالى : « ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادىَ الصالحون » .

---

(١) سيرة ابن هشام (٢) تاريخ الامم الاسلامية ، محاضرات الخضرى بك الجزء الثانى .

هـذا موقف سلف المسلمين من القرآن العظيم : فاسمع أيها القارىء الكريم موقف منزل القرآن جل وعز من هؤلاء العظماء حيث يقول : « كنتم خير أمة أخرجت للناس ؛ تأمرون بالمعروف ، وتنهون عن المنكر ، وتؤمنـون بالله » !. وهذا هو الثناء المستطاب ، الذى تشرئب اليه النفوس ، وتثلج به الصدور !

موقف الخلف من القرآن :

والآن أشير الى موقف المسلمين من القرآن بعـد عصر النبى عليه السلام ، وعصر الخلفاء الراشدين وبنى أمية ؛ ليستبين فضل السلف من المسلمين السابقين ، وليتنبه المسلمون فى هـــذا العصر الى ما قصروا فيـه هم ومن سبقهم من مسلمى العصور الأخيرة ، لعلهم يتداركون مافاتهم من مجد وسؤدد ، ويحققون ما يرمى اليه القرآن من عز وكرامة ، واتحاد وقوة !

فقد وضع المسلمون الأولون أسس العظمة الإسلامية كما اقتبسوها من هدى القرآن الكريم ، وكان على من جاء بعـدهم أن يشيدوا على أسس هـذه العظمة صرحا إسلاميا عاليا ، قوىّ الأركان ، مضىء الجوانب ، يشع منه النور على جميع أرجاء المعمورة ؛ ولـكنهم — وياللأسف — لم يفعلوا شيئا من ذلك ! بل تأخروا وتقدم غـيرهم ، وكسلوا ، وجد وعمل غـيرهم . والى القارىء البيان . مجملا فى الشئون الآتية :

(ا) الاتحاد والتعاون :

دعا القرآن المسلمين الى الاتحاد والتعاون فى آيات كثيرة ، ومناسبات شتى ، فقال تعالى : « واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا » ، « ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم » ، « وتعاونوا على البر والتقوى ، ولا تعاونوا على الإثم والعدوان» « إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم » .

فماذا كان موقف الخلف من المسلمين إزاء هذه التوجيهات السديدة ؟

الجواب : أنهم ساروا على الضد منها ، ولم يفـطنوا للدسائس المجوسية الخفية ، التى دست بذورها فى أرض الجامعة الإسلامية من أواخر عهد عمر رضى الله عنه ، ثم نبتت فى أواخر عصر بنى أميـة ، ثم نمت وترعرعت فى عصر العباسيين ، ثم

كانت النتيجة أن ذهب ريح المسلمين ، وتقوض بنيان الخلافة أو الجامعة الإسلامية ، وقامت على أنقاضها دويلات مختلفة المشارب ، مفككة العرى ، ضعيفة الجانب . فماذا يرجى للإسلام منها وحالها على ما وصفنا ؟ ثم قامت دولة الترك العثمانية ، فلم تلبث أن منيت فى ريعان شبابها بدسائس أخرى على الطراز الأول ، أو أشد منه وأنكى ، وأخيراً تقوضت هى الأخرى ، وأصبحت فى خبر كان ! .

(ب) التوجيه القرآنى فى شئون الحرب :

قال الله تعالى « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم » ؛ وقال عز شأنه « وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس » . لقد أعد المسلمون الأولون ما استطاعوا فى وقتهم للقاء عدوهم فظفروا وكانت لهم الغلبة ، وقصر من جاء بعدهم من المسلمين فى تطبيق ما ترمى إليه الآية الأولى والثانية أيما تقصير ! ذلك أن ما كان يستطيعه المسلمون فى أول ظهور المخترعات الحربية الحديثة أكثر مما قاموا به فعلا ، إذ كان فى مكنتهم ـ لو أنهم عنوا بهذا التوجيه السامى — أن يتغلغلوا فى أوروبا ، وينقلوا الى بلادهم صناعة المعادن المختلفة ، وطريقة استنباطها من المناجم المحلية ، وينقلوا مع هذه الصناعة صناعة الأسلحة الحربية الحديثة ، التى تشملها كلمة (ما) فى الآية الكريمة ، والتى يفسرها قوله تعالى : « وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس » . أنزلنا الحديد : خلقناه . والتعبير بمادة النزول يشير الى أنه هبط على الأرض من لدن قادر حكيم . والبأس الشديد : ما فيه من قوة للفتك والإهلاك . ومنافع الحديد التى يرمز إليها القرآن : يفسرها ما هو مشاهد فى عصرنا هذا من استعماله فى كل مرافق الحياة إلا قليلا . وإنى فى هذه المناسبة أرسلها صرخة مدوية يرنّ صداها فى أنحاء العالم الإسلامى والعربى ، فأقول :

« أعتقد أنه لا تقوم للمسلمين ولا للشرق العربى قائمة إلا إذا جعلوا لشئون التعدين والصناعات المختلفة المقام الأول ، وبغير هذا لا يكون الجيش جيشاً ، ولا الدولة دولة . وسأبين بقية الشئون التى قصر فيها المسلمون الخلف فى فرصة أخرى ، إن شاء الله . فإلى اللقاء »

فى محيط المرأة

الحديث الذى ألقاه حضرة صاحب السعادة محمد العشماوى باشا فى حفلة
افتتاح الموسم الثقافى الثانى لمكتبة الأميرة فريال بمصر الجديدة
أصيل يوم الجمعة ٢٣ من يناير سنة ١٩٤٨

تفضل رئيس هذه المؤسسة الكريمة ، فكتب إلىّ يدعونى أن ألقى محاضرة فى حفلة الافتتاح ، ومبعث هذه الدعوى توهمه أنى محاضر ، وله العذر فى هذا التوهم ، فهو يعلم أن لى اتصالا بالميادين الثقافية والاجتماعية ، وجدير بمن توافر له مثل هذا الاتصال أن يكون محاضرا . ولقد أسلفت فى كثير من المواقف أنى لست بالمحاضر ، وإنما أنا رجل متحدث يرتجل حديثه ، وهيهات أن أعد للموقف موضوعا محدود التفاصيل والنقاط ، أو أن أتلو ما هو مكتوب فى أوراق ، فإذا سميت أحاديثى بالمحاضرات فتلك تسمية فيها الكثير من التجوز . وقد عرفت من نفسى أنى لا أستريح لغير الارتجال فى مقامات الكلام ، فلا طاقة لى بالجلوس لأعداد ما يقال . ولى أن أعتد هذا من عيوبى ، وأن أتوقع فى حديثى أن يكون سطحيا يعوزه التنسيق ، ويفوته ترتيب النتائج طوعا للمقدمات ، ومثل هذا الحديث لا يسمى محاضرة بالمعنى الصحيح . وإنى لأرجو أن يتبين من حديث الليلة صدق هذه العيوب ، فيكف أصدقائى عن دعوتى إلى الكلام باعتبار أنى ألقى محاضرة .

دعيت إلى هذه الحفلة كى أتحدث ، والداعى صديق تربطنى به صلات ثقافية واجتماعية ، فلم يطب لى أن أعتذر ، لأن تلك الروابط عندى أقوى من روابط النسب والمصاهرة ، وما أحوجنا إلى توثيق الروابط الثقافية والاجتماعية وتغلبها على روابطَ القربى : فالأولى توجهنا إلى الخير المحض ، والأخرى قد تورطنا فيما هو شر .

وما كان لى أن أعتذر ، وهذه الحفلة تقام لافتتاح الموسم الثقافى لمكتبة الأميرة فريال ، تلك المكتبة التى لها فى نفسى مقام ملحوظ ، وذكرى عزيزة : فقد أنشئت لنشر الثقافة فى ضاحية لها مكانتها ، وقد بذل فى سبيل إنشائها جهد موفور حتى أصبحت لا أقول : ضخمة ، ولكن أقول : أنيقة ، وإن الأناقة لمن حوافز القراءة ودواعى الاقبال على المطالعة ، ونحن محتاجون الى هذه الحوافز نعالج بها انصراف الناس عن دور الكتب وعن التزود من زاد العقول .

وأما الذكرى العزيزة لهذه المكتبة فى نفسى فهى أنى كنت خطيباً فى حفلة افتتاحها يوم شرفها جلالة الملك المعظم بزيارته ، وكان ذلك فى الفترة التى كتب على أن أكون فيها وزيراً للمعارف ، والحمد لله على السلامة منها . وقفت يومئذ أذكر ما للمكتبات من أثر فى توكيد النهضة وإمدادها بأسباب النماء والازدهار .

ولقد كان صديقى الداعى رفيقاً بى هذه الليلة ، فترك لى تحديد الموضوع ، وخيرا فعل ، فإنى لا أتحدث إلا فى موضوع يترك لى اختياره ، لأنى فى هذه المواقف من الهواة لا المحترفين ، وليس على الهاوى إلا أن يتكلم بما يجيش به صدره ، ويخطر بباله ، فى غير تكليف ولا إملاء .

سألت نفسى : فيم أتكلم ؟ ولم يطل بى التفكير ، فقد ذكرت أنى متهم بالتشيع للمرأة ، وكنت أرمى بهذه التهمة وأنا وزير للمعارف حين تظهر الترقيات ، فيقال إنى أرقى النساء الى الدرجات العليا التى هى وقف على الرجال . ولما كنت قد نشأت لا أفرق بين المرأة والرجل ، بل أعتقد أن الله خلقهما لتحقيق وحدة المجتمع وتنسيقه ، فانى لم أكن أعير سمعى لتلك الدعاوى التى تميز فريقا دون فريق .

وما إن ذكرت ذلك حتى اخترت « محيط المرأة » موضوعا للحديث ، وحسبى من دواعى الاختيار لهذا الحديث بعينه أنه متصل بهذه المؤسسة التى تحمل اسم أكبر درة فى تاج الفاروق ، وهى فخر الفتيات : الأميرة فريال . فليكن لموضوع الحديث قبس من ذلك الشرف الذى أضفى على تلك المؤسسة الكريمة .

وكذلك حفزنى على اختيار هذا الموضوع أننا فقدنا بالأمس القريب سيدة من أكرم سيدات الشرق على الشرق ، وهى المرحومة المبرورة هدى هانم شعراوى

وكلنا نعرف جولاتها فى الإصلاح ، وجهودها فى المطالبة بحقوق المرأة ، وما كان لها من مروءات ومبرات تؤيد بها الرسالة التى نصبت نفسها لهـا ؛ فمن تكريم ذكراها — طيب الله ذكراها — أن نتحدث عن شأن كان شغلها الشاغل وهمها الأكبر .

ومما زادنى إيثارا لهذا الموضوع أن المجتمع تشيع فيه اليوم ألوان من الآراء فى حقوق المرأة ، وتختلف المعسكرات الاجتماعية والثقافية فى تعيين اتجاهها وتبيان مهمتها . ولقد قرأت فى هذه الأيام كلاما ألقى فى شعبة من شعب هيئة الأمم المتحدة جاء فيه : أن المرأة الشرقية ما تزال محجورا عليها ، وأن هناك فوارق وفواصل بينها وبين الرجال ؛ وأن مرد ذلك الى الدين الاسلامى ، ووقوفه عقبة فى سبيل نهوض المرأة ومساواتها بالرجل .

وإذن فمن الخير أن يكون حديثى عن مقام المرأة فى ظل التشريع الاسلامى حتى يتبين ما لها من حقوق ، وما عليها من تبعات :

ولست أدعى أنى مستطيع من استيفاء القول فى هذا الموضوع فى وقفة واحدة ؛ فان شئون المرأة تتطلب سلسلة من المحاضرات والأحاديث ، ولا غرو فانها تكوّن نصف المجتمع ، وتوحى الى النصف الآخر ؛ وطالما قلت فى أحاديثى : إنى أخشاها ، وقد تكون خشيتى مبعثها الاحترام لها وتقدير مهمتها ، وقد يكون مبعثها إيمانى بقوة بطشها إذ هى نصف متحكم فى النصف الآخر ؛ فالرجال إن حكموا أو عملوا فانما يحكمون ويعملون بوحى من وراء الستار ؛ بل لقد ارتفع الستار وأسفر مبعث الإيحاء . وإن المرأة اليوم توجه وتتوجه ، وتثقف وتتثقف ، فهى ظاهرة الوحى ، غالبٌ أمرها فى كل شىء. فما قولك فى نصف هو الكل ؟!

حقا لقد مرت بالأمة فترات من الظلام أصاب المرأة فيها جانب من الحيف والإخضاع ، ولكن ذلك شذوذ اجتماعى يعرض للأمم فى بعض عصورها لعوامل طارئة ، ثم لا يلبث أن يزول .

إنى رجل أدين بالإسلام ، ولى من ثقافته قسط ، فمن الحق علىّ أن أجهر بأن الإسلام أول من مكن للمرأة فى المجتمع الإنسانى ، فليس بمجهول أن

المرأة حين بزغ نور الإسلام كانت فى حضيض الذلة والانحطاط ، ينكر عليها حق التوريث ، ويؤبى عليها أن تشترك فى أى نظام من نظم المجتمع ، فأعلن الإسلام مساواتها بالرجل ، إذ رسم لهما فروضا واحدة فى العبادات والمعاملات ، وجعلهما بمنزلة واحدة فى الحقوق والواجبات . ترى القرآن يخاطب المرأة والرجل على حد سواء فى شئون العاجلة والآجلة ، وتراه يبين أننا نشأنا جميعا من نفس واحدة ، وأننا افترقنا جنسين لكى نؤلف شطرى المجتمع البشرى ؛ وتراه يعتز بالأسرة ويعبر عن الزواج بأنه الميثاق الغليظ ؛ وتراه يدعو إلى المساواة بقوله : « ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف » .

وإن فى حياة الرسول صلوات الله عليه لما يدلنا على أنه لا فرق بين امرأة ورجل فى حق أو واجب ، فقد بايعه النساء كما بايعه الرجال ، وقد استفتوه فى شئونهم كما استفتاه الرجال . وفى عهد « عمر » كان الرجال والنساء يدعون جميعا إلى الاجتماعات العامة ، وما إن شق طريق الجهاد حتى انفتح للمرأة المسلمة باب وقفت فيه موقفا إنسانيا يتعطر به ذكر التاريخ ، وما إن تحلقت حلقات العلم وطلبت رواية الحديث حتى اشترك النساء بالسهم الوافر ، فرويت عنهن الأحاديث ونقل عنهن الشرع ، ولم يخف أثرهن فى سياسة أو اجتماع .

أطلق الاسلام حرية المرأة ، فأباح لها التصرف فيما تملك ، ولو وازنتَ بين شرائع الغرب وشريعة الاسلام لتجلى لك أن الاسلام أبر بالمرأة وأكفل لحقوقها وأكثر إفساحا لحريتها من التشريع الحديث . وأذكر أنى لقيت سيدة هى زوجة مشرع فرنسى كبير ، فتحدثتْ إلى فيما تحدثت تزف الى أن فرنسا فى طريقها إلى استصدار تشريع يبيح للمرأة المتزوجة التقاضى دون إذن الزوج . فقلت لها : أما زالت فرنسا متأخرة إلى هذا الحد ؟ فقالت : نحن أول أمة غربية سنّت هذا القانون ؛ فقلت لها : يؤسفنى بل يسرنى أن أخبرك بأن الاسلام فرغ من ذلك منذ أربعة عشر قرنا ، فمنح المرأة هذا الحق ، واعترف لها بالرشد التام .

فما لاريب فيه أننا نحيا فى ظل تشريع كفل للمرأة ما تطمح اليه من الحقوق ؛ وإذا كانت المرأة قد لقيت فى بعض العصور إعناتا وإجحافاً فليس الذنب ذنب التشريع ، وإنما هو ذنب الذين حرموا المرأة حقوقها المكتسبة ؛ ولذلك يجب

علينا أن نستقى الحقوق من منابعها الأصيلة الصافية ، قبل أن تكدرها عهود العنت والشذوذ . وإن نصوص التشريع وحقائق التاريخ لتدلنا أصدق الدلالة على أن ينابيع الاسلام الصافية تفيض بالخير للمرأة ، وتجود لها بحقوقها غير منقوصة .

ما ذا تطالب المرأة به ؟ بالثقافة ؟ لقد فرض عليها الاسلام أن تتعلم . بالميراث ؟ لقد أعطيت نصف حظ الرجل ، وليس فى هذا تمييز للرجال على النساء ، بل إن فيه تمييزا لهن على الرجل ، وأكاد أقول : إن فيه محاباة للمرأة ، فعلى الرجل تقع أعباء النفقات ، فان كان ثمة غنم له فى الميراث فهو غنم يقابله كبير غرم ، وكيف لا وقد رفعت عن المرأة أثقال الإنفاق على نفسها وعلى ذوى قرابتها ؟ ومن الانصاف إذا أردنا الحكم على شى أن نحكم عليه مجتمعا متصلا بمقدماته ونتائجه . بقى للمرأة مطالبتها بالحقوق السياسية ، فهل حرمها الاسلام تلك الحقوق ؟ كلا ، بل أباح لها أن تباشر مختلف الأعمال ، وتتولى شتى المناصب ، حتى منصب القضاء ، على اختلاف بين الفقهاء ، فمنهم من أجاز للمرأة أن تكون قاضية كالرجل سواء بسواء .

إنى لأعجب لتكرار الجدال فى حقوق المرأة ، وفى الموازنة بينها وبين الرجل ، حتى ليجعلنا هذا الجدال معسكرين ينقسم بهما جسم الأمة الى شطرين ، على حين أننا فى حاجة الى التمازج والتوحد . وفى معتقدى أن المسألة ليست مسألة حقوق للمرأة تجحد أو يعترف بها ، وليست مسألة موازنة بين النساء والرجال أى الجنسين أعلى وأقدر ، وليست مسألة عجز المرأة عن الحكم كالرجل ، فعلها أكفأ له ، وقد جربنا حكم الرجال من عهد آدم فكانت الحال كما نرى من بلاء وشقاء ، وبقى أن نجرب حكم المرأة فربما كان أحمد أثرا ، وأحسن عقبى .

المسألة فيما أعتقد توزيع الاختصاص على أساس من حسن توزيع القوى والمزايا وضروب الاستعداد . ونحن فى التوجيه الثقافى نهدف إلى توزيع الطلاب بحسب استعدادهم ومزاياهم دون نظر إلى رغبتهم وميلهم وحقهم الطبيعى ؛ فمن واجب الدولة أن توجه كل فرد من أفراد الأمة الوجهة التى هى أكثر صلاحية لها وأكبر غناء فيها .

وإن واجب التوزيع فى سبيل مصلحة المجتمع لا يمنع أن يشترك أبناء الأمة فى اختصاص عام ، ثم تكون لهم ميادينهم الخاصة فى غيره . والمرأة قد حباها الله رسالة جليلة هى إنشاء الجيل وتوجيهه ، فيجب أن نعدها لتأدية تلك الرسالة على خير الوجوه ، ولكى ندرك قيمة إعدادنا لها يجب أن نتمثل أن أبناءنا إذا نشئوا فى بيئة جاهلة رضعوا الجهالة والخمول ، فلا تزداد بهم الأمة إلا ضعفا على ضعف ، والأمم لا تقاس مكانتها بعدد أبنائها ، وإنما تقاس بما لهم من كفايات ومزايا وقوى فى معترك الحياة . وما دمنا لا نعنى باعداد المرأة حتى تخرج لنا الجيل الصالح القوى بأخلاقه ، السليم فى عقله وجسمه ، فانه لا رجاء فى نهوض ، وسنبقى نعيش ونسير بشق مائل ، تتعثر خطانا ، ونستهدف للتداعى والسقوط .

فليكن من همنا أولا أن نهيء المرأة لرسالتها الكبرى ، ثم نأخذ ما زاد من وقتها وما فضل من جهدها للانتفاع به فى الميدان العام ؛ على أن المرأة هى فى ميدانها الأول ملكة متوجة ، وفى ذلك الميدان العام جندى فى غمار الجنود ، فلتفرغ لمملكتها قبل كل شيء ، وليكن عملها فى الميدان الآخر نافلة تسخو بها نفسها حين تطمئن الى أنها قامت بالفروض خير قيام . فأما أن تحل بنا الفوضى ، فنرى المرأة تزهد فى رسالتها لتتمزق جهودها فى ميادين مختلفة فإن ذلك يجعل شأننا كشأن جيش ذى وحدات ضربت فيه الفوضى أطنابها ، وترك الجند فيه مراكزهم ، فخلت وحدات من أبطالها ، وغصت وحدات بغير رجالها . فكيف يتسنى لجيش مختل النظام كهذا الجيش أن يحارب أعداءنا الثلاثة من فقر وجهل ومرض ؟

نحن لا ننكر على المرأة أن تتعلم وأن تبالغ فى التعلم ، ولا نأبى عليها أن تشارك فى أى ضرب من ضروب العلوم والفنون والآداب ؛ ولكننا ننكر عليها كل الانكار ونأبى عليها كل الإباء أن تتمرد على ما يفرضه النظام الاجتماعى وما تلزمها إياه الطبيعة الانسانية من عنايتها بإنشاء الجيل وتوجيهه والاستعداد له حتى لا ينشأ فى عماية وضلال .

إن المرأة المصرية تطالب اليوم بحق الانتخاب ، وإنى مؤيدها فى هذا المطلب ، متعجب أشد التعجب ممن يخالفونها فى الرأى ، فالغرض من الحياة النيابية هو

الاشراف والتوجيه ، وللمرأة نصيبها الأكبر فى التوجيه ؛ وكذلك من أغراض الحياة النيابية التقنين ، وللمرأة عملية تمكنها من الاشتراك فى سن القوانين ، وليس التقنين إلا ضوابط اجتماعية لمنع الشذوذ ، ولحشد الجهود منظمة فى سبيل الخير والحق ؛ وهناك من القوانين ما هو خاص بالأسرة ، وذلك هو اختصاص المرأة الأصيل ، ومن القوانين ماهو خاص بالأملاك والضرائب ، والمرأة مالكة كالرجل ، فمن حقها أن تشترك فى المراقبة التى هى مناط الحكم فى الدساتير . وإن من القواعد المقررة أن من يدفع ويؤدى ، له الحق فى أن يشرف ويراقب ، والمرأة لها نصيبها فى الثروة والملك والميراث ، فكيف تؤدى الضرائب ولا يكون لها حق المراقبة والإشراف ؟

بيد أنى أشفق على المرأة المثقفة من أن يشغلها اقتضاء هذا الحق عن أداء رسالتها الكبرى ، رسالة إنشاء جيل ديمقراطى يزن الحقوق ويقدر الواجبات ، ويحسن النهوض بالتبعات ، ويقوى على مواجهة التيارات العارمة فى ركب العالم المتحضر .

ومن المعلوم أن الدستور المصرى لم يحرم المرأة حقوقها السياسية ، ولكن قانون الانتخاب جعل الانتخاب مقصورا على الرجال ؛ ولعل ذلك لأننا كنا حديثى عهد بالأوضاع الدستورية ، فأريد لنا أن نخطو خطوات رفيقة لا طفرة فيها ولا وثاب .

وأحسب أنه قد آن لنا أن ننتفع بالمرأة فى المجالس التشريعية ، فان التشريعات اليوم لم تعد مقصورة على فن الحكم الضيق ، إذ أصبحت الحكومة محور الشئون الاقتصادية والاجتماعية .

فلنبح للمرأة الاشتراك فيما يدخل فى اختصاصها ؛ ولنلاحظ فى تعليمها أن نعدها لرسالتها الكبرى أولا وللرسالة العامة أخيرا .

وأذكر أنى تحدثت فى وقت مضى الى كبير يابانى ، فعلمت منه أن فى اليابان جامعة للفتيات ، فسألته : أتخشون الاختلاط بين الجنسين ؟ فأجابنى : لسنا نخشى

من ذلك شيئا ، وإنما قصدنا أن نهيء للفتاة ثقافة تؤدى بها رسالتها ، ولا نمنعها مع ذلك أن تتجه الى الميدان العام كما تريد.

ونحن فى مصر حتى اليوم لم نؤسس جامعة خاصة نهيء فيها المرأة لرسالتها الخاصة ، فتخرج الى الحياة مزودة بثقافة فى تكوين الأسرة وتوجيه الزوج وتنشئة الطفل وهداية الشباب.

ولا نزاع فى أن ميدان الخدمة الاجتماعية هو خير الميادين لجهد المرأة ، ونحن أحوج ما نكون الى تعمير هذا الميدان بالعنصر الصالح له .

فعلينا أن نعمل على الانتفاع بجهود الجنسين متضامنين متفاهمين ، بدلا من أن نضيع الوقت فى جدال عقيم حول الحقوق التى استقرت وتبينت .

وحسبنا دليلا على حق المساواة وأنه طبيعى لا ريب فيه ، أن الريف المصرى يضم خمسة عشر مليونا يعمل نصفهم من النساء عمل الرجال بجانب عملهن الخاص. وليس بعد هذا برهان على استطاعة المرأة العمل فى الميدانين الخاص والعام ، ولكن الريفية لم تثقف ولم ترب ، ولذلك تعانى ضعفا فى القيام بمهمتها التى تبذل فيها جهدها كله ، ولو تجردت نساؤنا المثقفات للخدمة الاجتماعية فى الريف لارتفعن به الى مستوى لائق كريم .

فلتعمل المرأة والرجل ، فإنه لا خير فى مجتمع لا يتعاون فيه الجنسان معا على العمل . ولنعلنها حربا لا هوادة فيها على عوامل الفقر والمرض والجهل ، حتى ننهض بالأمة نهضة حقة ؟

بلاغة الاستعطاف

لما ظفر المأمون بابراهيم بن المهدى ومثل بين يديه ، قال ابراهيم : كل ذنب دون عفوك ، فإن صفحت فبكرمك ، وإن أخذت فبحقك .

ثم قال : يا أمير المؤمنين: إنه وإن كان جرمى يبلغ سفك دمى ، فحلم أمير المؤمنين وتفضله يبلغانى عفوه ، ولى بعدهما شفعة الاقرار بالذنب ، وحرمة الأب بعد الأب . فقال المأمون : لو لم يكن فى حق نسبك ما يبلغ الصفح عن زلتك ، لبلغك إليه حسن توصلك ، ولطيف تنصلك .

ابراهيم هذا كان عما للمأمون ، خرج عليه وقاتله ليغتصب الخلافة منه .

ابن حزم

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبد الله المراغى
مدير إدارة المساجد بوزارة الأوقاف

نسبه ومولده ونشأته :

هو أبو محمد بن على بن أحمد بن سعيد بن حزم بن غالب بن صالح بن خلف ابن معدان بن سفيان بن يزيد مولى يزيد بن أبى سفيان بن حرب بن أمية بن عبد شمس الأموى . وأصله من بلاد فارس . وأول من عرف مسلما من أجداده يزيد . ولم نقف فى تاريخ صحيح على رفع نسبه بعد يزيد . يقول صاحب كتاب « نفح الطيب » : إن أباه أحمد يكنى بأبى عمرو ، وجده « غالب » بن يزيد . ويقول ابن خلكان : إن « غالبا » بن صالح كما قدمنا . ويرجع الاضطراب فى اسم بعض أجداده إلى أن النسابين لم يعنوا بالأنساب التى تنحدر من أصول غير عربية عنايتهم بالأصول العربية . والمعروف أن أول من دخل الأندلس من أجداده جده خلف ، فأقام فيها وأعقب ، حتى ولد علىّ المشهور بابن حزم فى بيت كريم من والد عظيم هو أبو عمرو أحمد الذى كان رئيسا للوزارة فى عهد المنصور بن أبى عامر . وكان مولده فى آخر يوم من رمضان سنة ٣٨٤ هـ — ٧ من شهر نوفمبر ٩٩٤ م فى قرطبة . ولا عجب أن ينشأ ابن حزم نشأة كريمة فيها نباهة الشأن ، ورجاحة العقل ، وحرية الرأى ، وشجاعة القلب ، وجرأة المنطق ، والطموح الى المعالى ، والمغامرات فى سبيل الاحتفاظ بالمجد والتسامى فيه .

لذلك نرى أن ابن حزم قد توافرت له عوامل النبوغ والنهوض ، واجتمعت له أسباب كثيرة تفاعلت فأضفت عليه من ذيوع الصيت ورفع الذكر ما لم يجتمع لغيره فى عهده ، بل ندر أن يحفظ التاريخ فى غير عهد ابن حزم ما حفظه لابن حزم من مقومات العظمة ، وبواعث الإجلال التى كانت مثار إعجاب محبيه والمعجبين به ، ومثار شنآن مبغضيه وشانئيه والحاقدين عليه .

تعلمه وشيوخه ونبوغه :

لم يلبث ابن حزم حين درج ، حتى حفظ القرآن فى سن مبكرة ، ثم عُنى بحفظ متون العلوم وهو لا يزال يافعا ، ثم أخذ يتذوق معانى هذه المتون حتى أحاط بموضوعاتها على أكابر علماء قرطبة الذين لمحوا فيه لونا من الذكاء قلّ أن يُعرف بين معاصريه ، واستشرفوا فيه فطنة أكبروها ؛ فأعربوا لوالده أن لولده مستقبلا عظيما ينتظره . ويذكر ابن حزم فى كتابه « طوق الحمامة » أن شيخه فى كثير من العلوم هو العالم الكبير عبد الرحمن بن أبى يزيد الأزدى الذى غادر الأندلس فى حرب الطوائف . كما درس ابن حزم على الشيخ أحمد بن الجسور عالم الأندلس المتوفى فى سنة ٤٠١ هـ . ومن شيوخه الذين نشّئوه يحيى بن مسعود المحدث المشهور ، وقد تلقى عليه ابن حزم الحديث رواية ودراية ؛ كما أخذ الفقه عن شيوخ قرطبة ؛ وكان فى نشأته شافعى المذهب ، ثم انتقل إلى مذهب أهل الظاهر . وأخذ المنطق عن محمد بن الحسن المذحجى القرطبى . وله شيوخ أخر كانوا يترددون على منزل والده يتناوبون ابن حزم تأديبا وتعليما ؛ ولكن ابن حزم لم يكن بالتلميذ الذى يعتمد على معلميه يرضع على أيديهم ثدى العلوم ، أو يرتكن على ما يستخلصه أساتذته من عصارات الفنون ؛ بل كان عصاميا ؛ فما إن شبّ عن الطوق حتى أخذ يقرأ لنفسه ، ويدرس لنفسه ، ويفكر لنفسه ، معتدا برأيه ، مستقلا بفهمه ، معتزا ببحثه ؛ ونبغ فى علوم جمة ، فكان فقيها مفسرا محدثا أصوليا متكلما منطقيا طبيبا أديبا شاعرا مؤرخا ، عاملا بعلمه ، ثم زاهدا فى الدنيا بعد الرياسة التى كانت له ولأبيه من قبله فى الوزارة وتدبير الملك فى بلاط أمراء قرطبة .

ابن حزم بين عهدين :

كان ابن حزم فى عهده الأول رجل العلم والحكمة والرياسة والحكم ، وكان وزيرا يكبر الوزراء ، ومستشارا بين المستشارين ، عالما يفوق العلماء فى ذلك العهد الذى قرب إليه الكثيرين وحبب إليه الكثيرين ، كما أبعد عنه الكثيرين وبغّض فيه الكثيرين ، فكان له أصدقاء وأعداء ؛ فلما نشبت الاضطرابات السياسية فى قرطبة التى أنزلت الأسرة العامرية عن عرشها ، وقد كان والد ابن حزم مستوزرا فيها ، تأثر مركز الوالد والولد بهذه النكبة الفادحة ، فعانى الاثنان من صنوف المحن

الشيء الكثير وخاصة بعد سنة ٤٠٠ هـ — سنة ١٠١٠ م ؛ فقد عاد هشام الثانى الى العرش ، وكان لهذا أثره فى نفس الوالد حتى توفى فى نهاية ذى القعدة سنة ٤٠٢ هـ فأقام ابن حزم بقرطبة بعد وفاة والده الى المحرم سنة ٤٠٤ هـ فغادرها حيث لم يطب له فيها المقام ، وهو لا يطيق الضيم ولا يرضاه ، ولا يطعم الذل بل يأباه ؛ فقد وجد أن الحروب الأهلية مزقت شمل الأكابر فى قرطبة ، وأن البربر خربوا قصر أسرته البديع ، فلم يجد بدا من الرحيل ، فاختار المرية مكانا لإقامته .

ولكن هل طابت الإقامة لابن حزم فى هذه البلد ؟ نعم إنه استطاع أن يعيش قليلا هادىء البال ، حتى اتفق على بن محمود مع خيران صاحب المرية على خلع الأمير سليمان الأموى عام ٤٠٧ هـ ، وعظم نفوذ خيران ، ورأى فى ابن حزم خصما يتآمر عليه لمصلحة الأمويين ، فلم ير بدا من سجنه هو وصديقه أحمد بن إسحاق للتخلص من نشاطهما ، فظلا فى السجن بضعة أشهر ؛ ولكن ابن خيران رأى فى بقائهما — ولو سجينين — شبحا مخيفا ، فنفاهما حيث ذهب الرجلان الى حصن القصر ، فوجدا من حاكمه صدرا رحبا ، ومكثا عنده موضع التكريم والقبول ، حتى نودى بعبد الرحمن الرابع المرتضى خليفةً فى مدينة بلنسية . فاستأذنا حاكم حصن القصر وركبا سفينة ذهبا فيها الى هذه المدينة ؛ فلما وصلا رأى عبد الرحمن أن يستوزر ابن حزم ففعل ؛ فلما قامت حرب غرناطة اشترك فيها ابن حزم مع جيش الخليفة ، فوقع فى الأسر ، ولم يلبث فى الأسر طويلا ، بل أطلق سراحه بعد مدة قليلة ؛ فرأى أن يرجع الى قرطبة ، فعاد إليها فى عهد الخليفة القاسم بن حمود سنة ٤٠٩ هـ بعد أن تركها ست سنوات .

ولما نودى بعبد الرحمن الخامس المستظهر خليفةً بعد خلع ابن حمود سنة ٤١٤ هـ وكان الخليفة الجديد صديقاً لابن حزم ، ولكن الحظ العاثر لازمه هذه المرة أيضاً ، فلم يستمتع بالمنصب طويلا ؛ فإن صديقه عبدالرحمن قتل فى نفس العام بعد بضعة أسابيع ، وزج بابن حزم فى السجن . وهكذا كان ابن حزم يخرج من شدة الى شدة ، ويبارح سجناً الى سجن . فقد قضى فى السجن فترات إن كان المؤرخون لم يحددوها بالضبط فإنها من غير شك أثرت فى حالته النفسية ، وعرقلت جهوده ، ووقفت إنتاجه العلمى . ويذكر بعض المؤرخين أن ابن حزم استوزره

هشام المعتد بعد ذلك. وهنا يغفل التاريخ ما آل إليه ابن حزم . ولكن المؤكد أن ابن حزم اعتزل أمور السياسة، وتفرغ للدرس والتأليف والدفاع عن آرائه. وهذا عهده الآخر الذى لم يهنأ فيه بالاستقرار، كما سنبين بعد .

مرحلة من حياة ابن حزم :

أسلفنا أن ابن حزم كان شافعى المذهب ؛ ثم جنح الى الاجتهاد سالكا طريق أهل الظاهر، آخذاً بظاهر الكتاب والسنة ، حاملا على أهل القياس؛ ولم يحجزه جلال الأئمة — كأبى حنيفة ومالك والشافعى — عن الطعن فى آرائهم ، والرد عليهم مجرحا أدلتهم ؛ وكان لسانه فى نقد سواهم من العلماء أشد وأسلط حتى لا يكاد يسلم أحد من لسانه .

قال أبو العباس بن العريف : «كان لسان ابن حزم وسيف الحجاج بن يوسف الثقفى شقيقين» . فقد كانت له حرية واسعة فى نقد خصومه ومخالفيه فى الرأى جعلته هدفا للسهام، وغرضاً للنبال ، فلم يكن فى حياته الجديدة هادىء البال ، مطمئن النفس ، لكثرة أعدائه وخصومه ، الذين بادلوه ذما بذم ، ونقداً بنقد لم يسلم فيه من التجريح ، فنفروا منه القلوب ، وأبعدوا عنه الأمراء ، وحذروا منه العامة ، وبغضوا فيه الطلاب ؛ ولذلك لم يتلمذ له إلا نفر قليل من أولئك الذين لم يخشوا فى مرافقته لومة لائم . وقد بلغ من أمره أن المعتضد بن عباد أحرق كتبه بإشبيلية ، فقال ابن حزم :

دعونى من إحراق رق وكاغد ... وقولوا بعلم كى يرى الناس من يدرى
فإن تحرقوا القرطاس لن تحرقوا الذى ... تضمنه القرطاس بل هو فى صدرى
يسير معى حيث استقرت ركائبى ... وينزل إن أنزل ويدفن فى قبرى

ويقول فى تسلية نفسه عن السجن :

ولكن لى فى يوسف خير أسوة ... وليس على من بالنبى ائتسى ذنب
يقول مقال الصدق والحق إننى ... حفيظ عليم ما على صادق عتب

هذه عجالة تجلى لنا ما لقى ابن حزم فى حياته من أحداث الزمن ، وغير الدهر ، ولنا عودة أخرى ، إن شاء الله ؟

علم الاجتماع

بين ابن خلدون وأوجست كونت

لحضرة الأستاذ سعيد زايد
المحرر بمجمع فؤاد الأول للغة العربية

نشرنا فى عددى جمادى الآخرة وشعبان من العام الماضى بحثا فى علم الاجتماع بين ابن خلدون ومونتسكيو، والآن نحاول أن نعقد المقارنة بين فيلسوفنا العربى وفيلسوف غربى آخر هو أوجيست كونت. ونعتذر مقدما لحضرات القراء الكرام إن لاحظوا بعض التكرار. وسنتناول فى هذا البحث الكلام عن موضوع علم الاجتماع، والأساس القائم عليه، ومنهج البحث عند كل منهما، والموضوعات الفرعية التى تكلم فيها كلاهما.

١ — موضوع علم الاجتماع والأساس القائم عليه:

رأى ابن خلدون أن هناك أخطاء شائعة لدى المؤرخين فى نقل الأخبار وتصوير الحوادث؛ وذلك يرجع فى كثير من الأحيان الى جهل هؤلاء المؤرخين بأحوال الاجتماع البشرى والأصول الخاضعة لها هذه الأحوال؛ فهم لم يعرفوا أن هذا الاجتماع فى أحواله وظواهره يشبه كل الحوادث الطبيعية التى تخضع لقوانين ثابتة، كما أنهم لم يعرفوا أن النظم الاجتماعية ليست لها صفة استقرار ولكنها تختلف باختلاف الأمم والأزمان والأمكنة. وشعر ابن خلدون بضرورة إنشاء علم جديد مستقل «ذى موضوع وهو العمران البشرى والاجتماع الانسانى، وذى مسائل وهى بيان ما يلحقه من العوارض والأحوال لذاته» «فإذا كانت

كل حقيقة متعلقة طبيعية يصلح أن يبحث عما يعرض لها من العوارض لذاتها وجب أن يكون باعتبار كل مفهوم وحقيقة علم من العلوم يخصه » . ويظهر من هذا أن الموضوع الذى يتناوله ابن خلدون بالبحث فى هذا العلم المستقل هو الكشف عن القوانين التى تخضع لها تلك العوارض والأحوال التى نسميها نحن الآن بالظواهر الاجتماعية التى لا تسير أبدا وفق الأهواء والمصادفات ولا حسب مايوجهها إليه آراء الأفراد ، ولكنها تخضع أبدا لقوانين خاصة ثابتة مطردة لاتقل فى ثبوتها واطرادها عن قوانين حركات الشمس فى شروقها وغروبها ، وتغيرات القمر فى تزايده وتضاؤله ، وأن النظم الاجتماعية لاتستقر على حال وتختلف بعضها عن بعض بحسب اختلاف الأمم والأزمنة والأمكنة . والى هذه الفكرة يشير بقوله « فإن كل حادث من الحوادث ذاتا كان أو فعلا لا بد له من طبيعة تخصه فى ذاته » و « أن أحوال العالم والأمم وعوائدهم ونحلهم لا تدوم على وتيرة واحدة ومنهاج مستقر ، وإنما هو اختلاف على الأيام والأزمنة وانتقال من حال الى حال ، وكما يكون ذلك فى الأشخاص والأوقات والأمصار فكذلك يقع فى الآفاق والأقطار والأزمنة والدول » .

أما أوجيست كونت فلا يعنى بتحديد موضوع علم الاجتماع تحديداً تاماً ، ولا يفرق بينه وبين ما تدرسه العلوم الأخرى ؛ لأنه يرى أنه كل ما عدا الظواهر الكونية والرياضية ، وهو لا ينظر إلى المجتمع باعتباره جملة أفراد مستقلين منفصلين ، وإنما يرى أن للجماعة روحها الخاصة التى تضغط على الأفراد فتكون هناك طبيعة عامة تمتاز بها الجماعة وحدها ، ولهذه الجماعة قوانين تسير على مقتضاها ، فيجب دراسة عناصر المجتمع ثم الوظائف التى تقوم بها الظواهر الاجتماعية ، والدعائم التى ترتكز عليها هذه الوظائف وعلاقة الوظائف بعضها ببعض ؛ ولما كانت الظواهر الاجتماعية خاضعة لقوانين تشبه القوانين الطبيعية فى ثبوتها واطرادها فلا بد من البحث عن هذه القوانين والكشف عنها حتى يتسنى لنا أن نصلح المجتمع على أساس ذلك ، وإصلاح المجتمع كان غرض كونت المنشود ؛ فإنه رأى أنه لا يمكن أن يقيم إصلاحه هذا والفساد ضارب أطنابه على التفكير ، والفوضى العقلية سائدة ، فلا بد أولاً أن يكون التفكير علمياً ، وأن ننتقل إلى

المرحلة الوضعية فى علم الاجتماع كى تنسجم كل أنواع التفكير ، وحينئذ يمكننا أن نسير فى إصلاحنا ؛ فمن الواجب أن ننظر بعين واحدة لكل العلوم فلا ندرس العلوم الطبيعية دراسة وصفية تحليلية نقصد منها الكشف عن القوانين ، ثم ننظر إلى الظواهر الاجتماعية كأنها أشياء ميتافيزيقية لا سبيل إلى دراستها وتحديدها ، فإن هذا لا يصح ، بل يجب أن ندرس الظواهر الاجتماعية دراسة وصفية تحليلية هى دراسة ما هو كائن كما هو الشأن فى العلوم الطبيعية ، وبذلك ننتقل بعلم الاجتماع الى المرحلة العلمية ، وبذلك أيضاً يتم الانسجام فى التفكير .

٢ — منهج البحث :

من المعروف أن المنهج العلمى لعلم الاجتماع هو دراسة العالم للظواهر الاجتماعية كما يدرس أشياء واقعية ، دراسة يتخلى فيها العالم عن الآراء السابقة ، فيحلل الظواهر ويعرف كنهها وحقيقتها وخصائصها ، ويستعين فيها بالملاحظات والتجارب ، وبالنتائج التى وصلت اليها العلوم الأخرى ، وعلى ضوء كل هذا يحاول الكشف عن الوظائف التى تؤديها هذه الظواهر وعن علاقاتها بعضها ببعض ، ثم يستنتج القوانين العامة الخاضعة لها هذه الظواهر . وينهج ابن خلدون منهجا علميا فهو يستقرىء الحوادث التاريخية ، ويرى أنها مرتبطة بعضها ببعض ارتباط العلة بالمعلول والسبب بالمسبب ، ويرى أن الأغلاط التى يرتكبها المؤرخون ناتجة عن أنهم لا يقيسون الماضى والحاضر والمستقبل بمقياس واحد ، ولا يتورعون عن ذكر أشياء خارجة عن منطق الواقع ، ولا تتفق مع نواميس العمران فى شىء ، وهذا يدل على جهلهم بطبائع الأحوال فى العمران أى القوانين التى تخضع لها الظواهر الطبيعية والجهل بقوانين الظواهر الاجتماعية أيضا . فابن خلدون يقول مثلا فى صدد تحرى الحقائق التاريخية : « فليرجع الأنسان الى أصوله وليكن مهيمنا على نفسه ، ومميزا بين طبيعة الممكن والممتنع بصريح عقله ومستقيم فطرته ، فما دخل فى نطاق الإمكان قبله ، وما خرج عنه رفضه » . ويشرح هذا الامكان فيقول « ليس مرادنا الامكان العقلى المطلق فان نطاقه أوسع شىء فلا يفرض حدا بين الواقعات وإنما مرادنا الامكان بحسب المادة التى للشىء ، فاذا نظرنا أصل الشىء وجنسه وصنفه ومقدار عظمه وقوته أجرينا

الحكم عليه من نسبة ذلك على أحواله . . . » مع الابتعاد فى كل ذلك عن التشيع لآراء أو مذاهب أو ميل إليها ، لأن النفس « إذا خامرها تشيع لرأى أو نحلة قبلت ما يوافقها من الأخبار لأول وهلة ، وكان ذلك الميل والتشيع غطاء على عين بصيرتها عن الانتقاد والتمحيص . . . » وابن خلدون فى نقده للمؤرخين يحاول أن يربط بين تطور الاجتماع الانسانى وبين علله القريبة ، فهو ينظر فى أحوال الجنس والهواء ووجوه الكسب ويعرضها مع بيان تأثيرها فى التكوين الجسمى والعقلى فى الانسان وفى المجتمع .

أما كونت ، فيتبع الطريقة الوضعية فى بحثه عن الظاهرات الاجتماعية وتطورها وانشعابها ، ويقول إن من الواجب على عالم الاجتماع كى يستطيع ذلك أن يكون ملما بمحصول علمى كامل يبدأ من الرياضة حتى البيولوجيا التى تبين للعالم الطريقة المقارنة ، فلا بد للعالم أن يسير من السهل الى المركب ، فالرياضة ضرورية لكى يعتاد الانسان التفكير الوضعى ، لكن الظاهرات الاجتماعية لا تحتاج الى استخدام الأعداد والتحليل وحساب المحتملات ، فان مثل هذا الحساب إذا طبق على الظواهر الاجتماعية منعنا من المعرفة المضبوطة التى تمكننا من إخضاع الظواهر لقوانين كسائر ظواهر العلوم المختلفة . . . وكذلك يجب أن يلم الباحث الاجتماعى بالعلوم الفيزيقية والطبية وهى التى تكون الملاحظة بها أول وسيلة للبحث .

وعلى كل حال فأوجيست كونت يستخدم المنهج التاريخى فى الاجتماع ، فالاجتماع علم مجرد والتابع الرئيسى له هو التاريخ ، هذا التاريخ الذى غرضه البحث عن القوانين التى تحدث التطور الاجتماعى بمقتضاها ، ولا يصح أن ننظر نظرة جزئية لهذا الضرب من التاريخ ، بل يجب أن نعتقد أن الظاهرات بأنواعها تتطور تحت تأثير متبادل بينها ، فلا يصح تفسير التطور بنوع معين من الظاهرات دون أن نعرف فكرة عامة عن التطور الكلى ، فيجب أن نتبين الحالات الخاصة من حيث النوع والزمن ، وبهذه الاتجاهات تتعين مجموعة من الظواهر معدة لأن تدرس دراسة اجتماعية ، فاذا تم ذلك يمكن تعيين ازدهار ظاهرة من الظواهر طبيعية كانت أو أخلاقية أو عقلية أو سياسية ، واتصال هذه الناحية باضمحلال الظاهرة المضادة .

وهكذا فإن كونت أقام المنهج الوضعى ، ولكنه لم يستطع أن يطبقه على الاجتماع إلا بفرض علم معين له واقعيته وهو التاريخ الذى أمده بالأمثلة العملية لتطور الظواهر الاجتماعية ، ومن هذه الناحية يوجد شبه بينه وبين ابن خلدون ، ولكن ابن خلدون استعان بالتاريخ من أجل الاجتماع ، ففرض كونت الأول والأخير هو الاجتماع . والمهم أن ابن خلدون وكونت فكرا فى التاريخ حين فكرا فى الاجتماع ، وأنهما وفقا الى ذلك باتباعهما المنهج الواقعى ، ولما كان التاريخ يعد أمثلة عملية تطبيقية للظواهر الاجتماعية فقد استعان كلاهما به .

٣ — الموضوعات التى تناولها كل منهما :

تعتبر مقدمة ابن خلدون جامعة لكل البحوث الاجتماعية التى ظهرت فى العصر الحديث على يد دوركهيم ، أو بعبارة أخرى التى بعثت على يد دوركهيم بعد ما كادت تطوح بها أيدى البلى بعد وفاة كونت ؛ فإذا رجعنا الى مقدمة ابن خلدون رأيناه يلخص مادة علمه من الناحية الموضوعية فى أنها « ما يعرض للبشر فى اجتماعهم من أحوال العمران والملك والكسب والعلوم والصناع ، بوجوه برهانية يتضح بها التحقيق فى معارف الخاصة والعامة وتدفع بها الأوهام والشكوك » . ثم بعد ذلك يقسم موضوعه الى ستة أبواب تكلم فى الباب الأول عن العمران البشرى على الجملة وقسطه من الأرض ، وفى الباب الثانى عن العمران البدوى وذكر القبائل والأمم الوحشية ، وفى الباب الثالث عن الدول والخلافة والملك وذكر المراتب السلطانية ، وفى الباب الرابع عن العمران الحضرى والبلدان والأمصار ، وفى الباب الخامس عن الصنائع والمعاش والكسب ووجوهه ، وفى الباب السادس عن العلوم واكتسابها وتعلمها .

وهذا لا يقل عن تقسيم المدرسة الاجتماعية الحديثة التى بعثت دراسة كونت من حيث القيمة والشمول لمواضيع الاجتماع ، فالباب الأول يقابل مقدمة علم الاجتماع أو الاجتماع العام ، والباب الثانى يقابل أصول المدنية الانسانية ، والباب الثالث يقابل الاجتماع السياسى ، والرابع يقابل المورفولوجيا الاجتماعية أو دراسة التركيب الجمعى ، والباب الخامس يقابل الاجتماع الاقتصادى ، والسادس يقابل

الاجتماع القضائى واللغوى والدينى والتربوى . ومن هنا يتبين أن ابن خلدون قد استوعب فى مقدمته كل أنواع البحوث الاجتماعية عامة كانت أو خاصة ؛ فهو قد تكلم عن النظم الاجتماعية متتبعا المجتمع بالدرس والتحليل فى جميع أطـواره منذ نشأته وبداوته الى استقراره وانتظامه فى المصر والدولة ، وتردده بين القـوة والضعف والفتوة والكهولة والنهوض والسقوط ، واستقصى خلال ذلك أحوال هذا المجتمع وخواصه وعناصر تكوينه وتنظيمه من الفرد والجماعة الى السلطان والدولة ، وما يعرض لهذه العناصر فى حياتها الخاصة والعامة من الظروف والأحوال ، وما يقتضيه سلامة هذا المجتمع ، وما يؤذن بفساده وانحلاله ؛ وتكلم أيضا عن الاجتماع العائلى والاجتماع الاقتصادى والاجتماع القضائى والاجتماع اللغوى والاجتماع الأخلاقى والاجتماع السياسى . هذا ما نجده فى مقدمة ابن خلدون وهو شاهد عدل ضد هؤلاء الذين ينسبون علم الاجتماع الى كونت . فنحن إذا غضضنا النظر عن دور كهيم واعتبرناه كباعث لآراء كونت ولدراسته لا أكثر ولا أقل ، استطعنا أن نعطى لابن خلدون الأولوية بفعل الزمن . هذا ومن الظلم أن نهضم حق دوركهيم فى تكملة بحوث كونت ، فكونت أهم ما ينسب اليه هو تأسيسه علم الاجتماع ، ولكننا لا نجد عنده هذا التقسيم الواضح لمواضيع الاجتماع . فابن خلدون إذن قد فعل مثل ما فعل الباحثان الغربيان ، والسبق له بفعل الزمن .

وقد قسم كونت شعب علم الاجتماع الى شعبتين : شعبة الستاتيك سوسيال وتدرس العناصر التى يتألف منها المجتمع والوظائف والدعائم التى تقوم عليها هذه الوظائف والعلاقات بينها ، والديناميك سوسيال وتدرس التطور الانسانى وتبحث عن القوانين الخاضعة لها الظواهر الاجتماعية فى المجتمع الانسانى فى تطوره . ومن الحق أن نقول إن كونت فى دراسته لهاتين الشعبتين قد تأثر بالدراسات السابقة ، ففلسفة التاريخ قد مهدت لشعبة الديناميك ، والدراسات الخاصة مهدت لشعبة الستاتيك ، ولكن يمكننا أن نقول إن ابن خلدون لم تساعده الدراسات التى قبله كثيرا ، بل يعد الخالق لهذا العلم الجليل الذى أتى به .

وقد عنى كونت بشعبة الديناميك أكثر من عنايته بشعبة الستاتيك ، فاستخلص من دراسته فيها قانونه العام « قانون الأحوال الثلاثة » الذى ينص على أن كل فرع

من فروع المعرفة يجتاز مراحل ثلاث : المرحلة الدينية ، والمرحلة الميتافيزيقية ، والمرحلة الوضعية ؛ ورتب العلوم بمقدار أسبقيتها إلى الوصول إلى المرحلة الوضعية فرأى أن أولها هى العلوم الرياضية وآخرها هو علم الاجتماع . على أن هذا القانون ليس مطرداً فى جميع الأحوال ، فهناك علوم لم تمر بالمراحل الثلاث بل انتقلت توا من المرحلة الدينية إلى المرحلة الوضعية ، وهناك بعض الحقائق لم يفكر فيها إلا تفكيراً علميا ، كما أن هناك أناساً فى المجتمع الواحد يفكرون تفكيراً دينيا وغيرهم يفكرون تفكيراً ميتافيزيقيا ، وآخرون يفكرون تفكيراً علميا ، فقانون كونت إذن قانون فاسد . ولم ينس كل من ابن خلدون وكونت أن يتكلما عن العوامل المؤثرة فى الظواهر الاجتماعية بصدد كلامهم عن مواضيع علم الاجتماع . وأهم العوامل التى ذكرها ابن خلدون هما العاملان الدينى والجغرافى ، وقد بالغ ابن خلدون فى اهمية العامل الجغرافى ونسب اليه أمورا كثيرة تتعلق بتغير الظواهر وتطورها ، وبالجملة كل ما يحدث فى المجتمع . أما كونت فعنده ما يقرب من أربع عوامل مؤثرة : هى الأفكار الذائعة والأخلاق والظاهرات الاجتماعية والانسان ، وهنا نلاحظ أن كونت قد قال بتدخل الانسان فى الظواهر الاجتماعية ، إلا أنه أسرع وحدد مجال هذا التدخل فقال : إن أقصى ما يحدثه الانسان هو تقصير أمد مرحلة من مراحل قانون الأطوار الثلاثة .

خاتمة :

والآن وعلى ضوء ما ذكرنا ، ألا نستطيع أن نحدد مكان كل من ابن خلدون وأوجيست كونت بصدد علم الاجتماع ؟ إن الحق أبلج وضاح ، فلا يستطيع منصف أن يقول إن كونت هو مؤسس علم الاجتماع ، فقد سبقه ابن خلدون قبل ذلك بخمسة قرون ؛ ولكن من الحق أيضا أن نقول إن كونت هو مؤسس علم الاجتماع الذى أخذته مدرسة دوركهيم وتوسعت فيه ، لأننا لم نستطع حتى الآن أن نثبت أن هناك همزة وصل بين ابن خلدون وكونت ، وأن فيلسوف الأفرنج قد اطلع على ما خلفه فيلسوف العرب ، فكما نشأ ابن خلدون فى بيئة لم تقو على فهم علمه وطوحت به أعاصير السياسة فى مشارق الأرض ومغاربها ، فإنه أيضاً لم يجد من الخلف من يتابعه وينمى دراسته أو على الأقل من يرددها ، بل بقى علمه

حيرة العالم
وموقف رجال الدين

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ أبو الوفا المراغى
مدير دار الكتب الأزهرية

تجتاح العالم منذ زمن قريب موجة من القلق الفكرى والخلق والاقتصادى، تتفاقم شدتها شيئاً فشيئاً، وتنذر مظاهرها بأسوأ العواقب؛ ويجهد رجال الفكر ورجال السياسة ورجال الحرب أنفسهم فى وقاية الشعوب شرور هذه العواقب؛ وأنى قلب المرء طرفه، وأى شعب استعرض أحواله، ألفى مشاكل يأخذ بعضها برقاب بعض، كلما حلت منها مشكلة برزت مشكلة أشد استعصاء على الحل من سوابقها. فمجموع الطوائف فى أكثر الشعوب تشكو الحظ وتنشد الإنصاف؛ فطوائف الموظفين تشكو قلة الرواتب والعجز عن مواجهة تكاليف المعيشة؛ وطوائف العمال تشكو قلة الأجور وتلتمس التقريب بينها وبين غيرها من

مطويا إلى أن قدر الله له الذيوع، وهو فى هذا يشبه كونت الذى لم يجد من الخلف أيضاً من يتابعه إلى أن ظهر دوركهيم، إلا أن الفترة التى انقضت بعده كانت أكثر بكثير من الفترة التى انقضت بعد ابن خلدون.

على أننا نرى أن العالم الشرقى وإن سبق العالم الغربى بالزمن، فقد سبقه أيضا فى مقدار شمول علمه وإحاطته بكل التفاصيل، فمجهوده يوضع فى كفة، ويوضع فى الكفة الأخرى مجهود كونت والمدرسة الاجتماعية، وأنه كان أجرأ من كونت فى قوله بأن الظواهر الاجتماعية تخضع لقوانين ثابته مطردة لا تقل عن القوانين الطبيعية ؟

الطوائف فى مستوى الحياة ، وترنو بعيون البغض والضغينة إلى أصحاب رءوس الأموال ؛ وطوائف الفلاحين فى بعض الشعوب ترى أنها دون غيرها قد اختصت بالظلم وتخلفت عن ركب الزمان ، أجراً وتعليما وصحة ومكانا ؛ وطوائف الطلاب يسبقون الزمان ويرون أنهم أقدر على حمل الرسالات فى الأمم من الكهول والشيوخ ، ويثورون على التقاليد فى سائر الشئون ، منبعثين إلى ذلك بقوة الشباب ، وبالإيحاء الداخلى تارة والخارجى تارة أخرى ؛ ويطمع بعض هذه الطوائف فيما فى أيدى الطوائف الأخرى مما أنعم الله به عليها ، من غير وجهه المشروع .

ولهذه الطوائف مطالب لا تنتهى ولا تقف عند حد ، وكثير منها يستعصى على الحل والتنفيذ ، ولكنها مع ذلك تصر عليه وتلتمس إلى تحقيقه وسائل لا يفضل بعضها بعضاً إلا فى الغرابة وقوة الابتكار . فإضراب عن العمل ، وإضراب عن الطعام ، واعتصام بالأماكن ، إلى أمثال هذه الوسائل التى تلتقى جميعاً فى البعد عن الإقناع ، وعن مواطن الرشاد .

كذلك يشكو أكثر الشعوب اختلال الموازين الخلقية ، ومغالبة الرذائل فيها للفضائل ؛ فرقابة الآباء أبناءهم رجعية ، وتمرد الأبناء وعنادهم حرية ، والخروج على الأساتذة والمعلمين ديمقراطية ، وتبرج النساء مدنية ، وتصونهن واحتشامهن رق وعبودية ، والنفاق لباقة ، والثبات على المبدأ جمود وصلابة ، والرحمة جبن ، والتسامح عجز ، والسخاء خرق ، والشح حزم ، والغش فى الصناعة والتجارة مهارة ، والصدق والأمانة خيبة وخسارة ، والعمل بالتقاليد غفلة عن مقتضيات الرقى والتقدم ، والدستور الخلقى الشائع إنما هو الثورة على الماضى والخضوع لسلطان الهوى والمصلحة ؛ فعلى أى وجه هويت فافعل ، وأنى تحققت مصلحتك فاغتنم فرصتك ، لا تبالى خلقا ، ولا تراقب أحدا .

من راقب الناس مات همّا وفاز باللذة الجسور

وعلى هذا النحو من الاضطراب فى الأخلاق تشكو الشعوب الاضطراب فى الأفكار ، والحيرة فى غمرات المذاهب المتجددة ؛ ففى كل منها شيع وأحزاب ومذاهب وآراء ، يناقض بعضها بعضا ، ويتهم بعضها بعضا ، ليس من همها أن تصلح

الشعوب ، وإنما همها أن تظفر وتسود ، وتشكر سخرية الشباب بعلوم الفلسفة والأخلاق والعلوم النظرية عامة ، ويرون أن العلوم الجديرة بالدرس والبحث وأن توجه إليها أفكار الشباب وعزائم الأمم ، إنما هى العلوم التى تصل بها الشعوب الى غاياتها المادية : من غلب وفتح وبطش واستعمار ، وما عدا هذه العلوم فسفسطات من مخلفات الماضى شغل بها العلماء أوقات فراغهم فحسب . هكذا كان حال الشعوب الى ما قبل الحرب الأخيرة . وظلت تسير من سىء الى أسوأ حتى جاءت هذه الحرب فزادتها سوءا بما خلفته من آثار ازداد بها العالم شقاء وبلاء ، إذ تركت كثيرا منها فريسة للفقر والجوع والمرض ، وللمبادى الهدامة التى تبلبل الأفكار وتدعها نهبا للأوهام والآلام ؛ وأصبحت الجماعات والشعوب تعانى من تلك الأحوال وتنشد الأمن والاستقرار ، ولكن دون جدوى ولا طائل .

فأصبحت من ليلى الغداة كقابض على الماء خانته فروج الأصابع

وأخذ الساسة ورجال الحرب أنفسهم بعلاج هذه الحال ، وإعادة الأمن والاطمئنان إلى قلوب الشعوب ، فخانهم التوفيق وفشلوا فى هذه المهمة برغم ما بذلوا من الوقت والجهد ، وما أتوا من غرائب القوانين والمبادىء ؛ لأن باعثهم الى ذلك باعث ذاتى تمليه عليهم مصالح دولهم وحاجاتها . ومحال أن ينجح هؤلاء فى مساعيهم ما داموا يصدرون عن هذا الباعث .

وستظل الشعوب تتقلب على جمر القلق والفوضى ، ما ظل رجال السياسة يتولون قيادتها ؛ ولن يستقر لها قرار ولن تنعم بأمن وسلام إلا إذا تخلى هؤلاء الساسة عن مكان القيادة وأسلموه إلى من هم أقدر عليها منهم ، وهم رجال الدين ؛ فرجال الدين بالدين أقدر على قيادة الشعوب من هؤلاء ، وقد عاشت الشعوب فى ظلال هذه القيادة قرونا طويلة مطمئنة رخية البال ناعمة العيش منذ جاءت الأديان ، ومذ كانت الأديان مهيمنة على عقائد الناس وأعمالهم .

وما تحولت حالها ونزل الشقاء بها إلا مذ نادى فى الشعوب نذر السوء بأن رقابة الأديان أصبحت لا تلائم هذا العصر وتحول دون تقدم الشعوب ، وظهرت نظرية فصل الدين عن الدولة ، وعمل بهذه النظرية بعض الشعوب ، وما عمل بها شعب إلا ارتكس

فى حمأة الفوضى، وورد موارد الشقاء، مهما توافرت له أسباب الحياة المادية من مال وعلم وجاه وسلطان؛ لأن السعادة ليست فى هذه وما يتعلق بها، ولكنها الرضى النفسى والاستقرار الروحى؛ وكم من غنى قوى تجمعت له أسباب الثروة والجاه ولكنه ظل شقيا قاق النفس مضطرب الحس كالسفينة فى مضطرب الأمواج. وإنما قلت إن رجال الدين بالدين أقدر على قيادة الشعوب وتحقيق سيادتها من رجال السياسة؛ لأن رجال الدين يقودونها بما جاء به الدين، والشعوب بشعورها الفطرى بالتدين وحاجاتها الفطرية اليه، أسرع استجابة لهؤلاء من أولئك.
وما جاءت الأديان إلا لإسعاد الشعوب وهناءتها. جاءت الأديان بأصول العقائد والأخلاق والآداب والعبادات والمعاملات، لتطهر الأنفس، وتطهر الجماعات. وتربط الأفراد بعضهم ببعض، وتربط الجماعات بعضهم ببعض، وإن اختلفت أديانهم برباط المحبة والإخاء، لا يطمع قوى فى ضعيف، ولا يبغى حاكم على محكوم، ولا يفضل جنس جنسا، ولا يسود لون لونا؛ يسير الجميع فى ظلال هذه التعاليم إلى غايتهم التى أرادها الله لهم، والدين مستقر السكينة، وملجأ الطمأنينة، به يرضى كل بما قسم له، وبه يدأب عاملا حتى يبلغ الغاية من عمله، وبه تخضع النفوس إلى أحكام السنن العامة فى الكون، وبه ينظر الانسان إلى من فوقه فى العلم والفضيلة، وإلى من دونه فى المال والجاه، اتباعا لما وردت به الأوامر الإلهية.

قد يسخر من هذا القول بعض الناس، وليس غريبا أن يسخر فى هذا العصر الذى دان فيه الناس بأديان من الهوى والمادة؛ أن يسخر بعض الناس بالدين وممن يتكلم بالدين؛ ولكن مالنا ولسخرية الأغبياء الجهلاء! وهناك من رجال الفكر والسياسة ممن يعتد بهم من يرى هذا الرأى ويدعو إلى ما ندعو إليه. خطب زعيم من أشهر زعماء الغرب وأبرزهم شخصية فى مناسبة من المناسبات فقال: «لابد من الرجوع إلى الكنيسة». ومن قبل ذلك دعا إلى هذا كبار رجال الأديان فى العالم.

لقد أسرف العالم، وبخاصة الطبقات التى تسمى مستنيرة، فى سخط الله، وأتوا بأعظم الجرائم وأشنع المنكرات، فوكلهم الله إلى أنفسهم، فغرقوا فى لجج من الحيرة والآلام الجسمية والنفسية، ولم يشفهم مما هم فيه غرائب العلوم وعجائب

الاستكشافات . بل لقد زادتهم حيرة وملأت حياتهم غما وهما ، وليس ينجيهم إلا أن يعودوا إلى ربهم ، وأن يسترضوه عسى أن يرضى عنهم ، ولن يرضى عنهم إلا إذا غيروا ماهم عليه مما ينكره الدين ، بما يعرفه الدين ويرضى عنه الله : « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » .

وعن النبي صلى الله عليه وسلم : « ما أنكرتم من زمانكم فبما غيرتم من أحوالكم » . ويقول العلامة محمد عبده : أرشدنا سبحانه فى محكم آياته إلى أن الأمم ما سقطت من عرش عزها ، ولا بادت ومحى اسمها من لوح الوجود ، إلا بعد نكوبها عن تلك السنة التى سنها الله على أساس الحكمة البالغة : إن الله لا يغير ما بقوم من عزة وسلطان ورفاهة وخفض وأمن وراحة ، حتى يغير أولئك القوم ما بأنفسهم من نور العقل وصحة الفكر وإشراق البصيرة ، والاعتبار بأفعال الله فى الأمم السابقة ، والتدبر فى أحوال الذين حادوا عن صراط الله فهلكوا وحل بهم الدمار ، ثم لعدولهم عن سنة العدل وخروجهم عن طريق البصيرة والحكمة ؛ وحادوا عن الاستقامة فى الرأى ، والصدق فى القول ، والسلامة فى الصدر ، والعفة فى الشهوة ، والحمية على الحق ، والقيام بنصره ، والتعاون على حمايته . خذلوا العدل ولم يجمعوا هممهم على إعلاء كلمته ، واتبعوا الأهواء الباطلة وانكبوا على الشهوات الفانية ، وأتوا عظائم المنكرات . خارت عزائمهم فشحوا ببذل مهجهم فى حفظ السنن العادلة ، واختاروا الحياة فى الباطل على الموت فى نصرة الحق ، فأخذهم الله بذنوبهم ، وجعلهم عبرة للمعتبرين » .

من شعر الخلفاء الراشدين

قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه يوم فتح مكة :

ألم تر أن الله أظهر دينه ... على كل دين قبل ذلك حائد
وأسلبه من أهل مكة بعدما ... تداعوا الى غى من الأمر فاسد
غداة أجال الخيل فى عرصاتها ... مسومة بين الزبير وخالد
فأمسى رسول الله قد عز نصره ... وأمسى عداه من قتيل وشارد

حول آى الكتاب والسنة

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمود النواوى
المدرس بمعهد القاهرة الثانوى

« ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ويُشهد الله على مافى قلبه وهو ألدّ الخصام » .

قلّ أن تلقى من أهل زمانك من خلا من الملق والرياء .

يلقاك يحلف أنه بك واثق وإذا توارى عنك فهو العقرب

أولئك هم الضعفاء الوضعاء الذين لا يجدون من قوة الشخصية ما يخول لهم أن يواجهوا بالحقائق ، ولا يأنسون من أنفسهم إيمانا ببارىء المسموكات أن يأرِزوا (١) إلى كهفه ويلجئوا إلى كنفه . وهؤلاء هم الذين يصفهم الذكر الحكيم معيرا ومنددا « وإذا جاءوكم قالوا آمنا وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ قل موتوا بغيظكم إن الله عليم بذات الصدور . إن تمسسكم حسنة تسؤهم ، وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها ، وإن تصبروا وتتقوا لايضركم كيدهم شيئا ، إن الله بما يعملون محيط » . ويقضى فيهم رسول الله صلوات الله وسلامه عليه وآله بأنهم شرار الناس فيقول : « تجدون شر الناس ذا الوجهين الذى يلقى هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه » .

ترى كثيرا منهم قد منحه الله ثقافة فى الفكر ووهب له ذلاقة فى المنطق ، من الذين قال فيهم سيدنا الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم : « إن أبغضكم إلى وأبعدكم منى مجالس يوم القيامة الثرثارون المتفيهقون ، ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون ، وأنهم يقولون ما لا يفعلون » .

وما أشد خطورة هذا النوع من الناس على المجتمع « إن أخوف ما أخاف على أمتى كل منافق عليم » ! قالوا : يا رسول الله ، كيف يكون منافقا عليما ؟

---

(١) يلجئوا .

قال : « عليم اللسان جاهل القلب والعمل » . ولقد صدق صلوات الله وسلامه عليه : فإن هؤلاء هم الذين ائتمنوا فخانوا ، واطمأن الناس إليهم فى أنفسهم وأموالهم وأعراضهم فكانوا الذئاب العاتية . على أن أمثالهم جديرون أن يظهروا للناس على كنههم ، وأن تتجلى حقيقتهم على وجهها ، وإنها « إن تك مثقال حبة من خردل فتكن فى صخرة أو فى السموات أو فى الأرض يأت بها الله » .

ومهما تكن عند امرىء من خليقة   وإن خالها تخفى على الناس تعلم

رب إن قومى اتخذوا هذا القرآن مهجورا ، فران على قلوبهم ما كانوا يكسبون . وأخطأهم التوفيق فيما يأتون وما يدعون . فتنة فى الأرض وفساد كبير ؛ أن تظهر فى حال يعلم الله خلافها منك ، وأن تكون ذا وجهين فيمن عرفته .

هى والله قلوب خاوية ضعفا وهلعا ، خالية من كل إيمان وحكمة ، هاوية فى الدرك الأسفل من الرذيلة ؛ قلوب أولئك الذين لا يستطيعون أن يواجهوا بحقيقة لدى جهول أنوك ، لم يذق حلاوة الحق ، ولم يبال ألا يكون على صراط مستقيم .

رحمك الله يا بن الخطاب ! لقد صممت قواعد الرجولة فى جماعة محمد حتى فغرت الأفواه بكلمة الحق تسمعها من المرأة المسكينة راضيا مغتبطا ، بل متهللا مستبشرا ؛ تقول لك فى محفل العلية من أمة محمد : إن الله يقول غير ماتقول ياعمر ، وتجيبها بقولك : الحمد لله الذى جعل فى الرعية من يرد عمر إلى صوابه . وتدوى بها صارخة لترجم بها الشيطان وتدكدك صرح العنجهية الجاهلية : أيها الناس ! أخطأ عمرو وأصابت امرأة . رحم الله امرأ أهدى إلى عيوب نفسى . وتدب إلى مهبط السرائر فى نفوس المسلمين ، لينزل كل جبار عن جبروته أمام الحق ، وما كنت إلا نصيره وأسيره ، ولينكر كل ذى أثرة مهما ارتفع ذاته وأثرته . ليس عمر بأكبر من أن يُنصح ولا بأصغر من أن يَنصح . تلك هى النفس التى لقحت بحكمة الاسلام ، وهذبت برياضة القرآن ، لا همّ لها إلا أن تقيل الانسانية من عثارها وتصلها بملكوت السماء . وهذه هى خلافة الله فى الأرض ، ترفع العدل وتخفض القسط .

ياليت قومى يعلمون أنه لا يُصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها، فيفيئوا الى رشدهم، ويلتمسوا العزة والسؤدد فى سيرة سلفهم، ولا ينسوا تلك المجادة القعساء. فأما الرئيس «الراعى» فينشد الخير العام متجافيا عن الغرور والغطرسة، يسمع النقد ويقبل النصح، وينكر الغش، ويرفض المدح، إلا ما أعان على خير، أو وجه الى رشد، ما يزيده شيء من ذلك إلا ارتفاع شأن، ولا يرى المنصب منه إلا كل قوة وسلطان؛ ولعمر الله ما أفلح قوم ضاع الحق بينهم، وآثروا من ليس عند القسطاس بأثير. وأما المرءوس فيذكر دائما أنه عون أمين لراعيه، فهو مسئول عن كل ما يشاركه فيه، وأنه إذا رآه فى ظلم فواجبه تقويمه، وأنه الى إرشاده أحوج منه الى مدحه وإطرائه. فالذكرى تنفع المؤمنين.. «إذا رأت أمتى الظالم فلم تأخذ على يده أوشك أن يعم الله الكل بعذابه» «واتقوا فتنة لاتصيبن الذين ظلموا منكم خاصة واعلموا أن الله شديد العقاب».

ألا قبح الله أولئك الذين يمالئون على الضلال، ويزكون أفعال الجهال، لأن لهم سطوة وقوة، وفيهم نزوة ونبوة، كأنما تتخلى عنهم رحمة الله إذا سخطوا، وتصيبهم قارعة أو تحل قريبا من دارهم إذا ما تنكروا. «إن وليى الله الذى نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين. والذين تدعون من دونه لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون».

ألا قبح الله أولئك المادحين القادحين، الذين «اتخذوا أيمانهم جُنة فصدوا عن سبيل الله إنهم ساء ما كانوا يعملون... وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خُشب مسنّدة يحسبون كل صيحة عليهم، هم العدو فاحذرهم، قاتلهم الله أنى يؤفكون» إن الله سبحانه يوجهنا وجهة القوة ويدعونا بدعاية الكرامة «من كان يريد العزة فلله العزة جميعا».

يريد الله سبحانه ليدعم فينا الثبات فى الأمر، والعزيمة على الرشد، والتفانى فى نشدان الحق حيثما كان وعند من كان: «كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا» استوى فى ذلك الصغير والكبير، والآمر والمأمور، لا تفرقة أمام محكمة البصائر الثاقبة. ورحم الله أمير الشعراء إذ يقول فيما يصف به حكومة الاسلام وصاحبها صلى الله عليه وسلم:

ورسمت بعدك للعباد حكومة لا سوقة فيها ولا أمراء
الله فوق الكل فيها وحده والكل تحت لوائه أكفاء
والدين يسر والخلافة بيعة والأمر شورى والحقوق قضاء

فما بال هذا الذى يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ويلبس للناس مسوح الرهبان ، أبعد مايكون من قداسة الأديان ؟ ! يا قومنا إن للدنيا سبيلا وللآخرة سبيلا . وإن من سوء التقدير أن تخلطوا . إن مارسمه ربك لتتعامل به معه فلا يجمل بك أن تجعله سلعة رخيصة بين عباده . إن الله أغنى الأغنياء عن الشرك ، وإنه غيور ، ولا أحد أغير منه ، « فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا » .

تالله ما رثيت لشىء رثائى لأولئك الدُّسسِ الذين يتقلبون فى المجالس يخوضون فى الباطل ويترددون على شتى المحافل يحملون ألفاظا قد حبروها ليشتروا بها عطف الرؤساء فيظفروا بهم ، ويعدو بهم طورهم بخساً لأصحاب الحقوق ، وإضاعة لذوى الكفايات من العاملين . لقد خسر البائع وخسر المشترى ! « أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين » . الاخلاص لوجه الله ولواجب المجتمع هو الطريق الوسطى والجادة التى يتفاوت الناس فى سلوكها « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » . ولكنه طريق وعر ، ومركب صعب لا يمتطيه إلا من وهب له الله سبحانه قوة النفس ، وصحة الطبع ، وإيثار الجد ، وهيهات ذلك إلا أن يوفق الله من شاء من عباده .

تالله إن أمة لن تبلغ الذروة وتثب إلى القمة حتى يكون مقياس الدرجات والمنازل فيها الكفايات والأعمال التى تنفع المجتمع ، وترفع من شأن الوطن . أما أن يكون الميزان أن تتعرف إلى كبير فيختصك ويصطفيك ، أو تلتمس شفيعاً فتذل له نفسك وتريق على بابه كرامتك ، فما شىء أشد فتكا بكيان الأمم ولا أعمل فى تقويض أركانها منه ، فانه مقبرة الكفايات ، ومزجرة الهمم والمنافسات . لقد مسخ التفكير ، وشاهت الحقائق ، وعميت الأبصار والبصائر ، وعند الله المخرج والمنجى .

يأيها الناس إن خزائن الله لا تنفد ، وأبوابه لا تغلق ، وإنه لن يصيب نفساً إلا ما كتب الله لها فى رزقها وأجلها : فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب . نافسوا فى المكارم لا فى عرض الدنيا الحقير ، خذوا أنفسكم بكرامة الإسلام ، وبعزة الإيمان ، من حارب الله فى عباده يبغى أو استهانة حربه الله ، إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم ، فليسعهم منكم بسطة الوجه ، وحسن الخلق ، وإيصال الحق الى صاحبه . ارحموا الإنسانية المتهضمة يسلم دولاب العمل لخدمة الجماعة ولخدمة الفرد .

وأنت يا صاحب الحاجات المعذب ، ويا من تفنى نفسك فى مطالب الحياة : أرح نفسك ولذ بركن الله الركين ، واعمر قلبك بالإيمان والرضا ، دع كل أمر فى وضعه الطبيعى ، فلا تسرف فى المزاحمة على عرض الدنيا ، ولا تستهدف فيها لخصومات لا قبل لك بها . واعلم أن من ضاق عليه الحق فالباطل عليه أضيق ، واذكر أنه « ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها ، وما يمسكْ فلا مرسل له من بعده ، وهو العزيز الحكيم »

ونفسك أكرمها فانك إن تهن عليك فلن تلفى لها الدهر مكرما

إن الثروة الحق فى الخلق الكريم والقلب السليم ، والنفس الرضية المطمئنة ، والخلو من التطاحن المزرى ، والتشاحن المقيت الذى يظهر الإنسان فى مظهر الخنزير حرصاً واستماتة .

إن القلب السليم لهو ذلك القلب الخير ، بفسح الطريق لسالكيها ، ومعاونة الإنسانية فى كل ما يلابسها . هو ذلك الذى يسير بالقسطاس المستقيم ، ولا يرسف فى قيود من تعصب أو محاباة . من يسير الرفق حيث يسير ، وينشر الأمن والبشر والبر والخصب ألويته حيث ينزل ، ذلك المعتز بالله المتوكل عليه ، الذى يرى أن الخير كله فى يديه ، فلا يقول إلا حقاً ، ولا ينطق إلا صدقاً ، ولا يصدر إلا عن رجولة أى رجولة .

أيها المادح العباد لتعطى إن لله ما بأيدى العباد
لا تقل فى الجبان ماليس فيه وتسم البخيل باسم الجواد

باب الأسئلة والفتاوى

نقل المسجد

جاء الى لجنة الفتوى بالجامع الأزهر الاستفتاء الآتى :

مسجد جمعية إحياء المساجد بشبرا اشترينا أرضه بمال مأخوذ من الاكتتابات ، ونوينا فى الشراء أن تكون الأرض مسجدا ، وكانت الأبنية مقامة عليها قبل الشراء ، والشعائر قائمة ، لأنها كانت مستأجرة من صاحبتها بهذا القصد . وقد اعترض بعض الموسرين على موقع المسجد لأنه فى شارع ضيق جدا ، ولأن مساحته ضيقة ، وأبدى رغبته فى إقامة المسجد فى مكان يكون قريبا من الشارع المتسع . وأنا قد رأيت فتوى من لجنة الفتوى مأخوذة من كلام ابن تيمية مفادها أنه يجوز نقل المسجد على أن يجعل المكان الأول من صالح المسجد ، فيستأجر مثلا لتكون غلته للمسجد . وهذه الفتوى لا تنفعنا إلا قليلا لأننا نريد أن نبيع الأرض والبناء وتصبح ملكا حرا لمن يشتريها ، ونشترى بثمنها مع ما نجمعه من الاكتتابات أرضا بالمكان القريب المتسع ، ونبنى عليها مسجدا متسعا . فهل هناك رأى بجواز ذلك ؟ نرجو الإفادة.

على حسن البولاقى

الجواب :

الحمد لله رب العالمين . والصلاة والسلام على سيد المرسلين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان يوم الدين .

أما بعد ، فتفيد اللجنة بأنه إذا كانت إقامة المسجد على القطعة المراد شراؤها خيرا وأصلح من المكان المراد بيعه ، جاز بيع هذا المكان وشراء ما يراد شراؤه بثمنه مع ما يتبرع به ليكون مسجدا بدله ، وذلك بواسطة المحكمة الشرعية المختصة إذا كان المكان الأول قد جعل مسجدا بالفعل . وهذا على ما ذهب اليه الإمام أحمد بن حنبل ، واختاره شيخ الإسلام ابن تيمية . وهو ما تختاره اللجنة للفتوى . والله أعلم ؟

رئيس لجنة الفتوى

عبد المجيد سليم

نواحى الاعجاز
فى أخلاق الرسول

لفضيلة الأستاذ الشيخ أحمد شاهين
تخصص الوعظ والإرشاد

روى القاضى عياض فى الشفاء نقلا عن الطبرى عن على كرم الله وجهه، قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « ما هممت بشىء مما كان أهل الجاهلية يعملون به غير مرتين، كل ذلك يحول الله بينى وبين ما أريد من ذلك، ثم ماهممت بسوء حتى أكرمنى الله برسالته: قلت ليلة لغلام كان يرعى معى: لو أبصرت لى غنمى حتى أدخل مكة فأسمر بها كما يسمر الشاب، فخرجت لذلك حتى جئت أول دار من مكة سمعت عزفاً بالدفوف والمزامير لعرس بعضهم، فجلست أنظر، فضرب على أذنى فنمت، فما أيقظنى إلا مس الشمس، فرجعت ولم أقض شيئا، ثم عرانى مرة أخرى مثل ذلك، ثم لم أهم بعد ذلك بسوء » اه.

مما وعاه صحيح التاريخ من أمر الرسول وسيرته قبل مبعثه، أنه عليه السلام كان فى تلك المرحلة من حياته يمتاز على أقرانه وأهل بيئته عموما، بسلوكه الخاص، وأخلاقه التى كان بها نسيج وحده. فقد اشتهر عند العرب بالحلم، والرفق، والتواضع، والإخلاد الى الرزانة والصمت: كما اشتهر بانقباضه التام عن كل ما زخرت به بيئته وانهمك فيه أقرانه من المنازعات، واللجاجة فى الخصومة، والزهو، والخيلاء، والمفاخرة فى المحافل بمآثر العشيرة ومناقبها وأيامها، والمكاثرة بما أحرزت من حطام الدنيا ومتاعها، والمغامرة فى تحصيل الغنائم والمتع بشن الغارات وإثارة المعارك، واللهو بالصيد والقنص، ولعب الميسر، ومعاقرة الخمر، والتشبيب بالنساء. وأثر عنه نفوره الشديد من عوائد قومه وعاداتهم وعقائدهم، كزجر الطير، والاستقسام بالأزلام، والرجوع الى الكهنة والعرافين عند المشاكل: واشتد مقته للأوثان حتى لم يطعم من قرابينها، ولم يحضر

أعيادها . وقيل إن رجلا استحلفه مرة بالأوثان فغضب وقال : إنه لايجد أبغض الى نفسه من هاتيك الحجارة ! فأن كان ولا بد فإنه يحلف بالله .

ولما زادت وحشته من تقاليد قومه وأساليبهم فى الحياة ، داخلته حيرة وضيق ، وأخيرا لاذ بالعزلة فى غار حراء ، يتأمل ويفكر، فأنس بذلك واطمأن قلبه .

قال ابن القيم فى زاد المعاد : « ثم حبب إليه الخلوة والتعبد لربه ، وكان يخلو بغار حراء يتعبد فيه الليالى ذوات العدد ، وبُغضت اليه الأوثان ودين قومه ، فلم يكن شىء أبغض اليه من ذلك » .

وروى البخارى عن عائشة رضوان الله عليها : « أول ما بدىء به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحى الرؤيا الصادقة فى النوم ؛ فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، ثم حبب اليه الخلاء . فكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه الليالى ذوات العدد قبل أن ينزع الى أهله ، ويتزود لذلك ، حتى جاءه الحق » .

وحدثنا صحيح التاريخ أن سلوك الرسول وأخلاقه الفريدة قد استلفتت إليه أنظار العرب عامة ، وأهل الرأى منهم خاصة ، فأكبروه وأحبوه ، ولقبوه بالأمين ، واختصوه بمعاملة استثنائية ، فأشركوه مع مشيختهم فى مهام الأمور برغم سنه الباكرة ، وتحاكموا إليه فساهم فى عقد حلف الفضول لحفظ النظام وتأمين الحجيج .

ولما تنازعت القبائل عند تجديد بناء الكعبة بشأن إعادة الحجر إلى موضعه وكادوا يمتشقون السيوف ، تحاكموا الى الرسول ، فبسط رداءه ، ووضع عليه الحجر ، ثم أمر كل قبيلة أن تأخذ بطرف ، فرفعوا الحجر ، ووضعه الرسول موضعه .

وهكذا كانت نباهة شأنه عند قومه بأخلاقه الباهرة ، حتى لقد توسموا فيها بوادر شأنه المرتقب ، ومستقبله العظيم ؛ فطالما كان عمه أبو طالب يردد هذه الكلمة فى زهو وثقة : « ليكونن لابنى هذا شأن » على أنه إذا لم يكن يعلم على وجه التحديد ما هو هذا الشأن المرتقب لابن أخيه لأن بشائر الكتب السماوية بنبوته لم تكن ظاهرة للقرشيين ظهورها لأهل الكتاب ، ولأن البشائر والحوادث التى اقترنت بميلاده لم يظهر مغزاها جميعا إلا بعد البعثة ، فإن أبا طالب قد عاين فى فتاه محمد طرازا فريدا من الشخصية لا عهد له بمثله عند أمثاله من شبيبة الجيل ،

فتوقع له شأنا ومجدا فى مستقبل حياته . ولقد صدّق فراسة أبى طالب الراهب بحيرا عندما التقى به محمد وعمه فى طريقهما إلى الشام بالتجارة .

وعلى الجملة فأن أخلاق الرسول كانت فى نظر المعاصرين له من أشراط مجده وإرهاص نبوته قبل بعثته ، كما كانت بعدها من معجزاته الباهرة التى ألفت حوله القلوب ، وآمن بسببها بعض من آمن به ، وأشار بها خصومه الألداء .

عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه : « كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بذات الرِّقَاع فإذا أتينا على شجرة ظليلة تركناها لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجاء رجل من المشركين وسيفُ رسول الله صلى الله عليه وسلم معلق بالشجرة فاخترطه فقال : تخافنى ؟ قال : لا ، قال : فمن يمنعك منى ؟ قال : الله » .

وفى الشفاء للقاضى عياض ، وفى صحيح أبى بكر الأسماعيلى : فقال : ومن يمنعك منى ؟ قال : الله . فسقط السيف من يده ، فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم السيف فقال : من يمنعك منى ؟ فقال : كن خير آخذ . فقال : تشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله ؟ فقال : لا ، ولكن أعاهدك ألا أقاتلك ولا أكون مع قوم يقاتلونك . فخلّى سبيله ، فأتى أصحابه فقال : جئتكم من عند خير الناس ! . وفى رواية القاضى أن الأعرابى هو غورث بن الحارث .

وقال فى الشفاء : « وجاءه زيد بن سعنة قبل إسلامه يتقاضاه دينا عليه فجبذ ثوبه عن منكبه وأخذ بمجامع ثيابه وأغلظ له ، ثم قال : إنكم يابنى عبد المطلب مُطْل ، فانتهره عمر ، وشدد له فى القول ، والنبى صلى الله عليه وسلم يتبسم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «أنا وهو كنا إلى غير هذا منك أحوج ياعمر : تأمرنى بحسن القضاء ، وتأمره بحسن التقاضى » . ثم قال : لقد بقى من أجله ثلاث ، وأمر عمر أن يقضيه ماله ويزيده عشرين صاعا لما روّعه ، فكان سبب إسلامه . وذلك أنه كان يقول : ما بقى من علامات النبوة شىء إلا وقد عرفتها فى محمد إلا اثنتين لم أخبرهما : يسبق حلمه جهله ، ولا تزيده شدة الجهل إلا حلما » ، وكذلك كانت عظمة الرسول الخلقية شاهد صدق بعظمته وصحة دعوته عند المعاصرين له قبل البعثة وبعدها ، وبها أشاد العدو والصديق ، وألهمت الشعراء فتجاوبوا بها فى الآفاق وتغنوا بها فى المحافل .

العصر العظيم

تعريب الأستاذ عمر طلعت زهران

— ٢ —

وعلينا ، لكى نفهم هذه التعاليم أن نرجع إلى مصادرها ، وهنا نجد صعوبات جمة . وقد يكون سبب هذه الصعوبات ندرة هذه المصادر كما هو الحال مع فيثاغوراس ، فلم يبق من كتاباته سطر واحد . هذا إذا تكلمنا عن كتاباته التى يختلف الباحثون فيها ، فيما إذا كان قد كُتب شيء على الاطلاق . وقد فقدت كتابات تلاميذه ، أيضا ، وأول المصادر المكتوبة عنه كانت مراجع لمؤلفين آخرين لا ينتمون الى الفيثاغورية ، يبتدئون بالمؤرخين مثل « هيرودوت وديودورس » وفلاسفة مثل « أفلاطون وأرسطو » . أما أدق الأخبار عنهم فيمكن أن توجد فقط فى مؤلفات الكتاب الأفلوطينيين « يامبيخوس وبورفيريوس » أو فى مؤلفات « ديوجين » ، وعلينا أن نتذكر أن هذه الكتابات قد وضعت بعد موت فيثاغوراس بنحو سبعة أو ثمانية قرون ، ويجب أن نكون على أشد الحذر حين نأخذ من هذه المصادر المشككة غير المعتمد عليها .

أما الصعوبات التى تعترض مصادر البوذية فهى صعوبات جد مختلفة إذ هى على عكس الصعوبات الأولى . فان على الباحث أن يناضل لا ضد

وفى العصر العباسى عنى بدرس أخلاق الرسول بعض العلماء المحققين ، فكشفوا بمنطق البحث الدقيق ناحية رائعة من الإعجاز فى خلق الرسول على نحو ارتضاه علمان من أعلام النهضة العباسية ، هما الجاحظ من المعتزلة ، والغزالى من الأشعرية ، كما سيتضح لك بعد .

والآن ما عسى أن يكون موقف الباحث الحر فى العصر الحديث حين يعرض بالبحث والتحليل للجانب الخلق من السيرة النبوية فى ضوء العلم المجرد والمنطق المحايد ؛ ترى هل يرى رأى أولئك الأوائل فى اعتبار أخلاق الرسول من معجزاته الواضحة ، أم له رأى آخر ؟ سوف نرى .

ندرة المصادر ، بل ضد كثرتها وتعددها . فانه يوجد على العموم ثلاثة أو أربعة أنواع من الكتابات البوذيه : الكتابة الباليّة ، والسنسكريتية ، والصينية ، والكتابة اللامية بالتبت . وأقصر هذه الكتابات وأهمها هى الكتابة البالية عن البوذية الجنوبية ، وهى مع قصرها تبلغ ثلاثة أضعاف حجم الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد . أما السنسكريتية فأكثر طولا . وتشمل الكتابات اللامية بالتبت ١٠٨٣ كتابا تقع فى ١٠٨ مجلدا . ولكنها جميعا تتضاءل أمام الكتابات الصينية التى تتكون من ١٦٦٢ كتابا تقع فى ٦٧٠٠ مجلد . فمن منا لا يستطيع ألا يضل فى متاهات هذه النصوص ، كل واحد منها على حدة ، بله كلها مجتمعة .

أما صعوبات النصوص الزردشتية فانها ذات طبيعة مختلفة عن ذلك ؛ فان هذه النصوص توجد فى الزند أفستا ، وهو كتاب الزردشتيين المقدس . وقد بنيت آمال كبيرة على نشر هذا الكتاب ، ولكن ما إن نشرها العالم الفرنسى انكتيل دوبيرّون (1) حتى خابت الآمال . فبدلا من وعظ موحى به ، وصورة فذة للصراع بين الخير والشر فى العالم ، وجد أن الزند أفستا إنما تحتوى على أناشيد وأدعية لا معنى لها ، خالية من الحياة على صورة السحر . ووجدت الخيبة صداها فى كلمات المستشرق الانجليزى الكبير سير وليام جونز « إما أن يكون زردشت لم يكتب هذا الكتاب أبدا ، وإما أن يكون مجردا من العقل ، وفى كلتا الحالتين لا يستحق هذا الكتاب أن ينشر » . وكان سير وليام مغالياً فى نقده إذ تمكن الباحثون بعد مجهود كبير من اكتشاف بعض آثار العظمة الروحية السابقة ، ولكن هذه الآثار كان يغطيها طبقة كثيفة من الزيادات والتحريفات ، تجمعت على مر العصور ، فجعلت معرفة النص الصحيح مستحيلا .

وعلى الرغم من أى شىء فإن الأثر الذى تركه هؤلاء الحكماء على عقول البشر كان عميقا حتى إن أشباحهم لتبدو منيرة متميزة خلال ظلام العصور الماضية ، ومن خلال التحريف والتشويه الذى أصاب كتاباتهم .

ويطلق على كنفشيوس دائما أنه مؤسس الدين الوطنى للدولة الصينية ،

---

(1) Anquetil Duperron, Zend Avesta, Ouvrage de Zoroastre. Paris 1771.

ولكن كلمة « دين » هنا يجب أن تقابل ببعض التحفظ ، وعلى أية حال ، فهى لا تعنى أى نوع من العبادة أو إقامة الشعائر لمعبود ما ، فإن معنى « الإله » كان بعيدا عن الكنفشيوسية . وكل ما نجده هو كلمة « السماء » تستعمل بمعنى غامض ، وحتى فى هذا الصدد يقف كنفشيوس ثابتاً ويقول : « لا تتكلم السماء ، وإنما تتمثل إرادتها فى أعمال الناس ، وهذا كل شىء » . أما إذا سئل عن كيفية عبادة الأرواح الخالدة ، فإنه يجيب « إنا لا نعرف كيف نخدم الناس ، فكيف نستطيع أن نعبد الأرواح ؟ » وبنفس هذا الأسلوب كان يجيب عن الأسئلة الميتافيزيقية ، أما عن السؤال : ما هو الموت ؟ فإنه يجيب « إنا لا نعرف ما هى الحياة ، فكيف لنا أن ما هو الموت » .

وبجانب هذه الواقعية الصرفة التى نراها فى آرائه وحاجته ، الى الاهتمام بكل أنواع الميتافيزيقا ، فإن منهجه فى البحث كان منهجاً عقلياً : التفكير ، فالدراسة ، فالبحث . فلا يوجد به شىء موحى به من أعلى ، ولا شىء يفوق الطبيعة أو يفوق العقل .

وكان مدار البحث فى دراساته هو الانسان نفسه ، وأحيانا الفرد « يقول الجميع : الامبراطورية ، المملكة ، العائلة ، فأساس الامبراطورية هو المملكة ، وأساس المملكة هى العائلة ، وأساس العائلة هو الفرد ، ولكن هذه الآراء الفردية نادرة ، فان كنفشيوس كان جماعيا ، وكان عمله الأساسى هو : وضع علاقات الجماعات ، فى العائلة والدولة وفى البشرية . ولنا أن نسأل : فى أى اتجاه كان يبحث عن حل المشكلة ؟ ونستطيع أن نجيب دون تردد : فى العائلة . فإن العائلة كانت نقطة الابتداء لكل فلسفته الاجتماعية والسياسية ، ويروى لنا مؤرخو حياته أن العظمة والجلال اللذين اكتنفا حفل جناز أمه أدهشا مواطنيه وجعلاه ذائع الصيت ، وأمضى بعد الجناز ثلاثة أيام بجانب المدفن مخصصاً كل الوقت للتأمل والأعمال الفلسفية ، ومن هنا أينعت نظريته . وينبع من تمجيد العائلة ميله للدراسات التاريخية ، بل وهنا نجد منبع تمسكه « بالتقاليد » أيضا ، إن لم نقل « المحافظة » أو « الرجعية » لوصف مثله الأعلى للتحكم الأبوى فى العلاقات العائلية وعلاقات الدولة . ومن الطبيعى أن يكون هذا الشعور نفسه هو منبع العناصر التقدمية ـ إن لم نقل الثورية ـ فى آرائه وتعاليمه . ويجب أن تشمل عناصر العلاقات العائلية علاقات المجتمعات

الكبرى كالدولة والامبراطورية ، بل والانسانية جمعاء . وحين قال أحد أتباعه باكياً : إنه لا إخوة له ، أجابه كنفشيوس « علينا أن ننظر للناس فى العالم كله كأنهم إخوة ، وحينئذ لن يبكى إنسان لانعدام إخوته » . وأجاب عن سؤال : ما هى الانسانية ؟ بقوله : « الحب » وهو جواب يبدو كأنما هو أمر مسيحى . ولكن لنكن على حذر حتى لا تخدعنا ظواهر الكلمات ، فان نشوة الحب العجيب فى خطبة الجبل[1] كانت بعيدة عن عقل كنفشيوس الحذر الرزين ، المرتبط بأمور الأرض أشد الارتباط . وسئل : هل يجازى الانسان الشر بالخير ؟ فأجاب : « وكيف نجازى إذن عمل الخير ؟ » أما نظريته فى السلوك نحو الآخرين ، فقد بينها فى « القانون الذهبى » : « ما لا تحب أن يعاملك به الناس ، لا تعامل به غيرك » . وهى القاعدة الذائعة التى سبق بها كنفشيوس « كانت » بخمسة وعشرين قرنا .

وإذا ألح أى إنسان ، على الرغم من أى شىء ، فى أن يبحث عما يثير العواطف فى مؤسس أى دين ، فانه فى حال كنفشيوس يوجد الشعور بالوقار ، والحذر ، والشعور بالتقاليد الدينية من الناحيتين العقلية والعملية ، ومهما كان الأمر ، فانه شعور حقيقى أكده كنفشيوس بحياته ، فقد وضع برنامجا للإصلاح الاجتماعى والسياسى لتحقيق السعادة للعالم أجمع : « لو قلدنى حاكم مقاليد الحكم اثنى عشر شهرا لحققت شيئا عظيما ، وفى مدى ثلاث سنوات احقق أغراضى بأجمعها » . وقد اضطر الى ترك إقليمه « لو » ، وجاب الأرض بقية حياته من ولاية إلى أخرى ، يبحث عن الحاكم الذى يقلده مقاليد الحكم . وكان يقابل فى أحسن الأحوال باحترام واستقبال غير حار دون وعود ، وأحيانا بجفاء ، بل وبالسجن . ولكنه لم يجد الحاكم الذى يبحث عنه . ولما شعر بدنو أجله قال « لم يوجد حاكم ذكى يقلدنى مقاليد الحكم ، لقد انتهى زمنى ! » وهذه آخر كلمات تروى عنه . لقد كان أول وأعظم « عقلى » هو فى نفس الوقت أول ولعله أعظم « دون كيشوت »[2] بأحسن معانى هذه الكلمة .

---

(١) السيد المسيح .

(٢) بطل القصة التى كتبها بهذا الاسم الكاتب الاسبانى المعروف سرفنتيز فى القرن السادس عشر الميلادى . ويستعمل مجازا بمعنى « إنسان خيالى » أو « حالم متحمس » (المعرب) .

تشابه النظم
فى القرآن الكريم

لفضيلة الأستاذ عبد الغنى عوض الراجحى

فى مقالين سابقين كشفت عن أسرار هذه الظاهرة وعن مواقعها فى القرآن الكريم .

ولما كانت هذه المواقع يصح أن تسمى « متشابه القرآن [1] » ، وكان للفظ المتشابه إطلاقات متعددة متشابهة ، فاننى أحب الآن وفى هذا المقال أن أبين هذه الاطلاقات مع إيضاح الفروق بينها فأقول :

صيغتنا التفاعل والافتعال تأتيان من مادة واحدة لافادة معنى واحد هو التشارك فى معنى المادة . تقول من القتل : اقتتلوا وتقاتلو ، ومن الخصام : اختصموا وتخاصموا ، ومن الشركة : اشتركوا وتشاركوا ؛ ولا يخرج الأمر عن ذلك فى قولك : تشابهوا واشتبهوا ؛ فالتشابه والاشتباه ذوا أصل واحد ويفيدان معنى واحدا هو المشاركة بين الأشياء فى الأوصاف والكيفيات [2] ، وعليه قوله تعالى: « تشابهت قلوبهم » ، وقوله تعالى : « الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها

---

(١) من ذلك « ملاك التأويل القاطع لذوى الالحاد والتعطيل ، فى توجيه المتشابه اللفظى من آى التنزيل » لابن جعفر بن الزبير المغربى ، و« البرهان فى متشابه القرآن » للكرمانى ، و « كشف المعانى فى متشابه المثانى » لبدر الدين بن جماعة ثلاثتها رسائل صغيرة مخطوطة ، ثم كتاب « درة التنزيل وغرة التأويل » للخطيب الاسكافى « فى متشابه التنزيل » وقول السيوطى فى كتابه الاتقان « النوع الثالث والستون فى الآيات المشتبهات » .

(٢) لا يعكر على ذلك كون المادة لا بخصوص هذه الصيغة مفيدة لهذا المعنى كقولهم : أشبه الولد أباه ، وقولهم :

أصبح فيه شبه من أمه   من عظم الرأس ومن خرطمه

مثانى » وقوله تعالى « والزيتون والرمان متشابها وغير متشابه » وفى آية أخرى « والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه » فالاشتباه والتشابه فى كل ذلك بمعنى التماثل فى الأوصاف والكيفيات. ولو لم يكن الأمر على ذلك لفسد المعنى وبطل أمر التقابل فى قوله تعالى: « مشتبها وغير متشابه ».

ولما كانت المماثلة فى المميزات من شأنها أن تؤدى الى الالتباس والخفاء وعجز الذهن عن التمييز بين المتماثلات، وكلا له عن التحديق فيها كما قال القائل:

رق الزجاج وراقت الخمر فتشابها فتشاكل الأمر
فكأنما خمر ولا قدح وكأنما قدح ولا خمر

لما كان الأمر كذلك ذهبوا يقولون: المشتبه والمتشابه، ويريدون الملتبس الخفى أمره، فيقولون: اشتبهت الأمور، يعنون أنها التبست وأشكلت، ويقولون: اشتبهت القبلة، يعنون أنها خفيت على من يريدها لا يدرى فى أى الجهات هى حتى يصلى اليها. وعليه قوله تعالى: « إن البقر تشابه علينا » وقوله تعالى: « هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات، فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله، وما يعلم تأويله إلا الله ».

فاذا كانت آيات القرآن كلها يشبه بعضها بعضا فى الصدق والإعجاز وسمو المعانى، صح أن يطلق على القرآن كله أنه بهذا المعنى متشابه كما قال تعالى: « الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها » والمتشابه بهذا المعنى لا يقابل بالمحكم ولا يمتنع معه إطلاق المحكم على القرآن كله، بمعنى إحكام آياته وصيانتها عن كل نقص وبطلان، وإصابتها المحز فى حسن السبك والنظام، كما قال تعالى « كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ».

وإذا كانت بعض آيات القرآن قد التبست وعجز الذهن عن إدراك مدلولها والإحاطة بمعناها، ولم يتمكن العقل البشرى من النهوض بذلك والاستقلال به فقد اصطلح العلماء على أن يطلقوا على ذلك البعض من الآيات أنها بهذا المعنى متشابه القرآن، وعلى البعض الآخر الذى اتضحت دلالته وبان المراد منه أنه محكم.

فالمتشابه والمحكم على هذا متقابلان ، وبعض القرآن متشابه وبعضه محكم ، كما قال تعالى « هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وآخر متشابهات » .

وإذا كان بعض آيات القرآن قد كرر فى مواضع متعددة وسور مختلفة والمعنى الأصلى فى هذه الآيات المكررة واحد ، والتراكيب اللفظية يشبه بعضها بعضا لاتفاقها فى أصل العبارة وقوامها مع نوع اختلاف بشىء من التقديم تارة والتأخير أخرى والذكر تارة والحذف أخرى والتعريف تارة والتنكير أخرى والفصل تارة والوصل أخرى ونحو ذلك — كان لنا أن نطلق على هذا النوع من الآيات أنه بهذا الاعتبار متشابه القرآن ، لكن من حيث إن التشابه هنا يقع فى نظم القرآن وله زيادة تعلق بنصوص الآيات : عباراتها وألفاظها المنظومة ، فأننى أختار أن أسميه متشابه النظم فى القرآن [1] وبعض القرآن متشابه وبعضه غير متشابه .

هذا المتشابه لا يقابل بالمحكم ، ولا يراد بهذه الآية القريبة الذكر التى قوبل فيها بين المحكم والمتشابه . أما ما حكاه السيوطى فى كتابه « الاتقان فى علوم القرآن » « النوع الثالث والأربعون فى المحكم والمتشابه » حيث استعرض الآية الكريمة فجعلها محور البحث وقال فيما حكاه من الأقوال « وقيل المحكم ما لم تكرر ألفاظه ومقابله المتشابه » ، كذلك ما حكاه من بقية الأقوال التى أبعد الناس فيها النجعة كالقول بأن المتشابه أوائل السور والمحكم غيرها ، والقول بأنه الناسخ والمنسوخ والمحكم غيرهما ، والقول بأنه القصص والأمثال والمحكم غيرهما ، والقول بأنه ما يؤمن به ولا يعمل والمحكم ما يؤمن به ويعمل ، والقول بأنه الألفاظ الغريبة « كالأب ويزفّون » ، والمشتركة كاليد واليمين وما فيه تقديم وتأخير وعموم وخصوص ، وما يحتاج فيه الى معرفة زمانه ومكانه وشرطه ونحو ذلك ، فكل هذا توسع وتساهل وجرى وراء ما تشتم فيه رائحة الاشتباه كأن كل شىء صعف فهمه واحتاج الى بحث وإعمال فكر فهو عندهم من المتشابه المقصود بالآية ، وفوق أن هذه الأقوال كلها لا تتمشى مع الآية من أولها الى آخرها ولا تلتئم مع ما هو معروف

---

(١) راجع تعريف النظم فى كتاب « دلائل الاعجاز » للجرجانى ص ٦٤ ط المنار .

من الخلاف فى إدراك هـذا المتشابه ، والوقوف على لفظ الجلالة فى قوله تعالى « وما يعلم تأويله إلا الله ، والراسخون فى العلم يقولون آمنا به » فإن هذه الأنواع المذكورة بما فيها من المباحث قد أخذت ألقابا علمية أخرى واستقلت بأبواب فى علوم القرآن ، وذلك « كأقسام القرآن » وأمثاله وقصصه وعامه وخاصه وناسخه ومنسوخه وغير ذلك .

فالأولى عندى أن ينأى بأمثال هـذه المباحث عن أن تكون مرادة بالآية أو مقصودة بهذا المتشابه المقابل بالمحكم ، وبذلك تخلص الحقيقة العرفية للمتشابه الذى يجل فيه الخطب ويدق الأمر وتقف العقول الانسانية حياله مكبلة بأغلال العجز والقصور : المتشابه الذى من أجـل السؤال عنه ضرب عمر ابن صبيغ ، وطرد الامام مالك من مجلسه رجلا اعتبره رجـل بدعة فى قلبه زيغ حين قال له « الرحمن على العرش استوى » كيف استوى ؟ المتشابه المتعلق بالذات العلية وصفاتها ، والذى إذا أطلق لفظ المتشابه تبادر هو الى الفهم ، والتبادر كما يقـولون علامة الحقيقة ، وكاد الناظر فى أقـوال العلماء وتآليفهم وصنيعهم فى مباحثهم أن يدعى إجماعهم على ذلك .

بعـد أن انتهى بنا البحث إلى تحديد متشابه النظم فى القرآن بأنه ما أعيد فيه المعنى الأصلى الواحد بعبارات مختلفة متشابهة ، نرى أنفسنا وكأنها تتساءل : إذا اختلفت العبارات فى موضع عنها فى آخر فكيف يكون المعنى واحدا ؟ أو ليست المعـانى تابعة للألفاظ تختلف إذا اختلفت وتتحد إذا اتحدت ؟

وللأجابة على هـذا السؤال نفسح المجال للامام عبد القاهر الجرجانى حيث يقول[1] « لا يكون لإحدى العبارتين مزية على الأخـرى حتى يكون لها فى المعنى تأثير لا يكون لصاحبتها ؛ فإن قلت : فإذا أفادت هذه مالم تفده تلك فليستا عبارتين عن معنى واحد بل هما عبارتان عن معنيين اثنين ؟ قيل لك : إن قولنا المعنى فى مثل هذا يراد به الفرض والذى أراد المتـكلم إثباته أو نفيه نحو أن تقصد تشبيه زيد بالأسد فتقول زيد كالأسد ثم تريد هذا المعنى بعينه فتقول كأن زيدا الأسد ، فتفيد تشبيهه أيضا بالأسد ، إلا أنك تزيد فى معنى تشبيهه زيادة لم تكن فى الأول

---

(١) « دلائل الاعجاز » باب اللفظ والنظم ص ١٩٩ وما بعدها طبع المنار .

وهى أن تجعله من فرط شجاعته وقوة قلبه وأنه لا يردعه شىء بحيث لا يتميز عن الأسد ولا يقصر عنه حتى يتوهم أنه أسد فى صورة آدمى ، وإذا كان ذلك كذلك فانظر هل كانت هذه الزيادة وهذا الفرق إلا بما توخى فى نظم اللفظ وتركيبه حيث قدم الكاف الى صدر الكلام وركبت مع أنّ ؟ » .

ثم قال بعد ذلك كلاما طويلا خرج منه بقوله « إن الفصاحة والبلاغة وتخير الألفاظ عبارة عن خصائص ووجوه تكون عليها معانى الكلام ، وعن زيادات تحدث فى أصول المعانى كالذى أريتك فيما بين زيد كالأسد » و « وكأن زيدا الأسد » . وقوله « لا سبيل إلى أن تجىء إلى معنى البيت من الشعر والفصل من النثر فتورده بعينه وعلى خاصيته وصنعته بعبارة أخرى حتى يكون المفهوم من هذه هو المفهوم من تلك لايخالفه فى صفة ولا وجه . ولا يغرنك قول الناس : قد أتى بالمعنى بعينه وأخذ معنى كلامه فأداه على وجهه فأنه تسامح منهم ، والمراد أنه أدى الغرض ، فأما أن يؤدى المعنى بعينه على الوجه الذى يكون عليه الكلام الأول حتى لا تعقل هنا إلا ما عقلته هناك وحتى يكون حالها فى نفسك حال الشنفين والسواريين — المتماثلين — ففى غاية الأحالة ، وظن يفضى بصاحبه إلى الجهالة » . وللعلامة ابن تيمية [1] حيث يقول « وقد ذكر الله قصة موسى فى مواضع من القرآن يبين فى كل موضع منها مكان العبرة والاستدلال ، كما يسمى الله ورسوله وكتابه بأسماء متعددة كل اسم يدل على معنى لم يدل عليه الآخر ، كلها أسماء تختلف فى المدلول وتتحد فى الذات ، وإن كانت القصة المذكورة واحدة فى ذاتها فصفاتها متعددة ، ففى كل جملة من الجمل معنى ليس فى الجملة الأخرى ، وليس فى القرآن تكرار أصلا » .

ظهر إذن أن هذا المتشابه المكرر لمعنى أصلى واحد مع اختلاف التراكيب ، لك أن تقول إن المعنى فيه واحد ، ولك أن تقول إن المعنى فيه مختلف ، فالوحدة باعتبار أصل المعنى المراد أداؤه المقصود إعطاؤه ، والاختلاف بحسب ما يعرض لهذا الأصل من زوائد يختلف بها المكرر فى موضع عنه فى آخر لاختلاف المقام فى موضع عنه فى آخر . كما أن لك بالتالى أن تعتبر ذلك تكرارا وأن لا تعتبره — كما قال ابن تيمية — تكرارا . . . ؟

---

(١) معارج الوصول الرسالة الثانية من مجموعة الرسائل ص ١٨٩ المطبعة العامرية الشرفية طبعة ثانية .

الروح والجسد

بقلم الدكتور ا . ا . سلفرستون
تعريب الأستاذ محمد كمال الدين الشاهد

من أنا ؟ أروح أم جسد ؟ أم أنّ مزيجاً من الاثنين قد كوّناه هذا الـ « أنا » ؟

يقص علينا التلمود أنه أمام عرش « الأعلى » فى « يوم القيامة » سيحاول كل من الجسد والروح أن يتجنب العقاب على الآثام التى ارتكبت . سيقول الجسد « إن الروح هو الذى أذنب ، لا أنا ، فبدونه لا حياة ولا قوة لى » ولكن الروح سيجادل قائلا « لا ، إنه الجسد الذى أذنب وأثم ، لقد جرنى معه ، إنى نقى ، غير مدنس » .

ولكن العدالة ستأخذ مجراها ، كما يروى التلمود ، تبعاً للقصة الآتية :

« كان لأحد الملوك حديقة غنّاء ، بها ما لذ وطاب من أشهى الفاكهة ، فأتى برجلين يحرسانها ، أحدهما أعمى ، والآخر أعرج .

« وقال الأعرج يوماً يحدث صاحبه « إنى أرى فاكهة طيبة ، ولكن أنىّ لى أن أصل اليها ؟ »

« فرد الأعمى « ارتق كتفىّ ، وقدنى إلى المكان ، فنحصل على الفاكهة سويا . »

« وحين وجد الملك أن الفاكهة قد اختفت ، أتى بالرجلين أمامه .

« فقال الأعرج « كيف أكون أنا السارق ، وأنا لا أقدر على السير ! » .

« وقال الأعمى « لا يمكن أن أكون قد سرقت الفاكهة ، فلست أرى » .

« ولكن الملك الذكي الحكيم ، وضع الأعرج فوق كتفي الأعمى ، وحاكمهما كشخص واحد ! » .

وهكذا ينتهى التلمود إلى أن العدل الإلهى سيوقع العقاب على الروح والجسد معا .

الروح والجسد متميزان ؛ فالروح هو الذى يدفع الجسد ، والجسد يؤدى ما يمليه عليه الروح .

ولكن ما هو الروح تماما ؟ إن أسهل طريق للاجابة على هذا السؤال هو أن تقول : كما أنه يوجد وسط نسميه الأثير ، تحيا فيه القوى المغناطيسية ، فكذلك يوجد وسط تحيا فيه القوى الفيزيقية .

وهذا الوسط هو جوهر غير مادى ، نسميه الروح . فالروح إذن هو المجال الذى تتمثل فيه العمليات الفيزيقية .

ولما كان الروح هو الوسط الذى يتمثل فيه العمل الفيزيقى ، فقد يبدو أنه يأتى إلى الجسد لحظة الميلاد ، لاقبل ذلك ، لأنه لاتوجد قبل الميلاد ظاهرة فيزيقية .

SOUL and BODY
By Dr. A. E. Silverstone, Ph. D.

(مجلة الأزهر) إن ما ذكره الدكتور سيلفسترون تعليقا على ما قاله التلمود هو رأيه الخاص ، وهو أمر تختلف فيه العقول . وقد روى البخارى بسنده عن النبى صلى الله عليه وسلم قوله : « إن أحدكم يجمع خلقه فى بطن أمه أربعين يوما نطفة ، ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك . ثم يرسل اليه الملك فينفخ فيه الروح ... » الحديث .

وهذا الكلام موافق للمحسوس ، فإن الجنين يتحرك فى بطن أمه بعد أربعة أشهر من وجوده فى بطن أمه ، وهى مقدار المائة والعشرين يوما التى ذكرها الحديث الشريف .

على ذكرى المولد النبوى الكريم :

بعث أمة وميلاد دولة

لفضيلة الأستاذ الشيخ عبد السلام أبو النجا سرحان
المدرس بكلية اللغة العربية

العالم غارق فى بحار لجية من الجهالة ، والناس سابحون فى أمواج متراكمة من الضلالة ، والفقر آخذ بالنواصى والأقدام ، والانحلال ضارب خيامه فى كل مكان ، والشقاء مخيم على كل بيت ، والمادية تستهوى أفئدة الناس ، والشهوات مرخى لها العنان ، والظلم يوجه جيوشه حيثما أراد ، ويرسل بطشه أنى شاء ، ونظام الإقطاع صنو حكم الطغيان ، وقانون الطبقات منفذ بإحكام ، والحريات مسلسلة فى الأغلال ، والأنفاس معدودة على النساء والرجال ، والعقول محبوسة فى ظلمات البغى ، والعلوم معقولة بضلالات الغى ، والفرس والروم فى صراع مخيف وحرب سجال ، والعرب بين لاتهم وعزاهم لاهون ، وفى ضلالتهم وجهلهم سادرون .

فى هذا الجو المكفهر ، وفى تلك الأزمان العصيبة ، وعلى فترة من الهداة ويأس من المصلحين ، ومع بزوغ الفجر وإشراقه ـ سطع على الدنيا نور نجم جديد .

نعم فى هذا الجانب الساكن من العالم المضطرب ، وفى بيئة مكة القاحلة الجرداء ، وبين مهاد الفقر ودثور الشقاء ، استهل محمد بن عبد الله بطلعته فى يوم الاثنين التاسع من ربيع الأول (٢٠ من أبريل سنة ٥٧١ م) فتفجرت ينابيع الحكمة من مواطن الضلال ، وانسابت أضواء الهدى فى كل مجال ، وتلألأت أنوار العلم والمعرفة والحياة .

ولقد ارتجت الدنيا جميعها لهذا الميلاد ، وصحت من غفوتها بعد طول الرقاد ،

وافتر ثغر العالم عن بسمة الأمل ، وأحس الناس فجرا مشرق الجنبات ، وكتابا مضىء الصفحات ، ورأوا نورا ساطعا بهر البصائر والأبصار ، واستمال العقول والأفكار ، وعرفوا نظاما فريدا أخرج الناس من الظلمات الى النور ، وقاد الأفراد والجماعات الى مواطن العزة والسعادة والسلام .

كان هذا هو الصدى الأول ، لميلاد الإنسان الأول ، فاهتزت السموات وتتابعت البشريات ، وتعلقت الآمال بهذا المولود السعيد .

وكأنما ألهم الله الكائنات سر القدر ، وعلمها أنه النبى المنتظر ، فاتجهت كلها نحوه ، واستشرفت أعناقها إليه ، وأخذت ترعاه وتلاحظه أينما حل وحيثما سار .

ولقد نشأ صلوات الله وسلامه عليه أكمل ما يكون خلقا وخلقا ، وأسمى ما يعرف عقلا وفضلا ، إذ صنعه الله على عينه ، وصاغه بيديه ، وهيأه لرسالته ، وأدبه فأحسن تأديبه ؛ صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ، فكان حريا أن يخاطبه الله تبارك وتعالى بقوله « وإنك لعلى خلق عظيم » .

لهذا كان ميلاده صلى الله عليه وسلم إيذانا بذلك الانقلاب الخطير فى حياة العالم ، وإرهاصا بذلك الإصلاح الشامل الذى بعث به ، وبشرى بتلك الرسالة الخالدة التى خلفت أعظم نظام عرفه البشر فى السياسة والتشريع والاجتماع .

ولقد عاش صلوات الله وسلامه عليه قبل الرسالة مثالا يحتذى فى كمال خلقه وحسن معاملته ، وصدق قوله وموفور أمانته ، حتى عرف بين أهل مكة بالصادق الأمين ؛ كذلك اشتهر عنه لين الجانب ، وقوة العزم ، والجرأة فى الحق ، والعطف على الناس ، ومواساة الضعفاء والبر بالمنكوبين ، فكانت أخلاقه أكبر داعية له ، ومعاملته أعظم دليل عليه ...

وما إن ألقى عليه عبء الرسالة ، وحمل ذلك الثقل الفادح ، وأوحى إليه أن يخرج الناس من الظلمات إلى النور ، حتى حمل اللواء ، ونظم الأداء ، ودعا إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة ، وبث فى قلوب مناصريه إشعاعا من وحى رسالته ، ونفث فى نفوس مؤازريه سحرا من فيض قوته ، فكانوا منارا مشرقا لدعوته ، وجنودا مخلصين لقيادته .

ولقد حاولت قريش أن تكسف هذه الشمس المشرقة ، وتطفىء ذلك النور القدسى المتوهج الذى أعده الله لهداية العالمين به ، ولكن خاب فألها وضاع أملها ، وردت سهامها فى نحورها ، فأصابت من الكفر وأهليه مقتلا ، ولم يمض زمن قليل حتى رأى الناس ضوء الرسالة الجديدة ، وتناثرت أشعتها بين قبائل العرب المختلفة ، ثم استقرت بعد ثلاثة عشر عاما فى طيبة الطيبة ، أو المدينة ، كما أسماها صلوات الله عليه .

وهناك أرست الدولة الفتية قواعدها ، وأقامت دعائمها ، وأخذت تضع الخطة لإصلاح العالم وهداية الناس من جديد .

حمل الدعاة بأيمانهم دستور هذا الدين الجديد ، وقدموا أمام دعوتهم كتاب الله رأس القوانين ، فقرأوا فيه الحرية التى ينشدونها ، « لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى » ، والعدالة التى يتفقدونها : « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ، وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ، « إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى » ، والمساواة التى حرموها : « يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم » ، والإخاء الذى يبحثون عنه : « إنما المؤمنون إخوة » ، « ولا يغتب بعضكم بعضا ، أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا » : ثم رأوا المثل العليا فى الخلق والآداب والاجتماع يفيض بها تشريعه ، وأعجبوا بطريقته فى العلاج حين يشخص الداء ويصف الدواء ، كما لمسوا فى سيرة الرسول وصحبه أقوى خطة وأقوم منهاج ، وسمعوا الرسول الكريم يجلّى أصول سنته ويوضح أساس رسالته فيقول « المعرفة رأس مالى ، والعقل أصل دينى ، وذكر الله أنيسى ، والثقة كنزى ، والحزن رفيقى ، والعلم سلاحى ، والصبر ردائى ، والرضا غنيمتى ، والعجز فخرى ، والزهد حرفتى ، واليقين قوتى ، والصدق شفيعى ، والجهاد خلقى ، وقرة عينى فى الصلاة » . ويقول « الناس سواسية كأسنان المشط » ، « لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى » إلى غير ذلك من المبادىء التى جاء بها الاسلام وقررها الكتاب والسنة .

ولقد عرف العرب قبل سائر الناس هذه المبادىء الخالدة ، ولمسوا تلك المثل

الرفيعة ، فطربوا لنغمها ، ولذ لهم رنينها ، فأنصتوا لها ، واستجابوا لدعوتها ، وشغفوا بالرسول حبا ، وزادوا برسالته كلفا ، فانضوت قبائلهم تحت لوائها ، وانخرطوا سراعا فى سلك أتباعها ، والتفوا حول حامل مشعلها ، ودخلوا أفواجا فى حوزتها ، واجتمع شتاتهم حول رايتها ، وأسسوا على التقوى دولة فتية لم تلبث إلا قليلا حتى طوت أعظم الدول تحت جناحيها ، وثلت عروش الأكاسرة والقياصرة ، وامتد رواقها من المحيط الأطلسى غربا إلى سور الصين شرقا ، ومن جبال القوقاز شمالا إلى المحيط الهندى جنوبا ، وبهذا تغير وجه التاريخ فى أقصر حقبة عرفها التاريخ .

ولقد أدام الله عز المسلمين الأولين ومنحهم نصره وتوفيقه ، ورفع أعلامهم على سوارى الزمن ومنارات الأمم ، وبوأهم فى العالمين مكانا عليا ، وجعلهم أساطين العلم والسياسة ، وقادة الشعوب والأمم ردحا طويلا من الزمن ، حتى خلف من بعدهم خلف تكالبوا على الشهوات ، وانغمسوا فى الرذائل ، وفتنوا بما فتح الله عليهم من خزائن الأرض وجناتها ، فأدال الله دولتهم ، وسلبهم عزهم وحريتهم ، ومكن منهم أعداء دينهم ، فاستعمروا بلادهم ، وضربوا عليهم الذلة والمسكنة ، وساموهم الخسف والهوان .

وإن فيما يلاقيه المسلمون فى فلسطين وسواها لأعظم العبر التى تدعو إلى التفكير الطويل ، وتوجب على المسلمين أن يفيئوا إلى ربهم ، ويرجعوا إلى دينهم ، حتى يستحقوا نصره ، ويستأهلوا عونه ، « ولينصرن الله من ينصره » و « إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم » .

ولعل فى ذكرى مولد الرسول الكريم ، صلوات الله وسلامه عليه — ما يحفز المسلمين عامة وشباب الهيئات الاسلامية خاصة ، إلى العمل بجد وإخلاص ، فى سبيل سيادة الاسلام وتنفيذ شرائعه ، والعمل بمبادئه .

وفقنا الله جميعا لما فيه نصر دينه وإعزاز كلمته ، إنه نعم المولى ونعم النصير ؟

أبو نواس

بين الطبع والصنعة

لفضيلة الأستاذ الشيخ عبد الحميد المسلوت
المدرس بكلية اللغة العربية

أصدق الشعراء فطرة ، وأصفاهم ملكة ، وأصحهم طبيعة ، وأقومهم سليقة ، وأجودهم تصويراً للمعانى وافتراعا للأفكار ، وانتزاعا للأخيلة : هو الذى يشتد التجاوب بين شعره ونفسه ، وتتوى الأواصر وتشتد الروابط بين ما يهدر به حسه من المعانى ، ويشرق فى قريضه من جمال الفكر وإبداع الخيال . وكلما كان شعر الشاعر استجابة لشعور يختلج فى أطواء قلبه ، وتصويراً لإحساس يضطرم فى نفسه ، كان أمسّ اتصالا بالطبع ، وأسرع نفاذاً إلى القلب ، وأشد إثارة للأحاسيس والعواطف .

والشاعر الفحل دائماً تثور فى نفسه المعانى ، وتستجيش الخواطر وتشتجر الأفكار وتتدافع الأخيلة ، فلا يملك حبسها ، ولا يستطيع كبتها ، بل ينطلق بها كالسيل الجارف لا تقف أمامه الحواجز والسدود ، وكالقدر المتاح ما يستطاع دفعه ولا تعويقه .

ذلك شعر الفطرة والطبيعة ، يدخل على القلب من غير أُذن ، ويلامس النفس دون عناء أو جهد ، ويبقى خالداً لا تنكره الأذواق ولا تجفوه الأسماع ، لأنه عمل الطبيعة التى لم تجتذب له بهرجة ، ولم تحتفل له بزينة ، ولم تقتسر له الأصباغ مما يصح ومما لا يصح . نعم قد تداخله الأصباغ وتسرى فى ثناياه الألوان الزاهية الجميلة ، ولكنها كذلك ألوان طبيعية لم تحشد لها صنعة ، ولم يحتل فى رسمها فكر ، ولم يدخل فى تصويرها تكلف أو اعتساف ، وبذلك تظل دائماً وعلى تتابع الأيام قوية الضوء ساطعة اللمعان ، لا تبلى ، ولا تخاق ولا تنصل ولا تحول .

فإذا نضب معين الشاعر وفتر إحساسه ، وركدت خوالجه وأفكاره ، وإذا نقص جَيَشانُ قلبه والتهاب عواطفه ، راح يعتسف الأخيلة ، ويقتسر الأفكار ، ويستجمع الشوارد من هنا وهناك ، يؤلف منها أشتاتا متنافرة وأمشاجا متناكرة ، وصوراً قد لا ترضى الذوق ولا تروج عند نقاد الأدب ؛ وذلك شعر الصنعة ونتاج التكلف . وقد يخطىء الشاعر القوى فيحاول أن يوشى شعره بألوان الحلى وأنواع الزينة ، فيكون إقباله على هذا وتكلفه له ورصده كل ما يملك لاقتناصه ، سببا فى فتور إحساسه وتراخى شعوره ونقص الفطرة لديه . قد تجود الصنعة وتحاول أن تطاول الطبع مطاولة ، ولكنها لا بد أن تجور على المعنى الذى يريده الشاعر ويحتفل له الأديب ، وإذا حسنت الصنعة مرة فهى فى عشرات أخرى باردة غثة غير مقبولة .

وإذا حاول الشاعر أن يقتسر الأخيلة اقتسارا ، وأن يقتنص ألوان البديع ليوشى بها شعره ويحلى أدبه ، وإذا جهد فى التماس النكت واصطياد الزينات والحلى ، فلا بد أن يشتد التراخى بينه وبين نفسه ، ويخيم الشعور على عاطفته وحسه ؛ ومن هنا كانت جناية الصنعة على الأدب وطغيانها على الطبع وتشويهها للمعانى ، وإن خلعت على الألفاظ بريقا والتماعا .

والمهم فيما أرى هو أن يترك المرء نفسه على سجيتها ، ويمكن لها فى طبيعتها ، ويترك لها تخير الطريق الذى تحبه وترتاح له وتأنس اليه ، فإذا اتجهت إلى المبالغة فى تصوير معنى ، كان لها من الطبع السليم والفطرة الصحيحة ما يحفظ التلاؤم والتساوق بين حقيقته ومجازه .

ونحن نحب أن نعرض هنا صورتين لشعر الطبع القوى الموهوب ، إحداهما لشاعر قديم هو امرؤ القيس ، والأخرى للشاعر الذى نتحدث عنه وهو أبو نواس ، لنرى كيف تأتلف الفطرة القوية الجياشة مع الصنعة الجميلة البراقة ، أو كيف يتحكم الطبع فى المحسنات البديعية فيجعلها جزءا منه .

قال امرؤ القيس :

وليل كموج البحر أرخى سدوله ... على بأنواع الهموم ليبتلى

فقلت له لما تمطى بصلبه وأردف أعجازا وناء بكلكل :
ألا أيها الليل الطويل ألا انجلى بصبح وما الإصباح منك بأمثل

فانظر كيف أراد الشاعر أن يعبر عن طول ليله وكثرة الآلام والهموم التى تحتشد فيه فأتى بهذه الصورة التى تبعث الرهبة وتثير الوحشة وتدعو إلى الإشفاق بأن جعل الليل كموج البحر يغمر الناس ويغطى على الأحياء ، ويكنهم بسدوله وأستاره فلا يدع لهم منفذا ولا يترك لديهم متنفسا ، وجعل له صلبا وصدرا وأعجازا ودعاه وخاطبه ، وهذا كله مبالغة فى التعبير واتجاه إلى حسن التصوير ، وقد ساعد على هذا فطرة لا تضعف ، وقوة لا تتخاذل ، وسجية وثابة لا تعرف التراخى ولا النكوص .

ويقول أبو نواس :

وخيمة ناطور برأس منيفة تهم يدا من رماها بزليل [١]
إذا عارضتها الشمس فاءت ظلالها وإن واجهتها آذنت بدخول
حلبت لأصحابى بها درة الصبا بصهباء من ماء الكروم شمول
إذا ما أتت دون اللهاة من الفتى دعا همه من صدره برحيل
فلما توفى الشمس جنح من الدجى تصابيت واستجملت غير جميل

أراد أبو نواس فيما أراده من هذه الصورة الفنية الرائعة ، أن يقول : إن الخمر تنفى همومه وتزيل آلامه ، وإنه يلعب ويلهو ويجن حين يجن الليل وينشر الدجى أطنابه على الخليقة ، فبالغ فى تصوير المعنى مبالغة تدعو الى الإعجاب حقاً وتملأ النفس طرباً وروعة ، وأخبر أن الهم يدعو للرحيل من صدره حين توشك الخمر من لهاته . وانظر الى هذا المعنى الرائع البديع الذى يصوره تصويرا قويا بقوله :

فلما توفىَّ الشمس جنح من الدجى .

ومع ذلك نرى الطبع وثابا مشرقا لم تضعفه صنعة ، ولم يساور نضرته بهرج متكاف أو زينة مقتسرة ؛ ذلك لأن طبيعته وجيشان نفسه وامتلاءها بالإحساس والشعور ، يدفعه لأن يقيس الصورة بالصورة ، ويقارن الأنداد بالأنداد ، ويجمع النظير الى النظير ليتهيأ له معناه فى أكمل أشكاله وأوفى ضروبه ، ثم تعرض له

(١) الناطور : حافظ الكرم أو الزرع . زليل : زلل .

ألوان الزينة رفيعة وادعة تتواثب اليه هينة طائعة من غير أن يرتصد لها فى كل ناحية ، وتلم به سهلة مستجيبة دون أن يجهد نفسه فى تصيدها من كل مكان .

وهكذا كان أبو نواس فى أكثر شعره شاعرا واتاه الطبع، واجتمع له غزارة الإحساس ، وفيض الشعور ، وبراعة الخيال ، وإشراق المعانى وسموها ، وأسلس له زمام اللغة ينفق من كنوزها ويلعب بألفاظها ، ويتنقل بين رياضها وأزهارها ، لا يتكلف قولا ، ولا يتسف معنى ، ولا يحتال لفكرة ، ولو أنه صرف نفسه عن الشعر صرفا وراض حياته على غيره لاستعصى عليه الطبع وأبت ذلك شياطين الشعر ، فهو شاعر بروحه ، وشاعر بأعصابه ، وشاعر بكل ما فيه من فكر وإحساس وعاطفة .

وهاك صورة أخرى من صوره البديعة تجلت فيها قوة الطبع ولطف الزينة ، قال :

وحمراء كالياقوت بت أشجها وكادت بكفى فى الزجاجة أن تدمى
فأحسن بها شيخوخة فى إنائها وألطف بها بين المفاصل والعظم
تغازل عقل المرء قبل ابتسامه وتخدعه عن لبه وعن الحلم

وهل هناك أجمل رسما وأبلغ تعبيرا وألطف دخولا على النفس وإثارة للحس وتهييجا للعاطفة من قوله : « تغازل عقل المرء » .

ومن شعره الموشح بألوان البديع قوله :

إن هذا يرى ولا رأى للأحـ ـمق أنى أعده إنسانا
ذاك فى الظن وهو عندى كالذى لم يكن وإن كان كانا

وفى هذا مايسميه علماء البلاغة المذهب الكلامى ، وهو إيراد حجة للمطلوب . فهو يقول : إن هذا يرى أنى أعده إنسانا وهو أحمق فلا رأى له فهو ليس بإنسان ،

ثم يؤكد ذلك بقـوله : إنه عند نفسه إنسان وهو عندى لا قيمة له ولا وجـود كأن لم يكن .

ومن الهزل الذى يراد به الجد قوله :

وإذا ما تميمى أتاك مفـاخرا فقل عدّ عن ذا كيف أكلك للضب

وهو من أبلغ ما يقال فى السخرية البالغة والتهكم الشنيع . ومن التصدير أو رد العجز على الصدر قوله :

وحيـاة رأسك لا أعـو د لمثلها وحيـاة راسـك

وقـوله :

ظن بى من قد كلفت به فهـو يجفـونى على الظن

ومن لزوم ما لا يلزم قوله :

أما وزند أبى علِى إنه زند إذا استوريت سهـّـل قد حكا
إنى ليأبى الصنع عالى همتى من غيركم ويعاف إلا مدحكا

ومن الاقتباس قوله :

خط فى الأرداف سطر من عروض الشعر موزون
لن تنـــالوا الـــبر حتى تنفقـــوا مما تحبون

وقوله :

قل للمليح أما تروى الحديث بما خالفت فيه وقد جاءت به الصحف
إن القلوب لأجنـاد مجنـدة لله فى الأرض بالأهواء تختلف
فما تعارف منها فهو مؤتلف وما تناكر منها فهو مختلف

ومن الغلو وهو ادعاء ما لا يمكن قوله :

لا ينزل الليل حيث حلت فليل شرّابها نهار

وقوله :

وأخفت أهل الشرك حتى إنه لتخافك النطف التى لم تخلق

وقد كرر هذا المعنى بقوله :

حتى الذى فى الرحم لم يك صورة لفؤاده من خوفه خفقان

وقد اختلف العلماء حول هذا المعنى كثيرا فقال صاحب « معاهد التنصيص » « المتساهلون فى هذا النوع كثيرون كأبى نواس وابن هانىء الأندلسى والمتنبى والمعرى ، والاضراب عن ذلك أنسب » وقال أيضا « ومن لطيف ما يحكى هنا أن العتابى الشاعر لقى أبا نواس فقال له : أما استحييت من الله بقولك « وأخفت أهل الشرك ... ؟ » فقال له أبو نواس : وأنت أما استحييت من الله بقولك :

ما زلت فى غمرات الموت مطرحا يضيق عنى وسيع الرأى من حيل
فلم تزل دائبا تسعى بلطفك لى حتى اختلست حياتى من يدى أجلى

فقال له العتابى : قد علم الله وعلمت أن هذا ليس مثل ذاك ، ولكنك أعددت لكل ناصح جوابا .

وقال الجرجانى فى كتابه الوساطة بين المتنبى وخصومه : « وأما ما جرى مجرى أبى نواس « وأخفت أهل الشرك » فهو من المحال الفاسد ، وكل هذا عند أهل العلم معيب مردود ومنفى مرذول ، وإن كان أهل الإغراب وأصحاب البديع من المحدثين قد لهجوا به واستحسنوه وتنافسوا فيه وبارى بعضهم بعضا به » .

وقال المرزبانى فى الموشح : هذا البيت « وأخفت أهل الشرك » بادى العوار جدا ... فقد أحال وأسرف وتجاوز .

ولكن قدامة بن جعفر فى كتابه نقد الشعر يستحسنه ويحتج له ويقول: «إنه إنما أراد به المبالغة والغلو بما يخرج عن الموجود ويدخل فى باب المعدوم ليبلغ النهاية فى النعت».

ونحن نميل إلى رأيه ونرى أنه أراد أن يبالغ فى قوة الخليفة وشمول هيبته وإحاطة سطوته حتى ليس هناك صورة من الرهبة والخوف والفزع يمكن أن تخطر بالفكر أو تطوف بالبال إلا دخلت فى هذا المعنى الذى رسمه وانتزعه خياله وغاص عليه فكره وأحسن تحديده بيانه، لأنه رجل تأثرت مشاعره وامتزج إحساسه بالخوف من الرشيد، فهو يحذره يقظان ونائما، ويرهب دائما سطوته وشدة أخذه، وإن صرامة الرشيد كانت تملك على الشعراء وخاصة مثل أبى نواس نفوسهم، فإذا أرادوا مدحه تمثل أمامهم مايحذرونه فيه ويخشونه منه، ولم يكن أبو نواس وحده هو الذى يبالغ فى الحديث عن سطوته وقوته، بل هذا أشجع السلمى يمدحه فيقول:

وعلى عدوك يابن عم محمد رصدان: ضوء الصبح والإظلام
فإذا تنبه رعته وإذا غفا سلت عليه سيوفك الأحلام

على أننا نستطيع أن نقول: إن أبا نواس لم يكن ملكا لصنعته تتحكم فيه، وتستبد بمعانيه؛ وإن وقع فى شعره شىء من الصناعة الشعرية أو الأصباغ البديعية فهو أجمل الألوان التى تأتى عفوا وتجىء طيعة لم يبذل لها جهدا ولم يتكلف فيها فكرا، ولم يرتصد قوة لاقتناص أشباحها وتأليف أمشاجها من هنا وهناك.

ومن هنا كان أبو نواس شاعر الطبع السمح، والفطرة القوية الموهوبة؟

بسم الله الرحمن الرحيم

الترك والاسلام

عقب الحرب العالمية الأولى التي انتهت في سنة (١٩١٨) م بهزيمة المانيا وأنصارها ومن شايعها، أصاب الأتراك يوم من أيام الأمم، وكانوا من الدول التي دارت عليها الدائرة، وللأمم أيام تمر عليها لتجدد وجودها إن كان بها ذماء[١]، أو لتقضي عليها إن كانت قد استنفدت جميع مذخورها من الحياة.

هذه الأيام تلم بالأمم وهي بين براثن أعدائها، فتشعرها بالخطر على وجودها، وتعتصر منها شعورا قويا بضرورة حفظ ذاتها. وكيف يكون ذلك والأسنة مشرعة إلى صدورها من كل جانب....؟ فتستميت، وتوحي إليها هذه الاستماتة أن تتجرد من كل غريزة غير غريزة تنازع البقاء. فإذا انتهت مناضلتها هذه عن الفوز بإبعاد الخطر عنها، عادت الى متابعة وجودها الاجتماعي، ولكن على أصول غير التي كانت عليها، فتتخلى عن أخلاق كانت متأصلة فيها، وتقاليد كانت عزيزة عليها، وعادات كانت جزأ من نفسيتها، خشية أن يكون في ثنايا هذه الأخلاق والتقاليد والعادات ما يعرّض وجودها للخطر كما حدث لها من قبل.

من الثورات التي تتخذ مثالا قيما لما نحن بسبيله، الثورة الفرنسية، فإنها لما خمدت جذوتها، أسفرت عن ضروب من التطرف تعتبر من لوازم هذه الحالة، منها تجرد ذويها من الدين وتخليهم عن كل عقيدة، وغلوهم في مبدأ المساواة الى حد أنهم حذفوا من لهجتهم لفظة مسيو (سيدي) وأبدلوا بها لفظة السيد، كراهية أن تكون في لهجتهم كلمة عليها عبقة من امتيازات الطبقات، وليس بين الفرنسيين سيد ومسود. ولكن لم تمض إلا سنين قليلة حتى عاد كل ذلك الى نصابه من الاعتدال.

ثار الأتراك ثورتهم في سنة (١٩١٨) فكانت أعجب ثورة في تاريخ الانقلابات الاجتماعية، إذ توصلوا، وقد خسروا الحرب، إلى استرداد جميع حقوقهم

---

(١) الذماء البقية من الحياة.

من قاهريهم ، ونازعوهم إياها منازعة الانداد فى مؤتمر لوزان ، واستعادوا كل ما كان لهم من السيادة على بلادهم ، بعد ان كانت قد قسمت سواحلها على الطامعين فيها ، حتى شهد لهم خصومهم بالرجولة البالغة اقصى حدودها ، والبطولة التى ليس وراءها مرمى لمستزيد . فكان هذا الحادث أغرب ما دونه المؤرخون فى تاريخ الانقلابات ، وأمثل ما يستشهد به الاجتماعيون على مدى ما تستطيع احداثه روح الاجتماع فى الشعوب .

والذى يجب أن لا يغفل عنه الباحث الاجتماعى فى الثورة التركية انها لم تكن على غرار كل ثورة ، وفى حدودها المعروفة ، فانها لم تكن لأسباب داخلية كسواها ، حين تثور الأمة فيها على حكومتها او على بعض طوائفها المتغلبة عليها ، ولكنها كانت ثورة ذات أغراض خارجية ضد أمم كانت تود الحد من سلطانها على حقوقها الطبيعية . فكان هذا الحادث أغرب مادونه المؤرخون فى تاريخ الثورات ، وأمثل ما يستشهد به الاجتماعيون على مدى ما تستطيع احداثه روح الشعور بالكرامة فى شعب من الشعوب .

والاتراك فى هذه الناحية كغيرهم ، خرجوا من هذه الثورة متأثرين بروح تواقة لكل جديد ، سيئة الظن بكل قديم ، وقد كان الدين بما حُمِّله مما ليس فيه ، وما استُغل له اسمه من التضليل والتمويه ، فى مقدمة ما اتجهت أنظارهم اليه ، إلا أنهم حفظوا له كرامته فلم يمسوه بسوء ، مكتفين بحذف الطبقة المهيمنة عليه ، ذهابا منهم إلى أن حذف تلك الطبقة ، ينجى الآخذين به من تضليلاتهم ، ويحميهم من التسلط على عقولهم ، فلا يستطيعون استغلال جهالتهم ، ولا تستخيرهم لارادتهم . وفاتهم ان الاستمرار على هذا الوضع يفضى إلى إقفار بلاد الترك من علماء الدين ، ويتسع المجال أمام الناس فيها الى الوضع والابتداع ، فتؤول بهم الحال إلى شر مآل ، وهذا ما لا تصبر عليه أمة عرفت بالغيرة الدينية كالأمة التركية . فلما هدأ روع الجماعة ، وأمنت الدولة فيه على وجودها ، ارتفعت أصوات الشعب بالمطالبة بتأسيس كلية لدراسة أصول الدين ، وتعميم تدريس مبادئه وأصوله بالمدارس الابتدائية والثانوية ، لتشب الناشئة عارفة بأمور دينها ، ملمة بمرامى شريعتها .

فما كاد الشعب يؤانس قبولا من مفكريه لتدارك ما عسى أن يوجد من النقص فى بنائه ، ليبلغ المثل الأعلى من الحياة الانسانية الفاضلة تحقيقاً لما قدره له مبدعه العظيم ، حتى نهض يطالب حكومته بوجوب تدريس الدين لطلاب المدارس الابتدائية والثانوية ، وقد وجد منها إذنا صاغية لأنها حكومة شعبية لا عمل إلا تحقيق رغبات الجماعة ، ولكنها قررت لذلك نظاما حكيما يحمى الحقائق الدينية أن يندس اليها ما ليس منها من أوهام العامة ، فشرطت أن لا يتجارى على تدريس الدين غير المدرسين الحائزين لجميع الشروط المطلوبة من مدرسى مدارسها .

وقد تلقت الأهرام من مراسلها باسطنبول تلغرافا نشرته من نحو عشرة أشهر جاء فيه قوله :

« أذاعت وزارة التربية الوطنية منشورا أباحت فيه انشاء مدارس للتعليم الدينى بعد الحصول على ترخيص من هذه الوزارة .

« ولكنها اشترطت اقرار وزارة التربية للبرامج التى تضعها تلك المدارس ، و(الكتب) التى تستعملها ، وقد فرضت أن يكون مدرسو هذه المدارس حائزين لجميع الشروط المطلوبة من مدرسيها . . الخ » .

وقد سارعت الأمة تحت قيادة كبار زعمائها للاستفادة من هذا الترخيص الى أبعد حد ، حتى أنها قررت إنشاء كلية لأصول الدين لتخريج العلماء الذين يدرسون الدين فى المدارس الحكومية ، وقد وصل إلى القاهرة أخيرا واحد من رجالات هذه النهضة المباركة ، وهو سعادة السيد تحسين جندوفلو وزير المعارف السابق فى تركيا ، ومهمته الآن الاطلاع على برنامج التعليم فى كلية أصول الدين المصرية لاقتباس ما يحسن اقتباسه من علومها ، وقد رأى أن يزور حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مأمون الشناوى ويحادثه فى هذه الشئون الدينية ويستهديه براجها . فأكرم فضيلته وفادته ، وذكر له طرفا من ماضى الأتراك الحافل بجلائل الأعمال فى خدمة المسلمين والاسلام ، ورجا الله أن تستمر هذه الدولة حريصة على دينها ، عاملة على أعلا كلمته بين العالم .

فأجابه سعادة السيد تحسين جندوفلو بأن الاتراك لا يزالون على ما كانوا

عليه مستمسكين بدينهم ، غيورين عليه ، واستشهد على صحة قوله بحركتهم الأخيرة فى ضرورة فتح مدارس لتدريس الدين ، وإنشاء كلية له لتخريج العلماء .

فأظهر فضيلة الأستاذ الأكبر اغتباطه بهذه الأنباء ، وتمنى للقائمين بهذه الحركة المباركة فى تركيا أن يكلل الله جهودهم النجاح .

ولما وصل الحديث الى ذكر مدى انتشار التعليم الدينى فى تركيا ، أجاب رئيس لجنة المعارف بأن الدين يدرس الآن فى المدارس الابتدائية والثانوية كمادة أساسية ، وأضاف الى ذلك أن فى النية تخصيص مدارس ثانوية لإعداد طلبتها للانخراط فى سلك طلبة كلية أصول الدين المزمع إنشاؤها وإلحاقها (بالجامعة العلمية) .

فأفاض فضيلة الأستاذ الأكبر فى جلالة هذا العمل وفائدته فى تكوين نابتة فاضلة ترفع مجد الأمة إلى أعلى المكانات ، وتصون الأخلاق أن تتدهور إلى مكان سحيق من الانحلال ، وأبدى فضيلته استعداد الأزهر للمعاونة على إنشاء هذه الكلية .

ثم توج فضيلته حديثه برجاء أن يهتم ولاة الأمور الترك بتدريس اللغة العربية فى المدارس التركية .

فقال سعادة رئيس لجنة المعارف فى المجلس الوطنى بأن هناك مشروعا يرمى الى تدريسها إجباريا فى تلك المدارس .

هذا ملخص الحديث الذى دار بين حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر وزائره الكبير سعادة تحسين جندوفلو الذى ندب لتنفيذ رغبة المجلس الوطنى التركى فى إعادة التربية الإسلامية إلى سابق عهدها فى تركيا .

٭ ٭ ٭

مما يجب أن نلفت النظر اليه فى هذا الشأن أن الأمة التركية الممثلة فى مجلسها النيابى لم تجعل لرجال الدين القوامة المطلقة على ضمائر الناس ، ولا الاستبداد بحق التوجيه الروحى لهم ، كما هى الحالة لدى الأمم الشرقية ، فجعلت لنفسها القوامة عليهم ، فاشترطت النظر فى البرنامج الذى يضعه رجال الدين للتعليم الدينى ، وفى الكتب التى يؤلفونها لنشر الدين وتعميمه .

واشترطت ما هو أخص من ذلك فى الحد من حرية رجال الدين مبالغة فى المحافظة على حرية الضمائر ، وذلك بأن حظرت أن تفتح مدرسة للتعليم الدينى حيث لا توجد مدرسة للتعليم العلمانى ، أى التعليم الخالى من التأثير الدينى ، وهى ترمى بذلك إلى درء خطر العدوان على حرية الضمائر .

والذى يلوح لنا أن الأتراك لا يخشون من سيادة الروح الإسلامية على جماعتهم ، لأنهم يعرفون ما للاسلام من فضل فى تنوير العقول ، وتقرير الحقوق الطبيعية للانسان ، وفى عنايته بنشر العلوم والفنون ، وفى حكمته فى قيادة الجماعات فى معترك المزاحمات العالمية ؛ كل هذا يعرفه الأتراك ويقدرونه قدره ، وقد وضعوا فيه كتباً ، ولكنهم بتقريرهم هذه التحفظات يسيئون الظن بالذين يتولون أمره ، فلا يعرفون مدى إدراكهم لروح الاسلام السامية ، ومبلغ فهمهم لحكمته العالية ، بل يعلمون أن ممن التحفوا شعار رجال الدين أفراداً لا يقدرون تبعة قيادة النفوس قدرها ، فيضطرب سيرهم فى توجيهها ، فيحيدون بها عن الصراط السوى إلى سبل يتأدون منها إلى غايات بعيدة من الجمود العقلى ، أو الانحلال الخلقى . وليس هذا مما رمى اليه الأتراك من ثورتهم التى ضربت بها الأمثال ، وسجلت لهم صفحة خاصة فى تاريخ الوطنية الصحيحة .

وعلى كل حال فان عود الأتراك إلى إباحة التعليم الدينى يعتبر حادثا جللا فى تاريخ الأمة الإسلامية ، وسيكون له رد فعل فى جميع الشعوب الشرقية ، لأن فى سماحهم الاشتغال بأمور الدين بعد التحلل منه نحو ربع قرن ، إيذانا منهم بأن الاسلام ضرورى لحفظ كيان الجماعة ، فهم فى هذه الناحية لم يحاكوا الأوروبيين الذين قرروا أن لا تشتغل الأداة الحكومية بغير المصالح الدنيوية ، تاركة أمورَ الدين لرجاله ، والمبالاةَ بهم أو اهمالَهم إلى الأفراد أنفسهم ، شأنهم مع الدين كشأنهم مع كل دعوة يقوم بها جماعة فى حدود الحرية الشخصية .

ولا يجوز أن يغيب عنا بأن هذا الموقف من برلمان الأمة حيال الدين سيكون له أثر كبير فى محو البدع التى تُروَّج فى الكتب الشعبية باسم الاسلام ، ولا يقرها الكتاب ولا السنة ، ولا يملك أهل البصر سلطة لإزالتها ، ومنع ظهور أمثالها .

وبعد فسيشهد العالم كله بعد حقبة من الدهر شعبا إسلاميا لا تكدر مظهره شائبة من بدع العامة ، ولا من طامات كذبة المتصوفة ؟

محمد فريد وجدى

يومان . . . !

الـكلمة التى ألقاها حضرة صاحب الفضيلة الشيخ محمد عبد اللطيف دراز
مدير الأزهر والمعاهد الدينية
يوم ٢٢ / ٢ / ١٩٤٨ بدار الأذاعة

بسم الله الرحمن الرحيم

حضرات السادة :

السلام عليـكم ورحمـة الله .

أما بعـد ، فمـا أعجب التاريخ فيما يبدى ويعيد ! وما أعظم أحداث الدهر وتصرفاته عبرة للمعتبرين وذكرى للمستبصرين ! .

يومان للعروبة والإسلام تشابها حتى اختلطا ، وتقاربا حتى اتحدا ، فما يمتاز أحدهما عن الآخر ؛ هما يومان فى عداد الزمن ، ويوم واحد فى أحداث التاريخ : يومنا الحاضر ، ويوم صلاح الدين . القوم هم القوم ، والميدان هو الميدان ، والدعوى هى الدعوى ، وإن أخذت لونا آخر واختلفت فى بعض الصور والأوضاع . فأوربا التى تولت كبر الحروب الصليبية هى التى تتولى اليوم كبر كل حرب ضد العرب والمسلمين فى فلسطين وغير فلسطين ، وليست أمريـكا إلا امتدادا لأوروبا عقيدة وثقافة وسياسة ، وكان بيت المقدس هو الغرض من الحروب الصليبية ، وكذلك هو نفسه الغرض من الحرب الصهيونية ، وكما زجت الصليبية بيت المقدس فى دعـواها تضليلا تستر به أغراضها من الفتح والملك والافساد فى الأرض ، فكذلك الصهيونية لا تريد من وراء دعـواها فى هـذا البيت المقدس إلا الدولة والملك لتكون سرطانا فى جسم العالم العربى يقضى على أممه ودوله ، وتقوم تلك الدولة اليهودية به — لا قـدّر الله — فى وسط الوطن الاسلامى مباءة بغى وضرار وإفساد ، تفرق فيه أبناءه ، وتؤلب عليه أعداءه .

وقديما كان الصليبيون من الغرب والتتر من الشرق يدا واحدة على العرب والمسلمين ، واليوم أوروبا وأمريكا من الغرب وروسيا من الشرق يدا واحدة كذلك على العرب والمسلمين ؛ فأهلاً بالتاريخ يعيد نفسه ، ويدعونا الى ما نشأنا عليه من أحداث ، وما عرف لنا من مواقف ، ليكتب الأبناء والأحفاد من صحف المجد بأيديهم مثل ما كتب الآباء والأجداد .

ما هذه البروق والرعود ؟ وما هذه الزلازل والنوازل ؟ وما هذا العالم تتحزب أحزابه ، وتتكتّب كتائبه ، وتجتمع أممه ودوله من مشرق الأرض ومغربها ، تسوقها الدسائس الدنيئة والأغراض السافلة ، لترويع الهادئين ، وتخيف الآمنين ، وتحارب المسالمين ! . ما بال هذه الحضارة التى كان يظنها الناس قسطاس العدالة ودستور الحقوق ، وأساس التقدم فى جميع مناحى الحياة ، قد ارتدت على أعقابها خاسرة مرتكسة فى هذا الدرك من التعصب والجهالة ، حتى عميت عن الحق فى أجلى مظاهره وأثبت مواضعه وأحق قضاياه ، فاندفعت فى حمية الجاهلية تدوس العدالة ، وتغتصب الحقوق ، وتثير الحروب ، وتعثو فى الأرض فسادا .

سبحانك ربى ! أيكون للذهب الصهيونى وغيره من ضروب المادة كل هذا السلطان فى الأرض ، أو تنحط الروحانيات والمعنويات السامية فى الناس الى أن تصبح مهينة ذليلة تسحق تحت أقدام المادية الغليظة التى نهضت فى الأرض بقوتها وجبروتها عملاقا ماردا وشيطانا رجيما ، ترهب الناس بفظاعته وتخيفهم بقوته . هو فى الشرق الشيوعية وجيوشها الحمراء ، وفى الغرب الرأسمالية وقنابلها الذرية ؛ ثم بعد ذلك تتظاهر هذه المدنية الخداعة فتذكر الإنسان وحقوقه فى ملكه ، وفى تقرير مصيره ، الى آخر ما يجأرون به فى الشدة والضيق ، وينسونه فى الفرج والسعة . فمن يراؤون ؟ وعلى من يكذبون ؟ أيظن هؤلاء الناس أن الله الذى خلق السموات والأرض بالحق وأقامها لأعظم غاية من الحق ، يحيط به علمه وتدبيره وإرادته ؛ أيظنون أن الله قد دفع هذا الخلق كله الى بضعة نفر من طواغيت الأرض يعلنون فيه الفساد والطغيان ، ويرفعون باسم الشيطان راية البغى والعدوان ! . كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا . راجعوا التاريخ أيها الناس وقلبوا صفحاته ؛ لقد كان النبى من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ،

أو المصلح من المصلحين يأتى وهو نقطة من الحق فى خضم متلاطم الأمواج من الباطل ، فلا تزال هذه النقطة تتسع وتتسع ، ولا يزال أمرها يكبر ويعظم حتى تغمر اليمّ على سعته وتلاطم أمواجه ، وتحيل ذلك المحيط من الماء الآجاج عذبا زلالا سائغا للشاربين . ذلك مثل الحق والباطل ، وهو مثل خالد لا يزول ؛ وإن عمى الناس عن ذلك فلينظروا إلى هذا المثل الذى افتتحنا به حديثنا ، فمنذ ثمانمائة سنة على التقريب ، كان للعرب والمسلمين مع المتعصبين عليهم من أهل البغى والعدوان نفس هذا الموقف الذى يقفه الصهيونيون وأنصارهم من العالم شرقا وغربا ، وكان زعيم العرب والمسلمين إذ ذاك هو البطل العظيم والملك العظيم : « صلاح الدين الأيوبى » . ولقد تألب المشرق والمغرب كلاهما على العرب والمسلمين فى ذلك العهد ، وأجابت الأمم عليهم بخيلها ورجلها ، فدهمها الصليبيون من الغرب ، ودهمها التتر من الشرق ، وارتكب الفريقان فى طريقهما الى هذه البلاد مع كل أمة أوقعها سوء الحظ فى طريقهم أشنع وأبشع ما رواه التاريخ من تنكيل وتدمير ؛ وكانت مصر كما هى اليوم قطب الرحى وزعيمة اللواء ، وقلب العروبة والإسلام ؛ فجمعت العرب والمسلمين جميعا تحت لوائها ، ووقفت للدنيا كلها بالمرصاد ، تضرب الصليبيين بإحدى يديها وتضرب التتر بالأخرى ، واستمرت الحروب وطالت وامتدت أيامها ونكباتها ، حتى ردت مصر التتر أربع مرات ، أولاها فى معركة « عين جالوت » سنة ٦٥٧ هـ بقيادة ركن الدين بيبرس ، وكانت أخراها بالقرب من « دمشق » سنة ٧٠٢ هـ فى عهد الملك الناصر ، محمد بن قلاوون الذى هزمتهم جنوده هزيمة منكرة ، وكان عدد الأسرى منهم فى هذه المعركة عشرة آلاف أسير فقط ، فضلا عن القتلى والجرحى ، وكانت هذه الموقعة هى الفاصلة بين حق مصر والعرب والمسلمين ، وباطل التتر المعتدين الظالمين . أما الصليبيون فكانوا من قبل ذلك وفى أثنائه فى حرب طاحنة دائمة مع العرب والمسلمين . وقد استمرت هذه الحروب مايقرب من مائة عام ، وسقطت آخر دولة لهم بالشام سنة ٦٩١ هجرية . فلله أنت يامصر من بلد عظيم ، ولله العرب والمسلمون ! .

مائتا سنة تجتمع فيها الدنيا كلها على مصر ، ومن ورائها العرب والمسلمون ، فتقف لهم طول هذه المدة رافعة الرأس ناصعة الجبين ، صامدة ثابتة لا تهين

ولا تلين ، ولا يفل لها حد ، ولا يثنى لها عزم ، حتى لاحت تباشير الصباح ، وبزغ فجر النصر ، وتقدمت مصر والعرب أمام العالم كله تركز راية المجد على أعلى قمة فى تاريخ الجهاد ، والعاقبة للمتقين .

فماذا ينتظر المتألبون المتعصبون الباغون على العرب والمسلمين اليوم ، إلا أمثالها ! . ليكونن ذلك إن شاء الله ، ولتعلمن نبأه بعد حين . وإذا كان الأحزاب فى الدهر الأول قد لاقوا نكالهم على يد — صلاح الدين — وخلفائه من بعده ، فإن كل ملك ورئيس دولة وحاكم فى بلاد العروبة والاسلام اليوم ، ليعتبر نفسه خليفة من خلفاء صلاح الدين ، داعيا بدعوته ، وقائما بأمره . وإن الشعوب العربية والاسلامية اليوم هى بحمد الله أكثر عددا وأعز نفرا . ذلك الى أن الحق هو الحق ، والباطل هو الباطل ، فما نصر به الله العرب والمسلمين من تأييد ومعونة فيما مضى ، سينصرهم بمثله اليوم ، وهو سبحانه وتعالى نعم المولى ونعم النصير ؛ فلا يهولنكم معشر العرب والمسلمين ذلك الضجيج والتهريج ، ولا يخيفنكم من القوم ما جمعوا من جمع ، ولا ما أعدوا من عدة ، ولا ما لوّحوا به من جيش دولى وغير دولى ؛ فكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله ، والله مع الصابرين .

أيها العرب والمسلمون :

أخلصوا النيات ، ووحدوا الصفوف ، وجاهدوا باسم الله فى سبيل الله ؛ واعلموا أنكم تقفون مع القوم أمام سنة الله القاهرة فى الحق والباطل ، والله تعالى يقول : « بل نقذف بالحق على الباطل ، فيدمغه فإذا هو زاهق » ويقول : « وكان حقا علينا نصر المؤمنين » .

دعائم الاستقرار
فى التشريع القرآنى

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد محمد المدنى
المفتش بالأزهر

من طبيعة الإنسان أنه ينفر من كل تكليف يحد من حريته، ويقيده فى تصرفه بشىء من القيود. ذلك أن الانسان — من بين الكائنات الحية — ذو اعتداد بفهمه، وشعور بقوته التفكيرية وسلطانه العقلى؛ فهو يتساءل دائماً: لماذا يقيَّد؟ وبأى حق يقيده الآخرون؟ وهل هم فى تقييدهم إياه منصفون أو متحكمون؟ فإذا استطاع أن يجيب على هذه الأسئلة فى نفسه إجابات معقولة يطمئن اليها، أو أن يسمع من غيره إجابات تريحه وتقنعه، قبل مبدأ التقيد والنزول عن حريته، واعترف بحق الذى يقيده وأذعن لسلطانه، وهيأ حياته على حساب هذا القيد طائعاً مختارا حتى يصبح بعد حين أمراً مألوفاً لديه، يحبه، ويدافع عنه، ولا يرضى به بديلا؛ أما إذا لم يقتنع بالإجابات النفسية أو الخارجية عن هذه الأسئلة أو عن بعضها، فانه يثور على هذا القيد أو على من يحاول فرضه عليه، أو يبيح لنفسه التخلص منه فى خفية كلما أمكنه هذا التخلص وأمن معه على نفسه وماله وما يهمه.

لهذا كانت كل القوانين والتكاليف محتاجة إلى دعائم ثلاث، لكى تستقر وتؤدى إلى الغاية منها، وتصبح فى نظر المجتمع قاعدة التعامل والسلوك: تلك الدعائم الثلاث هى:

(١) إقناع المكلفين بحاجتهم إلى قبول مبدأ التقيد فى الجانب المعين الذى يراد التكليف به، وفرض أى نوع من أنواع الالتزام فيه؛ وبعبارة أخرى: مجىء هذا التقييد بعد أن يشعر المكلفون أنفسهم بحاجتهم إلى مجيئه.

(٢) إقناعهم بشرعية السلطة التى عنها يصدر هذا التقييد.

(٣) إقناعهم بأن هذا التقييد قد جاء على قدر الحاجة ، فلم يشطط ولم يسرف .

هـــذه هى الدعائم الثلاث التى تستقر عليها القوانين ، وترسخ فى المجتمع ، وتكسب الهيبة والاحترام ، وتأمن شر الانتقاض عليها ، والتفلت من سلطانها فى السر أو العلانية ؛ ولذلك لا تعمر القوانين أو التكاليف التى أساسها مجرد الرغبة من فارضيها دون الشعور بها من جانب المكلفين ؛ ولا تعمر القوانين التى تفرض من غير ذى حق مشروع فى فرضها ، لأن سنادها حينئذ هو القوة ، والقوة عارض يزول ؛ ولا تعمر القوانين التى يشعر المكلفون بها بأنها ثقيلة فادحة تكلفهم من الأعباء فوق ما يستطيعون ، أو تتجاوز بهم حدود ما تقضى به الحاجة ولو كان محتملا فى نفسه .

* * *

ولقد قام التشريع القرآنى فى كل ما جاء به على هذه الدعائم الثلاث ؛ ولذلك كان هو الشريعة الخالدة الصالحة لكل زمان ومكان ، القادرة على أن تبث فى العالم أسباب الطمأنينة والرضا والأمن والسلامة ، وأن تميته عوامل التزلزل والاضطراب والفوضى .

أما الدعامة الأولى : وهى إقناع المكلفين بحاجتهم الى التقيد بتشريع معين فى أمر معين ، فإننا نرى لها مظاهر فى الكتاب الكريم ، نذكر منها ما يأتى :

(١) كان القرآن الكريم لا ينزل فى مكة إلا فيما يتصل بالعقائد وأصول الرسالة وأمهات الأخلاق والفضائل ، ولا نكاد نجد حكما تفصيليا فى أية ناحية من النواحى العملية نزل فى مكة ؛ وهذا أمر طبيعى لأن القوم حينئذ لم يكونوا مستعدين لتقبل أى قيد يقيدون به فى أحوالهم ونظامهم الاجتماعى ؛ فقد كانت عروق الشرك ضاربة فيهم ، متشبثة ببراثنها فى عقولهم وقلوبهم ، وكانوا من ناحية أخرى وحدات متناثرة تتمثل فى العصبيات القبلية وما يتفرع منها ، متخذا أفقاً أضيق كعصبيات العشيرة أو البطن أو الفخذ أو البنوة الى أب قريب ؛ ومثل هذه الوحدات لا تكون أمة واحدة منجانسة ذات أهداف واضحة ، وميول متلاقية . فلو أن القرآن الكريم عاجلهم فى هذا الطور بالتشريع التفصيلى ، وكلفهم مع الإيمان والتوحيد بهذه القوانين التى نراه قد عنى بها فيما بعد حين كان ينزل

بالمدينة ، لعرّض أحكامه وقوانينه ، بل دعوته كلها للضياع ، ولكان مثله كمثل من يبذر الحب فى أرض غير صالحة ـ أو فترة غير صالحة ـ للإنبات والإثمار ، دون أن يمهدها ويشقها ويسويها ، ويهيء لبذوره فيها أسباب الصلاح ، من زىّ وتعهد ، وأوقات مناسبة .

والخلاصة فى هذا الجانب أن التشريع الإسلامى القانونى لم يأت فى مكة ، ولم ينزل به القرآن لأهلها ؛ لأن البيئة لم تكن شاعرة بحاجتها إليه ، ولا مستعدة لتلقيه بالقبول ؛ ولهذا توفرت آيات الكتاب الكريم فى هذه الفترة على تطهير هذا المجتمع من أدران الشرك ومفاسد العقيدة والأخلاق ، شأن الذى يهدم ويزيل الأنقاض قبل البناء .

(٢) عندما استقر شأن المسلمين كأمة ، وتميزوا فى المدينة كدولة ناشئة لها شئون داخلية وخارجية ، لم يكن همّ القرآن أن يشرع الأحكام ويرتجلها ارتجالا حتى نتصور أن الأمر كان أمر قوانين تهيأ وتصاغ ويلقىَ بها الى الناس لينفذوها حين تعرض لهم مشاكل تتصل بها ؛ لم يكن الأمر كذلك ، وإنما كان التشريع ينزل على حسب الحوادث ؛ فإذا برز فى محيط المسلمين أمر يحتاج إلى حكم نزل هذا الحكم ، وإذا عنى المسلمون بالسؤال عن شيء أو التماس تشريع فيه أجيبوا إلى ذلك حسب ما تقضى به أحوالهم ؛ ولذلك نجد فيما ذكره المفسرون والمشتغلون بالقرآن أبوابا من العلم هى ما يعرف « بأسباب النزول » ونجد الروايات تتكفل فى جانب كثير من الآيات ببيان الشأن الذى نزلت فيه ، والقضية التى كانت سببا فى هذا التشريع ، والإحساس الاجتماعى الذى تهيأ له وتطلبه ، ودعا إليه وترقبه .

ومن أراد أن يتجلى له ذلك فليرجع الى هذه الأسباب فى كثير من الآيات التشريعية فى شئون الزواج والطلاق واللعان والنفقات والمهور ، وفى شئون الحجاب ودخول البيوت وآداب الاجتماع العامة والخاصة بين الأسر والأفراد والمرءوسين والرؤساء ، وفى شئون العبادة وشروطها ورخصها ، ونحو ذلك .

ونكتفى هنا بذكر مثال واحد هو مثال المجادلة ، وهى المرأة التى كان زوجها قد ظاهر منها : حدث الرواة أن أوس بن الصامت قال لزوجته خولة بنت ثعلبة ،

وقد غضب لمراجعتها إياه فى شأن من شئونه : أنت على كظهر أمى . وهى عبارة كان العرب فى جاهليتهم يحرمون بها نساءهم على أنفسهم ، فلما سكن غضبه أراد أن يراودها ولكنها أبت حتى تستفتى فى أمرها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فانطلقت اليه ، وقصت عليه قصتها ، فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما أراك إلا قد حرمت عليه ، فراجعته وقالت : يا رسول الله إنه ما ذكر لفظ الطلاق ، فقال لها : لم ينزل على فى أمرك شىء وما أراك إلا قد حرمت عليه ، فظلت تراجع رسول الله صلى الله عليه وسلم وتجادله وتقول : يا رسول الله إن أوساً تزوجنى وأنا شابة مرغوب فى ، فلما خلا سنى ، ونثرت بطنى — أى كثر أولادى — جعلنى عليه كأمه وتركنى إلى غير أحد ، فان كنت تجد لى رخصة يا رسول الله فحدثنى بها ، فلا يزيد الرسول عليه الصلاة والسلام على أن يقول لها : لم ينزل على فى أمرك شىء وما أراك إلا قد حرمت عليه ؛ ثم اتجهت المرأة إلى الله شاكية ضارعة تقول : رب أشكو اليك وحدتى ، وشدة فاقتى ، وما يشق على من فراق زوجى ، رب إنك تعلم أن لى منه صبية صغارا إن تركتهم اليه ضاعوا ، وإن ضممتهم إلى جاعوا !. فأذن الله لشكواها ، وتقبل ضراعتها ، وأنزل على نبيه صلى الله عليه وسلم قوله : « قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها وتشتكى الى الله والله يسمع تحاوركما ، إن الله سميع بصير . الذين يظاهرون منكم من نسائهم ماهن أمهاتهم إن أمهاتهم إلا اللائى ولدنهم ، وإنهم ليقولون منكرا من القول وزورا ، وإن الله لعفو غفور . والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتماسّا ، ذلكم توعظون به والله بما تعملون خبير ، فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا ، فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكينا ، ذلك لتؤمنوا بالله ورسوله ، وتلك حدود الله ، وللكافرين عذاب أليم » .

فالظهار إذن كان نظاما معروفا عند العرب ، وقد علم الله أنه نظام صائر بالتشريع الاسلامى الى الإلغاء لأنه غير صالح للبقاء ، ولكنه مع ذلك لم يعاجل بإلغائه ، وتركه حتى تهيأ له الجو التام بعد وقوع هذه الحادثة المؤثرة ، وإلحاح الزوجة فيها على الله ورسوله ثم ألغاه .

وفى ذلك دلالة واضحة على أن التشريع القرآنى لم يكن يأتى لمجرد أخذ الناس به وإملائه عليهم ، وإنما كان يأتى تلبية للحاجة ، ومجاراة لتطلب الحوادث والرأى العام إياه .

(٣) نجد القرآن الكريم يقرن الأحكام التى يشرعها غالبا بما يدل على انبناء تشريعه فيها على مصالح الناس أنفسهم ، وعلى أن أحوالهم تتطلبها ، ولا تستقيم بدونها ، فيعطى بذلك فكرة واضحة عن أن المشرع لا يشرع لمجرد الرغبة فى أن يشرع ، ولكن ليحقق مصلحة معينة بعد أن تتضح حاجة المجتمع الى تحقيقها ، وعدم صلاحه بدونها ؛ ومن ذلك أنه يعلل لكثير من الأحكام تعليلات تبين أحيانا الباعث الذى يبعث عليها ، وأحيانا المصلحة التى تتضمنها ، وأحيانا المضار التى تترتب على إهمالها وعدم الأخذ بها .

يقول الله تعالى فى تحريم نكاح المشركات والإنكاح الى المشركين : «ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمنّ ، ولأَمَةٌ مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم ، ولا تُنكحوا المشركين حتى يؤمنوا ، ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم ، أولئك يدعُون الى النار ، والله يدعو الى الجنة والمغفرة بإذنه ، ويبين آياته للناس لعلهم يتذكرون »

لاشك أن أمر النكاح واختيار الزوجة أو الزوج أمر له أهميته وخطورته ، ولا شك أن البيئة الإسلامية بيئة مقتطعة من بيئة العرب المشركين ، وقد كانوا جميعا أهل وطن واحد ، وبينهم وشائج قربى وصلات معاملة ، وأنواع من الصداقات والتعارف ، فإذا أراد مسلم أن يتزوج ، ووقع اختياره على مشركة فليس هذا عجيبا ، وربما طغت عليه عوامل الرغبة والحرص على هذه الزوجية فقدمها على عوامل الأخوة الدينية ؛ فلما حرم الله زواج المشركين والمشركات قرنه بأمرين :

أحدهما : أن الاختيار الزوجى لم تقصره الطبيعة على جانب معين حتى يشعر الانسان بأنه إذا لم يفز ببغيته ، ويحقق طلبته من هذا الأفق بالذات فإنها لا تتحقق ، ولكن فى أفقه الخاص المحيط به المشارك له فى العقيدة والرأى فرصا للاختيار يتحقق بها مطلب من لا يريد التعنت ، فيمكنه أن يجد زوجات مؤمنات وأزواجا

مؤمنين ، وإذا كان فى جانب المشركين والمشركات شىء من عوامل الاغراء والترجيح أثار فى نفسه الإعجاب ، فليذكر أن الإيمان صفة ترجح سائر الصفات عند الموازنة ؛ فلو أن أمة مؤمنة وزنت بامرأة مشركة لكان لها فى نفس المؤمن رجحان وإيثار ، ولو أن عبدا مؤمنا وزن برجل مشرك لكان له فى نفس المؤمنة رجحان وإيثار ؛ فهو بهذا يثير فيهم نخوة الإيمان ، ويقابل بها نخوة المعاظمة والمكاثرة والتفاخر بالزوجية . ولا شك أنه يصيب من ذلك هدفه ، والقوم مؤمنون لا يعدلون بإيمانهم شيئا ما من أغراض هذه الحياة .

الثاني : وصفه المشركين والمشركات فى هذا المجال بقوله « أولئك يدعون إلى النار » فإن معناه : كيف يعرض المؤمن نفسه وما عسى أن يرزق به من بنين وبنات ثمرة لهذه الزوجية إلى خطر الارتماء فى أحضان الشرك المفضى إلى النار ؟ وهل مثل ذلك فى القياس إلا كمثل امرىء يلقى بنفسه طائعا مختارا فى النار ويظن أنه فى حصانة منها وأنها لا تحرقه ؟ وهبه قد تحصن هو منها فهل يضمن حصانة ذريته ؟ لا شك أن الحزم هو الابتعاد عن النار جملة ، والتماس الحياة فى كنف آمن غير هذا الكنف .

ويقول الله جل ثناؤه فى أمر المحيض : « ويسألونك عن المحيض قل هو أذًى فاعتزلوا النساء فى المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن ، فإذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله ، إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين » .

فيعلل التشريع فى ذلك ، وهو وجوب اعتزال النساء فى المحيض ، وعدم قربهن إلا بعد التطهر ، بعلة طبيعية يتقبلها كل عاقل حريص على نفسه وصحته ، وهى أن هذا المحيض أذى ؛ وفى هذا التعبير دقة وبراعة وإقناع ، حيث جعله نفس الأذى ، وأتى به صالحا لأن يفهم منه معنى التأذى والنفرة من التقذر والتنزه عنه ، وأن يفهم منه معنى التأثير على الصحة وإلحاق الضرر بالبرآء المعافين . وفى العدد القادم إن شاء الله تعالى ، نتابع الحديث فى هذا الموضوع ؟

المسلمون بين الامس واليوم

كيف تقدموا ، ولماذا تأخروا ، وكيف ينهضون ؟

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ فكرى ياسين
المدير المساعد لمكتب البحوث والثقافة
بالأزهر الشريف

لو أننا ذهبنا نستعرض أحوال المسلمين فى عصورهم الأولى ، ورحنا نستنبىء أخبارهم الماضية ، ونستقرىء ما كانوا عليه من مجد وسؤدد — لوجدنا أنهم قد سبقوا فى كل شأن من شئون الحياة ، وبرعوا فى كل ناحية من نواحيها ، ولا قتنع معنا كل منصف بأنه لم تكد شمس الإسلام تسطع فوق رُبىَ تلكم الديار المترامية ، والربوع الفسيحة ، حتى كان المسلمون قد انتهوا من تَمَلُّك ناصية العلوم والفنون ، والأخذ بزمام الثقافة والعرفان ، وحتى كانوا قد تمت لهم الصدارة الدولية والاجتماعية بالرغم من سلطان تينك الأمتين العظيمتين العريقتين فى الحضارة والرقى ، وحتى ظهر من المسلمين القواد العظام ، والسياسيون المحنكون ، والعلماء النحارير ، والمشترعون المتمكنون ، والأدباء النوابغ ، والأطباء الماهرون ، والفلاسفة الممتازون ، كما ظهر بينهم عدد غير قليل من رجال الفكر والإصلاح ، وأرباب الأموال والتجارات ، وعباقرة الإداريين والحكام ، وأعلام الولاة والوزراء ، وسوى أولئك وهؤلاء ممن ساروا بأممهم قُدُماً نحو ذُرى الكمال والسمو ، ووصلوا بها إلى قمم العلا والمجد .

ولو أننا رحنا بعد ذلك كله ننقّب بين ذخائر المكتبة العربية ، ونبحث فى جواهرها وكنوزها الثمينة ، ونحصى تلك الثروة العلمية الطائلة التى خلفها لنا المسلمون الأولون فى تلك الأحقاب الزاهرة ، لا ستطعنا أن نقول — ونحن مطمئنون كل الاطمئنان — : إن هذه الثروة لم تسبق إليها أية أمة من الأمم ،

ولم تتح لأى شعب من الشعوب ، ولا ستطاعت تلك الثروة أن تتحدى ثقافات الأمم المختلفة فى شتى أنحاء الأرض بما حوته من نفائس وفرائد فى كافة المواد والفنون ، وسائر العلوم والمعارف .

ولعل القارىء الكريم بعد هذا كله ، يفكر فى أن يسألنى عن السرّ فى هذه العظمة ، وعن السبب فى هذا النهوض ، الذى لا يوجد له نظير بين أمم الإنسانية جمعاء .

والسبب يسير كل اليسر ، سهل أعظم السهولة ؛ ذلك أن العالم كان متعطشا أكبر التعطش إلى دين ، يقوّم من اعوجاجه ، ويصلح من فساده ، وينتقل به من حياة الجاهلية الجهلاء إلى حياة راقية مهذبة ، وينتشله من وهدة الهمجية والفوضى والاضطراب ، إلى مجتمع تسود فيه الطمأنينة ، ويتوفر فيه النظام والاستقرار ، ويأخذ بيده إلى حيث يشعر بالوجود الصحيح ، والإنسانية الفاضلة ؛ فما إن أشرقت الأرض بنور الإسلام ، حتى وجد العالَم فيه ضالّته المنشودة ، ورأى فيه طلبته المبتغاة ، وأقبل عليه يتفيأ ظلاله فيما يضمن له أهنأ عيشة ، وما يكفل له خيرَ حياة ؛ وما إن أنزل الله تعالى القرآن الكريم ، والدستور العظيم ، والحجة البالغة ، والحبل المتين ، وأمدّه الرسول بالسنة المطهرة ، شارحة له ، ومبينة لمعانيه ، حتى أيقن أهل النصفة والاعتدال بأن هذا هو الدين الصالح ، والنظام المحكم ، والمنهاج القويم ؛ لما اشتمل عليه من حقائق صحيحة ، وأصول متينة ، وعقائد سليمة ، وأحكام يسيرة ، وحنيفية سمحة ، وهداية واضحة ، وآداب راقية ، وأنظمة عالية ؛ ولما جاء به من أخلاق كريمة ، ومعاملات سامية ؛ ولما حثّ عليه من صفات نبيلة ، وفضائل حميدة ؛ ولما رغّب فيه من برّ ومعروف ، وخير وإحسان ؛ فسارعوا إلى الدخول فيه أفواجا ، وهرعوا إليه من كل حدب وصوب ، وبادروا إلى الأخذ بقواعده ومناهجه ، والإصغاء إلى نصائحه وإرشاداته ، والسير على تعاليمه ومبادئه ؛ وآمنوا بأن الانضواء تحت لواء الإسلام هو خير طريق ، يحقق لهم ما يرجونه من سعادة وفلاح ، ويضمن لهم ما يصبون إليه من حياة إنسانية رشيدة ، ومُثُل اجتماعية عالية ، ومعنويات مثالية كاملة .

وقد انضم إلى هذا أن المسلمين الأولين كانوا ممن صفت نفوسهم ، وعلت هممهم ، وقويت عزائمهم ، وندرت شجاعتهم ، وأخلصوا لعقائدهم ، واستمسكوا بدينهم ، وعملوا به فى السرّ والعلَن ، وراقبوا الله فى الجهر والخفاء .

وكانوا ممن يضحون الدنيا فى سبيل الدين ، ويبذلون كل مرتخص وغال لإعلاء كلمة الله ؛ وممن يرون أن الدين هو كل شىء ، وأنه يجب أن يفتدى بأعز ما يملكه المسلم ؛ وممن يعتقدون أن كل فرد منهم إنما هو مجند لخدمة الاسلام ، وأن هذه الخدمة يجب أن تكون فى الميدان الذى يتيسر لصاحبه أن ينتج فيه ، وأن يبرز فيه بأثر نافع ؛ فكان منهم المشتغلون بالفتوح والإمارات ، والقضاء والإفتاء ، والتعليم ، والحراسة والرباطة ، وغيرها ؛ وكان منهم المشتغلون بالعلوم يدرسونها ويجمعونها ، ويدونونها ، ويرتبونها ، ويستخرجون أنواعها وضروبها ، ويبتكرون طرقها وأساليبها ، ويضعون فيها المعاجم والمدونات ، والموسوعات والمصنفات التى نفاخر بها اليوم ، والتى تعد أعظم ما وصلنا اليه فى العلوم الإسلامية والقرآنية وعلوم السنة ، والعلوم اللسانية ؛ فوصلوا بفضل كل هذه الجهود الجبارة الى تشييد صرح ذلك المجد الشامخ الذى سجله لهم التاريخ ، والذى يشهد بما كان لهم من مضاء العزيمة ، وصدق الإيمان ، وطول الباع فى شتى العلوم والفنون .

* * *

وهناك سبب جوهرى آخر غير كل هذا الذى ذكرناه ، وهو أن تلك النشأة القوية المبدئية ، قد كونت فى طبائع المسلمين الأولين خلقا إسلاميا عاما ، تركز فى نفوس أفرادهم وجماعاتهم ، وزود بكل الصفات والمقومات التى تنبنى عليها حضارة الأمم ، وتقوم عليها عظمتها ، ويتأسس فوقها رقيها ومدنيتها ، وقد استطاعوا بوساطة هذا الخلق المتين ، وهذه النشأة الدينية القوية أن يبلغوا ما وصلوا اليه ، مما ألمعنا اليه آنفا .

* * *

هذه هى أهم الأسباب الخاصة والعامة التى نهضت بالمسلمين الأولين ، وسمت بهم الى مشارف العزة والكمال ، وجعلتهم يحلقون فى سماوات المجد والرفعة .

فقل لى بربك : ماذا يكون الحال ، لو أننا أردنا أن نوازن بين حالة المسلمين اليوم ، وبين حالتهم بالأمس ؟ وماذا تكون النتيجة الواقعية لهذه الموازنة ياترى ؟

إننا نعتقد أن أى مسلم ينطوى ضميره على أقل ذرة من الإنصاف والمعدلة ، سيشعر بالخجل العميق من نتيجة هذه الموازنة ؛ لأن حالتنا اليوم ، تكاد تكون فى جملتها وتفصيلها على النقيض من حالة أسلافنا الأماجد ؛ فالنفوس ضعيفة ، والهمم كليلة ، والعزائم فاترة ، وسوق العلوم بائرة ، وحركة النشاط فيها خامدة ، والوازع الدينى مفقود ، والاعتصام بمبادىء الاسلام منعدم ، والأخلاق الاسلامية لا أثر لها فى بيئاتنا المختلفة ، والتنشئة الدينية لا تسلم فى أوساطنا من السخرية والنقد .

وياليت الأمر قد وقف بنا عند هذا الحد ، بل لقد تعداه الى أن شاعت بيننا أمراض خلقية فتاكة ، وتفشت فينا آفات اجتماعية وبيلة ، وتمكنت فى نفوسنا عادات مرذولة ، وموروثات فاسدة ؛ وإذا لم يتداركنا بلطفه ، فستنزل بنا الطامة وتحل بنا الكارثة .

ولكن ، هل معنى هذا أننا نيأس من العلاج ، وأننا نقطع الأمل فى استعمال الدواء الناجع ؟ كلا ، فإن هذا لا يليق بشعوب عريقة فى المجد ، ولا يجمل بأمم أصيلة فى المعالى ، ولا يتفق وما جاء به الإسلام من دعوة الى العمل فى الدنيا بالجد والكد ، والهمة والنشاط ، ومن أنه دين المدنية والعمران ، واليقظة والنهوض ؛ إنما يجب — درءاً لكل تلك المفاسد التى عليها المسلمون الآن — أن تكون النواة الأولى التى نضعها لإنهاض المسلمين من غفوتهم ، وإقامتهم من كبوتهم ، وإيقاظهم من رقدتهم ، هى أن نرجع بهم الى حظيرة الإسلام ، وأن نعود بهم الى تعاليمه الصحيحة ، وأن نربيهم على مبادئه القويمة ، وأن نغرس فى نفوسهم أن آدابه وفضائله هى التى يجب أن تكون الهدف الأول لهم فى كل ما يصدر عنهم من أعمال وأفعال ، وأن نجعل الروح الإسلامى هو السائد فى جميع معاملات المسلم ؛ فتكون معاملته لربه بمراقبته فى السر والعلن ، وقيامه بفعل المأمورات ، وترك المنهيات ؛ وتكون معاملته لنفسه باختياره الأصلح والأنفع لها فى أمور الدين والدنيا ؛ وتكون معاملته للخلق برعاية الأمانة فى كل ما يتصل بهم ، ويرتبط بحقوقهم ؛

فيجب أن يكون الرعاة أمناء مع رعيتهم فيما وكل اليهم من أداء الأمانات ، ورد الظلامات ، والعدل فى الحكومات ؛ ويجب أن يكون العلماء أمناء مع الناس بأن يرشدوهم الى الاعتقادات والأعمال النافعة لهم فى الدنيا والآخرة ، وأن يجنبوهم التعصبات الباطلة ، والمذاهب الفاسدة ؛ ويجب أن يكون الآباء والأبناء والأزواج والأقرباء والأصدقاء أوفياء بعضهم لبعض ، وأمناء فى الحقوق المطلوبة من كل منهم نحو الآخر .

وهكذا يجب أن تسيطر الأخلاق الاسلامية على كل حركة من حركاتنا ، وأن تتمثل فى كل تصرف من تصرفاتنا ؛ فانه لا تصلح هذه الأمة إلا بما صلح به أولها ، وإنه لا يستقيم لها حال ، ولا يعظم لها شأن ، إلا إذا اهتدت بهدى الإسلام ، واسترشدت بوصاياه وحكمه ؛ وفى هذا يقول القرآن الكريم : « قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ، ويغفر لكم ذنوبكم ، والله غفور رحيم » . ويقول الرسول الأعظم : « تركت فيكم أمرين ، لن تضلوا ما تمسكتم بهما : كتاب الله ، وسنة نبيه » .

فان نحن نجحنا فى هذه الخطة ، وأخذنا بها أنفسنا ، واستطعنا أن يكون لها السلطان الروحى فى بيئاتنا وأوساطنا الخاصة والعامة ، فان المسلمين - ولا ريب - سينهضون نهضة قوية مباركة ، يكون لها أبعد المدى ، وأكبر الأثر فى محيط الإنسانية العام .

حقيقة الكرم

قال حاتم الطائى :

أضاحك ضيفى قبل إنزال رحله ... ويخصب عندى والمحل جديب

وما الخصب للأضياف أن يكثر القِرى ... ولكنما وجه الكريم خصيب

تحقيقات

حول عقيدة ابن رشد

لحضرة الأستاذ الدكتور محمد غلاب
أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

تمهيد :

اجتازت الفلسفة الإغريقية بغداد ومصر وسوريا إلى بلاد الأندلس ، تحدق بها شروحها وتوجيهاتها ، وتحليلاتها وإجلالها ، ونقدها ومهاجماتها ، فكان إزهارها فى بلاد المغرب هو أوان ذبولها وتدهورها فى المشرق ؛ ولكن يبدو أن فلاسفة الأندلس قد أغضوا عن مجهودات أسلافهم الشرقيين فى إيضاح الفلسفة الإغريقية ، أو حرصوا على الأقل على أن يظهروا بهذا المظهر ، فلم يعرضوا ـ فى مجموع آرائهم ـ لمنتجات أولئك الأعلام الشرقيين إلا بالنقد والتجريح ، ورميهم بعدم الفهم تارة وبالتدليس أو بمجاملة الجماهير تارة أخرى .

ولقد كان من نتائج هذا النهج الذى انتهجه هؤلاء المفكرون بازاء أسلافهم أن اقتنع بعض مؤرخى الحركة العقلية فى المشرق بأن إنتاج المغربيين يمكن أن يعتبر سلسلة أجنبية عن إنتاج أسلافهم ، فأهملوهم فى مؤلفاتهم عن عمد ، بل عن سبق إصرار . وإذاً ، فلم يكن سطوع أسمائهم نتيجة لمجهودات المؤرخين الشرقيين ، وإنما كان الفضل فيه للمدرسين من الأوروبيين الذين تأثروا بهم تأثرا عميقا . ومن آيات ذلك أن ابن جيبرول كان فى القرن الثالث عشر أحد المنابع الأساسية للأفلاطونية الحديثة ، وفى الوقت عينه صار مذهبه أعظم المذاهب التى طبعت الفرانسيكانيين بطابعها ؛ وأكثر من هذا أن ابن رشد كان له — فى فلسفة العصور الوسيطة — أثر بلغ من العظم حدا جعل كل باحث يشعر بأن الضرورة تقضى

عليه بأن يخصص بين منتجات تلك البيئة فى هاتيك العصور فصولا مسهبة . ولقد أطلق الباحثون المحدثون على هـــذا الجانب من مـذهب ابن رشد اسم الرشدية اللاتينية " Avcrroïsme latin " وهم يعنون بذلك تلك الحركة التى بدأت تنمو وتنتشر فى جامعتى باريس وپادوا منذ القرن الثالث عشر والتى ظلت زاهرة متلألئة فى هذه الجامعة الأخيرة إلى عهـد النهضة كما سنبين ذلك فى موضعه ، وليس ذلك فحسب ، بل إن القـديس توماس — رغم مهاجماته إياه — كان يدعوه أعظم شراح أرسطو على الإطـلاق . وقد تأثر به إلى حـد أن استعار فى مؤلفه العظيم نفس الصور التى ابتـكرها ابن رشد فى شروحه لأرسطو (١)

وإذاً ، فقد تبين ممـا تقدم أن مصادر المعرفة الحقة للفلسفة الأندلسية توجد فى المغرب أضعاف وجودها فى المشرق ، وأن من الوفاء للعلم عامة ولهذا الجانب من جوانب الإنتاج الفـكرى خاصة ، أن نتعقب هذه الفلسفة — ولـكن دون أن نهمل مصادرها المباشرة من كتب أصحابها — فى مؤلفات الأوروبيين غير مبالين بمـا عسى أن يقال من أننا اعتمدنا على مصادر دخيـلة ، فإن ذلك سيكون من جانب القائلين به لونا من ألوان التجنى ، إذ أن أولئك الباحثين الغربيين هم ورثة المنتجات المغربية عامة ، والتراث الرشدى خاصة ، عن طريق اللغتين : العـبرية واللاتينية اللتين ترجمت إليهما مؤلفات هـؤلاء الأعلام إبان محنة الفلسفة ، ومن ثم لا ينبغى أن تصرفنا العصبية عن تعقب الحقائق فى مواطنها ، لأن العلم لا وطن له .

ولا جرم أن هذا التصميم يحملنا على أن نتعقب بديا ما كـتبه أولئك الباحثون عن عقيدة ابن رشد ، وما وصلوا اليه من نتائج فيما يتعلق بإيمـانه مستنبطين تلك الأحكام من رأيه فى الدين صراحة أو تلميحا . ولقـد عثرنا فى الشرق والغرب الإسـلاميين وفى العصور الوسيطة المسيحية على أحكام لعـدد وافر من العلماء والمفـكرين أصـدروها على هـذا الحـكيم ، وفيها من التباين والتضارب ما لا يعلم مداه إلا الله ؛ ففريق يرتفع به الى السماء ، وآخر يهوى به الى الأرض ، وثالث

(1) P. Palhoriés, Vies et doctrines des grands philosophes, t. II, p. 59.

يرى أنه مؤمن قوى الإيمان ، ورابع يعلن أنه فى طلائع الملاحدة والزنادقة ، بيد أنه لما كان مبعث هذه الآراء إما التعصب وضيق الصدر من حكم العقل ، وإما الجهل والتحيز ، فقد شئنا أن نضرب عنها كلها صفحا مكتفين بآراء العلماء المحدثين ، لأنها كانت نتيجة خالصة لبحوث عقلية ، وثمرة بريئة لتأملات فكرية ، وبالتالى لا يمكن إغفالها أو التغاضى عنها ، وإن كان هذا ليس معناه أنها سلمت من الهفوات ، كلا ، بل هى مشتملة على كبوات ، وسوف نشير الى مافيها من انحراف عن جادة الصواب ، ولكننا على يقين من أن ما فيها من هنات ليس ناجما فى مجموعته عن تحامل أو عن سوء قصد ، لأننا نعرف عن أكثر أولئك القوم فى غير هذا الموضع ما يرفعهم فى نظرنا الى مرتبة الأبرياء الذين لا ينأون عن الحق إلا عجزا أو قصورا ، ولله وحده الكمال .

والآن إليك آراء أولئك الباحثين ، فاستمع إليها برحوبة صدر حتى تنتهى منها ، ليتيسر لك نقاشها فى جو علمى مفعم بالهدوء .

رأى رينان :

أعلن إرنست رينان فى كتابه « ابن رشد والمدرسة الرشدية » أن هذا الفيلسوف باحث حر الفكر إلى حد بعيد ، وأنه لا يتقيد فى بحوثه بدين ولا عقيدة ، وأن لادينيته صريحة فى كثير من مؤلفاته ولا سيما فى شرحه لجمهورية أفلاطون ، وهذا يدل على أنه عقلى محض ، وفيلسوف نقى ، لم يشغل نفسه بأولئك الدينيين المكبلين ، بل كان يفلسف بحرية ؛ نعم إنه لم يتعمد أن يصطدم بالدين ، ولكنه لم يحاول كذلك أن يزعج نفسه ، ليتجنب الاصطدام به [1] » .

قد يتبادر إلى ذهن الباحث على أثر مطالعته عبارات رينان السالفة أنه لا علم له بتلك المؤلفات التى كتبها ابن رشد ، ليوفق فيها بين الفلسفة والدين والتى طالما شغل نفسه فيها بالمتكلمين ، وحاول جهد طاقته أن يتجنب الاصطدام بالدين ؛ ولكنه إذا أمعن فى كتاب رينان تبين أنه يعلم هذه المحاولة من جانب ابن رشد ، وأنه يعللها بعلتين : إحداهما حرصه على حياته ، وثانيتهما الرحمة التى استولت على

(١ و ٢) انظر الصفحة ١٢٩ وصفحة ١٦٤ وما بعدها الى صفحة ١٧٣ من كتاب « ابن رشد والرشدية .

نفسه فجعلته يتجنب إيلام الجماهير بالطعن فى عقيدتها ، وفى هذه الخطة من جانبه برهان ناصع على سعة عقله وخلوه من التعصب (٢) .

لا ريب أن فى هذه الدراسة الرينانية شيئا من الحقيقة وإن كانت لم تصل إلى إيضاح الخطة الرشدية الصحيحة ، ولا إلى إبانة الأسباب الحقيقة التى حدت فيلسوفنا إلى سلوك هذا النهج ، ولكن عذر رينان فى هذا التقصير واضح وهو أنه لم يطلع على النصوص الرشدية العربية أو على ترجمة دقيقة لها ، بل إن كل ما وصل إليه منها هو بضع شذرات من « تهافت التهافت » باللغة اللاتينية ، وملخصات ترجمها الأستاذ مانك عن اللغة العبرية ، وهذا لا يمكن الباحث من إصدار حكم موثوق به على المؤلف ، وفوق ذلك فإن رينان كان لادينيا وكثيرا ما هاجم المسيحية بألذع العبارات ، ومن ثم هو مشغوف بتصيد زندقات من الهواء ونسبتها إلى من يكتب عنهم من المفكرين ، وقد صيرت هذه الخطة مؤلفاته غير معتبرة فى البيئات العلمية .

رأى مانك :

قرر مانك أن ابن رشد — بالرغم من أن آراءه الفلسفية لا تكاد تتفق مع عقيدته الدينية — كان يعنى كثيرا بأن يكون مسلما حسن الإسلام (١) . وقد استنتج مانك هذا الحكم مما رآه فى نصوص ابن رشد من اعتنائه بالتدليل على أن الدين والفلسفة يدعوان إلى حقيقة واحدة .

ومما لا شك فيه أن الأستاذ مانك قد لاحظ أن هذا تناقض من جانب ابن رشد ، وعذره فى عدم إدراكه حقيقة هذه المسألة واضح كذلك ، وهو أن نصوص فيلسوف قرطبة لم تصل إليه على حقيقتها .

رأى دونكان ماكدونالد :

شرح ماكدونالد بأن ابن رشد قد تعهد فى كتاب « تهافت التهافت » أن

---

(١) انظر صفحة ٤٥٤ وما بعدها من كتاب « مزيج من الفلسفتين العبرية والعربية »

يضع نقابا سميكا على زندقته، أما رسائله التى زعم أنه أراد بها التوفيق بين الفلسفة والدين، فهو لم يدع فيها نافذة مفتوحة أمام فلسفته الحقيقية [١].

ومعنى هذه العبارة أنه كتب هذه الكتب الدينية ليتقى بها سخط المسلمين، ثم أقفل أبوابها فى وجه الأفكار الفلسفية الحقيقية، ولم يدع فى داخلها مجالا إلا للآراء العامية.

رأى ت. ج دى بوير:

ذهب دى بوير فى كتابه الأول « تناقضات الفلسفة » الذى نشره فى سنة ١٨٩٤ الى أن ابن رشد باحث عقلى مقتنع بآرائه، وأن التناقضات المقصودة التى ظهرت فى كتبه لم تكن إلا سخرية بسيطة من لدن عالم يحتقر العامة ولا يأبه للوسائل التى يسلكها لتحويل اتهامات الجماهير الغبية عن نفسه، فهو مثلا حين يعرض لمسألة خلود النفس يقرر أنها ليست فى متناول الفكر البشرى، على حين أنه لا يعتقد هذا، بل هو مقتنع بأن العقل الإنسانى قدير على بحث هذه المسألة [٢].

أما فى كتاب « تاريخ الفلسفة فى الإسلام » الذى نشره فى سنة ١٩٠١ فهو لم يعد الى البحث فى هذه المسألة، بل تجاوزها فى غير اكتراث، كأنها لا تعنى الباحث، أو كأنه عدل عن رأيه فيها ولم يشأ أن ينبه القراء الى هذا العدول.

ليس من الغريب أن يكون « دى بوير » فى كتابه الثانى قد عدل عن آرائه التى قررها فى كتابه الأول، لأن عددا من الباحثين المتأخرين فى أواخر القرن الماضى وأوائل القرن الحالى قاموا ببحوث هامة حول هذا الموضوع اعتمدوا فيها على نصوص ابن رشد العربية، وكان من نتائجها أن ضعفت الآراء القديمة القائلة بتقية ابن رشد أو بسخريته من جماهير المسلمين.

ومن أشهر العلماء الذين قاموا بهذه البحوث الأساتذة: ا. ف. ميرين، وميجيل أزين، وليون جوتييه. وسنطوف معك فى الكلمة الآتية بنبذ من آرائهم، فإلى الملتقى؟

---

(١) انظر صفحة ٢٧٦ من كتاب « نمو علمى التوحيد والفقه الاسلاميين » لما كدونالد طبعة لوندره سنة ١٩٢٣.

(٢) راجع صفحة ٩١ من كتاب « تناقضات الفلسفة » تأليف بوير.

أسباب تأخر المسلمين

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبد الحميد عنتر
الأستاذ بكلية اللغة العربية

عرضت فى مقالى السابق تحت هـذا العنوان بمجلة الأزهر (عـدد صفر) للموضوعات الآتية :

١ — ضعف المسلمين فى العصور الأخيرة ، وتأخرهم فى ميدان الحضارة ، على حين تقدم غيرهم .

٢ — بيان أن هذا التأخر لا يصح أن يعزى الى طبيعة الاسلام ، لأنه دين الحضارة والمدنية الصحيحة ، ولا الى طبيعة المسلمين أنفسهم ، لأنهم لا يختلفون عن أسلافهم الأماجد عقولا وأفهاما .

٣ — نتيجة ما ذكر ، وهى أن هذا التأخر إنما جاءهم من عوامل خارجية وأسباب طارئة ، أثرت تأثيرا سيئا فى حياتهم الدينية والدنيوية ، وأخرتهم عن بعض الأمم فى مضمار الحضارة والتقدم والرقى ! .

وهذا بيان الأسباب بالتفصيل ، وقد رأيت أن أقسمها الى ثلاث درجات : أولى ، وثانية ، وثالثة .

أسباب التأخر من الدرجة الأولى :

أهم هذه الأسباب ما يأتى :

١ — عدم تيقظ المسلمين وسائر العرب للدسائس الخفية والمكايد الخبيثة المهلكة ، التى مصدرها من قديم المنافقون من المشركين واليهود ، ومن أسلم من بعض الأعاجم الوثنيين والروميين الذين ملأ الحقد على الاسلام صدورهم ، وعششت البغضاء بين جوانحهم ، وباضت حمائم الترات العصبية والدينية فى أبراج نفوسهم « قد بدت البغضاء من أفواههم ، وما تخفى صدورهم أكبر ! » .

هؤلاء الذين أشرت إليهم فى كلامى أمثال عبد الله بن أبى ابن سلولَ ، رأس المنافقين فى عصر النبي صلى الله عليه وسلم ؛ ثم عبد الله بن سبأ ، وكعب الأحبار ، ووهب بن منبّه من اليهود ، وأبو عبيدة معمر بن المثنىَّ التيمىّ بالولاء ، اليهودى الأصل ، الذى اشتهر ببغض العرب ؛ وفيروز أبو لؤلؤة المجوسى غلام المغيرة ابن شعبة ، وزياد ابن سُميّة أو ابن أبيه ، وغير هؤلاء من الرافضة والخوارج ، وكثير من الموالى الذين دخلوا فى الاسلام أو تظاهروا به ولم يكن لهم غرض إلا الوقيعة بالمسلمين وبالعرب جميعا ! وأغلب هؤلاء الكائدين للإسلام وأهله من اليهود والمشركين . وقد صدق الله العظيم حيث يقول « لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهودَ والذين أشركوا » فإن الواقع والتاريخ حققا صدق هذا الكلام الذى « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ! » .

ولنوضح الآن كيف كان عدم اليقظة لدسائس من ذكرنا سببا جوهريا من أسباب تدهور المسلمين قديما ، وقد بقى أثره إلى عصرنا هذا !

تجمع من أعداء العرب المسلمين ثلاث جماعات من أخطر جماعات الشر والخبث والخديعة .

الأولى ـ جماعة اليهود المطبوعين على الشر وكراهية المسلمين ، لأنهم أصحاب الدين الجديد ، ولأنهم قتلوا أكابر اليهود الذين ناصبوا النبى وأصحابه العداء ، فحرضوا قريشا وغيرها من القبائل العربية على مناوأته ومحاربته ، قصدا الى إبطال دعوته وطمس شريعته ؛ أمثال كعب بن الأشرف ، وابن أبى رافع الملقب بتاجر أهل الحجاز ؛ ولأنهم طردوا من بقى من اليهود على دينه فى عصر عمر رضى الله عنه .

الجماعة الثانية ـــ المنافقون وأولادهم وحفدتهم من مشركى العرب ، الذين كانوا أضر بالاسلام من أعداء الاسلام ! والذين قال الله فيهم « يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم ، والله أعلم بما يكتمون » وكان على رأسهم عبد الله ابن أبى ابن سلول ، الذى هلك فى السنة التاسعة من الهجرة .

الجماعة الثالثة ـــ مبغضو العرب من الموالى الذين دخلوا فى الاسلام بعد فتح فارس والروم ، كالخوارج والرافضة وعلى رأسهم زياد بن سمية .

نظمت تلك الجماعات أعمالها تنظيما سريا دقيقا محكما ، بحيث يتوارثه الأبناء والأحفاد عن الآباء والأجداد ، ووضعت الخطط والبرامج للقضاء على الاسلام ومحو سلطان العرب ! وتذرعت فى سبيل تنفيذ غايتها النكراء بالدهاء والمكر والخديعة ، والتستر باسم الاسلام . وهذا النوع من خطط الجماعات السرية الضارة لم يكن للعرب عهد به ، لا فى جاهليتهم ولا فى إسلامهم ، لأن العرب معروفون بطهارة القلب ، وصراحة الضمير ، وخلوص النية ؛ لذلك أمنوا مكر هؤلاء الدخلاء فى الدين وفى العروبة ، وائتمنوهم على الأرواح والأموال والأعراض ، حتى ولوهم الإمارات وقيادة الجيوش ، ولم يتخذوا الحيطة لمراقبة حركاتهم السرية الإجرامية ، التى نفذوها بكل حذق ومهارة ! وكلما انقرض من هؤلاء جيل خلفه جيل آخر ، يفوق سابقه فى المكر والدهاء وتلمس الحيل الشيطانية ، والوسائل الجهنمية ، حتى أتوا على بنيان الخلافة الاسلامية من قواعده ، وأصبحوا هم أصحاب الصولة والدولة ، وذوى الحكم والنفوذ فى أغلب بلاد العرب والاسلام !

والى القارىء طرفا من فعالهم الشنيعة ، وأحابيلهم الشيطانية ، ومؤامراتهم الهدامة:

المؤامرة الأولى :

قتل عمر بن الخطاب غيلة : بدءوا أولى مؤامراتهم الخطيرة بقتل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، الخليفة الثانى بعد أبى بكر رضى الله عنهما ، لأنهم رأوه صعد بالعرب إلى قمة المجد فى زمن وجيز ، بعد أن طرد اليهود من الحجاز ، ودوخ ملوك كسرى والروم ، ففتح الأقطار واختط الأمصار ، وأقام العدل بين الناس ، وأخذ العرب يجتنون ثمار كدهم وجهادهم فى سبيل الله ، ويعيشون فى ديارهم وخارج ديارهم عيشة راضية عزيزة هنيئة رغيدة !

وقد غزل خيوط تلك المؤامرة ، وحاك نسجها ، وحبك أطرافها أبناء كسرى وقيصر ، الموتورون من عرب الإسلام فى عهد عمر بقتل آبائهم ، وتقويض ملكهم ، وأسر ذراريهم ونسائهم ؛ وقد أعانهم على ذلك اليهود المطرودون من المدينة ، ومن أسلم منهم ومن المسيحيين واختار الاقامة بالمدينة ؛ مثل كعب الأحبار الذى أعلن عن موت عمر قبل وقوعه بثلاثة أيام !! ومثل جفينة المسيحى

الذى استقدمه سعد بن أبى وقاص من الحيرة ليعلم أولاد العرب الكتابة والقراءة. وعلى الجملة فقد أحكمت حلقات هذه المؤامرة إحكاما بالغا ، لأن أصحابها رأوا الفرصة سانحة لقتل عمر ، خشية اطراد نمو الإسلام وتقوية دعائمه بهذا الخليفة العادل الفاتح !

ولست الآن بصدد التحقيق فى كيفية مقتل عمر رضى الله عنه ، فان هذا الأمر قد تكفل به المؤرخون ، وإنما أريد أن أبين أطوار تلك المؤامرة التى تعد أكبر حدث فى تاريخ الاسلام ، إذ بنتيجتها فتح باب الشر على المسلمين والعرب ، ولم يغلق هذا الباب إلى وقتنا هذا . وقصدى بذلك أن يتنبه المسلمون والعرب إلى أمثال تلك المؤامرة ، فيقتلوها فى مهدها ، ويطهروا بلادهم ممن يشكون فى نياتهم من الدساسين والجواسيس ، أعداء الوطنية والدين والعروبة .

كيف دبرت المؤامرة ؟

أولا — استفاضت الأخبار عند أبناء فارس والروم أن عمر الخليفة لا يتخذ لنفسه حرساً كما يصنع ملوك العجم وقياصرة الروم ، للمحافظة على حياتهم من الاغتيال ، ولاظهار أبهة الملك وعظمة الحاكم .

ثانياً — أرسل كسرى رسولا من لدنه ليستيقن صحة هذه الأخبار ، فلما جاء رسوله المدينة أخذ يسأل عن مكان الخليفة فدل عليه ، فوجده فى المسجد نائماً على الأرض وليس معه حارس ولا حاجب ، فقال هذا الرسول (الجاسوس) قولته المشهورة : « عدلت فأمنت فنمت يا عمر ! » وتيقن أن هذه الكلمات وقعت عند العرب المسلمين موقع القبول والرضا ، لأنها تدل بظاهرها على تقدير عمر والإعجاب بخطته الرشيدة ، مع أنها تخفى وراءها أمرا خطيرا وشرا مستطيرا. ثم عاد الرسول إلى كسرى فأخبره بما رأى ، وشاع هذا الخبر فى أنحاء فارس ، فقوى عزمهم على الانتقام من عمر باغتيال حياته .

ثالثاً — من سوء حظ المسلمين فى ذلك الوقت أنه كان بالمدينة عاصمة الخلافة حفنة من عناصر السوء لم يأبه لهم أحد ، ولم يلتفت العرب إلى حركاتهم المريبة ، مع أنهم كانوا الرأس المفكر والعقل المدبر لهذه المكيدة الكبرى ، وهم : الهرمزان أمير الأهواز الذى أسلم خوفا من السيف بعد أن نقض الصلح

بينه وبين المسلمين مرارا ، وجفينة المسيحى الذى تقدم ذكره وفيروز أبو لؤلؤة المجوسى بطل هـذه المؤامرة ، الذى سبك الحيلة على سيده المغيرة بن شعبة والى الكوفة ، فجعله يستأذن عمر فى قدومه المدينة ، بدعوى الانتفاع بصناعاته المتعددة وهى الحدادة والنجارة والنقاشة . هذا هو الظاهر ، وفى الواقع هى الستارة التى تستر بها هـذا العلج لتنفيذ فعلته الأثيمة ، وجرمه الشنيع ؛ وكعب الأحبار اليهودى الأصل الذى استتر باسم الإسلام ، وكان على علم بتدبير المؤامرة ، إن لم تمل إنه رأس المتآمرين وكبيرهم الآمر الناهى .

اجتمع هؤلاء الرهط ورأوا الفرصة قـد سنحت تماما لاغتيال الخليفة ، فأوعزوا الى من وقع عليه الاختيار لتنفيذ الجريمة ، وهو فيروز المجوسى ، أن يشكو سيده المغيرة الى عمر ليخفف عنه ما كلف به من المال ، لأنه يبهظه ولا يقدر على أدائه . فسأله عمر عن صناعاته ، فقال فيروز (حداد . نجار . نقاش) فقال عمر : ليس ما طلب اليك أداؤه بكثير ، فانصرف أبو لؤلؤة وهو يتوعد عمر ! !

رابعا ــ لم تكن شكوى أبى لؤلؤة الى عمـــر إلا ستارا كثيفا يخفى وراءه ما قصده هذا اللعين ، وهو التثبت من معرفة شخص عمر ، حتى لا يخطئه فيقتل غيره ، وقد فعل ذلك بعد أن أعيته الحيل فى سبيل الوصول الى التمكن من رؤية عمر ، لأنه بحكم دينه المجوسى ممنوع من حضور مجالس الخليفة التى كانت تعقد غالبا فى المسجد ؛ لذلك تظاهر بالشكوى ، لعلمه بأن عمر لا يرد شاكيا كائنا من كان .

خامسا ــ جاء دور التنفيذ ، فصنع أبو لؤلؤة خنجرا له طرفان ، نصابه فى وسطه. وعين المتآمرون يوم القتل وساعته ، وهو اليوم السادس والعشرون من ذى الحجة سنة ٢٣ هـ وقت صلاة الصبح . وفى فجر هذا اليوم كان عمر رضى الله عنه يوقظ الناس للصلاة ، ثم حضر المسجد وأقيمت الصلاة ، فسوى الصفوف على عادته ، ثم كبر تكبيرة الإحرام ، ولم يكد يشرع فى القراءة حتى طعنه أبو لؤلؤة المجرم الأثيم عدة طعنات إحداهن تحت السرة ، وهى التى أنفذت مقاتله ـ رضى الله عنه ـ وقضت عليه ، ثم مر القاتل بين الصفوف فطعن ثلاثة عشر من المسلمين ، مات منهم سبعة ، ثم قتل هـذا الملعون نفسه بيده . وبقتل عمر ختمت حياة بطل عربى اعتز بالإسلام . ولا يسعنى بعد هذا إلا أن أقول :

إن القلب ليتفطر حزنا ، وإن النفس لتتحرق كمدا ، وإن العين لتكاد تبكى دما لفقدك يا أمير المؤمنين ! !

ولو شئت أن أبكى دما لبكيته عليه ولكن ساعة الصبر أوسع !

هذا ، والعاقل المنصف لا يشك فى أن قتله رضى الله عنه كان نتيجة حتمية لتساهل المسلمين فى التحرى والتدقيق الواجبين فى شأن من يشك فى حسن نيتهم ممن عرفت عداوتهم ، وبدت عليهم مخايل الخبث والدهاء .

نعم : إن هذا قضاء الله الذى لا مرد له ، والذى أشار إليه النبى عليه السلام فى حديثه [1] قبل وقوعه ؛ ولكن هذه العقيدة لا تتنافى مع الأخذ فى الأسباب واستعمال الحذر ، لعدم علمنا بما قدره الله فى المستقبل ، ثم يكون بعد ذلك مايكون . فترك اليقظة وعدم التنبه لحركات العدو تقصير لا ينبغى أن يكون ؛ وقديما قال العربى الحكيم : حسن الظن ورطة ، وسوء الظن عصمة ؟

---

(١) الحديث المشار إليه رواه البخارى ومسلم فى (كتاب الفتن) . ورواية البخارى أخصر . وهاهى ذى :

« عن شفيق قال : سمعت حذيفة يقول : بينما نحن جلوس عند عمر إذ قال : أيكم يحفظ قول النبى صلى الله عليه وسلم فى الفتنة ؟ قال : فتنة الرجل فى أهله وماله وولده وجاره تكفرها الصلاة والصدقة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . قال : ليس عن هذا أسألك ، ولكن التى تموج كموج البحر ؛ قال ليس عليك منها بأس يا أمير المؤمنين . إن بينك وبينها بابا مغلقا . قال عمر : أيكسر الباب أم يفتح ؟ قال بل يكسر . قال عمر : إذاً لا يغلق أبدا . قلت أجل . قلنا لحذيفة : أكان عمر يعلم الباب ؟ قال نعم ، كما أعلم أن دون غد ليلة . وذلك أنى حدثته حديثاً ليس بالاغاليط . فهبنا أن نسأله من الباب ؟ فأمرنا مسروقا فسأله فقال من الباب ؟ قال : عمر ... انتهى الحديث . وأقول : الفتنة التى أشار إليها الرسول عليه السلام هى فتنة قتل عثمان وعلى والحسين رضى الله عنهم ، وكسر باب الفتنة كناية عن قتل عمر رضى الله عنه .

التقليد

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبد الرحيم العدوى

شيخ معهد أسيوط

لا أريد أن أتناول هذه الكلمة بالبحث على طريقة الفقهاء والمتشرعة فأبين أن مذهب المقلد مذهب مفتيه أولا ، ولا بلسان المتكلمين فى العقائد فأدلل على أن إيمان المقلد مقبول أو غير مقبول ؛ وإنما أريد معالجة بحثها من ناحية أنها مسلك من مسالك الأفراد والجماعات فى هذه الحياة ، وأنها صفة من صفات الناس وحال من أحوالهم فى سلوكهم بعضهم مع بعض ، وأنها بهذا الاعتبار قد تكون خيرا محضا إذا كانت تسابقا فى الخيرات ، وتنافسا فى صنوف البر ، وترسما للمثل العليا فى نواحى الحياة وما يعرض للجماعات من مشاكل ؛ وعندئذ نرى الدين يشرح لها صدره ، ويشد أزرها ، ويقوى دعائمها ، ويحبوها عطفه ورضاه ، فنراه يكثر من الحث عليها ويتفنن فى إغراء الناس بسلوك طريقها واتباع منهجها بشتى الطرق والأساليب ، لأنها إذ ذاك تسير بالأمم الى ما يليق بها من مجد وفخار .

وتارة تكون شرا محضا إذا كانت محاكاة للمفسدين ، وتقليدا للمضلين ، وتشبها بالأشرار المجرمين ، فتكون همزة الوصل الى الدمار ، وتثير على الأفراد والجماعات الزعازع ، وتقض منهم المضاجع ، وتصبح وسيله قريعة لانهيار الأمة وتلاشى سلطانها فى وقت وشيك . وعندئذ تكون فى نظر الدين سبة فى جبين الانسان الذى وهب العقل فلم يحكمه ولم يهتد بهديه ، ووصمة عار لذلك الانسان الذى كرمه الله على كثير من خلقه فكفر النعمة وغمط الحق .

فالتقليد إذا كان خيرا محضا كالتسابق فى الخير ، والتنافس فى صنوف البر ، والتفانى فى كل ما ينفع الأمة ويعود عليها بالخير والبركات ، كالتسابق فى بناء الوحدات الصحية التى تصون صحة أبناء الأمة وتوفر لهم خير العلاج ، وكالتنافس

فى مساعدة المحتاجين وإغاثة الملهوفين ، وتشييد الملاجىء والمستشفيات ، وتعليم أبناء الفقراء ، تقليدا للخيرين ، وتشبها بالبررة الكرام فى كل عصر ، وترسما للمثل العليا فى الشعوب الراقية ؛ أقول إذا كان التقليد على هذه الشاكلة كان من الأمور العظيمة التى لها خطرها فى بناء كيان الأمم ، وكان بالتالى مطمح نظر الدين ومحل تقديره . فلا غرابة إذا رأيناه يكثر من طلبه ويحث عليه ، ويسميه تأسيا بالقدوة الحسنة ، وتشبها بالكملة من الناس . على أنه فى الواقع معبد الطريق ممهد السبيل ؛ لأنه غريزة فى الانسان يصاحبه فى كل أطواره ، تنم عنه حركاته التقليدية أيام طفولته ، وحرصه على أن يكون من النبغاء كهلا ويافعا ، ومبالغته فى أن يكون اسمه مسجلا فى صحيفة العباقرة رجلا كامل الرجولة . ولا غرو إذا كانت منزلة التقليد فى نهضات الأمم مكانة اللبنة الأولى من الأساس ، والحجر الأول فى مقومات الجماعة .

أجل : فأن للأمم عوامل كثيرة ، تنهض بها ، وتأخذ بيدها الى معارج الرقى .

فالعلم النافع طريق صحيح لرقى الأمم ؛ وسهر الزعماء والقادة على مصالحها سبيل معبد لسعادتها ؛ وإخلاص بنيها فى خدمتها وتفانيهم فى توفير أسباب عزتها يسير بها إلى المجد قدما ؛ والدفاع عن حرياتها والذود عن حماها والتضحية فى سبيلها بكل مرتخص وغال موصل جيد إلى ما تبغيه من عزة وما تريد من سلطان .

لكن هذه العوامل كلها مع كثرتها وكثرة ما تحويه من مزايا ، لا تصل بالأمة إلى قمة المجد إلا إذا كان لبنيها فى كل هذه النواحى قدوة حسنة يترسمون خطاها ، ومثل عليا يأتسون بها فى كل ما يريدون لها من عزة وبعد صيت .

أما مكانة التقليد بهذا المعنى الجميل فى نظر الدين فهى المكانة التى لا تبارى ولا يشق لها غبار ؛ ألم تر إلى القرآن الكريم كيف حثنا على التأسى بالقدوة الحسنة فى قوله تعالى : « لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة » وفى قوله تعالى « أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده » وكيف وضع بين أيدينا صورا شتى لعباده الذين صاحبهم التوفيق ولازمهم السداد ؛ لنسير على نهجهم ونقتدى بسيرتهم .

استمع إلى القرآن الكريم حيث يقول « وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما ، والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما ، والذين

يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراما ، إنها ساءت مستقرا ومقاما » إلى آخر الآيات الكريمة فى سورة الفرقان .

بل انظر إلى القرآن الكريم كيف يصور لنا سلوك الكملة من الناس ، والسعداء من عباده المؤمنين الذين عرفوا قيمة العمل فحبسوا نفوسهم على تحصيله ، وقدروا حسن الجزاء فسعوا إليه حثيثا ؛ وذلك حين يصف لنا حال المتقين فيقول « إن المتقين فى جنات وعيون ، آخذين ما آتاهم ربهم ، إنهم كانوا قبل ذلك محسنين . كانوا قليلا من الليل مايهجعون ، وبالأسحار هم يستغفرون ، وفى أموالهم حق للسائل والمحروم » ليفتح أمامنا العمل الصالح ، ويمهد لنا سبيل الاخلاص فيه لنسعد بما أعده الله لعباده المخلصين .

وانظر إليه كيف يصف حال المؤمنين الصادقين الذين لم تزل قدمهم لوسوسة المفسدين وتخييل المنافقين ، وكيف يضع يدنا على ما كان منهم من حزم وثبات وصبر وجلد ، وكمال دين وقوة يقين ، إذ يقول : « الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم ، فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل . فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء ، واتبعوا رضوان الله ، والله ذو فضل عظيم » .

وكيف نهانا سبحانه عن أن نركن إلى قرناء السوء ، أو أن نسير على نهجهم المعوج فقال « يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا ودوا ما عنتم ، قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر » .

وإذا كان الله سبحانه وتعالى قد أمرنا بأن نقتدى برسوله العظيم ونترسم خطاه ، فلأنه صلوات الله وسلامه عليه كان المثل الأعلى للانسانية الكاملة فى كل صفاتها ومميزاتها ، ولأن السير على نهجه القويم الذى رسمه لنفسه فى السلوك كاف فى وصول الانسان إلى كل ما يبتغى من عزة أو يريد من كرامة

فهو صلى الله عليه وسلم مثل أعلى فى الثبات على المبدأ ، ولذا قال حين طلب منه الكف عن دعوته « والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى شمالى على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك دونه ما تركته » مع كل ماكان يلقاه من خصوم الدعوة من شدة وبطش .

وكان مثلا أعلى فى الانصاف ، ولذا يقول : « والله لو سرقت فاطمة بنت محمد لقطعت يدها » !

وكان مثلا أعلى فى التواضع ، ولذا قال لتلك المرأة التى ريعت منه وتملكها الفزع بين يديه : « ليفرخ روعك فانى لست بجبار ولا متسلط قاهر ، وإنما أنا ابن امرأة كانت تأكل القديد » !

وكان مثلا أعلى فى الصبر على الملمات والتسليم لقضاء الله ، ولذا قال حينما مات ولده ابراهيم « العين تدمع والقلب يحزن ولا نقول إلا ما يرضى ربنا ؛ وإنا لفراقك يا ابراهيم لمحزونون » . فياله من قدوة حسنة يجب التأسى بها ، ومن مثل أعلى يتحتم على المؤمنين الصادقين ترسم خطاه !

لا يبلغ الواصف المثنى مدائحه وإن يكن محسنا فى كل ما وصفا

وهذه المعانى السامية التى اختص بها صلى الله عليه وسلم ، هى التى طبعت أصحابه بطابع الكمال ، ودربتهم على خير الخلال .

فها هو ذا عمر بن الخطاب كان مثلا أعلى فى الحرص على مصلحة الرعية وتفقد أحوالها ليلا ونهاراً ؛ مر ذات ليلة فى بعض شوارع المدينة فسمع امرأة تنشد وهى فى خدرها بيتين تشكو فيهما غيبة زوجها ، فسأل عنها فعلم أن زوجها فى الغزو ، قد طالت غيبته ، فأصدر أمراً بأن لا يغيب الجندى عن أهله أكثر من أربعة شهور .

وكان مثلا فى الانصاف ، فقد ضرب بدرته سعد بن أبى وقاص وهو خال الرسول ، حينما رآه يتخطى رقاب الناس ليأخذ عطاءه ؛ فقال سعد : لم هذا يا أمير المؤمنين ؟ فقال عمر : رأيتك تستهين بسلطان الله فى أرضه ، فأردت أن أعلمك أن سلطان الله لا يهابك !

وكانت تجبى إليه خيرات فارس والروم ومصر والعراق ، وهو الورع الزاهد يلبس المرقع من الثياب ، ويأكل خبز الشعير بغير إدام .

هذه الخلال الكريمة وأمثالها هى التى ملكت على المسلمين فى العصور الأولى زمامهم ، واستولت على مشاعرهم ، فكانوا مثلا عليا رقت بالإنسانية الى أوج عزتها ، وسعد الناس فى رحابها ، واتسع سلطان الدولة الإسلامية ، وطبقت سمعتها أجواز الفضاء ، وسارت مع الشمس الى كل أفق ، وصاحبت القمر المنير فى كل مطلع .

وإن تاريخ الأمم الإسلامية لحافل بالمثل العليا فى كل نواحى الحياة ، ولم يكن ذلك مقصورا على الرجال فحسب ، بل كان للنساء الحظ الوفير فى الشجاعة والصبر وقوة الإيمان والثبات إذا ادلهمت الخطوب أو اسود ليل النوائب .

فهاهى امرأة أبى طلحة مات ابنها وأبو طلحة غائب فى عمله اليومى ، فلما قدم الى البيت سأل عن حالة ابنه ، فقالت له امرأته : إنه لم يكن فى يوم من الأيام أحسن حالا ولا أهدأ بالا منه اليوم . فاطمأن وقدمت له الطعام فطعم ، ولما أخذ قسطه من الراحة قالت له : يا أبا طلحة ألا تعجب لجيراننا ! كانت عندهم وديعة لبعض الناس فلما جاؤا يطلبونها غضبوا . فقال بئس ما صنعوا ، الوديعة لصاحبها شاؤا أو أبوا . فقالت : إن ابنك كان وديعة لدينا من الله عز وجل وقد استرد اليوم وديعته ! . فما زاد على أن استرجع ، ثم ذهب الى الرسول الكريم فأخبره الخبر : فقال الرسول : إنها ستنجب لك أولاداً كثيرين . وقد حقق الله هذه البشارة النبوية لأبى طلحة ، فولدت له امرأته هذه عشرة أولاد كلهم حفظ القرآن الكريم .

ولقد بقى تاريخ أولئك الأقدمين مناراً للسارين ، ودليلا واضح الحجة للعاملين ، الى أن فترت العزائم ، وتغلبت الشهوات ، وجرف سيل المدنية الكاذبة كل حزم وعزم وخلق كريم .

على أننا فى هذا العصر الحاضر يسرنا أن نرى فى بنى المسلمين فى جميع الأقطار ميلا كبيرا لتقليد أسلافهم الأولين ، والسير على طريقة أجدادهم الأمجاد الذين بنوا لهم صروح المجد ودعموا بنيان الأخلاق ؛ فتركوا ما ألفوه زمنا طويلا من التقليد الأعمى فى كل شؤونهم : فى البيوت والدور ، فى إنفاق المال فى غير النافع ، وإضاعة ثرواتهم فيما لا يجدى ، ومحاكاة المفسدين فى آرائهم ، والخروج على تقاليدنا الصالحة الموروثة ، والتظاهر بالوطنية فى وقت الرخاء حتى إذا جد الجد انماعوا وتلاشوا كما تنماع قطرة الندى تحت أشعة الشمس الوهاجة .

والفضل فى كل ذلك للشدائد والنوب ؛ فجزى الله الشدائد كل خير ، نبهت منهم الغافل ، وأيقظت كل كسلان ؟

شعراء الأزهر

أحمد الزين

لفضيلة الأستاذ الكبير الشيخ عبد الجواد رمضان

المدرس بكلية اللغة

إذا كنت - يا زين - زينَ الأدب   فأن كتابك زين الكتب
قلائد ، طوقْتَ جيد البيان   بهن ، وحليت جيد العرب
خلائق تزرى بنفح الرياض   إذا ضحكت من بكاء السحب
وما المرء إلا خلاق كريم   وليس بما قد حوى من نشب

* * *

هذه أبيات لشيخ الشعراء ، المغفور له اسماعيل صبرى باشا ، يقرظ بها كتاب « قلائد الحكمة » الذى ألفه الأستاذ المرحوم الشيخ أحمد الزين ، وهو لما يزل طالبا فى سن العشرين ، وقدم له الأستاذ العلامة محمد فريد وجدى بك بمقدمة فى فلسفة الأخلاق ، جاء فى ختامها : « هذا غيض من فيض أسوقه بين يدى ما أنا فيه الساعة من النظر فى أرجوزة الأخلاق الموسومة بقلائد الحكمة للشاعر المطبوع الشيخ أحمد الزين ؛ فقد جمعت فى أقل من ألف بيت ، ما تشتت من شمل الكلم النوابغ ، وتفرق من درر الحكم البوالغ . . . ولا غرو ، فقد نبغ الأستاذ الزين عبقريا بطبيعته ، كبيرا على حداثته ، مبرزا وهو فى سن العشرين ، على فحول المعرقين » .

من هذه القلائد فى آداب الأصدقاء :

أرى القطا أسرابا   فاطلب الأصحابا
إن الصحاب عُدة   ذخيرة للشدة

هم زينة الإنسان وسلوة الأحزان
هم حلية المعطل وهم سلاح الأعزل
إياك والمنازعة فانها مقاطعة

وأذكر — وما أوجع الذكرى ! — أنه حينما كان يطيب لنا فى نادى الشعراء « قهوة عم حسنين بشارع محمد على » أن نعم بأثارة المرحوم الزين ، يقودنا المرحوم الأستاذ الهراوى ، فى نشيد منغوم ، تتجاوب أصداؤه فتستوقف السابلة ، ويهتاج الزين ، فيقذف كل واحد منا بمقطعة : فهذا جاهل ، وهذا متشاعر ، وهذا لو ذهبت كل كلمة من شعره إلى صاحبها ، لما بقى له شىء الخ الخ ونحن — مع كل أولئك — ما نزال نتغنى منشدين :

« يمشى » القطا أسرابا فاطلب الأصحابا

هكذا نغير « أرى » فنجعلها « يمشى » ، والقطا لا يمشى ، ولكنه يطير ؛ لنزيد فى ثورته وإقذاعه ، حتى نبلغ من ذلك ما نريد . أوّاه

لله أيامنا المواضى لو كان ماض لنا يعود ! وهيهات !

ومنها فى فضل العلم :

والعقل غرس طيِّبُ له العلوم صيِّب
يذبل منه ناضُرهْ إنْ لم يَصُبْهُ ماطرُه
فروّه بالعلم وزكّه بالفهم
والذهن مثل النار فى المَرْخ والعَفار(١)

وختمها بقوله :

تلك سجايا عالية وذى عظات غالية
جمعتها فى شعرى كلؤلؤ فى نحر
فى حين أن الأدبا فى أرض مصر نضبا
وباذل الآداب كباذل التراب
فكدت عنها أنكل لولا الامام الأفضل

---

(١) المرخ والعفار : شجرتان فيهما نار ليس فى غيرهما من الشجر ، ويسوى من أغصانهما الزناد فيقتدح بها .

علامة الزمان ومهبط العرفان
هذا فريد العصر وغرة في مصر
وذو العلا والمجد فيها « فريد وجدى »
تلك يد لا تكفر ومنة لا تنكر

وقد طبعت هذه القلائد سنة ١٩١٨ ؛ وكان قد سبقتها إلى الوجود، «القطوف الدانية» فطبعت سنة ١٩١٧ ؛ وهى « باكورة شعر الزين »، جمع فيها طائفة من قصائده فى مدائح بعض البارزين يومئذ، وعلى رأسهم المغفور له صاحب العظمة السلطان حسين كامل، طيب الله ثراه. وفى الغزل والعتاب، وختمها بتخميسه لمعلقة امرىء القيس، الذى نشره قبل ذلك على حدة ؛ وكان له فى آفاق الأزهر وخارج الأزهر صدى بعيد المدى.

وعلى الرغم من قوة شعر الزين فى هذه الباكورة الرائعة المبكرة، فقد طغت عليها محفوظاته الزاخرة، فظهرت المحاكاة فى مواضع منها ؛ قوية حينا، وضعيفة حينا ؛ ولكنها على كل حال بواكير نابغة موهوب.

فمن غزله الرقيق :

أهاج الشوق من سلمى ادّكارُ عشية خفّ بالركب القطارُ
وزار لها على الهجران طيف وهل أبقى الهوى بى ما يُزار ؟!
تردّت من غدائرها بليل كذلك يرتدى الليلَ النهار
أترهب غرب سيفك أسد ترج ويعييك التجلد حين ساروا
تسائل أربُعا بالجزع أقوت وتمحّى رسمها ديمٌ غزار
فما لطلولها تأبى جوابا وأنى تنطق الدمن القفار
وقد حل البِلى فيهن حتى كأن على معالمهن قار « كذا »
كأن لم تَغْنَ بالسُّمار ليلا ولم توقَد بها للضيف نار

* * *

ومما يبدو فيه المحاكاة، قوله يمدح « علامة العصر، وفريد الدهر، وفخر مصر، الأستاذ محمد فريد بك وجدى » معارضا مروان بن أبى حفصة فى قصيدته التى أولها : « طرقتك زائرةً فحىّ خيالها » :

قفْ بالرُّبوع مسائلا أطلالها أمست يَجرُّ بها الصبا أذيالها
دِمَن عفون ، وأصبحت عرصاتها تُزجى بها قُلصُ النعام رئالها
ولقد نعمتَ بها ودهرك مقبل بوعود خود ما خشيت مِطالها
دار لبيضاء السوالف طَفلة رُود تُزير على الفراق خيالها
وكأنّ بارق ثغرها إن حدَّثت هندية ضَمن القيون صقالها
وكأن فى فيها سلافا قرقفا تسقيك من بعد الكرى سلسالها
عهدى بها تصل الحبال ، فما لها قطعت حبالك بعد وصلك مالها ؟
أرأت نذير الشيب لاح بمفرقى أم قد أطاعت فى الهوى عذّالها
لا تحسبى يا نعم شيبى كبرة لكنها غِير الخطوب ، فيا لها !
مما حمى عينى كراها أننى فى أمة قد سوّدت جهّالها
ما زال ليل الجهل فيها ضاربا حتى رأيتك يا « فريد » هلالها

* * *

ومن الطريف الذى لا ينقضى عجبه ، خلق الاعتداد العالى بالنفس ، الذى شب مع الزين وصحبه إلى لحده ، فحدا به — وهو لما يزل طالبا — إلى أن يوجه إلى المغفور له الشيخ عبد الرحمن قراعة ، وهو مدير الأزهر ، وفى الخلاصة من أدبائه ، قصيدة من ثلاثين بيتا ، يعاتبه بها . ويبعث بها إليه ؛ يقول له فيها :

تحمّل رعاكَ الله منى رسالةً تبلغها عنى المدير المعظما
تقول له : إنى صحبتك حِجة أظنك لى يوما إلى المجد سُلما
ألا إن سوء الظن بالمرء عصمة نظُن بكل الناس شرا لتسلما
ولا تنس يوما من مسيءٍ إساءةً وإن هو أولاك الجميل وأنعما
ولا تك ممن غره الجهل فاغتدى يَعدُّ صديقا من أتاه مسلما
وقد كنتَ لى ضرسا فساوره الضنى فنحيته عنى وقد كان مؤلما
وكان لسانى جُنة دون عرضكم وسيفا على الأعداء منكم مصمما
فمن ظلمكم صيرتموه عليكم سليلا ، وكان الظلم للمرء مغرما
يكيدون لى من غير ذنب إلى العلا فمن كاد فليمدد بحبل إلى السما

أضيعتْ حقوقَ الأذكياء بأرضكم … وكنت أرى ألا تضاع وتهضما
فإن لم يكن للمدح عندك حرمة … فشيد بناء العدل إن كنت مسلما

* * *

فأما تخميس المعلقة، فقد أحدث — كما أسلفنا — ضجة، كان بها خليقا؛ فان القوة تشيع فى أطرافه، ويضاعف الإعجابَ به حداثةُ ناظمه، مما طار بذكره ومهّد له من مجالس العظماء فى الأزهر وفى غير الأزهر، وأثار فى نفوس كثيرين من لداته ومن غير لداته، الحسدَ له، والغيرة منه؛ ومن ذا الذى يسمع طالبا فى السادسة عشرة أو السابعة عشرة، يجارى أمير الشعر الجاهلى، الملك الضليل، فيقول:

بكيت على ربع ورسم معطل … يجود ثراه كل أسحم مسبل
وقات وقد حلت بفلج فأسل … (قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل
بسقط اللوى بين الدخول فحومل)

ربوع بعيدٌ بالظعائن عهدها … ودار بذات الأثل أطفل رِئمها
وأخرى بحزوى مثلما لاح وشمها … (فتوضح فالمقراة لم يعف رسمها
لما نسجتها من جنوب وشمأل)

ويسير فيها على هذا النسج البارع، حتى يختمها بقوله:

وما زال طير الأيك يسجع بكرةً … ولم يدر أن قد هاج للقلب لوعةً
يحنّ وما تذرى له العين دمعةً … (كأن مكاكى الجواء غديةً
صبحن سلافا من رحيق مفلفل)

ثم لا يملأ الإعجاب نفسه، أو يأكل الحسد قلبه؟!

والحق أنه لو اطرد رقى الزمن فى حياته العاملة بنسبة بدايته، لمات وهو أمير الشعراء وشيخ العلماء؛ ولكن حرفة الأدب أدركته، منذ تخرجه سنة ١٩٢٥ فأخذت ترفع عمله الصالح إلى أسفل، وحَرِجت به بعدئذ الصدور التى كانت تتسع لدالته قبلئذ فى الأزهر، فتركته يردد:

فيالك بحرا لم أجد فيـه مشربا   على أن غيرى واجد فيه مسبحا !

* * *

أحـــرام على بلابله الدّو   حُ ، حلال للطير من كل جنس ؟

ولا من سميع !

ثم عطفت عليه المكتبة الملكية ، فسلكته فى عمالها بالمياومة من سنة ١٩٢٦ حتى أدركه « الإنصاف » فرقاه إلى الدرجة السادسة .

زرتُ القسم الأدبى الذى كان يعمل فيه « الزين » منذ شهور ، فاستبدّ بى دون أصدقائى فى القسم — وكلهم أصدقائى — وأخذ يطلعنى على ثمرات جهوده ؛ ثم قال : أنا أريد أن أعمل فى الأزهر ؛ قلت : إن فى الأزهر شرا كثيرا لا تقوى على احتماله ؛ قال : وكيف قدرت أنت على احتماله ؟ قلت : مكره أخاك لا بطل ! إننى فيه كما قال أستاذك حكيم المعرة :

فيابرق ، ليس الكرخ دارى وإنما   رمانى اليه الدهر منذ ليال

قال : فلأكن معك فى الجحيم ! قلت : سأرجو أولياء الأمور أن يندبوك لدراسة الأدب فى كلية اللغة ؛ قال : بل يعينونى تعيينا ؛ قلت : إن دون ذلك أهوالا ! قال : حاول ؛ قلت : أبذل جهدى .

ثم زرت القسم الأدبى بعد ذلك بأسابيع ، ولما سألت عنه ، قيل لى : لقد نقل الى وزارة المعارف ، قلت : عجبا ! وما يصنع الزين فى وزارة المعارف ؟ قيل : إن « التنسيق » قد أهله للدرجة الخامسة ؛ ولما لم يكن فى ميزانية المكتبة خامسة خالية ، فقد نقل الى « قسم الثقافة » فى الوزارة ، نشدانا للدرجة ؛ قلت : خير . وتنظرت أن أقرأ اسمه فى ترقيات وزارة المعارف فى الصحف ؛ ففجأنى نعيّه بعد أيام !

* * *

ولم يقتصر النحس الذى لازم الزين ، على الحياة العملية ، بل أدركه حتى

فى الأدبيات ؛ فأن غيره من الشعراء الذين يعترفون للزين بالتقدم ، ويعتقد هو ـ وهو محق فى الجملة ــ أنه أشعر منهم ، كالأستاذ على محمود طه ، والأستاذ رامى ، والأستاذ محمود أبو الوفا ، قد شغلوا كبار الفن الغنائى فى مصر ، بآثارهم ، من الأشعار ، والموشحات والأزجال ؛ ولم تسمح أم كلثوم ، ولم يسمح عبد الوهاب ، بتلحين مقطوعة للزين ، على تطلب ، وعلى صلاحية شعره ، وبخاصة ما صنعه لهذا الغرض كمقطوعة « العود » للتغنى والتلحين ؛ ومرد ذلك الى إسرافه فى الاعتداد بالنفس كما قلنا ؛ ولا يتلاقى تيهٌ وتيه ؛ ففى المثل : « تيه مغنّ ، وظَرف زنديق » .

* * *

وقد غلب على الزين : « الشاعر الراوية » منذ حداثته ، لكثرة محفوظاته ، التى جرت فى شعره أولا محاكاة وتقليدا ، ثم لما أخل سرت فيه جزالة ، وفخامة وشدة أسر ورصانة قافية وحلاوة جرس . وكان الزين جميل الإلقاء ، لا يتكلف ولا يتصنع ، ولا يمضغ الكلام مضغا ، يغثى النفس ، ويسك السمع ، كما يفعل كثير من المتكلفين ؛ بل كان يرسل الكلام على سجيته ، متغنيا مطبوعا ، فيخلب الألباب ، ويسحر النفوس ، ويستولى على القلوب .

وما أقيمت حفلة رثاء لعظيم من عظماء مصر ، إلا كان مكانه فيها بجانب شوقى وحافظ والمطران ؛ يُنسَى غيرُه ويُذكر ، ويرد غيره ويطلب : وهو فى كل أولئك مطمح الأنظار ، وزين الحفلات !

* * *

أما بعد ، فلقد فقد الأزهر آنفا ، شاعرا أكسبه فخرا بلا ثمن ؛ أجل ، لقد فقد الزين ! ؟

ابن مضاء القرطبي

والرد على النحاة

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد على النجار
المدرس بكلية اللغة العربية

— ٢ —

٣ — ويلجّ المؤلّف فى ذكر مساوىء حذف العامل ، وما استتبعه من فساد وخطل ؛ فهناك ضروب من الحذف فى زعم النحويين لو أظهر المحذوف لا ستحال المعنى وغثّ ، وكان التأليف تأليف سوء يمجّه الذوق وينبو به اللسان . واختار ابن مضاء للإبانة عن دعواه هذه مثالين :

ا — فهم يقدّرون فى أسلوب النداء — نحو يا عبد الله — العامل أدعو . ومن المقرّر أن أسلوب النداء إنشاء لا خبر ، ولو أن هذا الذى قدّره النحاة أبرز ، فقيل : أدعو عباد الله لا نقلب الكلام خبرا ، ولتغيّر الأسلوب وزال عن وجهه ؛ ومبعث هذا هو تقدير العامل ، وجعل قضيّته فى العربية ضربة لازب لا مناص منها . والنحويون لم يكونوا ليغيب عنهم ما أورده عليهم ابن مضاء وألزمهم إيّاه . وهم يقولون : إن الخبر قد يأتى فى موقع الإنشاء ، كما يقال : سدّد الله خطاه ، وأجزل ثوابه ، وهذا لا يجحده القرطبي فيما نعلم . وفى أسلوب النداء من الدليل على أن الغرض الإنشاء من لفظ الخبر لو صرح به ، مالا مجال لإنكاره . ويقول النحاة : إن العرب عدلوا عن ذكر العامل وإنابة الحرف عنه ، للنصّ على هذا الذى يحرص عليه المؤلّف الناعى عليهم ، وليكون الأسلوب إنشاء لا ريب فيه ، ولا احتمال يعتريه . وقد دعاهم إلى أن فى الكلام تقديراً أن النداء كلام مستقل ، والشأن فى الكلام أن يتألف من اسم وفعل أو من اسمين . وما عهدنا كلاما تألف من حرف واسم ، فهذا مبعث التقدير ، وليس مبعثه - كما يزعم القرطبيّ -

العامل. ويحسن أن أذكر هنا أن من النحويين من لا يقدّر العامل فى أسلوب النداء. فيرى المبرد أن (١) حرف النداء هو العامل لسدّه مسدّ الفعل؛ ويرى أبو على الفارسىّ أن أدوات النداء أسماء. وإذاً لا يتوجه هذا النقد إلى جميع النحاة، كما يوهمه كلام ابن مضاء.

ب — والنحويون يقدّرون فى نصب المضارع بعد الفاء والواو أنْ المصدريّة، ويسندون النصب إليها وهى مضمرة لا سبيل إلى إظهارها. ففى نحو اجتهد فتنجحَ، التقدير اجتهد فأن تنجحَ. وقد ساقهم هذا إلى تأويل هذه الجملة بالجملة الآتية «ليكن منك اجتهاد فنجاح». وقد عملت أن مظهرة ومضمرة لكثرة استعمالها فى النصب بها، فكانت أمَّ الباب فى النصب كما يقول النحويون. والقرطبي يورد عليهم المثال: «ما تأتينا فتحدثَنا»، فإن تأويله على مذهب النحاة: «ما يكون منك إتيان فحديث». ويزعم القرطبي أن هذا التأويل لا يقوم فى المعنى والغرض بما قام به الأصل. ذلك أن المثال «ما تأتينا فتحدثنا» يأتى على وجهين من المعنى؛ فيجوز أن يكون المراد: ما تأتينا فكيف تحدثنا! أى أن يكون المراد نفى الإتيان فينتفى تبعا لذلك الحديث؛ إذ كان الحديث مسببا عن الإتيان. ويجوز أن يكون المراد: ما تأتينا محدثا، أى ما تأتينا فى هذه الحالة حالة تحديثك إيانا، وإنما تأتينا غير محدث لنا. فهذان المعنيان يحتملهما الأصل. فأما تأويله وهو «ما يكون منك إتيان فحديث» فلا يحتمل هذين المعنيين، فيما زعم ابن مضاء، رحمه الله. وهنا وقع فى الكتاب فى الحديث عن التأويل: «وهذا اللفظ لا يعطى معنى من هذين المعنيين»، وأغلب الظن أن الأصل: لا يعطى هذين المعنيين. ولم يفصح ابن مضاء عن وجه قصور التأويل عن الأصل، ويغلب على الظن أنه يرى أن التأويل يعنى نفى الإتيان البتة. على أن هذا زعم من ابن مضاء لا يتابع عليه؛ فإذا قلت: ما يكون منك إتيان فحديث، كان المعنى: ما يكون منك إتيان يعقبه حديث. وهذا يكون إذا لم يأت أصلا، أو أتى ولكنه لم يحدث؛ ولا شك أنه فى الحالة الأخيرة يصح أن يقال: ما جرى منك إتيان فحديث، بل أتيت فلم تحدثنا. ومن المعروف الذى لا ينكر

---

(١) راجع شرح الرضى على الكافية فى مبحث المنادى.

أن النفى إذا توجه الى مقيد بقيد فقد يقع النفى على المقيد ويتبعه نفى القيد ، وقد يقع النفى على القيد دون المقيد . وقد جاء قوله تعالى : « الله الذى رفع السموات بغير عمَد ترونها » ، ويرى بعض المفسرين أن جملة ترونها فى موقع الصفة لعَمَد ، ومن هؤلاء من يرى أن المعنى أن ليس هناك عمد ، وبعضهم يرى أنها لا عمد لها لا ترى ، ومن هؤلاء مجاهد وقتادة . ويرى الفخر الرازى أن المعنى بالعمد إمساك الله لها ، وتدبيره لها ما تبقى به فى الحيز العالى ، ولا تتساقط . وقد بان من هذا أن التأويل يقوم فى المعنى بما قام به أصله . فأما وجوب إضمار أن وتجنب ذكرها فيعلله النحويون بالمحافظة على صورة عطف الفعل على الفعل ، ولو أظهرت أنْ لكان فيه صورة عطف الاسم على الفعل .

ومما ينبغى ذكره فى هذا المقام أن تقدير أن وإحالة النصب عليها هو رأى البصريين ، فأما الكوفيون فيرون النصب بالفاء والواو ، فلا حذف عندهم ، ومن ثمّ لا يتوجه هذا النقد اليهم . ومن الكوفيين من يرى أن النصب بالمخالفة ، وهى عامل معنوى لا يحوج الى تقدير . وهنا ينبغى أن ننبه الى ما يكرره ابن مضاء أن النحويين وضعوا هذه القاعدة « كل منصوب فلا بد له من ناصب لفظى » فقد رأيت أن الكوفيين منهم من يجعل النصب بالمخالفة ، وهو عامل غير لفظى ، وهذا العامل يقولون به فى الأسماء ، كالمفعول معه .

٤ — ويورد ابن مضاء على القول بالحذف نقضا يصوغه فى صيغة الحجة والمنطق ، ويضيق عليهم الخناق فى الجدَل والخصومة ، فإذا هو خصِم جدِل قدير ، فهو يردد الحذف بين أن يكون المحذوف له وجود فى النفس ، أو لا يكون له ذلك ، فإذا لم يكن له وجود فى النفس فأنى يعمل ! « ونسبة العمل إلى معدوم على الإطلاق محال » وهو إنما يورد هذا الوجه لتتميم الحصر ، وإلا فإن النحاة يكفونه مؤنة هذا ولا يقولون به . فأما إذا كان لها وجود فى النفس وحذفت فى الكلام إيجازا ، فإن هذا يترتب عليه أمور كلها شر مبين ؛ أفليس الكلام يكون ناقصا إذا حذف منه بعض أجزائه ؟ فهذا أحد الأمور ، وهذا الذى يقدره النحويون أىّ دليل عليه فى الكلام ! إن الذى بعثهم على القول بالحذف أمر ليس فى صميم الكلام ، ولا فى طبيعة الأسلوب ؛ وإنما هو ما وضعوه

واعترضوه : « إن كل منصوب فلا بد له من ناصب لفظى » وهذا أمر ظنى لا يدفع إليه قاطع من دليل ، وهو ما لا ينبغى أن ينصب فى وجه اليقين ، وهو خلو الكلام من هذه المقدرات ، فيقدر ما شاء النحويون وشاءت صنعتهم . ويستنجر ابن مضاء النحويين بعد هذا إلى أهوية يقعون فيها صرعى ؛ أليسوا بهذه المحذوفات التى انساقوا اليها يزيدون فى كتاب الله ما لم يأت به سلطان مبين ولا كتاب منير ويقولون فى القرآن بآرائهم ، وقد جاء فى هذا الوعيدُ الشديد ، ويقولون فى القرآن بغير علم ، وهذا من أكبر الموبقات والآثام ! .

والنحويون لا يبالون أن يكون الكلام ناقصا إذا دل الدليل على أن فى الكلام حذفا . وابن مضاء يقول بالحذف فى بعض الكلام ، ويرضى للكلام أن يكون ناقصا إذا دل عليه دليل ؛ كما فى قوله تعالى : « ناقة الله وسقياها » . وهم يرون فيما يذهبون إليه من وجوه الحذف أن الدليل دل عليه . فلا عليهم أن يقال إن الكلام ناقص كما يقول ابن مضاء . وموضع الخلف بينهم وبين ابن مضاء أنهم يرون أنفسهم مسوقين فى الحذف وراء الدليل ، وابن مضاء ينكر عليهم هذا . وفى الأمثلة التى أوردها عليهم — نحو أزيدا ضربته ؟ ويا عبد الله ، وما تأتينا فتحدثنا — دل الدليل القوى عندهم على الحذف فاعتمدوه وقالوا به ؛ كما قال هو فى بعض أبواب الحذف . ولو أنه أقنعهم بأنه لا موجب للحذف لعدلوا عنه ، ولكُفوا مؤنة التأويل والتقدير . ولكنه لم يبلغ أن يصرفهم إلى رأيه ، ويلفتهم عما استقر عندهم من الرأى والمذهب . وإذا كان الحذف لبعض أجزاء الكلام — عاملا كان أو غير عامل — سنةً من سنن الكلام العربى ، فلا بدع أن يكون فى القرآن الذى جاء على غرار الكلام العربى ذلك . وينص [1] العلماء على أن المقدرات فى الكتاب العزيز ليست منه ؛ إذ هى إنما اقتضاها تركيب الكلام وفهم المعنى . والمقدرات بعدُ ليست من اللفظ المنزل على الرسول صلى الله عليه وسلم الذى أثر وجمع بين دفتى المصحف الكريم . ومن العلماء من يرى أن المقدرات من القرآن ولكن ليست لها أحكام القرآن اللفظية ؛ من الإعجاز وحرمة القراءة على الجنب ، وما جرى هذا المجرى . وبعد فالأمر لا يدعو إلى هذا التهويل الذى ركب متنه ابن مضاء وبالغ فيه وأرخى لنفسه فيه العنان .

(١) انظر حاشية الامير على عبد السلام على جوهرة التوحيد فى مبحث بسملة المصنف .

٥ — ويذكر ابن مضاء فيما يورده على النحويين تقديرهم متعلق الجار والمجرور فى نحو « زيد فى الدار » إذ يقولون : إن التقدير كائن أو استقر. وليس لهذا التقدير من باعث إلا ما وضعوه من : كل أثر إعرابى فلا بد له من عامل . وأقول له : إن التقدير فى هذا الباب لا يعتقده جميع النحويين ؛ فمن النحويين من يجعل الخبر هو الملفوظ ولا يقدر شيئا . فقد كان ينبغى أن يعرف ذلك ابن مضاء ويتابعهم إذا شاء ، ويعرض عن الرأى الآخر ، والذين قدروا دُفعوا إلى هذا بما ساقهم إليه النظر فى الكلام العربى . فقد وقفوا على قول كثير عزة :

فإن يك جثمانى بأرض سواكم فإن فؤادى عندكِ الدهر أجمعُ
إذا قلت : هذا حين أسلو ذكرتهـا فظلّت لهـا نفسى تتوق وتنزع

فيرى أن أجمع توكيد مرفوع ، وليس فى الكلام المنطوق ما يصلح أن يكون متبوعا لهذا التوكيد . فكان أن ذهب النحاة بحق الى أن الأصل « كائن عندكِ » ، وفى كائن ضمير مرفوع انتقل الى الظرف حين حذف الوصف ، وجاء توكيد هذا الضمير مرفوعا على نسقه . وحق لهم بعد هذا أن يروا أن العربىّ ينوى متعلّقا فى هذا الأسلوب . ولولا هذا ما ساغ الإتيان بالتوكيد المرفوع . ويرى الناظر أن هذا استدلال صحيح ونظر صائب لا يدفعه ابن مضاء إن ابتغى شرعة الإنصاف .

٦ — ومما ينقده ابن مضاء ويأخذه على النحويين ما يرونه من استتار الضمائر فى المشتـّقات التى لا ترفع الاسم الظاهر ، نحو محمد قائم . وذكر ابن مضاء من أدلة النحويين على هذا الزعم قول العرب : زيد ضارب هو وبكر عمرا ، فقد جاء هو توكيدا للضمير فى ضارب ، ولا يجوز أن يكون هو فاعلا لأنه ضمير منفصل ، ومجىء الفاعل ضميرا متصلا هنا بالاستتار ممكن ، فلا يعدل عنه ، كما هى السنة فى كلام العرب . فقد ثبت استتار الضمير فى الوصف فى هذا الأسلوب . والعرب تعمد الى هذا حيث يريدون العطف على فاعل الوصف كما فى هذا المثال . وابن مضاء يبدو منه أنه لا يعارض فى استتار الضمير فى هذا الموطن من الكلام حيث الحاجة ماسة إليه حتى يؤكد فيجىء العطف عليه . ولكنه لا يرى طرد ذلك وتعميمه فى سائر المواطن حيث لا تدعو الحاجة إليه . والنحويون يرون

أنه فى هـذا الأسلوب بَدَت نيّـة العربىّ فى شأن هذا الوصف وأنه يلاحظ فيه ضميراً ، فـكان ما ظهر دليلا على ما خفى ؛ وهذا استدلال صحيح . فأما التفريق بين الوصف فى الأساليب مع اتحـاد اللفظ والمعنى فمـا لا يستقيم مع النظر الصحيح والمنطق السديد.

ويذكر ابن مضاء أيضا من أدلة النحويين على استتار الضمائر فى الأوصاف قول العرب : مررت بقوم عرب أجمعون ، ومررت بقاع عَرْفج كلُّـه . ألا ترى أن أجمعون توكيد مرفوع ، ولاً وجه له إلا أن يجعل توكيداً للضمير فى عـرب وهو مرفوع ؛ وكذلك كله توكيد مرفوع تابع للضمير المرفوع فى عرفج ؛ وذلك على تأويل الجامدين : عرب وعرفج بالوصف ؛ فيراد بعرب المتولدون من الجنس المعـروف ، وبالعرفج المندرج فى هـذا الجنس من الشجر . وإذا ثبت استتار الضمير فى المؤوّل بالمشتقّ فأولى أن يثبت فى المشتق المحض . ويسـلم ابن مضاء بهذا ، وإنمـا يتـكلم فى طرد هذا ، وقـد عرفت أن لا وجه له فى هـذا التأبىّ ؛ فالشأن فى اللغـة الاطراد والاقتياس ؛ وشأن العلماء الاستدلال بالأمر يبدو فى بعض المقامات على حاله فى سائرها متى صحّ لهم وجـه الاطراد ولم يظهر وجه التفريق .

٧ — وأنـكر ابن مضاء على النحويين قولهم باستتار الضمير فى الفعل فى نحو زيد قام ، وساق كلاما طويلا فى هـذا المقـام ، وأورد فى نهايته الـكلام على الاستتار والحـذف ، ولم يستبن الفرق بينهما . والنحويون يرون استتار الضمير فى مثل هذا إذ رأوا أنه يقال : إن زيدا قام هو وعمرو ؛ وواضح أن الضمير ليس هو الفاعل ، وإنما هو توكيد للضمير المستتر على حد ما قلنا فيما سبق فى الـكلام على الوصف . وهم يرون أن هـذا الضمير ينبغى أن يكون فوق رتبة المحذوف ، ويكون فى حـكم المذكور وإن لم يكنْـه حتى يسوغ توكيده ؛ وذلك أن التوكيد يقتضى الاهتمام بالموكد والبعـد عن حذفه واطّراحه . فدُفع النحاة إلى القول بالضمير المستتر وأن يجعـلوا له من قوته فى النفس واتصاله بالمذكور ما ليس للمحذوف . وبذلك يبين الفرق بين الاستتار والحذف ، ويبين وجه القول فيما أورده ابن مضاء على النحاة .

٨ — وينكر المؤلف على النحاة وضعهم باب التمرين فى الصرف ، وأنه لا جدوى ولا غناء فى تعلمه والاشتغال به . وباب التمرين يقصد به تنبه طالب العربية إلى القواعد الصرفية ، وكيف يصوغ الكلمة وفق القوانين والمزاج العام للعربية . وقد تدعو الحاجة إلى ارتجال كلم لا توجد فى اللسان ، فيحسن أن يتعود متعلم اللسان هذا الأمر . قد يدعو الأمر إلى أن أسمى من أشاء اسما يوازن فُعلا من مادة باع ، فهل أقول : بوع أو بيع ؟ وقد أسمى بعض العقاقير بموازن فاعول من مادة الشفاء ، فهل أقول : شافِى أو شافُىْ مثلا ؟ والذوق العربى يجب أن يسود فى المرتجل ويجرى طبقا للمنقول فى العربية . ويعجبنى هنا ما تفعله العامة بألسنتهم فى الكلمات المعربة ، فهم إذا خلوا وسجيتهم أتوا بها صحيحة إلى حد ما . ألا تراهم يقولون : السيما فى السينما ؟ وترى المثقفين يحرصون على السينما ، ولفظ العامة أقعد وأقيس . وتراهم يقولون : الكسرونة لما عربوا كسِرُول Casserole الفرنسية . وقد جروا على المزاج العربى الذى يستثقل الراء قبل اللام ، ولا يحفظ ذلك إلا فى ألفاظ معدودة منها الغُرْلة ، وأُرُل اسم لجبل . ونحن فى هذا العصر الذى يحتاج فيه إلى إبداع أسماء للمسميات الحديثة أحوج ما نكون إلى التوسع فى باب التمرين ، والتبحر فيه ، واكتناه أسرار العربية ، حتى نحاذيها ونسير على منهاجها . والله الموفق للصواب .

بيان حقيقة

نسب إلىّ زميلى الأستاذ الشيخ عبد الجواد رمضان أبياتا فى مقاله المنشور بعدد (جمادى الأولى من مجلة الأزهر) فأصرح بأنها ليست لى ، ولا أحب أن تنسب إلىّ ولو مداعبة ؟

عبد المتعال الصعيدى

ضرب الناشزة فى الاسلام

مباح مبغوض

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبد المتعال الصعيدى
المدرس بكلية اللغة العربية

قد يقرأ كثير من الناس قوله تعالى فى الآية — ٣٥ — من سورة النساء : « واللاتى تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن فى المضاجع واضربوهن ، فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا ، إن الله كان عليا كبيرا » فيظن أن الله أباح للرجال ضرب الناشز من النساء على أنه شىء يليق بالرجل الكامل ، ولا يقدح فى مروءته ولا ينقص من منزلته . وقد يفهم كثير من النساء أن الله أباح بذلك ضرب الناشز منهن إباحة خالصة ، يأتيها الرجال كما يأتون سائر المباحات ، فلا يكون عليهم فيها حرج ، لأن إتيان المباح لا حرج فيه ، بل قد ورد الترغيب فى إتيان ماأباحه الله ، لأن الله يحب أن نأتى بما أباحه لنا ، كما يحب أن نأتى بما فرضه علينا ، ولهذا ذم فى القرآن من حرم على نفسه ما أباحه الله له ؛ فإذا فهم بعض النساء ذلك من إباحة ضرب الناشز منهن دخل فى نفوسهن منه ما يدخل ، وقلن كيف يضع الله تعالى المرأة من الرجل هذا الموضع المذل ، وهو الذى رفع من قدرها ما رفع ، وأعطاها من الحقوق ما أعطى ، ومنع عنها من المهانات ما كانت فيه بمنزلة العجماوات ، إذ كانت تحرم من الميراث ، ويجحد حقها فيه كفرد من الأسرة ، وإذ كانت تورث مع التركة ولا ينظر اليها فى هذا كإنسان لا يصح أن يورث ، وإذ كان يباح للرجل وأدها وينظر اليها فى هذا كحيوان لا حرمة لنفسه ، فلم يرض الاسلام لها شيئا من هذا كله ، وأنصفها فيه من الرجال الذين استغلوا ضعفها بإزاء قوتهم ؛ فكيف يبقى لهم مع هذا حق ضربها ، ولا يرى فيه شيئا من الحرج عليهم ، وفى هذا هدر لكرامتها كشريك لزوجها فى منزلها وأولادهما ، وحط من منزلتها

أمام أولادها و خدمها ، فتسقط هيبتها فى نفوسهم ، ولا يؤدون لها حق الطاعة كما يجب ، لأن الزوج يعاملها بالضرب أمامهم كما يعاملهم ، فلا يرون فرقا بينها وبينهم .

وإنى أرى أن أعنى أولا بدفع ما يفهم من تلك الآية من إباحة ضرب الناشز من النساء إباحة خالصة ، وأن أبين أن الله يشرع فى مثل هذا للمصلحة التى لا يصح أن تتأثر بالعاطفة ، فيبيح أحيانا مالا يرضيها لأن المصلحة تقتضيه ، وقد يصل فى إيثار المصلحة إلى حد أن يبيح من الأشياء ما يبغضه ، ولهذا أباح الطلاق وجعله أبغض الحلال إليه ؛ وكذلك ضرب الناشز من النساء ، فليس من المباحات التى يحب الله أن تؤتى كما تؤتى فروضه ، وإنما هو كالطلاق الذى أباحه وكره أن يؤتى .

وإلى هذا ذهب عطاء فى ضرب الناشز من النساء ، فقال : لا يضربها وإن أمرها ونهاها فلم تطعه ، ولكن يغضب عليها . وقد ذكر القاضى أبو بكر بن العربى أن هذا من فقه عطاء ، فإن من فهمه بالشريعة ووقوفه على مظان الاجتهاد علم أن الأمر بالضرب فى تلك الآية أمر إباحة ، ووقف على الكراهية من طريق أخرى ، فى قول النبى صلى الله عليه وسلم فى حديث عبد الله بن زمعة « إنى لأكره للرجل يضرب أمته عند غضبه ، ولعله أن يضاجعها من يومه » . وروى ابن نافع عن مالك عن يحيى بن سعيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم استؤذن فى ضرب النساء ، فقال « اضربوا ، ولن يضرب خياركم » فأباح وندب إلى الترك ، وإن فى الهجر لغاية الأدب . ثم قال القاضى أبو بكر : والذى عندى أن الرجال والنساء لا يستوون فى ذلك ، فإن العبد يقرع بالعصا ، والحر تكفيه الإشارة ، ومن النساء بل من الرجال من لا يقيمه إلا الأدب ، فإذا علم ذلك الرجل فله أن يؤدب ، وإن ترك فهو أفضل . قال بعضهم وقد قيل له : ما أسوأ أدب ولدك ! فقال : ما أحب استقامة ولدى فى فساد دينى . ويقال : من حسن خلق السيد سوء أدب عبده . وإذا لم يبعث الله سبحانه للرجل زوجة صالحة وعبدا مستقيما فإنه لا يستقيم أمره معهما إلا بذهاب جزء من دينه ، وذلك مشاهد معلوم بالتجربة .

وقد ورد مثل هذا فى كتاب الطبقات لابن سعد ، فروى عن القاسم بن محمد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن ضرب النساء ، فقيل : يا رسول الله ، إنهن قد فسدن ، فقال « اضربوهن ، ولا يضرب إلا شراركم » . وروى عن أم كلثوم بنت أبى بكر أنه كان قد نهى الرجال عن ضرب النساء ، ثم شكاهن الرجال إلى رسول الله فخلى بينهم وبين ضربهن ، ثم قال « لقد طاف بآل محمد الليلة سبعون امرأة كلهن قد ضربت ، ما أحب أن أرى الرجل ثائر فريص عصب رقبته على مُرَ يئته يقاتلها » . وروى عن إياس بن عبد الله أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « لا تضربوا النساء » فتركوا ضربهن ، فجاء عمر إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، قد أبرَّ النساء على أزواجهن ، فائذن فى ضربهن . فقال النبى صلى الله عليه وسلم « لقد طاف بآل محمد الليلة سبعون امرأة كلهن تشكو زوجها ، ولا تجد أولئك خياركم » .

فهذه كلها أحاديث تدل على كراهة ضرب الناشزات ، وتصف من يضربهن من الرجال أقبح وصف ، فيجب أن تحمل إباحة ضربهن فى القرآن على حال الضرورة ؛ وهذا حين لا يجد الرجل مفراً من هذا التأديب ، فيكون التأديب بالضرب حينئذ خيراً من التأديب بالطلاق ، لأن ضرر الضرب يقتصر أمره على المرأة ، أما ضرر الطلاق فيتعداها إلى أولادها ومن يؤذيه طلاقها ، ويورث العداوة والبغضاء بينه وبين أهلها .

على أن السنة قد بينت الضرب الذى أباحه القرآن فى حال نشوز المرأة ، فإذا هو لا يطلق عليه اسم الضرب إلا على نوع من التجوز والتساهل ، وقد جاء تفسير هذا الضرب فى بعض ما رواه الطبرى ، فروى عن قتادة أنه قال فى تفسير « واهجروهن فى المضاجع واضربوهن » : تهجرها فى المضجع ، فإن أبت عليك فاضربها ضربا غير مبرح ، أى غير شائن .

وروى عن عطاء أنه قال : قلت لابن عباس : ما الضرب غير المبرح ؟ قال : بالسواك ونحوه . وفى رواية : السواك وشبهه يضربها به . ولا شك أن الضرب بالسواك وشبهه لا يعد ضربا ، وإنما هو مس رفيق يكفى فى تنبيه الحرة الى خطئها وإرشادها إلى طاعة زوجها ، فإن لم يكف فى هذا لم يجز تعديه إلى الضرب بغيره ؛

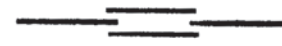
فإما صبر على أذاها ونشوزها ، وآثر الصبر على المفارقة بالطلاق ، وله فى ذلك أجر الصابرين ، وجزاء المحسنين ؛ وإما طلقها ليحفظ على نفسه دينه ، ولا يضارها بامساكها على كره منها .

وبهذا يتبين أن الإسلام لم يخالف سنته فى إنصاف المرأة بإباحة ضرب الناشزة ؛ لأنه لم يبح منه إلا المس الرفيق ، وهو فى الحقيقة يقصد منه التنبيه لا الضرب ؛ ولأنه مع هذا نفر الرجال منه ، وجعل من يفعله من شرارهم ؛ ولأنه يقصد منه مصلحتها ، وأن يتقى به الفرقة بالطلاق ، وضرر الطلاق أكبر من ضرر مثل هذا الضرب . ويجب على النساء أن يهدأن من ثائرتهن ، وألا يجرين فى هذا مع عاطفتهن ؛ لأن المصلحة فوق العاطفة ، وحكم العاطفة كثيرا ما يضر ؛ أما حكم المصلحة فهو نافع أبدا ، ولا يحصل منه ضرر لهن ولا لغيرهن . ويجب عليهن أيضاً أن يعرفن أن الإسلام حرم ضربهن ، ولم يبح إلا ضرب الناشزة مع كراهته له ، فكاد بهذا يحرم ضربهن مطلقا . وهذا ما أردت أن أدفعه أولا من الخطأ فى فهم إباحة ضرب الناشزة فى القرآن الكريم .

وإنى أبين بعد هذا كيف أبيح للرجل هذا الضرب على كراهته ، وكيف كان صاحبَ الحق فيه عند نشوزها ؛ وبيان هذا أن الأسرة لا بد لها من رئيس يكون له الحكم فيها ، ويقوم بتدبير أمورها ، ويفصل فيما يحصل من نزاع بين أفرادها ؛ لأن الأسرة إنما هى دولة فى داخل دولة ، فلا بد لها من رئيس كالدولة التى توجد بداخلها ؛ وهذا الحق يجب أن يعطى فى الأسرة للرجل ؛ لأن هو الذى يقوم برعايتها ، ويسعى فيما يتطلبه وجودها ، فيجب أن يكون هذا الحق له دون غيره ؛ على أنه مع هذا أقوى على النهوض به ، وأقدر على احتماله ، وأصلح له من غيره ؛ وللرئيس حق تأديب مرءوسيه ، وهذا يشمل الأسرة كلها ، ولا يصح أن تخرج المرأة منها ، لتستقيم أمور الأسرة ، ولا يرى أحد من أفرادها أن له حق الخروج على رئيسها ، بل يدين كل فرد منها له بحق الطاعة ، ويذعن لحكمه إذا حكم ، ويخضع لتأديبه إذا أدب ، ولا يرى فى هذا حرجا فى نفسه ، أو حطا من كرامته ، لأن مصلحته فى هذا التأديب ، وحكم المصلحة فوق حكم العاطفة .

لا اكراه فى الدين

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ حسن حسين
المدرس فى الأزهر



الدين مجموع أمور ثلاثة : إيمان ، وإسلام ، وإحسان .

(فالإيمان) أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره .

و(الاسلام) أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتى الزكاة وتصوم رمضان وتحج بيت الله إن استطعت إليه سبيلا .

و(الإحسان) أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك . هكذا أجاب رسول الله صلى الله عليه وسلم سيدنا جبريل حين سأله عنها فى الحديث المشهور الذى رواه مسلم بسنده عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وقال الرسول فى آخر الحديث : هذا جبريل أتاكم يعلمكم دينكم . فهل يتصور أن يحصل الاكراه فى أحدها أو فى مجموعها ؟ كلا .

الإيمان :

أما الإيمان فهو عقيدة وإذعان وتسليم ، والعقائد محلها القلوب ، ولا سلطان لأحد على القلوب إلا علام الغيوب : والدين من هذه الناحية ، ناحية العقيدة والاذعان والتسليم — أعنى الإيمان — أمر عام مشترك بين جميع الأمم من آدم عليه السلام إلى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين والمرسلين . فدعوة الرسل أجمعين تنصب على هذه العقيدة ، عقيدة الإيمان بوجوب وجود الله ، ووحدانيته ، ونفى الشرك والوثنية بشكل قاطع لا مجال للشك والريب فيه .

والناظر فى قصص الرسل فى القرآن الكريم يجد هذا المعنى فى سهولة ويسر ، فما من رسول إلا دعا قومه للتوحيد ونبذ الوثنية . فالاكراه لا يجد له مسلكا إلى القلوب ، إذ لا سبيل لأحد على قلب أحد بالسيف ، فإن أكرهته واستجاب لك فإنما يستجيب لك بلسانه كاذبا تحت تأثير الضغط وخشية الهلاك ، وأنت لا تستطيع أن تكذبه لأنه لا سبيل لك إلى قلبه ووجدانه وشعوره وباطنه وسره ، كما وقع ذلك فى صدر الإسلام لبعض أحد أصحاب رسول الله مما سنقصه عليك فيما بعد . فالسبيل إلى العقيدة إنما هو البرهان الساطع والحجة العقلية وتوجيه أفكار الناس وعقولهم إلى آيات الله فى الآفاق وفى أنفسهم ؛ ولذلك كانت دعوة الرسل كلهم مؤيدة بهذه البراهين الساطعة القاطعة « المعجزات » ، واقتضت حكمة الله جل شأنه أن تكون المعجزات متفاوتة مختلفة باختلاف حال الأمم ومناسبة لهم تمام المناسبة ، لأجل أن تؤدى رسالتها ، وتسلك سبيلها إلى القلوب من أقرب الطرق .

مثال ذلك معجزة السيد عيسى عليه السلام الظاهرة فى دعوته « إحياء الموتى » ؛ فان الطب كثر فى زمنه وبلغ نهايته ، ولكن أقصى ما يستطيعه الطبيب الماهر بقواعد علمه وتجاربه هو معرفة الداء ووصف الدواء ، فلما أرسل الله عيسى عليه السلام جعل معجزته من هذه الناحية — ناحية الطب — لكن أى طب هذا ؟ طب أذهب قلوب الأطباء وأطار ألبابهم وأذهلهم ، إذ مَن مِن الأطباء يستطيع إحياء الموتى ؟ فكانت المعجزة من ناحية علمهم ، لتسلك سبيلها إلى قلوبهم .

وموسى عليه السلام : كثر السحر فى زمنه كثرة مزعجة ، ونبغ السحرة نبوغا فائقا ، وكان فرعون يستند عليهم فى تثبيت دعائم عرشه ، ولذلك دعاهم لمعارضة موسى عليه السلام لزعمه أنه ساحر ، وأنهم أعلم منه بالسحر . فكانت معجزة موسى من هذه الناحية ، ناحية ما يعلمون ، لتبهرهم ؛ ولذلك كان السحرة أنفسهم أسرع القوم استجابة لموسى ، لأن المعجزة عرفت سبيلها إلى قلوبهم فآمنوا إيمانا لم يزعزعه تهديد فرعون إياهم بالعذاب المهين ، بل قالوا له فى شجاعة المؤمنين وصراحتهم « لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذى فطرنا ، فاقض

ما أنت قاض ، إنما تقضى هذه الحياة الدنيا ، إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر ، والله خير وأبقى » . إى وربى لقد قالوا له هذا ، مع أنهم حديثو عهد بإيمان ، ولكنها العقيدة لا سبيل للإكراه عليها .

وسيد الخلق أجمعين صلوات الله وسلامه عليه : بعث فى أمة عربية ، فى طبيعتها وسليقتها الفصاحة والبلاغة ، لا يجدون فى ذلك حرجا ولا مشقة ، وإنما هى طبيعتهم المرسلة ، وسجيتهم المطلقة ، لاعناء ولا جهد ، ولا تحضير ولا مقدمات ؛ فكأن البلاغة تجرى فى دمائهم ، وتتردد مع أنفاسهم ، فهم فرسان هذا الميدان بلا منازع . فكانت معجزة الرسول من هذه الناحية : القرآن الكريم ؛ بهرهم ، وأذهلهم ، وأدهشهم . وعلى لسان من جاء القرآن ؟ على لسان محمد صلى الله عليه وسلم ، الأمى الذى لا يقرأ ولا يكتب ، فكانت الدهشة بالغة ، وكان الذهول مروعا .

وفى الواقع كان الطريق مختلفا ؛ فهم من ناحية يعتقدون أنه من كلام البشر أو الجن ، وبنوا خطتهم فى معارضته على هذا الزعم الفاسد ، والقرآن من عند الله لا سبيل إلى معارضته ، ولكنهم عارضوه بعد التحدى ، على اعتقادهم فيه ، فتحداهم بعشر سور من مثله ، فعجزوا ، فتحداهم بسورة واحدة ، بل بأقصر سورة ، فعجزوا عجزاً ظاهراً ، وهم أصحاب هذا الشأن : البلاغة والفصاحة ؛ فتنبه العقلاء إلى أن هذا لا بد من عند الله ، وأن صاحبه رسول ، مافى ذلك شك ولا ريب ؛ فآمنوا من طريق المعجزة إيمانا لم يزحزحه ما صبه عليهم ، وهم المستضعفون ، صناديد قريش من ألوان العذاب ، مما لا يتحمله البشر .

وإليك بعض ما يحضرنا فى هذا الشأن :

هل أتاك نبأ بلال ، الرقيق الضعيف ، وما لاقاه من سيده من ضروب التعذيب والقسوة والوحشية مما هو فوق احتمال البشر ؟ كان يوثق يديه ورجليه ويرقده على حجارة مكة فى الصيف الصائف وفى شدة القيظة ، بعد أن يجرده من ثيابه ، ثم يحمى حجراً كبيرا بالنار ، كأن حرارة الشمس فى إبان شدتها لا تكفيه ، ويضعه فوق صدره وبطنه ، فيسيل دمه الى أن

يصل الى درجة النزع : كل هذا لأجل أن يرجع عن عقيدته ، وهو حديث عهد بها ، فلم يُرجع ، بل لم يسكت ، فكان يعبر عما فى أعماق قلبه من إيمان بقوله أثناء التعذيب الشديد : أحد أحد ! . وكانت كلمة الكفر الظاهرية باللسان ترضى سيده فيخفف عنه من هذا العذاب ، فلم يشأ أن يقولها . أرأيت أروع من هذا المثل الذى ضربه بلال فى التضحية فى سبيل العقيدة ! .

وهل قرأت فى التاريخ الإسلامى ما أصاب أسرة « ياسر » عمارا وأباه ياسرا ، وأمه سمية ؟ أما الأبوان فقد قتلا تحت العذاب ، ولم يرجعا عن عقيدتهما ولا باللسان ، وهما أول قتيلين فى الإسلام ، وأما عمار فقد كان شابا حدثا ، وقد رأى ما أصاب والديه ، وعلم أن مصيره مصيرهما ، فأعطاهما كلمة الكفر باللسان ، فهل كفر عمار ؟ كلا إطلاقا . اسمع ما يقوله الله فى هذا « من كفر بالله من بعد إيمانه ، إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ، ولكن من شرح بالكفر صدرا فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم » . واسمع ما قاله الرسول صلى الله عليه وسلم حين قال له بعض الصحابة : يا رسول الله إن عمارا كفر : « كلا إن عمارا ملىء إيمانا من قرنه إلى قدمه ، واختلط الإيمان بلحمه ودمه » . هذا قول الله وهذا قول رسوله ، وكلاهما صريح فى أن الاكراه لا يمس العقيدة وإن قال صاحبها ما ينافيها بلسانه . وفى بعض الأحاديث أن عمارا أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يبكى ، فجعل النبى يمسح عينيه وقال له : « مالك ، إن عادوا لك فعدلهم بما قلتِ » نعم إن هناك فرقا شاسعا بين مقام عمار ، ومقام والديه ؛ فهو قد أخذ بالرخصة ، وهما صدعا بالحق إلى أن ماتا تحت العذاب ، فمقامهما عند الله أرفع . ويدل على ذلك ما روى فى حادثة أخرى : أن مسيلمة الكذاب أخذ رجلين فقال لأحدهما : ما تقول فى محمد ؟ قال : رسول الله ، قال : فما تقول فى ، قال : أنت أيضاً ، فخلاه أى أطلق سراحه ؛ وقال للآخر : ما تقول فى محمد ؟ قال : رسول الله ، قال : ما تقول فى ، قال : أنا أصم ، فأعاد عليه ثلاثا ، فأعاد جوابه ، فقتله ، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « أما الأول فقد أخذ برخصة الله ، وأما الثانى فقد صدع بالحق فهنيئاً له » .

وهناك صهيب ، وخباب ، وسالم ، وجبر مولى الحضرمى وغيرهم ، كل له قصة ، وكل قد ضرب أرفع الأمثلة فى التضحية فى سبيل العقيدة . فتلك صور

إسلامية رائعة لو أردنا ذكرها لطال بنا القول ، وربما أفردنا لها مقالا خاصا . أرأيت معى ، بما قدمناه لك أن الاكراه لا يجد سبيله مع الإيمان .

الإسلام :

أما الإسلام ، وهو الانقياد الظاهرى لما جاء به الرسول من الشهادتين والصلاة الخ ؛ فله حالتان : إحداهما : أن يكون ناشئا عن العقيدة ، أعنى الإيمان ، فيكون أثرا من آثاره ، وهو الإسلام الصحيح المعتد به ، لأنه الموافق لما فى القلب ، فهذا حكمه حكم الإيمان لا يتصور فيه الإكراه أصلا ؛ لأنه ناشىء عنه وأثر من آثاره ؛ والثانية ألا يكون كذلك ، وهو إسلام غير صحيح لا يعتد به ، لأنه لم يوافق ما فى القلب كاسلام المنافقين ، فانهم أسلموا ظاهرا ، وقلوبهم مشبعة بالوثنية والشرك ، وكانوا يصلون كما يصلى المؤمنون ، ويصومون كما يصومون ، ويجلسون فى مجلس الرسول ويستمعون اليه ، ولكنهم كانوا فى كل ذلك كاذبين بشهادة القرآن « إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله ، والله يعلم إنك لرسوله ، والله يشهد إن المنافقين لكاذبون » ، « يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون » .

فهذا النوع من الإسلام لا يسمى فى الحقيقة دينا ، فهو خارج عن موضوع « لا إكراه فى الدين » . فسيان جاز فيه الإكراه أم لم يجز ، لأنه باطل من أساسه . وهذا النوع من الإسلام غير النوع الذى يكون قلب صاحبه خالياً من العقيدة : الإيمان ، ولكنه مستشرف له متطلع اليه ، وهو المشار اليه بقوله تعالى « قالت الأعراب آمنا ، قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ، ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم » . فهو إسلام لم ينشأ عن الإيمان ، ولكن القلوب خالية ليست ملوثة بالشرك ، بل هى مترقبة دخول الإيمان . ومهما يكن من شىء فالإسلام الصحيح المعتد به شرعا لا يدخله الإكراه ، سواء كان ناشئا عن الإيمان بأن يكون متأخرا عنه ، أو يكون سبباً له ومدخلا اليه .

أما الإسلام الذى لا يعتد به كاسلام المنافقين ، فلا شأن لنا به لبطلانه من أساسه كما تقدم .

الإحسان :

أما الاحسان : فهو مقام المراقبة ، مراقبة العبد ربه كأنه يراه ، وهى مرتبة من أرفع المراتب فى العبادة ، ليس هناك أرفع منها إلا مقام المشاهدة ، على ما يقول الصوفية ، وقد أشار الحديث الشريف إلى أن للإحسان مرتبتين : إحداهما أرفع شأنا من الأخرى ؛ فالأولى أن يعبد المؤمن ربه كأنه يرى الله ؛ والثانية أن يعبده معتقدا أن الله يراه . وقد ضرب شراح الحديث لذلك مثلا يقربه إلى الأفهام ؛ قالوا : إن الأجير إذا رأى المالك وقت العمل لا شك يبذل أقصى جهده فى العمل إرضاء للمالك ، وهذه هى المرتبة الأولى . فإذا لم يكن المالك حاضرا ، لكن الأجير يعتقد أنه مطلع عليه من شرفة منزله مثلا ، بذل جهدا مشكورا أيضا ، ولكنه أقل من اجتهاده فيما لو كان المالك حاضرا ، وهذه هى المرتبة الثانية . وهذه المراتب الرفيعة فى العبادة لا تكون قسرا ، وإنما ينساق المسلم اليها انسياقا ناشئا عن إيمانه . فلا إكراه فى الدين إيماناً وإسلاماً وإحساناً . كيف وقد قال الله تعالى « أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين » وقال « فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا » .

روى أنه كان لأنصارى من بنى سالم بن عوف ابنان تنصرا قبل أن يبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قدما المدينة ، فلزمهما أبوهما وقال : والله لا أدعكما حتى تسلما ! فأبيا ، فاختصموا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال الأنصارى : يا رسول الله أيدخل بعضى النار وأنا أنظر ؟ فنزل قوله تعالى : « لا إكراه فى الدين » م ؟

كلمات لأمراء المؤمنين

كتب عمر بن عبد العزيز الى عامله عدى بن أرطاة : أما بعد فقد أمكنتك القدرة على المخلوق ، فاذكر قدرة الخالق عليك ، واعلم أن مالك عند الله مثل ما للرعية عندك .

وقال المنصور لولده المهدى ، وقد تولى الخلافة بعده : لا ترم أمراً حتى تفكر فيه ، فإن فكرة العاقل مرآته تريه حسناته وسيئاته . واعلم أن الخليفة لا يصلحه إلا التقوى ، والسلطان لا يصلحه إلا الطاعة ، والرعية لا يصلحها إلا العدل ، وأولى الناس بالعفو أقدرهم على العقوبة ، وأنقص الناس عقلا من ظلم من هو دونه .

فى البلاغة العربيـة :

قديمنا وجديد الناس ...

لفضيلة الأستاذ الشيخ على محمد حسن العمارى
مبعوث الأزهر الى المعهد العلمى بأم درمان

لم ينصفنا من يظن أنا ندافع عن القديم لأنه قديم ، ونناضل عن السابقين من علمائنا عصبية منا لهم ، ونأخذ الطريق على المحدثين استهانة بهم وبآثارهم ، فما إلى ذلك قصدنا ، وكيف ، وقد كتبنا فى هذه المجلة فى عدد قريب نكشف عن بعض عيوب كتبنا القديمة ، وندعو الى التخلى عن هذه العيوب ، وإراحة الدارسين من همومها وأثقالها ؟ والحق أنا إنما ندافع عن القـــديم لأنه البناء المتماسك الذى لم يستطع بناء المحدثين أن ينهض بجانبه ، وأحيانا نتمسك بالقديم مرغمين لأنا نتلفت فلا نجد فى جديد الناس ما يغنى غناءه ويسده مسده ، فلا نستطيع أن نوافق على هدم القديم ، وليس بين أيدينا جديد صالح ترتكز عليه بلاغتنا العربية . نعم فى هذا البناء عيوب ، ولكنه — مع ذلك — يؤوى ويظل ويستر ، أما بناؤكم فهو يقوم على أساس واهٍ ، لو أراد مستند إليه أن يمد يده ليساعده على النهوض لانهار البناء ، وبقى المستجير فى العراء .

والفكرة عندنا لا تزال كما كانت عند أسلافنا ؛ يقول أبو العباس محمد بن يزيد المبرد : « وليس لقدم العهد يفضل القائل ، ولا لحدثان عهد يهتضم المصيب ، ولكن يعطى كل ما يستحق [1] » . ويقول أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينورى : « ولا نظرت إلى المتقدم فيهم بعين الجلالة لتقدمه ، ولا المتأخر منهم بعين الاحتقار لتأخره ، بل نظرت بعين العدل إلى الفريقين ، وأعطيت كلا حقه ، ووفرت عليه

---

(١) الكامل ص ١٨ ج ١ ط التجارية .

حظه ، فإنى رأيت من علمائنا من يستجيد الشعر السخيف لتقدم قائله ، ويضعه موضع متخيره ، ويرذل الشعر الرصين ولا عيب له عنده إلا أنه قيل فى زمانه ، ورأى قائله ، ولم يقصر الله الشعر والعلم والبلاغة على زمن دون زمن ، ولا خص به قوما دون قوم ، بل جعل ذلك مشتركا مقسوما بين عباده ، وجعل كل قديم منهم حديثا فى عصره ، وكل شريف خارجيا فى أوله . . . فكل من أتى بحسن من قول أو فعل ذكرناه له ، وأثنينا عليه به ، ولم يضعه عندنا تأخر قائله ، ولا حداثة سنه ، كما أن الردىء إذا ورد علينا للمتقدم أو الشريف لم يرفعه عندنا شرف صاحبه ولا تقدمه (١) » .

وإذا كان هذا فى الشعر واجبا فهو فى العلم أوجب ، فسبيلنا — إذن — أن ننصف العلم وحده . ثم أمضى الى القصد .

وقد انتهى بنا الحديث فى المقال السابق (هدم المجددين وبناؤهم) إلى هدم نظريتهم فى الاتكاء على (الإيهام) وجعله وسيلة الى إخراج بحث (شبه كمال الانقطاع) من البحث البلاغى ، وبينّا أن الإيهام لا يمنع العطف نحويا ، وإنما يمنعه بلاغيا ، وأكبر حجة على ذلك هذا البيت الذى اعتمدوا هم عليه ، فقد قلنا إنه بعد الفصل فيه إيهامان آخران ، ونحب أن نضيف اليوم أن علماءنا كانوا متنبهين إلى هذه الفكرة ، فقد ذكروا أن الإيهام يوجد فى كل من كمال الاتصال وشبهه ، وأن صاحب التلخيص إنما اقتصر على ذكره مع كمال الانقطاع لكثرته فيه ، بل قالوا إنه يكون فى الأقسام كلها . قال فى عروس الأفراح « ولك أن تقول الإيهام كما يدفع الفصل بين الجملتين اللتين بينهما كمال الانقطاع يدفعه بين اللتين بينهما كمال الاتصال ، وكذا غيره من الأقسام السابقة واللاحقة ، فليعتبره الناظر . والإيهام مشروط بأن لا يعارضه إيهام آخر » وذكر بعض الكاتبين تعليقا على قول الإيضاح « إما لدفع إيهام خلاف المقصود » قال : ووجوب الوصل فى هذا من جهة البلاغة لأنه يمكن دفع ذلك بالسكوت بين الجملتين أو بمعونة القرائن ، وهو إنما يكون فى كمال الانقطاع بين الجملتين كما فى المثال المذكور : « لا وأيدك الله » وقيل إنه يمكن اعتبار الوصل لدفع الإيهام فى كمال الاتصال أيضا كما

---

(٢) الشعر والشعراء ص ٨٠٧ جـ ١ . التجارية .

تقول لمن سألك : هل تشرب خمرا : لا وتركت شربه . وقيل إنه يتعين الفصل فى كمال الاتصال مطلقا ويدفع الإيهام فى مثل هذا بطريق آخر فيقال : لا قد تركت شربه أو نحوه .

ثم نراهم يحاولون أن يخرجوا من دائرة البلاغة بحث كمال الانقطاع وبحث كمال الاتصال ويعتمدون على أن العطف أساسه المغايرة والمناسبة ، فنحن لا نعطف إلا شيئين متغايرين متناسبين، والمغايرة ألا يكون المعطوف نفس المعطوف عليه ولا جزءه ، تقول : جاء زيد نفسه أو جاء زيد زيد فلا تحتاج للعطف إذ لا مغايرة فيها ، بخلاف ما إذا قلت جاء زيد وابنه ، فالعطف لازم هنا لوجود المغايرة ، وكذلك تباين الشيئين يمنع من أن نضع بينهما علامة وصل لأنهما غير صالحين للاتصال ، ومن المتفق عليه أن كمال الانقطاع اختلاف السياق، فهما كلامان ليست بينهما وحدة فليس معقولا أن يتصلا ، وعلى ذلك فليس هذا الموضع محل بحث بلاغى لأنه وجه واحد لا يمكن العدول عنه ، وأما كمال الاتصال ، وهو توكيد ومؤكد أو بدل ومبدل منه أو بيان ومبين ، فهو باب وحده ؛ ذلك أن الاتحاد فيه فى السياق تام فطبيعى أنه سياق واحد فلا داعى للفصل فيه اذا أغنى عن ذلك شدة الاتصال .

هذا موجز ما قالوا ، وخلاصته أن الباحث فى الفصل والوصل يجب عليه أن يطرح عنه بعيدا هذين الموضعين ، لأن الفصل فى الأول واجب ، والوصل واجب فى الثانى ، والبلاغة إنما تبحث فى الجائز .

ولست واجدا شيئا من العناء فى الرد على هذا ، فان العطف جائز بين الخبر والإنشاء ، وقد نقل عن سيبويه جواز جاء زيد ومن عمرو ، وفى شرح بانت سعاد لابن هشام هذا الشاهد :

تناغى غزالا عند باب ابن عامر ... وكحل مآقيك الحسان بأثمد

ولا خلاف عندهم فى جواز هذا العطف فى نحو قوله تعالى « وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل » ولا مانع عندى أن يجعل من عطف الإنشاء على الخبر العطف فى قوله تعالى « إن أصحاب الجنة اليوم فى شغل فاكهون ، هم وأزواجهم فى ظلال على الأرائك متكئون ، لهم فيها فاكهة ولهم مايدعون ، سلام قولا من رب رحيم ،

وامتازوا اليوم أيها المجرمون ، ولا داعى لهذا البيان الطويل المعقد الذى ساقه أبو يوسف يعقوب السكاكى فى كتابه المفتاح موضحا وجه العطف هنا .

وأما كمال الاتصال فيحسبنا أن نقول لهم : إن هذه التوابع ليست توابع اصطلاحية ، ولذلك نرى علماءنا كانوا فى غاية الدقة حين قالوا «فوزانه وزان كذا» من توكيد أو بدل أو بيان ، على أننا نرى أن النص الأدبى الواحد يكون بيانا فيعطف مرة ولا يعطف أخرى ، قال الله تعالى فى سورة البقرة « وإذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم » وقال عز وجل فى سورة ابراهيم « وإذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم إذ أنجاكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب ويذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم » .

ولعل من العجب أن يقول هؤلاء فى قوله تعالى « أمدكم بما تعلمون أمدكم بأنعام وبنين » كان يمكن أن يعطف فيقول : وأمدكم. يا لله تحلونه عاما وتحرمونه عاما ! .

بقى لديهم شبه كمال الاتصال ، وهو أولى الأقسام عندهم بأن يخرج عن البحث البلاغى لأن « المسألة - إذن - ليست مسألة سؤال وجواب واستئناف وبتاع ! ومن المؤسف أن يقع فيه عبد القاهر نفسه » كما يقولون . وإنما المسألة أن هنا كلامين لمتكلمين مختلفين حقيقة أو حكما ، وما دام الأمر كذلك فالفصل واجب ، لأنه لا يعطف كلام شخص على كلام شخص آخر ، وإذا أراد القارىء أن يفهم هذا الباب كله من أوله إلى آخره فما عليه إلا أن يفهم هاتين الكلمتين اللتين قدمناهما ؛ قالوا « إذا كان الخطاب بين متعددين حقيقة فهذا أول مواضع الفصل وهو أسلوب الحوار - ولم يعطونا فكرة عن أسلوب الحوار هذا - والأصل فى الحوار أن يكون بين شخصين وقد يقع ليمثل حالتين مختلفتين لشخص واحد ، فالحوار الذى نقصده هنا هو الذى يقع بين متعددين حقيقة أو حكما ؛ حقيقة هذا أول مواضع الفصل ، حكما فهذا أول الكلام فى الفصل والوصل ، والأصل فيه أنه حيثما وجد التقابل بين كلامين فهو أول مواضع الفصل ، وحيثما وجد تكامل بينهما كان ذلك أول مواضع الوصل ، وإذا حدث اللبس أو التردد بين هذين الطرفين دخل عمل علم

البلاغة : وتعدد السياق اعتبارا يدخل فيه شبه كمال الاتصال وشبه كمال الانقطاع . وأما فى كمال الانقطاع فإما أن يتعدد السياق وإما أن يتحد ، فاذا تعدد السياق فهما كلامان ، وإذا وجدت بينهما مناسبة فالفصل ، وإذا اتحد فاما أن يتعدد المتـكلمان حقيقة أو اعتبارا وحينئذ نستغنى عن الوصل ونفصل ، وأما أن يتحد المتكلم بالجملتين وحينئذ يجب الوصل » .

وبهذا البيان اللطيف ، وبهذا التقعيد الرائع ، نخلص من هذا الباب الذى كانت (تسكب فيه العبرات) ولـكننا فقط نحتاج إلى جهود جديدة لنبين للناس كيف تدخل هذه الأقسام كلها تحت أسلوب واحد ، بعضه فرضى . والحق أنى ـ إلى هنا ـ وقفت ، ولست بمستطيع أن أزيد بيانا أو إيضاحا ، ولعل فى العلماء المتعمقين فى الدراسة من يستطيع أن يفهمنا هذه القاعدة الجديدة لهذا الباب المسكين ؟

العدل فى الاسلام

بث الاسلام فى قلوب أهله روح العدل بين الناس ، وضرب النبى صلى الله عليه وسلم المثل العليا فيه ، وائتم به صحابته من بعده ، حتى أصبحت محاكمهم مضرب الأمثال إلى يومنا هذا . ناهيك أن القضاة فى عهده الأول كانوا يساوون الحاكمين بالرعية فى مجالس القضاء . وهذا ما لم يحدث له نظير فى العالم إلى اليوم .

من ذلك أن الأشعث بن قيس من كبار سادات العرب دخل على شريح القاضى فى مجلس القضاء . فقال له شريح : مرحبا وأهلا بشيخنا وسيدنا ! وأجلسه معه .

فبينما هـو جالس عنده إذ دخل رجـل يتظلم من الأشعث . فقال له شريح : قم يا أشعث فاجلس بمجلس الخصم ، وكلم صاحبك . قال الأشعث : بل أكلمه من مجلسى . فقال له القاضى : لتقومن أو لآمرن من يقيمك . فقال له الأشعث : أثم ما ارتفعت . فقال له شريح : رأيت ذلك ضرك ؟ قال لا . قال شريح : فأراك تعرف نعمة الله على غيرك ، وتجهلها على نفسك .

منزلة السنة من الدين

لحضرة الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقى

الفصل السادس

تقسيم السنة الى ما ورد فيه نص كتاب والى ما لم يرد فيه نص كتاب

قال الإمام الشافعى فى رسالته ص ٣٢ :

(البيان الرابع)

قال الشافعى : كل ما سن رسول الله صلى الله عليه وسلم مما ليس فيه كتاب ، وفيما كتبنا فى كتابنا هذا من ذكر ما منّ الله به على العباد من تعلم الكتاب والحكمة - دليلٌ على أن الحكمة سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

مع ما ذكرنا مما افترض الله على خلقه من طاعة رسوله ، وبين فى موضعه الذى وضعه الله به من دينه — الدليل على أن البيان فى الفرائض المنصوصة فى كتاب الله من أحد هذه الوجوه :

منها ما أتىَ الكتابُ على غاية البيان فيه ، فلم يحتج مع التنزيل فيه الى غيره .

ومنها ما أتىَ على غاية البيان فى فرضه ، وافترض طاعة رسوله ، فبيَّن رسولُ الله عن الله : كيف فرْضُهُ ، وعلى من فرْضَهَ ، ومتى يزول بعضه ويَثْبُتُ ويجب .

ومنها ما بيّنه عن سنة نبيه ، بلا نص كتاب .

وكل شيء منها بيان فى كتاب الله .

فكل من قَبِل عن الله فرائضه فى كتابه ، قَبِل عن رسول الله سننه ،

بفرضِ اللهِ طاعةَ رسوله على خلقه ، وأن ينتهوا الى حكمه . ومن قَبِل عن رسول الله فعن الله قَبِل ، لما افترض اللهُ فى طاعته .

فَيَجمعُ القبولُ لما فى كتاب الله ولسنة رسول الله القبولَ لكل واحد منهما عن الله ، وإن تفرقت فروع الأسباب التى قُبِل بها عنهما ، كما أحلَّ وحرَّم ، وفرض وحدَّ : بأسباب متفرقة ، كما شاء ، جل ثناؤه « لا يسأل عما يفعل وهم يسألون » ٢١ / الأنبياء / ٢٣ . اهـ .

وقال أيضا ص ٢٢ :

ومنه (أى من البيان) ما سن رسول الله صلى الله عليه وسلم مما ليس لله فيه نص حكم ، وقد فرض الله فى كتابه طاعة رسوله صلى الله عليه وسلم والانتهاء الى حكمه ، فمن قبل عن رسول الله فبفرض الله قبل . اهـ .

وقال فى ص ١٠٨ :

قال الشافعى : فيما وصفتُ من فرض الله على الناس اتباع أمر رسول الله : دليلٌ على أن سنة رسول الله إنما قُبِلت عن الله ، فمن اتبعها فبكتاب الله تبعها ، ولا نجد خبرا ألزمه الله خلقَه نصّاً بيّناً إلا كتابه ثم سنة نبيه .

فإذا كانت السنة كما وصفتُ ، لا شِبْهَ لها من قول خلقٍ من خلق الله ، لم يجُز أن ينسخها إلا مثلها ، ولا مثل لها غير سنة رسول الله : لأن الله لم يجعل لآدمى بعده ما جعل له ، بل فرض على خلقه اتباعه ، فألزمهم أمره ، فالخلق كلهم له تبع ، ولا يكون للتابع أن يخالف ما فرض عليه اتباعه ، ومن وجب عليه اتباع سنة رسول الله لم يكن له خلافها ، ولم يقم مقام أن ينسخ شيئا منها . اهـ .

وقال فى ص ١٩٧ :

فلو أن امرءا لم يعلم لرسول الله سنة مع كتاب الله إلا ما وصفنا ، مما سنّ رسول الله فيه معنى ما أنزله الله جملة ، وأنه إنما استدرك ما وصفت من فرض الله الأعمال ، وما يحرِّم وما يُحلُّ ، ويُدْخَلُ به فيه ، ويخرج منه ، ومواقيتِه ، وما سكت عنه سوى ذلك من أعماله — قامت الحجة عليه بأن سنة رسول الله إذا قامت هذا المقام مع فرض الله فى كتابه مرة أو أكثر : قامت كذلك أبدا . اهـ

وقال فى ص ٩١ :

وسنن رسول الله مع كتاب الله وجهان : أحدهما نص كتاب فاتبعه رسول الله كما أنزل الله ، والآخر جملةٌ بين رسول الله فيه عن الله معنى ما أراد بالجملة ، وأوضح كيف فرضها ، عاماً أو خاصا ، وكيف أراد أن يأتى به العبادُ ؛ وكلاهما اتبع فيه كتاب الله .

قال : فَلَمْ أعلم من أهل العلم مخالفا فى أن سنن النبى من ثلاثة وجوه ، فاجتمعوا منها على وجهين ، والوجهان يجتمعان ويتفرعان : أحدهما ما أنزل الله فيه نص كتاب ، فبيَّن رسول الله مثل ما نص الكتاب ؛ والآخر مما أنزل الله فيه جملة كتاب ، فبيَّن عن الله معنى ما أراد . وهذان الوجهان اللذان لم يختلفوا فيهما .

والوجه الثالث ما سنّ رسول الله فيما ليس فيه نص كتاب .

فمنهم من قال : جعل الله له ، بما افترض من طاعته ، وسبق فى علمه من توفيقه لرضاه ، أن يَسُنَّ فيما ليس فيه نص كتاب .

ومنهم من قال : لم يَسُنَّ سنَّة قط إلا ولها أصل فى الكتاب ، كما كانت سنته لتبيين عدد الصلاة وعملها على أصل جملة فرض الصلاة ، وكذلك ما سنَّ من البيوع وغيرها من الشرائع ، لأن الله قال « لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل » النساء / ٢٩ ، وقال : « وأحلَّ الله البيع وحرّم الربا » البقرة / ٢٧٥ ؛ فما أحل وحرَّم ، فإنما بيَّن فيه عن الله ، كما بيَّن الصلاة .

ومنهم من قال : بل جاءته به رسالة الله ، فأثْبتَتْ سنّتُه بفرض الله .

ومنهم من قال : أُلقِىَ فى رُوعه كلُّ ما سنَّ ، وسنتُه الحكمةُ : الذى أُلقِىَ فى روعه عن الله ، فكان ما أُلقِىَ فى روعِه سنتَه .

أخبرنا عبد العزيز عن عمرو بن أبى عمرو عن المطلب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الروح الأمين قد ألقى فى رُوعى أنه لن تموت نفس حتى تستوفى رزقها فأجملوا فى الطلب » .

فكان مما ألقى فى روعه سننه ، وهى الحكمة التى ذكر الله ، وما نزل به عليه كتاب فهو كتاب الله ، وكلٌّ جاءه من نعم الله ، كما أراد الله ، وكما جاءته النعم ، تجمعها النعمة ، وتتفرق بأنها فى أمور بعضها غير بعض ، ونسأل الله العصمة والتوفيق .

وأىٌّ هذا كان ، فقد بيّن الله أنه فرض فيه طاعة رسوله ، ولم يجعل لأحد من خلقه عذرا بخلاف أمر عرفه من أمر رسول الله ، وأنْ قد جعل الله بالناس كلهم الحاجة إليه فى دينهم ، وأقام عليهم حجته بما دلهم عليه من سنن رسول الله معانى ما أراد الله بفرائضه فى كتابه ، ليعلم مَن عَرف منها ما وصفنا أن سنته صلى الله عليه وسلم إذا كانت سنة مبيِّنة عن الله معنى ما أراد من مفروضه فيما فيه كتاب يتلونه ، وفيما ليس فيه نص كتاب ـ أخرى (أى سنة أخرى) ؛ فهى كذلك أين كانت ، لا يختلف حكم الله ثم حكم رسوله ، بل هو لازم بكل حال . اهـ .

وجاء فى فتح البارى لأستاذ الدنيا فى علم الحديث الحافظ ابن حجر العسقلانى الجزء الثالث عشر ص ٢٠٣

قال ابن القيم فى الرد على من رد خبر الواحد إذا كان زائدا على القرآن ما ملخصه :

السنة مع القرآن على ثلاثة أوجه ؛

أحدها — أن توافقه فى كل وجه فيكون من توارد الأدلة .

ثانيها — أن تكون بيانا لما أريد بالقرآن .

ثالثها — أن تكون دالة على حكم سكت عنه القرآن ؛ وهذا الثالث يكون حكما مبتدأ من النبى صلى الله عليه وسلم فتجب طاعته فيه . ولو كان النبى صلى الله وسلم لا يطاع إلا فيما وافق القرآن لم تكن له طاعة خاصة ، وقد قال تعالى « من يطع الرسول فقد أطاع الله » النساء / ٨٠ اهـ .

الفصل السابع

إنكار الأئمة على من رد الحديث الصحيح

قال عالم الشام جمال الدين القاسمي فى كتابه قواعد التحديث ص ٢٦٣ :

وقال الحميدى : سأل رجل الشافعى عن مسألة فأفتاه وقال : قال النبى صلى الله عليه وسلم كذا وكذا ؛ فقال الرجل : أتقول بهذا يا أبا عبد الله ! فقال الشافعى : أرأيت فى وَسَطى زِنّاراً ؟ أترانى خرجت من الكنيسة ؟ أقول قال النبى صلى الله عليه وسلم ، وتقول لى أتقول بهذا ! أروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أقول به ؟ ا هـ .

وقال فى ص ٣٩٢ :

وصلى رجل ممن يكتب الحديث بجنب ابن مهدى ، فلم يرفع يديه ، فلما سلّم قال له : ألم تكتب عن ابن عيينة حديث الزهرى عن أبيه أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يرفع يديه فى كل تكبيرة ؟ قال : نعم ! قال : فماذا تقول لربك إذا لقيك ، فى تركك لهذا وعدم استعماله ؟ !

وقال فى ص ٢٨٧ وهو فى رسالة الشافعى ص ٤٥٠ :

وقال الإمام الشافعى رضى الله عنه فى رسالته « أخبرنى أبو حنيفة بن سماك ابن الفضل ، قال أخبرنى ابن أبى ذئب عن المقبرى عن أبى شريح الكعبى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال عام الفتح : « من قتل له قتيل فهو بخير النظرين : إن أحب أخذ العقل ، وإن أحب فله القود » ؛ قال أبو حنيفة فقلت لابن أبى ذئب : أتأخذ بهذا يا أبا الحارث ؟ فضرب بصدرى وصاح علىّ صياحا كثيرا ، ونال منى ، وقال : أحدثك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وتقول أتأخذ به ! نعم آخذ به ؛ وذلك الفرض علىّ وعلى من سمعه ، إن الله تبارك وتعالى اختار محمدا صلى الله عليه وسلم من الناس فهداهم به وعلى يديه ، واختار لهم ما اختار له ، وعلى لسانه ، فعلى الخلق أن يتبعوه طائعين أو داخرين ، لا مخرج لمسلم من ذلك . قال : وما سكت حتى تمنيت أن يسكت . ا هـ .

وقال العارف الشعرانى فى مقدمة ميزانه : قال الامام محمد الكوفى : رأيت الإمام الشافعى رضى الله عنه بمكة وهو يفتى الناس ، ورأيت الإمام أحمد واسحق ابن راهويه حاضرين ، فقال الشافعى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « وهل ترك لنا عقيل من دار » فقال اسحق روينا عن الحسن وإبراهيم أنهما لم يكونا يريانه ، وكذلك عطاء ومجاهد ! فقال الشافعى لإسحق : لو كان غيرك موضعك لفركت أذنه ! أقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتقول قال عطاء ومجاهد والحسن ؟ وهل لأحد قول مع قول رسول الله صلى الله عليه وسلم حجة ؟ بأبى هو وأمى !. اه

وقال ابن عبد البر فى كتابه جامع بيان العلم ـ الجزء الثانى ص ١٨٩ :

حدثنا محمد بن عبد الملك قال حدثنا ابن الاعرابى قال حدثنا سعدان بن نصر قال حدثنا سفيان بن عيينة عن هشام بن حجير قال : كان طاوس يصلى ركعتين بعد العصر فقال له ابن عباس : اتركها ، فقال : إنما نهى عنهما أن يتخذ سنة ، فقال ابن عباس : قد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن صلاة بعد صلاة العصر فلا أدرى أتعذب عليها أم تؤجر ، لأن الله تبارك وتعالى قال : « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم » الأحزاب ــ ٣٦ اه .

وقد رواها الإمام الشافعى بزيادة بيان فى رسالته ص ٤٤٣

أخبرنا مسلم وعبد المجيد عن ابن جريج أن طاوسا أخبره أنه سأل ابن عباس عن الركعتين بعد العصر فنهاه عنهما ، قال طاوس : فقلت له : ما أدعهما ؛ فقال ابن عباس : « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ، ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا » .

فرأى ابن عباس الحجة قائمة على طاوس بخبره عن النبى ، ودله بتلاوة كتاب الله على أن فرضا عليه ألا تكون له الخيرة إذا قضى الله ورسوله أمرا .

وطاوس حينئذ إنما يعلم قضاء رسول الله بخبر ابن عباس وحده ، ولم يدفعه طاوس بأن يقول : هذا خبرك وحدك ، فلا أثبته عن النبى ، لأنه يمكن أن تنسى . ا ه .

وقال أيضا ص ٤٤٦ :

أخبرنا مالك عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار أن معاوية بن أبى سفيان

باع سقاية من ذهب أو ورق بأكثر من وزنها ، فقال له أبو الدرداء : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ينهى عن مثل هذا ؛ فقال معاوية : ما أرى بهذا بأسا ! فقالى أبو الدرداء : من يعذرنى من معاوية ! أخبره عن رسول الله ويخبرنى عن رأيه ! لا أسا كنك بأرض !

فرأى أبو الدرداء الحجة تقوم على معاوية بخبره ، ولما لم ير ذلك معاوية فارق أبو الدرداء الأرض التى هو بها ، إعظاما لأن ترك خبر ثقة عن النبى .

وأخبرْنا أن أبا سعيد الخدرى لقى رجلا فأخبره عن رسول الله شيئا ، فذكر الرجل خبرا يخالفه ، فقال أبو سعيد : والله لا آوانى وإياك سقف بيت أبدا !

قال الشافعى : يرى أن ضَيِّقًا على المخبَر أن لا يقبل خبره ، وقد ذكر خبرا يخالف خبر أبى سعيد عن النبى ، ولكن فى خبره وجهان : أحدهما يحتمل به خلاف خبر أبى سعيد ، والآخر لا يحتمله .

أخبرنا من لا أتهم عن ابن أبى ذئب عن مخلد بن خفاف قال : ابتعت غلاما فاستغللته ، ثم ظهرت منه على عيب ، فخاصمت فيه عمر بن عبد العزيز فقضى لى بردّه وقضى على برد غلته ، فأتيت عروة فأخبرته فقال أروح اليه العشية فأخبره أن عائشة أخبرتنى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قضى فى مثل هذا أن الخراج بالضمان . فعجلت الى عمر فأخبرته ما أخبرنى عروة عن عائشة عن النبى صلى الله عليه وسلم . فقال عمر : فما أيسر على فى قضاء قضيته ، الله يعلم أنى لم أرد فيه إلا الحق ، فبلغتنى فيه سنة عن رسول الله ، فأرد قضاء عمر ، وأنفّذ سنة رسول الله . فراح اليه عروة ، فقضى لى أن آخذ الخراج من الذى قضى به علىّ له .

أخبرنى من لا أتهم من أهل المدينة عن ابن أبى ذئب قال : قضى سعد بن إبراهيم على رجل بقضية ، برأى ربيعة بن أبى عبد الرحمن ، فأخبرته عن النبى بخلاف ماقضى به ، فقال سعد لربيعة : هذا ابن أبى ذئب ، وهو عندى ثقة ، يخبرنى عن النبى بخلاف ما قضيت به ؛ فقال له ربيعة : قد اجتهدت ومضى حكمك ؛ فقال سعد : واعجبا ! أنفذ قضاء سعد بن أم سعد وأرد قضاء رسول الله ! بل أرد قضاء سعد بن أم سعد وأنفذ قضاء رسول الله ! فدعا سعد بكتاب القضية فشقّه ، وقضى للمقضى عليه . اه .

باب الأسئلة والفتاوى

موالاة المستعمرين خروج من الدين

جاء الى لجنة الفتوى بالجامع الأزهر الأستفتاء الآتى :

شعب طرابلس الغرب شعب عربى مسلم كان قد منى بعدوان الإيطاليين واستعمارهم حقبة من الزمن ، تخللها جهاد صادق من لدنه فى سبيل الشرف والحرية . ثم شاءت عدالة الله أن تكسر إيطاليا وتنفض يدها من هذه البلاد العربية المجاهدة ، ولكن شاءت الأقدار كذلك أن تزعم الدول الكبرى أنها صاحبة الشأن فى تقرير مصير هذه البلاد العربية ، وأنها ستختبر لذلك رغبة أهلها وتسألهم عن مطالبهم . وما من شك فى أن مطالب أهل هذه البلاد الاسلامية تنحصر فى التخلص من كل نفوذ أجنبى ، والتمتع بالحرية والسيادة الكاملتين تحت جناح الإسلام والعروبة .

فما حكم الشريعة الإسلامية على أفراد يدعون أنهم عرب مسلمون ، ويشذون فى الوقت ذاته عن ميول شعبهم المشروعة ، ويعلنون عن رغبتهم فى أن تتولى الإشراف على بلادهم حكومة أجنبية مستعمرة لا تصلها بالإسلام والعروبة صلة ؟

والمرجو أن تعلنوا رأى الشريعة فى هؤلاء الأفراد .

على رجب
رئيس حزب الاتحاد المصرى الطرابلسى

الجواب

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان الى يوم الدين .

أما بعد، فقد قال الله تعالى : « واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا » « ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم » . وقال تعالى « ومن يشاقق الرسول من بعد ماتبين له الهدى ويتّبعْ غير سبيل المؤمنين نولـه ماتولى ونصْـله جهنم وساءت مصيراً » « يأيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون » « يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا ، ودُّوا ماعَنِتّم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر ، قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون » . « لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم » . « يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان ، ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون . قل إن كان آباؤكم وأبناءكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكنُ ترضَوْنها أحبَّ اليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتىَ الله بأمره ، والله لا يهدى القوم الفاسقين » .

هـذه الآيات وغيرها من القرآن الكريم ، أوجب الله بها على المؤمنين أن يعتصموا بحبله المتين ، وأن يتحدوا فيما بينهم على حفظ دينهم وتركيز سلطته وإقرار كلمته ، ونهاهم عن الاختلاف والتفرق ، وحذرهم عاقبة ذلك من الفشل وذهاب الريح وتلاشى السلطان .

ولما كانت موالاة بعض المؤمنين لغيرهم من أعداء الدين سبيلا للتفرق ، وخروجا على وحدة المسلمين ، وسببا للفتنة ، عنى القرآن فى غير آية بنهى المؤمنين عن اتخاذهم أولياء من الكافرين ، يلقون إليهم بالمودة ، ويعملون معهم على ما يمكنهم من تحقيق أغراضهم من التسلط على المسلمين وإضعاف شوكتهم فى بلادهم ؛ وقرر أن هذا الصنيع مشاقة لله ولرسوله ، واتباع لغير سبيل المؤمنين ، الذى هو الوحدة والاعتصام بحبل الله ، واعتبره خيانة لله وللرسول ، وخيانة للأمانات التى ناط الله رعايتها بالمؤمنين ؛ وقرر أن هذا الصنيع أيضا لا يمكن أن يوجد مع الايمان بالله واليوم الآخر ، وأن دعوى الإيمان ممن يخرج على أمته

ويعاون من حاد الله ورسوله ، دعوى كاذبة لا قيمة لها عند الله ، ولا وزن لها عند جماعة المؤمنين .

هذا ماتدل عليه هذه الآيات الواضحة ، وبها كان الاتحاد بين المسلمين من أعظم الواجبات الدينية عليهم ، وكان الاختلاف والتفرق من أكبر ما نهى الله عنه ، وكانت موالاة الأعداء والتعاون معهم فيما يضر المسلمين ويزلزل سلطانهم ، بابا من أبواب الكفر والخروج من الدين .

وفى ضوء هذا الأصل الذى يقرره القرآن الكريم للاحتفاظ بالكيان الاسلامى، نستطيع أن نقرر أن هؤلاء الأفراد الذين يدعون أنهم عرب مسلمون ويشذون فى الوقت ذاته عن ميول شعبهم المشروعة فى التخلص من كل نفوذ أجنبى ، والتمتع بحريتهم وسيادتهم الكاملتين ، ويعلنون عن رغبتهم فى أن تتولى الاشراف على بلادهم حكومة أجنبية مستعمرة لاتصلها بالاسلام والعروبة صلة ؛ نستطيع أن نقرر أنهم يخرجون بذلك على الدين ، ويفرقون كلمة المسلمين ، ويحدثون الفتن التى يتذرع بها أرباب الاستعمار ويدخلون بها بلاد الاسلام ، فيغتصبون حقوقهم المشروعة ، ويبدلون عزتهم ذلة ومهانة ، وقوتهم ضعفاً واستكانة .

وقد صرح القرآن بأن أمثال هؤلاء لا ينجيهم من الوعيد الشديد ما يدعونه من أنهم يتحامون بذلك شرا قد ينزل بهم ، أو يتوخون مصلحة تصل اليهم ؛ وقرر أن ذلك ليس إلا انتحالا لأعذار موهومة ، وارتكانا لشبه باطلة يزينها ضعف الإيمان وابتغاء عرض الحياة الدنيا ، ويقول فى شأنهم ـ بعد النهى عن اتخاذ اليهود النصارى أولياء ، وبعد تقرير أن من يتولاهم ملحق بهم ومعدود منهم ـ يقول « فترى الذين فى قلوبهم مرض يسارعون فيهم ، يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة ، فعسى الله أن يأتى بالفتح أو أمر من عنده ، فيصبحوا على ما أسروا فى أنفسهم نادمين » .

هـــذا هو حكمهم عند الله وفى نظر الدين . وترى اللجنة بعد هذا أن الدين يوجب على المسلمين عامة وعلى مسلمى طرابلس خاصة ، أن يكافحوا هذا الصنف من الناس الذى منيت به الشعوب الإسلامية فزعزع سلطانها وأطمع الأعداء

فيها ، فأخذوا ينتقصونَ أرضهم من أطرافها ، ويدخلون عليهم من كل باب ، حتى صارت بلاد المسلمين طعمة للآكلين ، وغرضا للمستعمرين .

ولو أن المسلمين تنبهوا الى هـــذا الواجب ، وكافحوا هذا الوباء الاجتماعى الذى نبت فيما بينهم ، وطهروا بلادهم من جراثيمه ، لاحتفظوا بعزتهم وسلطانهم ، ولتمتعوا بحريتهم وسيادتهم ، ولـكان لهم ذلك المجد الذى تقلص عنهم بموقف أمثال هؤلاء الخونة الآثمين . « ولتـكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون المعروف وينهون عن المنكر ، وأولئك هم المفلحون » والسلام على من اتبع الهدى .

المرأة بين طاعة الزوج والوالد

جاء الى لجنة الفتوى بالجامع الأزهر الاستفتاء الآتى :

الزوجة فى عصمة زوجها هل لوالدها حكم عليها ؟ وأيهما ـ أى الزوج والأب ـ أحق بالطاعة إذا كانت الزوجة فى زيارة عند أهلها وأمرها زوجها بالسفر معه وأبى والدها ؟ نرجو الإفادة . يونس محمود شعراوى

الجواب

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان الى يوم الدين .

أما بعد ، فقد اطلعت اللجنة على السؤال ، وهى تفيد بأنه قد سئل شيخ الاسلام ابن تيمية فى امرأة تزوجت وخرجت عن حكم والديها فأيهما أفضل : برها لوالديها أو مطاوعة زوجها ؟ فأجاب رحمه الله بما خلاصته :

إن المرأة إذا تزوجت كان زوجها أملك لها من أبويها ، وطاعة زوجها

عليها أوجب ؛ قال الله تعالى : « فالصالحات قانتات — أى مطيعات لله ولرسوله ولأزواجهن — حافظات للغيب بما حفظ الله » . وقال النبى صلى الله عليه وسلم : « الدنيا متاع وخير متاعها المرأة الصالحة ، إذا نظرت إليها سرّتك ، وإذا أمرتها أطاعتك ، وإذا غبت عنها حفظتك فى نفسها ومالك » . وقال عليه الصلاة والسلام : « إذا صلت المرأة خمسها ، وصامت شهرها ، وحصنت فرجها ، وأطاعت بعلها ـ دخلت من أى أبواب الجنة شاءت » . وقال عليه الصلاة والسلام : « لو كنت آمرا أحدا أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها » وبلفظ آخر « لأمرت النساء أن يسجدن لأزواجهن لما جعل الله لهم عليهن من الحقوق » إلى غير ذلك من الأحاديث التى أوردها رحمه الله . إلى أن قال : فليس للمرأة أن تخرج من منزل زوجها إلا بإذنه سواء أمرها أبوها أو أمها أم غير أبويها باتفاق الأئمة . وإذا أراد الرجل أن ينتقل بها إلى مكان آخر مع قيامه بما يجب عليه وحفظ حدود الله فيها ، ونهاها أبوها عن طاعته فى ذلك ، فعليها أن تطيع زوجها دون أبويها ؛ فإن الأبوين هما ظالمان ليس لهما أن ينهياها عن طاعة مثل هذا الزوج . أما إذا أمرها أبواها أو أحدهما بما فيه طاعة لله مثل المحافظة على الصلوات وصدق الحديث أو أداء الأمانة ، ونهياها عن تبذير مالها أو إضاعته ونحو ذلك مما أمرها الله ورسوله ، أو نهاها الله ورسوله عنه ، فعليها أن تطيعهما فى ذلك ولو كان الأمر من غير أبويها ، فكيف إذا كان من أبويها ؟ .

كذلك إذا نهاها الزوج عما أمر الله أو أمرها بما نهى الله عنه ، لم يكن لها أن تطيعه فى ذلك ؛ فان النبى صلى الله عليه وسلم قال « إنه لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق » . وليس للمرأة أن تطيع زوجها أو أحد أبويها فى معصية الله ، فإن الخير كله فى طاعة الله ورسوله ، والشر كله فى معصية الله ورسوله .

ومن هذا يعلم أن حق الزوج أعظم ، وطاعته أوجب ، فيما تجب الطاعة فيه مما ليس بمعصية الله ورسوله . والله سبحانه وتعالى أعلم ؟

رئيس لجنة الفتوى

عبد المجيد سليم

خدم البيوت

لفضيلة الأستاذ الشيخ ابراهيم أبو الخشب
المدرس بمعهد القاهرة

على الرغم من أن الدين الإسلامى يوصى بمعالى الأمور، ويبغض فى سفسافها وينكر على الناس أن يتنزلوا فى سلوكهم، فإننا نرى أن ضرورة العيش تقضى فى بعض الأحايين أن يكون هنالك تفاوت فى درجات الأشخاص ومراتبهم، لحاجة اختلاف الأوضاع والمنازل . . . وليس فى ذلك كله من ضرر ولا غبن، حيث إن الدافع إليه ما يحتمه واجب المعونة العمرانية، الذى توصى به نواميس هذا الكون، وقد أقامه سبحانه على أساس تبادل المنافع، والإنسان مدنى بالطبع — كما يقول ابن خلدون — لأنه لا يمكنه أن يكون طبيبا ومهندسا ونجارا وبناء وطاهيا وخبازا وغير ذلك فى آن واحد ليكتفى حاجته بنفسه، ويقوم بأموره دون احتياج إلى سواه . . . .

والخدمة فى البيوت من المشاكل الاجتماعية التى تستوجب من المصلحين أن يولوها شيئا من عنايتهم، وليس ذلك من ناحية إعدادهم لمباشرة هذه المهنة، والقيام بها على أكمل الوجوه وأحسنها . . وإن كانت الأمم الراقية تعد لهم المدارس ليتخرجوا منها أساتذة فى فن الخدمة، وليتوفروا على سعادة المنزل، وإحاطته بأسباب الرفاهة والسرور، ولكن من ناحية أخرى هى ناحية وضع الحد اللائق بما يصح أن يكون بينهم وبين مخدوميهم من وشائج صحيحة، وصلات قوية، يمكن بها أن يتوفر هدوء الخاطر — على الأقل — بين طرفين تمس نظم الحياة إلى ارتباطها.

ولعل وزارة الشئون أحست بذلك كله فخطت إليه بعض الخطوات، وهى وإن لم تكن كل ما يجب أن يكون، إلا أنها بعض ما كان يجب أن يكون؛ لأنها تتناول ناحية خاصة هى الاحتفاظ بالحقوق المدنية للخادم.

والقرآن الكريم يعنى بهذه المشكلة بشكل أشمل وأوسع « والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق فما الذين فضلوا برادى رزقهم على ما ملكت أيمانهم فهم فيه سواء أفبنعمة الله يجحدون » والمفسرون يقولون إن المراد بما ملكتهم الأيمان فى الآية ، العبيد والخدم ، وكأنه تعالى لم يجعل هذا التفضيل إلا للابتلاء والامتحان ، وإلا فالناس كلهم لآدم ، وآدم من تراب ، لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى . . والأجدر بالمخدومين أن يردوا فضل رزقهم على خدمهم فهم فيه سواء ، حتى لا يكون هذا جحودا لنعمة الله عليهم ، وكفرنا بايثاره إياهم .

سبحان من لوشاء سوّى بيننا وأدال منك فقد أطلت عذابى !

وكان صلى الله عليه وسلم يردف غلامه معه على الدابة ، ويوصيه وينصحه ويخاطبه خطابا لا يشعره معه بالذلة والمهانة ، ويقول « إخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم ، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يطعم ، وليلبسه مما يلبس . . . ولا تكلفوهم من العمل ما لا يطيقون » وهو لا يرضى أن تقوم تلك الصلة على غير الأخوة والمساواة فى الحقوق والمعاملة . فأين ذلك كله مما نحن عليه اليوم ؟ لا يكاد يمر يوم من الأيام لا نسمع فيه بحوادث إجرامية يندى لها وجه الكرامة والأخلاق ، مما يدل على أن الارتباط بين أرباب البيوت والخدم لم تعد شعرة من شعراته متماسكة تماسك الاتصال التام على الائتلاف والحب . والسبب فى هذا لا يرجع إلى ضن الأسياد بالأجرة ، وشحهم بأن يستوفوا الخدم حقوقهم كاملة غير منقوصة فحسب ؛ إنما هو يرجع — مع هذا — إلى سوء المعاملة . وكأن تلك الوصية التى وردت فى الحديث « فمن كان أخوه تحت يده الخ » كانت تنبؤاً بما سيكون ! . فان الذى نعرفه أن كثيرا من المخدومين جروا على هذا السنن ؛ لا يؤكلون خدمهم إلا من أكل الكلاب ، كما لا يلبسونهن إلا بالى الثياب . أما المبيت فحدث عنه ولا حرج . افتراش للغبراء ، والتحاف بالسماء ، فوق سطح البيت ، أو الطابق السفلى منه . وقد ثبت أن سوادا عظيما من مرضى الأمراض الصدرية من هؤلاء الذين أعوزتهم رحمة الرحماء ، وتخلت عنهم عدالة القضاء ، وفقدوا من دنياهم أسباب الهناء ، وهكذا تودى بالمجتمع عوامل الهدم ، ومعاول الفتك والتدمير .

ولا أزيدك معرفة بكلمة « يا ولد ياخدام » تلك التى لا يلذ لصاحبه أن يخاطبه بغيرها حين يطلب منه أن يجىء أو ينصرف، وربما كان مؤدبا معه إذا كان من أولئك الذين يكتفون بها دون أن يردفوها بكلمات أخرى من كلمات المهانة والتحقير . . .

ومن المخجل المؤسف أن بعضا ممن يعاملون الخدم بهذه العنجهية الخلقية يبيحون لهم أن يخالطوا نساءهم وبناتهم بحجة أنهم خدم ، وأن ذل الخدمة يكسر من شرتهم ويطفىء من حميتهم ، ويسكن من لوعتهم ، فلا تحدثهم نفوسهم بشر ، ولا يدور بخواطرهم سوء . فإذا قلت لهم إن الدين يحرم هذا السلوك ، قالوا ضرورة العمل ، وذل الخدمة ، وأقاموا لك ألف دليل ودليل على أن « هذا الولد » مؤدب وابن حلال . ! ! وأن بيوتهم لا تحتوى إلا ملائكة لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون . . . وأحب أن يتدبر أرباب « البيوت » هذه المسألة على الخصوص ، مسألة « فوضى الاختلاط » القائمة بين الخدم — بنين وبنات — وبين نسائهم وأبنائهم ، فإنى كنت أريد أن أجعل منها وحدها موضوعا لولا أنى خفت أن أكون قاسيا ، وليس من حصافة الواعظ ، ولا من لباقة المصلح ، أن يعالج الأمور بالقسوة ، أو يداوى العلل بالعنف . . . ووددت لو يرجع المسلمون الى كتاب الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، فإنه ما ترك فى ذلك صغيرة ولا كبيرة إلا بينها ، وأوضح معالمها ، وجعلها كالشمس حين ترسل أشعتها على هذا الكون فتضفى عليه النور والضياء . . . وإذا كان بعد هذا من زيادة فى موضوع « خدم البيوت » فهو أن يفهم جماعة الأرستقراطيين أن الدين لا يعترف بنظام الطبقات ، ولا يفرق بين اليد العليا واليد السفلى ، إلا بمقدار ما يرغب فى الفضل ويحبب فى المزيه ، حثا للهمم ، واستنهاضا للعزائم ، وذهابا للخمول الى حيث لا يكون فى نفوس المسلمين « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين » . وأن الضرورة الاجتماعية هى التى جعلت هذا التفريق فى المنازل ، فإذا خادم ومخدوم ، وآخذ ومعط . . .

والناس للناس من بدو وحاضرة بعض لبعض وإن لم يشعروا خدم

ذكرى مرور خمسين سنة

الشيخ جمال الدين الأفغانى

مصلح دينى وزعيم سياسى

لحضرة الأستاذ محمود الشرقاوى

فى اليوم التاسع من شهر مارس الماضى يتفق مرور خمسين سنة على وفاة جمال الدين الأفغانى .

ومن حق الأزهر على نفسه ، ومن حقه على أهله وعلى نهضته المرجوة ، أن يدرس وأن يطيل الدرس ، وأن يتأمل فيطيل التأمل ، فى حياة هذا النفر القليل من الأبطال الذين أهابوا بالحياة الدينية أن يفيق أهلها مما كانوا فيه من فتور يشبه الموت ، ومن تزمت يشبه الجمود ، ومن سكون يشبه العدم ، ومن وقوف بهذه الحياة الدينية عند ما انتهت إليه فى أيام لم تكن أزهر الأيام لهذه الحياة الدينية ، ولا أقواها على الإنتاج ، بل لعلها أبعد ما تكون عن الإنتاج المفيد ، وعن القوة أو القدرة على التفكير المستقيم والفهم السليم ، أو عن قبول هذا التفكير المستقيم ، لو أنه وجد ممن يقدر عليه فى عصرهم أو فى غير عصرهم .

ومن هؤلاء الأبطال القليلين الذين أهابوا بهذه الحياة الدينية أن يخرج بها أهلها من هذا الضيق والتزمّت : جمال الدين الأفغانى ، الذى كان زعيما سياسيا ومصلحاً دينياً ، والذى لقى ربه بعد حياة كلها كفاح وجهد فى يوم ٩ مارس من سنة ١٨٩٧ .

ولو أننا سألنا عما ألفه السيد جمال الدين من كتب أو نشر من أبحاث أو ألقى من خطب ، ما وجدنا شيئاً ذا قيمة ، فكيف بالذى يجعل صاحبه مصلحا وزعيما ! .

سنعرض فى حديثنا عن حياة الأفغانى إلى كتيبه الذى سماه «الرد على الدهريين»

وإلى بعض خطبه وما كتبه بالاشتراك مع الشيخ محمد عبده فى مجلة « العروة الوثقى » التى أصدرها فى باريس ؛ سنعرض لهذا ولهذا فلا نجد فيه شيئا ذا قيمة يصح أن يقال بسببه : إن جمال الدين مصلح دينى أو زعيم سياسى .

ولكن جمال الدين لم يكن مصلحا وزعيما بكتبه أو محاضراته ومقالاته ؛ بل كان زعيما مصلحا بسيرته وحياته ، وشخصه وخلقه ، وكفاحه وإخلاصه لفكرته ؛ وسنجد فيما نترجم به للسيد من هذه الصفحات أنه لم يكن مصلحا دينيا وزعيما سياسيا فقط ، بل هو صاحب الفضل الأول والأكبر فى هذه النهضة الدينية والسياسية والاجتماعية فى هذا الشرق الحديث .

* * *

فى إقليم «كنر» من بلاد الأفغان ، وعلى بعد ثلاثة أيام بسير الأبل من عاصمتها كابل ، ولد للسيد «صفتر» فى قرية «أسعد أباد» ولد سماه محمدا جمال الدين ، والسيد صفتر هذا هو أحد أفراد عشيرة قوية كبيرة النفوذ كثيرة العدد ، تمتلك مساحات واسعة من الأراضى الزراعية ، ويتصل نسبها بالإمام الترمذى ، ثم ترتقى بالنسب الى الإمام الحسين بن على ، رضى الله عنه .

وكانت ولادة هذا الطفل فى سنة ١٢٥٤ هـ [١٨٣٩] ميلادية ، وعند ما بلغ هذا الطفل الثامنة من عمره كانت الفتن والحروب الداخلية بين الأسرة المالكة فى الأفغان قد أطاحت بثروة هذه العشيرة القوية الكبيرة حيث جردها الأمير « دوست محمد » من أملاكها بعد أن تغلب على أخيه الذى كانت هذه العشيرة تعينه وتؤيده . ثم أمر « دوست محمد » بعد ذلك باخراج هذه العشيرة من إقليمها ، وأن تنقل إلى كابل وفيها السيد صفتر وابنه الصغير ، وبقى جمال الدين فى كابل يدرس العلوم الشرعية والعقلية والتاريخ ، ويدرس إلى جانبها قليلا من الطب والتشريح وشيئا من العلوم الرياضية ، فاستوعب قسطا كبيرا من هذه العلوم كلها فى عشر سنين ، ثم انتقل إلى الهند فأقام بها أكثر من سنة يشتغل ببعض علوم الرياضة على طريقة أوروبية ، وسافر بعد ذلك للحجاز ليحج ولكنه بقى يطوف فى بلاد الحجاز حتى دخل مكة بعد عام [١] .

---

[١] سنة ١٢٧٣ هـ .

ثم عاد جمال الدين بعد هذه الدراسة وهذه المعرفة إلى وطنه فتولى وظيفة فى حكومته ، وبهذه الوظيفة اتصل بدوست محمد الذى أجلى عشيرته عن وطنهم وجردهم من أملاكهم ، فأحبه هذا الأمير وأعجب به ، واستصحبه معه فى جيشه الذى سيره لفتح « هراة » ولكن هذا الأمير مات على أبواب المدينة ، ثم فتحت بعد موته .

ودارت الفتنة بعد وفاة « دوست محمد » واتسعت رقعتها ، وشبت نارها بين إخوة أربعة حتى استتب الأمر لمحمد أعظم ، وكان الشاب جمال الدين يعينه على إخوته . فرفع هذا الأمير منزلة جمال الدين وأكبر شأنه واعتمد عليه فى كل أمر حتى جعله كرئيس وزراء . وأخلص جمال الدين لأميره حتى كاد أن يدين بالطاعة له جميع من فى الأفغان ؛ ولكن الحرب قامت مرة أخرى بين القبائل وبين الطامعين فى الملك ، حتى تغلب « شير على » على ابن أخيه محمد أعظم ، فهرب هذا ، ثم مات بعد أشهر فى نيسابور .

توجس جمال الدين بعد ذلك من شير على وخشى غدره ، وكان هذا الأمير الجديد يخشى أن يمس جمال الدين بسوء لمكانة عشيرته واحترام العامة له بسبب نسبه ، ولكن جمال الدين استصوب أن ينجو بنفسه من هذه الفتنة ، فاستأذن الأمير فى أن يحج ، فأذن له على شرط ألا يمر بإيران حيث كان الأمير المهزوم محمد أعظم لما يمت بعد فيها ، فارتحل جمال الدين الى الهند ، واستقبلته حكومتها بحفاوة فيها من الحذر والحيطة أكثر مما فيها من الاحترام والمحبة ، حتى إنها لم تسمح له بطول الاقامة فى الهند ، ومنعت العلماء من الاجتماع به إلا على أعين من رجالها . وبعد شهور أخرجته حكومة الهند من شواطئها ونقلته على مركب لها وعلى نفقتها الى السويس ، ومنها قدم الى القاهرة فأقام فيها أربعين يوما ، والتقى به فيها جمع من السوريين الذين يطلبون العلم ، وطلبوا أن يقرأ لهم شرح « الأظهار » فقرأ لهم بعضا منه فى بيته ، وفى هذه الأيام القليلة التى أقامها جمال الدين فى القاهرة تردد على الأزهر وعرف بعضا من طلاب العلم فيه .

ثم حوّل جمال الدين عزمه من السفر إلى الحجاز فتوجه إلى الآستانة ، وبعد

أيام من وصوله إليها أمكنته ملاقاة عالى باشا الصدر الأعظم ، فأحبه وأكرمه وأقبل عليه ، ثم لقى بعد ذلك عددا كبيرا من رجال الدولة ، فأحبه بعضهم وخشيه بعضهم ، وأعجب به أكثرهم ، ولقى فيمن لقى بالآستانة رياض باشا وزير اسماعيل ورسوله إلى الباب العالى .

ونعتقد أن هذه الفترة من حياة جمال الدين التى قضاها فى عاصمة الدولة العثمانية كانت من الفترات الحاسمة فى تاريخ جمال الدين وتكوين شخصيته وبروز اسمه فى البلاد الإسلامية وخاصة تركيا ومصر ، فقد تناقل الناس الثناء عليه ، وذكروا علمه ودينه وأدبه ، حتى عين بعد ستة شهور من قدومه الآستانة عضوا فى مجلس المعارف .

ولكن هذا الصفو والاستقرار لم يدوما للسيد الأفغانى ؛ فقد نصح له المخلصون من خاصته أن يفارق الآستانة بضعة شهور ثم يعود ، فخرج منها غاضبا محنقا ، ثم قصد إلى مصر مرة أخرى ليروح عن نفسه ، ولكن رياضا حبب إليه البقاء فى مصر واستماله للاقامة فيها فمال . وأجرى عليه رياض رزقا فى كل شهر حتى يسهل له سبل العيش .

ويذكر مؤرخو السيد قصصا مختلفة عن سبب خروجه من الآستانة بعد ما نال فيها من الحظوة ، فيقال إنه بعد إقامته فيها اتصل بحزب « تركيا الفتاة » « جون تورك » الذى كان يعمل ضد الخلافة فغُضب عليه لذلك . ويقال إنه التقى مرة برياض باشا فأسخطه السيد وأغلظ له القول فى مجلس حافل من وجوه الدولة . ولكنا قد رأينا أن رياضا هو الذى استمال السيد بعد خروجه للبقاء فى مصر لعرفانه فضله ؛ فنحن نستبعد هذه الرواية من إغلاظ الأفغانى لرياض .

ويروى الشيخ محمد عبده قصة طريفة طويلة عن خلاف قام فى الآستانة بين السيد وبين شيخ الاسلام حسن أفندى فهمى ، وقد شغل هذا الخلاف صحف الآستانة وأهلها ، وسلط شيخ الاسلام الوعاظ على أن يسفهوا الشيخ ويطعنوا عليه حتى طلب جمال الدين أن يحاكم شيخ الاسلام . ثم نصح له المخلصون من خاصته أن يفارق الآستانة فترة ، فنزح إلى مصر حيث استبقاه رياض للإقامة فيها ، فأقام .

نزل جمال الدين مصر فى شهر المحرم سنة ١٢٨٨ [١] ، وكان يعرفها من قبل قليلا ، ولكنه فى هذه المرة اندمج فى حياتها الأدبية والاجتماعية ، وتردد على دار ابراهيم بك المويلحى ، وكانت قائمة فى حارة الأمير حسين بشارع محمد على ، وهى فى ذلك الوقت ندوة المفكرين والعظماء والقادة ، فلما أجرى عليه رياض باشا رزقا شهريا عشرة جنيهات مقابل بقائه فى مصر ولو لم يؤد عملا ، استأجر منزلا فى حارة اليهود [٢] .

يقول الشيخ محمد عبده : إن طلاب العلم عرفوا الأفغانى عند ذلك و « اهتدوا اليه واستوروا زنده فأورى ، واستفاضوا بحره ففاض درا ، وحملوه على تدريس الكتب فقرأ من الكتب العالية فى فنون الكلام الأعلى والحكمة النظرية طبيعية وعقلية ، وفى علم الهيئة الفلكية وعلم التصوف وعلم أصول الفقه الاسلامى ، وكانت مدرسته بيته من أول ما ابتدأ إلى آخر ما اختتم » .

فى هذه المرة بقى جمال الدين فى القاهرة فترة أطول ، وهى الفترة التى كون فيها جماعته ، وأسس مدرسته الذهنية ، وثبت فيها دعوته الاصلاحية ، واتصل بتلميذه وصفيه الشيخ محمد عبده .

بقى الشيخ جمال الدين يدرس ويدعو دعوته الإصلاحية ، ويشارك فى كل أمر ذى خطر من حياة مصر فى ذلك العهد أكثر من ثمانى سنين ، أريد فيها أن يُنشأ للماسون محفل فى مصر ، فأيد السيد إنشاء هذا المحفل ، وحبذه وشارك فيه ، فتألبت عليه الخصوم ، وكان قنصل انجلترا واحداً من هؤلاء الخصوم ، وكذلك كان كثيرون يخشون دعوة جمال الدين وفكرته الاصلاحية ، ويرون فيه وفى دعوته خطراً ، فاتفق هؤلاء وهؤلاء وسعى قنصل انجلترا حتى نفى الشيخ من مصر هو وتابعه أبو تراب من غير محاكمة ، وأخرج من مصر فى سنة ١٢٩٦ هـ [٣] فقصد إلى الهند مرة أخرى .

---

[١] ٢٢ مارس سنة ١٨٧١

[٢] فى خان أبو طاقية .

[٣] أغسطس سنة ١٨٧٩

الصوفية المسلمون

لفضيلة الأستاذ نور الدين شريبه
خريج كلية اللغة العربية

هذا كتاب ألفه الدكتور رينولد . ا . نيكلسون ، وهو على صغر حجمه جم الفائدة للذين يتوخون دراسة الصوفية . والمؤلف غنى عن التعريف ، فهو حجة فى هذه الناحية من الدراسة الاسلامية ، قصر عليها حياته باحثا وناشرا ، وهو على ما له من مخالفة لوجهة النظر الاسلامية — سنلتزم الرد عليها — أقرب المستشرقين الى الإنصاف ، وأعمقهم فى هذه الناحية من الدراسات الاسلامية .

نور الدين

مقدمة :

يبين عنوان هـذا الكتاب بيانا كافيا ، السببَ الذى من أجله احتوته سلسلة تمثل الجهـود والأخطار التى يلقاها أفراد الباحثين وجماعاتهم فى الكشف عن الحقيقة .

والصوفية Sùfism — فلسفة الاسـلام الدينية — قـد وصـفت فى أقدم تعريف موجـود بأنها « إدراك الحقائق الربانية » . والصوفية المسلمون ولعون أن يسموا أنفسهم « أهل الحق [1] » .

وحين أعرض أصـول مذاهبهم — على هـذا الوجه من الرأى — سوف

(١) (الحق) لفظ كثيرا مايدور على ألسنة الصوفية يشيرون به الى [الله]

أعتمد الى حد ما على ما جمعته خلال الأعوام العشرين السالفة من مصادر لتاريخ جامع للتصوف الاسلامى . وهو موضوع واسع الأطراف ، متعدد الجوانب ، يحتاج الى المجلدات الضخمة للكشف عن حقيقته فى إنصاف .

وليس فى طوقى هنا إلا أن أرسم هيكلا عاما لبعض القواعد والطرق ، والخصائص المميزة للحياة الروحية كما عاشها مسلمو كل طائفة ومرتبة ، منذ القرن الثامن الميلادى الى وقتنا الحاضر .

وإن الدروب التى سلكوها لشاقة ؛ وإن ما تؤدى اليه من النجاد لمظلم محير ، قد عدمت فيه الصُّوى . ومع ذلك فان لم نأمل أن نصحب السَّفْر إلى غاية رحلتهم ، فان معرفةً نجمعها عن وسطهم الدينى وتاريخهم الروحى ، لا بد أن تساعدنا على فهم الرياضات النفسية الغريبة التى كتبوا عنها .

ومن هنا أود قبل كل شىء أن أقدم ملاحظات قليلة على أصل الصوفية ، ونموها التاريخى ، وصلتها بالاسلام ، وصفتها العامة .

وليست هذه الأمور نافعة لدارس علم (الأديان المقارن Comparative Religion) وحده ، بل إن شيئاً من العلم بها لا غنى عنه ألبتة لدارس الصوفية نفسها دراسة جد . ولقد يقال إن الرياضات الصوفية جميعها تلتقى عند نقطة واحدة وذلك حق ؛ بيد أن هذه النقطة عينها تتخذ وجوها واسعة الاختلاف تبعاً لديانة الصوفى ، وسلالته ، ومزاجه ؛ كما أن الخطوط التى تجتمع حول هذه النقطة تتباين تبايناً عظيما ، لا حد لتنوعه . والأنواع الكبرى من التصوف ، وإن كان بينها شىء من الشبه فى العموم ، كل منها مميز بخصائص خاصة ، نتجت من الظروف التى منها نشأ ، وفيها ترعرع ؛ وكما أن النوع المسيحى لا يمكن أن يُفهم دون الإشارة إلى المسيحية ، فكذلك النوع الاسلامى لا بد أن يبحث متصلا بالنمو الخارجى والداخلى للإسلام :

وكلمة (Noldeke) التى انحدرت من الديانة الأغريقية إلى الآداب الأوربية ، يقابلها فى العربية والفارسية والتركية — لغات الاسلام الثلاث الرئيسية — كلمة (صوفى) . واللفظان على كل حال ليسا مترادفين تماما ، لأن للفظة (الصوفى) مدلولا دينيا خاصا .

وقد قيدها الاستعمال بالصوفية الذين يدينون الدين الاسلامى . والكلمة العربية ، وإن اكتسبت على مدى الأيام مدلول الكلمة الإغريقية الرفيع : شفاه مقفلة بالأسرار القدسية ، وعيون مغمضة على النشوة الحالمة ، إلا أن مدلولها كان متواضعا يوم جرت على الألسنة لأول مرة حوالى سنة ٨٠٠ م (حوالى نهاية القرن الثانى الهجرى) .

واشتقاقها لا يزال حتى الآن موضع خلاف . فأكثر الصوفية يشتقونها — غير عابئين بقواعد التصريف — من أصل عربى هو (الصفاء) .

ومعنى هذا أن يكون الصوفى « هو الصافى القلب » أو هو « المصطفى » . وبعض الباحثين من الأوربيين يردها إلى الكلمة الإغريقية سوفوس ، ومعناها « ثيوصوفى » . ولكن « نولدكه Noldeke قطع - فى مقال نشر منذ عشرين عاما - أن الكلمة مشتقة من (الصوف) ، وأنها كانت فى الأصل موضوعة لزهاد المسلمين الذين تشبهوا بالرهبان المسيحيين فى ارتدائهم غليظ الصوف ، دليل ندمهم على ما أسلفوا ، وعلى اطراحهم متاع الحياة الدنيا .

والصوفية الأولون كانوا فى الواقع زهادا وادعين أكثر منهم متصوفة . فإدراكهم المستولى عليهم للخطيئة ، تصحبه الرهبة من يوم القيامة وعذاب النار ؛ تلك الرهبة التى ليس فى طوقنا أن نتحققها ، والتى صورت فى القرآن تصويراً حيا ، دفعتهم الى أن يجدوا فى الهرب من الدنيا خلاصا لهم . وينذرهم القرآن من جهة أخرى أن الخلاص يتوقف أساسا على مشيئة الله الخفية التى تهدى المهتدى سواء السبيل ، وتضل الضالين عن القصـــد القويم ، وأن حظهم قد رقم فى الألواح الخالدة - ألواح عناية الله - لا يستطيع شىء لها تبديلا . فيجب أن يعلم أنه إذا قدر لهم أن ينجيهم صومهم ، وصلاتهم ، وما يأتون من أعمال الخير ، فهم لابد ناجون . واعتقاد كهذا لابد أن ينتهى الى التأمل فى الله ، والخضوع المطلق للمشيئة الربانية . وتلك ميزة من ميزات التصوف فى أقدم صوره .

وقد كان المعين الأصيل للحياة الدينية الإسلامية خلال القرن الثامن الميلادى - الثانى الهجرى - هو الخوف : الخوف من الله ، والخوف من جهنم ، والخوف من الموت ، والخوف من الخطيئة . على أن الدافع المناقض له كان

قد بدأ يظهر تأثيره ؛ وجعل من ولية الله رابعة - على الأقل - مثلا ملحوظا لإنكار الذات الصوفى الحق .

ومن هنا لم يكن ثمة فرق كبير بين الصوفية وبين المتشددين من المسلمين السنيين ، إلا أن الصوفية يجعلون لبعض مذاهب القرآن أهمية خاصة ، وينمونها على حساب غيرها من المذاهب التى يعتبرها كثير من المسلمين متساوية الأهمية .

ولا بد كذلك من القول بأن حركة الزهد استلهمت المثل العليا المسيحية ، وكانت شديدة التعارض مع روح الاسلام المرحة النشيطة . والنبى فى حديث مشهور قد رفض تقشفات الرهبانية ، وأمر قومه أن يحبسوا أنفسهم على الجهاد فى سبيل الله ، وجعل من نفسه — كما هو معروف — أصدق الأمثلة على تحبيذ الزواج . وتحريمه للبتولة وإن لم يخل من تأثير فإن فتح خلفائه لفارس وسوريا ومصر قد وصل المسلمين بأفكار عدلت نظرتهم إلى الحياة وإلى الدين تعديلا عميقا .

والقارئون للقرآن من الأوربيين لا تعوزهم الدهشة من اضطراب مؤلفه وعدم تماسكه فى معالجة كبار المعضلات ؛ وهو نفسه لم يكن عالما بهذه المتعارضات ولم تكن حجر عثرة فى سبيل صحابته الذين تقبل إيمانهم الساذج القرآن على أنه كلام الله . ولكن الصدع من هنا كان . وسرعان ما أظهر نتائج بعيدة الآثار . من هنا قامت (المرجئة) الذين يضعون الإيمان فوق الأعمال ويؤكدون الحب فى الله وحسن السيرة . و (القدرية) الذين يؤكدون أن الانسان مسئول عن أعماله . و (الجبرية) الذين ينكرون ذلك . والمعتزلة الذين أنشأوا علم الكلام مؤسسا على قواعد العقل وأنكروا صفات الله لأنها لا تتفق ووحدانيته ، والقضاء الأزلى لأنه لا يتفق وعدله . ثم (الأشاعرة) أخيرا متكلمو الإسلام الجدليون الذين صاغوا النظام الدينى والغيبى (الميتافيزيقى) الذى يقوم عليه مذهب أهل السنة إلى الوقت الحاضر .

تعليق :

يقيم الأستاذ نيكلسون دعواه الخاطئة عن القرآن ، والرسول ، وصحابته ، على شعب أربع ؛ فهو يقرر :

أولا : أن مؤلف القرآن مضطرب غير متماسك فى معالجة كبار المعضلات .

ثانيا : أنه نفسه لم يكن عالما بوجود هذا الاضطراب والتعارض .

ثالثا : أن إيمان صحابة الرسول الساذج قد دفعهم الى الإيمان بأن القرآن كلام الله .

رابعا : أن الفرق الاسلامية : من أمثال المرجئة ، والقدرية ، والمعتزلة ، والأشعرية ؛ إنما قامت بسبب هذا التعارض الذى يحتويه القرآن .

والباحث المنصف ، بقليل من التأمل ، لا يسعه إلا أن يرى الشطط الفكرى والخطأ التاريخى الذى وقع فيه الأستاذ (نيكلسون) .

فمؤلف القرآن عنده هو محمد صلوات الله عليه ؛ وليس القرآن كتابا أنزل من عند الله على رسوله . وهذه دعوى سبقه إليها كفار قريش أنفسهم ، واجهوا بها رسول الله حين دعاهم إلى كتاب الله فقالوا عنه : إنه « إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون ، فقد جاءوا ظلما وزورا . وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا » بل ذهبوا الى أنه يستمليها رجلا غيره ، فكذبهم الله بقوله : « لسان الذى يلحدون إليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين » .

وتحداهم رسول الله أن يأتوا بعشر سور مثله فعجزوا ؛ وبالغ فى تحديهم فطالبهم أن يأتوا بسورة فعجزوا ، وقام هذا التحدى ، بعد انتقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إلى الرفيق الأعلى ، مدى هذه القرون الطوال . وابتلى الأسلام بفرق الزنادقة ، وطوائف الملاحدة ؛ وقد حاولوا الكيد له بكل وسيلة . ولكنهم جبنوا أمام هذا التحدى القائم فى وجوههم من الكتاب العزيز .

وعجيب أمر السادة المستشرقين ؛ فمن يقرأ ما كتبوه عن محمد صلوات الله عليه — حتى المنصفون منهم — ينتهى إلى رأى عجب فيه ؛ هو أن محمدا من أوساط الناس ، لا يتميز — عندهم — بشىء من العبقرية الفذة ، ولا الفكر المستنير ! ! فكيف استطاع هذا الرجل العادى أن يؤلف هذا الكتاب الذى دانت له الملايين من البشر ، والذى انطوى على نظام شامل لحياتهم ، يجمع أصولها التى لا ينبغى أن يختلفوا عليها ، ويدع فروعها لعقولهم ، واجتهادهم ، وسنة نبيهم ؟ كلا الدعويين يناقض الآخر .

وثمة شيء آخر يثبت أن القرآن من عند الله . لقد ورثنا رسول الله كتاب ربه ، وسنته هو . ومن يقرأ الكتاب الكريم والسنة النبوية يرى الفرق واضحا بينهما فى كل شيء : فى أسلوب التعبير ، وفى الموضوعات التى تعالجها ، والأسلوب الذى تعالجها به . فلو كان الكتاب من عند محمد صلى الله عليه وسلم لكان الكتاب والسنة صنوين — فى التعبير على الأقل — وهو ما لا يقول به من له دراية ببسائط اللغة العربية .

القرآن كتاب الله ، ما هو بقول بشر ، ولا سحر ساحر ، وإن تعامى عن هذه الحقيقة الواضحة المتعامون .

وليس فى القرآن تناقض ولا تضارب ، بل « منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات » . وإذا كان السادة المستشرقون لم يتيسر لهم فهم هذه المتشابهات ، وعدوها متضاربات ، فليس ذلك ذنب القرآن ، ولكنه ذنب معرفتهم القاصرة باللغة العربية خاصة والتفكير الإسلامى عامة . وأنت مهما جهدت أن تتذوق لغة غير لغتك كما يتذوقها أبناؤها فلن تستطيع . وقد يقرأ القارىء العربى آية من الكتاب العزيز فتأخذه روعتها ، أو بيت شعر فيهتز طربا ؛ ولكنه لا يجد هذه اللذة حين يقرأ لشيكسبير أو ملتون . وأهل كل لغة أعرف بخفاياها .

والقرآن ليس كتابا ألف فى موضوع بذاته ، حتى يلتزم فيه ما يلتزم فى الكتب الموضوعة على هذا النحو من المقدمات والتمهيدات ، ثم النتائج والخواتيم . ولكنه كتاب شامل لحياة المسلمين ، وضع لهم كافة : يجد فيه الفيلسوف مادة فلسفته ، والصوفى روحانيته ، والمشرع أصول قوانينه ، والأخلاقى قواعد سلوكه ، واللغوى فرائد بيانه . ومن هنا تنوع ما فيه من قصص وحكمة ، وتشريع ، وتاريخ ، وكان على هذا كله متناسقا لا اختلاف فيه « ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا » .

والذين لهم بصر بالدراسات الاسلامية يعلمون أن الجماعة الاسلامية قد ابتليت بعد وفاة الرسول بالاختلاف على من يلى الحكم إلى أن سكن هذا الاختلاف ظاهراً بولاية أبى بكر رضى الله عنه أمر المسلمين ؛ وأن السفينة الاسلامية قد

ارتطمت بصخرة مقتل عثمان ، وقيام المطالبين بدمه فى وجه على ؛ وتشعبت الحياة الاسلامية واتسعت بعوامل الفتح والاختلاط والوراثات الفكرية المختلفة التى انصبت فى المحيط العربى الإسلامى ، فقامت هذه الفرق المختلفة .

وليس هذا موضع استقصاء أسباب قيامها . ولكن الذى لا ريب فيه أن القرآن لم يكن سبباً مباشراً لقيام هذه الفرق .

ولقد وددت لو أن الذين يعالجون الموضوعات الاسلامية من المستشرقين ينزعون عنهم لباس التعصب ، ويلتزمون الانصاف فى أحكامهم ، ولا يندفعون وراء عواطفهم ، إنما يبتغون الحق لذات الحق . ولكن هذه منزلة لا يصل اليها إلا القلة المختارة من المفكرين ؟

المحاباة

قيل لمعاوية : إن آذنك يقدم معارفه فى الإذن على وجوه الناس ، قال معاوية : وما عليه ؟ إن المعرفة لتنفع فى الكلب العقوُر ، والجمل الصؤول ، فكيف فى رجل حبيب ذى كرم ودين ؟ .

نقول : لعل هذا الرد مكذوب على معاوية ، فإن مثله لا يصح أن يجهل أن النظام والعدالة يجب أن يتغلبا على المعرفة . وليس بمنكور أن المعرفة تنفع ولكن لا فى إخلال بنظام ، ولا فى إضاعة لحق ؛ ولو صح ما نسب الى معاوية لكان للموكلين بالنظم الاجتماعية ، وبالعدالة فى الأحكام أن يميلوا مع المعرفة حيث مالت .

وقد كنا نود أن كتب المحاضرات تعنى بالتنبيه الى مثل هذه الشؤون فيتنبه القراء الى ما يتخلل مطالعاتهم من وجوه للنقد فتتربى لديهم ملكة الأدب الصحيح .

الشعر فى العهد الايوبى

لفضيلة الأستاذ الشيخ رياض هلال
المدرس بكلية اللغة العربية

— ٢ —

تحدثت فى عـدد سابق [١] عن لون من ألوان تشجيع الأيوبيين للأدب عامة وبخاصة الشعر، وهو الإثابة عليه بالعطاء الجزل والنوال الغمر، مما ألهب قرائح الشعراء وأذكى شاعريتهم؛ واليـوم نتحدث عن عامل آخر من عوامل الأخـذ بناصر الشعر وشـد أزره فى عهد الأيوبيين، وهو مشاركة الأيوبيين لأربابه ومحترفيه، فى مدارسته والعكوف عليه، واقتنائه:

رووا أن عضد الدين ابن مؤيد الدولة أسامة بن منقذ، كتب شعر أبيه وجمعه لصلاح الدين، وهو لشغفه به يفضله على جميع الدواوين، حتى إذا كان مؤيد الدولة بدمشق، جالس صلاح الدين وآنسه، وذاكره فى الأدب ودارسه [٢]، وكان صلاح الدين إذا بلغه عن شيخ رواية عالية وكان ممن يحضر مجلسه، أحضره وسمع عليه وأسمع أولاده ومماليكه، وإن لم يكن ممن يحضر عنده ولا يطرق أبواب الملوك سعى اليه. ويروون أنه كان حافظاً لأنساب العرب عارفا بسيرهم؛ كما عرف عن الكامل الأيوبى حبه للعلماء ومجالستهم ومناقشتهم فى مسائل غريبة فى الفقه والآداب والعلوم، يمتحن بها الفضلاء إذا حضروا فى خدمته [٣]؛ وهو الذى أنشأ دار الحديث بالقاهرة التى قال فيها المقريزى: إنها ثانى مدرسة للحديث على وجه الأرض. وقد تذاكر الأدباء فى أحد مجالسه أصعب القوافى فى الشعر؛ فقال: من أصعبها الياء الساكنة فمن كان منكم يحفظ شيئا منها فليذكره؛ فتذاكروا فى ذلك فلم يتجاوز أحد منهم عشرة أبيات.

---

(١) صفر ١٣٦٧.

(٢) الروضتين ج ١ ص ٢٦٤.

(٣) أبو الفداء ج ٣ ص ١٦١.

فقال السلطان : أنا أحفظ منها خمسين بيتاً قصيدة واحدة ، وذكرها ، فاستحسنوا منه ذلك . فقال القاضى شرف الدين كاتب سره : أنا أحفظ منها مائة وخمسين بيتاً قصيدة واحدة ؛ فقال السلطان : ياشرف الدين : جمعت فى خزائنى أكثر دواوين الشعراء فى الجاهلية والاسلام ، وأنا أحب هذه القافية فلم أجد منها أكثر من الذى ذكرته لكم ، فأنشدنى هذه الأبيات ؛ فأنشده قصيدة ابن الفارض اليائية التى مطلعها :

حادى الأظعان يطوى البيد طى منعما عرج على كثبان طى[1]

ويروى صاحب مرآة الزمان[2] عن المعظم عيسى الأيوبى أنه قرأ الأدب والنحو على تاج الدين الكندى ، فأخذ عنه كتاب سيبويه وشرحه الكبير للسيرافى والحماسة ، وكان يحفظ الإيضاح لأبى على الفارسى ، حتى قال صاحب النجوم الزاهرة فى حقه : إنه رجل بنى أيوب وعالمهم غير مدافع . ولا شك أن تلك غاية مايجهد له العالم المتخصص لا الملوك المشغولون ، إلا إذا أسرهم العلم واستبد بهم . ولعل من أبين الدلائل على العناية بالشعر أن يجتمع الإخوة الثلاثة : الكامل الأيوبى صاحب مصر ، والأشرف صاحب الجزيرة ، والمعظم صاحب دمشق ، بقصر الكامل فى المنصورة بعد طرد الفرنجة من دمياط ، ثم يبعثوا إلى جواريهم فيحضرن فى جمع من أهليهم وخواصهم ، فيأمر الأشرف جاريته أن تغنى ، فغنت :

ولما طغى فرعون عكا وقومه وجاء إلى مصر ليفسد فى الأرض
أتى نحوهم موسى وفى يده العصا فأغرقهم فى اليم بعضاً على بعض

فطرب موسى وقال : يا لله ! كررى ! . ولكن أخاه الكامل شق عليه ذلك فأسكتها وقال لجاريته : غنى أنت ، فغنت :

أيا أهل دين الكفر قوموا لتنظروا لما قد جرى فى وقتنا وتجددا
أعباد عيسى إن عيسى وحزبه وموسى جميعاً ينصران محمدا

---

(١) شرح ديوان ابن الفارض لرشيد بن غالب ج١ ص ٩

(٢) مخطوط فى التاريخ الاسلامى

فأعجب ذلك الكامل وأمر لكل من الجاريتين بخمسمائة دينار ، فمضت تلك الليلة من أروع ليالى الشعر والغناء عند الأيوبيين .

فأما إحساس الأيوبيين بمحاسن الشعر واهتزازهم له ومبلغ تأثرهم به ، فأمر تفيض به كتب السير والتاريخ ، وتشرق به أخبار ملوكهم وأمرائهم ؛ فقد عرف عن صلاح الدين أنه كان يستحسن الأشعار الجيدة ويرددها فى مجالسه ؛ فكثيراً ما كان ينشد قول أبى منصور محمد بن الحسين بن أحمد بن الحسين بن إسحاق الحميرى :

وزارنى طيف من أهوى على حذر ... من الوشاة وداعى الصبح قد هتفا
فكدت أوقظ من حولى به فرحا ... وكاد يهتك ستر الحب بى شغفا
ثم انتبهت وآمالى تخيل لى ... نيل المنى فاستحالت غبطتى أسفا

وكان يعجبه قول نشو الملك أبى الحسن على بن مفرج المعروف بابن المنجم المصرى الدار والوفاة ، وهو فى خضاب الشيب :

وما خضب الناس البياض لقبحه ... وأقبح منه حين يظهر ، ناصله
ولكنه مات الشباب فسودت ... على الرسم من حزن عليه منازله

قالوا : فكان إذا قال مات الشباب ، يمسك كريمته وينظر إليها ويقول : إى والله مات الشباب (١) ! وكتب مرة الى بعض أصحابه بدمشق :

أيها الغائبون عنى وإن كنـ ... ـتم لعينى بذكركم جيرانا
إننى مذ فقدتكم لأراكم ... بعيون الضمير عندى عيانا

كما كان يتمثل بالأبيات فى المناسبات وينشدها فى المقامات إذا اشتد به أمر أو حل بساحته خطب . كتب مرة الى أخيه تورانشاه كتابا يذكر له فيه واقعة فى أوله :

ذكرتك والخطى يخطر بيننا ... وقد نهلت منا المثقفة السمر

ويروى ابن الأثير أنه رأى هذا الكتاب بخط يد صلاح الدين (٢) ولما مات تورانشاه هذا حزن عليه حزنا شديدا ، وجعل يكثر إنشاد أبيات المراثى

(١) النجوم الزاهرة حـ ٦ ص ٥٦ . (٢) مختصر أبى الفدا حـ ٣ ص ٦٠ .

وكان كتاب الحماسة من حفظه (١) وقيل له إن الوخم كثر فى مرج عكا من كثرة القتل فتمثل :

اقتلونى ومالكا واقتلوا مالكا معى

وكان مرة خارجا الى الشام فخرج الناس لوداعه ، فسمع قائلا يقول فى ظاهر المخيم :

تمتع من شميم عرار نجد فما بعد العشية من عرار

فتطير من ذلك وانقبض بعد انبساط . وقد كان خلفاء صلاح الدين بهذه المثابة يطربون للشعر ويفزعون اليه عند المناسبات ، مما يبين عن مبلغ كلفهم به واحتفالهم له ؛ فعرف عن الكامل أنه كان يعجبه البيتان :

ماكنت قبل ملك قلبى تصد عن مدنف حزين
وإنما قد طمعت لما حللت فى موضع حصين (٢)

وكان ينشد كثيرا فى مرضه :

ياخليلىّ خبرانى بصدق كيف طعم الكرى فأنى نسيته

كما عرف عن تورانشاه أنه أرسل إلى صلاح الدين كتابا فيه أبيات من شعر شاعره ابن المنجم ، منها :

فهل لأخى بل مالكى علم أننى إليه وإن طال التردد راجع
وأنى بيوم واحد من لقائه لملكى على عظم المزية بائع
ولم يبق إلا دون عشرين ليلة وتجنى المنى أبصارنا والمسامع
لدى ملك تعنو الملوك إذا بدا وتخشع إعظاما له وهو خاشع
كتبت وأشواقى إليك ببعضها تعلمت النوح الحمام السواجع
وما الملك إلا راحة أنت زندها تضم على الدنيا ونحن الأصابع (٣)

أما بعد ، فإلى عدد آخر نرجىء الحديث عن الشعراء من البيت الأيوبى ، وسنرى منهم شعراء لهم فى صناعة الشعر باع طويل ؟

---

(١) الروضتين ﺣ ٢ ص ١٨ (٢) النجوم الزاهرة ﺣ ٦ ص ٢٣٢
(٣ الروضتين ﺣ ٢ ص ١٨ ، ١٩ .

عيد الجلوس الملكى السعيد

أقيمت الاحتفالات به فى جميع بلاد الدولة المصرية
وأذاع حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر
كلمة بليغة عنه بالراديو

كان يوم الخميس السادس من شهر مايو من أسعد أيام مصر ، حيث تبوأ أريكة دولتها حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق الأول ، فاحتفلت به الأمة فى جميع مدنها وقراها احتفالا لم ير له نظائر غير مثيلاتها فى كل عام . فكنت حيثما توجهت ألفيت الأعلام المصرية تخفق على الدور والمتاجر ، وترى سمات البشر مرتسمة على الوجوه ، يردد أصحابها أطيب التمنيات للذات الملكية ، ويتذكرون الأعمال العظيمة التى تمت فى عهده للبلاد ، مما ضاعف ثروتها ، ورفع من قدرها ، وزاد فى رفاهية أهلها .

ومما زاد فى إظهار مواهب جلالة الفاروق ، الأحداث العظيمة التى حدثت فى أيامه ، وأكبرها شأنا الحرب العالمية ، وموقع مصر من ساحات القتال ؛ وناهيك بما يستدعيه موقف الحياد الذى وقفته مصر من حسن السياسة ، وبعد النظر ، وشدة الاحتياط ، حتى مرت تلك السنوات المميت التى أهلكت الحرث والنسل فى أوربا ، ولم يمسس بلادنا سوء يؤثر فى نظامها السياسى والاجتماعى ، ولا فى اتزانها الاقتصادى ، بل لسنا نبالغ إذا قلنا إن مصر جنت من رواج محاصيلها ثروة أضافتها إلى ثروتها ، واتضح للعالم كله أن لها مركزاً ممتازاً بين الشرق والغرب يقتضى أن تعيش مستقلة حرة .

هذا غيض من فيض نذكره تيمنا بهذا اليوم السعيد ، وقد أحصى حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ مأمون الشناوى شيخ الجامع الأزهر من مآثر حضرة صاحب الجلالة ، فى كلمته النبيلة التى أذاعها بالراديو فى مناسبة هذا العيد السعيد ، ما أطلق كل لسان بالدعاء لجلالته بأن يبقيه الله ذخرا لأمته ، وملاذا للشرق ينعم برعايته .

محمد فريد وجدى

كلمـــــة

لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر

بمناسبة عيد الجلوس الملكى السعيد

« اللهُ نورُ السموات والأرضِ ، مَثَلُ نُوره كَمِشْكاةٍ فيها مصباحٌ ، المصباحُ فى زُجاجةٍ ، الزجاجةُ كأنّها كوكبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ من شجرة مباركةٍ زَيْتونةٍ لا شرقيةٍ ولا غربيةٍ ، يكادُ زيتُها يُضىء ولو لم تمسسه نارٌ ، نورٌ على نور ، يَهدى الله لنُوره مَن يشاء ، ويضرب اللهُ الأمثالَ للناسِ ، واللهُ بكل شىءٍ عليمٌ » .

أما بعد : فهذا يوم أقبل وضّاح الجبين ، متلألىء الضياء ، فياض السناء ، يكاد سنا نوره يعم الآفاق ، ويملأ الكون بهاء وإشراقا . ولا غرو فهو يوم عيد جلوس الملك الصالح الموفق ، المهتدى بنور ربه « فاروق الأول » أعزه الله ، وأيده بروح من عنده ! .

فى مثل هـذا اليوم من اثنتى عشرة سنة ، تبوّأ الفاروق عرش مصر المجيد ، فكان مقدماً قرن الخير به ، وحدثا سعيدا أقبل معه اليُمـن على مصر ، فأترع الوادى بالخير ، وفاض على جوانبه حتى شمل جيرانه من الأمم العربية والإسلامية .

فما كاد الغاب يخلو من أسده « فؤاد العظيم » طيب الله ثراه وأجزل له حسن المثوبة ـ حتى هبّ شبله فاروق يحمى العرين، ويذود عن الحمى ذَوْد القادر المكين .

تولى الفاروق ملك مصر ، فأقبلت عليها الدنيا سمحة ، تسفر فى كل يوم عن آمال كبار يحققها ذلك العاهل العظيم .

إن عهد الفاروق كله خير وبركة ، وإسعاد وإقبال ، يجهد نفسه من يحاول أن يستقصى فى الخير آثاره ومناقبه ، ومن يريد أن يحصى على الأيام مواضع بره ومواقع غيثه ، ومن يرغب فى تتبع آثار جلالته الصالحات ، وأعمال بره الباقيات ،

وفيض إحسانه ومننه الخالدات . فما من يوم يمر ، بل ما من لحظة عابرة تأخذ سبيلها الى الماضى ، إلا للفاروق فيها مأثرة كريمة ، أو منة عظيمة ، أو لفتة سامية تشمل ناحية من نواحى الحياة المصرية الاجتماعية والعمرانية والسياسية بالخير والبركة .

لقد عم فيض نفحات الفاروق الحياة المصرية بشتى مناحيها ، فما من جانب من جوانب حياتنا إلا شمله من نور الفاروق قبس أضاءه ، ووهب له الحياة والحركة فأسرع قدما يحث الخطى نحو الكمال والنهضة ، حتى لو أنه التفت الى وراء لبهره عظم الشوط الذى قطعه فى عهده محيى النهضة المصرية « جلالة الملك المعظم فاروق الأول » شبل فؤاد العظيم . ذلك توفيق الله وفضله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم .

والفاروق فى شبابه الفياض عظيم الإيمان بالله ، فهو بحق الراعى الصالح الذى لم يشغله الملك على سعته ولا الشباب على إقباله ، عن عبادة الله العلى الكبير ، وإحياء شعائر دينه ؛ فتراه حفظه الله يقبل على المساجد يقيم الصلاة قانتا لله حنيفا فى سمت العارف بربه ، المقدر لعظمة مولاه

« إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون » .

ولقد جعل الله سبحانه وتعالى لجلالته التوفيق حليفا ، واليمن رفيقا ؛ فما من خطوة يخطوها إلا انبعث منها الخير ، وفاض منها البر والإحسان ؛ وهكذا مكن الله للفاروق من قلوب رعاياه ، تحوطه مهجهم أينما حل ، وتدعو له ألسنتهم وقلوبهم ما أشرقت عليهم طلعته ، أو ذكر اسمه ؛ فإنه ما من بيت فى مصر إلا سبق إليه نداه ، وما من قرية أو مدينة إلا أحاطتها رعايته وشملها بره

« وكذلك مكنّا ليوسُف فى الأرضِ يتبوّأُ منها حيث يشاء ، نُصيبُ برحمتنا من نشاء ، ولا نُضيع أجر المحسنين » .

ولقد أحسن الفاروق إلى رعيته فأجزل لها الإحسان ، وشملها بعنايته ، وأفاض لها خيرا عميما ، أحاط بكل مرفق من مرافقها ؛ فهذه النهضة العلمية الثقافية المباركة التى تتمتع بها مصر فى جامعاتها المدنية هى من غرس يديه ؛ وهذه النهضة العمرانية فى مشروعات الرى وتوزيع الأراضى على صغار الملاك والمحتاجين هى أثر من آثار عناية الفاروق وتوجيهه الكريم .

أما الأزهر المعمور فقد لقى من عطف جلالته ما أخذ بيده إلى طريق التقدم

والرقى والنهضة العلمية الدينية العظيمة ؛ ولقد خطا الأزهر فى عهد جلالته الميمون خطى واسعة إلى الهدف الأسمى من الكمال الذى ينشده للأزهر كل مسلم حريص على دينه وقوميته .

شمل الفاروق ـ أعزه الله ـ الأزهر بعنايته ورعايته ، ومكن له من أداء رسالته : رسالة التثقيف والتعليم ، ورسالة الدعوة إلى دين الله بالحكمة والموعظة الحسنة .

أما عن الأولى فكان لفيض يدى جلالته الكريمتين أكبر الأثر فى نمو معاهده ، واتساع وسائل التثقيف فيها .

وأما عن الثانية فقد أخذ الأزهر يوفد البعوث من أساتذته وعلمائه إلى الأقطار الإسلامية والعربية لتقوم بالدعوة إلى دين الله ، ولتهدى المسلمين إلى سواء السبيل ؛ كما فتح أبوابه على مصاريعها ، ليتلقى كل طالب يرغب فى العلم والتفقه فى الدين من أبناء الأمم الإسلامية .

وفى الأزهر الآن بعوث عديدة من أمم كثيرة شملها جميعاً عطف الفاروق حفظه الله ، ونالها فيض بره وكرمه ، مما ألهج ألسنة المسلمين فى أقطار الأرض بالدعاء لجلالته والثناء عليه .

ولقد توّج الفاروق أعماله الجليلة بما بذله من جهد لتوحيد كلمة الأمم العربية حتى وُفق ـ نصره الله وأيده ـ إلى جمع صفوفها فى الجامعة العربية . وكان من آثار ذلك ما نحسه اليوم من نهضة العرب ، واستمساكهم بحقوقهم ، وذودهم عن ديارهم ، ومحاربتهم لأعدائهم ، فى وحدة خالصة لله ، حربا ستكون بإذن الله شديدة على الأعداء ، نكالا عليهم :

« محمد رسول الله ، والذى معه أشداء على الكفار رحماء بينهم ، تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضواناً ، سيماهم فى وجوههم من أثر السجود » .

هذه لمحة عابرة لبعض مآثر الفاروق العظيم التى لا يحصيها العد ، والتى تتجدد كل يوم وتزداد حتى ليزدهى يومه ، ويشرق بخير مما سبق ، وتتنافس الأيام بخير أياديه .

حفظك الله يا مولاى ، وأعزك ونصرك ، ومد فى عمرك ، لتكون للمسلمين عضدا ، وللعرب نصيرا . اللهم أعد هذا العيد وأمثال أمثاله على مصر والعالم الإسلامى بالخير والمتعة والبركات ، ليسعدوا جميعا بالفاروق ، إنك سميع مجيب الدعاء

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

نـــــداء

حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الاكبر

شيخ الجامع الأزهر

للمجاهدين والمحاربين والعرب

أذاع حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ مأمون الشناوى شيخ الجامع الأزهر النداء التالى الى المجاهدين :

بسم الله الرحمن الرحيم .

أبنائى المجاهدين ! السلام عليكم ورحمة الله .

أما بعد : فقد آذنت ساعة الجهاد ، وحقت كلمة الله على الذين يريدون أن يخرجوكم من دياركم ، ويستبدوا بأموالكم ، ويأكلوها بينهم بالباطل ؛ ولم يبق إلا أن تشمّروا عن السواعد ، وأن تهبّوا للحرب والكفاح فى سبيل الله ، معتزين بعدل قضيتكم ، وقوة إيمانكم ، ومضاء عزيمتكم ، واتحاد كلمتكم ، ووفرة عددكم وشدة صبركم « إنْ يكنْ منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين ، وإنْ يكنْ منكم مائة يغلبوا ألفا من الذين كفروا ، بأنهم قوم لا يفقهون » .

أيها المجاهدون !

هذا يوم الفصل بين حقكم وباطل خصومكم ، وهذه هى الساعة التى وعد الله المجاهدين فيها الجنة وحسن الثواب ، فهبوا لقتال أعدائكم وردوهم عن دياركم .

« انفِروا خفافا وثِقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله ، ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ، ولا يأخذنكم رفق ولا هوادة . بل أغلظوا لمن أغلظ لكم ، واشتدوا على من سفك دماء آبائكم وأبنائكم ، واعلموا أن الله مع المتقين .

أيها المجاهدون !

هذه حرب لا هوادة فيها ، واستشهاد فى سبيل الله ، ودفع عن دياركم أن تقع فى أيدى أعدائكم ، وحماية لحرمكم وبيوتكم ، وذود عن معاقلكم ومعاقل آبائكم أن يتخطفها المارقون . إنكم تدفعون شنآن قوم لا يرعون إلا ولا ذمة ، وتردون عدوان طامعين فى بلادكم ، ومعتدين على أموالكم . إنكم إن لا تقاتلوهم يخرجوكم من دياركم ، قاتلوهم يعذّبهم الله بأيديكم ويُخزهم وينصرْكم عليهم ، ويَشف صدور قوم مؤمنين ، ويذهب غيظ قلوبهم ؛ ويتوب الله على من يشاء ، والله عليم حكيم » .

أيها العرب !

هذا يومكم ، وتلك دياركم ، فنافحوا عنها بما استطعتم من قوة ، واعلموا أن العالم كله ينظر اليكم ، فإما أن تثبتوا حقكم وتجاهدوا عدوكم وتستشهدوا فى سبيل الله دفاعا عن دياركم وأموالكم ، وإما أن تكتبوا على أنفسكم الذل والهوان وهو ما لا ترضون . « يأيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبّتْ أقدامكم » .

أيها المجاهدون !

إن الجهاد فى سبيل الله هو الإيمان حقا ؛ فقد جعل الله للمجاهدين أجراً عظيما ، وأعد لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار : « الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله ، وأولئك هم الفائزون . يبشّرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم . خالدين فيها أبدا ، إن الله عنده أجر عظيم » .

أيها المجاهدون !

سيروا على بركة الله ، واعلموا أن غـدوة فى سبيل الله أو روحة خـير من الدنيا وما فيها ، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف ، وأنها أعدت للصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس ، والله ولى الصابرين . « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ؛ يقاتلون فى سبيل الله فيـقتلون ويُقتلون ، وعدا عليه حقا فى التوراة والإنجيل والقرآن ، ومن أوفى بعهده من الله ؟ فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به ، وذلك هو الفوز العظيم » .

أبنائى المجاهدين !

إن أردتم النصر فامتثلوا نداء خاتم النبيين وسيد المرسلين عليه الصـــلاة والسلام ؛ نداءه فى الناس يوم جهاد بدر : « والذى نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيُـقتَـل صابرا محتسبا مُقبلا غير مُدْبر إلا أدخله الله الجنة » . فاسعوا إلى الجنة مسرعين ، وأقبلوا على نصرة إخوانـكم بنفوس راضية ، واعلموا أن الله معـكم « إذ يوحى ربك إلى الملائـكة أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا ، سألقى فى قـلوب الذين كفروا الرعب ، فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان » .

أيها المحاربون !

إن أفضل النـاس عند الله من يجاهد بنفسه وماله فى سبيل الله . والجهـاد والدفاع عن الأوطان والذود عن الحياض فريضة على كل وطنى مخلص لوطنه . فأقبلوا وتقدموا الصفوف ، ولا تخشوا فى سبيل الحق لومة لائم ، واعلموا أن من قتل فى سبيل الله حى خالد عند ربه « ولا تحسبنّ الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا ، بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله ، ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون . يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين » .

اللهم إنى أسألك للمجاهدين عزة ومنعة . اللهم إنى أسألك لهم نصرا مؤزّرا . اللهم أيدهم بقوة منك ، وأظهرهم على أعدائهم . اللهم اكتب لهم التوفيق والسداد ، واشرح صدورهم للجهاد ، وارزقهم نصرك الذى وعدت من يجاهد فى سبيلك ، وامنحهم الصبر والنصر ، وثبت أقدامهم ! . اللهم امنح عونك وتوفيقك صاحب الجلالة ملك مصر المعظم الملك فاروقاً الأول ، المجاهد فى سبيلك ، الداعى لنصرتك ، المؤيد لكلمتك ؛ وأصحاب الجلالة والفخامة ملوك العرب ورؤساءهم ، إنك يا مولانا نعم المولى ونعم النصير .

والسلام عليكم أيها المجاهدون ورحمة الله وبركاته ، وإنى أستودعكم الله .

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الاكبر

فى الاحتفال بذكرى المغفور له الملك فؤاد الأول ، وتوزيع الجوائز على أوائل الناجحين فى حفل حافل شرفه معالى رئيس الديوان الملكى

الحمد لله الذى وفق المصلحين ، والصلاة والسلام على خير الأنبياء والمرسلين ، وعلى آله وأصحابه والتابعين لنهجه القويم ، وصراطه المستقيم .

أما بعد : فإن للعاملين لذكرى ، وإن للمصلحين لأثراً ، وإن أولى العاملين بالذكر ، رجال صدقوا ماعاهدوا الله عليه ، وأقاموا ركن الدين ، ونهضوا بواجباتهم على أكرم وجه ، وأمثل سبيل . وأى رجل أخلق بالذكر وأحق بالتمجيد من عاهل مصر العظيم ، المغفور له ، الملك فؤاد الأول . فقد كان ـ طيب الله ثراه ـ مثلا يحتذى فى إعزاز الدين ، وإكرام رجاله ، والنهوض بهم إلى المكانة اللائقة بدينهم الحنيف ، وتعاليمه السامية .

ولو أردت أن أعدد مآثر فؤاد العظيم ، وأياديَه الغر الميامين ، على الأزهر ورجاله ، لما وسعتنى صحائف وصحائف . وهذا التاريخ من قبلى ، قد سجل اسم فؤاد فى عداد الخالدين ، وامتلأت صحائفه بآثاره الخالدات ، التى نهضت بمصر كلها نهضة عظيمة ، فى جميع مناحى حياتها ونشاطها الاجتماعى ، والثقافى ، والسياسى ؛ فما من مؤسسة ولا جماعة هدفها الخدمة العامة والإصلاح ، إلا يتوج اسمُ فؤاد جهودها ، بما بذل لها من عون أدبى ومادى .

لم يكن ـ طيب الله ثراه ـ يسمح أن تمر لحظة من حياته العامرة بوجوه النفع والإصلاح ، دون أن يسجل فى ثبت النهضة أثرا جديدا من آثاره الدافعة بالأمة الى أوج الرقى والحضارة .

واليوم ونحن نحيي الذكرى الثانية عشرة لهذا المصلح العظيم ، لا نستطيع أن نمر على آثاره فى النهضة العلمية دون أن نقف لحظات نستمطر فيها الرحمة على هذا العاهل العظيم .

أما الأزهر ففى عنقه لفؤاد العظيم ، دَين لن يستطيع أبناء الأزهر مهما جهدوا فى ذكره ، أن يوفوا حق الملك العظيم ، الذى بذل لهم من نفسه وماله وسلطانه ، ما أقام لهم عمد معهدهم العتيد على أساس مكين من الإصلاح الدينى والعلمى ، حتى حق أن يلقب فؤاد على الزمن « منشىء الأزهر الحديث » .

فاللهم أسكنه المقام المحمود الذى وعدت من يعملون فى سبيلك ، ويؤدون الحق ، ويؤازرون الخير ، ويبرون العلم والعلماء ، قدر ماجهد فؤاد نفسه فى خدمة العلم والدين ، وجزاء وفاقا لما بذل فى سبيل الله وأعان على مرضاته .

اللهم أجزل له مثوبتك بما أجزل للمسلمين من عطاء ، وبما أمد الأزهر من فيض الرعاية .

« لكن الرسول والذين آمنوا معه جاهدوا بأموالهم وأنفسهم ، وأولئك لهم الخيرات ، وأولئك هم المفلحون . أعد الله لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ، ذلك الفوز العظيم » .

أبنائى الأزهريين :

إن إحياء ذكرى عاهل مصر العظيم فؤاد الأول واجب على الأزهريين ، عرفانا بما أسدى لهم من جميل رفع من قدرهم ، وأعلى من ذكرهم . وإن من آثاره التى لا يحصيها العد هذه اليد التى أسداها للطلاب تشجيعا على طلب العلم ، وحثا لهم على التنافس فيه ؛ فقد وهب ـ أسكنه الله فسيح جناته وأثابه خير المثوبة ـ جائزة مالية عظيمة لأوائل الناجحين من خريجى الكليات الأزهرية الثلاث ، التى هى من غرس يده ، تقديرا لهم ، وحفزا لغيرهم .

وإنا ننتهز فرصة ذكراه فنقدم هذه الجوائز للأول والثانى من ناجحى الشهادات العالية فى الكليات الثلاث ، مكررين الدعاء من قلوبنا أن يجعل جلالته

فى جنات الخلد مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين .

« والله يدعو إلى دار السلام ، ويهدى من يشاء إلى صراط مستقيم . للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ، ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة ، أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون »

ولعل أجل ما نعتز به فى هذه الذكرى العزيزة علينا وعلى الوطن ، هو ما تفضل به علينا حضرة صاحب الجلالة مولانا الملك المعظم الملك فاروق الأول ، شبل فؤاد العظيم ، بمناسبة إحيائنا هذه الذكرى ؛ فقد تفضل حفظه الله فأسبغ على الأزهر ورجاله نعما لا حد لها ، ورعى طلابه بعناية سامية يعلن بها رضاءه السامى وتقديره للعاملين المجدين . ولا غرو فالفاروق ابن فؤاد العظيم .

وكل يوم تطلع مع شمسه مأثرة ومحمدة للفاروق ، هدفها عزة الدين ، وغايتها نصرة الإسلام والمسلمين .

والآن أضرع إلى الله العلى القدير باسمى واسمكم أن يجزيه عنا خير الجزاء ، وأن يحييه حياة طيبة مباركة تعم بنفعها العباد والبلاد . إنه سميع مجيب ، وهو نعم المولى ونعم النصير .

الاسلام والاشتراكية

وسمو نظام الاجتماع الاسلامى على جميع النظم العالمية

تلطف سعادة الوزير المفوض لدولة المجر فزار حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مأمون الشناوى شيخ الجامع الأزهر ، فى أوائل شهر مايو الجارى ، رافعا لفضيلته تحيات مسلمى هنغاريا . فقابل فضيلته هذه التحيات بمثلها ، ورجا سعادة الوزير المجرى أن يبلغها اليهم مشفوعة بدعائه وجميل ثنائه .

ثم جرى فى هذه المقابلة كلام عن حال المسلمين فى المجر ، فأجاب الوزير بأنهم ينعمون بالحرية الدينية والاجتماعية ، وبأنهم يتمتعون بعناية حكومتهم ، وبأنها أصدرت حديثا قوانين اعترفت فيها بمساواة الدين الاسلامى لسائر الأديان المعترف بها فى بلاد المجر .

فأبدى له فضيلة الأستاذ الأكبر سروره بهذه الأنباء ، ورجا سعادة الوزير المفوض أن يبلغ أولئك المسلمين أن يبقوا متمسكين بدينهم ومخلصين لوطنهم .

ثم انتهز الوزير هـذه الفرصة فسأل فضيلة الأستاذ الأكبر عن مبلغ صحة ما يكتب عن الاشتراكية فى الاسلام .

فتفضل فضيلة الأستاذ الأكبر بإجابته بما يأتى :

« أود أن أوضح لسعادة الوزير كلمة الدين دون تأثر بأى مذهب أو رأى ، إلا الرأى العلمى الخالص . وكلمة الدين هى أن الاسلام نظام قائم بذاته لا علاقة له بالاشتراكية ولا بغيرها من المذاهب . وهو نظام يكفل للمسلمين السعادة فى معاشهم ومعادهم ، ويضمن لهم التكافل الاجتماعى بفرض الزكاة على القادرين والموسرين لمصلحة الضعفاء والفقراء . على أنه مع ذلك يعترف صراحة بالملكية الفردية ونظام المواريث ، والتفاضل فى الكسب والرزق . وهـذا النظام يقوم على قواعد اجتماعية وعمرانية لا نظير لها فى أى مذهب دنيوى من المذاهب الحديثة » .

ونحن نقـول تعليقا على هذا التصريح القيم : إنه أقوم وأعدل ما يكتب عن النظام الاجتماعى والمالى فى الاسلام .

فإن قول فضيلة الأستاذ الأكبر : إن الاسلام نظام قائم بذاته لا علاقة له بالاشتراكية ولا بغيرها من المذاهب ، حق لا مرية فيه . فإن الاشتراكية لم توجد إلا فى القرن التاسع عشر ، فأين هى من الاسلام الذى أنزل فى القرن السابع للميلاد ؟ نعم وضع مشرّع اسبارطا اليونانية (ليكورج) نظاما اقتصاديا لجمهوريته لم تقم عليه أمة قبله ولا بعده ، آخى به بين جميع الاسبارطيين ، حتى كانوا يتناولون الطعام مختلطين فى موائد عامة كأنهم أعضاء أسرة واحدة ، وكانت أموالهم مشاعة بينهم لا غنى فيهم ولا فقير ؛ ولكن هذا النظام لم يلبث أن تصدع ، وزالت معه دولة اسبارطة ، ووقعت تحت كلاكل المقدونيين ، دون أن يترك أهلها أثرا علميا أو فنيا كما ترك إخوانهم الآتينيون . وقد كانت بلادهم جبلية قاحلة لا تسمح أن تقوم بها أمة تتخذ نظاما يصلح أن يسمى نظاما اجتماعيا قيما ، لذلك لم يفكر حتى غلاة الاشتراكيين فى أن يتخذوا ما كانت عليه قدْمة تؤيد ما يذهبون إليه من نظرياتهم .

أما قول فضيلته عن الإسلام : إنه نظام يكفل للمسلمين السعادة فى معاشهم ومعادهم ، ويضمن لهم التكافل الاجتماعى ، بفرض الزكاة على القادرين والموسرين لمصلحة الضعفاء والفقراء ، فثابت لا يمكن التردد فيه . فقد أثبت التاريخ أن الضعفاء والفقراء فى المجتمعات الإســلامية نالت فى جميع بلاد المسلمين من الرعاية ما لم ينل بعضه أمثالهم فى جميع البلاد ، ومنها أوروبا ، إلى أوائل القرن التاسع عشر .

فقد كانت الطبقة الدنيا من الشعوب تعيش فى الحرمان ، بل فى العبودية للسراة والمثرين . وكان الفلاحون يباعون ، حتى فى فرنسا نفسها وفى أرقى ممالك أوروبا ، مع الأرض التى يعملون فيها ، فينتقلون من ملكية سيد إلى ملكية سيد آخر دون أن يستشيرهم أحد فى مصيرهم .

قال فضيلة الأستاذ الأكبر : فرض الإسلام الزكاة على القادرين والموسرين لمصلحة الضعفاء والفقراء . ونقول نعم وهو الوضع الطبيعى المعقول ؛ ولكن الأمم قبل

الاسلام من أول عهد الرومان إلى عهد الثورة الفرنسية فى القرن الثامن عشر كانت تفرض الضرائب والاتاوات على الفقراء ومتوسطى الحال ، وكانت تعفى الأغنياء والأقوياء منها . وقد حملت هذه المعاملة العامة فى الدولة الرومانية على الاضراب عن العمل مرات متتالية ، فكانوا فى كل مرة يرضخ لهم القادرون والموسرون بصبابة لاتروى غلة ، فلما أعوزهم الاصطبار تركوا أعمالهم ولاذوا بالجبال ؛ وما زال أمرهم بين بين حتى زالت الدولة الرومانية ، وخلفتها حكومات استعانت على خنق شكاوى العامة بالدين ، بعد أن حرفوه عن حقيقته .

كان الملوك والأمراء ورجال الدين ، ومن لهم صلة بهؤلاء فى أوروبا ، معفَين من كل التكاليف المالية على مزارعهم الواسعة ، وعقاراتهم الثابتة ، وتجاراتهم الرائجة ؛ وكان على العامة أن يرسفوا فى قيود الفاقة ، وأن يصبروا على آلام الحرمان . فلما جاء الاسلام قلب هذه الحال الى ضدها ، ففرض على القادرين والموسرين زكاة لمصلحة الفقراء والضعفاء والمعوزين ، ودعاها حقا لهم ، فقال تعالى : « وفى أموالهم حق للسائل والمحروم » .

وقد شدد الاسلام فى تحصيل هذا الحق حتى قاتل الممتنعين عن أدائه . فانه لما امتنع بعض القبائل العربية عن دفع الزكاة ، أمر أمير المؤمنين أبو بكر أن تحصل منهم بالقوة ؛ فلما أكبر بعض أصحابه هذا التشديد قال : « والله لو منعونى عقال بعير لقاتلتهم عليه » . وأنت خبير بأن هذه الزكاة كان يؤدَّى جانب كبير منها للفقراء والمملقين . قال الله تعالى : « إنما الصدقات للفقراء ، والمساكين ، والعاملين عليها ، والمؤلفة قلوبهم ، وفى الرقاب ، والغارمين ، وفى سبيل الله ، وابن السبيل ، فريضةً من الله ، والله عليم حكيم ، وكلها كما ترى وقف على مصالح الفقراء وحفظ كيان الاجتماع . فقوله تعالى : « والعاملين عليها » أى على تحصيلها فإنهم يعطون أجورهم منها . وقوله سبحانه : « والمؤلفة قلوبهم » أى الذين أسلموا حديثا فتستألف قلوبهم بإمدادهم بشىء يستصلحون به معايشهم ليتحققوا أنهم بين ظهرانى قوم رحيمين . وقوله جل وعز : « وفى الرقاب » أى فى فك أسر الأرقاء ، فقد كان من عادة العرب أن يعين الواحد منهم لرقيقه مالا إذا أداه له تحرر من أسره . فأمر الله الحكومة الإسلامية أن تمد هؤلاء الأسرى بأموال ليتحرروا من رقهم ، وهو

غرض عمرانى جليل يشعر بأن الإسلام يرمى الى إعانة الضعفاء على أية صورة كان ضعفهم . وقوله تعالى : « والغارمين » أى والمديونين لأنفسهم فى غير معصية ولا إسراف . وكذلك الباذلى أموالهم لإصلاح ذات البين ، فيرد إليهم ما دفعوه وإن كانوا أغنياء ، تنشيطا لهم على العمل للإصلاح بين الناس . « وابن السبيل » : المسافر الذى فقد ماله .

وقول فضيلة الأستاذ الأكبر لمحدثه : « وهذا النظام يقوم على قواعد اجتماعية وعمرانية لا نظير لها فى أى مذهب دنيوى من المذاهب الحديثة » ، فتأكيد لا مبالغة فيه ، فإن العقول الإنسانية عجزت عن فرض نظام اقتصادى يسرى سريان نظام الزكاة ، ويتناول الثروة العامة من جميع نواحيها ، على الوجه الذى عليه الزكاة فى الإسلام . فإن كل ما فعلته هذه العقول وتفعله أن تفرض على دَخْل كل إنسان وعلى ما يؤول إليه من الأموال ، ضريبة تصاعـــدية تحصلها وتضيفها الى خزينة الدولة ، فتنفقها فى الوجوه التى تنفق فيها سائر إيراداتها .

ولكن الإسلام خص دَخْل الزكاة ، مهما كثر ، فى رأب صدوع المجتمع التى أساسها الفقر والإعواز . وقد ثبت أن الفقر فى الطبقات السفلى من المجتمعات شر أدواء الاجتماع ، فهو يحمل الواقعين تحت كلاكله على إتيان جميع ضروب الشرور للحصول على أخص حاجات الحياة وهو القوت . فالبطون إذا خوت ، والأجساد إذا عريت ، دفعت أصحابها لاستساغة جميع صنوف الجرائم ، وعدّت ذلك عملا مشروعا . ومهما أعدت الحكومات من درجات العقوبات باءت فى كبحها بالفشل .

وفى البيئات التى يشيع فيها الفقر ، تروج جميع المذاهب المتطرفة التى تستحل جميع شكول الأعمال الوحشية للوصول إلى أغراضها ، وتعتبر ذلك من الأمور المشروعة . وقد ذاقت أوروبا من هـذه الناحية شر ما يولده الفقر من الأعمال الضارة بالعمران ، من أول الاضرابات البريئة عن الأعمال ، إلى آخر ما تتطور إليه من الثورات التى لا تبقى ولا تذر . وقد استعاذ النبى صلى الله عليه وسلم من الفقر ، وهو أزهد الناس فى الدنيا ، ولم يملأ بطنه قط من طعام .

فمن أحكم ما رأيناه فى الإسلام ، وكل ما فيه متناه فى الإحكام ، أن يفرض على أهله فريضة مالية يخصصها لتدارك حاجات الفقراء . وقد عُنى عناية فائقة

بأمر هذه الطبقة حتى قال النبي صلى الله عليه وسلم : « ليس منا من بات شبعان وجاره جائع » . ناهيك أنه سمى ما يدفع لإعانة الفقراء حقا لهم ، لا مجرد تفضل من الأغنياء عليهم . وقد أمر باسداد طالب المعونة بحاجته مهما كان مظهره فقال : « أعط السائل ولو جاءك على فرس » .

بهذه التعاليم اضطلعت الأمة الاسلامية ، فلم ينتشر فيها الفقر انتشاره فى غيرها ، ولم يصبها من أهل الإملاق شر فى جميع أدوار حياتها الاجتماعية ، واستن المسلمون بسنة نبيهم صلى الله عليه وسلم فى علاج الفقر بقدر ما هُدوا اليه ، فأسسوا للفقراء الملاجىء ، وشيدوا لأبنائهم المدارس المجانية ، ووقفوا عليها عقائل أموالهم ، ولا يزالون يجرون على هذه السنة .

ولم يكتف الاسلام بما فرض من الزكاة ، بل جعل كثيرا من الكفارات أموالا تبذل للفقراء ، أو لفك رقاب الأسراء ، وكلها ترمى الى الترفيه عن المحتاجين ، وقد عُدت الآيات التى وردت فى الكتاب الكريم عن بذل المال فى وجوه البر ، فوجدت أكثر مما ورد منها فى الحث على الصلاة .

إن الذين يطلعون على الحوادث العالمية ، وخاصة الحادثة من تطاحن الأحزاب وما يجره هذا التطاحن من اضطراب الأمور ، وقلق النفوس ، يدركون لأول وهلة أن منشأها سوء توزيع الثروة بين الأفراد ، فإذا وجد نظام اقتصادى يحوّل حصة صالحة من الثروة العامة تحويلا آليا مبنيا على نظام قار ثابت ، الى الناحية التى تشكو الإقلال ، سواء بتوزيعها نقدا ، أو بإنشاء ملاجىء ومستشفيات وصيدلات ومدارس مجانية ، بحيث تسد حاجة أهل الإقلال ، فان المذاهب الاشتراكية من معتدلها ومتطرفها لا تجد حاجة لتكدير صفو الحياة الاجتماعية . وهذا يتم عمله بواسطة الزكاة .

فما أصدق فضيلة الأستاذ الأكبر إذ قال لوزير المجر : « إن هذا النظام الاسلامى يقوم على قواعد اجتماعية وعمرانية لا نظير لها فى أى مذهب دنيوى من المذاهب الحديثة » .

محمد فريد وجدى

الرفق في العبادة

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ فكرى ياسين
مدير إدارة البحوث والثقافة المساعد
بالأزهر الشريف

أخرج الإمام أحمد بإسناده عن رجل من باهلة، قال: «أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم لحاجة مرة، فقال: من أنت؟ قلت: أما تعرفنى؟ قال: ومن أنت؟ قلت: أنا الباهلى الذى أتيتك عام أول، فقال: إنك أتيتنى وجسمك ولونك وهيئتك حسنة، فما بلغ بك ما أرى؟ قلت: والله ما أفطرت بعدك إلا ليلا. قال: من أمرك أن تعذب نفسك؟ من أمرك أن تعذب نفسك؟ ثلاث مرات؛ صُمْ شهر الصبر، قلت: إنى أجد قوة، وإنى أحب أن تزيدنى، قال: صم يوما من الشهر، قلت: إنى أجد قوة، وإنى أحب أن تزيدنى، قال: فيومين من الشهر، قلت: إنى أجد قوة، وإنى أحب أن تزيدنى، قال: ثلاثة أيام من الشهر، قال: وألح عند الرابعة، فما كاد، فقلت: إنى أجد قوة، وإنى أحب أن تزيدنى، قال: صم الحرم وأفطر».

من هذا الحديث نعلم أن الله تعالى نهى عن الإثقال فى الطاعات، والمغالاة فيها، وأمر بالرفق واليسر فى العمل بأحكام الدين، وحث على ألا يفعل الانسان ما فعله ذلك الرجل الباهلى، وما كان يفعله كثير من العباد والمتنسكين الذين كانوا يحملون أنفسهم من العبادة ما يضر بأجسادهم، ويشق على نفوسهم، فهؤلاء وإن كانوا أهل صدق وجد واجتهاد، إلا أنه ينبغى ألا يقتدى بهم فى هذا الإفراط والتشدد، وإنما يقتدى بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فان خير الهدى هديه، وقد كان ينهى عن التعسير، ويأمر بالتيسير، ودينه الذى بعث به يسر، وكان يقول: خير دينكم أيسره، وكان أكثر تطوعه صلى الله عليه وسلم ببر

القلوب وطهارتها ، وسلامتها ، وقوة تعلقها بالله ، خشية له ، ومحبة ، وإجلالا ، وتعظيما ، ورغبة فيما عنده ، وزهدا فى الدنيا .

سئلت فاطمة بنت عبد الملك زوجة عمر بن عبد العزيز بعد وفاته عن عمله ، فقالت : والله ما كان أكثر الناس صلاة ، ولا أكثرهم صياما ، ولكن والله ما رأيت أحدا أخوف لله من عمر ! لقد كان يذكر الله فى فراشه ، فينتفض انتفاض العصفور من شدة الخوف ، حتى نقول : ليصبحن الناس ولا خليفة لهم . وقال بعض السلف : مابلغ من بلغ عندنا بكثرة صلاة ولا صيام ، ولكن بسخاوة النفوس ، وسلامة الصدور ، والنصح للأمة .

فالنبى صلى الله عليه وسلم لما رأى ذلك الرجل الباهلى ، وقد نهكه الصوم ، وغير هيئته ، وأضر به فى جسده ، أمره أولا أن يقتصر على صيام شهر الصبر ، وهو شهر رمضان ، فلما طلب منه أن يزيده من الصيام ، وأن يأمره بالتطوع ، قال له : صم يوما من الشهر ، فاستزاده ، فقال له : صم يومين ، فاستزاده ، فقال له : صم ثلاثة أيام ، فلما ألح عليه عند الثالثة ، ما كاد يزيده على الثلاثة أيام من الشهر .

وكذلك فعل النبى صلى الله عليه وسلم مع عبد الله بن عمرو بن العاص ؛ ففى صحيح مسلم عنه : أن النبى صلى الله عليه وسلم قال له : صم يوما — يعنى من الشهر — ولك أجر ما بقى ، قال : إنى أطيق أكثر من ذلك ، قال : صم يومين ، ولك أجر ما بقى ، قال : إنى أطيق أكثر من ذلك ، قال : صم ثلاثة أيام ، ولك أجر ما بقى .

ووجه ذلك أن الصيام يضاعف ما لا يضاعف غيره من الأعمال ، ولا يعلم منتهى مضاعفته إلا الله تعالى ، وكلما قوى الاخلاص فيه ، وإخفاؤه وتنزيهه من المحرمات والمكروهات ، كثرت مضاعفته ، فلا يستبعد أن يصوم الرجل يوما من الشهر ، فيضاعف له بثواب ثلاثين يوما ، فيكتب له صيام الشهر كله ، وكذلك إذا صام يومين من الشهر ، فأما إذا صام ثلاثة أيام فالأمر ظاهر ، لأن الحسنة بعشر أمثالها ، فاليوم بعشرة أيام .

وحديث الباهلى هذا ، يدل على أن التكلف فى العبادة بما يشق على النفس ، ويتأذى به الجسم ، غير مأمور به شرعا ؛ ولذلك قال له النبى صلى الله عليه وسلم : من أمرك أن تعذب نفسك ؟ وأعادها عليه ثلاث مرات .

وهذا كما قاله لمن رآه يمشى فى الحج ، وقد أجهد نفسه : إن الله لغنى عن تعذيب هذا نفسه ، فمروه فليركب .

وقال لعبد الله بن عمرو بن العاص ، حيث كان يصوم النهار ، ويقوم الليل ، ويختم القرآن فى كل ليلة ، ولا ينام مع أهله ، فأمره أن يصوم ويفطر ، ويقرأ القرآن فى كل سبع ، وقال له : « إن لنفسك عليك حقا ، وإن لأهلك عليك حقا ، فآت كل ذى حق حقه » .

ولما بلغه أن عثمان بن مظعون أراد التبتل قال له : أترغب عن سنتى ؟ قال : لا ، ولكن سنتك أريد ، قال : فإنى أنام وأصلى ، وأصوم وأفطر ، وأنكح النساء ، فاتق الله يا عثمان ، فإن لأهلك عليك حقا ، وإن لضيفك عليك حقا ، وإن لنفسك عليك حقا ، فصم وأفطر ، وصل ونم .

وعزم جماعة من الصحابة أن يتبتلوا ، فجلسوا فى البيوت ، واعتزلوا النساء ، وحرموا طيبات الطعام واللباس ، وهموا بالاختصاء ، وأجمعوا لقيام الليل ، وصيام النهار ، فنزل فيهم : « يأيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ، ولا تعتدوا ، إن الله لا يحب المعتدين » .

وقد ورد النهى عن صيام الدهر ، والتشديد فيه . وهذا كله يدل على أن أفضل صيام التطوع هو ألا يضعف البدن ، حتى يعجز عما هو أفضل منه من القيام بحقوق الله تعالى ، أو حقوق عباده اللازمة ، فانْ أضعف عن شىء من ذلك مما هو أفضل منه ، كان تركه أفضل . فالأول مثل أن يضعف صيام التطوع عن الصلاة ، أو عن الذكر ، أو عن العلم ؛ والثانى مثل أن يضعف عن الكسب للعيال ، أو القيام بحقوق الزوجات ، فيكون تركه أفضل .

وكان النبى صلى الله عليه وسلم ، يتوسط فى إعطاء نفسه حقها ، ويعدل فيها غاية العدل ، فيصوم ويفطر ، ويقوم وينام ، ويأكل ما يجد من الطيبات كالحلواء والعسل ، ولحم الدجاج ، وتارة يجوع حتى يربط على بطنه الحجر ، وقال : عرض علىّ ربى أن يجعل لى بطحاء مكة ذهباً ، فقلت : لا ، يارب ، ولكن أجوع يوما ، وأشبع يوما ، فاذا جعت تضرعت اليك وذكرتك ، وإذا شبعت حمدتك

وشكرتك. فاختار صلى الله عليه وسلم أعدل الأحوال ، ليجمع بين مقامات الشكر والصبر والرضا .

وقد ورد : « اكلفوا من العمل ما تطيقون ، فو الله لا يمل الله حتى تملوا » . وورد : « أحب العمل الى الله أدومه وإن قل » . فمن عمل عملا يقوى عليه بدنه فى طول عمره فى قوته وضعفه ، استقام سيره ؛ ومن تحمل ما لا يطيق ، فانه قد يحدث له مرض يمنعه من العمل بالكلية ، وقد يسأم ويضجر ، فيقطع العمل ، فيصير كالمنبت ، لا أرضا قطع ، ولا ظهرا أبقى .

وقد ندم عبد الله بن عمرو بن العاص فى آخرة أمره حين عجز عن الاستمرار على ما أخذ بنفسه من قيام الليل وصيام النهار والإفراط فى العبادة وقال : ليتنى قبلت رخصة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقد كان رجل فى زمن التابعين ، يصوم ويواصل ، حتى عجز عن القيام ، وكان يصلى الفجر جالسا ، فأنكروا ذلك عليه ، حتى قال عمرو بن ميمون : لو أدرك هذا أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم لرجموه .

وكان ابن مسعود يقل صيام التطوع ، ويقول : إنه يضعفنى عن قراءة القرآن ، وقراءة القرآن أحب الىّ .

وأحرم رجل من الكوفة ، فقدم مكة ، وقد أصابه الجهد ، فرآه عمر ابن الخطاب ، وهو سيء الهيئة ؛ فأخذ عمر بيده ، وجعل يدور به الحلق ، ويقول للناس : انظروا الى ما يصنع هذا بنفسه ، وقد وسع الله عليه ! .

ولعل السر فى مطالبة الاسلام (بالرفق فى العبادة) والاعتدال فى أعمال التطوع واضح كل الوضوح ، فان الله تعالى خلق الانسان محتاجا الى ما يقوم به بدنه من مأكل ومشرب وملبس ، وأباح له من ذلك كله ما هو طيب حلال تقوى به النفس ، ويصح به الجسم ، ويتعاونان على طاعة الله ؛ وحرم عليه ما هو ضار خبيث ، يوجب للنفس طغيانها وقسوتها وغفلتها وأشرها وبطرها ؛ فمن أطاع نفسه فى تناول ما تشتهيه مما حرمه الله عليه ، فقد تعدى وظلم نفسه ، ومن منعها حقها من المباح حتى تضررت ، فقد ظلمها ومنعها حقها ؛ فمن تكلف من التطوع ما يتضرر به فى جسمه ، كما فعل ذلك الباهلى ، أو ما يمنع به حقا واجبا عليه ،

كما فعل عبد الله بن عمرو بن العاص وغيره ممن عزم على ترك المباحات فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم ، فانه ينهى عن ذلك ؛ ومن احتمل بدنه ذلك ، ولم يمنعه من حق واجب عليه ، لم ينه ، إلا أن يمنعه عما هو أفضل ، فانه يرشد الى عمل الأفضل . وأحوال الناس تختلف فيما تتحمله أبدانهم ، وتتقبله نفوسهم ، فيرشد كل واحد الى ما يناسب حالته .

وهذا كله يدل على سماحة الاسلام وسهولة أحكامه ، وما أصدق ما يروى عن النبى صلى الله عليه وسلم ، إذ يقول : « إن هذا الدين يسر ، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه » .

كما يدل على شفقة الرسول صلى الله عليه وسلم ورحمته بالمؤمنين ، إذ كان لا يترك فرصة إلا تعهدهم فيها بالنصح والإرشاد ، وتوجيههم الى ما فيه خيرهم وصلاحهم فى دينهم ودنياهم « لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم » .

طلب الحوائج

قال خالد بن صفوان : لا تطلبوا الحوائج فى غير حينها ، ولا تطلبوها من غير أهلها ، فان الحوائج تطلب بالرجاء ، وتدرك بالقضاء .

وقال : مفتاح نجح الحاجة الصبر على طول المدة ، ومغلاقها اعتراض الكسل دونها . وقد جاء ذلك فى الشعر فقال شاعر :

إنى رأيت وفى الأيام تجربة ... للصبر عاقبة محمودة الأثر
وقلّ من جد فى أمر يحاوله ... فاستصحب الصبر إلا فاز بالظفر

وقال حكيم : لا تطلب حاجتك من كذاب ، فإن يقربها بالقول ويبعدها بالفعل ؛ ولا من أحمق ، فإن يريد نفعك فيضرك .

وقال شبيب بن شبة : إنى لأعرف أمرا لا يتلاقى به إنسانان إلا وجب به النجح بينهما . فقيل له : وما ذاك ؟ قال : العقل ، فان العاقل لا يسأل مالا يمكن ، ولا يرد عما يمكن .

تحقيقات حول عقيدة ابن رشد

لحضرة الأستاذ الدكتور محمد غلاب

أستاذ الفلسفة بالجامعة الأزهرية

رأى ميرين :

استند هذا العالم فى حكمه على ابن رشد إلى نصوص كتاب « تهافت التهافت » فانتهى به بحثه إلى أن ابن رشد لم يبذل جهدا مخلصا فى التوفيق بين الفلسفة والدين فحسب ، بل إنه فى بعض المسائل الأساسية قد أخضع الفلسفة للدين ، والعقل للعقيدة ، فكان الدور الذى منح الفلسفة تمثيله هو دور شرح الحقائق الآتية عن طريق الوحى ، وفى الدائرة التى حددها الدين . وليس هذا النهج من مبتدعات ابن رشد ، بل هو مألوف عند جميع فلاسفة العرب ، ولكنه هو فقط أكثر ظهورا فى فلسفة ابن رشد . فمثلا نحن نشاهد ابن سينا ينغمس فى نوع من التنسك المظلم الذى لا يفهمه إلا تلاميذه كلما اصطدم بمشكلة لا تتفق مع رأى القرآن ؛ أما ابن رشد فقد ذهب الى ما هو أبعد من هذا حيث أعلن مثلا بإزاء مسألة الحياة الأخرى أنه يجب ترك هذه المسألة ، وأنه — إلى أن يجد لها العقل حلا يتفق مع القرآن — يعد الخروج فيها عن حدود الإيضاح القرآنى ، أو الارتياب فيه ، ضربا من الإلحاد . ومن هذا يتبين أننا إذا تعقبنا الفلسفة العربية الى آخر خطواتها ، ألفيناها دائما خاضعة للدين (١) .

ونحن لا نحسب أننا فى حاجة إلى التنبيه على خطأ هذا العالم بعد الذى أسلفناه حين عرضنا لفلاسفة الإسلام من محاولاتهم المغالية فى إخضاع الدين للفلسفة الإغريقية وجعلها هى المركز الرئيسى الذى يجب أن يجذب إليه النصوص القرآنية ، وما ذكرناه من آرائهم التى تثبت فى وضوح أنهم كانوا يقدمون العقل

---

(١) انظر مجلة « الموزيئون » البلجيكية سنتى ١٨٨٨ - ١٨٨٩ تحت عنوان « دراسات فى فلسفة ابن رشد » .

على كل شيء إلى حد حمل الأستاذ «كارادى فو» على أن يعلن أنهم كانوا يجعلون الوحى فى الدرجة الثانية بعد الفلسفة .

ميجيل أزين :

بدأ هـذا الباحث دراسته بترجمة فصول من كتب : «تهافت التهافت» و «فصل المقـال» و «كشف الأدلة» الى اللغة الأسبانية ، ثم عقد بينها وبين نصوص القديس توماس الاكوينى موازنة دقيقة خرج منها بأن رينان قـد غالى فى زعمه أن ابن رشـد كان عقليا محضا ، وأن الحقيقة الناصعة هى أنه خصم لدود للتعقل الحـر ، وأن مذهبه فى محاولاته التوفيق بين الفلسفة والدين يشبه مذهب القديس توماس ، إذ هو يرمى إلى إثبات أن العقل — وليست الفلسفة أو البحث عن جواهر الأشياء بالبرهان إلا من منتجاته — يقود إلى عدد كبير من الحقائق ولـكنه لا يقود إليها جميعها . ولهذا لم يكن بد من الوحى الإلهى أولاً لـكى يصور الحقائق الضرورية للنجاة أمام أخيلة الجماهير فى صـورة رمزية فاتنة ؛ ثانيا لـكى يلهم الجميع حتى الفلاسفة بعض الحقائق لما بعد الطبيعية التى يستطيع العقل أن يدرك وجودها لا معانيها . وبما أن مصدر العقل والوحى واحد ، فمن غير الممكن أن يتناقضا ، بل يجب أن يتعاونا ، غير أنه لما كان الوحى يفوق العقـل ، فقد وجب فى حالة التعارض الظاهر أن يخضع الثانى للأول .

وأخيرا ينتهى «أزين» فى بحثه إلى أن إخلاص ابن رشـد الدينى ينبغى أن يوضع فوق كل ريبة ، وأنه فى جميع مهاجماته التى وجهها إلى المتكلمين لم يتعد حد السنة النقية [1] .

ليون جوتييه :

لم يقع هـذا العالم فيما وقع فيه أسلافه من التسرع فى الحـكم على ابن رشـد ، وإنما أصدر رأيه فيه بعد روية وتمعن ، وهو يتلخص فى أن الباحث — لكى يدرك

(١) انظر المقـال المعنون «رشدية القديس توماس الالهية» المنشورة فى الـكتاب الذى عنوانه : «إجلال إلى دون فرانثيسكو كوديرا» .

الأسباب الحقيقية التى حملت ابن رشد على التناقض الظاهرى الذى يشاهده الناظر فى فلسفته — يجب عليه أن يعرف أن هـذا الفيلسوف قد قسم بنى الإنسان إلى ثلاث فصائل ، وأبان نوع المعرفة الذى يجب أن يقدم إلى كل فصيلة (٢) .

فأما أفـراد الفصيلة الأولى فهم الفـلاسفة أو ذوو البراهين العقلية الذين لا يقنعون بدون الحجة القاطعة ، والمعرفة التى يجب أن تقدم الى هؤلاء هى المعرفة العقلية البحتة ، أى أنه لا يصح أن يخفى عليهم شىء ألبتة ، بل ينبغى أن يباح لهم تحليل النصوص المتشابهة أو المعقدة من الـكتب الدينية ، إذ لا يجوز أن يحتجب عنهم سر ولا أن تقف فى طريقهم معجزة ، لأن الأسرار والمعجزات ليست إلا بعض الرموز المقـدرة للجماهير ولا تتصل بالمعرفة الفلسفية التى لا تتعلق إلا بالحجج العقلية .

وأما أفـراد الفصيلة الثانية فهم رجال الدين الذين يعتمدون على الأقاويـل الجدلية ، وهؤلاء قادرون على أن يتبينوا المصاعب الموجودة فى النصوص الدينية فحسب ، ولـكنهم عاجزون كل العجز عن فهم المعانى الحقيقية لهـذه النصوص . ويجب على الفلاسفة ألا يقدموا اليهم من المعرفة إلا النوع الأوسط الذى يتلاءم مع عقلياتهم ، وهو التأمل المؤلف من أجزاء عقلية وأخرى دينية .

وأما أفـراد الفصيلة الثالثة فهم العامة الذين تستهويهم الأساليب الخطابية ، وهؤلاء عاجزون عن كل شىء ولا يصح أن يقدم اليهم أى تأويل ، بل يجب أن يأخـذوا بحرفية النصوص ، وأن يؤمنوا بجميع الرمـوز والتمثيلات دون بحث ولا تأويل .

ومن أوضح الأدلة على صحة هـذا التقسيم هو ذلك القول المأثور : « الله فى السماء » . فإن العامة يعتقدون أنه يقطن السماء كما يقطنون منازلهم ، ورجال الدين يؤولون هذه الـكلمة بأن الله فـوق النقص والضعف الإنسانيين ، ولـكنهم لـكى

---

(١) تبع ابن رشد بلا ريب فى هذا تقسيم أرسطو الحجج إلى برهانية وجدلية وخطابية وشعرية وسوفسطائية ثم اطرح الرابعة والخامسة لافراط أولاهما فى الخيال ، وفساد ثانيتهما ، وأبقى الثلاث الأول ، وقسم الانسانية ومعارفها على غرارها .

يوضحوا تأويلهم يقولون : « إن الله فى كل مكان » . أما الفيلسوف فإنه يعلم أن قول رجال الدين : إن الله فى كل مكان ، يساوى قول العامة : إنه فى السماء ، لأنه فى الحالتين يكون جسما يشغل قدرا من الفراغ قل أو كثر ، وهو لهذا يقول : « إن الإله ليس فى أى مكان ، وإنما هو موجود فى ذاته ، وإن تأثيره هو الذى يشمل كل مكان » .

ومن هذا يتبين أن الفلاسفة يجب عليهم أن يفلسفوا سرا ، وأن يضنوا بمعارفهم على أهل الطبقتين : الوسطى والدنيا ؛ وألا يبوحوا لهم بشىء من أسرار حكمتهم ؛ كما يجب على رجال الدين ألا يكشفوا النقاب للعامة عن شىء من معارفهم حتى لا يعرض العقل لهدم الدين من النفوس التى هو ضرورى لها .

ومن هذا أيضا يبين أن الفلسفة والدين ليسا إلا تعبيرين عن حقيقة واحدة تقضى الحكمة ألا يستعمل أحدهما فى موضع الآخر ؛ الأول عقلى واضح ، والثانى رمزى غامض . وهذا هو معنى التوفيق الذى حاول ابن رشد تثبيته بين الحكمة والشريعة ، فقرر أنهما تستطيعان السير جنبا الى جنب كأختين متحابتين مادامتا متجهتين الى صنفين مختلفين من الناس . ولو أن المعتزلة والأشعرية قد فهموا هذا لما كانوا مصدر تشكيك الناس فى دينهم كما فعلوا حين حسبوا أنه يجب أن يدعى الناس جميعا على نهج واحد وبدون تمييز بينهم الى معرفة الإله وإلى الحقائق الدينية ، وباحوا للجميع بالتأويلات التى ظنوا أنها حقيقية . ولما لم يكونوا متفقين فيما بينهم فقد أنشئوا مذاهب وشيعا كان همها الأول أن تتبادل التهم بالكفر والزندقة ، وفى الواقع أن كل تلك الصدوع الدينية التى وقعت فى الاسلام تولدت من هذه التأويلات المختلفة التى لا تتفق مع الفلاسفة ولا مع العامة .

بقى الآن أن نعرف كيف تصاغ الحقائق الفلسفية فى عبارات رمزية تتفق مع عقليات الجماهير ، إذ أن هذه الصياغة لا تحدث فى نفوس الفلاسفة المخصصة بالمجردات ، ولا فى نفوس العامة العاجزة ، وإنما هى تحدث فى نفوس الأنبياء الذين بعد أن يفيض عليهم العقل الايجابى — كما يفيض على الفلاسفة — إدراكات عقلية برهانية يعود فيرن فى أخيلتهم رنينا يجعلهم قادرين على تحويل الأفكار النقية إلى تمثيلات رمزية ، وهذا دليل قاطع على أن النبى هو وحده الانسان الكامل

الأسمى من الفيلسوف ، وهو الذى تجتمع فى نفسه الحكمة مع الدين ، وهو الصلة الحية بين العقل والعقيدة .

وأحسب أنه لم يبق بعد ذلك موضع للقول بأن ابن رشد ليس عقليا خالصا ؛ أو بأنه أخضع الفلسفة للعقيدة كما زعم أصحاب هـذا الرأى ؛ وإنما الحقيقة التى لا ريب فيها هى أن هـذا الفيلسوف لم يخط كلمة واحدة تشهد بخضوع الفلسفة للدين ، بل بالعكس قد أعلن أن الفلسفة والديانة ليستا متساويتين ؛ فموضوع الأولى من الثانية هو موضع الصفوة من الشعب ، والفكرة النقية من رمزها المادى ؛ وهذا هو الذى حمله على أن يؤول النصوص الدينية فى حالة اختلافها مع الفلسفة ليتحقق التوفيق بينهما [1] .

هذا هو موجز رأى الأستاذ ليون جوتييه فى ابن رشد وآرائه بإزاء الدين ، ولا أرانى فى حاجة إلى التصريح بأنه رأى ثاقب دقيق يحمل فى طياته برهان عمق كاتبه وفهمه للموضوع الذى عالجه ، وقدرته على التغلغل فى غيابات الفلسفة الرشدية بهيئة لم يسبقه إليها أحد من الباحثين ؟

سـياسة الملك

قال الوليد بن عبد الملك لأبيه : يا أبت ما السياسة ؟ فأجابه : هيبة الخاصة مع صدق مودتها ، واقتياد قلوب العامة بالانصاف لها واحتمالها فوات الضائع .

وكتب أبرويز ملك الفرس إلى ابنه شيرويه : اعلم أن كلمة منك تسفك دماء ، وأخرى تحقن دماء ، وأن سخطك سيف مسلول على من سخطت عليه ، وأن رضاك بركة مستفيضة على من رضيت عنه ؛ وأن نفاذ أمرك مع ظهور كلامك . فاحترس فى غضبك من قولك أن يخطىء ، ومن لونك أن يتغير ، ومن جسدك أن يخف ؛ فان الملوك تعاقب حذرا ، وتعفو حلما . واعلم أنك تجل عن الغضب ، وأن ملكك يصغر عن رضاك ، فقدر لسخطك من العقاب ، كما تقدر لرضاك من الثواب .

(1) L. Ganthier. la théorie d'ibn Rochd sur les rapports de la religoin et la raison, p. 74-78, 84-85, 108 sq.

أسباب تاخر المسلمين

المؤامرة الثانية

قتل عثمان رضى الله عنه

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبد الحميد عنتر
الأستاذ بكلية اللغة العربية

وصلت مع القارىء الكريم فى مقالى السابق تحت هذا العنوان الى نتيجة المؤامرة الأولى ، وهى اغتيال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه . وكان المتؤامرون يظنون أنه سينفرط عقد الجامعة الإسلامية بهذا الحادث الفظيع ، فيتم لهم ما أرادوا من الشر والوقيعة . ولكن ساء ظنهم ، وخاب أملهم ، و « سُقط فى أيديهم ، ورأوا أنهم قد ضلوا » حين رأوا كلمة المسلمين مجتمعة تحت راية الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضى الله عنه . عند ذلك توارَوا تحت ستار من المكر والخداع برياسة عبد الله بن سبأ [1] اليهودى ، وعمدوا إلى إثارة الفتنة والدس بين المسلمين ، واستعملوا لذلك كل دهاء وكياسة ، حتى أوقعوا بين المسلمين وخليفتهم ، وكانت النتيجة أن قتل رضى الله عنه فى داره والمصحف بين يديه ! وبذلك قوى عزمهم على تنفيذ جميع مؤامراتهم المدبرة ، فأشعلوا نار الخلاف بين على ومعاوية رضى الله عنهما ، وانتهت تلك الفتن بقتل الإمام على

---

(١) وكان يلقب بابن السوداء ، لسواد أمه . أسلم عن خبث نية وفساد طوية وكيد للاسلام ، وهو القائل بأن عليا رضى الله عنه وصى محمد عليه السلام وقد غصبه هذا الحق من تولى الخلافة قبله من الخلفاء فالواجب على المسلمين أن يقوموا لاعادة الحق الى أهله . وقد تبعه كثير من ضعاف الايمان وأهل الأهواء على هذا الرأى الفاسد . وكان ظهوره بالبصرة سنة ٣٤ هـ ثم طرد منها فذهب الى الكوفة ثم الى الحجاز ثم الى الشام فطرد من الجميع ، فذهب الى مصر وبها طاب له المقام ، فأخذ ينشر بين المصريين آراءه التى كانت بذورا للفتنة « التى تموج كموج البحر » كما سبق بيانه فى نهاية المقال السابق .

ابن أبى طالب رابع الخلفاء الراشدين ، وأحد شجعان العرب فى الإسلام . قتله الخوارج من أعضاء الجماعات السرية التى أوضحت أمرها آنفا . وهـذه هى (المؤامرة الثالثة) .

وكان قصد المتآمرين بهذه المؤامرة أن يقضوا على سلطان العرب فى جميع بقاع الإسلام بقتل أساطينهم فى مصر والشام والعراق ، وهم على ومعاوية وعمرو ابن العاص ؛ وبذا تقع الفوضى ويحدث الاضطراب فى صفوف المسلمين . ولما لم يتم لهم جميع ما أمّلوا من الفساد والإفساد ، ركزوا جهودهم سرا فى الإيقاع بالحسين ابن على رضى الله عنهما ، حتى كانت (المؤامرة الرابعة) التى انتهت بمقتله رضى الله عنه ، وتشتيت آل بيت النبى صلى الله عليه وسلم فى كثير من بلدان الإسلام !

ولست الآن فى مقام مؤرخ يسجل الحوادث الدامية التى وقعت فى تاريخ الإسلام ، ولكنى بصدد بيان أن تلك الفواجع الأليمة ، والخطوب الجسيمة لم يكن مصدرها العرب أنفسهم كما يدعى ذلك أعداء العرب من مستشرقى « أوروبا » ؛ وإنما كان مدبر أمرها ، ومطير شررها وموقد نارها بين العرب هم أولئك الفئام من مدعى الإسلام وليسوا منه ولا من العروبة فى شىء ، الذين نكب بهم الإسلام نكبة لم يرتفع منها رأسه الى وقتنا هـذا ، والذين تربصوا الدوائر بخلفاء بنى أمية ، وأوقدوا نار العداوة بينهم وبين بنى العباس ، ثم طوّحوا ببنى العباس فى مهاوى الردى والدماء ، ثم خلفتهم ذريتهم لتعيث الفساد فى دويلات الإسلام بمصر والعراق والشام ، بل وبلاد الأندلس العربية التى كانت إحدى جنات الدنيا ، وإحدى عجائبها التاريخية .

وإن تعجب أيها القارىء فعجب أن أمر تلك الجماعات لم يقف عند هذا الحد من الضرر البليغ ، بل تعـداه إلى ضرر أبلغ ، وجُرم أفحش ، وطوية أسوأ من كل ما ذكر ؛ ألا وهى التشكيك فى الدين .

وذلك أنهم لما رأوا أن تقلص ظل السلطان العربى لم يثمر الثمرة المرجوة لهم ، وأن دعائم الاسلام لا تزال ثابتة بالقرآن وبسنة الرسول عليه الصلاة والسلام ؛ لما رأوا ذلك الذى غاظهم عمدوا إلى إثارة الشك فى الدين بين ضعفاء الإيمان من المسلمين ، ففسروا القرآن بحسب أهوائهم تفسيرا باطنيا باطلا

لا تؤخذ معانيه من ألفاظه العربية ! واخترعوا مسائل الجدل فى أصول الدين ، كالقول بالتجسيم ، وبالجبر ، وبوجوب الصلاح والأصلح على الله تعالى .

وكذبوا على النبى صلى الله عليه وسلم ، فوضعوا آلاف الأحاديث المعطلة لمبادىء الإسلام ، أو الموقعة فى الضلال ، أو المفسدة للأخلاق ، ونسبوها الى الرسول عليه السلام زورا وبهتانا (١) ! !

وزادوا الطين بلة بتأليف الكتب فى بيان مثالب العرب وتعداد مساويهم وإسناد كل إفك ونقيصة وباطل اليهم ، من دون أن يكون لذلك ظل من الحقيقة والواقع ، حتى إن ابن خلدون المؤرخ المشهور تسمم بهذه الأفكار الخاطئة ، وتجنى على العرب ظلما فى فصلين عقدهما فى مقدمته التاريخية إذ يقول :

(فصل) فى أن العرب إذا تغلبوا على أوطان أسرع اليها الخراب !

ثم يقول بعد ذلك :

(فصل) فى أن العرب أبعد الأمم عن سياسة الملك !

وقد كتب فى هذين الفصلين ما شاء له هواه ، وأملته عليه غريزته ، ناسيا أو متناسيا حضارة العرب فى الأندلس ذات الجنان الفيحاء ، والقصور الشماء ، والآداب والعلوم ! وغافلا أو متغافلا عن تلك الرزايا المجوسية والرومية التى انصبت على رؤوس حكام العرب ، والتى لو جعلت على شم الجبال لدكتها دكا ، وتركتها قاعا صفصفا (٢) لا ترى فيها عوجا ولا أمتا ! وكأنى بلسان حال العرب يقول :

صبت على مصائب لو أنها   صبت على الأيام عدن لياليا

فيا لله للعرب ، ثم يالله للمسلمين ! !

كلمة إنصاف :

على أن ما حدث من بعض الشراذم الضالة الشريرة لا يمنعنا أن نقر بالفضل ،

---

(١) ولكنا نحمد الله إذ تصدى لتمييز هذه الموضوعات رجال من علماء الحديث المخلصين أهل الرواية والدراية . رحمهم الله ورضى عنهم !

(٢) الصفصف : الأرض المستوية ، والعوج : الانخفاض ، والأمت : الارتفاع .

ونعترف بجميل الصنع لمن دخلوا فى الاسلام من غير العرب ، وهم الكثرة الكاثرة من المسلمين ، فقد خدموا الاسلام أجل خدمة سجلها التاريخ .

فأكثر مفسرى القرآن من هؤلاء الأعلام ، وجل حفاظ الحديث النبوى ورجال الرواية من هؤلاء ، وفطاحل اللغويين والنحاة وعلماء البلاغة والأدب من هؤلاء ، بل أستطيع أن أقول : لولا أولئك الأمناء الأعاظم ، من علماء الإسلام الأعاجم ، لاندرست هذه العلوم ، وأضحت فى خبر كان !

إلى هنا يلاحظ القارىء أنى أطنبت فى بيان السبب الأول من أسباب تأخر المسلمين ، إلا أنى أعتقد أنه السبب الرئيسى لهذا التأخر ، وكل ماعداه من الأسباب الأخرى مرده الى هذا السبب .

السبب الثانى — إهمال المسلمين العمل بروح الكتاب والسنة فيما دَعَوا اليه من الحث على الاتحاد والتعاون ونبذ العصبية الممقوتة ، والأخذ بأهداب العلم الدينى والدنيوى ، والجهاد فى سبيل الله . وهذا الإهمال داء قديم ظهر فى عصر بنى أمية ، ثم أخذ ينتشر بعد ذلك بين المسلمين انتشار النار فى الهشيم !

وكان يحمل جراثيم هذا المرض رجال من موالى الفرس والروم ، أمثال من عرضنا لذكرهم فى السبب الأول . ظهر هؤلاء للناس بمظهر التدين والطاعة والإخلاص لله ولرسوله ، وأخفوا بين ثنايا عباداتهم وطاعتهم سموم الأمراض الاجتماعية ، وشكوك العقائد الدينية ، يبثونها فى نفوس من شاءوا ، فى الوقت الذى شاءوا !

ومن عجيب أمر المسلمين أنهم لم يتنبهوا الى ما نبههم اليه الرسول صلى الله عليه وسلم فى أحاديثه الصحيحة من صفات هؤلاء المارقين من الدين ، الذين يلبسون للناس جلود الضأن ، وقلوبهم كقلوب الذئاب . روى البخارى فى صحيحه عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « يخرج فيكم قوم تحقرون صلاتكم مع صلاتهم ، وصيامكم مع صيامهم ، وعملكم مع عملهم ، ويقرءون القرآن لا يجاوز حناجرهم [1] يمرقون من الدين

(١) الحناجر : جمع حنجرة ، وهى طرف الحلقوم .

كما يمرق السهم من الرمية [١]، ينظر فى النصل [٢] فلا يرى شيئا، وينظر فى القِدح [٣] فلا يرى شيئا، وينظر فى الريش [٤] فلا يرى شيئا، ويتمارى فى الفوق[٥]». ومعنى الحديث أن كل واحد من هؤلاء يتظاهر بالصلاح والتقوى وليس فى قلبه منهما شىء، وأنه يدخل فى الإسلام ويخرج منه لا يعلق بقلبه منه شىء، كما يخرج السهم من الصيد المرمى بقوة الرمى لا يتعلق به ولا بشىء من أجزائه دم ولا غيره، حتى إن الرامى يتمارى ويشك هل فى الفوق شىء؟ مع أنه ليس بموضع للشك. وهذا الحديث ونحوه من أصدق الدلائل على صحة نبوته صلى الله عليه وسلم، وهو ينطبق تمام الانطباق على غلاة الخوارج والرافضة والباطنية، الذين نكب بهم الاسلام فى عصر على كرم الله وجهه، وفيما بعده من عصور الإسلام إلى يومنا هذا!

السبب الثالث — موجة الإلحاد التى طغت على العقائد فى العصور الأخيرة، فأغرقتها فى بحر لجى من الشك والحيرة، فكان من أثر ذلك أن ضعف اعتقاد الناس فى البعث والنشور والعرض والحساب، وفى الثواب والعقاب الأخرويين، أى الجنة والنار، وترتب على هذا الأثر أن قلت الرغبة فى الخير بين المسلمين، وكثرت نوازع الشر فيما بينهم. وهذه نتيجة طبيعية لمن لا يرجو ثوابا، ولا يخشى عقابا!

ونظرة فاحصة إلى حال المسلمين الأولين تريك صحة ما أقول:

آمن السابقون الأولون إيمانا صادقا بما جاء به الرسول عليه السلام، فكان من أثره أن باعوا أنفسهم وأموالهم فى سبيل الله بأن لهم الجنة، فقاتلوا الأعداء، وبذلوا الأموال، وجاهدوا حتى انتصروا، وكانت لهم الصولة والغلبة والدولة مع قلة عددهم وعُددهم. وذلك أثر الإيمان الصادق.

أما المسلمون اللاحقون فهم مع كثرة عددهم ووفرة أموالهم أذلاء فى ديارهم،

---

(١) الصيد.

(٢) حديد السهم.

(٣) القدح بكسر القاف: السهم قبل أن يراش.

(٤) ما يجعله حوالى الفوق مما يشبه الريش.

(٥) الفوق بضم الفاء: موضع الوتر من السهم.

مستسلمون لأعدائهم ، بخلاء بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله والوطن ، وهذا أثر إيمانهم . والبون شاسع بين الأثرين كما ترى .

السبب الرابع — انصراف الكثير من علماء الإسلام عن النظر والتفكير فى العلوم الكونية ، واشتغالهم بعلوم الدين واللغة والأدب . والذى أعنيه بهذا الكلام أنه كان يجب أن يكون فى عصر المجتهدين من علماء الدين كأبى حنيفة ومالك والشافعى وابن حنبل مجتهدون آخرون فى استنباط المعادن من بطون المناجم ، والبحث فى خواص الأجسام وقوانين الطبيعة للوصول إلى الكشف والاختراع ؛ وأن يقوم بجانب علماء اللغة والأدب كالخليل وسيبويه ، والفراء والأخفش ، والجاحظ وعبد القاهر ، والسكاكى والسعد والسيد ، والأصفهانى صاحب الأغانى ، وابن عبد ربه صاحب العقد الفريد ـ علماء آخرون من طراز آخر ، يبحثون فى تنظيم الجيوش الإسلامية ، وتزويدها بآخر ما وصلت إليه يد الاختراع من معدات الدفاع والحرب ؛ وآخرون يبحثون فى اختراع وسائل الراحة المختلفة ، وشئون الحياة العامة كالصحة والزراعة والصناعة والتجارة وغير ذلك مما يشاهد فى غير بلاد العرب والإسلام . وهاهنا أقول : إن جهلنا بعلوم الدنيا كان سبباً جوهريا فى تأخرنا وانحطاطنا فى شئون الدنيا وفى شئون الدين ! . ومما يثير فى النفس أعظم العجب أن دستور العرب — وهو القرآن الكريم — تعرض فى كثير من المناسبات الى الحث على الأخذ بأسباب هذه العلوم ، على حين أن الكتب السماوية السابقة لم تتعرض إلى شىء من ذلك ، بل لم تشر إليه أية إشارة .

السبب الخامس — تطرقُ اليأس الى نفوس العرب والمسلمين من إصلاح الحال . وقد نشأ عن هذا السبب هذه المهلكات ؛ وهى :

(ا) الجبن وترك الجهاد ، لاعتقادهم ضعف أنفسهم وقوة عدوهم ، وأنه لابد منتصر عليهم . وهو داء فتاك بالأمم ، لأنه يضعف فيهم الروح المعنوية ، ويُطمع فيهم الأعداء . وقد حدث هذا فعلا .

(ب) البخل بالمال فى سبيل المشروعات الخيرية والوطنية ، لأنهم يخافون الفقر ، ولا يرجون صلاحا . وهذا عيب اجتماعى كبير ، لأنه يؤدى إلى

البطالة وضعف الإنتاج ، وهما وسائل الفقر . وقديما قيل : الناس من خوف الفقر فى فقر !

(ج) الاستسلام للخور وضعف العزيمة ، لاعتقادهم أن الأجانب الغربيين سبقوهم الى كل شىء ، وفاقوهم فى كل شىء . وهو داء يقتل روح النهوض والنشاط ، ويثبط الهمم عن كل نافع مفيد .

(د) عدم الثقة بالنفس فى الشئون الاقتصادية والعمرانية . وهذا منشؤه ضعف العزيمة ، لاعتقادهم بأن الأجنبى الأوروبى متقن عمله ، مجيد صناعته ، وأن الشرقى لا خطر له فى إتقان عمل ولا فى إجادة صنعة !

وهذا الداء الفتاك كان يروج له ويدعو إليه أول نهضة « أوروبا » مستشرقون مأجورون وشرقيون مفتونون ، مدللين على صحة دعاواهم المبهرجة بحال الشركات العربية ، التى كانت تؤلف ثم لا تلبث أن تنحل وتصفى .

وحقيقة الواقع أن هذه أوهام باطلة ، وأن فشل تلك الشركات كان منشؤه دسائس الأجانب وحيلهم الماكرة الغادرة ، التى أطاحت بكثير من مشروعات العرب فى بلاد الشرق .

ويدلك على صحة ما أقول شيئان :

الأول — أن اليابان دولة شرقية قصوى ؛ ولكن لما خلصت من دسائس هؤلاء ترقت فى زمن وجيز حتى فاقت بعض دول « أوروبا » حضارة وعلوما !

الثانى — أن الوعى الشرقى الوطنى لما تنبه أخيرا الى أساليب هؤلاء الدعاة وخداعهم أخذ ينتج النتائج المثمرة ، ويقوم بالمشروعات الجليلة النافعة ، فى نواحى الصناعة والمال والاقتصاد . وأوضح مثال لذلك « بنك مصر » وشركاته الناجحة الرابحة .

وعما قريب بمشيئة الله تعالى نرى كثيرا من الشركات العربية والإسلامية تنقب عن خيرات الأرض وكنوزها الطبيعية فى صحارى مصر ، وطرابلس ، وجزيرة العرب ، والعراق ، والشام ، والأناضول . ويومئذ يعرف الناعبون من غربان المستشرقين بأن الشرق تنبه ، ولم يعد لقمة سائغة فى حلوق المستعمرين .

فلسفة القرآن والحياة الاخرى

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد يوسف الشيخ

المدرس بكلية أصول الدين

قرأت فى كتاب الفلسفة القرآنية للأستاذ العقاد فصلا فى الحياة الأخرى عرض فيه لمذاهب الفلاسفة قديما وحديثا ، ومذاهب الأديان الكتابية فى الحياة الثانية ، وكيف تكون وكيف يكون حال أصحاب هذه الحياة فى نعيمهم وعذابهم ، لذاتهم وآلامهم .

فذكر أن الفلاسفة قبل الأديان وبعدها يؤمنون بالحياة الثانية ؛ وأشهرهم من الأقدمين أفلاطون ، ومن المحدثين «كانت» وهما وإن اتفقا فى الإيمان بتلك الحياة الثانية إلا أن لكل منهما طريقه ومنهاجه ؛ فأفلاطون يؤمن بالحياة الثانية من طبيعة النفس وخصائصها وما لها من التجرد والبساطة ، وأنها من أجل ذلك لا تقبل العدم والانحلال . و «كانت» يؤمن بها من طريق شعورها بسلطة وإرادة إلهية تفرض عليها واجبات تقتضى لذلك العدالة الإلهية جزاء يميز بين المحسن والمسيء ، وليس ذلك فى هذه الحياة الأولى كما هو الواقع المشاهد ، فلا مناص من حياة ثانية يتحقق فيها هذا الجزاء . ومن هنا لفت الكاتب أنظار الباحثين الى أن هذه المسألة مسألة بحث وفكر ، وليست مجرد اعتقاد وإيمان ، فهى من القضايا التى يمكن للعقل أن يتناولها بقضائه ، وأنكر على التجربيين أن ينكروا لهذه القضية ، وأن يغلقوا الباب فيها ، إذ ليس لهم من الأسانيد العلمية ما يبيح لهم هذا الإغلاق .

هذه الحقيقة كعقيدة من العقائد التى تدعو الشرائع الكتابية الى الإيمان بها ، تختلف عنها فى تصويرها وتمثيلها كقضية يتناولها العقل بالبحث والتفكير ؛ فالعقل إذ يتناول الحياة الثانية وشؤونها بالبحث والنظر يفترض فى ذلك فروضا شتى ؛ يفترض تارة حياة على مثال هذه الحياة الأولى ، وتارة يفترض حياة تباين

تلك الحياة وما فيها من المادة والجسمية والعرضية وسائر شئون المادة ؛ كل هذا يفترضه العقل أولاً ، ثم يطمئن أخيرا الى ما هدى اليه البحث والنظر كيفما كان . أما الأديان وكتبها إذ تطالب الناس وتطالبهم جميعا بالإيمان بالحياة الثانية وما فيها من نعيم وعذاب ، لا بد أن تتمثل ذلك فى صور لا يتعذر على كافة الناس فهمها ؛ لا بد أن تصور ذلك فى أمثلة مما ألفه الناس وعرفوه ، فتحدث عن النعيم فى الآخرة فى صورة من الطيبات من ألوان الطعام والشراب والفاكهة ، والحور والولدان ، والقصور وما فيها من أثاث وأرائك ، وهكذا .

يتمثل ذلك فى قوله تعالى فى سورة الواقعة « فى جنات النعيم ، ثلة من الأولين وقليل من الآخرين ، على سرر موضونة متكئين عليها متقابلين ، يطوف عليهم ولدان مخلدون بأكواب وأباريق وكأس من معين ، لا يصدعون عنها ولا ينزفون ، وفاكهة مما يتخيرون ، ولحم طير مما يشتهون ، وحور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون ، جزاء بما كانوا يعملون ، لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما إلا قيلا سلاما سلاما » .

وتتحدث عن العذاب فتصوره نيرانا وسعيرا ، يسمع فيها المكذبون تغيظا وزفيرا ، وهكذا .

يتمثل هذا فى قوله تعالى فى سورة الفرقان « بل كذبوا بالساعة وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيرا ، إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا ، وإذا ألقوا منها مكانا ضيقا مقرنين دعوا هنالك ثبورا » .

هكذا يمثل القرآن النعيم الروحى والعذاب النفسى فى هذه الأمثلة الحسية ، فيعبد الطريق أمام الجماهير والعامة حتى يتمكنوا من الاقتناع والإيمان بما ادعت ودعت اليه الشرائع . أما ما وراء ذلك من المعنويات المجردة التى تختفى وراء تلك الأمثلة الحسية فينفذ إليها ذوو البصائر من الخاصة أهل النظر البعيد والتفكير العميق .

ولو أن الشرائع سلكت فى تفهيم الجماهير والعامة غير هذا السبيل ، فلقنتهم نعيما وعذابا فى الآخرة ليس من جنس ما ألفوا ولا يشبه ما اعتادوا وعرفوا ، لما وجدت لدعوتها سميعا ؛ فلا بد من أسلوب يحقق العقيدة عند جميع الناس خاصة وعامة ، ولا بد فيها من التعبير عن المعانى بالمحسوسات .

هـذا المسلك التمثيلى للعذاب والنعيم ليس خاصا بالإسلام وكتابه ، بل ذلك سبيل الأديان وكتبها جميعا ، تجد ذلك فى كتب العهد القديم والجديد ، وفى كتب التراتيل والدعوات . ونقل الأستاذ فى مقاله نصوصا كثيرة فى ذلك .

ينتهى الأستاذ فى آخر مقاله الى أن التعذيب تطهير للنفوس وتكفير عن سيئاتها ومآله الغفران ، وأن الأنفس جميعا تتلاقى فى حظيرة الرضوان . وأما الخلود والأبد فيفيدان الزمان الطويل ولا يفيدان البقاء بغير انتهاء .

هذا تلخيص وبيان لمقال الأستاذ العقاد .

وننكر فى هذا المقال أمرين : الأول تصوير النعيم والعذاب فى الحياة الثانية كما صوره عند الفلاسفة وكتب الأديان . الثانى تكييف العقوبة فى الآخرة وأجلها .

أما النعيم والعـذاب فى الآخرة فيختلف الباحثون فيه من فلاسفة ومليين : أهما محض معنويات مجردة منقطعة الصلة بالمـادة وغواشيها ، أم هما من جنس ما ألف الناس من العذاب والنعيم المادى ، وإن اختلفا فى الأولى والثانية كما وكيفا ؟

هذا الاختلاف فى تصوير النعيم والعذاب يرجع إلى اختلاف آخر أعظم منه خطرا : هل الانسان الذى له الحياة الثانية ينعم فيها ويعذب هو على نمط ذلك الانسان المعهود فى هذه الحياة الأولى ، تدخل المـادة فى تقويمه ، فهو إنسان ذو جسم ورأس ويد ورجل وأصبع وعين وأذن وأنف وفم ولسان وهكذا ؟ أم الانسان الثانى هو ذلك الروح المجرد الذى كان يدبر شؤون الجسم فى هذه الحياة الأولى ؟.

جزم الفلاسفة الإلهيون بأن الانسان الذى يحيا الحياة الثانية إنما هـو ذلك الروح المجرد ، ولا يمـكن أن يكون للمادة دخل فى تقويمه وقوامه ، ولا سيما تلك المـادة التى كانت من مقوماته ويدبر شؤونها فى الحياة الأولى ، ومن ثم فذلك الانسان الروحى المحض لا يمـكن أن يـكون له من اللذائذ والآلام إلا تلك المعنويات البريئة من المـادة وغواشيها . وإذاً فلا مناص لأولئك الفلاسفة إذا كانوا مؤمنين بالوحى وكتب الأديان أن يتأولوا نصوصها التى تتحدث عن الحياة الثانية وما فيها من إنسان مادى ونعيم وعذاب كذلك على نحو ما أسلفنا .

وجزم المسلمون جميعا بأن الانسان الثانى هو ذلك الانسان المعهود فى الحياة الدنيا ، فمن ثم جاز أن يكون له نعيم وعذاب من جنس ما نألفه ونعهده من الماديات ، فاذا ما جاءت الشرائع وكتبها تتدعى وتدعو الى الإيمان بحياة أخرى فيها إنسان هو ذلك الانسان وله من النعيم والعذاب ما ألف الناس واعتادوا ، أنكون حينئذ فى ضرورة الى التأويل ، أم يجب أن نحترم ظاهر النص ، ذلك الظاهر الممكن الذى تحدثت به النصوص والذى لم نعثر على دليل ينطق باحالته ، وإن لم يكن هناك مانع من أن يكون بجانب العذاب والنعيم المادى ألوان أخرى من النعيم والعذاب الروحى ؟ بل جزم المحققون من أهل الملة كالغزالى والراغب بأن النعيم والعذاب الأخروى تنتظم النوعين جميعا .

تستطيع على ضوء هذا التكييف لهذا البحث أن تحدد موضع النزاع بين الفلاسفة والمليين فى أنه : هل يمكن أن يكون الانسان الثانى هو الانسان الأول تدخل المادة الأولى فى تقويمه كما دخلت فى تقويم الأول ؟

جزم الفلاسفة بأنه لا يمكن للأبد من تأويل النصوص الكتابية ، وأنها تمثيل للمعقول بالمحسوس .

وجزم المليون بأنه يمكن ، فلابد من احترام ظاهر النصوص الكتابية والإيمان بذلك الظاهر كما ورد من غير تأويل وتمثيل .

وإنا نسوق اليك فى هذا النزاع أقوى جدل تحاور فيه الفلاسفة والمليون وكيف انتهى الأمر بينهم :

قال الفلاسفة : كيف يكون الانسان هو الانسان الأول وقد انعدم الأول؟ وكيف يوجد الشىء ثم ينعدم ثم يوجد هو هو ؟ هل هذا إلا توسط العدم بين الشىء ونفسه ؟ فإن الانسان ثانياً هو الانسان أولا وقد توسطهما العدم . وكيف يكون الشىء الواحد سابقا على العدم لاحقا له ؟ وكيف يكون الشىء الواحد طرفا أول للعدم مقدما عليه ، وطرفاً ثانيا له متأخرا عنه ؟

هذا أقوى ما تمسك به الفلاسفة .

وقد عارضهم المليون بأنه لاخلاف فى أن الانسان الأول قد ثبت له إمكان الوجود لذاته وماهيته ، وإلا لما وجد ، فيجب أن يستمر ذلك الامكان فى جميع

الأوقات كما هو الشأن فى الخواص الذاتية ، فإذا أمكن الانسان الأول فليمكن الانسان الثانى ، إذ هو عين الأول ، ولا أثر لاختلاف الزمان فى ذلك أولاً وثانيا .

وأما حديث توسط العدم بين الشيء ونفسه الى آخر ما أطال به الفلاسفة فانما يتضح استحالته إذا كان ذلك فى وقت واحد ، أما إذا كان فى أوقات مختلفة كما فى موضوعنا هذا ، فذلك بيّن الامكان . ألا ترى الى شخص يقف أمام شيء وقتا ما ثم يقف خلفه وقتا آخر ؟ فهذا شخص واحد كان طرفين ، وسابقا ولاحقا ، متقدماً ومتأخراً ، وقد أمكن ذلك لاختلاف الوقت .

وبعد ، فالانسان الأول الذى ندعى أنه عين الثانى لم ينعدم كلا وجزءا ، بل ما غشيه من الفناء إنما هو انحلاله وزوال تركيبه ، أما عناصره التى كانت مؤتلفة ثم زال ائتلافها فما زالت باقية حتى تؤلف مرة ثانية ويتكون منها الانسان الثانى . وهذا هو تصوير المحققين من أهل الملة للانسان الثانى الذى يقوم على أنقاض الانسان الأول . فالعناصر التى دخلت فى تقويم الانسان الأول لم يطمسها العدم بل ما زالت موجودة صالحة لأن يتكون منها الانسان مرة ثانية ، وإذاً فما تشبث به الفلاسفة وأطالوا به لا ينهض حجة على ما زعموا ، بعد تصوير هؤلاء المحققين ؛ فإن شبهتهم إنما قامت على فكرة أن الانسان الأول قد انعدم كلا وجزءا فلا يمكن أن يكون الانسان الثانى هو ذلك الانسان المعدوم . ولكن المحققين من أهل الملة لا يرون هذا الرأى ؛ بل الانسان الأول باق بأجزائه المتناثرة ، والانسان الثانى لا يحتاج الى أكثر من جمع هذه الأجزاء وترتيبها ترتيبا خاصا حتى تعود الى بنيتها الأولى فتصبح صالحة لتعلق الروح والحياة مرة ثانية .

ولعل فى هذه اللمحة الخاطفة من الجدل ما يكشف مكان الحق فى تلك الخصومة ، وأنه يمكن إمكانا بينا لا ريبة فيه أن يكون الإنسان الثانى على نمط هذا الإنسان الأول ، دخلت عناصر الأول بعد تفرقها فى تقويمه ؛ وإذاً فلا مانع أن يكون له من الجزاء ما هو مادى ، كما لا مانع أن يكون بجانب ذلك جزاء روحى . وإذاً فما جاء فى كتب الأديان من حياة ثانية فيها إنسان تدخل المادة فى مقوماته وأن له جزاء ماديا من جنس ما ألف الناس وعرفوا ، لا يجوز تأويله بأنه تمثيل للمعقول بالمحسوس تجوزا وتنزلا فى خطاب العامة والجماهير ، بل هو

تأويل لا تسيغه اللغة وأصولها ؛ فأنه متى أمكن ظاهر النص حيث لم يكشف العقل سبيلا إلى إحالته بل قد اهتدى الى إمكانه ، وجب احترام ذلك الظاهر .

على أن من الفلاسفة الذين يؤمنون بما آمن به الفلاسفة الإلهيون ويتعصبون لمذاهبهم من قرر فى عبارات لا لبس فيها ولا إبهام احترامه لظاهر النصوص الكتابية فى هذا الموضوع .

وإنى أضع أمام الأستاذ العقاد جملة قيمة فى ذلك لابن سينا فى كتاب النجاة صفحة ٤٧٧ :

قال ابن سينا « يجب أن تعلم أن المعاد منه مقبول من الشرع ولا سبيل إلى إثباته إلا من الشريعة وتصديق خبر النبوة ، وهو الذى للبدن عند البعث . وخيرات البدن وشروره معلومة لاتحتاج إلى أن تعلم ، وقد بسطت الشريعة الحقة التىأتانا بها نبينا المصطفى محمد صلى الله تعالى عليه وسلم حال السعادة والشقاوة التى بحسب البدن ، ومنه ما هو مدرك بالعقل والقياس البرهانى وقد صدقته النبوة وهو السعادة والشقاوة الثابتتان بالمقاييس اللتان للأنفس ، وإن كانت الأوهام منا تقصر عن تصورها الآن لما نوضح من العلل . والحكماء الالهيون رغبتهم فى إصابة هذه السعادة أعظم من رغبتهم فى إصابة السعادة البدنية ، بل كأنهم لا يلتفتون إلى تلك وإن أعطوها فلا يستعظمونها فى جنبة هذه السعادة التى هى مقاربة الحق الأول »

هذه عبارات ابن سينا ، وهى صريحة فى إثبات المعاد البدنى وما فيه من نعيم وعذاب مادى ، وأن سبيل ذلك وبيانه وبسطه منوط بالشريعة الحقة ، كما هى صريحة فى إثبات المعاد الروحى وما له من لذائذ روحية وآلام نفسية ، وأن سبيل ذلك البرهان والقياس ، وأن ذلك لم تنكره النبوات بل جاءت مصدقة له ، وأن إهمال الحكماء للسعادة والشقاوة البدنية ليس مبعثه إنكارهما ، وإنما منشأ ذلك عظم رغبتهم فى إصابة أهم أنواع النعيم والسعادة ، وأهمها مقاربة الحق الأول .

وهذا هو بعينه ما تهدف اليه السيدة رابعة العدوية بقولها (كما نقل الأستاذ فى مقاله) : نحن إذن صغار حتى نفرح بالفاكهة والطير ، حين سمعت قارئا يتلو قوله تعالى : « وفاكهة مما يتخيرون ، ولحم طير مما يشتهون » .

وأما ما ذكره الأستاذ فى آخر مقاله من أن التعذيب فى الآخرة تطهير للنفوس ومآله الغفران ، وأن الأنفس جميعا تتلاقى فى حظيرة الرضوان .

فموعدنا منه المقال الآتى ؟

حيرة العـــــالم

وموقف رجال الدين

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ أبو الوفا المراغى
مدير مكتبة الأزهر

— ٢ —

ذكرت فى كلمتى السابقة تحت هـذا العنوان ما يشكو منه شعوب العالم من القلق فى النواحى الاقتصادية والثقافية والخلقية ، وما تعانيه من البلاء بسبب اختلال الموازين فى هذه النواحى ، وبخاصة الناحية الخلقيـة ؛ فرقابة الآباء أبناءهم رجعية ، وتمرد الأبناء وعنادهم حرية ، والخروج على الأســاتذة والمعلمين ديمقراطية ، وتبرج النساء مدنيـة ، وتصوّنهن واحتشامهم رق وعبودية ، والنفاق لباقة ، والثبات على المبدأ جمود وصلابة ، والرحمة جبن ، والتسامح عجز ، والسخاء خرق ، والشح حزم ، والغش فى الصناعة والتجارة مهارة ، والصدق والأمانة خيبة وخسارة ، والعمل بالتقاليد غفلة عن مقتضيات الرقى والتقدم ؛ والدستور الخلقى الشائع إنما هو الثورة على الماضى ، والخضوع لسلطان الهوى والمصلحة .

وقد قرأت بعد ذلك مقـالات لبعض كبار الكتاب من العرب والأفرنج تجاوبت فيهـا الشكوى مما أشرت اليه . ولاتفاق هـذه المقالات فى الفكرة التى تحدثت عنها ، واتجاهها فى العلاج إلى الجهة التى توجهت اليها ، رأيت أن أقتبس منهـا فى موضوعى ليعلم الناس ، وبخاصـة هؤلاء الذين يطربهم صوت الأجنبى وتروقهم فكرته ، أنى لست خيالياً فيما ذهبت إليه ، ولكنى كنت واقعيا أصور الواقع الذى يحسه من شغلوا أنفسهم بحال الجماعات وما صارت اليه من سوء .

قال كاتب مصرى كبير فى مقال له بصحيفة أسبوعية :

« لقد استولت على النفوس جميعاً روح الاستهانة بالمثل العليا ، وتملك القلوب والأجسام شيطان المتعة اليسيرة العاجلة ، ما من أحد يريد أن ينقطع إلى علم

أو يتوفر على فن ، إنما الكل يتطلع إلى الثمرة قبل الشجرة . ودب هذا الروح فى شباب اليوم فلم يعد لهم جلد على درس أو صبر على كدح ، لا ينظرون إلى الجهد الذى يجب أن يبذل ، وكلهم يبصرون المراتب التى يجب أن يرقوا اليها ، لا يريدون أن يضيعوا وقتاً فى الغرس البطىء والإعداد الطويل ، ولكنهم يريدون ثمرة غرس الآخرين عجالين متلهفين ؛ لذلك قل الاطلاع العميق ، وندرت القراءة المجدية ، وكسدت الكتب القيمة ، فاختلت الموازين ، وفسدت القيم . »

وكتب الأستاذ فريزر متشل أستاذ التربية بجامعة برمنجهام فى مقال بعنوان (المصالحة بين جيلين) :

« لم يسبق أن شهدنا من قبل مثل هذا البون الشاسع الذى يفصل بين أجيال الناس ، وهذه ظاهرة نراها فى كل بلد ، وهى ظاهرة قد تبلغ حالة الحرب بين الأطفال والمراهقين من جانب ، وبين والديهم ومعلميهم من الجانب الآخر ، وتمتاز هذه الظاهرة بوجود حالة بارزة من النفور المتزايد فى نفوس الشباب والكهول نحو العجائز والشيوخ ، والفوارق بين سن الشباب وسن الشيخوخة تمثل اختلافا لابد منه فى النظر إلى الأشياء ، وهو اختلاف طبيعى لا غبار عليه ، ولكن الفوارق الفاصلة التى نشهدها فى هذا العصر من الشباب والشيوخ تذهب إلى أبعد من هذا الحد ، إذ تمثل هوة عميقة فى نظام المجتمع تدعو إلى علاج حاسم سريع .

« وإلام نعزو هذا الانحلال الاجتماعى الذى نشهده بعيوننا ، وهو ليس قاصراً على بلد بل نراه فى كل مكان ؟ وأول سيئة يعزى اليها الفشل فى توطيد العلاقات السليمة بين الأطفال والوالدين ناشئة من ذيوع آراء ونظريات فى علم النفس الحديث ، وهى نظريات ذائعة شائعة لا توضع عادة فى صياغة لفظية دقيقة ، ولا يفهمها الناس فهما كاملا . ويقع بعض اللوم فى هذا على الصحافة وعلى الخطباء المرتجلين وعلى المعلمين الضجورين ، وإن كانوا حسنى النية ، فمن الأقوال الشائعة بين الوالدين فى هذا العصر أن معلمى المدارس قد أخبروهم أن يمتنعوا عن ردع الأطفال وكبحهم أو صدهم ، وبهذه الطريقة غدا علم النفس ، وهو بين أيدى الخبيرين أو الفهماء من الوالدين والمعلمين أداة لإنقاذ الطفل الصغير من عالم المخاوف والكبت والردع ومنحه حرية على أساس من الترويض السليم — غدا وسيلة لمنع الوالدين من القيام بأولى واجباتهم نحو ذرياتهم . وهناك عوامل

أخرى تفصل بين الجيلين، وكثيرا ما تكون المدرسة التى تنزع إلى كثير من نواحى النشاط عاملا من هذه العوامل، فهى تفرط فى إدخال هذه النواحى لصالح التلاميذ فتنشىء الأندية والجمعيات، ثم بعدئذ جمعيات المتخرجين والمتخرجات، وهذه كلها تعمل لتنشيط النواحى الثقافية والخدمات الأخرى، وتبقى على ولاء الطلاب والطالبات للمدرسة التى تخرجوا منها، وتتطلب نواحى النشاط هذه تضحية من الوقت والجهد من معلمى المدرسة، وما نتيجة هذا كله إلا أن يحيا الأولاد ووالدوهم، وكثيرا ما يكون هؤلاء الأخيرون من طراز الناس الذين يستحون، والذين لم يحظوا إلا بقسط ضئيل من التعليم — فى عالمين منفصلين، وأن يقوم الأمهات المتعبات المنهوكات القوى بالواجبات المنزلية، بينما تبرز بناتهن كنجوم لامعة فى لعبة التنس، أو يشغفن كل الشغف بالروايات والحفلات الموسيقية ».

ثم قال بعد أن أفاض فى بحث علل هذا وأسبابه:

« وعلينا نجد رجال الدين أن نجاهد لكى نحقق المصالحة والوفاق؛ لأن الفشل فى هذا المضمار يجر أوخم العواقب، ولن تتحقق هذه المصالحة إلا فى نطاق الدين، والناس لا يتلاصقون معا إلا بمعونة الله، ولن نعيش فى شركة وألفة مع الآخرين إلا إذا عشنا فى نطاق هذه المعاونة ».

هذا حديث الكاتبين فى تصوير القلق الذى يسود الأجيال المختلفة فى الشعوب، وهذه آراؤهم فى علاج هذه الحالة. فعلاج هذه الحالة أن يتخلى الساسة عن مكان القيادة فى الشعوب بعد أن أفلسوا فى إسعادها ومزقوها شيعا وأحزاباً، وأذاقوها فى ظلال هذه القيادة ألوانا من البؤس والشقاء، إلى رجال الدين، ورجال الدين بالدين أقدر على هذه القيادة الى مواطن الأمن ومقامات السعادة.

وإنى أكرر ما قلته من أن بعض القارئين لهذا الحديث سترتسم على شفاههم ابتسامة السخرية، وسينغضون رؤوسهم استغراباً واستنكاراً؛ ولكن مالنا وللأغبياء الجهلاء! وحسبنا أن نصور ما نحس ويحس غيرنا، ونقترح للعلاج ما نرى ونذكر ما يرى غيرنا ممن يصغون لصوت الواقع، ويتفهمون منطق الحوادث، وحسبنا أن نقول للساخرين:

أمرتهم أمرى بمنعرج اللوى فلم يستبينوا النصح إلا ضحى الغد

ابن مضـــاء القرطبي

وكتابه « الرد على النحاة »

— ٣ —

مدخل الكتاب للأستاذ الدكتور شوقى ضيف

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد على النجار
المدرس بكلية اللغة العربية

قـدّم الأستاذ الجليل الدكتور شوقى ضيف بين يدى كتاب ابن مضـاء بحثا طويلا ممتعا، يقارب حجم الكتاب، وسمه بالعنوان: « مدخل إلى كتاب الردّ على النحاة ». وقد تناول فى هذا المدخل ما يأتى:

١ — عصر الكتاب.

٢ — مؤلف الكتاب.

٣ — وصف نسخة الكتاب، وتحقيق نسبتها إلى المؤلف.

٤ — آراء الكتاب: إلغاء نظرية العامل ـ إلغاء العلل الثوانى والثوالث ـ إلغاء القياس ـ إلغاء التمارين غير العملية.

٥ — حاجة النحو إلى تصنيف جديد: الانصراف عن نظرية العامل ـ منع التأويل والتقدير فى الصيغ والعبارات.

ولقد تردّى الأستاذ الدكتور شوقى فى المبحثين الأولين رداء المؤرخ الضليع، والعالم المحقق، وكان فى المبحث الثالث وراقا خبيرا، وبحاثة نحريرا، وعالج فى المبحث الرابع آراء ابن مضاء يجلوها، ويدعمها بما يؤيدها ويثبت من أركانها، وما كان أحوجها إلى هـذا وهى على غير ما ألف الناس. وتناول فى المبحث الأخـير ما يراه من بناء نحو جديد، بعـد أن هدم هو وابن مضاء هـذا النحو وقوّضا من بنيانه. وكأنه فى هذا يتجنب أن يكون ممن قيل فيه:

ويسعى إذا أبنى ليهـدم جاهـدا   وليس الذى يبنى كمن شأنه الهـدم

وسأقصر بحثى على المبحثين الرابع والخامس ؛ وسيكون من همى إبداء ما أشكل منهما ، والتعقيب عليهما . وإنى أقدم إجلالى لصاحب المدخل ، وأعرف له إخلاصه للعلم وجدّه .

١ — ولقد كان الأستاذ الدكتور شوقى فى عرضه لآراء ابن مضاء لبيقاً صَنَعاً خبيرا بما ينير الفكرة ويمثل المعنى . وقد استعان على غرضه بالأمثال يضربها ، والشعر ينشده ، والأثر يأثُره ، يشايعه اطلاع واسع ، وقلب عقول ، وعبارة مواتية ، وبيان جزل بارع . ولكنه ساقه شغفه بآراء ابن مضاء ونضحه عنها ، وتشيعه له ، وسوء رأيه فى النحاة ، أن يذكر أشياء لا يبدو وجهها ، ويرميهم بما قد يكونون برءاء منه .

(ا) ففى ص ١٨ يذكر أن النحويين عبّروا بعبارات توهم أن الإعراب أحدثه العامل فى اصطلاحهم . والتعبير بالإيهام يقضى أن عباراتهم ليست صريحة ولا نصّاً فى هذا المحظور الممقوت من الرأى . ويذكر أن ابن جِنّى صرح بأن الإعراب فى الحقيقة ومحصول الحديث من أثر المتكلم لا العامل . وابن جِنى إذ يصرح بهذا يبين عن مراد النحاة ، ويدفع عن عباراتهم ما أوهمته من فساد . وما علمنا من النحاة من أنكر على ابن جنى هذا البيان . والقارىء يخرج من هذا - بحق - إلى أن مراد النحاة إذ يقولون : إنّ ضرَب يعمل الرفع أو النصب، أن ضرب يدعو المتكلم إلى أن يراعى فيما يتعلق بضرب الرفع أو النصب على حسب ما يرسمون وفقا لما أثروه عن العرب . ولا يخامر القارىء بعد هذا ما يرميهم به ابن مضاء . ولشدّ ما يدهش القارىء إذ يرى فى آخر هذه الصفحة كلاما لصاحب المدخل ينقض عليه هذا الفهم الذى اطمأن إليه ، وعول عليه . وذلك حين يقول الأستاذ : « وإن النحاة ليبالغون فى ذلك ، حتى لنراهم يذهبون إلى أن علامات الإعراب آثار حقيقية للعوامل » وفى الحق أن هذا لا يتفق مع ما أسلفه صاحب المدخل عنهم من أن عباراتهم موهمة لهذا لا نصّ فيه ، ومن أن ابن جنى قد دفع هذا الإيهام بتصريحه ، وابن جنى - عند صاحب المدخل - « كبير [1] من حذّاقهم ومقدَّم فى الصناعة من مقدَّميهم » . ولست أدرى أين وقف صاحب المدخل على

---

(١) ص ٢٣ .

هذا الذى يعزوه إلى النحاة : أن علامات الإعراب آثار حقيقية للعوامل ! فما وقع فى علمى إلا ما ينفى هذا الزعم ويجتثه من جذوره . فهذا الرضى [١] يقول : « ثم اعلم أن محدث هذه المعانى - يريد كون الاسم عمدة أو فضلة - فى كل اسم هو المتكلم ، وكذا محدث علاماتها - يريد علامات الإعراب - لكنه نسب إحداث هذه العلامات إلى اللفظ الذى بواسطته قامت هذه المعانى بالاسم ، فسمى عاملا لكونه كالسبب للعلامة ، كما أنه كالسبب للمعنى المعلّم ، فقيل : العامل فى الفاعل هو الفعل » . ويقول الرضى [٢] أيضا : « إن النحاة جعلوا العامل كالعلة المؤثّرة ، وإن كان علامة لا علة » . وإنى أسوق هنا نصا لنحوى متأخر ، هو الشيخ يس [٣] ؛ فقد قال [٤] فى حواشيه على الألفية : « فمعنى الكلام أنهم الرافعون لهما - يريد المبتدأ والخبر - بسبب وجود الابتداء والمبتدأ . فمن حيث جعلوا الرفع موجودا مع وجودهما ، ومعدوما مع عدمهما ، جعلوهما كالسبب فى الرفع ، وليس السبب فى الحقيقة إلا المتكلم . ثم إنهم ينسبون العمل للألفاظ لتحقيق هذا الاصطلاح ؛ إذ كانت هى العلامات ، واستعمله الناظم - يريد ابن مالك - كثيرا ؛ كقوله : ترفع كان المبتدأ الخ ، وهو اصطلاح عام فى كلام أهل هذه الصناعة ؛ لضبط القوانين ، لا أنهم مدّعون لذلك حقيقة ؛ لأن الألفاظ لا ترفع ولا تنصب ولا تجر . نبه على ذلك فى الخصائص . وبهذا سقط ما شنع به ابن مضاء على النحويين أخذا بظاهر اللفظ من غير تحقيق مرادهم ؛ فنسبهم إلى التقوّل على العرب ، وإلى الكذب فى نسبة العمل إلى الألفاظ ؛ بل نسبهم إلى الاعتزال والخروج عن السنة ، وظلمهم - عفا الله عنه - إذ لم يعرف ماقصدوه . وقد صنف ابن خروف فى الرد عليه جزأ سماه : تنزيه أئمة النحو ، عما ينسب إليهم من الغلط والسهو » . ولقد كان خليقا بصاحب المدخل ألا يشايع ابن مضاء على ظاهريته ، ويستبطن الأمور . ولكن يبدو أن نحلة ابن مضاء وافقت هوى فى نفسه ، فأراد أن يتخذ منها سندا وعضدا ، والحق أن ليس فى كلام ابن مضاء سند وسلطان مبين . وليس من يعتصم به يأوى إلى ركن شديد .

---

(١) شرح الكافية ج ١ ص ٢١ . (٢) المرجع السابق ج ١ ص ١٨ .

(٣) توفى الشيخ ياسين سنة ١٠٦١ هـ . (٤) ج ١ ص ٧٥ طبعة فاس .

ب — وفى ص ١٩ يذكر أن ابن مضاء « رجع فكرة تزييف العامل الى من سبقوه اليها من أمثال ابن جنى » وقد علمت أن ابن جنى ما كان ليزيف فكرة العامل ، وهو الذابّ عنها ، والمبين لوجه الحق فيها ، والرافع لما فيها من إيهام أوقع ابن مضاء فيما لا يرضى من القول والتجنى على النحاة . وما عهدنا من ابن جنى انتقاضا على فكرة العامل وثورة بها . فابن مضاء لا سلف له فى هذا التزييف . وهو أبو عذره .

ج — ويقول الأستاذ الجليل فى ص ٢٠ : « أليست فكرة العامل هى التى تجعلنا نفكر فى محذوفات ومضمرات لم يقصد اليها العرب حين نطقوا بكلامهم موجزا . ولو أنهم فكروا فيها لنطقوا بها » وقد سلف لى من القول على كلام ابن مضاء أنه ليس بصحيح أن الذى جعل النحاة يفكرون فى المحذوفات والمضمرات فكرة العامل ، بل هو المعنى ومنطق الكلام . ويسترعى النظر فى هذا المقام قول الأستاذ : « ولو أنهم فكروا فيها لنطقوا بها » فهل هذا الارتباط صحيح ! هل كل ما يفكر فيه المتكلم ينطق به ! فأين إذاً ما يسمى فى عرف أهل البيان « إيجاز الحذف ! » ونرى صاحب المدخل فى هذه الصفحة يقرّ ابن مضاء على حذف ما علمه المخاطب ؛ كقوله تعالى : « وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل ربكم قالوا خيرا » أى أنزل خيرا . فهذا المحذوف هنا هل عزب عن علم المتكلم ! اللهم غفرا ! .

د — وفى ص ٢٦ يذكر أن ابن مضاء ينتهى الى أن ضمائر التثنية والجمع فى مثل قاما وقاموا ليست ضمائر كما يزعم بعض النحاة ، بل هى علامات تدل على التثنية والجمع ؛ كما تدل التاء الساكنة على التأنيث . وكلام ابن مضاء فى هذه المسألة أو ما وقف عليه الأستاذ عليه منه مضطرب ، كما أبان ذلك الأستاذ (ص ١٠٤) . على أن مما خلا من الاضطراب عند الأستاذ فى كلام ابن مضاء أن الألف والواو ضميران ؛ ومن كلامه : « والدليل على ذلك قولهم فى التثنية : قاما ويقومان ، وفى الجمع : قاموا ويقومون ؛ فهذه ضمائر دل عليها اللفظ » فأما الرأى الذى يقرر الأستاذ أن ابن مضاء انتهى اليه فهو موطن الاضطراب ، على أنه ذكره على أنه وجه ثان للوجه الأول ، ولا يقال فى مثل هذا : إنه الرأى الذى انتهى اليه ، إلا أن يكون المراد أنه انتهى اليه فى الذكر ، وهذا الفهم بعيد عن كلام الأستاذ .

هـ — وفى ص ٢٧ يذكر أن ابن مضاء حين يعقد فصلا يدرس فيه باب التنازع يريد « أن يصور ما تجره نظرية العامل من رفض بعض أساليب العرب ، وأن يضع النحاة مكانها أساليب لا تعرفها العربية » . وابن مضاء حين يعرض لهذا الباب وباب الاشتغال يريد أن يبين أنه يمكن عرض مسائل النحو مع إنكار العامل والمعمول (ص ١٠٧) . وهو يقول فى باب التنازع : « وأنا فى هذا الباب لا أخالف النحويين إلا فى أن أقول : علقت ، ولا أقول : أعملت » أفبعد هذا يكون مراده أن يبين ما تجره نظرية العامل . . . ؟ ويقول الأستاذ صاحب المدخل عن النحاة : إنهم « يرفضون فى باب التنازع صورة من التعبير دارت على ألسنة العرب ، وذلك أنهم قد يعبرون بعاملين ، ثم يأتون بعدهما بمعمول واحد على نحو ما نرى فى مثل (قام وقعد إخوتك) وقول علقمة :

تعفق بالأرطى لها وأرادها رجال فبذّت نبلهم وكليب

. . . فيطلبون الى صاحب المثال الأول أن يقول : قام وقعدوا إخوتك ، أو يقول : قاموا وقعد إخوتك . ويطلبون الى علقمة أن يقول : (تعفقوا . . . وأرادها رجال . . وكليب) أو يقول : (تعفق . . . وأرادوها رجال . . . وكليب) . والقارىء لهذا الكلام يرى أن الأسلوب (قام وقعد إخوتك) أسلوب دائر على ألسنة العرب ، بل هو الأسلوب الدائر على ألسنة العرب الذى لا يعرفون سواه . فأما ما يريده النحاة ويرسمونه بدل هذا الأسلوب ـ وهو أن يقال : قام وقعدوا إخوتك ، أو قاموا وقعد إخوتك ـ فهو منكر لا يعرفه العرب . انظر قوله عقب الكلام السابق : « وعلى هذه الصورة يرفض النحاة أساليب العرب ، ويضعون مكانها أساليب أخرى تسوّغها لهم فكرة العامل » وهكذا يصور الأستاذ مذهب ابن مضاء فى التنازع ! فهل هذا التصوير طبق الحقيقة ! إنا نرى فى كلام ابن مضاء (ص ١٠٩) : « وإن علقت زيدا بالفعل الأول قلت فى التثنية : « قام وقعدا الزيدان » وفى الجمع « قام وقعدوا الزيدون » أفليس هذا الذى يقرره ابن مضاء هو الذى وضعه النحاة مكان المثال الذى أورده الأستاذ وزعم أنه دائر على ألسنة العرب ! الحق أن هذا المثال لم ينقل أحد أن العرب تكثر منه وتنتهجه ؛ فأما قول علقمة فواضح أنه فى الشعر وهو موطن الضرورات والخروج عن دائرة الاختيار .

وعلينا أن نثق بالنحاة الأقدمين ـ وقـد كانوا رواة ثقات ، وكانوا من التحرى والتدقيق بالمـكان الذى لا ينـكره عليهم الأستاذ ـ فى روايتهم ، ولا علينـا أن نخالفهم فى تخريجاتهم وتعقيداتهم .

ويقول الأستاذ : « وقـد استمر ابن مضاء يعرض هذه الصـور ليدل على ما صنعوه بأساليب اللغـة من تعقيد » ولا يحس الناظر فى كلام ابن مضاء هـذا الغرض يتوخاه وينتحيه . وإنما هو يجارى النحويين فى عـرض مسائل الباب ، ويزيد عليها . انظر قوله فى ص ١١٥ : « فإن قيل : النحويون لم يذكروا فى هذا الباب إلا الفاعل والمفعول والمجرور ، وهناك معمولات كثيرة على مـذهبهم ؛ كالمصادر والظروف والأحوال والمفعولات من أجلها ، والمفعولات معها والتمييزات . فهل تماس هذه على المفعولات بها أو لا تماس ؟ » ويأخذ بعد هذا فيما يراه فى هـذه الفضلات التى فاتت النحويين فى باب التنازع . وكأنما يريد من هذا أن يبين مقدرته على وضع النحو على مذهبه ، وقد أحس أنها موضـع شك عند الناس ، فبالغ فى ذلك وأبلغ .

و — وفى ص ٢٩ يذكر أن ابن مضـاء حين عرض لباب الاشتغال حمل « على دراسة النحاة لهـذا الباب وتقسيمهم لصوره بين ما يجب رفعه ، وما يجب نصبه ، وما يترجح فيه الرفع والنصب — كذا ، وهو يريد : وما يترجح فيه الرفع وما يترجح فيه النصب — وما يجـوز فيه الأمران » . ويقول عن ابن مضاء : « وإنه ليضع قاعدة بسيطة تفسر صيغ الاشتغال كلها ، ومتى تنصب ، ومتى ترفع ؛ وهى أن الاسم المتقدم إذا عاد عليه ضمير منصوب أو ضمير متصل بمنصوب نصب؛ لأنه فى مكان نصب ، وإلا رفع ؛ لأنه فى مكان رفع . وبذلك حل باب الاشتغال وأراحنا من تعسف النحاة فى حمل أمثلته تارة على النصب ، وتارة على الرفـع ». والذى يقرأ القرطبى لا يرى فيه هذه السهولة وهذا اليسر الذى يصوره الأستاذ ، ولا يجـده بمنجاة عن صنيع النحاة فى مسائلهم وتعقيداتهم . ولا يرى ابن مضاء يطلق هذه القاعدة السحرية البسيطة « إذا عاد على الاسم المتقدم ضمير منصـوب أو متصل بمنصوب نصب ، وإلا رفع » فإن هذه القاعدة لا يصح إرسالها هكذا سُدى مَهملا . فقد يعود على الاسم المتقدم ضمير منصوب ، ويجب رفع الاسم ؛ نحو

حول مقال «أسباب تأخر المسلمين»

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد على النجار
المدرس بكلية اللغة العربية

كتب زميلى الأستاذ الجليل الشيخ عبد الحميد عنتر بحثا قيما فى « أسباب تأخر المسلمين » . وقد جاء فى المقال الذى نشر فى مجلة الأزهر فى عدد جمادى الآخرة ما كان الأخلق به والأشبه بفضله أن ينأى عنه . فقد جعل من الذين كادوا للإسلام

زيد ما أحسنه . وقد ذكر هذا ابن مضاء نفسه (ص ١٣٠) . ويقول ابن مضاء فى ص ١٣٩ : « وإن جئت بعد الاسم الذى يعود عليه من الفعل ضمير نصب بشرط وجزاء لم يجر فيه إلا الرفع ؛ نحو « زيد إن تكرمه يكرمك » . وكذلك إن جئت بعده بحرف أو اسم للاستفهام ؛ نحو « زيدكم مرة لقيته ؟ » وكذلك « عمرو هل رأيته ؟ » و « زيد من ضربه ؟ » و « عبد الله ما أصابه ؟ » . وكذلك إن كان الفعل فى موضع الصفة ؛ نحو « أزيد أنت رجل تكرمه ؟ » وقال الشاعر :

أكل عام نعم تحوونه ! يلقحه قوم وتنتجونه

وقد يجوز الرفع والنصب كما فى بيت النمر بن تولب :

لا تجزعى إن منفس أهلكته فإذا هلكت فعند ذلك فاجزعى

يذكر الأستاذ فى تعليقه (ص ١٣١) رواية الرفع . ونرى ابن مضاء يحذو حذو النحويين فى صور الاشتغال ، فيذكر موضع اختيار النصب ، وموضع اختيار الرفع ، إلى غير ذلك ؛ ولا يسع ابن مضاء غير هذا ، فهى صور منطقية عملية راعاها العرب فى كلامهم ، وتراه يبدأ كلامه بقوله : « إن كل فعل تقدمه اسم وعاد منه على الاسم ضمير مفعول أو ضمير متصل بمفعول أو بمخفوض أو بحرف من الحروف التى يخفض ما بعدها ، فإن ذلك الفعل لا يخلو أن يكون خبرا أو غير خبر ، وغير الخبر يكون أمراً أو نهياً أو مستفهماً عنه أو محضوضاً عليه أو متعجباً منه . فإن كان أمراً أو نهيا فالاختيار فيه النصب ، ويجوز رفعه . . » ويمضى ابن مضاء فى هذا الأسلوب من ذكر الصور وأحكامها كما يفعل النحاة .

كعب الأحبار، ووهب بن منبه، وزيادا ابن أبيه، وقد سلك هؤلاء مع عبد الله ابن سبأ. وقد سبقه بالطعن في كعب ووهب في عصرنا الأستاذ أحمد زكي باشا عليه رحمة الله؛ فقد قدح فيهما وقرنهما بعبد الله بن سبأ، وذكر أنهما بقيا على يهوديتهما ولم يدخل الإيمان في قلوبهما. وكان من الأستاذ الشيخ يوسف الدجوي عليه رحمة الله ورضوانه، أن أملى مقالا نشر في مجلة « نور الأسلام » في المجلد الثالث سنة ١٣٥١ يرد فيه على أحمد زكي باشا. وجاء في مقاله: « فأما كعب الأحبار ووهب بن منبه فهما من العدول الثقات... وكان ابن عباس ينقل عن كعب الأحبار، ويرجع إليه هو وغيره من الصحابة ». ولعل الأستاذ الجليل الشيخ عبد الحميد عنتر يرجع إلى هذا المقال، وهو واجد فيه ما يرده إلى حسن الظن بهذين الأمامين اللذين هما من أعلام الأسلام إن شاء الله. وأما زياد فما علمت منه كيداً للأسلام، ولا بدا منه مايسلكه مع الخوارج والرافضة ومبغضي العرب. ولقد استخلفه أبو موسى الأشعري على البصرة حين وفد على عمر، وقال في حقه لعمر: إنه جدير بكل خير ضابط لما استكفي. ولقد ولي البصرة وضبط أمورها حتى إذا جاء عهد علي رضي الله عنه طالبه بالمال، فقدمه إليه لم ينقص شيئا، فقال فيه علي: مثلك فليؤتمن، وقال فيه لأصحابه يذكر علمه بالبصرة وكفايته: هو ابن بجدتها؛ وقد مهد العراق ووطأ أمره لمعاوية، وكان عونا للخلفاء وذوي السلطان، حربا على البغاة والخوارج؛ فأنى يكون من المنتقضين على سلطان المسلمين الذين يبثون الفتن والدسائس!

وأحب أن أنبه هنا على أن الأستاذ الجليل ذكر في عداد الذين كانوا سببا في تأخر المسلمين عبد الله بن أبي، والمفهوم من « تأخر المسلمين » انحطاطهم وانحدارهم بعد اكتمال مجدهم وازدهار سلطانهم واتساع فتوحهم، وقد مات عبد الله بن أبي في حياة الرسول عليه الصلاة والسلام، ونزل في شأنه قوله تعالى: «ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره». وما نظن الأستاذ يرى أن تأخر المسلمين كان في عهد الرسول عليه الصلاة والسلام. والله الهادي إلى سبيل الرشاد؟

مذهب الروافض فى مصر
وأثره فيها

لفضيلة الأستاذ الشيخ منصور رجب
المدرس بكلية أصول الدين

منذ أيام كتب الأستاذ عزيز خانكى مشكورا على صفحات جريدة الأهرام يحفز الهمم للاحتفال بالعيد الألفى للأزهر والقاهرة. فخطر ببالى مذهب الروافض القوم الذين بنوا الأزهر، ذلك المذهب الذى ابتدأ الأزهر حياته العلمية به. ومذهب الروافض هذا وإن كان الكلام عليه يعد جزءا من تاريخ الفقه الاسلامى هو فى الوقت نفسه حلقة من حلقات تاريخ الأزهر، بل هو الحلقة الأولى فى تاريخ الأزهر العلمى؛ ذلك المكان الذى لمع نوره فى تاريخ العلم، واشتهر اسمه فى بلاد العالم، وسطعت شمسه هذه القرون الطويلة على الاسلام والمسلمين فى الشرق والغرب؛ الأمر الذى جعل أمير الشعراء المرحوم شوقى بك يحيى هذا المعهد الذى يطل على هذا الوجود من سماء ألف عام بقصيدته الخالدة، ومما جاء فيها:

يا معهدا أفنى القرونَ جدارُه ... وطوى الليالى ركنُه والأعصرا
ومشى على يبس المشارق نوره ... وأضاء أبيض لجها والأحمرا
وأتى الزمان عليه يحمى سنة ... ويذود عن نسك ويمنع مشعرا
فى الفاطميين انتمى ينبوعه ... عذب الأصول كجدهم متفجرا
عين من الفرقان فاض نميرها ... وحياً من الفصحى جرى وتحدرا
ما ضرنى أن ليس أفقك مطلعى ... وعلى كواكبه تعلمت السرى
لا والذى وكل البيان إليك لم ... أك دون غايات البيان مقصرا

أتعجل القول بأن الأزهر ابتدأ حياته العلمية فى شهر صفر سنة خمس وستين وثلثمائة؛ ففى ذلك الوقت جلس فيه على بن النعمان القاضى يملى مختصر أبيه فى الفقه

على مذهب الروافض، وكانوا يطلقون على هذا الفقه فقه آل البيت، ويعرف هذا المختصر «بالاقتصار» وعلى هذا يكون كتاب الاقتصار هذا — بعض المصادر تعرفه «بالاختصار» أو الانتصار — أول كتاب افتتح الأزهر حياته العلمية به. وبهذه المناسبة أقول: إني بحثت عن هذا الكتاب في مصر فلم أعثر عليه، فتقدمت برغبة الى المرحوم الإمام المراغى فالمرحوم الشيخ مصطفى عبد الرازق للبحث عنه ليحفظ تحفة تاريخية في مكتبة الأزهر، وتقدمت بها أيضا إلى فضيلة الأستاذ الشيخ عبد الرحمن حسن، واليوم أتقدم الى فضيلة مولانا الأستاذ الأكبر الشيخ الشناوى شيخ الأزهر لعل عهده يكلل بالعثور على هذا الكتاب، وليكون عملا مجيدا بمناسبة الاحتفال بالعيد الألفى للأزهر.

ومذهب الروافض هذا دخل مصر فاتحا على يد جوهر الصقلى بجيوش مولاه المعز لدين الله، وعاش فيها قرنين اثنين من الزمان أو يزيد قليلا - من سنة ٣٥٨ إلى ٥٦٧ - يعمل به فى القضاء والفتيا، إلى أن جاءت الدولة الأيوبية فصرفت قضاة الروافض كلهم، وفوضت القضاء لصدر الدين عبد الملك بن درباس الشافعى، فلم يستنب عنه إلا من كان شافعى المذهب، فتظاهر الناس من حينئذ بمذهب مالك والشافعى، واختفى مذهب الروافض، ولم يكن فى الدولة الأيوبية بمصر كثير ذكر لمذهب أبى حنيفة وأحمد بن حنبل إلا فى آخرها.

وقبل أن نرى هذا المذهب فى مصر، أو بعبارة أخرى قبل أن نقدم الحلقة الأولى من حلقات تاريخ الأزهر العلمى، نقدم لذلك بكلمتين اثنتين استيفاء للبحث وتتميما للفائدة.

الأولى عن الحركة العلمية الاسلامية بمصر قبل أن يكون الأزهر؛ والثانية عن كيفية دخول هذا المذهب مصر، وهل كان معروفاً فيها قبل أن يفتحها أصحابه فيكون الجو فيها من شأنه أن يمهد السبيل ولو قليلا لدخول هذا المذهب، أو جاءها من غير أن تهيأ له الأفكار وتعبد الطرق؟.

ابتدأت الحركة العلمية بمصر بعد الفتح بتحفيظ القرآن الكريم؛ وأول من أقرأ القرآن بها رجل من الصحابة شهد فتح مصر، هو عبيد بن مخمر المغافرى، ويكنى أبا أمية. وفى سنة ٣٦ هـ عرفت مصر الاسلامية نوعا من الدرس لم يكن من

قبل ذلك ؛ هو التحدث فى الترغيب والترهيب والفتن . وأول من أوجد بمصر هذا الدرس رجل من التابعين ولاه معاوية القضاء بمصر، فمكث بها قاضيا عشرين سنة، وتوفى بدمياط سنة ٧٥ هـ ؛ ذلك هو سليم بن عتر التجيبى ، وهو أيضا أول من أوجد بمصر سجلا فى المواريث.

أخذت هذه الحركة تنمو وتزداد شيئا فشيئا حتى جاء يزيد بن حبيب فى عهد عمر بن عبد العزيز ، فزاد فيها كذلك شيئا لم يكن ؛ ذلك أنه أول من نشر العلم بمصر فى الحلال والحرام . ويزيد بن حبيب هذا هو أستاذ الليث بن سعد . توفى سنة ١٢٨ هـ .

وحوالى منتصف القرن الثانى عرفت مصر فى درس القرآن الكريم شيئا لم يكن ؛ ذلك أن عبد الرحمن بن ميسرة ، ذلك الفقيه العفيف الشريف ، كان أول الناس إقراء بمصر بحرف نافع . ولقد عرفت مصر فى هذه الناحية فى ذلك الوقت طائفة جليلة من أئمة القراءات ، منهم رجل أصله مصرى قبطى انتهت اليه رياسة الإقراء بالديار المصرية ؛ ذلك هو عثمان بن سعيد الملقب بورش . وابن سعيد هذا أخذ القراءة عن نافع ، ونافع هو الذى لقبه بورش لشدة بياضه .

على هذا النحو سارت الحركة العلمية الاسلامية بمصر . ولم يكد ينتهى القرن الثانى للهجرة حتى كان بها درس القراءات ، وتحفيظ القرآن الكريم ؛ وبجوار ذلك درس القصص ، ودرس أحكام الشريعة . وجد فى هذا الدرس الأخير يزيد بن حبيب فتلميذه الليث بن سعد . وقد يكون من الخير هنا أن نقول : إن الليث بن سعد هذا كان من الفقهاء الفضلاء والكرماء الأجواد ، ويقال إن دخله كان فى كل سنة خمسة آلاف دينار ، وكان يفرقها فى الصلات وغيرها . روى أن الامام مالكا رضى الله عنه أهدى اليه صينية فيها تمر ، فأعادها مملوءة ذهبا . ويقال إنه من أهل « قلقشندة » قرية من قرى الوجه البحرى ، توفى سنة ١٧٥ .

وفى أيام الليث بن سعد هذا دخل مصر بعلم مالك عبد الرحيم بن خالد بن يزيد ابن يحيى مولى جمح — توفى بالاسكندرية سنة ١٦٣هـ — فروى عنه الليث بن سعد وابن وهب ورشيد بن سعد ، ثم نشره بمصر عبد الرحمن بن القاسم ، فاشتهر بها مذهب مالك ، ولم يزل مشتهرا حتى قدم الى مصر محمد بن إدريس الشافعى فى سنة ١٩٨ ،

فصحبه من أهل مصر جماعة من أعيانها كبنى عبد الحكم ، والربيع بن سليمان ، وأبى ابراهيم اسماعيل بن يحيى المزنى ، وأبى يعقوب يوسف بن يحيى البويطى ، وكتبوا عن الشافعى ما ألفه ، وعملوا بما ذهب اليه .

وما زال مذهب مالك ومذهب الشافعى رحمهما الله تعالى يعمل بهما أهل مصر ويولى القضاء من كان يذهب إليهما أو إلى مذهب أبى حنيفة رحمه الله ، إلى أن قدم جوهر الصقلى من بلاد المغرب بمذهب الروافض ، ومن حينئذ فشا بديار مصر هذا المذهب ، وعمل به فى القضاء والفتيا ، وأنكر ما خالفه .

ولم يكن أهل مصر يعرفون مذهب أبى حنيفة معرفتهم بمذهب مالك والشافعى . ويعلل المقريزى ذلك بأن اسماعيل بن اليسع الكوفى الذى تولى قضاء مصر بعد ابن لهيعة كان يذهب إلى قول أبى حنيفة فى إبطال الأحباس « فثقل على المصريين أمر المذهب وسئموه » .

ولهذه المناسبة نقول : إن فقهاء الحنابلة لم يسمع عنهم بمصر إلا فى القرن السابع الهجرى ؛ وذلك أن الإمام أحمد كان فى القرن الثالث ؛ ولم يبرز مذهبه خارج العراق إلا فى القرن الرابع ، وفى هذا القرن ملك الروافض مصر .

ويقول السيوطى فى كتابه حسن المحاضرة : « إن أول إمام علمت حلوله بمصر الحافظ ابن عبد الغنى المقدسى صاحب العمدة « توفى بالقاهرة سنة ٦١١ » .

اتسعت الحركة العلمية الاسلامية بمصر بعد أن دخلها مذهب مالك والشافعى وبفضل من ظهر فيها من جبال العلم والدين ، ومن ورد عليها زائرا أو مقيما من رجالات الفقه والحديث والأدب . وإذا أردت أن تتخيل هذه الحركة بمصر يومئذ ، فتخيل الشافعى يلقى درس الفقه بمسجد عمرو ، وبجواره صاحبه وراوى كتبه الربيع بن سليمان المرادى ، يرحل إليه طلاب العلم من الآفاق ليسمعوا منه أقوال الشافعى ، فيؤدبهم بأدبه ، ويزودهم بلطائفه ، ويفقههم برأيه فى الفقه والأخلاق والأدب .

روى الربيع بن سليمان عن الشافعى أنه كان يقول : « أكره أن يقال : أعظم الله أجرك » يعنى فى المصائب ؛ لأن معناه أكثر الله مصائبك ليعظم أجرك . وقال: «دخلت على الشافعى وهو مريض فقلت: قوّى الله ضعفك . فقال : «لو قوى ضعفى قتلنى »

قلت : «والله ما أردت إلا الخير» قال : «أعلم أنك لو شتمتنى لم ترد إلا الخير» قل : قوّى الله قوتك وضعف ضعفك . فكان بهذا يغرس فى الناس ملكة الذوق فى الحديث والكتابة بجوار تزويدهم أحكام الفقه ، وتلقينهم الأحاديث الصحيحة . وكان الشافعى يعقد المناظرات لتقليب الرأى فى الفقه ، ويعقد الاجتماعات لإنشاد شعر العرب ؛ وأمر ذلك مشهور معلوم فى كتب الطبقات والأدب .

وتخيل النسائى أفقه مشايخ مصر فى عصره ، وأعرفهم بالصحيح والسقيم من الآثار ، وأعرفهم بالرجال ؛ يخرج من بيته بزقاق القناديل بجوار مسجد عمرو ابن العاص ؛ تخيله يخرج من بيته ليلقى درس الحديث ويؤدب الناس بأدب الإسلام. أو تخيل فى هذه الحركة العلمية الإسلامية قبل أن يكون الأزهر ، وقبل أن يحكم مذهب الروافض مصر ،تخيل عبد الرحمن بن عمر بن أبى الفهم ؛ذلك الذى روى عنه البخارى ؛ أو سليمان بن داود بن حماد ذلك الذى روى عنه أبو داود والنسائى ؛ تخيلهما يجدان فى تفقيه الطلاب على مذهب الأمام مالك رضى الله عنه .

تخيل المزنى صاحب المبسوط والمختصر ؛ ذلك الذى قال عنه الرافعى: إنه صاحب مذهب مستقل ؛ والبويطى خليفة الشافعى فى درسه ؛ تخيلهما يفقهان الناس على مذهب الشافعى رضى الله عنه .

تخيل القاضى بكار بن قتيبة قاضى الديار المصرية ، وصاحب التصانيف فى الشروط والوثائق والرد على الشافعى فيما تفقه على أبى حنيفة ؛ وتخيل ابن أبى عمران موسى بن عيسى البغدادى شيخ الطحاوى ؛ تخيلهما فى درس الفقه على مذهب الأمام أبى حنيفة النعمان .

وهـــذا ابن هشام الذى هـذب سيرة ابن اسحاق فنسبت إليه ، وابن ولاد مصنف كتاب الانتصار لسيبويه ،وشيخ الديار المصرية فى العربية؛ تخيلهما فى درس اللغة والنحو. وابن الحكم مصنف فتوح مصر وسعيد بن يونس صاحب تاريخ مصر. وأبو عمر الكندى مصنف فضائل مصر وكتاب قضاة مصر فى دروس التاريخ .

هؤلاء وغيرهم كثير من أئمة الفقه والحديث والقراءات والنحو واللغة والشعر والأدب والأخلاق . ولو قدر لهذه الحركة أن تستمر كما كانت وقتئذ فى إخلاص الشافعى لفقهه والنسائى لحديثه ، وابن هشام للغته ، وأبى تمام لشعره ؛ لو قدر لها

أن تستمر على هـــذا النحو بمصر فى كل عصورها لتغير وجه التاريخ فيها ، ليس فى ذلك من شك .

وكانت هذه الحركة تتقبل الخلاف فى الرأى بصدر رحب . قال الربيع بن سليمان : كان الشافعى لا يرى الإجازة فى الحديث ، وأنا أخالف الشافعى فى هذا الرأى ، ومع ذلك كان الربيع يخـدم الشافعى والشافعى يحبه ويقربه إليه ، حتى قال له يوما : ما أحبك إلى ! . وقال له : ما خدمنى أحد قط ما خدمنى الربيع . وقال له : أنت راوية كتبى .

وكنت ترى أحيانا شيئا من التنافس بين أفاضل العلماء والفقهاء فى هذه الحركة ، شأن الناس فى كل زمان ومكان . فهذا ابن عبد الحكم والبويطى تروى كتب الطبقات أن قد حصلت بينهما وحشة فى مرض الشافعى لسبب الخـلاف على الجلوس فى حلقة الشافعى بجامع عمرو . ولم ينس هؤلاء العلماء الفضلاء نصيبهم من الدنيا ولم يعرضوا عنها ، بل تأدبوا فيها بأدب القرآن ، ومشوا بتوجيهات المأثور : « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا » .

فهذا أبو عبد الله المصرى الحافظ النحوى الذى روى عنه النسائى وقال عنه إنه ثقة ، كان بجوار علمه وفضله وأدبه يستأجر الأرض للزرع ، ويشتغل بأعمال الفلاحة .

وكانت هـــذه الحـركة العلمية القوية المنتجة فى حلقات تعقـد بجامع عمرو فى الفسطاط ، ثم اتسعت بجامع احمد بن طولون فى القطائع ، واستمرت على هذا النحو حتى ملك الروافض مصر ، فبنوا القاهرة وبنوا فيها الأزهر ، فتزعم الأزهر هذه الحركة ، ورفع لواءها حتى يومنا هذا .

أما كيف دخل هذا المذهب مصر ، والأسباب التى جعلت الأزهر يقوى على حمل هذه الرسالة حتى الساعة ، فموعدنا له العدد القادم ، إن شاء الله ؟

تشابه النظم في القرآن الكريم

لفضيلة الأستاذ الشيخ عبد الغنى عوض الراجحى
مدرس علوم الدين بكلية المقاصد الإسلامية بلبنان

فى مقالات سابقة استطعنا أن نلم بفكرة إجمالية عن تشابه النظم فى كلام الله كيف يتردد المعنى الأصلى الواحد فى أكثر من موضع بعبارات تختلف فى موضع عنها فى آخر تقديما وتأخيرا وذكرا وحذفا وفكا وإدغاما ونحو ذلك، وكيف كانت هذه الافتراقات لأسرار دقيقة وحكم بلاغية بالغة، ما يفترق نظم عن نظم، وهما لمعنى واحد فى وجه من الوجوه إلا لمبرر يبرره بل لمقتض يقتضيه.

وفى هذا المقال أريد أن أبين ما يجد به البحث عن هذه الأسرار والكشف عن هذه الحكم، وما تحققه الدراسة التفصيلية لهذه الناحية فى كتاب الله، فأقول:

عرف القوم بلاغة الكلام بأنه مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته. ثم قالوا: ومقتضى الحال مختلف لأن مقامات الكلام مختلفة؛ فمقام التنكير يباين مقام التعريف، ومقام الإطلاق غير مقام التقييد، ومقام التقديم يغاير مقام التأخير، وهكذا الحال فى مقامات الذكر والحذف والفصل والوصل والأطناب والإيجاز. ثم قالوا: وارتفاع شأن الكلام فى الحسن والقبول بمطابقته للاعتبار المناسب الذى هو مقتضى الحال، وانحطاط شأن الكلام بعدم هذه المطابقة. وللبلاغة طرفان: أعلى وهو الإعجاز بأن يرتقى الكلام فى الحسن إلى أن يخرج عن طوق البشر، وأسفل وهو ما إذا غيّر عنه إلى ما دونه التحق بأصوات العجماوات وإن كان صحيح الأعراب. وبين الطرفين مراتب متفاوتة بعضها أعلى من بعض بحسب تفاوت المقامات ورعاية الاعتبارات.

المفارقات التى جاء عليها هذا المتشابه ، والتى سوف نسعى وراءها ونجد فى أثرها بالبحث والتحليل حتى نبين أنها كانت أثراً من آثار اختلاف المقامات ، وأنها كانت فى كل موضع مطابقة تمام المطابقة لمقتضى الحال ؛ على قدر ما نبين من أسرارها تتبين لنا رعاية المقامات فى كلام الله وترقيه فيها، وغناؤه بها، ووفرتها فيه واكتنازه لها الى درجة الاحاطة بما لا يمكن لغير علام الغيوب الاحاطة به . وعلى قدر ما نعقل من ذلك تتجلى لنا بلاغة القرآن وروعته وسر إعجازه للناس أجمعين . فإن البلغاء من العرب الذين تحداهم القرآن فأعجزهم ـ وعجز غيرهم أولى ـ لم يكن لهم وهم بشر أن يحيطوا علما بمقامات الكلام ومقتضيات أحواله على نحو ما يحيط به من ذلك علم الحكيم الخبير، الذى أحاط بكل شىء علما، وأحصى كل شىء عددا، وأن أعلم عالم بالبلاغة بذل عمره فى التعرف على مقامات الكلام ومقتضيات أحوالها لا يعرف بعلمه هذا أكثر من أن هذه الحال مقتضى هذا المقام .

أما الاطلاع على كمية الأحوال ورعاية الاعتبار فغير ممكن ، ولو سلم إمكانه فإن الغاية فيه أو الاشراف عليها غير مسلمة ؛ لأن قدر البشر متناهية ؛ ومن رعاية المقامات ومعرفتها ما يتوقف على الولوج فى خبايا الأشياء والاحاطة بطبائع البشر والتحرر من منطقة القصور الانسانى والوقوف منها على شرف لتصريف القول وإزجائه اليها بما هو نوع من التخليق فيها والتربية لها .

قال فى شرح المطول للشيخ سعد الدين التفتازانى [1]: « فان قيل ليست البلاغة سوى المطابقة لمقتضى الحال مع الفصاحة ، وعلم البلاغة كافل لذلك ، فمن أتقنه وأحاط به لم لا يجوز أن يراعيها حق الرعاية فيأتى بكلام بليغ بل فى الطرف الأعلى من البلاغة ؟ قلنا : لا يعرف بهذا العلم إلا أن هذه الحال مقتضى هذا الاعتبار.

أما الاطلاع على كمية الأحوال ورعاية الاعتبار بحسب المقامات فأمر آخر ، ولو سلم فامكان الاحاطة به لغير علام الغيوب ممنوع ، وكثير من مهرة هذا الفن لا يقدر على تأليف كلام بليغ فضلا عما هو فى الطرف الأعلى من البلاغة » [2] .

---

(١) عند تعريفه بلاغة الكلام (٢) هذا هو الوجه فى تصوير إعجاز القرآن ومناط التحدى والعجز عن المعارضة ، ومن أجله ألفت علوم البلاغة، أما ما وراء ذلك من الهداية القرآنية والتشريعات والأمور الغيبية فقد كان كثير منها كما نطق القرآن نفسه فى زبر الأولين ـ راجع سورة الشعراء الآية ١٩٦ .

هذه المقامات والأحوال التى لا تمكن الاحاطة بها إلا لله ، والتى لا يزال يستكثر منها فى الكلام ، ويترقى فيها ويتفنن فى شأنها حتى يصل الكلام الذى انطوى عليها الى درجة الإعجاز - كان لعلماء البلاغة اليها عودة فى علم المعانى يبنوها نوع بيان ، وبسطوها شيئا مامن البسط ، وسردوا الشىء الكثير من مقامات التقديم والتأخير والاطلاق والتقييد والذكر والحذف والفصل والوصل . فالتقديم للاهتمام والعناية ، والحذف للعلم بالمحذوف ، والفصل للتوكيد والبدل ، ونية السؤال الى ما إلى ذلك مما قعدوه من هذه القواعد ، ووضحوه بمأثور الأمثلة وموروث العبارات .

فى هذه الدراسة التى نحن بصددها من حيث إنها دراسة مقارنة وتحليل ، لا نقف عندما وقفوا عنده ، بل لابد أن نبين من أين جاءت هذه العناية بالمقدم ، وكيف أنه جاء بنفسه مؤخرا فى موضع آخر . نبين الاعتبار المناسب الذى أوجب التقديم تارة والتأخير أخرى فى لفظ واحد ، نستعين فى الوصول الى ذلك بما وقعت فيه العبارة فى كل موضع من السياق .

كذلك لا نقنع بوقوع الفصل فى عبارة القرآن لارادة البدل أو التوكيد أو نية السؤال ، حتى نستبين لماذا أريد ذلك فى هذا الموضع بخصوصه ؟ ولم وقعت العبارة المفصولة فى موضع آخر موصولة ؟ وكمثل ذلك نصنع فى سائر المقامات الأخرى من الذكر والحذف والأضمار والأظهار والأفراد والجمع والأدغام والفك والأطناب والايجاز ، حتى نوشك أن نكون بمنجاة من حملة عبد القاهر الجرجانى التى يقول فيها (١) .

« وقد وقع فى ظنون كثير من الناس أنه يكفى أن يقال إنه قدم للعناية وأن ذكره أهم ، من غير أن يذكروا من أين كانت العناية ولم كان أهم ؟ ولتخيلهم ذلك قد صغر أمر التقديم والتأخير فى نفوسهم ، وهونوا الخطب فيه على الناظر ، حتى إنك ترى أكثرهم يرى تتبعه والنظر فيه ضربا من التكلف ، ولم نر ظناً أزرى بصاحبه من هذا وشبهه .

« وكذلك صنعوا فى سائر الأبواب ، فجعلوا لا ينظرون فى الحذف والذكر ،

(١) « دلائل الاعجاز » باب التقديم والتأخير .

والتكرار والاظهار، والأضمار والفصل والوصل، ولانوع من أنواع الفروق والوجوه، إلا نظرك فيما غيره أهم لك، بل فيما إن لم تعلمه لايضرك. لا جرم أن ذلك قد ذهب بهم عن معرفة معنى البلاغة، ومنعهم أن يعرفوا مقاديرها، وصد أوجههم عن الجهة التى هى فيها، والشق الذى يحويها. والمداخلُ التى تدخل منها الآفة على الناس فى شأن العلم، ويبلغ الشيطان منهم مراده فى الصد عن طلبه وإحراز فضيلته، كثيرة، وهذه من أعجبها إن وجدت متعجبا.

« وليت شعرى إذا كانت هذه أمورا هينة، وكان المدى فيها قصيرا والجدى يسيرا، من أين كان نظم أشرف من نظم، وبم عظم التفاوت واشتد التباين وترامى الأمر إلى الاعجاز، وإلى أن يقهر أعناق الجبابرة؟ أو هاهنا أمور أخر نحيل فى المزية عليها ونجعل الاعجاز كان بها، فتكون تلك الحوالة لنا عذرا فى ترك النظر فى هذه التى معنا والإعراض عنها وقلة المبالاة بها؟.

« أو ليس هذا التهاون - إن نظر العاقل - خيانة منه لعقله ودينه ودخولا فيما يزرى بذى الخطر ويغض من قدر ذوى القدر؟ وهل يكون أضعف رأيا وأبعد من حسن التدبر منك إذا همك أن تعرف الوجوه فى « أأنذرتهم » والإمالة فى « رأى القمر ». وتعرف الصراط والزراط وأشباه ذلك مما لا يعدو فيه علمك اللفظ وجرس الصوت، ولا يمنعك إن لم تعلمه بلاغة، ولا يدفعك عن بيان، ولا يدخل عليك شكا ولا يغلق دونك باب معرفة، ولا يفضى بك الى تحريف أو تبديل أو خطأ فى تأويل، ولا يعنيك ولا يهمك أن تعرف ما إذا جهلته عرضت نفسك لكل ذلك وحصلت فيما هنا لك وكان أكثر كلامك فى التفسير وحيث تخوض فى التأويل كلام من لا يثنى الشىء على أصله ولا يأخذه من مأخذه، ومَن ربما وقع فى الخطأ الفاحش الذى يبقى عاره وتشنُع آثاره » اه.

لعلى لا أكون مبالغا إذا قلت إن دراسة هذه الناحية فى كتاب الله من أشق الدراسات وأعمقها، لم تظفر بكثير من عناية الباحثين فى القديم والحديث، ولم تحظ بمثل ما حظى به غيرها من النواحى التى ربما كانت أقل منها خطرا، ولم يترك الأوائل فيها ما يتناسب مع جلال الموضوع وقيمته العلمية ولم أجد من أفرد لها بحوثا ممتعة أو أخرج فيها كتبا حافلة قيمة، إلا ما كان من مسائل صغيرة مشتتة فى كتب التفسير والبلاغة وعلوم القرآن، وما كان من بعض رسائل صغيرة لقلة

من العلماء ، على ما فى أكثر ذلك من القصور والاكتفاء بنكتة التفنن مع تهيب الخوض فى أسرار هذه المفارقات والتزهيد فى دراستها » [١] .

ولعلى كذلك لا أكون مبالغاً إذا قلت إن هذه الناحية فى كتاب الله إنما كانت من أول ماأمر الله بتدبره حيث يقول «أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها » وحيث يقول « أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا » وحيث يقول « كتاب أنزلناه اليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب » وحيث يقول « ولقد صرفنا فى هذا القرآن ليذكروا وما يزيدهم إلا نفورا » وهل جاءت هذه المفارقات فى المتشابه حيث توجب النظرة العابرة الوفاق اعتباطا ، أو غفلة عن شناعة الافتراق حيث يجب الاشفاق ، أم أن ذلك كان إحكاما لآى كتاب يمثل هذه الدقائق قد أخرس ألسنة المعاندين ، وأسال عليهم الوادى عجزا ، وسد عليهم منافذ القول سدا ؟ !

عدل الولاة

قال ابن أبى الزناد عن هشام بن عروة قال : استعمل ابن عامر عمرو بن عروة أصبغ على الأهواز ، فلما عزله قال له : ما جئت به ؟ قال له : ما معى إلا مائة درهم وأثواب . قال ابن عامر : كيف ذلك ؟ قال أصبغ : أرسلتنى إلى بلد أهله رجلان : رجل له مالى وعليه ما على ، ورجل له ذمة الله ورسوله . فوالله ما دريت أين أضع يدى . فأعطاه ابن عامر عشرين ألفا مكافأة له على أمانته .

وقال معاوية : إنى لاستحيي أن أظلم من لا يجد علىّ ناصرا إلا الله .

وقال النبى صلى الله عليه وسلم : « الظلم ظلمات يوم القيامة » .

---

[١] راجع حاشية القونوى على البيضاوى ج٢ ص٧٧ حيث يستعرض المفارقة بين الفصل فى قوله تعالى فى سورة البقرة «يسومونكم سوء العذاب يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم» والوصل بالواو فى قوله تعالى فى سورة ابراهيم « يسومونكم سوء العذاب ويذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم » فيبنى الفصل على أن الثانى بيان للاول ، والوصل على أن الثانى مغاير للاول ثم يقول «فان قيل لم اعتبر المغايرة فى موضع دون آخر ؟فجوابه أن النكتة بناء على الارادة موقع الارادة هكذا فلا يحسن أن يرام له وجه » .

نظر علماء الازهر الى الشعر

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد كامل الفقى
المدرس بمعهد القاهرة

رسالة الأزهريين دينية خلقية ، ينشرون دين الله فى الأرض ، ويحضون على الفضائل جهدهم ، ويدعون إلى مكارم الأخلاق بكل أسلوب ؛ ومن ثم كان طابعهم الجلال ، وسمتهم الزمانة والوقار ، وحديثهم النقى العفيف ، يحرصون كل الحرص على أن يكون شعرهم بعيدا من الفحش لإمامتهم فى الناس ، ويجهدون أنفسهم فى مجانبة ما لا يتفق مع هذه النزعة ، أو يجافى ذلك الاتجاه .

وفى هذا الأفق ينظر علماء الأزهر إلى الشعر ، وبهذه المثابة يرون رأيهم فيه ، فلم يكن من الجائز فى نظرهم ، أن يسرفوا فى قول الشعر هجاء وملاحاة ، أو يمعنوا فى قرضه خوضا فى عرض ، أو تأريثا لعداوة ؛ ولم يعهد فيهم أن يقولوا الشعر لا يتحرزون فيه عن ذكر الغافلات المقصورات فى خدورهن ؛ ورأوا من كرامة العلماء أن يعفوا عن المبالغة فى المدح والإطراء ، والتدلىّ إلى الكذب والتجنى على الناس ؛ وإذا حاموا حول ذلك فى شعرهم فبقصد واعتدال دون إغراق ولا مغالاة . وهذا الشعور من العلماء ، وتلك النظرة منهم إلى الشعر ، كانت جناية فى كثير من الأحيان على كثير من فنون الشعر وأغراضه ؛ فقد أنفوا أن تفيض شاعريتهم فى ألوان مختلفة تهتز لها الأسماع وتخفق لها القلوب ، فكان ذلك مضعفا لشعرهم فوق ما ضعف به من ضيق خيالهم وأفقهم المحدود الذى يعيشون فيه .

والشعر فى رأى الشاعر الذى لا يتزمت ولا يتعفف ، خيال وتصوير وافتنان ، لا تحرج ولا تصوّن فيه ، وأعذبه فى رأيه أكذبه كما يقولون ، ولكنه عندهم فى هذا المتجه مجافاة لرسالتهم ، وزراية بمكانتهم ، وذلك هو الذى حمل العلماء

على أن يطووا صفحة فيها مجون وطرب ، وفيها خفة وغزل ، وألا ينشروا من ذلك إلا الهيّن المقتصد ، وذلك هو الذى حضهم على أن يخفوا عن الناس شعرا أودعوه مكنون صدورهم ، ومَجْلى أخيلتهم ، وخفقة أفئدتهم ، وجعلهم يشعرون بأن من الشعر ما هو عورات يجب أن تستر ، واستهتار لاينبغى أن يظهر .

وهذا هو « السيد عبد الله نديم » الأزهرى الخطيب الكاتب الشاعر، تبحث عن شعره الذى تدفقت به شاعريته الفياضة فلا تهتدى إلا إلى غيض من فيض ، وقُلّ من كُثر . حدث الأستاذ « احمد سمير » المترجم له فى صدر مختاراته المعروفة بسلافة النديم ، أن له ديوانين منظومين يشتملان على سبعة آلاف بيت .

ويقول فى تصديره للسلافة « ولما كان فى يافا أول مرة بعث إلى محرَّرا يكلفنى به أن أطلب ديوان شعره الصغير من صديقه المرحوم « عبد العزيز بك حافظ » فلما قصدته وجدته مصابا فى قواه العقلية بما لم يدع للطلب مجالا ، ثم كتب إلىّ ثانيا بأن ديوانه الأوسط عند م . بك . ف . فطلبته منه فاعتذر بأنه ضاع ، فلما أنبأت المترجم بذلك أرسل إلىّ فى مكتوبه الثالث أنه إنما طلبهما ليحرقهما براءة منهما ومن أمثالهما ، لأن فيهما هجواً كثيرا . وختم المكتوب بهذه العبارة « قد خلعت تلك الثياب الدنسة ، ولبست ثوب « إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا » .

ذلك هو رأى أحد شعراء الأزهر فى الشعر ، وتلك هى نظرته له : فالهجاء فى نظره رجس ، والملاحاة فى رأيه ثوب من الدنس ؛ ومن ثم فهو يريد أن يحرق هذا الشعر ، وأن يجعل هذه الثروة القيمة حطبا للنار كى يذهب الله عنه الرجس ويطهره تطهيرا .

وهذا شاعر آخر من شعراء الأزهر الفحول وهو المرحوم « الشيخ على الليثى » يلعن من يطبع ديوانه المخطوط ، لأنه يخشى حسابه على ما أودعه من قول يزعم أن فيه منافاة للورع والتقية .

ولعلى لم أسمع أن شاعرا آخر غير أزهرى طاوعته نفسه أن يحرق شعره لأن فيه هجوا وملاحاة ، مهما كان شعره من الغثاثة والضعف والانحلال ، طلبا للتطهير

وبعدا من الرجس والدنس . ولعلى أيضا لم أسمع أن شاعرا آخر غير أزهرى لعن من يطبع ديوانه المخطوط لسبب من الأسباب .

بل إن كثيرا من الشعراء غير الأزهريين يتميمون حول شعرهم ضجة هائلة من الدعايه والترويج ، ويجتهدون فى طبع شعرهم محتالين على أرباب اليراعات أن يقدموا دواوينهم بعبارات التقريظ والإطراء المبالغين ؛ بل إن كثيرا من الشعراء غير الأزهريين يسعون لدى الشفعاء أن يتوسطوا لطبع شعرهم ، وعساهم ألا يقتصروا على طبع الشعر، بل يقدموا لكل قصيدة بصورة رمزية خليعة تمثل فتاة عارية ، أو صبا ضارعا ، أو منظرا مسرفا فى فحشه وخلاعته .

ويرى الأستاذ « العقاد » أن القدوة لشعراء الأزهر فى هذا المذهب ما يروى عن الإمام الشافعى ، إذ يقول :

ولولا الشعر بالعلماء يزرى لكنت اليوم أشعر من لبيد [1]

وقد تكون القدوة عندهم فى ذلك ما حكم الدين به على الشعر ، فهم يعلمون أن الاسلام إنما جاء بالجد الذى يحض على الثواب فى الآخرة ، ويحرم على المسلمين فضلا عن علمائهم الكذب فى القول ، وإشاعة الفاحشة وقذف المحصنات ، والحديث عن الخمر والمحرمات ، والولوغ فى الأعراض وتأريث العداوات .

وهم يعلمون أن الله نزه محمدا صلى الله عليه وسلم عن الشعر فقال « وما علمناه الشعر وما ينبغى له » ، وأن الله ذم الشعراء بقوله « والشعراء يتبعهم الغاوون » وأن النبى صلى الله عليه وسلم قال « لأن يمتلىء جوف أحدكم فيريه [2] خير له من أن يمتلىء شعرا » .

وهم يعلمون أيضا أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « إن من البيان لسحرا ، وإن من الشعر حكما » وأنه خلع على كعب بن زهير بردته التى اشتراها منه معاوية بثلاثين ألف درهم ، وتوارثها الخلفاء من بعده يلبسونها فى الجمع والأعياد .

---

(١) شعراء مصر وبيئاتهم للاستاذ عباس العقاد ص ٩٠

(٢) ورى القيح جوفه كوعى أفسده ، وورى فلان فلانا أصاب رئته

وأنه كان يكثر من استنشاد الخنساء فى رثاء أخيها صخر ، ويقول « هيه ياخناس » وأنه دعا إلى الشعر واستعان به فى دعوته ، واتخذ حسان شاعرا له ينافح عنه ، وكان يقول له « شن الغارة على بنى عبد مناف ، فوالله لشعرك أشد عليهم من وقع الحسام فى غبش الظلام » !.

وأنه استحسن شعر النابغة الجعدى ودعا له ، وذلك حيث يقول النابغة : « أنشدت رسول الله صلى الله عليه وسلم قولى :

بلغنا السماء مجدنا وجدودنا ... وإنا لنبغى فوق ذلك مظهرا

فقال النبى صلى الله عليه وسلم : أين المظهر يا أبا ليلى ؟ فقلت : الجنة يارسول الله . قال : أجل إن شاء الله . ثم قال أنشدنى فأنشدته من قولى :

ولا خير فى حلم إذا لم تكن له ... بوادر (١) تحمى صفوه أن يكدرا
ولا خير فى جهل إذا لم يكن له ... حليم إذا ما أورد الأمر أصدرا

فقال النبى صلى الله عليه وسلم : لا يفضض الله فاك . قال الراوى : فنظرت إليه فكأن فاه البرد المنهل ما سقطت له سنّ ولا انفلّت (٢) تَرِفُّ غروبه (٣) .

كما يعلمون أن النبى صلى الله عليه وسلم أثابه ودعا له ، وأن الشعراء أنشدوا بين يديه واهتز لما أنشدوه . فهذه هى قتيلة أخت النضر بن الحارث الذى كان غالياً فى عداوة المسلمين بمكة يكثر أذاهم ويلقن فتيان قريش الشعر فى هجائهم ، أسره النبى فى بدر وقتله ، فجاءته أخته وأنشدته :

يا راكبا إن الأثيل مظنة ... من صبح خامسة وأنت موفق (٤)
أبلغ به ميتا بأن تحية ... ما إن تزال بها النجائب تخفق (٥)

---

(١) بوادر : جمع بادرة وهى الحدة أو ما يبدر من الانسان عند الحدة من الخفة إلى الانتقام بالقول أو الفعل .

(٢) انفلت : انثلمت ـ ترف : تبرق وتلمع ـ غروب الأسنان ماؤها وظلمها .

(٣) دلائل الاعجاز ص ١٨ .

(٤) الاثيل : وادقرب بدر وهو الموضع الذى دفن به أخوها .

(٥) تخفق ـ كتضرب : تسرع .

منى إليك وعبرة مسفوحة جادت بواكفها وأخرى تخنق (١)
هل يسمعنى النضر إن ناديته أم كيف يسمع ميت لا ينطق ؟ (٢)
ظلت سيوف بنى أبيه تنوشه لله أرحام هناك تشقَّق (٣)
صبرا يقاد الى المنية متعبا رسف المقيد وهو عان موثق (٤)
أمحمد ولدتك خير نجيبة فى قومها والفحل فحل معرق (٥)
ما كان ضرك لو مننت وربما منّ الفتى وهو المغيظ المحنق (٦)
فالنضر أقرب من قتلت قرابة وأحقهم إن كان عتق يعتق
لو كنتَ قابل فدية لفديته بأعز ما يغلى به من ينفق (٧)

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لو سمعت هذا قبل قتله لمننت عليه .

وهم قد عرفوا أيضا أن كثيرا من شعراء الإسلام أنشدوا بين يدى النبى صلى الله عليه وسلم غزلا ، ومن ذلك ما أنشده كعب بن زهير بين يديه إذ يقول :

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول متيم إثرها لم يفد مكبول (٨)
وما سعاد غداة البين إذ رحلوا إلا أغن غضيض الطرف مكحول (٩)
هيفاء مقبلة عجزاء مدبرة لا يشتكى قصر منها ولا طول
تجلو عوارض ذى ظلم إذا ابتسمت كأنه منهل بالراح معلول (١٠)

---

(١) وكف المطر والدمع : سال .

(٢) أم للاضراب ، أى بل إنه لا يسمع لانه لا ينطق .

(٣) تنوشه : تتناوله .

(٤) قتله صبرا وصبر الانسان على القتل أن يحبس ويرمى حتى يموت . العانى : الأسير . الموثق المقيد بالوثاق .

(٥) الفحل : كناية عن الأب ، والمعرق الأصيل .

(٦) المحنق : المغتاظ من أحنقه إذا أغاظه .

(٧) غلا بالشىء وغالى به : طلب فيه ثمنا غاليا أو اشتراه كذلك .

(٨) المتبول : من تبله الحب إذا أضناه وأفسده أو ذهب بلبه وعقله . والمتيم المذلل المعبد والمغلول من وضع الغل فى عنقه . وفى رواية مكبول وهو المقيد بالكبل أى القيد .

(٩) الأغن : الذى يتكلم من قبل خياشيمه . غضيض الطرف من غضه إذا خفضه .

(١٠) العوارض جمع عارضة وهى السن التى فى عرض الفم ، الظلم : شدة صفاء متون الأسنان . المنهل : النهل محركة أول الشرب . و المنهل المشرب والشرب والمنزل يكون بالمفازة ، معلول : العلل محركة : الشربة الثانية أو الشرب بعد الشرب تباعا .

أوائل المتكمين من المسلمين

واصل بن عطاء شيخ المعتزلة

لفضيلة الأستاذ الشيخ على مصطفى الغرابى
المدرس بكلية أصول الدين

لقد تكلمت فى مقالى السابق على رأى واصل فى « مرتكب الكبيرة من المسلمين » وأنه جعله فى منزلة بين منزلتى الإيمان والكفر ، وأنه سماه « فاسقا » لا كافرا ولا مؤمنا ولا منافقا . وفى هذا المقال سأتحدث إن شاء الله على موقف واصل من الآراء الكلامية التى راجت فى عصره ، ومن بينها مسألة « مرتكب الكبيرة » على أن أبين مدى اهتمامه واهتمام غيره من المسلمين فى ذلك العصر بتلك المسألة .

المشاكل الكلامية فى ذلك العصر :

إن المشاكل التى كانت تشغل بال المسلمين فى أيام واصل بن عطاء — تقدم أنه عاش من سنة ٨٠ الى سنة ١٣١ هـ — هى :

أولا : مسألة العصاة من المؤمنين ، أو مسألة « مرتكب الكبيرة » .

ثانيا : الحكم على عثمان وقاتليه ، ثم على على بن أبى طالب وشيعته ، ثم السيدة عائشة ومن معها من المسلمين ، ثم معاوية ومن معه منهم .

ثالثا : هل الإنسان مجبور فى أفعاله أو مختار ؟

رابعا : القرآن مخلوق أو غير مخلوق .

خامسا : صفات الله تعالى .

سادسا : من يستحق أن يكون خليفة المسلمين ؟

أما المسألة الأخيرة — وهى من يصح أن يكون خليفة — فإن السيف لا العقل ولا الدين كان صاحب الرأى فيها برغم آراء الفرق واختلافهم عليها ؛ لهذا كانت للأمويين أولا ، وللعباسيين ثانيا ، ثم توزع أمرها بين المسلمين فى شكل ولايات تصغر أو تكبر حسب قوة المغتصب .

وأما المشكلة الثانية — وهى الحكم على من ذكرنا من المتقاتلين من المسلمين — فإنها ضعفت أو انتهت بضعف الطوائف التى كانت تعتنقها وتتعصب لصاحبها . وسنرى رأى واصل فيها إن شاء الله .

وبقيت مشكلة « مرتكب الكبيرة من المؤمنين » ، ومشكلة الإنسان « هل هو مجبور أو مختار ؟ » ، ومشكلة « هل القرآن مخلوق أو غير مخلوق ؟ » ، ومشكلة « صفات الله » .

أما مشكلة الإنسان فقد كانت محل نزاع بين رأيين ، أحدهما رأى « الجعد ابن درهم ، وجهم بن صفوان » ، وهو أن الإنسان مجبور فى أفعاله ، وأنه كالريشة المعلقة فى مهب الرياح ؛ وثانيهما رأى « غيلان الدمشقى ، ومعبد بن خالد الجهنى » وهو على الضد من الرأى الأول ، وهو أن الإنسان مختار فى أفعاله لا مجبور .

وأما مشكلة القرآن فقد ظهرت عند الجعد وجهم بن صفوان ، ولكننى لم أر لواصل رأيا فيها ، ويظهر أنه لم يتكلم فيها ، وإنما ظهرت تلك المشكلة مرة أخرى على يد « بشر المريسى » أيام الرشيد ، ثم على يد « ثمامة بن أشرس النميرى » رئيس المعتزلة فى أيام المأمون والمعتصم والواثق من خلفاء الدولة العباسية ، وهو الذى جرى على يديه وعلى يد « أبى دؤاد » امتحان الفقهاء فى خلق القرآن .

وأما مشكلة الصفات ، فقد بدأت عند الجعد وجهم ثم غيلان الدمشقى ، إلى أن جاء وكان له رأى فيها ، وسنذكره إن شاء الله .

وأما مشكلة مرتكب الكبيرة فقد كان بدء أمرها عند الخوارج بعد أن اختلفوا مع على بن أبى طالب رضى الله عنه على التحكيم بينه وبين معاوية فى القتال الذى كان بينهما ، ثم كان للمرجئة فيها رأى ، كما كان للحسن البصرى فيها رأيه ، ثم كان رأى واصل بن عطاء . ولما كانت هذه المشكلة أهم المشاكل التى شغلت المسلمين فى ذلك

الوقت فإن واصلا قد بذل مجهودا كبيرا فى سبيلها أكثر من المشاكل الأخرى التى حكتها عنه كتب الفرق . ولقد ذكرت بعض هذه الكتب مناقشة واصل لآراء الفرق الأخرى حتى انتهى إلى إبطالها وتأييد رأيه بالحجة والدليل .

قال واصل لمخالفيه فيمن يرتكب الكبيرة من المؤمنين : قد أجمعتم أن سميتم صاحب الكبيرة « بالفسق والفجور » فهو اسم له صحيح بإجماعكم ، لأن الخوارج تقول « إن مرتكب الكبيرة مع فسقه وفجوره كافر » ، والمرجئة تقول « هو مع فسقه وفجوره مؤمن » ، والشيعة تقول « هو كافر نعمة فاسق » . وقال الحسن البصرى ومن تابعه « هو مع فسقه وفجوره منافق » . ثم إن القرآن قد نطق بهذه التسمية فى آية القاذف قال تعالى « والذين يرمون المحصنات لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا وأولئك هم الفاسقون » وكذلك فى كثير من آياته سمى المؤمن العاصى « فاسقا » . فوجب تسميته لهذين « فاسقا » . وأما ما تفرد به كل فريق منكم من الأسماء فدعوى لا تقبل منه إلا ببينة من كتاب الله أو من سنة نبيه صلى الله عليه وسلم . ثم قال لهم : لقد وجدت أحكام الكفار المجمع عليها المنصوصة فى القرآن كلها زائلة عن صاحب الكبيرة ، فوجب زوال اسم الكفر عنه بزوال حكمه ، لأن الحكم يتبع الاسم كما أن الاسم يتبع الفعل ، وأحكام الكفر المجمع عليها المنصوصة فى القرآن على ضربين :

أحدهما : أن الله سبحانه وتعالى قال : « قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون » فهذا حكم الله فى أهل الكتاب وهو زائل عن صاحب الكبيرة .

وثانيهما : أنه قال تعالى : « فإذا لقيتم الذين كفروا فضَرْبَ الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشُدوا الوَثاق فإما منًّا بعدُ وإما فداء » . وهذا حكم الله فى مشركى العرب ، وفى كل كافر سوى أهل الكتاب ، وهو زائل عن صاحب الكبيرة . ثم قد جاءت السنة المجمع عليها على أن أهل الكفر لا يوارثون ولا يدفنون فى مقابر أهل القبلة ، وليس يفعل ذلك بصاحب الكبيرة .

وحكم الله فى المنافق أنه إن ستر نفاقه فلم نعلم به وكان ظاهر الإسلام فهو

عندنا مسلم ، له ما للمسلمين وعليه ما عليهم ، وإن أظهر كفره استتيب ، فإن تاب وإلا قتل . وهذا الحكم زائل عن صاحب الكبيرة .

وحكم الله فى المؤمن الولاية والمحبة والوعد بالجنة ، قال الله جل ذكره « الله ولى الذين آمنوا » وقال « وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلا كبيرا » وقال « وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار » .

وحكم الله فى صاحب الكبيرة فى كتابه أن لعنه وبرىء منه وأعد له عذابا عظيما ، فقال تعالى « ألا لعنة الله على الظالمين » وقال « وإن الفجار لفى جحيم » وما أشبه ذلك من القرآن ، فوجب أن صاحب الكبيرة ليس بمؤمن لزوال أحكام المؤمن عنه فى كتاب الله ، ووجب أنه ليس بكافر لزوال أحكام الكفار عنه ، ووجب أنه ليس بمنافق لزوال أحكام المنافقين عنه فى سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم . ووجب أنه فاسق فاجر لإجماع الأمة على تسميته بذلك ، وبتسمية الله له فى كتابه .

ولقد رأيت أن واصلا قد سلك فى استدلاله على تسمية « مرتكب الكبيرة باسم الفاسق » طريقا إلى تقرير دعواه تمسك فيه :

أولا بالقرآن الكريم والسنة ، مستدلا بما ورد فيه من تسمية القاذف باسم الفاسق .

ثانيا بالإجماع ، لأن المخالفين له كانوا جميعا متفقين على تسميته بالفاسق ، والخلاف بينهم فى كونه - مع هذا - كافرا أو منافقا أو مؤمنا ، فهو قد أخذ بالمجمع عليه ، وترك المختلف فيه .

بعد هذا الاستدلال انتهى واصل إلى أن صاحب الكبيرة يجب أن يسمى « فاسقا » وأنه ليس بالمؤمن الكامل الإيمان ، كما أنه ليس بالكافر البالغ حد الكفر ، وكذلك ليس منافقا ، كما أنه ليس بمؤمن ، لأنه لا يجمع كل صفات المؤمنين ، وإذن يكون فى « منزلة بين منزلتى الإيمان والكفر » . هذا ما يتعلق بمرتكب الكبيرة عند واصل فى الحياة الدنيا . ولكن أين يكون وضعه فى الآخرة ؟ أيكون كذلك فى منزلة بين الجنة والنار بأن يكون من أهل الأعراف ؟ أو يكون مع المؤمنين فى الجنة بعد استيفاء عقابه على ماقصر فيه من عمل ؟ أو يكون مع الكافرين خالدا فى النار ؟ أو يكون مع المنافقين فى الدرك الأسفل من النار خالدا فيها معهم ؟

لقد أجاب على هذا السؤال صاحب كتاب « الفرق بين الفرق » وهو من الأشاعرة ، بأن واصلا كان يقول : « إن الفاسق مخلد فى النار » ولكننى لم أعثر على هذا الرأى لواصل عند غير الأشاعرة من كتاب الفرق . على أن هناك ما يدل على عدم صحة نسبة هذا الرأى لواصل وهو :

أولا : استدلال واصل على تسمية « صاحب الكبيرة باسم الفاسق » حيث جعل أساس استدلاله على اختلاف التسمية هو اختلاف الأحكام، فاستدل باختلاف الأحكام على اختلاف الأسماء ، وهو يعرف أن أحكام الكفار فى الآخرة الخلود فى النار ، فكيف يستدل على اختلاف التسمية باختلاف الأحكام ، ثم يحكم على الفاسق بأحكام الكفار ؟ أظن هذا ليس معقولا ، بعد أن رأينا دقة واصل فى استدلاله على دعواه !

ثانيا : أن المسلمين لما اختلفوا فى على وأصحابه ، وفى طلحة والزبير وعائشة أصحاب حرب الجمل ، وكفرهم البعض وفسقهم البعض ، وخطأهم بعض آخر ، وقف واصل من هذه المسألة موقف العلماء المتورعين ؛ هو يعلم أن الحق قطعا لا يتعدد ، فلا بد أن يكون الحق مع أحد الفريقين ، ولكن لا يعرفه بالضبط ، لهذا ذهب إلى أن أحد الفريقين فاسق ، لا بعينه . ولقد طبق واصل حكم القرآن الكريم ، وهو عدم قبول شهادة الفاسق ما لم يتب على على وأصحابه وعائشة ومن معها ، ولكن ليس من المعقول أن يحكم واصل على على بن أبى طالب وأصحابه أو عائشة وطلحة والزبير رضى الله عنهم بالخلود فى النار ، ولم أر لواصل هذا الرأى حتى كتب الأشاعرة نفسها لم تنقله لنا ، ولو صح عنه هذا الرأى لما سكت الأشاعرة عن التشهير به على واصل .

لهذا أرى أن ما يدعيه كتاب الفرق من الأشاعرة على واصل من « أن مرتكب الكبيرة أو صاحبها مخلد فى النار » ليس صحيح النسبة إليه . وقد يجوز أن يكون أساس هذا الخطأ الذى وقع فيه هؤلاء الكتاب هو ما كتبه عن المعتزلة « ابن الراوندى » فى كتابه « فضائح المعتزلة » . ويكون الأشاعرة قد خدعوا بما قاله خصم المعتزلة . ولا أظنهم يتعمدون التجنى على رئيس المعتزلة وشيخهم ، وفى مقال تال إن شاء الله نتمم الحديث على مابقى من آراء واصل الكلامية .

بين الشعر والنظم

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ حامد عونى
المدرس بمعهد القاهرة

تضاربت الآراء ، واختلف مذاهب العلماء فى تحديد معنى الشعر ، وضبط هذا النوع من طرق الأداء ضبطا يميزه عن سائر أنواع الأساليب .

وقد أتيح لى أن أطلع على بعض الآراء فى هذا الصدد ، راغبا أن أقف منها على ما يرضى الضمير ، ويستسيغه الفهم ، وتستشعره النفس .

وبعد استقصاء البحث بقدر ما سمحت به سعة الاطلاع ، وقوة الإدراك ، محكّما فى ذلك الوجدان الحر ، والعقل الطليق من أغلال التقليد ، وقفت فى آخرة الأمر على رأى قد ارتاح إليه الضمير ، واستساغه العقل .

قال علماء العروض فيه : إنه الكلام الموزون المقفى . وإلى هنا لم يخط العروضيون خطوة . وهو تعريف بظاهره — كما نرى — لم يعدُ فيه هؤلاء حاقّ اللفظ ، وأصداء النغم ؛ فالوزن والتقفية كلاهما قوام الشعر عندهم ، وكأن عمدتهم فيه أن يكون الكلام مفرغا فى القالب الموسيقى ، موقّعا على نغم الألحان ، ولا يبالون — بعد ذلك — أكان مركبا من قضايا أولية ساذجة ، أم كان متضمنا معنى خياليا مؤثرا ، وسواء أكان متسق المعانى منسجمها ، أم كان متنافر المدلولات مضطربها ، ما دامت أجزاؤه متسقة على التوقيعات الموسيقية .

ونحن إذا تأملنا قليلا علمنا أن ما قالوه تعريف للنظم لا للشعر ، وأنه الكلام الموزون المقفى ، أعم من أن يكون بين معانى كلمه التئام وتضافر ، أو تعاند وتنافر .

وإذاً فبين الشعر والنظم من الفرق ما لا يخفى على أولى النظر ، إذ قد يكون المرء شاعرا يأتى بالأخيلة البديعة ، والحكم الرائعة ، والتجوز الساحر ؛ أو يأتى بالحقائق الناصعة المتضامة الآخذ بعضها برقاب بعض ؛ ولكنه — مع ذلك —

لا يجيد إفراغ ما يأتى به فى القالب الموسيقى الشائق . وقد يكون ناظما يحسن وضع الكلم على وفق توقيع الألحان ، ولكنك لا ترى فى نظمه خيالا شعريا طريفا ، أو معنى تمثيليا جميلا ، بل تراه ينظم الكلام هكذا غفلا ساذجا لا تصرف فيه ؛ وقد نرى بين معانى كلمه تنافرا أو عداء يعاف بعضها بعضا ، ويبرأ بعضها من بعض . فقد يشجيك ويطربك ما تسمعه من تلك النغم الموسيقية فى بيت الفرزدق :

وما مثله فى الناس إلا مملكا أبو أمه حى أبوه يقـــاربه

مع ما تراه من سوء النظم ، وسقم التأليف ؛ فليس هذا من الشعر فى شيء ، وإنما هى كلمات منظومة متراص بعضها إثر بعض .

فما عرف العروضيون الشعر حينئذ ، وإنما نظروا من جهة بنيته وقوافيه ، فعرفوا القالب الذى يفرغ فيه ، وذلك هو النظم ، وبقى الشعر على حدة . ولو أن الشعر كما عرفوا لكانت الشاعرية بين الأوزان والقوافى ، لا فى المعانى والأساليب ، ولكان كل من وضع قافية ، وأقام وزنا ، شاعرا ؛ وإذاً لضاق رحب الفضاء بعداد نجوم السماء من النظّامين المتّسمين بسمة الشعراء .

ولعل تعريفهم هذا هو الذى بعث جماعة النظامين على التوفر عليه ، فما يكاد أحدهم يقف بهذا الباب ، ويلم بالخفيف والثقيل من الأسباب ، حتى يغامر فى النظم يحسبه شعرا ، ثم يمعن فيه ما يمعن ، وكلما حاول أن يقترب من حقيقته اقترابا ، أو غل عنها اغترابا . ولقد تقرأ له مائة بيت فى غرض واحد فلا تشم فى خلال تلك الأسطار عبقا من المعانى الشعرية ، ولا تلمح فى ثناياها شيئا من جلال الشعر .

يطلع عليك أبدع أولئك بيانا بأبيات فى شكوى الهوى ، فينفضها على سمعك حتى اذا أصغيت له سمعت ألفاظا متنافرة ، مشدودة الوثاق الى أوتاد من الوزن ، ورأيت ديباجة كأنها الطلل البالى ، وخيالا يعافه العقل ، ويمجه الذوق ؛ لا يعنى هذا النـّظام ـ متى استقام له الوزن ، وأسلست له القافية قيادها ـ أن يرتفع بكلامه عن مستوى السوقة ، ولا فى مقدوره أن يبدهك بمعنى مخترع ، أو يروعك ببيت على غرار البلاغة مطبوع ؛ ولو كان شاعرا ـ كما يزعم ـ لأطلعك من قلبه على موضع ناره ، وأسمعك منه رنين أوتاره .

ويجيئك آخر بكلام موزون مقفى فى الحماسة ، فاذا جلس اليك طفق يحصبك منه بمـا يغرى بك السكرى ، وتملك على جناح خياله إلى أحد القطبين ، فافترقتما وكلا كما فى مكانه قائم ؛ ولو كان شاعراً لهز من قلبك وترا جامدا ، وبعث من عزمك ما كان خامدا ، ثم اقتادك بشاعريته إلى الغاية التى يريدها .

ويلقـاك ثالث الجماعة بثالثة الأثافى فى وصف الحرب وأهوالها ، فاذا أعرته أذنا صاغية ، سمعت براعةالاستهلال تشف عنعتاب صديق ، أو شكوى من عنت الدهر ؛ فاذا جاوز المطلع ، وانحدر الى مايليه ، لم يزد على أن يريك صديقين يتمازحان لاجيشين يقتتلان ؛ ولو كان شاعرا لدرج بنفس صاحبه بين صهيل الجياد ، ومواقع الجلاد ، وخاض بهـا فى بحر من الدماء ، ثم مشى بها على جسر من الأشلاء .

إذاً فبين الشعر والنظم من الفرق أن هـذا وزن وتفعيل ، وسبب خفيف وآخر ثقيل ؛ وذاك تصوير لمـا يجيش به الصدر من حكمة ، وتهش له السريرة من أمنية ، ويسكن اليه العقل من حقيقة ، ويعلق به الخاطر من خيال ، وينطبع فى المناظر من جمال ، ويأخذ بعنان النفس من كمال .

ومن أراد أن يميز ما يمر بسمعه من قول : أنظم هـو أم شعر ؟ فلينصت الى قائل ؛ فان شعر أن فى كل بيت من معانيه محيـا جميـلا يشرف من نافذته ، وحسنا يترقرق على قافيته ، فلم يتمالك أن يهش له ويطرب ، وتنقاد له نفسه بزمام ، فذلك هو الشعر .

وإن مر به القول فلم يحدث فى نفسه من الأثر ، إلا مثل ما يحدثه مر الطائر فى الهواء ، ولم يجد فيه من روعة الشاعرية مايصبو له القلب حنانا ، أو يصيب فى القلب مكانا ، فذلك هو النظم ، وخليق به أن يدخل فيـه ما ليس من الشعر ولا قلامة ظفر .

فليعلم الذين زعموا الشعر وزنا وقافية ، أنهم فى واد ، وأن الشعر فى واد .

خطا بعضهم خطوة فشرط أن يكون الشعر مبنيا على استعارة ، معبرا عن خيال . فليت شعرى أى شىء يريد ؟ إنه لا جرم يريد أن ينتحى ناحية الفلاسفة من أن الشعر هو ذلك المعنى السابح فى عالم الخيال ، الجائل فى مسارح الوهم ، فلا يكاد تتناوله

الحواس الظاهرة ؛ لذلك أطلقه المناطقة على القياس المركب من قضايا خيالية تؤثر فى النفس ولو كاذبة أو مستحيلة ، كقياس قولهم فى اجتماع الضدين : « أنا مضمر الشكوى باللسان ، مظهرها بالدموع ، وكل مضمر صامت ، وكل مظهر متكلم فأنا صامت متكلم » . ومن هنا قال علماء الأدب : « أشعر الحديث أكذبه » أى أن أشد المعانى تأثيرا فى النفس ، وأملكها للعواطف ، وأسلبها للشعور ، ألصقه بالخيال ، وأعلقه بالوهم . فكذلك يريد هذا القائل أن يقول لنا : إن الشعر هو ذلك القول المتضمن للخيال البديع المؤثر ؛ فكأنه يرى رأى الفلاسفة أن لا تأثير لغير الخيال ، وأن التجوز فى المعانى ، والتخطى بها من الحقيقة الى مسارح الخيال ، هو مصدر الروعة ، وموضع السحر لا غير .

ونحن إزاء هذا الرأى لا يسعنا ، إلا أن نذعن أن للخيال تأثيرا حادا فى النفوس ما لم تخرج به المغالاة عن حدود المعقول . هذا شىء نحسه فى أنفسنا ، وندركه بوجداناتنا حتى فى لغة العامة ؛ فانك لا تكاد تسمع مثلا عاميا ، أو تمثيلا سوقيا من بعض أفناء الناس وعوامهم إلا طربت له وهششت عند سماعه ؛ ولكن الذى ننكره هو أن يستأثر الخيال بهذا التأثير ، ويستقل به دون الحقيقة . ذلك أن من المعانى التى لم تخلع أردية الحقيقة ما لا يقل روعة وتأثيرا عن تلك التى خلعت عليها المغالاة حلل الخيال الرائع ، والمجاز البديع .

فهاك الكتاب الكريم قد تحدى الأمة العربية فى أبين صفاتها ، وأسمى سماتها ، وأجل مفاخرها « تلك هى البلاغة نظما ونثرا » ، وما وسعها بعدُ إلا أن تنحنى أمامه صاغرة ، وهى أسبق الدول فى حلبة البيان ، ومضرب المثل منها فى هذا الميدان « قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا » . وإنك لو تصفحت هذا الكتاب الحكيم ، وتلوته آية آية ، بل تقصيته كلمة كلمة ، لا أراك تجد فيه من معانى الكناية والمجاز إلا بقدر الملح فى الطعام ، ومع ذلك ترى شبح الإعجاز ماثلا أمام عينيك فى كل ناحية من نواحيه ، فأنَّى قرأت وحيثما تلوت ، رأيت فى كل كلمة معجزة ، وبكل آية آية ، ولا تكاد تمنع مشاعرك من أن يتملكها سحر هذا البيان . فهل ترى أن ما بهر ابن المغيرة ، وأفعم صدره روعة وجلالا من قوله تعالى : « إن الله يأمر

بالعدل والإحسان » الآية « حتى دعاه ذلك أن يقول : « والله إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أسفله لمغدق ، وإن أعلاه لمثمر ، ما يقول هذا بشر » ؛ هل ترى ذلك لشيء راعه فى الآية من تجوز فى المعنى أو كناية فيه ؟ كلا إن هى إلا حقائق ناطقة يتجاذب بعضها بعضا . وهل ترى الجاحظ حين قال : « ولو أن رجلا قرأ على رجل من خطبائهم وبلغائهم سورة واحدة ، لتبين له من بديع نظامها ورقة نسقها ، أنه عاجز عن مثلها ، ولو تحدى بها أبلغ العرب لعجز عنها » نظر الى ما فيها من استعارة وكناية ليس غير ؟ أو هل ترى ابن مسعود حين قال فى وصف القرآن : « لا يتفه ولا يتشان » ، وإذ قال : « إذا وقعت فى آل حم وقعت فى روضات دمثات أتأنق فيهن » قال ذلك من أجل ما فيها من تمثيل أو كناية فحسب ؟ أم ترى لذلك فقط قالوا فى صفة القرآن : لا تفنى عجائبه ، ولا يخلق على كثرة الرد ؟ أم هل ترى أن ما أعجز زعماء العرب وأساطينهم عن مباراته حتى وقفوا أمامه واجمين مبهوتين لا يدرون ما يصنعون ، هو ما فيه من تجوز أو خيال ؟ .

وهل علمت أن لو كان ذلك البيان الساحر الذى تنخلع له قلوبنا روعة وجلالا حينما نسمع لكلامه تعالى وليدَ ما فيه من مجازات وأخيلة ، لأدى ذلك الى رفع الإعجاز عن الجمهرة العظمى من آيات الله ، وأن يثبت ذلك فقط فى آى من القرآن معدودة ، وفى مواضع من السور محدودة ، وفى هذا كفر صراح ؟ .

ما ذلك إذاً إلا لما تضمنه هذا الكلام من دقائق المعانى ، ولطائف الأسرار المختلفة ، فى ذلك الأسلوب العجيب ، والنظم الرائع البديع ، فى المعانى المختلفة والأغراض المتباينة ، لا فرق فى ذلك بين حقيقته ومجازه ، وصريحه وكنايته .

هبْ هذا التأثير العجيب وليد ما فى القرآن من سر اختص الله به ، ومزية أودعها إياه دون سائر كلام البشر كما قد قيل ، فأى سر أودع فى منظوم كلام البشر أو منثورهم مما هو خلو من القضايا الخيالية ، سليم من خدائع المغالاة ، وتماويه الإغراق ، مع بلوغه الغاية فى الجودة ، والنهاية فى التأثير ، كقول أبى الطيب :

إذا قيل رفقا قال للحلم موضع   وحلم الفتى فى غير موضعه جهل

وقوله :

من يهن يسهل الهوان عليه   ما لجرح بميت إيلام

أجل : إنا لا ننكر ما للحكم والأمثال من التأثير والروعة أيا كان الوضع الذى وضعتا به ، والقالب الذى أفرغتا فيه ، غير أن الذى نحسه فى أنفسنا أن ليس للحكمة أو المثل منطوقا بهما على انفراد من جمال التأثير ما يكون لهما منتظمين فى سلك حديث استدعاهما ، كالعقد النفيس فإنه فى جيد الحسناء أبهى وأنضر منه منعزلا جانبا . ولا إخال عاقلا يستطيع أن يسوى فى التأثير بين قول الشاعر : « وحلم الفتى فى غير موضعه جهل » منقطعا عما تقدمه من الكلام ، وبين قوله هذا منسجما مع قوله : « إذا قيل رفقا قال للحلم موضع » فإن انتظامه معه فى سلك واحد ، واستدعاء صدر الكلام لعجزه ، أعطيا للحكمة روعة ، وأكسباها تأثيرا لم يكونا لها وهى منقطعة الصلة ، منعزلة المكان .

وإنك إن تسمع لقولهم : « فإن المسك بعض دم الغزال » ، أو قولهم « ما لجرح بميت إيلام » أو قولهم : « إن معدن الذهب الرغام » سمعت قولا لا يعدو أن يكون مجرد خبر بأن المسك جزء من دم الغزال ، وأن الجرح الميت لا يحس ألم الوخز ، وأن الذهب مكانه التراب ، ولا يكاد يجوز ما سمعت صماخ أذنك ، ثم لا تلبث أن تسمع أو تقرأ قول المتنبى :

فإن تفق الأنام وأنت منهم   فإن المسك بعض دم الغزال

أو قوله :

وما أنا منهم والعيش فيهم   ولكن معدن الذهب الرغام

أو قوله :

من يهن يسهل الهوان عليه   ما لجرح بميت إيلام

فلا تكاد تضبط حواسك دون أن تتملكها روعة هذا الكلام . فانظر الى ذلك الذى كان خبرا ساذجا كيف استحال سحرا حلالا ، وانقلب رحيقا مباحا . فليت شعرى : هل كان ذلك إلا بفضل ما بين الكلامين من حسن الانسجام ، ورقة الالتحام ، وأن صدر الكلام آخذ بناصية عجزه ، وآخره ممسك بعنق أوله ؟ ذلك هو السر فى أن كان للحكم والأمثال ذلك التأثير العجيب .

وإليك قصة الغلام الحجازى الذى وفد على عمر بن العزيز فاشرأب الغلام

للكلام فمنعه الخليفة لحداثة سنه قائلا : ليتكلم من هو أسن منك ، فقال الغلام : يا أمير المؤمنين إنما المرء بأصغريه : قلبه ولسانه ، فإذا منح الله عبدا لساناً لافظا ، وقلباً حافظا ، فقد أجاد له الاختيار ؛ ولو أن الأمر بالسن لكان ههنا من هو أحق بمجلسك هذا ! . فقال عمر : « صدقت ، فهذا هو السحر الحلال » .

فما كان عمر بن العزيز ذلك الحجة الدامغة ، والقول الفصل ، لتفحمه مقالة غلام حدث لما فيها من تخيل وتجوز ، بل لما فيها من فخامة المعنى ، ورشاقة الأسلوب . ألا ترى كيف جعلها سحرا حلالا فى حين أنها معان لم تبرح أصولها ، ولم تعر عن ثيابها ؟ ولكنها دقت فخلبت ، وتناسقت فسحرت .

فلا وجه إذاً لأن يستأثر الخيال بالتأثير ، إذ ثبت أن لبعض المعانى الحقيقية من التأثير ما لا يستهان به . وإن الأسلوب الساحر ، والمعنى الدقيق اللذين أتى بهما الكتاب الحكيم لأقوم دليل على حقية ما نقول من أن دقة المعانى وتناسقها من أقوى عوامل التأثير وإن لم يعد بها التجوز من الحقيقة الى الخيال .

وإذا أخذنا بنظرية القائل ان لا بد فى الشعر من أن يكون مسبحا للخيال ومسرحا للوهم لمكانهما من التأثير ، فماذا يكون عذرنا أمام شعر زهير ، وبم تكون محجتنا إزاء الجمهرة العظمى من شعر المتنبي ونحوهما مما هو خلو من القضايا الخيالية ، ونحن لا يسعنا بحال أن ننكر عليهما جودتهما وحسن تأثيرهما لما بين المعانى من جمال الانسجام ، وتوثق عرا الالتئام ، مع بهاء الرونق ، وصفاء الديباجة ، وفى ذلك من التأثير فى النفس ما لا يقل شأنا من بارع الاستعارة ورائع الخيال .

وها هم أولاء الشعراء الجاهليون ما كانوا ليعنوا بزخرف القول ، أو ليتكلفوا الأداء ، بل كانوا يتوخون الحقيقة ما شاءت سذاجتهم وفطرتهم ، ولا يقولون من الكلام إلا ما يخطر لهم بلا تعمل أو تأنق ؛ لذلك قل المجاز فى شعرهم ، وندرت المبالغة ، فى حين أنهم مضرب المثل فى مضمار البيان . فهل نستطيع أن نخرج جل أشعارهم من غمار الشعر ولا نذكرهم فى عداد الشعراء لأن شعرهم عاطل الجيد من حلى الخيال ؟ . فليس لنا بعد هذا البيان الواضح أن نختص المعانى المجازية والتخييلية بحسن الوقع وجمال التأثير ، فندعى أنها قوام الشعر ، والدعامة التى عليها يعتمد ، وبها يكون ، فان ذلك بلا ريب غمط لحق كثير من فحول الشعراء ؟

حسن الجـــــوار
وأثره في ربط الأسر

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ على رفاعى
المفتش بإدارة الوعظ

من تعاليم الإسلام دعوته إلى حسن الجوار ، وقد حث الهمم وبعث العزائم للتحلى بهذا الخلق العظيم ، بهدى مشرق كريم . قال الله تعالى: «واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، وبالوالدين إحسانا ، وبذى القربى واليتامى والمساكين ، والجار ذى القربى والجار الجنب ، والصاحب بالجنب ، وابن السبيل ، وما ملكت أيمانكم » . فمن الآية الكريمة ترى أن الله سبحانه أمر بالإحسان إلى الجار ذى القربى — القريب المسكن أو الذى له مع الجوار قرب واتصال بنسب أو دين ـ والى الجار الجنب ـ البعيد المسكن ، أو الذى لا تربطك به صلة القرابة .

وقد روى البزار عن جابر أنه صلى الله عليه وسلم قال : « الجيران ثلاثة : جار له حق واحد وهو أدنى الجيران ، وجار له حقان ، وجار له ثلاثة حقوق وهو أفضل الجيران ؛ فأما الذى له حق واحد فجار مشرك له حق الجوار ، وأما الذى له حقان فجار مسلم له حق الإسلام وحق الجوار ، وأما الذى له ثلاثة حقوق فجار مسلم ذو رحم له حق الإسلام وحق الجوار وحق الرحم » .

وإن الإحسان إلى الجار دليل الإيمان بالله واليوم الآخر ، يوم يجازى المرء بالإحسان إحسانا ، وبالسوء سوءا .

روى مسلم عن أبى شريح الخزاعى رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحسن إلى جاره » . وقد أقسم النبى صلى الله عليه وسلم أن من أساء الى جاره تعرى من ثوب الإيمان ؛ ففى الصحيحين عن

أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن ! قيل من يا رسول الله ؟ قال : الذى لا يأمن جاره بوائقه » والبوائق : الشرور والآثام والإيذاء .

وروى الطبرانى عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما آمن بى من بات شبعان وجاره جائع إلى جنبه ، وهو يعلم » .

كذلك رغب صلوات الله وسلامه عليه فى حسن الجوار ، ونفر من الإساءة إلى الجار ، ببيان جزاء من أحسن ومن أساء إلى جيرانه .

روى الامام أحمد وغيره عن أبى هريرة قال : قال رجل : يا رسول الله إن فلانة تذكر من كثرة صلاتها وصدقتها وصيامها غير أنها تؤذى جيرانها بلسانها . قال « هى فى النار » . وقال يارسول الله : فان فلانة تذكر من قلة صيامها وصلاتها وإنها تتصدق بالأثوار من الأقط - أى القطع من الأقط ، وهو شىء يتخذ من مخيض اللبن الغنمى - ولا تؤذى جيرانها . قال « هى فى الجنة » .

وروى مسلم أنه صلى الله عليه وسلم قال « لا يدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه » .

وقد أمر النبى صلى الله عليه وسلم بالتشهير بالجار الذى يسىء إلى جاره ؛ ففى الطبرانى عن أبى جحيفة رضى الله عنه قال : « جاء رجل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم يشكو جاره ، قال : اطرح متاعك على الطريق ، فطرحه ، فجعل الناس يمرون عليه ويلعنونه ، فجاء الى النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال : يارسول الله مالقيت من الناس ! قال : وما لقيت منهم ؟ قال يلعنونى ! قال :قد لعنك الله قبل الناس . فقال إنى لا أعود . فجاء الذى شكاه إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال « ارفع متاعك فقد كفيت » . وأحسب أن هذا من أشد أنواع التأديب عند ذوى الضمائر الحية والفطر السليمة .

وإن من يتأمل وصية جبريل لنبينا صلوات الله وسلامه عليه يدرك مقدار حق الجار عليه فيؤديه كاملا : « مازال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه » .

وقد بين صلوات الله وسلامه عليه حق الجار على جاره فيما رواه الطبرانى

عن معاوية بن حيدة قال « قلت يا رسول الله ما حق الجار على ؟ قال : إن مرض عدته ، وإن مات شيعته ، وإن استقرضك أقرضته ، وإن اعورّ سترته ، وان أصابه خير هنأته ، وإن أصابته مصيبة عزيته ، ولا ترفع بناءك فوق بنائه فتسد عليه الريح إلا بإذنه ، ولا تؤذه بريح قدرك إلا أن تغرف له » . ورواه الخرائطى فى مكارم الأخلاق وزاد « وإن اشتريت فاكهة فأهد له ، فأن لم تفعل فأدخلها سرا ، ولا يخرج بها ولدك ليغيظ بها ولده » .

إن من الإحسان إلى الجار أن تحب له ما تحب لنفسك ، فتتمنى له سعة المال وصلاح الحال وبلوغ الآمال ، وتعينه ما استطعت على بلوغ أمله ، وتسر لنجاحه فى الوصول إلى غرضه ، وإن كان جاهلا فعلمه ، وإن كان عالما فانصحه ، فالدين النصيحة .

وإذا كان إيذاء غير الجار ذنبا وإثما كبيرا ، فإيذاء الجار أكثر إثما وأعظم جرما . يعلم ذلك من قوله صلى الله عليه وسلم « ما تقولون فى الزنا ؟ قالوا حرام حرمه الله ورسوله فهو حرام إلى يوم القيامة ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لأن يزنى الرجل بعشر نسوة أيسر عليه من أن يزنى بامرأة جاره . قال : ما تقولون فى السرقة ؟ قالوا حرمها الله ورسوله فهى حرام ؛ قال : لأن يسرق الرجل من عشرة أبيات أيسر عليه من أن يسرق من جاره » .

إن حسن الجوار يزيد التراحم والتعاطف ، وسبيل التآلف والتواد ؛ إذ به يحصل تبادل المنافع وقضاء المصالح واستقرار الأمن ، واطمئنان النفوس ، وسلامة الصدور ، فتضحى الحياة ، طيبة والعيشة هنيئة .

وقد فطن لذلك السعداء فضربوا للناس أروع الأمثال فى حسن الجوار ؛ فمن هؤلاء أبو حنيفة النعمان رضى الله عنه : كان له جار إسكاف يعمل نهاره ويقضى ليله فى الشراب والغناء ، وكثيراً ما كان يزعج الإمام بجلبته ، ويتغنى بقول الشاعر :

أضاعونى وأىّ فتى أضاعوا ليوم كريهة وسداد ثغر

ففقد الإمام صوته ذات ليلة وعلم أنه محبوس . فصلى الصبح وذهب الى الأمير فقابله مجلا مبجلا ، وأجابه إلى ما طلب من الإفراج عن جاره . ولما خرجا قال له الإمام : هل أضعناك يا فتى ؟ فقال لا ، بل حفظت ورعيت ، جزاك الله عنى خيراً عن حرمة الجوار . وتاب ولم يعد إلى ما كان عليه .

وما أحسن قول الله تعالى فى مثل هذا المقام « ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ، ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم » .

وبعد ، فلو أحسن كل جار إلى جاره لوجدنا البلد على تعدد أسره أسرة واحدة ، يظللها علم السعادة ، فتجتمع القلوب على الصفاء ، وتطيب النفوس بترفعها عن العداوة والبغضاء ، فتنصرف الهمم الى الاصلاح والعمران ، وتنشد الرقى فى كل الميادين ، فيربح الوطن ، ويسعد كل من فيه .

فلنعتصم بحسن الجوار فى سبيل وحدتنا ، حتى يكون المستقبل الزاهر لنا . ومن الله التوفيق ؟

من مساوىء الحجاب

وقف أبو العتاهية إلى باب بعض الهاشميين فطلب الإذن ، فقيل له : تكون لك عودة . فقال :

لئن عدت بعد اليوم إنى لظالم ... سأصرف وجهى حيث تبغى المكارم
متى يظفر الغادى إليك بحاجة ... ونصفك محجوب ونصفك نائم

ومثله للعتابى :

قد أتيناك للسلام مرارا ... غير من منا بذاك المزار
فاذا أنت فى استتارك بالليـ ... ـل على مثل حالنا بالنهار

الطلاق فى القانون المدنى الفرنسى

لحضرة الأستاذ صالح بكير
المدرس بكلية أصول الدين

لا يقع الطلاق فى القانون المدنى الفرنسى إلا بناء على حكم بدعوى يرفعها أحد الزوجين ضد الآخر، وبناء على أسباب معينة حصرها هذا القانون فى أربعة. وسنتكلم على هذه الأسباب أولا ثم نتبع ذلك ببيان إجراءات دعوى الطلاق.

أسباب الطلاق

هى أربعة:

السبب الأول: الزنا — المراد بالزنا هو المواقعة التى تحصل من أحد الزوجين مع شخص آخر خلاف الزوج أثناء قيام الزوجية. هذا هو الزنا الذى يعتبره القانون الفرنسى سببا موجبا للطلاق، والذى يعاقب عليه أيضا قانون العقوبات الفرنسى (وكذا القانون المصرى أخذا من القانون الفرنسى المذكور!!). فطبقا لنصوص المادتين ٢٢٩، ٢٣٠ م ف — يجوز لأحد الزوجين طلب الطلاق من زوجه الزانى. ومعنى هذا أن طلب الطلاق (كما فى جميع الأحوال الأخرى) قاصر على أحد الزوجين فقط دون أى شخص آخر. ومنشأ هذا تاريخى راجع إلى القانون القديم فى مادة الحيلولة (Séparation de Corps). ولكن يلاحظ أن المادة ٢٢٩ من القانون المذكور تشترط فى زنا الزوج ليكون سببا لطلب الزوجة الطلاق منه أن يكون زناه مصحوبا بظروف خاصة خطيرة، كاحتفاظ الزوج بشريكته فى جريمة الزنا بمنزل الزوجية، وهذه المحاباة موجودة أيضا فى قانون العقوبات الفرنسى فى المادتين ٣٣٧، ٣٣٩ ع ف. إذ تقرران أن عقوبة الزوجة الزانية تكون بالحبس، بينما أن الزوج لا يعاقب إلا إذا احتفظ بشريكته فى منزل الزوجية، كما أنه لا يعاقبه إلا بالغرامة لا الحبس. ولكن جاء قانون سنة ١٨٨٤ معدلا للقانون المدنى الفرنسى ومسويا بين الزوجين فى طلب

الطلاق بمجرد حصول الزنا من غير اشتراط الشرط السابق . وهذا هو النص الحالى للمادة ٢٣٠ م ف . وهذا التعديل راجع إلى أن الزوجة تضار بزنا زوجها على أى حال كان هذا الزنا .

ومما يؤسف له أن قانون العقوبات الفرنسى لا زال محتفظا بالفرق والمحاباة السابقين فى المعاملة .

السبب الثانى : العقوبة المقيدة للحرية التى تمس السمعة والشرف — قررت المادة ٢٣٢ م ف بأن أحد أسباب طلب الطلاق هو الحكم على أحد الزوجين بعقوبة نعتتها بكلمتين Afflictive et infamante والمراد بذلك هو العقوبة التى يحكم بها على ارتكاب الجرائم المقيدة للحرية كعقوبة الإعدام والأشغال الشاقة والنفى والإبعاد والاعتقال . فالعقوبات الثلاث الأول هى عقوبات على الجرائم العادية De droit comnun والأخريان عقوبات على الجـــرائم السياسية . ويلاحظ أنه يجب أن تكون العقوبة موصوفة بالوصفين afflictive (مقيدة للحرية) و infamante (ماسة بالسمعة والشرف) . وأما العقوبات غير المقيدة للحرية ويطلق عليها كلمة infanante كالنفى والتجريد من الحقوق المدنية والتى لا تكون عقوبات مكملة فإنها لا تكون سببا للطلاق . وعلى هذا لا تكون العقوبات التى لا تمس الشرف والسمعة سببا للطلاق . وكذلك أيضا العقوبات على جرائم الجنح كالحبس والغرامة وكذا العقوبات التأديبية لاتكون سببا للطلاق . ومع ذلك فإنه يمكن اعتبار هذه العقوبات الأخيرة نوعا من الاضرار كما سيأتى فى موضعه .

ولكى تكون العقوبة السابق بيانها موجبة للطلاق ، ينبغى تحقيق شرطين :

أولا : يجب أن يكون الحكم قد أصبح نهائيا غير قابل للطعن فيه بأىّ وجه من أوجه الطعن ، كما أنه لم يحصل رد اعتبار أو عفو شامل على ارتكاب الجريمة (لأنهما يمحوان أثر الجريمة) أما سقوط العقوبة بمضى المدة أو حصول العفو الخاص أى غير الشامل فلا يمحوان أثر الجريمة ، وإنما يمحوان العقوبة فقط ، وعلى هذا فيصح طلب الطلاق .

ثانيا : يجب صدور الحكم أثناء قيام الزوجية .

السبب الثالث : Epcés sérices grave ومعنى هذا هو إيذاء أحد الزوجين للآخر على أى شكل كان . ولكن يشترط أن يكون الايذاء خطيرا . وهذا هو ما أشارت إليه المادة ٢٣١ م ف . وتنتج عن هذا نتيجتان :

(١) لكى يكون الإيذاء سببا للطلاق ينبغى أن يتجاوز حد اللوم والعتاب والمؤاخذة العادية .

(٢) أن خطورة الايذاء موكول أمر تقديرها للقاضى .

السبب الرابع : الاضرار أو المضارة — (Injures graves) — هذا هو السبب الشائع فى التطبيق أمام المحاكم ، وهو يشمل قذف أحد الزوجين للآخر قولا أو فعلا أو كتابة ؛ إذ أن هذا القذف يخالف واجبات الزوجية ويجعل حياتها منغصة لا تطاق . ويلاحظ أنه ليس من اللازم أن يضمر أحد الزوجين فى قذفه للآخر كراهة أو سوء نية . ومن أنواع الضرر السكر المستمر العلنى أو اعتياد لعب الميسر ، إذ أنّ مثل هذا يوجب سقوط الاعتبار والاحترام ومهينا لكرامة الزوج الآخر . وقد اعتبر هذا النوع من الفعل قذفا مستوجبا للطلاق .

ويمكن التوسع كثيرا فى معنى الايذاء حتى يشمل أحوالا عديدة يترتب عليها ضرر من أحد الزوجين للآخر ، كالإصرار اختيارا على مخالفة واجبات الزوجية ، وكالهجر اختيارا ، وكرفض الزوج بلا مبرر قبول زوجته فى منزل الزوجية أو إصرار أحد الزوجين على عدم العودة إلى منزل الزوجية أو محاولة ارتكاب جريمة الزنا أو حتى ارتكاب أمر تافه من سوء السلوك أو رفض إشهار الدين بعد إشهاره مدينا أمام مأمور الأحوال المدنية . . . الخ .

ويلاحظ أن القضاء قد توسع فى هذا الموضوع كثيرا ، ولكن هذا التوسع لا يخلو من النقد ، إذ مثل هذا التوسع قد يفضى الى تحوير مارمى اليه القانون من أغراض والى الخروج عليه . ألا ترى أن القانون قد نص على أن أحد أسباب الطلاق (وهو السبب الثانى) هو العقوبة المشينة للشرف والسمعة ، والمقيدة للحرية التى سبق بيانها . وهذا يدل بطريق المفهوم على أن غيرها من العقوبات كعقوبة الجنح لا تكون سببا للطلاق ، فاذا اعتبرت هذه العقوبة نوعا من الضرر

يلحق الزوج الآخر كانت حينئذ سببا للطلاق ، وهـذا لا تعطيـه دلالة النص للمادة المذكورة بطريق التصريح ، وعلى هذا لا يعتبر هذا النوع من العقوبة سببا للطلاق . ولـكن يرد على هذا بما يأتى :

أولا : أن السببين الأول والثانى ليس للقاضى فيهما حرية تقدير واختيار ، بل إنه بمجرد حصول أحدهما وطلب الحكم بالطلاق بعد إثبات السبب يجب عليه وجوباً حتمياً إصدار حكم الطلاق ، بينا أنه فى السببين الثالث والرابع للقاضى فيهما حرية اختيار وتقدير ، لأن الإيذاء أو الضرر يختلف باختلاف النـاس وأقدارهم ، فمنهم من يرى الحبس مثلا لايشينه . وإنما قد يتوسل به أحد الزوجين الى الحصـول على الطلاق لأغراض خاصة أخرى .

ثانيا : لمـا لم يكن من المستطاع حصر جميع الوقائع التى يمكن اعتبارها سببا مفضيا للطلاق ، اضطر المشرع لأن يضع ضابطا معبرا عنه تعبيرا عاما مرنا يصلح لجميع الأحـوال والأشخاص والزمان والمـكان ، لأن حياة الزوجية تختلف على حسب مشارب الناس وأذواقهم وطبائعهم وأخلاقهم ونظرهم اليها ، كما ذكرنا سابقا فى السبب الأول . فمثلا : ألا ترى أن شخصا من المراكز العالية يغض النظر عن زوجته فلا يعيرها اهتماما ، وترى الزوجة فى ذلك ازدراء وامتهانا لـكرامتها نظرا لمركزها العالى ، أفلا يصح لها فى مثل هذه الحال أن تطلب الطلاق ؟ ومع ذلك (كما قلنا سابقا) القاضى له فى مثل هذه الحال سلطة تقـدير واسعة . ويلاحظ بصـفة عامة أن الأسـباب الأربعة التى حددها القانون لطلب الطلاق هى وقائع لا بد من حصولها ووقوعها ، كما يشـترط أن تـكون هذه الحوادث والوقائع حصلت بطريق الاختيار . أما إذا وقعت عن غير اختيار كما إذا حصلت عن اضطراب عقلى فلا تعتبر سببـا موجبا للطلاق . اللهم إلا إذا تحقق وترتب عليها ضرر مؤكد فلا مانع عندى أن تـكون سببا للطلاق .

الطلاق بالتراضى : لمـا أعاد قانون سنة ١٨٨٤ نظام الطلاق وأسبابه لم ينص على ذكر الطلاق الذى يحصـل برضا الزوجين . وهـذا النوع ما زال باقيـا فى القانون البلجيكى . وإنه وإن سكت المشرع الفرنسى عن هذا النوع (والذى كان قصده من عدم النص عليه هـو منع الطلاق لأتفه الأسباب فيتفق الزوجان على

إيقاعه وفى ذلك ضرر عظيم فى نظره) فإنه رغم ذلك قد خولفت إرادته فلجأ الى الحيل القانونية . فيستطيع الزوجان الاتفاق على الطلاق ويقوم أحد الزوجين برفع دعوى الطلاق منتحلا وقائع وأسبابا غير صحيحة ثم لا يحضر الزوج الآخر أمام المحكمة ليرد على هذه الوقائع ، وإذ ذاك يصدر الحكم غيابيا ، وبذا يتحصل الزوجان على حكم الطلاق بطريق التحايل على القانون . وقد يحضر محامى المدعى عليه ويسكت عن الرد على الوقائع المزعومة (وهذا ما يحصل كثيرا أمام المحاكم خصوصا محكمة السين بباريس) وحينئذ يصدر الحكم حضوريا . كما يصح أن يترافع محامى المدعى عليه ويثبت عدم صحة الوقائع المدعاة ثم يطلب طلبا فرعيا أثناء سير الدعوى بصدور حكم الطلاق له ضد المدعى ، إذ أن الوقائع التى ادعاها المدعى ثبتت عدم صحتها ، فكان هذا قذفا فى حق المدعى عليه ؛ وهذا القذف هو ما نص عليه القانون فى السبب الثالث . وبهذه الحيلة توصل الزوجان الى استصدار حكم بالطلاق .

وبهذه الحيل والطرق الملتوية يسهل كثيرا الحصول على الطلاق رغم إرادة المشرع ؛ ولذا قيل بأنه من الأجدر أن يقرر نظام الطلاق بالتراضى ما دام الواقع يقضى بذلك ومنعا للناس من التحايل على القانون وعلى عدم احترامه ، ولكن يجب إخضاعه لنوع من الرقابة خشية الفوضى . وبذلك لا تنكشف الفضائح ، ويمتنع التحايل وتطمئن النفوس .

الأحوال التى يعتبر فيها طلب الطلاق كأن لم يكن : أسباب ذلك ثلاثة :

(١) ترك بلا مبرر المسكن الذى عينه لها القاضى لتقيم فيه أثناء سير دعوى الطلاق .

(٢) موت أحد الزوجين أثناء سير دعوى الطلاق .

(٣) حصول الصلح بين الزوجين . ولكن هذا الصلح لا يمنع أحد الزوجين من طلب جديد للطلاق إذا جدت وقائع جديدة أو كانت هناك وقائع مجهولة . وقد رأت محكمة النقض والإبرام الفرنسية أن الوقائع الجديدة تحيى ثانيا الوقائع القديمة التى حصل منها الصلح وتكون جميعها سببا للطلاق .

ابن خـــــلدون
المصلح الاجتماعى

لحضرة الأستاذ سعيد زايد

ابن خـلدون شخصية عربية ممتازة ، وعالم نحرير ، أفنى عمره فى الاطلاع على كتب التاريخ وأحـوال الأمم ، بل فيلسوف كبير لم تكن قراءته للكتب لمجرد الإلمام بالشىء ، وإنما كانت قراءة من يعمل عقله فى المشاكل والظروف التى مرت بها الأمم ، فيستخلص منها قواعد عامة متشابهة ، تسير عليها الشعوب والحكومات فى تطورها .

قرأ فيلسـوفنا العربى ، التاريخ ، وألم بدقائقه وخوافيه ، فهداه عقله الراجح وذهنه المتوقد إلى المجتمعات الانسانية تسـير فى أحوالها وتطورها ورقيها وفق قوانين ثابتة مطردة لا تقبل التخلف .

والعلامة ابن خلدون باكتشافه لهذه الحقيقة إنما يعد الواضع الأصيل لعلم الاجتماع ، ولا يقتصر عند هذا الحـد بل يتعداه الى التحدث عن فروع العلم والإفاضة فى جزئياته ، فسبق بذلك علماء الغـرب أمثال مونتسكيو وأوجيست كونت ، أما لماذا لم يسطع اسمه بين جدران الجامعات التى درست هذا العلم فإنه يرجع إلى سوء حظه بل الى سوء حظ الأمة العربية كلها ، فلم يظهر بعده تلاميذ يسيرون على نهجه ، بعكس علماء الغرب الذين ظهر بعـدهم من التلاميذ من يزيد علمهم صقلا وتهذيبا .

ولـكن التاريخ المنصف لم يترك ابن خلدون فى زوايا النسيان ؛ فقد ظهر فى القرن العشرين من تناول آثاره بالدرس والتمحيص ، وقارن بينها وبين آثار الغربيين فتبينت له الحقيقة الرائعة ، وهى سبق الفيلسوف العربى لعلماء الغرب فى اكتشاف أساس علم الاجتماع بمدة تقرب من خمسة قرون .

وأهم مافى آثار ابن خلدون ـ بالنسبة لموضوعنا ـ مقدمته ، التى كانت وستظل منبعا خصبا للدارسين فى جميع فروع علم الاجتماع ، وهى وإن كانت كذلك فإن تناولنا لها فى هذه الفصول ليس من ناحية العلم بل من ناحية الفن ، الفن الإصلاحى الذى يقوم على دراسة أحوال المجتمع دراسة دقيقة ومعرفة ما يناسبه من وجوه الاصلاح ، وما يتمشى مع رغباته ، وما يتعارض معها .

وإن أول ما يطالع المتصحف لمقدمة ابن خلدون يراه يعقد فصلا تحت عنوان « المقدمة فى فضل علم التاريخ » يحارب فيه الخرافات التى كانت منتشرة فى زمانه ويضعها تحت مجهر العقل المدقق الفاحص ويناقشها بالحجة المنطقية ، فإن كان « فن التاريخ فن عزيز المذهب جم الفوائد شريف الغاية إذ هو يوقفنا على أحوال الماضين من الأمم فى أخلاقهم ، والأنبياء فى سيرهم ، والملوك فى دولهم وسياستهم حتى تتم فائدة الاقتداء فى ذلك لمن يرومه فى أحوال الدين والدنيا » فإن فنا كهذا « محتاج الى مآخذ متعددة ومعارف متنوعة وحسن نظر وتثبت ، يفضيان بصاحبها الى الحق وينكبان به عن المزلات والمغالط ، لأن الأخبار إذا اعتمد فيها على مجرد النقل ولم تحكم أصول العادة وقواعد السياسية وطبيعة العمران والأحوال فى الاجتماع الانسانى ، ولا قيس الغائب منها بالشاهد والحاضر بالذاهب ، فربما لم يؤمن فيها من العثور ومزلة القدم » .

بعد هذا يعرض لنا العلامة ابن خلدون نماذج وأمثلة من الخرافات التى قال بها المؤرخون أمثال المسعودى وغيره ، ويتناولها بالحجج العقلية ، فيتبين له منها مقدار المبالغة فى سردها وطريقة روايتها ، ولو أنهم « قاسوها بأشباهها وسبروها بمعيار الحكمة والوقوف على طبائع الكائنات وتحكيم النظر والبصيرة فى الأخبار » لما « ضلوا عن الحق وتاهوا فى بيداء الوهم والغلط ، سيما فى إحصاء الأعداد من الأموال والعساكر» .

فقد ذكر المسعودى وكثير من المؤرخين أن جيوش بنى اسرائيل بعد أن أحصاهم موسى عليه السلام ، وأجاز من يطيق حمل السلاح خاصة من ابن عشرين فما فوقها ، بلغوا ستمائة ألف أو يزيدون ، وهذا العدد مبالغ فيه فى رأى ابن خلدون لأن روايه ذهل عن تقدير مصر والشام ، ومقدار اتساعهما لمثل هذا العدد من

الجيوش . زد على ذلك أن ملك الفرس ودولتهم كان أعظم من ملك بنى اسرائيل بكثير بدليل غلب بختنصر لهم ، والتهامه بلادهم ، وتخريبه لبيت المقدس قاعدة سلطانهم ، مع ما نعرف من عدم اتساع نطاق ملك بنى اسرائيل الى غير الأردن وفلسطين من الشام ، وبلاد يثرب وخيبر من الحجاز . ويفيض ابن خلدون فى ذكر الحجج التى لا يتسع لها نطاق مقالنا ، بل نكتفى بما ذكرنا .

وقصة أخرى يتناولها فيلسوفنا بالتمحيص وهى التى ذكرها المفسرون فى تفسير سورة الفجر فى قوله تعالى : « ألم تر كيف فعل ربك بعاد إرم ذات العماد » فيقولون إن إرم اسم مدينة ذات عماد ، فلقد كان لعاد بن عوص بن إرم ابنان هما شديد وشداد ، ملكا من بعده فهلك شديد ، فخلص الملك لشداد ودانت له ملوكهم ، وحدث أن سمع شداد وصف الجنة ، فقال لأبنين مثلها ، فبنى مدينة إرم فى صحارى عدن فى مدة ثلثمائة سنة ، وكان عمره تسعمائة سنة ، فجاءت مدينة عظيمة قصورها من الذهب ، وأساطينها من الزبرجد والياقوت ، وفيها أصناف الشجر والأنهار العذبة ، ولما تم بناؤها سار اليها بأهل مملكته ، حتى إذا كان منها على مسيرة يوم وليلة بعث الله عليهم صيحة من السماء فهلكوا كلهم . هذا ما ذكره الطبرى والثعالبى والزمخشرى وغيرهم من المفسرين . ويذكر ابن خلدون بعد ذلك ما نقلوه عن عبد الله بن قلابة من الصحابة أنه خرج فى طلب إبل له فوقع عليها وحمل منها ما استطاع ، فلما بلغ خبره الى معاوية أحضره فقص عليه قصته ، فبعث معاوية الى كعب الأحبار يستفسره ، فقال كعب : هى إرم ذات العماد ، وسيدخلها رجل من المسلمين فى زمانك أحمر أشقر قصير على حاجبه خال وعلى عنقه خال يخرج فى طلب إبل له ، ثم التفت فأبصر ابن قلابة ، فقال هذا والله ذلك . هذه القصة وحواشيها ، وهى خرافة فى رأى ابن خلدون . والذى حمل المفسرين على القول بذلك فى رأيه ، هو ما اقتضته صناعة الإعراب فى لفظة ذات العماد أنها صفة إرم وحملوا العماد على الأساطين ، فتعين أن يكون بناء ، وساعدهم على ذلك قراءة ابن الزبير عاد إرم على الإضافة من غير تنوين . والحقيقة هى أن العماد هى عماد الأخبية بل الخيام ، وإن أريد بها الأساطين ، فلا بدع فى وصفهم بأنهم أهل بناء وأساطين على العموم بما اشتهر من قوتهم ، لأنه بناء خاص فى مدينة معينة أو غيرها ،

وإن أضيفت كما فى قراءة ابن الزبير فعلى إضافة الفصيلة الى القبيلة ، كما تقول : قريش كنانة والياس مضر وربيعة نزار . ولا يرى ابن خلدون أية ضرورة الى هذا المحمل البعيد الذى تقصده أمثال هذه الحكايات الواهية التى ينزه كتاب الله عن مثلها لبعدها عن الصحة .

وقصة ثالثة هى قصة العباسة أخت الرشيد وجعفر البرمكى وما ينقلونه من أن سبب نكبة الرشيد للبرامكة هو اختلاط جعفر بالعباسة . ولابن خلدون فى هذه القصة دفاعان : دفاع عاطفى يقول فيه « فأين يطلب الصون والعفاف إذا ذهب عنها ؟ أو أين توجد الطهارة والذكاء إذا فقدا من بيتها ؟ أو كيف تلحم نسبها بجعفر بن يحي وتدنس شرفها العربى بمولى من موالى العجم بملكة جده من الفرس أو بولاء جدها من عمومة الرسول وأشراف قريش ، وغايته أن جذبت دولتهم بضبعه وضبع أبيه ، واستخلصتهم ورقتهم إلى منازل الأشراف » . ودفاع عقلى يبرر فيه غضبة الرشيد على البرامكة لما كان من استبدادهم واحتجافهم أموال الجباية لدرجة أن كان الرشيد يطلب اليسير من المال فلا يصل إليه ، فكانوا غالبين على أمره ومشاركين فى سلطانه ، ولم يكن له معهم تصرف فى أمور ملكه ، ولما عظمت آثارهم وبعد صيتهم عمروا خطط الدولة ومراتبها بالرؤساء من ولدهم وصنائعهم « واحتازوها عمن سواهم من وزارة وكتابة وقيادة وحجابة وسيف وقلم » زد على ذلك أن الناس ضجوا من هذه الحال وتهامسوا بها فى مجالسهم الخاصة وفى مجالس الرشيد ؛ فلقد أراد الشاعر أن يحرك حفيظته فدس على المغنين البيتين التاليين :

ليت هنداً أنجزتنا ما تعد وشفت أنفسنا مما نجد
واستبدت مرة واحدة إنما العاجز من لا يستبد

فلما سمعها الرشيد قال : « إى والله إنى عاجز ! » هذه هى الأسباب الحقيقية فى نكبة البرامكة كما يقول العلامة ابن خلدون : استبدادهم إلى درجة أثارت الحفيظة فى قلوب القوم ، وامتدادها إلى سمع الرشيد .

هذه بعض الأمثلة التى تدل على محاربة فيلسوف المغرب للخرافة ، ونظره إلى حوادث التاريخ نظرة عقلية فاحصة ، وعدم مبالاته لأحد فى قول الحق . ومحاربة ابن خلدون للخرافة تعد فصلا من الفصول التى سنتابع نشرها بإذن الله ، بعنوان المقال ، فإلى اللقاء فى العدد التالى ؟

من أعلام الاسلام :

ابن رواحة

لفضيلة الأستاذ الشيخ كامل محمد عجلان
المدرس بالأزهر الشريف

صلى رسول الله الظهر ، وجلس فى أصحابه يتحدث اليهم الى أن قال : زيد بن حارثة أمير الناس ، فإن قتل فجعفر بن أبى طالب ، فإن أصيب فعبد الله ابن رواحة ، فإن أصيب عبد الله ، فليرتض المسلمون بينهم رجلا فيجعلوه عليهم .

وكان ذلك عقب اعتداء (شرحبيل بن عمرو الغسانى) على حامل كتاب رسول الله الى صاحب (بصرى) إذ قتله ونكل به .

ولما ندب النبي المسلمين لبوا وعسكروا ، وهناك عقد الرسول اللواء ودفعه الى قائد الجند فى غزوة (مؤتة) وهى قرية من أعمال (البلقاء) قرب دمشق الشام .

وسار جيش المسلمين من المدينة بعد أن ودعه النبى حتى نزل (معان) من قرى الشام . وعلم المسلمون أن (هرقل) قد نزل (مآت) من البلقاء فى مائة ألف من جنود الروم المحاربين .

* * *

فكر المسلمون وتهيبوا كثرة جيش الأعداء ، وأقاموا ليلتين ، وأرادوا أن يكتبوا إلى رسول الله ليردهم أو يزيدهم رجالا ...

* * *

فى ذلك الموقف الرهيب ، التفت عبد الله بن رواحة ، وذكر وصاة الرسول ، وحضرته كلماته يوم ودعه وودع الأمراء على الجيش ، وأدار فى نفسه حديثا سمعه من الرسول فى لحظات (ثنية الوداع) ولم يلبث أن رفع صوته بشىء من حديث رسول الله .... « اغزوا باسم الله ، فى سبيل الله ، فقاتلوا من كفر بالله ... »

* * *

ويمضى عبد الله بن رواحة يستعرض وصاة النبي جميعها، ويطير به خياله الشاعرى إلى موقف جمله الإيمان، ورفت عليه القداسة، ونفحته طيوب الجنة التى وعد الله بها الشهداء من المكافحين فى سبيل الله والداعين إلى نصرة دينه.

وخيل إلى عبد الله أنه بين يدى رسول الله فى المدينة.

ونسى مكانه بين الجند فى ربوع الشام، وكأنه يسمع جواب الرسول حين طلب ابن رواحة منه أن يأمره بشيء يحفظه ويعيه ويعمل به فقال الرسول: يا عبد الله! إنك قادم غدا على بلد السجود فيه قليل، فأكثر السجود. ولما قال ابن رواحة: زدنى يا رسول الله، قال النبي: اذكر الله فإنه عون لك على ما تطلب...

وسرعان ما هتفت به دواعى القوة وألهمته ثورة الشجاع: إنها كلمات النبي وإنه عون الله. اهتز القائد الثالث، والمؤمر على الجنود بعد (زيد وجعفر) وانتفض فى الجموع ونادى بأعلى صوته، وكأنه يرسل قصيدة من عاطفة مشبوبة ونفس مطمئنة:

نادى بأعلى صوته: يا معشر الجند «والله ما كنا نقاتل الناس بكثرة عدد ولا كثرة سلاح، ولا بكثرة خيول.... إلا بهذا الدين الذى أكرمنا الله به.. انطلقوا.... انطلقوا.... والله لقد رأيتنا يوم بدر ما معنا إلا فرسان، ويوم أحد فرس واحد. فإنما هى إحدى الحسنيين: إما ظهور عليهم فذلك ما وعدنا الله ووعد نبينا، وليس لوعده خلف، وإما الشهادة فنلحق بالإخوان نرافقهم فى الجنان...

* * *

ولم يطل به القول إذ اندفع المسلمون وساروا قدماً إلى (مؤتة) وواجهوا المشركين، ولم يبالوا جموعهم ولا عددهم ولا ذهبهم، والتقى الجيشان، وقاتل الأمراء يومئذ على أرجلهم، فأخذ اللواء (زيد بن حارثة) حتى قتل، ثم أخذ اللواء جعفر، فنزل عن فرسه وعرقبها - أى قطع عرقوبها وهو الوتر الذى خلف كعبها من مفصل القدم والساق وتلك عادة المحاربين إذا حمى الوطيس - ثم قاتل حتى قتل. ثم أخذ اللواء (عبد الله بن رواحة) ودارت رحى الحرب الزبون....

إنه (عبد الله) الأنصارى الخزرجى، أحد النقباء الذين تقدموا بين يدى

رسول الله فى (بيعة العقبة) واشترك مع المدنيين الذين عاهدوا الله ورسوله على حرب الأحمر والأسود فى رفع شأن الدين، ولم يغادر خيالهم ظل الجنة من يوم أن وعدهم الرسول وقت المبايعة على الجهاد .

ومن للجهاد غير عبد الله، صاحب السيف الباتر، واللسان الشاعر، ولقد باع نفسه لله ولرسوله وللدفاع عن المسلمين، وشهد (بدراً) وغَزَا فى (أحد)، وحضر غزوات (الخندق) و (الحديبية) و (خيبر)، وكان مطافه الأخير الاستشهاد فى (مؤتة) .

إنه الجندى الذى أخلص نفسه لدين الله، وتأدب على يدى رسول الله، حتى حظى بمنزلة الأثير بين الصحابة، وناله الرضا الراضى من النبى . . .

أتى مرة إلى الرسول وهو يخطب، وقبل أن يصل إلى جموع الصحابة تستمع فى المسجد دوَّى فى أذنه قول النبي : اجلسوا . . . وكان عبد الله لما يزل خارج المسجد، فجلس فى مكانه لا يتحرك، وسمع من بعيد حتى فرغ النبي من خطبته .

ولما أخبر الرسول بذلك قال داعيا لعبد الله : « زادك الله يا عبد الله حرصا على طواعية الله وطواعية رسوله » .

إذا كان ابن رواحة ثالث ثلاثة من حملة الألوية يوم (مؤتة) فهو ثالث ثلاثة من الشعراء : هم حسان بن ثابت، وكعب بن مالك، وابن رواحة، وهم من هم بلاء فى الذود عن رسول الله ورد ألسنة الكفار ؛ وشعره أقسى ما لقى المشركون، لأنه الميسم الذى أذل جبين المعاندين للدعوة بعد أن هدأت نعرة الجاهلية، وتطامنت للاسلام .

إنه الشاعر الذى صور شعره بأس المحارب، وسماحة الصديق، ودماثة الرفيق .

ولقد عاش عبد الله مثلا شروداً فى لين الجانب، وحسن المعاشرة، وموضع حب الأصدقاء .

قال أبو الدرداء « أعوذ بالله أن يأتى على يوم لا أذكر فيه ابن رواحة ؛ كان إذا لقينى مقبلا ضرب على صدرى، وإذا لقينى مدبرا ضرب بين كتفى ؛ ثم يقول ملاطفا : يا عويمر اجلس فلنؤمن ساعة، فنجلس فنذكر الله ماشاء، ثم يقول : يا عويمر « هذه مجالس الإيمان » .

وكذلك كان الرسول يحبه ويدعو له ... أنشد يوما قوله :

إنى تفرست فيك الخير أعرفه   والله يعلم أن ما خاننى البصر
أنت النبي ومن يحرم شفاعته   يوم الحساب فقد أزرى به القدر
فثبت الله ما آتاك من حسن   فى المرسلين ونصرا كالذى نصروا

فقال له الرسول « وأنت فثبتك الله يا بن رواحة » ! .

ولقد ثبته الله فى (غزوة مؤتة) واستهان بالحرب لايباليها ، وورد الموت كأنه يساق إلى لقاء حبيب .

وكان يتشوق وجه الاستشهاد . وفى ليلة ساجية قبل أن يصل إلى المعركة جعل يرتجز ويخاطب راحلته التى ستبلغه ، ويتمنى أن ترجع إلى أهله دونه ، فقال :

إذا أدنيتنى وحملت رحلى   مسيرة أربع بعد (الحساء)
فشأنك فانعمى وخلاك ذم   ولا أرجع إلى أهلى ورائى
وجاء المؤمنون وغادرونى   بأرض الشام مشهور الثواء
وردك كل ذى نسب قريب   إلى الرحمن منقطع الإخاء
هنالك لا أبالى طلع بَعْلٍ   ولا نخل أسافلها رواء

إنه لا يحب إلا الاستشهاد ، ولا يبغى الرجوع إلى نخيله فى المدينة حيث يلقى أهله وعشيرته لأنه يريد الجنة .

حتى إذا أشفق عليه أحد رفاقه وهو (زيد بن أرقم) ، وكان فى رعاية عبدالله وتوقع مصيره فبكى . فقال له : وما عليك إذا رزقنى الله الشهادة ورجعت أنت ؟

ولا غرابة فانه ابن رواحة الذى بكى يوم ودعه النبى وودع أمراء الحرب فقيل له : ما يبكيك وأنت أنشطنا للحرب ؟ فقال : والله ما بى حب الدنيا ولا صبابة إليها ، ولكنى سمعت رسول الله يقرأ : « وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا » . ولست أدرى كيف لى بالصدر بعد الورود .

ثم أنشد شعرا منه :

لكننى أسأل الرحمن مغفرة   وضربة ذات فرع تقذف الزبدا
أو طعنة بيدى حران مجهزة   بحربة تنفذ الأحشاء والكبدا

حتى يقولوا إذا مروا على جدثى يا أرشد الله من غاز وقد رشدا

ولم يزل يحمل على نفسه ويهزج فى المعمعة بعد قتل جعفر وزيد :

يا نفس إلا تقتلى تموتى
هذى حياض الموت قد صليت
وما تمنيت فقـــد لقيت
إن تفعلى فعلهما هديت
وإن تأخرت فقد شقيت

ثم التفت إلى نفسه وسيفه أثناء المعركة وقال :

يا نفس إلى أى شىء تتوقين ؟ إلى فلانة ؟ يعنى زوجه ، فهى طالق ، وإلى فلان وفلان ؟ يعنى غلاميه ، فهما حران ، وإلى (معجب) يعنى حائطا له أى بستانا فيه نخل غزير ؛ فهو لرسول الله . . ثم قال :

يا نفس

مالك تكرهين الجنـــه
أقسم بالله لتنزلنه
طائعة أو لتكرهنه
فطالما قد كنت مطمئنه

ونزل إلى ميدان القتال وقاتل حتى طعن ، فاستقبل الدم بيده فدلك به وجهه ثم صرع بين الصفين ، فجعل يقول : يا معشر المسلمين ذبوا عن لحم أخيكم . وراح المسلمون يحملون على الأعداء فلم يزالوا كذلك حتى مات مكانه .

وبذلك استشهد عبد الله بن رواحة الشاعر الفارس ، والذى عاش طول حياته يعشق الجنة ، فيكون أول خارج إلى الغزو وآخر قافل منه . . . .

فسلام عليه فى جنات النعيم ، وسلام عليه فى الشهداء الى يوم الدين ؟

أسرار الفصل والوصل

فى المفردات والجمل

لفضيلة الأستاذ الشيخ أحمد محمد سلمو
إجازة التدريس من كلية اللغـــة العربية

هذه دراسة جديدة لأحكام المفردات والجمل فى البلاغة العربيـة من حيث عطف بعضها على بعض أو تركه ، وهى تقوم على أسس دقيقة ، وأحكام واضحة ، ولا يضيرها أنها تخالف آراء القدماء ما دام طابعها التفكير السليم ، والسـلامة من الخطأ والتناقض ، والتجديد الشامل فى دراسة هذا الموضوع البلاغى الدقيق .

أساس هذا البحث

أساس بحثى فى هذا الموضوع يرجع إلى قاعدة منطقية سليمة متبعة فى جميع الفنون ، وهى « إن الأشياء المشتركة فى مظهر من المظاهر، مندرجة تحت وصف عام هو السبب فى اتحاد ذلك المظهر » .

وباتباعنا هذه القاعدة الواضحة أمكننا أن نبين أن الوصل سببه واحد ، والفصل سببه واحد ؛ كذلك أمكننا أن نبين السبب الحقيقى لحذف الواو وذكرها ، وأن ذلك ليس راجعاً إلى الانشائية والخبرية كما ذكر القـدماء ، بل أصبح الموضوع كله يتلخص فى كلمة واضحة دقيقة ، وهى « كل متجاورين فى المفردات والجمل لابد وأن يكون بينهما صلة ، فاذا كانت هذه الصلة واحدة غير متكررة حذفنا حرف العطف ، وسمى ذلك : اتحادا ؛ وإذا تكررت عطفنا وسمى ذلك : تكرارا .

وبهذه الطريقة الجديدة أمكننا :

أولا : تيسير هذا الموضوع تيسيراً تاما بإفراغه فى قاعدتين فقط ، بدلا من هذه الكثرة المتشعبة .

ثانيا : تجنب التناقض كما كان فى القواعد السابقة .

ثالثا : إرجاع الأحكام إلى أسبابها الحقيقية بدلا من أسباب وهمية ظهر تناقضها وعدم شمولها .

وقد عرضت بإيجاز بحثى هذا ، وهو على إيجازه واضح فى عرض أفكاره ، ليكون هذا أدعى إلى تقبل الناقدين لنقده .

نتائج هذا البحث

رأيت أن أذكر هذه النتائج الخطيرة أول البحث ليلاحظ الناقد أثناء قراءته تحققها فيه .

وها هى النتائج :

أولا : اتحاد المبنى يدل على اتحاد المعنى :

قد جمعت بين متفرقات اتحدت ظواهرها ، وبينت أن اتحاد اللفظ فيها إنما ينشأ من اتحاد الملاحظة ؛ فبينت أن حذف العاطف بين أى جزءين ، سواء كانا مفردين أو جملتين أو مفردا وجملة ، إنما ينشأ من اتحاد الصلة ، وأن ذكر الواو إنما ينشأ من تكرارها ؛ فكل ماسموه كمال الاتصال وكمال الانقطاع وشبههما والتوسط بين الكمالين مع عدم التشريك فى الإعراب أو الحكم ، كل ذلك ما هو إلا شىء واحد وهو « الاتحاد » . وثلاثة أنواع الوصل ما هى إلا شىء واحد وهو « التكرار » . وبينت أن واو المفعول معه كواو العطف ، تدل على تكرار الصلة ، وأن الجملة الحالية — كما يسمونها — المقترنة بالواو ليست حالية وإنما هى معية ، وأن الحال مفردا كان أو جملة لا يقترن بالواو ، وأن المصاحب مفرداً كان أو جملة يقترن بها .

ثانيا : المساواة بين المفردات والجمل فى العلاقات :

بينت أنه لا فرق بين المفردات والجمل فى العلاقات ، وأن الجمل المجتمعة لتكون جملة كبرى ما هى إلا كالمفردات المجتمعة لتكون جملة ، وأن الكلام يتكون من طوائف بعضها مركب من بعض ليصبح الجميع وحدة مجتمعة قائمة متساندة .

ثالثا : كل متجاورين لا بد وأن يكون بينهما علاقة ، هذه العلاقة تؤثر فى العطف :

كانوا يجعلون بين الجملتين فى آية واحدة من آيات الكتاب العزيز : كمال الانقطاع . ولما أحسوا بشطط هذه التسمية قالوا : ليس المراد كمال الانقطاع الحقيقى فلا بد من مناسبة ، ولكن ما هى هذه المناسبة ، وهل تؤثر فى العطف ، وهل تترك اللغة العربية الدلالة على العلاقة فى مجموعة واحدة ؟ .

لم يبينوا شيئا من ذلك ، فبينت هذه المناسبة ، وبينت أنها لابد وأن تؤثر فى العطف وعدمه فى كل أجزاء الموضوع صغرت أو كبرت ، وبينت أن بعض ماسموه ـ كمال الانقطاع ـ هو فى الحقيقة كمال اتصال ، وأن كمال الانقطاع لا يكون إلا بين موضوعين لاعلاقة بينهما ، لا بين جملتين فى موضوع واحد .

رابعا : المعول عليه فى الربط هو الصلة ، لا الانشائية ولا الخبرية ، ولا اتفاق المتجاورين مدلولا أو تخالفهما :

بينت أن المعول عليه هو الصلة ، فاذا كانت واحدة ، سردت الأجزاء بعضها وراء بعض بدون رابط تحت اسم : الاتحاد ؛ وإذا تكررت وأردت مجرد الجمع ذكرت الواو تحت اسم : التكرار . ولا يهمنا بعد ذلك اتحدت خبرا وإنشاء أم اختلفت ، ولا يهمنا كذلك اتفقت المتجاورات مدلولا أم اختلفت ، كما هو مبين فى البحث .

مدرسة النقد الادبى

لفضيلة الأستاذ الشيخ عبد السلام أبو النجا سرحان
المدرس بكلية اللغة العربية

فى العصر الأموى :

ومع أن القرآن الكريم كان معينا فاض بالخير الكثير على اللغة العربية وآدابها ، وكوثرا عذبا نهل منه المسلمون فظهر على أسلات ألسنتهم أسلوبا رائقا ، وعبارات مونقة ، وشعرا كله سلاسة وفصاحة وبيان - لم يكن عصر الخلفاء الراشدين كافيا لظهور أثره الأدبى فى الشعر والنثر ، وإنما وضح ذلك فى العصر الأموى ، وبرزت آثاره فى خلاله .

الاتحاد والتكرار

الاتحاد : أن تكون الصلة التى فى المتجاورين واحدة ، مثل أعجبنى محمد علمه . فهنا اتحاد بين محمد وعلمه ؛ وحينئذ يؤتى بهما بدون حرف عطف نظرا لاتحادهما ، لأن المعنى أعجبنى محمد ، والمعجب منه علمه ، فليس معنا إلا إعجاب واحد صدر مرة واحدة ؛ فالإعجاب القائم بمحمد هو بعينه الإعجاب القائم بالعلم ، ولذلك جىء بمحمد ، وعلمه بدون حرف عطف بينهما نظرا لاتحاد الصلة وهى الإعجاب .

التكرار : أن تكون الصلة التى فى المتجاورين متكررة ، وإن كانت من جنس واحد ولم يقصد غير مجرد الجمع بين المتجاورين تحت ذلك الجنس ، مثل أعجبنى محمد وعلى ؛ فهنا تكرار بين محمد وعلى ، وحينئذ يؤتى بالواو للدلالة على ذلك .

والصلة : هى ما فى الألفاظ المتجاورة من معنى هو السبب فى اجتماع هذه المتجاورات ، كالحدث فى الفعل وفاعله ، وكالاخبار فى الألفاظ الواقعة خبرا ، كما سيتضح فى كل ما يأتى من الأمثلة :

والآن بعد أن ذكرت التعريفين ووضحتهما بمثالين يجدر أن أنتقل إلى ذكر جميع أنواع الأمثلة فى المفردات والجمل ليتضح اندراجها تحت هذين التعريفين ؟

وقد اتسعت أرجاء الدولة فى هذا العصر ، ودخل الأعاجم فى دين الله أفواجا ، وبدأ التمازج والاختلاط يؤتى أكله ، فتزوج العرب بالأعجميات ، وحدث العكس لكن بقلة ، وودع العجم مجدهم السياسى واستعاضوا عنه بالمجد العلمى ، فظهر الموالى فى العلوم والمعارف ، واستولوا على مقاليد الحياة الثقافية ، واستتبع ذلك كثرة اللحن فى لغة التخاطب ، وبدت الحاجة أكثر الى صنع على بن أبى طالب وأبى الأسود الدؤلى ، بعد أن لانت ألسنة بعض الفصحاء المشهورين كخالد بن عبد الله القسرى الخطيب اللحانة العظيم [ص ١٣٣ ح ١ رغبة الآمل] بل لقد خشى عبد الملك ابن مروان على نفسه من اللحن وقال كلمته المشهورة ـ حين شد أسنانه بالذهب ـ « لولا المنابر والنساء ما باليت متى سقطت » [ص ١٦ ح ١ البيان والتبيين] .

دعت هذه الحال الى اتساع مدى النقد ، وإلى الجد فى صد سيل العجمة الجارف ، والمحافظة على العربية وآدابها ، وإعطائها السلطان المطلق على الحياة العامة والخاصة ؛ وقد وجدت لغة الضاد فى أكناف الأمويين ورعاية ملوكهم وأمرائهم أكبر عضد دفع عنها عادية الحوادث ، ولقيت فى رحابهم أعظم سند رد عنها غوائل الزمن ، إذ تعصبوا لكل ما هو عربى ، وأشعلوا نار المنافسة بين الشعراء ، وأطلقوا العنان للعصبيات القبلية فأعادوها جذعة ، وأيقظوا الفتنة بين القبائل ، وفتحت قصور الخلفاء ومن دونهم للمبرزين من الشعراء والأدباء والعلماء ، وأجيزوا جوائز لم يحلموا بها قبل ذلك .

وهكذا اشتعل أوار الحركة الأدبية ، واشتدت المنافسة بين الشعراء ، وفتح باب الهجاء على مصراعيه بعد أن أوصده عمر بن الخطاب ، وأوقد الخلفاء أنفسهم جذوة الخصومات ، وظهر التفاخر بالأحساب والأنساب .

وقد تبع ذلك ازدهار مدرسة النقد فى هذا العهد ، وكثرة تلاميذها كثرة فائقة ، وانتشار فصولها فى كل مكان ، وكانت مجالس الخلفاء والأمراء أكثر هذه الفصول نشاطا وأعظمها اتساعا ، وانتشر النقد حتى بين العوام ، وحذقته الجوارى والصبيان ، وكان عبد الملك بن مروان وأبناؤه أظهر عمداء هذه المدرسة ، كما كان الولاة والأعيان من أكبر أساتذتها ، وشهدت المساجد كثيرا من حلقات النقد واجتماعات الأدباء ، وكثرت المناقضات بين الشعراء ، وأشهرها مناقضات الفرزدق وجرير ، وعاد ذلك على الأدب بالخير الكثير .

في العصر العباسي :

ولقد كان العصر الأموي بمثابة الدور المتوسط لمدرسة النقد الأدبي، كما كان صدر الاسلام بدء النمو، والعصر الجاهلي بدء التكوين.

أما العصر العباسي فكان عصر التخصص والتوسع والتعمق والانتشار السريع؛ ففيه أثمرت شجرة الدراسة النقدية وآتت أكلها طيبا، وازدانت الحياة الأدبية بالثمار اليانعة والقطوف الدانية، وفيه ظهر رجال النقد وصار لهم سلطان ودولة، واستطاعوا أن يؤثروا في اتجاه الأدب وأن يقفوا سدا منيعاً أمام الثورة الجامحة على أساليب العرب الشعرية، فهابهم الشعراء واطمأن إليهم الخلفاء، ونزل الجميع عند نقداتهم إلا بعض الحلفاء والمجان.

وقد خطوا الخطوة الأخيرة في سبيل غايتهم، فدونوا قانون البيان العربي، ووضعوا الرسوم والحدود أمام الشعراء ليقفوا عندها ولا يتخطوها بحال.

لهذا هرع الناس نحو مدرسة النقد الأدبي يرشفون من رحيقها سلسبيل البيان العربي، وسلافة الروح الأدبي، ويتذوقون أفاويق البلاغة، ويكرعون من حياض الفصاحة، ومن شمس به طبعه فلم ينهل من موردها العذب ونميرها الصافي فلا ثقة بأدبه ولا اعتداد بمذهبه.

ومن الواضح أن الحاجة الشديدة هي التي أكبرت من شأن هذه المدرسة، فقد اشتد الاشتباك بين العرب والعجم، وامتزجت أيما امتزاج ثقافات الأمم المختلفة التي خفق عليها لواء الإسلام أو خضعت لسلطان المسلمين، ونشأ من كل هذا آثار سيئة واتجاهات هدامة للإسلوب العربي، فأصبحت لغة التخاطب مزيجاً من العربية واللغات الأخرى، وشاع الجهل باللغة فيما بين الخاصة، حتى إن الخليفة المعتصم جاءه كتاب من أحد عماله وقرأه عليه وزيره أحمد بن شاذي، وكان فيه لفظ « الكلأ » فسأله المعتصم : ما الكلأ ؟ فقال الوزير : لا أعلم، فقال المعتصم متحسراً : « خليفة أمي ووزير عامي ؟! إنا لله وإنا إليه راجعون ! » [ص ٢١٢ ج ٣ زهر الآداب] ولم يشف غلته إلا محمد بن عبد الملك الزيات الكاتب، وكانت هذه الحادثة سبباً في عزل ابن عمار وتولية ابن الزيات الوزارة [ص ٧١ ج ٢ وفيات الأعيان].

وتدل الدراسة الأدبية على أن حركة النقد كانت عنيفة جداً ، وأن الجدل كان شديداً بين علماء اللغة من جهة ، والشعراء المأخوذين بمظاهر الحضارة والثقافات الجديدة من جهة أخرى .

لهذا تعددت مجالس النقد ، وكثرت مجامع الأدب ، وقام التنافس بين العلماء والأدباء والشعراء ، وظهرت مذاهب مختلفة فى النقد الأدبى ، وأدى الأمر فى النهاية إلى تدوين قواعد النقد ، وأصبح علماً ذا أصول وقواعد ، وتمخضت هذه الحركة عن مولود جديد تطور على الأيام حتى استقر فى علوم البلاغة على يد الإمام عبد القاهر الجرجانى ورجال عصره .

ومن الصعب على الباحث أن يحصر عمداء المدرسة فى هذا العصر أو يعدد أساتذتها وفصولها ، فقد كانت الدولة كلها ميداناً للكفاح العلمى والنقد الأدبى ، وكان على رأس عمدائها أوائل الخلفاء العباسيين ، خصوصاً المنصور والمهدى والرشيد والمأمون الذين غذوها بعلمهم وعضدوها بمالهم وخبرتهم الواسعة واطلاعهم على ألوان الأدب وأفانينه ، وما كان لهم من دقة الإحساس وسلامة الذوق .

وقد أنتجت مدرسة النقد الأدبى ـ فى هذا العصر ـ إنتاجا ضخما ، وتركت تراثا عظيما ، وخرجت كثيرا من أعلام العلم والأدب عربا وأعاجم ، وقامت على أيديهم نهضة فذة فى التاريخ الأدبى ساعد ازدهارها عقيدتهم الراسخة بأنهم إنما يخدمون بذلك دستور دينهم الخالد : كتاب الله وسنة النبى العربى الذى بعثه الله فى الأميين رسولا ؟

تنبيه على خطأ مطبعى

وقع فى العدد قبل هذا فى ص ٥٢٦ السطر ٤ فى مقال « ابن مضاء القرطبى » : « وبعضهم يرى أنها لا عمد لها لا ترى » وصواب العبارة : « وبعضهم يرى أنها لها عمد لا ترى » .

تقـــــاريظ

موسى عليه السلام

هذا كتاب يقع فى نحو مائة وثمانين صفحة بالقطع المتوسط وضعه فضيلة الأستاذ الشيخ عبد الحميد مطاوع المدرس بالأزهر فى تاريخ موسى عليه السلام ، وقد أهداه إلى النبي صلى الله عليه وسلم صنوه فى الجهاد والبلاء والعزم والتضحية ، وقد حدا فضيلته إلى وضع هذا الكتاب حفول حياة كليم الله بالحوادث فقال : « عنَّ لى أن أرجع بالبصر كرة إلى فترة نأت عنا ببعيد ، وأشرقت فيها شمس كليم الله موسى عليه السلام ، ذى العزم والبطش العتيد ، فبددت طغيان فرعون وملئه ، وحفلت بالحوادث الجسام بين موسى وقومه ، وتوالت فيها آيات الله ظاهرة جلية ، وازدهرت فيها معجزات موسى عليه السلام مفحمة مرضية ؛ فهفت نفسي إلى نظم عقد حياته عليه السلام حلقة حلقة ، وإيضاح الحوادث فى عهده حادثة حادثة » .

وقد وفى فضيلته بما وعد ، فنشكر له هديته ، ونثنى على عنايته بطبع كتابه طبعة راقية .

المحفوظات الأزهرية

وضع فضيلة الأستاذ الألمعى الشيخ أحمد الشرباصى المدرس بالأزهر كتابا تحت هذا الاسم ذكر فيه أن درس المحفوظات درس ضائع فى الأزهر الشريف والمعاهد الدينية ، وقد هاله هذا التضييع ، فأراد أن يعرف سره فرأى من أكبر أسبابه أن قطع المحفوظات تعاد وتكرر فى مختلف الفصول حتى ملها الطلاب ، وسنة الحياة التجدد . ومن العجيب أن البرنامج الدراسى ينص على ذلك فيقول : يراعى أن تجدد المحفوظات فى كل عام بقدر الامكان ؛ لذلك أراد فضيلته أن يضع للطلاب مجموعة تضم قطعا مختارة من النظم والنثر تجمع بين القديم والجديد من الأدب ؛ وذيل كل واحدة منها بالتعريف بصاحبها ، وشرح مفرداتها وأبياتها بايجاز ، تاركا للمدرس ما يناسب المقام من التفصيل والتحليل والنقد .

وقد اطلعنا على ماأتى به من القطع النثرية والشعرية فوجدناها من أحسن مايختار للنابتة من الأزهريين وغيرهم . فنثنى على عنايته ، ونرجو له زيادة من التوفيق .

بسم الله الرحمن الرحيم

سر إخلاص المسلم لدينه – منافاة الشيوعية والاشتراكية لمبادىء الاسلام

أسـئلة

موجهة إلى حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر
من الصحفى الأمريكى ا. ا. دوروينيان

والأجوبة عليها

لقد تأثرت تأثراً عميقا بما لاحظته من تحمس المصرى العادى لدينه، وحرصه على أداء صلاته كل يوم فى حينها؛ الأمر الذى لا يفعله إلا قليل من المسيحيين؛ وبذلك أود أن تسمحوا مشكورين بالإجابة على الأسئلة الآتية :

س ١ — ما الذى يدفع المسلم الى الإخلاص لدينه على هذه الصورة : هل هو دافع غريزى شخصى أو دافع الدين ؟ هل السر فى ذلك هو التعليم الأولى الذى يتلقاه المسلم سواء كان دينيا أو غيره، أم تأثير الوالدين فى النشء ؟ وبالجملة ما هى العوامل فى هذا الشعور، وما أهمها فى رأيكم ؟

ج ١ — الإسلام دين الفطرة، فهو دين طبيعى ينفذ الى النفوس الفطرية من غير مشقة ولا إجهاد فكر؛ وذلك لأنه دين يدعو أصحاب العقول الى إعمال فكرتهم فى حقائقه، ويتسع الى المناقشات العقلية والمنطقية، لا يتوارى عنها، ولا يستتر دونها بستار شكلى. ومن أجل ذلك ترى المصرى العادى يتلقاه عن رضا واقتناع، ويؤمن به إيمانا راسخا كأنه ضرورة من ضرورات حياته، ووسيلة متفردة فى إسعاده. وقد يساعد على ذلك عوامل كثيرة، منها ما يرجع الى التربية

والتعليم تحت تأثير البيئة ولون الحياة التى يحياها المصرى العادى ؛ ومنها ما يرجع الى الاستعدادات الموروثة والدوافع الشخصية الداخلية ؛ ومنها ما أشرت اليه فى اختصار من أن الاسلام دين يعتقد ، لا دين يملى إملاء . وسأفرد فيما يلى لكل حالة من الحالات التى ذكرتها كلمة يسيرة تزيد فى إيضاح ذلك ، وتكشف عن حقيقته .

(١) الدين الإسلامى دين ذو قواعد سهلة واضحة لا تعقيد فيها ولا التواء . فالعبادات الدينية فيه عبادات يقوم بها المسلم لربه فى أى مكان ، يسرّ فى ذلك أو يعلن . والله سبحانه وتعالى طالب العبد فى عبادته أن يقف بين يديه منه إليه من غير واسطة ، وجعل مقام ذلك العبد إن كان تقيا فى عبادته مخلصا لله فيها أكرم مقام وأعز موضع ، فقال تعالى « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » لا فرق فى ذلك بين أعجمى أو عربى ، شرقى أو غربى . فكرم المرء عند الله بعمله يقرب منه سبحانه به ، وبعده عن الله بعمله إن كان شرا ، يخرج به عن رضاه ، ويستحق بشروره غضب الله فى الدنيا ، وعقابه بالنار فى الآخرة .

لكل ذلك ترى المسلم حريصا أن يكون قريبا من ربه كريم الموضع عنده ، وما أخف الوسيلة إلى ذلك وأهونها على النفس ! فقد يسّر الله على عباده هذه التكاليف ، وما حملهم شيئا فوق طاقتهم ولا أرهقهم ، بل راعى سبحانه وتعالى الرأفة بعباده ، فكان رفيقا بهم فى تكاليفه ، مترخصا لهم فى حالاتهم التى تعرض من شدة أو عناء ، فقال تعالى « لا يكلف الله نفسا إلا وسعها ، لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت » حتى لقد دعا سبحانه وتعالى كثيرا ممن أسرفوا على أنفسهم أن يعودوا إلى رضاه ، وهو غافر لهم الحوبة ، قابل منهم التوبة ، فقال عز من قائل « قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ، إن الله يغفر الذنوب جميعا ، إنه هو الغفور الرحيم . وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون » وقال تعالى « يأيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون . وجاهدوا فى الله حق جهاده ، هو اجتباكم ، وما جعل عليكم فى الدين من حرج » .

(٢) إن المتتبع لطبائع المصريين والباحث فى دوافعهم النفسية واستعداداتهم

الموروثة من أجيال طويلة مضت ، يقرر أن لها أكبر الأثر فى الإقبال على العبادات ، والقرب من الله ، والإخلاص فى دعائه سبحانه وتعالى ، وخصوصا حينما تحل بهم الشدائد ، أو تحزبهم الكروب؛ فما أسرعهم حين يتوجهون إلى الله سبحانه وتعالى ضارعين اليه أن يفك أسرهم ، ويفرج كربهم ، يخضعون فى ذلك إلى قوله تعالى « وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب ، أجيب دعوة الداع إذا دعان، فليستجيبوا لى، وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون » وقوله تعالى « هو الحى لا إله إلا هو فادعوه مخلصين له الدين ، الحمد لله رب العالمين » .

(٣) أما التعليم والتربية فإنى أعتقد اعتقادا قويا فى أثرهما فى ذلك الإخلاص القوى ، والتفانى فى الطاعة لله سبحانه وتعالى ؛ وذلك لأن التعليم الدينى فى مصر كان هو السائد فى القرى والمدن ، فقد انقضت حقبة طويلة والتعليم فى المكاتب والمدارس أساسه حفظ القرآن الكريم وترتيله ، وما كان يتعلم بجانبه من الكتابة والقراءة لم يكن إلا وسيلة لقراءة كتاب الله واستظهاره ، وحين تدرج التعليم فى مصر حتى اشتمل التعليم المدنى فى مراحله الابتدائية والثانوية والعالية ، كان غذاء هذه المدارس الجديدة المتخرجين فى المكاتب التى قلت إن التعليم فيها يقوم على أساس قراءة كتاب الله وحفظ ما يمكن حفظه منه ؛ وما تجردت برامج الدراسة فى المدارس الابتدائية والثانوية من دراسات كافية للمبادىء الدينية فى كل فرقها ؛ فانها تحرص دائما على تحفيظ بعض آى القرآن زيادة على دراسة المبادىء الدينية الكثيرة . على أن التدرج فى إنشاء هذه المدارس المدنية لم يحرم البلاد المصرية خاصة والبلاد الاسلامية عامة من المحافظة على أكبر معهد دينى له الأثر الكبير المشكور فى شرح قواعد الدين وبيان عقائده ؛ ذلك هو الأزهر الشريف ، الذى له الفضل الأكبر فى الاحتفاظ بالآثار الصالحة المتوارثة عن السلف من كبار المسلمين ورجال العلم منهم ؛ فقد بقى أكثر من ألف عام وهو الينبوع الفياض الذى تتفجر منه عيون الحكمة الاسلامية ، وتفيض من جوانبه جداول المعرفة فى كل ناحية من نواحى العلم والدين والثقافة الاسلامية . ولا أكون مبالغا إذا قلت : إنه هو المعهد الوحيد الذى حفظ للمسلمين تراثهم ، وأبان لهم سبيلهم ، وأوضح أمامهم معالم الحق ، وجنبهم مسالك الضلال ؛ وأنه الى عهد

قريب جدا كان المعهد الوحيد الذى أخرج للمصريين من قامت بأفكارهم نهضاتها ومن استحدثت بهم مصر أسس حضارتها التى يجنون ثمارها الآن .

ومن كل ذلك يتبين لك من غير خفاء أن التعليم الدينى كان ولا يزال سلطانه غير محدود على النفوس المصرية ، يدعوهم الأزهر إلى الاحتفاظ بدينهم ، والإخلاص لربهم من أول إنشائه إلى وقته الحاضر ، ولم يكن بعد ذلك موضع للعجب من تفانى المصريين فى حبهم لربهم وإخلاصهم لدينهم ، وسيبقى ذلك إن شاء الله ما بقى الأزهر ، وما بقيت النفوس خالية من الهوى والغرض .

س ٢ — إننى لست مقتنعا بما قيل من أن الشيوعية لا تستطيع أن تتسلل بين المسلمين . وهنا أود أن أنوه لفضيلتكم بأن كنيسة الروم الكاثوليك تعترض بشدة على هذا الشر ، ومع ذلك فإن كثيرا من الزعماء المسيحيين وخاصة فى ايطاليا الكاثوليكية قد انقلبوا شيوعيين وناصبوا الكنيسة العداء ، أو استمروا فى التردد على الكنيسة فى أيام الآحاد ولكنهم يعملون للشيوعية فى أيام الاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس والجمعة والسبت . ولست مقتنعا بما أعلن من أن المسلم الطيب لا يمكن أن يصبح شيوعيا ، لأن هذا هو عين ما قاله البابا عن الشيوعية ، ثم لم يلبث المسيحيون أنفسهم أن خالفوه . على أنه فى حالة ما إذا كانت إجابتكم بالمثل ، هل لى أن أسأل فضيلتكم عما إذا كنتم قد اتخذتم فى الأزهر تدابير خاصة ضد الشيوعية ، مثل إصدار تحريرات معينة ضدها ، أو الإشارة إلى الوسائل التى يمكن التعرف بها على الشيوعية ومكافحتها ؟ .

ج ٢ — لقد داخلك الشك فى أن الشيوعية لا تتغلغل بين صفوف المسلمين ولا أمنحك عذرا فى هذا ؛ لأنك لو عرفت الدين الاسلامى وكيف كفل للمسلمين التساند الاجتماعى ، وأن واجبا محتوما على كل واحد منهم أن يأخذ بيد أخيه المسلم ، وأن يقف حاجزا بينه وبين الحاجة وما تستدعيه ضرورات الحياة ، لما توانيت لحظة فى الإذعان معنا فى أن الاسلام هو الصخرة التى ترتطم بها أمواج الشيوعية ثم تنحسر عنها واهنة مخذولة إن شاء الله . وحتى أوضح لك ما أجملته أقول :

قلت لك : إن الاسلام كفل للمسلمين التساند الاجتماعى ، وما يقيهم شر الحاجة ، ويدفع عنهم مطالب الأيام . وسبيله فى ذلك :

أولا — أنه فرض على كل مسلم أن يجعل لله حقا فى ماله ، سواء أكان ذلك

المـال زروعا ، أو حيوانا من إبل أو بقر أو غنم ، أو عروض تجارة ، أو ذهبا أو فضة ، أو مالا مقوما من أى نوع ، بشرط أن يفيض عن حاجة المسلم من النفقة عليه وعلى عياله ، ومن تجب عليه نفقتهم ، وألا يكون مطالبا به فى دَين أو نحوه ، وقد يبلغ ذلك الحق عشر المـال أى ١٠ ٪ ثم حدد أيضا وجـوه الصرف لهذه الأموال التى تجتمع لدى بيت المـال ، وجعل مصارفها الفقراء والمساكين ، ومن انقطعت بهم السبل ، ومن أغرقهم دَين لم يكن مسببا عن معصية الله ، وغيرهم مما هو ثابت فى الدين ومعروف من مآخذه . ولقد طالب الله سبحانه وتعالى المسلمين بدفع هذه الزكاة فى مواضع كثيرة ، ولم ترد فى القرآن آية من الآيات التى تدعو المسلمين إلى إقامة الصلاة إلا مقرونة بدعوتهم إلى إيتاء الزكاة . فالزكاة والصلاة فى الاسلام ركنان من الأركان التى قام عليها الإسلام ، ودعامتان متينتان بنى عليهما ديننا القوى . من ذلك قوله تعالى « وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة » ، و « ولـكن البر من آمن بالله واليوم الآخر ، وأقام الصـلاة وآتى الزكاة » . و « يأيها الذين آمنـوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لـكم من الأرض ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون » . و « قـد أفلح المؤمنون الذين هم فى صـلاتهم خاشعون ، والذين هم عن اللغو معرضون ، والذين هم للزكاة فاعلون » .

ولولا أنى لا أجـد فى مثل هـذا المقام متسعا لسرد كثير من الآيات التى تحتم على المسلمين أداء الزكاة كلما استحقت ، لأفضت فى البحث معك ولأطلت ، ولـكنى سأجتزىء بعـد ما ذكرت بما أقص عليك من حادث خليفة المسلمين الأول أبى بكر الصديق ، وكيف أنه قام فى أشد أوقات المسلمين وأعصبها ، بعد موت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بإعلان حرب شعواء على كل من امتنع عن تأدية هذا الفرض ؛ وتحمَّـل فى سبيل ذلك تعريض المسلمين لهول فزع منه من كانت لا تفزعه الخطوب ولا تزعزعـه الحوادث ، خليفة المسلمين عمر بن الخطاب المعروف بشدته فى الدين وعـدم الهوادة فيه ، فجاء أبا بكر يطلب اليـه التريث فى إعلان هـذه الحرب حتى تمر الشدة التى هم فيها ؛ ولـكن صرامـة أبى بكر فى دينه وتفانيه فى الإخلاص لأركانه ودعائمه ، دفعاه إلى ألا يبالى بمكروه يقع فيه وقال له : والله لو منعونى عقال بعير كانوا يؤدونه الى رسول الله صلى الله عليـه وسـلم لقاتلتهم عليـه أو أهلك دونه ! وقال : والله لأقاتلن من فرّق بين الصلاة

والزكاة ! . وخاض غمار هذه الحرب ، وخرج منها ظافراً ، معزاً لدين الله ، ومثبتاً لأركان الإسلام .

ومن ذلك ترى أن الدين الإسلامى اتخذ طريقاً وسطاً حد فيه من طغيان الرأسمالية ، فأخذ من مال الأغنياء نصيبا مفروضا يصرف الحاكم منه على الفقراء وذوى الحاجات ، كما ينفق منه على دور الاستشفاء ، وأماكن إيواء العجزة بحيث لا يترك لأمثال هؤلاء مجالا للشكوى ، ولا مسلكا ينفذون منه إلى سلب أموال الناس وأخذها بالباطل ، وغير ذلك من المسائل التى تذكى نارها فى نفوس الفقراء وسائل الرأسماليين ومكتنزى الذهب والفضة .

ثانيا — ومن المبادىء المقررة فى الإسلام أيضا حرية التملك (الملكية الفردية) واحترامها ، وأن لكل فرد أن يقتنى من المال ما تمكنه من اقتنائه السبل المشروعة ، وليس عليه وراء ذلك إلا أن يؤدى الفرض الذى أشرنا إليه من قبل ، وله فى كل حالة أن يتصرف فى هذه الأموال بما يراه ، وتبقى بعده تركته لورثته ، فى حدود القوانين الاسلامية التى جاءت فى نصوص القرآن فى مواضع كثيرة منه . وقد دعا الدين الاسلامى جميع المسلمين بعد ذلك إلى التطوع بالإنفاق ، وشجعهم على التبرع لأعمال الخير ، ونهاهم فى كثير من المواقف عن الإفراط والتفريط ، فنهى عن السرف كما نهى عن التقتير ، فقال تعالى فى الحث على الإنفاق : « مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة ، والله يضاعف لمن يشاء ، والله واسع عليم » وقال تعالى « يأ يها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض ، ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه » وقال تعالى فى التوسط والاعتدال « ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ، ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا » وقال تعالى « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم ، يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباهُهم وجنوبُهم وظهورهم ، هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون »

ثالثا — وإنك لو تأملت فى حكمة الإسلام فى احترام الملكية الفردية ووضع القواعد العامة للمواريث ، لعرفت أن هذا من أكبر الدوافع التى تحفز الممولين إلى قوة الاستثمار والنشاط فى الإنتاج ، ويدعو إلى السهر على المصالح وبذل الجهود

القوية فى تكثير الأموال ، وهو فى الوقت نفسه يحمى هذه الأموال من أن تعبث بهـا يد السرف والتبذير . فالرجل الذى يعرف أن الأموال التى بذل فى جمعها صحته وعقله ستصير بعد ذلك إلى الدولة ولا ينتفع بهـا بنوه بطريق مباشر ، ليس هناك ما يحفزه إلى ادخارها ويدفعـه إلى المحافظة عليها . ولا يصح أن يقال إن قواعد التكافؤ الاجتماعى قد تغنى عن ذلك ؛ فان الطبيعة البشرية التى تدفع الآباء إلى المحافظة على بنيهم وجمع الأموال فى سبيلهم ، لا يمكن بحال أن يغنى عنها أو يقوم مقامها ما يدّعيه ذوو الآراء الهدامة من مبادىء ظاهرها فيه الرحمة وباطنها من قبله العذاب .

إنك لو تأملت بعض ذلك لمـا ترددت لحظة فى أن سبيل الشيوعية الى المسلمين مليئة بالعوائير والأشواك ، وأنها إن شاء الله لن تجد المسلمين الطيبين لقمة سائغة ولا فريسـة مستضعفة حتى يسهل عليها أن تنفـذ الى نفوسهم . ولعلى لا أكون متجنيا إذا قلت : إن المسلمين يختلفون اختلافا واسعا عن غيرهم ؛ فإنى أعتقـد أن المسلمين يحبون دينهم من قلوبهم ، ويقومون بشعائر الإسـلام حبا فى القيام بها ، لا خاضعين لمؤثرات خارجة عنهم .

رابعا — هـذا الى ما تقرره المبادىء العامة فى الدين الإسلامى من احترام الحريات والدعوة الى الشورى وتبادل الرأى فى المشاكل العامة ، مما طبع المسلمين بالطابع الدستورى من نحو ثلاثة عشر قرنا وبعض قرن . وهذا القرآن الكريم يطلب الله سبحانه وتعالى فيه من نبيه أن يشرك المسلمين معه فى الرأى ، فقال تعالى: « وشاورهم فى الأمر » ووصف المسلمين جملة فى آية أخرى فقال « وأمرهم شورى بينهم » . ولعلك واجـد فى القريب لعلمـاء المسلمين جولات وافية فى دفع هذه النظريات الهدامة ومحاربتها ، بمـا يوضحونه للمسلمين من حقائق عن دينهم ، بالنشر والإذاعة ، والوعظ والخطابة .

س ٣ — وصف لى موظف فى جامعة الدول العربية الإسلامَ بأنه يحمل طابع الاشتراكية ؛ فما رأيكم فى ذلك ، والى أى مدى تبلغ الاشتراكية الإسلامية ؟ وما هى أوجه الشبه على وجه التحقيق بين الاشتراكية الإسلامية والاشتراكية الحديثة ؟ . ويلوح لى ممـا استخلصته من أحاديث فى هذا الشأن أن القرآن لم ينص صراحة على وجوب عدم المساس بالملكية الشخصية ، فما رأيـكم فى ذلك ؟ . وإذا

كان الاسلام يماثل من بعض الوجوه الاشتراكية الحديثة ألا ينتظر من وراء هذا التشابه أن يقوم بين الاسلام وبين الاشتراكية الدولية السياسية (مثل الشيوعية الماركسية) تشابه يؤدى الى توزيع الثروة الشخصية بأمر الحاكم أو الحكام ؟ . إنى أوجه هذا السؤال بالذات ، لأن بعض المصريين الشيوعيين قد قرروا لى أن آيات القرآن يمكن أن تتمشى فى سهولة مع الفلسفة الشيوعية فيما يتعلق بتوزيع الثروة . فإذا كان الأمر كذلك فإنّ أمن العالم العربى يصبح بذلك مهددا (ومعه الأمن العالمى كله) بمجرد السماح للدعاية الشيوعية بالازدهار فى هذا الجانب من العالم .

ج ٣ — إنه ليؤسفنى أشد الأسف أن تستخلص مما جرى بينك وبين الناس من أحاديث حول الإسلام والاشتراكية من ناحية ، والإسلام والملكية الفردية من ناحية أخرى ، أن القرآن لم ينص على شىء من عدم المساس بالملكية الشخصية ، وأخذت لنفسك حق الادعاء من أن الإسلام يماثل من بعض الوجوه الاشتراكية ، وأنه ينتظر من وراء هذا التشابه أن تقوم صلات بين الإسلام وبين الاشتراكية الدولية السياسية تؤدى إلى توزيع الثروة الشخصية بأمر الحاكم ، وأنك توقعت قرب تحقيق ذلك بما ألقاه فى روعك بعض المصريين الشيوعين كما تقول من أن آيات القرآن الكريم تتمشى فى سهولة مع الفلسفة الشيوعية ، بئس ما سوّلت لكم أنفسكم ! و ألا ساء ما تحكمون ! لقد نسبتم إلى آيات القرآن ما القرآن منه براء . فليس فى القرآن آية تتمشى مع الفلسفة الشيوعية فى أى وضع من الأوضاع ، ولكن هؤلاء الشيوعيين الذين قرروا لك ما قرروه قد التوت بهم السبل ، وضلوا عن سبيل الله ، وأرادوا أن يضلوا الناس كذلك .

ولو أنك تفضلت فذكرت أسماء بعضهم لكان لنا منهم موقف آخر أمام الله وأمام الناس ؛ فانا دائما على استعداد أن نأخذ أمثال هؤلاء بحرب لا قبل لهم بها ؛ وإن مما هوّن علىّ أثر هذه العبارات أنك — هداك الله — قد التجأت الينا لتعرف الرأى الحقيق فى الدين الاسلامى وفى كتاب الله . ولعلنا فيما قدمنا اليك نكون قد كشفنا لك عن شبهات هؤلاء المضللين ، وأبنّا من حقيقة أمرهم من حبهم لشيوع الفتنة بين المسلمين .

وإنا لنقرر لك أن القرآن الكريم قد احترم الملكية الفردية وصانها بقواعد

وحدود لا تجعلها عرضة للتلف ولا للضياع ، ونظم انتقالها الى الأبناء والمستحقين وفصل القول فى قواعد المواريث وتحديد الأنصبة فيما تركه الوالدان والأقربون قلّ منه أو كثر ، فقال تعالى « وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح فان آنستم منهم رشدا فادفعوا اليهم أموالهم ولا تأكلوها إسرافا وبِدارا أن يكبروا » ثم قال تعالى بعد ذلك « للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون ، وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون ، مما قلّ منه أو كثر ، نصيبا مفروضا » ثم قال الله تعالى بعد ذلك « يوصيكم الله فى أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين » الى آخر ما جاء فى هذه الآيات من بيان الأنصباء مفصلا ، ومن بيان الوصية التى للمالك فى ماله لمن شاء ، مما يدل الدلالة الواضحة على حق الملكية لكل مالك ، وانتقال هذا الحق من بعده الى ورثته من أبنائه وأقربائه . ثم ختم هذا البيان الرائع بقوله سبحانه « تلك حدود الله ، ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ، وذلك الفوز العظيم . ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله نارا خالدا فيها وله عذاب مهين » .

س ٤ — إذا كان القرآن يوصى بإشراك الفقراء فى ثروات الأغنياء ، ويحرّم المقامرة والرشوة والخداع ، فما هو حكم الإسلام فى أولئك الذين يرفضون أن يشركوا الفقراء فى ثرواتهم ، ويدأبون على الغش والرشوة ؟ الخ ؛ هل يمكن أن يعتبروا فى هذه الحالة مسلمين طيبين ؟ وإذا لم يكن الأمر كذلك فهل يمكن عمل شىء لإلزامهم بتنفيذ تعاليم القرآن ؟ وإذا كان أولئك الذين يخالفون تعاليم القرآن يحتفظون بمكانتهم الاجتماعية ويواصلون نجاحهم فى الحياة ، بل إن بعضهم لتغدق عليه ألقاب الشرف ، ألا يمكن أن تفرض عقوبات على مخالفة القرآن من جانب أولئك الذين يولون وجوههم نحو الشيوعية .

ج ٤ — أما ماطلبته من بيان حكم الاسلام فيمن يتأخر عن دفع الزكاة أو يرفضها فقد فصلنا لك فى صدر هذا الحديث ما كان من خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم أبى بكر الصديق ، وما شنه من حرب شعواء على المانعين للزكاة . وحكم الإسلام هو أخذهم بتأدية هذه الفريضة بالتبليغ والدعوة اليها ، وإلا صودرت أموالهم بمقدار هذا النصيب المفروض . ولا يمكن بحال اعتبار هؤلاء من المسلمين الطيبين ، فهم عصاة يستتابون ليرجعوا عن غيهم ويؤمنوا بربهم . وإننا إن شاء الله سبحانه

وتعالى نأمل أن نخطو خطوات واسعة فى الاحتكام الى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، بفضل مايبذله الملك الصالح (فاروق الأول) الحريص على الإسلام والمؤيد لدين الله . نسأل الله أن يعز به الاسلام ، وأن يؤيده بنصر من عنده ، وأن يوفق المسلمين الى اتباع ما جاء فى القرآن الكريم من الأوامر واجتناب ما نهاهم عنه .

« إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت ، وما توفيقى إلا بالله ، عليه توكلت واليه أنيب » .

تبرع السيدات بحليهن

حضرة الأستاذ الأكبر يثنى عليهن

زارت حضرة السيدة الحاجة نعمات هانم الطرزى ، حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر ، وأعربت لفضيلته عما تكنه من شعور نحو جيشنا المجاهد لتحرير الأراضى المقدسة من خطر الصهيونية ، وقدمت إلى فضيلته مجموعة من الحلى الثمينة التى تملكها هى وسيدات وآنسات أسرتها ، ورجت أن يخصص ثمنها للترفيه عن الجنود المصريين المجاهدين وإعانة أبناء الشهداء منهم ، فشكر لها فضيلته هذه الأريحية ، ودعا لها بخير .

ثم تحدث فضيلته عن هذا العمل المشكور فقال : « إن هذا العمل المبرور المجيد ليعد فاتحة كريمة وقدوة طيبة نرجو أن ينهج نهجها ويسير على سنتها كرائم العقيلات المصريات ، فيسارعن الى أعمال النجدة الوطنية والأريحية العربية ، ليكتبن بذلك فى تاريخ المرأة المصرية صفحات خالدة من الأريحية والوطنية .

« وإنى أعلن أن باب الاقتداء بهذا العمل الكريم مفتوح للسيدات المصريات والعربيات جميعا ، وإن المسارعة فيه خير وأبقى . وإنى أهيب بهن جميعا أن يكن فى هذا المضمار السابقات المجليات « إن تقرضوا الله قرضا حسنا يضاعفه لكم ويغفر لكم ، والله شكور حليم » .

الحرب والاسلام

شرع الله الدين الإسلامى ليتولى الناسَ فى ناحيتيهم الروحية والمادية ؛ ففى ناحيتهم الروحية أقامهم على الطريق السوى من تحكيم العقل ، وإيثار الحق ، وإقامة العدل ، و مراعاة الآداب ، وإعلان تساوى العالم أجمع فى الحقوق والواجبات ، لا فضل لأبيضهم على أسودهم ، ولا لعربيهم على أعجميهم ، والعمل الجدى على جعل الحياة الأرضية مثابة إخاء وتواد وتراحم بين أهلها أجمعين ، وتطلُّب المُثل العليا فى كل مطلب من مطالب الروح ، ومقام من مقاوم العلم ، ومرمى من مرامى الحياة الفاضلة .

وفى ناحيتهم المادية سنّ لهم النظام والوحدة والتكافل ، وتناسِى الذات فى سبيل حياة الجماعة ، والتضحية لبلوغ المقامات المحمودة ، حتى إذا جرت الى الحرب .

الحرب ، نعم الحرب ؛ ألم تر أنها لا تزال وسيلة من وسائل حلول المشاكل الاجتماعية الى هذا العهد الذى بلغت الانسانية فيه أشدها ، ونالت العقول رشدها ، فإلى أى مآل كانت تؤول حالة الجماعة الاسلامية التى دُعيت لنشر الدين العالمى العام ، فى عهد كان الحق لا يمكن الاحتفاظ به إلا بالقوة ، والحكمة لا يستطاع الإدلاء بها إلا إذا حاطتها القـــوة ، بل والحياة لا يتأتى أن تبقى إلا إذا نافحت عنها قوة ؟

إذا كانت الأمم الغربية بعد أن نالت ما نالته من ثقافة علمية عالية ، وألمعية فلسفية سامية ، ومدنية مادية راقية ، لا تزال تعمد فى القرن العشرين لحل مشاكلها المختلفة إلى الحرب ، فهل يعقل أن تحرَّم الحرب على أمة تألفت قبل ثلاثة عشر قرنا ، ونيط بها إحداث تطور عالمى من الناحيتين الدينية والاجتماعية ، وهما أدعى الى إثارة النفوس من جميع الخلافات البشرية ؟

أباح الإسلام الحرب ، ولكنه حاطها من الملطفات بما لم تبلغ إليه مدنية القرن العشرين ، ولا الى ما يقرب منه ، وخلصها مما كانت تنشره الكتب التى يعتبرها الأوربيون مقدسة . فقد جاء فى الكتاب الخامس من الزبور قوله :

« إذا أدخلك ربك فى أرض لتملكها ، وقد أباد أمما كثيرة من قبلك ، فقاتلهم حتى تفنيهم عن آخرهم ، ولا تعطهم عهدا ، ولا تأخذنك عليهم شفقة أبداً » .

وقد خاض الأوربيون باسم الدين حروبا كانت شر الحروب التى شبت بين البشر عامة ، فى قسوتها وتناسى كل الحقوق الإنسانية فيها . فالإسلام لم ينفرد بين الأديان السابقة والفلسفات المعاصرة بأنه دين يقر الحرب ، ولكنه انفرد ، كعادته ، بتلطيف هذه المجازر الإنسانية الى آخر حد يمكن الوصول إليه ، بدون الإخلال بسلامة الحوزة : فوضع للحرب حدودا ، وشرط على الغزاة شروطا ، كلها ترمى الى احترام الدماء البشرية ، والعمل بأرقى ضروب العطف على الانسانية ، ولم يهمل مع هذا أن يشير على ذويه بأنه إن جاء وقت ترى الانسانية فيه أن الحرب أصبحت أداة وحشية ، وأن فى التفاهم والتعطف خيراً بدلا منها ، فان عليهم أن يتابعوا الإنسانية فى ترقيها ، ويدخلوا فيما يدخل فيه الناس من اعتبار الحرب أداة وحشية ، والجرى على ما يجرى عليه الناس من حلول الخلافات بالطرق السلمية كما سيأتى هنا .

قلت : إن الاسلام أباح الحرب ولكنه لطف من حدتها ، حتى جاوز ما أدخلته المدنية عليها بمراحل كثيرة .

(أولا) أن تكون لغرض مشروع كالدفاع عن الحوزة ، لا لهوى ملك ، ولا متابعة لأطماع رئيس .

(ثانيا) أن تكون الرحمة شعار المؤمنين ، فلا يقتلون طفلا ولا شيخا ، ولا رجل دين ولا مستسلما ، ولا امرأة ، ولا أحدا من خدم المحاربين ، ولا أن يحرقوا دور أعدائهم ، أو يقطعوا أشجارهم .

(ثالثا) أن لا يسرفوا فى استثمار انتصارهم ، فلا يجردون المغلوبين من حقوقهم ، ولا يصادرون أموالهم ، ولا يضطهدونهم لدينهم ، ولا يتقاضون منهم إلا الجزية ، وهى مبلغ من المال ، كما قال العلامة (دوزى) الهولاندى فى كتابه تاريخ الفرق الاسلامية ، يقل كثيرا عما كانت تتقاضاه منهم حكومات تلك الأمم المغلوبة .

ولم يهمل الإسلام مع هذا كله أن يشير على ذويه بأنه لو جاء وقت تعتبر فيه الحرب من الوسائل الوحشية ، عند ما تصل الانسانية الى درجة من الرقى تسمح للمتخاصمين أن يحلوا منازعاتهم بالتحكيم ، فعليهم أن يجروا فى تيار هذا

التطور العظيم ، ويدخلوا فيما دخل فيه الناس من النظام الجديد ، فقال تعالى « وإن جنحوا للسلم فاجنح لها ، وتوكل على الله » .

أنا فى هذا المقام مضطر لأجل إثبات أقوالى هنا أن استشهد مؤرخين لايمتون الى الاسلام بصلة ، وإنما هم رجال اجتماعيون يعطون الحوادث حقها من البيان والتفصيل .

قال المسيو (هنرى دوكاسترى) أحد حكام الجزائر السابقين ، فى كتابه (الإسلام - تأثرات ودراسات) L'Islam, impressions et études :

« بعد أن دان العرب للإسلام ، واستنارت قلوبهم بهذا الدين ، برزوا فى حال جديدة أمام أهل الأرض كافة ، هو حال المسالمة وحرية الأفكار فى المعاملات ، ائتمارا منهم بما ورد فى القرآن من الإيصاء بمحاسنة الناس ، بعد تلك الآيات التى كانت تنذر القبائل المارقة . إلى أن قال :

« هكذا كانت تعاليم النبى بعد أن دخل العرب فى الاسلام ، وقد اقتفى أثره فيها خلفاؤه من بعده ، وذلك يضطرنا الى القول بما قاله قبلنا (روبنسون) : إن شيعة محمد هم وحدهم الذين جمعوا بين محاسنة الأجانب ، ومحبة انتشار دينهم . هذه العاطفة هى التى دفعتهم فى سبيل الفتح ، وهو سبب لا حرج فيه . فنشر القرآن جناحيه خلف جيوشه الظافرة ، إذ أغاروا على الشام ، وانقضوا انقضاض الصواعق على أفريقيا الشمالية من البحر الأحمر الى المحيط الاطلانطيق . ولم يتركوا أثرا للعسف فى طريقهم (تأمل) ، إلا ما كان لا بد منه فى كل حرب ، فلم يبيدوا قط أمة أبت الدخول فى الإسلام » .

ثم قارن المسيو (هنرى دوكاسترى) بين هذه الرحمة والعطف من الإسلام ، وبين الشدة والروح الحربية فى الأديان التى تقدمته . فنقل عن الكتاب الخامس من الزبور قوله : « إذا اقتربتَ من مدينة لتحاصرها فاعرض عليها الإيمان ، فإن قبلته فقد سلم كل من فيها ، وإن أبت وبادأتك بالعدوان فشدد الحصار عليها ، ومتى وفقك الله للظفر بها فأحطم رأس كل ذكر فيها بحد الحسام » .

ثم قال المسيو (هنرى دوكاسترى) :

« فكان من وراء محاسنة المسلمين للأمم المقهورة أن انتشر الإسلام بسرعة ، وعلا قدر رجاله الفاتحين ، لما سبقه من ظلم براطرة المملكة الرومانية الشرقية (وهى مسيحية) التى أبغضها الناس ، وكرهوا الحياة فى ظلها . هذا وإذا

انتقلنا من الفتح الأول للإسلام الى حين استقراره ، رأيناه أكثر محاسنة ، وأكرم معاملة لمسيحي الشرق كله . فما عارض العرب أبدا شعائر الدين المسيحى ، بل بقيت رومية نفسها حرة فى مراسلة الأساقفة فى مختلف البلاد الإسلامية .

الى أن قال :

« وهذه المحاسنة العظيمة من جهة المنتصر للمقهور هى التى أضعفت تأثير الديانة النصرانية جدا ، ثم زالت بالمرة من شمال أفريقيا . على أن الاسلام لم يكن له دعاة يقومون بنشره . فلم يكره على الأخذ به أحدا بالسيف ولا باللسان ، بل دخل القلوب عن حب واختيار . وكان هذا من آثار ما أودع فى القرآن من صفات التأثير والأخذ بالألباب » .

« ولقد زادت محاسنة المسلمين للمسيحيين فى بلاد الأندلس حتى صاروا فى حالة أهنأ من التى كانوا عليها أيام خضوعهم لحكم قدماء الجرمانيين الذين يقال لهم (الوزيجو) .

ويقول دوزى العالم الكبير :

« إن هذا الفتح لم يكن ضارا بأسبانيا ، وما حدث من الهرج والمرج بعده لم يلبث أن زال باستقرار الحكومة المطلقة الاسلامية فى تلك البلاد . وقد أبقى المسلمون سكانها على دينهم وشرعهم وقضائهم ، وقلدوهم بعض الوظائف حتى كان منهم موظفون فى خدمة الخلفاء . وكثير منهم تولى قيادة الجيوش مثل (سيد) . وقد تولد من هذه السياسة الرحيمة انحياز عقلاء الأمة الأندلسية إلى المسلمين ، وحصل بينهم تزاوج كثير » انتهى كلام المسيو دوكاسترى .

هذا أثر الفتوح الاسلامية ، والحروب التى شنها المسلمون على الأمم بقصد نشر الدعوة كما طلبه الحق اليهم ، وكلفهم بالقيام به ، وهى سيرة لا يوجد لها مثيل فى التاريخ الدينى أو الاجتماعى لأمة من أمم الأرض .

وهذا الجيش الإسلامى العربى الذى يدافع الآن عن فلسطين قد فاز بتقدير العالم أجمع فى استقامته فى غزواته ، وعدله حيال أعدائه ، وقيامه بأعباء كل التكاليف الأدبية التى تفرضها عليه مهمته ، حتى استحق ثناء جميع من وقف على أخباره ، وقارن بين سيرته وسيرة خصومه .

محمد فريد وجدى

مثل من الحيطـــة

فى رواية الحـديث

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ طه محمد الساكت

المدرس بالأزهر

عن أنَسٍ رضى الله عنه قال : إنه لَيمنعُنى أن أحدّثَكم حديثاً كثيراً أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « من تعمَّد علىّ كذِباً فليتبوأْ مقعَده من النار » . رواه الشيخان .

فليتبوأ مقعده : فليتخذ منزله ، من المباءة وهى المنزل ، يقال : بوأه الله منزلا فتبوأه ، أى أسكنه إياه فسكنه .

* * *

على القرآن والحديث يعتمد الإسلام دين الله العام الخالد ، فى شرعته ومنهاجه وهديه وإرشاده ؛ فهما لهذا الدين الحنيف أصلان مشتبكان ، وصنوان لا يفترقان . وإلى هذا يشير قوله صلوات الله وسلامه عليه « تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما : كتابَ الله تعالى ، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم » وقولُهُ : « ألا إنى أوتيت الكتاب ومثله معه ... » [1]

لا جرم أن العناية بهما ، والحفاظ عليهما ، والتثبت فى روايتهما ، تعدل العناية بالاسلام ، والحفاظ عليه ، والاحتفال به ؛ إذ كانا أساس بنيانه ، ودعام أركانه ، وملاك أمره .

---

[١] الحديث رواه أبو داود عن المقدام بن معد يكرب ، وانظر بقيته فى أول تيسير الوصول . وروى الأول مالك فى موطئه عن أبى هريرة . وانظر فى هذا الموضوع طائفة مهمة من الأحاديث فى ج ٣ م ١٩ ونرجو أن يكون لنا أو لغيرنا بحث منصف فى الحديث الثانى من هذه الطائفة .

ومن فضل الله ورحمته بهذه الأمة أن آتاها ما لم يؤت أحداً سواها ؛ ومن ذلك أن خصها بحفظ كتابها ، والعناية بآثار نبيها ، بما لم يعرف التاريخ مثله بل بعضه لأمة من الأمم .

وقد كان من آيات نبوته ، وعظيم حكمته ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ أن صرف همم أصحابه أول الأمر ، إلى كتاب ربه ، يتلونه حق تلاوته ، ويدرسونه حق دراسته ، ويهتدون بهديه ويستضيئون بنوره . وبلغ من اهتمامه بهذا الكتاب العزيز أن أذن لأصحابه بأن يحدثوا بحديثه دون أن يكتبوه ، فقال : « لا تكتبوا عنى ، ومن كتب عنى غير القرآن فليمحُه » حتى إذا اطمأن إلى بليغ عنايتهم بالتنزيل ، وشدة حرصهم عليه ، أذن لهم بكتابة الحديث عنه كما أذن لهم من قبل فى روايته ؛ فكان جل اعتماد الصحابة رضى الله عنهم على حفظهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم وتلقِّيهم عنه ، ومن كتب منهم فإنما كان يكتب مبالغة فى الحيطة والتثبت .

وكان منهم مكثر ومقلّ ووسط بين ذلك ، ومع تحرِّيهم جميعا فى الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبليغ أمانتهم فى الحديث عنه — من كتب منهم ومن لم يكتب — كان كثير منهم يمسك عن الحديث وهو يحفظه خشية أن يخطىء وهو لا يشعر ؛ والثقة إذا حدّث بشىء عُمل به اعتماداً على ما يُعهد فيه من الصدق ، وليس الخطأ ـ وإن لم يأثم صاحبه ـ بالأمر اليسير على أهل الورع والتقى ، وسادتهم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ ومن ثَمّ كان خوف أنس وأمثاله رضى الله عنهم ، مع أن أنسا كان خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن أدرى الناس به ، وأحفظهم لحديثه ، وقد رُوى عنه مئون من الحديث ولكنها قليلة جداً إذا قيست بمكانه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبعمره الطويل المبارك ، وبحاجة الناس إلى مثل علمه وفهمه .

وأحفظ الصحابة للحديث غير مدافَع أبو هريرة رضى الله عنه ، وقد ذكر البخارى أن ثمانمائة من التابعين قد رووا عنه ، ولم يقع هذا لغيره ، مع أن عبدالله ابن عمرو رضى الله عنهما قد كتب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أكثر منه بشهادة أبى هريرة نفسه ، ولكن اشتغاله بالعبادة ، ونظره فى كتب أهل الكتاب

ورحلته إلى مصر أو الطائف — أقلَّت من تحديثه والآخذ عنه . ومع أن أبا هريرة لم يحدث بكل ما حفظ ووعى فقد أنكر عليه كثرة تحديثه جمع من الصحابة حتى أبان لهم عذره في ذلك فكفوا عنه [١] ؛ روى البخارى عنه أنه قال : إن الناس يقولون أكثر أبو هريرة ، ولولا آيتان فى كتاب الله ما حدثت حديثا ، ثم يتلو « إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس فى الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون . إلا الذين تابوا وأصلحوا وبيَّنوا فأولئك أتوب عليهم وأنا التواب الرحيم » إن إخواننا من المهاجرين كان يشغلهم الصفق فى الأسواق ، وإن إخواننا من الأنصار كان يشغلهم العمل فى أموالهم ، وإن أبا هريرة كان يلزم رسول الله صلى الله عليه وسلم بشِبَع بطنه ، ويحضُر مالا يحضرون ، ويحفظ مالا يحفظون . ثم يبين لهم السر فى عدم نسيانه بما أصابه من بركة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ودعائه له فيقول كما روى الشيخان عنه : قلت يا رسول الله إنى أسمع منك حديثاً كثيراً أنساه ! قال : ابسط رداءك ، فبسطته . قال : فغرف بيديه ثم قال ضمه فضممته فما نسيت شيئا بعدُ [٢] . ثم يعتذر عن عدم تحديثه بكثير مما سمع فيقول كما روى عنه البخارى : حفظت من رسول الله صلى الله عليه وسلم وعاءين ؛ فأما أحدهما فبثثته ، وأما الآخر فلو بثثته قطع هذا البلعوم [٣] .

ثم سار التابعون على نهج الصحابة فى الحفظ والضبط والتحرى فى الرواية حتى جاء عصر التدوين ، فعُنى السلف بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم عناية لم يُعرف لها من بعد كتاب الله عز وجل مثيل . أنفقوا نفوسهم وأعمارهم وأموالهم فى جمعه وتدوينه ، والبحث عن رواته طبقة طبقة إلى رسول الله

---

[١] وفى هذه الأيام يشغب عليه ، بل ينال منه قوم لاخلاق لهم من علم ولا معرفة ، وربما ساعدهم على طعنهم ما يصطنعه الوضاعون من أحاديث ينسبونها إليه ، وليست من مروياته فى شىء ! .

[٢] ولفظ مسلم « فما نسيت بعد ذلك شيئا حدثنى به » .

[٣] كناية عن القتل ، ويعنى بالوعاء الآخر أحاديث الفتن وأمراء السوء وأحوالهم وما إلى ذلك ، وقد تذرع الباطنية بهذا الحديث إلى نشر ضلالتهم من أن للشريعة ظاهرا وباطنا ، ليتحللوا من عروة الشريعة وأحكامها ، وليتبعوا وحى الشيطان والهوى .

صلى الله عليه وسلم — ونقلُ الثقة عن الثقة إلى منتهى الحديث مما خص الله به المسلمين دون سائر الملل — وبينوا درجة كل حديث حسب قوة رجاله فى العدالة والضبط والتحرى . وبذلك مازوا الغث من الثمين ، والخبيث من الطيب ، ونفوا من رجال الحديث طوائف الدجاجلة والمارقين ، والوضّاعين والكذابين، والجهلة المتعصبين، كما ينفى الكير خبث الحديد .

ذلك أن أعداء الله ورسوله من الزنادقة والملحدين وأشياعهم قد كادوا لهذا الدين من قديم ؛ حاولوا جاهدين أن ينالوا من كتاب الله بالتحريف أو التبديل أو المعارضة ، فأحبط الله سعيهم ورد كيدهم ، وجعلهم هُزْأة الهازئين وسُخْرة الساخرين ، وصدق الله إذ يقول « إنا نحنُ نزّلنا الذكرَ وإنا له لحافظون » .

جربوا محاولتهم بعد خيبتهم الأولى ، فى التقوّل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فوضعوا ما شاء لهم الهوى ، وكذبوا ما استحب لهم الكذب ، ودوّنه كثير منهم بأقاويل فى الترغيب والترهيب قد يوافق بعضُ منها معنًى من معانى الحديث الصحيح ؛ فانبرى لهم هؤلاء الأئمة الأعلام ، فنقدوا أقوالهم ، وكشفوا للناس زيفهم وفضحوا أمرهم ووقفوا طلاب الحديث على الصحيح منه والسقيم [1] .

والعجب كل العجب أن يغتر بهؤلاء الضالين بعض الأعلام من المفسرين والمتصوفين ، فيروُوا فى كتبهم طائفة من أحاديث موضوعةٍ ، نبه على وضعها أهل الحديث ونقدته وفياصل القول فيه [2] .

وشرذمة أخرى ابتلى الله بها الإسلام والمسلمين ، لاتقل خطرا عن أولئك الأفاكين والوضاعين ! تلك التى تنكر من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم مالا يوافق هواها ، وتجحد ما يصد شهوة من شهواتها ، أو يقف عقبة فى طريقها ، ولو اتفق على صحته وصدق نسبته أئمة الهدى ، وحماة الشريعة ! على حين يصدقون ما يصادف هواهم وإن قال الثقات الصادقون إنه كذب مفترى ! ! وقد يضللون

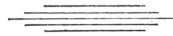
---

[1] فى علم مصطلح الحديث بسط القول فى الوضع وأسبابه ، والوسائل إلى معرفة درجة الحديث وغير ذلك مما يهم المستزيد .

[2] ولهم فى ذلك مصنفات معروفة كتذكرة الموضوعات ، وكشف الخفاء والالباس

أشياعهم ويموهون عليهم بتآويل سخيفة لاتختلف ضلالة عن جحد الحديث الصحيح وتكذيبه أو انتهاك حرمات الله ورسوله ! وقد ذهبت الجرأة بأذناب منهم مذهب الشطط ، فزعموا أنه لم يصح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا أحاديث معدودة ! ! .

ونحن لا نطمع فى أن نهدى « من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة » ولكننا نذكر من نخشى عليه الاغترار بهؤلاء ، ومن حفظ شيئاً من مبالغة بعض السلف فى رواية الحديث ، وغابت عنه أشياء ؛ نذكرهم جميعاً بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد انتقل الى الرفيق الاعلى عن مائة ألف من أصحابه أو يزيدون ، وهو عنهم جميعا راضٍ ، وكلهم ثقات عدول ، وإن كانوا عند الله درجات . ثم نتلو عليهم قول الله تعالى : « وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم ولعلهم يتفكرون » وقوله جل سلطانه « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ، واتقوا الله إن الله شديد العقاب » ؟



المبالاة بالعدو

خرج بعض أهل خراسان على قتيبة بن مسلم ، فأهمه ذلك . فقيل له : مايهمك منهم ! وجه إليهم وكيع بن أبى صرد ، فأنه يكفيكهم . فقال : لا ، إن وكيعاً رجل به كبر يتحاقر أعداءه ، ومن كان هكذا قلّت مبالاته بأعدائه ، فلم يحترس منهم ، فيجد عدوه غرة منه .

ومن نصائح على بن أبى طالب فى نهز الحرب : انتهزوا الفرصة فأنها تمر مر السحاب ، ولا تطلبوا أثراً بعد عين .

غريب القرآن

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ فكرى يسن
مدير البحوث والثقافة المساعد
بالأزهر الشريف

علوم القرآن الكريم كثيرة منوعة، ومباحثه جمة متعددة؛ وإن أول مايجب أن يكون منها محل الاشتغال والمزاولة، وموضع العناية والدراسة، العلوم اللفظية المتعلقة بتحقيق الألفاظ، وتحديد معانيها، ومعرفة المراد منها، وفهم دلالاتها، وطرق استعمالها، والوقوف على خصائصها وهيئاتها؛ لأن الإلمام بذلك كله على وجه صحيح، من المقدمات الضرورية لفهم القرآن، وإدراك معانيه؛ ولأن معرفة هذا الضرب من علوم القرآن ومباحثه شرط جوهرى من الشروط التى وصفها العلماء بأنها لازمة لتفسير القرآن الكريم.

وقد يكون من المستغرب أن يوصف القرآن الكريم بأن فيه ألفاظا غريبة، لأنه نزل بأفصح لغة العرب، وعلى أساليبهم فى كلامهم؛ وحتى نقف على حقيقة الغرابة الموصوفة بها تلك الألفاظ، يجمل بنا أن نذكر شيئا وجيزا عن معنى الغرابة، وعلاماتها، والغريب وأقسامه، لِنُنَقِّيَ بعد ذلك ببيان المقصود من «غريب القرآن» وأنه ليس على عمومه كما يفهم بعض الناس، تتشابه غرابته وغرابة الكلمات اللغوية الأخرى.

١ — الغرابة وعلاماتها:

الغرابة: أن تكون الكلمة غير ظاهرة المعنى، ولا مأنوسة الاستعمال. وهى تعتبر تارة بالنظر الى جميع الأعراب الخلص من سكان البوادى؛ وتارة بالنظر الى بعضهم؛ وتارة بالنظر الى غيرهم من المولدين. فإذا وصفوا اللفظ بالغرابة مثلا فى مقام القدح، يراد الاعتبار الأول، وهذه هى الغرابة المخلة

بالفصاحة ، وإذا وصفوا اللفظ بالغرابة فى مقام المدح ، يراد ذلك بالنظر الى المولدين .

أما إذا وصف اللفظ بالغرابة عند بعض الأعراب الخلص ، فلا يلزم به قدح ولا مدح ، كما يشهد بذلك استقراء موارد الاستعمال .

وللغرابة علامتان : الأولى ، الاحتياج فى معرفة معنى الكلمة الى بحث وتفتيش فى مطولات كتب اللغة ، إذ لو كانت الكلمة مأنوسة للفصحاء ، ما اختصت بها كتب اللغة المطولة ، وذلك نحو « تكأكأتم » فى قول عيسى ابن عمر النحوى ـ وقد سقط عن حماره ، فاجتمع عليه الناس ـ : « ما لكم تكأكأتم على تكأكؤكم على ذى جِنة افرنقعوا عنى » . والثانية : الاحتياج الى تخريج الكلمة على وجه بعيد ، نحو « مُسَرَّج » فى قول العجاج .

ومقلة وحاجبا مُزججا وفاحماً ومَرسِناً مُسرّجا

٢ — الغريب وأقسامه :

يقال لكل متباعد ، غريب ، ولكل شىء فيما بين جنسه عديم النظير : غريب ، وعلى هذا قوله عليه السلام : « بدأ الاسلام غريبا ، وسيعود كما بدا » ، وقيل : العلماء غرباء ، لقلتهم بين الجهال » . والغريب : الغامض من الكلام ، ومنه كلمة غريبة ، أى غامضة .

وقد قسم العلماء الغريب الى قسمين : غريب حسن ، وهو ما كان سليما من تنافر الحروف ، وغريب قبيح ، وهو ما كان متنافر الحروف ، وقالوا عن الغريب الحسن : إنه يختلف باختلاف النسب والإضافات ، وعن الغريب القبيح : إن الناس فى استقباحه سواء ، ولا يختلف فيه عربى باد ، ولا قروى متحضر .

إذا علمنا هذا ، أمكن أن نصل بعد ذلك الى تحديد معنى « غريب القرآن » على ضوء هذه المعانى التى ذكرناها عن الغرابة والغريب .

* * *

تضمن القرآن الكريم كلمات كثيرة يطلق عليها اسم « غريب القرآن » ، وهى وإن عدت غريبة ، فليس ذلك بالنظر لاستعمال العرب العرباء لها ، لأن « غريب

القـرآن ، ظاهر المعنى ، مأنوس الاستعمال عندهم ، ولأن ألفاظه هى لـب كلام العرب وزبدته ، وواسطته وكرائمه ، فلا يتصور ـ والحالة هذه ـ أن تكون هذه الـكلمات غريبة عندهم ، وإنما اعتبرت هذه الغرابة بالنظر الى استعمال غير العرب العرباء .

وعلى هذا يكون « غريب القرآن » عبارة عن الـكلمات التى تضمنها القرآن الـكريم ، وخفى معناها ، ولم يؤلف استعمالها عند غير العرب الخلص من المولدين .

نعم قد وجد بين الصحابة أنفسهم ـ على جليل فضلهم ، وعظيم منزلتهم ، وعلى أنهم من العرب العرباء ، أصحاب اللغة الفصحى ، ومن نزل القرآن عليهم وبلغتهم ـ من توقف فى بعض ألفاظ خفى عليه معناها ، ولم يقـل فيها شيئا ؛ فإنه يروى أن شيخ الصحابة أبا بكر الصديق رضى الله عنه ، سئل عن قوله : « وفاكهة وأبّا » فقـال : « أى سماء تظلنى ، وأى أرض تقلنى ، إن أنا قلت فى كتاب الله ما لا أعـلم ! » ، ويروى أن عمر قرأ فى خطبته يوما على المنبر ، قوله تعـالى : « أو يأخذهم على تخوف » ثم سأل الناس عن التخوف ، فقال : « ما تقولون فيها ، والتخوف منها ؟ » فقام شيخ من هذيل ، فقال « هذه لغتنا ، التخوف : التنقص » فقال عمر : « هل تعرف العرب ذلك فى أشعارها ؟ » فقال : « نعم » وأنشد البيت الآتى يستشهد به على ذلك :

تخوف الرحـل منها تامكا قردا كما تخوف عود النبعة السفن (١)

فقال عمر : « عليكم بديوانـكم لا تضلوا » قالوا : « وما ديواننا ؟ » قال : « شعر الجاهلية ، فان فيه تفسير كتابكم ومعانى كلامكم » .

ويكون معنى « أو يأخذهم على تخوف » على هذا : أن يأخـذهم بالهلاك بعد أن يبتليهم بالنقص والبلاء شيئاً فشيئاً ، فى أنفسهم وأموالهم حتى يتملـكهم الخوف ، ويتوقعوا الشر دائماً .

---

(١) تخوف : تنقص ؛ التامك : العظيم السنام . والقرد : الكثير القردان . والسفن : الحديدة التى يبرد بها خشب القوس . يريد أن الرحل تنقص الناقة كما يأكل الحديد خشب القسى

ويروى أيضا أن ترجمان القرآن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما ، قال : «كنت لا أدرى ما فاطر السموات حتى أتانى أعرابيان يختصمان فى بئر ، فقال أحدهما : أنا فطرتها ، يريد أنا ابتدأتها» .

وقد سئل سعيد بن جبير عن قوله تعالى : «وحنانا من لدنّا» فقال : «سألت عنها ابن عباس فلم يجب فيها شيئا» .

وفى اعتقادنا أن هذا لا يرجع إلى غرابة هذه الألفاظ ، وإنما يرجع الى تفاوت الصحابة فيما بينهم فى معرفتهم بالأدب الجاهلى وفهمه ، وإلى ملازمتهم للنبى صلى الله عليه وسلم ، والإقامة بجانبه ، وحضور مجالسه ، ومشاهدة الأسباب التى دعت الى نزول الآيات ، ومعرفة عادات العرب فى أقوالهم وأفعالهم ، وإلى قوة الأذهان ، واختلاف درجة الثقافة ، والاطلاع على أخبار الأوائل والتاريخ القديم . وإن هذا التفاوت لا يضير الصحابة ولا يؤخذ عليهم ؛ لأنه موجود فى كل بيئة ، وكل وسط ، مهما علت منزلته ، أوكانت درجة حضارته ، إذ ليس من المعهود أن يكون جميع أفراد طبقة واحدة فى مستوى واحد من المعرفة والتفكير .

هذا وقد عنى المتقدمون بغريب القرآن عناية فائقة ، ووضعوا فيه أمهات الكتب ، وأفرده منهم بالتصنيف خلائق لا يحصون ، منهم : أبو عبيدة ، والزاهد وابن دريد ، وأبو حيان ، وابن قتيبة ، والراغب الأصفهانى ، قال ابن الصلاح : وحيث رأيت فى كتب التفسير ، قال أهل المعانى فالمراد بهم مصنفو الكتب فى معانى القرآن كالزجاج والفراء والأخفش وابن الانبارى . وقد وردت بعض آثار مرفوعة وموقوفة فى الحث على معرفة «غريب القرآن» ، والتماس معانيه .

وتلك المصنفات التى أشرنا اليها ، على نفاستها ، وجلال قدرها ، لا يزال الباحث فيها يلقى كثيرا من العناء والمشقة فى الوصول إلى بغيته منها ، وذلك لما تشتمل عليه من صعوبة نظام تأليفها ، وطريقة ترتيبها ، وشدة إيجازها أحيانا ، وإسهابها أحيانا أخرى ؛ فعسى أن ينفذ قريبا ما ترامى إلينا من مشروع معجم القرآن الذى يقوم بوضعه ، مجمع فؤاد الأول للغة العربية ، فإننا نعلم أن القائمين على إخراجه نخبة من الجهابذة الأفاضل ، والعلماء النحارير . وفقهم الله ؟

دعائم الاستقرار

فى التشريع القرآنى

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد محمد المدنى

المفتش بالأزهر

بدأت — فى الجزء السادس — شرح الدعامة الأولى من « دعائم الاستقرار فى التشريع القرآنى » ، وهى إقناع المكلفين بحاجتهم إلى التقيد بتشريع معين فى أمر معين ، وأثبتّ بعض المظاهر التى تدل على هذه الدعامة فى الكتاب الكريم ، وكان منها أن الله جل جلاله يقرن الأحكام التى يشرعها غالبا بما يدل على ابتناء تشريعه فيها على مصالح الناس أنفسهم ، وعلى أن أحوالهم تتطلبها ، ولا تستقيم بدونها ، ولهذا كثر تعليل الأحكام ببيان الباعث عليها ، أو المصلحة التى تتضمنها ، أو المضار التى تترتب على إهمالها وعدم الأخذ بها .

ومن أمثلة ذلك — غير ما ذكرناه — قوله جل ثناؤه : « يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه ، قل قتالٌ فيه كبيرٌ ، وصدٌ عن سبيل الله وكفرٌ به والمسجدِ الحرام ؛ وإخراجُ أهله منه أكبرُ عند الله ، والفتنة أكبر من القتل ، ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردُّوكم عن دينكم إن استطاعوا » .

فهذه آية من الآيات التى نزلت فى شأن القتال بين المؤمنين والمشركين ، وقد كان المؤمنون يتحرجون من قتال المشركين فى الأشهر الحرم ؛ ولما حدث ما حدث فى سرية عبد الله بن جحش إلى نخلة ، وقُتل من المشركين من قتل ، وأسر منهم من أسر ، تساءل الناس من مؤمنين ومشركين : أيحل القتال فى الأشهر الحرم ؟ كان المسلمون يتساءلون عن ذلك تحرجا وتأثما من أن يفعلوه ، ويظنون أنهم بذلك يرتكبون وزرا عظيما ، ويخرقون سياجا محترما مقدسا منذ عهد أبيهم

إبراهيم ؛ وكان المشركون يتساءلون عن ذلك تساءل الناقد المعارض الذى يتخذ من أفعال خصمه فرصة للتشنيع عليه والإثارة من حوله ؛ فقد ورد أن قريشا قالوا حين بلغ إليهم أمر السرية وقتلاهم وأسراهم فيها : لقد سفك محمد الدم الحرام ، وأخذ المال ، وأسر الرجال ، واستحل الشهر الحرام ! فنزل قوله تعالى « يسألونك عن الشهر الحرام » الآية ؛ وفيها اعتراف صريح بأن قتالا تدور رحاه فى الشهر الحرام كبير ، وصد عن سبيل الله وكفر به ، وصد عن المسجد الحرام ؛ فأقرت بذلك حرمة الأشهر الحرم ، واعترفت بقداستها ؛ ولكنها بينت بعد ذلك أن إخراج الناس من أوطانهم لمجرد اعتناقهم دين الحق ، هو أكبر عند الله من القتال فى الأشهر الحرم ؛ وفتنةُ الناس عن دينهم هى أكبر إثما من القتل عامة ، لأن القتل إزهاق للنفس ، وتضييع للشخص ، أما الفتنة فهى إبطال للعقيدة التى تفدى بالأرواح ولا تفدى بها الأرواح ؛ كما بينتْ أن هؤلاء المشركين لاهمّ لهم إلا صد الناس عن دين الله ، وزحزحتهم عما اعتنقوه عن عقيدة واطمئنان ، ليردوهم عنه - إن استطاعوا - بكل وسيلة ؛ وإذن فالمؤمنون فى موقف المعتدى عليه ، والمشركون فى موقف المعتدى ، وليس فى شرعة الإنصاف والحزم أن يترك المعتدى يفعل ما يشاء ، بينما يقف المعتدى عليه مكبلا مبهوتا متحرجا من أن يرد الاعتداء عن نفسه .

وانظر — أيها القارىء — إلى ما عنيت به الآية الكريمة من إبراز الأثر المترتب على نجاح المشركين فى فتنتهم إذا نجحوا ، فإنها تقول للمؤمنين : « ومن يرتدد منكم عن دينه فيمتْ وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة ، وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » فتثير بذلك كل ما فى نفوس المؤمنين من اعتزاز بالدين وحرص عليه ومقت للتحول عنه . وأى مؤمن يرضى بأن يرتد عن دينه ، ويموت وهو كافر وتحبط أعماله فى الدنيا والآخرة ، ويكون من أصحاب النار الخالدين فيها ؟ لا شك أن هذه أخطار تهدد المؤمنين فى أعز شىء لديهم ، وأن كل شىء يهون فى سبيل درئها والتوقى منها ، وبذلك تهيأت نفوس القوم لتقبل هذا التشريع ، وسلّت من قلوبهم وساوس التحرج والتأثم التى كانت تستولى عليها .

وجاءت بعد ذلك الآيات الأخرى تقرر المبادىء الصالحة فى هذا الشأن فتقول : « وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل » « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله » « الشهر الحرام بالشهر الحرام ، والحرمات قصاص ، فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم » .

هذا ولو ذهبنا نستقرىء التعليلات التى ذكرها القرآن الكريم للأحكام لطال بنا هذا الاستقراء : ويكفى أن نضم إلى ما ذكرناه من الأمثلة مفصلا ، أمثلة أخرى نكتفى فيها بالإشارة :

فمن ذلك قوله تعالى فى سياق ما أحل وما حرم من الطعام وغيره : « قل لا يستوى الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث » جملة على اختصارها بديعة الفوائد ، نفهم منها أن الله — جلت حكمته — لا يحلل ما يحلل ، ولا يحرم ما يحرم ، لمجرد أن يتعبدنا بذلك ، ولكن لمعان فيما أحل وفيما حرم ، هى طيب الطيب ، وخبث الخبيث ؛ ونفهم منها أن الخبيث خبيث ولو كثر وأغرى وفتن ، وأن الطيب طيب ولو قل وزوحم وصرفت عنه العيون .

وقوله تعالى فى تعليل ما شرعه فى شأن شاهدى الوصية « ذلك أدنى أن يأتوا بالشهادة على وجهها أو يخافوا أن تُرَدّ أيمان بعد أيمانهم » .

وفى تعليل جعل شهادة امرأتين بمثابة شهادة رجل واحد «أنْ تَضِلَّ إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى » .

وفى قصر تولى الكفار بعضهم على بعض ، وعدم إباحته للمؤمنين « إنْ لا تفعلوه تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير » .

وفى توصية المؤمنين برعاية الأدب مع أزواج النبى صلى الله عليه وسلم « ذلك أطهر لقلوبكم وقلوبهن ، وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله » .

وهكذا تحاط الأحكام بجميع مبرراتها ، وتكون لها هذه التعليلات وأمثالها بمثابة « مذكرات إيضاحية » تبين الغرض منها ، والباعث عليها ، والضرر الذى يتوقع إذا لم تشرع .

٭ ٭ ٭

(٤) وفى تاريخ الأطوار التى مرت بها الخمر والميسر حتى انتهى أمرهما الى التحريم ، ما يدل على رعاية هذا المعنى فى التشريع ؛ فالقرآن الكريم لم يحرم الخمر والميسر ابتداء ، ولكن ترك الناس حتى شعروا بآثارهما السيئة فى المجتمع ، وبما لهما من مفاسد ، وما ينجم عنهما من شرور ، وكان من آثار هذا الشعور أنهم سألوا النبى صلى الله عليه وسلم عن حكمهما ، فنزل عليه قوله تعالى « يسألونك عن الخمر والميسر ، قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس ، وإثمهما أكبر من نفعهما » وصف الإثم بأنه كبير ، وعبر عن المنافع بعبارة تشعر بهوانها وقلة جدواها ، ولكنه على كل حال لم يصادم المكلفين بإنكار ما هم متمتعون به على نحو ما ، وكأنه يريد منهم أن يدركوا بأنفسهم أن هذه المنافع لا تذكر بجانب الآثار السيئة والمضار الكبرى ، وترك لهم الفرصة حتى يتبينوا ذلك ويؤمنوا به إيمانا عميقا ، فلما استقر ذلك فى نفوسهم ، وأصبح الجو مهيأ لتشريعه تمام التهيؤ ، حسم الأمر فحرم الخمر والميسر تحريما قاطعا معللا ؛ إذ يقول « إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون . إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ، ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة ، فهل أنتم منتهون» . فقد قصرهما على وصف الرجس بعد أن كان يشير الى ما هو شائع عندهم من منافعهما الضئيلة ، ثم أمر باجتناب ذلك الذى هو رجس من عمل الشيطان بعبارة حاسمة هى قوله « فاجتنبوه » بعد أن كان يشير الى هذا دون نص عليه ، حيث أثبت الإثم الكبير والمنافع الضئيلة مما يحكم العقل معه بالحرمة ؛ وكما مهد للحكم بوصف المحكوم عليه بأنه « رجس » و « من عمل الشيطان » أتبعه ببيانين : أحدهما إجمالى يبين الغرض من التشريع وهو قوله : « لعلكم تفلحون » أى إنما شرعنا لكم اجتناب ذلك رجاء أن تفلحوا ، والفلاح لفظ واسع المدلول لا يدع شيئا من أسباب السعادة والطمأنينة والرضا والعافية إلا شمله ؛ والآخر تفصيلى يوضح به كون هذه الأشياء « من عمل الشيطان » مبرزاً آثارها السيئة فى المجتمع بأسلوب قوى مؤثر ، وذلك قوله تعالى : « إنما يريد الشيطان » إلى آخر الآية ، حيث ذكر العداوة والبغضاء وهما جماع أسباب القلق والاضطراب والشقاء وألوان البلاء ، وذكر الصد عن ذكر الله وعن الصلاة فمس بذلك عاطفة الإيمان فى المؤمنين وأثار اشمئزازها ، ثم خاطبهم بهذه

الجملة الاستفهامية الرائعة فى معناها التى من شأنها أن تلتَى للمقتنعين : « فهل أنتم منتهون ؟ » .

نعم إن سائر الأحكام والقوانين التى أتى بها القرآن الكريم لم تتطور كلها على هذا النحو الذى تطور إليه الأمر فى الخمر والميسر ، ولم تأخذ كلها فى الاحتياط والتدرج هذه الخطوات الوئيدة ؛ ولكن ينبغى أن يعلم أن الأمر فى كل حالة كان مبنياً على تقدير ظروف المجتمع ، ومدى استعداده ، ومقدار تأثره ؛ وربما اتخذت فى بعض النواحى وسائل أخرى للإقناع غير تركهم وما يبعثه التدرج فى نفوسهم من الاقتناع الشخصى كما رأيناه فى المظاهر الأخرى التى بينا بها قيام التشريع القرآنى على هذه الدعامة .

وهكذا يتبين أن الدعامة الأولى من الدعامات التى يقوم عليها التقنين والتشريع ، ويستحق من أجلها البقاء والاحترام ، قد برزت فى التشريع القرآنى بروزاً واضحا ، حيث لم يأت حكم من أحكامه إلا والأمر يتطلبه ، والإحساس العام للمكلفين يترقبه ، وهو مقتنع به بفطرته ، أو بعد البيان من العليم الحكيم .

ولم يبق فى هذا المقال مجال لبيان الدعامة الثانية ، وهى اقتناع المكلفين بشرعية السلطة التى عنها تصدر التشريعات ، فلنتربص بها العدد القادم إن شاء الله .

الرأى السديد

أشار حكيم على حكيم برأى ، فقال : لقد قلت بما يقول به الناصح الشفيق الذى يخلط حلو كلامه بمره ، وسهله بوعره ، ويحرك الإشفاق منه ما هو ساكن من غيره ؛ وقد وعيتُ النصح وقبلتُه ، إذ كان مصدره من عند من لا يشك فى مودته ، وصفاء غيبه ، ونصح حبه ، وما زلت بحمد الله الى الخير طريقا واضحا ، ومنارا بينا .

قال العتبى : قيل لرجل من عبس : ما أكثر صوابكم ! قال : نحن ألف رجل وفينا حازم واحد ، فنحن نشاوره فكأنا ألف حازم .

الاسلام فى نظر المحايدين

لحضرة الأستاذ الدكتور محمد غلاب
المدرس بكلية أصول الدين

تصدّى كثير من الباحثين الأوروبيين للإسلام بالبسط والشرح والتحليل والتوجيه والاستنباط ، ولكن عددا غير يسير من أولئك الباحثين قد أذعنوا لعاطفة التعصب ، فاقتادتهم أهواء التحيز إلى طرق ملتوية مليئة بالأشواك ، يزيد بُعدُها عن العدالة والنزاهة بقدر ما يمعن أولئك العلماء فى الخضوع لغاياتهم الخاصة ومنافعهم الفردية .

ولقد أضلت المطامع الحائلة هذا النفر من المثقفين فجعلوا يتحاملون على الاسلام دون ذنب اقترفه أو جناية جناها ، وأخذوا يتصيدون للكيد له والحط من شأنه توافه الأمور التى قد تبدو على ظواهرها للوهلة الأولى أنها هنات ، ولكن التعمق فى جميع مناحيها لا يلبث أن يمحو من النفوس ذلك الوهم السطحى السريع .

وأكثر من ذلك أن أولئك القوم ينقمون أحيانا على هذا الدين ما يثبت العقل السليم والمنطق القويم والمقياس الاجتماعى الصحيح أنه مبعث الانسانية ومصدر سعادتها ، أو أنه هو المنقذ الوحيد لها من وهدتها .

ولا جرم أن هذه الشرذمة من الباحثين قد طبعت فى هذا العصر بطابع الاستهانة والإهمال من جميع الذين يحترمون حكم العقل ويوقنون بأن النزاهة هى أولى بالإجلال وأدنى إلى الخلود .

وهناك فريق آخر من العلماء قد عرضوا للإسلام تُحدق بهم النزاهة ، ويحف بهم نبل القصد ، ويحدوهم الأمل فى الوصول إلى كشف بعض الحقائق المجهولة لدى بيئاتهم ؛ ولكنهم انزلقوا الى حضيض الهفوات ، وهووا

فى سحيق الكبوات رغم نقاء نياتهم ، وسمو غاياتهم . وسر ذلك الإخفاق إما أن يكون هو الجهل بروح اللغة العربية والقصور عن إدراك مراميها ، وإما الاعتماد على مصادر زائفة مليئة بالأباطيل والأضاليل .

وأيا ما كان ، فان هذا الباحث الذى سنبدأ اليوم هنا ببسط آرائه عن الإسلام ، ونناقشها على ضوء المنطق حينا ، ونتحاكم وإياه فيها إلى التاريخ حينا آخر ، والذى يدعى « دينى سورا » Denis Saurat الأستاذ فى جامعة لندن ، هو عالم من أفراد الفريق الأخير الذى ثبت لدينا حسن نيته بهيئة قاطعة ، بعد أن درسنا منتجاته ، وتعقبنا آراءه وأفكاره ، فألفينا أنه ينظر إلى الاسلام بنفس العين التى ينظر بها إلى المسيحية والاسرائيلية ، وأنه يستعمل فى حديثه عن القرآن نفس العبارات وعين الصيغ التى يتحدث بها عن الإنجيل والتوراة .

وقصارى القول فى هذا الشأن أنه إذا حاد عن محجة الصواب فيما يتعلق بالدين الحنيف ، فان ذلك يكون من جانبه خطأ لاخبثا ، وجهلا لا شرا .

والآن اليك كيف ينظر الى الإسلام فى كتابه « تاريخ الأديان » Historie de celigions الذى نشر فى سنة ١٩٣٣ ، ولكن قبل أن نعرض لبسط آراء هذا العالم ينبغى أن نقرر بديا أنه يجب على كل باحث قبل أن يخوض فى شرح مذهب من المذاهب أو فى تحليل آراء عالم من العلماء ، أن يتبين قبل كل شىء المبادىء التى يؤسس عليها ذلك العالم دعائم مذهبه ليسير فى توجيهاته وأحكامه على ضوء المعرفة الصحيحة لما هو بصدده من آراء وافكار .

ونحن إذا سايرنا هذا الناموس العلمى ـ ولا بد لنا من مسايرته ـ فإنه يتحتم علينا أن نسجل هنا أن هذا الباحث يصدر فى آرائه عن مبدأين أساسيين : أولهما أن تاريخ الأديان هو تاريخ لنمو تينك الرغبتين البشريتين المتأصلتين فى نفوس أفراد الجنس جميعه ، وهما الحاجة إلى وجود إله ، والحاجة الى الحياة بعد الموت الدنيوى ؛ وثانى هذين المبدأين : هو أننا الآن فى عصر علمى لا يستطيع الناس فيه أن يقبلوا من لدن الإله إلا ما تُقدم اليهم التجربة والملاحظة الأدلة على صحته .

ونحن إذا قبلنا المبدأ الأول على أنه لازم ركزته الحكمة الإلهية فى النفوس البشرية لتُعدها للتأليه إعدادا فطريا كى يفوق فى متانته جميع الإعدادات الاجتماعية ، لأن العارض لا يرقى فى الكمال إلى درجة المتأصل ، فان الذى لا ريب فيه هو أننا لا نستطيع قبول المبدأ الثانى الذى صدر عنه هذا الباحث فى تفكيره ، لأنه ، فيما نرى ، خاطىء من أساسه ، إذ أنه يرمى الى هدف خطر ، وهو إحلال ما يدعوه بالعقل العلمى التجريبى محل العقل الانسانى فى ذاته ، أو العقل من حيث هو . ولا ريب أن هذا الرأى ـ فضلا عن أنه فج سطحى ـ هو إقرار لطغيان العلم التجريبى على كل ما عداه من جوانب الحياة الفكرية والروحية ، وفى هذا من الخطأ مالا يخفى على ذى لب حصيف ، إذ كيف يجحد من لديه مُسكة من العقل ذلك الدور الهائل الذى قام به الفكر البشرى الذاتى أثناء هذه الآلاف من السنين التى انسلخت من عمر الزمن قبل أن يرى العلم التجريبى نور الوجود .

أما الرأى المعتدل فى هذا الشأن ، فهو أنه إذا كان العلم التجريبى قد استولى على بعض جوانب العقل الانسانى ، فإن الذى لا مشاحة فيه بحال هو أنه لم يستوعب كل جوانبه ، فضلا عن أنه يمحو كيانه الذاتى الأول ويستبدله بكيان جديد يدعى بالعقل العلمى الذى لا يتلقى شيئا آتيا عن أى طريق آخر غير طريق الملاحظة والتجربة . وإنما الحق فى هذه النظرية هو أن الجانب العلمى من جوانب العقل البشرى الذاتى هو ملكة تنشأ فيه وتنمو كغيرها من الملكات ، لأنه كما أن الوجود المطلق أعظم كثيرا من الوجود المحدود الذى يدركه العلم التجريبى ، كذلك العقل المطلق من الملكة الخاصة بإدراك نتائج الملاحظة والتجربة .

ومهما يكن من شىء فان الذى يبدو لنا جليا من روح هذا الباحث ، أنه واقعى النزعة ، تجريبى التفكير ؛ وتلك وجهة نظر تختلف فى أسسها ومراميها مع مبادىء جميع الديانات التى تقرر أن الإله لا يناله الحس بحال من الأحوال ، وأنه مع ذلك أثبت الموجودات . وهذا يكفى لأن نعتبره عالما أجنبيا محايدا لا يروقه من الأديان إلا ما تشتمل عليه من مبادىء خلقية نافعة ، أو قواعد اجتماعية مفيدة للانسانية . وإذ كان الاسلام أكثر اشتمالا على هذه المبادىء القوية ، وتلك الأسس المتينة ،

فقد كان من الطبيعى أن يظفر لدى هذا النوع من العلماء بأعلى الدرجات ، إلا فى حالة الخطأ التى تحيد بهم عن الصراط المستقيم .

ومن آيات رجحان كفة الاسلام فى نظر أولئك العلماء المحايدين الذين لا يلتفتون إلا إلى الجوانب الخلقية والعمرانية من الدين ، أن هذا الباحث يبدأ حديثه عن الاسلام بقوله : « إن محمدا يكاد يكون هو الوحيد الذى نعرفه عن طريق التاريخ من بين عظماء مؤسسى الأديان ، إذ أن الخرافات لم تستطع أن تخفيه . . . وإن دين مواطنيه إبان ظهوره كان قد هوى إلى أدنى الدركات ، أو قُل إنه كان لميما من بقايا عقائد بدائية قد تفككت عند ما ارتقت الحياة الاجتماعية فى الأمم التى كانت تدين بها ولم يبق فيها راكد سوى الدين . ولا غرو فقد كان العرب يعبدون الجن والأرواح التى تقطن الأحجار إلى جانب عدد من آلهة القبائل المختلفة . ولقد محا الاسلام هذا كله ولم يبق منه سوى الحجر الأسود ، فقد ظل فى موطن القداسة الجوهرية ، إذ وضعه محمد تحت حماية الخليل إبراهيم . ومن الممكن أن تكون هذه سياسة قصد بها التوفيق ، كما يمكن أن يكون ذلك ناشئا من احترام شخصى » .

ونحن نرى أن هذا الباحث قد بدأ حديثه فى اعتدال واستقامة حينما كان الطريق أمامه واضحا معبدا ، ولكنه عندما وصل الى الحجر الأسود كان الأفق قد تلبد بقاتم السحب ، فساد الظلام ، وسرعان ما ضل صاحبنا الطريق فلم يستطع السير الى الأمام ، ولا الرجوع الى الخلف ، فوقف حائر اللب ، خائر القوى يقدم رجلا ويؤخر أخرى ، ويسلم نفسه للفروض والأوهام ، ويرسل قلمه باحثا عن الممكن تارة ، وعن المحتمل تارة أخرى ، ولكن عذره فى ذلك واضح ، وهو أن الحجر الأسود كاد - فى كثير من المواقف - يكون سببا فى تبلبل عقول بعض المسلمين ، وتزلزل عقائدهم لولا أن فوضوا الأمر فى شأنه الى فاطر السموات والأرض ، معلنين أنه حجر لا ينفع ولا يضر ، وأنه من السمعيات التى وجب علينا تنفيذها ، وعزبت عن عقولنا حكمتها . ولا شك أن فى هذا عذرا لأجنبى كباحثنا . وللحديث بقية .

ثورة فى المنطق

لحضرة الأستاذ الدكتور أحمد فؤاد الأهوانى
المدرس بجامعة فؤاد الأول

مضى على كشف المنطق أكثر من عشرين قرنا من الزمان ، إذ ينسب الى أرسطو ، ولهذا سمى بالمعلم الأول . قال ابن قيم الجوزية فى كتابه « إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان » يطعن على أرسطو ما يأتى : « ويسمونه المعلم الأول ، لأنه أول من وضع لهم التعاليم المنطقية ، كما أن الخليل بن أحمد أول من وضع عروض الشعر . وزعم أرسطو وأتباعه أن المنطق ميزان المعانى ، كما أن العروض ميزان الشعر . وقد بيّن نُظار الإسلام فساد هذا الميزان وعوجه ، وتعويجه للعقول ، وتخبيطه للأذهان ، وصنفوا فى رده وتهافته كثيراً . . . »

غير أن منطق أرسطو ظل راسخا كالطود لم تزعزع قوائمه هجمات رجال الدين فى العصر الوسيط ، إسلاميين كانوا أم مسيحيين . وعلى العكس من ذلك تناول الشراح كتبه بالترتيب والتبويب والتهذيب حتى أصبح أشد رسوخا وأقوى دعامة .

والفضل الأول للرواقيين ، إذ جعلوا المنطق آلة لا تفهم الفلسفة بغيرها . ومن تشبيهاتهم المأثورة : إن الفلسفة كالبستان ، المنطق سوره ، والطبيعة شجره ، والأخلاق ثمره .

وأغلب فلاسفة المسلمين يجعلون المنطق آلة العلوم ، ولا يعدونه جزءاً منها . وفى ذلك يقول الشيخ الرئيس ابن سينا فى أرجوزته المنطقية :

ما لم يؤيد بحصول آله واقية الفكر من الضلاله
وهذه الآلة علم المنطق منه الى جل العلوم نرتقى

وظل العرب أمناء على هذا الاتجاه حتى العصور المتأخرة . وتعريف صاحب الشمسية مشهور ، لا يزال طلبة الأزهر يتداولونه حتى اليوم ، وهو : « المنطق آلة قانونية تعصم مراعاتُها الذهنَ من الزلل » .

غير أن فلاسفة العصر الوسيط نحوا بالمنطق نحـواً صورياً شكلياً ، فأصبح لفظيا بحتا ، وصار جدبا لا يفيد نتائج جـديدة ، ولا يزيد فى ثروة الفـكر ، ولا يقترب من الواقع .

* * *

وأول ثورة عنيفة ضربت منطق أرسطو فى الصميم ، هى تلك التى حمل لواءها ديكارت وبيكون فى القرن السابع عشر . أما ديكارت فهو صاحب المنطق الرياضى الذى استبدل به منطق القياس الجاف الجـــدب . وأما بيكون فهو صاحب « الأورجانون الجـديد Novum Organum » الذى يعـارض فيه أورجانون أرسطو ، أى الآلة ، فـوضع أساس المنهج التجريبى الذى يعـد أساس كشف العلوم الحديثة .

ولـكن ديكارت وبيكون لم يتخلصا تخلصاً تاماً من سلطان أرسطو . فظهرت فى القرن الماضى مباحث ستيوارت مل ، ولاشلييه ، ورابييه ، وهوسرل ، وشللر وغيرهم ، واتجهوا بالمنطق وجهات جديدة مختلفة فيما بينها . ولـكنهم جميعا ظلوا عبيداً لخطأ جوهرى وقع فيه أرسطو وتبعه سائر الفلاسفة .

ذلك هو التوحيد بين الفـكر واللغة .

فالمنطق من النطق . وهم يعرفون الإنسان بأنه حيوان ناطق ، ويقصدون بذلك أنه مفكر . قال صاحب البصائر النصيرية : « إن فـكر الانسان فى ترتيب المعـانى قلما ينفك عن تخيل ألفاظها معها ، حتى كأن الانسان يناجى نفسه بألفاظ متخيلة إذا أخذ فى التروى والتفـكر » .

ولا ننـكر مع القدماء أن اللغة ضرورية ، وأننا نستعين بها فى تفكيرنا كما هو الواقع فى الغالب . ولـكن اللغة تقـوم على الألفاظ ، والألفاظ « رمـوز » واصطلاحات نكسو بها المعانى لتتعلق بها . ولذلك نبه أرسـطو الى أن البحث فى الألفاظ لا يهم المشتغل بالمنطق إلا عرضاً ، وأن ما يهمنا هو اختيار الألفاظ المحدودة المعانى حتى لا يقع المفـكر فى اللبس والغموض .

غير أن لغة الـكلام التى نتداولها فيها كثير من العيوب . فهى لا تفى بالأغراض الدقيقة التى نحتاج اليها فى التعبير العلمى الحـديث . وإن كنتَ فى ريب من ذلك

فانظر إلى لغة الرياضيين فى الحساب والجبر والرسوم البيانية ، تجد أن التعبيرات الرياضية أدق وأوفى . فإن قلت ولكن اللغة غنية بالألفاظ والاصطلاحات ، قلنا : إن فائدتها لا تنكر فى الأدب والبلاغة ، ولكن جدواها فى العلم قليلة .

والأصل فى اللغة أنها وسيلة التفاهم بين الناس فى صلاتهم اليومية ، ولم يكن القصد منها التعبير عن العلوم .

وقد فطن أرسطو الى بُعد اللغة عن الصياغة المنطقية الدقيقة ، فأراد أن يردها الى أشكال مضبوطة ، فصاغ القضية التى تتركب من موضوع ومحمول ورابطة ، وضرب لذلك المثل المشهور « سقراط مائت »

Socrate est mortel

سقراط : هو الموضوع ، ومائت : هو المحمول . أو الصفة التى نصف بها سقراط ، والرابطة يصرح بها فى اللغات الأجنبية ، ونعنى بها فعل الكينونة ، ولكنها تطوى أو تضمر فى اللغة العربية ، لأن طبيعة اللسان العربى كذلك . وقد يصرح بها المناطقة نقلا عن اليونانية بقولهم « سقراط هو مائت » .

ويسمى شكل هذه القضية « المنيرة » Apophantique من اللفظة اليونانية فانس أى النور . والمقصود أن الصفة التى نحملها على الموضوع ، توضحه وتلقى عليه الضوء ؛ لأننا إذا قلنا : سقراط ، وسكتنا ، لم نفهم شيئًا .

ولكن القضية المنيرة ليست هى الشكل الوحيد الذى نعبر به عن أفكارنا ، بحيث يدخل الموضوع فى المحمول دخولا تاماً ؛ فهناك قضايا لا يتداخل حدّاها بل يضاف أحدهما إلى الآخر . وفى اللغة العادية أمثلة كثيرة لذلك ؛ تقول : القاهرة أكبر من الأسكندرية ، ويقع السودان جنوب مصر ، ومحمد أذكى من على . . . إلى غير دلك .

ومن هنا ظهرت الحاجة إلى وضع « جبر » خاص بالمنطق هو الذى يسمى بالمنطق الرمزى أو الجبرى أو العلمى .

Logique symbolique, ou logistique.

ولهذا النوع من المنطق ، الذى يعد ثورة عنيفة فى منطق أرسطو ، تاريخ

طويل يرجع إلى العصر الوسيط ، ولم يبرز إلا على يد ليبنتز فى أوائل القرن الثامن عشر ، الذى أراد أن يكشف أشكالا عامة تتلاءم مع جميع مناهج التفكير . غير أن ظهور المنطق الرمزى بحيث يحتل مكان المنطق القديم لم يتم إلا فى العصر الحاضر ، ويرجع الفضل فى ذلك إلى عدد كبير من العلماء ، منهم فيلسوف رياضى لا يزال على قيد الحياة هو برتراند رسل ، وهو يبلغ الثمانين من العمر فى الوقت الحالى ، إذ هيأت شخصيته البارزة جمهوراً يستمع إليه ، ويأخذ بآرائه ، ويستعمل الأسلوب الجديد العلمى فى المنطق . ومما ساعد على ذلك أن الاتجاه الحديث فى العلوم اتجاه رياضى ، فلا غرو أن يصبح المنطق الحديث رياضيا . ويشتغل اليوم بهذا المنطق كثير من العلماء المختصين فى الرياضة والطبيعة ، وظل الفلاسفة بعيدين عن هذه الحركة الجديدة .

ولم يكن العرب فى العصر الوسيط بعيدين عن هـذا الاتجاه ، فقد أحس مناطقتهم بضرورة رد المنطق إلى الرموز الجبرية ، ولهذا تجد فى كتب أئمتهم شيئا من ذلك ، إذ يقولون : كل ا ب ، وكل ب ح ، إذن كل ا ح . كأنهم استبدلوا الرموز الجبرية بالألفاظ اللغوية ، ولكن شكل القضية ظل مثيرا (أبوفانتيك) من جهة ، كما أن المنطق الرمزى الحديث ينظر إلى الموضوع نظرة تخالف النظرة التى جرى عليها العرف من قديم ، مما نحدثك عنه بعد قليل .

ولو استمرت نهضة الحضارة الإسلامية ، ولم تعمل عوامل التوقف والتأخر عملها ، لكان خليقا أن يصل فلاسفة العرب إلى ما وصل إليه علماء أوربا اليوم فى المنطق الحديث .

* * *

ولقد أصبح المنطق الرياضى فى أيدى العلماء أداة دقيقة ثمينة يعز استبدال غيرها بها . وفطن الفلاسفة كذلك إلى أهمية المنطق الرمزى ، ولكنهم أحلوه فى المرتبة الثانية ، وعدوه فرعاً لا غنى عنه من المنطق العام . أما منطق أرسطو الذى درجنا على درسه واستخدامه فهو ذو فائدة عملية فى الحياة اليومية ، وهو إلى جانب ذلك رياضة عقلية . أما المنطق الرمزى فإنه يوضح الفكر الغامض حين

يلغى التعبيرات الملتبسة ، ويبعد عن الذهن آثار الغموض ، وهو أكثر ضرراً من الخطأ . وهو إلى جانب ذلك لا يوقع المـــرء فى مزالق الأخطاء الناشئة عن الهـوى والعواطف ، والألفاظ الرنانة الخلابة التى تعـبر عن المثل العليا فى المجتمعات الإنسانية .

أى أن المنطق الرمزى هـو الذى يرد العقل حقاً إلى الصـواب ، أو كما قال القدماء : إنه هو الذى يعصم الذهن من الزلل .

* * *

ولقـد سمى المنطق الرمزى كذلك ، لأنه ضرب صفحاً عن الألفاظ الجـارية فى اللغة . ويقـول الأستاذ موريس Mouris وهو من أئمة هـذا الفن فى كتابه « مدخـل إلى المنطق » : إن استعمال الرموز بدلا من الألفاظ المألوفة يرجع إلى الحاجة العملية أكثر مما يرجع إلى ضرورة منطقية . ذلك أن جميع القضايا يمـكن التعبير عنها فى أثواب من اللغة . غير أننا لا نستطيع أن نتقدم تقدما كافيا بالمعرفة الرياضية والمنطقية بدون الاستعانة بالرموز المناسبة ، مثلنا فى ذلك مثل صاحب التجارة الحديثة الذى لا يستغنى فى تجارته عن استعمال « الشيكات » بدلا من العملة ، أو مثل من يبنى الدور الحديثة ويستعين بآلات خاصة . فالتفكير الرمزى ضرورى إذا اتسع نطاق التفكير ، كما نحتاج إلى أدوات خاصة فى التجارة الواسعة .

فإذا أردنا أن نصيد مقداراً كبيراً من السمك ، فعلينا أن نستعمل شباكا من نوع خاص . أما معارضة المنطق الرمزى فإنها تشبه المعارضة التى ظهرت عند استعمال الآلات البخارية ، تنشأ من الميل إلى المحافظة والبعد عن التغيير .

* * *

والمنطق الرياضى ينظر فى الألفاظ ، ثم فى العلاقة بين رمز وآخـر ، ثم فى العلاقة بين هذه المجموعات . ولذلك يسمى المنطق الحديث منطق العلاقات .

والألفاظ ، أو الرموز التى نريد أن نضعها ، هى بطاقات نضعها على الأشياء الخارجية ، تدل عليها دلالة ذهنية ؛ مثل الباب ، والشباك ، والماء ، والشمس ، وهـذا البيت . . . الخ . فنحن نشاهد فى الواقع أشياء محـوسة لها طول وعرض

وعمق ، وتتصف بلون ، ولها شكل . وهذه الأشياء تتغير ، ويتصل بعضها ببعضها الآخر ، أو بينها علاقات يضاف أحدها إلى صاحبه . تقول : الباب أمام الشباك والشمس فوقنا فى السماء وهكذا . . . كل شىء من هذه الأشياء كلٌ لا يتجزأ ، له شخصية مستقلة .

وكان المنطق القديم ينظر إلى الأشخاص أو الأفراد ، ثم يجمعها فى النوع ، ويرفع الجنس فوق النوع . النوع « إنسان » يشمل سقراط وزيد وعمرو ... وهكذا ، ثم تقول بعد ذلك : سقراط إنسان ، ثم تقول : الإنسان حيوان ، باعتبار أن الجنس حيوان يشمل أنواعاً منها الانسان والطيور والزواحف ، إلى آخر أنواع الحيوان .

هذه النظرة غير دقيقة وغير صحيحة ، لأن الإنسان ليس مجموع سقراط وزيد وفلان وفلان ؛ إذ الواقع أن « إنسان » لا يتركب من زيد وعمرو، وليس هذا الشخص وذاك وذاك أجزاء من النوع .

إذا كان الأمر كذلك فماذا نضع بدلا من النوع والجنس ؟

يقول المنطق الرياضى : نضع المجموعة Ensemble ؛ وهى تدل على الأفراد بضروب ثلاثة من الدلالات .

الدلالة الأولى بالتعيين par désignation ، مثال ذلك : إذا دخلت مكتبة وطلبت من البائع « هذا الكتاب » أو « هذه الكتب الثلاثة » أو « هذه المجموعة من الكتب »

الدلالة الثانية بالعدد par enumération ، مثال ذلك : الجراح حين يجرى عملية جراحية يعد المشارط والأسلحة ، ويضع بها بيانا حتى لا ينسى منها سلاحا فى بطن الجريح .

الدلالة الثالثة بالإضافة أو العلاقة par relation . مثال ذلك : الدائرة هى مجموع النقط المتساوية الأبعاد من المركز .

هذه المجموعات تختلف عن « النوع » فى المنطق القديم . وما يهمنا منها هو الدلالة الأخيرة أى المجموعة التى تضم الأفراد لما بينهما من علاقات . كان المنطق

القديم يقول : إن النوع إنسان له صفات يملكها ، وهى تعرف عندهم بالمفهوم ، ويشمل أفراد بنى الانسان ، ويصدق عليهم ويسمى الماصدق . وأن النوع يحتوى على جميع الصفات أى المفهوم ، ويدخل تحته جميع الماصدق أى الأفراد . غير أن المفهوم بالمعنى القديم لا يصبح له مكان إلى جانب المجموعات والعلاقات فى المنطق الرمزى الحديث . وفى ذلك يقول وليم جيمس العالم النفسانى « الكلب كلفظ لا يعض » .

والمنطق الرياضى يضع بدلا من الألفاظ رموزاً . فإن قلت : ولكن الألفاظ رموز ، قلنا : إن الاصطلاح الرياضى أدق وأحكم . وأول مظهر لهذه الدقة أن الرموز منها ثابتة Constant ، ومنها متغيرة Variable ؛ ولا يقال عن الألفاظ إنها ثابتة أو متغيرة .

والرموز الثابتة والمتغيرة مستمدة من الرياضة . مثال ذلك : العدد « ١ » ثابت ، إذ له معنى لا يتغير مع الاستعمال فى العمليات الحسابية . أما الرموز س ، ص ، وما إلى ذلك فهى متغيرة لأنها لا تحمل معنى مستقلا بذاتها . فلو قلنا : هل الواحد عدد صحيح ؟ كان الجواب بالنفى أو الإثبات ، ولكنه على أى حال جواب يدل على معنى سواء أكان صادقاً أم كاذباً . أما إن قلنا : هل س عدد صحيح ؟ فلن يكون للجواب معنى مفهوم . الخلاصة أن « س » عدد متغير لا يمكن أن يكون له معنى حتى نحدده .

ونعود بعد ذلك إلى الألفاظ واللغة التى درجنا على استعمالها .

الواقع أن دراسة تطور الانسان من الطفولة إلى الشباب تبين لنا أن المنطق أسبق من التفكير ؛ لأن الطفل يتعلم لفظ الكلمات قبل أن يتعلم الحكم على مدلولاتها . وكثيرا ما يحفظ الشباب ألفاظاً لا يعرفون مغزاها . على أن وصول الذهن إلى مدلولات الألفاظ لا يتم إلا بإضافة الأشياء إلى غيرها وتحديد ما بينها من علاقات . وقد تكلم قدماء المناطقة فى الدلالات فقالوا : إنها على ثلاثة أنواع : دلالة المطابقة والتضمن والالتزام ، وذلك بالنظر إلى الشىء الذى يدل عليه اللفظ . ولكن المنطق الحديث ينظر إلى دلالة الألفاظ على المعنى من جهات ثلاث : (١) الشىء أو الموضوع . (٢) ما يشير اليه الشىء أو ما يوصف به .

(٣) الشخص الذى يشعر بهذا الشىء ويدركه . وهناك علاقة وثيقة بين هذه الجهات الثلاث . مثال ذلك « الورد أحمر » يفهم منها العالم معنى ، والشاعر معنى ثانيا ، والرسام معنى ثالثا . ولا نقصد من هذا أن نخلط بين النسبية والذاتية ، فهذه المعانى المختلفة نشأت من النسبة بين المدرك لها وبين لون الورد .

مهما يكن من شىء فإن اتجاه المنطق الحديث هو أن يجعل التعبير موضوعيا ، وبذلك يدنو من العلم الصحيح . نحن نقول « الذهب أصفر » ونعد هذه القضية صحيحة ذات دلالة تامة ، وأنها قضية صادقة لأنها تنطبق على الواقع . ومع ذلك تعال نمتحن هذه القضية البسيطة فى ظاهرها ، وسوف نجد أن الذهب ولونه الأصفر جزءان من العالم الزاخر بالأشياء والصفات ، وهو عالم شديد التعقيد ، وليس لنا أن نحكم بصدق هذه القضية أو كذبها إلا إذا نظرنا فى جملة الظروف المحيطة بها . فالذهب أصفر فى ضوء خاص ، فإذا تغير الضوء تغير اللون .

وأظن أنه أصبح من الواضح أن أصحاب المنطق الرياضى على صواب فى نظرهم إلى الحدود ، واعتبار أن بعضها ثابت وبعضها متغير . فقد رأينا أن « أصفر » ليس حداً ثابتاً بل متغيراً ، وذلك حسب الظروف المحيطة به .

ليس غرضنا أن نكتب بالتفصيل فى هذا المنطق الحديث ، فقد ألفت فيه المطولات والمتون ، وإنما ضربنا المثل بشىء مما يقال فى باب الألفاظ ومدلولاتها واستبدال الرموز بها .

وجملة القول : إن المنطق الرمزى أصبح أداة علماء الرياضة والطبيعة ، ولا يزال المنطق الارسططاليسى أداة اللغة المستعملة بين الناس فى معاملاتهم ؟

من الحماسة

قال شاعر عربى :

أبت لى شيمتى وأبى تلادى ... وأخذى الحمد بالثمن الربيح
وإقدامى على المكروه نفسى ... وضربى هامة البطل المشيح
وقولى كلما جشأت وجاشت ... مكانك تحمدى أو تستريحى

فلسفة القرآن
والحيـاة الآخرة

لفضيـلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد يوسف الشيخ
المدرس بكليـة أصول الدين

أنكرنا فى مقالنا السابق على الأستاذ العقاد فى مقاله الحياة الأخرى من كتابه « الفلسفة القرآنيـة » أمرين : أولهما أن النعيم والعذاب فى الحياة الثانية روحى فحسب ، وأبنّا أن النعيم والعذاب فى الآخرة ينتظم أنواعا مختلفة من اللذائذ والآلام ، ما هو مادى منها كالطعام والشراب والإحراق ، وما هو روحى لا صلة له بالجسم والجسمانيات ؛ وهذا أبعد الأمرين فى باب النعيم والعذاب ، وليس الأمر قاصرا على هـذا الأخير كما جزم الأستاذ العقاد

وفى هذا المقال نناقش الشواهـد التى ساقها تأييدا لما جزم به :

قال الأستاذ أولا : « فالإمام فخرالدين الرازى مثلا يقول فى تفسير الاتكاء على السرر الموضونة : معناه أن كل أحد يقابل كل أحد فى زمان واحد ، ولا يفهم هـذا إلا فيما لا يكون فيه اختلاف جهات ، وعلى هذا فيكون معنى الكلام أنهم أرواح ليس لهم أدبار وظهور ، فيكون المراد من السابقين هم الذين أجسامهم أرواح نورانية ، جميع جهاتهم وجه كالنور الذى يقابل كل شىء »

وأقول : هذا أحد رأيين ذكرهما الإمام الرازى فى تفسير التقابل ، قال الإمام فى تفسير قوله تعالى « على سرر موضونة متكئين عليها متقابلين » : إن التقابل هنا فيه وجهان : الأول أن المتكئين على السرر لا يتدابرون بل كل منهم يستقبل الآخر فى وقت واحد لا استدبار بينهم أصلا . والثانى أنهم متساوون فى المكانة والرتبة لا يرى أحدهم أنه دون الآخر ، فالتقابل فى الوجه الأول خلاف التدابر ، وفى الوجه

الثانى عدم التفاوت فى المكانة والتقدير . وبعد ذلك رجح الإمام من الرأيين ثانيهما .
فإن الأول يقتضى أن أولئك المتقابلين أرواح نورانية لا ظهور لهم ولا أدبار بل جميع جهاتهم وجه واحد كالنور لا ظهر له ولا دبر ، يستقبل كل شىء ولا يستدبره ، حتى يمكن أن يتقابل الجميع فى وقت واحد . هذا التصوير كما ترى لا يناسب المكانية التى قررها الله تعالى لهم فى الاتكاء على السرر ، بل الذى ينسجم معها ولا ينافرها إنما هو الوجه الآخر ، فلهذا كان أقرب الوجهين .

نرى فى هذا النقل وجهين ذكرهما الإمام فى تفسير التقابل ، اقتصر الأستاذ العقاد على أحدهما وتناسى الآخر ، وقد كان هو الراجح المختار عند الإمام الرازى ؛ وقد استند فى ترجيحه إلى ما يشهد شهادة سافرة بأن من النعيم الأخروى ما هو مادى ، فان الاتكاء على السرر الموضونة حقيقة كما يشهد بأنه لا يمكن أن يكون لجسوم نورانية روحية حتى ليستحيل الوجه الأول من التقابل ويتعين الثانى منه ، يشهد أيضا بأن من النعيم الأخروى ما هو مادى وهو ظاهر ، فإن الاتكاء على السرر الموضونة لون من ألوان النعيم ، وقد سيق فى الآية الكريمة بيانا لما أعده الله تعالى للسابقين من نعيم وجزاء .

يذيل الأستاذ العقاد هذا الشاهد بقوله « وهذا فهم فيلسوف باحث فى الجواهر والأعراض ، وفى مطالب الأرواح والأجسام » .

وأقول : لم يفهم هذا الفيلسوف ما يحتال الأستاذ العقاد ويحاول أن يضطره إلى فهمه حتى يختلس من الإمام شاهدا على ما زعمه ، بل الذى فهمه ذلك الفيلسوف واختاره هو ما يدحض ما زعمه الأستاذ . ولعل هذا هو السر الذى من أجله تناسى الأستاذ الوجه الثانى من الوجهين فى معنى التقابل ، فأبرز لنا شاهدا من كلام الامام تناوله الامام نفسه بالتجريح ، وأغفل شاهدا تناوله بالتزكية والترجيح . وإن كنت فى ريب من مذهب الامام ورأيه فى نعيم الآخرة فاسمع قالته فى الآية الكريمة « وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذى رزقنا من قبل ، وأتوا به متشابها ، ولهم فيها أزواج مطهرة وهم فيها خالدون » .

قال الامام بعد بيان طويل للبعث الجسمى وأن الانسان الثانى على نمط هذا الانسان الأول قال : المسألة الثالثة (ص٣٤٤) : «اعلم أن مجامع اللذات إما المسكن أو المطعم أو المنكح ، فوصف الله تعالى المسكن بقوله تعالى «جنات تجرى من تحتها الأنهار» ، والمطعم بقوله تعالى «كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذى رزقنا من قبل» ، والمنكح بقوله سبحانه «ولهم فيها أزواج مطهرة» ثم إن هذه الأشياء إذا حصلت وقارنها خوف الزوال كان التنعم منغصا ، فبين سبحانه أن هذا الخوف زائل عنهم فقال «وهم فيها خالدون» فصارت الآية دالة على كمال التنعم والسرور» .

هذه قالة الامام الرازى تنادى بلغة لا لبس فيها ولا إبهام بأن من النعيم الأخروى ما هو مادى فيه مسكن ومطعم وزيجة .

الشاهد الثانى فى دعوى الأستاذ العقاد : ما فهمه الصوفية فى نعيم الآخرة ؛ فقد فهموا نعيما روحيا غايته الوصول إلى الله تعالى ، وأتى الأستاذ بنصين من كلام المتصوفة يؤيدان هذا الشاهد .

الأول : سمعت رابعة العدوية قارئا يتلو قوله تعالى «وفاكهة مما يتخيرون ولحم طير مما يشتهون» فقالت : نحن إذن صغار حتى نفرح بالفاكهة والطير .

الثانى : سمع الشبلى قوله تعالى «منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة» فصاح صيحة عظيمة وقال: فأين الذين يريدون الله تعالى . وكان يقول فى قوله تعالى «كلوا واشربوا» إن كان ظاهره إنعاما فباطنه انتقام وابتلاء واختبار لينظر تعالى من هو معه ومن هو من حظ نفسه .

وأقول : أسلفنا فى مقالنا السابق أن المحققين من أهل الملل يرون أن النعيم والعذاب فى الحياة الثانية ينتظم اللذائذ والآلام مادية وروحية ، وأن الثانى أبعد أثرا فى باب النعيم والعذاب . وقد تأيد ذلك بالكتاب والسنة . والصوفية إذ تهدف إلى النعيم الروحى والوصول إلى جناب الحق تعالى ، لا ينكرون أن بجانب ذلك نعيما ماديا يغتبط به الجماهير والعامة من أهل الأديان . فالصوفية إذ يتكلمون فى هذا الموضوع لا يتكلمون عما هو كائن ، إنما يتكلمون عن أمانيهم وآمالهم فحسب ، وهو رجاء يهدف إلى نوال أبعد الأمرين من النعيم .

وفى كلام الصوفيه أنفسهم ما يشعر بما نقول ، قالت السيدة رابعة :

كلهم يعبدوك من خوف نار ويرون النجاة حظا جزيلا
أو بأن يدخلوا الجنان فيحظوا بقصور ويشربوا سلسبيلا
ليس لى فى الجنان والنار حظ أنا لا أبتغى بحبى بديلا

فحديث الصوفية عن النعيم الروحى كما ترى فى كلام السيدة رابعة إنما هو حديث عن الآمال التى يبتغونها عند الله تعالى، كما هو شأن الفلاسفة فى ذلك، وحكاه ابن سينا فى النجاة، ونقلناه فى مقالنا السابق: أما أن مرادهم أن النعيم الأخروى لا يكون إلا من هذا اللون الروحى فلا، وليس حديثهم فى ذلك.

وأما قول الشبلى كما حكاه الأستاذ فى الآية الكريمة كلوا واشربوا: إن كان ظاهره إنعاما فباطنه انتقام وابتلاء واختبار، فأقول: إنما كان المأكل والمشرب ابتلاء واختبارا لما يكتنفه فى هذه الحياة الأولى من تبعات وتكاليف، فالطعام والشراب إنما يباح تناوله إذا كان من سبيل مباح لا غصب فيه ولا سرقة، فهو مما يتعلق به أوامر الله تعالى ونواهيه، فكان الأكل والشرب فى الحياة الأولى ابتلاء واختبارا، أما الطعام والشراب فى الحياة الثانية، فليس الأمر فيهما على هذا المنوال، بل هو محض متعة ولذة بريئة من التبعات والتكاليف جزاء خالصا للصالحين.

تناول الأستاذ العقاد أمرا آخر هو أن عذاب الآثمين ينقطع وينتهى أمرهم الى الغفران، وأن الأنفس جميعا تتلاقى فى حظيرة الرضوان، وأما ما ورد من النصوص الدينية من الخلود والأبد فانما يفيدان الزمان الطويل، ولا يفيدان البقاء بغير انتهاء. وأقول: هذا الحكم فى عمومه وشموله لم يقل به ملى ولا فيلسوف بل لهم فى ذلك تفصيل.

قالوا: الإثم إما كفر وإما معصية أخرى. أما الكفر فقد أجمعوا على خلود صاحبه فى العذاب لا ينتهى عذابه أبدا كيفما كان العذاب روحيا كما يرى الفيلسوف، أو ماديا كما يرى الملى، نقل ذلك عن الفريقين كتب الكلام.

قال الرازى فى المحصل ووافقه الطوسى فى تعليقاته ص ١٦٩: «اتفقت الفلاسفة على شقاوة النفوس الجاهلة، واتفقوا على أن تلك الشقاوة مخلدة». وقال العضد فى المواقف ص ٥٨٢: «قال الحكماء: النفوس الناطقة لا تقبل الفناء،

ثم إنها بعد مفارقة البدن إما جاهلة جهلا مركبا، وإما عالمة: أما الجاهلة فتتألم بعد المفارقة أبدا كالكافر عندنا، وذلك لشعورها بنقصانها نقصانا لامطمع لها فى زواله.

وحكى صاحب المقاصد عن الفلاسفة فى ص ٢٢٤ ج ٢ قال: وتفصيل ما قال الحكماء: إن فوات كمالات النفس يكون إما لأمر عدمى كنقصان غريزة العقل، أو وجودى كوجود الأمور المضادة للكمالات؛ وهى إما راسخة أو غير راسخة، وكل واحد من الأقسام الثلاثة إما أن يكون بحسب القوة النظرية أو العملية، فالكمال الذى يفوت النفس لنقصان الغريزة فى القوتين لا عذاب عليه بعد الموت، والذى يفوتها لوجود مضاد راسخ فى القوة النظرية كالجهل المركب الذى صار ملكة للنفس لا يفارقها، فعذابه بعد الموت دائم. والذى يفوتها لوجود مضاد فى القوة النظرية غير راسخ كاعتقادات العوام الخاطئة، أو فى القوة العملية راسخا أو غير راسخ كالأخلاق الرديئة مستحكمة وغير مستحكمة فعذابها بعد الموت على فوت هذا الكمال ينقطع، إلا أنه يختلف كما وكيفا حسب اختلاف تلك الأخلاق الرديئة قوة وضعفا، وحسب اختلاف وجودها طولا وقصرا.

هذا رأى الفلاسفة ؛ أما رأى المليين فقد حدث عنه الرازى فى محصله، والعضد فى مواقفه، والسعد فى مقاصده.

قال الرازى فى صفحة ١٧٣ : أجمعوا على أن وعيد الكافر المعاند دائم، وأما الكافر الذى بالغ فى الاجتهاد ولم يصل الى المطلوب فقد زعم الجاحظ والعنبرى أنه معذور لقوله «ما جعل عليكم فى الدين من حرج» والباقون أبوه (أى أبوا مازعمه الجاحظ والعنبرى) بل حكمه كحكم المعاند فوعيده دائم، وادعوا فيه الإجماع. وقد ناقش الطوسى رأى الشيخين فقال: المبالغ فى الاجتهاد يستحيل أن يؤدى اجتهاده الى الكفر، بل إما أن يصل الى الحق أو يبقى ناظرا، وهو فى كلا الأمرين ناج، وأما قوله تعالى ما جعل عليكم الخ فخطاب لمن دخل فى الدين.

وقال صاحب المواقف فى صفحة ٥٨٦ : أجمع المسلمون على أن الكفار مخلدون فى النار أبدا لا ينقطع عذابهم، سواء بالغوا فى الاجتهاد والنظر ولم يهتدوا، أو اهتدوا لكنهم عاندوا أو تكاسلوا. وأنكر ذلك طائفة خارجة من الملة الاسلامية.

وأنكر الجاحظ والعنبرى الخلود للمبالغ فى الاجتهاد ولم يهتد. ثم قال صاحب المواقف أخيرا: واعلم أن الكتاب والسنة والاجماع الذى انعقد قبل ظهور هؤلاء المخالفين يبطل ما زعمه هؤلاء. بل قال شارح المواقف: إن ما زعمه هؤلاء مخالف لما علم من الدين بالضرورة. وفى المقاصد صفحة ٢٢٨ مثل ما قال صاحب المواقف: واعلم أن الخلود ظاهرة لازمة لآيات الوعد والوعيد فى شأن الكافرين والمؤمنين قلما تجد آية منها خالية من الأبدية والخلود. وهذا هو السند الذى انعقد إجماع المسلمين من أجله على خلود المؤمنين فى نعيمهم، والكافرين فى عذابهم. أما ما وراء الكفر من المعاصى والآثام فجوز غفرانها جمهور المسلمين تمسكا بمثل قوله تعالى «إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء». وشذ عنهم فى كبائر الآثام أهل الاعتزال تمسكا بمثل قوله تعالى «ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها». وقد حمله الجمهور على المكث الطويل حتى لا يتعارض مع قوله تعالى «إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء».

ولعلك بعد هذا البيان الذى تناول الآثام فى أحكامها وجزائها، وأن منها ما عقابه أبدى مخلد، ومنها ما له نهاية وغاية، لا تطمئن إلى ما زعمه الأستاذ العقاد فى مقاله «من أن العذاب تطهير وتكفير، وأن الأنفس جميعا تتلاقى فى حظيرة الرضوان». بل من النفوس الآثمة ما يبقى دائما فى بؤرة الهوان بعيدا عن حظيرة الرضوان، وهم الآثمون بالكفر، والجاهلون بالعقائد الحقة جهلا مركبا.

وما تمسك به الأستاذ سنداً لعموم ما زعمه «من أن المفسرين كادوا أن يجمعوا على انتهاء عذاب الآخرة إلى الغفران، وأن الخلود والأبد يفيدان الزمان الطويل ولا يفيدان البقاء بغير انتهاء» فهذا لا يفيده شيئا فيما زعمه، فإن المفسرين إنما ذهبوا إلى ذلك فى الخلود الذى اقترن بالوعيد على إثم ليس من الكفر فى شىء، كآية «ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها». أما الخلود المقترن بوعيد الكفر فجمهور المفسرين على أنه الأبدية التى لا تنتهى ولا تقف عند غاية. وكذلك الأحاديث الواردة فى الغفران فإنما هى فى الآثام التى ليست من الكفر فى شىء. وسند ذلك كله الآية المحكمة «إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء».

شعـــــراء الأزهر

٣ – حسن القاياتى

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبد الجواد رمضان
المدرس بكلية اللغة العربية

ذاك جُذَيلها المحكّك، وعُذَيقُها المرجّب : حسن بن محمد بن عبد الجواد ابن عبد اللطيف ؛ زعيم بيت القاياتى، بيت مصر الوسطى : الجيزة، وبنى سويف، والمنيا، والفيوم. وعضو مجمع فؤاد الأول للغة العربية ؛ وشيخ رواق الفشنية فى الأزهر الشريف، والنائب الوفدى السابق.

ينتهى نسبه من جهة أبيه، إلى صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم، أبى هريرة رضى الله عنه ؛ ومن جهة الأم إلى الحسن السبط رضى الله عنه.

وبيت القاياتى أشبه البيوت الدينية بالزوايا التى كان لها بالأوطان الاسلامية فى العهود المتوسطة شأن مذكور. فقد كان — وما يزال — محط رحال الوافدين من الواحات، ومن بلاد المغرب، ومن أقاليم مصر الوسطى؛ يلقون فى أوضاعه الكريمة، وفى رحابه الفِيح، وفى سماحته الطبيعية، عودة الغريب إلى وطنه، والنازعَ(١) إلى عَطَنه، والطائر إلى فَنَنه.

وهو — إلى أنه بيت دين وكرم — بيت علم وأدب وسياسة. فمن أعلام علمائه : السيد أحمد عبد الجواد أحد علماء الأزهر وشيخ الفشنية فى القرن التاسع عشر، والسيد عبد العظيم محمد زعيمه السابق ؛ وكل رجاله أدباء ؛ ولهم فى السياسة المصرية مقام مشهود ؛ فالسيدان : محمد وأحمد عبد الجواد فى الصف الأول من زعماء الثورة العرابية، وكان حظهم من آثارها النفى إلى سوريا الشقيقة لمدة أربع سنوات ؛ والشيخ مصطفى القاياتى، كان من أبرز أعضاء الوفد المصرى، وخلفه

---

(١) النازع : البعيد المغترب يحن إلى وطنه.

شقيقه السيد ابراهيم شيخ الفشنية السابق ؛ وعلى الجملة : لم تجدّ فى مصر حركة وطنية أو دينية ، لم يبذل فيها بيتا القاياتى فى القاهرة وفى « القايات » أوفى قسط من الجهود الأدبية والماديّة بَذْل السَخى المسماح .

والسيد حسن القاياتى ، من لِدَات المغفور له الشيخ مصطفى عبد الرازق شيخ الأزهر السابق ، وصاحب الفضيلة الشيخ محمود أبى العيون سكرتير الأزهر ، عَمِل تقاربُ أوطانِهم الخاصة — مع ذلك — إلى اتصالهم فى الأزهر لمّا وفدوا عليه لطلب العلم ؛ فكانوا فى دروسهم وأسمارهم ، وارتياضهم ، وفى أفراحهم وأتراحهم ؛ وفى إقامتهم وأسفارهم ؛ لا يكادون يفترقون ؛ ولقد مضى شيخ الأزهر السابق إلى لقاء الله وقد أوفى على الغاية ؛ وها هو ذا صديقه أبو العيون يسير فى طريقها ، مدّ الله فى أجله ؛ وبقى شاعرنا شيخا لرواق الفشنية لا لأنْ حرفة الأدب أدركته ، ولا لأن حظه من المحصول العلمى كان أقل من حظ صديقيه العظيمين ؛ بل لأن عزة الشاعرية أبت عليه أن يذل للجنة امتحان فيخضع لحكمها أعطته أو حرمته ، وقد يكون من بين أعضائها من هو دونه فى موضوع الحكومة ؛ ولولا ذلك لكان له اليوم شأن آخر ؛ ولكم فتلنا له فى الذروة والغارب لنثنيه عن هذا الرأى ، ولكن كان قد فات الأوان ، وما شاء الله كان !

☆ ☆ ☆

كان للمغفور له أمير الشعراء شوقى بك فى حياته خصوم وأنصار ، وكان من أبرز خصومه الأستاذان الصديقان العظيمان : العقاد والمازنى ، فقد كانا ينقدان شعره وينشران النقد فى الصحف ، بل لقد أخرجا مجلة فى نقده بخاصة أسمياها « الديوان » وكان الأمير يبغض النقد جدا . ومن دون هذين طائفة أخرى ، تنقده شفويا فى المجالس والأسمار ، وكان منها المرحوم الأستاذ الهراوى ، وشاعرنا السيد حسن . أما أنا فكنت من أخلص أنصاره عاطفيا ؛ واتّفق أن نشر الأمير إحدى قصائده ، وأنشدت فى بيت القاياتى ، فأخذتُ أسرف فى مدح القصيدة بخاصة ، وفى مدح شعر الأمير بعامة ، إسرافا عاميا غاليا ؛ فالتفت إلىّ السيد حسن ، وقال لى فى حدّة : على أى أساس بنيت هذا المدح ؟ ! فأطرقت ،

ولم أُحرْ جوابا ! وكان أبلغَ درس تلقيتهُ فى النقد الأدبى ، وأفدت منه ما آكل به خبزى فى هذه الأيام !

ولقد مضى شاعرنا السيد حسن القاياتى بجزالة الأسلوب الشعرى وفخامته ، وشرف المعنى ودقته ، بلا جدال ؛ وما أحاشى من شعراء النهضة الحديثة من أحد لا من الأموات ، ولا من الأحياء . بيد أن الناس - منذ جرير والفرزدق - يختلفون فى أى الشاعرين أفضل ؟ الشاعر ذو الأسلوب الجزل الفخم ، أم الشاعر ذو الأسلوب الرقيق العذب . قال يونس بن حبيب : « ما ذكر جرير والفرزدق فى مجلس شهدته قط ، فاتفق المجلس على أحدهما » وقال أبو الفرج - بعد أن أفاض فى اختلاف الناس فى جرير والفرزدق - : « أما من كان يميل الى جزالة الشعر وفخامته وشدة أسره ، فيقدم الفرزدق ، وأما من كان يميل الى أشعار المطبوعين ، وإلى الكلام السمح السهل الغَزِل ، فيقدم جريرا » . وهذا يشرح قول يونس بن حبيب ، وقد سئل عن رأيه الخاص فيهما ، فقال : « الفرزدق أشعر خاصة ، وجرير أشعر عامة » فان نسبة الخاصة التى تروقها جزالة الشعر وفخامته ، الى العامة التى تطربها أشعار المطبوعين ، لا تكاد تبين .

ومن هنا ذهب بالشهرة وبُعد الذكر ، كثيرون من الشعراء الذين يَسْمُونَ هم أنفسهم بالسيد حسن عن مستواهم الشعرى ، وهم فى ذلك غير ملومين ، فتلك شنشنة الجماهير ، لا فى الشعر فحسب ، بل فى أكثر شؤون الحياة .

ولعل أوضح ما يمثل المذهبين ، شعر السيد حسن القاياتى ، وشعر الشاعر الفحل ، الأستاذ محمود غنيم ، شاعر دار العلوم ؛ فهذا شاعر ينسق من شعره طاقة من الزهر ، وذاك شاعر يشيد من شعره هيكلا من الصخر ؛ ولقد تلاقى الشاعران فى رثاء المغفور له شيخ الأزهر السابق الشيخ مصطفى عبد الرازق طيب الله ثراه ؛ وتواردا على بعض المعانى ، فجلاها كل منهما مُعْلَمَة بِرَوْسَمِه الخاص الذى يستعصى على « التقليد » وانفرد كل منهما بمعان أخر ، وكلاهما فى مذهبه مجيد كلَّ المجيد ؛ ومع كل أولئك ، تغلب جانب الجماهير ، فأنشدت قصيدة الشاعر غنيم على وجهها ، وأحسن استقبالها ، على حين اكتفى من قصيدة السيد بأبيات لعلها ليست أروعها ولا أندرها .

يذكر غنيم بيت عبد الرازق فيقول :

نمته أصـول ، لو نمى النجمَ بعضها ... لحرك عطفيه من التيـه إن بدا
وربّاه بيت يخـدم الناس شيخُـه ... وإن كان فيـه الطفل يولد سيـدا
على البر والتقوى تأسس ركنه ... ومن لبنات العـلم والدين شُيدا
نما زهر الآداب حول سياجه ... وصاح به طير البيان مغردا
وطابت ثمار الفـكر فى ظل روضه ... وأنشد فيـه الشعر درا منضدا
تشاهد فيـــه الشافعى ومالـكا ... وتلقى ابن عباد به والمــبردا
فللعـلم منه سامر أىّ سامر ... وللأدب العـالى هنالك منتـدى

* * *

ويتناوله القاياتى فيقول :

يا مصطفى أمل الحِجَـا ... فى أُمَّـةٍ خَطَـبَت حِجَـاها
فطَـر الملائك ربها ... فى مثلِ خِيمك ، واحتذاها
الشمس بيتك ، والعلا ... تنهلّ عارفةً وجاها
عرفوا أباك فسدتهم ... والشمس ما عرفوا أباها
إن تعل أسرة نابه ... فتعرفوا : من والداها ؟
للدين بيت ثقافة ... للجامعات ومابناهـا
فى هدى **طه** يعتلى ... ناديك ، أم فى علم طه ؟ !

* * *

ويعرض غنيم للأزهريين فيقول :

فتى حرر الإسلام من رق معشر ... يرون الجرىء الحر ليس موحدا
قضى واجب الأوطان والدين كاملا ... وأصدر فى كل الأمور وأوردا
ولم يقض فى ظل الصوامع عيشه ... قعيدا ، وليس المسلم الحق قعددا
رأى العلم فيه فيلسوفا وما رأى ... به الدين إلا قانتا متعبــدا
فقل للتقاة الجامدين : رويدكم ... متى كانت التقوى صلاة ومسجدا ؟ !
وما كل من يغشى المعابد مؤمنـا ... ولا كل من يستخدم العقل ملحدا

ويعرض لهم القاياتى فيقول :

يا سيدا عصفت به شيم الجلالة وابتناها
فتكت بنفسك عزة كالنار يتلفها لظاها
كرم أحل بربه تلف الأزاهر فى نداها
ضحك الغواة لنبله فبكى الفضيلة وافتداها
أنف الهوان بساحة البدر يشرق فى ذراها

* * *

ويتناول غنيم تمسكه بمظاهر الاسلام ، فى مضطرب الإلحاد ، فيقول :

رفعت لواء الشرق فى الغرب واكتسى بك المظهر الشرقى عزا وسؤددا
وزانك ثوب زانه النبل والتقى فلحمته هدا ، وذاك له سَدى
لقد غض من شأن العمامة معشر فشدت لها بين السماكين مقعدا

* * *

ويتناوله القاياتى فيقول :

شيم الملائك حلية فى مصطفى ، وله تقاها
عرف الإله جلالة والزيغ يهتف : لا إله !

* * *

فأما بعد ، فإنى لم أقصد بإيراد هذه المثل إلى موازنة ، ولا إلى نقد ؛ وإنما نشدت زيادة الإيضاح ، الذى يوسع من آفاقه ويعين عليه الجمع بين الضدين ، ورحم الله صاحب اليتيمة :

فالوجه مثل الصبح مبيض والشعر مثل الليل مسود
ضدان لما استجمعا حسنا والضد يظهر حسنه الضد

ولقد حسن الشاعران كلاهما ، وتجلى فوقُهما تجليا لا يخامره ريب ، وكان بودى أن يتحد مذهباهما ، وأن تتفق قصيدتاهما وزنا وقافية ، حتى أستوفيهما موازنة ونقدا ، إذاعة لفضلهما ، وتفصيلا لنواحى الجمال الفنى فى شعرهما ، ولكن : ما كل ما يتمنى المرء يدركه .

ومن السحر الذى ينفث السيد حسن القاياتى فى عقده، ثم يسميه شعرا:
قوله فى الغزل من قصيدة:

إنَّ فى الغادين منى طفلة قام بدعُ الحسنِ منها وقعدْ
صُوِّرَتْ مِنْ جوهرالشمس فما هى إلاَّ رَيِّقُ النُّورِ جَمَد
أوقدَ الحُسْنُ على وجنتها جَمْرَ قلبى، فتلظى واتَّقد
يعكفُ الطرْفُ عليها مُغضياً قد رأى قِبلة حُسنٍ فسجد!

* * *

لا يرانى الله إلا ذاكرا ليلة التوديع، والبينُ يُعد
أقبلت والليل يرنو نجمه نظرة الزنجى حقداً أو كمد
لا أذم البين ظلما، وفم من فمٍ دان، وخد فوق خد!
تمسح الدمع غزيراً بيد ثم تدنينى إلى الصدر بيد
أرشفتنى ريقة قد بُرِّدت من ثناياها بحبات البرد

* * *

ومن وطنياته قوله فى حرب طرابلس «من مقصورة»:

أكيداً لنا يا بغاث العدا؟ دعوا البيض مركوزة والقنا
نصحنا لكم: لا تهيجوا الأسود وقد يرسل النصح لا عن هوى
جنيتم وغى، فاجتنوا صابها فان لكل امرىء ما جنى
أبينا سوى خطتى عزة فإما المعالى، وإما الردى
نجود بأرواحنا لاثنتين غداة الوغى، وغداة الندى
زعمتم طرابلس ملكا لكم ألا ما أحب حديث المنى!
ترون السماء، فهل تدَّنى لأيديكمو؟ هى تلك السما!
أجدتم طعان المواسى الرقاق فأما طعان العوالى فلا
وقد تحسنون لقاء الظباء ولا تحسنون لقاء الظُّبا
رويدا عديد الدبى، تمطروا من النبل مثل عديد الدبى
كأن تدارك وقع النبال عليكم تدارك وقع الحيا!

ومنها :

ألا يضحك الناس من زائغ ... يُرى المهتدين سبيل الهدى ؟
ومن مستطيل كفور الفؤاد ... يحاول مسعاة أهل التقى ؟
أللعدل جئتم ؟ معاذ الإباء ... متى عرف العدل فيكم ، متى ؟ !
أجوداً على العرب الطاعمين ... وفى داركم كل بادى الطوى ؟ !
وبرأ بقاصية العالمين ... والبر أولى به من دنا ؟ !

وما أصدق ما قال السيد ، فى أمم الغرب بعامة ، لا فى الطليان بخاصة !

* * *

والسيد حسن ـ الى أنه شاعر فحل ـ كاتب بليغ ، يتوخى طريقة مزاجا من مذهبي الجاحظ وابن العميد فى الكتابة : جزالة فخمة ، مع الترسل حينا ، ومع السجع المطبوع حينا ، ويبطىء بقلمه عن المرانة والسرعة التى تستدعيها طبيعة العصر ، إباؤه على التبذل ، وسموه عن الاتجار فى أسواق الحياة ؛ ولولا ذلك لعد فى العشرة الأوائل من كتاب الشرق العربى .

* * *

ثم أما بعد ، فلعلى ـ بما أعربت عنه من تحديد موقف السيد حسن من أدباء النهضة الحديثة فى غير مجاملة ولا تحامل ـ أكون قد خرجت من منطقة (العجم) الذين خاطبهم فى بعض ثوراته بقوله :

إنى لأضخم من فى مصر قافية ... لا تجحدونى هذا ، أيها العجم

فأنى أول المؤمنين بهذه الضخامة ؛ بيد أنها سلاح ذو حدين !

حاشية : روت مجلة الأزهر (عدد جمادى الأولى ، مجلد ١٩) بيت السموءل ابن عاديا ، هكذا :

وما مات منا سيد حتف أنفه ... ولا طل منا حيث كان قتيل

وعبارة : « حتف أنفه » لم يسبق بها رسول الله صلى الله عليه وسلم . وصواب الرواية : « وما مات منا سيد فى فراشه »

الى فلسطين

فلسطين جزء من البلاد العربية ، وهذه البلاد تؤلف منذ أكثر من ثلاثة عشر قرنا وحدة اجتماعية لا تقبل الانقسام ، كما لا تقبله أية وحدة عالمية فى الأرض الآن . وقد جمعت بين أهلها رُبُط قوية من اللغة والعادات والغايات الاجتماعية بحيث يضر بكيانها قيام دولة أجنبية فى بقعة منها لا تمت اليها بسبب ، مهما تشبثت بأدلة تاريخية تثبت أن قدماءها كانوا يعيشون بتلك البقعة قبل نحو (١٨٠٠) سنة . ولو كان يصح التشبث بأمثال هذه الأدلة التاريخية ، لأصبحت أكثر الممالك الأرضية فى حالة عدم استقرار مستمر ، لأنه ليس منها واحدة ذات حدود طبيعية مقررة ؛ ولكن العالم أصبح معترفا بأن للتحولات الاجتماعية أوضاعا لابد من احترامها ، مادام قد مضت على قيامها أجيال ، واستقرت عليها الأحوال . وقد ألهم البشر أن هذه القاعدة يجب أن تطبق حتى على الشئون التعاملية . من أمثلة ذلك سقوط الحق فى المطالبة بعقار بعد مضى مدة معينة ، فتصبح ملكا لمقتنيه بوضع اليد . هذه قاعدة أملتها الحاجة الى الاستقرار بين الأفراد ، فما بالك بالحاجة الى الاستقرار بين الأمم ؟

كانت الأمة الإسرائيلية بعد وفاة ابراهيم عليه السلام تسكن مصر ، فلما بُعث اليهم موسى عليه السلام هاجر بهم من مصر الى شبه جزيرة طورسينا ؛ وبعد وفاة موسى تقدموا صوب فلسطين واحتلوها تحت قيادة يوشع . ومن عهد يوشع الى (شاول) كان اليهود فى حروب دامية بينهم وبين أهل فلسطين . وخلف داود (شاول) فاتخذ أورشليم (مدينة القدس) عاصمة لملكه . ولما تولى بعده ابنه سليمان بنى الهيكل ، وتوفى سنة (٩٣٠) قبل الميلاد . ولم يتفق اليهود على من يخلفه ، فانقسموا الى دولتين : اسرائيل ، ويهوذا . ولما استولى الكلدانيون على أورشليم نُقل اليهود أسرى الى شواطىء الفرات ، فلبثوا هناك حتى تولى الملك قيروش فسمح لليهود بالانتقال الى فلسطين .

وبعد هذه الأدوار كلها وقع اليهود تحت سيادة المقدونيين ، وبعدهم تحت سلطان السلوسيديين بسورية ، فأذاقوهم ألوان العذاب بسبب دينهم ، فثاروا عليهم واستردوا حريتهم ، وكان ذلك سنة (١٦٤) قبل الميلاد . وفى سنة (١٤٠) ق . م . طلبوا إلى امبراطور الرومان أن يجعل ملوك أورشليم اليهود تحت الحماية الرومانية .

وفى سنة (٧٠) م . ثار اليهود على الرومانيين ، فاستولى امبراطورهم تيتوس على أورشليم . وعاد اليهود إلى الثورة مرة أخرى سنة (١٣٥) فأطفأها الأمبراطور ادريان . ومن هذا العهد فقد اليهود وجودهم القومى حتى وعدتهم به انجلترة فى معاهدتها مع فرنسا سنة (١٩١٦) ، وسجلتها فى معاهدة لوزان سنة (١٩٢٣) .

أعلنت انجلترة رسميا بأنها وعدت اليهود بوطن قومى ، فلما رأتهم فسروا ذلك بإقامة دولة يهودية ، ردت عليهم رسميا بأنها لم تكن تقصد بالوطن القومى إقامة دولة ، وإنما قصدت به إيواء مهاجريهم بنسبة ١ إلى ٢ من أهلها المسلمين . ولما آنست أن اليهود أخذوا يكثرون من شراء الأراضى ، وخشيت أن أهل البلاد الأصليين سينتهى أمرهم إلى إضاعة أراضيهم ، أصدرت قانونا بتحريم بيع الأراضى ما دامت لها الوصاية على فلسطين ، وأصرت على أنها لا تقبل من مهاجريهم إلا ألفا وأربعمائة فى كل شهر . فلم يقنع اليهود بهذا العدد وأخذوا يكثرون من استيراد المهاجرين ، فكانت انجلترة تقبض على سفنهم وتحول وجهتها إلى بعض ممتلكاتها الأفريقية ، وإلى جزيرة قبرص ومالطة .

العامل الذى حفز الاسرائيليين الى ضرورة إيجاد وطن قومى لهم ، وإقامة دولة يهودية ، بعد أن لبثوا نحو ثمانية عشر قرنا مبعثرين فى الأرض ، هو ظهور نعرة جديدة بوجوب حفظ الدم الأوروبى (الآرى) نقيا من الدم السامى (نسبة الى سام) الذى ينتمى إليه اليهود . لم تكن كراهية الأوروبيين لليهود بخافية على أحد منذ أن قضى عليهم بالتجاور ، ولكن هذه الكراهية اشتدت بعد ظهور هذه النعرة فى القرن التاسع عشر . فكانت تحدث مجازر تقشعر منها الأبدان فى روسيا وبولونيا ورومانيا وغيرها ، فكان اليهود يهاجرون الى تركيا وغيرها من بلاد المسلمين ، وإلى الأرجنتين بأمريكا الجنوبية ، ولكن نصيب الولايات

المتحدة منهم كان أعظم ، فقد هاجر فيها نحو أربعة ملايين نسمة ، وقد بلغوا ستة ملايين الآن . هـذا الاضطهاد كان يحمل الجماعات منهم أن يتنصروا ظاهرا ، ثم يعودون الى ملتهم بعد هدوء الثوائر .

هذه الكوارث الاجتماعية حفزت الإسرائيليين أن يفكروا جديا فى أمرهم ، فرأوا أنه لا منجاة لهم من هذه المجازر الدورية إلا إيجاد دولة يهودية لهم ، وكان أنجب من تصدى للدعوة لهـذا الأمر ، كاتب كبير منهم من سكان فينا يدعى (تيودور هِرزِل) ، فكتب فى ذلك كتابات كثيرة اكتسب بها هوى أهل ملته إلا قليلا منهم ممن كانوا يرون فى ذلك تضييقا لمجالهم الحيوى ، كان ذلك سنة ١٨٩٦ .

أطال زعماؤهم الروية فى أى البلاد تصلح لذلك ، فقرروا أن تكون فلسطين ، إن سمح سلطان تركيا أن ينيلهم ذلك فى مقابل مال طائل ، فلم يقبل ، فظلوا يفكرون فى أن يجعلوا تلك الدولة فى الأرجنتين بأمريكا ، فلم يتفق لهم ذلك . ولما حدثت الحرب العامة فى سنة (١٩١٤) ، واضطرت بريطانيا للمال وعدتهم بأن تسمح لهم باتخاذ فلسطين وطنا قوميا لهم ، وأباحت لهم الهجرة إليها . ولما رموا إلى تكوين دولة مستقلة فيها عارضتهم انجلترة ، وأبانت لهم أن الوطن القومى لايعنى إقامة دولة مستقلة كما قدمنا ، ولكن اليهود لم يقبلوا هذا التفسير ، واستمروا فيما هم فيه ، وشنوا عليها حرب عصابات مريرة .

ومما يجب أن نلفت إليه الأنظار ، أنه لما سمحت انجلترة لليهود بالهجرة إلى فلسطين ، لم يبد من أهلها ما يشعر باستيائهم من هذا الأمر ، صادرين فى ذلك عن أريحية المسلمين المعهودة فى قبول اللاجئين ، وإيواء المضطهدين ، وهى خلال ورثوها عن آبائهم الأولين . وما كان يدور بخلدهم أن هـذا الأمر سيتأدى إلى اقتطاع جزء من بلادهم ، لتقام فيه دولة لاتمت إليهم بسبب . فثارت ثائرة أهل فلسطين ، ولجأوا إلى جامعتهم العربية ، فتولت دولها الدفاع عنهم . ثم حُكِّمت هيئة الأمم المتحدة للفصل بين الفريقين ، باعتبار أنها المرجع الأعلى لما يشجر بين الأمم من خلاف . فلعبت السياسات المتعاكسة دورها ، وأقرت الهيئة مطلب الصهيونيين بأكثر الأصوات . فكان هـذا القرار مثيرا للجامعة العربية إلى منع سريانه بالقوة ، وسرعان ما زحفت جيوش دولها إلى فلسطين يتقدمها الجيش

المصرى الباسل ، ملبيا دعوة حضرة صاحب الجلالة قائده الأعلى الملك فاروق الأول الذى يرجع إليه الفضل فى رفعه إلى درجة أرقى جيوش العالم نظاما وتسلحا ، وكان اليوم زحفه احتفال لم يسبق له مثيل ، وجد فيه من تشجيع الشعب له ، وإكباره إياه ، وحفاوته به ، ما رفع من قواه المعنوية إلى أعلى ما تصل إليه .

وزاد جلالة الملك فى العناية بفلسطين الى درجة أن تفضل بإرسال كتيبة من حرسه للاشتراك فى قتال المعتدين ، فكان الاحتفال بتوديعها من أبلغ ما عُرف عن مصر فى تاريخها الحديث . كان مئات الألوف من الناس محتشدين على طول الطريق من أول ثكنات الحرس بعابدين الى محطة القاهرة ، وكانت الهتافات الحماسية تخترق أجواز الفضاء محيية الجنود المرسلين ، وداعية لجلالة قائدهم الأعلى فاروق الأول بدوام العز والتأييد ؛ وكان فى توديعهم على المحطة كثير من العظماء والوزراء .

وعند تحرك القطار ألقى حضرة صاحب الفضيلة الشيخ محمود أبو العيون سكرتير عام الأزهر خطبة بليغة كان لها وقع عظيم فى قلوب الجنود والمحتفلين . وإليك نصها البديع :

« الى الأمام يا حرس الفاروق ! الى الأمام يا جند الله ! الى الأمام يا أبناء البهاليل من العرب الأمجاد ! قاتلوا الذين يلونكم من الكفار ، وليجدوا فيكم غلظة !

« انضحوا العار عن أنفسكم ، وعن دينكم ، وعن شرفكم ، وعن تاريخكم ، وعن أماكنكم المقدسة ، وعن فلسطين الجريحة ، وتمثلوا بقول القائل :

لنا نفوس لنيل المجد عاشقة ... ولو تسلت أسلناها على الأسل
لا ينزل المجد إلا فى منازلنا ... كالنوم ليس له مأوى سوى المقل

« سيروا على بركة الله يا جند الفاروق ، فسيفرق الله بكم بين الحق والباطل ! سيروا فى حراسة الله ، وفى رعايته وكلاءته .

« يأيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا ، واتقوا الله لعلكم تفلحون » .

سار القطار وغاب عن الأعين ، والقلوب معهم ، والدعوات تحف بهم وبإخوانهم الذين فى ميدان القتال . نصرهم الله نصرا مؤزرا ، وحفظ لبلاد المسلمين كمالها وجلالها ومهابتها أبد الآبيد ؟ ف

سبق الإسلام
إلى منع الاستكفاف

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبد المتعال الصعيدى
المدرس بكلية اللغة العربية

الاستكفاف : مصدر استكفَّ الناسَ إذا مد إليهم كفه يستعطيهم ، وهو المعروف الآن باسم الشحاذة والتسول . والشحاذة : مصدر شحذ فى السؤال إذا ألحَّ فيه . والتسول مأخوذ من السؤال ، يقال سال سُوَالا بمعنى سأل سؤالاً ، والسُّوَلة : الكثير السؤال .

وقد سبق الإسلام الحكومات الحديثة الى منع الاستكفاف والتسول ، لأنه وصمة عار فى جبين كل شعب يظهر فيه ، ودليل على انحطاط أفراده وتأخرهم ، لأنه يدل على فساد نفوس فقرائهم وأغنيائهم ؛ إذ يستسهل الفقراء هذه الحرفة الدَنيئة ، ويؤثرونها على العمل الذى يقيهم ذل السؤال ، وإذ يضن الأغنياء بأموالهم على إنشاء الملاجىء التى تؤوى العجزة ، ولا تحوجهم إلى مد أيديهم إليهم .

وفى الإسلام نصوص من القرآن والحديث تنهى عن الاستكفاف والتسول ، وهى النصوص التى يجب الاعتماد عليها فى أمره ، ليأخذ المسلمون بها فى حياتهم العامة والخاصة ، ويعملوا على منع ظهور هذه الحرفة الدنيئة بينهم ، بالأحكام الزاجرة ، وبإنشاء الملاجىء التى تقى عجزتهم عن ذل السؤال ، كما عمل بهذا سلفهم الصالح ؛ ولهم فى رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة ، لأنه سنّ فى ذلك نظامين وقى بهما المعوزين من أصحابه ذل السؤال : أولهما نظام المؤاخاة ، وقد سنه فى أول الاسلام للموالى الذين أسلموا فطردهم أولياؤهم ولم ينفقوا عليهم ، وللشبان الذين أسلموا فطردهم أولياؤهم ومنعوهم أموالهم ؛ ثم سنه بعد هذا فى أول الهجرة إلى المدينة للمهاجرين الذين منعتهم قريش أموالهم فى مكة ، فآخى

ومنها قوله صلى الله عليه وسلم : «ملعون من سأل بوجه الله ، وملعون من سئل بوجه الله ثم منع من سأله ما لم يسأل هجراً ». أى أمرا قبيحا لا يليق ، أو سؤالا قبيحا أى بكلام قبيح ، والسؤال بوجه الله هو أن يسأل الناس شيئا بالله . فهذا الحديث يلعن السائل ، ولكنه يلعن المسئول إذا لم يعطه .

وأما النصوص التى يفيد ظاهرها جواز السؤال فمنها قوله تعالى فى الآية - ١٧٧ من سورة البقرة : « ليس البر أن تولُّوا وجوهكم قِبَل المشرق والمغرب ، ولكنّ البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكينَ وابنَ السبيل والسائلين »

ومنها قوله تعالى فى الآية - ١٩ - من سورة الذاريات « وفى أموالهم حق للسائل والمحروم » .

ومنها قوله تعالى فى الآيتين - ٢٤ ، ٢٥ - من سورة المعارج « والذين فى أموالهم حق معلوم ، للسائل والمحروم »

ومنها قوله تعالى فى الآية - ١٠ - من سورة الضحى « وأما السائل فلا تنهر » .

ومنها ما أخرجه أبو داود عن على رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « للسائل حق ولو جاء على فرس ». وقد جاء فى الموطأ برواية زيد بن أسلم : « أعطوا السائل ولو جاء على فرس » .

ومنها ما أخرجه أبو داود والترمذى عن أم بجيد أنها قالت للنبى صلى الله عليه وسلم : يا رسول الله إن المسكين ليقوم على بابى فلم أجد شيئا أعطيه إياه . فقال لها : « إن لم تجدى إلا ظلفا محرقا فادفعيه إليه فى يده » . وفى رواية الموطأ : « ردوا المسكين ولو بظلف محرق » . والظلف خُفّ الشاة ، وفى كونه محرقا مبالغة فى قلة ما يعطى .

ومنها ما أخرجه أبو داود والترمذى والنسائى عن ابن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من سأل الناس وله ما يغنيه ، جاء يوم القيامة ومسألته فى وجهه خموش أو خدوش أو كدوح » . وقيل يا رسول الله : ما يغنيه ؟ قال : « خمسون درهما أو قيمتها من الذهب » .

بين المهاجرين والأنصار، الى أن استغنى المهاجرون ، وصارت لهم أموال تغنيهم عن مساعدة إخوانهم من الأنصار .

والثانى نظام أهل الصفة ، وكانوا ناساً من فقراء المهاجرين لم يجدوا من العمل ما يكفيهم ذل السؤال ، فأنشأ النبى صلى الله عليه وسلم لهم صُفّة بالمسجد ، وهى مكان مسقوف منه ، فكانت بهذا أول ملجأ فى الإسلام ، ولعلها أول ملجأ ظهر على وجه الأرض ، وحاز الاسلام به قصب السبق فى نظام الملاجىء ؛ وكان أهل الصفة يمثلون فى المسجد طلبة العلم ، فكانوا الجيل الأول من طلاب العلم بالمساجد فى الإسلام ، وقد تبعتهم الأجيال بعدهم فى هذه السنة الى جيلنا الحاضر .

ولكن الاسلام فيه نصوص أخرى ربما يفيد ظاهرها جواز الاستكفاف والتسول ، ولعل إساءة فهمها هى التى تجعل المسلمين لا يستنكفون الآن من انتشار الشحاذين والمتسولين فى بلادهم ، ولا يرون فى هذا عارا يلحق بهم ؛ ولهذا أردت أن أدرس النصوص التى وردت فى هذا الباب ، لأحقق أمرها ، وأبين حكم الإسلام الصحيح فيها .

فأما النصوص التى وردت فى منع التسول فمنها قوله تعالى فى الآية - ٢٧٣ - من سورة البقرة : « للفقراء أُحصِرُوا فى سبيل الله لا يستطيعون ضربا فى الأرض يحسبهم الجاهلُ أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس إلحافاً » . فالمراد لا يسألون الناس أصلا ، لأنه قال : « يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف » وهو ترك المسألة ، فعلم بذلك أنهم لا يسألون البتة ، ولأنه قال : « تعرفهم بسيماهم » . ولو كانت المسألة من شأنهم لما كانت الى معرفتهم بالعلامة حاجة ، فمعنى الآية أنهم لا يكون منهم سؤال حتى يقع فيه إلحاف ، فهم لا يسألون الناس إلحافا ولا غير إلحاف ، وهذا على حد قول امرىء القيس :

على لا حبٍ لا يُهتدى بمناره

يريد نفى المنار والاهتداء به . وقد نزلت هذه الآية فى أهل الصفة مدحا لهم ، والمدح بشىء يقتضى ذم نقيضه ، فيكون سؤال الناس مذموما بمقتضى هذه المقابلة .

ومنها قوله صلى الله عليه وسلم : «لأن يأخذ أحدكم حبله ، ثم يأتى الجبل فيأتى بحزمة من حطب على ظهره فيبيعها ، خيرله من أن يسأل الناس أعطوه أم منعوه » .

وقد قال الخازن فى تفسير قوله تعالى فى سورة الضحى « وأما السائل فلا تنهر » : يعنى السائل على الباب ، يقول : لا تزجره إذا سألك ، فقد كنت فقيرا ، فإما أن تطعمه ، وإما أن ترده ردا لينا برفق . وقال ابراهيم بن أدهم : القوم السؤّال يحملون زادنا إلى الآخرة . وقال ابراهيم النخعى : السائل يريدنا إلى الآخرة ، يجىء إلى باب أحدكم فيقول : هل توجهون إلى أهليكم بشىء ؟

فالنصوص الأولى تذم الاستكفاف والتسول ، ومنها ما بالغ فى ذم السائل بالله إلى حد اللعن ، وهو الطرد من رحمة الله تعالى ، ومثل هذا يفيد حرمة السؤال . ولكن النص الأخير منها لعن المسئول الذى لا يعطى السائل بالله ما لم يسأل ُهجْراً ، وهذا يفيد وجوب إعطائه مع حرمة سؤاله . وبعضهم حمل اللعن فى هذا على الكراهة الشديدة .

والنصوص الأخيرة منها ما يفيد جواز السؤال مطلقا ، إذ أمرت بإعطاء السائل ولو جاء على فرس ، ومنها ما يفيد جواز السؤال عند الحاجة ، ومنعه عند الغنى ، وقد ُقدِّر الغنى فيها بخمسين درهما أو قيمتها من الذهب ؛ ومنها ما يمدح القوم السؤال لأنهم يحملون زادنا إلى الآخرة .

والحقيقة أنه لا تعارض بين النصوص الأولى والأخيرة ، لأن ذم السؤال لا يقتضى المنع من الإعطاء ؛ إذ هما فعلان مختلفان ، ويصدران من شخصين مختلفين ، والفعل الواحد من شخص واحد قد يذم ويكون صحيحا فى آن واحد ، كالصلاة فى الأرض المغصوبة ؛ وكذلك جواز الإعطاء لا يقتضى جواز السؤال ، لأن السائل قد يكون محتاجا ، فيعطيه المسؤول دفعا لحاجته ، ولا يصح أن يتركه إذا كان جائعا مثلا ليهلك جوعا ، وقد يعطى المسئول دفعا لمذمة السائل أو غيره ، وهذا أيضا مما يقتضى جواز الإعطاء ، وإن كان السؤال فى ذاته مذموما ، وإن كان السائل غنيا عن السؤال ، لأن المسئول لا يقصد فى ذلك دفع حاجة السائل ، وإنما يقصد صون عرضه من الهجاء والذم .

والحق أنه لا شىء فى ذلك على أفراد السائلين والمسئولين إذا كان السؤال عن حاجة ، وإنما الذنب فى ذلك ذنب الجماعة أو ذنب الحكومة ، لأن الجماعة أو الحكومة هى المسئولة عن تعريض المحتاجين للسؤال ، وعن تعريض الأفراد

لسؤالهم ، فهى التى يمكنها أن تنشىء الملاجىء المحتاجين ، وهى التى يمكنها أن تجمعهم فيها بما تملكه من قوة الحكم ، وهى التى يمكنها أن تمنع التسول بما تفرضه من الزواجر .

فإذا قصرت الجماعة أو الحكومة فى ذلك فلا شىء على المحتاجين إذا تولوا دفع حاجتهم بأنفسهم ، فسألوا الناس ما يحتاجونه لدفع جوع أو عرى أو نحو ذلك من أمورهم ، ولا شىء على المسئولين إذا أجابوهم إلى ما يسألون ، بل قد يكون ذلك واجبا عليهم عند خوف هلاك السائل أو نحوه ؛ لأن تقصير الحكومة أو الجماعة فى ذلك لا يقوم عذرا للأفراد ، ولا ينجيهم من عتاب الله إذا قصروا فى دفع حاجة المحتاج .

ولم يكن على الاسلام أن يفعل أكثر من ذلك فى علاج هذه المشكلة الاجتماعية ؛ فقد قام بعلاجها على ما يجب فى جميع أحوالها ، فذم التسول والاستكفاف شر ذم ، ووضع نظام الإخاء ونظام الملاجىء لعلاجه بالعمل بعد علاجه بالقول ، وهذا من شأن الحكومات والجماعات ، وقد احتاط للمحتاجين إذا قصرت الحكومة أو الجماعة فى أمرهم ، فلم تنشىء لهم الملاجىء أو نحوها مما يقيهم الحاجة ويغنيهم عن السؤال ، فأمر الأفراد أن يعطوهم إذا سألوهم ، وما كان له أن ينهاهم عن إعطائهم إذا قصرت الحكومة أو الجماعة فى أمرهم ؟

من مجمع فؤاد الأول

قررت لجنة الأدب بمجمع فؤاد الأول أن ننوه بخير الكتب المؤلفة سنة ١٩٤٧ — ١٩٤٨ فى الأدب ، من شعر ، وقصص ، وبحوث ، ودراسات أدبية ولغوية ، على ألا يكون من بينها كتب مترجمة ، اللهم إلا إذا كان الكتاب المترجم من أمهات الكتب التى تعود على الأدب العربى بفائدة وتضم إليه ثروة محققة .

والمرجو من الهيئات العلمية ودور النشر والمكتبات موافاة اللجنة بهذه الكتب أو إفادتها بأسمائها ونبذ عنها .

كعب الاحبار
ووهب بن منبه وزياد بن أبيه
بين الجرح والتعديل

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبد الحميد عنتر
الأستاذ بكلية اللغة العربية

اطلعت فى مجلة الأزهر بعدد رجب الماضى على كلمة نقد للزميل المفضال ، الأستاذ الشيخ محمد على النجار حول مقال (أسباب تأخر المسلمين) تتلخص فى أنه أخذ علىّ أمرين كان الأليق بى ألا يؤخذ علىّ شىء منهما .

الأول — أنى جعلت من الذين كادوا للإسلام كعب الأحبار ووهب بن منبه وزياد بن أبيه ، مع أنه لم يثبت كيد أحد منهم للإسلام ؛ وذكر الأستاذ أنه سبقنى بالطعن على كعب ووهب الأستاذ أحمد زكى باشا سنة ١٣٥١ هـ وقد رد عليه الأستاذ الشيخ يوسف الدجوى رحمه الله بما فيه مقنع بحسن الظن بهذين الإمامين. أما زياد فلم يطعن فيه أحد .

الثانى — أنى سلكت فى عداد الذين كانوا سببا فى تأخر الاسلام عبد الله ابن أبىّ ابن سلول ، مع أنه كان فى عصر النبى صلى الله عليه وسلم ، ولا يعقل أن تأخر المسلمين كان فى عهد الرسول عليه الصلاة والسلام .

وأحب قبل كل شىء أن أنبه الأستاذ المفضال على أنى لا أريد بكلمتى هذه الرد عليه ومجادلته ، لأنى أعلم أن نقده إياى نقد خالص لوجه العلم فى وجهة نظره ، لا تشوبه شائبة تحامل أو هوى ؛ كما أود أن أعلن أنى لست من المولعين بجرح العلماء كما يشهد بذلك موقفى مع الأب أنستاس مارى الكرملى فى عددى مجلة الرسالة (٥٠٦ ، ٥٠٧) لسنة ١٩٤٣ ، فقد هاجم اللغويين والنحاة ، ووصمهم بعدم الثقة بأقوالهم ، وقد دافعت عنهم بما رد هذا الهجوم الباغى ، وكان له وقع

حسن فى البيئات العلمية ؛ وأنى لا أكتب ما أكتبه إلا بعد بحث وتمحيص . وهذا بيان الحقيقة مع الإيجاز .

كعب الأحبار : قلتُ إنه اشترك فى المؤامرة على قتل عمر بن الخطاب رضى الله عنه . وقد بنيت هذا الحكم على الاستنتاج الذى يكاد يصل بى إلى درجة العلم ، من روايات ثقات المؤرخين فى الكتب الآتية :

١ — الطبقات الكبرى لابن سعد المتوفى سنة ٢٣٠ هـ طبع أوربا ج ٣ صفحات ٢٤٠ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧ ، ٢٥٧ . وجزء ٧ ص ١٥٦ بالقسم الثانى منه .

٢ — مناقب عمر بن الخطاب لابن الجوزى المتوفى سنة ٥٩٧ هـ ص ٢١٧ .

٣ — تاريخ الأمم والملوك للطبرى المتوفى سنة ٣١٠ هـ ج ٥ ص ١٢ وما بعدها .

٤ — الكامل لابن الأثير الجزرى المتوفى سنة ٦٠٣ هـ ج ٣ ص ٢١ وما بعدها . وهذه المراجع فى متناول الجميع .

وهب بن منبه : لم أشركه فى المؤامرة على قتل عمر ، ولكنى عددته فى المتآمرين على الاسلام من طريق بث متون الروايات الإسرائيلية التى شوهت جمال معانى القرآن الكريم فى كتب التفسير ؛ مثل تفسير الرعد والبرق والجسد الذى ألقى على كرسى سليمان عليه السلام ، وما جاء فى عصا موسى عليه السلام ، وغير ذلك مما حشيت به هذه الكتب من الإسرائيليات التى مصدرها فى الغالب كعب الأحبار ووهب بن منبه ! . هذا جرح لهما بالإجمال .

أما مسألة جرح هذين الرجلين أو تعديلهما بالتفصيل فقد كتبت فيها مجلة المنار ما يشفى العليل ويروى الغليل قبل أن يكتب فيها الأستاذ المرحوم أحمد زكى باشا ويرد عليه الأستاذ المغفور له الشيخ يوسف الدجوى بنحو تسع سنين . وذلك بالمجلدات أرقام ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ لسنوات ١٣٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٥ هـ . ويبلغ مجموع ما كتب فى هـــذا البحث ٤٧ صفحة ! فليتفضل الأستاذ المفضال بالرجوع إليها ، وهو واجد فيها طلبته ، إن شاء الله .

ومن المتفق عليه بين محقق العلماء أن كعب الأحبار ليس من رجال البخارى

ولا مسلم الذين رويا عنهم فى الجامعين الصحيحين ، خلافا لما يؤخذ من كلام العلامة الأستاذ الدجوى فى نور الإسلام سنة ١٣٥١ هـ تبعا لتذكرة الحفاظ التى خطأها فى هذا العلامة الحافظ ابن حجر العسقلانى فى كتابه تهذيب التهذيب ج ٨ ص ٤٣٨ ، ٤٣٩ ، وأن وهب بن منبه ليس من رجال البخارى فى الجامع الصحيح !

زياد بن أبيه : كان رأس الشعوبية الذين يبغضون العرب ، ويرمونهم زورا بكل نقيصة ، وكان يخفى هذا الأمر ويتظاهر بضده ليحسن السبك . وإنى أورد هنا نص عبارة العلامة الشيخ محمود شكرى الألوسى البغدادى فى كتابه « بلوغ الأرب فى معرفة أحوال العرب » ، قال : قال أبو عبيدة البكرى فى شرح أمالى القالى : « كتاب مثالب العرب أصله لزياد بن أبيه ، فإنه لما ادعى أبا سفيان أباً علم أن العرب لا تقر له بذلك مع علمهم بنسبه ، فعمل كتاب المثالب ، وألصق بالعرب كل عيب وعار وباطل وإفك وبُهت ، ثم ثنى على ذلك الهيثم بن عدىّ وكان دعيّا ، فأراد أن يعير أهل الشرف تشفيا منهم ، ثم جدد ذلك أبو عبيدة معمر بن المثنى وزاد فيه ، لأن أصله كان يهودياً فأسلم جده على يدى بعض آل أبى بكر ، فانتمى إلى ولاء تيم » (ج ٣ ص ١٦٠) . أقول : ثم ورثه فى هذا البغض ابنه عبيد الله ابن زياد والى الكوفة فى عهد يزيد بن معاوية . وابن زياد هذا هو الذى أمر بقتل الحسين بن على رضى الله عنهما ، وأن تطأ الخيل بعد قتله صدره وظهره ! . هذا زياد بن أبيه ، وهذا ابنه عبيد الله [1] ، وهذا موقفهما من أشراف العرب ! .

بقيت مسألة عبد الله بن أبىّ وعده من أسباب تأخر المسلمين مع أنه كان فى عهد الرسول . والجواب عنها سهل ، فإن هذا المنافق كان جرثومة قوية تولدت منها الجراثيم التى كانت سببا فى تأخر المسلمين بعد اكتمال مجدهم ، وهذا نظير قوله تعالى « فلما آتاهما صالحا جعلا له شركاء فيما آتاهما ، فتعالى الله عما يشركون » . فآدم عليه السلام وحواء لم يجعلا لله شركاء ، وإنما كانا سببين فيمن جعلوا لله شركاء من ذريتهما ، فلذا أسند إليهما اتخاذ الشركاء والمراد ذريتهما . وهذا واضح وبالله التوفيق ؟

---

(١) كانت خاتمته أن قتل بيد ابراهيم بن الأشتر النخعى بالموصل سنة ٦٦ هـ ، وحملت رأسه الى عبد الله بن الزبير بمكة . وتلك عاقبة الباغى الظلوم ! (مروج الذهب للمسعودى ج ٣ ص ٤١ - ٤٢)

نظـــــرية المعرفة

بين الغزالى و الفلاسـفة

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ سليمان دنيا
مدرس الفلسفة بكلية أصول الدين

للأستاذ الدكتور « جميـل صليبا » بحوث حول الغزالى ، تدل على عناية خاصة بفلسفته . حقق له كتاب « المنقذ من الضلال » وطبعه عـدة مرات ، وقدم له ببحوث تحليلية وافية ، تناولت حياته ، وفلسفته ، وخاصة ما جاء منها فى كتاب « المنقذ » . وفضلا عن كل ذلك فقـد وضع فهرساً قيما لـكتبه ، عُنى فيه بإحصائها وتصنيفها ، وبيـان المفقود منها والموجود ، والمطبوع والمخطوط ، وماز صحيح النسبة من زائفها ، ودل على أماكنها ومظان وجودها ؛ وذلك عمل قيم جليل ، يقدره الباحثون قدره ، ويدركون أثره وخطره .

والدكتور « جميـل » من المعجبين بالغزالى المفضلين له على من سـواه . ومن قوله فيه : « ونستطيع أن نلخص القول فى فلسفة الغزالى بأنها صورة حية عن حياته الشخصية ، وأنها بقـدر ما أهملت البحث فى حوادث هذا العالم ، كانت تزداد عمقا وتعمقا ونفوذا فى ماهية الدين . ولا شك فى أن الغزالى قـد ارتفع عن مستوى الفلاسفة قبله ، الذين تمسكوا بالعقل ، واعتبروا الدين من منتوجات الخيال أو اختراعات المشترعين . على العكس من ذلك شرح لنا الغزالى العقيدة الدينية بأنها كشف باطنى ، وحقيقة روحية . ولا يمكن التردد فى تفضيل محاولات الغزالى للوصول إلى الحقيقة العليا ، على مباحث الفلاسفة فى عهده ، الذين اقتصروا فى الغالب على تكرار ما قيل قبلهم » .

ويظهر أن الدكتور « جميل » يتابع دراساته عن الغزالى ؛ فقد وقع فى يدى عددان من مجلة المجمع العلمى العربى التى تصدر فى دمشق ، وفيهما له مقالان كبيران عن الغزالى بعنوان « الغزالى وزعماء الفلاسفة » وعَنَى بزعماء الفلاسفة — كما جاء فى مقاله — الفارابى وابن سينا : تناول فى أولهما : أسباب حملة الغزالى على الفلاسفة وغايتها ، وطريقته فى الرد على الفلاسفة ، وموضع الخلاف بينه وبين الفلاسفة .

ومهد لمقاله الثانى بعبارة فى آخر مقاله الأول جاء فيها « فلنقتصر على الإشارة الى بعض القضايا التى تدل على أن الغزالى قد وُفق فى نقده ، لوضع أصول جديدة لفلسفة عامة جديدة . وهذه القضايا التى نريد ذكرها على سبيل المثال هى : مسألة المعرفة ، ومسألة العالم والزمان والمكان ، ومسألة السببية » .

ورأيه فى مسألة المعرفة هو ما أريد أن أعرض له فى مقالى هذا ، بالنقد والتعليق ، أو بالاستفسار عن أفكار جاءت فيه ، أراها بحاجة الى الإيضاح والبيان ، لعل الدكتور « جميل » يطالعنا بما يرفع عنها اللبس ويزيل الغموض .

يرى الدكتور « جميل » أن للغزالى رأيا فى المعرفة ، وللفلاسفة رأيا غيره ؛ بل يرى أن « مسألة المعرفة هى الأساس الذى يرجع إليه الخلاف بين الغزالى والفلاسفة » .

أما رأى الفلاسفة — فيما يرى الدكتور « جميل » — فيرجع الى أن الحواس الظاهرة تقع على ما يصادفها من عالم المحسات فتلتقط له صورا ، وتنقلها الى الحواس الباطنة ، التى تنقلها بدورها الى العقل ، بعد أن تكون قد عملت فيها — بقدر طاقتها المحدودة — عملا يساعد العقل على تخليصها من شوائب المادة وعلائقها ، وتحويلها من جزئى خاص الى كلى عام .

إلا أن الحواس والعقل ما كان لهما أن يصلا الى هذه النتيجة لولا مساعدة « العقل الفعال » الذى إليه يرجع الفضل فى تصيير هذا التحويل ، حاصلا بالفعل ، بعد أن كان بمجهود العقل والحواس واقفا عند حد القوة .

قال الدكتور « جميل » فى مقاله : « كان الفلاسفة يقولون : إن المعرفة لا تتم بطريق التجربة ، بل تتم بإشراق الصور من « العقل الفعال » على العقل الإنسانى . فالعقل يكون فى أول أمره عقلا بالقوة ، ثم يصير عقلا بالفعل ، وذلك بما يصل إليه من الصور التى تؤديها إليه الحواس الظاهرة والباطنة . ولكن هذا الانتقال من القوة إلى الفعل لا يتم إلا بتأثير « العقل الفعال » . وتتمايز العقول الإنسانية بعضها من بعض بمقدار استعدادها للاتصال بالعقل الفعال الذى تتلقى عنه المعرفة . وفى ضوء هذا العقل يستطيع عقلنا أن يدرك الصور الكلية ، وبه يصير الإحساس معرفة . فأنت ترى أن الفلاسفة قد بنوا المعرفة على العقل ؛ لأن العقل هو الذى يجرد الصور من اللواحق المشخصة وينتزع من الصور المتخيلة صورا كلية . ولكن الصور المنتزعة من الإحساس والخيال لا تصبح صورا عقلية إلا بتأثير العقل الفعال » .

هذا هو تصوير الدكتور « جميل » لنظرية المعرفة عند الفلاسفة ، ولعله تلخيص لما جاء فى الإشارات ج ٢ ص ٣٣٨ إخراجنا ، طبع عيسى الحلبى .

وأما رأى الغزالى ـ فيما يرى الدكتور أيضا ـ « فيختلف عن مذهب الفلاسفة فى مبادئه وغاياته ؛ لأنه قد بنى المعرفة على التجربة والكشف الباطنى » . وساق الدكتور ، استشهادا على أن للمعرفة طريقين عند الغزالى ، قوله فى الإحياء : « والقلب مثل الحوض ، والعلم مثل الماء ، وتكون الحواس الخمس مثل الأنهار . وقد يمكن أن تساق العلوم إلى القلب بواسطة أنهار الحواس والاعتبار والمشاهدات ، حتى يمتلىء علما ؛ ويمكن أن تسد هذه الأنهار بالخلوة والعزلة وغض البصر ، ويعمد إلى عمق القلب بتطهيره ، ورفع طبقات الحجب عنه ، حتى تتفجر ينابيع العلم من داخله » .

ثم علق على النص قائلا « وهذا يدل على أن المعرفة ـ يعنى عند الغزالى ـ تحصل فى النفس بطريقين مختلفين :

« الأول : هو طريق الحواس والاعتبار والمشاهدة ، وهو طريق التجربة الخارجية ، أو طريق المعرفة غير المباشرة .

« والثانى : هو طريق القلب وتطهيره ، ورفع الحجب عنه ، وهو طريق التجربة الداخلية المباشرة » .

* * *

لعل المقابلة التى أوجدها الدكتور بين رأى الفلاسفة فى المعرفة ، وبين التجربة الخارجية التى هى أحد طريقى المعرفة عند الغزالى ، تدل على أن الدكتور يذهب إلى أن التجربة الخارجية عند الغزالى لا يتدخل فيها ما يسميه الفلاسفة بالعقل الفعال ، وإنما يقوم بالدور كله ، الحواس الظاهرة والباطنة وعقل الإنسان .

ولكنا إذا رجعنا إلى كتاب « معارج القدس » للغزالى الذى أغفله الدكتور فى هذا البحث إغفالا تاما ، مع أنه من الكتب التى ألفها الغزالى فى أخريات حياته ، واختصها بالمعارف الدقيقة الهامة عنده ، وأوجب أن لا يباح بها إلا لذوى العقول الناضجة ، وهو من الكتب الصحيحة النسبة الى الغزالى حتى فيما يرى الدكتور .

أقول : إذا رجعنا إلى هذا الكتاب ، وجدنا الغزالى يقول فيه ص ٦٢ :
« وأما مراتب الإدراكات فى التجريد ، فاعلم أن المدرك الذى يفتقر إلى تجريد ، لا يخلو فى الوجود الخارجى عن لواحق غريبة وأعراض غاشية : من قدر وكيف وأين ووضع . . .

« فإذا فهمت هذا فاعلم أن مراتب المدركات مختلفة فى التجريد عن هذه الغواشى واللواحق ، وهى على أربع مراتب :

« الأولى : إنما هى الحس ، فإنه يجرد نوعا من التجريد ؛ إذ لا تحل فى الحاس تلك الصورة بل مثال منها ، إلا أن ذلك المثال إنما يكون إذا كان الخارج على قدر مخصوص ، وبعد مخصوص ، ويناله مع تلك الهيئة والوضع ؛ فلو غاب عنه أو وقع له حجاب لا يدركه .

« المرتبة الثانية : إدراك الخيال ، وتجريده أتم قليلا وأبلغ تحصيلا ؛ فإنه لا يحتاج إلى المشاهدة ، بل يدرك مع الغيبوبة ، إلا أنه يدرك مع تلك اللواحق والغواشى : من الكم والكيف ، وغير ذلك .

« المرتبة الثالثة : إدراك الوهم ، وتجريده أكمل وأتم مما سبق ؛ فإنه يدرك المعنى المجرد عن اللواحق وغواشى الأجسام ، كالعداوة والمحبة ، والمخالفة والموافقة ؛ إلا أنه لا يدرك عداوة كلية ومحبة كلية ؛ بل يدرك عداوة جزئية ، بأن يعلم أن هذا الذئب عدو مهروب عنه ، وأن هذا الولد صديق معطوف عليه .

« المرتبة الرابعة : إدراك العقل ؛ وذلك هو التجريد الكامل عن كل غاشية ، وجميع لواحق الأجسام ؛ بل جناب إدراكه منزه عن أن يحوم حوله لواحق الأجسام : من القدر والكيف وجميع الأعراض الجسمية . ويدرك معنى كليا لا يختلف بالأشخاص ؛ فسواء عنده وجود الأشخاص وعدمها ، وسواسية لديه القرب والبعد ؛ بل ينفذ فى أجزاء الملك والملكوت ، وينتزع الحقائق منها ويجردها عما ليس منها .

« هذا إن كان يحتاج المدرك الى تجريد ؛ فإن كان منزها عن لواحق الأجسام مبرأ عن صفاتها ، فقد كفى المؤونة ، فلا يحتاج الى أن يفعل به فعلا ، بل يدركه كما هو » .

ويقول ص ٥٤ : « فالقوة النظرية تارة تكون نسبتها الى الصور المجردة ، نسبة ما بالقوة المطلقة ، وذلك متى تكون هذه القوة للنفس لم تقبل بعد شيئا من الكمال الذى بحسبها ، وحينئذ تسمى عقلا هيولانيا . وتارة نسبة ما بالقوة الممكنة وهى أن تكون الهيولانية قد حصل فيها من المعقولات الأولى ما يتوصل منها الى المعقولات الثانية ، ويجوز أن تكون نسبة ما بالقوة الكمالية ، وهو أن يكون قد حصل فيها أيضا الصور المعقولة المكتسبة بعد المعقولة الأولية ، إلا أنه ليس يطالعها ويرجع اليها بالفعل ، بل كأنها عنده مخزونة ، فمتى شاء طالع تلك الصور بالفعل وعقلها وعقل أنه عقلها وتسمى عقلا بالفعل ؛ لأنه يعقل متى شاء بلا اكتساب . . . وتارة تكون نسبته نسبة ما بالفعل المطلق ، وهو أن تكون الصور المعقولة حاضرة فيه ، وهو يطالعها بالفعل ويعقلها بالفعل ، ويعقل أنه يعقلها بالفعل ، فحينئذ يكون عقلا مستفادا . وإنما سمى مستفادا ، لأنه سيتضح أن العقل بالقوة إنما يخرج الى الفعل بسبب عقل هو دائم الفعل ، وأنه إذا اتصل به العقل بالقوة نوعا من الاتصال ، انطبع فيه بالفعل نوع من الصورة تكون مستفادة من خارج » .

وعقد فصلا بعنوان « بيان أمثلة مراتب العقل من الكتاب الإلهى ، ص ٥٨ جاء فيه « ثم هذه الأنوار — يشير الى المعارف الإنسانية — مستفادة من سبب ، هذه الأنوار بالنسبة اليه كالسرج بالنسبة الى نار عظيمة طبقت الأرض . فتلك النار هى العقل الفعال المفيض لأنوار المعقولات على الأنفس البشرية » .

ويقول ص ١٢٢ : « ولو انفتح لك باب معرفة الملكية لرأيت الأرواح البشرية ، كسراج اقتبس من نار عظيمة طبقت العالم ، وتلك النار العظيمة هى الروح الأخير من أرواح الملائكة » .

ويقول فى ص ٩٩ : « ههنا أربعة أمور : القلب ، وحقائق الأشياء ، وحصول نقش الحقائق فى القلب ، ونور به تنكشف الحقائق فى القلب ؛ وهو فى الشرع عبارة عن جبريل عليه السلام ، وفى عبارة الحكماء عبارة عن العقل الذى بواسطته تفيض العلوم على الأرواح البشرية » .

ويقول فى ص ١٣٨ : « إن القوة العقلية إذا اطلعت على الجزئيات فى الخيال وأشرق عليها نور العقل الفعال ، استحالت مجردة عن المادة وعلائقها ، وانطبعت فى النفس الناطقة ، لا على أن نفسها تنتقل من التخيل الى العقل ، بل على معنى أن مطالعتها تعد النفس لأن يفيض عليها المجرد من العقل الفعال » .

ويقول فى ص ١٦٢ : « وسبب العلم : العقل الفعال ، أو الملك المقرب » .

ويقول فى ص ١٣٧ : « إن النفس الإنسانية قد تكون عاقلة بالقوة ، ثم تصير عاقلة بالفعل ، وكل ما خرج من القوة إلى الفعل ، فإنما يخرج بسبب هو بالفعل يخرجه ؛ فههنا سبب هو الذى يخرج نفوسنا فى المعقولات من القوة إلى الفعل ؛ وإذ هو السبب فى إعطاء الصور العقلية ، فيكون عقلا بالفعل ، عنده مبادىء الصور العقلية مجردة ، فهذا الشىء سمى بالقياس إلى العقول التى تخرج منه إلى الفعل ، عقلا فعالا » .

* * *

من هـذه النصوص الكثيرة نستطيع أن نقول قول المتثبت : إن الغزالى لم يغفل ما يسميه الفلاسفة بـ « العقل الفعال » سواء لديه العلم الذى ينبع من داخل القلب ، والعلم الذى ينحدر عن طريق قنوات الحواس .

ذلك : لأن معرفة الإلهام التى تنبع من داخل القلب عند الغزالى ، تقوم على أساس أن القلب إذا زال عنه صدأ المعاصى ، وصقلت صفحته ، واستقبل اللوح المحفوظ — الذى هو فى لسان الشرع « قلوب الملائكة المقربين » أو الروح الأخيرى ، وفى لسان الفلاسفة « العقل الفعال » — انطبع فيه من المعارف ما هو مستعد له .

ولأن معرفة التجربة التى تأتى عن طريق قنوات الحواس ، العقلُ الفعالَ هو الذى يقوم بالدور الأخير فيها ؛ إنه هو الذى ينقل تحويل الجزئى إلى كلى ، من القوة إلى الفعل ؛ على ما أفادته النصوص السابقة .

وإذا كان كل الفارق الذى أوجـده الدكتور « جميل » بين المعرفة عنـد الفلاسفة ، وبين طريق التجربة عند الغزالى ، هو الدور الذى يلعبه العقل الفعال فى معرفة الفلاسفة ، دون التجربة التى عند الغزالى ، أمكن لنا أن لا نقبل هذه التفرقة ما دامت هذه النصوص الكثيرة التى نقلناها عن كتاب معارج القدس قد أفادت بشكل قاطع أن الغزالى يعترف فى كل صنوف المعرفة بالدور الخطير الذى يلعبه العقل الفعال .

وإذن يحق لنا أن نقول : إن ما سماهما الدكتور « جميل » « المعرفة الفعلية عند الفلاسفة » و « التجربة الخارجية عند الغزالى » وأراد أن يجعلهما شيئين متباينتين ، هما شىء واحد ، لا شيئان .

* * *

وإذا تم لنا أن المعرفة العقلية عند الفلاسفة ، هى نفس المعرفة التجريبية عند الغزالى ، فإنا نتساءل عن طريق الكشف الباطنى المسمى بالإلهام عند الغزالى ، هل هو غريب عن الفلاسفة لا يعرفونه ؟! أو فى عبارة أخرى : ينكرونه ولا يعترفون به ؟! .

وجواب الدكتور « جميل » عن هذا السؤال معروف كما اتضح من نصوصه التى سقناها سابقا ، وهو الإيجاب ؛ إذ أنه يرى أن الغزالى باين الفلاسفة فى الطريقين معا : طريق التجربة ، وطريق الكشف والإلهام .

وعندى أن الفلاسفة يعرفون أيضا طريق الكشف والإلهام ويقرون به ، فها هو ابن سينا يقرر فى تصوف الإشارات قريبا مما يقرر الغزالى فى تصوفه . ولو خشية الاطالة لسقت نصوصه الكثيرة حول هذا الموضوع ، وحسبى أن أحيل على النص ص ٢١٦ من طبعة ليدن .

* * *

وبعد ، فإن التأريخ للفيلسوف من بعض كتبه عمل ناقص وغير دقيق ، خصوصا فيلسوفا كالغزالى الذى أبنت فى كتابى عنه « الحقيقة فى نظر الغزالى » أنه له جملة مظاهر أو جملة مذاهب ؛ وتحت كل مظهر من مظاهره ، أو مذهب من مذاهبه ، تقع طائفة من كتبه ؛ فالاقتصار فى التأريخ له على لون دن هذه الكتب ، ليس إلا كشفا لمظهر واحد من مظاهره ؛ والقناعة بهذا المظهر معناها الرضا بأن تظل الجوانب الأخرى مجهولة ؛ وسيظل الغزالى — فى حقيقته — مجهولا ، حتى تكشف كل هذه الجوانب .

ولعل شهرة الغزالى بالتصوف ، وبمناهضة الفلسفة والفلاسفة ، ألقيا فى روع الباحثين أن الغزالى فى ناحية والفلاسفة فى ناحية أخرى ، ولكن صوفية الغزالى ومناهضته للفلسفة والفلاسفة ليسا إلا جانبا أو جانبين من جوانب كثيرة للغزالى ، لعلهما أهون هذه الجوانب شأنا ؟

كتيبة

ورُبَّ ملتفة العوالى ... يلتمع الطرف فى ذراها
إذا توطت حزون أرض ... طحطحت الشم من رباها
يقودها منه ليث غاب ... إذا رأى فرصة قضاها
تمضى بآرائه سيوف ... يستبق الموت فى ظباها
بيض تخلى القلوب سودا ... إذا انتضى عزمه انتضاها

باب الأسئلة والفتاوى

تعقيب على فتوى شرعية

نشر فى الجزء الخامس من مجلة الأزهر الشريف لعامها التاسع عشر الصادر فى جمادى الأولى سنة ١٣٦٧ ، فتوى شرعية بعنوان : (نقل المسجد) يسأل المستفتى فيها لجنة الفتوى بالجامع الأزهر : هل هناك رأى بجواز بيع مسجد بحجة أنه فى شارع ضيق جدا ، وأن مساحته ضيقة ، بحيث تصبح أرض المسجد وبناؤه ملكا حرا لمن يشتريها ، ثم يشترى بثمن ذلك مع ما يجمع من الاكتتابات أرض بالمكان القريب المتسع ويبنى عليها مسجد متسع ؟ .

وقد أجابت اللجنة الكريمة باسم رئيسها صاحب الفضيلة الأستاذ عبد المجيد سليم بأنه إذا كانت إقامة المسجد على القطعة المراد شراؤها خيرا وأصلح من المكان المراد بيعه جاز بيع هذا المكان وشراء ما يراد شراؤه بثمنه مع ما يتبرع به ليكون مسجدا بدله ، وذلك بواسطة المحكمة الشرعية المختصة إذا كان المكان الأول قد جعل مسجدا بالفعل . وهذا على ما ذهب اليه الامام أحمد بن حنبل واختاره شيخ الاسلام ابن تيمية ، وهو ما تختاره اللجنة للفتوى . والله أعلم .

* * *

ولما كانت مجلة الأزهر بالمنزلة الأولى من المجلات الدينية المعتمدة والموثوق بفتاويها ، صرح لى صديق نافذ الكلمة والرأى فى مجلس الأوقاف بدمشق بأنه يرغب بعد اليوم فى العمل بمقتضى هذه الفتوى فى جميع ما يتعلق بها فى مجلس أوقاف دمشق ، بحيث تصبح دستورا تعمل به كافة مجالس الأوقاف لا فى دمشق وحدها بل فى عامة البلدان السورية ، قال ما مؤداه : أولا يكفينا مذهب الامام أحمد ، وهل لا نرضى بورعه وعلمه ؟ أضف الى ذلك أن هذه المسألة مما اختاره

الامام ابن تيمية . ثم بعد كلام اتفقنا على التريث فى الأمر الى أن نسأل فضيلة مفتى الحنابلة بدمشق ، من حيث إنه الجهة المختصة المسئولة . وقد أرسلت إليه عدد مجلة الأزهر فجاء منه ما يأتى :

فتوى الأزهر ونقل المسجد

لم يرد فى مسوغات بيع المسجد واستبداله لفظ (خير وأصلح) كما ورد فى فتوى الأزهر ، وإنما المسوغات لذلك هى أن تتعطل المنفعة المقصودة من المسجد :

(١) بأن يخرب ولا يوجد له مال يعمر به .

(٢) أو يضيق عن أهله ولا يمكن توسيعه فى موضعه .

(٣) أو تخرب محلته .

(٤) أو ينتقل أهل محلته الى محلة أخرى .

(٥) أو يكون موضعه قذرا بحيث يمنع ذلك من الصلاة فيه .

أما كونه فى شارع ضيق أو كون مساحته ضيقة دون أن يضيق عن أهله ، أو يكون هناك أحد المسوغات المذكورة ، فليس استبداله بغيره موافقا لمذهب الحنابلة على ما فى كتبهم المتقدمة كالمغنى ٢٢٥ والشرح الكبير ٢٤٢ والفروع ٨٩٤ ؛ والمتأخرة المفتى بها كالمنتهى ٥٢٠ والاقناع ٧٤٠ والله تعالى أعلم .

قال العلامة القاضى علاء الدين المرداوى فى كتاب (الإنصاف فى معرفة الراجح من الخلاف) :

« اعلم أن الوقف لايخلو إما أن تتعطل منافعه أولا ؛ فإن لم تتعطل منافعه لم يجز بيعه ولا المناقلة به مطلقا . نص عليه (أى الامام) ، وعليه الأصحاب . (ثم قال) وجوز الشيخ تقى الدين (ابن تيمية) ذلك لمصلحة . ونقل صالح نقل المسجد لمصلحة النـاس . واختـاره صاحب الفائق (ابن قاضى الجبل تلميذ ابن تيمية) وحكم به فعارضه القاضى جمال الدين المرداوى صاحب الانتصار وقال : حكمه باطل على قواعد المذهب ، وصنف فى ذلك مصنفا رد فيه على الحاكم سماه (الواضح الجلى فى نقض حكم ابن قاضى الجبل الحنبـــلى) ووافقه صاحب الفروع على ذلك » . انتهى

ومما تقدم يعلم أن فتوى الأزهر هى على قول ابن تيمية وأتباعه ، وليست على نص الإمام ، ولا على المذهب المفتى به .

كتبه الفقير محمد جميل الشطى
المفتى الحنبلى بدمشق
عفى عنه

هذا ومما تقدم يعلم السبب الحامل لنا على نشر هذا التعقيب ، والله يتولى هدانا جميعا . دمشق — محمود ياسين

* * *

رد لجنة الفتوى

بسم الله الرحمن الرحيم .

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان الى يوم الدين .

أما بعد ، فقد اطلعت اللجنة على ما ورد فى كلام صاحب الفضيلة الشيخ محمد جميل الشطى المفتى الحنبلى بدمشق تعقيبا على فتوى هـذه اللجنة فى موضوع نقل المسجد الى مكان آخر للمصلحة . وقد استخلص فضيلته من النصوص التى ذكرها أن فتوى الأزهر هى على قول ابن تيمية وأتباعه ، وليست على نص الامام أحمد ولا على المذهب المفتى به .

وتفيد اللجنة بأن شيخ الاسلام ابن تيمية نسب الى الامام أحمد جواز نقل المسجد الى مكان آخر للمصلحة . وهذا نص عبارته بعد كلام لا حاجة اليه فى هذا الموضوع : « النصوص عنـد أحمد وأصوله وعموم كلامه وكلام أصحابه وإطلاقه يقتضى أن يفعل فى ذلك ما هو مصلحة أهل الوقف ، فإن أصله فى هذا الباب مراعاة مصلحة الوقف ؛ بل أصـله فى عامة العقود اعتبار مصلحة الناس ؛ فإن الله أمر بالصلاح ونهى عن الفساد ، وبعث رسله بتحصيل المصالح وتكميلها ، وتعطيل المفاسد وتقليلها ؛ وقال موسى لأخيه هارون « اخلفنى فى قومى وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين » وقال شعيب « إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت » وقال تعالى

« فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون » وقال تعالى « وإذا قيل لهم لا تفسدوا فى الأرض قالوا إنما نحن مصلحون . ألا إنهم هم المفسدون » .

وقد جوز الامام أحمد بن حنبل إبدال مسجد بمسجد آخر للمصلحة ، كما جوز تغييره للمصلحة ، واحتج بأن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أبدل مسجد الكوفة القديم بمسجد آخر ، وصار المسجد الأول سوقا للمارين . . . » الى آخر عبارته المذكورة فى صفحة ٣٨٨ من الجزء الثالث من فتاواه .

والمأخوذ من هذه العبارة أمران : الأول : نسبة القول بجواز إبدال مسجد بمسجد آخر المصلحة الى الامام أحمد صراحة . ولا يمكن لمثل ابن تيمية فى علمه وأمانته أن ينسب الى الامام أحمد ما لم ينص عليه . ولو كان ابن تيمية قد أخذ هذا استنتاجا من القواعد والأصول لبين ذلك كما هو شأنه فى غير هذه المسألة ؛ لا سيما أنه ساق هذه العبارة « وقد جوز أحمد بن حنبل إبدال مسجد بمسجد آخر للمصلحة الخ » فساق الاستدلال بها على مطلوبه من أنه يجوز شراء عين بيدل الوقف فى بلد آخر غير بلد الموقوف إذا كان فى ذلك مصلحة للموقوف عليهم . وسوق هذه العبارة هذا المساق دليل على أن ذلك هو مذهب الامام أحمد ، وأنه مسلم به ومفروغ منه .

الأمر الثانى : أن ما ذكره من اقتضاء أصول أحمد ونصوصه وعموم كلامه وكلام أصحابه وإطلاقه أن يفعل فى الوقف ما هو مصلحة لأهله — يقتضى أيضا أن مذهبه هو ما نسبه إليه شيخ الإسلام ابن تيمية . ويؤيد ذلك ما أورده فضيلة الشيخ الشطى وذكره صاحب الفروع من أن صالحا نقل عن الإمام أن نقل المسجد جائز لمنفعة الناس ، فاعتبر مجرد المصلحة فى جواز نقل المسجد . وأيضا فالمنقول عن الإمام نصا أنه يجوز نقل المسجد إلى مكان آخر لضيقه ، وقد قيده بعض المشايخ كابن قدامة فى المغنى بحالة ما إذا لم يمكن توسيعه ، مع أن الدليل الذى استدل به على جواز النقل لا يدل على ضرورة هذا التقييد وإنما يدل على جواز النقل للمصلحة . فإذا كان المسجد ضيقا ويمكن توسيعه وكانت المصلحة فى نقله مع ذلك متوافرة بأن كان المكان الذى ينقل إليه المسجد أدعى إلى تكثير الجماعة والمصلين بأن يكون فى شارع عام يتيسر لكل شخص الوصول إليه وكان

فى جو أحسن من جو المكان الذى فيه المسجد الأول الضيق ، فالمصلحة هنا متحققة مع إمكان التوسعة . ومقتضى ما نقل عن عمر رضى الله عنه جواز النقل حينئذ ، ونصه على ما جاء فى المغنى : « ولنا ما روى أن عمر رضى الله عنه كتب إلى سعد لما بلغه أنه قد نقب بيت المال الذى بالكوفة : « انقل المسجد الذى بالتمارين واجعل بيت المال فى قبلة المسجد فإنه لن يزال فى المسجد مصل » . قال صاحب المغنى : وكان هذا بمشهد من الصحابة ، ولم يظهر خلافه ، فكان إجماعا .

وهذا الدليل الذى اعتمده صاحب المغنى يدل على أنه يجوز نقل المسجد للمصلحة ولو كانت هذه المصلحة لا تتعلق بالمسجد نفسه ، فإن عمر رضى الله عنه أمر بنقل المسجد للمحافظة على مال بيت المال ، وكان من الممكن أن يبقى المسجد على حاله ، وأن يعين حراسا لبيت المال .

وبعد ، فما جاء فى الكتب التى ذكرها فضيلة المفتى من مسوغات نقل المسجد يظهر أنه ليس المقصود به حصر المسوغات فيما ذكر ، بل لأنه بوجود مسوغ من هذه المسوغات تتحقق المصلحة التى هى مناط الجواز ، فلو وجدت هذه المصلحة مع عدم وجود مسوغ من المسوغات المذكورة تعين جواز النقل لهذه المصلحة ، كما يدل على ذلك ما أشار إليه شيخ الاسلام ابن تيمية من اقتضاء نصوص الإمام أحمد وأصوله وعموم كلامه وكلام أصحابه وإطلاقه أن يفعل فى ذلك ما هو مصلحة أهل الوقف ، وأهل الوقف فى المساجد هم المسلمون .

وبما ذكرنا تبين أن مذهب أحمد جواز نقل المسجد إلى مكان آخر إذا كان هذا النقل خيرا وأصلح كما قالت اللجنة فى فتواها . والله أعلم ؟

رئيس لجنة الفتوى

عبد المجيد سليم

الحلقـــــة الأولى

في تاريخ الأزهر العلمي

لفضيلة الأستـــاذ الشيخ منصور رجب
مدرس الأخلاق بكلية أصول الدين



مذهب الشيعة هذا الذى دخل مصر على يد جوهر الصقلى فى سنة ٣٥٨ هـ وعاش فيها حتى سنة ٥٦٧ ، هو مذهب الإسماعيلية .

وسُموا إسماعيلية نسبة إلى اسماعيل بن جعفر الصادق من ولد على بن أبى طالب . ذلك أن الإمامية بعد جعفر هذا افترقوا فرقتين : فرقة قالت بإمامة ابنه موسى الكاظم ، والأخرى قالت بإمامة ابنه الأكبر اسماعيل بن جعفر ؛ لهذا سموا إسماعيلية . لكن لما كان اسماعيل قد مات فى حال حياة أبيه ، حوّلوا الإمامة إلى ابنه محمد ؛ فهو صاحب الدعوة ، وهو عندهم المهدى المنتظر . وسمى محمد بن اسماعيل بهذا الاسم — المهدى المنتظر — استتاراً من اضطهاد الخلفاء العباسيين ، هذا الاضطهاد الذى حول العلويين من طلب الخلافة جهرا إلى الدعوة لأنفسهم سرا .

ولسنا نفيض فى ذكر المذاهب الغالية التى شغلت الأفكار فى تلك الأزمان ، لأنها لم تدخل مصر ولم تدرس بالأزهر ، وبادت من زمان بعيد .

وأول كتاب افتتح الأزهر به حياته العلمية فى صفر سنة ٣٦٥ هـ هو كتاب « الاقتصار » للقاضى أبى حنيفة النعمان المغربى فى فقه هذا المذهب ، أو فى فقه آل البيت كما كانوا يسمونه ، ولقد رجعت إلى دليل المخطوطات فى العالم « بركلمان » فوجدته لم يحدد مكان هذا الكتاب وإن كان قد دلنا على كتاب آخر للمؤلف نفسه وفى الموضوع ذاته ، ذلك الكتاب هو « مختصر الآثار فيما روى عن الأئمة الأطهار » ، وهو موجود فى مكتبة « الفاتيكان » تحت رقم ١١٠٤/٥ ولقد تقدمت برغبة لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر الشيخ محمد

مأمون الشناوى ، لإحضار نسخة من هذا الكتاب ليحفظ تحفة تاريخية فى مكتبة الأزهر ، وليكون مصدر الحلقة الأولى فى تاريخ الأزهر العلمى . وفى اعتقادى أن هذا عمل طيب بمناسبة العيد الألفى للأزهر ، يكلل عهد فضيلة الشيخ بالفخار والإكبار . وعلى ما تقدم يكون أبو حنيفة النعمان المغربى هذا هو أول عالم درست له كتب فى تاريخ الأزهر العلمى ، وابنه على هو أول عالم جلس للتدريس فى الأزهر .

وأبو حنيفة النعمان هذا يقدمه لنا « ابن خلكان » فى كتابه وفيات الأعيان بأنه كان مالكى المذهب ثم انتقل الى مذهب الإمامية ، وصنف كتاب ابتداء الدعوة للعبيديين ، وكتاب الأخبار فى الفقه ، وكتاب « الاقتصار » فى الفقه أيضا . ويقول نقلا عن ابن « زولان» فى كتاب أخبارقضاة مصر : « كان النعمان ابن محمد القاضى فىغاية الفضل منأهل القرآن والعلم بمعانيه ، وعالما بوجوه الفقه وعلم اختلاف الفقهاء ، واللغة ، والشعر الفحل ، والمعرفة بأيام الناس مع عقل وإنصاف ، وألف لأهل البيت من الكتب آلاف أوراق بأحسن تأليف وأملح سجع ، وعمل فى المناقب والمثالب كتابا حسنا ، وله ردود على المخالفين له ردا على أبى حنيفة وعلى مالك ، والشافعى ، وعلى ابن سريج . وكتاب اختلاف الفقهاء وينتصر فيه لأهل البيت رضى الله عنهم ، وله القصيدة الفقهية لقبها بالمنتخبة . وكان أبو حنيفة المذكور ملازما صحبة المعز أبى تميم معد المنصور ، ولما وصل من أفريقية الى الديار المصرية كان معه ولم تطل مدته ، وتوفى سنة ٣٦٣ بمصر ، وصلى عليه المعز .

وكان لأبى حنيفة هذا أولاد نجباء سراة ، منهم أبو الحسن على ؛ وأبو الحسن على بن النعمان هذا يعتبر ابتداء سلسلة علماء الأزهر الشريف ، ذلك المعهد العظيم الذى شع نوره على العالم الاسلامى ، والذى يقول عنه بحق المرحوم أحمد شوقى بك :

واذكره بعد المسجدين (١) معظما ... لمساجد الله الثلاثة (٢) مكبرا
واخشع مليا ، واقض حق أئمة ... طلعوا به زهرا وماجوا أبحرا
كانوا أجل من الملوك جلالة ... وأعز سلطانا وأفخم مظهرا
زمن المخاوف كان فيه جنابهم ... حرم الأمان وكان ظلهم الذرا (٣)
من كل بحر فى الشريعة زاخر ... ويريكه الخلق العظيم غضنفرا

---

(١) الحرام والأقصى . (٢) الحرام والأقصى والأزهر . (٣) الملجأ .

وكان على بن النعمان محل عطف وثقة العزيز بالله ثانى خلفاء دولة هذا المذهب بمصر ، الى أن قلده القضاء بالديار المصرية ، والشام ، والحرمين ، والمغرب ، وجميع مملكته ، والخطابة والإمامة ، ودار الضرب . وقرىء مرسوم توليته هذه الأشياء بالجامع الأزهر وبجامع عمرو ، وكان أمرهما اليه . وكان من عادة الدولة وقتئذ أن من يقلد هذه الوظيفة يخلع عليه الخلع المذهبة ، ويقلد السيف ، ويتم له ذلك بلا طبل ولا بوق إلا إذا ولى أمر الدعوة مع الحكم ، فلقد كان للدعوة فى خلعها الطبل ، والبوق ، والبنود ، ولا تزال الطبول والبنود موجودة بمصر حتى الساعة عند أرباب الطرق الصوفية ، وهى بقية أو أثر من آثار هذه الدولة بمصر .

وكانت رتبة قاضى القضاه وقتئذ أجل رتب أرباب العمائم بمصر . ويكون فى بعض الأوقات داعيا فيقال له حينئذ : قاضى القضاة وداعى الدعاة . وكانت العادة ألا يحضر لإملاك ولا جنازة إلا بإذن . وكان داعى الدعاة يلى قاضى القضاة فى الرتبة ، ويتزيا بزيه فى اللباس وغيره .

ولما كان الأزهر بجوار القصر مكانا لمجالس الدعوة أو مجالس الحكمة كما كانوا يسمونها أيضا ، كان لابد من ذكر شىء أو وصف لهذه الدعوة حتى نعرف ما كان يقوم به الأزهر فى هذا السبيل . وإذا كان مذهب الروافض يعتبر الكلام عليه تأريخا للحلقة الأولى فى تاريخ الأزهر العلمى ، فإن هذه الدعوة من هذا المذهب كالأساس الذى يقوم عليه البناء .

إن هذه الدعوة دعوة الاسماعيلية أو هذا المذهب ، وضع أصلا فى العراق ثم أخذ يعرف فى البلدان الإسلامية ، فعرف فى اليمن والشام وبلاد المغرب ، ومنها حضر الى مصر . وهذه الدعوة منسوبة الى شخص كان بالعراق يعرف بميمون القداح ، وكان من غلاة الشيعة ، ثم رتبها عبد الله بن ميمون هذا مذهبا جعله فى تسع دعوات . ودعا الناس الى مذهبه فاستجاب له خلق كثير ، وكان يدعو الى الامام محمد بن إسماعيل فصار له مال ، واشتهرت دعاته ، وانتشروا فى أقطار الأرض وتفقهوا فى الدعوة حتى وضعوا فيها الكتب الكثيرة ، وصارت علما من العلوم المدونة .

العصر العظيم فى تاريخ العالم

— ٣ —

« كُنفشيوس ـ جوتامو بوذا ـ زَرْدَشت ـ فيثاغوراس » من وجهة نظرٍ تأليفية

تأليف : ف . ستانكا .   تعريب : عمر طلعت زهران

« محاضرة خارج المنهج الدراسى ألقيت فى جامعة هامبورج فى التاسع عشر من سبتمبر سنة ١٩٤٦ ، ويجب أن ينظر الى ربط أصل نظريات هؤلاء الأربعة باستخدام الحديد والاستقلال السياسى كفرض يحتاج الى فحص وتمحيص » .

— ٣ —

وعلينا ، لكى نفهم هذه التعاليم ، أن نرجع الى مصادرها ، وهنا نجد صعوبات جمة . وقد يكون سبب هذه الصعوبات ندرة هذه المصادر كما هو الحال مع فيثاغوراس ، فلم يبق من كتاباته سطر واحد . هذا إذا تكلمنا عن كتاباته التى يختلف الباحثون فيها ، فيما إذا كان قد كتب شىء على الاطلاق ، وقد فقدت كتابات تلاميذه أيضا . وأول المصادر المكتوبة عنه كانت مراجع لمؤلفين آخرين لا ينتمون الى الفيثاغورية ، يبتدئون بالمؤرخين مثل « هيرودوت وديودورس » وفلاسفة مثل « أفلاطون وأرسطو » . أما أدق الأخبار عنهم فيمكن أن توجد فقط فى مؤلفات الكتاب الأفلوطينيين « يامبيخوس وبورفيريوس » أو فى مؤلفات « ديوجين » ، وعلينا أن نتذكر أن هذه الكتابات قد وضعت بعد موت فيثاغوراس بنحو سبعة أو ثمانية قرون ، ويجب أن نكون على أشد الحذر حين نأخذ من هذه المصادر المشككة غير المعتمد عليها .

أما الصعوبات التى تعترض مصادر البوذية فهى صعوبات جد مختلفة ، إذ هى على عكس الصعوبات الأولى ؛ فان على الباحث أن يناضل لا ضد ندرة

المصادر ، بل ضد كثرتها وتعددها . فانه يوجد على العموم ثلاثة أو أربعة أنواع من الكتابات البوذية : الكتابة البالية ، والسنسكريتية ، والصينية ، والكتابة اللامية بالتبت . وأقصر هذه الكتابات وأهمها هى الكتابة البالية عن البوذية الجنوبية ، وهى مع قصرها تبلغ ثلاثة أضعاف حجم الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد . أما السنسكريتية فأكثر طولا ؛ وتشمل الكتابات اللامية بالتبت ١٠٨٣ كتابا تقع فى ١٠٨ مجلدات ، ولكنها جميعا تتضاءل أمام الكتابات الصينية التى تتكون من ١٦٦٢ كتابا تقع فى ٦٧٠٠ مجلد ، فمن منا لا يستطيع ألا يضل فى متاهات هذه النصوص ، كل واحد منها على حدة ، بله كلها مجتمعة !.

أما صعوبات النصوص الزردشتيه فانها ذات طبيعة مختلفة عن ذلك ؛ فان هذه النصوص توجد فى الزند أفستا ، وهو كتاب الزردشتين المقدس . وقد بنيت آمال كبيرة على نشر هذا الكتاب ، ولكن ما إن نشرها العالم الفرنسى انكتيل دوبيرون[1] حتى خابت الآمال . فبدلا من وعظ موحى به ، وصورة فذة للصراع بين الخير والشر فى العالم ، وجد أن الزند أفستا إنما تحتوى على أناشيد وأدعية لامعنى لها ، خالية من الحياة على صورة السحر . . ووجدت الخيبة صداها فى كلمات المستشرق الانجليزى الكبير سير وليام جونز « إما ان يكون زردشت لم يكتب هذا الكتاب أبدا ، وإما أن يكون مجردا من العقل ، وفى كلتا الحالتين لا يستحق هذا الكتاب أن ينشر » وكان سير وليام مغاليا فى نقده إذ تمكن الباحثون بعد مجهود كبير من اكتشاف بعض آثار العظمة الروحية السابقة ، ولكن هذه الآثار كان يغطيها طبقه كثيفة من الزيادات والتحريفات ، تجمعت على مر العصور ، فجعلت معرفة النص الصحيح مستحيلا .

وعلى الرغم من أى شىء ، فإن الأثر الذى تركه هؤلاء الحكماء على عقول البشر ، كان عميقا حتى إن أشباحهم لتبدو منيرة خلال ظلام العصور الماضية ، ومن خلال التحريف والتشويه الذى أصاب كتاباتهم .

ويطلق على كنفشيوس دائما أنه مؤسس الدين الوطنى للدولة الصينية ، ولكن كلمة « دين » هنا يجب أن تقابل ببعض التحفظ ، وعلى أية حال ، فهى

---

(1) Anquetil Duperron, Zend Avesta, Ouvrage de Zoroatrse, Paris 1771.

لا تعنى أى نوع من العبادة أو إقامة الشعائر لمعبود ما ، فإن معنى « الإله » كان بعيدا عن الكنفشيوسية ؛ وكل ما نجده هو كلمة « السماء » تستعمل بمعنى غامض . وحتى فى هذا الصدد يقف كنفشيوس ثابتا ويقول « لا تتكلم السماء ، وإنما تتمثل إرادتها فى أعمال الناس . وهذا كل شىء » . أما إذا سئل عن كيفية عبادة الأرواح الخالدة فإنه يجيب « إنا لا نعرف كيف نخدم الناس ، فكيف نستطيع أن نعبد الأرواح ؟ » وبنفس هذا الأسلوب كان يجيب عن الأسئلة الميتافيزيقية . أما عن السؤال : ما هو الموت ؟ ، فإنه يجيب « إنا لا نعرف ما هى الحياة ، فكيف لنا أن نعرف ما هو الموت ؟ » .

وبجانب هذه الواقعية الصرفة التى نراها فى آرائه ، وحاجته إلى الاهتمام بكل أنواع الميتافيزيقا ، فإن منهجه فى البحث كان منهجا عقليا : التفكير فالدراسة فالبحث . فلا يوجد به شىء موحى به من أعلى ، ولا شىء يفوق الطبيعة أو يفوق العقل .

وكان مدار البحث فى دراساته هو الإنسان نفسه ، وأحيانا الفرد « يقول الجميع : الأمبراطورية ، المملكة ، العائلة ، فأساس الأمبراطورية هو المملكة وأساس المملكة هى العائلة ، وأساس العائلة هو الفرد » ولكن هذه الآراء الفردية نادرة ، فإن كنفشيوس كان جماعيا وكان عمله الأساسى هو موضع علاقات الجماعات : فى العائلة والدولة وفى البشرية . ولنا أن نسأل : فى أى اتجاه كان يبحث عن حل المشكلة ؟ ونستطيع أن نجيب دون تردد : فى العائلة . فإن العائلة كانت نقطة الابتداء لكل فلسفته الاجتماعية والسياسية . ويروى لنا مؤرخو حياته أن العظمة والجلال اللذين اكتنفا حفل جناز أمه أدهشا مواطنيه وجعلاه ذائع الصيت . وأمضى بعد الجناز ثلاثة أيام بجانب المدفن مخصصا كل الوقت للتأمل والأعمال الفلسفية ، ومن هنا أينعت نظريته . وينبع من تمجيد العائلة ميله للدراسات التاريخية ، بل وهنا نجد منبع تمسكه « بالتقاليد » أيضا إن لم نقل « المحافظة » أو « الرجعية » لوصف مثله الأعلى للتحكم الأبوى فى العلاقات العائلية وعلاقات الدولة . ومن الطبيعى أن يكون هذا الشعور نفسه هو منبع العناصر التقدمية — إن لم نقل الثورية — فى آرائه وتعاليمه . ويجب أن تشمل

عناصر العلاقات العائلية علاقات المجتمعات الكبرى كالدولة والامبراطوية ، بل والانسانية جمعاء . وحين قال أحد أتباعه باكيا إنه لا إخوة له أجابه كنفشيوس « علينا أن ننظر للناس فى العالم كله كأنهم إخوة ، وحينئذ لن يبكى إنسان لا نعدام إخوته » . وأجاب عن سؤال : ما هى الانسانية ؟ بقوله « الحب » ، وهو جواب يبدو كأنما هو أمر مسيحى . ولكن لنكن على حذر حتى لا تخدعنا ظواهر الكلمات ، فإن نشوة الحب العجيب فى خطبة الجبل [1] كانت بعيدة عن عقل كنفشيوس الحذر الرزين ، المرتبط بأمور الأرض أشد الارتباط . وسئل هل يجازى الانسان الشر بالخير ؟ فأجاب « وكيف نجازى إذن عمل الخير ؟ » أما نظريته فى السلوك نحو الآخرين فقد بينها فى « القانون الذهبى » : « ما لا تحب أن يعاملك به الناس ، لا تعامل به غيرك » ، وهى القاعدة الذائعة التى سبق بها كنفشيوس « كانت » بخمسة وعشرين قرنا .

وإذا ألح أى إنسان ، على الرغم من أى شىء ، فى أن يبحث عما يثير العواطف فى مؤسس أى دين ، فانه فى حال كنفشيوس يوجد الشعور بالوقار ، والحذر ، والشعور بالتقاليد الدينية من الناحيتين العقلية والعملية ، ومهما كان الأمر ، فانه شعور حقيق أكده كنفشيوس بحياته - فقد وضع برنامجا للإصلاح الاجتماعى والسياسى لتحقيق السعادة للعالم أجمع « لو قلدنى حاكم مقاليد الحكم اثنى عشر شهرا لحققت شيئا عظيما ، وفى مدى ثلاث سنوات أحقق أغراضى بأجمعها » . وقد اضطر الى ترك إقليمه « لو » ، وجاب الأرض بقية حياته من ولاية الى أخرى يبحث عن الحاكم الذى يقلده مقاليد الحكم . وكان يقابل فى أحسن الأحوال باحترام واستقبال غير حار دون وعود ، وأحيانا بجفاء ، بل وبالسجن . ولكنه لم يجد الحاكم الذى يبحث عنه ، ولما شعر بدنو أجله قال « لم يوجد حاكم ذكى يقلدنى مقاليد الحكم ، لقد انتهى زمنى ! » ، وهذه آخر كلمات تروى عنه . لقد كان أول وأعظم « عقلى » ، هو فى نفس أول ولعله أعظم « دون كيشوت »[2] بأحسن معانى هذه الكلمة . (يتبع)

---

(١) للسيد المسيح .

(٢) بطل القصة التى كتبها بهذا الاسم الكاتب الاسبانى « سرفنتيز » فى القرن ١٦ الميلادى ، ويستعمل مجازا بمعنى إنسان خيالى أو عالم متحمس . (المعرب) .

علماء البلاغة

لفضيلة الأستاذ الشيخ على محمد حسن العمارى
مبعوث الأزهر بالمعهد العلمى بأم درمان

لا تكاد تطلع على مؤلف فى البلاغة العربية — منذ أخذت تتكون علما له قواعد ورسوم ، وتسلك طريقها إلى التحديد والتقعيد — حتى تجد العلماء يجهرون بالشكوى المرة ، من إهمال الناس لهذه العلوم ، وانصرافهم عنها ، وبعدهم عن التعمق فى دراستها ، واكتفائهم بالقشور دون اللباب ، وتقاعسهم عن اكتناه أسرارها ، واستجلاء غوامضها ، وتفهم شواهدها .

فتجد عبد القاهر الجرجانى الإمام الجليل ، يطيل القول فى وصف الظلم الذى لحق بهذه العلوم ، وعذره واضح ، فهو يرى للنحو مدارس ودارسين ، وكتبا تؤلف ، ومناظرات تقوم ، وتنافسا قويا حادا ؛ ويرى للفقه مجالس تتدارسه ، وتأخذ فى تحقيق أصوله ، واستخراج فروعه ، فتخرج بحوثا متجددة دائمة ؛ ويرى لعلم الكلام حركة نشيطة ، وحيوية غالبة ، فيشغل هذا العلم كثيرا من الأذهان ، ويسيطر على كثير من العقول ، ويبلغ ذروته فى البحث والاستقصاء ، والأخذ والرد ؛ وهكذا يجد فى التفسير والحديث والأصول والمنطق والأدب . . . ثم ينظر فى علوم البلاغة فلا يجد لها حياة بين الدارسين ، ويرى التعمق فى دراستها أبعد ما يكون عن تفكير العلماء ، وإنما يكتفون — إذا درسوا — بالنظرة العابرة ، والجولة الحائرة ، والهمة الخائرة .

ثم يجىء السكاكى فى القرن السادس فيردد ما يقوله عبد القاهر ، فيقول : « ثم مع ما لهذا العلم من الشرف الظاهر ، والفضل الباهر ، لا ترى علما لقى من

الضيم ما لقى ، ولا مُنى من سوم الخسف بما منى ؛ أين الذى مهّد له قواعد ، ورتب له شواهد ، وبين له حدودا يرجع إليها ، وعين له رسوما يعرج عليها ، ووضع له أصولا وقوانين ، وجمع له حججا وبراهين ، وشمر لضبط متفرقاته ذيله ، واستنهض فى استخلاصها خيله ورجله ؟ ! علم تراه أيدى سبا ، فجزء حوته الدبور ، وجزء حوته الصبا ! » .

ولم يكن عصر السعد والسيد بأحدب على هذه العلوم ، ولم يكن أهله أحفل بها ؛ فنرى السعد يقول فى مقدمه شرحه للقسم الثالث من مفتاح العلوم : « وبعد انقراض علماء فن البيان ، المطلع على نكت نظم القرآن ، وانتقاض مِرَرِه على مر الأزمان ، وانتقاص مدده بتعاقب الحدثان ، كاد تبقى رباعه من غير طلل ورسم ، وتذهب ذهاب جديس وطسم ، وتؤذن آيها بالطمس ، ويقرأ عليها : كأن بالأمس » ! ويقول فى مقدمة المختصر : « وإن هذا الفن قد نضب اليوم ماؤه فصار جدالا بلا أثر ، وذهب رُواؤه فعاد خلافا بلا ثمر ، حتى طارت بقية آثار السلف أدراج الرياح ، وسالت بأعناق مطايا تلك الأحاديث البطاح » ويردد هذه المعانى بتوضيح وإسهاب فى مقدمة المطول .

ونلاحظ أن العلماء كذلك يحرصون فى أوائل كتبهم على أن يُبَيِّنوا أن هذه العلوم جليلة القدر ، عظيمة المنزلة ؛ لما يترتب عليها من فهم إعجاز القرآن ، وأنها أولى العلوم بالدراسة ، وأحقها بالعناية ؛ فمن الرسوم المقررة أن تجد فى أوائل كتب البلاغة إشادة بمقادير هذه العلوم ، وشكوى من تقاصر الهمم عن تحصيلها .

وهذه كلمة لأحد المؤلفين من علماء القرن الثامن تعطينا صورة قوية واضحة للنهج الذى سارت عليه جمهرة كتبهم :

قال أمير المؤمنين على بن حمزة صاحب كتاب « الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الاعجاز » فى مقدمة كتابه :

« أما بعد ، فإن العلوم الأدبية ، وإن عظم فى الشرف شأنها ، وعلا على أوج الشمس قدرها ومكانها ، خلا أن علم البيان هو أمير جندها ، وواسطة عقودها ، فلكها المحيط الدائر ، وقمرها السامر الزاهر ، وهو أبو عذرتها ، وإنسان مقلتها ،

وشعلة مصباحها، وياقوتة وشاحها، ولولاه لم تر لسانا يحوك الوشى من حلل الكلام، وينفث السحر من فتر الأكمام، وكيف لا وهو المطلع على أسرار الإعجاز، والمستولى على حقائق المجاز، فهو من العلوم بمنزلة الانسان من السواد، والمهيمن عليها عند السبر والحك والانتقاد، ولما فيه من الغموض ودقة الرموز، واحتوائه على الأسرار والكنوز، استولت عليه يد النسيان والذهول، وآلت نجومه وشموسه الى الانكساف والأفول، ولم يختص باحرازه من العلماء إلا واحد بعد واحد، وطالما قيل: «إذا عظم المطلوب قل المساعد»، وما ذاك إلا لقصور الهمم عن بلوغ غاياته، وعجزها عن إدراكه والوصول الى نهاياته».

فإذا وصلنا الى عصرنا الحاضر نجد الشكوى لا تزال مرة قاسية، ونحن - ولا شك - أحق بالشكوى، وأولى بتصوير الظلم، الذى مُنيت به هذه العلوم؛ فالمطابع العربية تلد كل يوم عشرات المؤلفات، ومع ذلك فلا نجد منها فى علوم البلاغة إلا النزر اليسير، أكثره للتجارة لا للعلم، وبعضه للهدم لا للبناء.

غير أن ماعقدنا له هذا الفصل هو ظلم آخر وقع على هذه العلوم، ولا يزال يقع؛ ذلك هو الإهمال الأليم فى الترجمة لعلماء البلاغة، فاننا نجد المؤرخين قد وضعوا طبقات للنحاة، وأخرى للفقهاء، وثالثة للمحدثين، وهكذا نجدهم ترجموا للمفسرين والأطباء والأدباء وغيرهم، ولكننا لا نجد مؤلفا عُنى بجمع تراجم للبلاغيين فى كتاب خاص، وإنما نجد تراجمهم موزعة فى الكتب، ومن الصعب أن يهتدى الدارس الى ترجمة وافية لأحد هؤلاء الأعلام.

على أنا نلاحظ ما هو أمرّ من هذا؛ نلاحظ أن الذين ترجموا لهؤلاء العلماء لم ينظروا إلى هذا الجانب من نبوغهم، وإنما نظروا إلى جوانب أخرى؛ فإمام البلاغة عبد القاهر نحوى، والسكاكى متكلم، والزمخشرى نحوى مفسر ... وهكذا، ويجىء ذكر البلاغة بعد ذلك مكملا؛ فإذا ترجموا لعالم جليل كالسكاكى، وذكروا خدمته لهذه العلوم، لم يكتبوا كتابة تحليلية مفصلة. وهل أدعى إلى العجب من أن المترجمين للشيخ عبد القاهر لم يذكروا فى ترجمته كتابيه فى البلاغة، وهما تاجان فى جبين هذا الفن!.

وبدهى أنى أتكلم فى هذا عن الكثرة الكاثرة من هؤلاء الكاتبين، لا عن

جميعهم ، فربما قرأنا فى بعض الكتب ترجمة لبعض هؤلاء العلماء عنى فيها صاحبها ببيان مناحيه واتجاهاته ، يضاف إلى ذلك أنا نجد بعض الكتب تغفل الحديث عن بعض هؤلاء الأعلام ؛ فصاحب معجم الأدباء يؤرخ لكل من هب ودب — كما يقولون — ولكنه لا يكتب عن عبد القاهر ، وهو فى معجم البلدان يذكر جماعة من فضلاء جرجان — وكان نزلها — ويترك عبد القاهر ؛ ولا يظفر السكاكى منه بغير سطور معدودات ، ثم يأتى بعد ذلك الكاتبون فلا يزيدون شيئا على هذه السطور.

هذا شأن الإمام والسكاكى ؛ أما من جاء بعدهم فانا نجد مشقات عظيمة فى الحصول على تراجمهم ، يعرف ذلك من عاناه ، ولهم تراجم ولكنها غير وافية ، وغير متداولة وكثير منها مخطوط ، ولذلك نجد الدارسين لهذه العلوم يرون أسماء كثيرة فى الشروح والحواشى وهم لا يعرفون عنها شيئا ، بل إن عددا غير قليل منهم لا يقرأ هذه الأسماء قراءة صحيحة ، ومع أن مرجع هذا — كما ذكرت فى مقال سابق — إلى عدم العناية بالنظر فى تراجم العلماء ، ومعرفة اتجاهاتهم ، فإن كثيرا منه يقع على صعوبة الحصول على كتب التراجم .

البلاغة علم غامض ، وتراجم علمائه غامضة ، فحبذا لو كشف هذا الغموض ؛ ولعل دراسة التراجم أكبر معين على تفهم العلم نفسه ؛ وهذا ما عقدت العزم عليه ، والله المعين ؟

صفة معترك

ومعترك تهز به المنايا ذكور الهند فى أيدى ذكور
لوامع يبصر الأعمى سناها ويعمى دونها طرف البصير
بيوم راح فى سربال ليل فما عرف الأصيل من البكور
وعين الشمس ترنو فى قتام رنو البكر من بين الستور
فكم قصرت من عمر طويل به وأطلت من عمر قصير

اجراءات الطلاق

العلاقة بين الشكل (الاجراءات) وقواعد الموضوع

لحضرة الأستاذ الفاضل صـــالح بكير
المدرس بكلية أصول الدين

كان من الواجب ذكر إجراءات الطلاق فى قانون المرافعات المدنية ، إلا أنَّ المشرِّع لاحظ الارتباط الوثيق بين الطـلاق وإجراءاته من جهة ، وأنه يريد من جهة أخرى أن يضع عقبات مادية لحصول الطلاق حتى لا يكثر وقوعه . ثم أخيرا لما كان الطلاق ذا أهمية كبرى إذ يترتب عليه هـدم الأسرة ، اضطر المشرع لوضع قواعد خاصة به ؛ فكانت هناك مناسبة تامة بين الطلاق وإجراءاته ، ولذا ذكرها فى القانون المدنى فى باب الطلاق . وهذه الإجراءات تسير على مراحل:

المرحلة الأولى :

تبدأ هـذه المرحلة أمام رئيس المحكمة المدنية الابتدائية ، وتشمل عـدة خطوات هى : (١) الأهلية الضرورية لرفع دعوى الطلاق . (٢) المحـكمة المختصة . (٣) طلب المـدعى المرفوع لرئيس المحـكمة . (٤) محاولة الصلح بين الزوجين . (٥) قرار الرئيس بالسير فى الدعوى . وهذا القرار قد يتضمن قراراً قاضيا باتخـاذ مسكن منفصل عن مسكن الزوجية (أثنـاء سير الدعوى) . (٦) الاجراءات التحفظية . وسنتـكلم عن كل هذه الخطوات .

الأهلية الضرورية لرفع دعوى الطلاق :

الأصل أن كلا من الزوجين له الحق فى رفع دعوى الطلاق ، سواء كان ذلك بطلب أصلى أو بطلب فرعى أو على سبيل الدفاع من جانب المدعى عليه . ولـكن

ما الحكم فيما إذا كان أحد الزوجين ليست له أهلية التقاضى ؟ فجوابا عن هذا نقول :

واضح أن المرأة المتزوجة ليست فى حاجة (فى مثل هذه الحال) إلى أخذ تصريح أو إذن من زوجها لكى ترفع دعوى الطلاق ضده ، إذ أنه لا يرضى بذلك مطلقا ، فلها حينئذ أن ترفع دعواها بدون هذا الاذن . أمّا القاصر المتزوج فحيث كان أهلا للتقاضى فى الدعاوى غير العقارية ، يكون حينئذ أهلا للتقاضى فى دعوى الطلاق . وأما السفيه المبذر والمضطرب العقل ، وكذا المحجور عليه حجرا قانونيا ، و المحجور عليه حجرا قضائيا ، ومن به مرض عقلى وغير محجور عليه ، فهؤلاء يباشر لهم دعوى الطلاق القوام عليهم .

المحكمة المختصة :

المحكمة المختصة بنظر دعوى الطلاق هى المحكمة التى فى دائرتها يقيم المدعى عليه .

طلب الطلاق :

تقدم عريضة طلب الطلاق لرئيس المحكمة المدنية الابتدائية المختصة من المدعى ، وهذا هو أول خطوة فى إجراءات الطلاق والأساس الذى يبنى عليه ؛ فلذا يجب أن يحرر الطلب ويصدر عن محام . ولكن يجب أن يقدم طالب الطلاق بشخصه الطلب إلى الرئيس دون أى شخص آخر . فإذا استحال على الطالب الذهاب بشخصه لرئيس المحكمة انتقل هذا الأخير مع كاتب المحكمة إلى محل إقامة الطالب . والسر فى ذلك هو رغبة المشرع فى التوفيق والإصلاح بين الزوجين . ومع الأسف أثبتت التجارب أن هذا التحوط الذى تمسّك به المشرِّع لم يكن ذا فائدة عملية .

محاولة الصلح والتوفيق بين الزوجين :

الأصل أن التشريع الفرنسى يوجب فى كل قضية مدنية ترفع أن يحاول القاضى ابتداء الصلح والتوفيق بين الطرفين ، ولذا تمر الدعوى أولا أمام قاضى الصلح ، فاذا فشل فى هذه المحاولة أحالها الى المحكمة الابتدائية إذا لم تكن الدعوى داخلة فى اختصاصه .

والمشرع الفرنسى لم يهمل هذا الإجراء فى دعوى الطلاق . ولكنه أوجب أن تكون محاولة الصلح بين الزوجين على يد رئيس المحكمة الابتدائية المدنية لما يتمتع به من سلطة أعلى ودرجة أرقى من قاضى الصلح . ولذا يؤشر الرئيس على طلب الطلاق بتعيين يوم وساعة يحضر فيها الزوجان أمامه ، ويجب أن يعلن أمر الحضور هذا إلى المدعى عليه على يد محضر وفى مدة لا تقل عن ثلاثة أيام للمثول أمامه ، وكما يلاحظ أيضاً ميعاد المسافة . وعلى هذا تكون عريضة الدعوى مشتملة على طلب الطلاق من المدعى ، وعلى أمر الحضور من الرئيس .

ويجب أن يكون إعلان عريضة الدعوى حين إعلانها إلى المدعى عليه مقفلا ، وإن عدم مراعاة هذه الاجراءات يترتب عليه بطلان الإعلان .

وحضور الزوجين فى اليوم والساعة المحددتين يكون بشخصيهما دون أن يعاونهما أحد (من المحامين مثلا) . فإذا استحال على أحد الزوجين الحضور بشخصه جاز للرئيس أن يعيّن المكان المناسب لأجل محاولة الصلح بين الزوجين .

فاذا كان أحد الزوجين لم يستطع الحضور بشخصه وكان يقيم فى دائرة محكمة أخرى جاز أن يرسل الرئيس إلى رئيس هذه المحكمة لأجل أن يحاول هذا الأخير التوفيق بين الزوجين . كما يجوز للرئيس أن يمهل الزوجين مهلة لا تتجاوز عشرين يوما للتروى والتفكير فى الصلح .

ولكن مع الأسف الشديد لا يقع هذا ولا يحصل عمليا .

أمر التصريح بالسيرى فى الدعوى :

إذا لم يتم التوفيق والصلح بين الزوجين أصدر رئيس المحكمة قرارا يثبت فيه عدم حصول الصلح ، ويصرح للطالب باعلان المدعى عليه بالحضور أمام المحكمة ، ويجب إعلان هذا القرار فى بحر عشرين يوما . ووصول الاعلان بعد هذه المدة لا يؤدى إلى بطلانه ، وإنما يبطل مفعول الاجراءات التحفظية التى يأمر بها رئيس المحكمة .

الاجراءات التحفظية

وهى تشمل :

(١) المسكن المنفصل عن مسكن الزوجية : قبل محاولة الصلح بين الزوجين

يجوز لرئيس المحكمة عند تقديم طلب الطلاق اليه أن يأذن للطالب بالاقامة فى مسكن منفصل عن مسكن الزوجية ، كما يأذن له بأخذ ما يلزمه من حاجاته ، وغالبا يكون ذلك للزوجة . والرئيس هو الذى يعين هذا المسكن كما يرى ، سواء عند أقاربها أو عند من تلوذ بهم أو فى أى مكان آخر . ويجوز أن تبقى الزوجة فى مسكن الزوجية إذا كانت هناك ضرورة لذلك ، والزوج يقيم فى أى مكان شاء .

ولا يجوز للزوجة أن تترك هذا المسكن إلا لضرورة قصوى ، أو بناء على تصريح من رئيس المحكمة . ومخالفة هذا تستلزم جواز امتناع الزوج عن أن يؤدى النفقة المؤقتة لزوجته ، كما يجوز للزوج أيضا طلب اعتبار الدعوى كأن لم تكن .

وقرار الاقامة فى مسكن منفصل هو قرار مؤقت يجوز أن يعدل .

(ب) النفقة المؤقتة : يجوز لرئيس المحكمة أن يقرر نفقة مؤقتة لأحد الزوجين الذى فى حاجة إليها على الآخر . وعادة تكون النفقة للزوجة على زوجها .

(ج) حضانة وحفظ الأطفال : لرئيس المحكمة سلطة كبرى فى تقرير حضانة وحفظ الأطفال ، فله أن يبقيهم فى يد أمهم أو أبيهم ، وهذا كله بعد الفشل فى الصلح بين الزوجين .

(د) الإجراءات الخاصة بأموال الزوجين : يجوز لرئيس المحكمة إصدار قرارات خاصة بالمحافظة على أموال الزوجين مدة سير الدعوى .

الطعن فى قرارات رئيس المحكمة :

لا يجوز الطعن فى القرارات التى تصدر قبل محاولة الصلح ، ولكن القرارات التى تصدر بعد الفشل فيه يجوز الطعن فيها بكافة الطرق القانونية .

وهذه هى المرحلة الأولى وتبدأ المرحلة الثانية ؟

المؤلفات الجديدة

كتاب الكندى الى المعتصم بالله

الكندى هو أبو يوسف يعقوب بن إسحاق من أكبر الفلاسفة الاسلاميين. ولد حوالى سنة (١٨٥ هـ) وله فى أكثر العلوم تآليف مطولة مشهورة، ودعاه أهل عصره بفيلسوف العرب. تحدث عنه العلامة الشيخ مصطفى عبد الرازق رحمه الله وذكر ما اشتهر عنه من علوم الفلك والطب والهندسة ثم قال: «أما شأنه فى الفلسفة فهو أهم شؤونه، ومظهر عبقريته، ومناط الخلود لاسمه فى ثنايا التاريخ».

للفيلسوف الكندى الذى نحن بصدده كتاب عمله لأمير المؤمنين المعتصم بالله ابن هارون الرشيد، وهو كتاب موجز يشتمل على حدودها ومطالبها وأدلتها، وعلى الموجودات ومراتبها وقواها وهيولاها الخ الخ مما عنى به القدماء، وفكروا فيه تفكيرا جديا، ووصلوا من ذلك الى مدارك يجب الإلمام بها لمن يطلب الحقيقة.

وقد قدم له حضرة الأستاذ الضليع الدكتور أحمد فؤاد الأهوانى مدرس الفلسفة بجامعة فؤاد الأول مقدمة جمعت من الكلام عليه وعلى ما يتعلق بالكندى ما يفيد الاطلاع عليه، لأنه اشتمل على استطرادات تاريخية تكشف للقارىء ما كانت عليه أحوال ترجمة العلوم اليونانية فى الفلك والطبيعة والطب وغيرها، وفيما لقيته الفلسفة من عناية أو عنت. وهو تلخيص يغنى عن قراءة المطولات، وفيه آراء لكثير من الباحثين يخرج منه القارىء بفوائد لا يجدها مجتمعة فى صعيد واحد. فنثنى على همة الأستاذ الدكتور الأهوانى، ونعجب بحسن إيراده وإصداره للبحوث المختلفة فى أسلوب رائع منشط للتلاوة فى أمثال هذه الموضوعات العالية.

الفلسفة الاسلامية فى المغرب

لحضرة الأستاذ الجليل الدكتور محمد غلاب مدرس الفلسفة بالجامعة الأزهرية

وهو كتاب من أجمع الكتب لبيان حصة المسلمين من زيادة مادة الفلسفة، دفعا لأقوال من زعموا أن الفلاسفة الاسلاميين لم يزيدوا على أن كانوا مجرد نقلة للفلسفة اليونانية. فقد تصدى الدكتور غلاب لهذا الزعم فنقضه بالأدلة القاطعة، وأتى على تلك الزيادات القيمة، التى أضافها الفلاسفة المسلمون الى التراث الفلسفى

فزاد بها ثروة ، واتسع بها مدى . وفى هذا مفخرة للفلاسفة الاسلاميين ، لأنهم مع عدم التنشيط الذى كانوا يصادفونه ، قد استطاعوا أن يأتوا فيها بجديد يشرفون به العبقرية الاسلامية .

ولأجل الوصول الى هذه الثمرة الثمينة ، اضطر الدكتور غلاب لعرض مذاهب أئمة الفلسفة الاسلامية كابن باجة ، وابن طفيل ، وابن رشد الخ ، وهو فى عرض هذه المذاهب يظهر ألمعية فائقة فى بيان الفروق الدقيقة بينها ، وفى حصة الاسلاميين من الزيادة على ما سبق الوقوف عند حده منها .

فهذا الكتاب ينشط القارىء على الاطلاع مدفوعا بجلالة الموضوع وبلاغة التعبير ، واتساق الموضوعات . فنثنى على همة الدكتور المفضال بما هو أهله .

المذاهب الفلسفية العظمى

وهذا سفر ثان لحضرة الأستاذ النابه الدكتور محمد غلاب نفحنا به مع ما سبقه ، فكانا توأمين فى حلبة الإجادة والألمعية ؛ ذلك يطوف بنا على ما طواه التاريخ من الفلسفات القديمة، وهذا يجول بنا فى حديقة غناء من الآراء الجديدة .

بدأ الدكتور كتابه بالإلمام بعصر النهضة فمهد لها ، وبين لونها ، وذكر أسبابها ونتائجها ، والتيارات الفكرية التى ولدتها من أول التيار الأفلاطونى ثم الأرسطى فبييرو بونتونازى فنيكولا الكوزى فجيورد انوبرونو فميشيل دومنتنى .

ثم ألم بطائفة التيار العلمى من الفلاسفة الذين يزعمون أنهم يصدرون فى فلسفتهم عن العلم لا عن الفلاسفة القدامى . وذكر ليوناردو فانس وكوبرنيك وجان كليبير وجاليليه من كاشفى الكيان الجديد للعالم .

ولم يهمل فى هذا المعترك الفكرى الخطير بيان نظرية الحركة ، ونظرية النسبية ، وكل ما مهد لظهور الفلسفة الحديثة ، وقد بينها ذاكرا ميزتها . ومر على ذكر بيكون واضع الدستور العلمى ، وتابع ما ذكره بيكون هذا عما سماه الأوثان ويريد بها الأهواء البشرية التى تحجب الحقائق عن الأنسان .

ومضى الأستاذ الجليل غلاب متابعا طريقته من الاستقراء والتمحيص مارا بديكارت ومالبرانش وسبينوزا وليبنيز وجساندى ذاكرا ما لكل واحد منهم من قسط فى إدراك الحقيقة ، فجاء كتابه عيلما عدا من المذاهب والآراء والنظريات التى تشغل بال الأنسان ولا يجد لها مصرفا . فنشكر للأستاذ هديته .

الحياة الوجدانية والعقيدة الدينية

لحضرة الدكتور الجليل محمود حب الله أستاذ الفلسفة وعلم النفس
بكلية أصول الدين

لهذا الكتاب النفيس غاية على أعظم جانب من السمو، وهى تمكين الانسان من استخدام جميع قواه الأدبية، فى استكمال شخصيته الذاتية، وإيتائها بالوسائل التى تبلغها سعادتها القصوى، وطمأنينتها النفسية، وسكينتها القلبية. مطلب يتحرق للوصول اليه كل ذى عقل راجح، ولكن ما هو؟ هو أن يعرف الانسان على صورة علمية واضحة كيفية استخدام ما ركب فى طبيعته من الوسائل لبلوغها. والكتاب الذى بين أيدينا قمين بأن يبين تلك الوسائل مستندا الى المقررات العلمية، والفتوحات الفلسفية.

فقد بين مؤلفه الجليل بعبارات جلية بليغة، مهمة الوجدان من الحياة الانسانية، وأنه هو القوة التى تغذى العواطف وتربيها وتكونها، وأن العواطف تربى الشخصية وتقويها. وهدف هذا الكتاب بعد هذا هو أن يبين أن جميع ما يتأثر به المرء من إشباع رغباته الروحية، والدينية، وما يشعر به من تطلب الطأنينة القلبية، واتزان الشخصية، والتخلص من ربقة الميول الحيوانية، والمتاع بالسعادة الحقيقية، وسائلها العملية مطبوعة فى نفسه التى بين جنبيه، وليس فيها ما هو غريب عنها، وبجرد تحرك الإرادة نحو الوصول إليها يحققها، وما عليه إلا أن يعرف وسيلة تحريك الإرادة لنيلها. ومهمة هذا الكتاب بيان كل ذلك بعبارات واضحة يفهمها الكافة، وإن كانت من صميم الفلسفة، ولباب الحكمة العالية.

هذا الكتاب القيم الذى يبين مبلغ تأثير الوجدان فى حياة الانسان الأدبية يجب أن يكون فى يدكل مشتغل ببلوغ السعادة التى وعد بها المقربون، فنثنى الثناء كله على مؤلفه العلامة نفع الله به، وأمده بروح من عنده.

بسم الله الرحمن الرحيم

الدروس الدينية

الدرس الديني الذى ألقاه حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر
الشيخ محمد مأمون الشناوى شيخ الجامع الأزهر فى قصر عابدين العامر
جريا على السنة الملكية

بسم الله الرحمن الرحيم :

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، سيدنا محمد النبي الكريم ، وعلى آله وصحبه أجمعين .

أما بعد : فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من سنّ سُنة حسنة فله أجرها وأجر فاعلها الى يوم القيامة » . وقد تفضل حضرة صاحب الجلالة مولانا الملك المعظم الملك فاروق الأول ـ أيد الله به الدين ، وأبقاه ذخرا للإسلام والمسلمين ـ تفضل حفظه الله فشرع هذه السنة الحميدة ، عملا بقوله صلى الله عليه وسلم : « من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا » . ولا شك فى أن مجلس العلم فيه الخير كله ، « هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » . « وقل رب زدنى علما » .

قال صلى الله عليه وسلم : « من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين ، وإنما أنا قاسم والله يعطى ، ولن تزال هذه الأمة قائمة على أمر الله لا يضرهم من خالفهم حتى يأتى أمر الله » . وقال صلى الله عليه وسلم : « من نفّس عن مؤمن كُربة من كرب الدنيا نفّس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ، ومن يسّر على معسر يسّر الله عليه فى الدنيا والآخرة ، ومن ستر مسلما ستره الله فى الدنيا والآخرة ، والله فى عون العبد ما دام العبد فى عون أخيه ، ومن سلك طريقا يلتمس فيه علما سهّل الله له طريقا الى الجنة » .

وعن ابن عباس رضى الله عنه قال : « إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا ، قيل : وما رياض الجنة ؟ قال : مجالس العلم » .

الا وإن أصدق الحديث كتاب الله تعالى الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد .

عن علىّ كرم الله وجهه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ستكون فتن كقطع الليل المظلم » ، قلت : يا رسول الله وما المخرج منها ؟ قال : « كتاب الله تبارك وتعالى ، فيه نبأ من قبلكم ، وخبر ما بعدكم ، وحكم ما بينكم ، وهو القول الفصل ، ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى من غيره أضله الله ، فهو حبل الله المتين ، ونوره المبين ، والذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم ، وهو الذى لا تزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ، من علم علمه سبق ، ومن قال به صدق ، ومن حكم به عدل ، ومن عمل به أجر ، ومن دعا إليه هُدِى الى صراط مستقيم » .

* * *

قال الله تعالى وهو أصدق القائلين : « وَجَاهِدُوا فى الله حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ ، وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فى الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ، مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ، هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفى هَذَا ، لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ، فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ، وَآتُوا الزَّكَاةَ ، وَاعْتَصِمُوا بِاللهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ ، فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ » .

هذه الآية الكريمة اشتملت على أمور أربعة ، تعتبر خلاصة لعقائد الدين وشرائع الإسلام ، وهى : الجهاد فى الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والاعتصام بالله . ذلك أن الدين الإسلامى عقيدة وعمل ، والعقيدة تركزت فى الثقة بالله ، والاعتراف بأنه القوة العليا التى منها المبدأ وإليها المنتهى ، ومنها النفع والضر ، ولها الخلق والأمر ، وهى الملجأ والملاذ فى الشدة والرخاء ، والسراء والضراء ؛ وإلى ذلك الإشارة بقوله جل شأنه : « واعتصموا بالله هو مولاكم » .

وأما العمل فمآله الى ثلاثة أنواع : عمل يعود نفعه على الفرد فى ذاته ، وإليه الإشارة بقوله تعالى : « فأقيموا الصلاة » ؛ وعمل يتعدى نفعه الى فرد أو أفراد من

مجموع الأمة ، وإليه الإشارة بقوله سبحانه : « وآتوا الزكاة » ؛ وعمل يعود نفعه على الأمة كلها من حيث هي أمة ذات كيان دولى ، لها وطن تحميه ، ودين تفديه ، وقومية ترعاها ، وذلك هو قوله تعالى : « وجاهدوا فى الله حق جهاده » . فجهاد العدو ضرورى لحفظ كيان الأمة ورفع رايتها وإعزاز كلمتها . والجهاد مبدأ مؤسس على نظرية اجتماعية طبيعية لازمت الانسان منذ تكونت منه الجماعة المتباينة الأغراض ؛ والله جل شأنه خلق الإنسان وركب فيه غريزة حب البقاء ، وحبُّ البقاء يدفعه دائما الى أن يجلب لنفسه كل ما يستطيع من نفع ، وكثيرا ما يكون ذلك سببا فى البغى والعدوان ؛ فاقتضت حكمة الله أن يمنح كل إنسان قوة محدودة يستطيع بها أن يدفع عن نفسه . فالطفل فى المنزل يقاوم العدوان بطبعه حتى إذا عجزت قوته لجأ الى والدته ، والولد الكبير يلجأ فى حال عجزه الى أبيه أو أخيه الأكبر ، وأفراد الأمة إذا بغى بعضهم على بعض لجأ المغلوب الى الحاكم ، وهكذا الأمة فى مجموعها ، شأنها فى ذلك شأن الأفراد ؛ تلجأ فى دفع العدوان الى جيش قوى يحمى ذمارها ويرهب أعداءها . وإذا كان للأفراد أعمار طبيعية يموتون بانتهائها فليس للأمة مثل هذه الأعمار ، إنما حياة الأمة وبقاؤها وموتها وفناؤها منوطان بقوتها وضعفها . فالجيش القوى مبدأ حياة الأمة وبقائها ، ومناط عزها وكرامتها .

وكل أمة تهاونت فى جيشها وبخلت عليه بمالها فمآلها الفناء ، وإن بقى أفرادها على قيد الحياة فهم أحياء ولكنهم أذلاء مستعبدون ، لا يعبأ بهم ، ولا يبالى بعديدهم .

يقول الله تعالى : « يأيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم » . قال العلماء معناه : إذا دعاكم للجهاد ففيه حياتكم وعزكم وبقاؤكم . وقال جل شأنه : « وأنفقوا فى سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة » معناه : أنفقوا فى سبيل الله ولا تبخلوا فتقعوا موقع الهلكة ويستأصلكم عدوكم .

وقد عرف الإسلام للجهاد عظيم خطره وكبير أثره ، فجعل غدوة أو روحة فى سبيل الله خيرا من الدنيا وما فيها ، وفضّل المجاهدين على القاعدين أجراً عظيما ؛ درجات منه ومغفرةً ورحمة ، وكان الله غفورا رحيماً .

وفى الحديث القدسى يقول الله تعالى : « أنا ضامن لمن خرج فى سبيلى لا يخرجه إلا جهاد فى سبيلى وإيمان بى وتصديق برسلى أن أدخله الجنة أو أرجعه الى أهله

نائلا ما نال من أجر أو غنيمة » . وقال تعالى : « إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا ، سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان » .

هذا والجهاد ثلاثة أنواع : جهاد الأعداء ، وجهاد الشيطان ، وجهاد النفس .

فجهاد الشيطان يكون بمخالفته فيما يوسوس به ، وعدم اتباعه فيما يزين للإنسان من القبائح والشرور وسيئات الأعمال « إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا ، إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير » . وجهاد النفس يكون بحبسها عن مألوفها ، ومنعها من الانغماس فى شهواتها ، وضبطها بميزان الشرع حتى لا تتعدى حدود الله ، ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون .

وقوله تعالى « وجاهدوا فى الله حق جهاده » أمر بالجهاد بأنواعه الثلاثة ، أى ليكن جهادكم كله لله ، ومن أجل الله ؛ ولذا قال تعالى : « حق جهاده » أى جهادا حقا خالصا لوجه الله .

وبعد أن أمر الله تعالى بالجهاد الخالص لوجهه الكريم ، أردف ذلك بأمور كلها تبعث على الجهاد وترغب فيه ، فمنها قوله تعالى : « هو اجتباكم » . أى أن الله اختاركم لخدمته واصطفاكم لنصرة دينه ؛ ومن شأن العبد إذا اختاره سيده وقربه أن يتفانى فى خدمته ويخلص فى طاعته . ومنها قوله تعالى : « وما جعل عليكم فى الدين من حرج » . ومعناه أن الدين الذى شرعه الله ورضيه لكم دينا كله يسر لا عسر فيه ، وسهل لا صعوبة فيه ، حتى إن الجهاد الذى يظنونه أمراً شاقا وتكليفاً صعباً هو فى ذاته من أيسر الأمور على المؤمن الصادق الإيمان ، وما هو بصعب إلا على المتردد السقيم الوجدان .

أما قوى الإيمان الصادق العزم الواثق بالله وما عند الله ، فإن قوة إيمانه تدفعه الى الميدان دفعا كأنه عمل لا شعورى ، فيقدم لا يلوى على شىء ، ولا يبالى ما وراءه من مال وولد ، وزوج وقريب ، لأنه يعتقد أن نتيجة هذا العمل إما الجنة ، وإما المجد والذكر الحسن .

روى أنه صلى الله عليه وسلم رغّب فى الجهاد وذكر الجنة ، ورجل من الأنصار

يأكل تمرات فى يده ، فقال : إنى لحريص على الدنيا إن جلست حتى أفرغ من هذه التمرات ! فرماها من يده ، وحمل بسيفه فقاتل حتى قتل .

« والمقتولون فى سبيل الله أحياء عند ربهم يرزقون ؛ لأنهم كانوا سبباً فى حياة أمتهم . وهبوا حياتهم لتحيا أمتهم ، فوهب الله لهم حياة خيرا من حياتهم « تكون أرواحهم فى حواصل طيور خضر ، يسرحون ويمرحون فى رياض الجنة » .

وقوله جل شأنه : « وما جعل عليكم فى الدين من حرج ، ملة أبيكم إبراهيم » .

يريد أن دين الإسلام ميسر سهل كما كانت ملة إبراهيم عليه السلام ميسرة سهلة . « هو سماكم المسلمين من قبل وفى هذا » ، يعنى أن الله عز وجل رفع ذكركم فى الكتب السابقة ، ونوه بشأنكم فى الأمم قبلكم ، فسماكم فى كتبهم مسلمين ومذعنين طائعين ، وكذلك سماكم المسلمين فى كتابكم هذا ، وهو القرآن الحكيم .

« اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا » فأنتم « خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » .

وأما قوله تعالى : « ليكون الرسول شهيدا عليكم وتكونوا شهداء على الناس » فهو مثل قوله جل شأنه فى آية أخرى : « وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكونَ الرسول عليكم شهيداً » .

ورد أنه يؤتى بالأمم وأنبيائهم يوم القيامة فيقال للأنبياء : هل بلغتم أممكم ؟ فيقولون : نعم بلغناهم . فينكرون . فيؤتى بهذه الأمة فيشهدون أنهم قد بلغوا ، فتقول الأمم لهم : من أين عرفتم ؟ فيقولون : عرفنا ذلك من الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم .

« فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة » يريد : تقربوا الى الله عز وجل بأنواع الطاعات لما خصكم بهذا الفضل العظيم .

« واعتصموا بالله » : ثقوا به فى جميع شئونكم ، واضرعوا إليه فى كشف ما بكم ، واحتموا به يحمكم ، واسألوه النصر ينصركم ويثبت أقدامكم ، وتعرفوا إليه جل شأنه فى الرخاء يعرفكم فى الشدة ، واستقيموا إليه واستغفروه ، واطلبوا منه

الهداية والتوفيق والنصر والتأييد ، فإنه وحده هو مولاكم وناصركم ، ومتولى جميع أموركم ، « فنعم المولى ونعم النصير » .

هذا وإن للعاملين لذكرى ، وإن للمصلحين لأثرا ، وإن أولى العاملين بالذكر وأحق المصلحين بالأثر من نهضوا بأمتهم ، وساروا بها الى حيث تبلغ مجدها ورفعتها ومكانتها بين الأمم . وهكذا كان المغفور له صاحب السمو الخديوى إسماعيل العظيم ؛ فإنه رحمه الله قد بعث فى مصر روح النهوض ، وأفسح للأمة فى مجال الرقى ، وجعل المملكة المصرية تاج الممالك الشرقية وكعبة الأمم الغربية .

وقد اختاره الله تعالى الى جواره ، فانتقل الى الرفيق الأعلى راضيا مرضيا فى مثل هذا اليوم من شهر رمضان ، سنة اثنتى عشرة وثلاثمائة وألف من الهجرة النبوية .

نسأل الله تعالى أن يجزيه خير الجزاء ، ويسكنه الفردوس الأعلى ، إنه أرحم الراحمين .

اللهم إنا نتوجه إليك بقلوبنا وبصدق نياتنا أن تثبت أقدام عبادك المجاهدين ، وتظهرهم على أعدائك الطغاة الباغين ، وتمنحهم نصرك الذى وعدت به من يجاهد فى سبيلك يا خير الناصرين ، ونضرع إليك ياذا الجلال والإكرام ، أن تشمل بعونك ورعايتك المجاهد فى سبيلك ، الداعى لنصرتك ، المؤيد لكلمتك ، المخلص فى طاعتك ، الملك الصالح الموفق ، مولانا صاحب الجلالة فاروقا الأول ، وأن تحييه حياة طيبة ، مباركا فيها ، تعم بنفعها العباد والبلاد ، وأن تمنحه وإخوانه أصحاب الجلالة والفخامة ملوك العرب ورؤساءهم نصرك المبين يارب العالمين ، وأن توفق رجال حكومة جلالته الى ما فيه الخير العميم ، إنك على ما تشاء قدير .

ونسألك اللهم يا واسع الفضل والإحسان ، أن تتغمد برحمتك ورضوانك الراحل الكريم ، مولاى الملك العظيم ، صاحب الجلالة المغفور له الملك فؤاداً الأول . اللهم اجعله فى أعلى عليين مع الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ؟

الدرس الديني

الذى ألقاه حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير الشيخ عبد الرحمن حسن وكيل الأزهر بمسجد محمد على بالقلعة فى حفل عظيم ضم كبار العلماء ورجال الدولة

وكان ينوب عن حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم فيه حضرة صاحب المعالى ابراهيم عبد الهادى باشا رئيس الديوان الملكى.

بسم الله الرحمن الرحيم.

قال الله تعالى : « يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ والصَّلَاةِ ، إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ . وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتٌ ، بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَٰكِنْ لَا تَشْعُرُونَ . وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَىْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الأَمْوَالِ وَالأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ، وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ . الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا للهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ . أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ » .

بيّن الله فى الآيات السابقة ما أنعم به على المؤمنين من النعم العظيمة ، وبيّن ما يجب عليهم من ذكره وشكره على هذه النعم ، وعدم إهمالها أو التحول بها الى غير ما وجدت له ، وذلك بقوله « فاذكرونى أذكركم ، واشكروا لى ولا تكفرون » . فكان من تمام إرشاده سبحانه إذ أمر بالشكر على النعم ، أن يأمر بالصبر على الشدائد والنقم ؛ فإن العبد إما أن يكون فى نعمة فيشكر الله عليها ، أو فى نقمة فيصبر عليها . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « عجباً للمؤمن : لا يقضى الله له قضاء إلا كان خيراً له ؛ إن أصابته سراء فشكر كان خيراً له ، وإن أصابته ضراء فصبر كان خيراً له » .

والصبر : هو قهر النفس على احتمال المكاره فى ذات الله ، وتوطينُها على تحمل المشاق وتجنب الجزع ، لتتربى فى النفس ملكة الرضا ، والثباتِ على الحق ، واحتمال كل ما يشق على النفس .

فهو فضيلة هى أم الفضائل التى تربى فى النفس ملكات الخير ، حتى إن الإنسان لا يكون شجاعاً ، ولا أمينا ، ولا عفيفا ، ولا حليما ، ولا غير ذلك من الفضائل إلا إذا كانت عنده فضيلة الصبر .

وقول الله تعالى : « يأيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة » أمر عام ، وإرشاد شامل للمؤمنين ، أفراداً وجماعات ، بل وللأمة فى مجموعها .

فهو خطاب موجّه الى الأفراد فيما ينزل بهم من المصائب والشدائد ، بأن يستعينوا بالصبر ، ويثبتوا أمام مصائبهم ، لينالوا من الله برد الرضا وحسن الجزاء .

وموجه الى الجماعات من الأمة ، كل جماعة فيما تقوم به من عمل .

فالمجاهدون فى سبيل الله جماعة من الأمة تجاهد لإعلاء كلمة الحق ؛ عليهم أن يستعينوا فى جهاد عدوهم وقهره بالصبر والثبات ، ولو تراءى لهم أنه أكثر منهم عدداً ، وأقوى عُدة ، لأنهم بصبرهم وثباتهم ، يزيدهم الله قوة إلى قوتهم ، وهو نعم المعين - « كم مِن فئةٍ قليلةٍ غلبت فِئةً كثيرةً بإذن الله ، والله مع الصابرين » .

وكل جماعة تؤدى عملا عاما من طوائف الموظفين والعمال والصُّنّاع وغيرِهم يقضى عليها واجب الوطن بأن تتحمل أعباء ثقيلةً من العمل ؛ يجب عليها أن تنهض بهذه الأعمال ، ولا تجعلَ للضجر على نفسها سبيلا ، بل تستعين على إنجازها بالصبر وقوة العزيمة .

والخطاب موجه الى الأمة فى مجموعها ، بأن تستعين بالصبر والثبات فى مغالبة الشدائد ، وما يصادفها من عقبات وأحداث ، فى سبيل تقدمها ، واستخلاص حقوقها ، كى يُكتَب لها البقاء والفوزُ فى مضمار الحياة . . . فإن الأمة التى تفقد الصبر والثبات فى المُلمّات ، وتزلزلها الأحداث فلا تقوى على احتمالها ، هى أمة ميتة كتب عليها الفناء ، ولا تلبث أن تصرعَها الأقدارُ ، فتُصبحَ كأن لم تغنَ بالأمس .

أما الاستعانة بالصلاة فلأنها من أكبر العون على الثبات فى الأمور ؛ إذ يجب أن تؤدَّى بالخضوع والتذلّل والإخلاص لله سبحانه وتعالى ، وأن يوفّر المصلى قلبه عليها بالشعور بعظمة الله تعالى ، وسلطانه ، وأنه الغالب على كل شىء ، وأنه الذى يُلجأ إليه فى ملمات الأمور ، ويُفزَعُ إليه عند الكوارث ، وأنه لا أكبر فى هذا الوجودِ سواه .

ولا شك أن من أقام صلاته على هذه الصفة ، فقد ذلل نفسه لاحتمال المشقة فيما عداها من أمور الدين ، كما قال تعالى « وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ، ولَذكر الله أكبر » .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا حَزبه أمرٌ فزع إلى الصلاة .

وقوله تعالى : « إن الله مع الصابرين » يعنى أن الذين اتصفوا بالصبر ، وكان الصبر خُلُقاً لهم ، يمدّهم الله بمعونته ، ويزيدهم من فضله توفيقا وتسديدا وألطافا كما قال « ويزيد الله الذين اهتَدَوْا هُدى » .

* * *

بعد أن دعا الله المؤمنين الى الاستعانة بالصبر على الشدائد فى الأمور كلها ، وكان من أهمها الجهاد فى سبيل الله لإعلاء كلمة الله ، وفى هذا السبيل يقتل بعض المؤمنين ، قال : « ولا تقولوا لمن يُقتَلُ فى سبيل الله أمواتٌ ، بل أحياءٌ ولكنْ لا تشعرون » . ليعلمنا منزلة هؤلاء الشهداء ، وما أكرمهم به من النعيم المقيم .

ولم يبيّن الله حقيقةَ هذه الحياة التى يحياها الشهداءُ ، وليست لها آثارٌ ظاهرة لنا حتى يمكنَ البحث فيها ، وإنما أخبر الله بأنهم أحياء عنده ؛ ولهذا نحن نؤمن بهذه الحياة ، وأنها حياة اختص الله بها الشهداءَ ، وميّز أرواحهم بها على أرواح الناس ؛ بها يرزقون ، وينْعمون ، كما جاء فى الآية الأخرى : « ولا تحسبَنّ الذين قُتلوا فى سبيل الله أمواتاً ، بل أحياءٌ عند ربهم يرزقون ، فرحين بما آتاهم اللهُ من فضله » .

هـذا جزاء الشهداء من المجاهدين وما أكرمهم الله به . أما المجاهدون الذين لم يُقتَلوا ، فهؤلاء مع ما يكون لهم من حسن الذكر بين الناس على ما قاموا به فى سبيل الذود عن حمى الإسلام ، ودفع الطغيان عنـه ، فإن كلّ ما يصيبهم فى جهادهم من تعب وآلام ، وكلّ ما ينفقونه من النفقات ، عَظُمت أو قلّت ، وما ينالونه من عدوّهم من تقتيل وتجريح وكيدٍ ، وغير ذلك ، سيكون لهم به عنـد الله أجر عظيم . يقول الله تعالى : « ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصَب ولا مخمصة فى سبيل الله ، ولا يطئون موطئا يغيظ الكفار ، ولا ينالون من عدو نيلا إلا كتب لهم به عمل صالح ، إن الله لا يضيع أجر المحسنين . ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون واديا إلا كتب لهم ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون »

وقوله تعـالى « ولنبلونـكم بشىء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات » يعنى أنه ستصيب المؤمنين محن وبلايا فى سبيل الدفاع عن الحق لإعلاء كلمة الله . وقد أخبر الله بهذه المحن قبل وقوعها ، ليوطن المؤمنون أنفسهم على الصبر عليها إذا حلت بهم ، فيكون ذلك أبعد لهم عن الجزع ، وأسهل عليهم بعـد الورود .

وقد أصاب المؤمنين بلاء وشدة من أعدائهم كانوا يغالبونها بالصبر والثبات وقوة الإيمان ، مع قلة عددهم وعدتهم ، وكثرة أعـدائهم وقوتهم . وقد كانت واقعة الأحزاب امتحانا أىّ امتحان لقوة إيمانهم ، وثباتهم على الحق . فقد تجمعت الأحزاب من شتى القبـائل فى نحو عشرة آلاف مقاتل ، بتحريض من اليهود ، ليستأصلوا محمداً ومن معه من المسلمين ، وحاصروا المسلمين بالمـدينة نحو شهر ، يظاهرهم يهود بنى قريظة الذين خانوا ونقضوا ما كان بينهم وبين الرسول من عهد وميثاق . وقد أذاقوا المسلمين فى هذا الحصار ألوان الشدائد ، من الألم والنصب والجوع ، وهم مع ذلك ثابتون مع قلة عددهم الذى لا يجاوز ثلاثة آلاف مقاتل ؛ سلاحهم الصبر وقوة الإيمـان بالله ، حتى أرسل الله على أعـدائهم ريحاً عاتية ، مزقت شملهم ، وفرقت جمعهم ، فباءوا بالخيبة والفشل ، ومـكّن الله للمسلمين من اليهود ، جزاء خيانتهم ونقضهم العهد .

وفى هذا يقول القرآن الكريم « إذ جاءوكم مِن فوقكم ومِن أسفلَ منكم ، وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوبُ الحناجرَ ، وتظنون بالله الظنونا . هنالك ابتلى المؤمنون وزُلزلوا زلزالا شديداً » . الى أن يقول : « وردّ الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا ، وكفى الله المؤمنين القتال ، وكان الله قويا عزيزا . وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صَياصيهم ، وقذف فى قلوبهم الرعب ، فريقا تقتلون وتأسِرون فريقا ؛ وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم ، وأرضا لم تطئوها ، وكان الله على كل شىء قديرا »

كذلك أصاب المسلمين الجوع فى أوقات متفرقة ، من قلة المال ، وما كان يصيبهم من الجدب والجوائح واشتغالهم بجهاد أعدائهم ، حتى بلغ من أمرهم أن كان بعضهم يقتات ببعض التمرات ، وبعضهم يشد الأحجار على بطنه من آلام الجوع ؛ وكان من آثار اشتغالهم بالجهاد بأموالهم وأنفسهم ، أن أصابهم القتل ، وقلت الأيدى العاملة فى الزراعة والتجارة ، فنقصت بذلك الأموال والأنفس والثمرات .

ولما كانت هذه البلايا وغيرها غير قاصرة على عصر النبى صلى الله عليه وسلم ، بل المسلمون عرضة لأن تصيبهم فيما لايزال من الزمان ، فى السلم وفى الحرب ، وردت البشارة عامة فى قوله تعالى « وبشّر الصابرين ، الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون » لتشمل جميع الصابرين الموجودين ومن يأتى بعدهم ممن وصفهم الله فى الآية .

وليس المراد مجرد النطق بهذه الكلمة « إنا لله وإنا إليه راجعون » وإنما المراد أن ينطقوا بها بدافع من الشعور النفسى بأن الله مالك أمرهم ، بيده ملكوت كل شىء ، لايفعل إلا ماتقتضيه حكمته ، وأنهم فى جميع أمورهم راجعون اليه ، يخفف عنهم آلام مانزل بهم ، ويدفع عنهم كيد المعتدين ، وينتصف لهم من الظالمين . فهؤلاء هم الصابرون حقا ، لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة .

وقد فاز هؤلاء الصابرون من الله تعالى بثلاث خصال لم يجمعها لغيرهم من

المؤمنين ، وهى التى ذكرت فى قوله : « أولئك عليهم صلوات من ربهم ، ورحمة ، وأولئك هم المهتدون » .

فصلوات الله عليهم : أن يثنى عليهم ، ويزيدهم تشريفا وتكريما وتعظيما ؛ ورحمته عليهم : هى ما يكون لهم فى نفس المصيبة من لطف الله وإحسانه ، فيكون لهم منه حسن العزاء والرضا والتسليم بقضاء الله ؛ وهم المهتدون إلى الحق والصواب فيما ينبغى عمله فى أوقات الشدائد والمصائب ، فلا يستحوذ الجزع على نفوسهم ، ولا يذهب البلاء بالأمل من قلوبهم .

أما ما يجده الإنسان فى نفسه من ألم المصيبة والحزن ودمع العين فليس منهيا عنه ؛ لأنه مع كونه من الأمور القهرية التى لاقبل للإنسان بدفعها ، فإنه من الرحمة ورقّة القلب ، وهما من صفات المؤمنين .

* * *

وبعد أن انتهى فضيلته من هذا الحديث قال :

حضرة صاحب المعالى مندوب حضرة صاحب الجلالة الملك - أيها الشعب الكريم :

إن الله تعالى أمرنا بالصبر وحببه إلينا ، وأرشدنا إلى أن نجعله عدتنا فى علاج أمورنا ، وقوتنا فى شدائدنا وجهادنا .

ولقد نزلت بنا شدائد وبلايا ، ومرّت بنا أحداث كان فيها حضرة صاحب الجلالة مولانا الملك - أعزه الله - المجاهد الأول بنفسه وماله ، والمثل الأعلى لقيادة شعبه النبيل الى مواطن العزة والكرامة والمجد ، بصبر وقوة عزم .

فالتاريخ يسجل له ماقام به فيما أصاب الأمة من الأمراض الفتاكة من الجامبيا والملاريا والكولرا . فقد جاهد فى هذا السبيل بالآلاف المؤلفة من ماله الخاص ، وشارك الأمة فى آلامها ، وذهب الى الجهات المنكوبة بنفسه ليواسى أهلها ويعمل على تخفيف آلامها ومصائبها ؛ وكان يواصل الليل بالنهار يعمل ويشرف على ما تقوم به حكومته بصبر وجلد وقوة إيمان ، الى أن أزال الله هذه الغمة ، وطهر البلاد منها .

والتاريخ يسجل له مواقف الحزم والثبات فى معالجة قضية الوطن الكبرى ، مما كان له أثر عظيم فى موقف البطولة الذى وقفه وفدنا الأمين فى مجلس الأمن . والأمة فى هذا السبيل تترسم خطا جلالته وتشد أزره ، حتى كان ما استرده لها من حقوق مضت عليها عشرات السنين ؛ وهو لا يزال فى مضمار المجد يجاهد ويصابر حتى يصل الى نهاية الشوط ، ويبين يدى جلالته حقوق الأمة كاملة غير منقوصة بإذن الله .

والعروبة والإسلام يسجلان له بالفخر ما كان له من الصبر والثبات فى سبيل تكوين جامعة الدول العربية التى تدين لجلالته فى وجودها . وها هى ذى قد أصبحت قوة يخشى بأسها بين الدول ، وجلالته أعزه الله فى الطليعة ، يمدها بقوة نفسه وعزماته الوثابة لاسترداد مجد العروبة ودفع الطغيان عنها . وها هو ذا قد تقدم الصفوف بجيش مصر القوى الباسل للجهاد فى سبيل الله ، سبيل مجد الوطن والعروبة والإسلام . وسيكتب التاريخ لجيش مصر البطولة والانتقال من نصر الى نصر ، فى صحائف المجد والعزة والفخر .

هذه أمثلة مما كان لجلالته من صبر وثبات وقوة عزم . زاده الله قوة وثباتا وعزما ، والله ولى الصابرين .

نرجو الله العلى القدير أن يؤيده ، وأن يؤيد حكومة جلالته ، ويقوى عزمها فيما فيه خير الأمة ومجدها وعزتها .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

هل فات زمان الاديان

يخيل للذين يشهدون الخطوات الواسعة التى يخطوها العلم فى سبيل كشف القناع عن وجوه المجاهيل ، وفى متابعة البحث وراء عللها ، ومبلغ آثارها ، حتى تأدى الى فهم حقيقة المادة ، وتراءى له ما سيبقى على ذلك من حل مساتير أخرى ؛ قلنا يخيل الى الذين يشهدون ذلك أن عهد الدين قد آذن بالزوال ، وأن سيحل محله العلم فى هداية الإنسان الى أقوم سبل الحياة ، وفى إيتائه بمُثُل عليا من الأدب السامى يندفع الى الوصول إليه على أكمل ما يكون من ثقة وطمأنينة وبعد عن الشبهات . وقد نطق بهذا الحكم طائفة من العلماء وتلقفها عنهم رجال من المتصلين بهم من زعماء المذهب المادى ، فاندفعوا يروجونها فى الجامعات والمجلات العلمية ، واشتدت حملتهم على الدين حتى زعموا أن بقاءه أصبح من المحال ، فما هى إلا ملاوة من الدهر تمضى حتى يموت من بقى من أهل الجيل الحاضر المطبوعين بتأثير بيئاتهم وثقافاتهم ، على الدين ، فينقضى عهد الدين ، ويشرق سلطان العلم ، فلا يناظره فى قيادة النفوس منازع ، وتتوحد وجهة البشرية تحت ضيائه الساطع .

بنى هذا الحكم من قادة الماديين على أن العلم يكشف حقائق الموجودات ، ويبحث فى عللها ، ويُعنَى بتفسير ما يستطيع تفسيره منها ، وهو دائب على عمله هذا من يوم وُجد ، وقد تأدى الى ثمرات قيمة ، لا يتردد فى عظمتها أحد . وهذا لا يؤثر فى ضرورة الدين أقل تأثير حتى ولو وصل العلم الى غاية مراده من تفسير الموجودات وتعليلها ، الى أن يصبح الإنسان لا يجهل شيئاً منها . ذلك لأن للدين مطلباً آخر أسمى من مطالب العلم ، وأرفع منه موضوعا ، وأعلق بالنفس الإنسانية من ثمرته مهما جلت ، ألا وهو إيجاد صلة بين الإنسان ومبدعه ، يتأهل بها الى ما تتوق إليه نفسه من اقتباس فيوضاته ، والاستعداد لإدراك حقيقة حياته ، إدراكا يطمئنه على خلود ذاته ، ويكشف له عن معنى حكمة الوجود وآياته ، ويحل له ما يزعج العقول من متناقضاته . وهذا كله ليس من مهمة العلم أن يقوم به ، ولا فى استطاعته أن يحاوله . وهو الذى تألم النفوس من الجهل به ، وتفضل الإلمام به على كل عزيز عليها . فماذا يفيد الإنسان أن يعرف سر تركيب الذرة المادية ، وأن يصل الى تفجيرها ، وأن يصنع منها قنبلة تأتى على مدينة بأكملها ؛ أو أن يجيد استخدام الكهرباء فى حاجاته ، وأن يكتشف قوة

جـديدة من قوى الوجود ، تقوم له بمـا هو أخص وأرفع ممـا تقوم لنا به القوى المعروفة ، أو أن يخـترع آلة توضع فى السفن والطائرات فتوصـله الى أقصى الأرض فى دقائق قليلة ، أو غير ذلك ممـا يدخل فى عـداد المعجزات : قلنا ماذا يفيد النفوس من هذا كله إذا كانت غير مطمئنة على حياتها ، ولا تعرف حقيقة ذاتها ، ولا مصير الأعزاء من أمواتها ؟ وبأى نفع يعود عليها إذا مسها طائف من مرض ، وضعفت مقاومة بنيتها له ، وأصابها من الجزع ما يزيد علتها تفاقمـا حين يتراءى لها أن الفناء فاغر فاه ليبتلعها ويلاشى قواها العقلية ، ولا تبقى منهـا إلا ذكرى لا تشعر هى بها وإن طبقت الأرض صيتا وشهرة ؟ .

لا جرم أن العـلم فى الحـدود التى حصروه فيها لا يواتى النفس البشرية من هذه الناحية بأقل فائدة .

لسنا بسبيل بيان تقصير العلم وإنمـا بصدد دحض قول من يزعم أن فى العلم غناء عن الدين ، وقد رأيت العـكس ، فإن العلم فضلا عن أن عمله مقصور على العالم المـادى ، فان كثيرا من رجاله يتدخلون فيما لا يعنيهم ، ويقررون أن ما تحلم به النفوس الضعيفة من وجود بارىء للوجود ، ونفس مستقلة عن الجثمان فى الأحياء ، أحاديث خرافة يجب أن تتجرد منها العقول السليمة . وتغالى بعضهم فقال إن هذه العقائد تنافى الإنسانية القوية الجديرة بالسيطرة على القوى الطبيعية ، وأن المتمسكين بها ضعاف النفوس يغلب عليهم التراخى والزهد فى الدنيا ، والتغلب على الطبيعة وامتلاك زمامها لا تتأتى لأمثالهم من الذين جعـلوا محط أمانيهم فيما وراء هذا العالم .

إن أمثال هذه المحاولات تروج فى العقول المحدودة ، وتأتى بثمرات إلحادية تنافى المقام المحمود للإنسانية ، وهى قائمة على سفسطة لا تقوى على الرد .

هـل يصح أن يغيب عن هؤلاء الخصوم أن الأمم التى تتقاسم الأرض وتسيطر عليها اليوم ، قامت كلها على بواعث دينية ؟ وأن أمم الشرق الأقصى التى تتناحر جماعاتها كذلك للحصول على حقوقها الطبيعية ، وشعوب الشرق الأدنى التى تستعصى اليوم على الاستعمار ، وتقاوم القوى المضادة لها باستبسال وعناد لا يتصف بها إلا ذوو النفوس الأبية ، هـل منعتها أديانها عن الاندفاع وراء مطالبها المـادية ، وهل حطت من كبريائها القومية ما تعتقده من الأصول الدينية ؟

وهـذه الأمة الإسلامية التى ظهرت فى جزيرة العرب فى بيئة لا تسمح طبيعتها بقيام أمـة فيها ، ألم ترها قامت تحت تأثير عقيدتها تفتح العالم وتستغل

الطبيعة حتى بلغت أقصى ما تبلغه أمة من العظمة الأدبية والمادية ؟ فلو كانت المطالب الروحية تصد النفوس عن الاشتغال بالشئون الدنيوية ، والمعارف الكونية ، لكانت الأمة الإسلامية فى عهدها الأول ـ وقد نالت بسطة من الملك وسعة من السلطان ـ استنامت إلى مالديها من العقائد ، وأهملت ما عداها من البحوث الفلسفية والعلمية ؛ بل كانت تصدت لما صادفته من هذه البحوث واعتبرتها من المكائد الشيطانية ، لإلهاء المؤمنين عن الواجبات الدينية فأحرقتها . ولكن العالم كله يشهد الآن وفى مقدمته المؤرخون ، بأن المسلمين فى بدء نشوئهم ما احتكوا بأمة إلا أخذوا بأفضل ما عندها من المعلومات الكونية ، والأسرار الصناعية ، واكبوا على دراستها حتى بلغوا درجة الامامة فيها قرونا كثيرة ، ولا تزال مؤلفاتهم ماثلة فى الجامعات الأوربية تشهد بصحة ما يقوله المؤرخون عنهم ، فأين تقع بعد هذا الدليل المحسوس دعوى زعماء الفلسفة المادية من أن الاشتغال بالأمور الدنيوية والعقائد الدينية ، يميت القلوب ، ويصد النفوس عن الاهتمام بالأمور المادية ، ويحول دون الوصول الى النهايات البعيدة للفتوحات الطبيعية .

أما وقد دحضنا هذه الشبهة ، فنعود الى القول بأن للدين مهمة لا يستطيع أن يقوم بها العلم بل هو كما ترى يحاول أن يستهين بها ، ويعزوها الى السذاجة العقلية .

لا لا ، ليس تفكير الإنسان فى مصيره ، ولا البحث فى علاقاته الروحية بما فوق الطبيعية ، من السذاجة العقلية ، ولكنه اسمى مايجب أن يبحث فيه الإنسان ، وهو مدفوع اليه بعوامل طبيعية فى ذاته ، فان كان من المسموح به استخدام عبارة السذاجة العقلية فى هذا البحث ، فان هذا الوصف أولى بالذين يدعون أن ليس فوق الطبيعة المنظورة وجود أعلى منها يصح البحث عنه ، وخاصة فى الوقت الذى ظهرت فيه مكتشفات تثبت أن فوق عقل الإنسان العادى عقلا باطنا أقوى منه إدراكا ، وأبعد منه نظراً ، وأشرف منه غاية ، ولا أريد أن أتعدى هذا الحد هنا . وكل ما أريد أن أقوله إن هذا الحنين من النفس لمعرفة ذاتها ، وكشف الستار عن عالمها ، وإحكام الصلة بينها وبين قيومها ، من الأمور التى تهمها ، الى أبعد حد ، ولا يمكن أن تنصرف عنها مهما شككها فيها المشككون ، ومهما بلغ اليه العلم من تسخير الطبيعة . فلا خوف على الدين من تقدم العلم بل إنى أتوقع ، وقد كثرت المكتشفات الروحية ، أن يصير العلم من أشياع الدين ، ويصبح من أخلص خدامه ؟

محمد فريد وجدى

الجنة تحت ظلال السيوف

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ طه الساكت
المدرس بالأزهر

عن عبد الله بن أبي أوْفى رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بعض أيامه التى لقِيَ فيها العدوَّ ، انتظر حتى مالت الشمس ، ثم قام فى الناس فقال : « أيها الناس ! لاتتمنَّوْا لقاء العدو ، واسألوا الله العافية ، فإذا لقيتموهم فاصبروا ؛ واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف . ثم قال : اللهم مُنزِل الكتاب ومُجرى السحاب ، وهازم الأحزاب ، اهزمهم وانصرنا عليهم! » رواه الشيخان .

***

الحرب شر لابد منه ! قضية آمن بها الناس جميعا ، ويزدادون إيمانا بها كلما اتسع العُمرانُ وتنافس الناس فى هذه الحياة . وأخرى آمن بها الناس كذلك : مسلمهم وكافرهم ، إلا أعمى أو مكابراً ، يدمغه الحق ، فيولىِّ صاغراً ، ويدبر مستكبرا ، قد ختم الله على سمعه وقلبه ، وجعل على بصره غشاوة ! تلك هى : أن الإسلام لايشتهى الحرب ولا يتمناها ، ولا يقدم عليها إلا مضطرا ؛ فهو دين الهدى والرحمة والسلام والطمأنينة ، والوقار والسكينة ؛ فإذا اعتدى معتد على كرامته أو بغى باغ على حرمته ، رد العدوان بمثله ، لايحيف ولا يجور ، ولاً يغدر ولا يخون ؛ فإذا كف الظالم ، وثاب الآثم ، ورجع المعتدى ـ صافحه الإسلام وعفا عنه ، وأعاشه فى كنفه وادعا آمنا مطمئنا على نفسه وماله وعرضه ودينه ، يدافع عنه ويقاتل دونه ، ويرعى له من الحرمة والكرامة ما لايرعاه له أهل ملته ، ولا يزال كذلك فى بُحبوحة الأمن والطمأنية ، حتى يغدر أو يفجر فيعلنها على الإسلام حربا عَوانا ! (١) هنالك لايجد الإسلام بدًّا من الأخذ بالحزم والعزم فى

---

(١) العوان : النصف (بوزن سبب) فى سنها من كل شىء ، والعوان من الحرب: الذى قوتل فيها مرة بعد مرة ، كأنهم جعلوا الأولى بكرا .

معاقبـة الباغين ، وتأديب الطاغين ، وإلا كانت رحمتـه ضعفا ، وعزته ذلا ، وشجـاعته جبنا ! وتلك بعض الرذائل التى جاء لمحوها والقضاء عليها .

وهل يستطيع منصف أن يقول إن الإسلام يشتهى الحرب أو يدعو إليهـا فى غير الضرورة التى لا محيص عنهـا ، وهذه إحدى غزوات رسول الله صلى الله عليه وسلم التى نهى فيها عن تمنى لقاء العـدو والاشتباك معه ؟

لم تُعرف على وجه التحديد هـذه الغزوة (١) ولـكن الذى عرف من سيرته صلوات الله عليـه ، حتى أضحى الجدل فيه عنادا ومكابرة ، أنه ما خرج لملاقاة قوم قط إلا بعـد أن سطعت الأدلة على غدرهم ومـكرهم ، وعملهم سرا أو جهرا على هدم دعوته ، ووضع العقبـات والعراقيل فى طريقها ! وكم احتمل هو وأصحـابه صابرين مصابرين من إيذاء لا يحتمل ، وإعنـات لا يطاق ! فى إيثار السـلم على الحرب ، والعفو على العقوبة ، واللين على البطش والقوة . وفى موادعة اليهود ، وصلح الحديبية ، وفتح مكة وكثير غير ذلك ، شواهد صدق لمـا نقول . وإذا كان الإسلام يجنح للسلم إن جنح العدو لها ـ ولو كان فى جنوحه هذا مخادعا ـ فمن العناد والمكابرة ، بل من السخف والمهاترة ، أن يرمى الإسلام أفاك أثيم ، بأنه متعطش للـدماء ، أو معتـد على الأبرياء !

وإذا أمر الإسـلام أهله بأن يُعدوا لعدوهم ما استطاعوا من قوة ، فما ذلك إلا لإرهاب العدو ، والحيطة له ، والحذر من كيده ومداهمته ؛ والأخذُ بالحزم والحيطة فضـيلة من الفضائل التى اجتمع العقلاء عليها ، ومظهر من مظاهر القوة التى لاتحيا أمة إلا بها . وممـا يقطع القلوب حسرة ، ويَفرى الأكباد هما ، أن يأخذ أعداء الإسلام بهذه الحيطة ـ ولا أقول بهذه الفضيلة ـ من بعد أن يخدعوهم ويرموهم بالتعصب ، ويتوسلوا بهذه الفرية إلى إضعافهم وتجريدهم من كل حول وطول ، ثم لايتنبه المسلمون من بعـد نومهم العميق إلا عـلى فنون من القوة ، وضروب من الرمى ، تذهب بالصواب ، وتطير بالألباب !

أوتيت ملكا فلم تحسن سياسته كذاك من لا يسوس الملك يخلعه

---

(١) غير أنها كانت بعد غزوة الأحزاب قطعا بدليل السياق .

نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن تمنى لقاء العدو ، رغبة فى علاج الأمور بالسلم ، وكراهية لإراقة الدماء عند الخصومة ، كما أشرنا إلى ذلك من قبل ؛ ثم حذرا من الإعجاب والبغى ؛ فإن المعجب مزهو بنفسه ، قليل المبالاة بعدوه ، والباغى ظالم ، والظالم قلما ينتصر ، ومن بُغى عليه فهو مظلوم ، والله مع المظلوم وناصره ، وأخوف ما يخاف على الجيش إعجابه بنفسه ، وبغيه على غيره ، وقد قال قائل فى غزوة حنين : لن نغلب اليوم من قلة ، حينما أعجبتهم كثرتهم فلم تغن عنهم من الله شيئا ! وقال على لابنه رضى الله عنهما : يا بنى لا تدع أحدا إلى المبارزة ، ومن دعاك إليها فاخرج اليه لأنه باغ ، والله قد ضمن النصر لمن بُغى عليه ! ثم أمرهم أن يسألوا الله العافية لأن أحدا لا يعلم ما يئول اليه أمره مع عدوه ، فلأن يعافى فيشكر ، خير له من أن يبتلى فيصبر ، كما يؤثر عن الصديق رضى الله عنه .

فإذا استفحل الداء ، وعز الدواء ، ولم تُجد لدى العدو حيلة ولا وسيلة ، فلا مفر إذاً من اللقاء ، والجهاد فى سبيل الله ، وبيع النفس والنفيس لمرضاة الله ، والصبر تحت ظلال السيوف ، حيث الفوز العظيم بجنات النعيم .

أما انتظاره صلوات الله عليه حتى مالت الشمس عن كبد السماء فتلك عادة من عاداته فى الحرب ؛ روى النعمان بن مقرّن رضى الله عنه قال : غزوت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم غزوات ، فكان إذا طلع الفجر أمسك عن القتال حتى تطلع الشمس ، وإذا طلعت قاتل حتى إذا انتصف النهار أمسك حتى تزول الشمس ، فإذا زالت قاتل حتى العصر ثم أمسك حتى يصلى العصر ثم قاتل . وكان يقول : عند هذه الأوقات تهيج رياح النصر ، ويدعو المؤمنون لجيوشهم فى صلواتهم . أخرجه أبو داود والترمذى .

وأما الدعاء فى القتال وعند التحام الجيشين ، فكان من دأبه صلوات الله وسلامه عليه ، ومن أعظم الآداب التى أدب بها جنوده فى الحرب ؛ ذلك لأن الدعاء ولا سيما فى هذا الموطن ، عنوان الفزع إلى الله والالتجاء اليه وأن لا اعتماد فى الانتصار إلا عليه ؛ ثم هو أمارة على أن هذا القتال فى سبيله ومن أجل نصرة دينه ، وهو يقول وقوله الحق : « إن تنصروا الله ينصركم ويثبتْ أقدامكم » .

وأشار صلوات الله وسلامه عليه وهو يدعو بهذا الدعاء، إلى وجوه كريمة فى طلب النصر : فبإنزال الكتاب يشير إلى قوله تعالى « قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويُخزِهم وينصرْكم عليهم ويَشف صدور قوم مؤمنين» وبإجراء السحاب يشير إلى قدرته جل سلطانه على تسخير السحاب وإرسال الرياح وإغاثة عباده بالمطر، فهو لاشك قادر على إغاثة المجاهدين فى سبيله وإمدادهم بنصره ومعونته ؛ وبهزيمة الأحزاب يشير إلى تجريد التوكل عليه، واعتقاد أنه لانصر إلا من عنده سبحانه، إذ هزم الأحزاب وبدد شملهم، وفرق جموعهم، وما كان للمسلمين بهم طاقة. ثم نبه على عظم هذه النعم الثلاث كلها ؛ فبإنزاله تعالى كتابه العزيز كانت نعمة الدين، وبإجراء السحاب كانت نعمة الدنيا، وبهزيمة الأحزاب كان حفظ النعمتين جميعا .

هـذه أثارة من آداب الحرب فى الإسلام، ونظره إليها، ومن نظر بعين الإنصاف فإنه واجد فى هذا الدين الحنيف، أعلى مثل تنتظره المدنية، ويصبو إليه الأنام، فى العزة والرفاهية والطمأنينة والسـلام .

الحض على النضال

روى عقبة بن عامر قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول وهو قائم على المنبر : « أعدوا لهم ما استطعتم من قوة » ألا إن القوة الرمى، ألا إن القوة الرمى، ألا إن القوة الرمى ! وكان أرمى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم سعد بن أبى وقاص، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا له، فقال : اللهم سدد رميته، وأجب دعوته. فـكان لا يرد له دعاء، ولا يخيب له سهم » .

وذكر أسامة بن زيد أن شيوخا من أسلم حدثوه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جاءهم وهم يرمون ببطحان ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ارموا يابنى إسماعيل فقد كان أبوكم راميا وأنا مع ابن الأدرع . فقال القوم : يارسول الله من كنت معه فقد نضَل . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ارموا وأنا معكم كلكم، فانتضلوا ذلك اليوم، ثم رجعوا بالسواء ليس لأحد على أحد منهم فضل .

دعائم الاستقرار

فى التشريع القرآنى

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد محمد المدنى
المفتش بالأزهر

بينّا فيما سبق كثيرا من الآيات والموضوعات التى تدل على أن القرآن الكريم قد عنى تمام العناية بأن يكون تشريعه قائما على إقناع المكلفين بحاجتهم إلى التقيد بتشريع معين فى أمر معين ، حيث لم يأت حكم من أحكامه إلا والأمر يتطلبه ، والإحساس العام للمكلفين يترقبه ، وهو مقتنع به بفطرته ، أو بعد البيان من العليم الحكيم . وبذلك انتهى الكلام على الدعامة الأولى من دعائم الاستقرار فى التشريع القرآنى .

وأما الدعامة الثانية : ونقصد بها اقتناع المكلفين بشرعية السلطة التى عنها تصدر التشريعات ، فإننا نجد القرآن الكريم يبرزها أيضا ، ويعمل على أن تكون واضحة فى نفوس الناس ، متقبَّلة بما ينبغى لها من قبول حسن عند المكلفين .

إن التشريع إلزام وتكليف ، يفرض فيه المشرع إرادته على طائفة من الناس ويأخذهم بها ، ويجعلها نظامهم الذى يسيرون عليه ، ولا يحق لهم التفلت أو التخفف منه ؛ والفطرة تقضى بأن يكون الملزِم والمشرّع ذا سلطان مسلم به ، تخضع النفوس لإرادته ، وتذعن لحكمه ؛ وهذا السلطان قد يكون قائما على القوة المادية ، والقهر والغلبة ؛ فلولا ذلك ما بقى ، ولولا ذلك ما رضى به الراضون ، وخضع له الخاضعون ؛ وقد يكون مستمدا من الهيبة المعنوية والاحترام الروحى

وتقبل المكلفين له عن رضا نفسى ، وإيمان قلبى ، سواء أ كان هو جديرا بذلك فى نفس الأمر ، أو ليس جديرا به .

ولذلك شهد العالم فى أطواره المختلفة أنواعا من التشريعات، اختلفت مصادرها، واختلفت باختلاف هذه المصادر حظوظها من الاحترام والتقدير والبقاء . شهد العالم تشريعات القوة والضغط والجبروت ، حين يكون أصحاب الأمر مغتصبين للأمر ، لا يعتمدون فى حكمهم على حق مشروع ، وإنما يعتمدون على القوة والبطش والتنكيل بمن يقف فى سبيل رغباتهم ، فتبقى هذه التشريعات ما بقيت القوة التى تستند إليها ، حتى إذا انهارت انهارت معها غير مأسوف عليها . وشهد العالم نوعا آخر من التشريعات لا يعتمد القوة والإرهاب ، ولا يقوم على البطش والتنكيل ، ولكنه يعتمد الخداع والتضليل واستغلال جهل المحكومين أو غفلتهم أو سذاجتهم ؛ وتلك هى تشريعات الأحبار والرهبان والرؤساء المتصدرين باسم الأديان ؛ كانوا يحلون ما يشاءون ، ويحرمون ما يشاءون ، وكان الناس لفرط عمايتهم وجهالتهم يتقبلون منهم ذلك ، ويتخذونهم أربابا ينزلون على أحكامهم ، ويرضون بتحليلهم وتحريمهم ؛ وقد بقى لهذه التشريعات سلطانها وقبولها عند الناس ما بقيت الجهالة والضلالة ، حتى إذا انكشف الغطاء ، وانجلت الغشاوات ، وأفاق العقل البشرى أو رشد وحصف ، تزلزلت هذه التشريعات بتزلزل مصادرها ، وانطوت مع التاريخ كما انطوى أصحابها .

ثم كان لا بد أن يدرك الناس أنهم متساوون فى الإنسانية ، وأن أحدا منهم لا يمتاز عن غيره بميزة تجعله مشرعا للآخرين ، وتلزمهم بقبول تشريعه ، فهم جميعا مخلوقون لخالق واحد ، وهم جميعا مملوكون لمالك واحد ، هو الذى خلقهم وأنعم عليهم ، فله وحده حق التصرف فيهم ، والأمر والنهى ، وأن يقول هذا حلال وهذا حرام . كان لا بد أن يدرك الناس هذا ، لأنه هو الواقع الصحيح فى نفس الأمر ، ولأنه هو الذى تستقيم عليه شئون البشر ، ويستقر معه أمر التشريع ؛ ولهذا جاءت الدعوة الى التوحيد والإيمان بإله خالق قادر منعم ، والى جانبها الدعوة الى نبذ الأرباب من الرؤساء والأحبار والرهبان الذين زعموا لأنفسهم حق التحليل والتحريم ؛ فانحصرت الربوبية فى الله حكما

وتشريعا ، كما انحصرت فيه جل جلاله خلقا وإنعاما وتصريفا . بذلك جاءت الرسل ، وبذلك نزلت الكتب ، وقد أوضح القرآن الكريم هذا المعنى وجلاه حتى لم يعد فى شأنه أدنى خفاء .

١ - فالله سبحانه وتعالى هو « المشرع » لأنه الخالق المالك المنعم المتصرف ، والناس جميعا خاضعون لسلطانه بحكم ربوبيته وعبوديتهم « قل يأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألاّ نعبدَ إلا الله ولا نشركَ به شيئا ولا يتخذَ بعضنا بعضا أربابا من دون الله » « ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذبَ هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب » « قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراما وحلالا ، قل آلله أذن لكم أم على الله تفترون ؟ » « إن الحكم إلا لله يقص الحق وهو خير الفاصلين » « أليس الله بأحكم الحاكمين » « وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك ، فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم ، وإن كثيرا من الناس لفاسقون . أفحكم الجاهلية يبغون ؟ ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون » . « والله يحكم لا معقب لحكمه وهو سريع الحساب » « ولا يشرك فى حكمه أحدا »

٢ - ومثل ذلك ألفاظ : شرع وشريعة وشرعة ونحوها ، فقد جاءت كلها مضافة إلى الله على أن الأمر فيها له ، ومنفية عمن سواه أو منكَرة عليه « شرع لكم من الدين ما وصّى به نوحا والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى » فكل الشرائع هو الذى شرعها « لكل جعلنا منكم شِرعة ومنهاجا » « ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتّبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون » « أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله » .

٣ — ومثل ذلك أيضا ألفاظ التحريم والتحليل « قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم » « وما لكم ألا تأكلوا مما ذُكر اسم الله عليه وقد فصّل لكم ما حرم عليكم » « قل آلذكرين حرم أم الأنثيين » « قل هلم شهداءكم الذين يشهدون أن الله حرم هذا » « لم تحرم ما أحل الله لك » « فيحلوا ما حرم الله » « قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله » « يأيها الذين

آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا » « وقالوا هذه أنعام وحرث حِجر لا يَطعمها إلا من نشاء ، بزعمهم ، وأنعام حرمت ظهورها ، وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها افتراء عليه ، سيجزيهم بما كانوا يفترون . وقالوا ما فى بطون هذه الأنعام خالصةٌ لذكورنا ومحرم على أزواجنا ، وإن يكن ميتةً فهم فيه شركاء ، سيجزيهم وصفهم » .

إلى غير ذلك من الآيات التى يغرس بها القرآن فى نفوس المؤمنين مبدأ الحكم الصحيح والتشريع الصحيح ، من أن الحكم لله ، والتشريع لله ، والتحليل والتحريم لله ، وأنه ليس لأحد من المخلوقين أن يحكم أو يشرع إلا بما حكم الله وشرع الله .

٤ — وقد بيّن القرآن فى هذا أن الرسل لا يأتون بشىء من التشريع ولا يحرمون ولا يحلون إلا بإذن الله ، وأنهم إنما يبلغون أحكام الله ؛ ولذلك نجد فى الكتاب الكريم مثل قوله تعالى « من يطع الرسول فقد أطاع الله » « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلّموا تسليما » ، « قل إن كنتم تحبون الله فاتّبعونى يحببكم الله » .

ويعتبر القرآن أمر الأنبياء فى ذلك مستمدا من أمر الله ، حيث وهب كلا قسطا من الحكم والتشريع باسمه تعالى وإذنه ؛ وفى ذلك يقول عن موسى « ولما بلغ أشُده واستوى آتيناه حكما وعلما » وعن يوسف « ولما بلغ أشده آتيناه حكما وعلما » ، وعن لوط « ولوطا آتيناه حكما وعلما » وعن داود وسليمان « وكلا آتينا حكما وعلما » ، وقد دعا إبراهيم ربه فقال « رب هب لى حكما وألحقنى بالصالحين » الى غير من الآيات .

وقد أجمل القرآن الكريم مصادر التشريع فى قوله تعالى « يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ، فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، ذلك خير وأحسن تأويلا » .

فالمصدر الأول هو القرآن الكريم ، وإطاعة الله هى العمل به ؛ والمصدر

الثانى هو السنة ، وإطاعة الرسول هى العمل بها ؛ والمصدر الثالث هو إجماع أولى الأمر وأهل الحل والعقد الذين تثق بهم الأمة ، وطاعتهم هى النزول على ما اتفقوا عليه ، والرضوخ لما حكموا به استنباطا من كتاب الله وسنة رسوله ؛ فاذا لم يتفقوا على شىء ، بل تنازعوا فيه واختلفوا ، عرض ذلك على الكتاب والسنة ، وعمل بما يرشدان إليه ويدلان عليه .

وبهذا تبين أن المصادر كلها راجعة الى مصدر واحد هو الله جل علاه ، وأن التشريع القرآنى يجعل المؤمنين مطمئنين الى أن مصادر تقييدهم وإلزامهم وتكليفهم هى مصادر لها هذا الحق ، وليس لأحد أن ينازعها فيه ، أو يتفلت من سلطانه ، فتتحقق من هذه الناحية الدعامة الثانية من دعائم التشريع والتكليف ، وتكتسب القوانين والأحكام التى شرعت على هذا الأساس هيبتها وقداستها .

هذا وقد شاع واستفاض على الألسنة فى عصرنا الحاضر أن الأمة مصدر السلطات ، وأن من بين هذه السلطات سلطة التشريع ، فهى باسم الأمة ؛ فلا ينبغى أن يظن بهذا منافاة لما قلناه من أن التشريع لله ، فان سلطة الأمة لا بد أن تتركز فى دستور يرسم للعاملين باسمها مبادىء الحكم ومناهج التشريع ؛ ودستور الأمة الإسلامية الذى يرجع إليه ويبنى الحكم والتشريع على أساسه هو الكتاب والسنة ، فى دائرتهما يكون النظر ، وعلى هداهما تسير الأمة فى تنظيم شئونها ورسم سياستها وتشريعها ؛ فالأمة حقا هى مصدر السلطات ، ولكن فى حدود ذلك الدستور السماوى الذى يجب أن يخضع له كل نظام وكل حكم ، وأن يرد إليه ما يكون من نزاع أو خلاف . والله المستعان ؟

فى وصف حصان

ذو أولق تحت العجاج وإنما ... من صحة إفراط ذاك الأولق

تغرى العيون به ويغلق شاعر ... فى نعته عفوا وليس بمغلق

قد سالت الأوضاح سيل قرارة ... فيه فمفترق عليه وملتقى

صافى الأديم كأنما ألبسته ... من سندس ثوبا ومن إستبرق

الأولق : خفة العقل ، وهو غير مذموم فى الخيل . والعجاج : العثير . والأوضاح يراد بها الألوان .

أسباب تأخر المسلمين

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبد الحميد عنتر
الأستاذ بكلية اللغة العربية

وهذه أسباب التأخر من الدرجة الثانية . وأهمها ما يأتى :

السبب الأول ـ تفرق شمل المسلمين فى أقطار الأرض إلى دويلات صغيرة ، وانحلال رابطتهم بزعزعة أركان الخلافة الإسلامية ، ونزوعهم إلى النَّعرة العصبية وحميَّة الجاهلية ، وانقسامهم شيعا وأحزابا ، حتى لقد كانت هذه الدويلات الإسلامية فى وقت ما تُربى على اثنتى عشرة دولة ! منها ست فى الشرق تفرعت عن الدولة العباسية التى كانت إذ ذاك فى طور الاحتضار . وهى : دولة بنى بويه ، والدولة السلجوقية التركية ، ودولة آل سُبُكْتُكين ، والدولة الطولونية بمصر ، والدولة الفاطمية ، والدولة الأيَوبية . وكان الحكم فى هذه الدول أغرب حكم عرف فى تاريخ الإسلام ، إذ كان لكل حكومة منها سلطتان : سلطة شرعية ظاهرية فقط ، ولها اسم الخلافة ، وتستمدها من الخليفة العباسى برضاه ؛ وسلطة حاكمة فعلية ، ولها اسم الملك ، وهى مستمدة من هذا الخليفة قهرا عنه [1] ! وأكثر من ست دول فى بلاد الأندلس العربية ، التى آل أمرها إلى أن تكون كل قبيلة منها دولة مستقلة ، لها حاكم مستقل ؛ وقد اشتهر هؤلاء بملوك الطوائف . وفيهم يقول الشاعر :

وتفرقوا شيعاً فكل قبيلة　　　فيها أمير المؤمنين ومنبر !

وآخر هذه الدويلات دولة بنى الأحمر التى كانت من أقوى الأسباب فى زوال ملك العرب المسلمين من بلاد الأندلس .

وقد كان من أثر هذا التفرق المشئوم الذى منشؤه حب الرياسة والجاه والمال ،

---

(١) الدروس التاريخية للأستاذ الخضرى بك ، رحمه الله

وعدم التنبه إلى دسائس الأعداء - أن تضعضع سلطان العرب ، وانطفأ مصباح الحضارة والعلوم الإسلامية فى الشرق ؛ وأن استسلمت بلاد الأندلس لأعداء العرب فى الغرب ، بعد أن سطع نور المعارف ، وأشعَّت شمس العلوم الإسلامية فى تلك الديار زُهاء سبعة قرون من الزمان ؛ وأن تألفت على إثر سقوط دولة بنى الأحمر محاكم التفتيش القسيسية الوحشية ، وأخذت تتحكم فى رقاب المسلمين وفى أعراضهم وأموالهم وعقيدتهم ، وتُصدر أحكامها الجائرة الغاشمة التى يقشعر لهولها بدن المروءة ، ويندى لها جبين الإنسانية حياء وخجلا . ويذوب منها القلب حزنا وكمدا ! .

يحدث كل هذا والمسلمون واجمون سامدون ، خاضعون لهذا الذل والهوان والفضيحة والعار ، لا يحركون ساكنا ، ولا يثأرون لحرماتهم التى انتهكت ، وأعراضهم التى هتكت ، ومساجدهم التى هدمت ! !

عبر التاريخ :

أيها القارىء ! لست أقصد بذكر هذه الحوادث الأليمة نبش الماضى السحيق ، وتقليب ذكرياته التى تُمض النفس وتكدر الصفو ، وتجلب الهموم والأحزان ؛ وإنما القصد أن يعتبر العرب والمسلمون بما فى الاتحاد من عز وقوة بأس ، وبما فى التفرق والتقاطع من ضعف وخذلان ودمار . قال الله تعالى «واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا » ، وقال عز شأنه « ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهبَ ريحُكم ، واصبروا إن الله مع الصابرين » .

العرب والمسلمون اليوم : لئن انطوى ماضى العرب والمسلمين بما فيه من محن ورزايا وعبر وعظات ، ولئن فرقتهم شياطين السياسة الاستعمارية التى اغتروا بزخرفها وبهرجها زمنا طويلا - لقد تفطنوا اليوم لألاعيب هذه السياسة وحيلها ، وأدركوا بالبرهان العملى الخطر الداهم الذى هم صائرون إليه ؛ ذلك الخطر الذى يتستر بأسماء مستعارة : تارة باسم الحروب الصليبية ، وأخرى باسم تمدين الشرق ومحو الهمجية ، وثالثة باسم الصهيونية أو الدولة اليهودية ، ورابعة باسم الاشتراكية

أو توزيع العدالة الاجتماعية. هذا ظاهر الحال، وما هو فى الحقيقة إلا شبح الموت وغول الفناء ونذير الشر والفساد، وضياع البلاد واستعباد الأولاد والأحفاد - لاقدر الله شيئا من ذلك - . هذا ما أدركه العرب والمسلمون الآن، بعد أن صهرتهم الحوادث، ونبهتهم التجارب، وجمعتهم الشدائد، فهبوا يدافعون عن فلسطين عرين العروبة، وقدس الإسلام، ومهد المسيح عليه السلام.

ومن الفأل الحسن لنتيجة اتحاد العرب، ذلك القرار الحازم الذى أصدرته حكومات الدول العربيه فى هذه الأيام، وهو يقضى بمد يد المعونة الحربية الفعلية إلى عرب فلسطين المجاهدين، بعد أن تحرجت الحال، وسُلمت مدينة حيفا وقبلها طبريا إلى القوات الإرهابية الصهيونية، وشرعت هذه القوات فى مهاجمة يافا وعكا والقدس، وعما قريب ستسترد قوات العرب المجاهدين بمعونة الله ما بيد الصهيونيين، ثم تكر عليهم وتدحرهم وتمزق جموعهم شر ممزق، وتستولى على عقارهم وأموالهم، وتطهر البلاد من خبثهم ورجسهم، فتعيش فلسطين بعد ذلك عربية حرة، يرفرف عليها علم العروبة الخاص بها، وينعم أهلها تحت ظلال السيادة العربية، سواء فى هذا العربُ المسلمون والمسيحيون، واليهود المواطنون المسالمون الذين عاشوا مع إخوانهم فى العروبة متمتعين بالحرية التامة والطمأنينة الشاملة ثلاثة عشر قرنا من السنين العربية، ولم يحركهم للشر إلا أطماع (الجوييم [1]).

هذه آمال كل محب لخير الإنسانية، مبغض لشره الطامعين المعتدين الظالمين الآثمين، وستتحقق هذه الآمال - إن شاء الله - بفضل اتحاد العرب، وتعاون الشرق. وكل آت قريب [2].

---

(١) الجوييم: اسم رمزى لليهود الصهيونيين، الذين يريدون الاستيلاء على العالم كله، ويعتبرون كل من سواهم من الناس بهائم!! انظر مقالات الأستاذ نقولا الحداد عن اليهود فى أعداد مجلة الرسالة: مارس وابريل ومايو سنة ٤٨.

(٢) بعد كتابة ما تقدم دخلت الجيوش النظامية لجامعة الدول العربية أراضى فلسطين، لتحريرها من أيدى الصهيونيين، فتقدمت تقدما مظفرا فى جميع جهات القتال، والمأمول أن يكتب النصر التام لهذه الجيوش المجاهدة فى سبيل الله «وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم. ليقطع طرفا من الذين كفروا أو يكبتهم فينقلبوا خائبين»!!

وبعد : فموضوع فلسطين درس وطنى عملى للعرب ؛ لئن أضرَّ بهم فى ناحية لقد نفعهم أعظم النفع فى نواح كثيرة . وقديما قيل : المصائب تجمع القلوب المتفرقة . وإلى الله الكريم نضرع أن يديم الاتحاد والوفاق بين أعضاء جامعة الدول العربيـة ، وباقى أعضاء الجامعة الإسـلامية ، ليتبوأ العرب والمسلمون مكانتهم فى المجتمع الإنسانى العالمى ، ويقيموا بوساطة تعاليم الإسلام الرشيدة الحكيمة أمة عظيمة بيدها مقاليد السعادة والرفاهية لجميع بنى الإنسان على السواء . وما ذلك على الله بعزيز .

السبب الثانى ـ التهاون فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . المعروف كلمـة جامعة ، ومعناه فى عرف الشرع : الإحسان والرفق والخير . والمنكر ضد ذلك . وقد كان الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر من أخص صفات الأمة الإسلامية فى عصرها الأول ؛ وبهما ترقت إلى أوج السعادة ومدارج السيادة . ويرجع الفضل فى توالى الفتوحات الإسلامية فى الشرق والغرب ، وانتشار الدين بين طبقات الأمم فى آسيا وأفريقا وبعض جهات أوروبا ، إلى هاتين الصفتين الحيويتين ، فلما تخلت عنهما الأمة الإسلامية ومال كثير من أفرادها إلى المداهنة والمجاملة والمصانعة والتغاضى عن هفوات المسىء ، بل ربما يكال له المدح جزافا وبلا حساب ولا تقدير ؛ لما حدث ذلك انحطت قيم الصالحين المصلحين ، وارتفعت أقـدار المسيئين المفسدين ، فتولوا ما ليس من شأنهم ، وأشاعـوا الفساد فى بلاد الإسلام ، يعاونهم على ذلك أعداء الدين والعروبة ، فنتج عن هذه الحال السيئة ضعف المسلمين وتقهقرهم فى ميادين العمل والإصلاح ! وهذا الذى حدث نتيجة المخالفـة لقوله تعالى « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، وأولئك هم المفلحون » ولقوله عليـه الصلاة والسلام « من رأى منـكم منكرا فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان » .

خطب أبو بكر رضى الله عنه ، فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه : « يأيها الناس إنـكم تقرءون هذه الآية وتضعونها على غير موضعهـا « يأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم » وإنا سمعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم

يقول : إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يده أوشك أن يعمهم الله بعقاب ؛ وإنى سمعت رسـول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ما من قوم يُعمل فيهم بالمعاصى ثم يقدرون على أن يغيروا فلم يغيروا إلا يوشك أن يعمهم الله بعقاب » .

ومعنى هذا أن الأمر فى قوله تعالى « عليكم أنفسكم » موجه إلى جميع أفراد الأمة الاسـلامية بدون استثناء . يطالبهم فيه بإصلاح شئونهم وسـلوكهم سبيل الهداية ، فإذا صلح أمرهم واهتدوا فلا يضرهم ضلال من ضل من الأمم الأخرى غير الأمة الإسلامية . هذا مراد الله تعالى من الأمر . ولـكن كثيرا من النـاس يفهم الآية على غير وجهها الصحيح ، فيزعم أن الأمر متوجـه إلى بعض أفراد الأمة ، وأن هـذا البعض إذا اهتدى فلا يضره ضلال البعض الآخر من أفـراد هـذه الأمة . وقد بين الرسول عليه السلام خطأ هذا الزعم ، وبينه كذلك خليفته أبو بـكر من بعده . وبالرغم من هذا لا يزال سواد المسلمين متمسكين بهذا الزعم الباطل حتى يومنا هذا ؛ لذلك وقعوا فيما وقعوا فيه من تأخر وتقاطع ، وانحلال واضمحلال !

السبب الثـالث ـ التواكل . وهـو داء حديث من أدواء الأمة الإسلامية ، فشى فى جميع ربوع الإسلام . ومعناه أن يهرب الشخص من الواجب عليه ويتكل فى قضائه على آخر ، ومنشؤه الـكسل والخمول ، وحب الدعة والراحة .

وقد روج هـــذه الصفة الذميمة بين المسلمين دعاة الاستعمار الأوروبى ، وساعدهم على ذلك مناخ بلاد الإسلام ، وما منى به المسلمون من البعد عن دينهم ، والاستماع لـكل ناعق ولو بالباطل !

تسرب هـذا الداء الى الحـكام ، فأحجموا عن تشجيع الصناع الوطنيين ، ورضوا بأن يـكون الشرق عالة على أوروبا فى جميع لوازم حضارته ومعـدات جيوشه ومقومات حياته !

وتسرب الى موظفى الدواوين فى بلاد الشرق ، فتعطلت مصالح الناس ، وكاد يقف دولاب العمل فيها ! وتسرب الى المشتركين فى عمل مشاع كالصناع والعمال

وخفراء الأمن ، فقلّ الإنتاج ، وقلت الثروة ، وتراءى للناس شبح الفقر والمرض والجهل ، واختل نظام الأمن !

وتسرب الى أفراد الأسر الذين يشتركون فى معيشة واحدة ، فنشأ عنه أن تبرم الولد بأبيه ، والأخ بأخيه ، والوالد ببنيه ، فهجر المتبرم أسرته حاقدا حانقا ؛ وبذا انحلت روابط الألفة ، ونمت عوامل التفريق والضعف .

وتسرب الى نفوس الشحاذين أقوياء الأبدان ، والى بعض طوائف الصوفية المرتزقة باسم التصوف ، فأمات فيهم روح العمل والنشاط ، وأصبحوا كالعضو الأشل فى جسم الأمة الإسلامية ! ولو تنبه مجموع الأمة ولا سيما أولى الأمر منهم الى ما يرمى اليه قوله تعالى « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون » لما حدث من هذا كله شيء ؛ ولكن لله فى خلقه شئون !

السبب الرابع ـ إهمال تربية البنات تربية دينية صحيحة . وهذا السبب يكاد يعد من الأسباب الجوهرية فى تأخرنا .

ولا أريد أن أطيل فى التعليل لهذه الدعوى ؛ فإن المعروف أن المرأة العربية الإسلامية كان لها حظ كبير من علوم الاسلام وثقافته الدينية فى عهد الرسول عليه السلام وخلفائه الراشدين ، مكنها من أن تساهم بقسط وافر فى نهضة الأمة وبناء حضارتها ، وتوالى فتوحاتها واتساع رقعتها . ثم تغيرت الحال فى أواخر عهد الدولة العباسية فخبا مصباح تعليم المرأة ، وأخذت تتعثر فى حياتها الاجتماعية بين الجمود والتجديد : الجمود الذى حرمها حتى من تعليم دينها تعليما مثمرا ، والتجديد الذى قد يئول بها إلى فقد شخصيتها النسائية كربّة بيت ومخرجة جيل . وإذا عرفنا أن النساء نصف الأمة أو أكثر ، وأنهن إذا صلحن صلح حال الأمة كلها ، كما قال شاعر النيل حافظ ابراهيم طيب الله ثراه :

الأم مدرسة إذا أعددتها　　أعددت شعبا طيب الأعراق

وأنهن إذا جهلن أو فسدن ، غرقت الأمة فى بحر من الجهل والفساد ، كما قال أيضا :

من لى بتربية النساء فإنهـا في الشرق علة ذلك الإخفاق !

إذا عرفنا ذلك سهل علينا إدراك ماحاق بأمتنا من الضعف والتأخر بإهمال تربية النساء ، وإدراك مانكتسب من قوة وتقـدم بالعناية بتربيتهن تربية دينيـة عصرية صحيحة .

السبب الخامس ـ جمود رجال الدين فى أقطار الإسلام ، وأعنى بهـذا الجمود عـدم مسايرة العصر فيما لايضير الدين.

ومما لاشك فيه أنه قـد حـدثت فى العالم تطورات فى نظم الحياة وأساليب المعيشـة ، وتطورات فى نظم القضاء وأساليب التعليم والتأليف ، وتطورات فى النظم الاقتصادية والاجتماعيـة ، وتطورات فى نظم التبشير بالدين والدعوة إليه ، وتطورات فى نظم الدفاع وأساليب الحرب . حدثت كل هـذه التغيرات وغيرها فى غير بلاد العرب ، أعنى فى أوروبا ، ثم فى أمريكا ، فكانت نتيجتها ما شهـده العالم أجمع من القوة والرقى المـاديين ، والتسلط على جميع بلاد العرب بل على جميع بلاد الشرق الإسـلامى ! فماذا كان موقف رجال الدين المسلمين من هـذه التطورات ؟ الحق أنه كان موقفا غير مشرف ، إذ من المعروف أن علماء الدين ورجاله كانوا قـدوة الأمـة فى العصور الخالية ، فكان عليهم أن يوجهوها إلى كل صالح مفيد ، وأن يكونوا فى طليعة الداعين إلى الأخذ بكل تطور لا يمس عقيدة من عقائد الدين ، ولا يبطل حكما من أحكامـه التى علمت منه بالضرورة ، ولا سيما فى الوقت الذى رأوا فيـه تيار الغرب يجرف الشرق ، ويغزوه بعاداته الأوربية ، وقوانينه الوضعية ، ومبادئه الاستعمارية ، واختراعاته الحديثة ، ودسائسه المسبوكة التى طوحت بأمثال السيد جمال الدين الأفغانى ، والأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده والوطنى الغيور مصطفى باشا كامل . ومما يوجب الأسف الشديد أننا اضطررنا أخيرا إلى مسايرة العصر فى أشياء كثيرة ، ولـكن بعد فوات الفرصة ، وبعـد أن نكبنا فى عاداتنا وأخلاقنا وديننا ووطنيتنا ، فاللهم تداركنا بعفوك ورحمتك ، وقيض لهذه الأمة من يعيد إليها مجدها الغابر وعزها القديم ! .

« للـكلام صلة »

ابن حزم

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبد الله المراغى
مدير قسم المساجد بوزارة الأوقاف

نفسية ابن حزم فى تأليفه :

أسلفنا القول فى تاريخ ابن حزم أنه اغتنم فرصا من حياته فألف فى شتى العلوم التى نبغ فيها . والباحث فى هذه المؤلفات يستشرف نفسية ابن حزم يتدفق تيارها فى جداولها التى تنساب حاملة آراءه وعواطفه، وشخصيته وشاعريته، واستقلاله فى رأيه، وإيمانه بما يعتقده، وتعصبه لمذهبه، وعدم مبالاته بما يثيره خصومه من نقع يغيِّر أفق الحياة حوله .

وعندى أن الوقوف على الخبىء من نفسية ابن حزم مستطاع من قراءة وتتبع مابثه فى كتبه، وليس أصدق فى الاستدلال على تفكير المرء وما يخالج أحاسيسه مما يدبجه قلمه إذا عرف بالإيمان وثبات اليقين ؛ ولا ينكر أحد على ابن حزم أنه كان مؤمنا بما يعلنه، قوى اليقين بما يظهره، ثابت العقيدة بما يكتبه، ينبىء مظهره على مايضمره ؛ فقد كان شافعيا متحمسا لمذهبه ؛ لأنه كان مؤمنا به ؛ فلما تحول الى مذهب الظاهرية كان شديد التعصب له ؛ فهل كان مرائيا فى أولاه أو مغرضا فى أخراه ؟

لقد رُمى ابن حزم بذلك من بعض خصومه الألدّاء، مستدلين على ذلك بأن لسانه كان سليطا على الأئمة، ومنهم الشافعى الذى كان يدين بمذهبه ويدافع عنه .

وإذا كان بعض الناس يرى أن القلم يستطيع أن يكتب غير ما يعتقد الكاتب لشهوة سانحة أو لغرض خاص، فإن هذا النوع من الكتابة لم يكن مألوفا فى عهد ابن حزم إلا قليلا، ولا نستطيع أن نتصور هذا الاتهام فى مؤلف يكتب فى علوم الحديث، والكلام، والأصول، والتفسير، والفقه .

ولقد كتب ابن بشكوال والذهبى والمقَّرى وابن الأبار وابن خلدون وجولد سيهر وهورتن وياقوت وابن خلكان وابن القفطى والضبى وعبد الواحد المراكشى وابن خاقان وغيرهم من المسلمين وغير المسلمين، من ناقدين ومعاضدين، ومؤيدين ومعارضين، فلم يستطع أحد منهم أن ينكر على ابن حزم أنه رجل عقيدة

ودليل ، ورجل رأى وبرهان؛ وسواء أكان مصيبا أو مخطئا فإنه ليس خاطئا إن خانه التوفيق ؛ وشتان بين مخطىء لا يخالفه الصواب ، وبين خاطىء يتعمد الخطأ ويكتب على غير هدى قاصدا ، ويضلل الناس عامدا ؛ وليس ابن حزم من النوع الثالث . ولا يمكن لمنصف أن يقول بذلك مهما غلا فى نقده .

والحق أنه أحد رجلين : مجتهد مصيب يحالفه الصواب فله أجران ، أو مجتهد يخطىء حينا فيكون له أجر ويصيب حينا فيكون له أجران . هذا رأينا فيما اطلعنا عليه من مؤلفات ابن حزم ، وفيما تضمنه من آراء ، يوافقنا عليه المنصفون من نقاده ، ولا نبالى أن يخالفنا فيه المغالون من حساده .

مؤلفاته :

يقول المؤرخون : إن من بواكير مؤلفاته كتاب « طوق الحمامة فى الألفة والألاف » ألفه ابن حزم فى شاطبة حوالى سنة ٤١٨ هـ على ما يقوله بعض الباحثين ، أو سنة ٤١٧ هـ على ما يقوله ابن الأثير .

والمطلع على هذا الكتاب يرى ابن حزم مثلا لصفاء العاطفة ، ومرآة لدقة الأحاسيس ورقة المشاعر ؛ قص فيه من تجاربه وتجارب أهل عصره ، وأعرب عن نظراته العميقة ووجدانه المتغلغل بين الجوانح ، ما يضىء لنا جوانب الحياة فى عهده ، وهو أمر لا يعرفه إلا القليل ، ولا يدرك من سره إلا النزر اليسير .

ويبدو أن المؤلف تكلم فى هذا الكتاب على الألفة والمحبة والحب والعشق على نحو يتسق مع تفكيره ، وصاغ كلامه فى أسلوب عنى فيه بإظهار شاعرية نفسه ، أو هى قد ظهرت على الرغم منه ، كما روى لنا فيه أشعارا من نظمه الذى عرضنا لونا منه فى المقال السابق . وإن عنوان الكتاب يهدى القارىء الى موضوعه ، ويأخذ بيده الى أمر لا تخلو نفس من الحديث فيه أو التطلع فى أفقه أو التفكير فى مآله .

ومن مؤلفاته « رسالة فى فضل الأندلس » التى كتبها وأهداها الى صديقه أبى بكر محمد بن إسحاق ، وفيها يتكلم على تصاريف مسلمى الأندلس المتقدمين ؛ ويظهر فى هذه الرسالة تحول ابن حزم من مذهب الشافعية الى مذهب الظاهرية . وإذا بحثنا فى تاريخ تأليف هذه الرسالة وجدنا أنها قد تكون معاصرة أو قريبة العهد من تاريخ تأليف كتابه « طوق الحمامة » .

ويقول المقرى وابن الأبار : إن ابن حزم ألف رسالة فى فضل الأندلس إجابة لرغبة حاكم « قلعة البوتت » .

ومن مؤلفاته فى التاريخ كتابه المسمى « نفط العروس » فى تواريخ الخلفاء وكتاب «جمهرة الأنساب أو أنساب العرب» الذى عنى بأليفه حوالى سنة ٤٥٠ ه. ولهذا الكتاب وزن كبير فى نظر المؤرخين ، نوه عنه ابن خلدون فى مقدمته فى مواضع كثيرة عند تعرضه لأنساب العرب والبربر فى المغرب والأندلس ، واتخذه بعض المؤرخين الأجانب سندا فى البحث عن تاريخ الحموديين والتجيبيين والأمويين ، مما يدل على أن لأبحاث ابن حزم قيمة كبيرة فى نظر الأجانب .

ومن مؤلفاته فى علم الأصول كتاب « الإحكام فى أصول الأحكام » . وهو كتاب يبين شخصية ابن حزم الى حد كبير ومدى بعيد ، وقد طبعته مكتبة الخانجى فى ثمانية أجزاء .

وإذا كان الكتاب يعرف من عنوانه ، فان مقدمة هذا الكتاب تدل على الوجهة التى يهدف إليها ابن حزم من تأليفه ؛ فتراه يقول فى هذه المقدمة عن شرائع الإسلام : « إن الله أودع تلك الشرائع فى الكلام الذى أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بتبليغه إلينا وسماه قرآنا ، وفى الكلام الذى أنطق به رسوله وسماه وحيا غير قرآن ، وألزمنا فى كل ذلك طاعة نبينا عليه السلام ، وألزمنا تتبع تلك الشرائع فى هذين الكلامين ، لنتخلص بذلك من العذاب ، ونحصل على السلامة والحظوة فى دار الخلود . ووجدناه تعالى قد ألزمنا ذلك بكتابه المنزل « وما كان المؤمنون لينفروا كافة ، فلو لا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون » فوجب علينا أن ننفر لما استنفرنا له خالقنا عز وجل ، فوجدناه قد قال فى القرآن الذى قد ثبت أنه من قبله عز وجل والذى أودعه عهوده اللازمة إلينا « يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ، فإن تنازعتم فى شىء فردوه الى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر » .

قال ابن حزم : فنظرنا فى هذه الآية فوجدناها جامعة لكل ما تكلم الناس فيه أولهم عن آخرهم مما أجمعوا عليه واختلفوا فيه من الأحكام والعبادات التى شرعها الله عز وجل لهم لا يشذ عنها شىء من ذلك . فكان كتابنا هذا كله فى بيان العمل بهذه الآية ، وكيفية بيان الطاعتين المأمور بهما لله تعالى ولرسوله عليه السلام . وهذا هو جماع الديانة كلها .

من هذه العجالة نستبين أن ابن حزم يرى أن الأدلة الشرعية هى :

١ — القرآن المنزل من عند الله .

٢ — الكلام الذى أنطق الله به رسوله وسماه وحيا غير قرآن .

٣ — الإجماع الذى عبرت عنه الآية بأنه طاعة أولى الأمر .

أما القياس الذى رأى أكثر الفقهاء أنه دليل من الأدلة الشرعية ، فإن ابن حزم ينكره ويسفه من يقول به ويرميه بالجهل ، ولا يتحرج عن الإقذاع فى النقد؛ الأمر الذى أخذه عليه خصومه ، وبغضه عند كثير من الناس .

يقول ابن حزم : ظن قوم بجهلهم أن قولنا بالدليل خروج منا عن النص والإجماع، وظن آخرون أن القياس والدليل واحد ؛ فأخطئوا فى ظنهم أفحش خطأ . ثم يقول فى موضع آخر : وها هنا خلط أصحاب القياس فسموا الدليل علة والعلة دليلا ففحش غلطهم ، وسموا حكمهم فى شىء لم ينص عليه بحكم قد نص عليه فى شىء آخر دليلا ، وهذا خطأ ، بل هذا هو القياس الذى ننكره ونبطله .

ويقول فى موضع آخر ، فى شأن المخالف « له فهو كاذب آفك مفتر » . وهكذا تلازمه هذه الظاهرة فى ردوده على من لا يشاركه الرأى ، فيقول عن رواية من روايات أهل الكوفة بشأن إجماع أهل المدينة « هذه رواية ليس فى رواية أهل الكوفة أنتن منها » وهذه زراية كنا نتمنى أن يتنزه عنها لسان ابن حزم وقلمه ، فإن السباب لا يدل على قوة الحجة ؛ وقد علمنا القرآن الكريم أدب الخطاب والجدال والمناقشة ، وطالبنا أن نجادل أهل الكتاب بالتى أحسن .

وغريب من رجل فى علم ابن حزم وأدبه يملك من أدب اللغة مختلف الأساليب وشتى العبارات ، ألا يتخير لمصطلحاته وحواره أعف الألفاظ والأقوال .

ولقد وضع فى مقدمته أسماء المصطلحات التى تدور بين أهل النظر فى أبحاثه وذكر منها « الحد والرسم والعلم والاعتقاد والبرهان والدليل والحجة والدال والاستدلال والشغب والتقليد والإلهام » . وقد أراد بالشغب السفسطة ، فهو حتى فى مصطلحاته ينتقى لبعض المعانى لفظا كان فى استطاعته أن يستبدل به لفظا ليس من أقذاع ولا ينال من كرامة المجادل .

ونحن لا نوافق ابن حزم فى هذا المسلك ، وإن كنا نجل فيه كرامة العلم وغزارة المادة . وللقول بقية نستوفى بها ترجمة ابن حزم ، إن شاء الله ؟

حول كتاب الرد على النحاة
لابن مضاء القرطبي

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد عبد الخالق عضيمة
المدرس بكلية اللغة العربية

أحمدُ للأستاذ شوقى ضيف جهده المشكور بنشره كتاب الرد على النحاة لابن مضاء ، فقد هيأ للمهتمين بالدراسات النحوية الاطلاع على لون من ألوان النقد لفنهم .

كما أشكر له جهده فى تقديم مشروع لتنسيق النحو وتذليل صعابه .

وأجمل حديثى فيما يأتى :

طاف نقد ابن مضاء للنحو بأمور شكلية ، فلم ينفذ إلى جوهر النحو ولبابه ، فيبرز لنا ما فى قواعده من قصور ، وما وقع النحويون فيه من تقصير .

لم يصل النحويون الى قوانينهم عفوا صفوا ، وما وافتهم رهوا سهوا ، وإنما كان ذلك ثمرة جهود متتابعة متواصلة ، وصبر على عناء الاستقصاء والاستقراء لكلام العرب شعره ونثره ، وسماع من الفصحاء ، وإنعام النظر فى كتاب الله ؛ وبعد أن استقامت لهم هذه القوانين شغلوا أنفسهم بالتعليل لها وبيان أسرارها .

فيجمل بمن يتصدى للرد على النحويين أن يبين أولاً : عدم اطراد هذه القوانين وأنها لا تنتظم كلام العرب . لم يفعل هذا ابن مضاء ، وكان منه اعتراف فى مقدمة كتابه بأن النحويين بلغوا الغاية فيما أرادوا ؛ قال : « وقد وضع النحويون صناعة النحو لحفظ كلام العرب من اللحن وصيانته عن التغيير ، فبلغوا من ذلك إلى الغاية التى أموا ، وانتهوا إلى المطلوب الذى ابتغوا » .

دار حديث ابن مضاء فى كتابه على أمور ثلاثة هى : العوامل ، التعليلات ، التمارين الفرضية . وسأبين بإيجاز مدى اعتبار النحويين لهذه الأمور :

العوامل فى صناعة النحو بمثابة الأمارة والدلالة ، تهدى الناظر فى الكلام العربى إلى مراعاة ما تقتضيه من حركات الإعراب . قال ابن الأنبارى فى الإنصاف :

« العوامل بالإجماع إنما هى أمارات ودلالات ، والأمارة تكون بعدم شىء كما تكون بوجود شىء ؛ ألا ترى أنه لو كان معك ثوبان وأردت أن تميز أحدهما من الآخر فصبغت أحدهما وتركت صبغ الآخر ، لكان ترك صبغ أحدهما فى التمييز بمنزلة صبغ الآخر » ؟

فتصوير ابن مضاء للعوامل تصوير مبالغ فيه ، وقد اعتمد على بعض الأمثلة التى هى مثار اختلاف بين النحويين . فليست للعوامل هذه الهيمنة على كلام العرب تقبل بعضه وتنكر بعضه ، إنما يبحث النحويون عن العامل بعد سماع النص العربى . قال الرضى فى شرح الكافية ج ١ ص ٢٠٨ : « وقال بعضهم : المستثنى منصوب بأستثنى ، كما أن المنادى منصوب بأنادى ، وإلا وحرف النداء دليلان على الفعلين المقدرين . وقد اعترض عليه بأنه يلزم منه جواز الرفع بتقدير أمتنع . ولا يلزم ذلك ؛ لأنا نعلل ماثبت وورد من كلام العرب ، ولوورد الرفع لكنا نقدر أمتنع ونحوه ؛ ألا ترى أنه يجب النصب فى إياك والأسد بتقدير بعّد ونحوه ؟ ولو ورد الرفع نحو أنت والأسد لكنا نقدر ابعد أنت والأسد ونحوه .

* * *

وقد راعنى أن ينسب ابن مضاء إلى أبى الفتح بن جنى مخالفته النحويين بإنكار العوامل ، ويستند فى دعواه إلى نص مبتور ، ثم يقره على هذا الأستاذ شوقى دون أن يكلف نفسه الرجوع إلى الخصائص فيجد كلام ابن جنى صريحاً فى أن العامل سبب للعمل ، وهو الذى يحمل المتكلم على أن يراعى مايتطلبه من حركات الإعراب . ويتضمن تعليلا لتقسيم النحويين العوامل إلى لفظية ومعنوية (الخصائص ١/١١٤) . ولو تجاوزنا هذا الموضع من الخصائص وألقينا نظرة عابرة لوجدنا أحاديث عن العوامل فى غير موضع .

فى صفحة ١٠٧ تعرض ابن جنى لأقوال النحاة فى ناصب المفعول به ، ورجح أن الناصب له هو الفعل وحده ، وضعف رأى من يقول إن الناصب هو الفاعل

أو الفعل مع الفاعل ؛ كما تحدث عن عمل لا الزائدة فى صفحة ٣٠٤ فى قول الشاعر :

لو لم تكن غطفان لا ذنوب لها إذن للام ذوو أحسابها عمرا

وتكلم عن عوامل مختلفة فى هذه المواضع ١١٢ ، ١٣١ ، ١٧٢ ، ١٩٣ ، ٣١٩ ، ٣٣٤ ؛ وتذكر كتب النحو المختلفة أن ابن جنى زاد عوامل لم يعترف بها جمهور النحاة :

المنادى عنده منصوب بحرف النداء لنيابته عن الفعل المحذوف ؛

وما الزائدة هى العاملة الرفع والنصب فى نحو قول الشاعر :

أبا خراشة أما أنت ذا نفر فإن قومى لم تأكلهم الضبع

لنيابتها عن كان المحذوفة .

وأجاز أن يتعلق الظرف والجار والمجرور بحروف النفى .

نقل ذلك عنه ابن هشام فى المغنى ، والبغدادى فى خزانة الأدب وغيرهما .

فهل يقال بعد هذا إن ابن جنى سبق ابن مضاء فى تزييف نظرية العامل ؟ .

* * *

دفع النحويين إلى البحث عن متعلق الظرف والجار والمجرور نظام الأسلوب العربى ؛ وجدوا أنه قد يسبق الظرف فعل أو اسم فيه معنى الفعل يرتبط به الظرف ومعناه خاص ، فقالوا : المتعلق الخاص يجب ذكره ولا يحذف إلا عند وجود القرينة ؛ تقول : هذا الكتاب مطبوع فى مصر ، ولو حذفت المتعلق اختلف المعنى .

ودليلهم على تقدير المتعلق العام ورود ذكره فى قول الشاعر :

لك العز إن مولاك عز وإن يهن فأنت لدى بحبوحة الهون كائن

ولما كانت الأساليب الفصيحة خالية من ذكره ، أوجب النحويون حذفه ، فلا يصح أن تقول : منزلنا الكائن بشارع كذا ، كما يجرى ذلك على ألسنة العامة . فالبحث عن المتعلق بحث يتصل بسلامة الأسلوب وفصاحته . وقد حض ابن مضاء فى كتابه على البحث فى المسائل التى تفيد نطقا ، وإن نادى بالانصراف عن البحث فى متعلق الظرف .

وتعيين المتعلق إنما يحدده المعنى ؛ فقد يوجد الفعل قبل الظرف ولا يصح تعلقه به ، كقول ابن دريد :

إن امرأ القيس جرى الى مدى فاعتاقه حمامه دون المدى

لو علق الجار والمجرور بالفعل « جرى » مع بقائه على معناه ، لناقض صدر البيت عجزه ، وهو متعلق بحال محذوفة ، أي جرى قاصدا الى مدى .

الخطب فى التعليلات النحوية أهون وأيسر . سأل سائل الخليل فقال له : أعن العرب أخذتها أم اخترعتها من نفسك ؟ فقال : إن العرب نطقت على سجيتها وطباعها وعرفت مواقع كلامها وقامت فى عقولها علله وإن لم ينقل ذلك عنها ، وعللت أنا بما عندى أنه علة لما عللته به ؛ فإن أكن أصبت العلة فهو الذى التمست ، وإن تكن هناك علة غير ما ذكرت فالذى ذكرته محتمل أن يكون علة له ، ومثلى فى ذلك مثل حكيم دخل دارا محكمة البناء عجيبة النظم والأقسام ، وقد صحت عنده حكمة بانيها بالخبر الصادق والبراهين الواضحة ، فكلما وقف هذا الرجل الداخل الدار على شيء منها قال : إنما فعل هذا هكذا لعلة هى كذا ، لعلة سنحت له وخطرت ؛ فجائز أن يكون الحكيم البانى للدار فعل ذلك للعلة التى ذكرها هذا الذى دخل الدار ، وجائز أن يكون فعله لغير تلك العلة ، إلا أن ما ذكره هذا الرجل محتمل أن يكون علة ... ثم يقول : فإن صحت لغيرى علة لما عللته من النحو هى أليق مما ذكرته بالمعلول فليأت بها .

وقال أبو الفتح فى الخصائص ١/٩٠ : اعلم أنا مع ماشرحناه وعنينا به فأوضحناه ، من ترجيح علل النحو على علل الفقه وإلحاقها بعلل الكلام ، لا ندعى أنها تبلغ قدر علل المتكلمين ، ولا عليها براهين المهندسين .

ويسر النحويين اعتبار ابن مضاء دراسة علل النحو بمنزلة دراسة اللغات والأدب والتاريخ ، حيث يقول فى كتابه : « من المعارف التى لاتدعو الى جنة ولا تزجر عن نار : اللغات والأشعار ، ودقائق علل النحو ، ومسليات الأخبار » .

وعندى أن صنيع النحويين فى العوامل والتعليل شبيه بما تصنعه الحكومات والهيئات فى تقنينها ؛ تصوغ مواد القانون ثم تردف ذلك بمذكرة تفسيرية إيضاحية تنطوى على بيان وجوه الحكمة فى التشريع وملاءمته لما شرع له .

* * *

وأنتقل الى الحديث عن مشروع التنسيق الذى وضعه الدكتور شوقى ضيف .

(١) ما يراه الأستاذ من وضع باب للفعل العام ينتظم الأفعال الناسخة

وأحوال المضارع إعرابا وبناء ، وأحوال الماضي والأمر ـ موجود فى الكتب التى بين أيدينا ؛ سار على هذا النظام جار الله فى المفصل ، وابن الحاجب فى الكافية ، تكلما عن الأسماء ثم الأفعال ثم الحروف . وشرح المفصل لابن يعيش وشرح الكافية معروفة متداولة .

(٢) هل يغنينا إدماج بعض الأبواب فى بعض ، كإدماج الاختصاص فى باب التمييز ، والإضافة فى التوابع ، والمنادى ولا النافية للجنس فى الممنوع من الصرف ، عن دراسة خصائص أسلوب كل منها وتفهم معانيها لتعرف نظائرها وأشباهها فى كلام العرب ؟ .

(٣) أيكون حكمنا على الخبر بأنه يكون منصوبا فى نحو : ضربى العبد مسيئا ، وفى نحو : أبا خراشة أما أنت ذا نفر ، ويكون مجروراً فى نحو : « وما ربك بظلام للعبيد » مما يهون مسائل النحو ويرفع عنا إصرها ؟

لو أقرنا الأستاذ شوقى على أنه لابد من تحديد مواقع كل حالة لكان الخلاف بينه وبين النحويين لا يتجاوز مجرد التسمية .

كيف نقول للمبتدىء : إن الخبر ينصب بعد أمّا ونرسل الكلام إرسالا ، فيقع على أما من نوع آخر بعدها المبتدأ والخبر مرفوعان ، وبعدها الجار والمجرور : « وأما بنعمة ربك فحدث » وبعدها المفعول به : « وأما اليتيم فلا تقهر » ، وبعدها الجملة الشرطية . . .

وكيف يغنى قولنا : المبتدأ يكون مجرورا نحو « وما ربك بظلام للعبيد » دون أن نفرق بين هذا الخبر المجرور بحرف جر زائد والمجرور بحرف جر أصلى ، وكيف ساغ العطف على الأول بالنصب فى نحو قول الشاعر :

معاوى إننا بشر فأسجح فلسنا بالجبال ولا الحديدا

كذلك معرفة موقع الجملة من الإعراب يترتب عليها ضبط ما بعدها فى بيت كثير :

وما كنت أدرى قبل عزة ما البكا ولا موجعات القلب حتى تولت

(٤) بيان موقع كم من الإعراب أمر لا بد منه ، لما يتبع ذلك من اختلاف في المعنى . فبيت الفرزدق :

كم عمـــة لك يا جرير وخالة   فدعاء قد حلبت على عشارى

روى برفع عمة ونصبها وجرها ؛ فرواية الرفع تفيد أن لجرير عمة واحدة وخالة واحدة قد حلبتا للفرزدق عشاره مرات كثيرة أو حلبًا كثيرا ، وكم ظرفية أو دالة على الحدث ؛ وروايتا الجر والنصب تفيدان أن لجرير عمات كثيرات وخالات كثيرات أجيرات قد حلبن للفرزدق عشاره ، وكم دالة على ذات .

كذلك عرض النحويون لبيـان الفرق بين النصب على الاختصاص والرفع على الخبرية فى نحو قول الشاعر :

إنا بنى نهشـــل لا ندعى لأب   عنه ولا هو بالأبنـــاء يشرينا

كما بينوا أى المعنيين أبلغ من الآخر .

* * *

فهل يطلب منا الدكتور الأديب أن نعرض عن مثل هذه الدراسات ولا نقبل على تعرف دقائقها وتحصيل أمثالها ؟

وكيف يصح بعد هـذا أن يقال : إن صناعة النحو صناعة لفظية تغفل شأن المعانى وتعنى بالألفاظ ؟

أنا لا أنكر تشعب قواعد النحو ودقتها ؛ ولكنى أقول كما قال الدكتور عبد الوهاب عزام بك فى بعض كتبه : « قيل إن لغتنا صعبة بهذه المفردات وبهذه التراكيب والأوزان ، وإنهـا تكاد تأبى على دارسها وتعجز طالبها ، وهذا حق لاندفعه ، وإن عدّ عيباً فلا ننكره ، ولكنه ليس من نقصان فى خلقها أو اختلال فى أبنيتها أو عجز فى موادها وأوزانها ، ولكنه نتيجة التطور الكامل ، والنمو التام ؛ فأدنى الأشياء فى هذا العالم أيسرها وأقلها تركيباً ، والكمال يصحبه التركيب والتفصيل والإشكال والإعضال . . . الخ

حى بن يقظان

لحضرة الأستاذ الدكتور أحمد فؤاد الأهوانى
مدرس الفلسفة بجامعة فؤاد الأول

هذه قصة صغيرة ، كتبها الفيلسوف الأندلسى أبو جعفر بن طفيل . وهى على صغر حجمها بالغة الأهمية من الناحية الفلسفية ، حتى لقد بلغ من قيمتها أن نقلت فى القرون الوسطى إلى اللغة اللاتينية ، وترجمت إلى كثير من اللغات الأوربية الحديثة ؛ ولم يألف المسلمون التعبير عن الآراء فى شكل قصصى ؛ لهذا كانت رسالة حى بن يقظان من الطرافة بمكان عظيم ، لندرة هذا الأسلوب فى التأليف .

وهناك أسباب كثيرة تدفع المفكرين إلى صياغة أفكارهم فى ثوب قصصى ؛ منها التشويق ، ومنها تصوير المسائل فى صورة الحقيقة والواقع ، ومنها الهرب من استبداد الحكام ، والخوف من ذوى السلطان .

وأكبر الظن أن ابن طفيل ركب متن القصة خشية على حياته من الاتهام بالكفر والزندقة والفلسفة ، وكان الاشتغال بالفلسفة فى عصره جريمة لا تغتفر ، وجناية على الشرع والدين ، يدفع الفلاسفة ثمنها غاليا ، إذ تمزق كتبهم ، ويزجون فى أعماق السجون ، ويضطهدون فى أموالهم وأهليهم ، وكان التعذيب الشنيع ، ثم الموت حرقاً هو عقاب المتفلسفين فى أوربا .

والمحنة التى وقع فيها أبو الوليد بن رشد من هذا القبيل .

ولقد تصدى كثير من الفقهاء ورجال الدين للفلاسفة ، وزيفوا آراءهم ، وبينوا ما فيها من مخالفة للدين ، وما ترمى إليه من كفر ، غير أن أقوى هؤلاء جدلا

وأبرزهم حجة هو أبو حامد الغزالى فى كتابه تهافت الفلاسفة ، فانبرى له الفلاسفة يردون عن أنفسهم هذه التهمة المنكرة ، لأن ثبوتها يقضى عليهم بالإعدام ، وهو حكم الدين على المشركين . ورد بعضهم ردا صريحا كما نقرأ فى تهافت التهافت لابن رشد ، وغمز بعضهم الآخر الغزالى ولم يلجأ إلى التفنيد .

قال ابن طفيل فى هذه الرسالة : « وأما كتب الشيخ أبى حامد الغزالى فهو بحسب مخاطبته للجمهور يربط فى موضع ، ويحل فى آخر ، ويكفر بأشياء ثم يتحللها » ثم قال بعد أن عرض بمذهبه وكتبه وغموض ما جاء فيها ما يأتى « وقد ذكر (يريد الغزالى) فى كتاب الجواهر : أن له كتبا مضنونا بها على غير أهلها ، وأنه ضمنها صريح الحق ولم يصل الى الأندلس فى علمنا منها شىء . بل وصلت كتب يزعم بعض الناس أنها هى تلك المضنون بها ، وليس الأمر كذلك » . وإذا كان الغزالى لم يعجبه لتقلبه فى الرأى ، وشكه فى الاعتقاد الموروث واستعمال الرمز والإشارة دون صريح الحق ، فكذلك لم يعجبه أبو نصر الفارابى لأن ما وصل إلى الأندلس من كتبه أكثرها فى المنطق ، وما ورد منها فى الفلسفة كثيرة الشكوك ، ومن جملة ما ذكره مخالفا للشرع أن السعادة الإنسانية إنما تكون فى هذه الحياة الدنيا ، مما أيأس الخلق جميعا من رحمة الله تعالى ، وصيّر الفاضل والشرير فى رتبة واحدة إذ جعل مصير الكل إلى العدم ، وهذه زلة لا تقال ، وعثرة ليس بعدها جبر . هذا مع ما صرح به من سوء معتقده فى النبوة وأنها بزعمه للقوة الخيالية خاصة ، وتفضيله الفلسفة عليها ، إلى أشياء ليس بنا حاجة إلى إيرادها » .

ولم يسلم أبو بكر بن الصائغ من نقد ابن طفيل ، وبعد أن قدره قدره وقال عنه إنه أحذق المتأخرين نظرا وأقربهم إلى الحقيقة وأثقبهم ذهنا وأصدقهم رؤية ، غير أنه شغلته الدنيا حتى اخترمته المنية قبل ظهور خزائن علمه وبث خفايا حكمته ، وأن أكثر ما يوجد له من التآليف غير كاملة ، وأن ترتيب عبارته فى بعض المواضع من كتابه رسالة الاتصال على غير الطريق الأكمل .

أما الفيلسوف الذى يبدو أنه سلم من لسانه ومآخذه ، فهو الشيخ الرئيس

ابن سينا ، ومع ذلك فقد نبه الناس إلى أن كتاب الشفاء إذا أخذه القارىء على ظاهره دون أن يتنبه لسره وباطنه ، لم يوصل به إلى الكمال ، وأن من أراد الحق الذى لاجمجة فيه فعليه بكتابه فى الفلسفة المشرقية .

فلما رأى ابن طفيل غموض التآليف ، وخروجها عن سواء السبيل ، أراد أن يكتب شيئًا يجيب به عن سؤال ذلك الأخ الكريم الذى طلب منه أن يبث إليه ما أمكنه بثه من أسرار الحكمة المشرقية التى ذكرها ابن سينا ، وقال مخاطبا ذلك السائل « وأرجو أن أصل من السلوك بك على أقصد الطريق وآمنها من الغوائل والآفات » . فكتب قصة حى بن يقظان وأبسال وسلامان .

فما هو ذلك الطريق المستقيم ، وما هى تلك الغوائل والآفات ، التى يخشاها ابن طفيل ويحذّر منها .

الحق أن الآفات آفة واحدة ، هى تهمة الكفر والخروج على الشرع الحنيف . أما الطريق ، فهما فى الواقع عند ابن طفيل طريقان : طريق الحكمة ، وطريق الشريعة ، وكلاهما يوصل إلى الحق ، والحق هو معرفة الله .

ولم يكن ابن طفيل أول من تعرض للتوفيق بين الفلسفة والدين ، ولم يكن آخر من كتب فى هذا الموضوع . قال أصحاب رسائل إخوان الصفاء وخلان الوفاء ، الذين كتموا أسماءهم : إنهم لايعادون علما من العلوم ، ولا يتعصبون لمذهب من المذاهب ، ولا يهجرون كتابا من كتب الحكماء والفلاسفة ، كما يعتمدون على كتب الأنبياء وما جاءوا به من التنزيل . وجعل أبو الوليد بن رشد فيلسوف قرطبة عنوان كتاب من تآليفه ، وهو من أجلها وأهمها ، « فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال » . فالصلة إذن بين الفلسفة والدين ، أو بين الحكمة والشريعة ، هى المسألة التى شغلت بال الفلاسفة فترة طويلة من الزمان . ومحور السؤال يدور على هذه القضية : هل يكتفى بالشرع وما جاء فيه ، ويؤمن الناس بالله وأوامره ونواهيه حسب ما نزلت به الكتب السماوية على لسان الأنبياء والمرسلين ، أو يلجأ الناس إلى عقولهم يهتدون بها إلى معرفة الخالق والتمييز بين الخير والشر ؟

هما طريقان : طريق السمع أو الشرع أو النقل ، وطريق الفكر أو العقل .

وقد جمعت بعض المذاهب بين الطريقين ، وقدمت أحـدهما على الآخر . فالمتكلمون مثلا يقدمون العقل على النقل ، والأشاعرة يقولون : معرفة الله بالعقل تحصل ، وبالسمع تجب ، فيقدمون الشرع على العقل .

ويريد الفلاسفة أن يقولوا إن اتباع طريق العقـل يوصل الى معرفة الله ، كما يوصل طريق الشرع ، فلا تنافى بينهما . وهنـا موضع الآفة ، لأنه إذا صح الاهتـداء الى الله بالعقل فما وجه الحاجة الى الشرائع ؟

ونعود الى ابن طفيل فنجده يصور فى قصته أن حى بن يقظان نشأ فى جزيرة نائية فشب وحيداً يرضع من لبن غزالة الى أن اشتد ساعده وبلغ مبلغ الشبـاب والرجولة ، فنظر فى أحوال الـكائنـات التى تحوطه واهتدى الى أسرار الجماد والنبات والحيوان كل ذلك بغير معلم ؛ ثم انعطف على نفسه فـكشف سر الروح واهتـدى الى العقل أداة المعرفة ، وتبين أن جوهره مخالف للـمادة المحسوسة ، بل مفارق لها ، فانصرف عن الجسم واتصـل بالروح الأعلى ، « وفنى عن ذاته وعن جميع الذوات ولم ير فى الوجود إلا الواحد الحى القيوم » فكأنه وصل إلى الله بالمشاهدة والاتصال ، كما يذهب أهل التصوف .

ولعلك تسأل : كيف شاهد حى بن يقظان الله ، وما أوصافه ؟ غير أن ابن طفيل هرب من الجواب معتذراً « بأن مجال العبارة هنـا ضيق ، وأن الألفـاظ على كل حال توهم غير الحقيقة » .

ثم تذهب القصة الى أن جزيرة قريبة من جزيرة حى بن يقظان كان يسكنها جماعة اعتنقت شريعة إلهية ، وكان على رأس الجماعة رجلان من أهل الخير والفضل ، أحدهما أسال والآخر سلامان . أما أسال فـكان أشد غوصاً على الباطن وأكثر عثوراً على المعانى الروحية ، وأطمع فى التأويل ، وأما سلامان فكان أكثر احتفاظا بالظاهر وأشد بعـداً عن التأويل وأوقف عن التصرف والتأمل ، وكلاهما مجـد فى الأعمال الظاهرة ومحاسبة النفس ومجاهدة الهوى . وطلب أسال العزلة والتفكر ،

ولزم سلامان الجماعة وتعلق بالجمهور . ثم امتطى أسال متن البحر ورحل الى الجزيرة المجاورة ينشد العزلة والانفراد ، فالتقى هناك بحى بن يقظان فتعارفا ، وتعلم حى لغة الانسان ، وحكى كل منهما لصاحبه ما يعرفه ، فوجدا أنهما متفقان فى الغاية وهى الوصول الى الله : حى بن يقظان بطريق العقل والتأمل ، وأسال بطريق الملة والشريعة . وهكذا وفقت القصة بين الفلسفة والدين .

ولا ينبغى أن تصرفنا هذه النتيجة عن الأفكار الأخرى التى بثها ابن طفيل فى ثنايا قصته ، لأنها حقاً جديرة بالنظر والاعتبار . وهى أفكار تتصل بعلم الحياة وعلم النفس وعلم الاجتماع : أصل الحياة ، ومنشأ اللغة ، وظهور الحضارة ، وفضل الانسان على الحيوان ، وسبيل المعرفة ، وغير ذلك من المسائل الأساسية الداخلة فى صميم الفلسفة ، والتى وصل العلم الحديث الى حل بعضها ، ولا يزال الجدل دائراً حول بعضها الآخر .

من هذه المسائل نشأة الإنسان . وتحدثنا نظرية التطور أن الكائنات الحية ظلت تتسلسل فى الرقى حتى بلغت الإنسان ، وأن جميع الأحياء كانت مائية وأرقاها الأسماك ، ثم عاشت بعضها على اليابسة فنشأت الزواحف ، ثم ارتقى بعضها الى ذوات الأربع ، واختلفت أجناسها ، وتعددت أنواعها . وهذا كله كلام جميل يحاول به العلماء رد الكائنات الحية الى أصل واحد ، غير أن الرقى فى داخل الجنس الواحد ليس دليلا على تطور الجنس بما يحمل من صفات ذاتية الى جنس آخر يختلف عنه فى الصفات . لهذا السبب ذهب القدماء الى أن الكائنات خلقت كذلك منذ نشأة الحياة وبدء الخليقة ، وتذهب الكتب الدينية هذا المذهب ، فتحدثنا أن نوحاً عند الطوفان ، حمل فى سفينته من كل صنف زوجين . وقد عرض ابن طفيل القضية على الوجهين دون أن يرجح أحدهما على الآخر : الوجه الأول أن حى بن يقظان نشأ بغير أب ولا أم ، بل تولد من الأرض ، وامتزج الحار بالبارد والرطب باليابس فى طينة تخمرت وتهيأت لقبول « الروح الذى هو من أمر الله » . فكأن ابن طفيل عجز عن حل المشكلة الأبدية وهى خروج الحى من الميت ، فاضطر الى القول بأن الروح دائم الفيضان من عند الله . أما الوجه الثانى لنشأة حى بن يقظان عند من ينكرون تولده بغير أب

ولا أم ، فإن ابنة أحد الملوك ، وكانت باهرة الحسن والجمال ، منعها أبوها من الزواج ، فتزوجت سراً قريباً لها يسمى يقظان وأنجبت منه « حى » ، وخشيت الفضيحة ، فوضعته فى صندوق ألقت به فى اليم حتى استقر على شاطىء الجزيرة التى عاش فيها ، وأرضعته فيه غزالة فقدت وليدها .

ولم ينطق حى بن يقظان لغة كهذه اللغات التى يتحدث بها الناس ، ولكنه أخذ يحكى نغمة الظبية ، وكذلك كان يحكى جميع ما يسمعه من أصوات الطير وأنواع الحيوان . وهذه هى إحدى النظريات المسلم بها فى العلم الحديث عن نشأة اللغة

ثم اهتدى الى قدرة يده على معالجة الأغصان واتخاذ العصىّ وتسوية أطرافها واستعمالها للدفاع . واليد فى أعضاء الإنسان هى سر تفوقة على الحيوان ، والأصل فى تحضره .

واتخذ لنفسه من الريش ستاراً لعورته ، لأن الحيوان مستور بالأذناب والأوبار . وهى نظرية بعيدة الاحتمال فى علة الكساء ، إذ المشاهد أن بعض القبائل التى تعيش فى خط الاستواء لا تزال عارية تماما ، ولم يستر الإنسان عورته إلا لأسباب اجتماعية تتعلق بالغريزة الجنسية وصلة الذكور بالإناث .

ولا أريد أن أحدثك كيف اهتدى حى بن يقظان الى النار وفائدتها ، والى اتخاذ الأسلحة من الأحجار المشحوذة ، والى النظر فى أجسام الكائنات وتشريحها لمعرفة أسرار تركيبها ؛ لأنى أحب أن تقرأ بنفسك هذا الكتاب ، فتطلع على آراء فلاسفة المسلمين ، وتعرف أن الشرق بلغ فى وقته من العلم والحضارة مبلغاً يجعلك تعتز بالماضى وتفخر بالتراث القديم ؟

آفات البلاغة

قال محمد كاتب إبراهيم بن المهدى وكان راويا وعلامة فى النحو : سمعت أبا داود — وجرى شىء من ذكر الخطب وتمييز الكلام — يقول : تلخيص المعانى رفق ، والاستعانة بالغريب عجز ، والتشادق فى غير أهل البادية نقص ، والنظر فى عيوب الناس عى ، ومس اللحية هلك ، والخروج مما بنى عليه الكلام إسهاب .

مسئولية الاطباء

فى الشريعة الاسلامية وفى القانون المقارن

لحضرة الأستاذ الدكتور أحمد محمد ابراهيم
القاضى بمحكمة المنيا الوطنية

الناس فى حاجة ماسة الى الاستعانة بالأطباء لعلاجهم مما يصيبهم من أمراض وما يحدث لهم من إصابات. ويقوم الأطباء - فى سبيل ممارسة مهنتهم - بأعمال تعد فى ظاهرها جرائم تستوجب العقاب، فقد يصف الطبيب للمريض دواء يحدث له جسيم الآلام، وقد يبتر عضوا من أعضائه، أو يجرى له جراحة فيشق صدره أو بطنه، وقد يترتب على العلاج وفاة المريض أو شفاؤه بعاهة تلازمه إلى الأبد.

ورغم أن أكثر ما يقوم به الأطباء — وخصوصا الجراحين منهم — يستوجب العقاب، فإن عدم مسئولية الأطباء عن هذه الأفعال ليست محل خلاف. ولكن ما هو أساس عدم المسئولية، وما هى الشروط الواجب توافرها فى عملهم حتى يعفوا من هذه المسئولية؟

ونرى — قبل بحث هاتين المسألتين — أن نذكر أن القوانين الوضعية فى كل الدول المتمدينة تنظم كيفية ممارسة مهنة الطب، فتقصرها على الأشخاص الحاصلين على شهادات دراسية تؤهلهم للقيام بها، بعد أن يكونوا قد أمضوا فترة طويلة فى دراسة علمية وعملية لأصول هذه المهنة وقواعدها، حتى تستطيع الدولة أن تأتمنهم على علاج رعاياها؛ وإذا قام بالعلاج شخص من غيرهم فإنه يسأل عن نتيجة فعله مسئولية الشخص العادى، فلا يتمتع بأى حماية قانونية، فضلا عن عقابه على جريمة ممارسة مهنة الطب بدون تصريح من الجهة المختصة.

وهذه التفرقة بين من حصل على شهادة تخول له ممارسة الأعمال الطبية وبين من لم يحصل عليها، لا نجدها واضحة فى كتب الفقه الإسلامى. ومرد ذلك - فيما نعتقد - أن قصر ممارسة أعمال الطب على من درسوا قواعده لم تعرف بطريقة رسمية فى الدول الإسلامية المختلفة، وليس معنى ذلك أن قواعد الشريعة

الغراء تبيح ممارسة المهنة لكل شخص ، بل كل ما نقصده هو تقرير أن التنظيم الحديث لرجال هذه المهنة لم يكن معروفا لديهم وقت أن وضعوا الأحكام الفقهية التى ذكروها فى كتبهم . فإذا تطور الزمن وصار من أهم واجبات الدولة أن تحافظ على صحة رعيتها وأن تقيهم شر المشعوذين والدجالين ، فإننا نقرر - فى اطمئنان - أن مثل هذا التنظيم ليس مما يتنافى مع أحكام الشريعة ، بل بالعكس فإنها توجبه ؛ فقد نص الفقهاء على أنه يحجر على المتطبب الجاهل لأنه يفسد أبدان الناس . وليس المقصود بالحجر هنا حقيقة الحجر وهو المعنى الشرعى الذى يمنع نفوذ التصرف ، فلو باع الطبيب الأدوية بعد الحجر نفذ بيعه ، ولكن المراد بالحجر هو المنع الحسى ، أى يمنع عن عمله حسيا ، لأن المنع عن ذلك من باب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر (١) . كما نص فى مذهب الإمام أحمد على أنه إذا قام بأعمال التطبيب شخص غير حاذق فى فنه ، فإن فعله يعتبر فعلا محرما . (٢) .

أساس عدم المسئولية :

ذكرنا فيما تقدم أن عدم مسئولية الأطباء عن أفعالهم ليست محل خلاف من أحد ، ولكن ما هو الأساس القانونى لعدم المسئولية ؟

ذهب بعض الشراح وقضت بعض المحاكم بأن انعدام المسئولية يرجع إلى رضاء المجنى عليه ؛ فالعملية الجراحية لا يجوز للطبيب أن يجريها إلا بعد الحصول على موافقة المريض ، وهذا الرضاء كاف للقول بعدم مسئولية الطبيب ، واعتبار عمله مشروعا . وهذه النظرية هى المعمول بها فى القضاء الانجليزى ؛ لأن القاعدة عندهم — بصفة عامة — أن رضاء المجنى عليه يبرر الفعل . ويقول بها بعض علماء المانيا ، وبها قضت محكمة النقض المصرية فى حكم قديم لها .

ويترتب على الأخذ بهذه النظرية أن رضاء الشخص المعالج يعدم المسئولية مهما كانت صفة المعالج ، فيستوى أن يكون طبيبا ماهرا أو أن يكون شخصا لا دراية له بالمهنة ولم يحصل على أى دراسة فى علوم الطب ؛ كما يترتب عليه انعدام

(١) الدرر شرح الغرر جـ ٢ ص ٦٢٨ .
(٢) المغنى جـ ٦ ص ١٢٠ .

المسئولية مهما كان الباعث على العمل ، فلا مسئولية عليه ولو لم يكن يقصد العلاج بل كان غرضه بتر عضو حتى يستطيع الشخص الذى بتر أحد أعضائه أن يفر من التجنيد الأجبارى .

ويؤخذ على هذه النظرية — خصوصا فى مصر وفرنسا — أن انعدام رضاء المجنى عليه ليس ركنا من أركان جرائم الجرح أو إعطاء المواد الضارة ، وعلى ذلك فرضاه وعدم رضاه يستويان فى النتيجة ، أى أن المسئولية تتوافر ولو كان الفعل برضاء المجنى عليه ؛ فمن يضرب شخصا أو يجرحه يعاقب ولو كان لم يفعل ذلك إلا بناء على إلحاح من المجنى عليه .

وقد ذهب بعض العلماء الفرنسيين إلى أن انعدام المسئولية يرجع إلى انعدام القصد الجنائى فالقصد الجنائى ، ركن فى جميع الجرائم العمدية ، فإذا انعدم انعدمت معه الجريمة ولم يكن ثم فعل يستوجب العقاب . والشخص المعالج لا يقصد الاعتداء على المريض بل يريد له الشفاء ، فنيته طيبة وليست نية آثمة .

ويترتب على التسليم بهذه الفكرة أنه يجب أن يعفى من المسئولية كل شخص يباشر أعمال الطب ولو لم يكن مرخصا له بذلك ما دام أنه يقصد شفاء المريض بفعله ، فهذه النية الطيبة يستوى فيها من حصل على شهادات فى الطب ومن لم يحصل على شىء من ذلك .

ويعاب على هذه النظرية أنها تخلط بين الباعث وبين القصد الجنائى ، فالباعث على الفعل يختلف من شخص إلى شخص ومن حالة الى حالة ، فقد يعتدى شخص على آخر انتقاما منه ، أو ليحصل على ماله ، أو ليظهر قوته ؛ ولكن القصد الجنائى فى كل الجرائم (التى من نوع واحد مهما اختلفت البواعث) واحد لا يتغير ، والقصد الجنائى هو أن يرتكب الشخص الفعل المحرم ، وهو يعتقد أنه محرم ؛ فشق البطن غير جائز ، وكل من ارتكب هذا الفعل وجب عقابه مهما كان الباعث على فعله ، لأن البواعث لا دخل لها فى وجود الجرائم وانعدامها .

والرأى السائد الآن فى مصر وفرنسا ـ هو أن عدم مسئولية الأطباء راجع الى أن المشرع أراد ذلك ، فإنه بتنظيمه مهنة الطب وقصره حق ممارستها على من تلقى فيها دراسة خاصة وحصل على شهادة تؤهله لذلك ، قد أباح للحاصلين على هذه الشهادة ممارسة الأعمال التى تقتضيها مهنتهم ولو كانت فى ذاتها جريمة يعاقب عليها

الشخص العادى . والعلة فى إباحة هذه الأفعال هى أن أعمال الأطباء تعود بالفائدة على الفرد وعلى المجتمع ؛ فمن صالح الفرد أن يعيش سليما قويا خاليا من الأمراض والعلل ، ومن صالح المجتمع أن يكون أفراده متمتعين بالصحة أقوياء خالين من الأمراض لينتجوا ويعود الخير على الجميع .

وإذا رجعنا الى كتب الفقه الاسلامى لمعرفة أساس انعدام مسئولية الأطباء وجدنا أن أساس انعدام المسئولية هو رضاء المجنى عليه ؛ إذ رأى جمهور الفقهاء أنه لو قال شخص لآخر اقتلنى أو اجرحنى ففعل فلا يقتص منه لرضاء المجنى عليه بالفعل [1] ، وحكم الطبيب فى عدم المسئولية هو حكم الشخص العادى فيها ، لأن الطبيب لا يقوم بعمله إلا بناء على رضاء من المريض ، كما سنوضح فيما بعد .

ومن رأينا أنه يجب عدم الأخذ برأى جمهور الفقهاء فى هذه المسألة ؛ فقد سبق أن بينّا أهم الاعتراضات التى توجه اليه فى الفقه الحديث ، وهى اعتراضات لها قيمتها ولها وجاهتها ؛ فالأخذ بهذا الرأى يهدم كل الآثار التى تترتب على تنظيم المشرع لمهنة الطب تنظيما من مقتضاه تحريم ممارستها على غير الأطباء ؛ لأن الإعفاء من المسئولية على أساس رضاء المريض يشمل الطبيب وغير الطبيب ، وفى ذلك الخطورة كل الخطورة على الفرد وعلى المجتمع . فكثيرا ما يجهل المريض مصلحته وينساق خلف الدجالين وأدعياء الطب الذين قد يأتون أفعالا محققة الضرر وهم لا يعلمون ، ومع ذلك يفرون من العقاب بحجة أن قيامهم بالعلاج كان بناء على رضاء المريض ودعوته .

ومن رأينا أنه يجب أن يكون سبب الإعفاء من العقاب فى الشريعة الإسلامية هو نفس السبب السائد الآن ، أى أن يكون أساس الإعفاء هو رغبة المشرع فى إباحة بعض الأفعال للأطباء ما دام القيام بواجب المعالجة يستدعيها ولو كانت فى ذاتها جرائم نظرا للفائدة التى تعود على الفرد وعلى المجتمع من ذلك . ويترتب على الأخذ بهذه الفكرة ضرورة القول بمعاقبة غير الأطباء لو ارتكبوها ولو كان المريض هو الذى استدعاهم لعلاجه ، فما دام عملهم محرما ويجب الحجر عليهم

---

(١) من أراد زيادة الايضاح فليرجع الى مؤلفنا « القصاص فى الشريعة الاسلامية » ص ١١٠ وما بعدها والمراجع المشار اليها .

فكيف لا نعاقبهم ؟ . هذا فضلا عن أن قصر ممارسة المهنة على أشخاص معينين يتضمن منع سواهم من ذلك[١] .

شروط إباحة أعمال الطب :

ولا يكفى أن يكون الشخص طبيبا حتى يستطيع أن يعالج الناس ويقوم بإجراء الجراحات وهو آمن المسئولية الجنائية ، بل لا بد من أن تتوافر فى عمله الشروط الآتية حتى يستطيع أن يتمسك بالاعفاء من المسئولية .

أولا : يجب أن يكون تدخل الطبيب لعلاج المريض . فمن أجل هذه الغاية أباح المشرع أعمال الأطباء ، فإذا انحرف الطبيب عن هذه الغاية وقصد غرضا آخر بعلاجه عد مسئولا عن أعماله مسئولية الشخص العادى ، فاذا بتر الطبيب يد شخص حتى يفر من الخدمة العسكرية أو جهض حاملا لأنها حملت سفاحا ، عوقب على هذه الأفعال ،واعتبرت مسئوليته عنها مسئولية عمدية . وقد أجمع كبار الفقهاء فى فرنسا على أن الطبيب الذى يستأصل مبيض امرأة بناء على طلبها ولم تكن حالتها الصحية تستدعى القيام بهذه العملية ، فإنه يسأل عن هذا الفعل ، مسئولية عمدية .

ويسأل الطبيب عن فعله أيضا إذا كان الغرض منه القيام بإجراء اكتشاف علمى دون أن يكون بقصد علاج المريض .

وقد يبدو أن هذا الشرط غير لازم وفقا لرأى جمهور فقهاء الشريعة مادام أن أساس الإعفاء هو رضاء المجنى عليه . ولكننا إذا أمعنا النظر فى بحث العلاقة بين الطبيب والمريض وجدنا أن هذا الشرط لابد من توافره ، لأن الصلة بين الطبيب والمريض صلة عقدية يحكمها العقد الذى تم بينهما ، والمريض فى العادة يطلب من الطبيب أن يتولى علاجه ويترك له اختيار طريقة العلاج ، فإذا تجاوز هذا الغرض فإنه يعد مسئولا عن أعماله التى ارتكبها خارج حدود العقد ، إلا أنه يجب أن نلاحظ أنه وفقا لرأى جمهور الفقهاء لايسأل الطبيب ولو لم يكن يقصد العلاج ما دام المريض قابلا ذلك . والرأى الذى نقول به كفيل بالعقاب فى مثل هذه الحالات .

---

(١) ونحن لا نسلم بما يقول به جمهور الفقهاء من أن الرضاء بالقتل أو الجرح يسقط القصاص ، انظر المرجع السابق ص ١١٢

من هدى الإسلام :

من أين لك هذا ؟

لفضيلة الأستاذ الشيخ عبد المنعم أحمد النمر
المدرس بمعهد القاهرة

يشعر الناس كبيرهم وصغيرهم أن المجتمع المصرى تسوه ظاهرة من أخطر الظواهر على حياة الأمم ، وتتسلط عليه علة من أكبر العلل الهدامة لكيان الشعوب ؛ تلك هى ظاهرة استغلال المراكز للانتفاع الشخصى والثراء . وقد طغت هذه الظاهرة واستشرت حتى كادت تجرف فى تيارها النفوس الشريفة ، وتسمم العقلية الجديدة . فهناك أناس خدعوا من حولهم بمظاهر الإخلاص والوطنية والغيرة على الصالح العام ، ولبسوا مسوح الزهد والقناعة حتى وثق الناس بهم ، ووصلوا بهذا الطريق الى المراكز التى يستطيعون فيها أن ينهضوا بالشعب ويقدموا له الدليل على صدق إخلاصهم ؛ ولكنهم بدل ذلك راحوا يستغلون غفلته ، ويسخرون مراكزهم للثراء ، ويتوصلون على حسابها الى المال الوفير ، ويصبحون بين يوم وليلة من ذوى الثروات الضخمة ، ويحسب الناس ويتساءلون : كم أخذ هذا ؟ وكم أنفق ؟ وماذا تبقى له بعد ذلك ؟ ! فيجدون أن الذى تبقى له أكثر مما أخذه ! ! فمن أين إذن أنفق عن بذخ ؟ ومن أين له كل هذا ؟ وسرت هذه الروح - روح استغلال المراكز للثراء - من الكبار للصغار ، ومن الرؤساء للمرءوسين ، حتى أصبح من الغريب أن نجد الموظف العفيف ، وصاحب المركز النزيه ؛ فصغار الموظفين والعمال الذين يتولون أعمالا تتيح لهم هذه الفرصة لا يمكن أن يتركوها تمر دون أن ينتفعوا ، حتى أصبح هذا عادة عنده ، كأنه لا يتقاضى من الدولة أجرا على عمله . وهؤلاء الذين بيدهم عقد الصفقات وإعطاء المشروعات

لا يمكن أن تفلت من أيديهم فرصة الانتفاع . والمتعهدون والمقاولون خير من يعرف هذا ويساعد عليه وإن كان يشكو منه . وأنا وأنت أيها القارىء نعرف هذا ونتحدث عنه ، ونلمسه فى العمارات الشاهقة ، والضياع الواسعة التى تقيم بنفسها الدليل القوى على اتهام أصحابها . ومع هذا كله يقف المجتمع وتقف الدولة بتشريعها وقوانينها وسلطانها عاجزة عن محاسبة هؤلاء وسؤالهم : من أين لهم هذه الثروة المفاجئة ، وكيف هبطت عليهم ؟ فليس فى القانون للآن مادة تبيح محاسبة المالك ، من أين ملك ؟ ولقد كان هذا العجز وهذا القصور سبباً فى قوة شيوع هذه الظاهرة وسيطرتها على العقول سيطرة تنذر بالخطر ؛ فإن الدولة التى تفسد ذمم عمالها وخدامها ، ويذهب هباء نداء الواجب والضمير فيها ، دولة تحطم نفسها بنفسها ، وتقوض بنيانها بيد أبنائها ، وتعرف مقدما حكم التاريخ فيها مهما بلغت هذه الدولة من متانة البنيان ، وعظمة السلطان ، ونباهة الشأن ؛ فما بالنا بدولتنا الناشئة التى نريد أن نبنى لها مجداً ونشيد لها نهضة ! .

ولقد دفعت الغيرة بعض الناس على أن يفكروا فى قانون محاسبة الوزراء وغيرهم من الكبار ، ومع قصور هذا عن الغاية المرجوة والعلاج المنشود فأنه يسير متعثراً فى الظلام ، لا يكاد يرى النور حتى ترده إلى الظلمات أياد لا تريد له الحياة .

ولقد واجه رسولَ الله صلى الله عليه وسلم حالة فردية تشبه حالتنا التى نشكو منها الآن ، ولمس صورة من الصور الكثيرة التى تمر بنا ، وشعر عليه السلام بالخطر يهدد كيان الدولة الإسلامية الوليدة ، وينخر فى عظام المجتمع الإسلامى وهو فى بدء تكوينه ، فسارع عليه السلام ، وهو القائد الخبير والمربى الملهم والمشرع الذى لا ينطق عن الهوى ؛ سارع إلى وضع علاج حازم حاسم كفيل بالقضاء على روح استغلال المراكز للانتفاع الشخصى وسد الباب فى وجوه الطامعين ؛ وضع عليه السلام العلاج وسبقنا إليه بأربعة عشر قرنا ، ولا زلنا نحن نئن ونشكو من فداحة الداء ، وفى أيدينا خير الدواء .

« روى البخارى فى صحيحه عن أبى حميد الساعدى قال : « استعمل النبى صلى الله عليه وسلم رجلا من بنى أسد على صدقات بنى سليم ، فلما جاء الى رسول الله

وحاسبه قال : هذا الذى لكم وهذه هدية أهديت لى ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فهلا جلست فى بيت أبيك وبيت أمك حتى تأتيك هديتك إن كنت صادقا ؟ ! ثم قام رسول الله صلى الله عليه وسلم الى المنبر فخطب الناس وحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أما بعد فإنى أستعمل رجالا منكم على أمور مما ولانى الله فيأتى أحدكم يقول : هذا لكم وهذه هدية أهديت لى فهلا جلس فى بيت أبيه وبيت أمه فينظر : أيهدى أم لا إن كان صادقا ! فو الله لا يأخذ أحدكم منها شيئا بغير حقه إلا جاء الله يحمله على رقبته يوم القيامة ، إن كان بعيرا له رغاء ، أو بقرة لها خوار ، أو شاة تيعر ، ثم رفع عليه السلام يديه حتى رأينا بياض إبطيه وقال : ألا هل بلغت ، ألا هل بلغت ، ألا هل بلغت . . ! »

وبهذا الحكم وهذا القرار يتقرر مصير هذا الكسب الذى وصل الى يد هذا الرجل ويصل الى يد أمثاله من بعده الى يوم القيامة ، ويتبين حكم الإسلام فيه .

فهذا رجل من الذى ولاّهم عليه الصلاة والسلام جباية الصدقات وتحصيل الضرائب من بنى سليم ، ذهب إليهم نائبا عن رسول الله وممثلا لبيت المال لينتقى من مواشيهم زكاتها المفروضة ، وقد رجع الى الرسول بالزكاة التى حصلها ومعه شىء خاص به ، هدية أهداها القوم له وخصوه بها ، وجاء الى رسول الله ولم يخفها عنه ، بل صارحه بها ظانا أن ذلك مما لا يتنافى مع مهمته ، ولا يتعارض مع وظيفته ، ولا يغضب رسول الله ، ما دامت هدية صادرة عن رضا واختيار ؛ ولكن كيف يتغاضى الرسول وهو الذى يضع الأسس والمبادىء لسعادة الشعوب ورقيها وصيانة نظمها ، وسلامة أو ضاعها ! أليست هذه الهدية مما يؤثر فى عمل الموظف ؟ أليست مالا أخذه بسلطان عمله ، وطمعاً فى رحابة صدره وتنازله عن بعض واجباته ، وتساهله معهم فى أية ناحية من النواحى تجر عليهم كسبا وفائدة ، وتعود على الدولة بالخسارة مهما كانت صغيرة أو كبيرة ؟ ! وقد قدر الرسول هذه النواحى — وهو خير من يقدر — فكان غضبه شديداً . انظر معى إلى قوله لعامله يؤنبه ويبين له خطأه — مع أنه كما يفهم كان عن حسن نية — « هلا جلست فى بيت أبيك وبيت أمك حتى تأتيك هديتك » أرأيت تأنيباً مع توجيه ، وتقريعاً مع تشريع ، أشد من هذا وأوجع ؟ !

ولم يدعْ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الحادثة تمر دون أن يعلق عليها ويضع بسببها مبدأ عاما يبقى من بعده نبراسا وهدى للعالمين ، وشفاء لجراحات المجتمع وسداً لأطماع الطامعين ، فقام رسول الله إلى المنبر — كشأنه في كل أمر خطير ذى بال — ووجه إلى أصحابه الكلام ، ولم يرد أن يجبه صاحب الحادثة ، فلم يصرح باسمه فى كلامه إبقاء على ما فى نفسه من خير وتقديراً لحسن النية فى احتفاظه بهديته ؛ وهذا من كمال أدبه وعالى إدراكه ، عليه الصلاة والسلام .

لقد انتهز عليه السلام هذه المناسبة لتوجيه أصحابه إلى الأوضاع السليمة التى يجب أن يكونوا عليها ، وإلى الأسس الفاضلة التى تكون المجتمع الإسلامى السليم ، فتكلم فى غضب ظاهر ؛ ولكن فى أدب كامل ، وبين الحكم ، ولم يترك بيان سببه وتوجيه الأنظار إلى علته ، فقال لأصحابه : كيف يستسيغ الواحد منكم وقد وليته عملا عاما أن يستغل سلطانه ووظيفته فيتقبل الهدايا التى تقدم إليه من الناس ؟ هل يتصور الرجل منكم أنه كانت تأتيه هذه الهدايا لو كان شخصاً عاديا لا يرجى عطفه ولا تنتظر منه رعاية ومحاباة فى عمله ؟ لئن كان فى شك من هذا فليجلس فى بيت أبيه وأمه مجرداً من سلطان الوظيفة التى تجمع حوله آمال الطامعين فيه ، مجردا من أمل الانتفاع من ورائه ، ولينظر هل يتقدم هؤلاء الناس له بالهدايا التى تقدموا بها إليه وهو فى عمله ؟ إن هذه الهدايا ستنقطع ولا شك عنه ، وسوف لا يظفر بها بحال ؛ فهى إذن مال أخذه بسيف الرغبة أو الرهبة ، وتحصل عليه بسلطان الدولة التى ليست ملكا له ، فليس من الحلال أن يأخذه أو ينتفع به مهما صاحب هذا من مظاهر الرضا من الدافعين للهدايا ، فإن مايكمن وراء هذه المظاهر من أغراض غير شريفة ليكفى فى ردها وفى تحريمها .

ويرى رسول الله عليه الصلاة والسلام أن الأمر خطير ، وأن الموضوع يستدعى التوكيد والتشديد لاتصاله بأسس المجتمع الإسلامى ، فيقسم - وإنه لقسم لو تعلمون عظيم - : والذى نفسى بيده لا يأخذ أحدكم من هذا المال شيئًا بهذا الأسلوب إلا تحمل وزره فى الآخرة - بعد وزره فى الدنيا - وفضحه الله على رءوس الأشهاد يوم القيامة ، وصور له إثمه فى هذا اليوم صورا من الهدايا التى قبلها تعلن عن إثمه وتبرهن أمامه وأمام الناس على جوره وظلمه . ثم يرفع الرسول

عليه السلام يديه فى عناية واهتمام بالغين ، حتى يرى الصحابة بياض إبطيه ، ويتجه الى الله يشهده على أنه قد أبرأ ذمته ونصح لأمته ، وبين هذا الأمر الخطير وأعطاه ما يستحقه من توجيه ، ويعلن أنه بذلك قد بلغ الرسالة وأدى ما فى عنقه من أمانة ، وعلى الناس أن يختاروا ، فمن اهتدى فلنفسه ، ومن عمى فعليها ، وما أنا عليكم بحفيظ .

هذا هو الهدى النبوى الكريم ، والتشريع الإسلامى الحكيم ، يريد الحاكم والعامل نظيفا فى عمله نزيها فى قصده ، عفا فى تصرفاته ، بعيدا عن الشبهات ، لا يستحل إلا أجره ، ولا يستغل سلطانه ليملأ خزائنه وجيبه ، ولا يقبل مالا جاءه طمعا فى جاهه وسلطانه العاجل أو الآجل ، وبذلك تصان المصالح العامة ، وتسير الأمور فى مجراها الطبيعى ، لا يؤثر عليها حيف أو جور ، يصل كل إنسان الى حقه ، ويطمئن الى سلامة تصرفات حكامه ، ولا يظن بهم الظنون ، ولا تضيع على الدولة حقوق ، ولا يستغل مرافقها أصحاب المصالح الشخصية ، ولا تخضع للتيارات والأهواء ، فتفقد التوازن ، ويختل دولاب العمل .

ألست تحس أيها القارىء مع الشعب بفداحة الخطب الذى أصاب الدولة المصرية من سيطرة الشركات على مرافقها زمنا طويلا ، واستغلالها استغلالا يتجه كله الى مصلحة الشركة دون مراعاة مصالح الجمهور الذى يئن ويشكو ولا يجد من يحميه من عسف هذه الشركات الأجنبية واستهتارها ! . والذى مكن لهؤلاء الدخلاء من اللعب بمصالح الجمهور إنما هم بعض أبناء البلد الذين أتخمتهم الشركات بعطاياها وهداياها وعضويات مجالسها .

إن الحديث النبوى الكريم الذى ذكرته ليضع الأساس لمحاسبة الوزراء والموظفين ومن يستغلون نفوذهم للثراء على حساب مصالح الشعب ، ويضع حدا للفوضى والارتباك ، ويقضى على روح الرشوة التى سيطرت على النفوس .

وهو أساس وضعه الرسول منذ أربعة عشر قرنا ، وقبل أن تكون أوربا الحديثة التى نأخذ منها القوانين .

وسنتابع البحث والكشف عن هذا المبدأ فى أعمال الخلفاء الذين تولوا سياسة المسلمين بعد الرسول عليه الصلاة والسلام ؟

ذكرى مرور خمسين سنة

الشيخ جمال الدين الافغانى

مصلح دينى وزعيم سياسى

لفضيلة الأستاذ محمود الشرقاوى

خرج جمال الدين من مصر أو أخرج منها بأمر من الخديو توفيق فى أواخر سنة ١٨٧٩ ، فقصد إلى الهند مرة أخرى وأقام فى حيدر آباد ، وفيها ألف كتابه « الرد على الدهريين » باللغة الفارسية ، وقد نقله الى العربية الشيخ محمد عبده فيما بعد .

ويقول مؤرخو جمال الدين فى إخراجه من مصر : إن توفيقا كان يقرب اليه جمال الدين ويعتز به قبل أن يلى عرش مصر ، وكان يعده إن هو ولى هذا العرش أن يؤيده فى إصلاحاته وأن يعينه على تحقيقها ، فلما ارتقى توفيق عرش مصر أخذ جمال الدين يستنجزه وعده ويستحثه ويلح فيه حتى ضاق توفيق ذرعاً به فنفاه . ويقول الشيخ رشيد فى تاريخ الأستاذ الامام : إن نشاط جمال الدين كان ينغص على انجلترا ، وكان قنصل انجلترا فى مصر غير راض عنه ، وإن الحكومة البريطانية سعت عند توفيق فى نفيه .

وعندما كان جمال الدين مقيما فى حيدر آباد قامت الثورة العرابية ، وكانت الحكومة البريطانية تعتقد أن جميع الثورات والانقلابات التى تقوم فى الشرق أو فى بلاد الاسلام إنما هى من صنع جمال وتحريضه ، فخشيت منه فى هذه الثورة العرابية ، وألزمته الانتقال من حيدر آباد الى كلكتا ، وأقامت عليه الرقباء فيها .

فلما انتهت الفتنة العرابية باحتلال انجلترا مصر ، أباحت له حكومة الهند مبارحة البلاد ، فغادرها الى لندن ، واستقر فيها أياما ، ثم تركها الى باريس .

ويقول واحد من مؤرخى جمال الدين : إنه قصد فى هذا الوقت الى أميركا ، وإنه رغب فى أن يتجنس بالجنسية الأميركية ، ولكن هذه الرحلة وهذه الرغبة مشكوك فيهما جدا .

بقى جمال الدين فى باريس ثلاث سنين ، وكان فى ذلك الوقت قد أحسن اللغة الفرنسية . أما العام الأول من هذه السنين فقد بقى فيه يكتب المقالات والفصول فى الصحف الفرنسية ، وكانت آراؤه التى يبديها فى السياسة وفى الأمور العامة تلقى عناية كبيرة واهتماماً من الحكومات الأوربية التى لها روابط بالبلاد الإسلامية .

وكان الشيخ محمد عبده فى هذا الوقت نفسه مبعداً من مصر الى الشام بسبب الثورة العرابية ، فبعث إليه جمال الدين أن يوافيه فى باريس فوافاه إليها . ونظم السيد جمال الدين والشيخ محمد عبده أمر إصدار مجلة إسلامية لنشر دعوتهما الإصلاحية ومحاربة الاستعمار الذى نكبت به البلاد الإسلامية ، فأصدرا لهذا الغرض مجلة « العروة الوثقى » كان جمال الدين يدير سياستها العامة والشيخ عبده يحرر فصولها ، وأزعجت هذه الصحيفة الحرة القوية ، الحكومة الإنجليزية ، بسبب عنفها فى خصومة الاستعمار البريطانى ، فحاربتها حرباً عنيفة ، ومنعت دخول أعدادها الى مصر والهند .

ولم تنِ الحكومة البريطانية والحكومة الفرنسية أيضا فى حرب هذه الصحيفة وإعناتها حتى لم يستطع الشيخان مولاة إصدارها ، فتوقفت بعد أن أصدرا منها ثمانية عشر عددا (١) .

قصد جمال الدين بعد توقف « العروة الوثقى » عن الصدور إلى لندن ، وتفاوض مع حكومتها فى شؤون البلاد الإسلامية ، وفى شؤون السودان خاصة

---

(١) صدر العدد الأول فى ١٣ مارس سنة ١٨٨٤ والأخير فى ١٦ اكتوبر سنة ١٨٨٤ وقد أعيد طبع مقالاتها فى القاهرة مرتين فى سنة ١٩١٠ وسنة ١٩٢٨ .

حيث كانت ثورة المهدى ناشبة وقتذاك (سنة ١٨٨٥) . ثم انتقل بعد ذلك إلى روسيا القيصرية فأقام فيها أربع سنين بين موسكو وبطرس برج .

وفى سنة ١٨٨٩ كان شاه الفرس ناصر الدين يزور أوربا ، وكان جمال الدين أيضا فى ميونخ ، فتقابلا ، ورغب الشاه إلى السيد أن يصحبه إلى إيران ، فلبى السيد الدعوة ، فلما ذهب إليها أكرمه الشاه وعينه وزيرا للحرب وقربه إليه ، ولكن الشاه أوجس بعد ذلك من جمال الدين ، حيث رأى محبة الناس له ، وشهد تأثيره فى نفوسهم وقوة سلطانه عليهم جميعا . وأحس جمال الدين تغيّر الشاه عليه وتوجسه منه وخوفه ، فاستأذنه فى الخروج ؛ ولكن الأمر فسد بين الشاه وبين جمال الدين قبل أن يخرج ، حتى احتمى جمال الدين بمقام الشاه عبد العظيم خوفا من بطش ناصر الدين ، وأقام فى مقامه هذا سبعة أشهر حيث نال منه المرض ، ولم يجد ناصر الدين مندوحةً من أن يجترىء على حرمة الشاه عبد العظيم فيهاجم فى مقامه جمال الدين . وقبض على جمال الدين ثم أخرج وهو مريض إلى حدود الدولة العثمانية ؛ ولكن جمال الدين كان قد استطاع أن يؤلب الناس على الشاه ، وأن يكيد له ، وأن يجاهر بخلعه ودعوة الناس للخروج عليه ، فلم تمض على إخراجه من إيران خمس من السنين أو ست حتى قامت الثورة على ناصر الدين واغتاله واحد من الثائرين ، ثم قال فى اعترافه : إن القتل بتحريض جمال الدين[1] فلما طلبته حكومة إيران لمحاكمته رفض السلطان عبد الحميد تسليمه .

ولما أخرج من إيران قصد البصرة فأقام بها إلى أن زال عنه مرضه ، ثم سافر إلى لندن مرة أخرى ، ثم ترك لندن إلى الآستانة فى سنة ١٨٩٣ .

فى هذه الفترة التى قضاها السيد فى الآستانة رعاه السلطان عبد الحميد وأكرمه ، فخصص له قصراً منيفا ، وأجرى عليه فى كل شهر خمسا وسبعين ليرة عثمانية ، ولكن السيد كان فى مقابل ذلك سجين السلطان وأسيره ، وبقى على هذا الحال حتى أصابه السرطان فى فكه آخر سنة ١٨٩٦ ثم امتد إلى عنقه ، وبقى يتمرض حتى مات فى يوم ٩ مارس من سنة ١٨٩٧ وقال بعض أصدقاء السيد : إن موته كان بتدبير عبد الحميد ، ثم دفن باحتفال مهيب فى مقبرة المشايخ بالآستانة .

---

(١) أخرج جمال الدين من إيران فى أواخر سنة ١٨٩٠ أو أوائل السنة الثانية . وقتل الشاه ناصر الدين فى سنة ١٨٩٦ بيد مرزا رضا الكرمانى .

ونحن نجد من هذه الترجمة القصيرة الموجزة لحياة السيد أن شخصيته كانت فريدة بين شخصيات هذا الشرق الإسلامى ، فهو رجل من رجال الدين ، ولكنه يدرس إلى جانب هذه العلوم الدينية علوم الطب والتشريح والرياضة ، وهو يعرف إلى جانب لغته الوطنية الأفغانية ولغته الثقافية « العربية » اللغة الفارسية والتركية وقليلا من الإنجليزية ، ويحسن اللغة الفرنسية[1] وكذلك نرى أن هذه الحياة التى عاشها السيد كانت حياة فريدة بين حيوات الرجال فى هذا الشرق الإسلامى من هذا العهد ، فهو رجل دين ، ولكنه يشتغل بالسياسة العامة ، ويشتغل بالحرب ، حتى نرى ناصر الدين شاه الفرس يجعله وزير حربه ، ويشتغل بالسياسة الشعبية ، فهو شريك فى التمهيد للثورة العرابية فى مصر ، ويحاول أن يستفيد من الثورة المهدية فى السودان ، ومتهم بالاشتراك فى حزب « تركيا الفتاة » بالآستانة ، ومؤسس وموجه لجمعية العروة الوثقى فى مصر وغيرها من بلاد هذا الشرق الإسلامى ، وهو يشتغل أيضا بهذه السياسة « الدبلوماسية » فيفاوض الإنجليز ويفاوض الروس فى شؤون المسلمين جميعا ، وهو يمهد عند توفيق أن يكون مصلحاً إذا ولى عرش مصر ويعاهده ، وهو يتخذ إلى جانب الدروس والشروح والمحاضرات وسيلة لم يتخذها رجال الدين من قبل .

فهو يجعل من الصحف ، أداة لدعوته السياسية والإصلاحية والدينية ، ويصدر فى باريس مجلة « العروة الوثقى » ويكتب فى صحف باريس مقالات تثير اهتمام الحكومات الأوربية ، ويثير مع الكاتب الفرنسى الكبير « رينان » حوارا يشغل به المفكرين ، مدافعا به عن الإسلام ، ومقررا صلاحيته وقابليته للعلم ولما يستجد ويفيد من حياة المدنية الحديثة ؛ وهو رجل دين ، ولكنه رحب الفكر واسع الأفق غير متعصب لرأى ولا مذهب ؛ يعمل لوحدة الأمم الإسلامية الدينية كما يعمل لوحدتها السياسية ؛ فقد روى مؤرخوه أنه سعى للتوفيق بين الشيعة وبين أهل السنة ، ورمى فى سعيه هذا إلى هدف سياسى وهدف دينى معاً ؛ وهو فوق هذا كله عارم الطبع يسعى سعيه إلى أهدافه متخذا كل سبيل حتى سبيل العنف ، فيكاد يكون من المؤكد أنه شريك أو محرض على قتل

---

(١) ص ٨ و ١١ من كتاب الاسلام والتجديد فى مصر .

شاه الفرس ناصر الدين ، وأنه سعى فى بلاد كثيرة من بلاد الإسلام إلى قلب نظم الحكم التى يرى فيها تعطيلا للنهضة . ونسب اليه أنه كان يرى جواز خلع الأمراء المسلمين الذين يمالئون النفوذ الأوربى ويؤيدونه فى بلادهم . وروى « براون » صديق جمال الدين أنه قال له « لا أمل فى الإصلاح قبل قطع ستة رءوس أو سبعة » (١) وأنه سمى من هذه الرءوس شاه العجم وكبير وزرائه ، وكلاهما قتل . ويقول مستر « بلنت » إنه فكر فى خلع خديو مصر أو التخلص منه (٢) لأنه اعتقد أن وجوده عائق عن الإصلاح .

ونرى من أخلاق جمال الدين هذه الحدة الصارمة التى جعلته يخاصم شيخ الإسلام فى الأستانة ويطلب إليه أن يساجله علناً فيما يرى من رأى ، بل يطلب أن يحاكم شيخ الإسلام على أن تهجم على جمال الدين وسلط عليه الواعظين والصحف أن يسبوه وأن يتهموه بالإلحاد والزندقة . وقد انتهت هذه الحدة الصارمة وهذا اللجاج فى خصومة شيخ الاسلام وحربه إلى أن يخرج جمال الدين من الأستانة كما رأينا من قبل . وكذلك نرى هذه الخلة نفسها فى علاقات السيد بشاه الفرس ، وبتوفيق ، وبحكومة الهند وانجلترا ، وفى كل ما يتصل برأيه وجهاده .

وقد ألف جمال الدين كتابه « الرد على الدهريين » باللغة الفارسية حينما كان يقيم فى الهند للمرة الثانية ، وقد كتب إليه صديق أن هذا المذهب الدهرى يجد دعوة نشيطة إليه فى هذه البلاد . وليس لهذا الكتاب قيمة كبيرة حتى إن كثيرين من مؤرخى جمال الدين وتلاميذه لا يذكرون نسبته إليه ، ولعله ألفه لغرض سياسى حيث نسب الى حكومة الهند أنها تعين هؤلاء الداعين الى المذهب الدهرى فى الهند لتشغل الناس عن أمرهم وأمرها ، ولتصرف المسلمين فى الهند عن دينهم .

أما مجلة « العروة الوثقى » فقد رأينا أن ما كتب فيها كان للشيخ الإمام محمد عبده ، وأن السيد كانت له إدارة سياستها . وكذلك محاضراته التى ألقاها فى الأستانة وهو عضو فى مجلس المعارف ليست لها قيمة كبيرة حتى تلك التى أثارت شيخ الإسلام حسن أفندى فهمى .

---

(١) ص ١٥ من كتاب الاسلام والتجديد فى مصر .

(٢) ص ١٥ من كتاب التاريخ السرى لاحتلال انجلترا مصر .

فليس لهذا الكتاب ولا لهذه المحاضرات من القيمة ما يبرر هذه المكانة الرفيعة التى وصل إليها جمال الدين ، ولا هذا الذكر الباقى له فى تاريخ هذه النهضة الدينية السياسية للشرق الاسلامى .

فلم يبق إذن إلا أن يكون جمال الدين قد بلغ هذه المكانة حياً وميتاً لذات نفسه وصفاته العظيمة الممتازة . هذه الشجاعة الأدبية والسطوة النفسية والسلطان فيما يعتقده الحق ، وهذا الإخلاص للمبدأ والرأى والعقيدة ، والدؤوب فى السعى إلى تلك الغايات الكريمة البعيدة التى قصدها جمال الدين وسعى إليها ، وكده وجهده ولقى فى سبيلها العنت والتشريد والنفى والتهمة والمرض ؛ هذه الصفات وهذا الدؤوب والكدح هما اللذان جعلا من السيد مصلحا دينياً وزعيما سياسياً كما وصفناه فى رأس هذين الفصلين ، وجعلت منه رائدا وإماماً للشيخ محمد عبده ، ولذلك النفر القليل من المصلحين الذين لهم الفضل كله فى نهضة هذا الشرق الاسلامى العربى ، وفى هذه الثورة الفكرية التى لم تخب نارها منذ أوروها .

* * *

يقول مستر « بلنت » فى كتابه الممتع « التاريخ السرى لاحتلال انجلترا مصر » : إن جمال الدين هو أول من وجه الإصلاح الدينى فى العصر الأخير توجيها مثمراً ، ويرى « أن من أغرب ما يروى أن الفضل فى نشر هذا الإصلاح الدينى الحر بين العلماء فى القاهرة لا يعود إلى عربى أو مصرى أو عثمانى ، ولكن إلى رجل عبقرى غريب يدعى السيد جمال الدين الأفغانى ، تلقى تربيته الدينية فى بخارى ، وبغير أن يتصل بأى أستاذ من الذين يعيشون فى مراكز الأفكار الاسلامية الراقية ، استنبط من درسه وتفكيره الآراء التى تعزى إليه اليوم (١) » .

ثم يقول مستر « بلنت » إن دعوة جمال الدين تماثل « ما حدث من إحياء المسيحية بأوربا فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر (٢) » .

---

(١) ص ٧٧ من التاريخ السرى لاحتلال انجلترا مصر .

(٢) ص ٧٨ من التاريخ السرى لاحتلال انجلترا مصر .

دراسات للشعر فى العصر المملوكى

السرقات والمعانى التى توارد عليها الشعراء

لفضيلة الأستاذ الشيخ يوسف البيومى
المدرس بكلية اللغة العربية

ظاهرة أدبية من الوضوح بحيث لاتخفى على النظرة العابرة ، بله العين الناقدة ، يلحظها الدارس للشعر فى هذا العصر : تلكم هى السرقة ، أو التزاحم على المعنى الواحد .

ولا أحسب لهذا التزاحم من سبب غير نقص الثقافة وقصر الخيال ، وجدب القريحة ، وما يستتبعه ذلك من بحث عن أسباب للتفوق والإجادة قد يجدها الشاعر فى الصنعة اللفظية والحلية البديعية حينا ، وقد يجدها فى توليد المعانى التى سبقه إليها غيره بالزيادة أو النقص أو النقل أحيانا ، وقد يجدها فى غير هذا مما يدق من ألوان السرقات حتى يكاد يخفى إلا على الناقد البصير .

وهكذا شاعت السرقة — كما شاع التقليد — فى المعانى والأخيلة ، حتى تعدت الأموات إلى الأحياء .

فما يكاد الشاعر يُغير على معنى قديم فيجمّله بحلية من حلى البديع ، أو يخفيه — وكثيرا ما يكون ذلك — فى ثوب من أثواب التورية ، حتى تتلقفه أيدى الشعراء بالصقل والتهذيب ، والزيادة والنقص ، وكل يحاول أن يختص به بما يلبسه من ثياب الصنعة والزخرف البديعى .

ومن العجيب أن الشعراء لم يجدوا فى نفوسهم من ذلك غضاضة ، ولم يشعروا بشىء يمس كرامتهم شعراء يحسون الجمـــال فيعبرون عنه ، ويشعرون بالحياة فيحسنون تصوير هـذا الشعور ، بل إن منهم من صرح بالسرقة فى شعره ؛ فهذا ابن الوردى ، وهو شاعر مجيد ، يعلن فى جرأة غريبة أنه يسرق ما أراد من المعانى ، ويعلل ذلك أو يعتذر عنه بما يذكر فى هذه الأبيات :

وأسرق ما أردت من المعانى — فإن فقت القـديم حمدت سيرى
وإن ساويته نظما فحسبى — مساواة القـديم وذا لخيرى
وإن كان القـديم أتم معنى — فهـذا مبلغى ومطار طيرى
وإن الدرهم المضروب باسمى — أحب إلى من دينار غيرى

وما ظنك بقوم بلغ من فقرهم فى المعانى ونضوب قرائحهم وإجداب أخيلتهم أن يمدحوا بالقصيدة الواحدة أكثر من واحد ؟ !.

حكوا أن « عويس العالية (١) » كان يفعل ذلك ، فلما عوتب على صنيعه قال : « هن أبكار أفـكارى أزوجهن من شئت » .

ما ظنك بقوم هـذه حالهم ؟ ! وما تظنهم فاعلين أمام هـذا القصور الفاضح والعجز الشائن ؟ ! إنهم لا بد لاجئون إلى معانى السابقين يسرقونها سرقة مستترة بالتورية حينا ، وسافرة فى أثوابها التى سرقت فيها نفسها فى كثير من الأحايين .

وأخيرا أدت المنافسة التى كانت سوقها قائمة فى هذا العصر بين شعراء مصر والشام ، إلى سرقة هؤلاء من أولئك ، وأولئك من هؤلاء .

حكوا أن جمال الدين بن نُباته كان يخترع المعنى الذى لم يسبق إليه ويسكنه بيتا عامرا من أبياته . فيغير عليه صـلاح الدين الصفدى (٢) حتى اضطر ابن نباتة إلى أن يؤلف كتابه (خبز الشعير) يكشف به أمر هذه السرقة .

قال ابن حجة وهو يتكلم على براعة الاستهلال :

وأما براعة الشيخ جمال الدين بن نباتة فى خطبة كتابه المسمى (خبز الشعير) فأنها خاص الخاص ، ولا بد من مقدمة تكون هى النتيجة الموجبة لتسمية هـذا

---

(١) هو (عويس بن حجاج بن سلار) الأديب شرف الدين السعدى المعروف بعويس تصغير عيسى . العالية فى الشطرنج شاعر اشتهر فى المواليا ثم نظم العشر وعرف طرفا من اللغة وشارك فى غيرها ولد سنة ٧٣٠ هـ وتوفى سنة ٨٠٧ هـ

(٢) هو صلاح الدين (خليل بن أيبك) الصفدى الأصل الدمشقى الدار ، من صدور العلماء وفحول شعراء زمانه ومتقدمى كتابه ، تولى كتابة الانشاء بمصر والشام ، وله عدة مؤلفات أشهرها وأعظمها (الوافى بالوافيات) كتاب تراجم يقع فى أكثر من ستين مجلدا يوجد منه سبعة عشر مجلدا مخطوطا بدار الكتب الملكية ، وله (أعيان العصر) و (جناس الجناس) وعلق شرحا على لامية العجم توفى سنة ٧٦٤ .

الكتاب بخبز الشعير فإنه مأكول مذموم ، وما ذاك إلا أنه كان يخترع المعنى الذى لم يسبق إليه ويسكنه بيتا من أبياته العامرة بالمحاسن ، فيأخذه الشيخ صلاح الدين الصفدى بلفظه ولا يغير فيه غير البحر ، وربما عام فى بحر طويل يفتقر إلى كثرة الحشو ، واستعمال مالا يلائم ، فلم يسع الشيخ جمال الدين إلا أن جمعه من نظمه ونظم الشيخ صلاح الدين ، واستهل خطبته — وهذا مكان الاستشهاد لبراعة الاستهلال — بقوله تعالى « رب اغفرلى ولوالدى ولمن دخل بيتى مؤمنا » . ورتب كتابه المذكور على قوله : قلت أنا ، فأخذه الشيخ صلاح وقال .

ثم ذكر ابن حجة أمثلة كثيرة لذلك فى خزانة الأدب ، نذكر منها بعضا مع تعليق ابن حجة ، ليكون ذلك درسا للون من ألوان النقد فى هذا العصر .

فمن ذلك قول الشيخ جمال الدين : قلت :

ومولع بفخاخ يمدها وشراك
قالت لى العين : ماذا يصيد ؟ قلت : كراكى[1]

فأخذه الشيخ صلاح الدين وقال :

أغار على سرح الكرى عندما رمى الـ كراكى غزال للبدور يحاكى
فقلت ارجعى ياعين عن ورد حسنه ألم تنظريه كيف صاد كراكى

قال ابن حجة : وأحسن ما وقع فى هذا الباب للشيخ جمال الدين أنه قال :

بروحى عاطر الأنفاس ألمى ملىّ الحسن خالى الوجنتين
له خالان فى دينار خد تباع له القلوب بحبتين

فأخذه الصلاح الصفدى وقال :

بروحى خده المحمر أضحت عليه شامة شرط المحبة
كأن الحسن يعشقه قديما فنقطه بدينار وحبه

فلما وقف الشيخ جمال الدين على هذين البيتين قال : لا إله إلا الله ، الشيخ صلاح الدين سرق — كما يقال — من الحبتين حبة .

---

(١) فى لفظ (كراكى) تورية ؛ المعنى القريب جمع (كركى)

وبعد أن ذكر ابن حجة عدة أمثلة قال : قال الشيخ جمال الدين وأجاد الى الغاية :

فديتك أيها الرامى بقوس ولحظ ياضنى قلبى عليه
لقوسك نحو حاجبك انجذاب وشبه الشىء منجذب اليه

فأخذه الشيخ صلاح الدين وقال :

تشرط من أحب فذبت وجدا فقال وقد رأى جزعى عليه
عقيق دمى جرى فأصاب خدى وشبه الشىء منجذب اليه

ثم قال ابن حجة يوازن بين المقطوعتين وهو لون من ألوان نقده :

وما أظن الشيخ صلاح الدين - غفر الله له - لما سمع ما قال الشيخ جمال الدين ونظم بعده هذين البيتين ، كان فى حيز الاعتدال ؛ وأين انجذاب القوس الى الحاجب من انجذاب الدم الى الخد ؟ ! وليته - يعنى ابن نباتة - فى براعة استهلاله بقوله : رب اغفر لى ولوالدى ولمن دخل بيتى مؤمنا ، قال بعدها : اللهم ومن دخل بيتى كافرا بفوائدى المنعمة ، وبيت شعرى سارقا من ألفاظه ومعانيه المحكمة ، فاخجله فى سره وعلانيته ، وعاقبه على قوله ونيته !

وإنه وإن كان الصفدى قد أغار على معانى ابن نباتة ، قد سنّ ابن نباتة هذه السنة وسلك تلك الطريق من قبل ، فأغار على معانى (الوداعى) [١] الذى يذكرون أنه « سبك التورية فى قوالب لم يسبقه أحد اليها ، ولاسقط فكره عليها » [٢] ، فمثل لنا بهذا سرقة المصريين من الشاميين ، كما مثل لنا الصفدى إغارة الشاميين على معانى المصريين .

فمن مؤائد الوداعى التى تطفل ابن نباتة عليها قوله من قصيدة :

أثخنت عينها الجراح ولا إثـ ـم عليها لأنها نعساء
زاد فى عشقها جنونى فقالوا : ما بهذا ؟ قلت: بى سوراء

---

(١) هو الأديب الشاعر (علاء الدين على بن المظفر بن إبراهيم بن عمر) الكندى الوداعى ، تولى عدة ولايات وكتب بديوان الانشاء بدمشق ، ولد سنة ٦٤٠ هـ وتوفى سنة ٧١٦ هـ .

(١) ابن تغرى بردى بالمنهل الصافى فى ترجمة الوداعى .

(٢) هو القاضى الفاضل أبو على عبد الرحيم بن على بن الحسن اللخمى البيسانى ثم العسقلانى ثم المصرى محيي الدين ، وقيل مجير الدين الوزير صاحب ديوان الانشاء وشيخ البلاغة ، ولد سنة ٥٢٩ هـ وقيل إن مسودات رسائله لو جمعت بلغت مائة مجلد . توفى سنة ٥٩٦ هـ . حسن المحاضرة .

أخذه ابن نباتة فقال وهو مطلع قصيدة :

قام يرنو بمقلة كحلاء علمتنى الجنون بالسوداء

وقال الوداعى :

إذا رأيت عارضا مسلسلا فى وجنة كجنة يا عاذلى
فاعلم يقينا أننى من أمة تقاد للجنة بالسلاسل

أخذه الشيخ جمال الدين وزناً وقافية وقال :

أفدى التى ساق اليها مهجتى فرع طويل تحت حسن طائل
قلبى بصدغيها الى طلعتها يقاد للجنة بالسلاسل

وقال الوداعى من قصيد :

يفتن بالفاتر من طرفه وريقه البارد ياحار

أخذه ابن نباتة وقال من قصيد :

لو ذقت برد رضاب من مقبّله ياحار ما لمت أعضائى التى ثملت

قال ابن حجة : مع أن الشيخ جمال الدين فتر عن الفاتر ، يقصد الفاتر من طرف المحبوب فى بيت الوداعى .

وقد ذكر ابن حجة الكثير من تطفل ابن نباتة على الوداعى بالخزانة وإنه ليخيل الى من يقرأ كل هذه السرقات التى سرقها ابن نباتة من الوداعى ، والتى عرضنا لبعضها ، والتى سرقها من غيره مما تزخر به كتب الأدب ، أن هذا الشاعر الذى سارت ملوك الأدب قاطبة بعد الفاضل خلف ركابه وتحت لوائه ـ لم يأت فى شعره بجديد . وإذا كانت هذه هى حال الملوك فما هى إذن حال الوزراء والأمراء ورجال الحاشية ؟ بل ما هى حال الرعاع والسوقة ؟ ! إنها حال مزرية حقا ، مزرية بقدر الشعر وبكرامة الشعراء ، أن يغيروا هذه الإغارات الفاحشة على بضاعة الأحياء بعد تقليدهم التقليد (١) الفاضح الشائن لطرائق القدماء ؟

(١) ربما عرضنا لدراسة هذا التقليد فى مبحث خاص .

باب الأسئلة والفتاوى

جاء الى لجنة الفتوى بالجامع الأزهر الاستفتاء الآتى :

١ ـ يحلف غالب الزراع بالطلاق خارج المنزل أثناء العمل بالحقل أنه لا يفعل كذا ثم يفعله ؛ هل يقع أم لا ؟

٢ ـ التغنى والترنم بالأذان والصلاة على الرسول صلى الله عليه وسلم عقبه بالتغنى جهراً كما يفعله غالب المؤذنين ؛ هل ذلك جائز أم لا ؟

٣ ـ ما حكم الجهر فى المسجد بتسبيح أو قراءة قرآن خصوصا سورة الكهف يوم الجمعة ؟ كما أن غالب المقرئين لا يقرءونها بل يقرءون مريم ، طه ، الضحى ، هل هذا جائز أم لا ؟

أبو الفتوح السيد

الجواب :

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان الى يوم الدين .

أما بعد : فتفيد اللجنة بما يأتى :

عن السؤال الأول :

إن الصيغة التى تجرى على ألسنة العامة مما هو مذكور بالسؤال ، من قبيل الطلاق المعلق الذى لا يقع بوجود المعلق عليه إذا كان قصد الحالف مجرد الحمل على فعل شىء أو تركه . وظاهر أن العامة لا يقصدون بهذه الأيمان إلا مجرد الحمل على فعل شىء أوتركه ، فلا يقع بها طلاق . وهذا على ما ذهب اليه بعض العلماء ، وجرى عليه قانون المحاكم الشرعية ، وهو ما تفتى به اللجنة .

عن السؤال الثانى :

إنه لا يجوز التغنى بالأذان تغنيا يغير كلماته بزيادة حركة أو زيادة حرف أو مد أو غيرهما فى الأوائل أو الأواخر . أما التغنى بلا تغيير فحسن ، لأن تحسين الصوت مطلوب .

وأما الصلاة على النبى صلى الله عليـه وسلم عقب الأذان فهى زيادة عـلى الأذان المشروع ؛ ولم تكن فى عهـد الرسول صلى الله عليه وسـلم ولا فى عهـد الصحابة والسلف ، رضوان الله عليهم أجمعـين . ولا ينبغى لمسلم أن يغـير ما كان عليه الرسول وأصحابه ومن تبعهم بإحسان فى العبادات التى منها الأذان ، لا بزيادة ولا بنقص ولا بغيرهما ، لقوله صلى الله عليه وسلم : « من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهـو رد » .

هذا وقراءة سورة الـكهف كما هو معهود الآن فى المسجد يوم الجمعة بصوت مرتفع قبل صلاة الجمعة ، بدعة مستحدثة ، لم تعرف فى عهد الرسول عليه السلام ولا فى زمن الصحابة والسلف الصالح . ويظن العامة أن قراءتهـا بهذه الـكيفية وفى ذلك الوقت من شعائر الإسلام فهى مكروهة ، لا سيما أن قراءتها على هـذا الوجه تحدث تشويشـا على المصلين . وقـد خرج النبى صلى الله عليه وسلم على أصحابه وهم يصلون ويجهرون بالقراءة فقال : « أيها الناس ! كلكم يناجى ربه ، فلا يجهر بعضكم على بعض » . وكذلك الحكم فى قراءة غير سورة الـكهف من القرآن ، وفى الجهر بالتسبيح أو التهليل ، مما يحدث تشويشا على المصـلين . بل نص بعض علماء المـالـكية على أن ذلك إذا أحدث تشويشا كان حراما .

أما الجهر بالذكر عقب انتهـاء الإمام من الصـلاة المفروضة ، فقد صح عن ابن عبـاس أن رفع الصوت به كان على عهـد الرسول صلى الله عليه وسـلم حتى قال ابن عباس « ما كنت أعرف انقضاء صـلاة رسول الله صلى الله عليـه وسلم إلا بالتـكبير » . وهذا واضح فى مشروعية الجهر بالذكر فى هذا المقام .

وحمل الإمام الشافعى رحمه الله ما صح عن ابن عباس على أنه كان يقصد التعليم. والظاهر الإطلاق ، سواء قصد به التعليم أم لا . ولـكن بشرط ألا يحدث بذلك تشويش على من يكون فى الصلاة . والله أعلم ؟

رئيس لجنة الفتوى

عبد المجيد سليم

من تاريخ الحضارة الإسلامية :

عباس بن فرناس

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد عبد المنعم خفاجى

« عبقرية الفكر الإسلامى ، ومفخرة الشرق السائرة ، وحديث الإنسانية الأولى ، وأول طيار ركب متن الهواء » .

١ — يؤمن كثير من الناس بأن الشرق موطن الخيال ، ووادى الأحلام والسحر ؛ وأن الفكر الإسلامى من نبعة الفكر السامى ، فيه اضطراب الفكرة، والعجز عن إدراك الحقيقة فى جوهرها ، والقنوع بالبحث فى حواشيها ومظاهرها .

ويقولون إن الحضارة الإسلامية حضارة عقيمة ، لم تُسْدِ للانسانية يدا ، ولم ينؤْ بحمل مِنها جيد . فالجمل هو الجمل ، مركب البداوة ، ومطية الحضارة الإسلامية ؛ والمصباح هو المصباح ، زيت وفتيل ؛ استضاء به المسلمون فى أزهى عصورهم ، كما استعمله الانسان منذ فجر عصور التاريخ . والماء هو الماء ، تجرى به الأنهار ، وتغصّ به الأودية ، ويحمله المسلمون على ظهورهم وفوق متون رواحلهم كما كان يصنع القدماء . والفنّ هو الفن ، لم تنبغ فيه فى الإسلام يد صناع ، ولا روح ملهم ، ولا عبقرية خالدة ؛ وأين لنا فى الفن الإسلامىّ ما نفاخر به معابد أثينا ، وصروح روما ، وفن الأكاسرة ، وأهرام الفراعين ؟ والعلم هو العلم ، كما خلفته مدارس الإغريق ، ومعاهد الرومان وجامعات الاسكندرية وجنديسابور وحرّان ونصيبين .

ونقول لهؤلاء الشاكين : رويدكم ، رويدكم ! لقد عافت الحضارة الاسلامية ركوب الجمل ، فحاولت تذليل الهواء ، وأنِفتْ من هذا النبراس الضئيل ، فتخذت الثريات المشرقة فى القصور والمساجد وعلى حفافَىْ الشوارع والميادين . وأبت أن تعيش فى نصَب البداوة ، فأدخلت الماء العذب فى أنابيب الرصاص الى

القصور والحمامات والرياض ، وبجرته من ثغور التماثيل الفنية الرائعة المصنوعة من « الذهب الأبريز ، والفضة الخالصة ، والنحاس المموه » ، « وأجرته الى البحيرات الهائلة ، والبرك البديعة ، والصهاريج الجميلة ، فى أحواض الرخام المرمرية المنقوشة العجيبة » . والفن الاسلامى أمامكم فانظروه : فى أثار بغداد وقرطبة والقاهرة ودمشق وسواها ، وفى قصور الزهراء والحمراء ، ومساجد الشرق العظيمة الشامخة التى تسخر بالزمن وتبسم فى وجوه الأيام ، وإذا لم يسعدكم الوقت والحظ بالاطلاع على التراث العلمى المجيد الذى خلفه رجال الفكر الاسلامى ، فاقرأوا ما يكتبه عنه المنصفون من الشرقيين والغربيين . والنهضة الاسلامية فى الاقتصاد والزراعة والصناعة والتجارة ، وفى الإدارة والسياسة ، والطب والعلاج ، وفى جميع ميادين النشاط الانسانى ؛ لا تتعجلوا بالحكم عليها قبل أن تتعرفوا مدى ما وصلت اليه من عبقرية وقوة ومدنية .

فليتئد هؤلاء فى الحكم على حضارة أظلت العالم أحقابا طوالا ، ونقلت جميع الحضارات القديمة ـ بعد أن هضمتها وهذبتها ووجهتها توجيها جديدا ـ الى العالم فى أول عصر النهضة الحديثة ؛ وكانت السبب المباشر فى قيام الحضارة الأوربية التى يضىء نورها الدنيا الآن .

هذه نظرات عابرة أكتبها تمهيدا لبحثى عن أبى القاسم « عباس بن فرناس » ، مفخرة الشرق ، والمفكر العظيم الذى رددت ذكره الأجيال .

٢ ـ نشأ « عباس » فى بلاد الأندلس فى أوائل القرن الثالث الهجرى ؛ والدولة للأمويين أحفاد الداخل البطل الأموى الكبير .

وكان لابد له ـ ككل شاب طامح ـ أن يرد مناهل العلم ، ويغذى فكره وعقله بالثقافة الإسلامية فى مساجد قرطبة ودور العلم فيها ؛ فتتلمذ على رجال العلم ثم أعلام الفلاسفة الذين كانوا يفكرون ويبحثون ويستنبطون فى خفية بعيدا عن عيون الناس والجمهور ممن لا يستسيغون التفكير الحر ولا يشجعون عليه .

ثم خرج « عباس » الى الحياة العامة ، شابا ثائر الفكر ، متأجج العزيمة ، مشتعل الذكاء ؛ لا يريد أن يفكر كما يفكر الناس ، ولا أن يعيش كما يعيشون ، ولا أن يُعنى بما يعنون به ؛ بل أراد أن يفكر كما يحب أن يفكر ، وأن يستنبط ويخترع ويجدد

كما شاء له عقله وقواه الفكرية الكامنة فيه . ولم تكن آمال « ابن فرناس » وأفكاره من خيالات الشباب وأكاذيب النفس ، بل كانت مظهراً لعقلية مبدعة ، وتفكير سليم .

٣ — وبعد قليل تمكن هذا الذهن الحادّ القوى من استنباط طريقة لصنع الزجاج من الحجارة ، فكان أول مبتكر لهذه الطريقة الجديدة ، التى نسير على أثرها فى شىء من التجديد والدقة والسرعة .

ثم أخذت نفسه تحدثه : كيف نعيش دون التفكير فى اختراع شىء جديد يعرف به حساب الدقائق والساعات والأيام ؟ إنْ اخترع الشرق الساعات المائية ، فليخترع هو ما تفخر به الأندلس والأندلسيون ؛ وفعلا تم له ما أراد ، فاخترع آلته البديعة « المنقالة » التى صنعها على غير مثال لمعرفة الأوقات .

٤ — وحول « ابن فرناس » فكره من جديد إلى مملكة النسور .

أيظل هـــذا الأفق الفسيح ، والجو الرحب ، ميدانا للطيور ترفرف بأجنحتها فيه ، ناعمة بجماله ؟ ولم لا يشاركها فيه الإنسان ؟

هذه الطيور ، أليست تطير بجناحين ، يساعدهما ريش كثيف ، فلم لا يكون لابن فرناس جناحان ممدودان وريش منتشر على جسده ليطير كما تطير النسور فى الهواء ؟

وأخذ يكسو نفسه بالريش ويمدُّ له جناحين ، ثم كان يوم المحاولة الخطيرة الفريدة ، التى هى أول محاولة بشرية للطيران ؛ فاجتمع الناس من كل حدب ، ليروا هذا الرجل كيف يفتح هذه الآفاق الجديدة أمام الإنسان .

وحرك عباس جناحيه ، ونشر ريشه ، وأخذ يداعب الهواء ؛ فارتفع فى الجو ، وطار مسافة بعيدة ، والناس فى أماكنهم ينظرون ويعجبون ويسخرون .

ثم كان لابد لهذا الطائر أن يهبط الى الأرض ، فهبط رويدا رويدا ، حتى قرب منها ، فلم يستطع حفظ توازنه ، فسقط مصابا برضوض فى جسده .

لقد نظر « ابن فرناس » الى جناحى الطائر وريشه ، فآمن بأنهما وسيلته فى الطيران ، ولم ينظر الى ذيله ليعرف مدى مساعدته له فى طيرانه وحفظ

توازنه وحين هبوطه الى الأرض ؛ فلم يصنع له ذيلا كما صنع ريشا وجناحين ، فأصيبت التجربة بإخفاق ما كان أجدر « ابن فرناس » أن يتلافى سببه .

عجب الناس ، وسخروا من « عباس » ، وهزئوا به ، ونظم الشعراء الشعر فى السخرية والتندر عليه . وهكذا شأن العبقريين فى كل جيل ، يسبقون زمنهم فلا يفهمهم الناس ولا يفهمونهم ، بل ويعادونهم عداء شديدا .

قد يكون نقد الناس وسخريتهم سببا لإحجامه عن إعادة التجربة من جديد ، وقد يكون الباعث على ذلك جهله بسبب إخفاقه فى محاولته الأولى وخوفه على نفسه أن تلاقى صدمات جديدة ، وقد يكون الصارف له ما أصيب به من جروح دامية أثرت فى صحته .

وعلى أى فرض ، فما كان أقرب « ابن فرناس » إلى الظفر بأمنيته ، وإلى غزو هذا الأفق الجديد وتسخيره للناس . ولو فعل ذلك لانقلبت الحياة ، وتغير مجرى الحضارة ، ولسجلت الحياة لعباس بن فرناس هذا النصر الذى سجلته بعد أكثر من عشرة قرون « للأخوين رايت » .

٥ — لم يسكن هذا الفكر الثائر ، والعقل الجبار . بل أخذ يعمل ويبتكر ، حتى تمكن من وضع صورة فى بيته ، تمثل هيئة السماء ، يخيل للناظر فيها النجوم والغيوم والرعود والبروق ؛ فعجب منه بعض الناس ، وسخر به الآخرون . ويقول فيه مؤمن بن سعيد الشاعر الأندلسى :

سماء عباس الأديب أبى ا لقاسم ناهيك حسن رائقها

... ...

وهكذا قضى « ابن فرناس » حياته فى تجديد وابتكار ، فى سبيل خدمة الحضارة ، والرقى بالحياة الإسلامية فى عصره .

٦ — وكان مع هذا موسقيا بارعا ، يعد أول من فك كتاب بطليموس فى الموسيقى والألحان ، وأول من فك من الأندلسيين كتاب العروض للخليل ابن أحمد .

٧ — وهو مع هذا النبوغ شاعر أديب ؛ اتصل بالأمير الأموى حاكم الأندلس محمد بن عبد الرحمن ، الذى اعتلى عرش البلاد من ٢٣٨ ه الى ٢٧٣ ه ؛ فكان له عنده مقام نبيل ، ومدحه بقصائد أدبية كثيرة :

أنشد الأمير محمدا من أبيات :

رأيت أمير المؤمنين محمداً وفى وجهه بذر المحبة يثمر

فنقده مؤمن بن سعيد ، وعابه أن جعل وجه الأمير أرضا تغرس فيها البذور .

وخرج أهل طليطلة حوالى عام ٢٤٠ ه على الأمير محمد واستعانوا بالأفرنج ، فخرج إليهم بجيوشه وهزمهم وهدم قنطرة مدينتهم ؛ وفى ذلك يقول ابن فرناس :

أضحت طليطلةٌ معطلة من أهلها فى قبضة الصقر
تركتْ بلا أهلٍ تؤهلها مهجورة الأكناف كالقبر
ما كان يبقى الله قنطرة نصبتْ لحمل كتائب الكفر

وغنى ابن زرياب بعض الرؤساء ، وعباس بن فرناس حاضر معه ، هذين البيتين :

ولولم يشقْنى الظاعنون لشاقنى حمام تداعت فى الديار وقوع
تداعيْن فاستبكين من كان ذاهوى نوائح ما تجرى لهنّ دموع

فذ يلهما « عباسٌ » يمدح هذا الرئيس وكان اسمه محموداً :

شددت بمحمودٍ يدى حين خانها زمانٌ لأسباب الرجاء قطوع
بنى لمساعى الجود والمجد قبلة إليها جميع الأجودين ركوع

فأجزل له العطاء « وأسنى له المكافأة :

ويعدّ ابن فرناس من أوائل من اخترعوا فن الموشحات ، وله القليل منها ، مما بقى من أدبه محفوظا فى كتب الأدب الأندلسى ومصادره .

٨ — وبعد فهذه صورة مصغرة لهذا الرجل ، الذى لقب بحق حكيم الأندلس ، والذى شغل الفكر الأندلسى حيا وميتا ، وكان أول من فكر فى الطيران ، والذى مضى على وفاته أحد عشر قرنا من الزمان أو يزيد . وكمْ أودّ أن أعاود الكتابة عنه مرة أخرى ؟

المبادىء الاشتراكية فى الاسلام

لحضرة الأستاذ سعيد زايد

يتحدث الشرق اليوم عن الاشتراكية جهارا نهارا بعد أن كان يتحدث عنها بين أروقة جدران كثيفة، والفضل فى ذلك يرجع إلى الحرب الأخيرة وما صححته عن موقف الاشتراكية حيال نظام المجتمعات، وعن الغاية التى ترمى إليها.

والمذهب الاشتراكى كأى مذهب اقتصادى يضع أسسا جديدة يسير عليها المجتمع. وكأى مذهب علمى ازدهر فى ربوع الغرب، ثم انتقل إلى الشرق فوجد مؤيدين ومعارضين، أقول إن المذهب الاشتراكى وجد عند الشرقيين كما هى العادة عندهم من يعقد المقارنة بينه وبين النظم الاسلامية، ويبين موقف الإسلام منه، ومدى اتفاق الاشتراكية مع روح الدين وجوهره، بل إن منهم من قال إن النظام الاشتراكى موجود فى الشريعة وفى النظم الاسلامية بحذافيره، ومنهم من قال بعكس ذلك؛ وظلت هذه الأقوال تتأرجح تارة نحو اليمين وتارة نحو اليسار، إلى أن أدلى صاحب القول الفصل فى مسائل الإسلام برأيه فى هذا الموضوع [1] ولأول مرة رأيت مجلة الأزهر تنشر مقالا بعنوان «الإسلام والاشتراكية» فوددت أن أشارك برأيى فى هذا الموضوع بنشر بحث صغير على هامش رسالتى الجامعية، ولعلى أكون بنشره قد وضعت فى بناء العلم لبنة.

نبـذة تاريخية

ولدت الاشتراكية يوم أن ولدت الرأسمالية، دون أن تسمى باسمها، ولم يحس بها الناس إلا يوم أن اصطدمت حاجات الإنسان مع المصلحة الرأسمالية، ولقد كانت هذه الاصطدامات منذ العصور الأولى للتاريخ، فأراد البعض أن يحقق رغبة فى المساواة بين الأفراد. ويكفى أن نذكر آيتين من كتاب أعمال الرسل

---

(١) إشارة إلى حديث فضيلة الأستاذ الأكبر لسعادة وزير المجر المفوض فى مصر، وتعقيب سعادة الأستاذ الجليل مدير المجلة عليه فى المجلد التاسع عشر عنه ١٣٦٧ العدد السابع.

لبولس الرسول لنعرف أن العالم قد حقق معنى الاشتراكية قبل ميلاد المسيح بقرون . ففى الإصحاح الثانى يقول « وكانت عجائب وآيات تجرى على أيدى الرسل ، وجميع الذين آمنوا كانوا معا ، وكان عندهم كل شىء مشتركا ، والأملاك والمقتنيات كانوا يبيعونها ويقسمونها بين الجميع ، كما يكون لكل واحد احتياج » . وفى الإصحاح الرابع يقول « وكان لجمهور الذين آمنوا قلب واحد ونفس واحدة ، ولم يكن أحد يقول إن شيئا من أمواله له بل كان عندهم كل شىء مشتركا ، وبقوة عظيمة كان الرسل يؤدون الشهادة بقيام الرب يسوع ، ونعمة عظيمة كانت على جميعهم ، إذ لم يكن فيهم أحد محتاجا ، لأن كل الذين كانوا أصحاب حقول أو بيوت كانوا يبيعونها ويأتون بأثمان المبيعات ويضعونها عند أرجل الرسل ، فكان يوزع على كل واحد كما يكون له احتياج » .

ولقد حاول بعض الفلاسفة من قديم الزمان أن يضعوا نظما عامة للمجتمع ، يفترضون فيها العدالة المطلقة والمساواة فى الحقوق والواجبات ، ولكن هذه النظم كان فيها للخيال نصيب كبير . وإذا رحنا نحن نعرض صورا لبعض تفكيرهم فلا بد أن نرجع الى الدولة التى ازدهر فيها الفكر القديم ، وحاول أن ينفذ الى صميم المشكلات يلتمس لها حلولا ، ونعنى بها دولة اليونان القديمة ، فنجد أفلاطون فى كتابيه الجمهورية والقوانين يبغى دولة يلغى فيها نظام الملكية الفردية ، وتلغى فيها أنظمة الأسرة ، وبذلك تصبح الأموال والنساء والأطفال ملكا للجميع ، ليتحقق غرض أفلاطون الأكبر ، وهو أن تصبح المدينة أسرة واحدة وإن لم ينصح أستاذ المعلم الأول بإلغاء نظم الزواج إلا فى طبقة واحدة من طبقات المجتمع .

هذا هو أساس فكرة أفلاطون ، ومنها نرى أن الواقع المحسوس لم يكن له مجال عند الفيلسوف ، بل أراد أن يرسم بقلمه ما تمناه فى صميم قلبه ، والحال التى ينبغى أن يكون عليها المجتمع ؛ ولكن أفلاطون بعد أن صدمه الواقع المحسوس فى تجربته عاد فعدل عن فكرته وخفف من شيوعيته ، فقال بتقسيم الأموال الموجودة بالتساوى على الأفراد ليستغلوها على أن تستمر ملكيتها للدولة ، ويمكن أن يرث أولاد المستغل حق الاستغلال ؛ كما رجع عن قوله فى إلغاء نظم العائلة واحتفظ بنظام الأسرة ، بشرط أن يتم الزواج تحت رعاية الدولة .

وفى القرون الوسطى نجد الفلسفة المسيحية تقول: إن الخطيئة الأولى لا تزال لها آثارها الفعالة فى حياة الناس؛ فالظلم والاستعباد قائم، وحب الشهوات والماديات يسود عوضا عن الفضائل، وربما كانت الملكية الفردية أساساً مساعدا بجوار الخطيئة الأولى لهذا البلاء القائم واقعيا، والذى ينجم عنه عدم المساواة. حقاً إن المسيحية لا تلغى الملكية الفردية، وإنما تريد ملكية فى مصلحة المجموع حتى يرفع البؤس والشقاء عن الناس، فهى تريد مجتمعا تضعف فيه الأنانية. ولقد بالغ بعض المنكرين ووصف ذلك بالاشتراكية، وهى على كل حال وإن لم تكن من قبيل الاشتراكية الحديثة إلا أنها تقرب من اشتراكية الإسلام المعتدلة، كما سنعرف ذلك بعد قليل.

وعلى أثر انهيار النظام الإقطاعى فى أوربا فى العصور الوسطى، ابتدأ التصادم بين الرأسمالية والطبقة العاملة، وكان ذلك فى أواسط القرن الخامس عشر، ولقد ظهرت فكرة إلغاء الملكية فى ذهن العالم الانجليزى توماس مور وسجلها فى كتابه « الأتوبيا Utopia » وكانت هذه الفكرة نتيجة للشعور بالفارق العظيم بين طبقة الملاك وهم اللوردات ورجال الدين، وبين الفلاحين، ولكن أتوبيا مور كانت كمدينة أفلاطون حلما يصعب تحقيقه، ولقد ظل هذا الحلم يتردد فى ذهن الجماعات، فأخذ العمال ينفصلون شيئا فشيئا عن السادة ويزالون أعمالا يدوية، ثم أخذوا يتجمعون فى جماعات، كل أبناء حرفة معا. ثم أخذ حلم توماس مور يتحقق شيئا فشيئا على مدى أربعة قرون حتى كان القرن التاسع عشر، فوقفت الأحلام على قدميها نظاما شيوعيا ونظاما اشتراكيا.

والواقع أن الفكرة الشيوعية والفكرة الاشتراكية كما نسمع عنهما اليوم نبتت فى الأتوبيا التى قال بها توماس مور، وبدأت تنضج على القرون، الى أن كان نضوجها الكامل نظريا وعمليا على يد لينين الذى يعتبر الصدى الحقيقى لمور.

وبعد الثورة الفرنسية وتطور الصناعة دخل الناس فى عهد جديد، وظهرت فى فرنسا نظريات ترمى إلى تنظيم العلاقات فى الجماعة، فما دامت الثورة قد كفلت لهم المساواة فلا بد من تحقيقها فعليا. ولقد حاول سان سيمون أن ينظم الإنتاج الصناعى، لأن الصناعة فى ذلك الوقت كانت كل شىء، وقال بقيام حكومة صناعية

مكان الحكومة السياسية ، لتحقق مبدأ العدالة الذى يقول : لكل تبعاً لكفاءته ، ولكل كفاءة أو مقدرة تبعاً لأعمالها .

وفى الوقت الذى قامت فيه دعوة سان سيمون فى فرنسا ، قامت فى انجلترا ما يسمى اشتراكية الجمعيات ، وحمل لواءها « روبرت أوين » فى انجلترا « وشارل فوربيه » فى فرنسا ، ولقد كان لروبرت اوين مصانع ، فأنشأ فيها مساكن وحدائق للعمال ، وأسس لهم صناديق ادخار ، وخفض ساعات العمل ، ولم يحاول فوربيه إلغاء الملكية الفردية ، وإنما حاول توحيد الإنتاج ليصبح للمالك وصاحب رأس المال والعامل نصيب متناسب فى المنتجات مع نصيبهم فى الانتاج .

ويطول بنا المقام اذا نحن حاولنا أن نقف عند كل صاحب دعوة اشتراكية نلخص أساس مذهبه ، ويكفى أن نختتم تلك النبذة التاريخية برسول الاشتراكية فى العصر الحديث ، ألا وهو « كارل ماركس » ، وهو الذى تبدأ الاشتراكية من يوم دعوته عهداً جديداً ، إذ تنتقل من الخيالية الى العملية ، والواقع أن مقام كارل ماركس فى عالم الاقتصاد والاجتماع كمقام أرسطو فى عالم المنطق ، فليس من شك أنه كانت هناك أفكار تداولها الناس من قديم الزمن ، وهى أفكار تمت بطبيعتها الى الأنظمة الاشتراكية كما وجدناها عند أفلاطون وغيره من الفلاسفة ، ولكن العلماء لا يعتبرون مثل هذه الأفكار مكونة لنظام كامل يصح أن يسمى مذهباً اشتراكيا ، الى أن جاء عالم جمع شذور هذه الأفكار المتفرقة ، وحاول أن يوفق بينها وأن يلائم بين أجزائها ، وأضفى عليها بعض التجارب التى حدثت خلال التاريخ ؛ وجمع كل ذلك تحت ضوء الفكر العلمى المنظم بحيث بدت هذه الأفكار مكونة لجسم مذهب علمى ، وهذا العالم هو : كارل ماركس .

ولقد قام مذهب ماركس نتيجة لفشل المذهب الحر فى التجارة الذى نادى به آدم سميث فى انجلترا وفولتير وروسو وجماعة الفيزوكراث فى فرنسا ، والذى كان شعاره « دعه يعمل دعه يمر » وكان من أثره ظهور فئة الأغنياء الرأسماليين الذى ساعد على توسيع الشقة بينهم وبين الفقراء ظهور الثورة الصناعية واختراع الآلات ، ولقد أسس ماركس مذهبه الاقتصادى على أساس المادية التاريخية . ويتلخص فى أن المصالح المادية هى التى تحرك الأفراد ، فجميع التطورات والتقلبات التى تصيب المجتمع ترجع الى كفاح الطبقات لتحسين حالها ، فلقد

قامت المنازعات فى القديم بين الأرقاء والسادة الى أن تحرر الأرقاء وأصبح لهم حق الحياة، وحديثا نرى الثورات تقوم لتوفر للطبقة الدنيا حياة رغدة، وسيستمر هذا النزاع حتى يأتى اليوم الذى يتلاءم فيه نظام الملكية مع نظام الانتاج، وبذلك تصير الملكية اشتراكية.

الاشتراكية الحديثة :

إذا كان معنى الشيء يتبين فى خلال العرض التاريخى له، فإنا نرى أن الاشتراكية بمعناها العام هى فكرة ومذهب لتنظيم الدولة والمجتمع، وهى تبغى تحقيق المساواة بمعناها الحقيقى، ولكن كيف يمكنها تحقيق ذلك ؟ إن التاريخ قد سجل الحوادث الدامية فى سبيل الحصول على المال والعقار والاحتفاظ به، وإن المتأمل لصفحاته ليروعه ذلك الظلم الذى أوقعه الأغنياء بالفقراء وبالتحكم فيهم، فما العمل ؟ إن الذى يميز الناس بعضهم عن بعض هى الملكية الفردية. إذن ففى إلغائها تحقيق للمساواة، وهذه الرأسمالية التى هى فى صميمها إيثار وتحكم من الأقلية فى الأغلبية، والتى قال عنها لينين إنها أعلى مراتب الاستعمار، فى إلغائها العدل كل العدل. هذا هو المبدأ العام للاشتراكية تتفق فيه كل علمائها.... وإذا كانت المذاهب الاشتراكية تختلف فيما بينها، فإنها تتفق أيضا فى الغايات التى ترمى إليها، فكلها تتفق على أن النظام الاقتصادى الحالى نظام غير عادل، ولا بد من مساواة اقتصادية بين جميع الأفراد بلا تمييز فى القومية أو الجنس أو السن، ونظام الملكية الخاصة فى نظرهم أساس للاستعباد السياسى والأخلاقى والفكرى، فلا بد من إلغائه وجعل ثروات الانتاج موحدة جميعها فى أيدى الدولة تديرها لمصلحة الجميع، والأفراد يؤدون أعمالا للدولة نظير أجور تعطى لهم بالتساوى، على أساس قيمة العمل الذى ينتجه كل منهم، والمسنون والضعفاء والمرضى الذين لا يستطيعون أن يؤدوا عملا على المجتمع أن يعولهم ويوفر لهم أسباب الراحة. كذلك يجب أن يكون التعليم مجانا للجميع، والمهم أن هذه الغايات يجب أن تقوم دولة اشتراكية لتنفيذها، وهى المالكة الوحيدة لجميع الثروات ووسائل الانتاج، وهى التى تتولى استثمارها، فتدير المصانع والمناجم ووسائل المواصلات والنقل، وتشرف على تربية الفرد ومده بسائر حاجاته.

عظـــــات

من التـاريخ

لفضيلة الأستاذ الشيخ عبد العزيز السيد موسى
واعظ القاهرة

نشرت فى مجلة الأزهر كلمات من التاريخ عن حياة القائدين أبى عبيدة بن الجراح وخالد بن الوليد ، واستتبع الحديث عنهما طرفا من الحديث عن الخليفتين العظيمين أبى بـكر وعمر ، وسجل التاريخ بين هؤلاء الأربعة وثائق تاريخية فى الفتوحات الشامية ، فنرى أن نأتى بها لما فيها من العظات البالغة والتعاليم الحازمة .

رسالة من أبى بكر إلى أبى عبيدة :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من عبد الله بن عتيق بن أبى قحافة إلى أبى عبيدة ابن الجراح . سلام الله عليك . أما بعد ، فقد وليت خالدا قتال العدو فى الشام ، فلا تخالفه ، واسمع له وأطع ، فإنى وليته عليك وأنا أعلم أنك خير منه ، ولـكن ظننت أن له فطنة فى الحرب ليست لك . أراد الله بنا وبك سبيل الرشاد » .

وكـتب خالد من الحيرة إلى أبى عبيدة :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من خالد بن الوليد إلى أبى عبيدة بن الجراح . سلام الله عليك . أما بعد ، فقد أتانى كتاب رسول الله يأمرنى بالسير إلى الشام والقيام على جندها والتولى لأمرها ، والله ما طلبت ذلك قط ولا أردته إذ وليته ، فأنت على حالك الذى كنت عليه ، لا نعصيك ولا نخالفك ، ولا نقطع دونك أمرا ، فأنت سيد المسلمين ، لا ننكر فضلك ، ولا نستغنى عن رأيك » .

مات أبو بـكر قبـل واقعة اليرموك بعشرين ليلة ، وبويع بالخلافة من بعـده عمر بن الخطاب ؛ وبينما واقعة اليرموك قائمة على قدم وساق وصل إلى أبى عبيدة كتاب قال فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من عبد الله عمر بن الخطاب إلى أبى عبيدة بن الجراح . أوصيك بتقوى الله الذى يبقى ولا يبقى سواه ، الذى هدانا من الضلالة وأخرجنا من الظلمات إلى النور ، وقد استعملتك على جند خالد بن الوليد ، فقم بأمرهم بحق الذى عليك ، لا تقدم المسلمين إلى هلكة رجاء غنيمة ، وتنزلهم منزلا قبل أن تستريده لهم ، وتعلم كيف مأتاه . وإياك وإلقاء المسلمين فى الهلكة . وقد ابتلاك الله بى وابتلانى بك ، فغض بصرك عن الدنيا وأله قلبك عنها . إياك أن تهلكك كما أهلكت من كان قبلك ، فقد رأيت مصارعهم » . فلم يبلغ أبو عبيدة إلى خالد خطاب العزل والمعركة قائمة ، بل ترك الأمر على حاله حتى انتهت المعركة بقيادة خالد .

هذه وثائق تاريخية أعرضها للعظة والعبرة بما فيها من خلق عظيم ونبل كريم . فإن الخليفة الأول يكتب إلى قائد الشام وفاتحها يطلب منه التنحى عن القيادة إلى خالد فاتح العراق مع الإشادة بفضله حيث يقول له : وأنا أعلم أنك خير منه . فتقبل ذلك بصدر واسع ونفس هادئة وقلب مطمئن ، ورضى أن يكون مقودا بعد أن كان قائدا مع أسبقيته فى الإيمان وأقدميته فى الجهاد فى سبيل الله .

وهذا خالد بن الوليد يكتب إلى أبى عبيدة بأنه تولى القيادة مكانه ، وهو كتاب يقدر فيه أبا عبيدة كل التقدير ، ويجله كل الإجلال ، حيث يقول له : لا نعصيك ولا نخالفك ولا نقطع دونك أمرا فأنت سيد المسلمين لا ننكر فضلك ولا نستغنى عن رأيك . ولم يعلق بنفسه زهو القيادة ولا كبرياء الرياسة ، بل قدم على أبى عبيدة ولا شىء فى نفسه غير الإخلاص والود . وتلقاه أبو عبيدة ولا شىء فى نفسه غير الإخلاص والود ، وكل واحد تولى أمره وهو عنه راض بما هيىء له .

هذه نفسية القائدين العظيمين . والخليفة الأول لم يول خالداً القيادة لشىء فى نفسه ، إنما كان ذلك لما يرى فيه من الدربة العسكرية والخبرة الحربية ويقصد من وراء ذلك الصالح العام . ثم دار الفلك دورته وجاءت الخلافة إلى الخليفة الثانى ، ولم يكد يضع يده على أمورها حتى أرسل رسولا الى أبى عبيدة يخبره بعزل خالد وإسناد القيادة اليه . وصل ذلك الرسول وتسلم منه أبو عبيدة ذلك الكتاب ، وواقعة اليرموك قد حمى فيها وطيس القتال ، ورأى أبو عبيدة

بحكمته السامية ونظره البعيد أن يرجىء تسليم ذلك الكتاب الى خالد حتى تنتهى هذه المعركة ، لأن هدفه المصلحة العامة ، والمصلحة الخاصة أمام الجميع لا تساوى مثقال ذرة . فهذا خالد أخذ القيادة من أبى عبيدة ، وهذا أبو عبيدة أخذها من خالد ، والصداقة هى الصداقة ، والود هو الود ، وهما الصديقان الوفيان على أى ناحية من النواحى . واسمع حديث الوفاء والود الذى جرى بينهما عند ما وقف خالد على جلية الأمر بعد عشرين يوما من وصول ذلك الكتاب : دخل خالد على أبى عبيدة فقال : يغفر الله لك جاءك كتاب أمير المؤمنين فلم تعلمنى وأنت تصلى خلفى والسلطان سلطانك . فقال أبو عبيدة : يغفر الله لك ما سلطان الدنيا أريد وما للدنيا أعمل ، وإن ما ترى سيصير الى زوال وانقطاع ، وإنما نحن أخوان ، وما يضير الرجل أن يلى عليه أخوه فى دينه ولا دنياه ، بل يعلم الوالى أنه يكون أدناهما إلى الفتنة وأوقعهما فى الخطيئة لما يعرض له من الهلكة إلا من عصم الله عز وجل وقليل ما هم . وإن الخليفة الثانى لم يعزل خالدا لريبة إنما عزله كما قال فى كتابه إلى الأمصار : إنى لم أعزل خالدا عن سخطة أو خيانة ، ولكن الناس فتنوا به فخفت أن يوكلوا اليه ويبتلوا به ، فأحببت أن يعلموا أن الله هو الصانع وألا يكونوا بعرض فتنة . ذلك هو السبب . وإن سيدنا عمر قدره بعد ذلك كل التقدير ، فانه لما فتح خالد قنسرين تحت قيادة أبى عبيدة وانتهى الخبر الى عمر قال : أمّر خالد نفسه ؛ رحم الله أبا بكر هو كان أعلم بالرجال منى .

كل هذا يريك رأى العين كيف محق الإسلام أخلاق الجاهلية ، وأحل محلها أخلاقا تمثل الإخاء والتحاب وعدم التحاسد . فان مثل هذا التبديل فى القيادة كان فى عهد الجاهلية يثير حربا ضروسا بين القائدين . فهذا التبدل فى الأخلاق من المعجزات التى تبقى على الدهر أدلة قاطعة على أن الإسلام دين إلهى كان له أكبر الأثر فى ترقية الإنسانية .

تلك صفحة مجيدة من مجد الاسلام ، تصور لك النفوس الطيبة والقلوب المخلصة لله وفى سبيل الله ، ولعلها تكون عظة وعبرة لقادتنا وعظمائنا يتخذون منها نهجا قويما وطريقا مستقيما يسلكونها فى حياتهم لنهضة بلادهم وإحياء شعوبهم . وبذلك تسعد الأمم وترقى إلى القمم .

الوضع في الحديث

أو الكذب على رسول الله

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد رشاد عبد الظاهر خليفة
من العلماء المتخرجين فى تخصص التدريس

لا نرى أكبر جرما بعد الكذب على الله عز وجل ممن يتطاول على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالكذب والاختلاق عليه .

وكفاه أن أعد الله له عذابا أليما فى نار جهنم ؛ كما أخبرنا الصادق الأمين بقوله « من كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار » .

ولقد أساء الى السنة النبوية فى عصورها الأولى أقوام أفاكون كمحمد ابن سعيد المصلوب بالشام وابراهيم بن أبى يحيى الأسلمى بالمدينة ، والواقدى ببغداد ، ومقاتل بن سليمان بخراسان والكلبى بالكوفة ، ومحمد بن زياد اليشكرى ، وعبد الله بن سبأ اليهودى وأضرابه ممن تستروا بالإسلام وأخفوا وراء التشيع أغراضهم الدنيئة .

قال حماد بن زيد : وضعت الزنادقة أربعة آلاف حديث ليفسدوا على الناس دينهم .

أو للتعصب والانتصار للمذاهب كما فعل الشيعة والخوارج ،والكرّامية [1] ، والخطّابية ، والسّالمية .

---

(١) الكرامية : بتشديد الراء مع فتح الكاف : قوم ينسبون لمحمد بن عبد الله بن كرام .
والخطابية : بفتح الخاء وتشديد الطاء : فرقة تنسب لأبى الخطاب الأسدى ، كان يقول بأن الله حل فى أناس من أهل البيت على التعاقب . ثم ادعى الألوهية . ثم قتل . وجاء أتباعه من بعده . وقالوا أبو الخطاب نبى وفرضوا طاعته بل زادوا على ذلك فقالوا الأئمة أنبياء ، والحسن والحسين ابنا الله . وجعفر الصادق إله ، ولكن أبو الخطاب أفضل منه .

والسالمية : فرقة تنسب للحسن بن محمد بن احمد بن سالم السالمى .

روى عن ابن لهيعة أنه قال : سمعت شيخا من الخوارج تاب فجعل يقول « إن هذه الأحاديث دين فانظروا عمن تأخذون دينكم فإنا كنا إذا هوينا أمراً صيرناه حديثا » .

وهذا جابر بن يزيد الجعفى الشيعى يزعم أن عنده خمسين ألف حديث ، أو سبعين ألف حديث يرويها عن محمد الباقر بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب .

أو للجهل الغالب ابتغاء العبادة والزهادة والتقرب من المولى عز وجل والطمع فى الثواب والترغيب والترهيب .

ومن هذا القبيل أحاديث القُصاص . فقديما أكثر القصاص من الأحاديث التى ليس لها أصل ، وكان ثقات المحدثين يتعرضون لتكذيبها فيتعرضون لسخط العامة والإيقاع بهم .

يذكر أن الشعبى فى أيام عبد الملك بن مروان نزل (تدمر) فسمع شيخا عظيم اللحية يقول : إن الله خلق صورين فى كل صور نفختان : نفخة الصعق ، ونفخة القيامة . قال الشعبى : فرددت عليه وقلت : إن الله لم يخلق إلا صورا واحداً ، وإنما هى نفختان .

فقال لى يا فاجر : إنما يحدثنى فلان عن فلان وترد على ؟ ثم رفع نعله وضربنى بها ، وتتابع القوم على ضربا فما أقلعوا حتى قلت لهم : إن الله خلق ثلاثين صورا .

وروى الخطيب البغدادى عن محمد بن يونس قال : كنت بالأهواز فسمعت شيخا يقص : لما زوج النبى صلى الله عليه وسلم عليا فاطمة أمر شجرة طوبى أن تنثر اللؤلؤ الرطب يتهاداه أهل الجنة بينهم فى أطباق . . . ! فقلت له ياشيخ هذا كذب على رسول الله . فقال لى : ويحك اسكت ، حدثنيه الناس . قلت من حدثك ؟ فروى لنا إسنادا عن ابن عباس .

وروى عن الليث بن سعد أنه قال : قدم علينا شيخ بالأسكندرية يروى لنافع ونافع يومئذ حى ، فكتبنا عنه صحيفتين عن نافع ، فلما خرج الشيخ أرسلنا بالصحيفتين إلى نافع ، فما عرف منهما حديثا واحد .

ولعمرى إن هؤلاء هم أضر شيء على الدين الإسلامى من سواهم ، وأعظم خطرا عليه ، إذ يحملون العامة والبسطاء على اتباعهم والاقتداء بهم والتمسك بأقوالهم التى ما أنزل الله بها من سلطان .

قال ابن الجوزى فى كتابه الموضوعات « معظم البلاء فى وضع الحـديث من القصاص ، لأنهم يريدون أحاديث ترقق وتنفق ، والصحاح تقل فى هـذا ، ولأن القصاص لا يتحرون الصـواب ، ولا يحترزون من الخطأ لقلة علمهم وتقواهم » اه .

وجزى الله علماء الحديث أحسن الجزاء تلقاء ماقاموا به من الجرح والتعديل ونقد الحـديث ورواته وبيان الصحيح منه والموضوع ، والحسن منه والضعيف ، حتى ألفوا فى هـذا الغرض الموسوعات الضخمة ، والأسفار التى تنوء بالعصبة أولى القوة .

وإنى أذكر لك أيها القارئ الكريم طائفة منها لتكون لك مرجعا ودليلا تهتدى إليه :

فمن ذلك الجرح والتعليل لابن أبى حاتم ، وكتب الذهبى ، وهى فريدة فى بابها ، وكتاب الكامل لابن عدى فى الضعفاء ، وكتب الميزان للحافظ العسقلانى ، وكتاب العلل للإمام احمد بن الخلال ، والعلل المتناهية لابن الجوزى ، واللآلىء المصنوعة فى الأحاديث الموضوعة لجلال الدين السيوطى . وغيرها مما لا يمكن استقصاؤه ولا الإحاطة به .

وبعد : فإن للحديث الموضوع علامات وقرائن يعرف بها ، كأن تظهر عليه مسحة الاختلاق ، وتشم منـه رائحة الكذب ؛ وذلك بأن تأباه العقول السليمة وتنفر منه القلوب الصحيحة . قال ابن الجوزى : إن الحديث المنكر يقشعر له جلد الطالب للعلم ، وينكسر منه قلبه فى الغالب » .

وقال الربيع بن خيثم : إن للحديث ضوءا كضوء النهار نعرفه ، وظلمة كظلمة الليل ننكره » وطبعى أنه لايعرف هـذا إلا من له ملكة قوية فى فن الحـديث ، واطلاع واسع .

وإنى أسوق إليك جملة من الأحاديث الباطلة التى لاكتها ألسنة العوام ، ورددتها أفواههم فى الصباح والمساء . فمن ذلك :

أكرموا عمتكم النخلة ـ لو اعتقد أحدكم فى حجر لنفعه ـ ضاع العلم بين أفخاذ النساء ـ قدس القدس على لسان سبعين نبيا آخرهم عيسى بن مريم ـ لايدخل ولد زنا ، ولا شىء من نسله الى سبعة آباء الجنة . وهذا معارض بقوله تعالى : « ولا تزر وازرة وزر أخرى » ومن ذلك أيضا : الأرض على صخرة ، والصخرة على قرن ثور ـ عذاب أمتى فى دنياها أو فى قبورها ـ عليكم بدين العجائز .

هذه أمثلة صغيرة للأحاديث الموضوعة التى لم يقلها الرسول عليه الصلاة والسلام .

ومن القرائن ما يؤخذ من حال الراوى كما وقع لغياث بن ابراهيم النخعى حيث دخل على المهدى (والد هارون الرشيد) فوجده يلعب بالحمام فساق فى الحال إسنادا الى النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « لا سبق إلا فى نصل أو خف أو حافر أو جناح » فزاد فى الحديث أو جناح ، فعرف المهدى أنه كذب لأجله ، فأمر بذبح الحمام . ثم قال لغياث هذا : أشهد أن قفاك لقفا كذاب .

ومنها أن يكون لفظ الحديث ركيكا أو مصادما للقرآن الكريم أو السنة المتواترة أو الإجماع القطعى أو صريح العقل ، كالحديث الذى وضعه أحد الملاحدة وتفوه فيه بكلام لا يصدر عن عاقل فضلا عن نبى مرسل ، فقال مسندا للرسول عليه السلام « رأيت ربى بمنى يوم النفر على جمل أورق عليه جبة صوف أمام الناس » .

سبحانك هذا بهتان عظيم ، وكذب محض يصادم قول الله تعالى « ليس كمثله شىء » .

ويعرف الوضع فى الحديث أيضا بأن يكون فيه وعيد شديد على ذنب صغير ، مثل : من ترك العِشاء قال له ربه لست ربك فاطلب ربا سواى .

أو فيه وعد عظيم على فعل شىء حقير ، مثل : من أطعم لقمة بنى الله له فى الجنة ألف مدينة فى كل مدينة ألف بيت فى كل بيت ألف حورية وصيفة . ونحو : لقمة فى بطن جائع أفضل من بناء ألف جامع .

فواجب الحكومة ومشيخة الأزهر مصادرة تلك الكتب حتى لا تفسد عقيدة العوام وتتشبع بما فيها من أباطيل وأكاذيب .

وواجب على إخواننا المسلمين أن يطلعوا على كتب السنة الصحيحة كالبخارى ومسلم وسنن أبى داود والنسائى وابن ماجه والترمذى فإنها أحسن مرجع لهم بعد كتاب الله العزيز ، وفيها ما يغنيهم ويجدون فيها ضالتهم المنشودة وطب قلوبهم ، وإصلاح نفوسهم .

ولا تخلو بعض كتب التفسير كالخازن والبيضاوى والكشاف من الأحاديث الواهية والموضوعة كحديث [1] الغرانيق ، وأحاديث فضائل السور التى رويت عن أبى عصمة نوح بن مريم المروزى قاضى مَرو ، فقيل له من أين لك عن عكرمة عن ابن عباس فى فضائل القرآن سورة سورة ، وليس عند أصحاب عكرمة هذا ؟ فقال : إنى رأيت الناس قد أعرضوا عن القرآن واشتغلوا بفقه أبى حنيفة ومغازى محمد بن إسحاق فوضعت هذا حسبة (أى احتسابا لوجه الله تعالى) .

اعلم أن السور التى صحت الأحاديث فى فضلها « الفاتحة والزّهْروان (البقرة وآل عمران) والأنعام والسبع الطوال مجملا (البقرة إلى آخر براءة بعَدِّ الأنفال وبراءة سورة واحدة) الكهف ويس والدخان والملك والزلزلة والكافرون ، والنصر ، والإخلاص ، والمعوذتان » . وما عداها لم يصح فيه شىء .

رب قائل يقول « هل تحل رواية الحديث الموضوع للعالم بحاله ؟ فالجواب : لا يصح مطلقا سواء أكان فى فضائل الأعمال أم فى القرآن أم فى الترغيب والترهيب أم فى المواعظ والقصص أم فى صفات الله تعالى إلا إذا كان مقرونا ببيان الوضع ، لقوله صلى الله عليه وسلم : « من حدث عنى بحديث يرى أنه كذب فهو أحد الكاذبين » رواه مسلم فى صحيحه .

---

(١) الغرانيق جمع غُرْنُوق اسم لطائر من طيور الليل يشبه الكركى ، استعير لفظ الغرانيق للأصنام وحديث الغرانيق هو أنه يقال إن النبى عليه السلام قرأ فى سورة النجم بمجلس من قريش بعد أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى بإلقاء الشيطان على لسانه من غير علمه صلى الله عليه وسلم به : تلك الغرانيق العلا وإن شفاعتهن لترتجى . ففرحوا بذلك .

السنة النبوية الشريفة

ومنزلتها من الدين وضرورة العمل بها

والإنكار على من ردها

لحضرة الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي

الفصل الثامن

سنة رسول الله هي الحكمة في قول الله

قال الإمام الشافعي في رسالته ص ٧٦ :

قال الشافعي : ففرض الله على الناس اتباع وَحْيه وسنن رسوله ، فقال في كتابه « ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم » ٢ / البقرة / ١٢٩ .

وقال جل ثناؤه « كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون » ٢ / البقرة / ١٥١ .

وقال « لقد منّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا منهم يتلو عليكم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين » ٣ / آل عمران / ١٦٤ .

وقال جل ثناؤه « هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين » ٦٢ / الجمعة / ٢ .

وقال « واذكروا نعمة الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به » / ٢ / البقرة ٢٣١ .

وقال « وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما » ٤ / النساء / ١١٣ .

وقال « واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة إن الله كان لطيفاً خبيراً » ٣٣ / الأحزاب / ٣٤ .

فذكر الله الكتاب ، وهو القرآن ، وذكر الحكمة ، فسمعت من أرضى من أهل العلم بالقرآن يقول : الحكمة سنة رسول الله .

وهذا يشبه ما قال . والله أعلم .

لأن القرآن ذُكِر وأُتبعته الحكمة ، وذكر الله مَنّه على خلقه بتعليمهم الكتاب والحكمة ، فلم يجز - والله أعلم - أن يقال : الحكمة ههنا إلا سنة رسول الله .

وذلك أنها مقرونة مع كتاب الله ، وأن الله افترض طاعة رسوله ، وحتّم على الناس اتباع أمره ، فلا يجوز أن يقال لقولٍ فرض إلا لكتاب الله ثم سنة رسوله ؛ لِما وصفْنا من أن الله جعل الإيمان برسوله مقرونا بالإيمان به .

وسنة رسول الله مبيِّنةٌ عن الله معنى ما أراد دليلا على خاصّه وعامه . ثم قرن الحكمة بها بكتابه فأتبعها إياه ، ولم يجعل هذا لأحد من خلقه غير رسوله اهـ .

الفصل التاسع

الحجة فى تثبيت خبر الواحد

قال الإمام الشافعى فى رسالته ص ٤٠١ :

قال الشافعى : فإن قال قائل : اذكر الحجة فى تثبيت خبر الواحد بنص خبر أو دلالة فيه أو إجماع ، فقلت له : أخبَرنا سفيان عن عَبْدِ الملك بن عمير عن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود عن أبيه أن النبى قال :

« نضّر الله عبداً سمع مقالتى فحفظها ووعاها وأدّاها ، فربَّ حامل فقه غير فقيه ، وَربَّ حامل فقه إلى من هو أفقه منه . ثلاث لا يُغِل عليهن قلب مسلمٍ : إخلاص العمل لله ، والنصيحة للمسلمين ، ولزوم جماعتهم ، فانّ دعوتهم تحيط مِنْ ورائهم » .

فلما ندب رسول الله إلى استماع مقالته وحفظها وأدائها امرءًا يؤدّيها ، والامرؤ واحد ، دلَّ على أنه لا يأمر أن يؤدَّى عنه إلا من تقوم به الحجة على من أدَّى إليه ، لأنه إنما يؤدّى عنه حلال ، وحرام يجتنب ، وَحَدٌّ يقام ، ومال يؤخذ ويُعطى ، ونصيحة فى دين ودنيا . اهـ .

وقال فى ص ٤٠٦ :

أخبرنا مالك عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر قال : بينما الناس بُقباء

فى صلاة الصبح إذ أتاهم آت فقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أنزل عليه قرآن ، وقد أمر أن يستقبل القبلة (الكعبة) فاستقبلوها ، وكانت وجوههم إلى الشام فاستداروا إلى الكعبة .

وأهل قُباءَ أهل سابقة من الأنصار وفقهٍ ، وقد كانوا على قبلةٍ فَرَضَ الله عليهم استقبالها .

ولم يكن لهم أن يدَعوا فرْضَ الله فى القبلة إلا بما تقوم عليهم الحجة ، ولم يلقوا رسول الله ، ولم يسمعوا ما أنزل الله عليه فى تحويل القبلة ، فيكونون مستقبلين بكتابِ الله وسنة نبيه سماعا من رسول الله ، ولا بخبر عامّةٍ ؛ وانتقلوا بخبر واحدٍ — إذا كان عندهم من أهل الصدق — عن فرضٍ كان عليهم ، فتركوه إلى ما أخبرهم عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه أحدث عليهم من تحويل القبلة .

ولم يكونوا ليفعلوه ـ إن شاء الله ـ بخبرٍ إلا عن علمٍ بأن الحجة تثبت بمثله ، إذا كان من أهل الصدق .

ولا ليُحدثوا أيضاً مثل هذا العظيم فى دينهم إلا عن علم بأن لهم إحداثه .

ولا يدَعون أن يخبروا رسول الله بما صنعوا منه .

ولو كان ما قبلوا من خبر الواحد عن رسول الله فى تحويل القبلة ، وهو فرض ، مما يجوز لهم — لقال لهم — إن شاء الله — رسول الله : قد كنتم على قبلة ، ولم يكن لكم تركها إلا بعد علم تقوم عليكم به حجة ، من سماعكم منى ، أو خبر عامّةٍ ، أو أكثر من خبر واحد عنى . اهـ .

وقال أيضا فى ص ٤٥٧ :

ولو جاز لأحد من الناس أن يقول فى علم الخاصة : أجمع المسلمون قديما وحديثا على تثبيت خبر الواحد والانتهاء إليه ، بأنه لم يُعلَم من فقهاء المسلمين أحد إلا وقد ثبَّتَه — جاز لى .

ولكنى أقول : لم أحفظ عن فقهاء المسلمين أنهم اختلفوا فى تثبيت خبر الواحد بما وصفتُ من أن ذلك موجود على كلهم . اهـ .

وقال الحافظ ابن حجر العسقلانى فى فتح البارى الجزء الثالث عشر ص ٢٠٢ :

وقد نقل بعض العلماء لقبول خبر الواحد أن كل صاحب وتابع سئل عن نازلة فى الدين فأخبر السائل بما عنده فيها من الحكم أنه لم يشترط عليه أحد

منهم أن لا يعمل بما أخبره به من ذلك حتى يسأل غيره فضلا عن أن يسأل الكواف ، بل كان كل منهم يخبره بما عنده فيعمل بمقتضاه ، ولا ينكر عليه ذلك ؛ فدل على اتفاقهم على وجوب العمل بخبر الواحد . اهـ .

وقال الإمام البخارى فى صحيحه الجزء التاسع ص ٨٦ :

باب ما جاء فى إجازة خبر الواحد الصدوق فى الأذان والصلاة والصوم والفرائض والأحكام ، وقول الله تعالى « فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون » ٩ /التوبة/١٢٢ .

ويسمى الرجل طائفة لقوله تعالى « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا » ٤٩ / الحجرات / ٩ .

فلو اقتتل رجلان دخل فى معنى الآية .

وقوله تعالى « إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا » ٤٩ الحجرات / ٦ .

وكيف بعث النبى صلى الله عليه وسلم أمراءه واحدا بعد واحد ، فان سها أحد منهم رد إلى السنة اهـ .

وقال أيضا ص ٨٨ :

حدثنى يحى بن قزعة ، حدثنى مالك عن اسحق بن عبد الله بن أبى طلحة عن أنس ابن مالك رضى الله عنه قال : كنت أسقى أبا طلحة الأنصارى وأبا عبيدة بن الجراح وأبى بن كعب شرابا من فضيخ ، وهو تمر ، فجاءهم آت فقال : إن الخمر قد حرمت .

فقال أبو طلحة : يا أنس قم إلى هذه الجرار فاكسرها .

قال أنس : فقمت إلى مهراس لنا فضربتها بأسفله حتى انكسرت . اهـ .

وقال الشارح الحافظ ابن حجر فى فتح البارى الجزء الثالث عشر ص ٢٠٢ :

(الحديث الثامن) حديث أنس : كنت أسقى أبا طلحة وأبا عبيدة بن الجراح الحديث ، وفيه : فجاءهم آت فقال : إن الخمر قد حرمت ، وقد تقدم شرحه مستوفى فى كتاب الأشربة ، وإن الآتى المذكور لم يسم ، وإن من جملة ما ورد فى بعض طرقه « فوالله ما سألوا عنها ولا راجعوها بعد خبر الرجل » وهو حجة قوية فى قبول خبر الواحد ، لأنهم أثبتوا به نسخ الشىء الذى كان مباحا حتى أقدموا من أجله على تحريمه ، والعمل بمقتضى ذلك . اهـ .

في عالم المؤلفات الجديدة

تهافت الفلاسفة للامام الغزالى

للإمام حجة الإسلام الغزالى كتب جمة ، منها كتاب (تهافت الفلاسفة) ضمنه ردودا على الفلاسفة الإسلاميين الذين عبوا من معين الفلسفة اليونانية ، ورموا الى التوفيق بينها وبين الاسلام ، وابتعدوا فى نظر حجة الاسلام عن القصد ؛ فرأى بعد أن شاركهم فى الاطلاع عليها ، ووقف على جهات ضعفها ، أن يبين تلك الجهات من الضعف فى كتاب أسماه تهافت الفلاسفة كان له تأثير كبير فى صد تيار الفلسفة اليونانية عن المسلمين . وقد طبع هذا الكتاب فى مصر وغيرها ، ولكن طبعة من تلك لم تبلغ شأو التى بين أيدينا الساعة فى جمال الخط وصفاقة الورق وإتقان الطباعة ، وملاحظة الترقيم . ولا غرو ، فإن متولى طبعه فضيلة الأستاذ النابه الشيخ سليمان دنيا أستاذ الفلسفة وعلم الكلام فى كلية أصول الدين . ومما حباه به الأستاذ من العناية التعليق على الكثير من عباراته مما جعل المطالع لايقف حيال معضلة إلا وجد عنها كلاما يعين على حلها . وتجده فى بعض تلك التعليقات يتوسع ليوفى المقام حقه من البيان . وهذا مالا يوجد فى النسخ المطبوعة التى تقدمته ، بله أخطاء كثيرة وقعت فيها .

ومما يزيد هذا الكتاب قيمة علمية أنه وضع له مقدمة ذكر تاريخ المؤلف وطريقته فى البحث عن الحقيقة ، وتحريه عن الطريق المأمون للايصال إليها ، وهو فصل أوجز فيه كل ما قاله حجة الاسلام فى هذا الباب ، على نحو لا يحتاج تاليه معه الى زيادة بيان ، ويكشف عن ناحية فى الإمام الغزالى لم يشاركه فيها إمام غيره من المؤلفين .

فنثنى على فضيلة الأستاذ ثناء يوفى بحقه من إبرازه هذا الكتاب الجليل فى هذا الشكل البديع ، ويعينه على اتحاف قراء العربية بأمثاله .

الحقيقة فى نظر الغزالى

لفضيلة الأستاذ العلامة الشيخ سليمان دنيا أيضـا

الإمام الغـزالى من أكبر رجالات الاسـلام ، ومن أكثرهم سلطانا على العقول والقلوب ، ناهيك أنه دعى بحجة الاسلام ، ولم يدع بهـذا الوصف غيره من العلماء العاملين . وقد عرض لأمهات الامور الاعتقادية ، التى حامت حولها الأفهام ، واعتركت فى سبيلها الأقلام ، فأفاض فيها متبعا طريقة جمعت بين حرية النظر وسداد الاستدلال ، ألفاها المسلمون تجديدا أخاذا بالألباب ، وثابا الى بعيد الغايات ، فاعتدوا بكل ما كتب ، واعتبروا مذهبه موصلا الى لباب اللباب .

نعم إن الامام الغزالى لم تتنزه كتاباته عن النقد ، ولكن أنصاره تولوا هذا النقد بالدحض ، فخلص له مذهب فى فهم الحقائق يسد أقـوى مطامع العقول ، وأبعد مطامح الأرواح . فيكون التصدى لبيان الحقيقة فى نظر الغزالى عمـــلا لايتطاول اليه إلا رجل ذو فهم ثاقب ، وذوق عال ، وتقدير دقيق ، ونظر بعيد ، وقد دل ما بين أيدينا من كتاب (الحقيقة فى نظر الغزالى) أن مؤلفـه الألمعى الشيخ سليمان دنيا رجل هذا المجال . فقـد لخص مذهبه تلخيصا موفيا ، وشرحها شرحا كافيا ، وناقشها نقاشا مواتيا ، خلص منه الى بيـان صميم الحقيقة فى نظر الامام الغـزالى ، وما وصل اليها إلا بعد فهم وبسط لا يستطيعهما إلا الجـدير بالخوض فى هذه المواطن . وإننـا لنسر حين نرى فى عهدنا هذا من يحلل مذهب حجة الاسلام الغزالى هذا التحليل الدقيق ويصل منه الى ما وصل اليه من التحقيق . إنه لتوفيق عظيم ، وإنا بعمله لمن المعجبين .

كتاب الاشارات والتنبيهات

للرئيس ابن سينا

أهدانا فضيلة الأستاذ العـلامة الشيخ سليمان دنيا المتقدم ذكره مع كتابيه السابقين كتابا ثالثا هو ما جعلناه عنوانا لهذه السطور .

الشيخ الرئيس ابن سينا من أشهر فلاسفة المسلمين وأطبائهم ، وقـد طبقت

شهرته العالم كله ، وترجمت كتبه الى كثير من اللغات الأوربية ، ودرست فى جامعاتها ، ولا يزال بعضها يدرس فيها .

لهـــذا الأستاذ الجليل كتاب فى المنطق أسماه الاشارات والتنبيهات اشتهر فى الخافقين وطبع مرات ، ولكن طبعاته لا تخلو من الخطأ وخال من المنطق ، فرأى مؤلفنا الفاضل أن يخرج « هذا الكتاب إخراجا علميا ، يأخذ ـ على قدر الطاقة ـ بما للإخراج العصرى من يسر وسهولة ، ودقة وتمحيص » .

وقـد تم لفضيلة المؤلف ما أراده ، فظهر القسم الأول منه فى المنطق . وقـد صدره بمقدمة أتى فيها على آراء حجة الاسلام الغزالى والشيخ الرئيس ابن سينا ومهمته ومصدره .

ثم يجىء منطق ابن سينا بعد تلك المقدمة لا سردا كما تفعل دور الطباعة ولـكن مع تعقيبات هامة مطولة وموجزة تدفع حيرة التالى فى كثير من مواطنه ، يخرج منه مطالعه حاصلا على فقه منطق يستوعب جميع معضلاته .

فنشكر فضيلة المؤلف على هديته القيمة ، ونرجو له دوام التوفيق الى أمثال هذه الأعمال العلمية العظيمة ؟

كتاب الدين والحج

هـذا أجمع ما رأينا من الكتب المؤلفة فى موضوع خاص . فقـد استوعب فيه مؤلفه الفاضل الحاج عباس كراره كل ما يتصل بالحج من فرائض وسنن وأدعية وكل ما يتعلق به مما يجب أن يعرفه الحاج . وزاد فى تكميله فوضع صورا للأماكن المقدسة وعين بالكيلو مترات بعـدها عن المـدن الحجازية ، فلم يترك صغيرة ولا كبيرة مما يطرأ على فكر الحاج أو لا يطرأ إلا أتى عليها . ومن فوائده أنه بدأ بشرح أركان الإسلام الخمسة ثم تناول الحج بالكلام فوفاه حقه من كل ناحية . ولو كنا نريد أن نعد ما أتى به من الفوائد عـدا لاستوعب ذلك مكانا كبيراً من هذه المجلة . فنكتفى بهذا الإيجاز .

ومما لا يصح أن نغفله أن مؤلفه الفاضل عمـد إلى ضروب من المشوقات للاطلاع كالصور الفوتوغرافية ، والاكثار من صور الخطوط اليدوية خص بها بعض الأدعية والمواقف . فجاء كتابا فريدا فى بابه يشكر صاحبه على وضعه ويرجى له الجزاء الأوفى .

بسم الله الرحمن الرحيم

حديث القرآن عن يوم بدر :

الحديث الديني

الذى ألقاه صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير الشيخ محمد عبد اللطيف دراز

مدير الأزهر والمعاهد الدينية

فى قصر عابدين العامر ليلة ١٧ من رمضان سنة ١٣٦٧

بسم الله الرحمن الرحيم

« يسألونك عن الأنفال ، قل الأنفال لله والرسول ، فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم ، وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين . إنما المؤمنون الذين إذا ذُكر اللهُ وَجِلت قلوبهم ، وإذا تُليت عليهم آياته زادتهم إيمانا ، وعلى ربهم يتوكلون . الذين يقيمون الصلاة ، ومما رزقناهم ينفقون . أولئك همُ المؤمنون حقاً ، لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم . كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإنّ فريقاً من المؤمنين لكارهون . يجادلونك فى الحق بعد ما تبين كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون . وإذْ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم ، وتَوَدُّون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ، ويريد الله أن يحق الحقّ بكلماته ، ويقطع دابر الكافرين . ليحقّ الحق ويُبطل الباطل ولو كره المجرمون » .

هذه الآيات الكريمة هى صدر سورة الأنفال المدنية ، وتسمى سورة بدر . والأنفال : الغنائم ، وكان قد وقع شىء من الخلاف على قسمتها يوم بدر ، فقررت الآية الأولى أن أمر الغنائم موكول إلى الله ورسوله ، يقضى الله فيها بحكمه ، وينفذ الرسول قضاء ربه . وقد بين هذا الحكم فى موضع آخر ، من السورة نفسها ؛ قال تعالى : « واعلموا أنما غنمتم من شىء فأن لله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل » . فهذا حكم الخمس ، وأما الأخماس الأربعة فهى قسمة بين المجاهدين ، وقد بينت السنة كيفية هذا التوزيع .

ولما كان هذا الخلاف على قسمة الغنائم مما لا ينبغى لهم، ولا يتناسب وسمو الغاية التى يستهدفها المجاهدون فى سبيل الله، ويقفون أنفسهم على تحقيقها، وهى إحقاق الحق، وإزهاق الباطل، لتكون كلمة الله هى العليا، وتقرير الحرية الدينية بين الناس حتى لا تكون فتنة فى الأرض ويكون الدين كله لله؛ نقول: لما كان الخلاف على الغنائم وقسمتها مما لا يتناسب وسمو هذا المثل الأعلى، وكان الخلاف على إطلاقه فى الغنائم أو فى غيرها مما يخشى منه على وحدتهم، وقوة الرابطة الإسلامية فى نفوسهم ـ لفتهم القرآن إلى ذلك، وأهاب بهم أن يتركوا الخلاف وسائر الأسباب التى تؤدى إلى الفرقة، وإفساد ذات البين، وأن يكلوا الفصل فيما اختلفوا فيه إلى الله ورسوله، مذعنين للحكم، راضين بالقضاء: « فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين ».

ثم بيّن هذا الإيمان بما فصّل من دلائله فى الاعتقاد وآثاره فى الأعمال؛ فهو فى قلوب المؤمنين خشية من الله إذا ذكر، واستحضار لجلاله وعظمته فى كل حين؛ وهو فى عقولهم حكمة ونور تزيده آياتُ الله بصراً بالحق، وسعة فى المعرفة، ورسوخاً فى اليقين؛ وهو فى نفوسهم اطمئنان بالدين، وتسليم لأمر الله ورضاً بقضائه؛ وهو فيما بينهم وبين الله، صلاة وعبادة ومناجاة، وفى مجتمعهم أخوة، وتعاطف، وإيثار ومواساة؛ فهم « الذين إذا ذكر الله وجِلت قلوبهم، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا، وعلى ربهم يتوكلون، الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ».

ثم أخذ القرآن الكريم ــ على سنته ــ يقيم البرهان على ما طالبهم به، من الرضا بحكم الله، وحسن التوكل عليه، بما يقرر هذه الحقيقة فى نفوسهم؛ وهو أنه لما كان الإنسان بالغاً ما بلغ علمه، لا يعرف من وسائل الحق وسبل الصلاح ما يعلمه الله جل شأنه بواسع علمه، وعظيم إحاطته، وهو لهذا قد يخفى عليه من الغايات البعيدة، والمثل العليا، ما يريد الله جل شأنه أن يبلغه إياه، ويحمله عليه ـ وجب أن يسلم الأمر لله تسليما، وأن لا يشك فى الأمر بعد أن جاءه اليقين من الله، ولا ينبغى أن يصده عن امتثال الأمر والرضا به، ماعسى أن يكون فيه مما تكرهه النفس أو يثقل عليها حمله؛ فربّ أمر عظيم الخطب،

شديد الوقع ، ثقيل على النفس ، يكون له من العاقبة المرضية ، والغاية الحسنى ، مالم تكن النفس تؤمله وترجوه ، بل مالم تكن تدركه ولا تحيط به .

كان جمهور من المؤمنين يرفض الصلح فى الحديبية على الوجه الذى تم عليه ، وعدوا قبوله مهانة ومذلة لما فى ظاهره من تحكم وعسف لا يليق بعزة المؤمنين ؛ وكانوا لهذا يريدون أن يأخذوا طريقهم إلى مكة بقوة السيف ، حتى إن عمر بن الخطاب قال يا رسول الله ، ألستَ برسول الله ! قال بلى ، قال أولسنا بالمسلمين ! قال بلى ، قال أوليسوا بالمشركين ؟ قال بلى . قال : فعلام نعْطى الدنية فى ديننا ؟! قال : أنا عبد الله ورسوله لن أخالف أمره ولن يضيعنى !.

ومع أن المسلمين لم يدركوا حقيقة الخير فيما ثقل على نفوسهم من هذا الصلح ، فقد كان نصراً مؤزرا وفتحاً مبينا للإسلام والمسلمين ؛ فإذا كان بعض الناس يجهلون الحكمة فى بعض ما يقضى الله به من قضاء ، وما يلزمهم من أحكام ، فليعلموا أن قانون الحق والباطل لا يجرى دائماً على ما يحبون وما يكرهون ؛ فقد تحب النفوس الشىء وهو وبال عليها ، وقد تكرهه وهو لها صلاح وخير « كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون ، يجادلونك فى الحق بعد ما تبين كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون » . وهل لو استسلموا فقعدوا عن الجهاد يوم بدر كما كانوا يريدون ، . ورجعوا إلى المدينة خائفين ، أكانوا قد حصلوا على المجد الذى حصلوا عليه يوم بدر ، واستحوذوا على ذلك العز والنصر الذى ساقه إليهم الجهاد ، والتضحية فى سبيل الله ؟ أما إنهم لو فعلوا لكان فشلهم خاتمتهم ، ونهاية أمرهم ؛ ولكن الله الذى يتولى الصالحين ، ويؤيد عباده المؤمنين ، قد أراد لهم غير ما كانوا يريدونه لأنفسهم ، فحملهم بتوفيقه وتأييده ومعونته على الخطة التى نالوا بها أعلى المثل وأشرف الغايات .

يذكر القرآن الكريم بهذه الآيات موقفهم يوم بدر ، وكان ذلك فى رمضان فى السابع عشر منه من السنة الثانية للهجرة . ومجمل القصة : أن النبى صلى الله عليه وسلم ، أراد أن يجزى قريشاً ببعض ما عاملوا به المسلمين فى مكة ، حيث أخرجوهم من ديارهم وأموالهم ، وشردوهم فى البلاد ظلما وعدوانا « ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل . إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون

فى الأرض بغير الحق ، فأمر عليه السلام أصحابه أن يخرجوا لعير قريش القادمة بتجارتهم من الشام لعل الله يعوضهم بها بعض ما سلبته منهم قريش فى مكة من دور وأموال ، وما أزعجوهم عنه من وطن كان أحب الأوطان إليهم ، وأقربها بجوار بيت الله وحرمه الأمين ، إلى نفوسهم وقلوبهم ، حتى ليقول النبى عليه السلام يوم هجرته مشيرا إلى مكة : « والله إنكِ لأحب بلاد الله إلىّ ، ولولا أن أهلك أخرجونى منكِ ما خرجت » .

ومع ذلك فأى مال وأى متاع كان يمكن أن يستعيض به النبى عليه السلام والمهاجرون عن قرارهم فى وطن يحبونه مثل هذا الحب ويناجونه مثل هذه المناجاة ؟ ولكنه الانتصار بعد الظلم ، وتأديب المعتدين ببعض ما فعلوا ، وملاقاة البغى والطغيان بما يكسر شوكته ، وينكس رايته ، إحقاقاً للحق وإزهاقاً للباطل ، وتأييداً لكلمة الله ، وإعزازاً لدينه ؛ وفى ذلك يقول الله جل شأنه : « أُذِن للذين يقاتَلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير ، الذين أُخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربُّنا الله ، ولولا دفعُ الله الناس بعضهم ببعض لهُدِّمت صوامعُ وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ، ولينصرن الله من ينصره ، إن الله لقوىّ عزيز . الذين إن مكنّاهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوْا عن المنكر ، ولله عاقبة الأمور » .

وكان المسلمون يوم بدر قليلى العدد قليلى العدة لم يخرجوا لحرب ولا لقتال ، وإنما خف منهم من خف للقاء العير ومصادرة أموال الأعداء ؛ ولم يكن مع هذه الأموال جيش محارب ، بل كان عليها أبو سفيان بن حرب فى نفر من تجار قريش وأتباعهم ، فلما علم بأمر المسلمين وما اعتزموا من مصادرة التجارة أرسل إلى مكة يستنهضها لإنقاذ أموالها ، فلم يبق فيها رجل يستطيع القتال إلا خرج أو استأجر مكانه من يخرج ؛ فتجمع بذلك جيش لقريش بلغ عدده أضعاف عدد المسلمين يقوده أبو جهل بن هشام ، ويسير تحت رايته الملأ من عظماء قريش وصناديدها . وتصرف أبو سفيان لأمره فحاد بالعير عن طريق المدينة إلى ساحل البحر ، ثم أخذ طريقه على جدة فإلى مكة ، ثم أرسل إلى أبى جهل يشير عليه بالرجوع حيث لم تبق حاجة إلى القتال بعد نجاة الأموال ؛ فقال أبو جهل : والله لا نرجع حتى نرِد

ماء بدر فننحر الجزور ، ونشرب الخمور ، وتعزف على رءوسنا القيان ، ويسمع العرب بمسيرنا هذا ، فلا يزال الناس يهابوننا بعدها أبدا .

وبذلك تمحضت غاية قريش من القتال إلى أن صارت كما سماها الله بطرا ورئاء الناس ، وكان هذا مما صنعه الله للمسلمين وإن كانوا لا يشعرون ، حتى تقابل فى الميدان الباطلُ المزهوُّ بنفسه المختال بكثرته وقوته ، مع الحق تفيض به قلوب المؤمنين إخلاصاً له وثباتاً عليه ، فيقع الفريقان تحت حكم الله العدل وسنته القاهرة فى الحق والباطل والإخلاص والرياء ؛ لكن المسلمين لم يكونوا قد جاءهم تأويل ذلك بعد ، وإنما كانوا ينظرون إلى الموقف بحسب ما ظهر لهم من أسبابه ، فهم قليل وأعداؤهم كثير ، وهم قد خرجوا بغير استعداد ليقابلوا العير لا النفير : فلا غرابة أن يتخوفوا ما دهمهم من أمر لم يكونوا على استعداد له ، وأن يذكروا ذلك للنبي عليه السلام ويجادلوه فيه : « يجادلونك فى الحق بعد ما تبين كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون » . ولكن النبى صلى الله عليه وسلم كان واثقاً من أمره عارفا بربه مؤمنا بتأييده ونصره ؛ ومع ذلك فقد وقف - على سنته الشريفة فى الإنصاف والحرية والشورى - يستشير أصحابه ؛ وانتهى الموقف بقول قائلهم : امض يا رسول الله لما أراك الله ، والله لو استعرضت بنا هذا البحر تخوضه لخضناه وراءك ما تخلف منا أحد !! فسر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقولهم ، ثم قال : « سيروا على بركة الله وأبشروا فإن الله قد وعدنى إحدى الطائفتين ، والله لكأنى أنظر إلى مصارع القوم » !.

والطائفتان : طائفة النفير أى الجيش ، وهى الطائفة ذات الشوكة برجالها وقوتها ؛ وطائفة العير ، أى قافلة التجارة والأموال ، وهى التى لا شوكة لها ولا محذور من لقائها ، بل فيها ما يحب من الأموال والمتاع ؛ وفى هذا يقول الله جل شأنه « وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم ، وتودون أن غير ذات الشَّوْكة تكون لكم ، ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين . ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون » .

وقد تكررت كلمة الحق فى هذا السياق . ولها فى كل موضع معنى . فهو فى قول الله تعالى « كما أخرجك ربك من بيتك بالحق » : الصواب والحكمة بطاعة الله

ورضوانه؛ وفى قوله تعالى « يجادلونك فى الحق » : القتال ، خلص له القصد بعد نجاة العير وأصبح حقيقة الموقف دون سواه ؛ وفى قوله « ويريد الله أن يحق الحق بكلماته » : وعد الله الذى وعده رسوله ، وهو تمكينه من إحدى الطائفتين ؛ وفى قوله « ليحق الحق ويبطل الباطل » : الإسلام ؛ يبين الله لرسوله الحكمة فى تمكينه من الطائفة ذات الشوكة بعد أن وعدهم إحدى الطائفتين مبهمة وهذه الحكمة هى إن إحقاق الحق وإعزازه لا يكون بالاستيلاء على الأموال والغنائم ، لكن بتمكين الله رسوله والمؤمنين من رءوس الكفر وأئمة الباطل ، وقطع دابر المجرمين .

طائفتان :

أما إحداهما : فلا تذكر فى القرآن الكريم إلا مقرونة بالحق ، وحسبها حقاً فى خروجها ومسيرها وغايتها ، أن وليها الله ، وأن قائدها رسول الله .

وأما الأخرى : فقد خرجت من دارها بطراً ورئاء الناس ، وقفت حياتها على تأييد الباطل ومناوأة الحق ومطاردة الرسول والمؤمنين ؛ وقد التقى الجمعان على ماء بدر بالقرب من المدينة : الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله ، والذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت .

وهذا أول مشهد شهده الخصمان حرباً فى سبيل العقيدة ، وقتالا بين الحق والباطل ؛ فلا جرم أن كان له من الرجاء والخوف فى نفوس المسلمين ما يناسب عواقبه الجليلة العظيمة ، إذ عليه يتوقف سير الدعوة الإسلامية وتقرير مكانتها ؛ ولا عجب أن حمل ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم — حينما رأى كثرة أعدائه وقلة أصحابه فى العدد والعدد — على أن يبتهل إلى ربه ويستغيثه ويستنجزه وعده قائلا : « اللهم أنجز لى ما وعدتنى ، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام فلن تعبد فى الأرض » .

صبر المسلمون فى القتال وثبتوا لأعدائهم ثبات الجبال ، وآمنوا إيماناً تنزلت عليه الملائكة من السماء ، وكانت ساعة استجاب الله فيها لرسوله صلى الله عليه وسلم ،

ومنح المسلمين ظهور أعدائهم فاتبعوهم ، فريقاً يقتلون ، ويأسرون فريقاً ، وفر من نجا منهم إلى مكة مهزوماً طريداً ؛ وكانت النتيجة أكبر من نصر متعارف ، وأهم من فوز فريق على فريق ؛ كانت آية بينة عنت لها وجوه العرب ، فأخذوا يتأملون الأمر أكثر من ذى قبل ، وينظرون إلى الدعوة نظرهم إلى حقيقة عظيمة تملأ السمع والبصر والفؤاد ؛ فلا عجب أن سمى الله يوم بدر فرقاناً بما فرق به بين الحق والباطل ، وأن كان ليوم بدر ولأبطاله المؤمنين من المكانة فى الإسلام وفى تاريخ المسلمين مالم ينله مشهد سواه . وفى ذلك الموقف من الرسول قبيل الموقعة يقول الله جل شأنه : « إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنى ممدكم بألف من الملائكة مُرْدِفين . وما جعله الله إلا بشرى ولتطمئن به قلوبكم ، وما النصر إلا من عند الله ، إن الله عزيز حكيم » .

حضرات السادة :

إنه لمن يمن الطالع وسعادة المناسبة ، أن نتذاكر موقعة بدر فى ميعادها من هذا الشهر الكريم ؛ فقد كانت فى السابع عشر من رمضان ، وأن نتذاكرها وجيوش العرب والمسلمين فى فلسطين ما زالت فى موقف الجهاد فى سبيل الحق الذى جاهد فى سبيله المسلمون يوم بدر ، وأن نرى الباطل اليوم — كما كان يوم بدر بل أشد وأطغى — متألباً بجمعه وحوله وطوله على الحق الذى يستمد معونته ونصرته من الله العزيز الحكيم . فإن تكن لنا من الإسلام هداية فهدايتنا اليوم منه أن نؤمن كما آمن أهل بدر ، وأن نثق بأنفسنا كما وثقوا بأنفسهم ، وأن نوقن يقيناً لا يخالجه أدنى شك بأن الله الذى أقام السموات والأرض بالحق ، وأرسل رسله بالهدى ودين الحق ، وأنزل الكتب من السماء قياماً بالحق ودعوة إليه ، لا يؤيد جل شأنه الباطل مهما طغى وبغى وكثر أتباعه ، على الحق وإن قل أعوانه وأنصاره . وإذا رأيتم الباطل مزهواً مختالا يريد أن يخرق الأرض أو يبلغ الجبال طولا ، فاصبروا له ساعة من الزمان ، وارتقبوا ما يؤول إليه أمره . فإنه فى اضمحلال وإلى زوال ، ولا مناص له — طال الزمن أم قصر — من أن تدمغه سنة الله التى لا تحول ولا تزول ، بصاعقة من الحق تزلزل أركانه وتهدم بنيانه ، ويومئذ يعلم المبطلون الذين حموا هذا الباطل وأقاموه مراغمة لأبسط مبادىء العدالة

أن مقاليد السموات والأرض بيد الله لا بأيديهم ، « وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين ، لو أردنا أن نتخذ لهواً لا تخذناه من لدنا إن كنا فاعلين . بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق » .

ألا وإن مُثل القضية بين الحق والباطل فى التاريخ كثيرة لا تعد ، أشبهها بقضية اليوم موقف مصر وعليها صلاح الدين ، ومعها العرب والمسلمون ، فى وجه الصليبيين ؛ ثم فى وجههم ووجه التتار جميعاً ... وقفت مصر إذ ذاك للدنيا كلها ، كما تقف اليوم للدنيا كذلك وعليها الفاروق العظيم ، ومعها إخوانها العرب والمسلمون ؛ وكما نصرها الحق بالأمس سينصرها اليوم إن شاء الله ، ومن يعش يره ، ولتعلمن نبأه بعد حين .

أما بعد ، فإنى أبتهل إلى الله جل شأنه فى هذه الليلة العظيمة والذكرى المباركة التى نتذاكر بها آيات الله وهدى الله فى شهر الله رمضان ، أن يؤيد الفاروق العظيم ويمد فى عمره ويبسط فى ملكه ، وأن يعينه سبحانه ويكلأه برعايته وتوفيقه فيما وقف نفسه عليه من العمل الدائب والجهاد المتواصل فى سبيل النهوض بالأمة وتقدمها فى سائر مناحى الحياة .

وأسأله سبحانه أن يجزيه خير الجزاء على ما أتاحه للمسلمين فى مصر وفى خارج مصر من هذه المجالس الطيبة المباركة ، حيث يجتمعون ليستمعوا إلى كتاب الله يتلى عليهم ويتدارسونه بينهم .

كما أسأله جل شأنه أن يؤيد ويرعى بالتوفيق والسداد سائر ملوك العرب والمسلمين ورؤسائهم وأمرائهم ، وأن يعينهم فى جهادهم الحق ضد الباطل والمبطلين ، ويسددهم فى السلم والحرب ، ويكتب النصر والظفر للمجاهدين ، وأن يعيد على أيديهم دولة العروبة ومجد الإسلام .

والسلام عليكم ورحمة الله .

الاسلام حمى الانسانية من الانهيار

لم تتجل حاجة العالم الى الإسلام مثل ما تجلت فى عهدنا هذا .

لقد كان قيام الإسلام فى أول وجوده حدا فاصلا بين التدهور الاجتماعى العام ، وبين العالم كله ؛ وقد لخص المستشرق (جول لابوم) الفرنسى صاحب الفهرست لآيات القرآن العظيم ، حالة العالم كله قبيل بعثة النبى صلى الله عليه وسلم ، فأثبت بالأدلة التاريخية أن العالم برمته كان فى حالة تنازع وتناحر ، لايهدأ لأمة جأش ، ولا يترك لها عهد استقرار ، يمكن أن تتطور فيه فى الوجهة الأدبية والعلمية ، بل كانت تتطور فى التدلى فى هاتين الناحيتين ، حتى لو كانت بقيت على ما كانت عليه لتجردت بعد بضعة قرون أخرى من كل ما حصله أجدادها من أدب وعلم وصناعة ، وباءت بأسوأ ما يبوء به العارون من هذه الفتوحات العقلية المكملة للإنسانية ، فقال العلامة جول لابوم :

« حوالى ميلاد محمد فى القرن السادس الميلادى ، كان جو العالم متلبدا بغيوم الاضطرابات والفتن » .

ثم أخذ يسرد ما كانت عليه الأمم قاطبة فى جميع أنحاء الأرض من التناحر الوحشى بين الجماعات البشرية ، ثم قال :

« الخلاصة أن جو العالم الأرضى كان متلبدا بسحب القلاقل الهمجية ، وكان اعتماد الناس على وسائل الشر أكثر من اعتمادهم على وسائل الخير ، وكان أجمع الرؤساء للثقة والطاعة أشدهم صيحة فى إصلاء نيران الحروب والمعارك ؛ ولم يكن يأخذ بعواطف القلوب ولا يؤثر عليها تأثيرا حادا وإن كان وقتيا إلا شىء واحد ، وهو الغنيمة وسلب الأمم والشعوب والمدائن والأعيان ورجال الحروب وفقراء الحراثين وسذج المتسولين » .

ثم ختم المسيو جول لابوم مقدمته التفصيلية هذه بقوله :

« فى عهد هذه الأحوال الحالكة ، وفى وسط هذا الجيل الشديد الوطأة ، ولد محمد بن عبد الله فى ٢٩ أغسطس سنة ٥٧٠ م » .

وقد ثبت تاريخيا وبشهادة المؤرخين أنفسهم أن المسلمين الأولين انتشروا فى الأرض يبلغون الأمم دعوة الإسلام ؛ فاندفعوا يقتبسون ما صادفوه من العلوم والصناعات لدى تلك الأمم ، وأخذوا يتدارسونها ويتقنونها ، ودفعهم حب التكمل

الى البحث عن نصوصها فى مصادرها المكتوبة ، فلم يحرقوا ما صادفوه فى البلاد التى افتتحوها من الكتب العلمية ، كما كان يفعل غيرهم من الفاتحين ، ولكنهم كانوا يستولون فيها على أمهات المصادر العلمية ، ويستأجرون العارفين بلغاتها لكى يترجموها لهم ترجمة حرفية ، ويغدقون على أولئك التراجمة من المال ما يغريهم على الدؤوب والاجتهاد والتبارى فى الإنتاج ؛ ثم أكبوا على دراستها وتطبيقها على العمل ، وساعدهم فى ذلك ملوكهم وأمراؤهم وأسرياؤهم حتى انتقلت إليهم الخلافة العلمية بعد اليونانيين والرومانيين ، وأصبحت جامعاتهم محط رحال مريدى الاستفادة من جميع الأمم ، وزادوا فى مواد العلوم مما اكتشفوه فى الطب والكيمياء والطبيعيات والرياضيات الخ . ولم يهملوا الفلسفة على مجافاة جمهورهم لها ، لا لاعتبارات وهمية ، ولكن لما ظهر لهم من أنها ترتكز فى مقدماتها على الخيالات والظنيات ، وهذه فى نظرهم لا توصل الى يقين ، فالشغل بها يكون عرضة للأخطاء ؛ وقد ثبت بُعد نظرهم فى هذا الموضوع ، وصدقت فراستهم فيه ، فقد اتضح بعد أن ترقت العلوم أن كل الظنيات الفلسفية كانت خيالات لا حقيقة لها ، فصرف المسلمون همتهم فى إتقان العلوم المرتكزة على الأدلة الواقعية ، والمنافع الحيوية ، فارتقت معارفهم ، وتطورت مداركهم ، ووصلوا الى مدى بعيد من الرقى استحقوا به خلافة الله فى الأرض . والى القارئ رأى مؤرخى أوربا فى ذلك :

قال العلامة (سديو) Sédillot فى كتابه تاريخ العرب :

« كان المسلمون فى القرون الوسطى متفردين فى العلم والفلسفة والفنون ، وقد نشروها أينما حلت أقدامهم ، وتسربت عنهم الى أوربا ، فكانوا هم سببا لنهضتها وارتقائها » .

هل يدرى القارىء ماذا كانت أوربا فى ذلك العهد ، وخاصة بعد أن مزقت الحروب الداخلية أحشاءها ، وتوقفت الحركة العلمية فيها قرونا طويلة ؟ .

الأولى بنا فى هذا المقام أن نستشهد بالأجانب . قال العلامة (دريبر) فى كتابه (المنازعة بين العلم والدين) :

« إن أوروبا فى ذلك العهد كانت غاصة بالغابات الكثيفة من إهمال الناس للزراعة ، وكانت المستنقعات قد كثرت حوالى المدائن ، وكانت تنتشر منها روائح

قتالة اجتاحت الناس وأكلتهم . وكانت البيوت فى باريز ولوندرة تبنى من الخشب والطين المعجون بالقش والقصب . ولم يكن فيها نوافذ ولا أرضيات خشبية . أما الأبسطة فكانت مجهولة لديهم ، وكان يقوم مقامها القش ينشرونه على الأرض نشرا . ولم يكونوا يعرفون المداخن ، فكان الدخان يطوف الدار ثم يتسرب من ثقب صنعوه له فى السقف . فكان الساكنون فيها معرضين لضروب الإصابات الخطيرة . وكان الناس لا يعرفون للنظافة معنى ، فيلقون بأحشاء الحيوانات ، وأقذار المطابخ أمام بيوتهم أكواما تتصاعد منها روائح قاتلة ، ولا رقيب عليهم . وكانت الأسرة تنام فى حجرة واحدة رجالا ونساء وأطفالا ، وكثيرا ما كانوا يؤوون معهم الحيوانات المنزلية .

إلى أن قال : « هذه الجهالة كان من أثرها على أوروبا أن عمتها الخرافات والأوهام ، فانحصر التداوى فى زيارة الأماكن المقدسة ، ومات الطب وحييت أحابيل الدجاجلة . الخ الخ » .

نقول : احفظ هذا وقابله بما كانت عليه الحالة عند المسلمين فى تلك الأيام ببركة النهضة العلمية والاجتماعية التى أوجدها الإسلام ، ننقله لك عن العلامة دريبر نفسه فى كتابه المذكور ، قال :

« لم تكن أوروبا العصرية بأعلى ذوقا ، ولا أرق مدنية ، ولا ألطف رونقاً من عواصم الأندلس على عهد العرب ، فقد كانت شوارعهم مضاءة بالأنوار ، ومبلطة أجمل تبليط ، والدور مفروشة بالأبسطة ، وكانت تدفأ شتاء بالمواقد ، وتهوّى صيفا بالنسمات المعطرة بواسطة إمرار الهواء تحت الأرض من خلال أوعية مملوءة زهرا ؛ وكانت لهم حمامات ومكتبات ومطاعم وينابيع مياه عذبة الخ .

ويقول فى مواطن أخرى : « إن جامعات المسلمين كانت مفتوحة للطلبة الاوربيين الذين نزحوا إليها من بلادهم لطلب العلم ، وكان ملوك أوروبا وأمراؤها يفدون على بلاد المسلمين ليعالجوا فيها » .

لسنا هنا بصدد أن المسلمين لم يمض عليهم قرنان حتى بلغوا الى هذه الدرجة السامية من الرقى بينما كان الأوربيون فى حالة قهقرى سريعة نتيجة للحروب التى

كانت ناشبة بين جماعاتهم ، ولكنا بسبيل التدليل على أنه لولا المسلمون لاستمرت أوروبا فى تدهورها ووصلت الأمم العائشة فيها الى أسوأ مما وصفه العلامة (دريبر) ولتلاشى منها كل ميل الى تدارك الخطر ، وانتهى أمر العالم كله الى همجية محضة .

ولكن السنة الإلهية التى شوهدت آثارها فى الجماعات البشرية على مدى الزمان ، تدل أن التدهور متى بلغ الى درجة مؤذنة بسيادة الوحشية الباحتة ، بعث الخالق أمة من العدم ، وحلاها بالميول التى تدفعها الى الرقى ، وأمدها بالوحى الذى يرشدها الى الصراط السوى ، فترتقى فى سنين معدودة الى أرقى ما تسمح به الوسائل المعاصرة ، وتنجى ميراث العقلية البشرية من التلاشى ، وتستولى عليه وتزيده مادة ، وتنتشر فى الأرض فتبث فى أممها من روحها ما يقف من تدهورها ، وما يمدها من عوامل حياتها ، فتسترد البشرية نزوعها الطبيعى للبقاء ، وتبلغ ما قدر لها من الارتقاء .

وقد اختار مدبر الكون جل شأنه لإحداث النهضة العالمية الأخيرة الأمة الإسلامية ، فقامت بما ندبت له تحت تأثير الوحى الإلهى ، والقيادة النبوية الملهمة ، فوقفت الحركة القهقرية التى كانت شملت الأمم كافة ، ورسمت لها طريق النجاة ، بما حصلت عليه من التراث الأدبى والعلمى والمدنى للبشرية ، وزادت عليه .

نعم إن الله يغار على عباده فلا يدعهم تحت سلطان الأهواء حتى تؤديهم الى الفناء ، فلو لم تكن الأمة العربية لناط هذه المهمة بأمة أخرى ، ولكنه اختار العرب ومنحهم هذه الكرامة ، ولا حجر لفضل الله. وقد صرح الكتاب الشريف بذلك فقال تعالى : « وإن تتولوا (أى عجزا عما تستدعيه هذه المهمة العالمية) يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم » .

فعلى الذين يكتبون فى الإسلام ويعلمونه للناس أن ينوهوا بهذه المهمة الإسلامية الخطيرة ويدللوا عليها بشهادات الأجانب أنفسهم لها ، كما نفعل ، فإنها تضع الإسلام من الأذهان فى مكانته العليا ، وتكون أفعل فى نشره من جميع عوامل النشر .

محمد فريد وجدى

البعوث فى الإسلام

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ طه محمد الساكت
مبعوث الأزهر الى مكة المكرمة

عن أبى موسى رضى الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا بعث أحداً من أصحابه فى بعض أمره قال : « بشّروا ولا تنفّروا ، ويسّروا ولا تعسّروا » .

وعن سعيد بن أبى بُردة عن أبيه عن جده أن النبى صلى الله عليه وسلم بعثه ومعاذاً الى اليمن فقال : « يسِّرا ولا تعسرا ، وبشرا ولا تنفرا ، وتطاوعا ولا تختلفا » رواهما الشيخان .

* * *

حق على الدعاة الى الله عامة ، ومن ولاّه الله منهم مقاليد الأمور خاصة ، أن يتبينوا تاريخ البعوث فى الإسلام ، وكيف كان يتخيرها النبى عليه الصلاة والسلام ؛ فإنما تنجح الدعوة وتؤتى أكلها بمقدار إخلاص صاحبها وحسن اختياره .

ونحاول هنا ، ونحن فى بَعث الى البلد الحرام ، أن نقبس من الهدْى النبوى فى البعوث الإسلامية ، ما نرجو أن يكون للدعاة منارا ، وللهادين ضياءً .

هاجر النبى صلوات الله وسلامه عليه ، من مكة إلى المدينة ، على رأس ثلاثَ عشْرة سنة ، رأى فيها وهو صابر مُصابر ، من ضروب الأهوال ، ما ينوء بُشم الجبال . وما إن استقر أمر الإسلام أو كاد حتى أخذ عليه الصلاة والسلام يبعث البعوث إلى البلاد النائية ، يجاهدون فى الله حق جهاده ، ويدعون إلى الله على هدًى وبصيرة ، ويحكمون بين الناس بالحق ، ويفقّهونهم فى دين الله عز وجل [1] .

وكان صلوات الله عليه يوصى بعوثه بوصاياه الجامعة ، وعظاته البليغة ، ليكونوا عنوان الهداية وموضع القدوة .

---

(١) فالمراد بالبعوث هنا : ما يشمل الغزاة والمجاهدين ، والقضاة والمرشدين .

وهـذا نموذج من وصيته لما بعث صاحبيه أبا موسى الأشعرى ، ومعاذ ابن جبـل الى قومهما وبلدهما باليمن ، وكانا من أعلم الصحابة بالحلال والحرام ، وأدراهم بأحكام الإسلام ؛ أوصاهما بخلال ثلاث ، هن جماع الفقه والحكمة ، وعماد العلم والمعرفة ؛ وعليهن يبنى أمر الدين كلـه أصولا وفروعا ، وآدابا ومكارم ، وبهن أو بما يُردّ إليهن كان يوصى أصحابه فى عامة الأمر وخاصته .

الأولى : التيسير ، وهو ضـد التعسير ، والمراد به التسهيل على الناس والتخفيف عليهم فى الدعوة والعبادة ، والعـلم والعمل ، وأخذُهم بالتـدرج فى الأمور شيئا فشيئا ، ولا سيما حدثاء العهد بالإسلام ، ومن قارب حد التكليف من الصبيان ، ليتمرنوا على الإسـلام وخصاله ، إلى أن يأنـَسوا به ويهَشوا له ، ويختلط بهم اختلاط اللحم بالدم ؛ ولا بأس حينذاك أن يأخـذهم ببعض الحزم والشـدة . ولو حمل الناس على الحق جملة لتركوه جملة . وكم من داعٍ عسّر ولم ييسر ، وشـدد ولم يخفف ، خاب سعيه ، وضـاع أمله ، وذهبت دعوته أدراج الرياح .

إنه لا ينبغى لأحد أن يتصـدّى للدعوة إلا من بعد أن يفقه سيرة النبى صلى الله عليه وسلم ومنهاجه فيها ، كما لا يحل لإمام أو أمير أن يوليها أحدا إلا إذا كان لها كفئاً ، وبها جديرا . لقد بنى هذا الدين على التيسير ، وأشاعه النبى صلى الله عليه وسلم فى جميع أقطاره ، وقال : إن الدين يسر ، ولن يُشادَّ الدين أحد إلا غلبه فسددوا وقاربوا ؛ ونهى عن التعمق فى الدين ، وشدد النكير على المتعمقين ، وقال : هلك المتنطعون ثلاثا . ودخل المسجد فإذا حبل ممدود بين ساريتين ، فقال ما هذا الحبل ؟ قالوا : هذا حبل لزينب ، فإذا َفـتَرت تعلقت به ؛ فقال النبى صلى الله عليه وسلم : حُلـُّوه ، ليصلِّ أحدكم نشاطه ، فإذا َفـتَر فليرقد . ودخل على عائشة رضى الله عنها وعندها امرأة ، فقال من هذه ؟ قالت هذه فلانة ، تذكر من صلاتها . قال : مَهْ ، عليكم بما تطيقون ، فوالله لا يَمل الله حتى تملوا .

وقالت عائشة رضى الله عنها : ما خُـيِّر رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أمرين قطُّ إلا أخذ أيسرهما ما لم يكن إثـما ، فإن كان إثـما كان أبعد الناس منه ، وما انتقم رسول الله صلى الله عليه وسلم لنفسه فى شىء قط إلا أن تنتهك حرمة الله

فيلتقم الله بها . ودخل المسجد أعرابى فانتحى منه ناحية ، وبال فيها ، فثار اليه الناس وهموا به ، فزجرهم صلوات الله وسلامه عليه وقال دعوه وأهريقوا على بوله ذنوبا من ماء ـ أو سَجْلا من ماء(١) ـ فإنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين . وكان عبد الله بن مسعود رضى الله عنه يذكّر الناس كل خميس فقال له رجل : يا أبا عبد الرحمن لوددت أنك تذكرنا كل يوم ! فقال : لا يمنعنى من ذلك إلا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يتخولنا بالموعظة خشية السآمة علينا . وكانت الحنيفية السمحة فرائض وسننا ، وآدابا وفضائل ، ليأخذ كل من بعد الفرائض بالقسط الذى يسر الله له . ورخص الله للناس فى كل ما يشق عليهم أداؤه ، فأباح للمسافر الفطر فى رمضان ، وأوجبه على من خشى هلاكا أو قاربه ؛ وأمر صلى الله عليه وسلم العاملين على الصدقات أن ييسروا على الأغنياء فى الجباية فيكتفوا بالوسط ولا يرهقوهم بأخذ السمين والمنتق . وسن للمسافر قصر الصلاة ، وأمر الإمام بالتخفيف فيها ؛ فإن فى الناس المريض والضعيف وذا الحاجة . وكان إذا سمع بكاء الطفل ، يتجوز فى صلاته رفقا بأمه . وكان يأمر بالأخذ بالرخصة ويقول : إن الله يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه . . . الى غير ذلك من أمثلة لا يحصيها العد ، ثابتة كلها فى صحيح الآثار ، ومنتقى الأخبار ، بلغت ـ أو كادت ـ مبلغ التواتر .

ومالنا نعدّد الأمثلة ونبسط الأدلة ، وقد علم الناس جميعا أن دين الله هو دين الفطرة ، « فطرة الله التى فطر الناس عليها » ، وأنه واضح المنهج فى عقائده وأحكامه ، سهل المأخذ فى كل أمر من أموره ، وحسْب الناظر فيه ومن ابتغاه دينا أن يعلم أن الأعرابى الجلف كان يجلس بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم ساعة من نهار ، فيتلقى عنه الدين كله ، فإذا هو خلق آخر ، قد ملىء نوراً وهدًى ، وكان منذ ساعة قطعة من الظلمات تمشى على الأرض .

لا جرم أن الدين يسر ، ولكن لا يحسبن الذين لا يفقهون ، أن يسره أو التيسير فيه ، يدعو إلى التهاون فى أمره ، أو التأويل فى نصوصه ، أو تتبع الرخص التى تروى عن علمائه والفقهاء فيه ؛ فإن الدين حبل الله المتين ، وصراطه

(١) الذنوب والسجل : الدلو ، وأو للشك من الراوى فى أى اللفظين قاله صلى الله عليه وسلم .

المستقيم ، لم يكن فى شأن من شئونه غاليا ولا جافيا « وكان بين ذلك قواما » لا إفراط ولا تفريط .

إنه ليوشك من تأول فيه لشهوة أو هوى ، أو تهاون فيه عن عمى وجهالة ، أو تتبع الرخص المروية هنا وهناك ، يتلقفها تلقف المتلاعبين ، أو يعتمد عليها اعتماد الجاحدين المتهوسين ! إنه ليوشك هؤلاء جميعا أن يخرجوا من الدنيا بغير دين . « فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم » .

* * *

قال شراح الحديث - وذلك من أحسن ما قالوا - : وإنما أردف صلى الله عليه وسلم أمره بالتيسير نهيه عن التعسير ، مع أن الأمر بالشئ يستتبع النهى عن ضده ، تقوية وتوكيدا ، حتى لا يدع لمتنطع عذرا ؛ على أنه لو اقتصر على التيسير لتحقق امتثال الأمر مرة واحدة ، وإن عسّر مرارا ؛ فلما قرنه بالنهى عن التعسير ، فهم أن المراد المداومة على التيسير .

تلك الجملة الأولى من الخلال الثلاث . وإذا ضاق المقام عن استيفاء الخلتين الأخريين ، فالموعد عددنا الآتى ، إن شاء الله م ؟

تصيد الدراهم

قال الأصمعى : كنت عند الرشيد إذ دخل عليه إبراهيم الموصلى فأنشده :

وآمرة بالبخل قلت لها اقصرى ... فليس إلى ما تأمرين سبيل

فعالى فعال المكثرين تجملا ... ومالى كما قد تعلمين قليل

فكيف أخاف الفقر أو أحرم الغنى ... ورأى أمير المؤمنين جميل

فقال الرشيد : لله أبيات تأتينا بها ما أحسن أصولها ، وأبين فصولها ! يا غلام أعطه عشرين ألفا . قال الموصلى : لا أخذت منها درهما . قال الرشيد : ولم ؟ قال : لأن كلامك يا أمير المؤمنين خير من شعرى ! . قال : أعطوه أربعين ألفا . قال الأصمعى : فعلمت أنه أصيد لدراهم الملوك منى .

الحج عن الغير

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ فكرى ياسين
المدير المساعد لادارة البحوث والثقافة بالأزهر

يكثر الكلام بين الناس عند كل موسم من مواسم الحج ، حول موضوع « الحج عن الغير » ، ويمتد حديثهم عنه ، واهتمامهم به ، الى حد التساؤل عن أصله وحكمه ، وعما يقع من إيفاد بعض الأفراد كل عام للحج عن غيرهم ، وعما يرصده بعض الأشخاص من الأموال والأحباس للإنفاق منها بعد موتهم فى هذا السبيل ، وهل لذلك كله أصل فى الإسلام ، وجاءت به أحكامه ؟ أو هو أمر جرى به متعارف الناس ومألوفهم ؟ .

وقد رأينا من أجل ذلك ، أن نؤثر هذا الموضوع الهام ، بالكتابة فيه ، رعاية لمناسبة موسم الحج ، وإرْواءً لغلّة المتحدثين فيه .

* * *

معروف أن من بين التكاليف الشرعية العملية ، العبادات ؛ ومعروف أيضا أن العبادات تتنوع الى أنواع : فمنها ما هو مالىّ محض كالزكاة ، ومنها ما هو بدنىّ محض كالصلاة ، ومنها ما هو مركب منهما كالحج ؛ فالأولى تقبل النيابة مطلقا فى حالتى الصحة والمرض ، لحصول المقصود ـ وهو إيصال النفع الى الفقراء ـ بفعل النائب ؛ والثانية لا تقبل النيابة بحال ، لأن المقصود ـ وهو تزكية النفس ، والاتصال بالخالق ـ لا يحصل بفعل النائب .

أما الثالثة ، وهى الحج ، فالجمهور من الفقهاء على أنها تقبل النيابة ؛ فمن عجز عن الحج بنفسه ، وجب عليه أن يستنيب غيره ليحج عنه ، ولكنهم اختلفوا بعد ذلك فى الشروط والالتزامات ، والأوصاف والأحوال ، التى يجب أن تتوفر فى الحاجّ والمحجوج عنه ؛ وقد نحا كل فريق منهم فيها المنحى الذى

يوافق أصول مذهبه ، ويتفق مع قواعده ، وهى مبسوطة فى كتب الفروع ، فليرجع إليها من أراد .

أما غير الجمهور فإنه يرى أن الحج وإن كان عبادة مركبة من بدنية ومالية ، إلا أنه قد غلب فيها جانب البدنية ، فهى لا تقبل النيابة ؛ فمن كان عليه حجة الإسلام ، فلا يجوز له أن ينيب من يحج عنه ، سواء كان صحيحا أم مريضاً تُرجى صحته ؛ ومن عجز عن الحج بنفسه ، ولم يقدر عليه فى أى عام من حياته ، فقد سقط عنه الحج بتاتا ؛ وإذا استأجر من يحج عنه ، سواء كان صحيحاً أم مريضاً ، وسواء كان الحج فرضاً أم نفلا ، فإنه لا يكتب له أصلا ، بل يقع نفلا للأجير ، وللمستأجر ثواب مساعدته على الحج ، وبركة الدعاء الذى يدعو به .

وقد اعتمد الجمهور فى الاستدلال لمذهبه على ما صح عنده من أحاديث وآثار ، وبخاصة ذلك الحديث المشهور المعروف بحديث الخثعمية ،[1] وهو ما أخرجه البخارى عن ابن عباس ، قال : « كان الفضل رديف النبى صلى الله عليه وسلم ، فجاءت امرأة من خثعم ، فجعل الفضل ينظر اليها وتنظر اليه ، فجعل النبى صلى الله عليه وسلم يصرف وجه الفضل الى الشق الآخر ، فقالت : إن فريضة الله أدركت أبى شيخا كبيرا ، لا يثبت على الراحلة ، أفأحج عنه ؟ قال : نعم ، وذلك فى حجة الوداع » . قال ابن العربى : حديث الخثعمية أصل متفق على صحته فى الحج ، خارج عن القاعدة المستقرة فى الشريعة من أن ليس للإنسان إلا ما سعى ، رفقا من الله فى استدراك ما فرط فيه المرء بولده وماله .

* * *

هذا هو وضع المسألة فى ذاتها ، وبحسب ظاهرها الفقهى ، ولكن الواقع أن للمسألة وراء هذا الوضع ، سرا كمينا ، وأصلا دقيقا ، هو مثار الخلاف فيها ، والنزاع عليها ، وقد اصطخبت حوله الآراء ، وتشعبت فيه الأفكار ، ووقف منه بعض العلماء موقف القبول والتأييد ، كما وقف منه البعض الآخر موقف الرد والتفنيد .

وهذا الأصل ـ وقد أشار اليه ابن العربى فى كلامه السابق ـ هو : أن الإنسان إذا جعل ثواب عمله لغيره ـ صلاة كان هذا العمل ، أوصوما ، أوحجا ، أوصدقة أو قراءة قرآن ، أو ذكرا ، أو غير ذلك ، من جميع أنواع البر ـ هل ينجعل بهذا

---

(١) نسبة الى خثعم وهى قبيلة مشهورة .

الجعل ، ويصل الثواب الى ذلك الغير ، وينفعه ؟ أو أنه لا ينجعل ، بل يلغو ، ولا يصل الثواب الى الغير ، ولا ينفعه ؟ .

وقد افترق العلماء حيال هذا الأصل ، الى فريقين : فريق يرى أنه ليس للإنسان أن يفعل شيئا من ذلك ، وأنه لا يصل الثواب ، ولا يحصل الانتفاع به ، واستدل على رأيه هذا ، بقوله تعالى : « وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ، وأن سعيه سوف يُرَى » وبنحو قوله صلى الله عليه وسلم : « إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث » وقوله : « لا يصوم أحد عن أحد ، ولا يصلى أحد عن أحد » .

والفريق الآخر يرى أن الإنسان له ذلك ، وأن الثواب يصل ، وينفع ؛ وقد استدل بما جاء فى الصحيحين ، من « أنه صلى الله عليه وسلم ضحى بكبشين أملحين (١) ، أحدهما عن نفسه ، والآخر عن أمته ؛ وبما جاء فى سنن ابن ماجه ، من أنه صلى الله عليه وسلم كان إذا أراد أن يضحى يشترى كبشين عظيمين سمينين ، أقرنين أملحين ، موجوأين ، فذبح أحدهما عن أمته ، ممن شهد لله بالوحدانية ، وله بالبلاغ ، وذبح الآخر عن محمد وآل محمد » ؛ وبما رواه ابن أبى شيبة من « أنه صلى الله عليه وسلم ، أتى بكبشين أملحين عظيمين ، أقرنين موجوأين ، فأضجع أحدهما ، وقال : بسم الله ، والله أكبر ، اللهم عن محمد وآل محمد ؛ ثم أضجع الآخر ، وقال : بسم الله ، والله أكبر ، اللهم عن محمد وأمته ، ممن شهد لك بالتوحيد ، وشهد لى بالبلاغ » ؛ فإن هذه الروايات كلها ، تدل على أنه صلى الله عليه وسلم ، جعل تضحية إحدى الشاتين عن أمته ، وجعل ثوابها لها ؛ وهذا تعليم منه عليه الصلاة والسلام ، أن الإنسان ينفعه عمل غيره .

وقد استدلوا أيضا بما روى عن أنس أنه سأله صلى الله عليه وسلم ، فقال : « يا رسول الله إنا نتصدق عن موتانا ، ونحج عنهم ، وندعو لهم ، فهل يصل ذلك إليهم ؟ » قال : « نعم ، إنه ليصل إليهم ، وإنهم ليفرحون به ، كما يفرح أحدكم بالطبق إذا أهدى إليه » .

فهذه الآثار كلها ، وكثير فى السُّنة غيرها ، يبلغ القدر المشترك فيها ، بين الكل ، مبلغ التواتر ، وهو أن من جعل شيئا من الصالحات لغيره ، نفعه الله به .

---

(١) الملحة : بياض يشوبه شعرات سود .

وليس هذا فقط ، فقد جاء فى القرآن الكريم الأمر بالدعاء للوالدين ، فى قوله تعالى : « وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا » كما جاء فيه الإخبار باستغفار الملائكة للمؤمنين فى قوله تعالى : « والملائكة يسبحون بحمد ربهم ، ويستغفرون لمن فى الأرض » وفى قوله : « الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ، ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا » وساق عبارتهم : « ربنا وسعت كل شىء رحمة وعلما ، فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك » إلى قوله « وقهم السيئات » — فهذا كله قطعى فى حصول الانتفاع بعمل الغير ؛ وهو — كما ترى — يخالف ظاهر آية : « وأن ليس للإنسان إلا ما سعى » إذ ظاهرها أنه لا ينفع استغفار أحد لأحد بوجه من الوجوه ، لأنه ليس من سعيه ، فلا يكون له منه شىء ، فيجب إذن القطع بانتفاء إرادة ظاهر الآية ، ويحتمل حينئذ أن تكون مقيدة بالثواب الذى لم يهبه العامل لغيره ، أما الذى يهبه لغيره ، فإنه يصل وينفع ، ويكون المراد من الآية على هذا ، وأن ليس للإنسان إلا ما سعى : أى إلا إذا وهبه العامل له ، فإنه يصل وينفع .

أما حديث : « إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث » فقد ردوا على المستدلين به ، بأنه إن دل على انقطاع عمل الميت ، فإنه لا يدل على انقطاع عمل غيره ، والكلام فى عمل الغير ، لا فى عمل الميت ، على أنه ليس فيه شىء مما يستبعد عقلا ، لأنه ليس فيه إلا جعْل ماله من الأجر لغيره ، والله تعالى هو الموصل إليه ، وهو قادر عليه ، ولا يختص ذلك بعمل دون عمل .

وأما حديث : « لا يصوم أحد عن أحد ، ولا يصلى أحد عن أحد » فقد قالوا فى الرد على من استدل به : إن ذلك فى حق الخروج عن العهدة ، وسقوط الفريضة ، لا فى حق الثواب ، والانتفاع به .

هذا هو الأصل الكامن وراء تلك المسألة ، والمثير للخلاف فيها ؛ وهذا هو تفصيل موقف العلماء منه ، وبيان حججهم ، وردودهم ؛ والظاهر من مجموعها ، رجحان الرأى القائل بوصول الثواب إلى الغير ، والانتفاع به ، إذا شاء الله تعالى . ؟

دعائم الاستقرار
فى التشريع القرآنى

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد محمد المدنى
المفتش بالأزهر

الدعامة الثالثة :

قد يقتنع الناس بحاجتهم الماسّة إلى التقييد بتشريع معين فى جانب معين ، وبأن السلطة التى صدر عنها هذا التشريع هى سلطة ذات حق مسلم به فى إصداره وتنفيذه ؛ وبهذا وذاك يتهيأ لهذا التشريع عاملان من عوامل تقبّله وارتياح النفوس إليه ، والنزول على حكمه.

ولكن هناك عاملا ثالثا لا بد منه فى استقرار هذا التشريع ، وبقائه محترما ، وعدم تعرضه للعواصف النفسية التى من شأنها إذا ثارت أن تقتلع القوانين ، وتطيح بالنظم . هذا العامل هو ما نعنيه « بالدعامة الثالثة » من دعائم الاستقرار فى التشريع القرآنى ؛ وهو إقناع المكلفين بأن القيود التى أتى بها هذا التشريع قد جاءت على قدر الحاجة دون شطط ولا إسراف ، وعلى قدر الاستطاعة دون تعجيز ولا إعنات .

وقد عُنى القرآن الكريم أشد العناية ببيان أمرين عليهما تقوم جميع التكاليف الإلهية ، وفى دائرتهما كانت جميع الواجبات الإنسانية :

أحدهما : كون الشريعة وسطا ، أو « صراطا مستقيما » .

والثانى : مجىء التكاليف فى حدود الاستطاعة البشرية ، وهو ما يعبر عنه أهل الشرع « بنفى الحرج » .

فأما كون الشريعة الإسلامية وسطا ، فهو ظاهر فيما كلفنا به من العقائد ، وفيما كلفنا به من العبادات ، وفيما رسم لنا من قواعد السلوك الاجتماعي المعبر عنه في الفقه « بالمعاملات » .

١ — فمن ذلك : أن العقيدة الإسلامية في الله جل جلاله ، قائمة على وصفه تعالى بكل جميل ، وتنزيهه عن كل قبيح ، وقد أمرنا بأن نفكر في آثار الله ، ولم نؤمر — بل نهينا — أن نفكر في ذات الله ؛ لأن آثار الله في الخلق والإيجاد والتصريف واضحة يمكن أن نراها بعقولنا كما نراها بعيوننا ، وأن نسبح فيها السبح الطويل دون أن نخشى ضلالا أو نخاف تيها ؛ أما ذات الله فهي فوق العقول التي ألفت التقدير والتكييف ، والتحديد والقياس والتشبيه .

هذه العقيدة في جانب الألوهية كافية للإيمان ، ولو أن امرأً لقي ربه وهو يعلم أنه إله واحد قادر متصف بجميع صفات الكمال ، منزه عن جميع صفات النقص ، لكان إيمانه عند الله مقبولا .

وقد ركب متنَ الشطط قوم حاولوا أن يخوضوا بعقولهم في هذا المجال ، إذ حسبوا أنهم قادرون على إدراك ذات الله وكنه صفاته ، وعقدوا ما شاءوا بين الذات والصفات من نسب ، واختلفوا في أن الثانية هي عين الأولى أو غيرها ، وفي أنها قائمة بها أو مستقلة عنها ، وفي أنها قديمة بقدمها أو لا كقدمها ، إلى غير ذلك من الظنون والفروض التي شغلوا بها أنفسهم وشغلوا بها الناس ، وفتحوا بها على العقول أبواب الشكوك والفتن ، وهم في ذلك إن لم يشبِّهوا فقد قاربوا ، وقالوا على الله بغير علم ، كما زعم الذين قالوا : اتخذ الله ولدا ، أو الذين قالوا : الملائكة بنات الله . فالكل ينسب إلى الله ما لم يأذن به الله ، ويحاول أن يتصور الألوهية تصورا ماديا ، مع أن حقيقة النفس الإنسانية والروح البشرية لم تدرك ، ولم يعلم على وجه يصح ما هي ولا كيف هي ؟ !

كما ركب متن الشطط قوم تناسوا الله وخلقه وتصريفه وقدرته ، فزعموا أن هذه الدنيا وليدة المصادفات أو التفاعلات ، كذلك وجدت ، وكذلك ستظل حتى يصادفها الفساد ، ويدركها نوع من الخلل في النسب والمقاييس .

اشتط هؤلاء وهؤلاء ، ووقف كل منهما فى جانب الألوهية على طرف مناقض : قوم يؤمنون بالإله ولكنهم يقحمون عقولهم فيما ليس لها طاقة به من معرفة كنهه وحقيقته ، وقوم يكفرون به وينكرونه وتعمى قلوبهم عن آياته وآثاره ؛ والقرآن الكريم ينادى أولئك وهؤلاء أن الهدى غير ما تزعمون « وأن هذا صراطى مستقيما فاتّبعوه ولا تتبعوا السبل فتَفرَّقَ بكم عن سبيله » .

يقول الله عز وجل فى حض العباد على التفكير فى خلقه وآثاره وماله من تصريف وتدبير : « إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب » « قل انظروا ماذا فى السموات والأرض » « فانظروا كيف بدأ الخلق » « انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه » « فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحي الأرض بعد موتها » « قل سيروا فى الأرض ثم انظروا » « وفى أنفسكم أفلا تبصرون » .

ويقول الله عز وجل فى وصف نفسه ، وإعلام المخلوقين بأنه فوق ما يعقلون وما يدركون : «وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير» « ليس كمثله شىء وهو السميع البصير» « قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد » « وجعلوا لله شركاء الجنَّ وخلقهم وخَرَقوا له بنين وبنات بغير علم سبحانه وتعالى عما يصفون . بديعُ السموات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة ؛ وخلق كل شىء ، وهو بكل شىء عليم . ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شىء فاعبدوه ، وهو على كل شىء وكيل . لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار ، وهو اللطيف الخبير » .

فالقرآن الكريم لم يأت لنا أبدا بشىء يفصح عن ذات الله تعالى من حيث الحقيقة والكنه ، وإنما هو يلفت دائما الى آثار الله فى الخلق والتصريف .

وقد قص الله علينا ما كان من نقاش بين نبيه موسى عليه السلام ، وفرعون حين أعلنه بأنه مرسل من رب العالمين ، فأراد فرعون أن يمكر به ، وأن يقحمه فى ورطة لاخلاص له منها : « قال فرعون : وما رب العالمين » سأل عن حقيقة الرب ، لأن السؤال بما ، لطلب الحقيقة ، فلو حاول موسى أن يجيبه عما سأل لحاول محالا ، وأثار على نفسه نقاشا وجدالا ، ولو سكت عن الجواب لبان عجزه ؛ ولكن

موسى رد على فرعون ردا حكيما « قال : رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين » فكأنه قال له : ليس لك أن تسأل عن ذات الله وحقيقته ، فذلك فوق عقلك وفوق قدرتك وفهمك ، ولكن سل عن آثاره تعلم أنه رب كل شيء في السماء والأرض وما بينهما خلقا وتصريفا وحكما وعلما . وهذا هو الجواب الحق ، لأن ذات واجب الوجود سبحانه وتعالى يستحيل أن تعرف بالماهية التى تستدعى التركب من الأجزاء ، فلم يبق إلا أن يعرف بآثاره وأفعاله ؛ وقد تناسى فرعون ذلك لأنه لا يريد إلا المجادلة بالباطل : « قال لمن حوله : ألا تستمعون ؟ » يعنى فلتعجبوا له ؛ أنا أسأله عن الماهية والحقيقة ، وهو يجيبنى بنسبة الآثار إليه خلقا أو تصريفا . وعندئذ عدل موسى إلى جواب آخر : « قال : ربكم ورب آبائكم الأولين » وفيه أيضا معنى لفته إلى عدم إمكان السؤال عن الذات ، مع انتقال إلى بيان أثر آخر من آثار القدرة الإلهية هو أقرب وضوحا من الأول ، لأن أمر السموات والأرض ربما أشكل على بعض العقول ، أما شعور العاقل بأنه مخلوق متناسل من مخلوقين فهو أقرب قبولا ، وليس من السهل إنكاره . ولكن فرعون أصر على أن الجواب غير السؤال ، واشتد فى هذه المرة مالم يشتد فى المرة السابقة : « قال : إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون » أى فهو لا يفهم السؤال فضلا عن أن يجيب . وهنا أجابه موسى بأثر آخر من آثار القدرة الإلهية هو أشد الآثار وضوحا وجلاء : « قال : رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون » . فالمشرق يشير إلى طلوع الشمس وظهور النهار ، والمغرب يشير إلى غروبها ومجىء الليل ؛ وهذان أمران دائمان مستمران لاشك أنها عن تدبير وقدرة من مدبر قادر .

فى هذا كله يظهر لنا مبلغ إصرار فرعون ، وهو المتكلم بلسان أهل الباطل والإضلال ، على اقتحام مالا يقتحم ، ومحاولة البحث عما لا سبيل الى معرفته ، ليتخذ ذلك سبيلا الى الفتنة والشك ، وإلقاء الريب فى النفوس المستعدة بطبعها للإيمان ؛ ويظهر لنا إصرار موسى ، وهو المتكلم بلسان أهل الحق والهداية ، على صرف الحديث عن ذلك المقتحم الصعب ، والاكتفاء بمعرفة الله عن طريق آثاره وآياته ؛ وهذه ولا شك سبيل المؤمنين ، وهى سبيل وسط بين الموغلين فى تصور الألوهية كما تتصور المادة ، والموغلين فى إنكارها مع وجود آثارها ، ووضوح أفعالها وتدبيرها .

فهذا مثال من التوسط فى العقيدة ؛ ولنا غيره من المثل لو أردنا استقصاءه لما اتسع لنا مجال هذه المقالات ، ولكننا نشير الى بعضه :

٢ — فمن ذلك عقيدة الإسلام فى التوسط بين الزاعمين بأن الإنسان مجبور ظاهرا وباطنا ، والزاعمين بأنه خالق لكل فعل من أفعال نفسه دون دخل لله .

فى القرآن آيات يستدل بها هؤلاء ، وآيات يستدل بها هؤلاء ، والنقاش والجدال بينهما طويل ؛ ولكن المتأمل المنصف الخالى من التعصب يستطيع أن يعلم الحق ، وأن يراه واضحا فى كتاب الله ، كما هو واضح فى الواقع .

بيان ذلك : أن كلاًّ منا يشعر فى نفسه بأمرين لا يستطيع أن يجادله فيهما مجادل : أحدهما : أنه فاعل متصرف يأتى الشىء بإرادته ، ويمتنع عنه بإرادته ، فمن قال إنه مجبور على الأفعال كالريشة فى مهب الريح فقد أنكر هذا الإحساس ؛ والثانى : أنه مع ذلك تحيط به ظروف وأسباب فى الكون والمجتمع ، خارجة عن إرادته ، ليس له فى تكييفها تأثير ، وهذه الظروف قد تعطل إرادته فى بعض الأحيان فلا يتم تنفيذها ، وقد تلائم هذه الإرادة فتتم ؛ فإذا نظرنا إلى هذه الظروف وتلك التأثيرات الخارجة عن إرادة الإنسان ، والتى لها حظ فى التمام أو عدم التمام ، كان لنا أن نعتبر أن إرادة الإنسان ليست هى كل شىء ، وأنه لا يتم بمجردها حصول شىء من الأشياء أو عدم حصوله ؛ ولما كانت هذه الأسباب ، أو هذه الظروف ، ليست من صنع فرد أو أفراد ، أو هى منتهية إلى أن تكون كذلك ، وأن ترجع إلى الخالق جل وعلا ، علمنا أن للعبد جانبا من الفعل والإرادة ، وأنه مسوق فيما وراء هذا الجانب بقوى ، وخاضع لأسباب من صنع الله .

على أن إرادة الإنسان فعلَ شىء من الأشياء لا تأتى ارتجالا ، وإنما تتكون حسب التأثيرات المحيطة به أيضا ، وربما كان لإرادة الغير تحكم فيها من حيث لا يشعر الإنسان .

فالحاصل : أن الإنسان فاعل مختار ، ولكنه فى نفس الوقت مقيد بما يشعر به وما لا يشعر به من القيود التى تفرضها الظروف والأسباب والأحوال المحيطة به ؛ فالأمر فى شأنه وسط . وبمثل هذا نفهم معنى قوله تعالى :

« والله خلقكم وما تعملون » حيث أسند الفعل للعبد والخلقَ لله ؛ فالعبد مباشر ، والله هو المهيء لأسباب تلك المباشرة ، ولولا تهيئته لم تتم . وكذلك نفهم مثل قوله تعالى « وما رميتَ إذ رميت ولكن الله رَمىَ » وقوله « إن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذى ينصركم من بعده » ، ونفهم لماذا نفعل الفعل ونسأل الله فيه التوفيق .

٣ — كما يفيدنا ذلك أيضا فى إدراك معنى التوكل الصحيح الذى هو مزيج من الثقة بالله والتوجه إليه ، والتماس الأسباب والسعى لها ؛ فالتوكل الصحيح توسط بين الذين يعتقدون أن الأمر كله للأسباب والأمور المادية ، والذين يظنون أن التوجه الى الله يقتضى إبطال السعى والعمل .

٤ — ومن الأمثلة التى تدل على أن ما جاء به الإسلام من العقائد وسط ، منهج الُحذاق فى الإيمان بالغيب ، حيث يتوسطون فلا ينكرون شيئا ورد عن المعصوم ، ولو خالف بظاهره العقل ، ولا يتوسعون فيؤمنون بتفاصيل لم ترد عن طريق صحيح كما يفعل الجاهلون والمسرعون الى تصديق كل ما يروى دون فحص ولا تثبت .

الى غير ذلك من المُثل التى نرى فى القرآن توضيحا لها وتبيانا ، ولا يتسع المجال لبسطها والإفاضة فيها .

* * *

وكما يقال هذا فى العقائد الإسلامية ، يقال فى العبادات التى كلفنا الله بها ، والمعاملات التى رسم لنا طريق السلوك فيها .

فالصلاة : انقطاع عن المادة واتصال بالروح الأعلى ، ولكن فى أوقات مناسبة محصورة ، بحيث لا ينخلع الإنسان من حياته وأعماله ونشاطه ، ولا ينخرط فيها انخراطا كليا فتظلم نفسه ، ويتبلد حسه . والصوم ليس حرمانا كاملا بالليل والنهار ، أو قصرا على بعض المباحات دون بعض ، وإنما هو حرمان وقتى لمدة ساعات محدودة ،لك بعدها أن تتناول كل ما تريد من المباح ، وأن تلابس ما أحل الله لك ، فيجتمع لك من هذا وذاك تربية الروح ، وتلبية الجسم .

وقل مثل هذا فى الزكاة ، والحج ، والنكاح ، والطلاق ، وحل البيع ، وحرمة الربا ، والاعتراف بالحرب مع النهى عن الاعتداء ، والأمر بأخذ الحذر مع النهى عن الإسراف فى التظنن ، وتشريع القصاص مع العدل والمساواة فيه ، وإباحة الانتصار للنفس مع الترغيب فى جانب العفو ، وغير ذلك مما كلفنا الله تعالى به ، وكانت سنة الإسلام فيه التوسط ، دون ميل الى جانب التفريط ، أو جنوح الى ناحية الإفراط .

والقرآن الكريم يعبر عن هذا المبدأ الذى تظهر آثاره فى كل تشريع بمثل قوله « وكذلك جعلناكم أمة وسطا » « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا » « كلوا واشربوا ولا تسرفوا » « وكان بين ذلك قواما » « إنه لا يحب المسرفين » « ولا تطيعوا أمر المسرفين » « إن الله لا يهدى من هو مسرف » « وأحل الله البيع وحرم الربا » « لاتظلمون ولا تظلمون » « لا تُضارَّ والدة بولدها ولا مولود له بولده » « وإما تخافنّ من قوم خيانة فانبِذ إليهم على سواء » « وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله » « ولكم فى القصاص حياة » « يأيها الذين آمنوا خذوا حذركم » « ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمنا » « ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل . إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون فى الأرض بغير الحق » « وأن تعفوا أقرب للتقوى ولا تنسوا الفضل بينكم » .

الى غير ذلك من الآيات ؟ « يتبع »

استعطاف

كتب النابغة الذبيانى للنعمان بن المنذر ملك الحيرة بالعراق فى الجاهلية يتنصل إليه مما بلغه عنه من أبيات :

فان أك مظلوما فعبد ظلمته ... وإن تك ذا عتب فمثلك يعتب
حلفت فلم أترك لنفسك ريبة ... وليس وراء الله للمرء مذهب
لئن كنت قد بُلغتَ عنى جناية ... لمبلغك الواشى أغش وأكذب
ألم تر أن الله أعطاك صورة ... ترى كل ملك دونها يتذبذب
فإنك شمس والملوك كواكب ... إذا طلعت لم يبد منهن كوكب

عـدة المؤمنين
فى وقت الحرج

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبد الرحيم العـدوى
شيخ معهـد فؤاد الأول بأسيوط

لايخلو إنسان فى هـذه الحياة التى ملئت بالكوارث والحروب والنوازل والخطوب ، من هم يقض عليه المضاجع ، أو شجن يستثير المدامع ، أو حسرات تنم عنها فى الغالب الزفرات ؛ غير أنهم متفاوتون فى أشجـانهم ، متباينون فى أحزانهم ؛ هذا يبكى الطلول التى خلت من أقمـارها ، ويندب أحبابا كانوا كالزهور فى أكمامها ، وذاك ينوح على فلذة كبد طواها الردى وضمها الثرى ، وآخر تهيج به ذكريات حسب ضـاع ونسب أبيد ؛ وغير هؤلاء وهـؤلاء من ليس على غرارهم أزعجه أن غاض معين الوفاء ، ونضب سلسبيل الهناء ، يذكر الأصدقاء وخيانتهم ، والأبناء وعقوقهم ، ويسكب الدمع السخين فى إثر أمل ضائع ، وأمانىّ صارت كالسراب .

وهناك رجل آخر يقول : ما بال هذا الزمان أضيق رزقا ، وأنضب حياء ، وأفسد خُلقا ، وأقل سعادة وأنسا ، تبرما بقساوة الحياة ، وفرارا من جمود الواقع . يضعف عن احتمال الشـدة ، ويضيق ذرعا بمرارة العيش . وليس كل أولئك بذوى أشجان ، عند الباحث الفيلسوف ، الذى يستشف هواجس النفوس ، وينظر من وراء حجـاب إلى خلجات الضمائر ، وإن كانوا خليقين بهـذا الاسم فى نظر العواطف ؛ بل الحقيق بأن يكون ذا شجن فى نظر الفيلسوف ، ذلك الشخص الذى يقلب الدهر له ظهر المجن ، فى كل خطوة يخطوها ، فكلما بنى صرحا لوطنه ، هـدمه الزمن ، وكلما وضع لبنة فى سبيل هناءة الجماعـة ، ذهبت بها الأيام ، وأتت عليها . وكذلك الشخص الذى يكون مطمح النفوس ، وموئل الرجاء ، فيخيب أمل الناس فيه ، ويتـلاشى رجاؤهم عنده ؛ هو أيضا حرى بأن يـكون من ذوى الأشجـان ، فى نظر الباحث الفيلسوف .

وإذا كان قد قدر لـكل قلب أن يأخذ نصيبه من آلام الحياة وأشجانها ، فقد قدر للأمم أيضا هذا النصيب ، وهيء لها مكانها بين الزعازع . وفى تقلبات الأيام ، وحوادث الزمن صور شتى لتلك المآسى بين الأمم ، هى أدلة يقينية على أنها لا تمتاز عن الفرد إلا فى الشكل ، لا فى الموضوع .

وقد أنشأ الله الحياة الدنيا لتكون دار محنة وبلاء لعباده جميعا حتى الأنبياء أخذوا من المحن والبلايا بنصيب ، فجاهدوا الباطل ، وجالدوا أهل العناد ؛ دعوتهم الحق ، والحق على أولئك ثقيل ، وعدتهم الصبر ، والصبر كليل .

فلا غرو إذا عاشوا غرباء فى الأرض ، لأنهم من السماء ، وكانوا أمثلة لبؤس العيش ، لأنهم مثل عليا للمواعظ والعبر ؛ ومصـداق ذلك قول الله عز وجل فى الـكتاب الحـكيم ، مخاطبا المؤمنين «أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولمّا يأتكم مثل الذين خلوا من قبلـكم : مستهم البأساء والضراء ، وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ، ألا إن نصر الله قريب » . على أن ضيق الرسل بالشدائد لا يكون إلا بمقدار ما فيهم من صفات البشر ، وما جبلوا عليه من غرائز الإنسان ، ولـكن لا تلبث آلامهم أن تتلاشى ، ووقع الخطوب على نفوسهم أن يهين ، حين تشع على قلوبهم ما فيهم من قوة الروح ، وما بين جوانبهم من قوى اليقين .

وقد رسم الله لعباده المؤمنين طريقا يسلـكونه فى وقت الشدائد ، ويلوذون بكنفه فى المحن ، ويلجئون إليه إذا عبس الدهر أو تنكر الزمن ؛ طريقا معبّـدا غير ذى عـوج ، وسبيلا ممهـدا لا يحتاج لأكثر من يقظة الضمير وانتباه النفس والإحساس الصادق السليم ؛ فالمؤمن الحق يحمل بين جنبيه عقيدة صادقة ، تهدى البصر ، وتنير البصيرة ، وتحول بينه وبين المخالفة والعصيان ، وتغرس فى الغرائز النفسية القوة والصلابة ، فلا يتبرم بخَـطب ، ولا يهن عند شدة .

على أننـا لو مُنحنا فصاحة سحبان ، أو بلاغـة الأيادى ، ما كان فى مكنتنا حصر الآثار الـكريمة لعقيـدة الإيمـان ، ولا الإتيان على ما تلده من فضائل . فلنـكتف إذاً بسرد بعض تلك الآثار ، وعرضها فى صور محدودة ، وهى إذا تمت للمؤمن ، لقى الشدائد بقلب المطمئن الآمن ، وتحمل الأزمات بصبر أولى العزم ، نخدم أمته ووطنه ، فى وقت الحرج .

فمن سلاح المؤمنين فى وقت الحرج : الإقلاع عن الذنوب ، واتقاء المخالفة ، وتطهير النفس من دخائل الحقد والضغينة ، والإنابة إلى الله ، والرجوع الى حماه ، واستدراك ما فات من التقصير ، فإن الشدائد أغلب ما تكون جزاء عن المعاصى ، والغفلة عن عقاب الله : « إن الله لا يُغيّر ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم ، وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له ، وما لهم من دونه من وال » ؛

ومن عدة المؤمن فى وقت الشدة ، ومن ذخائره فى الأزمات : الصدق ، الذى يقول فيه الرسول الكريم : « تحروا الصدق ، فإن الصدق يهدى إلى البر ، والبر يهدى إلى الجنة ، وإن المرء ليتحرى الصدق ، حتى يكتب عند الله صِدِّيقا » .

وقال الأحنف بن قيس لابنه : يابنى ! يكفيك من شرف الصدق أن الصادق ليقبل قوله فى عدوه ؛ ومن دناءة الكذب أن الكاذب لا يقبل قوله فى صديقه ولا عدوه .

قيل : مرّ عمر بن الخطاب بعجوز تبيع اللبن ، فقال : ياعجوز ! لا تغشى المسلمين ، ولا تشوبى لبنك بالماء . فقالت : نعم ياأمير المؤمنين . ثم مر عليها بعد ذلك فقال : ياعجوز ! ألم أعهد إليك أن لا تشوبى لبنك بالماء ؟ فقالت : والله ما فعلت ياأمير المؤمنين . فتكلمت بنت لها من داخل الخباء ، فقالت : ياأماه ! أغِشا وحِنثاً ؟ ! فسمعها عمر ، فأعجبته ، وقال لولده : أيكم يتزوجها ، فلعل الله أن يخرج منها نسمة طيبة ؟ فتزوجها ابنه عاصم ، فكان من ذريته سيدنا عمر بن عبد العزيز .

فالصدق فى كل الأحوال حسن ، طيب الأثر ، وهو فى وقت الحرج أنسب بالمؤمن ، وألصق بعقائد المؤمنين ؛ فالمؤمن يصدق فى القول ، فلا يكذب ، ولا ينشر الإشاعات الكاذبة ، التى ترهف الأعصاب ، وتهيج النفوس الآمنة ، وتجنى على الأمة والوطن البلايا ، من الخوف والذعر ، والفوضى والاضطراب .

فالذى يكون سبباً فى حصول هذه الزلزلة ، يكون عضواً فاسداً فى الأمة ، يجب بتره ، لتتوفر للأمة طمأنينتها ، ويجتمع لها الاستقرار والأمان .

ويصدق المؤمن فى الفعل فـلا يغش المسلمين ، ولا يخونهم ؛ ويصـدق فى السلوك ، فيكون مظهره عين مخبره ، وعلنه ترجمـان سرّه .

ومن ذخائر المؤمنين فى وقت الحرج : اتحـاد الـكلمة ، وضم الصفوف ، لتلقى الأمة الخطب بجهود بنيها ، ولتكون كتلة واحدة فى الشدة ، فلا تنفصم لهـا عروة ، ولا يفك العـدو ما بين بنيها من أواصر الدين ، ووشائج الوطنية . عنـد ذلك تسير أعمالهـا فى طريق الإصلاح العام ، ويـكثر إنتاجها لخـير البـلاد ، وسعادة العباد . فعلى قادة الأمة وذوى الرأى فيها ، أن يعملوا على ذلك بمـا أوتوا من قوة ، فقد جـد الجد ، واشتد الـكرب ، وما من عار أن يضحى الشريف الـكريم ، والزعيم العظيم ، ببعض وقته ، فى سبيل هـذا المقصد النبيل ، وأن تتصافى القـلوب ، وتتساقى النفوس كئوس الحب الخـالص ، ليـكون لهم فى صفحات التاريخ الأثر الخـالد ، والذكرى التى يفوح عبيرها على مر الدهور ، وكر السنين ، وينقلها الجيل بعد الجيل .

ومن عدة المؤمنين فى وقت الحرج : حسن القدوة .

أجل ! فإن حسن القدوة بليغ الأثر فى وقت الشدة ، وها هو الزمان زمان شدة والعصر عصر قحط وبلاء ، يلاقى فيه العامل البسيط ، والفلاح الـكدود ، شظف العيش وخشونته ؛ غَلَت الأقـوات ، وضنت السماء بالمـاء ، وبخلت الأرض بالنماء ، فارتفعت الأسعار ، وطمع التجار ، فقاسى الفقير من الشدة ما أثقل كاهله ، وأحنى ظهره ، وهو ينظر إلى بعض مواطنيه وهم يسرفون فى الكماليات ، ويبالغون فى النوافل والزيادات ؛ ولو أنهم أحسنوا الى أبناء وطنهم ، لشاركوهم فى خشونة العيش ، ولو بقـدر ؛ أو حـكموا الدين والأخـلاق ، لواسـوهم فى بأسائهم ، فى كل نازلة . فقد كان كبار المسلمين فى العصر الأول ، قدوة حسنة للرعية ، ومظهراً صادقا لحسن الأسوة .

فقد لبس عمر رضى الله عنه المرقع من الثياب ، وأكل خبز الشعير من غير إدام ؛ وعمر إذ ذاك يجبى إليه خراج : العـراق ، والحجاز ، ومصر ، والشام ،

وما إلى ذلك ينضم ؛ وتتدفق إليه كنوز فارس والروم ، على يد أبطال الإسلام الفاتحين . فكان فعله هذا أخاذاً بقلوب الرعية ، مستولياً على مشاعرهم ، فكانوا لذلك لايضعفون عند خطب ، ولا تلين قناتهم لشدة ؛ فكان عمر بسيرته سائس أمم ، ومربى دول ، وراعى ممالك .

قالوا : استعمل عمر على حمص « عمير بن سعيد » ؛ فلما مضت السنة ، استدعاه فلم يشعر عمر إلا وقد قدم عليه عمير ، ماشياً ، حافياً ، عكازته بيده ، وإداوته ، ومزوده ، وقصعته على ظهره ؛ فلما نظر إليه عمر ، قال : ياعمير ! أأجدبت البلاد ، أم البلاد بلاد سوء ؟ ! فقال : ولمه ، يا أمير المؤمنين ، وقد جئت إليك بالدنيا ، أجرّها بقرابها ؟ فقال له عمر : وما معك من الدنيا ؟ قال : عكازة أتوكأ عليها ، وأدفع بها عدوا إن لقيته ، ومزود أحمل فيه طعامى ، وإداوة أحمل فيها ماء شرابى وطهورى ، فوالله يا أمير المؤمنين ما الدنيا بعد إلا تبع لما معى ! . فقام عمر إلى قبر الرسول ، وقبر أبى بكر ، فبكى ساعة ، ورجع الى عمير ، فقال : ما صنعت فى عملك ياعمير ؟ فقال : أخذت الإبل من أهل الإبل ، والجزية من أهل الجزية ، عن يد وهم صاغرون ، ثم قسمتها بين الفقراء ، والمساكين ، وأبناء السبيل ، ولو معى شىء لأحضرته إليك . فقال له عمر : عد إلى عملك يا عمير ، فقال : يا أمير المؤمنين ! ناشدتك الله ، إلا رددتنى الى أهلى ! . فأذن له عمر ، وأرسل خلفه من يعرف جلية أمره ؛ وإذا بعيشه فى أهله ، خبز الشعير ، فرفع الرجل الى عمير مائة دينار ، كان قد بعث بها عمر إليه ، فصرفها فى الحال فى إخوانه الفقراء ، فرجع الرقيب الى عمر يقول : جئتك من عند أزهد الناس ، وماعنده من الدنيا قليل ولا كثير ! . فكان عمير هذا صورة صادقة لزهد الولاة ، وحسن سياستهم فى الرعية . وكان فى مقالته لعمر أفصح واعظ ، وأبلغ مذكر .

فبمثل هؤلاء تسعد الأمم ويكثر رجاؤها ، وتؤمن الفتن والزلازل . فجزاهم الله عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء .

ومن الفضائل التى يلجأ إليها المؤمن فى وقت الشدة : الصبر ، والصبر ملاك الخير فى كل النواحى ، وعنوان الرجولة الكاملة ، وماالمخترعات إلا بالصبر . فالصبر مطية لا تكبو وإن عنف عليها الزمان ، فهو مطية النصر والظفر ؛ ولذا

يقول القـرآن الـكريم : « يأيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا ، واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون ، وأطيعوا الله ورسوله ، ولا تنازعوا فتفشلوا ، وتذهبَ ريحُكم ، واصبروا إن الله مع الصابرين » . فالله مع الصابرين فى الشدائد يعينهم ، ويشد أزرهم ، لأنهم انتظروا النصر منه ، وعوّلوا عليه فى عقبى أمرهم ، واعتمدوا عليه فى كل شئونهم .

وفى قصة غزوة بدر فى القـرآن الـكريم ، ما يشير إلى نتائج الصبر ومكانة التقوى ، من أنها بشير النصر ، إذ يقول جل وعز : « ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة ، فاتقوا الله لعلكم تشكرون ، إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين ، بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين » ويقول : « إن تمسسكم حسنة تسؤهم ، وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها ، وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً ، إن الله بما يعملون محيط » . وليس المراد بالتقوى مجرد امتثال الأوامر واجتناب النواهى ، بل هى هنا أوسع مجالا وأرحب فناء ، وأعم دائرة . إنها والحياة حياة جهاد ، تشمل اتقاء الوسائل المنافية للحياة الراقية ، اتقاء وسائل الخزى والعار ، اتقاء وسائل التدهور فى الجماعة والفرد .

يقول ابن عباس رضى الله عنه : عقمت النساء أن تأتى بمثل على بن أبى طالب رضى الله عنه ، لَعهدى به يوم صفين ، وعلى رأسه عمامة بيضاء ، وهو يقف على شرذمة من الناس يحضهم على القتال حتى انتهى إلىّ وأنا فى كنف من الناس ، وفى أغيلمة من بنى عبد المطلب ، فقال : يا معشر المسلمين ! تجلببوا السكينة ، وأكملوا اللأمة ، وأقلقوا السيوف فى الأغماد ، وكافحوا بالظبا ، وصلوا السيوف بالخطى ، فإنكم بعين الله . عاودوا الكر ، واستحيوا من الفرّ ، فإنه عار فى الأعقاب ، ونار فى الحساب ؛ وطيبوا على الحياة أنفسا ، وسيروا الى الموت سيراً سُجُحاً (أى لينا سهلا) . واصبروا فإن الشيطان راكب صعدته ؛ فصمداً صمداً ، حتى يبلغ الكتاب أجله ، ثم قرأ : « قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ، ويشف صدور قوم مؤمنين » .

ابن مضاء القرطبي

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد على النجار
المدرس بكلية اللغة العربية

ز — وفى ص ٣٧ يذكر الأستاذ أن ابن مضاء يلغى القياس متأثرا بنزعته الظاهرية ؛ ولا يكاد الباحث يصدق أن نحويا يلغى القياس . واللغة تعتمد على القياس فى كثير من مظاهرها ، ولو أغلق باب القياس لماتت اللغة ، ودخل على الناس من ذلك حرج وضيق . فالقياس جار فى اللغة العربية ، فى لسان العرب ، وفى لسان من حذا حذوهم من المستعربين .

ولا نرى فى كلام ابن مضاء تصريحا بهذا الإلغاء الذى ينحله إياه الأستاذ شوقى الناشر لعلم ابن مضاء ؛ وإنما ينعى القرطبى على النحاة أنهم قد يخطئون فى العلل ، وقد يقيسون الشىء على الشىء ، دون حاجة إلى القياس ؛ إذ يكون المقيس قد علم أمره ، واستقر حكمه ، وقد يكون الشيئان فى درجة واحدة ، فى استحقاق الحكم اللغوى ، وقد لايكون فى المقيس العلة التى استحق بها المقيس عليه الحكم . وعمود حديثه الكلام على العلل الثوانى والثوالث . وقد استجره هذا إلى الكلام على إعراب الفعل المضارع ، وقياس البصريين إياه على إعراب الأسماء ، وهو لايرى هذا ، بل يرى أن الإعراب أصل فى المضارع ، كما هو أصل فى الأسماء ؛ إذ الداعى إلى الإعراب ـ وهو التمييز بين المعانى المتواردة على الكلمة ـ موجود فى الفعل ، كما هو فى الاسم على السواء ؛ وليس من دهرى فى هذا البحث ، أن أبحث فى رأى ابن مضاء هذا، وإنما همى أنه فى هـذا المقام لايقول بإلغاء القياس .

هو يعيب النحويين فى قياسهم الفعل على الاسم فى الإعراب ، ويذكر أوجهاً أخطئوا فيها ، حين عالجوا هذا القياس ، وحين نسبوه الى العرب ، والعرب أحكم من أن يقعوا فى هذا القياس الفائل الذى تصوره النحاة .

ويأتى الأستاذ فى هذا الموطن ، ويضع على ابن مضاء العنوان : « الدعوة الى إلغاء القياس » . ولا يضع أيدينا على الموضع الذى ينبئ عن هذه الدعوة المنكرة .

ويقول الأستاذ فى تعليقه على هذا الموطن : « يلاحظ ابن مضاء هنا أن النحاة لم يدرسوا القياس دراسة صحيحة كما يعرفها الفقهاء » . وإنى أوافقه على هذا ، ولا أوافقه على أنه يقول بإلغاء القياس . ولو أن الأستاذ جعل العنوان : « الدعوة الى تهذيب القياس » لكان له وجه من الحق ، وسند من الواقع . وكيف يدعو ابن مضاء الى إلغاء القياس ، وهو قد قاس فى بعض المواطن دون أن يحس فى ذلك أنه يخالف ما رَسَم فى كتابه ؟ فهو يقول فى ص ١١٥ : « فإن قيل : النحويون لم يذكروا فى هذا الباب — يريد باب التنازع — إلا الفاعل والمفعول والمجرور ، وهنا معمولات كثيرة ، على مذهبهم ؛ كالمصادر والظروف والأحوال والمفعولات من أجلها ، والمفعولات معها ، والتمييزات ؛ فهل تقاس هذه على المفعولات بها ، أو لا تقاس ؟ قيل : أما المصدر فالظاهر من كلامهم أنه لا يكون فى هذا الباب ؛ وذلك أن المصادر إنما يجاء بها لتأكيد الفعل ، والحذف مناقض للتأكيد ... وإن قُصد بالمصدر تبيين النوع ، كان أشبه بالمفعول به » . ويمضى ابن مضاء فى قياس سائر المعمولات على المفعول به .

والحق أن ابن مضاء يدعو إلى عدم الإسراف فى تلمس العلل ، وعصر الذهن فى استخراجها ؛ ومن النحويين من سبقه الى وجوب الاقتصاد فى العلل ؛ فهذا أبو حيان ، رأى النحويين يعللون كسر تاء المؤنث ، فى نحو أنت ضربت ، فلا يعجبه ذلك ، ويقول [1] : « وهذه التعاليل لا يحتاج إليها ؛ لأنها تعليل وضعيات والوضعيات لا تعلل » .

وقد ركب ابن مضاء متن الإسراف فى هذا ، فسوّى بين حركات البنية ، وكسر العين ، فى عظلم ، وبين الحركات فى الأواخر التى يجتلبها العامل .

٢ — وفى مبحث : « حاجة النحو الى تصنيف جديد » ، ترى الأستاذ

(١) الهمع ج ١ ص ٥٦

صاحب المدخل ، يلقى عبء النحو الذى بيد الناس ، وثقله ، على العامل ، ويحمّله من ذلك ما يقع تحته طليحا موقّعا .

وفى الحق أن صعوبة النحو ، من صعوبة موضوعه : الإعراب والبناء ، وسيظل نحو العربية متشعّب الأطراف متعدّد المناحى ، مادام فيها إعراب وبناء . والبناء لا يعجبنْ أحد أن يكون سبب العسر ، فهو فى العربية يكون على الحركات والسكون ، كالإعراب . وما أخلق العامل أن يتمثّل ـ إذ ينسب إليه ظلما العسر ، وهو منه برىء ـ بقول الشاعر :

حمّلتنى ذنب امرىء ، وتركته كذى العُرّ : يكوَى غيره وهو راتع

وترى صاحب المدخل يحتج إذ يدّعى أن العامل مجلبة للعُسر ، بأنه يشغل النحويين بشروطه ، ومواضع حذفه ، وتقديمه وتأخيره ، وغير ذلك من أحوال العامل ، التى عُنى بها النحاة . وهذه الأحوال لا تمتّ الى النطق بصلة ، عند صاحب المدخل ؛ ومن رأيه ألا يهتم النحاة إلاّ بما يفيد نطقاً . والنحويون إذ يبحثون فى شروط العامل ، ومواطن حذفه وتقديمه وتأخيره ، يرون أنهم يبحثون فيما يفيد نطقاً ، ويحاولون جهدهم أن يصوّروا ما جرى عليه العرب ، حتى يكون المؤتسى بهم جاريا على سَننهم ، غير منحرف عن منهاجهم ؛ ولصاحب المدخل أن ينقدهم فى علل العمل مثلا ، واختلافهم فيها .

وفى الحقّ أن هذا فضل فلسفة ونظر ، يكون مثله فى سائر العلوم المدونة ، إشباعا لنهمة النفوس المُطلّعة .

والواقع أن علل العمل وتاريخها ، لا يزال البحث فيها ناقصا ؛ وقد يَهتدى الى الحقّ فيها بعد إحسان درس اللغات الساميّة القديمة .

ويرى صاحب المدخل أن إلغاء العامل ينشأ عنه ترتيب النحو على غير الترتيب الراهن ؛ فإن هذا يتيح أن يُجمع الإلف الى إلفه ، والشىء الى وفقه ، ويضمّ اللفق الى لفقه ؛ وقد أفاض فى ذكر الأمثلة للترتيب المقترح . والنحويون ما عدَوا أن سلكوا هذا المسلك ، فضمّوا الشىء الى إلفه ، وقد يكونون فى هذا أحكم نظراً ، وأسدّ رأيا .

وسأعقب على بعض كلام الأستاذ صاحب المدخل :

(ا) فى ص ٤٩ : يذكر أن ابن مضاء دعا إلى تيسير النحو ، وإلغاء العامل ، فلم يستجب له نحاة المغرب ، ولا نحاة المشرق ؛ وقد علمت السبب فى هذا الانصراف عن رأى ابن مضاء ، وأنه لا يقوم على أساس صحيح ، ولو كان فى مذهبه قوة وصلاح ، لصلح للبقاء ؛ ومثله فى ذلك ، مثل مذهب الظاهرية فى الفروع ؛ فهو مذهب ليس له أتباع وأنصار ، ولم يرزق من النضج والسداد ما ينافس المذاهب الأخرى . وقد كان الأستاذ صاحب المدخل حريًّا أن يسعه ما وسع النحاة من قبله ، أو أن يستريب فى رأى ابن مضاء ، فلا يقدم على تحبيذه واعتناقه ، قبل تمحيصه وتبيّن الحق فيه .

(ب) وفى ص ٥١ ، وما بعدها : ينعى على النحاة تقسيمهم العوامل ، إلى عوامل قوية ، وعوامل ضعيفة ، ووضعهم للعمل شروطاً وحدوداً . والنحويون إذ يشترطون للعمل شروطاً ، إنما يستنبطون ذلك من الكلام العربى ، على حسب ما بلغهم عن العرب ، أو شافهوهم ؛ وقد كان منهم من خالط العرب فى محاوراتهم وأحاديثهم ، كأبى عمرو بن العلاء ، والخليل ، والكسائى ، فلم يضعوا ما وضعوا من ذات أنفسهم ، ولا اتباعا لهوى أو خيال .

(ج) « فما » و « لا » الحجازيّتان ، هل يرى أن يرتفع المبتدأ بعدهما ، وينتصب الخبر دون شرط ؛ فيقال : ما مسيئاً مَن أعتب ، وما محمد إلا رسولا ؟ وهل يرى إذا قيل هذا أن هذا القول موافق لغة الحجاز ؟ إن النحويين لم يفعلوا بشروطهم إلا أن يكونوا أمناء فى تصوير الصورة التى نطق بها الحجازيون ، وما كانوا فى شروطهم مسرفين أو راغبين فى التعقيد .

(د) وكذلك القول فى نواصب المضارع : يرى الأستاذ إهمال شروطها ، ووضعُ شروطها يحقق ما جرى عليه العرب ، والإخلال بها إخلال بنطقهم ؛ ولو درسنا من النواصب (إذن) وجرينا على مذهب صاحب المدخل ، فوضعنا أنها تنصب مطلقاً ، لكان الدارس لهذا ينصب المضارع ، فى نحو (زيد ينجح إذن) ، و (هو إذن ينجح) والنصب فى هذا لا يوافق لغة العرب .

(هـ) ويقول فى شأن حروف الجر: إن النحاة يشترطون فيها أن تتكرر حين تعمل فى اسمين متعاطفين، وأن تتصل بمعمولها. ويعاهد نفسه أن يحذف هذا من النحو الجديد.

والحكم الأول الذى نسبه إلى حروف الجر أرسله حيث قيده النحاة، وكأنه جرى على طريقته فى الإرسال والإهمال، و «ما هكذا ياسعد تورد الإبل». ذلك أن النحاة إنما يضعون هذا الحكم عند العطف على الضمير المخفوض، بحرف أو اسم؛ كما فى قوله تعالى: «فقال لها وللأرض»؛ فأما فى غير ذلك نحو: مررت بمحمد وعلى، فلا يقول نحوى بوجوب التكرار؛ ومن ذلك قوله تعالى: «ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات». على أن المسألة الأولى ليست مجمعا عليها؛ فمن النحويين من لايوجب التكرار، ويخرّج على ذلك قراءة حمزة: «واتقوا الله الذى تسأءلون به والأرحام» بجر الأرحام -، ومما جاء دون تكرار قول الشاعر:

فاليوم قد بت تهجونا وتشتمنا فاذهب فما بك والأيامِ من عجب

وقد عرض لهذا ابن مالك فى قوله:

وعود خافض لدى عطف على ضمير خفض لازما قد جعلا
وليس عندى لازما؛ إذ قد أتى فى النظم والنثر الصحيح مثبتا

فأما الحكم الثانى الذى نسبه إلى حروف الجر - وهو أن تتصل بمعمولها - فتراه يهمله أيضا ولا يقول به، فيجوز على هذا أن تقول: لقيت فى محمداً الطريق، تريد لقيت محمداً فى الطريق. وقد يوافقنى القارىء على أن هذا لا يطابق النطق العربى، بل لا أخطىء إذا قلت: إنه لايوافق اللسان العامى الذى هو على إرث من اللسان العربى.

(و) وترى صاحب المدخل فى القول فى ترتيب النحو، على أثر إلغاء نظرية العامل، يرى أن يقرن الفعل المضارع المتصل بنون التوكيد، مع الفعل المضارع المنصوب؛ إذ لا فرق بين القبيلين؛ فالمضارع مفتوح فيهما. فإما أن يجعل الفتح فيهما من قبيل الإعراب، أو من قبيل البناء. فأما التفريق بينهما، فهو من آثار العامل؛ وإذ بطل المؤثر بطل الأثر، كما يقول المتكلمون. ولكن المنصف يرى

أن النحويين حُملوا على الفرق بينهما لوجود فوارق حرية بالاعتبار. فالفعل المضارع المنصوب يتغير حاله إذا دخل عليه جازم، أو إذا خلا من الناصب والجازم. وليس الأمر كذلك فى المضارع المتصل بنون التوكيد؛ فإن آخره لا يتغيّر. فمن ثم جعل أحدهما مبنيا، والآخر معربا؛ وأيضا فإن المنصوب يتبع بالنصب، تقول: يعجبنى أن تسر أباك وتواصل أخاك؛ فأما الفعل المضارع المتصل بنون التوكيد، فقد يكون محله جزما، فيتبع بالجزم؛ تقول: إما تجتهدن فى دروسك وتتفهمها تنجح، بجزم تتفهمها. فترى من هذا أن النحاة غير عابثين فيما صنعوا. وهكذا يقال فيما رآى من قرن الفعل المضارع المتصل بنون الإناث، مع الفعل المضارع المجزوم. ولا أرانى فى حاجة إلى بيان هذا وتوضيحه.

(ز) وفى النحو الجديد يرى أن يجعل المرفوع بعد كان فاعلا، والمنصوب حالا، كما يرى الكوفيون؛ وهذا رأى غير ناضج؛ فإن العهد بالحال أن يكون نكرة؛ تقول: جاء محمد ضاحكا، حين تريد الحال، ولا تقول: جاء محمد الضاحك؛ وكان ذلك، لأن الوصف فى هذه الحالة يراد به الحدوث والتجدد، وهو فى هذه الحالة فى موقع الفعل، فلا يلائمه التعريف. والمنصوب فى باب كان، كثيراً ما يكون معرفة.

(ح) وتراه يجعل المرفوع بعد «ما»، و«لا» الحجازيتين مبتدأ، والمنصوب خبراً؛ وقد يكون هذا جالباً للعسر فى دراسة النحو؛ فإن هذا يلزم الطالب أن يراعى تقسيم خبر المبتدأ إلى خبر مرفوع، وإلى خبر منصوب، والخبر المنصوب يكون فى كذا وكذا؛ وخير من هذا، وأعون على الضبط، صنيع النحاة. وتراه فى هذا الموطن يورد المثال: (ضربى العبد مسيئاً)، ويجعل مسيئاً خبراً عن ضربى، ويعزف عن رأى النحاة فى جعل مسيئاً حالا والخبر محذوفا؛ ذلك أن من رأيه العزوف عن الحذف والتقدير. ولكن المعنى لا يستقيم على تخريجه هذا؛ فإن هذا يقضى بالحكم على ضربه العبد بأنه مسىء، والمتكلم لا يريد هذا، وإنما يريد أن الضرب وقع على العبد حال إساءة العبد، وأنه حل بمن يستحقه.

وتراه بعد هذا يعرض للبيت:

أبا خراشة أما أنت ذا نفر فإن قومى لم تأكلهم الضبع

ولا يرضى تخريج النحاة؛ إذ يجعلون ذا نفر خبراً لكان المحذوفة؛ ويرى

أن ذا نفر خبر المبتدأ الذى هو أنت ، ولا ضير عنده أن ينتصب خبر المبتدأ على الشذوذ . ومن المقرر ألا يلجأ فى التخريج إلى الشذوذ ما كان عنه مندوحة ؛ وحذف كان ثبت فى مواطن كثيرة ، لا يسع صاحب المدخل إنكارها ؛ وإلا فماذا يرى فى قولهم : إن خيراً فخير ، والتمس ولو خاتماً من حديد ؟

وتراه بعد هذا فى ص ٥٥ : يذكر أن خبر المبتدأ قد يكون مجرورا بحرف الجر الزائد ، فلا بدع أن يكون منصوبا ، والنحويون يقدرون الخبر المجرور مرفوع المحل ، حتى ليراعى الرفع فى التابع ؛ تقول : ما زيد بقائم ولا قاعد ، بالرفع ؛ وذلك فى لغة التميميين .

(ط) وفى ص ٥٥ ، وما بعدها ، يعرض للمنصوب والمرفوع بعد (إنّ) وأخواتها ، فيجعل المنصوب مبتدأ ، والمرفوع خبرا لمبتدأ ؛ وهذا أيضاً فيه تعسير ؛ لما علمت أن الطالب سيؤخذ بتفصيلات عديدة ، وتقسيمات هو فى غنى عنها ، بما وضع النحاة من تمييز كل نوع بحالة لا تلتبس بالأخرى .

(ى) وهو يرى ألا يفرد باب — لظن وأخواتها — وأن يجعل ذلك فى باب تعدى المفعول به ؛ وإذا علم القارئ أن لمفعولى — ظن وأخواتها — أحكاما خاصة ، عمل عليها العرب ، وراعوها فى كلامهم ؛ كالإلغاء والتعليق ، لا يسعه إلا أن يفرد لها بابا ، كما صنع النحاة . وهذا لئلا يشتبه أمر هذه الأفعال ، بنحو : أعطى وكسا .

ومما يسترعى النظر فى هذا المقام ، أن صاحب المدخل ينأى عن فكرة التعدى واللزوم فى الأفعال ؛ لأنها تدل على العمل ، وترتبط به ؛ وهو يوصى بأحد هذه الاصطلاحات : واقعة وغير واقعة ، مجاوزة وغير مجاوزة ، مؤثرة وغير مؤثرة . ومحل العجب رضاه بالاصطلاح الأخير ؛ وفيه من التصريح بتأثير الفعل وعمل العامل ما ليس فى المتعدى واللازم .

(ك) وفى ص ٥٧ : يذكر أن النحويين فى باب الفاعل « قلما وقفوا وأشاروا إلى صيغه الخاصة حين يخرج من الرفع الى الجر ؛ ومن المعروف أنه يجر بمن الزائدة بعد النفى والاستفهام ، فى مثل : هل جاء من أحد ؟ وأيضاً فإنه يجر

فى عبارتين دائماً ؛ وهما : كفى بالله شهيدا ، وصيغة التعجب ، فى مثل : « أسمع بهم وأبصر » والواقف على كتب النحو يرى أنهم عرضوا فى باب الفاعل لخروجه من الرفع الى الجر ؛ يرى هذا فى التوضيح وشرحه ، ويراه فى الأشمونى ، إذ يعقد أحد تنبيهاته لهذا الحكم .

(ل) وفى ص ٥٨ : يذكر من الشذوذ فى باب الفاعل مجيئه جملة ، ويقول : ويجب أن نصور ذلك فيه ؛ فيذكر أنه يأتى جملة باطراد بعد : أن وأن ولو وما » ، فتراه يجعل مجيء الفاعل جملة شاذا ، ثم يجعل منه ما هو مطرد ؛ والمعروف أن الشاذ لا يكون مطردا . فهل تراه لا يعبأ بالاصطلاح الذى لا بد منه فى العلوم ؟! ولعله يريد أن الأصل فى الفاعل أن يكون مفرداً ، ومجيئه جملة خلاف الأصل ، وهذا هو المعنى بكونه شاذاً . وأيا ما كان الأمر ، فهو يتعمد الخروج على ما قرره النحاة ، وهو جعل الفاعل بعد الحروف المذكورة مفرداً ، هو المصدر المنسبك كما يقولون ؛ وذلك أن قولك : يسر المرء ما ذهب الليالى ، يساوى تماما : يسر المرء ذهاب الليالى ؛ ولا يحس الناطق بالكلام الأول ، أنه نطق بجملتين . فقد يكون نظر النحويين أسد .

(م) وفى ص ٥٩ : يذكر من أنواع التمييز ، التمييز بعد الضمير ، نحو : لله دره فارسا ، والضمير فى هذا الأسلوب ليس بشرط ؛ فلو قلت : لله در محمد فارسا ، لم يتغير الأسلوب .

وأرانى بعد هذا قد أبديت ما عن لى حين قراءة المدخل ، لكتاب ابن مضاء ، ولست أدعى العصمة من الخطأ ، وإنما هو بحث أعرضه ، وإنى لمثن على صاحب المدخل غير كافر له . والله يهدينا جميعاً سواء السبيل ؟

حسن التوسل

اتى عبد الملك بن مروان بأعرابى سرق ، فأمر بقطع يده . فأنشأ يقول :

يدى يا أمير المؤمنين أعيذها بعفوك أن تلقى مكانا يشينها
ولا خير فى الدنيا وكانت خسيسة إذا ما شمالى فارقتها يمينها

فأبى أمير المؤمنين إلا قطعها . فقالت أمه يا أمير المؤمنين : إنه واحدى وكاسبى . قال : بئس الكاسب كان لك ، وهذا حد من حدود الله . قالت : يا أمير المؤمنين اجعله من بعض ذنوبك التى تستغفر الله منها . فعفا عنه .

مسئولية الاطباء

لحضرة الأستاذ الدكتور أحمد محمد ابراهيم
القاضى بمحكمة المنيا الوطنية

جراحة التجميل :

قلنا إنه يجب أن يكون تدخل الطبيب بقصد شفاء المريض وإلا فهو مسئول . ولكن ظهرت فى العهد الأخير رغبة قوية ـ خصوصا بعد الحرب العالمية الأولى ـ نحو معالجة بعض العيوب الخِلقية بإجراء عمليات جراحية لإزالتها ، لما يترتب على بقائها من جعل المشوهين محل سخرية الناس ، فضلا عما يثور فى نفوسهم من الغم والكمد ، لما يحسون به من نقص عن سواهم من البشر ؛ فما حكم هذه الجراحة التى سميت بجراحة التجميل ؟

الرأى الراجح فى فرنسا ، هو أن العمليات التى لا ينتظر أن يتخلف عن إجرائها خطر ، تعدّ من الأعمال الطبية المشروعة ؛ أما إذا كانت خطرة فلا يجوز القيام بها .

ويرى الفقهاء الألمان أن جراحة التجميل عمل تقره الدولة ، ولا يستوجب المسئولية .

ويرى علماء بلجيكا إباحة جراحة التجميل ، مالم تمنع من أداء واجب اجتماعى . ومن الواضح أن جراحة التجميل مباحة لدى جمهور فقهاء الشريعة ما دام أساس الإعفاء من المسئولية هو رضا الشخص المعالج ؛ وظاهر أنه فى هذه الحالات يكون تدخل الطبيب بناء على طلب ورضا المعالج ؛ ومن ثم فلا محل للمسئولية .

وقد سبق أن بيّنا أننا لا نقر جعل الرضا أساسا للإعفاء من المسئولية ؛ ونرى فيما يختص بجراحة التجميل أن المسألة تتوقف على العيب المطلوب علاجه

ومدى تضرر صاحبه منه ، وهل يلحقه منه عار وشين أم لا . والمسألة تقديرية نرى أن يترك الفصل فيها للمحاكم وفقا لظروف كل حالة ، فما يعد عيبا فى المرأة قد لا يعد عيبا فى الرجل ، كما أن بعض الأشخاص كثيرا ما يقدمون على إجراء هذه العمليات لا ليزيلوا عيبا بل ليزدادوا جمالا . ويجب أن يدخل فى الاعتبار أيضا مدى خطورة الجراحة التى سيجريها الطبيب ؛ فإن كان الأمل فى نتيجتها أو فى الشفاء منها ضعيفا ، فقد وجب أن تمنع ، مهما كانت صفة العيب المطلوب إزالته .

وليس القول بجواز إزالة العيب الخلقى مخالفا لأحكام الشريعة ، بل على العكس ؛ فإنها إن لم تكن توجبه فهى لا تحرمه ؛ فقد ذهب بعض الفقهاء إلى أن بعض العيوب الخلقية تمنع من انعقاد الإمامة ، وهذا يوحى بأن من الواجب إزالة هذه العيوب متى كان ذلك ممكنا . قال هؤلاء الفقها : إنه يمنع من انعقاد الإمامة « ما شان وقبح ولم يؤثر فى عمل ولا نهضة كجدع الأنف وسمل إحدى العينين ... فالسلامة منه تكون شرطا معتبرا فى عقدها ليسلم ولاة الملة من شين يعاب ونقص يزرى فتقل به الهيبة ، وفى قلتها نفور عن الطاعة ، وما أدى إلى هذا فهو نقص فى حقوق الأمة [1] » .

ثانيا : يجب أن يكون العلاج طبقا لقواعد مهنة الطب . فمن المفروض على الطبيب أن يراعى أصول المهنة عند معالجة المريض ، فإذا خالفها وجب أن يسأل عن ذلك ، وهو لا يسأل إلا عن الخطأ الجسيم ، أما الخطأ فى الآراء أو الوسائل الفنية المختلف عليها بين الأطباء فلا يسأل عنه مهما كانت نتيجته . والعلة فى إعفائه من المسئولية فى هذه الحالات هى الرغبة فى إعطاء الطبيب شيئا من الحرية حتى يمكن لعلم الطب أن يتقدم .

وإذا تجاوز الطبيب حدود عمله متعمدا فإن مسئوليته تكون مسئولية عمدية ؛ أما إذا كان قد أخطأ فإنه يسأل مسئولية غير عمدية .

وهذا الشرط محتم لدى فقهاء الشريعة الغراء . ونرى قبل أن نستخلص القاعدة

---

(١) الأحكام السلطانية للماوردى ص ١٨ .

العامة فى هـذا الموضوع عندهم أن نذكر شيئا مما جاء فى كتب الفقه عن هـذا الموضوع ، ليتضح للقارىء الأساس الذى أقمنا عليه رأينا .

جاء فى كتاب معين الحكام « إذا حجم الحجام أو بزغ البيطار أو ختن الختان فمات ، لم يضمن . هذا إذا لم يجاوز موضع الفعل ؛ فان جاوز موضع الفعل فقطع الحشفة : ذكر فى النوازل أنه إن مات فعليه نصف بدل النفس ، فإن برىء فكال بدل النفس ، لأنه مات بجرحين وهو مأذون فى أحدهما . وفى ديات شرح الطحاوى : فعليه القصاص ، ولو قطع بعض الحشفة لا قصاص عليه . ولم يذكر ماذا يجب عليه . وفى الفتاوى الصغرى فى كتاب الديات : تجب حكومة العدل .

الكمال : إذا صب الدواء فى عين رجل فذهب ضوءها لا يضمن كالختان إلا إذا غلط . حجام قال لآخر : فى عينك لحم إن لم تزله عميت عينك ، فقال : إنى أزيله عنك ، فقطع الحجام لحما من عينه وهو ليس بحاذق فى هـذه الصفة فعميت عينه ، يلزمه نصف الدية .

سئل نجم الأئمة الحليمى عن صبية سقطت من السطح فانفتح رأسها فقال كثير من الجراحين : إن شققتم رأسها تموت ، وقال واحد منهم إن لم تشقوه اليوم أنا أشقه وأبرئها ، فشقه ثم ماتت بعد يوم أو يومين : هل يضمن ؟ فتأمل مليا ثم قال : لا ، إذا كان الشق بإذن وكان معتادا ولم يكن فاحشا خارج الرسم . فقيل له : إنما أذنوا على أنه علاج مثلها . فقال : ذلك لا يوقف عليه ، فاعتبر نفس الإذن . قيل له : فلو قال هذا الجراح : إن ماتت فأنا ضامن : هل يضمن ؟ قال : لا (١) .

وجاء فى كتاب تبيين الحقائق « لا يضمن حجام أو بزاغ أو فصاد لم يعد الموضع المعتاد ، لأنه التزمه بالعقد فصار واجبا عليه ، والفعل الواجب لا يجامع الضمان ، كما إذا حد القاضى أو عزر ومات المضروب بذلك ، إلا إذا كان يمكنه التحرز عنه كدق الثوب ونحوه ، لأن قوة الثوب ورقته يعرف به ما يحتمله من الدق بالاجتهاد ، فأمكن تقييده بالسليم منه ، بخلاف الفصد ونحوه فإنه ينبنى على قوة الطبع وضعفه ، ولا يعرف ذلك بنفسه ولا ما يحتمله من الجرح ، فلا يمكن تقييده

---

(١) معين الحكام ص ١٩٨ .

بالسليم ، وهو غير السارى ، فسقط اعتباره ، إلا إذا جاوز المعتاد فيضمن الزائد كله إذا لم يهلك ، وإن هلك يضمن نصف دية النفس [١] .

وفى متن الأمير وحاشية حجازى العدوى عليه : أنه إذا جهل الطبيب ضمن . وظاهره أن الضمان عليه فى ماله . وهذا ظاهر سماع أشهب . ويضمن أيضا إذا قصر كأن أراد قلع سن فقلع غيرها خطأ أو تجاوز ـ بغير اختياره ـ الحدالمعلوم فى الطب عند أهل المعرفة ، كأن زلت أو ترامت يد خاتن ، أو سقى عليلا دواء غير مناسب للداء معتقدا أنه يناسبه وقد أخطأ فى اعتقاده [٢] .

وإذا خلع الطبيب سنا غير المتفق عليها ، فإن كان ذلك عمدا فعليه القصاص ، وإن كان خطأ فالعقل [٣] .

ونص فى مذهب الإمام أحمد على أنه لاضمان على حجام ولا ختان ولا متطبب إذا عرف منهم حذق الصنعة ولم تجن أيديهم . فإذا لم يكونوا ذوى حذق فى صناعتهم ولا لهم بها بصارة ومعرفة لا يحل لهم مباشرة القطع . فإذا قطع أحدهم مع هذا كان فعله محرما فيضمن سرايته كالقطع ابتداء . وكذا يضمن الطبيب إذا كان حاذقا ولكن وقع منه إهمال لايجوز أن يقع منه كأن يجاوز قطع الختان إلى الحشفة أو إلى بعضها ، أو قطع فى غير محل القطع ، أو يقطع بآلة كآلة يكثر ألمها ، أوفى وقت لايصلح القطع فيه ، وأشباه هذا .

والذى يمكن استخلاصه من الأحكام المتقدمة هو أن الطبيب الحاذق لا يضمن إذا قام بواجبه على الوجه الكامل بأن اتبع قواعد الطب والجراحة فى معالجة مريضه مهما كانت نتيجة العلاج ، فيستوى فى الحكم أن يشفى من مرضه أو أن يلقى ربه .

وكذلك لا يسأل الطبيب إذا أخطأ فى عمله خطأ يسيرا يمكن أن يقع فيه أى طبيب ، أما إذا كان الخطأ مما لا يجوز أن يقع فيه طبيب بأن كان ناتجا عن جهل أو خطأ فاحش ، فإنه يسأل عن فعله ، ومسئوليته تكون مسئولية غيرعمدية ؟

---

(١) تبيين الحقائق ج ٥ ص ١٣٧ ، وعلل المؤلف كون الواجب فى حال الهلاك نصف الدية بأن النفس تلفت بمأذون فيه وغير مأذون فيه ، فيضمن بحسابه وهو النصف ، حتى إن الختان لو قطع الحشفة وبرأ المقطوع تجب عليه دية كاملة لأن الزائد هو المشقة وهو عضو .

(٢) متن الأمير وحاشية حجازى العدوى ج ٢ ص ٤٠٦ (٣) المرجع السابق ص ٢٥٩ .

عود على بدء

السيد القاياتى

لحضرة الأستاذ السيد عنانى

شكر الله لمجلة الأزهر صنعها فى إفساح المجال لدراسة شاعر فحل، من شعراء الأزهر، هو: السيد حسن القاياتى؛ وجزى ناسج بردها، الأستاذ الجليل عبد الجواد رمضان، خير الجزاء، أن فتح لعشاق الدراسات الأدبية الرفيعة، هذا الحصن الشامخ، من حصون الأدب، التى تهيَّب الدنو منها كثير من الدارسين.

وما أريد أن أعقّب على الأستاذ، فيما أورد للسيد من ترجمة، ولا فيما قدم من عرض لآثاره؛ فإنه لحقيق بأن يكون ابن بجدة ذلك؛ وإنما أحب أن أجليّ رأيي المتواضع، فيما انتهى إليه من حكم، قد لا يتفق كثيراً، مع ما قدم من مقدمات، وما عقد من مقارنة بينه وبين شاعر دار العلوم: الأستاذ محمود غنيم، وهو واحد من الشعراء «الذين يسمون هم أنفسهم بالسيد عن مستواهم الشعرى»، وما قرر فى دراسته من أن «شاعرنا القاياتى مضى بجزالة الأسلوب الشعرى وفخامته، وشرف المعنى ودقته، بلا جدال، وما أحاشى من شعراء النهضة الحديثة من أحد لا من الأموات ولا من الأحياء...» فإن هذا التقرير بدّيا، وهو حق فى جملته، يقتضى ألا تعقد مقارنة بينه وبين أحد، وأن يكون المجلّى دائماً حتى فيما توارد عليه وغيره من معان، وأن يكون المفن المتأنق عند ما يقيم أنموذجا من نماذج الفن الرفيع، يقف المشاهد عنده مأخوذاً مشدوهاً، لا ذلك البنّاء الريفى الذى «يشيد من شعره هيكلا من الصخر»؛ فإن «من مضى بجزالة الأسلوب وفخامته بين الشعراء» أضن بخرائد الشعر أن تستحيل بين يديه إلى صخور.. ومن ثم فإنى آمل ألا يؤاخذنى الأستاذ فى أن أخالفه فيما انتهى إليه من حكم، يبدو أنه تأثر فيه بشنشنة الجماهير وحكمها الفطير؛ فلا ريب فى أنه مؤمن معى

أن الجماهير لا تستطيع التغلغل فى دقائق الفنون الرفيعة عامة ، فى أى عصر من العصور ، ولا فى أى أمة من الأمم ـ على تفاوت بينها فى ذلك ـ . ولا ريب فى أن رسالة الفن ، فى أى ناحية من نواحيه ، هى إرشاد هذه الجماهير ، وتهذيب شعورها ، والسمو بمستواها الفنى ، حتى تستطيع أن ترتفع إلى تصور المثل العليا فى الحياة ؛ ومن ثم فانها لن تفهم ذلك بدياً ولا تقبل عليه إلا أن تسنح لها الفرص أو يوجد من يهديها إليها . وعلى ذلك لابد أن يكون ما يقدمه الفنان فوق مستواها مع أن النزول إليها فى الوقت نفسه أيسر سبيلا وأقل كافة وعناء ؛ بيد أن هذا ليس غرض الفنان الحق الذى يؤمن برسالته ، ويعرف أن مهمته هى إرشاد هذه الجماهير إلى المثل العليا فى الحياة ؛ وإلا ما شهدت الدنيا روائع الفن التى قدمها مبدعوها فى مختلف العصور قربانا خالصاً للبشرية ، غير مبالين برضاء الجماهير ولا غضبها ؛ هذه الجماهير التى أبدع القاياتى وصفها ـ من حيث تقديرها للشعر ـ إذ يقول :

طائر الصيت لديهم كل من أرسل الشعر سقيما أو لحن

وقد سجل لنا التاريخ أن كثيراً من الفنانين ضحوا بعيشهم وسمعتهم ، بل بحياتهم كلها ، إيمانا منهم برسالتهم وجهل أجيالهم ، الى أن أتت أجيال باعدت بينها وبينهم السنون ، فأرسلت آيات تقديرها وعرفانها الى أرواحهم ، وعطرت بتقديرها لهم تاريخهم ؛ وتلك قضية أعتقد أن الأستاذ عبد الجواد موافقى عليها .

وعلى ضوء هذا نعرض لدراسة بعض آثار السيد ، من حيث الغرض الفنى للشعر ؛ وليكن مثالنا قصيدته فى رثاء المغفور له الشيخ مصطفى عبد الرازق ، مقارنة بما أورده الأستاذ من قصيدة الشاعر محمود غنيم فى نفس المقال ، والشاعران ـ عندى ـ من مدرسة واحدة ، ومذهب شعرى واحد ، إذ أن ثقافتهما واحدة ، وليس كما يذهب الأستاذ عبد الجواد من أنهما يمثلان مذهبين مختلفين ، ولا تفاوت بينهما إلا بمقدار تفاوتهما فى الموهبة الشعرية ، ورسوخ القدم فى الفن .

يذكر غنيم بيت عبد الرازق فيقول :

نمته أصول لو نمى النجم بعضها لحرك عطفيه من التيه إن بدا

ورباه بيت يخدم الناس شيخه وإن كان فيه الطفل يولد سيدا

على البر والتقوى تأسس ركنه ومن لبنات العلم والدين شيدا

ويذكره القاياتى فيقول :

الشمس بيتك ، والعلا تنهل عارفة ، وجاها
عرفوا أباك فسدتهم والشمس ما عرفوا أباها
للدين بيت ثقافة للجامعات ، وما بناها
فى هدى طه يعتلى ناديك ، أم فى علم طه . !

ويعرض غنيم موقفه من الأزهريين فيقول :

فتى حرر الإسلام من رق معشر يرون الجرئ الحر ليس موحدا
قضى واجب الأوطان والدين كاملا وأصدر فى كل الأمور وأوردا
ولم يقض فى ظل الصوامع عيشه قعيداً ، وليس المسلم الحق قعددا

ويعرض لهم القاياتى فيقول :

يا سيداً عصفت به شيم الجلالة ، وابتناها
فتكت بنفسك عزة كالنار يتلفها لظاها ..!
كرم أحل بربه تلف الأزاهر فى نداها ..!
ضحك الغواة لنبله فبكى الفضيلة وافتداها
أنف الهوان بساحةٍ البدرُ يشرق فى ذراها

ولن نمضى فى إعادة ما أثبته الأستاذ رمضان ، وإنما نكتفى بهذه الأبيات لكل من الشاعرين ، فى غرض واحد تواردا على بعض معانيه ، وسيرى القارىء أن غنيا مع تقديرنا له وعلى سهولة شعره وجمال تراكيبه، متأثر أيما تأثر بأخيلة القدامى ومعانيهم ، وأنه لم يسجل معنى جديداً ، ولا تشبيها مبتكراً ؛ بل صور لنا فى بساطة محببة بيت عبد الرازق على ما كان عليه فعلاً ، ولم يزد على حكاية الحال المشاهدة بالبصر !!

أما القاياتى فانه يَعْرض لنا فى كل بيت معنىً جديدا مبتدعا ، فى لفظ أنيق رشيق ، فيه جِدّة الاستعمال وقوة الأَسْرِ ؛ وتلك إحدى مميزات القاياتى ، التى جعلت له طابعا خاصا تفرد به ، كما تميز بدقة التشبيهات وابتداعها ، فلا يقع منها إلا على كل فريد حسن فى موضعه ، واشتمال كل بيت من أبياته على فكرة مستقلة تقرُّ بها النفس ، أو صورة ذهنية يسعد بها العقل والفكر . وتأمل أبيات السيد المذكورة آنفا ، تَدُلك بنفسها على ما فيها من جمال فنى ، وابتداع فى التشبيه البيانى ، وبخاصة البيتين : الثانى والثالث .

وستجد أن الطاقة الفنية عند الأستاذ غنيم محدودة بحكاية الحال ونقل الصورة المشاهدة ، على رغم رنين الألفاظ وجَرْسها ؛ ولا شك أن المعانى المستخرجة من غير شاهد الحال أصعب منالا من المصورة للواقع المشاهد ؛ وكما يقول ابن الأثير : « ولَلهجوم على عذارى المغانى المحمية بحجب البواتر ، أَيْسَرُ من الهجوم على عذارى المعانى المحمية بحجب الخواطر » .

ولقد بنى الأستاذ عبد الجواد حكمه على الشاعرين على اعتبار أن الأول يمثل الرقة والعذوبة التى تستهوى الجماهير ، وأن الثانى يمثل الجزالة التى لا تستهوى إلا الخاصة التى لا تكاد تذكر . وفى هذه المناسبة نحب أن نسأل الأستاذ عن الفرق بين الجزالة والرقة ؟ اللهم إن كانت الجزالة هى المتانة فى اللفظ ، مع عذوبته فى الفم ، وحسن وقعه على السمع ، وكانت الرقة هى اللطافة فى التعْبير مع بعده عن الإسفاف والصنعة ، مع سلاسته وخلوه من التعقيد ، فإنه ليس ثمة فرق يذكر بينهما سوى ما يدركه السامع الخبير بذوقه من فرق بين لفظ وآخر ، وأدائه للمعنى الذى حمله ؛ ولم يبق من فرق فعلى سوى السموّ فى المعنى ، وشرف الفكرة التى يتناولها الشاعر ، ودقة الصورة التى يريد أن يبرزها .

ولقد ظلّ الشعر العربى منذ انحلال الدولة العباسية يدور فى دائرة واحدة تقريبا ، هى دائرة اللفظ ، وجعلها الشعراء حلبة تسابقهم ؛ أما المعنى ، أما التحليق فى دُنَى من المعانى ، وابتداع صور جديدة يزودون بها عالم الفكر ، فهذه لم تكن لهم على بال ، حتى صَحَّ لبعض النقّاد أن يتهموا الشعر العربى بأنه مشغلة الفارغين ، وهم فى ذلك جِدّ معذورين .

فإذا وافقنى الأستاذ على هذه القضيّة أيضاً ، وهى أنه ليس ثمة مانع من أن تجمع الرقة والجزالة فى واحد ، وأن كل جزل رقيق وبالعكس ـ سوى ماتمليه المناسبات الخاصة من اختيار ألفاظ معيّنة قد تبعد عن الرقة أو الجزالة قليلا أو كثيراً ـ فإننا نكون قد وصلنا الى أن السيد قد جمع بين الغايتين ، وتفردَ بالحسنيين بين شعراء النهضة ؛ وحسبى فى الاستدلال نفس الأبيات التى أوردها الأستاذ ووسمها بحق بأنها سحرٌ من السحر ، وإن أطلق عليه الشعر . وهى التى منها :

إن فى الغادين منّى طفلة قام بدْعُ الحسن منها وقعَد
صُوّرت من جوهر الشمس فما هى إلاّ ريِّقُ النّور جمدْ . !
أوقد الحسنُ على وجنتها جمر قلبى ، فتلظّى واتّقد
يعكف الطرف عليها مُغْضياً قد رأى قبلة حسْن فسَجدْ !

ليت شعرى هل رأى الشعر العربى فى أزهى عصوره ، بل فى كل عصوره ، شعراً يَسْمُو هذا الشعر رقة وعذوبة وجمالا ؟ وهل رأت البلاغة العربية أزهى من هذه الصور المتلاحقة ، فى قلب مُحبّ يودع حبيبه ؟ إنهُ فن فنّان ماهر ، بكل ما فى هذا اللفظ من قوة .

ومما يشهد لشاعرنا برسوخ القدم فى فنه ، وحسّاسيته المرهفة ، فى الوقوف على الفرق الدقيق بين الجزالة والرقة ، مقصورته فى حرب طرابلس سنة ١٩١١ ، والتى أورد الأستاذ شيئاً منها ، ولا أملّ بتكراره ؛ بل أورد شيئاً من قصيدته فى ثورة دمشق فى سنة ٩٢٥ وما فعله بها الفرنسيون :

لغير الهدى أجلب العاسف وللنبل أن يغضب الآنفُ
إذا رسف الشعب ذاق الفناء كأن الهواء هو الراسف
قبول المظالم يغرى الظلوم كما لج فتّانك الصادف
إذا عطل الشعب هماته فأنبل ما يرتجى حاتف
بلاء الدخيل وكيد العشير كما اجتمع النار والعاصف

* * *

هـو الغرب : لا قلبه نابض برحمى ، ولا طـرفه ذارف
حـرى بتفكيره أن يسيل نجيعاً كما يطرق الراعف
تباب لعهديه ، لا يومـه أعان ، ولا أمسه السالف
أسًى للحليفة إذ غدرها تليـد ، وإذ حِلفها طارف
لقد جنّد الغرب حتى العيون غـزا الشرق فُتّانها الشاغف
كأن الدنانير غربيـةً فوارس جحفلها زاحف

والقصيدة فى نحو السبعين بيتاً كلها على هذا النسق الفريد الطراز، قوة وجزالة، حتى أتت ألفاظها كما يقول ابن الأثير : كأشخاص عليها مهابة ووقار .

ولما كان شاعرنا طليعة المجددين لديباجة الشعر وأخيلته ومعانيه ، فإننا نجمل مميزات شعره لنتبين مدى أهدافه ومقاصده ، وحدود رسالته وأوضاعها ، ولنستطيع تفهم أدبه وفنه ، فنقول : إنها :

١ ــ التأنق فى اختيار اللفظ مع صفائه وعذوبته .

٢ ــ ابتداع صور من المعانى لم يسبق إلى أكثرها .

٣ ــ جمال التشبيهات المنتزعة من المدركات الحسية .

٤ ــ استقلال كل بيت من قصيدة بفكرة مستقلة .

٥ ــ تخيُّر الأوزان والقوافى التى لم يطرقها كثير من الشعراء .

وليست هذه كل مميزات شعر السيد ، وإن كان بعضها حسب شاعر من فخار ؛ فاذا علمت إلى ذلك أنه ظل طوال حياته ، يرسل شعره فى شتى الأغراض ، لا يقصد به الا إرضاء رغباته الفنية البحت ، علمت أن له هدفا يقصده ، ورسالة معينة ؛ وذلك أن يجدد شباب الشعر ، ويعيد اليه مجده الفنى من حيث السمو فى المعنى ، والإشراق فى التعبير ، وتزويده بصور جديدة من الأخيلة ، متخذا من منابع اللغة الأصيلة معينه ، ومن هدى القرآن مثله . أو كما يقول هـو بنفسه واصفاً بيانه :

بيـان هاد غـذته آى من المثانى فـرّق آيا
يراعـة صُرفت جمالا كما يشق اليراع قايا

ولقد مضى شاعرنا فى تحقيق أهـدافه وأداء رسالته، فى هدوء هو طبعه، وسكون هو سجيته، وسماحة هى ديدنه، وانصراف عن الضجة والدعاية الزائفة؛ وظل على ذلك عمره — مد الله فيه — مؤمناً بحق، أنه إن لم يفهمه جيله فسيأتى من بعدهم من ينصفه ويثأر له؛ وهذه الخلال، وتلك السجايا هى التى جنت عليه وباعدت بينه وبين الجماهير، لا شعره ولا فنه، وإن كان إرضاؤها أيسر منالا وأقرب سبيلا. ولـكن للرجل مثالية فنية عبر عنها إذ يقول:

ليس طيب الذكر حقا كله ... يذكر البـدر بحسن ما فـتن

ومثالية أخلاقية تتمثل فى قوله:

عصىُ الجـــلالة لا أعـتزى ... الى الهـون لولا سجـود الصلاة

هذا وليس الرجل بالقليل الخبرة بوسائل العصر، والوصول الى ما يريد؛ فهو فى ذلك ذو الناب والمخلب، ولـكنه يعتصم بخلقه وسجـاياه، وقد يسر إليه فى أسباب الرزق والنعمة. واسمعه يصف عصره هذا الوصف الدقيق إذ يقـول فى قصيدة ضافية:

يا عصر ما فيك من عـوَاد ... يا عصر ما فيك من خفـايا
ما للثنايا ترف بشرا ... على الجـوى يصدع الحنايا؟
عـــلام تزهى بعصر علم ... تذم فى حـــده التحايا؟
لدى البغايا لـنـا خـــلال ... وما لنـا رقـــة البغايا!!
نطالع الحفـل بالمخـــازى ... يا قبـــح لا تنظر المـَرايا

والآن وقد وصلنا الى هذا المدى من البيان، لا نغالى إذا قلنا إن السيد بحق رائد جيله وطليعة مجدديه، وشاعر البيان الأصيل، وواصف الجمال الرائع؛ وإن من الجناية على الذوق الفنى لأبناء هذا الجيل أن يقال إنه شاعر الخـاصة وحدهم. وإليك طاقات من أزاهيره هى خير ختام لهذا الحديث:

قال يصف شجـرة صناعية زينت بعقود من ثريات الـكهرباء فى قصيدة طويلة منها:

لقـد أورق الغصن حتى زَهـا ... وشفَّ به النـور حتى التهـب
لمـن َفنَنُه يحمل المـُبدَعـات ... كما يحملُ العود ُحـلو الطرب

سَرِیٌّ من الحسن فى مُترف من الغُصن يزهى بنور عجب
عن السِّلك أو مَض نُوَّاره فهل مسّ قلبىَ حتى وَجب
سماء تَأَلّق بالنيّرات فنجمٌ أضاء ونجمٌ غرب
ضياء ، فكفٌ ، كغمز الجفونِ ووجه تهلّل ثم اكتأب

إلى أن يقول :

سئمت المعاد وأن الحياة كأنفاس أبنائها تُستلَب
فُتِنَّا ، وكم نعبُد الزائفات بزيْف الجمال وزيف الأدب

ومن غزل القاياتى فى صدر قصيدة وطنية ، وهو فى شرعة الأدب بدع من البدَع لا شعر من الشعر ، قوله :

هتفت باكيةً يوم الظّعن ليت هذا البين لم يملكْ حَسن
غضبة الله على يوم النّوى إنه دلّ على القلب الشَجن
آه من وقفة بينٍ لم تَذر دمعةً فى مقلة الظبْى الأغن
مقلة ملأى بسحر لم تَبِت ليلةً فى الدهر ملأى من وَسَن
وفؤادٌ أسكنته لوْعةٌ وَدَّ من طول خفوقٍ لو سكن
أقبلتْ مُطلقة من قرطِها زهرةً أولى بها ذاك الكفن
تَخلط الدّلّ بمضنى حَزن حرَّ قلبى ، من دلال فى حَزن

* * *

ويقول مطالبا زعماء مصر بالإصلاح :

عَوِّدونا من قِياد نهضةً إنما الأمةُ هَدْى واعْتياد
عَلّمونا ، أصْلحونا ، حَطِّموا كل قيد يَستبينا أو صِفاد
الغنى والمجدُ ، رهن بالغِنى جدِّدوه ، كالتّغنّى يُستعاد
كذب الغاوون ، ليست حرةً أمةٌ تعيا بعلم واقتصاد

ويقول واصفا طفلاً يرضع ثدى أمّه :

فتّانة الدّلّ من بعض الأماليد ... تُدنى حُلى ثَديها من ثغر مولود

طفلٌ يميل على نهدٍ فيرضَعه ... أخذ الحمام بأطراف العناقيد !!

وهكذا جل شعر السيد ، بل كل شعره ، متعة للسمع والقلب ، ونزهة للخاطر ؛ فحكمته وحى حِسٍّ مرهف ، وغزله يستبى أشد الغيد دلاًّ ، وشكاته تلين أشد القلوب عتوًّا ؛ ولولا ضيق النطاق لأوردت للقراء كثيراً وكثيرا . وكم يصدق عليه قول القائل :

أطاعته أنواع البلاغة فاهتدى ... إلى الشعر من نهج إليه قويم

تحـــايل

قال أبو عبيدة : أُخذ سراقة بن مرداس أسيرا يوم جبانة السبيع فقدم فى الأسرى الى المختار صاحب الدعوة العلوية . فأنشده سراقة :

امنن على اليوم يا خير مَعد ... وخـير من لبى وصلى وسجد

فخلى سبيله . فلم يف سراقة بما وعد من الانضمام إليه ، ولحق بجيش إسحاق ابن الأشعث ، فوقع أسيراً ثانية وأتى به المختار أسيرا ، فقال له : ألم أعف عنك ؟ لأقتلنك ! قال سراقة : لن تفعل . قال المختار : ولم ؟ قال : لأن أبى أخبرنى أنك تفتح الشام حتى تهدم دمشق حجرا حجرا وأنا معك . فخلى سبيله . فهرب ثانية ووقع أسيرا . فقال له المختار : لأقتلنك هذه المرة !.

فقال : ليس هؤلاء الذين أسرونى ، فإنا لما التقينا رأينا قوما عليهم ثياب بيض وتحتهم خيل بلق تطير بين السماء والأرض .

فقال المختار : خلوا سبيله ليخبر الناس بذلك ، ثم هرب سراقة ودعا لقتال المختار وقال :

ألا من مبلغ المختار عنى ... بأن البلق دهم مضمرات

أرى عيـــنى ما لم ترأياه ... كلانا عالم بالترهات

كفرت بوحيكم وجعلت نذرا ... عـلىّ قتالكم حتى الممات

المبادىء الاشتراكية في الاسلام

لحضرة الأستاذ سعيد زايد

الاشتراكية فى الإسلام

مما سبق ندرك أن الاشتراكية فى صميمها ترمى أولا وبالذات الى المساواة الفعلية فى كل شيء ، وخاصة فى النواحى الاقتصادية ، فهى فى جوهرها مساواة وعدل ؛ وندرك أيضاً أنها لم تأخذ الشكل العملى ، أو كما يقال : لم تتبلور أفكارها على شكل مبادىء عامة إلا على يدى كارل ماركس .

بقى علينا أن نعرف إذا كانت أسسها والمبادىء التى رغبت فى تحقيقها قد تحققت فعلا فى الإسلام قبل ذلك بحوالى اثنى عشر قرنا أم لا .

ذخر القرآن الكريم بالآيات التى تحض على المساواة فى الحقوق والواجبات : « يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم » الى غير ذلك من الآيات . وسيرة الرسول الكريم كلها تنطق بالعدل وتحث على المساواة ، وتحارب التفاخر والغرور ، فلقد قال عليه الصلاة والسلام فى خطبة الوداع : « يأيها الناس إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد ، كلكم لآدم وآدم من تراب ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، وليس لعربى على عجمى ، ولا لعجمى على عربى ، ولا لأحمر على أبيض ، ولا لأبيض على أحمر ، فضل إلا بالتقوى ؛ ألا هل بلغت ؟ اللهم فاشهد ، ألا فليبلغ الشاهد منكم الغائب » . وكذلك سيرة الخلفاء الراشدين مملوءة بما يصح أن يفخر به المسلم من تحقيق للعدل والمساواة . ويطول بنا المقام إذا نحن حاولنا أن نقف عند سيرة كل منهم فنبين أثراً من آثاره .

ولقد منح الإسلام حرية للمسلمين لا تنص عليها أعظم دساتير العالم . فخليفة المسلمين اختياره موكول إليهم ، والحرية الفكرية كانت مكفولة فى الإسلام ،

وما زال التراث الذى خلفه المتكلمون ، وخاصة المعتزلة وفلاسفة الاسلام ، محفوظا الى اليوم ؛ وحرية العقيدة كانت محققة أيضاً ؛ قال تعالى « لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى » ؛ والحرية المدنية أيضاً . ويكفى أن نذكر أن الإسلام كان يتلمس أوهىَ الأسباب للقضاء على الرق حتى يحقق لجميع الأفراد الرشد المدنى ، واتبع فى إلغائه طريقة حكيمة سارت تدريجيا حتى قضت عليه .

وأيّة مساواة أعظم من وقوف المسلمين بعضهم بجانب البعض ، لا فرق بين غنيهم وفقيرهم ، فى الصلاة ، وقيامهم بحركات واحدة من ركوع وسجود ؟ هنا تخضع نفس الكبير ، وترتفع نفس الصغير ؛ وكذلك وقوفهم عرايا إلا من ثياب الإحرام فى الحج ، لا يكاد المرء ، أو بتعبير أصح : تنعدم التفرقة بينهم ، أليس فى ذلك مثال المساواة ؟

بقى أن نعرف كيف حقق الإسلام المساواة المادية ؟ قال تعالى « واعلموا أنما غنمتم من شىء فأن لله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل » . ولقد كانت الغنيمة أيام الرسول هى ما يستولى عليه جيوش المسلمين من منقول ، فكان صلى الله عليه وسلم يختص بخمسها لتوزيعها على الأشخاص المنصوص عليهم فى الآية ، والأربعة الأخماس الأخرى كانت توزع على رجال الجيش بنسبة مجهود كل شخص فى الحرب ؛ وطبق الرسول هذه القاعدة فى الأرض أيضاً عند ما فتحت الجيوش خيبر . وعندما جاء عمر رضى الله عنه فرق فى الغنيمة بين المنقول وغير المنقول ، فكان يوزع الغنيمة على الجيش كما كان يوزعها الرسول تطبيقا للآية ؛ أما بالنسبة للأرض فكان يعتبرها فيئا أو وقفا على الناس ، تطبيقاً لآية الفىء التى يقول فيها سبحانه وتعالى : « ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كى لا يكون دُولة بين الأغنياء منكم » . ولقد عمل بهذه الآية فى جميع الأراضى التى فتحها المسلمون فى عهد عمر ، ومنها مصر التى ظلت طيلة حكم العرب وهى مملوكة لبيت المال الذى كانت تدفع منه أرزاق الجند وما تحتاجه المصالح العامة فى البلد الذى حصل منه المال ؛ ويصرف الباقى على الناس على أساس ما يؤدونه للدولة من عمل ومجهود ، أو على أساس ما قدمه السابقون من خير للإسلام .

ويحسن هنا أن نذكر نصاً للقاضى أبى يوسف يعقوب بن إبراهيم فى كتابه الخراج ، إذ ذكر أنه لما جاءت عمر بن الخطاب رضى الله عنه الفتوح وجاءت الأموال قال « إن أبا بكر رضى الله تعالى عنه رأى فى هذا المال رأيا ولى فيه رأى آخر ؛ لا أجعل من قاتل رسول الله صلى الله عليه وسلم كمن قاتل معه ؛ ففرض للمهاجرين والأنصار ممن شهد بدرا خمسة آلاف خمسة آلاف ، وفرض لمن كان إسلامه كإسلام أهل بدر ولم يشهد بدرا أربعة آلاف أربعة آلاف ، وفرض لأزواج النبى صلى الله عليه وسلم اثنى عشر ألفا اثنى عشر ألفا إلا صفية وجويرية فإنه فرض لهما ستة آلاف ستة آلاف ، فأبيا أن يقبلا ، فقال لهما : إنما فرضت لهن للهجرة . فقالتا : لا إنما فرضت لهن لمكانهن من رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان لنا مثله ، فعرف ذلك عمر ، ففرض لهما اثنى عشر ألفا ، وفرض للعباس عم رسول الله صلى الله عليه وسلم اثنى عشر ألفا ، وفرض لأسامة بن زيد أربعة آلاف ، وفرض لعبد الله بن عمر — ابنه — ثلاثة آلاف . فقال : يا أبت ، لم زدته على ألفا ؟ ما كان لأبيه من الفضل ما لم يكن لأبى ، وما كان له ما لم يكن لى . فقال : إن أبا أسامة كان أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من أبيك ، وكان أسامة أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم منك . وفرض للحسن والحسين خمسة آلاف ألحقهما بأبيهما لمكانهما من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفرض لأبناء المهاجرين والأنصار ألفين ألفين ، فمر عمر ابن أبى سلمة فقال : زيدوه ألفا . فقال له محمد بن عبد الله بن جحش : ما كان لأبيه ما لم يكن لآبائنا ، وما كان له ما لم يكن لنا . فقال : إنى فرضت له بأبيه أبى سلمة ألفين ، وزدته بأمه أم سلمة ألفا ، فإن كان لك أم مثل أم سلمة زدتك ألفا . وفرض لأهل مكة والناس ثمانمائة ثمانمائة ، فمر به النضر بن أنس فقال عمر : افرضوا له ألفين . فقال طلحة : جئتك بمثله ففرضت له ثمانمائة وفرضت لهذا ألفين ؟ فقال : إن أبا هذا لقينى يوم أحد فقال : ما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقلت : ما أراه إلا قد قتل ، فسلّ سيفه وكسر غمده وقال : إن كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قتل فإن الله حى لا يموت ، فقاتل حتى قتل ، وأبو هذا يرعى الشاء فى كذا وكذا . . . فعمل بهذا فى خلافته » .

وهناك نص آخر يشهد على عدل عمر ، إذ يعتبر الأرض التى استولى عليها جيش المسلمين فيئا . قال أبو يوسف « فلما جاء فتح العراق . . . وشاورهم فى قسمة الأرضين التى أفاء الله على المسلمين من أرض العراق والشام ، فتكلم قوم فيها وأرادوا أن يقسم لهم حقوقهم وما فتحوا . فقال عمر رضى الله تعالى عنه : فكيف بمن يأتى من المسلمين فيجدون الأرض بعلوجها قد اقتسمت وورثت عن الآباء وحيزت ؟ ما هذا برأى . فقال عبد الرحمن بن عوف رضى الله تعالى عنه : فما الرأى ما الأرض والعلوج إلا مما أفاء الله عليهم ، فقال عمر : ما هو إلا كما تقول ولست أرى ذلك ، والله لا يفتح بعدى بلد فيكون فيه كبير نيل ، بل عسى أن يكون كلا على المسلمين ، فاذا اقتسمت أرض العراق بعلوجها وأرض الشام بعلوجها فما يسد به الثغور وما يكون للذرية والأرامل بهذا البلد وبغيره من أهل الشام والعراق ؟ » .

ولقد رأى عثمان وعلى وطلحة وابن عمر رأى عمر ، ولكن الفاروق العادل لم يكتف بهذا ، بل أرسل فى طلب عشرة من الأنصار ، خمسة من الأوس وخمسة من الخزرج ، وقال لهم « . . خالفنى من خالفنى ووافقنى من وافقنى ، ولست أريد أن تتبعوا هذا الذى هواى ، معكم من الله كتاب ينطق بالحق ، فوالله لئن كنت نطقت بأمر أريده ما أريد به إلا الحق » وعرض عليهم الأمر « فقالوا جميعا الرأى رأيك فنعم ما رأيت ؛ إن لم تشحن هذه الثغور وهذه المدن بالرجال وتجرى عليهم ما يتقوون به ، رجع أهل الكفر الى مدنهم » فقال عمر « قد بان لى الأمر ، فمن رجل له جزالة وعقل يضع الأرض مواضعها ويضع على العلوج ما يحتملون ؟ » .

هذا ما كان يتبعه الإسلام فى تقسيم الغنائم . ولقد كان من نتيجة ذلك أن تجمعت بالطبع عند الأفراد ثروة فرديه أو ملكية فردية حصلوا عليها من التجارة ومن أخذ أنصبتهم من بيت المال ، ولكن الإسلام فرض أشياء حالت دون تكدس الأموال ودون ظهور نظام الطبقات ، فقانون التوريث الإسلامى ساعد على توزيع الثروة على أكبر عدد ممكن ، ووسع دائرة الانتفاع بها ، فكل أبناء المتوفى لهم حق الميراث ، بعكس القانون الانجليزى مثلا الذى يقضى بانتقال ثروة الأب إلى الابن الأكبر ، وبذلك تظل الثروة مكدسة فى يد فرد واحد من أفراد العائلة

وقول الرسول « لاوصية لوارث » الذى صار بعد ذلك مبدأ فقهيا له حكمة وأية حكمة ، فهو يمنع انتقال الثروة كلها الى أحد الأبناء . أليس فى هـذا اشتراكية معتدلة تجعل العدل والمساواة نصب أعينها ؟

والزكاة التى هى إحـدى أركان الإسلام الخمسة ، قد فرضت على كل ما يمتلك الشخص من أموال وتجارة وزراعة وما الى ذلك من أشياء . وأكبر مثل للمساواه فيها فرضها على الشخص الذى يمتلك قوت يوم وليلة بمناسبة عيد الفطر ، لتعم البهجة وينتشر السرور ؛ قال تعالى « إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل » .

ولقد حبب الإسلام فى الصدقة ؛ قال تعالى « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون ، وما تنفقوا من شىء فإن الله به عليم » وندد بالبخل وحب الشح خشية الفقر ؛ قال تعالى « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم . يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون » . ومجد الإيثار ، قال تعالى « ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » .

ولقد كفل بيت مال المسلمين العيش للمسنين والعاطلين من المرضى ، وللمواليد أيضا ؛ وكلنا يعرف قصة الأم التى فطمت ولدها قبل الأوان ، فلما مر عمر بن الخطاب ليلا وسمعه يبكى واستقصى السبب فعرف أنها فطمته لينال راتبه من بيت المال ، فأصبح الصباح على صوت منادى عمر ينادى فى المسلمين : أن لا تفطموا أولادكم قبل الأوان فإنا سنرتب لهم من يوم ولادتهم ! .

كلمة تقـديرية :

هـذه بعض نظرات سريعه فى الإسـلام كشفت لنا عن نوع من الاشتراكية يمكن تسميته بالاشتراكية المعتدلة ، اشتراكية وجدت فى روح الشريعة السمحة ، وفى سيرة النبى والخلفاء الراشدين . وإن الباحث المـدقق ليلمس آثارها فى كل شىء ؛ فلقد ظهرت روحها فى بعض آثار الفلاسفة والأدباء والشعراء ، ولئن أراد أستاذنا الأكبر ألا ينعت الإسـلام إلا بأنه إسـلام وكفى ، فإنى أرى أن فى قول فضيلته

لفتا لنظر هؤلاء الذين يملئون الدنيا صياحا بأن فى الاشتراكية عدلا ومساواة ، الى أن الإسلام قد حقق مساواة وعدلا يفوق عدلهم ومساواتهم ، فإن كان الإسلام لم يلغ الملكية الفردية ، إلا أنه جعل فيها حقوقا للفقير والبائس والمحروم .

الإسلام إذن هو الإسلام كما قال أستاذنا الأكبر ، فإن وجد فيه الباحثون عدلا وحرية ومساواة تطابق روح الاشتراكية فواجب عليهم أن لا يسألوا عما حقق الإسلام من الاشتراكية ، بل عما حققت الاشتراكية من روح الإسلام . وإذن فيمكننا بدون تعسف أن نغير موضوع مقالنا ـ إذا أردنا أن نعطى الفضل لذويه ، وأن نقلد السابق الأول فى حلبة الآراء قلادة النصر ـ الى : « المبادئ الإسلامية فى النظام الاشتراكى » .

وبعد ، فهذا بحث سريع على هامش رسالتنا الجامعية — كما قدمنا — ويوم أن يسمح لنا بنشر كل ما رأينا ، سيرى حضرات القراء أن الإسلام قد فاق الاشتراكية وأى نظام آخر فى تحقيق المبادئ الإنسانية النبيلة .

****

بديهة موفقة

أقبل أعرابى إلى داود بن المهلب فقال له : إنى مدحتك فاستمع . قال : على رسلك ، ثم دخل بيته وتقلد سيفه وخرج فقال : قل ، فإن أحسنت حكمناك ، وإن أسأت قتلناك . فأنشأ يقول :

أمنت بداود وجود يمينه ... من الحدث المخشىّ والبؤس والفقر
فأصبحت لا أخشى بداود نَبْوة ... من الحدَثان إذ شددت به أزرى
له حكم لقمان وصورة يوسف ... وحكم سليمان وعدل أبى بكر
فتى تفْرق الأموال من جود كفه ... كما يَفْرق الشيطان من ليلة القدر

فقال له داود : قد حكمناك فإن شئت على قدرك ، وإن شئت على قدرى . قال الأعرابى : بل على قدرى . فأعطاه خمسين ألف درهم . فقال له بعض الجلساء : هلا احتكمت على قدر الأمير ؟ قال : لم يك فى ماله ما يفى بقدره ! . قال له داود : أنت فى هذه أشعر منك فى شعرك . ، وأمر له بمثل ما أعطاه .

المنطق اليونانى والمنطق الرمزى

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبد المتعال الصعيدى
المدرس بكلية اللغة العربية

نشرت مجلة الأزهر فى عدد شعبان سنة ١٣٦٧ ﻫ من المجلد التاسع عشر ، مقالا تحت عنوان : (ثورة فى المنطق) وهو للأستاذ الفاضل الدكتور أحمد فؤاد الأهوانى المدرس بجامعة فؤاد الأول ، وقد أشار فيه الى ثورة جديدة توجه الآن نحو المنطق اليونانى ، باسم المنطق الرمزى ، أو الجبرى ، أو العلمى . وكم من ثورة قامت على المنطق اليونانى منذ نقل الى اللغة العربية ، فلما نقل الى اللغات الأوروبية الحديثة ، قامت عليه مثل هذه الثورات ، ولكنه صمد لها كلها ، ولم تُحدث هذه الثورات فى صميمه تغييراً يذكر .

لقد ثار على هذا المنطق بعض علماء المسلمين باسم الدين ، لأنه كان مختلطا ببعض مسائل الفلسفة اليونانية ، فحرموا الاشتغال به من هذه الناحية ، لا لأنه ضار بالدين فى ذاته ؛ ولكن الله قيض له علماء آخرين من المسلمين قاموا بإنصافه ، فجردوه من هذه المسائل الفلسفية التى لا تدخل فى صميمه ، حتى صار علما لا يؤخذ على أنه وسيلة خاصة بتلك الفلسفة ، بل يؤخذ على أنه علم قائم بذاته ، يخضع لحكمه غيره من العلوم ، ولا يخضع لحكم تلك الفلسفة ولا لغيرها ، وقد بلغ تعصب الإمام الغزالى له أنه كان يقول : من لا معرفة له بالمنطق لا يوثق بعلمه .

ثم قامت عليه ثورة أخرى من بعض علماء العربية ، لأنه يعتمد على أصول اللغة اليونانية ، وهى تخالف العربية فى كثير من أصولها ، فلا يمكن أن يقوم هذا المنطق فى العربية كما يقوم فى اليونانية . وقد غفل هؤلاء العلماء عن العلاقة التى تقوم بين المنطق واللغة اليونانية ، فهو لا يتصل بأسلوبها فى المحادثة أو الخطابة أو الشعر ، وإنما يتصل بالأسلوب العلمى الذى ترتب فيه التعاريف ترتيبا خاصا يوصل الى حقائقها ، وترتب فيه المقدمات ترتيبا خاصا يوصل الى نتائجها ؛ وهذا الأسلوب لا يفترق فى اللغة اليونانية واللغة العربية ، ولا فى غيرهما من اللغات البشرية ، لأنه أسلوب يتأثر بأسلوب العلم فى التعريف والتدليل والمناظرة

والحجاج ، والعلم لا يقف عند لغة من اللغات ، بل يجرى حكمه على اللغات جميعا ؛ فشأن علم المنطق فى هذا كشأن العلوم الإلهية والطبيعية والرياضية ، تتفق مسائلها فى جميع اللغات ، ولا تختلف فى لغة منها عن غيرها .

ثم قامت عليه ثورة ثالثة ، فى أوائل النهضة الحاضرة ، يراد منها تقديم المنطق الاستقرائى ، على المنطق القياسى ، لأن المنطق الاستقرائى يعتمد على التجربة ، وقد قامت النهضة الحاضرة على أساس الاعتماد عليها فى العلم ، فليكن المنطق الاستقرائى الذى يعتمد عليها أحق بالتقديم على المنطق القياسى ؛ وبعضهم يغالى فى هذا ، ويجعله هو الأحق باسم علم المنطق ، والمنطق اليونانى يعرف القسمين ، ومنطق القياس فيه هو الذى يعتمد على استنباط الجزئيات من الكليات ، ومنطق الاستقراء فيه هو الذى يعتمد على استنباط الكليات من الجزئيات ، ولكنه كان يهتم بالمنطق الأول أكثر من الثانى ، لأن الكليات التى يعتمد عليها فى الاستنباط مرجعها إلى العقل ، أما الجزئيات التى يعتمد الاستقراء عليها فى الاستنباط فمرجعها إلى الحس ، والعقلُ هو الذى يحكم على الحسّ ، دون العكس ، فيكون ما يرجع إليه أولى بالتقديم ، مما يرجع إلى الحس ؛ على أن كلا منهما له مجاله فى الحكم ، ولو كان مجالها واحدا ، لكان هناك معنى لتقديم أحدهما على الآخر ، وإنما اهتم المنطق اليونانى بمنطق القياس لكثرة أحكامه ، وتنوع مسائله .

وهذه ثورة رابعة على المنطق اليونانى ، وهى ثورة أصحاب المنطق الرمزى ، يدّعون فيها أن المنطق القديم ينظر إلى الأشخاص أو الأفراد ، ثم يجمعها فى النوع ، ويرفع الجنس فوق النوع ، فالنوع كإنسان ، يشمل : سقراط وزيدا وعمرا وغيرهم ، ثم تقول : سقراط إنسان ، ثم تقول : الإنسان حيوان : لأن الحيوان يشمل أنواعا ، منها الإنسان والطير ، إلى آخر أنواعه .

ثم يدعون أن هذه النظرة غير دقيقة ، وغير صحيحة ، لأن الإنسان ليس مجموع سقراط وزيد ، وفلان وفلان ، إذ الواقع أنه لا يتركب من زيد وعمرو ، وليس هذا الشخص وذاك الشخص ، أجزاء من النوع ؛ وإذا كان الأمر كذلك ، فإنه يجب البحث عن أمر آخر بدلا من النوع والجنس .

ولا شك أنهم يخطئون فى نسبة ذلك إلى المنطق القديم ؛ لأن دلالة النوع فيه

ليست من دلالة الكل على أجزائه ، كما يدعون ، وإنما هى من دلالة الكلى على جزئياته ، والفرق كبير بين الدلالتين ؛ وإذا كانت هذه الدعوى غير صحيحة ، فإن ما بنوه عليها فى منطقهم الرمزى يكون غير صحيح أيضا ، وهو إلى هذا من الغموض بحيث لا تظهر له ثمرة كثمرة الجنس والنوع .

وهكذا يدّعون فى ثورتهم على المنطق اليونانى ، أنه يعتمد على الألفاظ ، أما المنطق الرمزى فإنه يعتمد على الرموز ، و هو فى هذا أدق وأحكم ، لأن الرموز منها الثابت كالعدد ـ ١ ـ فإن له معنى لا يتغير مع الاستعمال فى العمليات الحسابية ، ومنها ما يتغير مثل ـــ س ، ص ـــ فإنه متغير لا يحمل معنى مستقرا فى ذاته ؛ فإذا قلنا : هل الواحد عدد صحيح ؟ كان الجواب بالنفى ، أو الإثبات ، ولكنه على أى حال جواب يدل على معنى ، سواء أكان صادقا أم كاذبا ؛ أما إذا قلنا : هل ـــ س ـــ عدد صحيح ؟ فلن يكون للجواب معنى مفهوم ، لأن ـــ س ـــ عدد متغير ، لا يمكن أن يكون له معنى حتى نحدده ، فهذا شأن الرموز ، أما الألفاظ فإنه لا يقال فيها إنها ثابتة أو متغيرة ؛ وبهذا يكون اتجاه المنطق الرمزى إلى أن يجعل التعبير موضوعيا ، وهذا يدنيه من العلم الصحيح ، لأنا نقول : الذهب أصفر ، ونعد هذه القضية صحيحة ذات دلالة تامة ، ولكننا إذا امتحناها نجد الذهب ، ولونه الأصفر ، جزءين من العالم الزاخر بالأشياء والصفات ، وهو عالم شديد التعقيد ؛ وليس لنا أن نحكم بصدق هذه القضية أو كذبها ، إلا إذا نظرنا فى جملة الظروف المحيطة بها ، فالذهب أصفر فى ضوء خاص ، فإذا تغير الضوء تغير اللون . وعلى هذا يكون أصحاب المنطق الرمزى على حق فى نظرهم إلى الحدود ، واعتبار أن بعضها ثابت وبعضها متغير ، فقد رأينا أن الصفرة ليست حدا ثابتا بل متغيرا ، وذلك حسب الظروف المحيطة به .

ولا شك أن المنطق القديم ليس فى شىء من هذه الدعوى أيضا ، لأنه ينظر فى المفهومات لا فى الألفاظ ، ونظره فى الألفاظ بالعرض لا بالذات ، وهو مع هذا يجعل من الصفات ما هو ثابت ، وما هو متغير ، ويسمى الثابت باللازم ، ويسمى المتغير بالمفارق ؛ كما يجعل من الصفات ما هو ذاتى ، لا يمكن إلا أن يكون ثابتا . وما أجدر ما ذكروه فى صفرة الذهب بأن يعد من السفسطة ، وما أجدر المنطق الذى يعتمد على مثل هذا بأن يكون سفسطة باطلة ! ؟

نواحى الاعجاز
فى أخلاق الرسول

لفضيلة الأستاذ الشيخ أحمد شاهين
من علماء الأزهر

باتت السيرة النبوية موضع عناية كثير من قادة الفكر الحر فى الشرق والغرب جميعا : فقد عنوا هنا لك وهنا ببحثها ودراستها على الطريقة العلمية السائدة بين باحثى العصر فى تحقيق الأحداث الإنسانية الكبرى ، وتحليل الشخصيات التاريخية البارزة . وهذه العناية بالسيرة كانت بعض نتائج البعث الثقافى والنهضات القومية فى الشرق الإسلامى الحديث . أما فى الغرب فكانت من مظاهر تحرير الفكر الأوربى من سلطان الكنيسة التى شلّت تقدمه أجيالا ، حتى حطم أغلاله وأدرك استقلاله ، فانبعث ينشد الحقائق المجردة من سائر آفاق المعرفة الإنسانية ، ومنها أفق الحضارة الإسلامية الزاهرة .

وقد وفق لفيف من مفكرى الغرب الأحرار الى فهم جوانب عدة من مدنية القرآن ، وحقائق الدين الحنيف ، وتاريخ خاتم النبيين ، وصدعوا فى أممهم بما أدركوه ثمة من الحقائق والقيم ؛ فعدّل « كارليل » موقف كثير من مفكرى الانجليز من نبى الإسلام العظيم . وطلع « دار منغام » على الفرنسيين بما أدهشهم من مزايا الإسلام وعظمة رسوله محمد . كما انبرى « تلستوى » يدافع بحرارة وإخلاص عن النبى العربى فى العالم السلافى المتعصب . وكذلك أتاحت النهضة الفكرية وحرية الرأى للأوربيين الوقوف على كثير من حقائق الإسلام وحقيقة رسوله الأعظم ، من الظلام الكثيف والمفتريات الخسيسة الشائعة التى حاولت بها الكنيسة تلبيس هذا الدين على الأوربيين ، حتى لا يقضى على سلطانها فى الغرب كما قضى عليه فى المشرق .

ولكن الى أى حد فهم هؤلاء المفكرون المنصفون نبى الإسلام ؟

لقد حال بينهم و بين حقيقة الرسول العربى أن المدنية الإسلامية كانت مدنية عربية خالصة ، فلا يتاح لباحث ما أن يحسن فهمها على وجهها مالم يحسن فهم لغة القرآن وروحها وأسرار بلاغتها . كذلك زاد فى صعوبة فهمها لهذا الرسول تشويه ما نقل من تاريخه الى اللغات الأوربية ، بفعل نفر من صنائع الكنيسة من المبشرين أو أنصار الاستعمار من المستشرقين . زد على ذلك تسلط المنهج العلمى الطبيعى على أولئك الباحثين فى تمحيص التاريخ وتعليل حوادثه ، فهم دائما مقيدون بالظاهر من قوانين المادة وأحكامها فى الشرح والتعليل ، حتى لقد حاولوا تفسير الظواهر الميتافيزيقية فى حياة النبيين تفسيرا ماديا ، ولو أدى ذلك الى الاعتساف ، بل الى التخبط أحيانا ، كما سترى بعدُ حين نعود الى مناقشة هؤلاء الباحثين فى مدى فهمهم لنبي الإسلام ، وإنما ألمعنا هنا الى منهجهم القاصر ، لتأثيره الظاهر على من عالج السيرة من كتّابنا المحدثين .

هذا وإن من سمات الضعف فى دراسات هؤلاء المفكرين المحدثين ، أن الجانب الخلقى من السيرة لم يظفر منهم بما يستحقه من العناية والبحث ، رغم أنه من أبرز العناصر فى شخصية الرسول ، وأغناها بالمعانى والقيم السامية ، وأحفلها بمظاهر العظمة والبطولة ودلائل النبوة ونواحى الإعجاز . ولقد قصصنا عليك فى بحثنا السالف صورة من أخلاقه صلى الله عليه وسلم فى شبابه وقبل مبعثه : فاذا تأملناها الآن فى ضوء العلم وتحت مجهر (السيكولوجيا) الحديث ، سطعت لعينيك معجزة روحية باهرة ، تخلفت بها بعض نواميس الوجود الروحية ، كما تخلفت بعض نواميسه المادية ، بما ظهر على يديه عليه السلام من المعجزات الحسية الجبارة . وآية ذلك أنك لا ترى فى تلكم الأخلاق ما عدّه العلم الحديث العوامل الأساسية فى تكييف الأخلاق والسلوك ، وذلك هو تأثير البيئة وروح الجماعة ، والوراثة ، والغريزة .

اشتهر الرسول فى هذه السن الباكرة بالتواضع والرفق والإخلاد الى الصمت والعزلة . وما كان لهاته الخلال فى بيئته شأن ما ؛ ذلك بأنه نبت فى بيئة صحراوية قاسية بخلت على سكانها بكثير من حاجات العيش الضرورية ، ونأت بهم عن المدنية ، ولم تعمّر فيها الشرائع السماوية على وجهها طويلا ، فأدى ذلك وغيره الى تفكيك الروابط الإنسانية بينهم ، فتفاقمت بينهم سنة تنازع البقاء ، حتى أصبحوا يعيشون

فى إقليمهم عيشة الضوارى والسباع : صراع دائم ، وتناحر مستمر ؛ ومن ثم كان مظهر النجابة فى الشبيبة يومئذ بالشجاعة والمهارة فى أساليب الكر والفر ، أو بالشجاعة والنبوغ فى فنون الشعر والنثر . بهذا كانوا يتقون غارات الألسنة فى المجامع والمحافل ، وبذلك يتقون غارات الأسنة فى معترك الجحافل ؛ وكلما ظهر فى قبيلة شاعر مجيد أو فارس صنديد ، دقت البشائر ومشى إليها أحلافها بالتهانى . فكيف نأى محمد بن عبد الله عن هذا الصراع ، وترفع عن أقرانه من الشباب ، وآثر التمسك والزهد ؟ لقد كان تحصيل الغنائم والمتع بقوة السلاح وسيلة مألوفة من وسائل الكسب ، بل من دواعى الفخر والإعجاب ، فما له لا يساير زمانه ويحاكى أقرانه ؟ إن هنا عواطف وغرائز بطل عملها فى سلوك هذا الفتى القرشى اليتيم . أين غريزة التقليد ومحاكاة النظير والمباراة ؟ وأين عواطف العصبية وحب الظهور والأثرة ؟ لم يكن محمد ضعيفا ولا رعديدا ، ولا بذى عى أو حصر ، وكان من أشرف العرب بيتا وأعلاهم صوتا ، فما الذى صرفه عن مجاراة أمثاله من الشبيبة ؟ وما الذى عقد لسانه عن قرض الشعر أو التغريد به فى المفاخرة والمكاثرة ؟ إن محمدا عليه السلام لم يتلق قبل بعثته من عوامل التربية الخاصة ما يعصمه من تحكم البيئة ، أو يجعل تأثيرها عكسيا ، أو يرقى بغرائزه وعواطفه على أسلوب ما من أساليب الابدال والإعلاء والتسامى .

وهاهنا ، هاهنا تتجلى المعجزة فى ضوء العلم المجرد . كان محمد فى صباه يمقت عبادة قومه وعاداتهم ، على حين كان من أبرز الصفات الوارثية فى بنى قومه التعصب الأعمى للتقاليد وتقديس العرف ، وكان الرجل منهم يتحامل على نفسه ويخالف ضميره وعقله فى سبيل النزول على مقتضيات العرف والتقاليد الموروثة ، حتى وأدوا أفلاذ كبدهم عملا بالعرف السائد .

وهل أنا إلا من غزية إن غوت غويت وإن ترشد غزية أرشد

إنا لنرى هاته المناعة الخلقية فى سلوك محمد هى بعض إرهاص نبوته ، ونواحى الإعجاز فى أخلاقه العظيمة . يؤيدنا فى ذلك العلمُ المجرد ومنطق البحث المحايد ؛ ولكن ذلك مالا يراه بعض الباحثين المعاصرين فى السيرة النبوية ؛ لقد عرض لهاته الظاهرة ، ظاهرة المناعة والتنسك ، فى أخلاق الرسول علمان من أعلامنا المحدثين ، هما أستاذنا الجليل هيكل باشا والأستاذ العقاد ، فحاولا تفسير هذه الظاهرة على

المنهج السالف الذكر ، فقال الأول فى كتابه (حياة محمد) ما نصه : « أما أنه نأى عنها (يعنى خلاعة الشباب) فذلك ما يشهد به التاريخ ، لكنه لم ينأ عنها عجزاً عن النيل منها ، فقد كان الخلعاء المقيمون بأطراف مكة والذين لا يجدون أسباب الرزق إلا الضنك والإملاق ، يجدون الوسيلة إليها ، بل كان بعضهم أشهر من أمجاد مكة وأشراف قريش إمعانا فيها وإدمانا لها ؛ إنما كانت نفس محمد صلى الله عليه وسلم مشغوفة بأن ترى وأن تسمع وأن تعرف ، وكأن حرمانه من التعليم الذى يتعلمه بعض أنداده من أبناء الأشراف جعله أشد للمعرفة تشوقا وبها تعلقاً ، كما أن النفس العظيمة التى تجلت من بعدُ آثارها وما يزال يغمر العالم ضياؤها ، كانت فى توقها إلى الكمال ترغب عن هذا اللهو الذى يصبو إليه أهل مكة ، إلى نور الحياة المتجلى فى مظاهر الحياة لمن هداه الحق إليها ، ولا كتناه ما تدل هذه المظاهر عليه وما تحدث الموهوبين به . كل ذلك ظهر منذ الصبا الأول مظهر الكمال والرجولية وأمانة النفس حتى دعاه أهل مكة جميعاً الأمين » . وقال الثانى فى كتابه القيم عبقرية محمد : « تهيأ للعبادة بميراثه ونشأته وتكونه ، فولد فى بيت السدانة والتقوى ، وتقدمه آباء يؤمنون ويوفون بإيمانهم ، ويعتقدون ويخلصون فيما اعتقدوه ، ونشأ يتيما من طفولته ، فانطوى على نفسه ، وتعود التأمل والجد والعزوف عن عبث الصغار ، والنظر إلى ما حوله بعين الناقد المترفع عن الدنايا ، الجانح الى الطهر واستقامة الضمير » الخ .

إذن فالدكتور هيكل يرى تلك الظاهرة أثر حب المعرفة والكمال ، والشعور بالنقص والحرمان عند إنسان حرمه فقره من العلم والتعليم . ويراها العقاد أثر بيئة صالحة ووراثة خيّرة وتأمل مستمر ؛ ولكن إذا علمنا أن الأمية كانت خصيصة غالبة على العرب فى جاهليتهم ، وأنه لم تكن لهم علوم تذكر ، اللهم إلا معلومات بدائية بسيطة كانوا يتداولونها ويتوارثها الخلف عن السلف ؛ فلم تكن الأمية إذاً مما يعاب على الأميين أو يحط من قدرهم فى تلك البيئة حتى يستشعروا نقصا ، أو تولد لهم عُقدا نفسية تدفعهم إلى محاولة التعويض بأسلوب شاذ ، كالتماس المعرفة بالانقطاع فى شعف الجبال للتأمل والتفكير . فهذا لم يكن طريقا للمعرفة عند القرشيين فى ذلك العهد ، اللهم إلا نفر من مشيختهم ممن أصابوا علما أو نحلة عند أهل الكتاب ..

وإذا علمنا أن نزعة الخير فى النفس وحبها للكمال لا يصرف سلوكها عن الأهداف التى تواضعت عليها البيئة واعتبرتها خيرا ، إذ القيم دائما نسبية ، والبيئة هى أول الاعتبارات فى تقريرها وتحديدها ؛ وإذا علمنا كذلك أن خصائص الوراثة عند الإنسان خاضعة دائما لبيئته ، فهى التى تبرزها وتنميها وتكيفها بطابعها الخاص ، وهذا القانون متخلف فى أخلاق محمد عليه السلام ، إذ أن نسكه حينذاك لم يكن من طراز النسك فى بيئته ، بدليل مقته للأوثان ، على حين لم يكن قومه يجدون غضاضة فى تقديسها ، وقد نصبوها حول البيت لتكون شفعاءهم عند الله تقربهم إليه زلفى . . . كذلك نعلم أن اليتم لا يحمل على الانزواء أو الانطواء من كان على شاكلة محمد من الأبطال العظماء ـ إذا علمنا ذلك كله صعب علينا قبول هذا التفسير من أستاذينا الجليلين : هيكل والعقاد ؛ إذن فلا مندوحة للباحث المحايد الذى ينصف الحقيقة المجردة من التسليم بهذا التفسير الحق الوارد فى حديث القاضى عياض المتقدم فى صدر بحثنا السالف ، وذلك هو العصمة ، وإلا فعهدنا بكل مصلح تنكر لأساليب الحياة فى بيئته أن يكون فى ثورته متشبعا بأفكار ومبادىء أخرى ، ولكن محمد بن عبدالله لم يتح له علم ولا معرفة على يد معلم أو مرشد . وههنا سر المعجزة .

كثيرا ما ظهر العباقرة المثاليون والأبطال المصلحون فى البيئات المنحطة ، كما تظهر حجارة الماس وسبائك الذهب فى باطن الأرض بين الثرى والجنادل ، ولكن كما لم نسمع بأن ماسة كريمة أو سبيكة ذهب خالص عثر عليها فى منجمها وهى مصفاة مصقولة قد صيغت حلية بديعة دقيقة الصنع وذلك من غير أن تمتد إليها يد من قبل ، كذلك لم نسمع ولا سمع التاريخ أن عبقريا قد ظهرت عبقريته وخصائص نبوغه دون أن تتناوله عوامل التربية المختلفة ، إلا محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ؛ إلا هذا الفتى الأمى الذى نشأ فقيرا يتيما بين سخافات الجاهلية وخرافات البدو الهمجية ، ثم كان على هذا السمو النفسى والخلق العظيم . إن الذين ذهبوا إلى أن الفطرة فى أصلها خير محض لا ينكرون أن إهمالها وتعرضها للمؤثرات الفاسدة يفسدها ، كالأرض الطيبة إذا أهملت سبخت وأنبتت الطفليات . وهاهنا تتجلى المعجزة ، معجزة العصمة التى رمز إليها شق الصدر ، وأظهرها حديث القاضى ، وشهد بها العالم ، ودل عليها الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله « أدبنى ربى فأحسن تأديبى » .

المسئولية الادبية

لفضيلة الأستاذ منصور رجب
المدرس بكلية أصول الدين

يخالف الإنسان القانون فيسرق ، أو يغصب بالقوة ، أو يقتل ، أو يشهد الزور ، فماذا يحصل ؟

يحصل أن تسأله الدولة عن هذه المخالفات التى ارتكبها ضد المواطنين الذين ترعاهم ، ثم يقدم للقضاء فيحكم القاضى عليه بالعقوبة التى فرضها القانون ، وقدرها على من يعصى أمره ويضر غيره من الناس . وهذه المسئولية تسمى المسئولية القانونية ، أو المسئولية الاجتماعية ؛ لأن المخالفات فيها ارتكبت ضد القوانين الوضعية التى جاءت لتنظيم مصالح الأفراد فى علاقاتهم المتبادلة بعضهم مع بعض فى الجمعية الإنسانية .

ويحصل أن ترى ناسا من عباد الله يئنون تحت نير الفقر ، والجهل ، والمرض ، ويراهم عبد من عباد الله يكنز الذهب والفضة ، يسره أن يراها كل يوم تزداد وتزداد ، ولا يسره بل يخيفه أن ينزل عن شىء منها لتخفيف ويلات هذه الإنسانية المعذبة ؛ فهل يسأله القانون عن هذا الشح كما يسأل السارق ، والغاصب ، والقاتل ، وشاهد الزور ، ثم يفرض عليه عقوبة لعدم إحسانه على عباد الله ، وامتناعه عن أداء خدمة المحتاج وهو قادر على أدائها ؟ !

ويحصل أن تساعد إنسانا فى مسألة ما ، فتضيع من وقتك ، وراحتك ومالك أحيانا حتى تقضيها له ، ثم لا يلبث أن يجحد هذا الجميل ، ويكفر بهذه النعمة ، ويقلب لك ظهر المجن ؛ فهل يسأله القانون ، كما يسأل ذلك السارق ، والغاصب ، والقاتل ، وشاهد الزور ، ثم يفرض عليه عقوبة لجحده النعمة ، وكفره بهذا الجميل ؟ لا .

غير أن ذلك البخيل ، وهذا الجاحد للجميل ، وإن لم يسألا أمام المحاكم الوطنية لمخالفتهما القوانين الوضعية ، فإنهما مسئولان أمام قانون آخر ليس

كذلك القانون ، وفى محكمة أخرى ليست كتلك المحكمة . . . ذلك هو قانون الأخلاق ، وتلك هى محكمة الضمير الإنسانى ، وهذه المسئولية تسمى المسئولية الأدبية ، أو المسئولية الأخلاقية .

والإلزام فى المسئولية القانونيه أو المسئولية الاجتماعية آت من سلطة خارجة عن ذات الشخص ؛ تلك هى سلطة القانون الذى يحرم ، والدولة التى تعاقب ؛ وفى المسئولية الأدبية أو المسئولية الأخلاقية ترى الإلزام آتيا من سلطة داخلية ذاتية غير خارجة عن الشخص ؛ تلك هى سلطة الضمير الإنسانى الذى يأمر وينهى ، ويعاقب ويثيب .

وعلى هذا فالإنسان مسئول أدبيا أو أخلاقيا عن أعماله جميعها من ألفها إلى يائها أمام محكمة الضمير ، وما هو إلا محكمة استئناف كبرى ترجع إليها كل أعمال الإنسان ساعة بعد ساعة ، ويوما بعد يوم ، عامة أو خاصة كانت هذه الأعمال . وليس الأمر كذلك فى دائرة المسئولية القانونية أو المسئولية الاجتماعية . فبينما ترى القانون الأخلاقى فى دائرة المسئولية الأدبية يقضى على الإنسان بفعل كل ما فيه منفعة الأمة ومنفعته الشخصية ؛ بينما ترى هذا ، ترى القانون الوضعى فى دائرة المسئولية القانونية لا يشمل إلا المسائل العمومية التى تنظم أعمال الإنسان من جهة علاقته بغيره من الناس ؛ أما سير الأفراد الشخصى فلا يتدخل فيه القانون الوضعى ؛ فهو لا يتدخل إلا حيث يؤذى الناس بعضهم بعضا ، فمركز العلمين علم القانون وعلم الأخلاق واحد ، وهو تنظيم أعمال الإنسان للوصول به إلى الدرجة الممكنة فى السعادة التى هى الخلو من القلق ، والألم ، والاضطراب . لكن محيط أحدهما أكبر من محيط الآخر .

والسبب فى هذا الاختلاف بين العلمين أمران كما يقول « بنتام » فى كتابه أصول الشرائع :

الأول : أن علم القوانين لا يمكن أن يؤثر مباشرة على سير الأفراد الشخصى إلا بالعقوبة ، والعقوبة ضرر لا يجوز الحكم به إلا إذا نتج من إيقاعه خير أكبر منه . وإذا نظرنا إلى كثير من الأحوال الشخصية رأينا أن العقوبة عليها تنتج ضرراً أكبر من ضرر الفعل الذى حكم من أجله على مرتكبه ؛ لأن تنفيذ القوانين

فى مثل هذه الحال يستلزم استعمال وسائل من شأنها إزعاج الخواطر ، وإيقاع الرعب فى الأفكار ، وهو ضرر أشد مما جاء القانون لاجتنابه .

الأمر الثانى . أن علم القوانين محفوف دائما بالخوف من إصابة برىء حال كون المراد معاقبة الجانى ، وهو فى الأحوال الشخصية يصل إلى درجة الخطر ؛ ومنشأ هذا الخطر ما يوجد من الصعوبة فى تعريف الجرائم النفسية ، وتوضيحها والوقوف على كنهها . مثلا : القسوة ، وكفران النعمة ، والخيانة ، والمورابة ، وما شابهها من القبائح ، مرذولة عند الناس ، لكن لا تقع تحت سلطة القانون لتعذر الوقوف عليها تماما ، كالسرقة ، والقتل ، وشهادة الزور ، وغير ذلك .

ومن هنا جاءت ضرورة تمسك الناس بالدين ، واتباع الأخلاق الفاضلة ، إبقاء لحسن الروابط بين الناس ، وحفظاً للنظام العام فى هذه الحياة . فالدين قد سد الفراغ الذى لم يستطع القانون أن يسده ، والدين قد أمر بأشياء لم يستطع القانون أن يأمر بها . فهو ضرورى للاجتماع السياسى ، وهو ضرورى للاجتماع الذى له علاقات يومية وغير يومية . ضرورى لكل ذلك ضرورة الماء للحياة ، ما دام الإنسان أشد قابلية للاجتماع من النحل ومن سائر الحيوانات التى تعيش قطعانا .

لذلك أمر الدين الإسلامى بالإحسان ، قال تعالى : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان » وقال : « وأحسن كما أحسن الله إليك » وقال سبحانه : « إن رحمة الله قريب من المحسنين » .

وما دامت المسئولية الأدبية نتيجة لطبيعتنا الإنسانية ، والطبيعة الإنسانية قد طغت عليها المادية بشكل مزعج ، ولا يمكن الشك ـ كما يقول أرسطوطاليس فى كتابه السياسة ترجمة أستاذنا الجليل مربى الجيلين احمد لطفى السيد باشا ـ « فى أن الدولة هى بالطبع فوق العائلة ، وفوق كل فرد ، لأن الكل هو بالضرورة فوق الجزء ، ما دام أنه متى فسد الكل فليس بعد من جزء ، لا أرجل ولا أيدى ، إلا أن يكون على سبيل المجاز ، كما يقال : يد من حجر ، لأن اليد متى فصلت عن الجسم لا تبقى يداً على الحقيقة ؛ وإن الأشياء لتعرف على العموم بآثارها التى توقعها والتى من شأنها أن توقعها ، فمتى انقطع استعدادها الأولى لا يمكن أن يقال هى أنفسها » .

ما دام هذا وذاك ، وأن الطبع يدفع الناس بغرائزهم الى الاجتماع السياسى ، فمن مصلحة هـذا الاجتماع إذن التوسع فى القانون بفرض عقوبة على من يخالف بعض القوانين الأخلاقية المتعلقة بالإحسان ، إذا امتنع القادر عن أداء خدمة المحتاج وهو قادر على أدائها ، إذا تسبب عن هذا الامتناع ضرر .

وهذه الفكرة نادى بها « بنتام » من زمن ، فلقد قال : « القانون قصّر فيما يجب عليه ، لأنه كان ينبغى أن يعد من الجرائم امتناع شخص عن أداء خدمة المحتاج وهو قادر على أدائها إذا تسبب عن هذا الامتناع ضرر ، كما إذا مر رجل على طريق فرأى جريحا ولم يساعده أو لم يستدع غيره لمساعدته ؛ ومن رأى غيره قابضاً على كأس فيه سم ولم يشعره ؛ ومن رأى شخصا وقع فى وهدة لا يستطيع الخروج منها بنفسه ولم يأخذ بيده . فى مثل هذه الأحوال يجب أن يتداخل القانون بأن يضع عقوبة تشين من ارتكبها أو يضمنه فى ماله بالضرر الذى يمكن إزالته » .

وحتى يضع المشرع هذا القانون ، أدعو إلى تقوية الروح الدينية فى نفوس الشعب ؛ فالقرية فى حاجة الى إصلاح وإصلاح . وبهذه المناسبة تحضرنى حكاية عن الخليفة الأول أمير المؤمنين الفاروق عمر بن الخطاب رضى الله عنه وأرضاه ، رواها الغزالى فى كتابه إحياء علوم الدين ، قال : شهد شاهد عند عمر رضى الله عنه ، فقال للشاهد : ائتنى بمن يعرفك ، فأتاه برجل ، فأثنى عليه خيرا ، فقال له عمر : أنت جاره الأدنى الذى يعرف مدخله ومخرجه ؟ قال : لا ، فقال : كنت رفيقه فى السفر الذى يستدل به على مكارم الأخلاق ؟ فقال : لا ، قال : فعاملته بالدرهم والدينار الذى يستبين به ورع الرجل ؟ قال : لا ، قال : أظنك رأيته قائما فى المسجد يهمهم بالقرآن يخفض رأسه طورا ويرفعه أخرى ؟ قال : نعم ، فقال : اذهب فلست تعرفه ، وقال للرجل : اذهب فائتنى بمن يعرفك .

وبعد ، فإذا كانت الآراء تتعدد بتعدد الرءوس ، وكلما وجد اجتماع وجد شرع ، فأساس حفظ الربط الواقع فى الاجتماع تلك الحكمة الخالدة :

« لا تعامل الناس بما لا تحب أن يعاملوك به » والسلام ؟

المرحلة الثانية

أمام المحكمة الابتدائية وأمام الاستئناف

لحضرة الأستاذ صالح بكير
المدرس بكلية أصـــول الدين

بمجرد عرض القضية أمام المحكمة الابتدائية يتبع فيها ما يتبع فى القضايا العادية . ولكن منذ سنة ١٨٨٦ حظر نشر المرافعات فى دعاوى الطلاق إلا نشر نص الحكم فقط ، ويلاحظ أن طرق الإثبات المعروفة التى تجرى وتحصل بجميع الطرق فى الدعاوى العادية ، لها بعض الخصائص فى دعـوى الطلاق ، فلا يؤخذ باعتراف من أسندت إليه وقائع تكون سبباً للطلاق، فلا يعتبر دليلا كافياً لاحتمال أن يكون هناك تواطؤ بين الزوجين على الطلاق ، بل يجب تحقيق هذه الوقائع للتثبت من صحتها . كما أن شهادة الأقارب والخدم يصح الأخذ بها فى إجراءات التحقيق ، ولكن شهادة الفروع لا تقبل . ويصح الاستشهاد بالخطابات المتبادلة بين أحد الزوجين وبين أجنبى ، ولكن يشترط أن يكون الحصول عليها بطريق مشروع ، فلا يجوز اختلاسها مثلا .

ويجوز للقاضى رئيس المحكمة أن يتخذ إجراءات جديدة للمحافظة على حقوق وأموال الزوجين ، كما يجوز له أن يعدل القرارات السابقة التى أصدرها بهذا الشأن ، وكل هذا إذا دعت ضرورة إليه .

وطرق الطعن فى حكم الطلاق هى كالطرق فى القضايا العادية ، وإنما لها بعض الخصائص ، فمثلاً لا يجوز تنفيذ حكم الطلاق فوراً ، كما لا يجوز لمن صدر ضده الحكم أن يقوم بتنفيذه قبل صيرورته نهائيا ، وذلك بأن ينتظر انتهاء مواعيد الطعن المقررة قانونا .

المرحلة الثالثة

بعد صدور الحكم النهائى يجب نشره وإعلانه بالصحف ، كما يجب تسجيله والتأشير به على هامش عقد الزواج . ويلاحظ أن أثر الحكم بالطلاق يكون من يوم صدوره والنطق به .

آثار الطلاق

تترتب على صدور الحكم بالطلاق آثار كثيرة ، منها ما يرجع إلى الزوجين ، ومنها ما يرجع إلى أولادهما ، ومنها ما يرجع إلى أموالهما ؛ وسنذكر بإيجاز أهم تلك الآثار .

فالذى يرجع إلى الزوجين ، هو أن الزواج ينقضى وينحل ويعود كل من الزوجين إلى الحالة التى كانا عليها قبل الزواج ، فيحمل كل منهما اسمه الخاص ، ويجوز لكل منهما التزوج بآخر مع ملاحظة انقضاء عدة المرأة ، كما يجوز لهما أن يتزوجا من بعضهما ثانياً . وتنقضى التزامات الزوجية والاتفاقات المالية الخاصة بنظامهما المالى ، كما تسقط الحقوق المالية وحقوق الانتفاع بأموال الآخر بالنسبة لمن صدر ضده الحكم ، الى آخر ذلك .

وأما بالنسبة للأولاد ، فالطلاق لا يؤثر فى حالتهم ، فهم يعتبرون أولاداً شرعيين ، ولا تسقط حقوقهم المالية نحو والديهم ، فنجب عليهما نفقتهم وكسوتهم وتربيتهم وتعليمهم ، كما لا تسقط سلطة الوالدين ولا ولايتهم عليهم . وتكون حضانتهم عادة لمن صدر لصالحه حكم الطلاق . ومع ذلك إذا قضت مصلحة الأولاد أن تجعل حضانتهم للزوج الآخر أو لأجنبى ، وللقاضى مثل ذلك بالنسبة لإدارة أموال الأولاد .

الانفصال الجسمانى

الانفصال الجسمانى هو أن يعيش كل من الزوجين بعيدا عن الآخر ومستقلا عنه . وقد بينا فيما سبق أن هذا ما كانت تلجأ إليه الكنيسة حيث لا تجيز الطلاق .

ولما أن شرعت الدولة (فى فرنسا) الطلاق فى القانون المدنى ، كان قد ألغى الانفصال الجسمانى ، ولكنه أعيد ثانية على اعتبار أنه نوع من تهدئة خواطر الزوجين ، حتى يتبصرا فى عاقبة أمر الطلاق قبل الإقدام عليه ، فيصطلحا ويعودا إلى عشرتهما السابقة .

ولكن التجارب أثبتت عدم صحة هذا الرأى نظرا لما شوهدأن حياة الانفصال الجسمانى هى حياة نفاق وشقاق أشد من حياة الزوجية ، وربما تكون سببا (بل هو الواقع) لفساد الأخلاق ، لما يشعر به كل من الزوجين من حرية واستهتار .

وأسباب الانفصال هى عين أسباب الطلاق ، ولا بد من دعوى ترفع أمام القضاء ليصدر به حكم . وتختلف إجراءات دعوى طلب الانفصال الجسمانى عن دعوى الطلاق اختلافا قليلا .

ولا يترتب على حكم الانفصال الجسمانى انقضاء الزوجية ، بل تبقى جميع التزامات الزوجية ما عدا المساكنة معا . ولكل من الزوجين أخذ ماله يستقل به .

وينتهى الانفصال الجسمانى بموت أحد الزوجين ، وبالطلاق لأسباب جديدة غير أسباب الانفصال ، وبالصلح ، وبانقلاب الانفصال إلى طلاق إذا مضى على الانفصال ثلاث سنوات بلا صلح ، ويصدر الطلاق بناء على طلب أحد الزوجين ، ولا يحتاج هذا الطلب إلى إجراءات كإجراءات دعوى الطلاق .

الطلاق فى الفقه الاسلامى

الطلاق فى الفقه الإسلامى هو حل رباط الزوجية الصحيحة فى الحال وفى الاستقبال بعبارة تفيد ذلك ، أو من القاضى بناء على طلب الزوجة .

والطلاق نوعان : رجعى وهو الذى يجيز للزوج أن يعيد زوجته إلى عصمته بدون عقد ومهر جديدين ، وبائن والبائن نوعان : بائن بينونة صغرى وهو الذى لا يجيز للزوج أن يعيد زوجته إلى عصمته إلا بعد عقد ومهر جديدين ؛ وبائن

بينونة كبرى وهو الذى يحتاج فوق ذلك إلى أن تتزوج المرأة زوجا آخر وتطلق منه وتنتهى عدتها ثم تعقد على زوجها الأول عقدا جديدا بمهر جديد .

والطلاق من حيث العبارة صريح وكناية . وأحكام الطلاق مذكورة فى جميع كتب الفقه بإسهاب فلا داعى للإطالة بذكرها . والذى يهمنا هو أن الطلاق فى الفقه الإسلامى يختلف كثيرا عن التشريعات الأخرى تمام الاختلاف . ونحن نتعرض هنا فقط لذكر بعض أحكام لقوانين صدرت أخيرا فى موضوع الطلاق حيث الجارى عليه العمل بالمحاكم الشرعية هو مذهب الإمام أبى حنيفة رضى الله عنه . ولأسباب كثيرة دعت الحكومة لأن تأخذ بعض أحكام الطلاق من المذاهب الأخرى وتصدر بها قانونا ألزمت به المحاكم الشرعية فى اتباعه ، وتتلخص هذه الأحكام فيما يأتى :

(١) لا يقع الطلاق غير المنجز إذا قصد به الحمل على فعل شىء أو تركه لا غير .

(٢) للقاضى أن يفرق بين الزوجين بناء على طلب الزوجة لغيبة الزوج ولكن بشروط خاصة .

(٣) لا يقع طلاق السكران والمكره .

(٤) الطلاق المقترن بعدد لفظا أو إشارة لا يقع إلا طلقة واحدة .

(٥) كنايات الطلاق وهى ما تحتمل الطلاق وغيره لا يقع بها الطلاق إلا بالنية .

(٦) يجوز للقاضى أن يفرق بين الزوجين للضرر بناء على طلب الزوجة ولكن بشروط خاصة . وهذا التفريق يكون طلاقا بائنا .

(٧) يجوز للقاضى أن يطلق على الزوج زوجته لعيب بالزوج ، ولكن بشروط خاصة .

وإلى هنا ينتهى بحثنا الموجز فى أحكام الزواج والطلاق فى الفقه الاسلامى وبعض الشرائع الأخرى . وسنبدأ ببحث جديد خاص بموضوع المعاملات فى كل من الفقه الاسلامى والتشريعات الأجنبية بمناسبة مشروع القانون المدنى المعروض الآن بالبرلمان . وموعدنا بذلك قريبا .

الدين يسر لا عسر

لفضيلة الأستاذ الشيخ ابراهيم على أبو الخشب
المدرس بمعهد القاهرة

يخيل إلى أن بعض الداعين إلى الدين ، والقائمين بحمل رسالته ، هم السبب الأول والأخير ، فى تنفير الراغبين فيه ، بما يصورون لهم من أنه تكاليف كله مشقة ، وفرائض أغلبها يرجع إلى الإعنات والحرج ... مع أن المتتبع لأفعال النبي صلى الله عليه وسلم ، وهدايته لقومه ، وتعليمه لصحابته ، ونهيه فى مناسبات مختلفة عن المبالغة الداعية إلى السأم والملل ، يعتقد تمام الاعتقاد أنه « يسر لا عسر » . وإذا كان هنالك من التكاليف ما يشتمل على المشقة نوعا ما ، فإن ذلك منوط بالاستطاعة « لا يكلف الله نفسا إلا وسعها » . وهذا هو السر فى أن الناس يتفاوتون عند الله سبحانه وتعالى — يوم القيامة — فى الدرجات والمنازل . ولعله معنى قول الصادق المصدوق « فاكلفوا من العمل ما تطيقون » . وقد رأينا القرآن الكريم يعفى الأعمى والمريض والأعرج والشيخ الفانى وذوى العاهات ومن لا يستطيعون أن يقفوا فى ميادين القتال ، من الجهاد . كما رأيناه لا يجعل إنفاق الرجل على أهله ومن هم فى عياله إلا مقدّرا بحسب استطاعته ، ومرتبطا بما يتسع له ماله . وليس ذلك خاصا بهذين النوعين من الواجبات على المسلم ، ولكنه يجعل الأمور ـ دائما أبدا ـ فى حدود الطاقة ، وفى نطاق القدرة .

وهاهم أولاء صحابة النبى رضوان الله عليهم أرادوا أن يحاكوه فى « صوم الوصال » فلم يقرّهم على ذلك ، ونهاهم أعنف النهى وأشده ، مبينا لهم أنهم لا يطيقون ما يطيق ، لأن له من الخصوصيات النفسية والروحية ما يجعله كأنما يبيت يطعمه ربه ويسقيه .

وربما كان فى هذه الحادثة نفسها ما صح عن بعضهم من أن زوجته اشتكت منه ـ إلى جانب هذا ـ أنه لا ينام ، ولا يباشر عملا من أعمال الدنيا ، ولا يقوم

بشىء من خدمة تناط به ، أو تطلب منه ؛ ولهذا كانت دهشته صلى الله عليه وسلم وسؤاله : « ومن يحمل له ؟ » فقال له أحدهم : كانا يا رسول الله نكفيه مؤنة ذلك . فقال : « كلكم خير منه . . » . وقد نصح رسول الله صلى الله عليه وسلم لعبد الله ابن عمرو لما علم عنه أنه يقوم الليل ويصوم النهار بقوله : « صم وأفطر ، وقم ونم وأت أهلك . ! ! » . وفى حادثة تطويل الإمامة فى الصلاة يقول للمطيل : « أفتَّان أنت ، أفتَّان أنت ! » .

وقد يقول قائل : إن ذلك حيث ابتدأت الدعوة والإسلام — حينئذ — غريب عن العرب ، فلم تكن مهمته سوى تأليف القلوب ، وتوحيد الصفوف ، وجمع الكلمة ؛ ولذا كانت التشريعات — على سنة النشوء والتطور — تدريجا ، كما فى تحريم الخمر حيث لم ينه عن شربها طفرة واحدة ، بل تدرع إلى ذلك بالوسائل والطرق التى لا تجعل النهى عنها مخالفاً للطبائع والفطر .

والدعوة التى رسمها القرآن الكريم « بالحكمة والموعظة الحسنة » يجب أن يكون المتصدى لها على شىء من اللباقة والكياسة ، والذوق والسياسة ، والفهم للتشريع — على هذا الوجه — حتى لا ينفّر الناس منه ، ويكون ضرره فى الهداية أكبر من نفعه .

وقد لبَّب عمر رضى الله عنه برجل وساقه إلى النبى عليه السلام ، لأنه استمع إليه يقرأ آية على خلاف ما تلقَّى هو .

وانظر كيف كانت رحابة صدر الرسول الأعظم ، وسروره وبشره ، وفرحه واغتباطه بهذين المتخاصمين : اقرأ يافلان . . اقرأ يافلان ، ويعقب على قراءة كليهما بقوله : هكذا نزلت . ثم يقول « نزل القرآن على سبعة أحرف » . . . وفى هذا مثل رائع من السلوك الذى يجب أن يسلكه الداعى الى الله ، أما العنف والشدة ، والحمق وضيق العطن ، وما أشبه ذلك مما ينفر الناس ويجعلهم شيعا وأحزابا ، فإنى أعتقد أنه ليس من الدين فى شىء .

على أن التكاليف تهدف الى كبح النزوات ، وقمع الأطماع ، وإطفاء نيران الحزازات ، وجعل الترابط بين الأفراد والجماعات قائما على الحب والتآلف ،

والمعونة والتكاتف . . . وللدين معالم ينتهى إليها الضال ، ويلقى عصاه عندها المسترشد ، والحلال بيّن والحرام بيّن ، وما بعد كتاب الله وسنّة رسوله إلا أن تخضع الرقاب ، وتذعن للحكمة وفصل الخطاب . . . .

ولا ننكر أن القانون السماوى لم يترك صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، إنما ننكر التطبيق ، فإنه لا يجمل بالأريب اللبيب أن يقوم فى حلقة من حلقات العوام لا تعرف أركان الإسلام الضرورى ليفسر لها معنى قوله سبحانه : « ثم استوى على العرش » ؛ أو يتحدث متحدث عن مهاترات السابقين فى حقيقة الجن والملائكة ، بين قوم لا يعرفون فرائض الوضوء التى لابد منها لتصح الصلاة ، أو يضنى إنسان فؤاده فى أن صفات الله عين ذاته أو غيرها لمن يدينون بتعدد الأرباب .

وإذا كان الشادى فى الكتابة يبتدىء بحروف الهجاء ، فإن للدين أوليات يتدرج منها المتدينون ، ويعبرها المسلمون . وإذا كان الطبيب لايعالج المريض إلا بالدواء الذى تسيغه أمعاؤه ، وتتحمله معدته ، فإن الواعظ المرشد يجب أن يكون كذلك . ولا نجد نهجه صلى الله عليه وسلم تعدى قوله « فقاربوا وسددوا » . وكأنه فى الحديث : « يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ، ينفون عنه تحريف الغالين ، وا نتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين » كان يتنبأ بما سيكون ، لأن الإسرائيليات التى احتشدت بها بعض الكتب ، واحتفلت لها بعض العقول ، وتناقلها ـ بعد ذلك ـ حثالات الأجيال « كحاطب ليل يجمع الدق والجزلا » تجعلنا نأسف الأسف كله إذا تصورنا كيف أننا نستعرض فى مخيلتنا دعاة ومصلحين فلا نكاد نجد اثنين يتفقان على محجة واحدة ، أو يتلاقيان على مشرع سواء . وبهذا تخلفنا عن قافلة الزمن ، وتأخرنا عن ركب الحياة . . وصدق الله العظيم : « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » .

علماء البلاغة :

سعد الدين التفتازانى

٧٢٢ — ٧٩٢ هـ

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ على محمد حسن العمارى
مبعوث الأزهر إلى المعهد العلمى بأم درمان

نشأته وتصرفه : هو العلامة مسعود بن عمر ، ولد فى تفتازان إحدى قرى خراسان الكبرى ؛ وأخذ العلم عن أكابر العلماء فى عصره ، كعضد الدين الأيجى وقطب الدين الرازى ، وطار ذكره ، ورحل إليه الطلبة ، وصنف (الريحانة) وفرغ منها فى سنة ٧٣٨ وعمره حينئذ ستة عشر عاما ، ثم فارق بلده ، ورحل على عادة العلماء فى تلك العصور ، ونزل كثيرا من البلدان ؛ ونستطيع أن نستخلص من التواريخ التى ذكروها لمؤلفاته ، والبلاد التى ألفت فيها ، طريقة رحلاته ؛ فهو قد نزل أولا (هراة) وألف فيها كتاب (المطول) سنة ٧٤٨ ، وأتم المختصر سنة ٧٥٦ هـ ، وانتقل من هراة إلى (خُوارَزم) وألف فى هذه الحقبة (شرح التوضيح سنة ٧٥٨) و (شرح العقائد سنة ٧٦٨) ثم عاد إلى هراة ، وألف (فتاوى الحنفية سنة ٧٦٩) ثم عاد إلى خوارزم ، وألف (حاشية العضد سنة ٧٧٠) ومنها رحل إلى سرخس وفيها ألف (مفتاح الفقه سنة ٧٧٢) ثم عاد إلى خوارزم وألف (رسالة الإرشاد سنة ٧٧٤) ، وذهب بعد ذلك إلى سمرقند حيث ألف (المقاصد وشرحه سنة ٧٨٤) ، ثم عاد الى سرخس ، وألف (شرح تلخيص المفتاح سنة ٧٨٦) وعاد الى سمرقند ، وألف (حاشية الكشاف سنة ٧٨٩) بظاهر سمرقند . ويختلف المؤرخون بعد ذلك ؛ فيرى جماعة منهم أنه مات بسمرقند ثم نقل الى سرخس بعد ثلاثه أشهر ، ويذكر (خواندمير) أن المقام استقر بالتفتازانى فى خُوارَزم .

ونلاحظ من هذا السرد لكتبه أنه شرح التلخيص للخطيب القزوينى ثلاث مرات : فى سنة ٧٤٨ و ٧٥٦ و ٧٨٦ ، والذى نعرفه أنه شرح تلخيص المفتاح فى كتابيه المطول والمختصر ، وأما كتابه الثالث فى البلاغة فهو (شرح القسم الثالث من المفتاح) فلعل ما ذكر فى سنة ٧٨٦ هو هذا الكتاب . كما يبدو أن هذه الرحلات كان سببها — مع شغفه بالمعرفة — سوء حاله فى بلده ؛ فإنه كان يشكو مر الشكوى فى مقدمات كتبه ، ومن ذلك ماذكره عن المختصر ، فقد قال إنه ألف كل سطر منه فى بلد ، قال فى مقدمته : « فانتصبت لشرح الكتاب على وفق مقترحهم ثانيا ، ولعنان العناية نحو اختصار الأول[1] ثانيا ، مع جمود القريحة بصر البليات ، وخمود الفطنة بصرصر النكبات ، وترامى البلدان بى والأقطار ، ونبو الأوطان عنى والأوطار ، حتى طفقت أجوب كل أغبر قاتم الأرجاء ، وأحرر كل سطر منه فى شطر من الغبراء .

يوما بحزوى ويوما بالعقيق وبالـ ـعذيب يوما ، ويوما بالخليصاء

ولعله قدم بذلك الى اتصاله بمحمود جانى بك ، الذى لقى فى ظله الأمان ، وقدم إليه هذا الكتاب ، وقد اتصل بتيمورلنك . ويقول (ابن عرب شاه) : كان التفتازانى كقطب الدين الرازى من العلماء الذين اجتذبهم بلاط مغل القفجاق الغربية .

وقد كانت رحلته الى سمرقند باستدعاء تيمورلنك له عندما استولى عليها ، فإنه دعاه وأغدق عليه كثيرا من النعم ، وقربه من مجلسه ؛ وفى حضرة تيمورلنك جرت المناظرة المشهورة بينه وبين تلميذه السيد الشريف الجرجانى .

عصره : عاش السعد فى القرن الثامن الهجرى ، وهو عصر ركدت فيه ريح العلم ، وقل الابتكار فى التأليف ، وأصبحت الكتب تدور حول ما ألفه القدامى ، شرحا وتحشية وتقريرا ، واختصارا . وليس معنى هذا أن هذا العصر لم يكن فيه نابغة ، بل كان فيه جماعة من الأفذاذ ، وحسبنا فيلسوف العربية ابن خلدون ؛ ولكن معناه أن الهمم كانت متقاصرة ؛ ولقد كان العلماء الأعلام يشكون من خمود جذوة العلم ؛ وسعد الدين نفسه يحدثنا عن ذلك فيقول :

(١) يريد بالأول الشرح الكبير وهو المطول .

« ثم رأيت الجمع الكثير من الفضلاء ، والجم الغفير من الأذكياء ، يسألوننى صرف الهمة نحو اختصاره — يريد المطول — والاقتصار على بيان معانيه ، وكشف أسراره ، لما شاهدوا من أن المحصلين قد تقاصرت هممهم عن استطلاع طوالع أنواره ، وتقاعدت عزائمهم عن استكشاف خبيئات أسراره » . ثم يقول : « وإن هذا الفن قد نضب اليوم ماؤه فصار جدالا بلا أثر ، وذهب رواؤه فعاد خلافا بلا ثمر ، حتى طارت بقية آثار السلف أدراج الرياح ، وسالت بأعناق مطايا تلك الأحاديث البطاح » .

ومع أن هذا ترديد لما قاله الشيخان الجليلان عبد القاهر والسكاكى ، ومع أننا نقوله الآن ، إلا أنى أعتقد أن أقرب هذه الأقوال الى الواقع هو قول السعد ؛ فإن أقل ما يوصف به عصره هذا الوصف .

أسلوبه وطريقته : كانت طريقة السعد فى التأليف والجدل والمناظرة ، طريقة المناقشة حول الألفاظ ، وتحقيق مدلولاتها ، وإيراد الاعتراضات والأجوبة حول المسائل العلمية ، وهو من العلماء الذين غلبت عليهم طريقة الفلسفة والمنطق ؛ وتكاد تكون مؤلفاته على اختلاف أنواعها صورة لهذه العقلية المنطقية ؛ وقد كان لهذه الطريقة أنصار كثيرون فى عصر السعد وبعد عصره ، كما كان لها عظيم الإجلال والتقدير ، ولا يزال كثير من علمائنا يراها العلم كل العلم ، غير أن ابن خلدون لم تعجبه هذه الطريقة ، كما لم تعجب كثيرين غيره : فقد جاء على لسان بعض من ترجموا له ، بعد أن ذكر أنه كان يدرس فى الجامع الأزهر ، جاء على لسانه هذه الفقرة : « كان يسلك فى إقرائه الأصول مسلك الأقدمين كالغزالى والفخر الرازى ، مع الإنكار على الطريقة المتأخرة التى أحدثها طلبة العجم ومن تبعهم من التوغل فى المشاحة اللفظية ، والتسلل فى الحدية والرسمية اللتين أثارهما العضد وأتباعه فى الحواشى عليه ، وينهى الناقل غضون إقرائه عن شىء من هذه الكتب مستندا إلى أن طريقة الأقدمين من العرب والعجم وكتبهم فى هذا الفن على خلاف ذلك ، وأن اختصار الكتب فى كل فن ، والتقيد بالألفاظ على طريقة العضد وغيره ، من محدثات المتأخرين ، والعلم وراء ذلك كله » .

والحق أنى لا أفهم معنى لأن يأخذ الجم الغفير من العلماء فى تخريج تعبير

للسكاكى أو للخطيب أو غيرهما ، حتى ليوجهوا تقديمه وتأخيره وحذفه وذكره كأن ماجاء فى هذه المؤلفات من النصوص الأدبية التى يعنى بنقدها وتوجيهها ، ثم يطول حول ذلك الجدل والمناقشة والمناظرة ، وقد نصل فى النهاية الى أن المؤلف لم يقصد الى شىء مما ذهبوا اليه ، وإنما هى الشهوة الجامحة فى مضغ الكلام ؛ وصدق ابن خلدون : فان العام وراء ذلك كله .

أما أسلوبه فهو أسلوب أعجمى ألكن اللسان ، عقدت الفلسفة تفكيره ، وشاب المنطق تعبيره ، وظهر ضعف عصره الأدبى فى كتابته ، فنراه يكثر من التلميح والتضمين والتورية والجناس ، والاستعارات المرذولة ، والسجع البارد الممجوج ؛ على أنه لا يخلو فى بعض الأحايين من لمحات أدبية طريفة ، انظر إليه وقد ثقل فى التعبير ، وأسرف فى حشو أسلوبه بالمصطلحات ، قال فى مقدمة المختصر « نحمدك يا من شرح صدورنا لتلخيص البيان فى إيضاح المعانى ، ونور قلوبنا بلوامع التبيان من مطالع المثانى ؛ ونصلى على نبيك المؤيد دلائل إعجازه بأسرار البلاغة ، وعلى آله وأصحابه المحرزين قصبات السبق فى مضمار الفصاحة والبراعة » .

ويسمون هذا حسن ابتداء ، وبالتأمل فى هذه العبارات القصيرة نجد أنه ذكر خمس كتب : التلخيص ، والإيضاح ، والتبيان ، ودلائل الإعجاز ، وأسرار البلاغة ، كما نجد الشرح والبيان ، والمعانى ، والفصاحة ، والبراعة . وانظر إليه وهو يتحدث عن الذين يأخذون من كتبه ويسرقون من تأليفه ، تجده رق بعض الشىء قال : « أما الأخذ والانتهاب فأمر يرتاح له اللبيب ، فللأرض من كأس الكرام نصيب ، وكيف ينهر عن الأنهار السائلون ، ولمثل هذا فليعمل العاملون » . وهو يشير الى قول الشاعر :

شربنا وأهرقنا من الكأس جرعة   وللأرض من كأس الكرام نصيب

ومن الغريب أن أسلوبه فى المطول أسهل وأوضح بكثير من أسلوبه فى المختصر مع أنه ألف الثانى بعد الأول بثمانى سنوات ، ولذلك أرى ــ إذا لم يكن بد من دراسة السعد فى الأزهر ــ أن يستعاض عنه بالمطول فسيجد الطلاب فيه حاجتهم دون رجوع طويل الى الحواشى والتقارير . وعلى العموم فأسلوبه معقد ، ولاسيما

فى علوم البلاغة ، وهى التى تحتاج الى الأسلوب الأدبى المحبب الى النفوس .
ومن شعره :

طويت بإحراز العلوم ونيلها   رداء شبابى ، والجنون فنون
وحين تعاطيت العلوم وشرحها   تبين لى أن الفنون جنون

آراء العلماء فيه : كان للسعد فى عصره منزلة عظيمة ، وكان من شرف العالم أن ينتمى إليه ، بل كان علماء الروم - فيما بعد - يجعلون من جملة أوصاف كبار علمائهم أنه كان يميل إلى ترجيح جانب السعد ، أو إلى ترجيح جانب السيد الشريف . وقد قرأ ابن خلدون ، وهو فى مصر مؤلفات السعد وأثنى عليه فى مقدمته ، فقال : « ولقد وقفت على تآليف متعددة لرجل من عظماء هراة من بلاد خراسان يشهر بسعد الدين التفتازانى ، منها فى علم الكلام وأصول الفقه والبيان تشهد بأن له ملكة راسخة فى هذه العلوم ، وفى أثنائها ما يدل على أن له اطلاعا على العلوم الحكمية ، وقدما عالية فى سائر الفنون العقلية ، والله يؤيد بنصره من يشاء » .

وترجم له ملازاده فقال : « أستاذ العلماء المتأخرين ، وسيد الفضلاء المتقدمين ، مولانا سعد الملة والدين ، ومعدل ميزان المعقول والمنقول ، مفتح أغصان الفروع والأصول » .

وفى ترجمة الشوكانى : « متفرد بعلومه فى القرن الثامن ، لم يكن له فى أهله نظير فيها ، وله من الحظ والشهرة والصيت فى أهل عصره فمن بعدهم مالا يلحق به غيره ، ومؤلفاته قد طارت فى حياته الى جميع البلدان ، وتنافس الناس فى تحصيلها » .

وفى دائرة المعارف الإسلامية للقرن العشرين فى ترجمته : « حجة مشهور فى البلاغة والمنطق وما وراء الطبيعة والكلام وغيرها من العلوم » .

الى الاستاذ الاكبر

« بمناسبة سفر البعوث الثقافية ، إلى الأقطار الإسلامية »

تغنَّت بمأمونٍ — فأغنت — فضائلُه ... فما أنت محصيه ، وما أنت قائلهْ ؟
وما الشعرُ فى روض الثناء ، وهذه ... حمائمُه تدعو به ، وعَنادِلُه ؟
سل الأزهر المعمور ، ينبئْك أنه : ... تجلت دياجيه ، وقرّت بَلابله
وأصبح مأمونا على العلم والهدى ... وقد كاد يَلويه عن الرشد باطله
هو المجد والإسلام ، فاعمل موفَّقا ... فللغد والتاريخ ما أنت فاعله
فلا الدهر يمحوه ، ولا يَجحَدُ جاحد ... ولا بحِلَى الأشعار يزدان عاطله
وقد شملتنا من يديك عَوارفٌ ... هى الغيث وافتْ بالسُّعود مَخايله
توخيتَ فيها الحق والعدل ، فالتقى ... بشكرك محروم النوال ونائله
إذا الحق حِيطت بالوفاء سبيلُه ... فمُحرزه راضى الفؤاد وآملُه
وفيك ضمان أيَّد الفعلُ عهدَه ... ستغمرنا آلاؤه وفواضله

* * *

فيا رجل الإسلام فى حين تلتقى ... أواخرُه جيَّاشةً ، وأوائله
زاهت راية الفاروق فادعَمْ ظلالَها ... بروْح من الإسلام تزهو خَمائله
حبا الدينَ والدنيا شبابا ونائلا ... وقام بأعباء العروبة كاهله
وحولك أجناد إذا ما نثرتَهم ... نظمت خميسا لا تُبارَى مَقاوِله
شباب وشيب ثَقَّف الدينُ منهم ... إذا نزلوا وِرداً تطيبُ مناهله
بيمنك يغزون الوجود مَطالعاً ... فيُشرق داجيه ، ويخضرُّ ماحله
سترضيك إخلاصا ، فإنك مخلص ... ومن يصل الإسلام ، فالله واصله

كلية اللغة العربية عبد الجواد رمضان

السنة النبوية الشريفة

ومنزلتها من الدين وضرورة العمل بها

والإنكار على من ردها

لحضرة الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقى

الفصل العاشر

أقسام الصحيح ودرجة أحاديث البخارى ومسلم

جاء فى مقدمة ابن الصلاح ص ١٢ :

أعلى أقسام الصحيح هو الذى يقول فيه أهل الحديث كثيراً : « صحيح متفق عليه » يطلقون ذلك ويعنون به اتفاق البخارى ومسلم ، لا اتفاق الأمة عليه ؛ لكن اتفاق الأمة عليه لازم من ذلك ، وحاصل معه ، لاتفاق الأمة على تلقى ما اتفقا عليه بالقبول . وهذا القسم جميعه مقطوع بصحته ، والعلم اليقينى النظرى واقع به » . ا هـ .

وقال أيضا فى ص ١١ :

قال الحافظ أبو نصر الوابلى السنجرى : أجمع أهل العلم ، الفقهاء وغيرهم ، على أن رجلا لو حلف بالطلاق أن جميع ما فى كتاب البخاى مما رُوِى عن النبى صلى الله عليه وسلم قد صحّ عنه ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم قاله لاشك فيه ـ أنه لا يحنث ، والمرأة بحالها فى حبالته .

وجاء فى حجة الله البالغة ـ الجزء الأول ص ١٠٦ :

أما الصحيحان فقد اتفق المحدّثون على أن جميع ما فيهما من المتصل

المرفوع صحيح بالقطع ، وأنهما متواتران إلى مصنفيهما ، وأنه كل من يهون أمرهما فهو مبتدع ، متبعٌ غير سبيل المؤمنين . ا هـ .

وقال الأستاذ أحمد محمد شاكر ناشر كتاب اختصار علوم الحديث للحافظ ابن كثير ص٢٢ :

الحق الذى لا مرية فيه عند أهل العلم بالحديث من المحققين ، وممن اهتدى بهديهم وتبعهم على بصيرة من الأمر ، أن أحاديث الصحيحين صحيحة كلها ، ليس فى واحد منها مطعن أو ضعف ، وإنما انتقد الدار قطنى وغيره من الحفاظ بعض الأحاديث ، على معنى أن ما انتقدوه لم يبلغ فى الصحة الدوجة العليا التى التزمها كل واحد منهما فى كتابه ؛ وأما صحة الحديث فى نفسه فلم يخالف أحد فيها ، فلا يهولنك إرجاف المرجفين ، وزعم الزاعمين ، أن فى الصحيحين أحاديث غير صحيحة ؛ وتتبعْ الأحاديث التى تكلموا فيها وانقدها على القواعد الدقيقة التى سار عليها أئمة العلم واحكم عن بينة ، والله الهادى الى سواء السبيل . ا هـ .

وقال الحافظ ابن كثير فى كتابه اختصار علوم الحديث ص ٢٣ :

(حاشية) ثم وقفت بعد هذا على كلام لشيخنا العلامة ابن تيمية مضمونه : أنه نقل القَطْعَ بالحديث الذى تلقته الأمة بالقبول عن جماعات من الأئمة ؛ منهم القاضى عبد الوهاب المالكى ، والشيخ أبو حامد الإسفرائينى ، والقاضى أبو الطيب الطبرى ، والشيخ أبو إسحق الشيرازى ، من الشافعية ، وابن حامد ، وأبو يعلى بن الفراء ، وأبو الخطاب ، وابن الزاغونى وأمثالهم ، من الحنابلة ؛ وشمس الأئمة السرخسى ، من الحنفية .

قال : وهو قول أكثر أهل الكلام من الأشعرية وغيرهم ، كأبى إسحق الإسفرائينى وابن فورك .

قال : وهو مذهب أهل الحديث قاطبة ، ومذهب السلف عامة . »

الفصل الحادى عشر

صحيح الإمام البخارى وما قيل فيه

جاء فى مقدمة ابن الصلاح ص ٨ :

فقد روينا عن البخارى أنه قال : ما أدخلت فى كتاب الجامع إلا ما صح ، وتركت من الصحاح لملال الطول . اه . وقد قال البخارى : أحفظ مائة ألف حديث صحيح ومائتى ألف حديث غير صحيح . وجملة ما فى كتابه الصحيح سبعة آلاف ومائتان وخمسة وسبعون حديثاً بالأحاديث المكررة ، وقد قيل إنها بإسقاط المكررة أربعة آلاف حديث . اه .

وجاء فى طبقات الشافعية الجزء الثانى ص ٦ :

عن محمد بن حمدونة يقول : سمعت محمد بن إسماعيل يقول : أحفظ مائة ألف حديث صحيح ، وأحفظ مائتى ألف حديث غير صحيح.

وفى ص ٧ :

قال شيخنا أبو عبد الله الحافظ : رُوِىَ من وجهين ثابتين عن البخارى أنه قال: أخرجت هذا الكتاب من نحو ستمائة ألف حديث وصنفته فى ست عشرة سنة ، وجعلته حجة فيما بينى وبين الله تعالى . ا ه

وأقول أنا : قد عددت أحاديث البخارى الأصلية (جامع مسانيد صحيح البخارى) فوجدتها ٢٦٠٥ بغير المكرر .

تنبيه

« لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم » .

وردت هذه الآية فى هذا البحث فى العدد السابق ص ٨٥٨ خطأ ، وصحتها ما ذكر هنا .

أبو القاسم الزمخشرى

٥٣٨ هـ

فضيلة الأستاذ الشيخ محمود النواوى
المدرس بمعهد القاهرة

حدانى أن أكتب فى الزمخشرى « تفسير الكشاف » ؛ فقد بدأت أقرأ فيه بشىء من التروية ، وكان يحفزنى اليه علمى بما لصاحبه من فحولة فى البيان ، وإمامة فى البصر بتصوير القرآن . فكنت أجد اليه حنينا فى النفس ، وطربا فى القلب ، حتى استطعت أن أخلص للنظر فيه من بعض تلك الشواغل التى لا تهادن ، وذلك الفضول الذى لا يكاد يفارق ؛ فإذا الأسلوب المونق ، واللفظ الرائق ، والعبقرية الخارقة ؛ وأحببت أن أتقدم بتصوير ما أجد لقراء مجلة الأزهر الغراء عسى أن أهيج فيهم مشاطرتى هذا الإعجاب ، والغوص على در ذلك الكتاب ؛ ولكننى آثرت أن أبدأ بالتصوير للمؤلّف قبل تقديم المؤلَّف ، لتصح الرغبة فيما قصدت اليه ، من صادق الإقبال عليه .

فالزمخشرى محمود بن عمر بن محمد الخوارزمى الزمخشرى الإمام الكبير فى التفسير والحديث والنحو واللغة وعلم البيان ، وأحد رجلين قيل فيهما : لولا الأعرجان ، لضاعت بلاغة القرآن . وثانيهما يوسف بن أبى بكر السكاكى .

والزمخشرى من زمخشر ، إحدى قرى خُوارَزم من بلاد العجم . وقد تعجب حين تعلم أن أولئك الأعاجم هم الذين تولوا اللغة العربية ، وحاطوا الشريعة الإسلامية فرعوها حق رعايتها .

وقد ألهب فى هؤلاء الأعاجم جذوة النشاط شعورُهم بالنقص العنصرى فى نظر العرب ، وحرصهم على أن يكونوا موضع التقدير من الخلفاء والكبراء ، فوصلوا الليل بالنهار ، وجابوا فى العلم الفيافى والقفار ، وكان منهم مفاخر الإسلام والمسلمين ، من أمثال الإمام أبى حنيفة والبخارى والغزالى ، وأمثال ابن المقفع

والصـــولى والجاحظ وابن العميد والصاحب والخوارزمى ، وأمثال سيبويه وعبد القاهر والسكاكى ، وكثير جدا ممن رفعوا شأن العلم والإسلام .

ونشأ الزمخشرى فى نهاية القرن الخامس وأوائل السادس ، فهو من أدباء العصر العباسى الرابع ؛ ذلك العصر الذى ظهرت فيه ثمـار آداب اللغة ، وكانت قد أزهرت فى العصر العباسى الثالث ، وتسابق الناس فيه إلى العلم والأدب ، وكثرت المؤلفات ، وانتشرت المدارس ، وولدت علوم جديدة ، وظهرت مصنفات عظيمة ، أهمها كتب النحو والصرف والبيان التى كان عليها معول العلماء فى نشر هذه الفنون ونقلها الى من بعدهم ، وتفانى فى التحصيل رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع ، فأخصبت اللغة العربية ببحوثهم ، ونضر الله البيان والإيمـان بهم ؛ كالإمام عبد القاهر الجرجانى واضع البلاغة ومؤسس قواعدها ، بكتابيه العظيمين ، وإمام النحو . توفى سنة ٤٧١ . والتبريزى شارح الحماسة والمعلقات وغـيرهما ، توفى سنة ٥٠٢ ، والراغب الأصفهانى مصنف غريب القرآن ومؤلف المحاضرات ، توفى سنة ٧٠٢ ؛ وكالحريرى والميدانى وابن الشجرى والامام الزمخشرى والامام السكاكى والعكبرى وابن الأثير والصغانى وغيرهم ممن أعلوا منار العلم والأدب أيما إعلاء بما دونوا ، وبمن علوا . أحسن الله جزاء الجميع .

ذلك هو العصر الذى كان الزمخشرى أحد رجاله وخريجيه ، ونشأ الزمخشرى فيه وهو على غاية الذكاء وتمـام الاستعداد ، ومنتهى الاجتهاد ، مع دين قويم ، وعقـل سليم ، فـكان إماماً يشار إليه ، وعلما يعشى إلى ضوء هدايته . صنّف فجمع من جواهر العـلم ودرره ، وهذب من أصول النقد والبيان ، وفتح من أكمام الأزهار مالا يهـدى إلى مثله إلا مثله ، وكتب فبذ الـكاتبين ، وأعرق فى تصحيح البيان بما أعيا على المعاصرين . وقال شعرا إلا أنه لم يكن فيه من المبرزين ، كما هو شأن العلماء الأفـذاذ .

وقد عرّف بشىء من تاريخه المؤرخ ابن خلـكان فقال : «الإمام الـكبير فى التفسير والحـديث والنحو واللغة وعلم البيان ، كان إمام عصره غير مدافع ، تشد إليه الرحال فى فنونه ، أخذ الأدب عن أبى منصور نصر ، وصنف التصانيف البديعة ، منها الـكشاف فى تفسير القرآن العزيز لم يصنف قبله مثله ، والمحـاجاة بالمسائل النحوية ، والمفرد والمركب فى العربية ، والفائق فى تفسير الحديث ، وأساس البلاغة

فى اللغة ، وربيع الأبرار ، ونصوص الأخبار ، ومتشابه أسامى الرواة ، والنصائح الكبار ، والنصائح الصغار ، وضالة الناشد والرائض فى علم الفرائض ، والمفصل فى النحو وقد اعتنى بشرحه خلق كثير ، والأنموذج فى النحو ، والمفرد والمؤلف ، ورءوس المسائل فى الفقه ، وشرح أبيات سيبويه ، والمستقصى فى أمثال العرب ، وسوائر الأمثال ، وديوان التمثيل ، وغير ذلك . وكان قد سافر الى مكة حرسها الله وجاور بها زمانا فصار يقال له : جار الله لذلك ، وكان هذا الاسم علما عليه » . انتهى المراد من عبارة ابن خلكان .

وفى كلام الزمخشرى فى مقدمه الكشاف مايدل على أنه كان مرجعا فى حل الغامض ، وموئلا لدراسة آى الكتاب على النهج الذى رسمه ؛ فهو يقول هنالك : ولقد رأيت إخواننا فى الدين من أفاضل الفئة العدلية [١] الجامعين بين علم العربية والأصول الدينية كلما رجعوا الى فى تفسير آية فأبرزت لهم بعض الحقائق من الحجب ، أفاضوا فى الاستحسان والتعجب ، واستطيروا شوقا الى مصنف يضم أطرافا من ذلك ، حتى اجتمعوا الى مقترحين أن أملى عليهم الكشف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل ، فاستعفيت فأبوا إلا المراجعة والاستشفاع بعظماء الدين وعلماء العدل والتوحيد ؛ والذى حدانى على الاستعفاء على علمى أنهم طلبوا ما الإجابة إليه على واجبة ، لأن الخوض فيه كفرض العين [٢] ما أرى عليه الزمان من رثاثة أحواله وركاكة رجاله وتقاصر هممهم عن أدنى عدد هذا العلم ، فضلا عن أن تترقى الى الكلام المؤسس على علمى المعانى والبيان . . . » الخ .

فهذه عبارة تبين ما كان للرجل من إحاطة بغرائب العلم ، ولا سيما فى علمى المعانى والبيان ، وتقاصر همم الأقران عن مجاراته .

والزمخشرى كان على جانب كبير من توثق العلاقة بينه وبين ربه ، ويتجلى لك ذلك فيما كان من مجاورته بالبيت العتيق ، ويبدو لك ذلك فى مسلكه الوعظى الذى سلكه فى مقاماته ، فلم يقبل أن تكون فكاهة أو هزلا كالذى عرف لغيره من المقامات

---

(١) هم المعتزلة وكانوا يسمون أنفسهم أصحاب العدل لأنهم يقولون إن الله لا يقدر القبيح ولا يخلق الشر . (٢) ما : خبر اسم الموصول السابق .

فهى مقامات جمعت من نبل المقصد وإيثار الجد وحسن التوجيه ما دل على همة عالية ونفس كبيرة .

والزمخشرى وإن كان يقول متواضعاً كما روى عنه : أقسم بالله وآياته ، ومشعر الحج وميقاته ، إن الحريرى حرى بأن تكتب بالتبر مقاماته ... فإننا من الناحية الأدبية نرى أن مقامات الزمخشرى قد فاقت مقامات الحريرى عراقة فى البيان وحسن السبك ، وإيثار جانب المعنى على جانب اللفظ ، لأنه أرسخ قدماً ، وأبعد فى ميدان البلاغة مدى . على أن مقامات الحريرى قد أربت على غيرها لغرائب اللغة ونفائس الأدب .

وقد وجه الزمخشرى إلى ناحية الامتياز فى مقاماته وهو يقدمها إلى القارىء فقال « وتوصيتك ألا تمكن منها إلا من يوازيك فى صفتك ، أو يدانيك من أولى الفضل والديانة ، وأن تربأ بها عن أولئك الذين يحسبون أنهم يحسنون ولا يحسنون ، لتكون من العمال بقول عيسى عليه السلام : لا تطرحوا الدر تحت أرجل الخنازير ؛ فان العلم بنقلته يكبر بكبرهم ويصغر بصغرهم . . . وتكايفك ألا تمر على شىء من تلك الأسجاع وغيرها من أبواب الصنعة إلا متأملا وجه تمكنه وثبات قدمه والاستعداد له قبل وروده لتعلم أن ما سماه الناس البديع من تحسين الألفاظ وتزيينها بطلب الطباق فيها والتجنيس والتسجيع والترصيع ، لا يملح ولا يبرع حتى يوازى مطبوعه مصنوعه ، وإلا فما قلق فى أماكنه ، ونبا عن مواقعه ، فمنبوذ بالعراء ، مرفوض عند الخطباء والشعراء .

هذا أسلوب جميل فى ذاته ، ومسلك جليل فى توجيهه ، يدل على نفوذ بصر ، وصحة طبع ، وسمو عبقرية تأبى على التقاليد .

وذكروا أن الزمخشرى كان مقطوع إحدى الرجلين ، وهذا قد يكون من العوامل فى تصحيح دينه وانقطاعه للعلم وصفاء النفس ، فإن المصيبة إذا نزلت بالنفس البشرية ولا سيما إذا شوهت شيئاً من الجمال ، فهى جديرة أن تصرفها عن الدنيا ، وأن تجذبها الى التماس السعادة فى متع روحية كريمة ، واتجاهات هى أحرى أن تعوض النقص الجسدى . ولعل الجاحظ كان من هذا الصنف الذى ألغى كثيرا من متع الحياة فى سبيل متعة النفس والعقل . ويذكر فى سبب قطع رجله ماتحدث به عن نفسه قال : « دخلت بغداد فاجتمعت بالفقيه الحنفى الدامغانى

فسألني عن سبب قطع رجلي ، فقلت : « دعاء الوالدة ؛ وذلك أني كنت في صباي أمسكت عصفورا وربطته بخيط ، ثم أفلت وجذبته فانقطعت رجله بالخيط ، فغضبت أمي ودعت علي بقطع رجلي ، فلما وصلت الى سن الطلب رحلت الى بخارى لطلب العلم فسقطت عن الدابة فانكسرت رجلي » . وهذه الرواية تدل على ما كان من صحة إيمان الرجل وسلامة اعتقاده .

على أن الزمخشري كالسكاكي كان معتزليا ، وكان متعصبا لمذهب الاعتزال . وهذا المعنى صرف كثيرا من الناس عن مطالعة تفسيره والانتفاع بدرره وجواهره .

وفي الحق ما كان ذلك داعيا الى تلك الصرفة ، وما يزال الحق في مسائل الخلاف عند الله سبحانه يفصل فيه . على أنه لم يكن هناك خلاف ذو بال لو أنصفوا ، ولكن شهوة الظفر والانتصار وما أحاط بمسائل الكلام من ظروف سياسية وغير سياسية قد وسع الهوة وأبعد الشقة ، وعقد كثيرا من مسائل هذا الدين السمح . ولعمري لقد اختلف هؤلاء وهؤلاء في مسائل نهى الإسلام عن الخوض فيها ، فزل الجميع وتنكبوا عن الجادّة .

الزمخشري معتزلي كما قالوا ، ولكن ذلك لا يمنع أن نقرأ كلامه وننتفع بما فيه . على أن لهجة الرجل كثيرا ما تكون لهجة حق وسبيل نصح ، لا تخلو من توجيه صالح ، وإصلاح قويم . فاستمع اليه وهو يناقش في تفسير « ويمدهم في طغيانهم يعمهون » ويقول في آخر المناقشة بعد أن خطأ رأى الخصم من ناحية اللغة :

« المعنى الصحيح ما طابقه اللفظ وشهد بصحته ، وإلا كان بمنزلة الأروى من النعام ؛ ومن حق مفسر كتاب الله الباهر وكلامه المعجز أن يتعاهد في مذاهبه بقاء النظم على حسنه ، والبلاغة على كمالها ، وما وقع به التحدي سليما من القادح ، فإذا لم يتعهد أوضاع اللغة فهو من معاهد النظم البلاغية على مراحل » .

وقد ذهب ابن خلدون مذهبا معتدلا لمن يجمد على مذاهب أولئك الكلاميين من الأشاعرة والماتريدية ، فقال وهو يحدث عن التفاسير :

« ومن أحسن ما اشتمل عليه هذا الفن من التفاسير كتاب الكشاف للزمخشري من أهل خوارزم العراق ، إلا أن مؤلفه كان من أهل الاعتزال في العقائد ، فيأتي بالحجاج على مذاهبهم الفاسدة حين تعرض له في آي القرآن ، فصار بذلك للمحققين من أهل السنة انحراف عنه ، مع إقرارهم برسوخ قدمه فيما يتعلق باللسان

والبلاغة . وإذا كان الناظر فيه واقفا مع ذلك على المذاهب السنية محسنا للحجاج عنها فلا جرم أنه مأمون من غوائله ، فليغتنم مطالعته لغرابته فى فنون للسان » .

الزمخشرى كما رأيت مصنف عزيز المادة ، مبدع فى العلوم اللسانية والشرعية ، ثم هو إلى ذلك كاتب بذ الأقران ، وسلم من كثير مما تورط فيه المعاصرون من طغيان المحسنات على البلاغة ، كما ترجم عن ذلك فى مقدمة المقامات ، وذلك لأن الرجل كما قلت نفاذ البصيرة سليم الفطنة واسع الذرع من البيان العربى الصحيح متأثر بقوة ماروى ويحفظ . وتستطيع أن تقرأ فى كتب الزمخشرى لترى كيف كان فحولة بيان وقوة بلاغة يحفل أسلوبه بغزارة المعنى وقوة التأثير ، مع ما يحمل من طابع البديع وجمال الصنعة ، حتى ليخيل الى القارىء أنه ينثر كنانة اللغة العربية بين يديه فيأخذ منها مايحقق الغرض فى وضوح وقوة ، ويخصب الأسلوب به بالجمال والروعة .

ويعجبنى من نثره قوله فى خطبة الأساس وهو يشرح الباعث على وضع الكتاب: « ولما أنزل الله كتابه مختصا من بين الكتب السماويه بصفة البلاغة التى تقطعت عليها أعناق العتاق السبق ، وونت عنها خطى الجياد القرح ، كان الموفق من العلماء الأعلام أنصار ملة الإسلام الذابين عن بيضة الحنيفية البيضاء، المبرهنين على ما كان للعرب العرباء حين تحدوا به من الإعراض عن المعارضة بأسلات ألسنتهم والفزع إلى المقارعة بأسنة أسلهم (١) من كانت مطامح نظره ومطارح فكره الجهات التى توصل إلى تبين مراسم البلغاء ، والعثور على مناظم الفصحاء ، والمخابرة بين متداولات ألفاظهم ومتعاورات أقوالهم ، والمغايرة بين ما انتقوا منها وانتخلوا ، وما انتنوا عنه فلم يتقبلوا » الخ .

هذا أسلوب جزل قوى بليغ مع مايحمل من أثر الصنعة . ولك أن ترجع إلى أدب الزمخشرى وكتاباته فى مختلف كتبه لتظفر بمادة عجيبة وفصح نادرة ومعين فياض

وبعد ، فحسبك من القلادة ما أحاط بالعنق ؛ ولكن لا بد أن أشير قبل مغادرة البحث إلى أن للزمخشرى شعرا لا يقل رصانة عن نثره ، إلا أنه كشعر

---

(١) خبر كان فى قوله كان الموفق

العلماء المبرزين لا يظفر بخيال الشعراء ، بل يغلب عليه المعنى العلمى والحكمة الراشدة ؛ ولعله إلى النظم أقرب منه إلى معنى الشعر المرموق . ومن أجود شعره قوله يصف المتقى :

إذا العيون اجتلته فى بذاذته تعلو نواظرها عنه وتقتحمه
ما زال يستحقر الدنيا بهمته حتى ترقت إلى الأخرى به هممه
فذلك أعظم من ذى التاج متكئا على النمارق محتفا به حشمه

كانت ولادة الزمخشرى يوم الأربعاء السابع والعشرين من رجب سنة ٤٦٧ بزمخشر : وتوفى ليلة عرفة سنة ٥٣٨ بجرجانية خوارزم بعد رجوعه من مكة . تغمده الله بواسع عفوه ورحمته .

من سيرة عمر بن عبد العزيز

لما تولى الخلافة وَفَد إليه الشعراء لتهنئته على عادتهم ، فأقاموا ببابه أياما لا يأذن لهم ، حتى قدم إليه عدى بن أرطاة ، وكانت له عنده مكانة ، فقابله جرير ، وأنشده :

يأيها الرجل المزجى مطيته هذا زمانك ، إنى قد مضى زمنى
أبلغ خليفتنا إن كنت لاقيه أنى لدى الباب كالمصفود فى قَرَن

فلما دخل على عمر قال له : يا أمير المؤمنين : الشعراء ببابك ، وأقوالهم باقية ، وسنانهم مسنونة . فقال : يا عدى ، ومالى وللشعراء ! ثم سأله عمن بالباب ، وكلما ذكر له واحداً ، أنشد له عمر أبياتا نابية من شعره ، وأبى أن يأذن له ، حتى انتهى إلى جرير ، قال له : أو ليس هو القائل :

طرقتك صائدة القلوب وليس ذا حين الزيارة فارجعى بسلام ؟

فإن كان ولا بد فليدخل هذا ، فدخل وأنشده قصيدة ، فلما انتهى منها ، قال له أمير المؤمنين : يا جرير ، لقد وليت هذا الأمر ، وما أملك إلا ثلاثمائة درهم ، فمائة أخذها عبد الله ، ومائة أخذتها أم عبد الله ، يا غلام أعطه المائة الباقية . فقال جرير : والله يا أمير المؤمنين إنها لأحب مال كسبته إلىّ .

صحائف خالدة

هذه رسالة تقع فى ثمانين صفحة حسنة الطبع والإخراج وضعها الأستاذ الفاضل ابراهيم الشورى بالمفوضية السعودية بمصر ، أتى فيها على تاريخ جلالة الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود عاهل العرب العظيم فى عهدنا هذا ، بسط فيها تدبيره فى استرداده لملك آبائه من حوزة ابن الرشيد ، والجرأة الفائقة ، والاستبسال النادر الذى توصل بها هذا الملك العبقرى إلى الفوز على خصمه .

وقد اشتملت الرسالة بعد هذا على تاريخ حياة العاهل العظيم ، وما قام به من سياسة الملك ، وتهدئة روع القبائل ، وتأمين الطرق وتيسير التبادل ، ملما بالأدوار التى تقلبت فيها حياته المباركة من زعامة قبائل نجد الى ملك الحجاز . ولم ينس ما اقتضته هذه الأدوار من الحزم والعزم وحسن السياسة ، ونبالة المقاصد ؛ وهى صفات رفعته الى مستوى كبار القادة فى جيلنا الحاضر .

ولم يغفل المؤلف الفاضل ما امتاز به هذا الملك الجليل من الصفات النبيلة كالرجولة الكاملة ، والسياسة الرشيدة ، والتقوى المحمودة ، وحبه للرعية .

ولم يترك أخص النواحى التى تقدر بها كفايات الملوك من إشرافه على القضاء والإدارة ، وتيسير المعيشة ، وكرمه الذاتى ، وتجرده من الغايات الشخصية .

ولم ينس المؤلف الفاضل أن ينوه بالناحية التى تهم كل مسلم يحب أن يرى الأمة العربية تتابع تاريخها العظيم ، فتصل حاضرها بماضيها فى نشر العلم ، وتهيئة البيئة للمدنية الفاضلة ، فذكر أن أول ما اتجهت إليه رغبته تحضير البدو ، فبنى لهم القرى وساعدهم على الاستقرار ، وجدّ فى جلب المياه الى النواحى التى تفتقر إليها ، وفى تنشيط الصناعة والزراعة والتجارة . وقد أدخل وسائل الانتقال بتمهيد الطرق وإدخال التلفونات الى مدن الحجاز ونجد ، والاستكثار من السيارات .

الخلاصة : أن مايقوم به جلالة الملك عبد العزيز من الأعمال الممهدة لتحضير البوادى من أشق الأعمال ، ولكنها إزاء همة عالية كهمته تتذلل صعابها مع الزمن . فنرجو له عمرا مديدا ، وتأييدا وتسديدا ، ونثنى على مؤلف هذه الرسالة القيمة التى آتتنا بهذه المعلومات الثمينة .

مجلة الأزهر

فهرس

المجلد التاسع عشر

لسنة ١٣٦٧ هـ - ١٩٤٨ م

فهرس

المجلد التاسع عشر

لسنة ١٣٦٧ هـ – ١٩٤٨ م

(ن)

